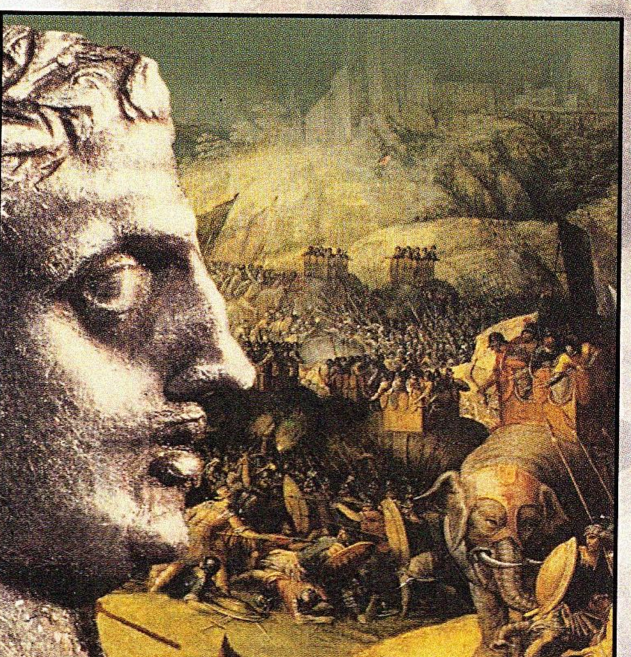
باتريك جيرار

ملحمة قرطاجة

هميلقار هنيبعل
حدروبال



ملحمة قرطاجة

* باتريك جيرار
* ملحمة قرطاجة
* ترجمة: «هنيبعل و حسدروبال» ترجمة ميشيل خوري
«هميلقار» ترجمة هالة صلاح الدين لولو

* الطبعة الأولى 2007
* موافقة وزارة الإعلام رقم 95884
* الناشـــــــر: ورد للطباعـــة والنشــر والتوزيــع
سوريـــة ـ دمشق☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــــع: دار ورد☎ 5141441 ص. ب 30249

باتريك جيرار

ملحمة قرطاجة

«رواية تاريخية في ثلاثة أجزاء»

باتريك جيرار، مؤرّخ ولد في العام 1950، ملحق ثقافي سابق في المركز الوطني للأبحاث العلمية، نشر منفرداً أو بالتعاون مع آخرين عدة مؤلّفات أو مقالات تاريخية. هو حالياً صحافي في مجلة ماريان.

الجزء الأول

هميلقار

«أسد الرمال»

مدخل

تحت خيمة من القماش الأبيض، يحميها طُنُف مزخرف، حاول هميلقار عبثاً النوم. في بداية عصر ذلك اليوم، أصاب القيظ المضني الدواب والناس بالفتور. وفوق أسوار «هيليكيه»(*)، المدينة الإيبيرية التي يحاصرها منذ أسابيع، كان الجنود المراقبون أنفسهم، وقد أنهكتهم ليالي الحراسة، يغفون غير خائفين من عواقب فعلهم هذا. كانوا يعرفون بغريزتهم أن ما من أحد سيجازف ويشن هجوماً في هذا الوقت من النهار. ما من أحد، ولا حتى هميلقار برقا، القائد القرطاجي الأسطوري الذي كان مجرد ذكر اسمه يجمد خصومه رعباً.

لم تكن محاولة القائد القرطاجي اليائسة لطلب النوم إلا بسبب صبيحة نهاره التي كانت قاسية ومؤلمة. فمنذ الفجر حاول المحاصَرون الإغارة عنوة للاستيلاء على بضعة رؤوس من ماشية المعسكر القرطاجي. لكن، مع سريتين من الفرسان القرطاجيين الذين اعتلوا دون سرج أحصنتهم الصغيرة السريعة الاستجابة، ومع بضع مجموعات من المرتزقة الليغوريين(**) والسردينيين(***)، اندفع

(*) هيليكيه: وهي اليوم «إلتشه» في إسبانيا، بالقرب من «أليكانتيه»، حيث عثر عام 1897 على إحدى روائع النحت القرطاجي: «سيدة إلتشه».

(**) ليغوريا: منطقة في شمال إيطاليا.

(***) من جزيرة سردينيا.

هميلقار أمام المهاجمين الذين كانت غالبيتهم من قبيلة «أوريس» الجبلية التي جاءت لمساعدة المحاصَرين.

كان هميلقار قد حدد على الفور ذاك الذي سيكون خصمه الأول: رجل فارع الطول، ذو شعر أشقر، وخد أيمن يحمل ندبة ضربة سيف. ربما اختاره للون شعره غير العادي، أو ربما لأنه كان يبدو قائد العمليات الحربية. لكن، ما إن بدأ بقتاله، حتى أدرك أن تميز مظهره ليس هو الذي أملى عليه انتقاءه، ولا مكانته الرفيعة. إن ما جذبه إلى قتاله كان التصرف الغريب لهذا المحارب الإيبيري. فمن جهة، كان يبدو، جندياً جيداً، عازماً على المقاومة مقاومة الأبطال ويناور بسيفه القصير بعزم عجيب. لكن، من جهة أخرى، كانت نظراته تحمل شيئاً من الغرابة: نظرات ثابتة على نحو يائس كما لو أن الرجل لا يحس ولا يرى ما يحيط به. كان يكتفي بقتال لا تفكير فيه ليبقى حياً، مكرراً حركات أداها مراراً في معارك أخرى.

«لقد وصلوا إلى هذه الدرجة»، هكذا كان يفكر هميلقار وهو يطعن بلا أسف ولا شفقة صدر خصمه بسيفه. في نظرة ذلك المحارب عرف هميلقار شبح الجوع، ذاك الجوع الذي يعذب الرجل ويضنيه من الداخل تاركاً إياه مجرد مظهر من القوة. تلك النظرة كان قد لمحها قبل بضع سنين على وجه أحد الجنود المرتزقة الذي وقع في كمين في مضيق «المنشار» ويومها أمر هميلقار دون رحمة أن تدوسه أفياله مطيعاً أوامر مجلس شيوخ قرطاجة. إنه يتذكر ذاك الرجل «التراقي»(*)، الذي مثله مثل رفاقه، لم يكن قد تناول طعاماً ولا شراباً منذ ثلاثة أيام. هو أيضاً كان يحمل نفس النظرات الشاردة ولم تبدر منه أدنى حركة بينما كانت قائمة الحيوان الصفيق الجلد تطؤه. إنه الآن في العالم الآخر وها هو رفيق آخر جاء ليلحق به.

(*) تراقيا: منطقة تقع بين البحر الأسود وبحر إيجه.

لكن لقاءه وبعيداً جداً عن مضيق «المنشار» بالنظرة نفسها كان بمثابة معلومة قيّمة له. فهي دليل على أن الحصار الذي استمر لثلاثة أشهر، قد شارف على نهايته. وعندما تصبح نظرات الرجال هكذا فهذا يعني أنهم وبعد نفاد آخر مدخرات الحبوب قد لجؤوا إلى مختلف الحيل، لا ليقتاتوا وحسب، وإنما ليملؤوا معدهم: كقضم جلد الرحال أو الأحزمة، وغلي الماء المخلوط بالتراب.

إن هميلقار الحاذق في التخطيط لم تأخذه شفقة بالمحاصَرين. كان مكلفاً بالاستيلاء على المدينة وسينجح في ذلك مهما كلف الأمر. ثم، حتى لو أنها فتحت له أبوابها، فإنه ما كان ليعفو عن سكانها. لسبب وحيد وهو أن يكونوا أمثولة، تدرك بها بقية المدن أن عليها ألا تظهر أدنى مقاومة لهميلقار برقا، القائد الذي انتخبه شعب قرطاجة المحتشد في ساحة «مدينة المدن» الكبرى.

لم يكن يشعر بالرأفة لكن ذكرى نظرة عدوه الأشقر الغريبة منعته من النوم في ساعة القيلولة. ولم يكن لكأسيْ خمرة صقلية احتساهما أي تأثير عليه. بالرغم من أن تلك الخمرة القوية والمسكرة والأجود من خمرة قرطاجة معروفة بخواصها المنومة. كان يعرف ذلك من تجربته حينما كان يلجأ غالباً إليها عقب نهار طويل منهك، تمنعه فيه شدة التعب من الإغفاءة.

* * *

كان ماغون وهو المساعد الأول للقائد العام للجيوش القرطاجية في شبه الجزيرة الإيبيرية، قد دخل لتوه الخيمة. وعلى نحو غريزي، كما في كل لقاء يجمع بينهما وجهاً لوجه، تأكد هميلقار من أن سيفه، المصنوع في ورش قرطاجة، في متناول يده. كان سرّ عظيم يجمع الرجلين على نحو مؤلم منذ سنوات، وأخوَّة السلاح لم تكن كافية لتبدد سوء الفهم بينهما. لم يستطع ماغون، إذ ضبط نظرة هميلقار، وهو يتجه إليه، أن يمنع نفسه من الابتسام. إن

الأسد العجوز ما زال يتمتع بذهن شديد اليقظة! من الأفضل طرق لبّ الموضوع:

- هميلقار، عذراً على تكدير هدوئك لكن الشيخ(*) كارتالون قد وصل لتوّه إلى معسكرنا. ويأمل أن يلقاك بأسرع ما يمكن.

- كارتالون! أأنت متأكد مما تقول؟

- أجل. لقد رأيته شخصياً، إنه ينضح عرقاً ويزفر تعباً، وقد أنهكه جرُّ كرشه ليصل إلى الخيمة التي أمرتُ بإعدادها له.

- أنت تعرف بأني أتوقع أن تكون بعيدة عن خيمتي بعداً كافياً.

- لقد أردتُ أن ألبي رغباتك فجعلتها على بعد أذرع كثيرة منك. سيتوجب عليه أن يمشي بضع مئات من الخطوات ليصل إليك. وعندما يصل سيتحتم عليه التقاط أنفاسه واستعادة رشده. وهذا سيتيح لك أن تسبر أغواره.

- لقد تصرفت بحكمة. أحضره الآن. لا ينبغي أن ينال فرصة الاستراحة.

بينما كان ماغون ينفذ الأمر، كان هميلقار يتخبط في أفكار سوداوية. لم يكن أي قائد قرطاجي ذي مرتبة عالية ليسرّ بزيارة شيخ أو عدة شيوخ لمنطقة العمليات العسكرية. فهؤلاء الشيوخ الذين أغضبهم اضطرارهم في الماضي إلى منح الشعب ميزة تسمية القادة العسكريين، قد انتقموا لأنفسهم بأن مارسوا على هؤلاء القادة أخسّ أشكال المراقبة. فقد كانوا أثناء جولاتهم التفتيشية، وبأجسادهم البدينة المليئة بالشحم، يتفحصون زاد رجال الفرق العسكرية والمرتزقة كما لو أن شكّاً يداخلهم بأن هؤلاء تقدم لهم ألوان طعام هي الأشهى والأطيب. أما محاسبوهم، التابعون لـ «عدير أرقات»، رئيس التقديرات الحسابية، فإنهم كانوا يتفحصون متمحصين

(*) senateur.

مصاريف الجيش، وحسب رأيهم فإن تلك المصاريف لا دور لها سوى تبديد ثروة المدينة. لكن عندما كان الأمر يتعلق بتسديد متأخرات رواتب الجند، فإن أولئك المحاسبين كانوا يتشكّون ويتحسرون، ويقلبون أكفهم مقسمين ببعل حمّون أن خزائنهم فارغة. ولم تكن تنطق شفاهم إلا بكلمة «لا».

لم يكن قدوم كارتالون فألاً حسناً. كان هميلقار يعرفه منذ الطفولة على اعتبار أن عائلتيهما لهما ضياع متجاورة تبعد بعض الشيء عن المدينة. كانا وهما يافعان يلعبان معاً، مختبئين خلف الأدغال الشائكة، بينما كان العبيد الموكلين بحراستهما يبحثون عنهما دون جدوى، أو كانا يستحمان في قنوات السقاية التي يراقبها عمال مطيعون ما إن يفرقع سوط المراقب حتى تنحني ظهورهم.

لكن باعد بينهما بلوغهما سن الرشد. فهميلقار، وعلى خلاف إرادة أبيه، كان قد اختار احتراف العمل العسكري، الأكثر نبلاً في نظره. أما كارتالون الذي كان قد اكتسب سمنة خفيفة فقد رأى أن من الأفضل له البقاء في قرطاجة واستثمار أملاكه التي تغلّ له عشرات التالانات(*) سنوياً. أضف إلى ذلك أنه كان يملك العديد من المراكب الثلاثية والخماسية المجاذيف التي نادراً ما تُشاهد في الميناء التجاري. إذ كانت تجول على الدوام عرض البحر سعياً وراء ثروات صقلية، وسردينيا، وأثينا، والاسكندرية. وكان بعضها يصل حتى إلى صور، العاصمة القرطاجية القديمة التي جاء منها مؤسسو مدينة قرطاجة وجلبوا إليها الإتاوة السنوية العائدة إلى معبد الإله ملقارت(**).

في مجلس الشيوخ لم يكن كارتالون ينتمي إلى أي حزب. كان متحفظاً جداً إزاء هذا الأمر. كان يكتفي بمراقبة واستشعار سير

(*) تالان: وحدة نقد قديمة تساوي 26 كيلو غراماً ذهباً أو فضة.

(**) ملقارت: إله قرطاجي نظير لهيراكليس الإغريقي.

الأحداث. لكن ما إن تبرز غالبية ما، حتى ينضم إليها، لكنه سرعان ما يتركها عند أدنى تعثر يصيبها أو إذا شعر أن رعاع الناس بدؤوا في التذمر. تُرى إلى أي معسكر ينتمي اليوم؟ إن هميلقار الذي كان والده زعيم حزب الحرب كان يعرف أنه عاجلاً سيعلم ذلك، لأن الشيخ ما كان ليقطع تلك المسافة الطويلة رغبة منه في تحية رفيق ملاعب قديم وحسب. وليندفع في مغامرة كتلك، لا بد أن لديه حافزاً قوياً، قوياً جداً، وهو سيبذل قصارى جهده ليخفي ببراعة هذا الحافز.

إن الهياج المفاجئ حول خيمته نبه هميلقار إلى أن كارتالون على وشك إنهاء المسيرة المضنية التي أرغمه عليها ماغون. دخل الشيخ خيمة القائد وهو يقطر عرقاً وأخذ يبحث بعينيه الجاحظتين عن كرسي. كان أشبه بحمار هرم أضناه عدو طويل وينتظر بفارغ الصبر أن تلقى عن ظهره الأحمال. رفض كأس الخمر التي اقترحها عليه هميلقار. إنها لعلامة أولى. إنه حريص على بقاء ذهنه صافياً. وهذا يعني أنه مكلّف بحديث هام. وبعد لحظات من الصمت قرر هميلقار أن يبدأ الكلام:

ـ أهلاً بك، كارتالون، لقد قمتَ بسفر طويل، وهذا ليس من عادتك، مما يضفي أهمية أكبر على زيارتك. فلتشهد أمنا المحسنة «تانيت»(*) أني سررتُ إذ تأكدت من أن مجلس الشيوخ لم ينسني. وهذا يحملني على الاعتقاد بأن المبعوثين الذين كنت قد أرسلتهم وعادوا دون تعليمات قد سهوا عن لقائك.

ـ هميلقار، كيف تجرؤ على التفكير بأن مدينتك جاحدة بك إلى هذا الحد؟ إن الناس في الشوارع لا يتكلمون إلا عنك. وكل سفينة ترسلها محملة بالأموال لا بد أن تثير أحاديثاً ما إن تلقي مرساتها في الميناء التجاري. أما في الحانات فإن عائلات رفاقك تلاحق البحارة بأسئلتها وهم يروون عنك المآثر.

(*) إلهة قرطاجية شهيرة.

ـ هذا يحمل على الاعتقاد بأن الشيوخ يترددون على الخمارات فهم، وإلى حين قدومك إلى هنا، لم يفكروا في أن يستفهموا عن الوضع مني!

ـ هميلقار، إني أقدرك بالغ التقدير لأسمع منك ما قلته آنفاً. إن جموحك سيضرّ بك دوماً. أتعتقد أن من الضروري حقاً أن تزيد من ارتياب البعض منك؟

ـ يا للعجب! كنت أعتقد، حسب ما قلت في البداية، أن قرطاجة تدوي باسمي.

ـ الشعب، يا هميلقار، الشعب. أنت تعرفه جيداً بقدر ما أنا أعرفه. إنه متلوِّن، متقلب الأطوار لا يثبت على حال، مستعد لأن يقدم نفسه لسيد ثم لآخر. إنه يحبك لأنك بعيد عن وطنك. لكن إن عدت إلى حرم آبائنا المقدس ربما سلك مسلكاً آخر. أتذكر ما حصل لحنّون، الأميرال الذي كان يقود الأسطول البحري في صقلية والذي تم صلبه بعد هلاك القسم الأكبر من سفنه في قتال الروم!

ـ إنك تتصرف بالحقائق على هواك! ليس الشعب هو الذي نكَّل به، وإنما أنتم أيها الشيوخ، فقد كان لا بد لكم من العثور على ضحية مكفِّرة. على أي حال، إن تلميحك يثير اهتمامي. ترى هل علي أن أقطع أشجاراً ليرفع منها الصليب الذي ترصده لي؟

ـ هميلقار، هميلقار، صديقي الطيب، إنك تهذي. والقتال ينهكك ويضعف رأيك. إنك تعرف كم تجلّ قرطاجة عائلتك، آل برقا. بعضهم يؤكد أنكم تنحدرون من جدِّ إليسا، تلك الملكة التي أسست مدينتنا والتي نبجِّل ذكراها. ولأبرهن لك عن نيتي الحسنة أقترح عليك شرب كأس من الخمر إكراماً لها. وهكذا سنتقاسم من جديد مشاركتنا القديمة.

لم يتجشم القائد عناء مناداة عبد لخدمتهما. ملأ بنفسه كأسين من البرونز المنقوش بمهارة والمزين برسوم انتصارات ملقارت، ذلك الإله الذي وهب اسمه لآل برقا. رشف هميلقار والشيخ رشفات

صغيرة. كان كل منهما قد استعاد قواه وينتظر الآخر أن يكشف عن نفسه. دخل ماغون الخيمة وقد خالجه قلق من ذلك الصمت الطويل.

- هل لديكما أوامر تأمراني بها؟

- أجل، رد كارتالون بلهجة لاذعة. آمرك بألا تقاطع نقاشي مع النبيل الكريم هميلقار. لدينا الكثير والكثير من الأمور لنبحثها معاً.

نظر ماغون إلى القائد نظرة استفسار، لكن ابتسامة المكر المرتسمة على وجهه طمأنته. من الواضح أن الرجلين يخوضان مباراة صعبة جداً وأنهما في بدايتها وحسب. في هذه المرحلة قد لا يعلم شيئاً ذا بال وسيجازف بأن يجلب لنفسه سخط المنتصر المقبل في تلك المبارزة. من الأجدر إذن أن ينسحب، ولا حقاً سيعرف وسيتصرف حسب ما تقتضيه الظروف.

* * *

- كارتالون، إني أشكرك على الكلام اللطيف الذي قلته بشأن عائلتي، هكذا بدأ هميلقار الحديث. إن عائلتك ليست أقل تألقاً وأنا أول من يقرُّ بذلك. لكن لننتقل إلى لب الموضوع. ما الغرض من شرف زيارتك؟

- قبل كل شيء إنها الرغبة في رؤيتك ثانية بعد كل تلك السنوات الطويلة.

- كان يكفي لأجل ذلك أن تدعوني إلى قرطاجة. فأنا أقل تهيباً للأسفار منك. إن حضورك أنت بالذات يعني أن مجلس الشيوخ لا يرغب في رؤيتي عائداً إلى وطني. لقد فضَّل أن يرسلك بعيداً، وهو يعلم أني سأقدر تقديراً كبيراً الجهد الذي بذلته.

- صديقي، كف عن طعن قلبي بملاحظاتك المتهكمة. حقاً إني لأمقت الأسفار. ومغادرة قرطاجة للذهاب إلى أملاكي في «رأس بون»(*) قد أصبحت بمثابة عذاب لي. وكما قلت لك فإن تلك الأيام

(*) الرأس الأبيض في تونس: Cap Bon.

الطويلة التي قضيتها في البحر آلمتني على نحو خاص. لقد كان أقل صرير من السفينة يجعلني أرتجف رعباً. وفي الليل، لم أذق الراحة أبداً، إلا إذا لجأت للخمر حتى الثَّمل. وكثيراً ما لعنت زملائي الأعزاء الذين استولى الخوف عليهم منك فما تجاسروا على لقائك!

ـ أتسكر، أنت أيها الشيخ! علي أن أذكرك بالقانون الذي وضعه آباؤنا ودونه على الألواح بعل سوفريم، رئيس الكتبة: «إني لا أجيز ممارسة السّكر في هذه المدينة ولا أجيزه للأفراد، لكن وتماماً مثل العرف الكريتي(*) أو الإسبارطي، فأنا سأناصر قانون قرطاجة، الذي بحسبه لا يتناول أحد مطلقاً شراباً مسكِراً في حملة عسكرية وإنما يتم الاجتماع لشرب الماء في المدينة، ولا يتناول مطلقاً عبد، رجل أو امرأة، الخمر، ولا الولاة في عام تكليفهم، وكذلك الملاحون والقضاة في أثناء خدمتهم. وكذلك لا يشربها أي شخص يُستدعى لإبداء رأيه في مداولة ذات أهمية، ولا يتناولها أي كان أثناء النهار، إلا لأجل تدريب أو مرض، وكذلك لا تُشرب الخمر في الليل عندما يرغب رجل وامرأة في الإنجاب».

ـ إنك تعرف جيداً قوانيننا، هميلقار، بما فيها تلك التي لم تعد مطبقة منذ أمد طويل. أنت تعرفها جيداً بما أنك تنتهكها باستمرار. لا يهم ما تعتقده عن جلسات ثملي في السفينة. إني لم أكن لأستحق أن يكبدني زملائي عناء هذا السفر.

ـ لقد أشبعتهم تملقاً، وهم اعتقدوا أنهم يظهرون لك اعترافاً بالجميل حينما أوكلوا إليك هذه المهمة. لن تنال إلا ما تستحقه. ما فتئتَ منذ سنين خلتْ، ولتصبح شخصاً مهماً، تزعق بأنك تعرفني أكثر من أي شخص آخر. لقد صدقوك.

ـ عندما ستعرف ما الذي أتى بي، فإن مزاحك سينحسر.

(*) كريتي: متعلق بجزيرة كريت اليونانية.

ـ حسناً، أعرف الآن أنك لا تنوي الأمر بصلبي. ترى ما هو الأسوأ الذي بوسعي أن أخشاه؟

ـ إن روما قلقة.

ـ ياله من مغنم!

ـ أنت لا تريد أن تعي ما أقوله لك.

ـ أعي ماذا؟

ـ إن وفداً رومياً جاء إلى قرطاجة. يضم أبيوس لوتاتيوس وفلافيوس مارسيانوس بوليوس شخصياً!

غيَّرت تكشيرةٌ وجه هميلقار الصارم. كان يعرف الرجلين في معارك صقلية. إنهما رجلان مخادعان، لا يحترمان كلمتهما، بذرا حولهما الشقاق والفساد. وتكهن هميلقار بما كان قد حدث. إن أكثر عبيده حماقة كان بوسعه فعل الشيء نفسه. عند وصول المبعوثيْن إلى الميناء، استقبلهما شخص اسمه كارتالون يرشح لسانه بالمجاملات والكلام المعسول، وهو يدعو الروميينْ إلى الإقامة عنده في مسكنه المترف في ميغارا، مؤكداً لهما أنه سيصلهما بالعقول الأكثر حكمة وسط مجلس الشيوخ، تلك العقول المناصرة للسلم والتفاهم مع مدينة رومولوس وروموس. لا بد أنه كان قد وفىّ بدقة بتعهداته، حيث أنه كان هناك يتلوى على كرسيه، لا يعرف تماماً كيف يسلِّم رسالة يحملها.

ـ شخصياً! كم ذلك مثير للاهتمام، رد هميلقار. هما أيضاً لا يحبان كثيراً الأسفار حسب ما قيل لي. يا عزيزي كارتالون، لقد شرفاك بزيارتك.

ـ لست أنا من جاءا لزيارته. لقد كانا في مهمة رسمية وقد التمسا استقبال مجلس الشيوخ لهما.

ـ لا أشك أن هذا الأخير قد امتثل لطلبهما.

ـ وماذا كان بإمكاننا أن نفعل غير ذلك؟ نحن في سلام مع روما منذ هزيمتنا البائسة في صقلية.

ـ كان يمكن تجنب تلك الهزيمة. كان ينبغي دفع المال للجنود المرتزقة وكان باستطاعتنا القتال حتى النصر.

ـ ليس هذا موضوع النقاش، هميلقار. إن الروم حانقون عليك.

ـ علي؟ لقد مضى أمد بعيد لم ألتق فيه أحداً من هؤلاء الروم الملاعين وهذا أفضل لهم لأن لدي ثارات أريد أن أنالها. إني أجهلهم قد يتصرفون على النحو نفسه معي!

ـ هميلقار، لا تتشاطر علي. نحن نعلم أنه منذ بضع سنين قد أقبل وفد رومي لرؤيتك في مقر روش لابان «الرأس الأبيض» على مسيرة أيام من هنا.

ـ أنتم تعرفون ذلك لأني حرصت بمنتهى الدقة على إخباركم به. أراد هؤلاء السفهاء معرفة ما كنت أفعله في هذه المناطق. قلت لهم أني كنت أعمل على جمع الثروات لأجل قرطاجة لتتمكن من أن تدفع 4200 تالان فرضتها علينا روما كجزية بعد سقوط صقلية وسردينيا. وبهذا الكلام أخرستهم.

ـ هذا ما تعتقده. وبفضل جهودك انتهينا من دفع المبالغ المتوجبة لروما وهذا فعلاً أمر يقلقهم. إنهم لا يفهمون لمَ تعاند على التشبث بهذه المناطق المعادية وعلى القتال باستمرار لبسط سيطرتك على الأراضي. إن فلافيوس مارسيانوس بوليوس قد أكد لي أن وفداً من سكان هيليكيه كان قد جاء طالباً حماية مجلس الشيوخ الرومي.

ـ إن المحاصَرين الذين استطاعوا مغادرة المدينة منذ أن حاصرتهُا قد قتلهم فرساني النوميديون. ينبغي الاعتقاد إذن أن الروم هم على اتصال مع قوى من العالم الآخر.

ـ اطمئن، نحن لم نصدق كلمة من تأكيداتهم.

ـ إذن، كل شيء يسير نحو الأفضل!

ـ هميلقار، أنت لا تفهم إلا ما تريد فعلاً أن تفهمه، هذا هو عيبك الكبير. إن الوضع أكثر خطورة مما يبدو. في الحقيقة يريد الروم أن يرونا وقد تخلينا عن مواقعنا على هذه الشطآن.

ـ ليس لهم حق في هذا!

ـ سينالون ذلك.

ـ وسنقاوم. منذ أزمان سحيقة أقام هنا جدودنا مرافقاً ومدناً تتكلم لغتنا وتُعبد فيها آلهتنا. أتريد أن أصحبك إلى المرامد(*) المأتمية لهؤلاء الرجال والنساء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل عظمة قرطاجة؟ بعض تلك الأضرحة من القدم بحيث تحولت إلى ما يشبه الأطلال. تلك هي حجتنا وبرهان حقوقنا. إن الروم يريدون طردنا من هنا كما طردونا من صقلية وسردينيا منتهكين المعاهدة التي أبرموها هم أنفسهم. وقريباً سيطلبون منا التخلي عن قرطاجة لأنها تلقي ظلالاً على مجدهم. لكن ماذا كان رد مجلس شيوخنا الشجاع الحكيم على هذين المبعوثيْن؟

ـ لقد استمعنا إليهما وأكدنا أننا قد نطلعهما على جوابنا قريباً.

ـ ألديك فكرة واضحة عما ستكون عليه تلك الإجابة؟

ـ أبداً. إن الشيوخ منقسمون في آرائهم، ومترددون. عليهم أن يأخذوا بحسبانهم رأي السوقة التي تزمجر ضد الروم والتي أوسعت بالشتائم مبعوثيْها حينما كانا يجولان فوق محفّات في شوارع المدينة. إن جمعاً كبيراً من الشعب يناصر القتال. لكن وبالرغم من حمولات السفن النقدية التي ترسلها إلينا، إلا أن الخزينة فارغة وليس لدينا موارد لشن حرب في البر أو البحر. لذا، فإن عدداً من الشيوخ، ومنهم أنا، فكرنا في حل قد يظهر حسن نيتنا مع احتفاظنا بسيطرتنا على هذه المناطق.

(*) مرمدة: إناء يوضع فيه رماد الموتى بعد حرقهم.

ـ وماهو هذا الحل، كارتالون؟

ـ أن تقبل التخلي عن قيادة الجيش وأن تعود إلى قرطاجة حيث سيقوم مجلس الشيوخ بمكافأتك على إخلاصك وتضحيتك.

ـ هذا وحسب! هل لك أن تقول لي كيف سيُطمئن رحيلي أولاد الكلاب هؤلاء؟

ـ لأنك عدوهم اللدود. هم يعرفون أنك قبل الانطلاق في هذه الحملة العسكرية قد حملت ابنك هنيبعل على أن يقسم أمام مذابح آلهتنا بألا يكون يوماً صديقاً للروم. وأدى ابنك هذا اليمين وتباهى بذلك أمام أصحابه. إن كراهية الروم لديكم، آل برقا، تقليد عائلي وإنك لعاجز عن دحض ما أقول.

لحظات مرّت، ولم يعد هميلقار يعير أذناً لكلام كارتالون الوضيع. لقد فهم أن ذاك لم يكن يتكلم باسم مجلس الشيوخ وإنما لأجل مجموعة صغيرة من الأفراد الجافلين. الذين خلطوا مصالح قرطاجة مع رغبتهم في توسيع ثرواتهم الخاصة. لم يكن الشيخ يحمل إذاً أمراً وما كان مكلفاً بمهمة رسمية. ولم يعد لاستمرار محادثتهما أي مبرر. ومع ذلك، فإنه ترك كارتالون يتابع سرد حججه. أما هميلقار برقا، ابن أدونيبعل ووالد هنيبعل، فقد أصبح غافلاً عنه. وأخذت سبحة أيامه تكرّ أمام عينيه.

الفصل الأول

كانت تتردد في المنزل أصداء ضجيج مألوف. فعبيد المطبخ قد هيؤوا وجبة الظهيرة. وآخرون كانوا ينظفون الباحة الداخلية المحاطة بالأروقة(*). ومن بعيد كان يترامى إلى السمع صهيل الخيل في الإسطبل وكذلك صوت تلك المطرقة الضخمة الثقيل وهي تهوي فوق سندان مصهر الحديد. وفي زاوية مخفية قبعت عجوز ثرماء(**) تنسج الصوف بصبر متناه. كانت تبدو وكأنها امتزجت بالحائط الذي استندت إليه، كأنها تريد الإفلات من رقابة المشرف الدقيقة، ذاك الذي يدعى هيميلك، والمشهور بصرامته.

كان رجل يرتدي قميصاً من الكتان الأبيض تعلوه زينة سوداء، في حوالى الأربعين من العمر، يفتش عبر متاهة طويلة من الغرف. إنه إبيسيد، معلم هميلقار برقا، يبحث عن تلميذه لأجل درسهما اليومي. كان الجميع يتنحى جانباً بإجلال لدى مروره بالرغم من وضعه. إذ كان عبداً على غرار عشرات الأفراد الآخرين المستخدمين في الأملاك. كان يونانياً من صقلية، أسره القرطاجيون وبيع في ساحة سوق العبيد، الواقع في المستودعات المجاورة للميناء التجاري. وقد علم أدونيبعل برقا، من النخاس(***) الذي كان يعرفه، أن ذاك الرجل ذا اليدين الناعمتين والجسم المشيق كان مؤدباً لدى

(*) الرواق: ممر مكشوف ومسقوف بعقود على أعمدة.
(**) ثرماء: المرأة التي فقدت أسنانها.
(***) النخاس: تاجر العبيد.

عائلة من أفضل عائلات بانورموس(*). الأمر الذي جنبّه أن يصبح مجذفاً في سفينة أو عاملاً زراعياً خلف محراث تجره ثيران ثقيلة سوداء.

كانت عائلة برقا قد اشترته في السنة التي ولد فيها هميلقار ابناً وحيداً لأدونيبعل وجرملقارت التي توفيت وهي تضع ولدها. كان الرضيع قد أوكل في البداية إلى أَمَةٍ إثيوبية ثم، واعتباراً من عامه السابع، عُهد به إلى إبيسيد بدلاً من مدرسة أبناء الشيوخ المشيدة في حرم معبد إشمون(**). وقد أجاد الطفل على نحو تام اللغة القرطاجية، كما علم المعلم الخاص تلميذه الكتابة والقراءة وكذلك لغته اليونانية. كان فخر المعلم بالنتائج المحصَّلة كبيراً. فابن أدونيبعل اليقظ الذكي لم يكن أبداً ليخيِّب الآمال.

على مرِّ الأيام نشأت بين الأستاذ والتلميذ صداقة حقيقية بالرغم من أن أحدهما كان عبداً والآخر هو ابن شيخ. كان هميلقار يبوح بما في قلبه طواعية لإبيسيد الذي كان يعرف أن يخصص وقتاً كافياً للإنصات إليه. وكانت نصائحه قيمة له على الخصوص في تلك الآونة الأخيرة، سيما بعد الجدال الحاد الذي جرى بين أدونيبعل وابنه. كان الشيخ وهو سليل عائلة ارستقراطية ما فتئ نفوذها يتعاظم يحلم لابنه بمستقبل لامع. فهو يريد أن يكون ابنه أحد أعضاء مجلس المئة والأربعة، المحدد عدده، والذي كان يدير في الواقع المدينة. حتى أنه كان قد كلّف إبيسيد بأن يقرأ ويعلق مع تلميذه على المقطع الشهير لأرسطو الذي بدا فيه الفيلسوف مفتوناً بحكمة المؤسسات القرطاجية عموماً وبمجلس المئة والأربعة خصوصاً. وأدى المعلم تلك المهمة وكان على هميلقار أن يقرأ معه النص التالي:

«عُرف عن القرطاجيين بأنهم منظَّمون تنظيماً جيداً: إنهم

(*) بانورموس: اسمها الحالي باليرمو في صقلية.
(**) إشمون: إله الشفاء عند القرطاجيين.

يفوقون سواهم بكثير من التقدير، ودستورهم هو قبل كل شيء شبيه بدستور اللاكونيين(*)، وفي الحقيقة فإن هذه الأنظمة الثلاثة، نظام كريت، ونظام لاكونيا والثالث، نظام القرطاجيين، أنظمة متقاربة من بعضها ومختلفة كثيراً عن الأنظمة الأخرى. إن العديد من مؤسسات قرطاجة جيدة؛ والدليل على التنظيم الجيد للدستور أنه وبعنصره الشعبي فإن قرطاجة ظلت مرتبطة بنظامها الدستوري ولم يحدث البتة، وهذا أمر جدير بالملاحظة، تمرد شعبي أو اغتصاب للسلطة.

إن هذا النظام فيه مؤسسات شبيهة بمؤسسات الدستور اللاكوني: الاجتماعات المشتركة للجمعيات السياسية الشبيهة بالفيديتيين، هيئة قضاء المئة والأربعة، الشبيهة بهيئة حكام إسبارطة (لكن، بينما يتم اختيار حكام إسبارطة من بين أشخاص أيٍّ كانوا، فإن هيئة القضاة الأخرى يتم اختيارها بحسب الجدارة، وهذا أمر ليس بسيء)؛ وأخيراً الملوك و«مجلس القدامى» وهما نظيران لملوك و«قدامى إسبارطة»؛ لكن هنا، تتجلى الميزة في أن الملوك لا ينتمون إلى نفسها العائلة ولا إلى أي عائلة كانت، وإنما إن كان هنالك عائلة رفيعة المقام، فإنهم يُختارون عن طريق الانتخاب، بدلاً من اختيارهم بحسب العمر، لأن الملوك، إن كانوا تافهين، ما إن يصبحوا أسياد قوى عظمى، حتى يوشكوا على جلب الكثير من الشرور وهذا ما فعلوه سابقاً في مدينة الإسبارطيين».

لم تأت تلك القراءة المثابرة بالنتيجة التي توقعها الشيخ. فابنه، ومنذ أن كان طفلاً، لم يكن يحلم إلا بشيء واحد، أن يصبح عسكرياً ويذهب للمحاربة في صقلية، وسردينيا، أو في تلك الأراضي الواسعة المحيطة بقرطاجة والتي تسكنها قبائل متمردة. وكان هميلقار يرد على إبيسيد قائلاً: «ليس لأرسطوك إلا ميزة واحدة في نظري، وهي أنه كان معلم الإسكندر المقدوني الذي كلمتني عن مآثره المجيدة. تُرى، ومقارنة بتلك المآثر، ما هي الأعمال الباهرة

(*) لاكونيا: إقليم في اليونان.

لعضو من أعضاء مجلس المئة والأربعة؟» لكن هميلقار كان مع أبيه أكثر حدَّة:

ـ لا أريد المستقبل الذي رصدته لي. إنه مناسب تماماً لأبناء تاجر يحلمون بالتحايل على أعلى هيئاتنا القضائية ليرفعوا عالياً اسم عائلتهم. نحن، آل برقا، لا حاجة لنا إلى هذا. إن جدك وأباك كانا قاضيين في قرطاجة، وأنت نفسك عضو في «مجلس القدامى» ومجلس الشيوخ. إن هذين المجلسين لا حاجة لهما بي.

ـ هميلقار، أنت تتكلم كشاب أرعن. ودروس إبيسيد لم تجد نفعاً في شيء. أقسم بملقارت، أني أكاد آسَف على شرائه بثمن غال معتقداً أنه سيحرص على تربيتك وسيجعل منك وارثاً جديراً بسلالتنا. اعلم، إن كانت عائلتنا قد احتلت أعلى مقامات المدينة رفعة، فذلك لأن السلطة هي شرط النجاح. فليكن فلان من الناس أغنى التجار أو أشجع المحاربين، لكنه لن يساوي شيئاً عندنا إن لم يكن عضواً في مجلس الشيوخ. أتظن أن ابنك بمقدوره أن يستعيد خلافتي بعد أن تكون قد أرضيت أهواءك الخاصة بابتعادك عن الشؤون السياسية؟ أبداً. إذ في ذلك الوقت لن يتذكر أحد اسم برقا وستكون مسؤولاً أنت عن نسيانه، وهذا ما لا أستطيع السماح به.

ـ أبي، أتوسل إليك، أريد ان أصبح جندياً.

ـ هذا غير وارد، ولم أعد أريد سماع كلام عن ذاك المشروع الأحمق. علاوة على هذا، فأنا قد اتخذت قراري. ستذهب عصر هذا اليوم إلى ضيعتنا في أسبيس(*)، بالقرب من «رأس بون». لقد كلفته بأن يعلمك إدارة الأراضي ولن تعود إلى قرطاجة إلا بعد أن تثبت أنك أصبحت قادراً على ذلك. هذا قولي ولا نقاش.

لذلك، ومنذ شهور عدة، حلّ هميلقار وإبيسيد في إحدى ضياع

(*) أسبيس: مدينة قرطاجية.

عائلة برقا المترامية الأطراف، وسط بقعة يعتبرها القرطاجيون مخزن غلال مدينتهم. فمنها يجنون القمح، والزيت، والخمر، والفواكه والخضار الضرورية لمعيشتهم.

في بداية الأمر، كان هميلقار وقد أغضبته عقوبة أبيه، منزوياً صامتاً. يمضي أيامه منعزلاً في غرفته، لا يخرج إلا حينما يحين الطعام. لم يكن يتكلم مع معلمه الذي اشتبه في تواطئه مع أدونيبعل. ما هو على أي حال سوى عبد، ورغم كونه مثقفاً إلا أنه يتعرض للسوط ولحبس مديد في السرداب إن هو عصى الأوامر أو جحد فضل الأسياد. تسلى إبيسيد كثيراً باستياء الشاب. فها هو فتى متميز، بخلاف الأرستقراطيين القرطاجيين الآخرين من عمره، الذين أوهنت عزيمتهم البطالة والإسراف في الطعام! كان المعلم قد حسب الزمن الذي قد يستغرقه تلميذه لتنبسط أساريره وليتقبل أخيراً ألمه بصبر: حوالى عشرة أيام، كان تقديره صائباً، بفارق ثماني وأربعين ساعة تقريباً.

ففي صباح اليوم الثاني عشر دخل هميلقار غرفة إبيسيد وقال له بنبرة مبتهجة:

ـ يبدو أن عليك أن تصنع مني فلاحاً. متى تبدأ دروسك؟

ـ حالاً. وبأسلوب ممتع جداً سنقوم بنزهة في حقولك.

ـ إنها حقول أبي.

ـ لكنها ستؤول إليك في المستقبل.

* * *

كان الرجلان وقد امتطيا حصانيهما قد جالا في جزء من الضيعة. كانت تلك تمتد في سهل واسع رصعته الرياض، والجنائن والكروم. ولفت إبيسيد نظر تلميذه إلى أن أقل مصدر ماء قد استُخدم لتغذية شبكة القنوات المبلطة المتعرجة عبر الحقول حيث كان مئات العبيد منهمكين في أعمالهم. كانوا يرتدون أسمالاً من نسيج خشن،

ويعملون تحت نظر مراقبين بأيديهم سياط ثقيلة من جلد الثور يفرقعونها في أوقات منتظمة ليثيروا نشاط اليد العاملة. كان الرجال شاحبي السحنات وقد استحالوا هياكل من شدة ضعفهم، أما النساء، اللواتي كانٍ منهن من تحمل أطفالاً فوق ظهرها فلم يكن مظهرهن أفضل حالاً.

ـ أترى، هميلقار، قال إبيسيد، كان من الممكن أن أكون واحداً من هؤلاء التعساء.

ـ لكنك لست كذلك.

ـ إني أشكر دوماً أباك أدونيبعل على هذا. لكن اعلم أن ثروة قرطاجة وثروتك الخاصة هما ثمرة كدِّ هؤلاء الناس.

ـ من أين جاؤوا؟

ـ إن غالبيتهم من سكان المنطقة، لكنهم تجرؤوا على الثورة ضد قرطاجة. والآخرون هم أسرى حرب لم ترغب فيهم الإدارة البحرية. أما من تبقى فقد جاؤوا من مناطق تقع وراء الخندق الذي يرسم نهاية أراضي قرطاجة.

لم يعد هميلقار يرغب بسماع المزيد. نخز جواده وعدا به عبر البساتين نحو مرتفعات «رأس بون». هناك، وفي مراع غزيرة العشب، كانت ترتع قطعان الثيران، والأبقار، والخرفان، والماعز. وفي أماكن أبعد قليلاً، عند تخوم المناطق المستنقعية، كانت خيول رائعة تخبُّ بأعراف شامخة. كانت قوتها تتناقض بغرابة مع المظهر العجف للعبيد. واستمرت النزهة طيلة النهار، تخللتها استراحة في فناء متواضع حيث استطاع المعلم وتلميذه أن يستعيدا قوتهما بتناول الخبز، والزيتون وبضع حبات من التين بلُبِّه الشهي. وفي المساء انصرف هميلقار تعباً، لكنه كان مسترخياً على نحو واضح، ليرقد دون حتى أن يتناول طعاماً.

لا شك أنه استيقظ باكراً، وعندما لم يجده إبيسيد في غرفته أخذ

يبحث عنه في جميع غرف المسكن. وأخيراً عثر عليه بالقرب من سرداب كان قد أمر بفتحه. كان قد أطلق سراح جميع الرقيق الذين حبسهم هيميلك في زنزانات مظلمة لارتكابهم هفوات وحسب. زد على ذلك، أن المشرف كان هناك بسحنة تقطر غيظاً، وقد تملكه الحنق إذ رأى سلطته تزلزلها بشدة نزوة صبي.

ـ السلام عليك، ابن أدونيبعل، قال إبيسيد. ماذا تفعل في هذا المكان؟

ـ إني أهتم بمصدر ثروتي، بخلاف هيميلك الذي يعامل هؤلاء البؤساء مثل كلاب. انظر إليه إنه في حال من القلق. هو أيضاً عليه أن يأسف بمرارة لقرار أبي في إرسالي إلى هنا حيث يتصرف كما لو أنه حقاً سيد الأماكن. فعلاً، إن أدونيبعل لم يأت مطلقاً إلى هذه الضيعة، وإني لأتساءل عن السبب.

ـ لقد حاكى نظراءه وحسب، أجاب إبيسيد. وفي ذلك خطأ، وهنا تكمن الفرصة المنتظرة لأجل درسنا، إذ إن واحداً من أفضل أبناء قرطاجة، وهو ماغون الشهير، كتب مؤلَّفاً عظيماً في الزراعة، سنتمعن في قراءته إن شئت، وإليك ما خطَّه: «إن الذي يقتني أرضاً عليه أن يبيع منزله خوفاً من أن يحب الحياة في المدينة أكثر من حياة الريف. وإن فضَّل أحد ما سكنى المدينة فهو ليس بحاجة إلى مُلك ريفي».

ـ إنها خسارة لي أن يكون أبي قد سها عن قراءة ماغون هذا!

ـ وما أدراك؟ لقد قرر أن يتصرف بطريقة مختلفة لكن هذه حجة مفحمة تستطيع أن تبرزها له عندما ستكلمه مجدداً عن مشاريعك، وهذا ما ستفعله عاجلاً أم آجلاً.

ـ شكراً لهذه النصيحة الفطنة التي سأكافئك عليها. وماذا قال أيضاً ماغونك؟

ـ هل رأيت الكروم بالأمس؟

ـ أجل.

ـ وماذا لاحظت؟

ـ أن الخمر لن تنقصني على الإطلاق!

ـ ألم تلاحظ شيئاً آخر؟

ـ لا.

ـ لو أنك كنت أكثر انتباهاً لكنت لاحظت أنها مزروعة بطريقة بالغة الدقة، طبقاً لنصيحة ماغون: «ينبغي توجيه مزارع الكروم نحو الشمال، لتستفيد، قدر المستطاع، من الحرارة المرتفعة، وأن تُزرع الكروم في حفر مملوءة أولاً بأحجار لحماية الجذور من ماء الشتاء، وحرارة الصيف؛ ولاينبغي ردم هذه الحفر فوراً، وإنما تدريجياً، عاماً إثر عام، بحيث تلج الجذور في الأعماق، كما ينبغي تسميد الأشجار بحثالة النبيذ والزبل».

ـ ستكون لدي فكرة جيدة عن هذا لو رغبتُ يوماً في زرع كروم جديدة. لكن، أتعلم، إبيسيد، إن ما أدهشني في الأمس هو ذاك العدد الهائل من القطعان، سيما قطعان الثيران التي بدا أنها تنال اهتماماً أكبر من الناس. هل ماغونك مسؤول عن هذا الوضع؟

ـ ربما. ففي مؤلَّفه لا يتكلم عن الناس لكن انصت إلى ما يقول عن الثيران: «ينبغي أن تكون صغيرة السن، مربوعة، بأطراف ضخمة، وقرون طويلة ضاربة إلى السواد وصلبة، جبهة عريضة، وآذان مشعّرة، وشفاه وعيون سوداء، ومنخر مفتوح منكفئ إلى الوراء، رقبة طويلة مفتولة العضل، غبب(*) وافر يتدلى حتى الركب، صدر واسع، وأكتاف عريضة، بطن ضخم شبيه بدابة ممتلئة،

(*) غبب: لحم يتدلى تحت الحنك في الثيران.

جنوب(*) منبسطة، أقفاء(**) عريضة، ظهر مستو أو منخفض قليلاً، أفخاذ مستديرة، قوائم مكتنزة مستقيمة، ركب راسخة، حوافر واسعة، ذيل بالغ الطول أشعر، ووبر غزير قصير يغطي جميع الجسد، لونه أشقر أو أسمر وملمسه بالغ النعومة».

ـ إبيسيد، يا له من درس في صبيحة واحدة! إنك تعرف ماغون جيداً كما تعرف أرسطو وهوميروس. هل سيتوجب علي أن أحفظ مؤلفك عن ظهر قلب؟

ـ أنت تحلم أن تكون عسكرياً، أليس كذلك؟

ـ كف عن تعذيبي، إبيسيد. ليس أنت أيضاً!

ـ هميلقار، تعلَّم أن تؤدب نفسك وأن تفكر. إن طبعك الحاد ليس مكروهاً وحسب، لكنه يؤذيك أيضاً ولقد سنحت لك الفرصة لتدرك ذلك عندما جادلت أباك. إن كنتُ قد كلمتك عن ماغون فذلك لسبب بسيط. قل لي، على ماذا تتوقف قوة جيش من الجيوش؟

ـ على أسلحته وعدد رجاله.

ـ هذا عنصر، لكن إن لم تكن لديه مؤونة فإن الجنود لا فائدة منهم. كيف تريد أن تأمر جيشاً يتلوى جوعاً لأن قائده لم يعرف أن يقدِّر الاحتياطات اللازمة؟ وكيف يمكنه معرفة ذلك إن هو جهل كل شيء عن نتاج الأرض وخيرات البلد؟ بوسع أي امرئ أن يقاتل. وأنا نفسي، إن قدمت لي سيفاً، سيؤول بي الأمر إلى تعلم استعماله استعمالاً حسناً. لكن أن تكون قائداً جيداً فهذا يتطلب شيئاً آخر تماماً. يجب معرفة الاهتمام بكل شيء، في أدق تفاصيله، مثل كساء الجنود ومخاطر المطر والجفاف، والتزود بالكلأ ومواضع مصادر ماء الشرب. تلك أشياء لا يعرفها المرء وهو يعيش في المدينة. لذلك عليك أن تستفيد من إقامتك في هذه الضيعة لتقدر أهمية كل تلك

(*) جنوب: المفرد منها جنب.

(**) القفا: مؤخر العنق. والجمع أقفاء.

الأمور. وفيما بعد، عندما ستبرز كأفضل ضابط، ستشكر أدونيبعل على عقابه هذا الذي فرضه عليك. وحتى أنك ستتحسر على هذه الإقامة لأنها لم تكن طويلة بما يكفي.

ـ إبيسيد، لقد أعدت إلي الأمل. أرجو فقط ألا يكون ذلك مجرد كلام لتخفف من حزني. أعدك بالامتثال لما ستقول لي أن أفعله.

* * *

كان هميلقار قد برَّ بتعهداته. فعلى مدى عام عاش في الضيعة دون أن يأخذ لنفسه يوماً من الراحة. في الصباح كان أول من ينهض، وفي المساء كان يخلد إلى النوم وهو يترنح تعباً. وفي بعض الأحيان كان لا يهتم إلا بالماشية، منطلقاً من الإسطبلات إلى الزرائب ثم يراقب اجتزاز الأغنام التي كانت أصوافها تُحمل على ظهر عربات متجهة صوب مشاغل قرطاجة. بعد ذلك، وقد ملَّ من الحيوانات، شغف ابن أدونيبعل بأشجار الزيتون، أثناء موسمها الذي تُزرع فيه، عند انتهاء حرارة الصيف العالية. وكان عبد عجوز قد علمه أنه ينبغي مراعاة مسافة خمسة وسبعين قدماً على الأقل بين كل شجرة وأخرى، وأن يختار لها أرضاً غير خصبة ومعرضة جيداً للهواء. وكان قد شارك أيضاً في حصاد الزيتون وفي كل مراحل تحويل تلك الثمار العجيبة إلى ذلك الزيت الذي كان يستخدمه هو وأهله استخداماً واسعاً. لقد أدهشه الحجر المستدير الهائل الذي كان بمثابة معصرة والذي كان يقوم بتدويره عشرات العبيد الذين تحمل إليهم نساء من حين لآخر ما يشربونه.

أثناء الشتاء كان ينفرد مع إبيسيد ليدرس معه مؤلَّف ماغون الذي كان يقدِّر عالياً دقة رأيه وحصافته. وفي الوقت نفسه، كان يستغرق في تفحص حسابات الضيعة التي يتولاها هيميلك في ذلك الوقت. لم يكن المشرف المالي، وأنىّ له أن يكون، مثالاً للنزاهة. كذلك لم يكن سارقاً أو نصاباً. كان يكتفي باختلاسات صغيرة، متناسياً تسجيل نعجتين أو ثلاث، مقتطعاً بضع جرار زيت أو مقادير

قمح أو محتفظاً لنفسه بثمن بيع بعض العبيد. ولما أصبحت بحوزة هميلقار كل الأرقام استدعى إليه هيميلك. دخل هذا الأخير الغرفة متذللاً كعادته:

- شرف لي أن يرغب ابن أدونيبعل العظيم في رؤيتي.

- هيميلك، ستتضاءل سعادتك بعد بضع لحظات عندما تسمع ما سأقوله لك.

- إني لا أفهم.

- أتظن أن أبي سيكون مسروراً حينما يعلم أنك تسرقه؟ أتظن أنه سيسامحك على احتفاظك بالمبلغ الذي تلقيته لقاء بيع ثلاثة عبيد لتاجر من أسبيس.

- إنه سوء فهم. فالشاري لم ينته من دفع ما يدين به لي ولم أرد أن أُدرج تلك الأرقام في حسابات الضيعة طالما أن المبلغ بأكمله لم يُدفع بعد.

- أنت تكذب علي نحو سيء. لقد التقيتُ الشاري في أسبيس وأقسم لي أنه دفع نقداً ثمن العبيد. وقد قال لي قاضيا المدينة الشيء نفسه وهما مستعدان للشهادة.

- أيها السيد، سامحني. لقد تصرفت تصرفاً شنيعاً. لقد كنت أتأهب لتزويج ابنتي. ولم أعرف كيف أواجه نفقات الاحتفال. لقد زللتُ. ولك الحق في معاقبتي عقاباً قاسياً.

- لن أفعل ذلك. إن أباك قد خدم بإخلاص عائلتي وأنت نفسك تدير هذه الأراضي إدارة جيدة. أنت، على العكس، لست أسوأ المراقبين ولا أعتى المحتالين. في أسبيس رُويت لي أمور كثيرة عن زملائك وقد كانت أقل لطفاً بكثير من الكلام الذي قيل عنك. لن أقول شيئاً لأدونيبعل، لكن، حينما يأتي اليوم الذي أطلب فيه مساعدتك لا تنس ما أنت مدين به لي.

- هميلقار، تستطيع الاعتماد على صدقي وإخلاصي، لأنك

تعرف كيف تظهر كرمك. إنك يافع، صغير السن، لكني أعتقد أنك سترفع اسم آل برقا عالياً.

بالنسبة لابن أدونيبعل فإن فترة الحصاد كانت أسعد أوقات إقامته في المُلك الأبوي. فعلى مدِّ البصر كانت تنبسط حقول القمح بسنابلها المحمَّلة بحبوب ثقيلة. كان المشهد أشبه ببحر هائل متموج وذلك في آخر النهار عندما يهب نسيم خفيف قادم من رأس بون. أما في وقت الحصاد فإن مئات العبيد كانوا يُجلبون إلى الضيعة ويوزعون في مجموعات تضم كل منها عشرة رجال. وفي المساء كانت تُسمع ضحكاتهم وغناؤهم حول نيران هائلة أوقدوها للاستمتاع فقط برؤية ألسنة اللهب الحمراء بشراراتها المفرقعة وهي ترتفع في سواد الليل. في مناسبات عدة، حينما كان إبيسيد يحذر هميلقار من مخاطر انتشار النار إلى الأبنية. كان المراهق يهز كتفيه قائلاً: «دعهم وشأنهم. إنه الفرح الوحيد لهم. أتود أن تحرمهم إياه؟».

ذات مساء، وبعد جولة تفتيش أخيرة في الحقول. لفظ هيميلك تلك الكلمات البسيطة: «سنبدأ غداً صباحاً». وسأله هميلقار عن السبب وقد فاجأه الأمر. ابتسم المشرف ثم أوضح للفتى قائلاً: «هل لاحظت السحب الثقيلة المتزاحمة في السماء فوق رأس بون؟ إني لا أحب ذلك. ففي هذه الفترة من السنة قد يكون المطر شديداً وإن هطل لفترة قصيرة. وفي بضع ساعات قد يؤول إلى الفناء كل عمل الموسم الزراعي. لا أريد أن يحدث هذا الأمر، ولذا أفضل عدم الانتظار».

خلال ثمانية أيام عمل مئات العبيد الموجودون في الضيعة بدأب، من الخيط الأبيض للفجر وحتى حلول الليل. وأخذت الحقول تفقد شيئاً فشيئاً شعرها الغزير. ذات صباح استحالت الأراضي كلها إلى رأس ضخم أقرع. وبينما كانت غالبية العبيد منهمكة في الحقول كان عبيد آخرون يدرسون السنابل في البيادر ليخرجوا

منها الحبَّ . وهنالك كانت اليد العاملة أقل عدداً لأن هيميلك كان قد أدخل إلى الضيعة ما كان سكان المنطقة يسمونه بشيء من التهكم «العربة القرطاجية»، وهي لوح شائك برؤوس من حديد تجره ثيران. وبفضل هذا الجهاز البارع الذي تكمله أحياناً عوارض مجهزة بأسنان ودواليب صغيرة، كان يمكن فرز حب السنابل بسرعة أكبر. كانت النسوة تملأ السلال بالحب وتفرغها فيما بعد في أحواض حجرية ضخمة مخبأة داخل عنابر، تقاوم سقوفها أسوأ التقلبات الجوية.

لم يكن هيميلك مخطئاً حينما أمر ببدء الأعمال في وقت أبكر من المتوقع. فبعد يومين من انتهاء الحصاد هطلت أمطار نادرة الشدة فوق المنطقة، محدثة أضراراً كبيرة في القنوات والبساتين. وغصَّت الأرض بالماء وكأنها تطلب الرحمة. وطيلة هطول الأمطار مكث الرجال والدواب في منأى يرتعدون برداً رغم النيران المشتعلة داخل الأبنية. وفي الليل كان أكثر الناس تطيُّراً يرتجفون وهم يسمعون هدير الرعد متخيلين البرق سهاماً من نار تخترق السماء. وفي نهاية الليلة الخامسة توقف المطر ولاحت الشمس من جديد. وما إن بزغ الفجر حتى خرج الجميع لتأمل الحقول الغارقة وسط نفثات دخان ملتفة تصعد من تربة شديدة الخصوبة. وعند الغروب أصبحت الأرض جافة، بل وحتى متشققة، في حين أضحت الحرارة مضنية أكثر فأكثر.

بعد فترة من الوقت حان موسم قطاف العنب. هناك أيضاً جاب مئات العبيد مزارع الكروم، وهم يضعون عناقيد العنب الثقيلة في سلال من الصفصاف بينما كانت عربات تروح وتجيء بين الكروم والمعصرة حيث كان عمال، اختارهم هيميلك خصيصاً، يدوسون العناقيد بأقدامهم مستخرجين منها الخمر الذي سيمتع رواد حانات قرطاجة.

ليختم هذه الأعمال قبل بدء فصل الشتاء، قرر هميلقار برقا،

وبناء على نصائح إبيسيد، أن ينظم احتفالاً تكريماً لديميتير(*). كان اليونانيون وحدهم يعبدون هذه الإلهة في السابق، لكن القرطاجيين اكتشفوا وجودها أثناء إقامة مستعمراتهم في صقلية. لا شك أنها كانت ذات فأل حسن لهم، إذ إن مجلس شيوخ قرطاجة، ومنذ حوالى مئة عام، أجاز رسمياً عبادتها بل وحتى شيَّد معبداً لها في قلب المدينة. وأوفد هميلقار رسولاً على عجل إلى أدونيبعل طالباً منه أن يأمر بإيفاد أحد كهنة ديميتير إلى أسبيس لتقديم قربان إلى الربَّة. وبعد مرور بضعة أيام دخل الرجل، بملابس فاخرة، إلى ساحة الضيعة الرئيسية. كان يونانياً من صقلية مثله مثل إبيسيد وسرعان ما عقد معه أواصر صداقة وتبادل معه دعابات كثيرة.

في صباح اليوم التالي، وبحضور هميلقار، وهيميلك وجميع العبيد الذين لم يكونوا ضروريين للأعمال المستعجلة، قدم الكاهن قرباناً إلى ديميتير. وأُحرقت في أوان ثقيلة عطور ذات رائحة زكية، وذبحت حملان وحمائم فوق لوح الأضاحي بينما كان الكاهن وبلغة لا يفهمها السواد الأعظم من الحاضرين يتمتم بصلوات طويلة. ثم بدأ العيد. كان هميلقار قد أمر بذبح الكثير من الثيران وعشرات الخرفان لأجل العبيد الذين لم يصدقوا أعينهم. لم يكن بعضهم قد تناول اللحم منذ سنوات. ووقفوا مجموعات صغيرة أمام أجساد الحيوانات التي كانت تشوى على أسياخ أوقدت تحتها أكوام من قضبان الكرمة المليئة بالعقد. ولما أصبحت رائحة اللحم المشوي نافذة جداً، اندفع أكثرهم تلهفاً لينزع، وإن حرق أصابعه، مزقاً من اللحم. ثم، وبعد أن شبعوا، غطوا في النوم في أماكنهم. بيد أن قلة منهم، لا سيما الحبشيون، وقد انضمت إليهم بسرعة نساء من جنسهم، اجتمعوا وبدؤوا في الرقص وهم يغنون ألحانهم بأصوات جشّة غريبة. وفي وقت متأخر من الليل أقبل عبد ليخطر هيميلك أن

(*) ديميتير: إلهة يونانية للخصب. تقابل سيريس لدى الرومان. وكان القرطاجيون قد أدخلوها إلى مجمع أربابهم.

نساء ورجالاً يزنون خلف الإسطبلات، منتهكين أنظمة تحرم على غير الأحرار العلاقات الجنسية والمشروبات المسكرة. نظر العبد نظرة استفهام إلى هميلقار الذي أشار إليه أن يتركوا وشأنهم، أجل، لمرَّة واحدة، ولعلها تكون الوحيدة في حياتهم القصيرة.

كان ابن أدونيبعل يتجنب المشاركة في أفراح العاملين. لكنه كان يفضل أن يولم لهيميلك وإبيسيد، اللذين اندهشا كثيراً لرؤية نفسيهما معاً. كانت تلك طريقته ليعبر لهما عن تقديره لما علَّماه. لكنه أراد أيضاً أن يتحرى رأيهما في الأمر الذي كان يهمه كثيراً، ألا وهو مستقبله.

كانت تلك بالنسبة إليه واحدة من الأمسيات الأجمل والأعظم شأناً في حياته. فمنذ عدة أشهر حدث تغير عميق في داخله على نحو غامض. لم يعد ذاك المراهق الذي يفيض بطاقة لا يكبح جماحها. لقد أصبح يتكلم ويتصرف برزانة وكان يتعجب أحياناً حينما يسخر هو نفسه من موقف فتية من عمره يلاقيهم مصادفة أثناء زياراته النادرة إلى أسبيس. في تلك الأمسية كان فخره كبيراً بيوم الاحتفال العظيم الذي كانت الضيعة مسرحاً له. لذلك، وعند الانتهاء من الطعام، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتوجه لضيفيه قائلاً:

ـ قسماً بـ «سيد»، إله القنص والصيد، إني لأتمنى أن أعيش أوقاتاً أخرى كهذه!

ـ فلتستجب أمانيك، رد عليه هيميلك. إن هذا الاحتفال سيبقى في ذاكرة جميع الذين حضروه. وسيكلم أحفادنا عنه أبناءهم مشيدين بأفضالك، أيها النبيل ابن أدونيبعل.

ـ هميلقار، إني فخور بك، أضاف إبيسيد. إنك تعرف المحبة التي أحملها لك منذ أن أصبحت تلميذاً لي. بالتأكيد، أنا لست سوى عبد، لكني أنا ذاك الذي أمضيتَ معه أكثر الوقت منذ ولادتك. اليوم أشعر أن مهمتي قد انتهت. لم يعد لدي شيء أعلمك إياه ولا تعرفه. وما بقي أن تكتشفه إنما هو الحياة وليس المعلم من يقوم بذلك.

ـ أشكر لكما ثناءكما. وأقول لكما بدوري أني أقدر كل ما فعلتماه لأجلي. أنت، إبيسيد، لقد فتحت عيني على العالم ولم تدخر جهداً أبداً في أن تجعلني أعطي أفضل ما عندي. لم تكن معلماً قاسياً، لكنك كنت معلماً متطلباً. لم تؤنبني يوماً، وإنما فعلت ما هو أشد من ذلك. كنت تقول لي: إنك تخيب أملي. وكان ذلك أقسى عقاب. ربما شارف تعليمي على الانتهاء لكن اعلم أنك ستظل إلى جانبي فأنا بحاجة إلى حكمتك.

ـ هميلقار، إنها أجمل هدية بوسعك أن تقدمها لي.

ـ أما أنت هيميلك فإن ابن أدونيبعل لا يأسف على تعرفه إليك. أقسم بملقارت، أني كنت غاضباً لقرار أبي في إرسالي إلى هذه الضيعة ولم أكن أحلم إلا بشيء واحد: أن أنتقم منك على هذا الظلم. فكنتُ من حين لآخر أعنِّفك وأتخذ قرارات تخالف قراراتك لغرض واحد وهو إذلالك. لقد تفحصت جداول الحسابات لأمسك بك متلبساً.

ـ لقد تجلى كرمك حينما سامحتني على عمل ما كان ينبغي أبداً أن أقترفه.

ـ ذلك لأني أخذت أدرك أكثر فأكثر إخلاصك لعائلتي. لقد راقبتك جيداً، سيما حينما قررت أن تقدم موعد الحصاد. ولم تفعل ذلك لتزيد من غنى آل برقا وإنما لأنك لم تشأ أن تضيِّع جهد عام كامل. إنك تحب هذه الأرض، وتعيش لأجلها. لقد أعطيتني درساً عظيماً في ذلك النهار. وأنت جدير بأن تكون ابن قرطاجة وإن مدينتنا قد تمتعت بالازدهار لأن أناساً أمثالك قد صنعوها. أشكرك هيميلك على ما علمتني إياه. وجاء دوري لأطلب منك معروفاً. من الممكن أن يسألك أبي عني. أرجوك، تذكر أني أريد أن أكون جندياً. ساعدني على إقناعه بأني لست مهيّاً لإدارة ضيعة.

ـ لا تقلق، سأعرف كيف أجد كلمات لأجل هذا الأمر.

* * *

بعد بضعة أيام، وهو يتذكر تلك المحادثة، شعر هميلقار أن في داخله حدساً ما، أو أن الآلهة تريد أن تبدي له كرماً. فذات صباح ظهر موكب طويل من العربات والمحفَّات عند مدخل الضيعة. لقد جاء أدونيبعل شخصياً ليزور ضيعته التي لم تطأها قدماه منذ حوالى عشرة أعوام. أمر هميلقار، وقد أخطره عبد بوصول أبيه، بتهيئة غرف عديدة وبإعداد وجبات طعام للمسافرين الذين لا بد أن السفر قد أنهكهم. وهو نفسه ابتعد لبرهة قصيرة ليبدل قميصه، ثم استقبل محفَّة أدونيبعل.

ـ أهلاً بك، أبي. إني سعيد لرؤيتك بعد هذا الفراق الطويل. إن كأس خمر من خمر هذه الضيعة ينتظرك.

ـ شكراً، سأشربه بكل سرور فحلقي قد جففه غبار الطريق والحرّ. وإني أنتظر بفارغ الصبر العودة إلى قرطاجة ونداوة جوّها.

كان صوت أدونيبعل نفسه الصوت الجاف الآمر الذي كان في الماضي يُرهب ابنه. وانتظر هميلقار، في هذه المرة، بصبر أن يكشف له أبوه عن غرض زيارته. لا يمكن أن يكون الغرض مجرد إحساس بمحبة أبوية. فالشيخ، المشغول بأعبائه الرسمية، لم يكن ليكترث فعلاً بابنه الوحيد. ولعله جاء لينهي العقوبة التي فرضها على ابنه حينما أبعده عن قرطاجة. انتظر هميلقار بنفاد صبر أن يعرف أكثر عن الأمر. في تلك الأثناء كان أبوه يستمتع برشفات صغيرة من كأس خمر قدمه له أحد العبيد.

ـ حسناً، هميلقار، قال أدونيبعل، هل كانت هذه الإقامة في أسبيس مفيدة لك؟

ـ أبي، إني حزين لبعدي عنك.

ـ يالها من قضية عسيرة! كان الأمر بيدك أنت وحدك لتظهر مزيداً من الحكمة والفطنة، ولو فعلتَ لما كنتَ كابدت غضبي.

ـ لقد قبلت قرارك ولم أتذمر. انتظرتُ أن تستدعيني أو أن تأتي. وتجنبتُ إزعاجك فلم أرسل استرحاماً تلو الآخر. فضلاً عن ذلك ما كنت أحسب أنك ستقرأه.

ـ إنك أقل طيشاً مما يبدو. كنت أريد أن أعرف إلى أي حد سيبلغ صبرك.

ـ وتأكدت أنه واسع.

ـ إني لأهنئ نفسي على هذا، فالصبر بداية الحكمة، والحكمة مفيدة لإدارة شؤون المدينة. ولأنك لم تطلب شيئاً فأنا جئت لأرى ما أصبحت عليه. استدع كلاً من معلمك إبيسيد، وهيميلك مشرف الأراضي. علي أن أكلمهما في حضورك.

ـ إنهما هنا، لا ينتظران سوى كلمة من جانبك ليتشرفا بتحيتك.

انحنى الرجلان اللذان، استدعيا بإشارة من يد هميلقار، طويلاً وباحترام أمام أدونيبعل. تفرس هذا الأخير فيهما ثم بدأ بمخاطبة العبد:

ـ إبيسيد، ماذا تقول عن تلميذك؟

ـ أيها السيد، بوسعك أن تكون فخوراً به. لم يعد عندي شيء أعلمه إياه. إنه رجل اليوم وأستطيع أن أؤكد لك أنه سيرفع اسم آل برقا عالياً.

ـ وأنت، هيميلك، ماذا تقول عن فلاحنا؟

حدق هميلقار في المشرف محاولاً عبثاً أن يتكهن بما ستكون إجابته. ترى هل سيتذكر اتفاقهما أم سيخونه ليجاري أدونيبعل؟ بعد برهة طويلة من الصمت خرج صوت هيميلك يرتجف انفعالاً:

ـ أيها السيد، أتسمح لي أن أكلمك بصراحة وبحرية كاملة؟

ـ هذا ما أنتظره منك!

ـ أخشى أن يكون بعض كلامي جارحاً وأخاف غضبك.

ـ بوسعك أن تتكلم كما ترغب، أعدك بألا يجرَّ ضغينة نحوك.

ـ أشكرك على ذلك. أدونيبعل، لقد استقبلت ابنك كما أمرتني وجعلته يعمل بجد في الضيعة ليتعلم إدارتها. وعهدتُ إليه بمسؤوليات كثيرة وإني لآسف على ذلك. لأني لو كنت قد اهتممت بنفسي بالحصاد وجني العنب لكانت الأمور، بلا شك، جرت على نحو أفضل ولما كنت خجلتُ من الحسابات التي علي أن أقدمها لك. لكن ابنك، وبمبادراته الطائشة، ارتكب الكثير من الأخطاء. إن جزءاً من المحصول قد أفسده المطر لأنه تأخر كثيراً في إرسال العبيد لحصاد الحقول. إن كنت أستطيع أن أكلمك بصراحة فإني أقول: ابنك هو عبء علي!

ـ عبء؟

ـ أجل. صدقني، أيها السيد، إنه غير قادر على إدارة ضيعة. اجعل منه ما تشاء لكن لا تعهد إليه بثروتك، سيبددها.

ـ هيميلك، بوديّ ألا أحافظ على وعدي وأن آمر بجلدك إلى أن يسيل دمك. إنك تكذب، وتكذب على نحو رديء.

ـ أيها السيد، إن ما أقول هو الحقيقة ناصعة.

ـ إنك تعلم جيداً أن هذا غير صحيح. أتحسبني غبياً إلى درجة الاعتماد على حكمك وحدك؟ لقد كنت قد كلفت حنون، أحد مراقبي عمالك بأن يطلعني على كل ما كان يجري في هذه الضيعة وكذلك على الطريقة التي كان ابني يتصرف بها. أنا أعلم أنك وبمساعدة إبيسيد، جعلتَ منه ابناً جديراً بعائلتنا، قادراً على أن يمضي أياماً بطولها في الحقول ليراقب السير الحسن للأشغال.

ـ أبي، قال هميلقار، لا تحقد على هيميلك، أنا الذي أجبرته على الكذب إذ إن الإقامة في أسبيس لم تكن كافية لتبدد حلمي في أن أصبح جندياً.

ـ أعرف ذلك ولأجل هذا بالضبط قد جئت لرؤيتك.

ـ لتحرمني من كل أمل؟

ـ لأقول لك أن مدينتنا بحاجة إلى سيفك. أنت تريد أن تخدم في صفوف الجيش، وأمنيتك ستتحقق، وربما بأسرع مما تظن. غداً سنعود إلى قرطاجة وسأكلمك في الطريق عن الأخطار المميتة التي تحوم حول مدينتنا.

ـ أبي، لقد أحضرت لي أجمل الهدايا. بالكاد أجرؤ على تصديق ما تقول. سامحني على صراحتي، لكن إلى ماذا آلت إليه أحلامك في أن تراني عضواً في مجلس الشيوخ وفي مجلس المئة والأربعة؟ فحسب رأيك كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لابن برقا في أن يخدم مواطنيه.

ـ هميلقار، لا تعد مجدداً إلى الرعونة فتجعلني أندم على قراري. كل شيء يعتمد على الظروف وما سأخبرك به سيتيح لك فهم ذلك. اليوم، وفوق ساحات الوغى يجب أن يلمع اسم برقا. سنتكلم في هذا الأمر. والآن علي أن أتصرف.

الفصل الثاني

منذ لقائه مع أبيه لم يستطع هميلقار المكوث في مكانه: كان يتقاسمه فرح حلم عزيز سيتحقق أخيراً، وقلق لا يحول: ترى ماذا يخفي بالضبط هذا التغير المفاجئ لشيخ لم يُعرف عنه تقلب الأطوار؟ ولم يستطع إبيسيد الذي كان قد استشاره أن يقدم له تفسيراً. ورغم أن المعلم كان قد استنطق طويلاً عبيد أدونيبعل، إلا أن هؤلاء كانوا ينظرون إليه بملامح بلهاء. إنهم لا يعرفون شيئاً، ولا يريدون أن يعرفوا شيئاً ولا يتوقون إلا لشيء واحد: أن ينالوا قليلاً من الراحة قبل أن يعودوا إلى قرطاجة.

بالطبع، كان أسهل على هميلقار لو أنه التمس مقابلة أبيه لكن هذا الأخير كان قد اختفى برفقة هيميلك. وأكد أحد مراقبي العمال أنهما ذهبا إلى أسبيس ليلتقيا هناك بقضاة المدينة الكبار. هذا على الأقل ما قد افترضه المراقب لأن هيميلك كان قد ارتدى رداء فاخراً مزركشاً يخصصه للمناسبات الاستثنائية. فإن كان مقال المراقب صحيحاً فقد لا يعود أدونيبعل قبل الليل، أو حتى قبل تباشير الصبح. ولم يخالجه أدنى شك بأن مضيفيه، الذين كرمتهم زيارة أحد أعضاء مجلس المئة والأربعة الشهير، سيقيمون على شرفه مأدبة وذلك لينالوا أفضاله وليطلعوه على مظالمهم، وبخاصة فيما يتعلق بالضرائب الثقيلة التي تجبيها قرطاجة كل عام.

طيلة ساعات كاملة من الليل حاول هميلقار عبثاً النوم. كان

يتقلب فوق سريره، مستلقياً تارة على ظهره، وأخرى على بطنه. وفي مرات عدة كان يخرج إلى الفناء الذي حولته الحرارة إلى أتون حقيقي. لكنه كان يعود أدراجه مسرعاً إلى داخل المنزل حيث كان الجو جميلاً منعشاً، فيتجول عبر الغرف قبل أن يرجع إلى سريره. وأخيراً، وفي وقت متأخر جداً من الليل، غفا ملجماً ذاك الغضب الذي كان يضنيه والذي سرعان ما أصبح خرافياً.

في الصباح الباكر أيقظته الضوضاء. كان أدونيبعل قد عاد وأعطى أوامره بالرحيل. وسط هذا الاهتياج المفاجئ قفز هميلقار من سريره، وغسل وجهه بقليل من الماء، ثم تمتم ببعض الصلوات التشفعية، ولبس على عجل رداء نظيفاً قبل أن يلحق بأبيه.

ـ أدونيبعل أحييك بكل احترام. لقد انتظرتك إلى وقت متأخر من الليل.

ـ وأنا لم آت لأهدئ من توجساتك! لا تهز رأسك علامة الإنكار، أنت تعلم جيداً أني أقول الحقيقة. كن صبوراً. لقد وعدتك بتوضيح وسأقدمه لك في طريقنا إلى قرطاجة. إن المسافة طويلة وسيكون بمقدورنا إجراء محادثة مستفيضة، فما سأكشفه لك لا يقال في بضع جمل وحسب. في الوقت الحاضر اكتفِ بتوديع من ترى أنه جدير بذلك ولا تضيِّع وقتك مع إبيسيد. فرغم أنه لم يعد معلمك فهو سيرافقنا. وانطلق هميلقار إلى الإسطبلات ليدرك المشرف الذي كان ينتقي الخيول.

ـ هيميلك إني ذاهب.

ـ أعرف، يا ابن أدونيبعل، وإني أدعو إشمون أن يمنحك الصحة.

ـ على الأرجح سأغيب طويلاً عن أسبيس لكن اعلم أني لن أنساك أبداً. ومن المحتمل كثيراً أن أستدعيك يوماً.

ـ إن كنتُ على قيد الحياة فسآتيك من فوري، لأني، وبالرغم من

صغر سنك، فأنا أتوقع لك أشياء عظيمة. والآن حان وقت فراقنا. إني أعرف جيداً أباك. لا بد أن صبره قد عيل واستبد به الضجر لأنه لم يصل بعد إلى قرطاجة. سأرافقك إليه.

لم يكن المشرف مخطئاً. فأدونيبعل كان قد اتخذ مكانه في عربة فاخرة تجرها ثيران. وتحميها من الشمس مظلات باذخة، كان يغطي داخلها فُرش ووسائد وأقمشة ثمينة ذات ألوان زاهية. وفي إحدى الزوايا رُتبت بضع كؤوس وأباريق خمر بسعة «كوب»(*) تقريباً، مغلقة بسدادات من القش المجدول. كان الشيخ جالساً على نحو مريح، متكئاً بمرفقه الأيسر على صندوق صغير من الجلد وقد أولاه اهتماماً خاصاً. أشار إلى ابنه بالجلوس إلى جانبه بينما كان الموكب قد شرع في المسير مثيراً سحابة غبار. أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً عن ناظريْ هميلقار أبنية الضيعة التي أمضى فيها الكثير من الأيام السعيدة. وبدأت حياة جديدة بالنسبة إليه، وها هو ينتظر ليعرف مصيره المقبل الذي سيتكرم أبوه ويكلمه عنه.

* * *

ما إن غادروا الضيعة وبلغوا الطريق الرئيسية التي تصل حدريم(**) بقرطاجة، حتى قطع الشيخ الصمت:

ـ لا بدّ أنك تساءلت عن السبب الذي جعلني أغير رأيي.

ـ أبي، أنا سعيد بقرارك وليس علي أن أناقش بواعثه. إني أعرفك، وأفترض أنها بواعث عظيمة وأنتظر أن توضح لي هذا الأمر.

ـ روما.

ـ عفواً، أبي!

ـ روما، هذا الإسم هل يعني لك شيئاً ما؟

(*) كوب qob: وحدة سعة قرطاجية.

(**) حدريم: وهي اليوم مدينة سوسه في تونس.

ـ من الذي لا يعرف المدينة التي شيدها رومولوس وروموس؟ ويبدو أن جدهما البعيد، الأمير إنياس الطروادي، كان قد تودد إلى الملكة إليسا ثم هجرها، وهي الملكة التي أسست قرطاجة، وهجرانه فأل سيء بالنسبة للعلاقات بين المدينتين. إلا أنه، وبحسب ما علمني إياه إبيسيد، فإن روما وقرطاجة قد وقّعتا، معاهدات صداقة في مناسبات كثيرة. ثم إني لأذكر رؤيتي للأميرال ماغون في مسكننا في ميغارا وهو الذي كانت سفنه تعود من أوستي بالتحديد، محملة بهدايا أرسلها مجلس الشيوخ الروماني. وحينما دعوته إلى منزلنا كنت أستمع إلى محادثتكما، وأنا مختبئ خلف طنفسة، ملتقطاً كل كلمة مما يقول ومما يسهب في وصفه عن غنى تلك المدينة. إن قرطاجة بوسعها الافتخار بهذه الصداقة.

ـ لم تعد تلك هي الحال.

ـ هل انتهكوا المعاهدات التي أبرمها آباؤنا؟

ـ ليس بعد، لكن ذلك لن يلبث أن يحدث بالرغم من إمارات الصداقة الكبيرة التي لم نتوقف عن إغداقها على الروم. هل تريد معرفة ما يحتويه هذا الصندوق الجلدي؟ سأقول لك، لأن مجلس المئة والأربعة قد كلفني بهذه المسألة. إنها نسخة كتبها بناء على طلبي رئيس الكتبة عن المعاهدات المبرمة مع روما منذ إقامة علاقات بين مدينتينا. سأقرأ لك أحدث تلك المعاهدات لتفهم أن الحق بجانبنا:

«بين الروم وحلفائهم، وبين القرطاجيين، وأهل صور، وأهل أوتيكا وحلفائهم، سيكون هنالك تحالف وفق هذه الشروط: لا يمارس الروم القرصنة ولا التجارة ولا يقيموا مدناً فيما وراء رأس بون وماسليا دو تارسيس. وإن احتل القرطاجيون مدينة في اللاتيوم غير خاضعة للروم، فإنهم يحتفظون بالغنيمة والرجال لكنهم يُرجعون المدينة. وإن أسر قرطاجي رجلاً يرتبط مع الروم بمعاهدة سلام مكتوبة، لكنه ليس من رعايا الروم، فلا يُقاد إلى مرفأ روماني.

فإن حدث ذلك واحتجز رومي القرطاجي، فإن الأسير يجب أن يُطلق سراحه. الشروط نفسها تسري على الروم. وإن تزود رومي بالقوت والماء في أرض تخضع لسلطة القرطاجيين فلا ينبغي أن يؤذي أحداً يرتبط مع القرطاجيين بروابط قربى وصداقة، والأمر سيكون كذلك بالنسبة للقرطاجيين. وإن حدثت تلك الأذية فإن العقوبة لن تكون فردية وإنما الإهانة ستكون علنية. وفي سردينيا وليبيا لا يؤسس أي رومي مدينة ولا يقيم وقتاً أطول من اللازم للتزود ولإصلاح سفينته. وإن دفعته العاصفة إلى هناك فعليه أن يعاود الرحيل عند انقضاء أيام خمسة. أما في الأرض الصقلية الخاضعة للقرطاجيين ولقرطاجة نفسها فإن كل رومي يستطيع التصرف وممارسة التجارة بحرية على قدم المساواة مع المواطنين. والأمر سيكون كذلك في روما بالنسبة لجميع القرطاجيين».

ـ إنها أحكام منصفة.

ـ وبالغة الكرم يا بني. أنت تذكر الزيارة التي قام بها إلينا في مسكننا في ميغارا الأميرال ماغون. أتعلم أنه وفي أثناء إقامته في روما أضاف إلى هذه المعاهدة البند التالي: «سيقدم القرطاجيون سفناً لذهاب وإياب كل من يحتاج إلى المساعدة؛ أما بالنسبة للطعام فكل شعب يوفره إلى أفراده. وفي البحر أيضاً يمد القرطاجيون يد العون إلى الروم، في الحالات الضرورية. وليس في وسع أحد مع ذلك أن يجبر البحارة على النزول من المركب رغماً عن إرادتهم».

ـ إنه كلام جميل لا يتطلب شيئاً.

ـ عُد إلى رشدك. في ذلك الوقت خرّب بيرهوس، ملك إيبير(*) إيطاليا وصقلية اللتين كان شعباهما قد تمردا على سلطتنا وأجبرا قواتنا على الانسحاب إلى قلعة ليليبيه(**). وفي كامبانيا وجدت روما نفسها في الوضع نفسه. فقد كان حلفاؤها قد ثاروا ودمرت

(*) إيبير: منطقة في البلقان تقع في الشمال الغربي من اليونان وجنوب ألبانيا.
(**) حالياً مارسالا في صقلية.

جحافل بيرهوس ضياع الشيوخ الشاسعة. فنقلت سفننا فوجاً من الجند من أوستي إلى ريجيون وظلت في مكانها لتسد المعبر بين الجزيرة والأرض الكبيرة. أما جنودنا فقد قاتلوا ببسالة ليطردوا بيرهوس من صقلية وسط مشاعر الروم بالانفراج الكبير.

ـ كان عليهم أن يكونوا لنا شاكرين إلى الأبد.

ـ إنه إحساس تجهله تلك الكائنات الماكرة والخسيسة. لديّ هاجس حزين بأن قتالاً ضارياً سينشب بين مدينتينا ولأجل ذلك جئت أطلبك في أسبيس. هميلقار، ابني، أنا نفسي وبضع شيوخ نعتمد عليك لتشن قتالاً لا يرحم ضد روما. أنت فتيّ، صغير السن، ولا تستطيع في الوقت الحاضر أن تتولى القيادة، لكن سيأتي يوم، وأنا أكيد من ذلك، ستكون فيه قائداً لجيشنا. نحن نتطلع إلى ذلك اليوم. عليك أن تصبو إلى ذلك بكل قوتك مكتسباً من رفاقك في السلاح الخبرة اللازمة. اعلم أنك لا تقاتل لمجرد لذة القتال ولكن لأجل مدينتك قرطاجة، ولأجل آلهتها. عليك ألا تتطلع إلى هدنة أو راحة. وحتى من الممكن، في السنوات المقبلة، ألا تتاح لنا فرصة اللقاء لأنك ستكون بعيداً عن الحرم المقدس لآبائنا، محارباً تحت سموات ماتزال تجهلها. لكني أعرف أنك سترفع اسم آل برقا عالياً.

ـ أبي، أقسم بملقارت أني سأتصرف تصرفاً يليق بابن أدونيبعل. لكن سؤالاً يحرق شفتيّ: هل الحرب قريبة؟

ـ أقرب مما تظن. وعاجلاً، في بيوت قرطاجة، ستبكي الأمهات أبناءهن وسيمزقن صدورهن إشارة إلى حدادهن.

ـ هل انتهك الروم المعاهدة ونزلوا في صقلية.

ـ لا، لكن الأمر سيّان.

ـ لا أفهم. هل نحن في حالة حرب أم لا؟

ـ تعلّم أن تلطّف من ردود أفعالك وأن تحلل الوقائع ببرود. إن أمور الدولة تستلزم الكثير من الدقة والحذر. والحرب لا تنطلق

مصادفة أو لمجرد نزوة رجل. إنها نهاية طبيعية لحقبة طويلة من التوتر يحاول خلالها كل خصم أن يقدر قوى الخصم الآخر. ومن الممكن أيضاً أن تدعو إليها اعتبارات لا علاقة لها بالشؤون العسكرية، ظاهرياً على الأقل.

ـ وما هي؟

ـ لقد استطعت أن تدرك أثناء إقامتك في ضيعتنا مدى اعتماد مدينتنا في مؤونتها من القمح، والخمر والزيت على الأراضي التي غزتها. إن حقول وبساتين وحدائق ميغارا وحدها قد لا تكفي لغذاء جميع سكانها أكثر من ثلاثة أو أربعة ايام. ولهذا السبب أنشأنا مستعمرات في صقلية وسردينيا. هاتان الجزيرتان تفيضان بالخيرات. إني أعرف ذلك إذ قمت بزيارتهما مرتين عندما كنت في سنك. إن تلك الأراضي هدية من الآلهة لمدينتنا، حيث تمتد حقول القمح إلى ما لا نهاية، والكروم تنبت فوق منحدرات التلال دون حاجة إلى رعايتها. لقد ابتسم لنا الحظ إذ أتاح لنا أن نستقر في تلك المناطق الخضراء التي يعمل سكانها في سبيل مجد قرطاجة. إن جدودنا قد اتخذوا كل الإجراءات الحكيمة المتعلقة بهما. فها هو جدك، جيرار عشتار، قد حرم على السردينيين زراعة الأشجار المثمرة وذلك لكي يخصص لزراعة القمح جميع المساحة القابلة لزراعته. لقد تصرف بنباهة والشيوخ ما زالوا يمجدون حكمته إلى اليوم.

ـ لم تكلمني عنه على الإطلاق كما أنك لم تذكر البتة أمامي جدك، قاضي قرطاجة حسدروبال.

ـ كل شيء في أوانه. اعلم على أي حال أن صقلية وسردينيا هما ضروريتان لنا ضرورة الهواء الذي نستنشقه. ويتمنى الروم للأسباب ذاتها أن يحتلوهما. إن كثيراً من الشعوب قد خضعت لسيطرتهم وحقول لاتيوم أو كامبانيا(*) لم تعد تكفي لإطعامها. كنا

(*) لاتيوم وكامبانيا منطقتان في إيطاليا الحالية.

مخطئين خطأ كبيراً، بتركهم يستقرون في ريجيون، حيث من هنالك يستطيعون رؤية شواطئ صقلية. لحسن الحظ إن حلفاءنا المامیرتانيين(*) يمنعونهم من تجاوز ساعد البحر.

ـ من هم هؤلاء المامیرتانيون؟

ـ إنهم مرتزقة يدَّعون أنهم «أبناء مارس» وهو اسم إلههم في الحرب. إنهم ليسوا أنصاف آلهة، صدقني، وإنما أناس لا دين لهم ولا خلق، مستعدون لأن يبيعوا أنفسهم لمن يدفع أكثر. لقد قاتلونا في الماضي نحن والروم، إذ تحالفوا مع بيرهوس قبل أن يتخلوا عن هذا الأخير عند هزائمه الأولى. ولما خشوا من عقاب الروم التجأوا إلى مخابئهم في ميسِّين المقابلة لريجيون، وطلبوا منا مساعدتهم.

ـ وماذا فعلت قرطاجة؟

ـ ما أملته عليها مصلحتها. هميلقار لو أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بحماية المامیرتانيين لكان مجلس المئة والأربعة قد تركهم بكل سرور لمصيرهم أو لأحالهم إلى الخدمة عبيداً مجذفين في سفننا. لكن مدينتهم تتحكم بالمدخل المؤدي إلى صقلية بأكملها وإلى جميع أملاكنا في هذه الجزيرة. لا نستطيع أن نسمح للروم بأن يكونوا جيراناً ملاصقين لنا. إن المامیرتانيين حيث هم نافعون لنا. ولأجل ذلك أرسلنا أسطولاً بإمرة حنُّون إلى ميسين. ونزل من سفنه مع عدة آلاف من الرجال، واحتل القلعة مستعيناً بأنصارنا المامیرتانيين.

ـ وماذا كان رد فعل روم ريجيون؟

ـ كان بالأحرى رداً عنيفاً وهذا أمر أكيد، فهم أيضاً لا يحبون أن يكونوا جيراناً لنا. فمنذ بضع سنين، وبمبادرة شخصية من أحد أميرالاتنا، قام هذا الأخير بإرسال أسطولنا ليرسو في ميناء تارنت. فثارت ثائرة روما، وكان علينا أن نرسل إليها على وجه السرعة وفداً ليطمئنها. لقد أوضحنا للقنصليْن أنه لم تكن لدينا أي نية قط

(*) Les Mamertins.

في إنشاء مستعمرات في هذه المنطقة. إن هذه القضية قد أوجدت سابقة مثيرة للغضب ويبدو أن أحفاد إنياس أرادوا معاقبتنا، إذ حاولت بعض سفنهم عبور ساعد البحر الذي يفصل صقلية عن اليابسة. فقام حنُّون بحجزها وإرسالها مجدداً إلى المحامي الرومي(*) كايوس كلوديوس. وحتى أن حنون قام بمبادرة إذ أمر بمرافقة السفن المذكورة إلى ريجيون ليتم تسليمها إلى أيدي الروم أنفسهم. لكن التقرير الذي سلمني إياه حنون قد أثار شكوكي.

- لمَ؟

- لقد قصَّ حنون علي فيه مقابلته لكايوس(**) كلوديوس. إذ على سبيل المزاح قال له حنون أنه قد ردَّ له سفنه رغم أنها غير ذات نفع له كما تعرف بذلك كل الشعوب، فالروم يرتاعون من الملاحة إلى درجة أنهم لا يجرؤون على غسل أيديهم في ماء البحر.

- وماذا رد عليه الرومي؟

- إن إجابته هي التي تقلقني بالضبط. فحسب ما قال حنون فإن كايوس كلوديوس قال: «إن الروم هم التلامذة الذين يتفوقون دائماً على أساتذتهم» إن كايوس كلوديوس ذاك يتمتع بفضيلة الصراحة. لقد كانت عبارته إنذاراً ضدنا. وما إن علمتُ بكلامه حتى طلبت اجتماعاً عاجلاً لمجلس المئة والأربعة لتفحص الوضع. نحن جميعاً مقتنعون أن خطر الحرب حقيقي وعلينا ألا ندع أنفسنا نؤخذ على حين غرة غير متأهبين. لأجل ذلك فإن قرطاجة بحاجة إلى أبنائها الأكثر بسالة وذكاء لتمحو من نفوس الروم مجرد الرغبة في اعتلاء ظهر مركب.

- أبي، نسيتَ أني لا أعرف أن أقود سفينة!

- هل قلت لك بأنك هُيئت للخدمة فوق سفينة خماسية

(*) وهو المحامي عن حقوق الشعب الرومي.
(**) Gaius.

المجاذيف؟ حال وصولنا إلى قرطاجة ستنطلق إلى ميسين حاملاً رسالة مني إلى حنون. والآن خذ قسطاً من الراحة إن كنت ترغب. فما يزال أمامنا طريق طويل نقطعه وستكون بحاجة لكل قواك في الأيام المقبلة.

أيقظت رجّة عنيفة هميلقار وأباه مذعورين. فقد اصطدمت إحدى عجلات العربة بحجر ضخم مركون، ولا أحد يدري لماذا، إلى الجانب الأيمن من قارعة الطريق. وسبَّب ذلك خوفاً أكبر من الضرر، لكنهم استطاعوا متابعة سيرهم. كانت الشمس ما تزال عالية وسط السماء. واهتز ابن أدونيبعل فرحاً لما نظر أمامه. لقد لمح من بعيد أسوار قرطاجة العالية وقد بيَّضها الكلس وزين أعاليها وأسافلها شريط ذو لون أمغري(*)، كانت تلك الأسوار تتلألأ بنيران كثيرة تنعكس فوق صفحة مياه بحيرة تونس. وبدت للعيان الأبراج العالية التي يصل ارتفاعها إلى مئة وعشرين ذراعاً بينما كانت المسافة بين برج وآخر تبلغ خمسمئة ذراع. إن هذا السور الرائع المحصَّن قد امتد لحوالى ثلاثمئة وستين ستاداً(**)، أي تقريباً المسافة بين مدينة قرطاجة وضيعة أدونيبعل في أسبيس. وفي بعض المناطق، ذات المنافذ الأكثر سهولة، تم تشييد ثلاثة صفوف من الأسوار، يتقدمها خندق وسياج شائك.

كان السور المرتفع الذي يعزل المدينة عن اليابسة يحاذي أيضاً شاطئ البحر، وكان نصب عظيم لـ «بوابة» البحر يخترق السور من تلك الجهة. وحُصِّنت «البوابة» ببرجين شيدا من الصخر نفسه. كانت تلك التحصينات المهيبة كفيلة بأن تثبط شجاعة أكثر المحاصِرين جسارة. أضف إلى ذلك أن هؤلاء كانوا يجهلون ما تخبئه تلك الأسوار المشيدة من كتل حجرية ثقيلة جُلبت من رأس بون: أروقة تضم ثلاث مئة فيل يستخدمها الجيش، إسطبلات واسعة

(*) المغرة: وهو مسحوق أكسيد الحديد.

(**) ستاد stade: وحدة أطوال يونانية تساوي 177 مترا.

لأحصنة يصل عددها إلى أربعة آلاف حصان، مخازن أعلاف وأغذية وكذلك ثكنات الجنود المشاة والفرسان. بالفعل، كان ما يضمه ذاك السور المرتفع وحده يشكل مدينة داخل مدينة. إذ يقيم فيها على نحو دائم حوالى خمسة وعشرين ألف جندي، وهم أكثر عدداً من سكان أسبيس أو أديس. ومع ذلك كانوا نادراً ما يظهرون في شوارع قرطاجة. كان الجنود محجوزين غالباً في ثكناتهم. وقلما يؤذن لهم بالخروج إلى المدينة، وإن خرجوا فمجموعات صغيرة يرافقها ضابط أو عدة ضباط.

ـ أبي، قال هميلقار، إني لم أكن أعتقد أن قرطاجتنا كبيرة إلى هذا الحد!

ـ نحن ندين بذلك إلى الحكمة المتبصرة للملكة إليسا. أنت الذي تحلم بالموت في سبيل مدينتنا، لا يمكن أن تكون جاهلاً بظروف تشييد قرطاجة وإني لأود أن أسمعها من فمك.

ـ أدونيبعل، لن تنطق شفتي بتجديف ولن تصدم ورعك الشامخ! إن إبيسيد قد قص علي طويلاً أسفار إليسا، ابنة ملك صور وزوجة عشيرباس، الكاهن الأكبر لملقارت. فبعد موت أبيها تبوأ أخوها بيقماليون العرش، آمراً باغتيال صهره زوج أخته ليستولي على ثروتها. عزمت إليسا التي أضحت أرملة على الهرب بعيداً مع أفراد عديدين من أكابر عائلات المدينة الذين خشوا غضب الآلهة. وعن طريق الحيلة ـ وقد أقنعت أخاها أنها ترغب في أن تقدم له ثروتها ـ استطاعت أن تجعل خدم القصر يحمّلون سفناً عديدة بالذهب وأجبرتهم فيما بعد على اتباعها إن كانوا لا يريدون التعرض لعقاب سيدهم. ولدى وصولها إلى قبرص عقدت صداقة مع كاهن «يونون»(*) الأكبر، المشهور عندنا باسم عشتار، وذاك الكاهن عرض عليها مرافقتها في رحلتها البحرية بشرط أن يظل المنصب الكهنوتي في عائلته على الدوام. وليثبت للملكة أنه ربط مصيره

(*) يونون Junon: إلهة الزواج عند الرومان.

بمصير الفارين جعل على سطح مراكب صور ثمانين فتاة عذراء. أقسم بملقارت أن جدودنا كان لديهم حظ وافر وإن كثيراً من شبابنا يود مرافقة واحدة منهن!

ـ هميلقار ليس لدي وقت أضيعه في مزاحاتك. إنما سألتك لأعرف إن كنت تعي جيداً تاريخ المدينة التي أقسمت على الدفاع عنها بسيفك. أكمل قصتك.

ـ أبحرت إليسا وأتباعها من قبرص إلى شواطئ كان جدودنا قد شيدوا فوقها مدينة أوتيكا. ولما بلغوا هذا الخليج المحاط بتلال تحميه من الريح نزلوا من سفنهم واستقبلهم سكان المنطقة استقبالاً حسناً، وقد حزَّت في نفوسهم قصة مصائبهم. وقدم لهم هؤلاء واسمهم (المازيسيون) الماء والطعام. ولما أقبل فصل الشتاء لم يكن وارداً أن تعاود إليسا وأتباعها ركوب البحر. ولما لم يستطع أهل أوتيكا استضافة مواطنيهم من صور لعدم توافر المكان، طلبت إليسا من المازيسيين أن يبيعوها أرضاً. وأوضحت لهم، وهي التي لا تريد أن تثير مخاوفهم، أنها ستكتفي بجزء من الأرض يمكن أن يغطيه جلد ثور. ولما حصلت على موافقتهم، أمرت بتقطيع هذا الجلد إلى سيور(*) دقيقة جداً بحيث استطاعت بذلك أن تحدد سطحاً أكبر بكثير من السطح المتوقع. وشيدت إليسا فوق هذا الموضع «قارة حاداشت»، هكذا سُميت بلغة آبائنا وتعني «المدينة الجديدة». ولهذا السبب، أدونيبعل، فإن مدينتنا كبيرة جداً. ولقد علمني إبيسيد أيضاً أن هضبتنا المقدسة، التي ينتصب فوقها معبد إشمون، تسمى «بيرسا»، لأن هذا الإسم يعني الجلد باللغة اليونانية.

ـ وماذا حصل لإليسا؟

ـ لقد أراد ملك المازيسيين واسمه هيارباس، وقد أذهله ذكاؤها وأغراه ذهبها، أن يتزوجها. واستدعى إليه العديد من

(*) سيْر: قطعة جلد مستطيلة.

جدودنا وأبلغهم بأمنيته الكافرة ورجاهم أن ينقلوها إلى ملكتهم، مضيفاً أنه في حال الرفض فإنه لن يتردد في قتال أصدقائه الجدد. لم يتجرأ جدودنا المذعورون على إخبار إليسا بكلام هيارباس لكنهم قالوا لها أنه يرغب بأن يأتي واحدا منهم ليعيش معه ومع شعبه. أمرتهم أرملة عشيرباس أن يمتثلوا لهذه الرغبة وأن يختاروا من بينهم متطوعاً، موضحة أنها مستعدة لأي تضحية في سبيل عظمة قارة حاداشت. وعلى الآخرين أن يحذو حذوها! حينذاك كشف أصحابها لها عن الحقيقة. ولم تستطع إليسا أن ترفض لأتباعها ما كانت قد طلبته منهم، لكن ذكرى زوجها الأول كانت غالية جداً بحيث لم تستطع أن تعزم على خيانتها. وبحجة تقديم أضحية إلى الآلهة أمرت بإشعال محرقة صعدت فوقها وطعنت نفسها. وقبل أن تختفي في ألسنة اللهب قالت كلماتها الأخيرة: «طيِّعة لرغباتكم، وإلى جانب زوجي سأرحل». وهكذا انضمت إلى عشيرباس وليس إلى هيارباس. إن ذاك الأخير وقد صعقته شجاعة تلك المرأة لم ينفذ تهديداته، مخافة أن تعاقب الآلهة بقسوة أولئك الذين هاجموا أصحاب الملكة البائسة.

ـ كما ترى، إن تضحية ملكتنا العظيمة لم تذهب سدى ومازالت إلى يومنا هذا بمثابة درس لنا جميعاً. لقد ذكرتَ بالضبط أن جدودنا جاؤوا من صور، تلك المدينة التي نستمر بعلاقتنا معها رغم أنها تعيش اليوم تحت حكم الغريب. إن بلد الأرجوان هو وطن أجدادنا الذي حافظنا بورع على لغته وآلهته. لا تنسى ذلك أبداً وتذكر أننا أبناء شعب البحارة، أبناء أولئك الرواد الذين أبحروا من أول البحر الكبير إلى آخره، ووصلوا إلى ما وراء أعمدة ملقارت. إننا بدون البحر، وبدون أسطولنا لا نساوي شيئاً. لأجل ذلك علينا أن نحرص على ألا ينازعنا أحد سيادة البحر. ولأجل هذا كانت بوابة البحر هي أجمل بوابات المدينة. إنها تدلنا على الوجهة التي علينا أن نركز جهودنا عليها.

ـ لكن البوابات المؤدية إلى داخل الأراضي ليست أقل أهمية.

ـ أنت على حق، فحادثة هيارباس وقعت لتذكرنا بأن الشعوب المحيطة بنا، إن هي أرادت أن تكون حليفة لنا فهي ليست ولن تكون أبداً صديقتنا. ومن المناسب إبقاؤها في حال من الخضوع المستمر إن لم نرد أن نؤول إلى الفناء. عليك أن تتذكر ذلك أيضاً.

كان موكب أدونيبعل قد وصل إلى مقربة من «البوابة» الجديدة، التي شُيدت منذ بضع سنين بفضل كرم آزر بعل، عضو مجلس المئة والأربعة. فمن هناك كان المسافرون يدخلون المدينة، قادمين من أسبيس، ومن رأس بون أو من حدريم. ولما عرف جنود الحراسة عربة أدونيبعل أخذوا يدفعون بقوة المتنزهين ليفتحوا لها طريقاً عبر حشد الناس، الذي كان عدده كبيراً في هذا الوقت بالذات من النهار. وبإيماءة من رأسه شكر الشيخ الجنود بينما قام أحد عبيده، الذي يعرف عادات سيده، بتسليم قائد الحرس صرة مليئة بقطع النقود ليتمكن هو ورجاله في المساء من الاستمتاع بشرب كؤوس من الخمرة الجيدة. بفضل تلك المجاملات المرهفة كانت عائلة برقا قد اكتسبت شعبيتها لدى عامة شعب قرطاجة. كانت تلك العائلة مشهورة بكرمها وتجردها من التعاظم المتكبر الذي يتصنعه أغنى مواطني المدينة.

وإذ رأى أدونيبعل أنه قد تأخر عن الوصول إلى مسكنه في ميغارا فإنه طلب من الحوذي تجنب الأزقة التي لا يزيد عرضها عن خمسة عشر ذراعاً، حيث كانت البضائع التي تجاوزت لكثرتها الحوانيت تعيق المارين والراكبين. لقد فضل أدونيبعل سلوك الطريق الرئيسي الذي يمر خلف البوابات وحي الصناع ليصل إلى المقام(*)، في الساحة الكبرى حيث يجتمع الشعب في أيام الاحتفالات. لقد كان المكان مهيباً. ففي الجهة المطلة على البحر كان هنالك مجلس الشيوخ، محاطاً بصف من أعمدة الرخام؛ وفي الجهة الأخرى ارتفعت أبنية بواجهات أقل بذخاً يعمل فيها مأمورو خزانة الدولة

(*) maqom.

والكتبة. تلك الأبنية كانت في اتجاه بيرسا، ذلك التل العزيز على قلوب جميع أهل قرطاجة، والذي شُيد فوقه معبد إشمون الذي يتم الوصول إليه عبر درج هائل من ستين درجة. وكان يرتقيه عشرات المؤمنين بعناء كل يوم ليقدموا للإله قرابينهم.

اجتاز موكب أدونيبعل الشمال الأقصى من المقام ـ وكان ذلك العبور مع الدواب والعربات، ميزة يتمتع بها فقط أعضاء مجلس المئة والأربعة ـ ثم سلك جهة المقبرة الكبرى، مدينة الأموات. ويصل امتداد «شاد إلوهيم» أي ساحة الآلهة، إلى البحر، وهي التي تقع وراء تل بيرسا. أما الطريق المحيطة بها فتؤدي إلى ميغارا. كان المحيط المحصَّن يضم الجميع داخله، لكن مسافراً غريباً قد يشق عليه الاقتناع بذلك. لأنه، وعند التحول عن طريق تطوقه منازل ذات أدوار، ينفذ المرء فجأة إلى الريف. ذاك الذي هو، وعلى مدِّ البصر سلسلة متتابعة من الحدائق والبساتين والحقول. وهل بوسع أي امرئ أن يتخيل أنه على بعد بضع عشرات من الغلوات(*) من هناك كانت توجد نهاية السور المتقدمة والتي منها ـ في الطقس الصحو ـ يمكن رؤية أسوار أوتيكا؟ لقد كانت قرطاجة فعلاً مدينة لا نظير لها ويحق لسكانها الفخر بها.

كان أدونيبعل، الذي يمقت صخب المدينة قد هجر قصر أبيه، القريب من مجلس الشيوخ. واقتنى في ميغارا أرضاً واسعة بنى فيها مسكناً باذخاً نالت الأناقة والرفاهية فيه كل مجد. كانت تتوالى عشرات الغرف حول فناء داخلي واسع مبلط، يزين وسطه حوض هائل ويحيط به رواق ذو أعمدة رخامية ملونة، وكان يفصل تلك الغرف عن بعضها البعض أبواب ثقيلة من البرونز، أو طنافس نفيسة، أما الأثاث فقد جُلب من اليونان، أو من مصر، أو من أشهر مشاغل قرطاجة. ولراحة سيد المنزل وضيوفه أُقيمت أحواض

(*) غلوة: وحدة قديمة من وحدات الطول.

سباحة، تغذيها على الدوام خزانات مياه تحيط بهيكل البناء الرئيسي.

كان عشرات العبيد من الجنسين يتعهدون المحافظة على ذلك المنزل. وهكذا، لما ظهر الموكب، وقفوا باحترام على جانبي الدرج الرخامي المؤدي إلى الفناء، مستعدين للامتثال لأدنى رغبة من أدونيبعل وقد بدا عليهم الفرح لرؤية هميلقار مجدداً بعد غياب طويل. كان هذا الأخير قد أمضى طفولته ومراهقته في هذا المنزل ويعرف كل خادم وخادمة فيه وكثيراً ما ضحك معهم ومازحهم. لم يكن يأمر أبداً بجلد أحد منهم واستطاع بذلك أن يعتمد على إخلاصهم المطلق.

لما دخل الشيخ وابنه الفناء إذا برجل يُقبل لملاقاتهما، وقد بدت عليه سمات الوقار والقلق:

ـ السلام عليك، بودشمون، قال أدونيبعل. ما السبب وراء زيارتك؟

ـ وعليك السلام والرخاء، أدونيبعل! جئت لأعرض عليك الطريقة التي نفذتُ بها الأوامر التي بلغتني إياها قبل رحيلك إلى أسبيس. يجب أن تنطلق سفينة خماسية المجاذيف بعد يومين محملة بالمؤن المخصصة لحاميتنا في ميسين. إن مهرا بعل، زميلك في مجلس المئة والأربعة، يخبرك أن المجلس سيجتمع غداً صباحاً لمناقشة الوضع في صقلية وللتشاور حول فحوى الرسالة الواجب إرسالها إلى حنون، قائد قواتنا في الجزيرة. ونزولاً عند رغبتك فإن ابنك هو الذي سيكلف بإبلاغ قائدنا تعليمات مجلس الشيوخ. وسيكون من الأنسب أن يتمكن، هو وأتباعه، من الإبحار غداً مساء على متن تلك السفينة الخماسية. هذا ما توجب علي أن أقوله لك.

ـ شكراً. لقد تصرفت بسرعة وبطريقة فعالة. اعلم أني ممتن لك على ذلك. أما بالنسبة إليك، هميلقار، فقد سمعت ما قاله بودشمون. لقد حان الوقت لتكون على أهبة الاستعداد.

- أبي، لا أعرف كيف أتصرف. رحيلٌ وبهذه العجلة!

- ألم ترد أن تكون جندياً؟ حسناً، هذه هي حياة الجندي: عليه أن يغادر أهله في كل حين. هل بدأ الضعف يدبُّ فيك؟

- أبي، ليس هذا ما أردت قوله. وإنما أخشى أن أكون جندياً رديئاً. فليس عندي سيف، ولا خوذة، ولا درع.

- كفى. انطلق لتأوي إلى جناحك. سنودع بعضنا غداً قبيل الظهر. لدي الآن بعض الأمور التي علي أن أناقشها على حدة مع بودشمون.

ولما وصل هميلقار إلى الجناح المخصص له سرَّ إذ وجد إبيسيد الذي لم يره منذالصباح، وأوضح له، ببضع عبارات، فحوى حديثه مع أبيه. ابتسم المعلم وقال:

- أشكر الآلهة التي جعلتني ألتقي بآل برقا. لقد أخذني جنودكم أسيراً إلى قرطاجة وأحد أولئك الجنود، وهو أنت على ما يبدو، يُكلَّف اليوم بإرجاعي إلى جزيرتي الأم. ما حسبت يوماً أني سأراها ثانية ولست على يقين بأن ذلك سيكون مبعث سرور لي حقاً.

- إبيسيد، إني لا أفهمك على الإطلاق. لو كنت مكانك لطرتُ فرحاً. لا أحد يستطيع أن ينسى وطنه.

- إلا إن كان عبداً. لقد كنت كذلك منذ بداية حياتي، فأمي وأبي كانا خاضعين للعبودية. وحالفني الحظ في أن ميَّزني سيدي، وهو أحد أغنى مواطني بانورموس، إذ قدم لي تربية فائقة العناية لأصبح معلم أطفاله. ولما استولى جنودكم على مدينتنا فإني وبكل بساطة استبدلت سيدي بآخر. صدقني، إن أباك أدونيبعل، رغم خشونته الظاهرة، فهو أفضل بمئة مرة من اليوناني الذي كنت ملك يمينه. لقد أبدت قرطاجة نحوي كرماً أكثر مما أبدته بانورموس، ولأجل هذا أشعر بشيء من الحزن عندما أفكر بمغادرتها لحين من الوقت.

والأمر الوحيد الذي يواسيني هو معرفتي أني سأبقى إلى جوارك لخدمتك. سيكون أمراً مؤلماً ان أنقطع عن رؤيتك.

ـ بما أنك تتكلم عن خدمتي، أليس بوسعك أن تخلصني من ورطة؟ أنت الذي تعرف أزقة قرطاجة عن ظهر قلب، أتعلم أين يمكنني أن أجد عتاداً كاملاً لجندي؟ فأنا لا أستطيع أن أحضر أمام حنّون ولباسي مثل لباس أي فرد من سكان المدينة!

ـ أتذكر ذلك العبد الذي كان أبوك قد أرسله إلى أسبيس منذ بضعة أشهر؟ لقد كان مكلفاً بأخذ مقاسات جسمك ليجدد لك ملابسك. لقد استقبلته استقبالاً سيئاً فالوقت كان موسم بذار وكنت تمضي أيامك في الحقول. لقد اضطررت أن أستخدم كل قدرتي في الإقناع لأحملك على تمضية وقت قصير معه.

ـ أجل، أذكر ذلك. إنه لأمر سهل! أين هي تلك الأردية الشهيرة؟

ـ أنصحك بالذهاب إلى غرفتك. فهنالك ستجد ثمرة عمله.

لما دخل هميلقار الغرفة التي ذكّره ترتيب أثاثها المألوف بسنوات حداثته، وجد أمامه مفاجأة، لقد رُتِّب فوق الطاولة الكبيرة المقابلة للشرفة العتاد التالي: معطف ثقيل من القماش الأحمر، صداران متينان من الجلد، زردتان(*) على شرائط الخوذة تماثلان تلك المخصصة لأعضاء الباتيون المقدس حيث كانت تخدم صفوة الشبيبة القرطاجية، درعان، أحدهما بحاشية برونزية، والآخر من حديد، سيوف عدة مع أغماد من الخشب المنقوش، دروع للساق ذات خف ثقيل، وخوذة أسطوانية تعلوها قبة صغيرة، تحمي الجمجمة والوجنتين، والرقبة والحلق، وقد فتح فيها ثقبان للعينين وثُبت شريط معدني في مكان الأنف. بهت ابن أدونيبعل وهو يتأمل تلك العجائب، ثم، وبصرخة مبتهجة، نادى إبيسيد:

ـ كنت تعرف!

(*) الزرد: حلقات من الحديد.

ـ أعرف ماذا؟

ـ أن أبي كان يفكر في كل شيء.

ـ بخلافك، لم يخالجني شك تجاهه.

ـ لا يهم إن كنتَ على حق أو خطأ، ساعدني بالأحرى على ارتداء أحد هذين الدرعين، إني أنتظر ذلك بفارغ الصبر.

واختارا تلك الدرع ذات الحاشية التي تثبت على الكتفين بسيور من جلد، وتنتهي في قسمها الأسفل بهدب من الجلد أيضاً.

إلى وقت متأخر من المساء مكث الرجلان يتفحصان كل قطع عتاد ضابط المستقبل، وقد فتنا بروعة صنعه. من الواضح أن أدونيبعل كان قد استدعى أفضل صناع قرطاجة، وهذا دليل على الأهمية التي علقها على مهمة ابنه. وحين افتراقهما لقضاء ليل، لا ريب أنه سيكون قصيراً، خاطب إبيسيد تلميذه القديم قائلاً:

ـ سأكون غداً إلى جانبك لكن لدي إحساس، هميلقار، بأني سأراك للمرة الأخيرة.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ إلى هذه اللحظة، أنت هميلقار، ابن أدونيبعل وتلميذ إبيسيد. لكن عند خيوط الفجر الأولى ستكون إنساناً آخر.

ـ وماذا سأكون؟

ـ ستكون هميلقار برقا، سيكون لك اسم تدوي أصداؤه قريباً في أقاصي إمبراطورية قرطاجة وسيبعث الهلع في نفوس جميع أعدائه. سأدعك تستمتع بآخر ليل بصفتك هميلقار. تذوق كل لحظة فيه. فأنت لن تعيشها ثانية.

الفصل الثالث

آخذاً بعين الاعتبار أهمية الموضوع الذي ينبغي معالجته قرر مجلس المئة والأربعة أن يجتمع استثنائياً في حرم معبد إشمون. إن جلال المكان سيفرض على الجميع أن يتفكروا جيداً بقراراتهم وأن يتجنبوا تحول النقاش، المتوقع أن يكون حامياً، إلى تضارب بالأيدي كما كان يحصل غالباً في الماضي. وكانت قد وضعت مقاعد على جانبي تمثال الإله الهائل المصنوع من الذهب. وصل الشيوخ أفواجاً صغيرة، يتجاذبون فيما بينهم بلباقة أحاديث غير ذات بال. ولما اكتمل الجمع، افتتح مهرا بعل الجلسة:

ـ أعضاء «المجلس الكبير» اللامعين، علينا أن نتخذ اليوم قرارات لأجل مستقبل مدينتنا، ستترتب عليها نتائج جِسام. لذا أطلب إصغاءكم التام. أنتم تعلمون أن الماميرتانيين قد التمسوا مساعدتنا وأننا منحناهم إياها بإرسالنا الأميرال حنون إليهم. وإن حليفاً آخر من حلفائنا هو هييرون ملك سيراكوزة(*)، قد أرسل إلينا وفداً ليسبر مقاصدنا. هو أيضاً يعتبر نفسه مهدداً من الروم ويخشى أن ينزل هؤلاء في الجزيرة ويضربوا حصاراً على مدينته. وإلى اليوم هو في حرب ضد الماميرتانيين الذين اجتاحوا الأراضي الواقعة تحت سلطته. إنه مستعد لأن ينسى بمروءة إهانات الماضي وأن يضم قواته إلى قواتنا لمساعدة سكان ميسين. وستنضم إليه مدن يونانية

(*) Syracus: وتقع في جزيرة صقلية.

أخرى في صقلية ما إن تتأكد من أن قرطاجة مستعدة لكل شيء من أجل إرغام الروم على احترام المعاهدات. إنها فرصة رائعة لا نستطيع أن نتركها تفلت منا.

ـ مهرا بعل، إن كلامك ينم عن موهبة لكن الأجنبي ليس هو الذي يرسم لمدينة إليسا طريقها!

كان الذي قاطع مهرا بعل بصوت ناعم معسول، هو بعل يتون، أحد أغنى أغنياء المدينة. كان أدونيبعل يعرفه جيداً إذ لديه ابن في عمر هميلقار نفسه اسمه كارتالون، وكان رفيق طفولة ولده. وكان في عداد الوفد المرسَل إلى روما بعد قضية تارنت التعيسة، ومنذ ذلك الوقت ما فتئ بعل يتون يمجد ثروة وقوة مدينة رومولوس(*).

ـ ماذا تعني بذلك، بعل يتون؟ رد عليه مهرا بعل.

ـ لقد خاننا الماميرتانيون والسيراكوزيون مراراً في الماضي وقد بلغت الجرأة بالسيراكوزيين، قبل جيلين، لأن ينزلوا في منطقة رأس بون حيث خربوا ضياع جدودكم. إنها طريقة رائعة لتكريم ذكرى آبائكم أن تتحالفوا مع صناع مصائبهم! حريٌّ بنا أن نخشى أن تصيبنا الآلهة بخزي مماثل انتقاماً منا.

شعر أدونيبعل أن بعل يتون قد زعزع لتوّه قناعة أعضاء المجلس. وإن لم يتكلم الآن فإن معسكره المناصر للحزم المطلق تجاه روما قد يُهزم بغالبية الأصوات. وقف أدونيبعل وأخذ مكانه وسط صحن المعبد، ثم وبنبرة جافة انطلقت كلماته بقوة:

ـ بعل يتون، صديقي، إن إخلاصك نحو آبائنا يساوي الحب الذي تحمله لوطننا. أنت الذي تعرف الروم جيداً هل بوسعك أن تؤكد لنا أنهم لن ينزلوا في صقلية وأنهم لن يحاولوا احتلال منشآتنا في تلك الجزيرة؟ قلت لنا أنهم أصحاب نوايا سلمية. لم إذن حشدوا العديد من فيالق جندهم في ريجيون؟

(*) رومولوس: مؤسس روما الأسطوري وأول ملوكها 753 ـ 715 ق. م غذته ذئبة بحليبها مع أخيه التوأم روموس واحتضنه أحد الرعاة.

ـ أدونيبعل، ما من أحد بوسعه التنبؤ بالمستقبل عدا الكهنة الذين بوسعهم قراءة الغيب وسط دخان البخور وأحشاء الحيوانات. حسب رأيي، إنهم يريدون الاستيلاء على ميسين وسيراكوزة لينهبوا ثرواتهما وليقيموا فيهما المواقع العسكرية.

ـ إن تلك المواقع ستهدد أملاكنا، وسيطمع الروم فيها. أعضاء المجلس الكبير اللامعين، كم منكم لديه أراض واسعة في صقلية؟

وارتفعت أيد كثيرة بينما تابع أدونيبعل كلامه:

ـ أرأيتم، ليس الماميرتانيون ولا السيراكوزيون هم الذين يُملون على قرطاجة نهجها. وإنما أبناؤها الأكثر تألقاً، وثروتهم لاغنى عنها لحياة مدينتنا. هل سندع مدينتنا تنحدر إلى العوز؟

ـ كلا، كلا! واجتاحت المجلس بأكمله صيحة قوية.

ـ لهذا علينا تدارك خطر نزول الروم إلى برِّ صقلية. وإن رغب المجلس فأنا أقترح إرسال رسالة إلى حنون مبلغاً إياه أمراً نحذر فيه روم ريجيون من أن مجرد اجتياز المضيق بين الأرض الكبيرة والجزيرة سيُعتبر انتهاكاً للمعاهدات الموقعة بين مدينتينا وسيعني ذلك الحرب. هذا هو قولي. من يوافقني؟

خلا بعل يتون وثلاثة شيوخ آخرين فإن الجميع تبنى القرار الذي اقترحه أدونيبعل.

بعد أن حيَّا أدونيبعل أعضاء المجلس المئة والأربعة الواحد تلو الآخر، عاد إلى منزله في ميغارا حيث كان ينتظره هميلقار بفارغ الصبر. لكن، وحتى قبل أن يتبادل كلمات قليلة مع ابنه، توجه الشيخ إلى جناحه ليملي على كاتبٍ الرسالة الموجهة إلى حنون وختمها بختم المجلس. ولم يلتق بتلميذ إبيسيد إلى أن فرغ من تلك المهمة.

ـ أبي، قال هميلقار، كيف أشكرك على هداياك الفاخرة التي عثرت عليها مساء أمس؟

- بإظهارك أنك جدير بي وبعائلتي.

ضرب هميلقار بقبضته اليمنى أعلى درعه.

- أقسم على ذلك!

- حسناً. لنتجنب الوداع الطويل. لقد حان وقت ذهابك إلى الميناء إن كنت تريد الإبحار قبل الليل على سطح السفينة الخماسية المجاذيف التي ستحملك إلى صقلية. مع من ستسافر؟

- مع إبيسيد وجوبا.

عند نطقه ذاك الإسم الأخير اكفهر وجه أدونيبعل لكنه تجنب تماماً أن يعرب عن أي رأي.

- حسناً، اذهب. ستقدم لي تقريراً لدى عودتك من مهمتك!

* * *

كان هميلقار قد غادر ميغارا على فرسه، يتبعه رفيقاه. وأُحضرت أمتعتهم مباشرة إلى الميناء العسكري وبعد تفقدها حُمّلت على ظهر السفينة. في تلك الأثناء كان الرجال الثلاثة يعدون بخيولهم عبر البساتين، كان الرجلان الأصغر سناً يطلقان بين الفينة والأخرى صيحات الفرح. ولما وصلوا إلى أوائل منازل المدينة أخذوا يبطِؤون من سرعتهم. وما لبثوا أن ترجلوا عن مطاياهم ليعهدوا بها إلى عبد غالي(*) من ضيعة أبيه صادفوه في الطريق، مكلفين إياه بإعادتها إلى ميغارا.

إبان عصر ذلك اليوم كان الناس يحثون خطاهم في مختلف شوارع المدينة. كانت حشودهم صاخبة، فرحة، متنوعة، لم يتردد التجار في إغرائها مشيدين بحماس بمزايا بضائعهم. بعد أن اجتاز الرجال الثلاثة المقام توجهوا إلى المدينة الدنيا، حيث حيّ الصناع.

(*) غاليا Gaule: اسم أُطلق قديماً على المناطق الممتدة بين الراين والألب والمتوسط والبيرينيه والأطلسي.

فيه كان يعيش جنباً إلى جنب، وفي فوضى مثيرة، خزافون، صناع أوان زجاجية، نجارون، حُيَّاك وحجَّارون. وكانت نساء وأطفال منهمكين في شغلهم يحملون إلى العمال التراب، والماء والحطب اللازمين لأفران ومشاغل الخزف. بينما كان آخرون يحملون فوق عربات صغيرة متمايلة الآجر، والأواني، والقرميد والفخار.

وانبعثت رائحة لاذعة من الأحواض الكبيرة التي كان الصباغون يدعكون فيها بأقدامهم النسيج ليكسبوه لونه الأخير. وفي أماكن أخرى تربَّع صيَّاغ مباشرة فوق أرض مشغلهم، وهم يصوغون الذهب والفضة والبرونز على وقع صليل مئات المطارق. وعلى جانبي كل زقاق تغطيه طبقة رقيقة من تراب مُداس، كانت تنتصب منازل ذات أربع أو خمس طبقات، يتكدس فيها العشرات من السكان. هناك، في تلك الأكواخ القذرة، كان يعيش سواد شعب قرطاجة: رجال ونساء بسطاء، خشنون، متعلقون على نحو عنيف بآلهتهم ومدينتهم. وليكسب الشيوخ ودهم أقاموا عشرات الينابيع العامة التي قصدها الناس والدواب للشرب والتزود بالماء. وكانت نسوة يحملن جراراً فخارية ثقيلة فوق رؤوسهن، ويرافقهن أطفال بأثواب رثة، يطلن المكوث عن طيب خاطر حول النبع، وهن يتبادلن المزاح والثرثرة.

تجاوز هميلقار ورفيقاه حيّ الصنَّاع. وبدل أن يتجهوا نحو البوابة انحرفوا باتجاه بعل كوديش حمون، وهو الحرم المقدس المكرس لبعل حمون، الإله الرئيسي لقرطاجة. في هذه المنطقة وسط الهواء الطلق كان المؤمنون على مرّ الأجيال يضعون مئات وآلاف المرامد(*) والمسلاَّت المزخرفة بنقوش متنوعة. تارة متوسلين نِعَم الإله، وتارة أخرى شاكرين إياه على أفضاله. وهناك أيضاً كانت تقدم القرابين الاحتفالية على شرف بعل حمون، وخاصة عندما كانت المدينة تواجه الخطر. قبل أن يبحر ابن أدونيبعل أراد أن

(*) مرمدة: إناء يوضع فيه رماد الموتى بعد حرقهم.

يستغرق في التأمل بضع لحظات أمام المسلَّة التي نصبتها عائلته. كان إبيسيد وجوبا قد ترددا في مرافقته. فهما ليسا قرطاجيين ولا يجلاَّن بعل حمون.

سألهما ابن الشيخ بلهجة اختلطت الرصانة فيها بالمزاح:

- أتخافان من آلهة قرطاجة إلى درجة خشيتكما دخول معبد أكبر آلهتها؟ مع ذلك، إبيسيد، انظر إلى هذا النقش إلى يمينك. إنه لشخص اسمه أدريستوس، ابن بروتاركوس، ويؤكد أنه قدم للإله قرباناً. حسب اسمه واسم أبيه، فهو يوناني مثلك. بوسعك أن تقلده. أما أنت، جوبا، فأنا أعلم أن أمك قد جاءت مراراً إلى هذا المكان لتقدم فيه التعاويذ. الأمر الذي لم يمنعها من أن تمجد آلهتها الخاصة. اتبعاني إذن دون خوف لتبرهنا لي بحضوركما على صداقتكما ولنلتمس معاً بركة بعل حمون عشية رحلة بحرية طويلة سنقدم عليها.

ما إن دخلوا المعبد حتى ارتمت عليهم سحابة من الكهنة. كل منهم يدعي أنه أفضل خادم للآلهة. تشاجروا فيما بينهم، وتدافعوا، وصاحوا بلا انقطاع كعصافير الدوريِّ. أفلت هميلقار الغاضب من جذبهم وقال لهم بصوت آمر:

- أنا هميلقار برقا، ابن أدونيبعل، عضو مجلس المئة والأربعة، حفيد جيرار عشتار وابن حفيد القاضي حسدروبال سأسافر في رحلة طويلة وإني حريص على أن أضع نفسي تحت حماية بعل حمون. من يتلو الصلوات لأجلي ولأجل صاحبيَّ الباسلين؟

تقدم الكاهن الأكبر سناً وحيّا الشاب باحترام:

- لقد حظيتُ، في شبابي البعيد، بلقاء القاضي حسدروبال. أتمنى أن تكون لك حكمته وفضائله! تعال، أنا من سينطق الكلمات الواجب قولها في ظروف كهذه.

لما وصل هميلقار إلى المسلَّة التي أقامتها عائلة برقا استغرق

في تأمل طويل. ثم ارتفع صوت العجوز نحو السماء، مظهراً بجلاء كل جملة ينطقها. أما إبيسيد وجوبا، اللذان كانا يفهمان القرطاجية، فلم يضيعا كلمة مما يقول الكاهن، وإن شقَّ عليهما أحياناً فهم بعض الصيغ القديمة. لدى خروج هميلقار من الاحتفال أعطى الكاهن صرة مليئة بالنقود.

ـ أعهد إليك بهذا المبلغ لتشيد مسلة باسمي وباسم رفيقيْ، إبيسيد وجوبا، وعليها ستنقش ما يلي: «لقد باركهم إذ سمع أصواتهم». وستكون أنت ورفاقك بما يزيد من تلك النقود ـ ولن يكون ضئيلاً ـ في منأى عن الحاجة لبعض الوقت.

التفت ابن الشيخ نحو صديقيه وقال لهما بخشونة: «لقد تأخرنا كثيراً. حان الوقت لنمثل أمام مركز القيادة البحرية». وبخطى نشطة توجهوا نحو الميناء التجاري. كثيراً ما كان هؤلاء الثلاثة يتجولون في ذلك المكان، وقد جذبهم الجو الغريب السائد فيه. كانت السفن القادمة من أعالي البحر تدخل الميناء عبر ممر مائي عرضه سبعون قدماً، ويُغلق كل مساء بسلسلة حديدية ثقيلة. وكانت حلقات كثيرة لحبال المراكب قد ثُبتت على حجر رصيفي الميناء. وخلف هذين الرصيفين كان يوجد رواق تجاري تدعم سقفه صفوف من أعمدة الرخام. ويستند الرواق، من جانب البحر، إلى السور. وعند مدخل الممر المائي، خارج المكان المسور، تم إعداد مرسى. كان سطحاً واسعاً يجنح إليه الصيادون بسفنهم الصغيرة مساء.

كان ميناء قرطاجة التجاري لا نظير له في العالم، هذا ما أكده سكان المدينة. وعلى أرصفة الميناء وأسطح السفن كان البحارة يتشاتمون بلهجات كثيرة. ويترامى للسمع أحاديث بالقرطاجية، واليونانية، واللاتينية، لكن أيضاً بلغات أخرى ذات رنين غريب. أما زي البحارة فكان متنوعاً تنوع شكل السفن ولون أشرعتها. حتى كأن شعوب البحر الكبير كلها قد تواعدت هنا، مغدقة على مدينة إليسا ثرواتها وبضائعها. وكان يوجد في الميناء، وسطياً، من

خمسين إلى ستين سفينة. وحتى أنه، في بعض أوقات السنة، إبان الصيف، قد تُرغم مراكب على إلقاء مراسيها في عرض البحر في الخليج الصغير لأيام عدة قبل أن يُسمح لها بالدخول إلى الممر المائي.

لأجل هذا حصلت هيئة التجار من مجلس الشيوخ على إذن بإقامة مرسى يقع خارج السور. وبذلك أصبح بوسعهم أن ينزلوا فيه بضائعهم وأن يزودوا سفنهم بالمؤن، تلك السفن التي ستسافر مجدداً إلى إسبانيا، وصقلية وسردينيا متجنبين إضاعة وقت ثمين، إن ذلك الامتياز لم يُمنح للتجار الأجانب، المرغمين على انتظار فراغ حلقة حبل السفينة.

بقدر ما كان الميناء التجاري مألوفاً لهميلقار ورفيقيه، بقدر ما كانوا يجهلون تماماً الكوتون، أي الميناء العسكري، حيث شيد مبنى القيادة البحرية. لقد كانت تلك المنطقة الأكثر حماية في قرطاجة، ولاريب أنها كانت محمية أكثر من القاعات التي كان يودع فيها مجلس الشيوخ مبالغ الأتاوات والضرائب المحصَّلة من جميع الأقاليم الواقعة تحت حكمها. لم يكن بوسع أحد دخول تلك المنطقة إن لم يكن يحمل إذناً مطابقاً للأصول الواجبة، أو مسجلاً في سجل مستخدمي ورشة السفن الحربية. ذاك السجل المنظَّم والمضبوط بعناية.

وكان يتحتم على العمال الذين يسكنون في المدينة أن يقسموا بألا يقدموا لأي كان، وتحت أي ذريعة، أدنى معلومات حول الميناء العسكري ومنشآته. وقد بث مجلس الشيوخ مخبرين ليترصدوا الهذر المؤذي، وكان بعض المتهورين، الذين حلَّ الشراب عقدة لسانهم، يكَّفرون عن غلطتهم تلك فوق خشبة الصليب بعد أن يتم تعذيبهم طويلاً ليعترفوا بهوية من تحدثوا إليهم. كان التحذير مفهوماً ولم يعد يُسجل، منذ وقت طويل، خرق للقاعدة. وكانت تلك القاعدة تنطبق على كل فرد، مهما تكن مكانته. فأدونيبعل، على سبيل المثال،

وباعتباره عضواً في مجلس المئة والأربعة كان يذهب كثيراً في جولات تفقدية إلى مركز القيادة البحرية. لكنه لم يكن يتكلم عن تلك الجولات إطلاقاً إلى ابنه في حين أنه كان يقص عليه بالتفصيل ما يحدث في بعض جلسات مجلس الشيوخ الصاخبة.

في كل مرة كان يذهب فيها هميلقار إلى الميناء التجاري كان يتأمل عن بعد السور المستدير الذي يوجد خلفه الكوتون. وكان، من حين لآخر، يبصر سفناً ضخمة، ثلاثية أو خماسية المجاذيف، مزودة بمهاميز ثقيلة في مقدمتها، تدلف إلى الميناء التجاري ثم تتجه إلى عرض البحر. وعندما كان يُعلن عن وصول مواكب سفن القمح القادمة من صقلية وسردينيا، فإن عشرات من سفن قرطاجة الحربية كانت تمضي إلى ملاقاتها. كانت تبدو وكأنها تخرج من علبة غامضة تخفي في داخلها نبع قوة المدينة الحقيقي. هذا السر سيكتشفه هميلقار اليوم.

تقدم هميلقار مع إبيسيد وجوبا إلى مركز الحراسة المشيد أسفل السور المستدير.

ـ قف، قال ضابط الحراسة مع رجاله. من أنتم وماذا تريدون؟

ـ أنا هميلقار برقا، ابن أدونيبعل، وهذان الرجلان هما معلمي ومرافقي. لقد كلفني مجلس المئة والأربعة أن أنقل رسالة إلى حنّون وعلي أن أبحر إلى ميسين.

ـ أنا في أنتظاركم. لقد وصلت أمتعتكم منذ قليل وتم تفتيشها. سآخذكم إلى القيادة البحرية حيث يأمل ماغون أن يلتقي بك.

اتخذ الرجال الثلاثة مكانهم فوق سطح أحد القوارب الذي ابتعد عن رصيف الميناء، محاذياً السور المستدير ومتقدماً باتجاه مدخل الميناء العسكري. دخل الزورق الخفيف ممراً متعرجاً ضيقاً. ولدى خروجه لم يتمالك هميلقار وإبيسيد وجوبا أنفسهم من إطلاق صيحة تعجب. كان الميناء يشكل دائرة كاملة مقسمة إلى مئتين وعشرين

رواقاً زُينت واجهة كل منها بعمودين إيونيين. وفي كل رواق من تلك الأروقة، المستخدمة لترميم السفن ولقضاء فصل الشتاء، أُعدت مخازن لتجميع عتاد السفن والأشرعة. كما أتاح نظام مبتكر للحبال والبكرات أن تبقى السفن خارج الماء ليتمكن العمال من ترميم أجزائها السفلى. وفي وسط الميناء كانت توجد جزيرة جُهزت أرصفتها أيضاً بأروقة محاطة بأعمدة تدعم سقفاً اتُخذ سطحاً ويعلوه برج يستطيع منه الأميرال مراقبة ما يجري في الميناء التجاري وفي الخليج. لقد تم التصميم كله بحيث أن ورشة السفن الحربية والميناء العسكري كانا لا يُشاهدان من الخارج.

اتجه القارب نحو الجزيرة حيث سُمح لهميلقار وحده بالنزول منه. وعبر درج كأنه يهوي من أعلى البرج، قاد ضابط هميلقار إلى قاعة واسعة مستديرة حيث كان ماغون، محاطاً بحشد من الكتبة، يقضي غالب وقته. كان الأميرال يملي أوامره على قادة سفنه. ولما أبصر هميلقار توقف عن الكلام:

ـ أهلاً بك ابن أدونيبعل. أنا وأبوك صديقان قديمان، وقد حرصت على أن أحييك قبل رحيلك. ليس لدي شيء محدد أقوله لك سوى أن ربان سفينتك الخماسية هو بحار محنَّك. بوسعك أن تضع ثقتك الكاملة فيه. اعذرني على عدم استطاعتي أن أكرس لك مزيداً من الوقت فلدي الكثير من العمل منذ أيام عدة. أتمنى لك رحلة موفقة.

خرج هميلقار ليعود إلى رفيقيه اللذين كانا قد أبعدا السآمة عنهما بممازحة المجذفين. عادوا إلى الرواق حيث كانت سفينتهم الخماسية المجاذيف قد رُبط حبلها. وصعدوا إلى متنها عبر سلم من حبال يتدلى من سطحها. كان هناك في استقبالهم رجل ذو لحية كثَّة وسحنة لوحتها الشمس.

ـ أنا عبد ملقارت، ربان هذه السفينة، أهلاً بكم. لقد أمرت بتهيئة غرفتين في مؤخرة السفينة لأجلكم. هميلقار إني أخشى أن

تكون الغرفتان أقل راحة بكثير من غرف مسكنك في ميغارا حيث دعاني يوماً أبوك إلى العشاء. نحن البحارة معتادون على حياة قاسية وصعبة. لقد بذلت قصارى جهدي.

- أشكرك على ذلك لكني لا أطلب أي تفضيل لأجلي ولا لأجل صاحبيْ. إني من اليوم جندي وعلي أن أشارك نظرائي ظروف حياتهم.

- إنه همٌ محمود لكن لا تصعب مهمتي بتواضعك الكبير. فأنا إن قررت أن أخصص لك هذا القسم من السفينة فذلك لأن مقتضيات العمل لا تحوجنا إليه. سأدعك تنزل في غرفتك. وسنلتقي مجدداً هذا المساء للعشاء إن كنت تود ذلك. سأرسل إليك من يدعوك.

* * *

توجه هميلقار وإبيسيد وجوبا إلى مؤخرة السفينة ومن ثم إلى الغرفتين اللتين تم حجزهما لهم، حيث وضعت أمتعتهم فيهما قبل وصولهما. قرر ابن أدونيبعل أن يشاطر جوبا الغرفة الأكبر، تاركاً الغرفة الأصغر لمعلمه السابق. وفي الخارج كانت تُسمع أصوات انهماك عشرات الرجال في أعمالهم. كان البعض ينظف السطح بماء غزير، والبعض الآخر يرفع إلى ظهر السفينة أكداس الحبال، وجرار الزيت، والحبوب والكلأ. وفي نهاية النهار، بينما كانت الشمس تتوارى في السماء، ترامى إلى السمع وقع ضوضاء. خرج هميلقار ورفيقاه، وقد أثارت تلك الجلبة اهتمامهم ليروا ما يحدث. خلف الرواق حيث كانت قد ربطت السفينة، كان يتقدم عشرات الرجال وليس على أجسادهم سوى قطعة قماش حول الخصر. كانت الأغلال في أقدامهم وقد كُبّلوا في مجموعات، تضم كل منها عشرة أشخاص. كانوا جميعاً في مقتبل العمر، ومن أصول متنوعة. كان هنالك النوميديون، وأيضاً السردينيون، والليغوريون والصقليون. استبق إبيسيد سؤال هميلقار عنهم، ليوضح له قائلاً:

ـ هؤلاء هم المجذفون. جميعهم من العبيد. بعضهم أسرى حرب، وآخرون اشتراهم مبعوثو قيادة البحرية من مدن لم تتردد في بيع رعاياها لقاء صناديق مملوءة ذهباً وفضة.

ـ هل يلزم الكثير من الرجال لأسطولنا؟

ـ أكثر مما تتصور. إن قرطاجة لديها الكثير والكثير من السفن، فعلى سبيل المثال يلزم لهذه السفينة ثلاث مئة مجذّف لتحريك صفوف المجاذيف الخمسة. ها هم سينزلون الآن إلى قاع السفينة حيث سيقيمون فيه حتى نهاية رحلتنا.

ـ ومن سيراقبهم؟

ـ خفراء* هم أنفسهم كانوا مجذفين. لأجل هذا ليس في قلوبهم حنان كبير تجاه هؤلاء التعساء. بل على العكس، ربما تستولي عليهم أحياناً لذة خبيثة في جلدهم وضربهم كما لو أنهم يريدون أن ينتقموا لما قاسوه هم أنفسهم في الماضي.

ـ وماذا يحدث لهؤلاء المجذفين عندما تغرق السفينة؟

ـ يغرقون معها. إنهم مربوطون إلى مقاعدهم وليس لديهم أي حظ في التمكن من النجاة بأنفسهم. هم يعرفون ذلك ولأجل هذا، وفي خضم المعركة، يجذفون بنشاط لا مثيل له ليكون قاربهم أول من يصدم الخصم ويوجه له الضربة القاضية. إن المسألة مسألة حياة أو موت. لا شيء مثل ذلك يثير حماس رجل.

ـ عند حلول الليل جاء بحار يطلب هميلقار. كان عبد ملقارت ينتظره على العشاء في مقدمة السفينة.

ـ شكراً على دعوتك. لقد أثّرت في نفسي فأنا لا أحب أن أُمضي لوحدي أمسيتي الأخيرة في قرطاجة.

ـ لقد تكهنت بذلك يا ابن أدونيبعل. أنا أيضاً، قبل وقت طويل جداً، وجدت نفسي في وضع مشابه، ومازلت أذكر بامتنان المبادرة

التي أظهرها لي حينذاك قبطان السفينة الثلاثية المجاذيف التي كنت أبحر على متنها.

ـ منذ متى تخدم في بحريتنا؟

ـ ربما منذ حوالى ثلاثين عاماً، لا أذكر على وجه الدقة، إني في أغلب الأحيان بعيد عن قرطاجة.

ـ هل سافرت كثيراً؟

ـ أكثر مما تتصور وربما أكثر مما كنت أنا نفسي أشتهي!

ـ هل تجاوزت أعمدة ملقارت؟

ـ أجل. كنت لفترة طويلة أكتفي بالإبحار في البحر الكبير، ذاهباً إلى صقلية، وسردينيا، وتارتيسوس(*) وإلى شواطىء غالية لأحرس هناك السفن التجارية. ثم، ذات يوم، وقد ارتأى مركز قيادة البحرية، أني كنت قبطاناً محنكاً، عهد إلي بمهمة هامة على نحو خاص: المضيُّ على خطى حنون. لكن، قبل أن نتكلم عن ذلك، لنأكل بشهية الطعام الذي ينتظرنا.

صفق عبد ملقارت بيديه، فوضع عدة بحارة فوق طاولة منخفضة طبقاً مليئاً باللحم المشوي وطبقاً آخر مثقلاً بالفاكهة، في حين صبَّ عبد الخمر في كأسين زخرفهما مقبض عاجي. أكل هميلقار بشهية الطعام الذي أعده مضيفه له. إن كل الانفعالات والأحاسيس التي مرَّ بها هميلقار في الأيام الأخيرة كانت قد فتحت شهيته للطعام. فعشية رحلة طويلة كان يشعر على نحو غامض أن عليه أن يستعيد قواه وأن يأكل بالتالي بشهية قطع لحم الثيران والخرفان التي تصاعد بخارها. ثم ختم وليمته ببضع عناقيد من العنب وحبات من التين الشهي.

(*) تارتيسوس: وكالة تجارية قرطاجية تقع عند مصب نهر غواد الفير «الوادي الكبير» في جنوب اسبانيا ولعلها هي «تارسيز» الأسطورية في الكتاب المقدس.

ـ عبد ملقارت، أشكرك على هذه الوليمة الحقيقية. اعلم أن أبي أدونيبعل سيحاط علماً بحرارة استقبالك وكرمك. لكن عليك الآن أن تُشبع فضولي الذي أثرته بكلامك. لقد قلت لي أن قيادة البحرية قد كلفتك بأن تبحر متتبعاً خطى حنون. هل تقصد بكلامك ذلك الأميرال الكبير الذي وصل صيت مآثره إلى اليونانيين أنفسهم؟

ـ أجل، هو بالفعل من أتكلم عنه. إنك تعلم أن قصة رحلته البحرية منقوشة على ألواح موضوعة في معبد إشمون. إنه أول من اجتاز أعمدة ملقارت، هناك حيث تلتقي مياه البحرين، وأول من أبحر، بعيداً، بعيداً جداً، صوب الجنوب، بسفن تقلُّ أكثر من ثلاثة آلاف شخص. لقد كان يعود، محملاً بالذهب والبضائع المختلفة، لكن ما من أحد، منذ ذلك الوقت، قد سمع أي حديث عن المستعمرات التي أنشأها في طريقه.

ـ ألم تهتم قرطاجة إذاً بأمره؟

ـ إن مدينتنا، ابن أدونيبعل، تهتم بأبنائها عندما يكونون قريبين منها أو عندما يحملون إليها الثروات. لكن لا ينبغي الاعتماد عليها لتنفق مالها دون طائل. فبما أن المدن التي أقامها حنون لم تكن تبعث أخبارها فما جدوى الاهتمام بها؟ وهكذا فإن مدينة إليسا نستها.

ـ لماذا إذن أُرسلت للبحث عن تلك المدن؟

ـ لم يكن الغرض العثور عليها وإنما اكتشاف الطرق التجارية المهملة منذ وقت طويل. صدقني، كانت رحلة شاقة. لقد مضى بين رحيلنا وعودتنا ما يقارب ثلاث سنوات، وأكثر من مرة اعتقدت جازماً أني لن أرى ثانية أسوار قرطاجة أبداً. لقد فقدت أكثر من نصف طاقم سفينتي، وتعين عليَّ تجنيد مجذفين من سكان الأرض التي بلغتها، وإلا لكنت متُّ في جهة ما من تلك البقاع الجهنمية.

ـ ولمَ هي جهنمية؟

ـ لشدة الحرارة المسيطرة على جوِّها. صدقني، هميلقار، عندما يتضجر مواطنونا من حرارة الصيف المرتفعة جداً أو من الجفاف الذي يضرب مدينتنا وأطرافها، فإني أرغب أحياناً باتهامهم بنكران الجميل. حتى أحرَّ الأيام التي عرفتها قرطاجة ما هي إلا نعمة حقيقية من السماء مقارنة بما ينتظر المسافر في جنوب أعمدة ملقارت. إني أذكر ـ كما لو أن ما حدث كان بالأمس فقط ـ تلك الأسابيع الطويلة من الإبحار تحت شمس حارقة وبالمجاذيف وحدها. لقد أضحت الأشرعة غير ذات نفع إذ لم تكن هنالك أدنى نسمة هواء. وعلى مدِّ البصر كان البحر يبدو أمامنا ساكناً. أما الشواطئ، التي كنا نلمحها من بعيد فقد كانت سلسلة طويلة من كثبان الرمل. لم نشاهد أي شجرة ولا دغل. ولم نفكر حتى بالدنو من شاطئ إذ لا يعقل أن أناساً يستطيعون الحياة في تلك الأرض التي نستها الآلهة. .

ـ ومع ذلك، كان يتوجب عليكم توفير المؤونة لكم.

ـ ولم نصل إلا بعد عدة أشهر إلى مصب نهر كبير، ذاك الذي كان قد أسماه حنون بنهر ليكسوس(*) وهو القادم على الأغلب من ليبيا. لكن، وعلى نقيض ما كنت أخشاه، فإن سكان المنطقة لم يهربوا لدى اقتراب سفننا. من الواضح، أنه قبل سفينتي، كانت سفن أخرى قرطاجية، تعود غالباً لتجار، قد بلغت تلك المنطقة. هؤلاء التجار الشياطين يحيطون عملياتهم بكثير من السرية بحيث يتجنبون الكشف، حتى إلينا نحن العسكريين، عن الطرق التي سلكوها والموانئ التي ترددوا إليها. تذكَّر، هميلقار أن التجار الذين يفترض أنك حام لهم، قد يكونون أحياناً أشرس أعدائك. إنهم لا يحبون التطاول على أرضهم ويجعلون أولئك الذين يجرؤون على مجابهة غضبهم يدفعون ثمن ذلك غالياً.

(*) هو على الأرجح نهر السنغال.

- كلمني عن أولئك الليكسوسيين. من هم؟

- إن جلودهم شديدة السواد. ويعيشون بشكل رئيسي على تربية المواشي. يأخذون قطعانهم لترعى على امتداد النهر وأكثر ما يخافونه هو غارات أولئك الإثيوبيين الذين يعيشون - على ما يبدو - في الجبال الوعرة، وسط الحيوانات الكاسرة. إنهم لا يملكون ذهباً ولا فضة ويكتسون بلحاء الأشجار. وهم مع ذلك مضيافون، واستطعنا، بفضلهم، أن نتزود باللحم والماء قبل أن نستأنف طريقنا.

- هل سمعوا عن مدن أنشأها حنون؟

- هميلقار، إني أرى فيك الشاب الذي كنته في الماضي. لديك ردود الفعل نفسها التي عندي. إن السبب الوحيد الذي لأجله لم أرجع قط على عقبيَّ طيلة تلك الرحلة البالغة الإرهاق، كان أملي في العثور يوماً على ذرية أصحاب حنون. كنت أحلم أن أرى ذات يوم رجالاً ونساء يأتون لملاقاتنا على الشاطئ ويلقون التحية علينا متكلمين بلغتنا. عندما ألقيت ذاك السؤال على الليكسوسيين عن طريق مترجم أشاروا بأيديهم نحو الجنوب. حينذاك أكملت طريقي.

- وهل سرت لزمن طويل؟

- إن المسافة بين مصب نهر ليكسوس، والمكان الذي قررت فيه أخيراً العودة، أطول من المسافة بين ليكسوس وقرطاجة. إن ما ذكرته لك يمكن أن يعطيك فكرة عن تلك الرحلة البحرية. ثم أخذت كثبان الرمل بالانحسار شيئاً فشيئاً لتحل محلها الغابة، غابة كثيفة جداً، أحسب أني لم أر مثيلاً لها قط. إن ذاك الذي قد يصبح سيداً لتلك الأراضي بوسعه أن يبني أسطولاً بحرياً هائلاً. فالأشجار هناك جميلة وقوية، وحتى أن بعضها تفوح منه رائحة طيبة.

- هل دلفت إلى داخل تلك الأراضي؟

- لا، فتلك الغابة كانت أشبه بسور طبيعي. ومن شبه المستحيل

أن تشق طريقك فيها، كما كنت أخشى أن تهاجم سفينتنا قبائل المنطقة في حال غيابي.

ـ وهل اتصلت مع تلك القبائل؟

ـ أجل، لقد تصرفت كما تصرف التجار القرطاجيون، في أي مكان آخر، إذ كانوا يشعلون ناراً على الشاطئ ليشيروا إلى وجودهم ويُنزلوا من السفينة المنتجات التي أحضروها معهم. ثم يعودون أدراجهم إلى سفنهم. حينذاك يأتي السكان لتفحص البضائع ويقدمون بدورهم الأشياء التي يريدون مبادلتها. ثم يعود القرطاجيون ليتفحصوا بدورهم ما تركه أهل البلد. فإن هم رأوا أن ذلك كافياً يأخذون البضائع. وإلا يتركون أهل البلد يحضرون منتجات أخرى إلى أن يتم الاتفاق. وأنا لم أتصرف على نحو مختلف. وهكذا استطعت التزود بالذهب، وجلود الحيوانات الكاسرة والفيلة المستخدمة في الدفاع، مقابل الزيت، وآنية الفخار، والأسلحة والمنسوجات.

ـ وإلى أي حدٍّ وصلت في رحلتك؟

ـ إلى خليج شاسع، سماه حنون بـ «قرن الغرب»(*). إنه منطقة عادية. ويصبُّ فيه نهر عظيم، بشِعبَه الكثيرة التي تفصلها جزر عن النباتات الكثيفة. لكن السكان هناك ليس لديهم أي حس بالضيافة. ففي مرات كثيرة كانوا، حينما كنا نحاذي الشاطئ، يرموننا بالسهام. ذات يوم كنا نرسو في جزيرة صغيرة للتزود بالماء واللحم. وكنت سمحت للمجذفين بالنزول إلى اليابسة. كانوا فعلاً يستحقون ذلك. ولسوء الحظ هاجمتنا مجموعة كبيرة من الرجال والنساء الغاضبين. وفقدنا حوالى خمسين رجلاً من المجذفين.

ولحسن الحظ استطعت مع جنودي أن أعثر على القرى التي

(*) حالياً اسمه خليج غينيا.

يعيش فيها المهاجمون. أحرقتها وأسرت حوالى مئة رجل. اخترت أصغرهم سناً وأشدهم بأساً ليحلوا محل رجالي الذين قتلوهم.

- والآخرون؟

- لقد وقع عليهم المصير الذي ترصده قرطاجة لأعدائها.

- لا بد أن «قرن الغرب» ذاك هو النقطة الأبعد التي بلغها حنون.

- لا، لقد ذهب أبعد من هذا، ووصل إلى مكان يسمى «قرن الجنوب» حيث ينتصب هنالك جبل سامق يقذف سيولاً من نار(*). أبحرتُ في هذا الاتجاه لكن عاصفة هائجة أجبرتني على الاحتراس. كان يتوجب علي الانتظار شهراً قبل أن أستطيع معاودة الإبحار والوصول إلى الجزيرة الواقعة مقابل جبل النار. لم تكن تلك المنطقة من المناطق الي يحب فيها المرء أن يتمهل. لذا ما إن هبت ريح مؤاتية حتى آثرتُ أن أتخذ من جديد طريق العودة إلى قرطاجة. كان علي الاستفادة من الهواء البحري المناسب.

- ألم تجد ذرية أصحاب حنون؟

- إني أول من يأسف على ذلك. لم أشاهد، في أي مكان، أطلال المدن التي يُفترض أنهم شيدوها. لدي إحساس بأن هذه الأرض غير المضيافة قد التهمتهم. لا بد أنهم لم يستطيعوا البقاء على قيد الحياة أكثر من عام وأنهم على الأرجح ماتوا جوعاً أو مرضاً، هذا إن لم يكن أولئك المتوحشون الأشرار قد ذبحوهم.

- هل من الممكن أنهم بحثوا عن ملجأ ألطف استقبالاً داخل الأراضي؟

- لقد فكرت في ذلك، خاصة بعد أن صدر من أحد المتوحشين الأسرى رد فعل غريب لدى رؤيته علامة «أُمِّنا تانيت»(**). تلك

(*) على الأرجح هو جبل الكاميرون الذي ثار فيه بركان حديث في ربيع 1999.
(**) تانيت: إحدى أكثر آلهة قرطاجة شهرة.

العلامة لم تبد له أنها غير مألوفة. حاولت أن أتحدث معه مستخدماً يديَّ لأن مترجمي لم يكن يتكلم لغته. وسرعان ما أدركت أنه كان يتظاهر بالدهشة ليظهر أنه شخص مهم ولئلا يصبح في قاع السفينة مع رفاقه البائسين. لا، صدقني، هميلقار، إن مستعمرات قرطاجة في هذه المنطقة قد تلاشت فعلاً.

- ربما يجب يوماً إنشاء مستعمرات جديدة!

- هذا القرار لا يعود إلينا. والآن، اعذرني، فالوقت تأخر وأنا أنوي السفر غداً صباحاً عند تباشير الفجر الأولى. ولأجل ذلك طلبت منك تمضية الليل على سطح السفينة. ما زال يتحتم علي إصدار بضع أوامر. سأدعك تلحق بصديقيك اللذين ينتظرانك بعد وجبة الطعام التي أمرت بتقديمها لهما. عندما سنلتقي ثانية، ستكون اليابسة قد أصبحت بعيدة عنا.

* * *

عاد هميلقار مجدداً إلى إبيسيد وجوبا اللذين كانا قد شربا بشهية وإفراط خمر عبد ملقارت. لم تكن لديه الشجاعة ليوبخهما إذ، ورغم كل شيء، ما كان يجبرهما على اتباعه سوى الصداقة التي يحملانها له. لذلك مازحهما هنيهة، ثم نهض واقفاً، مظهراً بذلك أنه قد حان وقت أخذ قسط من الراحة. ذهب إبيسيد إلى الغرفة التي خُصصت له ودخل ابن أدونيبعل، يلحق به جوبا، إلى غرفة ضيقة حيث كان فراشان قد وضعا جنباً إلى جنب.

تجرد الشابان من ثيابهما وهما يضحكان. لقد اعتادا النوم عاريين وارتميا فوق فراشين وضعا فوق الأرض مباشرة. كان هميلقار سعيداً لكونه مع جوبا. كان ذاك الأخير أميراً نوميدياً فتياً وكان أبوه منذ وقت طويل عدواً لقرطاجة. وقد أُجبر على توقيع معاهدة سلام مع مدينة إليسا، واضطر أن يترك ابنه الأكبر جوبا كرهينة. وبما أنه كان في سن هميلقار فإن أدونيبعل اقترح على

مجلس المئة والأربعة بأن يُعهد إليه بالاحتفاظ بالصبي الذي ترعرع في ضيعة ميغارا، محاطاً بالاحترام ومظاهر التكريم اللائقة بمكانته. كان جوبا ضيفاً لدى أدونيبعل منذ عشر سنين، وتتلمذ هو أيضاً عند إبيسيد، كان يعرف جيداً التحدث باليونانية والقرطاجية على حد سواء. وبالرغم من أصله النوميدي فقد شعر في أعماقه بأنه قرطاجي وحلم بالشهرة بالقرب من هميلقار.

نشأت بين الشابين صداقة رقيقة حينما بلغا الخامسة عشرة من العمر. وهذا ما كان قد أثار اشمئزاز الشيخ حينما علم أن ابنه قد قرر اصطحاب جوبا معه. لم يكن يجهل أن هذا الفتى، ذا البشرة الكامدة، والشعر الجعد، والعضلات المفتولة والفم الشهواني، كان يشاطر من وقت لآخر فراش ابنه. ولم يصدمه هذا الأمر كثيراً. فبسبب موت أمه كان هميلقار يعيش على الدوام في وسَط ذكوري. كانت فتيات المجتمع الأرستقراطي يُغلق عليهن في بيوتهن، وما كانت أَمَة لتجرؤ على الدخول إلى أجنحة الفتى. فكان هميلقار يجد سلوانه مع جوبا. وما كان قد أثار قلق الشيخ هو استمرار تلك الصداقة الرقيقة البعيدة عن كونها هوى عابراً. لم يستطع والد هميلقار التحدث عن ذلك، وكان يأمل، دون جدوى، أن يبعد السفر إلى صقلية ابنه عن جوبا.

وقد اقترب من كتف صديقه، سأل الأمير الفتيُّ النوميدي هميلقار:

ـ هل أنت سعيد بسفركَ؟

ـ إن أبي قدم لي أجمل الهدايا حينما سمح لي بالمضي في درب الجيش. سأكون شنيعاً إن تذمرت من السفر.

ـ إني أفهمك. وأنا سعيد لأنك قررت أن تجعل مني مرافقك. لقد خشيت أن يتحتم علي مفارقتك. فأنت أغلى إنسان عندي في العالم.

ـ أنت صديقي، قاطعه هميلقار، وطالما أنت كذلك فستظل إلى جانبي كهذا المساء.

أطفأ ابن أدونيبعل السراج الصغير الذي يضيء غرفتهما. وحلت الظلمة المواتية لكثير من الأمور. لم يسمع أحد حشرجة جوبا المخنوقة. لم يعد هنالك إلا ليلٌ يعِدُ بالغد.

عند خيوط الفجر الأولى أيقظت هميلقار وجوبا قرقعة هيكل السفينة، كان صوتها عظيماً. ارتديا ملابسهما على عجل وهرولا، يتبعهما إبيسيد، إلى سطح السفينة. كان هنالك بحارة يركضون في كل اتجاه، منفذين أوامر عبد ملقارت الصادرة إليهم من أعلى برج القيادة الصغير. وفي مؤخرة السفينة اتخذ شخصان قويان مكانهما لتحريك دفتي السفينة الموجهتين لها. وفي عنبر السفينة كان المجذفون مستعدين ولا ينتظرون إلا أوامر الخفراء ليضربوا بمجاذيفهم المياه. ثم سُمع بوضوح صوت البوق من أعلى بناء مركز قيادة البحرية. كانت تلك إشارة الانطلاق. أخذت السفينة تتحرك شيئاً فشيئاً، مغادرة المكان لتسلك ببطء، وبجلال، الممر المائي الضيق المفضي إلى الميناء التجاري. دخلته وكان نشاط عظيم يسوده. ثم اتجهت نحوالممر الذي رُفعت سلاسله. استدارت نحو اليسار ثم أبحرت صوب أعالي البحر، تاركة خلفها أسوار قرطاجة. نظر ابن أدونيبعل إلى تلك الأسوار طويلاً قبل أن تختفي تماماً عن ناظريه. كان وهو يودعها يودع بالأحرى صباه.

الفصل الرابع

عندما بلغت السفينة عرض البحر انضم هميلقار إلى عبد ملقارت في برج القيادة.

ـ هيا، ابن أدونيبعل، ما الشعور الذي خلَّفته مغادرة مدينتك الأم؟ قال القبطان مازحاً.

ـ الحق يقال، أني لم أفكر في ذلك إطلاقاً. لقد ذهلت بمشهد الميناء العسكري وبالطريقة التي حركت فيها هذه السفينة الثقيلة إلى حد لم يعد لدي وقت للتفكير بشخصي المسكين. لا بد أنك فخور كثيراً بقيادة سفينة ضخمة كهذه.

ـ إن القبطان الجيد فخور دوماً بسفينته مهما تكن. ونحن منذ أن استطعنا طرد اليونانيين من البحر الكبير، أصبحت سيطرتنا كاملة عليه. صدقني إن قرطاجة لن تحتمل أبداً أن تنازعها مدينة أخرى السيادة عليه.

ـ كم من الوقت ستستغرق رحلتنا؟

ـ لا أستطيع أن أحدد لك. إن حافظ المجذفون على إيقاعهم فإني آمل أن نلتقي برياح مؤاتية في وقت متأخر من الليل، وعلى أبعد تقدير غداً صباحاً. وحينذاك سآمر برفع الشراع لنقلع باتجاه شواطئ صقلية. فلتقضي الآلهة بذلك لأجلنا.

غادر هميلقار برج القيادة ليتجول فوق السطح. كان الجنود

المئة والعشرون المبحرون على ظهر السفينة الخماسية قد استقروا عشوائياً وسط الحبال والجرار. بعضهم يهيء سلاحه، والبعض الآخر يتحدث بسرور أو يقص مآثره. ومن حين لآخر كانوا يتجادلون بمرح مع أحد البحارة سائلين إياه عمَّن له الفضل الأكبر: جندي المشاة أم البحَّار؟ كانت تلك مبارزة كلامية لا بد أن تتردد في كل حملة عسكرية، فأبطالها يسردون حججهم لكن دون اعتقاد جازم.

عندما هبط الليل أمر عبد ملقارت بإشعال بضع مشاعل ومجامر نار. حاول هميلقار وقد جثم على حافة السفينة أن يميز ما يحيط به. لم يفلح في ذلك وهذا ما ملأه إعجاباً بالربان وبالرجلين اللذين يديران دفتي السفينة. لقد بدا أنهما مرتاحان في أعماق الظلمة ولم يجدا مشقة في إيجاد طريقهما. أخذ الهواء يبرد رويداً رويداً. وبدأ نسيم بحري خفيف يهبُّ، وسرعان ما أصبح أكثر قوة. انطلق من أعلى البرج أمرٌ جاف النبرة: ارفعوا الشراع! انبسط ذاك بلونه الأحمر والأبيض، بينما ارتفعت مجاذيف المجذفين وسُحبت جزئياً إلى داخل العنبر. لم يستطع هميلقار أن يمنع نفسه من التفكير في الانفراج الذي شعر به المجذفون، الذين أعياهم الجهد الذي تحتم عليهم بذله منذ مغادرة الميناء. وتخيلهم وهم ينالون راحة قصيرة ثم يغفون ورؤوسهم مستندة إلى مجاذيفهم، راجين ألا تتوقف الريح.

لم يكن عبد ملقارت مخطئاً. كان يعرف جيداً البحر الكبير وتياراته ورياحه. لقد اختار الطريق الصحيح وحافظ على توجيه مقدمة السفينة نحو الشمال. بعد أسبوع من الإبحار وصلت السفينة الخماسية المجاذيف إلى أعلى السواحل الصقلية، وتجاوزت سيراكوزة، تلك المدينة الحليفة، لتتجه نحو أقصى الجزيرة. بعد يومين، بلغت ميسين حيث ألقت مراسيها. كانت تلك المدينة أشبه بقرية مقارنة بقرطاجة. وفوق أرض منحدرة انتصبت القلعة التي تخفق فوقها بيارق وأعلام مدينة إليسا.

لاحظ هميلقار على الرصيف مفرزة جند يترأسهم ضابط، قدم هميلقار نفسه إليه قائلاً:

ـ أنا هميلقار برقا ومعي رسالة من مجلس المئة والأربعة يجب أن أسلمها إلى الأميرال حنون:

ـ اتبعني. سآخذك إليه.

ـ يكفيني رجل واحد من رجالك. ربما تقوم أنت بذلك.

ـ من الأفضل لك أن يرافقك حرس. إن المدينة ليست آمنة.

ـ اعتقدت أن الماميرتانيين هم حلفاؤنا.

ـ هذا صحيح بالنسبة لقسم منهم. لكن وجود الروم في ريجيون جعل بعضهم يمعن التفكير. لقد حرض الروم الشعب ضدنا وهوجمت بعض دورياتنا. لأجل ذلك أفضِّل أن تتقبل حراستي.

لم يكن الحذر غير مجد، واستطاع هميلقار أن يتحقق من ذلك. ففي الأحياء التي اجتازوها أثار وجود القرطاجيين حركات احتجاج عفوية. كان الناس يتذمرون ويبصقون أحياناً عند مرور الجنود. بعض التجار أغلقوا على عجل حوانيتهم، وآخرون أداروا ظهورهم علانية. وألقى صبية بعض مخلفات الثمار فرحين، وما إن اقترفوا عملهم المشين هذا حتى ولّوا مسرعين. لأجل هذا ما إن دخل الضابط ورجاله القلعة حتى تنفسوا الصعداء، كانت قلعة محروسة جيداً وقد وصلوا إليها عبر درب ضيق وعر.

اصطُحب هميلقار فوراً، بناء على طلبه، إلى عند حنون الذي وجده مشغولاً بإقامة وليمة للعديد من أعيان المدينة.

ـ تحيتي لك، حنون. لقد قدمتُ في مهمة تسليم رسالة إليك من مجلس المئة والأربعة.

ـ أهلاً بك، هميلقار. لقد أُخطرتُ بقدومك. فلنر إذن التعليمات التي أرسلتها إلي قرطاجة.

ـ حنون، يتحتم علي أن أسلمها إليك أنت بالذات.

ـ هل يضايقك حضور أصدقائي؟ أنت على خطأ. إنهم أنصارنا الأشد إخلاصاً لنا من بين الماميرتانيين وهم أنفسهم الذين طلبوا بإلحاح مجيئنا. بوسعنا الكلام دون خشية أمامهم. إنهم يعرفون أن مصيرهم مرتبط بانتصار جيوشنا.

سلَّم هميلقار الأميرال الرسالة التي كان أبوه قد عهد بها إليه. فضَّ حنون الختم واطلع على الوثيقة بينما حاول ضيوفه التكهن بمحتواها وهم يتفحصون وجهه.

ـ لقد تصرف المئة والأربعة بحكمة، قال أخيراً قائد حامية ميسين. وهم طلبوا مني أن أنقل إلى الروم رسالتهم. هميلقار، إن مهمات ثقيلة تستبقيني هنا. لهذا أكلفك بالذهاب إلى ريجيون لتلتقي بالقنصل أبيوس كلوديوس لتطلعه على موقفنا.

ـ كنت أعتقد أن الجيوش الرومية تحت قيادة المحامي كايوس كلوديوس.

ـ إن الأمور تغيرت كثيراً منذ إرسال مبعوثي الأخير إلى قرطاجة. لقد عزز الروم قواتهم وأحد قناصلهم ـ وهو عندنا نظير قضاتنا ـ يتزعم تلك القوات. ستذهب في هذا النهار نفسه. أعلم أنك تعِب من رحلتك الطويلة لكن هذه الرحلة لن تستغرق كثيراً من وقتك. يمكنك من أعلى هذه القلعة أن ترى الساحل الإيطالي، هذا يعني أن المسافة التي ستقطعها ضئيلة على نحو مضحك.

ـ ماذا علي أن أفعل؟

ـ أطلب منك أن تلتقي باسم قرطاجة بـ أبيوس كلوديوس وأن تقول له أن حرباً ستقع بين مدينتينا، إن هو هاجم حلفاءنا الماميرتانيين والسيراكوزيين، ابذل ما بوسعك أيضاً لتعرف من هو هذا الرجل وماذا يخطط. وحال عودتك قدِّم لي تقريراً كاملاً ليكون بمقدوري اتخاذ الاستعدادات الضرورية.

لكي يذهب هميلقار إلى ريجيون أبحر على متن سفينة ثلاثية المجاذيف متواضعة، فسفينة عبد ملقارت الخماسية كانت في تلك الأثناء تفرغ بضائعها. اجتازت السفينة بسرعة المضيق الذي يفصل الجزيرة عن الأرض الكبيرة. حدث ابن أدونيبعل نفسه: ترى كيف سيتم هذا اللقاء الأول له مع رجل «رومي»! وفوجئ إذ ألفى نفسه يبتسم في أعماقه. لقد سبق له أن رأى الروم. ففي قرطاجة عاش بعضهم غير بعيد عن حي الصناع. كانوا يسكنون هناك منذ زمن سحيق. غالبيتهم تجار وقد استقدموا عائلاتهم. كانوا أناساً أجلافاً، مجدِّين، وجشعين. لم يختلطوا بسكان المدينة الآخرين، ولا حتى أثناء الأعياد الدينية الكبيرة. وكان مجلس الشيوخ قد عرض عليهم أرضاً ليشيدوا فوقها معبداً لأحد آلهتهم. رفضوا العرض متذرعين بأن لديهم داخل مساكنهم مذابح لآلهتهم. وأثناء زياراته للميناء التجاري كان هميلقار يلتقي أحياناً بالروم القادمين على متن السفن القرطاجية وبما أنهم لم يكونوا يتكلمون اليونانية ولا القرطاجية، فهو لم يستطع أن يسألهم ويشبع فضوله. لكن هذه المرة سيكون الأمر مختلفاً. فالصلة لن تكون بتاجر وإنما بأحد حكام روما الكبار وربما ذاك الحاكم سيندهش حينما يرى شاباً يافعاً قد أُرسل إليه سفيراً.

لما وصل إلى ريجيون لم يستطع هميلقار أن يخفي ذهوله. كان الميناء خاوياً، عدا بضع سفن تجارية ذات حمولة ضئيلة وقوارب صيد صغيرة. لكن المدينة وضواحيها كانت تعج بالجنود. وخارج الأسوار كان بالإمكان رؤية معسكرات فيالق الجند التي تحميها الخنادق والأسيجة الشائكة. ما إن نزل من السفينة حتى استقبله ضابط رومي طويل القامة تحدث معه باليونانية. قال له الرجل أن اسمه كايوس كورنيليوس سيبيون وأضاف أنه ابن شيخ. ورد عليه هميلقار بأنه سعيد بذلك. لقد كانت تلك نقطة مشتركة

بينهما وابتسم محدِّثه. ترى هل كان عليه هو أيضاً أن يكافح لينتزع من أبيه الأذن بالخدمة في الجيش؟

بعد تقديم كل منهما للآخر أعطى كايوس كورنيليوس سيبيون أمراً بلغته. فتقدم جنديان سريعاً، وهما يمسكان برسنَّي حصانين أبيضين، وقام هميلقار ورفيقه باعتلائهما. عدا الإثنان على طول الأرصفة، ثم انحرفا شمالاً في محاذاة السور لحين من الوقت، ثم تقدما عبر الحقول نحو ربوة تعلوها خيمة واسعة.

- هذا مركز قيادة أبيوس كلوديوس، قال كايوس كورنيليوس سيبيون. سأرى إن كان بوسعه استقبالك.

ترجل هميلقار عن الفرس، وأصلح من شأن هيئته، وأخذ يتمشى دون وجهة محددة، حتى عودة الضابط.

- إن القنصل تسره زيارة مبعوث قرطاجة. لقد سألني أن أطلب منك بكل نية حسنة أن تنضم إليه في خيمته. بوسعك الاحتفاظ بأسلحتك. إن مدينتينا هما في سلام وقد جئتَ كصديق. هذا على الأقل ما نتمناه. اتبعني.

دخل هميلقار خيمة واسعة الأرجاء، يقف أمامها مقدمو القضاة(*) يحملون حزمهم. أما داخلها فقد فُرش فرشاً فخماً: منضدة كبيرة، أرائك عديدة، مقاعد، مباخر، صناديق وشمعدانات كبيرة فوق مناصب ذات ثلاث قوائم. أقبل رجل للقائهما. قصير القامة، يرتدي رداءً طويلاً أبيض، أُلقي ذيله على كتفه الأيمن، ويزينه شريط أحمر.

- أهلاً بك، أيها النبيل القرطاجي. أنا القنصل أبيوس كلوديوس.

(*) مقدمو القضاة: حراس يمشون أمام كبار الحكام الرومان، وبخاصة القناصل، حاملين فأساً وسط حزمة من القضبان.

ـ تحيتي لك أيها القنصل النبيل. أنا هميلقار برقا، ابن أدونيبعل، عضو مجلس المئة والأربعة، جئت مبعوثاً من الأميرال حنون لأنقل إليك رسالة من المجلس الكبير.

ـ أرى أن قرطاجة تختار جيداً سفراءها بالرغم من فتوة أعمارهم. لقد سمعت كلاماً كثيراً عن أبيك بأنه واحد من أعظم رجال مدينتك نفوذاً. بلِّغه سلامي إن التقيت به. بالطبع لا تنس أن تفعل الأمر ذاته مع حنون بالرغم، والحق يقال، أني لاأحمل له تقديراً كبيراً.

ـ لا أستطيع أن أسمح لك بأن تشتم قائدي.

ـ أنت تتصرف كضابط شريف ومنضبط وأهنئك على ذلك. ربما لو كنت في مكانك ما كنت لأتصرف على نحو مختلف. لكني أظنك ذكي بما يكفي لتلاحظ أن قائدك تعوزه الرهافة. فعندما رد إلينا بعض سفننا التي جنحت إلى شواطئكم بسبب العاصفة لم يستطع أن يمنع نفسه من نطق كلمات احتقار بحقنا.

ـ إني على علم بحواره مع المحامي كايوس كلوديوس.

ـ وما رأيك في ذلك؟

ـ لو كنت في محله لتصرفتُ على نحو آخر. إن اتهام شخص بأنه خائف ليس الطريقة المثلى لاكتساب صداقته.

ـ إن صغر سنك لا يحول دون اكتسابك الحكمة. إن أحببت لنجلس على هذه الأرائك ولنشرب نخب مدينتينا. وستحدثني بعد ذلك عن أسباب زيارتك.

جلس الرجلان فوق أريكتين ناعمتين بينما أخذ عبيد انبثقوا من أقصى الخيمة على نحو غامض، يصبون لهما الشراب ويضعون لهما فوق طبق طعاماً خفيفاً. بعد ذهاب العبيد، وبعد تناولهما الطعام بشهية، قرر هميلقار الكلام:

ـ أبيوس كلوديوس، إن قرطاجة قلقة من وجود جنودك في ريجيون.

ـ إنهم موجودون فوق أرض هي جزء من «الاتحاد الإيطالياني»(*). ما الغريب في ذلك؟

ـ ليس لأحد الحق في أن يحظر عليكم حشد فيالق حيثما تريدون فوق أرضكم. أنتم أسياد في بلادكم كما نحن أسياد في بلادنا. المشكلة ليست هنا.

ـ أين هي إذن؟

ـ إن الماميرتانيين والسيراكوزيين، حلفاءنا، يخشون أنكم تعدون هجوماً عليهم.

ـ لدينا بواعث جيدة لنقوم بذلك. أنت فتي جداً لتعرف أزمنة النكبات تلك، لكن حينما كان الماميرتانيون حلفاء للبيروسيين قاموا باكتساح كامبانيا(**). لقد خربوا ضياعنا، وحقولنا ومزارع كرومنا وجعلوا نساءنا وأطفالنا عبيداً، وتوجب علينا فداؤهم بمبالغ ضخمة لتحريرهم. إن روما لا تنسى شيئاً ولا تعفو عن شيء وإن كان عليها أحياناً الانتظار طويلاً لتنفذ انتقامها المشروع ضد أعدائها. لقد آن أوان الماميرتانيين ليدفعوا ثمن أغلاطهم.

ـ إن مجلس المئة والأربعة كلفني أن أقول لك إنهم حلفاؤنا وإن مدينتهم تحميها حامية قرطاجية. وإن أنت اجتزت المضيق فإن قرطاجة ستعتبر روما قد نقضت المعاهدة وأعلنت الحرب علينا.

ـ هميلقار، لا تثر حماستنا: اعلم، رغم أني قنصل، فأنا ليس لي حق إعلان الحرب إن كانت تلك رغبتي ـ وهي ليست كذلك ـ وحده مجلس الشيوخ له السلطة في فعل ذلك وآمل ألا نصل إلى مثل تلك النهاية. إن الماميرتانيين لا يستحقون أن تتقاتل قرطاجة وروما

(*) إيطالياني: متعلق بإيطاليا القديمة.
(**) Campanie: منطقة في إيطاليا.

لأجلهم. إن مدينتينا لديهما ما هو أفضل لتقوما به من الاهتمام بهؤلاء الأشقياء. سأنقل رسالتك إلى من يعنيه الأمر. أما في الوقت الراهن فبوسعك الاطمئنان. إن جنودنا أمامهم مصاعب كثيرة لإخماد الفتن في هذه المنطقة التي غزاها قطاع الطرق والمتمردون على سلطتنا. وأنا لأجل هذا الأمر أكرس كل طاقتي. إن كنت بحاجة إلى دليل إضافي على حسن نيتي فما عليك إلا أن تتفحص الميناء بعناية. هل ترى فيه أسطولاً يمكنني من اجتياز المضيق؟

- لم أر شيئاً من هذا القبيل.

- لا تنس أن تخبر مجلس المئة والأربعة بذلك لتبدد قلقه. ليس لدى قرطاجة ما يثير خوفها من روما. لقد سررت بلقائك وسأدعك الآن تواصل مهمتك. ستصحبك كوكبة من الحرس إلى سفينتك إلا إن كنت قد قررت قضاء الليل هنا. وسيشرفني أن أقدم لك ضيافتي.

كان هميلقار في صراع بين رغبته باللحاق بصديقيه في ميسين وبين رغبته في البقاء ليتمكن من تفحص المعسكر الرومي، ليفهم على نحو أفضل أولئك الذين - وهذا أمر مؤكد الآن - سيصبحون عما قريب أعداءه. واختار الخيار الثاني.

- أقبل بامتنان اقتراحك، أبيوس كلوديوس.

- سآمر باصطحابك إلى جناحك العسكري. سنلتقي هذا المساء.

أقبل ضابط إلى المبعوث القرطاجي واصطحبه إلى خيمة متواضعة الحجم لكنها جهزت تجهيزاً مترفاً. وقدم عبد نفسه إليه.

- اسمي كليبارك، وسيدي كايوس كورنيليوس سيبيون، أرسلني لخدمتك.

- هل أنت يوناني؟

- إسبارطي. أسرني القراصنة حينما كنت ذاهباً إلى كورنثوس. وباعوني للروم.

- هل لدى سيدك الكثير من العبيد؟

ـ لديه المئات. إنه من أشهر وأعرق عائلات روما. وحتى أن أقرباءه يزعمون أنهم ينحدرون من قرابة مباشرة لإنياس، ابن الملك بريام.

ـ هل هو سيد صالح؟

ـ يقال لي أن هنالك سادة أسوأ منه. إني سعيد بخدمته لكني لاأستطيع أن أنسى أني كنت في الماضي رجلاً حراً.

ـ ما رأيك في الروم؟

ـ لا شيء يستحق لفت انتباهك. إنهم شعب غريب. فمن جهة هنالك الشيوخ، وكل واحد منهم أغنى من الآخر؛ ومن جهة أخرى هنالك الشعب، أي العامة كما يسمونهم. بعضهم جنود، وسترى كثيرين منهم هنا، والبعض الآخر يعيش من توزيعات القمح والزيت التي ينظمها مجلس الشيوخ لأجلهم. أما من تبقى فإنه يعتمد على عبيده وعلى شعوب المدن الخاضعة لسلطته. حسناً، إن لم يكن لديك أمر تأمرني به فائذن لي بالانصراف. إن كنت تحتاجني فما عليك إلا أن تناديني وسآتي.

تناول هميلقار قسطاً من الراحة في الخيمة. وقبيل الغروب انطلق خارجاً. لاحظ أن جنود الفيالق يقومون بتمرينات عسكرية في مساحة شاسعة تقع خارج المعسكر. كانت فرق المشاة، وقد اصطفت على نحو مثالي، تمشي بخطى منتظمة، تستدير يمنة أو يسرة، وتشكل وحدات كبيرة قبل أن تنقسم مجدداً إلى أرتال صغيرة. كان الرجال يحملون عتاداً ثقيلاً: خوذة مستديرة، درع فوق سترة جلدية، سيف في غمد ضيق، رمح طوله عدة أذرع وترس طويل مستطيل يكاد يغطي كل جسد المحارب.

تأثر هميلقار بكل ما رآه. وأمر جزئي أدهشه أيضاً: وهو عمر هؤلاء الرجال. كان بعضهم فتياً، لكن غالبيتهم كانت في الخامسة والثلاثين، بل أكثر من ذلك. لا بد أنهم أمضوا حياتهم في ظل

السلاح، بعيداً عن عائلاتهم ومدينتهم. ما من قرطاجي كان ليقبل بذلك، ولأجل هذا لجأ مجلس الشيوخ إلى مرتزقة للدفاع عن مدينة إليسا. أما روما فقد تصرفت على نحو مختلف. لقد اعتمدت على مواطنيها. وسرت رعدة في جسد هميلقار حينما تأكد بنفسه من ذلك. أجل، قبالته، تقف شرارة قوة جديدة وخطرة قد تحاول اقتلاع كل شيء في طريقها بلا شفقة. وعاد كلام القنصل أبيوس كلوديوس المعسول إلى ذاكرته. لقد كان الرجل يحاول تهدئة تيقظه بكذب وقح. ربما لم يكن يملك السلطة لإعلان الحرب لكنه يُعدُّ لها فعلاً.

دوَّت الأبواق، وتوقف الجنود عن أداء التمارين العسكرية، وعادوا إلى معسكراتهم حيث ساد سريعاً هياج محموم. أقبل كايوس كورنيليوس إلى هميلقار وقال له:

- أيها النبيل القرطاجي، إن قنصلنا يرجوك أن تعذره. لقد ظل لفترة طويلة معرضاً للشمس ويعاني من ألم في رأسه.

- أرجو ألا تكون هنالك خطورة؟

- لا، لكن أبيوس كلوديوس من سكان المدن. وهو غير معتاد على العيش في الهواء الطلق.

- أتمنى أن يشفى بأسرع ما يمكن. وليستجب إشمون لأمنيتي!

- سيكون متأثراً لهذه البادرة من طرفك. لقد طلب مني أن أكون هذا المساء بصحبتك مع أحد أصدقائي، وهو ماركوس أتيليوس روغولوس، إنه أيضاً ابن شيخ. وهو ينتظرنا في خيمته.

بعدئذ اصطحب كايوس كورنيليوس سيبيون هميلقار، قدمه لرجل طويل القامة، تجاوز الثلاثين من العمر بكثير، وتتسم ملامح وجهه بالحزم.

- أهلاً بك، هميلقار برقا. لا بد أن صديقي كايوس كورنيليوس سيبيون قد قال لك أني ابن شيخ مثله ومثلك. إنها لمصادفة غريبة فعلاً. فلنتخذ لنا مجلساً مريحاً.

شرع الرجال الثلاثة في غسل تقليدي قبل أن يجلسوا على الأرائك، في حين انهمك العبيد في ملء منضدة بأطباق شهية وإتراع كؤوس بخمر ثقيل مُثمل. كان كايوس كورنيليوس سيبيون أول من قطع حبل الصمت:

ـ هميلقار، هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟

ـ ما هو؟

ـ كيف حدث أن اخترت أن تصبح عسكرياً، وأنت ابن عضو مجلس المئة والأربعة؟

ـ لعلي أستطيع ان أطرح السؤال نفسه عليك؟!

ـ هذا صحيح، لكن، في روما إن رغب ابن شيخ في أن يخلف أباه فعليه أن يخدم في الجيش ليمارس جميع المهام، المدنية منها والعسكرية. لا أعتقد أن هذه هي الحال في قرطاجة.

ـ أنت على حق. وهذا ما فتئ أبي يردده على مسامعي ليثنيني عن تنفيذ مشروعي. كان يحلم لي بعمل آخر شبيه بعمله.

ـ وهذا العمل ألا يستهويك؟

ـ لا أميل إلى السياسة ولا الالتماسات. ولا أحب استجداء حظوة لدى هذا أو ذاك، أو تملق هذا الحزب، بمضرة حزب آخر، كل ذلك لا يستهويني قط. إني آنف من الكذب والنفاق. ولا يهمني في أعماقي سوى أمر واحد.

ـ ما هو؟

ـ الدفاع عن وطني ضد أولئك الذين يهددونه. ألن تفعل أنت الشيء نفسه؟

ـ بالتأكيد. لكن وطناً أشبه بأم شرسة لا يستحق الحب الذي يحمله المرء له. لنتخيل أن قرطاجة تتصرف على نحو سيئ مع أهلك وتحكم عليهم بالنفي. هل ستظل أنت مستعداً للموت من أجلها؟

- إن سؤالك حساس. لوكان أهلي منفيين، فإن همي الأول سيكون في إعادتهم إذ لا يمكن إلا أن يكونوا ضحايا ظلم أو خطأ ما. هذا يعني، على أي حال، أن سيفي سيكون مستعداً على الدوام ليكون في سبيل قرطاجة. لا أبالي في الواقع بحكامها. أحب في هذه المدينة فنَّها في الحياة، رفاهية عيشها التي لا نظير لها، فرح سكانها العفوي في أعيادنا الكبيرة، هدوء أمسيات الصيف الوادع، فرقعة اللهب أيام الصقيع، رائحة الأرض عندما يؤوب الربيع، مذاق عنقود عنب تُلتهم حباته بشهية في ظل شجرة تين، هدير أمواج الشاطئ رائحة الأزهار العطرة في حدائقنا. نعم، لأجل هذا كله أنا مستعد لأن أهب حياتي.

- أنت بلا شك امرؤ مثير للفضول، قال ماركوس أتيليوس روغولوس، بنبرة امتزج فيها الهزء بالجدِّ - وهو الذي ظل صامتاً إلى ذلك الحين - أنت لا تتكلم كجندي وإنما كفيلسوف أو شاعر.

- والإثنان لا يتعارضان.

- وما قولك عن الخوف الذي ينبغي أن تبثه مدينتك في المدن الأخرى؟ وما قولك عن القوة التي عليها أن تمتلكها؟ هل تكترثَ بالفتوحات التي يجب عليها القيام بها لتصون وجودها واستقلالها؟ ألا تشعر برغبة قط في رؤيتها تهيمن بلا منازع على العالم فارضة ضرائب ثقيلة على الشعوب الأخرى؟

- ولأي غرض تفعل هذا؟

- في سبيل حبها للسلطة.

- لقد قلت لك آنفاً أني لا أميل إلى ذلك.

- أنت مخطئ، هميلقار برقا. أنا، ماركوس أتيليوس روغولوس، لا أخفي حُلُمي بأن أكون يوماً قنصلاً منتخباً لأقوم بأفضل الأعمال في سبيل مجد روما. وسأفعل كل شيء حينذاك للوصول إلى هدفي، وإن دفعت حياتي ثمناً لهذا. وسأفعل ذلك في

سبيل مدينة رومولوس وروموس، في سبيل مجلس الشيوخ وشعبه، لكن بالتأكيد ليس لأجل الحفاظ على رفاهية عيش خادعة على ضفاف نهر التيبر(*). إن ذلك ضرب من الهراء. نحن شعب من الأجلاف الأفظاظ وعبثاً جعلنا لأطفالنا وأحفادنا مربين يونانيين، لكننا لن نفلح إطلاقاً في تقدير وتذوق الأشياء الجميلة كما بوسعكم أن تفعلوا أنتم أيها القرطاجيون. ليس أمامنا سبيل آخر سوى أن نحيا حياة الجند والفلاحين الشظفة، وأن نفارق عائلاتنا ما إن يطلب ذلك مجلس الشيوخ لنذهب لحرب بعيدة ولنغرس أعلامنا وراياتنا في بلاد وهبتنا إياها آلهتنا. هميلقار، لدي أملاك عظيمة في كامبانيا حيث تعيش امرأتي وأطفالي. وسأشعر بالخجل إن جئت إليهم غير ظافر من حملة عسكرية، أو مسستُ بسوء، بخطأ مني، مصالح روما.

ـ ماركوس أتيليوس روغولوس، أنت تجمد قلبي رعباً. إنك رجل لطيف كيِّس لكنك تبدو وقد طردت كل أثر للإنسانية منك. إني آمل ألا تكون روما على شاكلتك، وإلا فإن هواجس قاتمة ستملؤني بخصوص المستقبل.

ـ هميلقار! ـ وقد تدخل كايوس كورنيليوس سيبيون، الذي أربكه كلام صديقه فحرص على تحويل دفة الحديث ـ هل هذه هي رحلتك الأولى خارج وطنك الأم؟

ـ أجل، وأنا مشتاق إليه الآن. لكن لا ينبغي أن أتشكى. ما زال أمامي الكثير لأتعلمه وإني أنتظر بفارغ الصبر أن أذهب إلى مستعمراتنا في صقلية.

ـ إني أفهمك. أنا أيضاً، هذه هي المرة الأولى التي أبتعد فيها أكثر من يومين مسيراً عن روما وعندي شعور باكتشاف حقائق ليس لدي فكرة عنها بعد. وبما أننا وجدنا أنفسنا في وضع متشابه

(*) التيبر: نهر في إيطاليا.

فإني أقترح عليك أن نرسخ فيما بيننا عهد صداقة وأن نُشرك فيه ماركوس أتيليوس روغولوس، مع أنه رجل محنَّك. لنقسم بأن نساعد وأن ننْجد بعضنا في جميع الأحوال. من جهتي سأقسم على ذلك بالإله جوبيتر.

- وأنا أقسم بالإله بعل حمون.

مضى بعض الوقت قبل أن يتفضل المؤاكل الثالث ويتكلم:

- أنتما كلبان صغيران مجنونان وتتصرفان بتأثير الخمر والانفعال. ولو كنت مخلصاً لواجباتي كضابط لأحللتكما على الفور من هذا الوعد المثير للسخرية. على أية حال أنا أحب حماستكما وكرمكما. إنهما يذكراني بسنين فتوتي. لذا أنا أقسم على ذلك أيضاً، بالآلهة «لار»، آلهة عائلتي، سلالة «أتيليا»(*) الشهيرة.

وافترق الرجال الثلاثة على هذا القَسَم. في الصباح رافق كايوس كورنيليوس سيبيون هميلقار إلى الميناء حيث أبحر على ظهر السفينة الثلاثية المجاذيف. ولما وصل إلى ميسين توجه إلى حنون الذي وجده محاطاً بكبار قادة الماميرتانيين.

- حنون، علي أن أكلمك على انفراد.

- أصدقائي لا تبتعدوا. سألتقي بكم ثانية ما إن يقدم الشاب هميلقار تقريره لي.

غادر الماميرتانيون الحجرة، ولم يخف بعضهم غضبه.

- إني أصغي إليك، ابن أدونيبعل، قال حنون.

- لقد ذهبت إلى ريجيون حسب أوامرك والتقيت بالقنصل أبيوس كلوديوس.

- وأي صنف من الرجال هو؟

(*) Atilia: سلالة أرستقراطية.

ـ إنه امرؤ مخادع منافق. عللني بمعسول الكلام وأقسم بجميع آلهته أنه لا يستعد للحرب. وكان من المتوقع أن ألتقي به في المساء نفسه، إذ كان قد دعاني إلى ضيافته لكن، وفي آخر لحظة، أرسل من يقول لي أنه متوعك. ولم أصدق للحظة واحدة كذبته الوقحة. في الحقيقة كان خائفاً من أن أستمر في طرح الأسئلة عليه.

ـ ومن رافقك؟

ـ ضابطان، كل منهما ابن شيخ. أحدهما كان ودوداً، والآخر متحفظاً بارداً. أتساءل إن كان ذلك عن عمد. إن روما قدمت لي وجهين من وجوهها. الأول هو ذاك الذي تقدمه لأولئك الذين يخضعون لشروطها، والآخر هو ذاك الذي ترصده لأولئك الذين يجرؤون على تحدي سلطتها.

ـ هل يتحتم علينا أن نخشى إنزال فيالقها إلى البر؟

ـ إنها مسألة أيام أو أسابيع. وهناك أمر أثار انتباهي لدى وصولي إلى ريجيون: لقد كان الميناء شبه خال: بضع سفن تجارية وقوارب صيادين وحسب. لكن الأرصفة كانت مغطاة بالحبال وعتاد السفن كما لو أن أسطولاً سيرسو قريباً. أظن أن السفن الرومية راسية شمالاً، بعيداً عن أعين المتطفلين. إنها تريد مباغتتنا، وعلى الأرجح ليلاً، منطلقة بسرعة كبيرة. أعتقد أن عليك وضع الحامية العسكرية في حالة تأهب.

ـ وما رأيك بجندهم؟

ـ لديهم جيش رائع. ليس عندي كلمات لوصفه. لقد شعرت بأني أرى مركبة تجرها أحصنة مجنونة تجتاح كل ما في طريقها. إن أبيوس كلوديوس أكد لي أن فيالقه تضطلع بمهمة مطاردة قطاع الطرق والمتمردين في ضواحي ريجيون. لم أصدق كلمة مما قال لأنه، ولقمع هؤلاء العصاة، تكفي بضع مئات من الرجال. كلا إن الأمر أمر اجتياح، والجيش مستعد للانقضاض علينا.

ـ كلامك يقلقني إلى أبعد الحدود. إن ألفي جندي ومرتزق هم تحت إمرتي. وأستطيع بهم أن أتحصن داخل القلعة وأصمد فيها أمام حصار طويل في انتظار المعونة.

ـ والماميرتانيون؟

ـ بوسعك ان تدرك أنه لا يجب الوثوق بهم كثيراً. إني، وأمام قادتهم، ألجأ إلى كلمات معسولة ومجاملات، لكني أعرف جيداً أنهم مستعدون لخيانتنا إن قدم لهم الروم عروضاً ملائمة. لأجل هذا أفضل ألا أوزع قواتي في المدينة وإنما أن أعيد تجميعها في القلعة.

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أتظاهر بالتفاؤل في الوقت الراهن. إذ ينبغي ألا يتنبه الماميرتانيون إلى مخاوفنا. وسآمر، في سرية تامة، بإدخال المؤونة والأعلاف إلى القلعة. إن فيها بئراً ولن ينقصنا الماء. ثم سأعالج الأمور بحسب ما يستجد من أحداث.

ـ ماذا يجب علي أن أفعل؟ هل أعود على قرطاجة لإخطار مجلس المئة والأربعة بالوضع؟

ـ ستنطلق سفينة ثلاثية المجاذيف هذا المساء وسيقوم أحد ضباطي بهذه المهمة. أما المهمة التي سأعهد بها إليك فهي أكثر أهمية. ستبحر أنت أيضاً على متن سفينة ـ وسيعتقد الماميرتانيون أنك رجعت إلى مدينتنا قرطاجة ـ لكن السفينة سترسو في سيراكوزة. إن زعيمها، هييرون، هو حليفنا الرئيسي في صقلية ويمتلك جيشاً عظيماً حسن التجهيز. فليتجه بخطى حثيثة إلى ميسين لإحباط أي محاولة تمرد من الماميرتانيين أو لتخليصنا إن نحن حوصرنا في القلعة. استخدم كل نفوذك ليتحرك على وجه السرعة. وهو لن يجرؤ على رفض مؤازرة قرطاجة لا سيما إن كان من يطلبها هو ابن عضو مجلس المئة والأربعة. وبانتظار الرحيل خذ

شيئاً من الراحة. إنك تستحق ذلك فعلاً ولا تحسبن أن المصاعب أمامك قد انتهت. سأرسل في طلبك حينما تحين ساعة الإبحار. تصرف بحيث تلفت الانتباه إلى سفرك. سيقتنع الماميرتانيون بأن زيارتك كانت زيارة روتينية. آمل أن تعود قريباً مع هييرون وجنوده.

في المساء نفسه أبحر هميلقار برقا مع صديقيْه اللذين أطلعهما على السر، إلى سيراكوزة حيث رسا فيها بعد يومين. كانت المدينة المحصنة تحصيناً هائلاً تعرض بسفاهة في رأد الضحى ثرواتها. وقد حدَّت شوارع عريضة مبلطة بالحجر أحياء سكنية شيدت على شكل مربعات منسقة. وكانت تنتصب هنا وهناك معابد ذات أعمدة جليلة وفي داخلها ارتفعت تماثيل الأرباب والربَّات مغطاة بأوراق الذهب. أما مساكن أغنى مواطني المدينة فقد كانت متسعة اتساعاً عظيماً. وتنبسط على الجانب الآخر لبوابة الدخول، حدائق منسَّقة على نحو باذخ، ومناهل يتدفق منها الماء تدفقاً سريعاً متقطعاً. لم يستطع إبيسيد أن يمنع نفسه من التعليق على كل أمر ثانوي. بالطبع لم تكن سيراكوزة موطنه الأصلي، لكن روعة المدينة داعبت شعوره بالفخر بأنه يوناني. ربما كان ذلك بالنسبة له فرصة ليعيش من جديد بعض لحظات طفولته وفتوته اللتين عاشهما في بيئة مماثلة. استمع جوبا إليه دون أن يقاطعه، مذهولاً هو أيضاً بهذا الإفراط في البذخ والغنى.

كان هميلقار، طيلة سيره، يتحادث مع ماغون، وهو اسم الضابط القرطاجي الذي استقبله في الميناء واصطحبه إلى هييرون في قصره المطل على المدينة. كان ماغون قد وصل إلى سيراكوزة منذ شهور عدة ويتمتع بحق الدخول على هييرون:

ـ أي صنف من الرجال هو؟ سأله هميلقار.

ـ ستتفاجأ بموقفه. إنه رجل عسكري، ابن شخص يدعى هييروكليس، ويمتُّ بقرابة بعيدة لـ جيلون، أعتى الطغاة الذين

عرفتهم هذه المدينة وكان بوسعه هو نفسه أن يتصرف على الشاكلة نفسها حينما بوأه جنوده السلطة. لكنه، في الواقع، اختار أن يفعل العكس. فضَّل أن يكسب قلوب مواطنيه. وهكذا امتنع عن الأمر باغتيال خصومه أو إرغامهم على النفي. وسرح مرتزقته الأجانب وحل محلهم سيراكوزيين ينتمون إلى الطبقات الدنيا من السكان. وهؤلاء شكروه على صنيعه بأن نادوا به ملكاً.

ـ هل هو صديق لقرطاجة؟

ـ هييرون هو قبل كل شيء صديق لهييرون. لكنه يخشى الروم أكثر مما يخشى القرطاجيين. أولئك قريبون، ونحن بعيدون.

ـ أتقصد أنه اختار من الشرَّيْن أهونهما؟

ـ أدعك حراً في رأيك. إنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقاليد ويحلم على الأغلب أن يعيد إلى مدن صقلية اليونانية مجدها التليد. وفي الوقت نفسه، يعلم أن قرطاجة أقامت مستعمرات في هذه الجزيرة حتى قبل أن يستقر فيها أبناء هيلاَّد. إنه لا يريد التورط ثانية في تلك الأمور وهنا يكمن حظنا الكبير.

دخلوا القصر حيث استعلم ضابط عن أسباب زيارتهم. ثم أمر جوبا وإبيسيد أن ينتظرا في الفناء عودة ماغون وهميلقار، اللذين أشار إليهما باتباعه. اجتاز موكبهم عدة قاعات مزينة بكساءات من الجص الملون ثم توقف أمام باب ثقيل من البرونز انفتح أحد مصراعيه ليتيح لهما المرور.

ومن زاوية مخفية في القاعة الفسيحة تقدم رجل.

ـ من الذي سأُعلن عن قدومه؟

ـ هميلقار برقا، ابن أدونيبعل، عضو مجلس المئة والأربعة، مبعوث قرطاجة، يلتمس شرف استقبال هييرون ملك سيراكوزة له.

ـ أهلاً به، انطلق صوت من أعماق القاعة. تقدَّم دون خوف، إن سكان مدينة إليسا أصدقاؤنا وزيارتهم تفعم قلبي بالحبور.

تقدم هميلقار، وقد استجاب لهذه الدعوة، إلى أن لمح رجلاً يجلس فوق عرش من ذهب. كان في عمر أبيه حسب ما تدل عليه لحيته الشائبة. انحنى باحترام أمامه، وبعد أن رفع رأسه أقبل هييرون للقائه.

- هميلقار برقا، أعرف جيداً أباك. لقد أُتيحت لي فرصة لقائه أثناء إحدى إقاماته في صقلية وقد قدرت عالياً حكمته. تكلم دون خوف، إني أُنصت إليك.

- جلالة الملك، وصلت من ميسين وأحمل أخباراً سيئة.

- هل اجتاز أولئك الروم الملاعين المضيق؟

- إنهم يستعدون لفعل هذا. إني أكيد من ذلك منذ أن زرت معسكرهم والتقيت بقنصلهم، أبيوس كلوديوس. أنت تعرف أن حنون، أميرالنا، قد احتل قلعة ميسين لكنه يخشى تصرفاً سيئاً من جانب الماميرتانيين.

- إنه على حق لأن هؤلاء المرتزقة السابقين لبيرهوس، هم رعاع أنذال، عصابة من قطاع الطرق، واللصوص المتسكعين. وطيلة سنوات عاثوا فساداً في أملاكي. وأنا تحالفت معهم بناء على طلب قرطاجة إذ كان يتحتم تعبئة كل طاقات جزيرتنا ضد الروم. لكن ذلك لم يمنعني من أن أمقتهم.

- جلالة الملك، إن ارتياب حنون منهم هو بالضبط ما جعله يلتمس مساعدتك. فبرأيه إن وصول قواتك سيكون كافياً لترهيب الماميرتانيين ولردع الروم عن اجتياز المضيق. لكن الأمر يستوجب العجلة، وإن قرطاجة باسمي تطلب من أخلص حليف لها أن يتصرف دون إبطاء.

- اهدأ، هميلقار. إن الذهاب إلى الحرب قرار لا يتخذ بلا اكتراث. أتظن أن بالامكان تجميع القوات بإشارة من إصبعي؟ يجب علي أخذ آراء مستشاريَّ ومشاورة ضباطي. ولأجل ذلك فإني

بحاجة إلى عدة أيام. وخلالها، ستكون ضيفاً عندي في القصر. لا بد أن الرجل الذي استقبلك عند البوابة قد هيأ لك أجنحتك. سأرسل في طلبك ما إن أرى نفسي قادراً على الزحف إلى ميسين لنجدة صديقي القديم حنون.

- هييرون، إن كلماتك الأخيرة تطمئنني وتملؤني سروراً. سأنتظر إذن رغبتك في منحي مقابلة جديدة.

خلال ثلاثة أسابيع طويلة ظل هميلقار وإبيسيد وجوبا منعزلين في القصر. لم يرد ابن أدونيبعل الخروج مخافة أن يستدعيه الملك في أي لحظة. وكل يوم كان يزداد سوء مزاجه، وحتى جوبا لم ينجح في إدخال السرور إليه عندما كان الليل يقدم لهما بضع لحظات من الحميمية.

ذات صباح إذا بماغون، الذي بدا أنه قد اختفى، يظهر في أجنحتهم، وملامح الهمِّ بادية عليه.

- هييرون ينتظرك، اتبعني.

طيلة مسيرهما عبر حدائق القصر لم يتفوه الضابط بكلمة واحدة لكن وجهه بدا أنه يحمل سراً ثقيلاً. حاول هميلقار مراراً أن يستفهم منه لكنه كان يصطدم بصمته. عندما فُتح باب قاعة العرش فوجئ ابن أدونيبعل، إذ لمح، عن بعد، حنون، قائد الحامية القرطاجية في ميسين، وهو بالقرب من هييرون الذي كان يرتدي شكَّة(*) القتال.

- هميلقار برقا، أعلم أنك تنتظر منذ وقت طويل أن أستقبلك. كنت أفضل أن أفعل ذلك في ظروف أخرى. اليوم هو يوم حزين لقرطاجة وسيراكوزة.

- لماذا؟ ماذا جرى؟

- حنون سوف يشرح لك.

(*) شكَّة: أدوات الوقاية المعدنية كالدروع والخوذة الخ.

ـ هميلقار، قال الأميرال بصوت فتته الحزن، لقد كان لمخاوفك ما يبررها. إن قادة المامیرتانيين الذين محضتهم ثقتي خانوها، وذلك بعد يومين من رحيلك. لقد ذبحوا أنصارنا وأرسلوا وفداً إلى الروم يطلبون قبولهم حلفاء لدى الاتحاد الإيطالياني. هؤلاء، بالطبع، قبلوا طلبهم وأعطوا المامیرتانيين صفة الإيطاليين عابري البحار جاعلين إياهم تحت حمايتهم. وقد دعا أولئك المامیرتانيون الأشرار الروم الملاعين إلى النزول في المدينة. فاجتاز هؤلاء المضيق ليلاً وفي الصباح الباكر وجدت نفسي محتجزاً في القلعة.

ـ كان بوسعك أن تصمد فيها أمام حصار طويل بانتظار وصول قوات هييرون. لقد وعدني أنه سيأتي لنجدتكم.

ـ ما قاله هميلقار صحيح. منذ يومين كانت قواتي مستعدة وكنت أنوي السفر غداً.

ـ حنون، استأنف كلامه هميلقار، لمَ تخليت عن القلعة؟

ـ لقد ارتكبتُ خطأً لا يُغتفر. لدى وصول الروم إلى المدينة جمعوا الشعب وتقدم أحد ضباطهم إلى باب القلعة حاملاً رسالة من أبيوس كلوديوس. ذاك الذي دعاني إلى لقائه وعرض وجهة نظر قرطاجة على المامیرتانيين.

ـ وهل صدقته؟

ـ إن مدينتينا كانتا أخيراً حليفتين. لم يحدث إعلان حرب رسمي من جهة روما. اعتقدت أن بوسعي أن أقلب الوضع إلى صالحنا بتحدثي بإخلاص إلى المامیرتانيين مظهراً لهم الطابع الاستثنائي للحدث. إن الروم، وللمرة الأولى في تاريخهم، يغامرون خارج إيطاليا وذلك نذير شؤم.

ـ من الجلي أن حديثك لم يكن له تأثير.

ـ لم أستطع حتى أن أتفوه به. فقد نكث أبيوس كلوديوس

بوعده، آمراً بأسري واضطررتُ، تحت التهديد، أن أطلب من رجالي الجلاء عن القلعة. لقد ناقشت طويلاً مع القنصل شروط استسلامهم لئلا يُثلم شرف الجنود. وسمح الروم لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم وأبحرنا على متن سفننا متجهين إلى سيراكوزة. والآن، وبمساعدة من هييرون، آمل أن نستعيد ميسين عما قريب.

- هييرون، أنت تعرف، قال هميلقار، بصوت يرتجف غيظاً، أني هنا بوصفي مبعوثاً من مجلس المئة والأربعة. إن تصرف حنون لا يليق بقائد قرطاجي وعليه أن يتحمل مسؤولية جرمه أمام مجلس الشيوخ. أقترح المغادرة معه عند حلول المساء إلى قرطاجة لتسليمه إلى السلطات. وفي هذه الأثناء سيتولى ماغون قيادة جنود حنون وأولئك سيقاتلون إلى جانب جيشك إلى أن أعود من وطننا مع قوات أخرى.

- هميلقار، إنك امرؤ حكيم، قال هييرون. سيتم الأمر كما ترغب. لكن لا تتأخر فأنا أخشى أن يستقدم الروم جحافل أخرى.

في المساء ذاته أبحر هميلقار يتبعه إبيسيد وجوبا، ومعه حنون الذي أصبح يمشي والحديد في رجليه. ولدى وصوله إلى قرطاجة أُحيل للمثول أمام مجلس الشيوخ الذي قضى بارتكابه الخيانة العظمى وحكم عليه بالصلب. ونُفذ الحكم بحضور حشد كبير مبغض حاقد. قام بإذلال الأميرال التعس بتهكماته بينما كان الجلادون يسمِّرونه فوق خشبتي الصليب، وأطلق الحشد صيحة فرح ما إن لفظ أنفاسه الأخيرة. وتُرك جسده بعد ذلك للحيوانات المفترسة ولم يكن لعائلته أي عزاء، إذ لم تستطع تشييد مسلة لذكراه في حرم معبد بعل حمون. أما هميلقار، الذي كان قد أدى شهادته مطوَّلاً أثناء محاكمة حنون، فقد فضَّل البقاء ذلك اليوم في منزله الريفي في ميغارا. كان ذاك المكان الوحيد الذي بوسعه أن يكظم فيه غضبه وحزنه. لقد تصرف الأميرال حنون بالتأكيد كأرعن لكنه لا يستحق

عذاباً كذاك العذاب البالغ القسوة. وكان من الممكن أن تكون عقوبة النفي ومصادرة الأموال أكثر ملاءمة لذنبه الحقيقي، وهو الوضاعة.

في المساء، في ميغارا، باح هميلقار لأبيه بمشاعره:

ـ أدونيبعل، كيف بوسعنا أن نبدو غلاظاً وظُلاماً تجاه واحد منا؟

ـ بنيَّ، لقد قصصتَ علي أنك التقيت في شخص مؤاكليك الروميين بوجهي مدينتهما. وقس على ذلك بالنسبة لمدينتنا. فمن جهة، هي حاضرة اللباقة، والترف، والثقافة والحضارة. ومن جهة أخرى، ورثنا من جدودنا الفينيقيين وجيرانهم نزعة للقسوة. تذكر أيضاً أن شعبنا تحيط به قبائل معادية وأننا أقل عدداً منهم. فيجب علينا إذن أن نبث في مواطنينا رعباً مفيداً للحفاظ على إخلاصهم كاملاً نحو وطنهم. وما عقوبة الصلب إلا إحدى الوسائل التي نستخدمها لهذه الغاية. إن حنون نفسه كان يعرف ذلك ولم يحتج لدى سماعه حكم إدانته. إنه درس عليك أن تفكر فيه ملياً.

الفصل الخامس

وهكذا دخلت روما في حرب ضد قرطاجة بانتهاكها الصلِف للمعاهدات الرسمية التي وقعها في الماضي ممثلو المدينتين. وسط ظروف مشددة للعقوبة، لم يحضر أي وفد من مجلس الشيوخ الرومي أمام مجلس المئة والأربعة ليعلن، حسب العرف، انطلاق الأعمال الحربية. إن ذاك الانتهاك الكافر للأعراف كاد أن يكلف روم قرطاجة غالياً. فما إن انتشر خبر سقوط ميسين، حتى تجمع حشد من بؤساء المجتمع أمام مدخل حيِّ الروم، وهم يلوحون بالمشاعل ويهددون بإحراق منازل الغرباء، بل وحتى بذبحهم. فأرسل مجلس الشيوخ مرتزقة نوميديين على عجل، وقاموا بتفريق الجمهور الصاخب بكل قسوة. أما المنكوبون الذين كانوا قد رُصدوا للنيران فقد تم اصطحابهم إلى متن سفن يونانية مؤجَّرة خصيصاً لهذه المناسبة. ولقاء تعويض جيد، قبل ربابنتها نقل مسافريهم المربِكين إلى أوستي، شرط أن يشيروا إلى الكرم الذي أظهرته قرطاجة نحوهم والذي يتناقض مع جحود روما.

كان هميلقار، ومنذ عودته إلى مدينته الأم، بالكاد يلمح أباه. إذ كان مجلس المئة والأربعة منعقداً باستمرار وأدونيبعل أصبح فيه الشخصية الأساسية، إذ حل في مكان ومركز مهرا بعل. لقد أراد زملاؤه بهذا النحو شكره على شفافية وصواب رأيه. فهو وحده الذي استطاع التنبؤ بانطلاق الأعمال الحربية وحاول بلا جدوى

تحذير حنون حينما أرسل إليه على عجل ابنه هميلقار. أخذ جوبا يروي لصديقه ونبرة فخر في صوته قائلاً: إن اسم آل برقا، في أزقة المدينة على جميع الشفاه وحوله تدور تعليقات مفعمة بالكياسة واللطف. وعلى النقيض من ذلك فإن بعل يتون وأصدقاءه الذين اعتبروا موالين للروم، كانوا يُنتقدون بعنف وما عادوا يتجرؤون على الظهور علانية خوفاً من أن يوبخوا.

كان هميلقار، في مسكنه في ميغارا، يغلي من نفاد صبره. وهو ينتظر متلهفاً السفر مجدداً للقتال، لكن، كان عليه لأجل ذلك أن يتلقى تعليمات من أبيه، الغائب دوماً. وكان قد أخطر أباه برغبته، لكن عدم ورود أخبار منه جعله في حنق وغيظ. وأخيراً ذات مساء، وبينما كان عائداً من نزهة طويلة بصحبة جوبا، ركض إبيسيد إلى ملاقاته:

ـ لقد أرسل أبوك في طلبك منذ قليل. إنه ينتظرك في أجنحته. أنصحك بالذهاب إليه فوراً.

اتبع هميلقار نصائح معلمه القديم. وإذا به يجد أدونيبعل محاطاً بأربعة شيوخ وقد علت وجوههم سمات الوقار والهمّ.

ـ بني، أقدم إليك زملائي هيميلقات، عبد لاي، بودتانيت، وبعل نواس. كما تعرف، في مجلس الشيوخ، تتتبَّع بعض القضايا لجان من خمسة أعضاء ونحن كُلفنا بكل ما يتعلق بالشؤون العسكرية والحرب على روما. لقد أعجبنا تصرفك في ميسين وكذلك دقة تقاريرك حول الوضع في صقلية. أنت في مقتبل العمر لكنك تستطيع أن تظهر حصافة رأي كبيرة. ولهذا قررنا أن نعهد إليك بمهمة عظيمة: أن تكون ممثلاً لمجلس الشيوخ ومجلس المئة والأربعة لدى القائد العام لقواتنا في هذه الجزيرة. ونحن عيَّنا لهذا المركز هنيبعل الرشيد. إنه رجل ذكي وجندي مدرَّب. تقيد بخطواته ولاحظ ما يفعله وما لا يفعله على حد سواء. اسأل الجنود والضباط، ودوِّن كل ما يبدو لك هاماً وأرسل إلينا التقارير بانتظام. عليك أن تكون عين وذراع مجلس شيوخ قرطاجة ومجلس المئة والأربعة.

ـ أشكركم، أعضاء المجلس اللامعين، على تكليفي بهذه المهمة. لكن أمنيتي الأغلى ليست في أن أكون كاتباً. إني أرغب بالسماح لي بالقتال وأن ألحق الهزيمة بهؤلاء الروم اللعينين.

ـ ليس بمستبعد أن تُؤخذ إلى القتال. لا يُعرف عن هنيبعل الرشيد حبه للبقاء وراء جنوده عندما يقومون بالهجوم. إن سيفك لن يظل إلى الأبد في غمده. لكن كفَّ عن مقارنة نفسك بكاتب. فهذه الاحتجاجات المتباكية تليق بطفل متقلب الأطوار. وهي غير مقبولة لدينا. لا داعي لأن تشتكي، بل على العكس. إن المجلس يكلفك بمسؤوليات جسام يتطلع إليها عدد كبير من رفاقك. ونحن نعتقد أنك بها ستكون أكثر نفعاً لقرطاجة وهذا هو الأمر الوحيد المهم. وفضلاً عن ذلك، وبناء على اقتراح هيميلقات الحاضر هنا، قرر مجلس الشيوخ أن يمنحك رتبة قائد عسكري. من اليوم فصاعداً أنت ضابط وعليك أن تطيع أوامر رؤسائك. هذا قولي.

ـ هيميلقات، قال هميلقار، إني متأثر بإمارات الشرف التي تود إسباغها علي وسأبذل قصارى جهدي لأكون جديراً بها. أعضاء المجلس اللامعين، أبي الموقَّر: سأتصرف كما ترغبون، إني بانتظار تعليماتكم.

ـ ستحضر هذا المساء إلى الميناء العسكري حيث ينتظرك هنيبعل الرشيد. ستبحران إلى صقلية لتقدما المساعدة لصديقنا هييرون، ملك سيراكوزة، الذي تزحف قواته إلى ميسين. احتلا المدينة واطردا منها الروم.

* * *

على متن سفينة خماسية المجاذيف كان هنيبعل الرشيد ينتظر بفارغ الصبر لقاء مبعوث المجلس الكبير، ابن أدونيبعل. كان يرغي ويزبد في داخله من أولئك الشيوخ الملاعين الذين، بدلاً من أن يجندوا مرتزقة جدداً، يلصقون به فتى غرَّاً، امتيازه الوحيد: انتماؤه

إلى عائلة برقا. آلى على نفسه أن يحذر من هذا الجاسوس وألا يكشف له على الاطلاق نواياه الحقيقية. وبهذه الطريقة سرعان ما سيتم استدعاء هذا الصبي إلى قرطاجة بعد أن يثبت عدم نفعه. وسيتمكن هو، هنيبعل الرشيد، من شن حرب كما يشاء. كان غارقاً في أفكاره حينما قطع ضابط حبل تفكيره:

ـ أيها القائد، إن هميلقار برقا قد وصل ويأمل بلقائك.

ـ هل هو بمفرده؟

ـ لا، إنه مع أحد عبيده، وهو يوناني، ومرافق، وهو نوميدي.

ـ ألهذا الحقير حاشية! إنه يظن نفسه شخصية هامة فعلاً. حسناً، أدخله لكن قل لنصيريْه أن ينتظرا خارجاً. حسبي التظارف لجاسوس كلفه مجلس الشيوخ بمراقبتي ولا أريد ان يزعجني الرجلان الآخران.

دخل ابن أدونيبعل القاعة وحيّا القائد:

ـ هنيبعل الرشيد، إني سعيد أن أخدم تحت إمرتك.

ـ تحت إمرتي حقاً؟ لدي إحساس بأنك مكلف بمراقبتي وأن أوامرك يمليها عليك آخرون سواي.

ـ إني أتفهم وأحترم مخاوفك. أنت ترتاب مني وهذا أمر طبيعي تماماً. ولو كنت في مكانك فلن أتصرف على نحو مختلف. لكن صدقني، ليس لدي أي نية عدائية نحوك.

ـ قطعاً، إنك امرؤ ودود. وعما قريب سينتهي بي الأمر إلى تصديقك.

ـ ستفعل ذلك فعلاً.

ـ لماذا؟

ـ لأن في هذا مصلحة قرطاجة عينها وتلك المصلحة هي التي تملي على الدوام تصرفك. لقد رأينا ذلك أثناء الحرب التي قمت بها

ضد النوميديين. إذ رفضت اقتلاع أشجار زيتونهم كما أمرك القاضي ماغون أن تفعل. وبعد عام افتقرت مدينتنا إلى الزيت ووجدت فَرَجها في زيت النوميديين. فلو أن العقاب الذي اتخذه ماغون كان قد تم تطبيقه لعمت المجاعة بين ظهرانينا.

- كيف اطلعت على هذه القصة؟ أنت لم تكن حتى قد ولدتَ عندما حدث ذلك!

- لقد قصَّها علي والدي لأنه يحمل لك احتراماً فائقاً، على نقيض ما بوسعك أن تظن. إن هذه الحكاية الصغيرة لم أسمعها مساء عندما أخبرني بالمهمة التي أوكلها إلي المجلس. لقد رواها لي قبل سنوات عندما كان منهمكاً بتربيتي وإطلاعي على أعمال شعبنا الباهرة.

- وما هو رأيك في قراري؟

- إنه يعجبني.

- وماذا يمكن أن يعني ذلك؟ أنت لم تستفد من هذا على حد علمي.

- وأنا طفل كنت على الدوام أخشى عصيان أدنى أمر يصدر إلي. لقد كنت طائعاً طاعة عبد. ولما قص علي والدي عملك فهمت أنه ينبغي أحياناً عصيان الأمر، وأؤكد على(أحياناً). إن هذا الحدث قد فتح عينيْ وأتاح لي أن أحكم على الأشياء بطريقة مختلفة. وإني لشاكر لك ذلك، بالرغم من خشونة استقبالك.

- هميلقار، أنت تعجبني وأنا آسف على تصرفي حيالك. لقد نمَّ إلي أنك فتى غرّ، واتضح لي أن أولئك الذين قالوا ذلك لا يعرفونك. إني أمحضك صداقتي وثقتي. وسنصنع أنا وأنت، معاً، أشياء عظيمة.

- إني رهن أمرك، قال ابن أدونيبعل وقد علا وجهه الاحمرار.

ـ بوسعك العودة إلى ثكنتك. غداً سنبحر صوب صقلية. ولا ينبغي أن نتأخر، فبعد بضعة أيام سيبدأ فصل الشتاء. ولن يعود بالإمكان الإبحار لأشهر في البحر الكبير وأتوجس من أن تضربنا عاصفة. إنها يمكن أن تهب على نحو مباغت ولا أرغب في فقدان سفني. ربما لا تعرف أنت ذلك لكن أسطولنا يتألف من عشرين سفينة ثلاثية المجاذيف وثلاثين أخرى خماسية المجاذيف.

ـ إنه قليل.

ـ أعرف ذلك، لكن هذا هو الحال. والآن اذهب سنلتقي عما قريب.

انضم هميلقار إلى رفيقيْه. وطيلة المساء ما فتئ يكلمهما عن هنيبعل الرشيد بعبارات التقريظ. خلدوا للنوم في وقت متأخر من الليل. وعند بشائر الصباح غادر الأسطول الميناء العسكري. وقد تجمع على أرصفة الميناء التجاري حشد كبير من الناس هاتفاً للبحارة والجنود. وظلت صيحاتهم تدوي حتى بعد أن اجتازت السفن الممر المؤدي إلى البحر.

خلال الرحلة كلها أمضى هنيبعل الرشيد وهميلقار ساعات طويلة معاً، مستدعين، من حين لآخر، الضباط لإبلاغهم بتعليماتهما. ذات صباح لمحوا عن بعد أسوار سيراكوزة. وعند الغروب رسا الأُسطول كله في ميناء المدينة، نزل الجنود بالمئات من السفن متجهين إلى معسكراتهم، داخل وخارج المدينة. ونصبت الخيام وأُوقدت النيران. وسادت حيوية مرحة المعسكر. كان الجنود المشاة مسرورين بالسير على اليابسة بعد أيام طويلة قضوها في البحر. أما الفرسان، السعداء باستعادة خيولهم من جديد، فقد اعتلوا صهواتها ما إن نزلوا من السفن وتفرقوا في الحقول الغنية المحيطة بالمدينة. وكان على ضباطهم استخدام كل سلطتهم لإجبارهم على العودة ثانية إلى المعسكر.

وصل هنيبعل الرشيد وهميلقار، يرافقهما كبار ضباطهما إلى قصر هييرون. ووجدوا صعوبة في تقدمهم في الأزقة، فالسيراكوزيون كانوا قد تجمهروا بأعداد كبيرة في طريق مرورهم للهتاف لهم.

لم يخف هييرون فرحه حينما لمح هميلقار:

- أهلاً بكما أيها الصديقان القرطاجيان، وأهلاً بك، على الخصوص، هميلقار برقا. إني سعيد بلقائك ثانية. لقد بررت بوعدك بالعودة مع قوات جديدة وإني شاكر لجميلك هذا.

- شكراً على هذه الكلمات التي أثَّرت في نفسي. أقدم لك قائدنا، الجنرال هنيبعل الرشيد، وتحت إمرته لي شرف الخدمة.

- أهلاً بك هنيبعل الرشيد. لقد سُرَّت سيراكوزة بوصولك.

- وأنا أشكرها على استقبالها. ما هو الوضع؟

- ما زال الروم متحصنين في قلعة ميسين وقد انضم إليهم الماميرتانيون ليقوموا بغارات ضد أراضينا. لقد أضرمت النار في ضياع كثيرة، ونُهبت وخربت المحاصيل. حتى إن بعض فرسانهم قد شوهدوا على مسيرة يومين من هنا. ولأجل هذا لم تسع قواتي إلى البدء بقتال العدو. لقد آثرت انتظار وصول تعزيزات من قرطاجة.

- كان تصرفك حكيماً، وما من أحد بوسعه لومك على ذلك، قال هنيبعل مؤيداً إياه. لكن هذا الوضع قد طال كثيراً. من الغد سوف نزحف إلى ميسين لنعاقب الروم على وقاحتهم والماميرتانيين على خيانتهم. ينبغي التصرف بسرعة، وإلا قد تُسوِّل نفس أبيوس كلوديوس له بأن يطلب من مجلس شيوخه إرسال فيالق جديدة. سنجد أنفسنا حينذاك في موقف صعب. كم من الرجال تحت إمرتك هييرون؟

- حوالى عشرة آلاف.

ـ معي خمسة آلاف رجل وتحوي مواقعنا الصقلية أكثر من خمسة عشر ألف رجل، سأقوم باستدعاء نصفهم إن اقتضت الضرورة. لا بد أن ذلك سيكون كافياً لنا.

* * *

في الصباح، بدأ الجيشان يسيران في ضجيج مرعب. كان السيراكوزيون قد اتخذوا موقعهم في الطليعة وأرتال الجنود المشاة، المجهزين بحراب طويلة وتروس بيضوية يمشون بخطوات نشطة. كان وراءهم يسير الفرسان النوميديون وكذلك رجال قوات هنيبعل الرشيد المحاطون بضباطهم. ثم أقبلت، تجرها الثيران، آلات الحرب التي صنعت مجد سيراكوزة: منجنيقات قادرة على قذف حجارة ثقيلة ومئات السهام، وراجمات وأبراج خشبية. أما مؤخرة الموكب فقد انتهت ببحر من عربات المؤن ومئات من النساء، اللواتي تكدس بعضهن في عربات صغيرة، ومشى البعض الآخر على الأقدام وهن يتبعن أزواجهن أو أصحابهن. إنهن أفواه إضافية تحتاج لطعام لكنها قسمة اعتيادية لجيش غاز وما كان أحد ليخاطر بطردهن. فكل امرىء يعرف أنهن بعد انتهاء القتال سيكنّ وحدهن اللواتي يجلن أرض المعركة بحثاً عن أقاربهن، يعتنين بهم إن كان ذلك ممكناً، أو يغدقن عليهم كلمات السلوى ليساعدنهم على مواجهة الموت على نحو أفضل.

كان هميلقار يمتطي جواده إلى جانب هنيبعل الرشيد، وقد أدهشه غنى وتنوع مناظر الطبيعة التي كانت تتجلى أمام ناظريه. كانت سلسلة طويلة من الحقول والهضاب المشجَّرة، تشكل بحيرة حقيقية من الاخضرار تتخللها أحياناً بضع مساحات مقفرة لا يبدو فيها سوى الحجر نابتاً. ومن بعيد تتراءى للعيان بضع منازل جميلة لكن تبرز أيضاً أكواخ فقيرة يتكدس فيها العبيد. كان هؤلاء يهرولون مغادرين الحقول ما إن يبصروا سحابة الغبار التي يثيرها

الجيش. كانوا يخشون بحق أعمال العنف التي يقوم بها الجند والمغيرون، وهم يسارعون إلى نهب بيوت المؤن والإسطبلات مهددين البؤساء بسيوفهم ورماحهم.

استلزم وصول الموكب الهائل أسبوعين ليقف أمام ميسين. وكانت حركته قد شلّت ليومين بسبب المطر الغزير الذي بلل الطرق وجعل تقدم آلات الحرب وعربات المؤن مستحيلاً. وعندما تكرم الكوكب الشمسي بالظهور مجدداً، خرج الرجال من خيامهم وتفحصوا بعناية حال عتادهم قبل أن يستأنفوا المسير. داخل الصفوف كانت تُسمع أصوات الجنود وهم يسبُّون الطقس والبرد لكنهم كانوا يصمتون ما إن يقترب ضابط منهم. لم تكن لدى أي منهم رغبة في أن يجد نفسه مربوطاً إلى عربة والسياط تنهال عليه حتى يسيل الدم منه.

بدأ الحصار، وما لبث السيراكوزيون أن استولوا على المواقع التي كانت قد حُددت لهم. وكانوا قد تفرقوا في أطراف المدينة لينهبوا أملاك الماميرتانيين. كانوا ينتقمون بذلك من أعمال العنف التي ارتكبها المرتزقة على أرض سيراكوزة. كان بوسع القرطاجيين أن يتبينوا، وهم في معسكرهم، وميض الحرائق ويشاهدوا حلفاءهم يعودون، وهم يسوقون أمامهم آلاف المواشي ومئات العبيد المخبولين الذين كانوا قد رصدوا لأعمال الحفر. كانت ميسين قد تم فصلها عن باقي صقلية لكن الحامية الرومية، المرابطة في القلعة، كانت تتزود بوساطة سفن قادمة من ريجيون. ومع قدوم فصل الشتاء، تباطأت العمليات العسكرية. وتوقف المحاصَرون بحكمة عن محاولة القيام بأي خروج، أما المحاصِرون، المرتعدون برداً، فهم أيضاً تجنبوا شن أي هجوم.

ذات صباح استدعى هنيبعل الرشيد هميلقار:

ـ ما رأيك بالوضع؟

ـ إن التذمر يدمدم بين رجالنا. إنهم لا يفهمون لمَ نظل هنا دون

فعل شيء وإني لأشاطرهم الرأي. ربما علينا أن نطلب من قرطاجة أن ترسل إلينا أسطولاً يسدُّ المضيق.

فرد عليه هنيبعل الرشيد:

ـ تعلم تماماً أن ذلك مستحيل قبل عدة أسابيع. وطالما استمر الشتاء فإن أي سفينة لن تغادر المرفأ العسكري. من العبث مجابهة غضب الأمواج.

ـ أنت على حق، لكن ما جدوى تجميد هذا القدر من القوات في حين أن قوات حلفائنا السيراكوزيين كبيرة بما يكفي لإنجاح المهمة.

ـ وماذا تقترح؟

ـ لنترك هنا زهاء ألف رجل، ولنذهب مع من تبقى إلى أراضينا. لعل إظهار قوتنا سيكون مجدياً لتثبيت شجاعة حلفائنا.

ـ هل سمعت ببعض الإشاعات؟

ـ لا شيء محدد. بوسع هؤلاء الحلفاء أن يحقدوا علينا لعلاقتنا المتميزة مع هييرون وأن يلومونا على إهمالنا لهم طالما أننا لسنا بحاجة إليهم. صدقني، سيكون من الحكمة أكثر أن نذهب إلى أكراغاس(*)، ثاني أهم مدينة في الجزيرة بعد سيراكوزة، وأن نظهر لحكامها أن قرطاجة لا تدخر جهداً في حمايتهم.

ـ أنت على حق سنرحل بعد ثلاثة أيام بعد أن نُعلم القائد السيراكوزي بمقاصدنا. وعندما يحل الربيع سنعود للانضمام إليهم وسنستولي على ميسين.

لم يعارض السيراكوزيون رحيل حلفائهم وحتى أنهم فوجئوا حينما علموا أن ألف جندي قرطاجي سيواصلون القتال إلى جانبهم. كان رأي هميلقار صائباً. استقبلت المدن اليونانية الحليفة لمدينة

(*) حالياً اسمها أغريجنتو.

إليسا الجنود بمظاهر الصداقة والفرح العارم. وأثار قدومهم، في كثير من المناطق، تغيراً في الموقف لدى وجهاء القوم، الذين كان بعضهم قد قام باتصالات مع روما. وتمت الوشاية بالخونة وعُذبوا. وهكذا، في أكراغاس، قام أقران فيليب، أحد كبار حكام المدينة، باتهامه، وحُكم عليه بالموت. ونزولاً عند وساطة هميلقار، عفا عنه هنيبعل الرشيد في موقع التعذيب. وخاطب القائد العام حشد الناس وعائلة الحاكم قائلاً:

ـ مواطنو أكراغاس، إني أشكركم على حماستكم وصدقكم. بالتأكيد هذا الرجل يستحق عذاباً. لكن الموت سيخلصه في لحظة واحدة من عذاباته. وأنتم إذ تقتلونه تبرهنون على رحمة من جانبكم. لقد اقترح علي صديقي هميلقار عقاباً أكثر قسوة بكثير: ألم يرغب بالتفاهم مع الروم، ليعش إذن تحت نيرهم! سنرى إن كان القناصلة سيهتمون بمصير رجل صودرت أملاكه وأصبح اسمه مرادفاً للخيانة.

اهتز الجمهور بضحك صاخب وانطلقت صيحات الاستحسان هادرة. كان كل منهم يعلم أن الروم ما كانوا قط كرماء نحو أصدقائهم حينما تصيبهم تقلبات الدهر. عاش التعيس فيليب، يرافقه العديد من أقاربه، في ظروف صعبة ومثاله سيخدم في تحذير جميع أولئك الذين قد يحلمون يوماً في تقليده. والواقع أنه بعد شهرين من ذلك عاد إلى أكراغاس أحد عبيده، الذين حرصوا على مرافقة سيدهم إلى منفاه، ليصف ظروف حياة الحاكم السابق البائسة، تلك الظروف التي تدر دموع أقسى القلوب. فقد اضطر فيليب إلى أن يقتات من فضلات يلتقطها خلسة من المعسكر الرومي. وكان أبيوس كلوديوس، وهو على وشك ترك وظائفه، قد رفض استقباله، وردَّ على ضابط رومي دافع عن مواطن أغراكاس المنكود الحظ قائلاً: «لقد خان وطنه، لمَ لا يخون روما؟».

كان هنيبعل الرشيد يتهيأُ للسفر مجدداً إلى ميسين حينما وصل

جندي قرطاجي، وعلى جسده أثر جراح خطرة، إلى مدخل المعسكر وطلب المثول أمام القائد العام:

ـ حسدروبال، لقد شق علي التعرف عليك من شدة ما شوهتك المحن التي تعرضت لها. صديقي الوفي، ماذا حدث؟

ـ لقد خاننا المخادع هييرون. فما كدتم تغادرون المدينة حتى تعلق بالروم بعد استقبال وفد من المامیرتانيين جاؤوا يطلبون شروط الهدنة. كان هييرون قد تردد طويلاً لكن قدوم قنصل جديد، فاليريوس ماكسيموس، جعله يبت بأمره في ذلك. لقد سحق هذا القنصل الوقح الجيوش السيراكوزية ذات القيادة السيئة والتي حاولنا تقديم المعونة العسكرية لها دون جدوى. إن الرومي، وبلاحقّ، كان شديد الفخر، بتلك الانتصارات غير المتوقعة بحيث منح نفسه لقب ميسالا، أي قاهر ميسين.

ـ أمتأكد أنت من ذلك؟

ـ أجل. إنها المرة الأولى في تاريخ روما التي يُمنح فيها قائد اسم انتصار.

ـ إن هذا لشؤم، تمتم هميلقار. لسببين، فمن جهة هذه إهانة للجنود الذين قاتلوا إلى جانبه والذين هم صناع نجاحه الحقيقيون. ومن جهة أخرى فإن أنداده، والذين يحسدون هذا الشرف بحق، سيفعلون ما بوسعهم لتقليده.

ـ إني أتخيلهم الآن يحسبون المنطقة التي سيطلقون عليها اسم عائلتهم.

ـ هميلقار، أنت على حق، لكن دع حسدروبال يتابع قصته.

ـ إن هييرون وقد تحقق من أن روما قد قضت على جحافل جنده، باشر المفاوضات السرية مع فاليريوس ماكسيموس. وأظهر الروم تسامحاً معه. فقد اقترحوا عليه إبرام معاهدة سلام مقابل تسليم مخزون القمح، وآلات الحرب ودفع تعويض مقداره مئة تالان.

إن المبلغ لا يستهان به لكن هييرون بوسعه أن يبتهج لتخلصه من الورطة بأقل التكاليف. فمتابعة الحرب قد تكلفه ثمناً أغلى.

ـ ورجالنا؟

ـ لقد وقعنا في الشرك مثل فئران. ذات صباح حاصرنا السيراكوزيون، يرافقهم الروم، وجردونا من السلاح. أستطعت أن أختفي تحت كومة علف، كنت أصرُّ على قبضتي حنقاً وأنا أستمع إلى صراخ رفاقي وهم يُذبحون. أما القليل منهم الذين بقوا على قيد الحياة فقد اقتيدوا إلى ريجيون، ثم بيعوا عبيداً في أسواق كامبانيا. أنا نفسي، بعد أن ظللت لأيام عدة في مخبئي، تعرضت لأخطار لا تحصى لكي أصل إليك وأبلغك بهذه الأخبار المشؤومة. تصرف معي كما يحلو لك. فأنا لا أستحق الحياة بعد تلك المصيبة ولا أخشى العقاب العظيم. إنه سيتيح لي اللحاق برفاقي البائسين المنكودين وأكفِّر به عن الخطأ الذي جعل مني آثماً تجاه مدينتنا.

ـ حسدروبال، إن إضافة موت آخر لن يُحيي جنودنا. إن كنت ترى أنه من الواجب التكفير عن أخطائك ـ وإني لأتساءل ما هي تلك الأخطاء ـ فافعل ذلك بخدمتك لقرطاجة. وكل ما خلا ذلك فهو ثرثرة وأنت تضيع مني وقتاً ثميناً. لا تعد لرؤيتي إلا عندما يعود إليك رشدك. في الوقت الحاضر إن سلوكك لا يليق بضابط.

ما إن استطاع هنيبعل الرشيد أن ينفرد بهميلقار، حتى أسرَّ له أنه نادم على حدَّته تجاه حسدروبال، ذلك الضابط المتحمس والشجاع. لقد كان يعبر عن نفسه رغماً عنه، وقد أعجزه قول ما أثارت لديه خيانة هييرون. كانت تلك الخيانة كارثة حقيقية فقد سلَّمت للروم نصف الجزيرة.

* * *

لم يبطئ هنيبعل الرشيد في اتخاذ التدابير الجديدة. تحصَّن مع رجاله في أكراغاس وأوفد على وجه السرعة هميلقار إلى قرطاجة

لترسل إليه مساعدات وقوات جديدة. إن صورة الوضع التي رسمها ابن أدونيبعل لأعضاء مجلس المئة والأربعة أقنعت محاوريه بالتصرف سريعاً. وهكذا، تم إرسال وكلاء التجنيد إلى السواحل الإسبانية، وغاليا وسردينيا لتجنيد آلاف المرتزقة، ورماة السهام ورماة المقاليع والجنود المشاة. كانت قرطاجة قد التزمت بأن تدفع لهم في نهاية الحرب نقوداً وافرة من الذهب والفضة وأخذت على عاتقها نقلهم ونفقتهم خلال الحملة كلها. وتدفق المقاتلون. كانت مدينة إليسا مشهورة بكرمها حيال أولئك الذين يرضون بالدفاع عنها. بالتأكيد كان قادتها قساة القلوب فيما يتعلق بالنظام. فقد كان السوط عقوبة أقل خطأ. أما الفارون من القتال فما إن يقبض عليهم حتى يُقتلوا تحت وطأة عذاب شنيع. لكن الضباط كانوا يغضون الطرف عن تصرفات رجالهم حينما يستولون على مدينة. فالمال الذي كان يجنيه رجالهم من بيع غنائمهم يفوق كثيراً مبلغ رواتبهم، الذي هو مع ذلك كان وافراً جداً. كانت قرطاجة مخدوماً كريماً، وكان يحلم عدد كبير من الفتية المحاربين بخدمتها ليكوِّنوا ثروة صغيرة وليتمكنوا بالتالي من شراء أرض ومنزل. وهكذا فإن وكلاء التجنيد كانوا موضع ترحيب من الإيبيريين، والسلتيين، والسردينيين. كان هؤلاء الوكلاء يختارون الرجال الأشد بأساً والأكثر بسالة وأولئك هم الذين كانت تتوق إليهم السفن. وحال وصولهم إلى قرطاجة أحاط بالمجندين الجدد بعض المحاربين القدماء من الحملات السابقة، ومرتزقة سابقون، أصبحوا، جزاء خدماتهم المخلصة والحسنة، مواطنين في المدينة ورقُّوا إلى مرتبة الضباط.

أما هميلقار فقد تلقى أمراً بتجنيد فيلق من عشرة آلاف فارس من بلاد النوميديين، وهم حلفاء قرطاجة الأقوياء، المشهورون بشجاعتهم ومقاومتهم. وكثيراً ما كانت قرطاجة في الماضي تدين بانتصاراتها في أرض المعركة لهجمات أولئك الفرسان الجريئة الذين لا نظير لهم، القادرين على إنزال شرٍّ هزيمة في صفوف العدو

بضربات سيوفهم. ولتجنيد مرتزقة نوميديين جدد، كان لدى هميلقار ورقة هامة تمثلت في شخص جوبا. هذا الأخير عرض نفسه حالاً لمرافقة هميلقار، ومن ثم قدمه لأبيه ملك النوميديين. كان وقع المفاجأة عظيماً على الملك العجوز حينما التقى بابنه ثانية بعد سنين طويلة من الإنفصال. كان جوبا قد أصبح قرطاجياً حقيقياً. ولم يبد أنه متعجل قط إلى وضع نهاية لوضعه كرهينة. احتفل اخوته وأخواته به، وهم يتدافعون مبتهجين لينظروا إليه مفتونين بغنى ملابسه وأسلحته. أما العاهل، الذي كان مقتنعاً بأن ليس بوسعه رفض طلب قرطاجة، فقد ترك وكلاء التجنيد القرطاجيين يعملون فوق أراضيه.

حينما عاد هميلقار دخل مبتهجاً إلى قرطاجة مع فرسانه النوميديين الذين امتطوا دون سروج أحصنتهم الصغيرة. كان آلاف المرتزقة موجودين في المدينة. وقد قدموا إليها من تارتيسوس، وغاليا، وسردينيا. كانوا يتأملون مندهشين المعابد والصروح العامة وكذلك البضائع الباذخة المعروضة فوق مناضد التجار. لم يكونوا قد شاهدوا قط مثل هذا العرض الرائع للثروات. وأخذوا يتبادلون انطباعاتهم، بلهجاتهم الخشنة. في المساء، كانوا يعلِّقون على ما جرى أثناء نهارهم وهم يشربون النبيذ في النزل القريبة من الميناء التجاري. أما سكان المدينة فكانوا يعاملونهم على نحو ودي، وهم سعداء لرؤية رجال أشداء يرضون بالسفر للقتال بعيداً لأجلهم.

ذات صباح أعلم رسول من مجلس المئة والأربعة هميلقار بأن الجيش المرسل لنجدة هنيبعل الرشيد سينطلق غداً. كانت قيادة الحملة قد عُهدت إلى الأميرال حنون الذي كان قد التقى به هميلقار تكراراً عند أبيه. وهكذا، غادرت عشرات السفن قرطاجة ماخرة عباب البحر، متجهة إلى صقلية. وحتى الفيلة تم شحنها بحراً على متن السفن، وقد بلغ عددها خمسين فيلاً، كانت حقاً حيوانات

مخيفة، حكى عن مآثرها الجنود القدامى. كان بوسعها، حينما تهجم، وقد تولى توجيهها رجال خبراء، أن تحطم صفوف العدو وتبث الرعب فيه. وانتظر هميلقار متلهفاً الوصول إلى أكراغاس ليراها وقد باشرت العمل. وكان يأمل أيضاً أن يلتقي مجدداً بهنيبعل الرشيد، المحاصر منذ خمسة شهور.

كان الروم قد استفادوا من ارتداد هييرون عن واجبه، ليُنزلوا في صقلية فيالق جديدة، يقودها القنصلان لوكيوس بوستوميوس ميجيللوس وكانتوس ماميليوس فيتولوس. وكان الرجلان، بعد سير حثيث مع جيشهما قد وصلا إلى أكراغاس وحاصرا المدينة. كان بوستوميوس قد نصب معسكره بالقرب من معبد إسكولاب أما ماميليوس فقد اتخذ موقعاً في الجانب الآخر، بالقرب من هيراكليا. وكانا قد أمرا بحفر أول خندق حول المدينة بحيث يحول دون أي محاولة خروج من المحاصَرين، كما أمرا بحفر خندق آخر حول معسكريهما، مانعين بذلك قرطاجيي ليليبيه من إرسال مؤونة إلى هنيبعل الرشيد. على النقيض، كان القنصلان لا ينقصهما شيء. ففي هيربيزيوس، على بعد عشرات الغلوات(*) من المدينة، كانا قد أقاما مخازن تموين، وكان حليفهما الجديد، هييرون، يرسل إليهما كل ما هما بحاجة إليه: القمح، النبيذ، الزيت، الفواكه، الخضار، الماشية والعلف. حتى أنه قد سلَّم للروم آلاته الحربية وأضحت منجنيقات سيراكوزة توجه ضربات قاسية إلى سور أكراغاس. في تلك المدينة المحاصَرة لم تكن المجاعة قد نشبت بعد، لكن، كان لزاماً على القائد القرطاجي أن يفرض تقنيناً صارماً للاستهلاك. وهكذا صودرت كل الأغذية المتوافرة وخُزِّنت في القلعة وانطلقت دوريات تفتش مساكن المواطنين للتأكد من أنهم قد سلموا حبوبهم.

كان حنون، وقد علم بالوضع، قد تعهد بالوصول ليلاً وبإنزال قواته قبل بزوغ الفجر. حينما استيقظ الروم اكتشفوا مشدوهين أنهم

(*) Stade: غلوة، وهي وحدة قديمة من وحدات الطول.

كانوا هم بدورهم محاصَرين. كانوا يحاصرون أكراغاس لكنهم كانوا هم أنفسهم محاصَرين. وما لبثوا أن عانوا نتائج الحصار. استولى هميلقار مع فرسانه النوميديين، على هيربيزيوس وعلى مخازنها. وبدأت المجاعة تعيث فساداً في المعسكر الرومي المحروم من المؤونة. كان يُرى عشرات الجنود وقد استفادوا من الظلمة يتخلون عن مراكزهم ويمثلون أمام المراكز القرطاجية المتقدمة حيث كانوا يرتمون على الطعام المقدَّم إليهم.

حينما أُخطر حنون بهؤلاء الفارين، رأى أنه قد حان الوقت لشن المعركة. ذات مساء، دعا جميع ضباطه لضبط خطة القتال التي سيستخدمها في المواجهة. وتوجه إليهم بهذه العبارات:

- أنا، حنُّون، بحَّار. اعتدتُ القتال في البحر وليس على اليابسة. لأجل ذلك تأخرتُ في شن عملية واسعة لتخليص هنيبعل الرشيد. لقد آثرت أن أراقب بدقة أرض المعركة وأن أجمع آراءكم واقتراحاتكم. الآن، اتخذتُ قراري، سنهجم غداً عند أول خيوط الفجر وإني أعتمد عليك، هميلقار، وعلى فرسانك النوميديين.

- رهن أوامرك، حنون، قال بصوت حازم ابن أدونيبعل. ما هي خطتك؟

- ستتجه مع رجالك إلى مقدمة العدو. أظن أن فرسان الروم سيحاولون القيام بغارة. ستتراجع آنذاك، وحينما سيلاحقونك سأتقدم أنا مع غالبية جيشي الذي سينسحق تحته الروم.

تكللت خطة حنون بالنجاح. فقد اندفع الخيالة الروم، كما توقع، لملاحقة النوميديين فما كان من المرتزقة إلا أن مزقوهم إرباً. أما الجنود المشاة الذين أُرسلوا من المعسكر الرومي لنجدة الخيالة فقد شُتتوا وداستهم أقدام الفيلة. كان القرطاجيون قد اقتبسوا من بيرهوس، ملك إيبير، فكرة اللجوء إلى تلك الحيوانات التي استخدمها في الماضي الإسكندر أثناء فتوحاته. وبينما استخدم الإيبيريون فيلة أسيوية، ضخمة، فإن جيوش هنيبعل الرشيد استخدمت فيلة

أفريقية، أصغر حجماً، تم الاستيلاء عليها من منطقة ليكسوس الواقعة في ما وراء أعمدة ملقارت. كان يقودها رجال يسمون الهنود، يجثمون فوق برج من أغصان الصفصاف حيث كان يتخذ رماة السهام أحياناً مواقعهم. لقد أسهم هؤلاء الفرسان المميزيون كثيراً في الانتصارات التي أحرزتها قديماً مدينة إليسا.

بالفعل، كان المشهد مؤثراً ولم يستطع هميلقار أن يتمالك نفسه من الشعور بالإعجاب بتلك الحيوانات الرائعة المطيعة بإخلاص لتعليمات موجهيها. كانت تلك الفيلة، وقد أُسرجت على نحو متين، ما إن تسمع ضجة السيوف المتشابكة، حتى تطلق صرخات صاحلة ومرعبة وتضرب الأرض بإحدى قوائمها. كان نهيمها(*) وحده ينشر الرعب في صفوف العدو. كانت تتقدم، بخطى بطيئة ثم تسارع من خطواتها، وقد شمخت بخراطيمها بخيلاء، فيشعر المرء وكأن أمامه سوراً ضخماً يتنقل على الأرض ويسحق كل من في طريقه. استولى على الروم هلع إذ فاجأهم ظهور الفيلة وتخلى عدد كبير منهم عن مواقعهم. وأفلح أوفرهم حظاً في الفرار في الوقت المناسب، أما الآخرون فقد داستهم أقدام الحيوانات دون رحمة. وهكذا رأى هميلقار فيلاً يقذف بخرطومه جندياً في الهواء، ثم يسحق بقائمته الجسد الرومي الذي أصبح بلا حياة. والمشهد نفسه تكرر مراراً.

في آخر النهار تمركز القرطاجيون فوق هضبة توروس، على بعد عشر غلوات من المعسكر الرومي، ومن تلك الهضبة كان يُشاهد السياج الشائك المصنوع من جذوع شجر الصنوبر. لم يحاول حنون استغلال نجاحه الأول ذاك، وكان ذلك أمراً يدعو للاستغراب. فخلال عدة أيام ظل متوانياً، يهتم بالكاد ببعض الاشتباكات الثانوية بين دوريات رومية وأخرى قرطاجية. أما في أكراغاس فقد كان هنيبعل الرشيد في غاية الحنق. فالمؤن بدأت بالتناقص وكان يخشى أن يلح عليه سكان المدن بطلب الاستسلام أو أن يفتحوا

(*) النهيم: صوت الفيل.

أبوابهم للقنصلين. لذلك أمر بإخطار حنون عبر رسول جازف بحياته مستخدماً حيلاً كثيرة، لاجتياز خطوط العدو. كان ذاك الرجل يحمل رسالة واحدة: اهجموا وإلا فلن أضمن الوضع في المدينة.

كان لا بد لحنون أن يقوم بالمطلوب رغماً عنه. فمنذ انتصاره السابق ونشوة النصر تسكره. كان يناقش أمام ضباطه مطولاً الفن العسكري، وأكثر من مرة اضطر هميلقار إلى أن يتسلل خارجاً لئلا يقهقه وهو يسمع الخطب المسهبة المفخمة لذاك الأميرال. أما قرار حنون لأجل تلك المعركة الحاسمة، فكان وبخلاف رأي مرؤوسيه، هو الاعتماد على الجنود المشاة وعدم استخدام الخيالة والفيلة. وهكذا انطلق إلى الهجوم إيبيريون وغاليون وسردينيون بكل شجاعة، لكن وسط بلبلة عظيمة. وألقى القنصل بوستوميوس بجميع قواته في المعركة. وبعد أن كبَّد المرتزقة خسائر فادحة اضطرها إلى الارتداد نحو المعسكر القرطاجي حيث بثت فيه الفوضى والارتباك. استولى الرعب على الجنود المشاة الذين فروا نحو هيراكليا. لكن هميلقار الذي بقي مع فرسانه النوميديين حارب بثبات ليحمي تقهقر حنون، وتوجب عليه، هو بدوره، أن يتراجع لدى وصول خيالة الروم إلى أرض المعركة. ولم يكن بوسعه حتى أن يأخذ الفيلة التي كان موجهوها قد اختفوا.

في المساء، تحت خيمة حنون، جرى اجتماع عاصف بين الأميرال والضباط الموجودين تحت إمرته. ولم يكن حديث قادة المرتزقة أقل حدَّة. فقد خاطب فجأة أحدهم، وهو سرديني، القائد المسؤول عن النكبة قائلاً:

- نحن مستعدون للموت في سبيل قرطاجة، لكننا نحب أن يأمرنا قادة حقيقيون.

- إلى ماذا تلمِّح؟

- حنون، لست قائداً جيداً. لقد تركتنا نذهب للقتال دون حماية.

- لقد كان جيشي مستعداً للتحرك لكنكم بثثتم الرعب بهروبكم.

ـ لم نكن لنهرب لو أن الخيالة قدمت لنجدتنا. فأنت لم تصدر أي أمر بهذا الخصوص.

كان هميلقار يتجنب التدخل. فالكلام الذي سيقوله قد يثقل أكثر على حنون. والحقيقة أن هذا الأخير كان قد منعه من المجيء لمساعدة المرتزقة قائلاً: «هؤلاء الجبناء لا يستحقون الراتب الذي تدفعه لهم قرطاجة». لو أنه تمكن من شن هجوم على الروم مع رجاله النوميديين لربما اتخذت القضية منحى آخر. لكن الأوان كان قد فات لقلب مجرى الأمور.

بعد انفضاض الاجتماع انضم ابن أدونيبعل إلى إبيسيد وجوبا. امتنع عن الكلام في ذلك المساء. كانت تلك هزيمته الأولى، شعر أنه مسربل بالعار، مهان ومدنَّس. من بعيد كانت تُسمع صيحات الفرح من المعسكر الرومي حيث كان رجال الفيالق يحتفلون بنصرهم! يا لها من مفارقة مع المعسكر القرطاجي الذي كان يجثم فوقه صمت ثقيل. كان الرجال قد تجمعوا حول النيران لا يجرؤون على الكلام. يأكلون بحزن، وهم يفكرون بأصدقائهم الذين هلكوا والذين رقدت أجسادهم دون قبور. بقلب مغموم بلغ هميلقار خيمته، يتبعه جوبا الذي سمع صديقه، وحتى وقت متأخر من الليل، ينتحب غيظاً ويأساً.

عندما لوَّح الصبح استيقظا مذعورين على وقع صيحات الفرح وهتافات: «يعيش، يعيش» التي كانت تطلقها المرتزقة. خرجا على عجل، غير مدركين أسباب هذا التغير المفاجئ في مزاج الرجال. لكن سريعاً ضمَّا صوتيهما إلى الهتافات الهادرة من المعسكر القرطاجي. لقد نجح هنيبعل الرشيد في إجلاء جنوده من أكراغاس. فهذا القائد المحاصَر لاحظ أن الجنود الروم يحتفلون فرحين بنصرهم. وقد أخلوا مواقع حراستهم وسحبوا دورياتهم. فقام بهدوء تام بجمع رجاله وأمرهم بالتزود بقفاف(*) مملوءة قشاً وذلك

(*) جمع قُفَّة.

لردم جزء من الخندق المحيق بالمدينة. بفضل هذا الاختراق المناسب اندس آلاف الرجال عبر خطوط العدو ولحقوا بجيش حنون. عندما أدرك الروم أن أكراغاس قد فقدت مدافعيها دخلوها وأسروا الآلاف من سكانها المدنيين. وسريعاً شوهد البائسون يُعرضون في أسواق العبيد. وهزت موجة من السخط مدن صقلية اليونانية. هكذا إذن يعامل الروم الشعوب التي أصابتها تعاسة الخضوع لسيطرتهم! وما كان من المواطنين الأكثر غنى إلا أن كرسوا جزءاً من ثرواتهم ليفتدوا السواد الأعظم من الأسرى، رادِّين إليهم حريتهم. حتى قرطاجة نفسها دفعت جزءاً من الفدية لتنال حظوة لدى حلفائها ولتبرهن لهم أن مدينة إليسا ما كانت لتنسى أولئك الذين خدموها بإخلاص.

كان ابن أدونيبعل أول من ألقى التحية على هنيبعل الرشيد:

ـ لقد حققتَ مفخرة رائعة وأنقذت جيشك. وهذا ما يخفف عني وطء هزيمتنا في الأمس.

ـ لا أفهمُ لمَ حنون قاد الجيش على هذا النحو السيء. هذا أمر يدعو إلى الاعتقاد بتواطئه مع الروم.

ـ إنك بكلامك هذا توجه إليه اتهاماً خطيراً يمكن أن يكلِّفه حياته.

ـ اطمئن، سأخفي مشاعري. أعتقد أنه غير كفؤ، وأعتقد أن مجلس المئة والأربعة كان مخطئاً حينما عهد إليه بقيادة تلك الحملة. لكني لا أرغب برؤيته مصلوباً على أبواب المدينة. زد على ذلك فأنا أعرف أنه لن يفوِّت استغلال نجاحي الشخصي لصالحه. على أي حال إن أسطوله هو الذي سيرجعنا إلى وطننا.

ـ هل سنغادر صقلية؟

ـ إن حامياتنا في مراكزها تكفي بوفرة لحماية مستعمراتنا وحلفائنا. نحن لسنا بحاجة إلى تجميد ما يزيد عن خمسين ألف

رجل ستكلف نفقتهم غالياً. علاوة على ذلك، فنحن دوماً مسيطرون على البحر وهذا هو المهم. صدقني إن الأعمال الحربية لن تُستأنف قبل عدة أشهر. صحيح أن الروم قد استولوا على أكراغاس لكنهم تجشموا خسائر ثقيلة وعليهم هم أيضاً أن يعيدوا بناء قوتهم.

كان رأي هنيبعل الرشيد حصيفاً. في الغد أبحر أسطول حنون متجهاً إلى قرطاجة بعد أن أحرق الجيش مخيماته وحطم التجهيزات التي ليس بوسعه جلبها معه. طيلة النهار، كان المرتزقة والنوميديون يجوبون ساحة المعركة لالتقاط جثث أصحابهم التي أُحرقت في محارق هائلة، كان بعضها ما زال أحمر اللون عندما ابتعدت السفن عن الشواطئ الصقلية.

الفصل السادس

رغم الأنباء السيئة التي كانت تحملها قوات حنون وهنيبعل الرشيد، فإنها استُقبلت استقبالاً حماسياً في قرطاجة. فما إن برز الأسطول عند مدخل الخليج، حتى احتشد الجمهور على أرصفة الميناء التجاري وفوق أسوار المدينة للترحيب به. وما إن تمكن المرتزقة من الانتشار في الطرقات، حتى احتفى بهم المارة فقدموا لهم الشراب وأسبغوا عليهم هدايا يسيرة. أما هميلقار، فقد اتجه مع جوبا وإبيسيد إلى مسكن آل برقا في ميغارا. استسلم، وهو الذي أنهكته المحن المفاجئة، للنوم ليلتين ونهارين بلا انقطاع. كان العبيد قد تلقوا أمراً بألا يوقظوه تحت أي حجة وألا يدعوا أحداً يدخل جناحه، وإن كان أباه. نُفذت أوامره بدقة، وعاد مبعوثو القيادة البحرية، الذين وصلوا حاملين إليه رسائل من هنيبعل الرشيد، أدراجهم بخفي حُنين.

عندما صحا هميلقار من نومه، استحم طويلاً كما لو أنه كان يريد أن يطهر نفسه من لطخة الهزيمة. مسَّد جوبا بعد ذلك صديقه ودهن جسده الجاف بالزيت والطيب. وجاء حلاق ليحلق له، وبعد جميع تلك الاستعدادات، قدم العبيد له وجبة طعام وفيرة. وما كاد ينتهي من استعادة قواه حتى أُذن لأبيه بالدخول عليه، كان الهمُّ بادياً على ملامح الوالد:

ـ أرى أنك استعدت قواك!

ـ أدونيبعل، لم أكن أود أن أُسيئ إليك لكني كنت منهكاً وآثرتُ أخذ شيء من الراحة قبل أن ألقاك.

ـ نِعم ما فعلت وأنا لا ألومك على شيء. إني مسرور لرؤيتك الآن في حالة جيدة. سأكون في حاجة إليك في الأيام والأسابيع القادمة وأُفضل أن أراك شجاعاً مفعماً بالنشاط. هاتان ميزتان ستكون بحاجة إليهما.

ـ ماذا حدث؟

ـ إن بعل يتون وأصدقاءه يتحركون في مجلس الشيوخ. ومصائب صقلية عززت معسكر المناصرين للسلام مع روما. إن هؤلاء الانهزاميين يتكلمون حتى عن إرسال وفد إلى شواطئ التيبر. ولم تنقصهم الصفاقة حينما اقترحوا ذلك في جلسة مجلسنا الأخيرة.

ـ وكيف كان رد فعل زملائك؟

ـ صيحات سخط ولعنات. لم يكن أسطولك قد عاد بعد، ولم نكن نعرف كم من عائلات المدينة سترتدي الحداد على أحد أقاربها. ومع ذلك فإن هؤلاء الوقحين اقترحوا علينا التباحث مع جلاديهم! إن سلوكهم الجاحد عومل بصرامة لكني أظن أنهم ينتظرون فرصة أكثر ملاءمة ليعيدوا صياغة عرضهم. وحينذاك سنحتاج إلى حجج قوية لإقناع أعضاء مجلس الشيوخ بضرورة مواصلة الحرب.

ـ ماذا بوسعي أن أفعل؟

ـ تكلمتُ مع هنيبعل الرشيد الذي يحمل لك التقدير، وقد أسهب أمامي في مدح مزاياك العسكرية. إنه سيُعينَّ قريباً على رأس قواتنا في صقلية، وهو في انتظار ذلك، اتخذ مركزه في مبنى قيادة البحرية. وأمنيتي كبيرة أن تعمل إلى جانبه.

ـ بكل سرور، فخدمة زعيم مثله إنما هي شرف وامتياز. من اليوم سأكون معه.

لم يلبث هميلقار طويلاً في ميغارا. بل انطلق مع جوبا بأقصى

سرعة، وحين وصل المدينة اتجه فوراً إلى الميناء العسكري الذي كان يسوده نشاط محموم. كان العمال في الأروقة منهمكين في إصلاح السفن وفي تغيير عتادها وأشرعتها. أما السفن التي تضررت على نحو خاص فقد وضعت في حوض جاف وكان نجارون يستبدلون أجزاء من هيكل السفينة، مستعينين بمخططات تم حفظها بعناية في السجلات.

استقبل هنيبعل الرشيد على عجل ابن الشيخ:

ـ كنت أنتظر بفارغ الصبر أن أراك. هل كلمك أبوك؟

ـ أجل وبجزيل الشكر أقبل عرضك. ماذا علي أن أفعل؟ أنت على عجل وأنا لا أريد أن أضيع وقتك.

ـ إني أُقدر حماستك، لكن العمل الذي أطلبه منك يتطلب نفساً طويلاً.

ـ وما هو؟

ـ أريد أن تتتبع عن قرب كل ما يتعلق بصقلية وروما. اسأل البحارة الذين يحضرون إلى الميناء التجاري وكذلك التجار الذين يترددون عليه من مختلف الأجناس. استفهم منهم بدقة عن رحلاتهم وعما شاهدوه وسمعوه. أرسل أيضاً رجالاً في سرية تامة إلى أكراغاس، وسيراكوزة وروما ليراقبوا ما يحدث في مناطق أعدائنا.

ـ فهمت. لكن هل أجرؤ على أن آمل بأنك ستفكر بي عندما تنطلق مجدداً إلى صقلية؟ فأنا لا أرغب في قضاء حياتي هنا.

ـ أعدك بذلك. قل لي هل صديقك جوبا موثوق به؟

ـ إني أكفله بحياتي.

ـ إن كان هذا هو الحال فلا تتردد في استخدامه. أخشى أن يتفاوض الروم مع النوميديين وأريد أن أسبر مقاصدهم.

تقلد هميلقار على الفور وظائفه الجديدة. ولدواعي تسهيل

الأمور ـ وقد كان دخول الميناء العسكري قد نظِّم على نحو صارم ـ مكث هميلقار في مكان ما في الميناء التجاري. وما إن لاحت للعيان سفينة وألقت مراسيها عند رصيف الميناء، حتى صعد هو وجوبا إلى سطحها لتفتيشها وسعيا لعقد أواصر صداقة مع ربانها. غالباً ما كان أولئك الربابنة يبوحون لهميلقار بكثير من أسرارهم، وقد داعبهم أمل في أن تكون لديهم قضية لدى ابن الشيخ أو أملوا في توفير حماية لأنفسهم في المستقبل. كان هميلقار يدعوهم أحياناً إلى مسكنه في ميغارا، وهناك كانت الخمر تساعده في إطلاق لسان محدثيه. لكن القرار الأصعب كان إرسال جوبا إلى روما. ذات مساء، وقد أوى هميلقار وجوبا إلى حجرتهما، وقد استلقى أحدهما تجاه الآخر، سأل هميلقار صديقه:

ـ جوبا، نحن أكثر من أخوين.

ـ يا له من حديث غبي! تعرف أني أحبك.

ـ أبي يلومنا على ذلك كثيراً.

ـ إن حظَّ الشباب والصبْية الوسيمين أن تجمعهم صداقة ليس فيها ما هو شائن. إني أعلم تماماً أنك ستؤثر ذات يوم صحبة النساء على صحبتي، وإن أبي نفسه لا بد أن يفكر بزوجة يختارها لي. إني لأزدري ذلك، يكفيني الآن أن أكون معك.

ـ تعلم جوبا أني أحب حضورك. لكني أود أن أطلب منك خدمة عظيمة، وهي تفتت قلبي. إذ إنك إن قبلتها فسنبتعد عن بعضنا لشهور طويلة.

ـ وما هي تلك المهمة؟

ـ أتحب قرطاجة؟

ـ وماذا بوسعي أن أقول لك؟ لقد توجب على أبي، حينما هزمته قواتكم، أن يقدم رهائن كنت أنا من بينهم. ورُبيت معك بفضل كرم أدونيبعل. إني لستُ قرطاجياً وإنما نوميدي، ومع ذلك فأنا مخلص لقرطاجة لأنها مدينتك ولأنها غمرتني بالنعم.

ـ وشعبك ألن يغريه الروم بالثورة ضدنا إن هم وعدوه بالمساعدة؟

ـ ربما لديه أسباب وجيهة لأن يقوم بذلك، فأنتم تسحقونه بالضرائب الثقيلة. ومع ذلك فهو لن يفعل هذا.

ـ لماذا؟

ـ لأنكم لا تسعون إلى الاستقرار فوق أرضنا. أنتم تراقبوننا، تشرفون علينا، وتلزموننا بدفع أتاوات ضخمة لكم. لكنكم لا ترغبون في توسيع أرضكم وإقامة مدن وقلاع فيما وراء الخندق الهائل الذي حفرتموه لتعينوا حدود أملاككم. لقد كلمني إبيسيد كثيراً عن الروم وتعلمتُ منه شيئاً: إنهم لن يكفوا إطلاقاً عن إنشاء مستعمرات ومدن، في لاتيوم ثم في كامبانيا، ليمركزوا فيهما جنودهم السابقين وفائض سكانهم، فإن هم، ولسوء الحظ، توطدوا على هذه السواحل فإنهم سيتصرفون على النحو نفسه وسيدفعون بنا نحو الجبال. لأجل هذا يفضلكم شعبي وسيظل لكم مخلصاً.

ـ جوبا، صديقي، أحب صراحتك وذكاءك. أعرف الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أن بوسعي الوثوق بك وأعرف أنك ستؤدي المهمة التي سأعهد بها إليك بمنتهى الدقة.

ـ وما هي؟

ـ ستسافر إلى غاليا، ومن هناك ستذهب إلى روما. قدم نفسك إلى ابن الشيخ ـ ولعله هو نفسه أصبح شيخاً ـ ماركوس أتيليوس روغولوس الذي التقيتُ به في الماضي في ريجيون. قل له من أنت وقص عليه أن أباك، بوصفه ملك النوميديين، قد كلفك بمعرفة الشروط التي قد تقبل بها روما لمساعدته في التحرر من نير القرطاجيين. ثم عد بأسرع ما يمكن لتقدم لي تقريرك.

كان رحيل جوبا أكثر قساوة على التحمل مما توقع ابن أدونيبعل. فخلال شهور، شقَّ على هميلقار كل مساء أن يغفو. كان

مشتاقاً لصاحبه وكان خوف يعذبه من أن يكون قد عهد إليه بثقة أكثر من اللازم. ذات صباح أُبلغ هميلقار بوصول إحدى السفن التجارية القادمة من بانورموس.

ذهب لتفحصها ودهش إذ لمح جوبا في مقدمة المركب الذي دخل الميناء. تعانق الإثنان طويلاً أسفل جسر النزول، ثم توجها إلى المكان الذي كان هميلقار قد نزل فيه.

ـ جوبا، أخي، أي فرح أن ألقاك بعد هذا الغياب الطويل!

ـ أنا أيضاً، انتظرت هذه اللحظة بتلهف. كنت أتشوق بفارغ الصبر لرؤية شواطئنا ثانية.

ـ هل ذهبت إلى روما؟

ـ لقد تصرفتُ حسب تعليماتك. نزلت في غاليا ووجدت سفينة على أهبة الإقلاع إلى أوستي. وعند وصولي إلى مدينة رومولوس سعيتُ للاتصال بصديقك. لم يكن ذلك أمراً يسيراً. لقد كنتَ على حق، إنه الآن شيخ، لكنه يعيش في الريف حيث يستغل أراضيه بنفسه. بعضهم معجب به لأجل ذلك، والبعض الآخر يهزأ منه ويزعم أنه من شدة بخله لا يريد أن يدفع أجر مزارع. ذهبتُ إليه وشرحتُ له الهدف من زيارتي.

ـ وماذا كان رد فعله؟

ـ سيفاجئك. لقد كان رداً سلبياً. فعندما اقترحت عليه مساعدة النوميديين، رد علي بجفاء: «على روما دوماً أن تدين بانتصاراتها لنفسها». من الجلي أن هؤلاء الناس عندهم من الأنفة ما يحول دون قبولهم الاستعانة بحلفاء، هذا إن لم يعتبروا أنفسهم أعلى من بقية الشعوب.

ـ إنها معلومة مهمة. وماذا لديك غير ذلك لتخبرني به؟

ـ إن روما تبني أسطولاً.

ـ ماذا تقول؟

ـ إن روما تبني أسطولاً. لم يكن لديها إلى اليوم أسطول وكانت تستدعي سفن الموالين لها. هذه المرة، جبى مجلس شيوخها ضريبة استثنائية وباشر مشرفو مالية البحرية بصناعة عشرين مركباً ثلاثي المجاذيف ومئة مركب خماسي المجاذيف.

ـ وماذا فعلوا للحصول على مخططات تلك السفن؟

ـ ألم تفقدوا حديثاً سفينة خماسية المجاذيف؟

ـ أجل، إن إحدى سفننا لم تعد إلى الميناء. حسبنا أنها قد غرقت بعد أن أحاقت بها عاصفة.

ـ أنت على خطأ. فالسفينة جنحت إلى الشواطئ الرومية. وأمر القنصلان بذبح الطاقم لئلا يكون هنالك أي شاهد على تلك المسألة، وتم أخذ السفينة الجانحة في سرية تامة إلى أوستي. ثم استفيد منها كنموذج لعمال ورشة السفن الحربية. لقد استطاع هؤلاء النجارة الماهرون، بعد عدة إخفاقات، أن يبنوا سفناً لها من المتانة ما لسفننا. ولقد احتفظت لك بالجانب الأكثر تسلية في النهاية.

ـ وما المسلِّي في هذا الأمر؟

ـ إن الروم أناس مستعجلون. لذا فهم اشتروا مئات العبيد ليجعلوهم مجذفين وبدأوا بتدريبهم قبل أن تخرج أول سفينة من ورشهم بزمن طويل. لقد ذهبتُ بنفسي إلى أوستي لأرى ذلك بأم عيني. على الشاطئ كانوا قد أقاموا مقاعد من خشب لأجل المجذفين وكانوا يعلِّمون عبيدهم الارتداد كلهم معاً إلى الوراء ثم الاعتدال، لينحنوا من ثمَّ للأمام ويمدوا أذرعهم أمامهم، إضافة إلى كل المهمات التي عليهم القيام بها عندما سيقيدون في قاع عنبر السفينة. وكان هناك أيضاً خفراؤهم، وبعضهم كان يضرب الطبل ليعطي تلامذته الإيقاع. كان مشهداً مدهشاً وأقبل فلاحو المناطق المحيطة لتأمله مقهقهين.

ـ إن لتقريرك أهمية قصوى وعلي أن أُطلع حالاً هنيبعل الرشيد ومجلس المئة والأربعة على مضمونه. اذهب إلى ميغارا. سألتقي بك لاحقاً.

اتجه هميلقار إلى مركز القيادة البحرية حيث استقبله هنيبعل الرشيد. ومن هناك ذهب الرجلان إلى مجلس الشيوخ وطلبا مقابلة «لجنة الخمسة» التي يرأسها أدونيبعل. عندما انتهى هميلقار من عرض المعلومات التي حملها جوبا، هزَّ أبوه رأسه بوقار:

ـ هذا هو الخبر الأخطر الذي يصلنا منذ بداية الحرب. إن تملَّك الروم أسطولاً، فهم لن يلبثوا أن يحاولوا منازعتنا السيادة على البحر، أي السيطرة على منبع قوة قرطاجة نفسه، إن هذا الأمر سيدفع إلى التفكير جميع أنصار بعل يتون الذين مازالوا يؤمنون بإمكانية إيجاد تسوية مع عدونا. ذاك العدو الذي كشف عن نواياه الحقيقية. من الآن فصاعداً بين مدينتينا صراع حتى الموت. إن استطاعت روما أن تهيمن على البحر فإني لن أبصر مستقبلاً عزيزاً لقرطاجة. علينا التحرك على الفور. هنيبعل الرشيد ستسافر مع جزء من الأسطول إلى بانورموس، وسيرافقك بوديس، عضو مجلس المئة والأربعة، وكذلك هميلقار. ما إن تكشفوا الأسطول الرومي حتى تهاجموه وتحطموه عن آخره. سننتظر رسولاً منكم يزف إلينا نبأ انتصاركم، لنقدم قرباناً احتفالياً إلى بعل حمُّون.

عندما علم إبيسيد أن تلميذه القديم قد تلقى أمراً بالذهاب إلى بانورموس، جاء إليه وقال:

ـ هميلقار، أنت تعرف أني وفيٌ لك ومخلص. لذا لا تأخذ الالتماس الذي سأقدمه إليك على مأخذ السوء: أتسمح لي بالبقاء في قرطاجة وعدم مرافقتك في هذه الرحلة؟

ـ لماذا؟

ـ أنت تعرف السبب، لقد ترعرعتُ في بانورموس وخدمت فيها

كعبد لدى عائلة من أغنى عائلات المدينة. وإن رؤية المدينة مجدداً قد يفوق تحملي.

ـ هل أنت واثق من أنك تقول لي الحقيقة كلها؟

ـ ما أقوله لك صحيح، وإن تفضلت بمنحي ثقتك فأنت لستَ بحاجة إلى أن تعرف أكثر.

ـ إني أحترم همومك. أنا أعرفك، لا يمكن أن تكون تلك الهموم إلا نبيلة. سألقاك عند عودتي.

أقلع الأسطول القرطاجي نحو بانورموس حيث كان الخليج الشاسع الذي اتخذ شكل صدفة، مكان رسوٍّ ممتاز. نزل هميلقار مع جوبا عند ألكايوس، أحد مواطني المدينة المتنفذين. كان أرملاً لا أطفال له، ووضع تحت تصرف ضيفيه القسم الأكبر من منزله، وقام بزيارتهما للتأكد من أن لا شيء ينقصهما:

ـ هميلقار، إني آسف لتقديمي لك ضيافة رجل عجوز. كان من الممكن أن تقيم على نحو أفضل لدى رجال آخرين من مواطنيّ.

ـ ألكايوس، نحن سعداء أن نكون بضيافتك وأنا حريص على شكرك على عنايتك الفائقة.

ـ كيف أتقنت اللغة اليونانية؟ إنك تُعبر بهذه اللغة كما لو أنك واحد منا.

ـ لقد تعلمتها من معلمي، الذي وطنه الأم هنا. قال لي أنه ولد في بانورموس، وسط ظروف العبودية، وأن عائلة غنية قد علمته ليصبح مربياً لأطفال سيده. وحينما أسره القرطاجيون أثناء إحدى الحروب تم بيعه لأبي. ولهذا المعلم أدين بكل ما أعرف.

ـ سؤال يحرق شفتي: أليس اسمه إبيسيد؟

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لأنه كان بالفعل عبدي. كنت أجهل أن القرطاجيين قد أسروه.

اعلم على أي حال أنه لم يكن أسير حرب. لقد فرَّ من عندنا لأني كنت قد أمرت بجلده.

ـ ولماذا؟

ـ كان قد اصطحب ابني الوحيد في نزهة فوق الهضاب المطلة على المدينة. ولما أضاعا طريقهما كان لا بد لهما من قضاء ليلة في العراء. لقد تسلى ولدي كثيراً بذلك. كان هذا أمراً يسيراً بالنسبة له. غير أن امرأتي غضبت غضباً شديداً وطلبت مني أن أعاقب إبيسيد عقاباً رادعاً. وهكذا حُبس في سرداب، وعندما جاؤوا ليأخذوه إلى القصاص كان قد اختفى. لقد آلمني رحيله كثيراً. كان مربياً ممتازاً وإني على ثقة بأنك قد استفدت جيداً من دروسه.

ـ إني أفهم الآن على نحو أفضل.

ـ ما الذي تفهمه على نحو أفضل؟

ـ أموراً سأكلمه عنها مجدداً في قرطاجة. إن كنت ترغب به، فأنا على استعداد لأن أعوضك عن خسارة هروبه. إني لا أريد أن أسلمه إليك، وأنت لك الحق في المطالبة به.

ـ لا تقلق بهذا الشأن. فزوجتي وابني قد ماتا. وفي عمري لم أعد بحاجة إلى معلم في اليونانية. بمَ سيفيدني؟ لدي من العبيد مايفوق حاجتي لرعاية هذا المنزل، وعندما تحين ساعة موتي، أريد إعتاقهم.

ـ إعتاقهم؟

ـ أجل، أريد أن ينالوا حريتهم. لقد قلت لك لم يعد لدي ورثة وسأوصي بأموالي لمدينتي، باستثناء خدمي. فأنا لا أريد أن يُرسلوا إلى المناجم أو يباعوا بمزاد علني. سيكون ذلك جزاء سيئاً لإخلاصهم لي.

ـ ألكايوس، إنك شخصية مثيرة للفضول، وإني سعيد إذ حظيت بلقائك.

بعد وصول هنيبعل الرشيد ببضع أسابيع إلى بانورموس، علم أن أسطولاً رومياً بُنيَ خلال ثلاثة أشهر، ويتألف من سبع عشرة سفينة ويقوده القنصل كنوس كورنيليوس سيبيون يتجه نحو ليبارا. كان ذلك ميناء جزر ليباري الرئيسي، تلك الجزر الواقعة في أقصى شمال صقلية. أعطى هنيبعل الرشيد في الحال أمراً إلى بوديس وهميلقار بالمضي إلى لقاء العدو وإنزال شر هزيمة به. قرر الرجلان أن يأخذا معهما عشرين سفينة خماسية المجاذيف، وبفضل ريح مواتية استطاعا بسرعة اجتياز المسافة بين بانورموس وليبارا.

حينما بلغا الميناء أبصرا السفن الرومية السبع عشرة راسية بكل اطمئنان. وبما أن القرطاجيين قد وصلوا ليلاً، فقد استطاعوا الاستعداد بحيث أغلقوا تماماً مدخل الميناء. ولما استيقظ الروم أدركوا أنهم محاصرون وعاجزون عجزاً مطلقاً عن التحرك. اجتاح الرعب بحارتهم الذين تخلوا عن مراكبهم والتجاؤوا إلى داخل اليابسة. فقامت خيالة هميلقار التي نزلت البر على عجل بذبحهم.

أما القنصل التعس نفسه فقد وقع أسيراً. وإذ اقتيد ليمثل بين يدي بوديس وابن أدونيبعل، أظهر استسلامه قائلاً:

ـ لقد تخلت عني الآلهة.

ـ تقصد رجالك تخلوا عنك، قال بوديس متهكماً.

ـ أيها النبيل القرطاجي، لا تزد إلى ألمي أذية التجديف. لعلك يوماً ما تجد نفسك في الوضع الذي أنا فيه. صدقني، إنَّ قدَرَ هذه الحملة كان قد رُسم قبل انطلاقها بوقت طويل. لا بد أننا قد أسأنا إلى جوبيتر حينما لم نقدم له القرابين المناسبة. لايهم. من اليوم، أنا كنوس كورنيليوس سيبيون أسيركم. افعلوا بي ما تريدون.

ـ اغفر لي فضولي، قاطعه هميلقار، لكن هل أنت قريب المدعو كايوس كورنيليوس سيبيون؟

ـ أجل، إنه ابن أخي. كيف عرفت ذلك؟

ـ لقد التقيت به في الماضي في ريجيون.

ـ إن له مقعداً اليوم في مجلس الشيوخ.

ـ إن يأذن لي بوديس، فأنا أرد لك حريتك، إكراماً لصداقتي له. اذهب إلى روما وقل لمواطنيك أن قرطاجة تضع شرطاً واحداً للسلام: التطبيق الدقيق للمعاهدات المبرمة بين مدينتينا. غادروا صقلية ولا تجازفوا بأنفسكم بعد اليوم في البحر.

ـ أشكرك على كرمك لكن يخامرني شك قوي في أن يطيع مجلس الشيوخ الرومي توصياتكم. مع ذلك ليرافقني أحد ضباطك. إني أضمن له تصريح الأمان. وسيحمل إليك إجابتنا.

بعد اجتماع سري مطول مع بوديس كلَّف هميلقار آزر بعل، وهو ضابط شاب ذو مظهر فخور، بمرافقة القنصل إلى روما. وعندما عاد الضابط بعد غياب عدة أسابيع. كان يحمل أخباراً سيئة. توجه إلى هميلقار الذي استقبله بحضور بوديس. وهذا الأخير كان من بادر أولاً إلى سؤاله:

ـ هل فهم الروم الدرس الذي وجهناه إليهم؟

ـ لا، لقد استقبلوا كنوس كورنيليوس سيبيون بالهزء والسخرية. وأطلقوا عليه حتى لقب «أزينا»، أي الحمارة، ليندوا بشدة بغباء تصرفه. إنهم عازمون على مواصلة الحرب.

ـ هل استقبلك مجلس الشيوخ؟

ـ لم أحظ بذلك، وإن كان أعداؤنا قد احترموا بدقة تامة تصريح الأمان الذي كنت أحمله. لكني يا سيدي هميلقار، استطعت لقاء ذاك الذي كنت قد حدثتنا عنه، كايوس كورنيليوس سيبيون، ابن أخ القنصل.

ـ ماذا قال لك؟

ـ إنه يشكرك على كرمك وعلى أسلوبك في احترام عهدك. وينبغي أن تعلم أنه اليوم أشد نصير لمواصلة القتال. وهو يرى أن عمه قد شان اسم عائلته وأن من حق امرئ اسمه كورنيليوس سيبيون الثأر لتلك الإهانة بسحقه قرطاجة وإن تطلب ذلك أجيالاً. إن روما ليست على وشك أن تغفر لنا ذاك النصر في ليبارا.

ـ أفهم فهماً جيداً موقفه ولدي هواجس قاتمة بخصوص المستقبل. من الأفضل لنا ـ ختم هميلقار حديثه ـ أن نعود إلى بانورموس مع السفن الرومية التي غنمناها. لقد أقبل الشتاء وعلينا أن نجهِّز الحملة القادمة.

عندما أصبح بالإمكان السفر مجدداً إلى البحر الكبير، كُلِّف هميلقار بمواكبة السفن السبع عشرة المستولى عليها من الروم إلى قرطاجة. أعدت المدينة للبحارة استقبالاً حماسياً ولاستهزاء أكبر من الروم، تذكر الجميع كلمات القنصل أبيوس كلوديوس السفيهة: «إن الروم تلامذة يتفوقون دوماً على أساتذتهم». لا ريب أن بوديس قد تكفل بتكذيبهم تكذيباً لاذعاً. وما ذلك بأمر عسير! وهؤلاء البحارة الروم المتمرنون قد يتروون قبل الإبحار مجدداً بالمراكب. كما تهكم الناس علناً في حانات الميناء على القنصل كنوس كورنيليوس سيبيون وعلى لقبه «الحمارة» المثير للسخرية.

ما كاد هميلقار يغادر السفينة حتى طُلب منه المثول أمام «لجنة الخمسة» ليقدم تقريره حول الوضع في صقلية. ووسط دهشة الجميع لم يُبد هميلقار حماساً مفرطاً. فهزيمة ليبارا بالنسبة إليه كانت مجرد حلقة في سلسلة طويلة وسيسعى الروم للانتقام بكل الوسائل من ذلك الإخفاق الشائن. كان هميلقار يرى أنه لا ينبغي البخس من عزائمهم. وعندما أنهى بيانه سأله أبوه قائلاً:

ـ كنت أجهل أنك أصبحت مناصراً لبعل يتون.

ـ ماذا تقصد بقولك هذا؟

ـ لقد ابتسم النصر لنا وها أنت توجه إلينا كلاماً متشائماً كما لو أنه كان علينا التصالح مع روما.

ـ فيما مضى، أدونيبعل، كنت تلومني على اتقاد حماستي وكنت تحثني على أن أكون هادئاً وأن أحلل الوضع بروية. وهذا ما أفعله الآن. إني لا أؤمن بإمكانية التفاهم مع الروم، على عكس بعل يتون. لكن التعجرف المفرط يمكن أن يحرضنا على اتخاذ قرارات سيئة.

ـ لعلك على حق. سنعرف عن الأمر أكثر حينما يقدم لنا هنيبعل الرشيد معلومات عن عملياته في صقلية.

ما إن استطاع هميلقار بلوغ ميغارا حتى بادر على عجل إلى استدعاء إبيسيد. ذاك الذي هرع في الحال لتحيته:

ـ أهلاً بك، ابن أدونيبعل. لقد حُدثتُ عن انتصاراتك وإني لأهنئك عليها.

ـ وأنا أحمل إليك تحية ألكايوس.

لدى سماع المعلم هذا الإسم، أطرق برأسه:

ـ أنت تعرف إذن.

ـ أجل، إني أعرف لمَ لمْ ترد مرافقتي إلى بانورموس. كنت تخشى أن يطالب بك سيدك السابق. لأجل ذلك، على ما يبدو، كانت الرحلة فوق طاقتك. إنك لم تكذب علي، لكنك لم تقل لي الحقيقة كلها.

ـ أصدر أمرك، وتصرف بي كما ترغب.

ـ إنه أمر جيد أن أتصرف منفذاً بدقة تعليمات ألكايوس.

ـ قد أعود إذن مجدداً إلى الخدمة في بانورموس. على الأرجح لديه أحفاد بحاجة إلى معلم. إنها لخسارة! كنت أتوق كثيراً لتربية أبنائك!

ـ ستفعل ذلك. ألكايوس رجل حكيم. لقد توفي ابنه ولم تعد له عائلة. وقد قرر أن يعتق خدمه عند موته. أما أنا فليس لدي صبر

إلى أن يأتي الموت. لذا، وبإذن من أبي، أرد إليك حريتك. إبيسيد، بدءاً من اليوم أنت لست عبداً وإنما رجل حر.

ـ هميلقار، لقد قدمت لي أجمل الهدايا وأكثرها رعباً. لقد ولدتُ عبداً وكنت كذلك دوماً، عدا بضع أسابيع بين هروبي من بانورموس وأسر جنودكم لي. وقتذاك همت في الجبال، وعندما أسرني القرطاجيون شعرت تقريباً بالراحة. فقد اتخذت الأمور من جديد مجراها الطبيعي. واليوم لا أعرف ماذا أفعل.

ـ لن يلاحقك أحد، إبيسيد. بوسعك أن تستمر بالعيش هنا، في ميغارا. وستجد ما تفعله إلى حين ولادة أبنائي.

ـ سيكون لدي الكثير لأقصه عليهم عن أبيهم وعن انتصاراته.

لأسابيع عديدة، عاشت قرطاجة في غبطة. كانت تتردد أصداء نصرها في جميع موانئ البحر الكبير وكانت السفن التجارية تتدفق عليها. ذات صباح دوى بوق مركز القيادة البحرية ممزقاً السكون الذي كان ما يزال يخيم على المدينة. كان أسطول حربي على مرمى البصر. وسريعاً شوهد يدخل الخليج ثم الممر المؤدي إلى الميناء التجاري. وسرعان ما توقف الناس على أرصفة الميناء عن إطلاق الهتافات. كانت تبدو للعيان سفن ثلاثية وخماسية المجاذيف مثخنة بآثار ضربات المعركة. وأبراج القيادة في بعض السفن قد تحطمت، وفي بعضها الآخر اقتُلعت نصف حواف المتاريس على ظهرها. وتشتتت صفوف المجذفين. أما على سطح السفن فقد بدت على وجوه الضباط والجنود ملامح الإنهاك وسحنة المهزومين الكئيبة وقد خشوا ملاقاة أهلهم. وفي مقدمة السفينة الأولى وقف هميلقار(*) وقد شقت وجهه ندبة.

بدأت تسري في شوارع المدينة إشاعات مجنونة. كان يتكلم الناس عن نصر باهر نالته قرطاجة بالرغم من خسائرها الثقيلة.

(*) ويُقصد به هنا شخص آخر غير هميلقار ابن أدونيبعل. م.

وبلغ الأمر ببعضهم أن زعم بأن سفراء روما، الذين جاؤوا لطلب السِّلم، هم على متن سفينة هنيبعل الرشيد الخماسية. وحتى أن بعض التجار الذين كانوا يتظاهرون بأنهم شخصيات مهمة أكدوا أنهم على اطلاع بنصوص المعاهدة المقبلة بين المدينتين.

عصراً، اجتمع مجلس المئة والأربعة ومجلس الشيوخ لسماع تقرير القائد العام للقوات القرطاجية في صقلية. انضم إلى القائد العام هميلقار ابن أدونيبعل في الميناء العسكري، ونال منه الموافقة على مصاحبته بصفته مرافقاً له، لكن صديقه القديم لم يبح له بأي شيء مما جرى. ومع ذلك، ومن ملامحه المقطبة استطاع ابن أدونيبعل أن يفهم أن هنيبعل الرشيد لم يكن يحمل أخباراً طيبة. كان حشد هائل قد اجتمع في المقام ووجد الرجلان مشقة في شق طريقهما إلى مبنى مجلس الشيوخ. بعد انتظار قصير أُدخل الرجلان إلى قاعة فسيحة جلس فيها جميع قضاة المدينة، وقد بدا عليهم الوقار والقلق. كان يرأس الجلسة والد هميلقار، وبلهجة صارمة خاطب هنيبعل الرشيد:

ـ لمَ هذه العودة المتسرعة؟ اعتقدنا أنك في صقلية مشغول بمحاربة الروم. نحن لم نأمرك إطلاقاً بالعودة إلى قرطاجة.

ـ أنت على حق، أيها الشيخ المبجل، لكني أردت أن أجعل أسطولنا في مأمن.

ـ أُسطولنا؟ إن عدده ناقص جداً. أين هي السفن الأخرى؟

ـ أغرقها الروم أو استولوا عليها.

اجتاحت صرخة ألم هائلة المجلس كله ووقف بعض الشيوخ وأخذوا يلوحون للقائد بأيديهم مهددين بالانتقام، مكيلين له اللوم والشتائم. وكان على أدونيبعل أن يستخدم كل سطوته ويهدد باستدعاء الحرس ليعيد نظاماً شكلياً للمجلس:

ـ هنيبعل الرشيد، أعلم أنك لا تتكلم عن عدم تروٍ وأنك لن تسعى إلى إخفاء الحقيقة عنا. نحن ننتظر توضيحاتك.

ـ بعد انتصارنا في ليبارا استدعى الروم قنصلاً جديداً، كايوس دويليوس، ليتسلم قيادة أسطولهم. كان هذا الرجل شيطاناً حقيقياً، وأخطر عدو تحتم علي مواجهته. فبعد حدوث اشتباكين أو ثلاثة مع سفننا، فهم القنصل أن انتصاراتنا تعود إلى سبب واحد: مهارتنا في صدم سفن العدو بمقدم حيزوم السفينة وإغراقها. على هذا النحو كنا نتصرف دوماً ولأجل هذا تُصنِّع مشاغلنا في الميناء العسكري حواف حيزوم(*) ثقيلة من الحديد قادرة على تحطيم هياكل السفن الأشد صلابة.

ـ إن هذا الأسلوب جيد، أنت تعرف ذلك.

ـ كان جيداً لأن ذاك اللعين كايوس دويليوس قد غيَّر قواعد المعركة البحرية. فقد أمر أن يرفع على مقدَّم سفنه عمود مستدير، ارتفاعه أربع أورجيات(**) وقطره ثلاث سعف نخل، وقد ثُبتت على رأسه بكرة(***) رُبط إليها بوساطة حبل حامل خشبي ينتهي بكتلة حديدية على شكل مدقة. صدقوني أيها الشيوخ النبلاء إن منظر هذا التجهيز يجمد قلوب أعتى الشجعان خوفاً.

ـ وكيف يستخدمون هذا التجهيز؟

ـ لقد امتنعوا عن صدم سفننا بمقدم الحيزوم لكنهم يحاولون القيام بمناورة بحيث أن سفينتين أو ثلاثاً من سفنهم تطوق إحدى سفننا. حينئذ يزلقون حواملهم الخشبية، التي يسمونها «الغربان»، على سطح سفينة العدو وهكذا تشل حركتها وينتقل جنودهم إلى الهجوم محتمين بدروعهم. وعلى هذا النحو تصرفوا في «ميلاي». لقد تم إعلامي بأن أسطولهم محتشد هناك، وأردت أنا، طبقاً لأوامرك، أن أبدده. لم أتوان عن اتخاذ أي حيطة. كان معي مئة

(*) حافة الحيزوم: أي القاطعة.

(**) وحدة قياس قديمة.

(***) بكرة: طارة صغيرة من خشب أو حديد تحضن الحبل الذي يجري عليها عند رفع الأثقال.

وثلاثون سفينة منها واحدة سباعية المجاذيف كنا قد استولينا عليها في الماضي من الملك بيرّهوس. لقد جعلت سفني في وضع الهجوم لأصدم بمقدم حيزوماتها السفن الرومية وتقدمتُ مع سباعيتي وثلاثين خُماسية. حينذاك ناور الروم كما كنت قد أوضحت لكم وشلّوا حركة طليعتنا. لقد قاتلنا لساعات كاملة وجهاً لوجه على السطح وكان علي أخيراً أن أتخلى عن سباعيتي لألحق بباقي الأسطول.

- كم فقدتَ من السفن؟

- خمسين. وبقي لدي حوالى المئة. إلا أني إن كنت قد تجرأت على الظهور أمامكم، وأنا أعرف المصير الذي ترصدونه عادة للقادة المهزومين، فذلك لأني حققتُ، بعد هذه الهزيمة، انتصاراً.

- وما هو؟ قال بعل يتون بنبرة شنيعة.

- كانت جحافل الروم، بعد نجاحها، قد نزلت في بانورموس. وجاء سكان من المدينة ليوضحوا لي أن الروم يتنازعون فيما بينهم، فكل قائد منهم يدعي لنفسه فضل النصر. فأمرت بإنزال قواتي إلى البر ليلاً واستطعت أن أفاجئ الروم وأن أقتل منهم أكثر من أربعة آلاف. أما من تبقى فقد انسحب إلى ميسين على حد علمي.

- بوسعك الخروج، قال أدونيبعل. سيقوم مجلس الشيوخ بالتشاور وسيطلعك على قراراته.

خرج القائد، يتبعه مرافقه. وفي وقت متأخر من المساء لحق بهما والد هميلقار.

- لقد أنقذتَ رأسك، هنيبعل الرشيد. لن تُصلب.

- من تجرأ على اقتراح عمل شائن كهذا؟ سأل ابن الشيخ.

- بعل يتون. لكني وبخته. قلت له: «كيف بمقدورك أنت، نصير السلام مع روما، أن تحكم بالموت على ذاك الذي هزمه أصدقاؤك؟ أنت تجازف بأن يترتب عليك تقديم تقرير لهم!». ضحك الشيوخ

الآخرون واستطعتُ ان أذكرهم بمآثرك السابقة، وباستقامتك وإخلاصك. وأوضحت لهم أيضاً أنه مع ابتكار تلك الغربان اللعينة كان علينا أن نعدِّل أسلوبنا في القتال البحري. لقد قررنا مع أعضاء اللجنة أن تذهب، ما إن تصبح سفننا جاهزة، إلى سردينيا. ومن هناك ستجند مرتزقة وستحرس المراكب التي ستجلب الزيت والقمح اللذين نحن بحاجتهما من تلك الجزيرة.

ـ وهل سيرافقني هميلقار؟

ـ لا. سيبقى هنا. فالمدينة ليست آمنة منذ أن علمتْ بمصائبنا. إن الرعاع يتذمرون وأخشى أن يثير أصدقاء بعل يتون الفتن. إن مجلس المئة والأربعة قرر أن يعهد إلى هميلقار بقيادة حرس مجلس الشيوخ. وبدل ابني سيتوجب عليك الاكتفاء بجيسكون، أحد أقرباء بعل يتون، وهو الذي فرض تعيينه. احذر منه، إنه شخص نذل وماكر. لكن، إن قاتلت لن يغامر أبداً في مضايقتك. لديه خوف عظيم أن تصيبه ضربة سيئة.

ـ شكراً، أدونيبعل. أنا في غاية الامتنان لما فعلت من أجلي. آمل، بتصرفي في سردينيا، أن أستحق الثقة التي شرفتني بها.

* * *

طيلة أسابيع عديدة قلما استطاع هميلقار النوم. كانت قرطاجة في حال من الهياج. أولئك الذين كانوا قد تظاهروا بأنهم ذوو شأن في إعلانهم إبراماً قريباً للسلام مع الروم أفاضوا الآن في الافتراء على مجلس المئة والأربعة وعلى هنيبعل الرشيد. وفي حانات الميناء شرع أنصار بعل يتون بدفع ثمن كؤوس الشراب للنجارين، والنسَّاجين والفخارين مادحين أمامهم حكمة سيدهم. وما إن يظهر جنود الحراسة حتى يتسللوا هاربين خشية الخضوع للاستجواب.

أمر واحد كان يقلق فعلاً ابن أدونيبعل وهو أن عدد النوميديين

قد أخذ يتضاءل أكثر فأكثر في المدينة. والأسوأ أنهم لم يكونوا قد دفعوا بعد جزيتهم السنوية والعديد من وكلاء مجلس الشيوخ، المرسلين على وجه السرعة إلى والد جوبا، عادوا بخفي حُنين. لقد قيل لهم أن الملك ذهب لصيد الفيلة في أقاصي مملكته، وأن تلك الرحلة ستستغرق شهوراً عدة. كان جوبا قد حاول أن يطمئن صديقه موضحاً له بأن قرطاجة ستكون بحاجة كبيرة، في يوم من الأيام، لتلك الفيلة. وأن صناديق خزينة المملكة مملوءة بما يكفي لدفع الجزية لقرطاجة، تلك التي ربما قد تأخر دفعها. كان هميلقار يعلم أن صديقه لم يكن يكذب عليه. إنه صادق. لكن ذلك لا ينبئ شيئاً عن موقف شعبه الذي هو بعيد عنه كثيراً ليشاطره الأحاسيس، والغضب والآمال. أما أدونيبعل، وبعد أن سأله ابنه عن الأمر، فإنه ادعى أنه هو أيضاً قلق لكنه يرى أن من الحصافة بمكان الانتظار. لا ينبغي على أي حال إظهار أدنى ريبة تجاه النوميديين ولا إثارة غضبهم بمحاولة جباية الجزية رغماً عنهم.

لم يكن الروم أنفسهم قد ظهروا. وكان تجار قد قصوا على هميلقار أن قنصلهم، كايوس دويليوس، كان قد تلقى أمجاد النصر. وأن أعضاء مجلس الشيوخ وأفراد الشعب قد رافقوه إلى الكابيتول(*) لشكر الإله جوبيتر في معبده. كما كان قد أمر بتشييد عمود رصَّعه بحيازيم السفن التي استولى عليها من العدو. ذاك القنصل لم يفوِّت على نفسه أي أمر يثير السخرية، حتى أنه حمل مجلس الشيوخ على التصويت على قانون يمنحه ميزة المرافقة إلى منزله بعد تناول العشاء على ضوء المشاعل وصوت المزامير. الأمر الذي أثار غضب آل كورنيليوس الذين كانوا يلامون دوماً على هزيمة ليبارا.

عندما كان هميلقار في حراسة مجلس الشيوخ أبصر ذات يوم

(*) Capitole: إحدى تلال روما. أقام عليها الروم هيكل جوبيتر.

جيسكون وقد وصل إلى المبنى ويطلب استقبال أدونيبعل له. رافقه هميلقار إلى أبيه الذي أشار إلى ابنه أن يبقى خلال المقابلة.

ـ أظن أنك جئت من سردينيا.

ـ أجل وأحمل أخباراً سيئة.

ـ ماالذي جرى؟

ـ حاصر الروم أسطولنا وحطموه.

ـ وماذا حصل لهنيبعل الرشيد؟

ـ عندما حدث الهجوم كان على اليابسة مع رجاله يقمع ثورة السردينيين. وعندما أدرك جنوده أنهم قد أصبحوا محاصرين في الجزيرة وأنهم على وشك الوقوع في الأسر، قرروا محاكمته وشكلوا محكمة.

ـ ومن ترأسها؟

ـ أنا.

ـ وماذا كان الحُكم؟

ـ الموت صَلباً. وقد نُفذ الحكم على الفور.

شهر هميلقار سيفه من غمده ليضرب عنق جيسكون لكن أبيه منعه من ذلك.

ـ وأنت يا جيسكون ماذا فعلت لتصل إلى قرطاجة؟ أظن أنك لم تأت مع جنودنا الذين لا بد أنهم مازالوا في سردينيا.

ـ لقد رست إحدى سفننا التجارية بالقرب من معسكرنا واستطعت الصعود على سطحها لأحمل إلى مجلس المئة والأربعة الأنباء التي كنتَ أنت أول من حصل عليها.

ـ أشكرك. وسأُعلم زملائي بها. بوسعك الانصراف. أعتقد أنك تستحق فعلاً أخذ قسط من الراحة.

ابتعد جيسكون وهو يتلفت مرات عدة خلسة للتأكد من أن ابن الشيخ لا يحاول اللحاق به لقتله. كان هميلقار مازال عند أبيه، وقد شدَّ على قبضتيه من الحنق. ثم فجأة بادر أباه قائلاً:

ـ لمَ لمْ تدعني أقتل هذا الكلب؟

ـ وما جدوى ذلك؟ إنه ليس بمذنب. لقد تصرف وفق أوامر بعل يتون. هذا الأخير كان يريد هلاك هنيبعل الرشيد، وقد نجح في ذلك.

ـ أُقسم بملقارت أني سأنتقم لموت صديقي. على جيسكون أن يدفع ثمن جرمه، هو أو ابنه أو حفيده.

ـ إني أفهم غضبك لكن كان من الممكن أن يظهر ذاك الغضب عندما لحق بالأميرال حنون المصير نفسه.

ـ لقد سكتُّ وإني آسف اليوم على ذلك. أبي، أي مدينة نحن، لنقتل خيرة ضباطنا منزلين بهم عذاباً همجياً يبعث الرعب في الخيِّرين كلهم؟ قلتُ ذات يوم لروميّ أني أقاتل في سبيل رفاهية عيش قرطاجة. في الواقع نحن أسوأ من الحيوانات الكاسرة. لقد بدأت أفهم لمَ كنت تنصحني بالعدول عن الالتحاق بالسلك العسكري ولمَ علينا اللجوء إلى المرتزقة. إن مواطنينا يعرفون جيداً ثمن الخدمة في جيشنا.

ـ هميلقار إنك تُجدِّف وإني أنصحك بالعودة إلى رشدك. ليس لك أمر حكم مدينتك، سيما في هذه الظروف الحالية.

ـ أبي، اغفر لي الحدَّة التي أظهرتها لك. ولتشهد الآلهة على قسمي هذا: إن رزقتُ يوماً بولد فإني سأسميه هنيبعل وإن لم يحمل أحد في عائلتنا هذا الإسم.

الفصل السابع

كان هميلقار، ومنذ عودته إلى قرطاجة، حانقاً من حصره بمهمات حفظ الأمن الوضيعة رغم ضرورتها للحفاظ على أمن المدينة. وكثيراً ما كان أبوه يطلعه على الآراء المادحة التي يوجهها إليه مجلس المئة والأربعة. أما هميلقار، الذي يعرف شح مجاملات أبيه، فقد استمتع كثيراً بذلك الأسلوب غير المباشر الذي سلكه أبوه في إظهار مودته له.

قرر هميلقار، الذي رغب في تجنيد فرسان نوميديين، أن يرافق جوبا إلى مملكته المقبلة. ظل الشابان غائبين عن قرطاجة لأكثر من شهرين، ممضيين نهاراتهما في صيد الأسود الكثيرة في تلك البلاد. واستطاع ابن الشيخ قتل العديد منها برماحه الطويلة التي صُنعت خصيصاً له في ورش سلاح القيادة البحرية. وعندما سلكا طريق العودة، مع مجنديهم الجدد، قرر الصاحبان التوقف في سيكا لزيارة المعبد المشيَّد تكريماً لعشتار، إلهة الحب. كان المعبد يقع فوق قمة هضبة، أما الوصول إليه فكان عبر درج هائل قُدَّ من الصخر.

على جانبي الدرج كانت أكواخ صغيرة تأوي مومسات مقدسات خصصن لخدمة الإلهة واللواتي كن يقدمن أنفسهن للعابرين مقابل بضع زارات(*). كان من المألوف بالنسبة للحجاج إكرامهن بعد تقديم قربان إلى عشتار ولم يكن هميلقار ينوي مخالفة القاعدة. وسرعان

(*) زار: وحدة النقد القرطاجية.

ما أُحيط هو وجوبا بجمع نسوة تلمع شعورهن من الزيت وقد تضمخن بالعطر. كن، وقد ازدانت أجسادهن بالحلي، يتمتمن بكلمات رقيقة وأخرى أكثر شهوانية في أذن رفيقيهما المقبلين. اختار هميلقار إثيوبية، في حين استسلم جوبا لإغواء قرطاجية. لما دخل ابن أدونيبعل كوخ صاحبته أحس بما يشبه الغثيان. كان داخل الكوخ مظلماً وقد فاحت منه رائحة بخور نتن. وعلى الأرض مباشرة وُضع فراش يغطيه قماش سميك. خلعت الإثيوبية بخفة ثوبها وبدت له عارية تماماً. كانت مفاتن جسدها رائعة، استمتع بها، قبل أن يضاجعها، وظل بعد ذلك ولفترة طويلة هادئاً سعيداً، دون حراك إلى جانب العاهرة.

كانت تجهل أن هميلقار قد اكتشف للمرة الأولى جسد امرأة. وعندما خرج من الكوخ التقى بجوبا من جديد. لم يتبادل الرجلان كلمة واحدة وعادا إلى معسكرهما حيث أمضيا بقية عصر ذلك اليوم في صقل أسلحتهما صامتين. في المساء، حينما كانا على وشك الذهاب للنوم، سأل الأمير النوميدي الشاب رفيقه:

ـ قل لي أين يتحتم علي قضاء لياليَّ من اليوم فصاعداً؟

ـ لمَ رد فعلك على هذا النحو؟

ـ لأنك على الأرجح شعرتَ هذا العصر بالسرور ذاته الذي شعرت به أنا بين ذراعي امرأة.

ـ يسعدني أن أعرف أنك أنت أيضاً لست فاقد الحس حيال مفاتن بنتٌ عاهرة. لكن ذلك لا يغير شيئاً في علاقتنا حالياً. أحب النساء وأحبك. ليس ما أرغب هذا النموذج أو ذاك وإنما الشخص. إني لا أهتم بمظهره الجسدي ولكن بروحه. من الممكن ذات يوم أن تحتل امرأة مكانك إلى جانبي لأنها تعرف أن تسحر حواسي وتأسر فكري. أما في الوقت الحاضر فاعلم أن هذا الدور يستأثر بك.

عاد الرجلان إلى خيمتهما وسافرا عندما لاح الصبح. كانا قد

قررا التوقف في أوتيكا. لم يكن هميلقار قد زار على الإطلاق تلك المدينة المشيدة قبل قرطاجة بزمن طويل والتي هي حليف مخلص لمدينة إليسا. لكن أمله خاب بهذه الضيعة الكبيرة التي كان سكانها يتظاهرون بأنهم أرفع منزلة من جيرانهم. واستقبل الحاكم الأول ابن أدونيبعل في مسكنه الباذخ بذخاً صارخاً:

ـ هكذا إذن، أنت ابن أحد أعضاء مجلس المئة والأربعة.

ـ إني أحمل هذا الشرف.

ـ قيل لي أن أباك هو أحد الشخصيات الأهم في قرطاجة.

ـ هذا ممكن.

ـ إني أرثي له. إن الحرب ضد روما مستمرة منذ سنوات طويلة والرعاع لا يحبون ذلك، وهم ينفرون من جباية ضرائب جديدة. ولن أتفاجأ إن لم تجدوا ذات يوم ما تواجهون به جحافل الجنود.

ـ سنستطيع مجابهتها.

ـ اعلم أن مدينتي مستعدة لمساعدتكم إن تطلب الأمر. لكن بشرط أن تحترموا حرفياً نصوص المعاهدة التي تربطنا وأن توافقوا على منحنا امتيازات إضافية.

ـ وإن لم نفعل ذلك؟

ـ سيؤلمنا ألا نساعدكم، وهذا سيسحق قلوبنا.

ـ سنعرف أن نجنبكم مثل هذا الألم.

عاد جوبا وهميلقار إلى قرطاجة متخذين طريقهما داخل الأراضي. وعند وصولهما وجدا المدينة في حال من الغليان الشديد. في كل زاوية شارع كان مواطنون في زمر صغيرة يتناقشون باهتمام كبير، وسحنهم شاحبة. وكان آخرون يتجهون، على امتداد طريق الأعمدة، صوب المقام. استفهم ابن أدونيبعل من أحد المارة قائلاً:

ـ ماذا يجري؟ لمَ هذا الجو من الحزن؟

ـ أنت ضابط ولا تدري بالمصيبة التي تقع فوق رؤوسنا؟

ـ وصلتُ من سيكا، حيث كنت أقدم قرباناً إلى عشتار.

ـ ستُقدَّم قرابين أخرى عما قريب، أكثر دموية، سنكون بحاجة إليها لننال أفضال بعل حّمون ولنجنب قرطاجة تهديدات تثقلها.

ـ أي تهديدات؟

ـ بأي قادة نحن محكومون؟ هل أنت غبي إلى درجة أنك لا تعرف أن الروم نزلوا في منطقة رأس بون؟

عند هذه الكلمات وكز هميلقار حصانه بقدمه واتجه، مع جوبا، نحو مجلس الشيوخ. دخل المبنى فالتقى وجهاً لوجه مع أبيه الذي سحبه إلى غرفة صغيرة.

ـ أخيراً عدتَ. لقد أرسلتُ العديد من الرسل إلى سيكا لكن يبدو أنهم وصلوا وأنت في الطريق. مع ذلك لا بد أنك قابلتهم.

ـ سامحني أبي. إذ حينما لم أر ما يدعوني للعجلة غيَّرت خط سيري، في آخر لحظة، وذهبتُ إلى أوتيكا. لم أكن أعرف هذه المدينة ورغبت أن أتوقف فيها. على الرغم من أن سكانها قرطاجيون مثلنا، إلا أنهم يحتقروننا. إنهم منتفخون كبراً وغروراً، وأعتقد أنه سيتوجب علينا ذات يوم اتخاذ إجراءات ضدهم.

ـ في الوقت الحاضر سنكون بحاجة إليهم وإلى جميع حلفائنا. كما تعلم فإن الروم قد نزلوا إلى البر من سفنهم.

ـ لقد علمتُ ذلك لتوي ويبدو أن هذا أمر لا يصدق. أين هو أسطولنا؟

ـ لقد حُطم بالكامل تقريباً في معركة إكنوموس في صقلية. لقد استخدمنا ثلاثمئة وخمسين سفينة ومئة وخمسين ألف رجل واستخدم الروم ثلاثمئة وثلاثين سفينة ومئة وأربعين ألف رجل.

- ومن كان قائدنا العام؟

- كان هنالك قائدان: حنون، الذي خدمتَ تحت إمرته في أكراغاس. وآخر يحمل الإسم الذي تحمله: هميلقار.

- إني أعرفهما. الأول بحار جيد أكثر مما هو جندي محنك. أما الثاني فإنه صاحب سمعة طيبة. لا بد أنهما تجابها مع روم بالغي الحنكة لينهزما.

- لقد تجابها مع القنصليْن: ماركوس أتيليوس روغولوس، ولوكيوس مانيليوس فولسو.

- ماركوس أتيليوس روغولوس؟ لقد التقيت به سابقاً في ريجيون. إنه خصم قرطاجة الشرس والحازم. إني الآن أفهم على نحو أفضل ما حدث.

- بحسب الروايات التي قصها علينا الناجون كانت تلك معركة مشهودة. أدرك فيها كلٌ رهانه. لقد خاطب حنون جنوده قائلاً لهم أنهم إن هُزموا فليست صقلية وحدها التي سنفقدها ولكن سيتوجب عليهم القتال فوق أرضنا لرد الغزاة المستعدين لذبح عائلاتهم. لقد استقبل رجالنا المفعمون بالثقة وروح القتال كلامه استقبالاً حسناً.

- وما خطة القتال التي اختارها هميلقار وحنون؟

- إنها خطة جيدة برأي قادة بحريين آخرين. كان الروم قد قسموا أسطولهم إلى أربعة أساطيل، شكَّل ثلاثة منها مثلثاً، أما الرابع فشكَّل المؤخرة. لقد وضعا سفننا على خط واحد، ووراءها الساحل وتراجعا بحيث يجتذبان سفن العدو ويجعلانها بين فكي كماشة قبل أن ينقضَّا على الأسطول الرابع. في البداية نجحت المناورة التي نفذها مجذفونا على نحو مثالي، وصُدمت العديد من سفن الروم الثلاثية المجاذيف بمقدمة الحيازيم وأُغرقت. لكن سفن الروم الأخرى مستفيدة من الفوضى، انتقلت إلى الهجوم، وبوساطة غربانهم اللعينة جمدوا حركة القسم الأكبر من سفن هميلقار الذي

أُجبر على الهرب حاله حال حنون. أما بالنسبة إلى السفن المتوقفة بمحاذاة الساحل، فلم يكن لديها حيِّز كاف لتغير وجهتها وتصل عرض البحر، فكان أن استولى عليها الروم، وكانت الحصيلة: إغراق ثلاثين سفينة من سفننا، وأربع وستون سفينة أخرى هي الآن تحت سيطرة الأسطول الرومي الذي كانت خسارته طفيفة جداً: أربع وعشرون سفينة غارقة.

ـ متى نزلوا من سفنهم؟

ـ قبل يومين في منطقة رأس بون. لا تضيع أي لحظة. إذهب إلى أسبيس مع بضع مئات من فرسانك النوميديين وانظر ماذا يجري في المعسكر الرومي.

عاد هميلقار إلى جوبا وأمره بأن يجمع رجالهما. غادروا المدينة عبر البوابة الجديدة وتوجهوا فوق خيولهم على طريق حدريم بأقصى سرعة. على بعد بضع عشرات من الستادات من أسبيس أوقف تقدمهم على نحو فظ سيل من الجنود الفارين المحمَّلين بالحزم، تتبعهم عربات وأعداد هائلة من رؤوس الماشية مثيرة في طريقهم سحابة حقيقية من الغبار. ومن بين هؤلاء التعساء تعرف ابن أدونيبعل على هيميلك، مشرف أملاك أبيه. نزل عن حصانه ليحييه:

ـ صديقي، كنت أود أن ألتقي بك في ظروف أخرى.

ـ وأنا أيضاً، هميلقار. لا جدوى من متابعة مسيرك إلى الأمام أكثر إلا إن كنت تريد ملاقاة طلائع الروم. لقد أعمل جنودهم السلب والنهب في ضيعة أبيك وفي الضياع المحيطة.

ـ أين يوجد جيشهم؟

ـ بالقرب من أسبيس. لقد أُحيط بالمدينة وحوصرت. إن الروم سحبوا سفنهم إلى الساحل الرملي وأولئك الذين لا يقاتلون انتشروا في الريف للسرقة والنهب. لقد استولى الرعب على السكان وتراجعوا

نحو قرطاجة. إنهم يأملون أن يكونوا في منجى داخل أسوارها المتينة. صدقني، إننا نجتاز زمناً رهيباً. إني أذكر قصص جدي عن اجتياح أغاثوكل وأشعر أننا نعيش مجدداً الوقائع نفسها.

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أن أذهب إلى ميغارا لأخبر أباك عن دمار ضيعته وأن أتوسل إليه أن يعفو عني إذ لم أستطع إنقاذها.

ـ لم تفعل ما تلام عليه. إن الآثمين الحقيقيين هم أولئك الذين تركوا هؤلاء الروم ينزلون من سفنهم دون أن يحطموا أسطولهم. سأعود معك إلى قرطاجة وسيرافق فرساني أصحابك لحمايتهم من مصيبة ما. أما فيما يتعلق بك فإني سأُلحقك بي بصفتك مشرفاً. سأكون بحاجة إلى خدماتك في الأشهر القادمة طالما أننا لم نطرد هؤلاء الروم الملاعين من أرضنا.

في قرطاجة أثار وصول اللاجئين ردود فعل شتى. شعر كثيرون بالشفقة حيال أولئك البؤساء المطرودين من بيوتهم والذين سينتهي الأمر بغالبيتهم إلى العيش على الصدقات. وكان يرى آخرون، وقد خشوا أن تُحاصر المدينة بدورها، أن هؤلاء أفواه إضافية ينبغي إطعامها وأنه كان من الأفضل إرغامهم على الذهاب إلى سيكا أو أوتيكا. وقرر مجلس المئة والأربعة أن يجعل إقامتهم في ميغارا، على امتداد الأسوار، هناك حيث يوجد مكان كاف لنصب الخيام وبناء الأكواخ.

في مجلس الشيوخ كانت الجلسات تتعاقب، كل واحدة أشد اضطراباً من الأخرى. وكان أدونيبعل هدف انتقادات حادة من طرف أنصار بعل يتون. هذا الأخير، وفي غمرة ذهول عام، أظهر اعتدالاً مدهشاً وروح تصالح لم تعرف عنه إلى ذلك اليوم. وعندما حان وقت تعيين قائد عام للجيش تكلم بلهجة عذبة:

ـ أقترح أن نعيِّن قادة عدة بحيث نجعل فيما بينهم منافسة

حميدة للجميع. إن الأكثر كفاءة برأيي هم حسدروبال، ابن حنون، وبوستار. وأقترح أن نستدعي من صقلية سُميّ(*) ابن أدونيبعل: هميلقار مع خمسمئة من الفرسان وخمسة آلاف من الجنود المشاة. لقد هُزم في إكنوموس لكنه أنقذ قسماً كبيراً من الأسطول ويعرف خصومنا جيداً. هذا هو خياري. هل لديكم خيار آخر؟

لم يتكلم أحد ليدافع عن وجهة نظر معارضة. ولما رجع أدونيبعل من ميغارا استدعى إليه ابنه ليخبره بالقرارات المتخذة:

ـ أبي، ألا تخشى من فخ ينصبه بعل يتون؟

ـ أرى أننا نتقاسم المخاوف نفسها. لم أستطع معارضة اقتراحه لأن عدداً كبيراً من الشيوخ كانوا سيسعدون كثيراً بالاستفادة من الفرصة السانحة لهزمي بغالبية الأصوات.

ـ لكن هؤلاء القادة جميعاً، وأنت لا تجهل ذلك، كل منهم أقل كفاءة من الآخر. إن حسدروبال امرؤ مخنث.

ـ مثل جوبا!

ـ لا أسمح لك بقول ذلك. جوبا صديقي. إنه محارب شديد البأس وشجاع وتربطني به صداقة رقيقة. ولا علاقة له بحسدروبال.

ـ لم أرد أن أهين صاحبك. من جهتي أنا أحبه كثيراً وأحترم تعلقكما ببعضكما. من المؤكد أن حسدروبال ليس رجلاً عسكرياً أبداً. حتى أنه يكاد يغشى عليه في كل مرة يلحظ فيها سيفاً، ويمضي أيامه في صحبة الفتيان العبيد.

ـ أما بوستار وهميلقار، فقد برهن، كل بطريقته، عن عجزه عن القيادة. فقد أخفق الأول إخفاقاً ذريعاً أمام قبائل «الجنوب» وأخشى أن يقود الثاني رجاله كما قاد سفنه. ولا يبدو لي أن العمل تحت إمرتهما يحمل أدنى ميزة. أشعر بقلبي يتمزق حزناً ومرارة

(*) سُميّ: أي الذي يحمل الإسم الذي يحمله سواه.

كلما فكرت بأننا سلمنا خيرة ضباطنا، هنيبعل الرشيد، لخشبة الصليب. نحن اليوم في أشد الحاجة إليه.

- إن حسدروبال، وبوستار وهميلقار لن يكونوا قادتك. في الوقت الراهن ستظل قائد حرس مجلس الشيوخ ولن تتبعهم. لا أريد أن تتورط في هذه المسألة لأني أتكهن بما يرمي إليه تصرف بعل يتون.

- ماذا تقصد؟

- منذ اليوم الأول للحرب وهو نصير للسلم مع الروم بأي ثمن. إنه مستعد لكل شيء للوصول إلى أهدافه وإن كان عليه لأجل ذلك أن يخالف مصالح قرطاجة. أظنه يتمنى هزيمة جنودنا أمام المدينة. وحينذاك سيستولي على تجارنا الطيبين خوف على أموالهم وسيتوسلون إليه أن يذهب للقاء القنصل الرومي. وهكذا سيلعب دوراً ذا شأن وسيستفيد من ذلك لإقصائنا، أنا وأنصاري، من مجلس المئة والأربعة. لأجل هذا عيَّن هؤلاء القادة غير الأكفاء!

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- ما من شيء يضيع. إن إبيسيد معلمك، الذي رددنا إليه حريته، أبحر هذا العصر على متن سفينة ثلاثية، متجهاً إلى اليونان لتجنيد مرتزقة. لقد انطلق ومعه صناديق مملوءة ذهباً وفضة لإثارة حماس المجندين الجدد.

- هل أنت واثق من أنه سيعود؟ إني أثق به لكن ثروة كتلك قد تفتنه.

- ليس لدي أدنى خوف. وقد أكد لي ذلك حينما ذكر شخصاً اسمه ألكايوس. قال لي أنك ستفهم.

- أنت على حق. سيكون لدينا مرتزقة عما قريب.

* * *

بينما كانت قرطاجة تعيش خوفها كان الروم الذين خربوا الأراضي الشاسعة الواقعة في منطقة رأس بون قد انقسموا حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه. هل ينبغي عليهم الاكتفاء بالدمار العظيم قبل أن يبحروا من جديد أم ينبغي عليهم أن يبقوا في أماكنهم ويحاولوا تحريض السكان النوميديين والليبيين ضد مدينة إليسا؟ والحق يقال كان الجدال بين القنصلين أكثر من مبتذل. فكل منهما أراد، لأسباب شتى، العودة إلى إيطاليا وترك الآخر يُشتّي بالقرب من أسبيس. كان ماركوس أتيليوس روغولوس يتحجج بأنه يهتم بنفسه بأرضه وأنه لا يملك مالاً لاستخدام مزارع ليحرث بدلاً عنه تلك الأرض. أما لوكيوس مانيليوس فولسو، المنحدر من عائلة أكثر شهرة من عائلة أتيليا، فكان يرى أن روما لا غنى لها عنه في حين أن زميله، الذي هو من طبقة أدنى، ليس كذلك. وهكذا، أرسل مبعوثون على وجه السرعة إلى مجلس الشيوخ، الذي تسلى بعض أعضائه كثيراً بحجج روغولوس، المشهور بتقشفه وبخله الشديد. وقاموا بحيلة ماكرة إزاءه، فقد أقروا قانوناً يَعدُ بأن يأخذ مجلس الشيوخ والشعب الرومي على عاتقهما أمر العناية بأرض القنصل مادام يخدم «الجمهورية». وهكذا أبحر لوكيوس مانيليوس فولسو إلى روما، مصطحباً معه عشرين ألف أسير وآلافاً عدة من رؤوس الماشية. وبقي ماركوس أتيليوس روغولوس في مكانه مع أربعين سفينة، وخمسة عشر ألفاً من الجنود المشاة وخمسمئة فارس استقر قسم منهم في أسبيس بعد سقوط المدينة، المحرومة من كل مؤونة. في حين تقدم القائد الرومي مع بقية قواته صوب قرطاجة، ناشراً الخراب في طريقه.

اجتمع مجلس المئة والأربعة على عجل بعد إذ أُخطر بتقدم الروم، وأمر قادته العسكريين بالمضي نحو الغازي مع عدة آلاف من المرتزقة، ومئات الخيالة وخمسين فيلاً. نفّذ حسدروبال وبوستار وهميلقار على مضض الأوامر. كانت قلوبهم متباغضة وكل منهم يحلم قبل كل شيء بإضعاف منافسيه. لما وصل الثلاثة

إلى مشارف أديس، التي يحاصرها روغولوس، أخذوا يتشاورون طويلاً لمعرفة إن كان عليهم القتال في السهل أو البقاء فوق الهضاب المشرفة على المدينة. وتم تبني الخيار الأخير بضغط من حسدروبال وبوستار، المقتنعينْ بأن مهاجميهم، الذين أنهكهم الصعود المرهق، يمكن أن يُمزقوا شر تمزيق بكل سهولة. عبثاً كان هميلقار قد هاج وماج، موضحاً أن الفيلة لن تقدم على ذاك النحو أي مساعدة، بينما يمكن نشرها بسهولة فوق الأراضي المنبسطة، لكن أحداً لم يعره أذناً صاغية. وانعطفت المعركة التي بدأت في الصباح الباكر لصالح ماركوس أتيليوس روغولوس. بالتأكيد، في البداية، توجب على فيلقه الأول أن يكابد ضربة المرتزقة العنيفة ويهرب من أمامهم. فقد قاتل الغاليون، واليونانيون، والنوميديون والسردينيون كأسود حقيقية، ذابحين دون رحمة الأعداء الذين يقعون في أيديهم. لكن ما إن تم النجاح الأول للمرتزقة حتى قام حسدروبال، وقد تغلب على خوفه، بجمعهم وهو يحسب أنه على هذا النحو سينسب لنفسه إكليل النصر. ودون أن يتجشم عناء مراقبة ساحة المعركة شجع المرتزقة على ملاحقة المنهزمين لكنه سرعان ما وجد نفسه وقد حاصرته الفيالق التي جعلها الروم بمثابة جنود احتياط. وما هو إلا أمد قصير حتى كبد جنود ماركوس أتيليوس روغولوس المرتزقة خسائر فادحة وأبادوهم. ولحق الخيالة بحسدروبال وأجبروه على الاستسلام.

أما الفرسان والفيلة المحصورون فوق الهضاب فلم يكن بوسعهم نجدة رفاقهم وتوجهوا إلى قرطاجة تاركين معسكرهم فريسة نهب وسلب جند الروم. بيد أن قنصل الروم وقد صمم تصميماً قوياً على استغلال نصره، فقد أمر قواته بالتقدم إلى تونس فاستولت عليها قواته بلا قتال، وكان المدافعون عنها قد انسحبوا على عجل إلى مدينة إليسا. وعلى أطراف بحيرة تونس أقام روغولوس معسكره الذي كان بالإمكان رؤية نيرانه من فوق أسوار قرطاجة. وسرعان ما انضم إلى الروم عدد كبير من المحاربين

النوميديين. كان والد جوبا، الذي انتقده شعبه، قد أغلق على نفسه في القلعة التي وضع فيها مؤونة كافية لتحمل حصار طويل. لكن أحد أبناء أخوته، غايا، نصَّب نفسه ملكاً، وأعلن أنه حان وقت التخلص من الجزية الظالمة التي تجبيها قرطاجة كل سنة. ووصلت غارات المتمردين إلى ضواحي ميغارا، فحاصروا بذلك المدينة التي أصبحت ترتبط بالخارج عن طريق مينائها فقط حيث استمرت بضع سفن في تفريغ القمح الوارد من صقلية.

ما لبث بعل يتون أن استفاد من الاستياء العام المخيم على المدينة. كان السكان يخزنون القوت والحبوب ويرفضون مساعدة اللاجئين الذين تحتم على مجلس الشيوخ أن ينظم لهم حصص غذاء مجانية. ولم يتجشم أحد عناء التفكير بأن مصائب قرطاجة لم تكن تعود إلى نقص جنودها وإنما إلى عدم كفاءة قادتها. ورغم كل ما حصل ظل بوستار وهميلقار يتبختران في الشوارع كما لو أنهما قائدا جيش منتصر.

ذات صباح مثل وفد رومي أمام البوابة الجديدة وطلب أن يستقبله مجلس المئة والأربعة. فوجئ هميلقار، الذي كان في الحراسة فوق السور، إذ تعرَّف من بين الرسل على كايوس كورنيليوس سيبيون. نزل للقائه وحيَّاه بتحفظ:

ـ كنت أود لقاءك في ظروف أخرى. سأصحبك، أنت ورفاقك، إلى مجلس الشيوخ. وقبل ذلك، اسمح لي أن أرسل إلى خطوطك عدداً مكافئاً من جنودي لتحتفظ بهم قواتك كرهائن إلى حين عودتك.

ـ كنت أخشى أن علي طلب ذلك منك. إن لديك إحساساً بالشرف وأنت تعفيني من عمل شاق مرهق. إني أقدِّر لك بادرتك. أعط عصا القيادة هذه لجنودك، سيستخدمونها كتصريح أمان.

في أزقة المدينة استُقبل الوفد الرومي دون بوادر عداء. كان المارة على الخصوص فضوليين لرؤية ماذا يشبه منتصرو أديس. وعادت إليهم الطمأنينة حين تحققوا أن هؤلاء ما هم إلا رجال مثل

باقي الرجال. وحتى أن بعضهم تجرأ وأراد أن يمسّ بيده دروعهم كما لو أنه يريد التأكد من أنها ليست ذات قدرات سحرية. فرّق ابن أدونيبعل هؤلاء المزعجين وقاد ضيوفه إلى قاعة مجلس المئة والأربعة. كان أعضاؤه في غمرة المداولات وأثار إعلان وصول الروم صخباً شديداً. وعندما هدأ أعضاء المجلس أُذن لكايوس كورنيليوس سيبيون بالمثول أمامهم. كان بعل يتون يترأس الجلسة وقال بكلام دمث:

ـ أهلاً ومرحباً بك. من أنت وما الرسالة التي تحملها؟

ـ أنا القاضي كايوس كورنيليوس سيبيون، أخدم لدى القنصل ماركوس أتيليوس روغولوس. لقد كلفني أن أقول لكم أنه سيكون سعيداً باستقبال وفد قرطاجي لمناقشة شروط السلام بين مدينتينا. إن كنتم موافقين سيكون بوسع مبعوثيكم ومبعوثينا صباح الغد الالتقاء في منصف الطريق بين مدينتكم ومعسكرنا. سننصب خياماً لإجراء المفاوضات فيها. أما في الوقت الراهن فإني خُوِّلتُ أن أُعلن لكم بأننا سنراعي بدءاً من الآن هدنة إلى حين إتمام اللقاء.

ـ ونحن سنفعل الأمر نفسه. علي أن أتشاور مع زملائي بخصوص اقتراحك. إني مقتنع أنه سينال رضاهم.

ـ وكيف لي أن أعرف ذلك؟

ـ إن أُوقدت نار هذا المساء فوق البرج إلى يمين «البوابة» الجديدة فهذا يعني أننا سنلتقي القنصل في الظروف التي حددتها.

رافق هميلقار كايوس كورنيليوس سيبيون ورجاله إلى خطوطهم وعاد مع جنوده، وقد أطلقهم من أسرهم الوجيز. كان همه الأول، ما إن يصبح داخل الأسوار أن يذهب على عجل إلى مجلس الشيوخ ليكلم أبيه:

ـ أدونيبعل، هل قبلتم اقتراح كايوس كورنيليوس سيبيون؟

ـ نعم، في شبه إجماع.

ـ هل صوَّت أنت مؤيداً له؟

ـ أجل.

ـ أبي، أنت زعيم الحزب المناوئ للروم!

ـ لا تنفعل. إن الفخ في طريقه للإطباق على بعل يتون وأتباعه.

ـ يشق علي أن أصدقك.

ـ برأيك، لمَ أقبل كايوس كورنيليوس سيبيون عارضاً المفاوضات؟ إن قنصله قد اشتاق إلى ضيعته ويريد أن ينهي الحرب في أسرع وقت. زد على ذلك إنه يعرف أن تكليفه سينتهي عما قريب، وإن هو لم يتوصل إلى الانتصار في المعركة أو توقيع السلام فإن آخرين سواه سيدَّعون أنهم هم أصحاب أمجاد النصر.

ـ هذا مؤكد، لكن لنسلِّم بأن بعل يتون وسيبيون قد توصلا إلى تفاهم. هذا الحقير بعل يتون، الذي هو عدوك اللدود، سيظهر كما لو أنه منقذ الوطن وسيقصينا دون شفقة.

ـ أنا أعرف الروم وعجرفتهم الوقحة. إنهم يحسبون أننا مهددون بالمجاعة والخراب، لذا فهم سيقدمون شروطاً جائرة جداً ستثير السخط حتى لدى أنصارهم في بلدنا.

ـ عسى أن يستجيب بعل حمون لأمانيك! ماذا ينبغي علي أن أفعل الآن؟

ـ احرص على أن توقد ناراً هذا المساء فوق البرج إلى يمين «البوابة» الجديدة. غداً صباحاً سأذهب أنا وبعل يتون إلى القنصل مع حراسة قليلة تضعها تحت تصرفنا. كن واثقاً أن مصير قرطاجة ستحدده الساعات القادمة.

منذ تباشير الفجر الأولى ساد نشاط غير عادي بالقرب من «البوابة» الجديدة. ثم فُتح مصراعاها وخرج مبعوثا مجلس المئة والأربعة من المدينة، يحرسهما فرسان نوميديون، وبلغا الخيام التي نصبها الروم. استمرت المقابلة طيلة النهار ولما أوشكت الشمس

على الغروب عادا إلى المدينة وذهبا إلى مبنى مجلس الشيوخ. كان زملاؤهم ينتظرانهما وجلسا في هدوء غريب. كان والد هميلقار أول من خاطبهم قائلاً:

ـ لقد التقينا بماركوس أتيليوس روغولوس وسأدع لبعل يتون أمر إيضاح فحوى محادثاتنا.

وقف الشيخ، وسيماء الانهزام بادية عليه، تردد طويلاً قبل أن يتكلم:

ـ أعضاء هذا المحفل الكريم، لقد استقبلنا القنصل. أنتم تعرفون أني كنت دائماً معادياً للحرب ومناصراً للسلام مع روما. ومازلت أعتقد أن استمرار المواجهة بين المدينتين ستقضي ذات يوم على واحدة منهما لا محالة. لكن، علي أن أقول لكم، والأسى يحزّ في نفسي، أنه ليس وارداً القبول بعرض السلام الذي هُيِّئ لنا.

وانفجرت الصيحات من كل الأنحاء: «لماذا؟ ماذا يريدون؟ ماذا يطلبون؟ هل كدَّرك أصدقاؤك إلى هذا الحد؟». عندما استعيد الهدوء مجدداً، بطلب من أدونيبعل، تابع خصمه مقالته:

ـ لم أكن أعتقد على الإطلاق أني سأجد عدواً بهذا القدر من التوحش وانعدام الشفقة. إنهم يطلبون أن نتخلى لهم عن صقلية، وسردينيا وكورسيكا، وأن نسلمهم كل سفننا الحربية وأن ندفع لهم غرامة حربية مقدارها ألف ومئتا تالان. أضف إلى ذلك، هم يطمحون إلى الاحتفاظ بأسبيس وبجزء من رأس بون وأن يُسمح لهم بإقامة مستعمرات في هذا الجانب من البحر. إن قبول تلك الشروط سيكون بمثابة توقيع قرار بموت قرطاجة وليس بمقدوري أن أقوم بذلك. هالكون على أي حال، فلتكن الخسارة والسلاح في اليد.

انطلقت صيحات الاستحسان من جميع الأرجاء. وعندما استتب الهدوء شوهد هميلقار يدخل القاعة ويسرع نحو أبيه ليهمس ببضع كلمات في أذنه. أدونيبعل وقد غطت وجهه دموع الفرح قال:

ـ لقد أعلمني ابني لتوه أن سفينة ثلاثية المجاذيف قادمة من اليونان قد بلغت الميناء. وعلى متنها معلمه السابق، إبيسيد، وهو عبد أعتقته وأقترح عليكم جعله مواطناً في مدينتنا. وكان بطلب مني قد ذهب إلى اليونان لتجنيد مرتزقة. إن آلافاً مؤلفة منهم قد استجابت لندائه وسفنهم الآن على بعد يومين إبحاراً من قرطاجة. وعلى رأس هؤلاء الرجال المدججين بالسلاح هنالك إكزانثيبوس، وهو جنرال إسبارطي، ما إن يُذكر اسمه حتى ينتشر الرعب في هيلاّد. حينما يغادر هؤلاء المرتزقة السفن، ونعيد تنظيم قيادتنا، سنستأنف الهجوم. إن الآلهة ترسل لنا إشارة هذا النهار. إن بعل حمون وتانيت لم ينسيانا وقد أقبلا لنجدتنا. وعما قريب سيتوسل إلينا الروم هم أنفسهم لنملي عليهم شروطنا.

* * *

احتشد آلاف الأشخاص على أرصفة الميناء التجاري للترحيب بوصول السفن الناقلة للمرتزقة. ما إن أُذن لهؤلاء بمغادرة منطقة مركز قيادة البحرية، مجموعات صغيرة، حتى احتُفي بهم كأبطال ومنقذين. وأولئك الناس الذين أكدوا، قبل ثلاثة أيام، أنهم أصبحوا خالي الوفاض من الطعام وعلى شفا الهلاك جوعاً، هم أنفسهم شعروا بما يكفي من قوة ليكشفوا في أقبيتهم عن أطعمة كثيرة وعن جرار خمر بالعشرات، قدموها إلى الجنود اليونانيين. أما كهنة معابد بعل حمون وإشمون فقد أحاط بهم حشد من المؤمنين الذين أرادوا أن يظهروا امتنانهم لآلهة المدينة بتقديم القرابين. وفي الحانات، خوصم، أنصار بعل يتون، ودياً، وهم يُسألون عن رأيهم في كرم روما. كان أولئك المساكين يطأطئون رؤوسهم من وقع تلك المزاحات الثقيلة. وكثير منهم أخذوا يلعنون قائدهم لأنه خدعهم وأقسموا أنهم من اليوم فصاعداً سيتبعون معسكر برقا.

أما إكزانثيبوس نفسه فكان مختفياً عن الأنظار. وقد انزوى في مبنى قيادة البحرية ليمضي فيه أيامه ولياليه. كان همه الأول أن يستدعي إليه القادة القرطاجيين وكذلك الضباط الناجين من نكبة

أديس. وكان قد أجرى أيضاً مع هميلقار محادثة طويلة. تأثر ابن أدونيبعل بهذا المحارب ذي القامة الطويلة، والشعر الأسود، واللحية الغزيرة. وقد لفت نظره على الخصوص نظراته الباردة والمصمِّمة. لم يكن الرجل من الصنف الذي يحتمل المعارضة، وبلا مقدمات، سأل إكزانثيبوس الضابط الشاب:

ـ قيل لي أنك قاتلت في صقلية وأنك ترأس حرس مجلس الشيوخ. ما رأيك بالوضع؟

ـ يراودني أمل كبير، لاسيما حينما وصل رجالك. ما يكدرني هو وضع قادتنا. إنهم لا يتمتعون بالكفاءة على الإطلاق.

ـ كيف تجرؤ على توجيه إتهام كهذا، وأنت شاب تعوزه الخبرة؟ أتعرف أنك قد تدفع غالياً ثمن وقاحتك؟ إني لأرغب حقاً في أن يعتقلك الحراس.

ـ تصرف بي كما تشاء لكن ذلك لن يغير شيئاً من الواقع المحزن. إني في الحقيقة لا أتصرف كجندي يعوزه الإخلاص ولا أتمرد قط ضد النظام. صدقني، إني راغب في القتال لكني لا أريد أن يهلك رجالي لأن قادتهم يجهلون كل شيء عن فنون القتال. إني آسف لعدم رضاك عني، فالخدمة تحت إمرتك ميزة ستملؤني فخراً. غير أنه من العبث التستر على أسباب هزائمنا الحقيقية.

ـ سأستدعي الحرس وسأدع لك فرصة ثانية. سأسألك السؤال نفسه المطروح آنفاً وبوسعك أن تعدِّل إجابتك. وإلا ستتعفن في زنزانة.

دخل جنود الحراسة الغرفة. سأل إكزانثيبوس بلطف أكثر ابن أدونيبعل:

ـ هل قادة قرطاجة هم ضباط جيدون؟

ـ إن عدم كفاءتهم هي السبب الأول لنكباتنا.

ـ أيها الحرس، بوسعكم الإنصراف، قال الإسبارطي. اصفح عني، هميلقار، أردتُ أن أعرف مدى قوة قناعاتك. أعرف أنك على

حق. إني معجب بك لأنك تقول بكل صراحة ما يكتفي الآخرون بالتلميح إليه بكثير من الحذر والحيطة. أنت تعجبني وسأجعلك من بين مساعديَّ.

ـ أشكرك على ثقتك.

ـ إني أشاطرك تحليلك للأمور وأطلب منك خدمة. تصرف بحيث ينتشر ذلك الموضوع في المدينة.

ـ سأحرص على ذلك.

ـ أمر آخر، إني مهتم كثيراً بمعرفة الوضع الحقيقي للقوات العسكرية ومخزون السلاح والمؤن في المدينة. لقد سألت بهذا الخصوص بوستار لكن دون جدوى.

ـ لدي الرجل المناسب لهذا الأمر، اسمه هيميلك. كان مشرف ضيعتنا في رأس بون، تلك التي خربها الروم. إنه خادم وثقتُ به ثقة كاملة وبوسعه أن ينفذ المهمة بسرعة. سيمثل لديك هذا العصر وسيظل تحت تصرفك مادام الأمر يتطلب ذلك.

بعد هذه المقابلة استدعى هميلقار برقا إليه إبيسيد وكلّفه بنشر شائعة في المدينة، مفادها أن إكزانثيبوس مستاء من القادة القرطاجيين. كان أثر معلمه السابق بليغاً حيث أصبحت، وبعد ثلاثة أيام، حانات الميناء تدوي بمناقشات حامية في هذا الموضوع. وقام من تبقى من أنصار بوستار بإخطاره بما كان قد دُبِّر فطلب الرجل اجتماع مجلس المئة والأربعة وهذا ماحصل.

حضر إكزانثيبوس الاجتماع، يرافقه ابن أدونيبعل. كان يرأس الجلسة مهرا بعل الذي خاطب إكزانثيبوس بنبرة تظاهر فيها بالسخط:

ـ أنت، يوناني تستاء من قادتنا! أهذا ممكن؟

ـ يجدر بكم أن تستاؤوا منهم مثلي. فالهزيمة أحاقت بهم في أديس.

ـ كان الروم هم الأقوى.

ـ ليس هذا صحيحاً. لقد تصرفت مرتزقتكم على نحو شجاع وكان بوسعها تحقيق النصر لو أن الفرسان والفيلة ساندتها. لكن كان من المستحيل تحريكهم من المرتفعات المنحدرة التي كانوا فوقها. لتحقيق الغلبة ينبغي أن يقاتل جيشك فوق أرض منبسطة ومكشوفة. لا تنسوا أن روغولوس كان لديه على أبعد تقدير خمسة عشر ألف جندي من المشاة وخمسمئة فارس. ولو أن فيلتكم تمكنت من نشر الرعب في صفوفه لقضي عليه. لذا أقترح أن تخرج قواتنا من المدينة وتتخذ مواقعها شمالاً، بالقرب من نهر باغراداس. إن عهدتم إلي بقيادتها فأنا واثق من إحراز النصر.

ـ ما رأيك في ذلك يا بوستار؟ قال مهرا بعل.

ـ إني موافق، قال بوستار. إن انتقادات إكزانثيبوس لم تفرحني وإني أعتبرها إهانة شخصية وسأطلب منه، مستقبلاً، التكفير عنها. إن الأمر الذي يتصدر الآن هو نجاة قرطاجة وملاحظاته حول استخدام الفيلة هي ملاحظات حصيفة. إني والحزن يحزُّ في نفسي أقبل أن تنتقل إليه مهامي إن كان مجلس المئة والأربعة يوافق على ذلك.

في الغد أخرج إكزانثيبوس عدة آلاف من الرجال عن طريق «البوابة» الجديدة وأمرهم بالقيام بتمرينات عسكرية أمام السور. كان الجمهور قد حُشد فوق الأسوار وأخذ يهتف محيياً الجنود الذين كانوا يُشاهدون وهم يمشون مشية عسكرية، ويستديرون يميناً أو شمالاً، ويتصنعون القيام بمواجهة أو تطويق وحدة أخرى، بينما كان فرسان ينقلون لقادتهم باستمرار أوامر «الإسبارطي». وفي نهاية النهار، عندما استعرض إكزانثيبوس الرجال، ضرب هؤلاء تروسهم بسيوفهم إشارة إلى استحسانهم له. ولاحظ هميلقار أن أكثرهم حماساً كان أولئك الذين نجوا في أديس. لقد أصبح لديهم أخيراً قائد ولم يُخفوا فرحهم.

في الغد، وبناء على أوامر القائد الجديد، خرج من المدينة إثنا

عشر ألف جندي من المشاة، وأربعة آلاف فارس وحوالى مئة فيل عبر بوابة ميغارا ووصلوا إلى مكان واسع منبسط حيث أقاموا معسكرهم. إن الروم الذين هم بالأحرى قد فوجئوا، ترددوا حول خطة القتال التي عليهم اتخاذها. لم يكن بوسعهم شن هجوم على الأسوار، لعدم توافر المنجنيقات والسلالم. ترى هل يتوجب عليهم البقاء في تونس أو الذهاب للقاء جيش الأعداء؟ لقد اختار ماركوس أتيليوس روغولوس الحل الأخير، وهو المتشوق إلى العودة بأقصى سرعة إلى ضيعته. مقتنعاً أن كل شيء سيجري كما جرى في أديس. وقام بتسيير فيالق جنده وأقام معسكره على بعد حوالى عشر ستادات من المواقع القرطاجية.

عندما بزغ الفجر استحوذ نشاط محموم على قوات إكزانثيبوس. كانوا يرجونه أن يبدأ المعركة، هاتفين باسمه. استجاب «الإسبارطي» لطلبهم ونظَّم الفيلة في صف واحد، ووضع خلفها، على مسافة ملائمة، الجنود المشاة، يحميهم عن اليمين والشمال الفرسان والمرتزقة. أما روغولوس فقد وضع في مركز تشكيلته للقتال وحدات خفيفة يحميها الفرسان من الجهتين. ووراءهم كانت تمكث فيالق الجند، مشكلة جداراً حقيقياً من حديد وفولاذ.

ظل الجيشان طويلاً يراقبان بعضهما بعضاً في غمرة صمت ثقيل. وأخيراً أمر إكزانثيبوس بتقدم الفيلة التي غطى نهيمها على قرقعة تروس الروم. شيئاً فشيئاً، ازدادت سرعة الحيوانات وحطمت وحدات رومولوس الخفيفة. إن أولئك الذين لم ينسحقوا تحت قوائمها لاقوا حتفهم بضربات الفرسان النوميديين الذين كانوا منتشرين في السهل.

لقد ارتكب القنصل خطأً في تلك المعركة، إذ قدَّم شرانمه العسكرية جاعلاً بين كل شرذمة وأخرى ممراً وكان يأمل أن تمر عبره الفيلة. وهذا ما فعلته الفيلة، وهي تتابع جريها المجنون. لكن

الجنود الروم وجدوا أنفسهم آنذاك منفصلين إلى عدة مجموعات صغيرة. وما حصل أن روغولوس وقد أعماه الغبار الذي أثارته الحيوانات الصفيقة الجلد والأحصنة، لم يشاهد المشاة القرطاجيين الذين غادروا مواقعهم واقتربوا من الصف الأول. إن جند الروم الذين حسبوا أنهم هربوا من الفيلة كانت لهم بالمرصاد رماح الجنود القرطاجيين، فعادوا على أعقابهم، لكنهم وجدوا أن انسحابهم قد اعترضته الفيلة التي قامت بارتدادة.

مع خمسة رجال أفلح ماركوس أتيليوس روغولوس في مغادرة ساحة المعركة محاولاً العودة إلى تونس. لكنه لم يستطع ذلك لأن جوبا، مع عدة مئات من النوميديين، قبعوا له في كمين على الطريق وانقضوا على الفارين. وتم إهلاك غالبيتهم، لكن القنصل يدين بسلامته إلى التعليمات التي أصدرها إكزانثيبوس وهميلقار بأن يُقبض عليه حياً بأي ثمن. لقد ألقى القنصل بغضب شديد سيفه على الأرض بعد أن حُشر إلى شجرة، واقتيد إلى قرطاجة.

كان سكان المدينة، وفي انتظار أخبار المعركة، قد احتلوا أماكنهم فوق الأسوار. وأطلقوا صيحات فرح عظيمة عندما رأوا الجيش الرومي المقيم في تونس يحرق معسكره وينسحب نحو رأس بون، لينضم إلى حامية أسبيس. في صباح الغد دخل الجنود المنتصرون المدينة وسط حبور عام. كانوا يدفعون أمامهم آلاف الأسرى الذين رُصدوا للخدمة كمجذفين على متن السفن القرطاجية. وتخلف رجلان عن الاحتفال: إكزانثيبوس وماركوس أتيليوس روغولوس.

الفصل الثامن

لم يغادر هميلقار برقا ساحة المعركة في نهاية النهار. لقد تجول فيها مع بعض الفرسان بحثاً عن كايوس كورنيليوس. كان مقتنعاً أن القاضي كورنيليوس لم يهرب مع القنصل. لا ريب أنه ظل مع رجاله يحثهم على المقاومة ويحرضهم على رد موجات المهاجمين. إن لم تكن الفيلة قد وطئته بقوائمها، فلعله جُرح وسقط على الأرض. كان ينبغي العثور عليه قبل أن يحاول الناهبون سلبه، بل وحتى الإجهاز عليه، كعادتهم. إن بعضاً منهم كان قد شرع في ذلك فعلاً، ولم يتجشم حتى عناء الهرب لدى اقتراب الجنود.

على ضوء المشاعل، وإلى وقت متأخر من الليل، تجول معاون إكزانثيبوس وسط الجثث وحشرجات المحتضرين. وانتهى به المطاف إلى العثور على جسد القاضي هامداً بلا حياة، فأمر هميلقار بوضعه فوق محرقة أوقد نارها بنفسه. وظل قبالة اللهب صامتاً إلى أن ترمّدت الجثة تماماً. لقد كان يُحيِّ بذلك مؤاكله السابق في ريجيون والذي كان عزاؤه الأخير أن يغسل بدمه الشرف المثلوم لآل كورنيليوس.

عند عودته، في الصباح، إلى قرطاجة، وبينما كان يتجلى للعيان موكب الجيوش المنتصرة، حثَّ هميلقار خطاه إلى مركز قيادة البحرية ليلتقي هناك بإكزانثيبوس. وفوجئ إذ علم أن القائد الإسبارطي كان قد غادر المدينة متوجهاً إلى أوتيكا. بعد فترة

وجيزة، وفي حرم مجلس الشيوخ أوضح له أبوه أسباب ذلك الرحيل:

- إن «اليوناني» ليس فقط عسكرياً جيداً وإنما أيضاً سياسي حاذق. ونصره الرائع لم يفتنه. لقد أسرَّ إلي أن هذا النصر يساوي من الأعداء أكثر مما يساوي من المغانم وأنه أصبح في عمر مسن لا يتيح له أن يمضي وقته في إحباط الدسائس. فبعد أن وضع ذهبه في جيبه - وقد دُفع له الكثير - سافر خفية إلى أوتيكا ومنها سيُبحر إلى اليونان.

- ورجاله؟

- إنهم دوماً في خدمتنا ونحن نعرف لأي شيء سنستخدمهم. يجب معاقبة النوميديين الذين تمردوا ضد والد جوبا كما ينبغي طرد الروم من أسبيس.

- ماذا جرى للقنصل ماركوس أتيليوس روغولوس؟ يبدو أنه لم يكن بين الأسرى الذين ساروا أرتالاً في شوارعنا.

- هذا صحيح. إنه سليم معافى، لكننا ارتأينا أنه من غير المجدي تكبيده الإذلال الذي يتوقعه. على أي حال، لقد كانت مقترحات السلام التي صاغها تدل على سفاهة حمقاء وكان يحق لنا أن ننتقم لأنفسنا بتعريضه لسخريات جموع الناس. لقد رأيت أنا وأعضاء مجلس المئة والأربعة الآخرين أن من الحكمة أكثر أن نظهر له الاحترام الواجب أمام خصم بائس.

- أين هو؟

- في منازلنا، في ميغارا، بصفته سجيناً قطع على نفسه وعداً. لقد أقسم لي قسماً معظماً بألا يسعى إلى الهرب، والعديد من الضباط الروم الذين هم من عائلات مشيخية شهيرة ضمنوا لي بحياتهم صدقه. إنه يعرف ذلك وأنا على ثقة كاملة به. سيكون أمراً حسناً أن تذهب لزيارته وتتحدثان معاً. آمل ان يكون ثرثاراً معك أكثر مما كان معي. استفهم منه. إني أنتظر بفارغ الصبر قصة محادثتكما.

غادر هميلقار مجلس الشيوخ وبصعوبة شق طريقه عبر الجموع المبتهجة التي كانت تحتفل بخلاص المدينة. لما وصل إلى ميغارا، استقبله إبيسيد وجوبا. وفي أجنحته شاطرهما كأس خمر احتفاء بنجاحاتهم. ثم توجه إلى ماركوس أتيليوس روغولوس، الذي نزل في بعض الغرف المتجاورة. كان الرجل في زاوية غرفة خائر القوى، وسمات الفراغ والحيرة بادية عليه. لم يقف لاستقبال زائره وتصرف كما لو أنه لم يلاحظه. وبعد برهة طويلة من الصمت تجرأ ابن أدونيبعل على مخاطبة ذاك المتشبث بصمته:

ـ تحية أيها القنصل! هل إقامتك جيدة؟ أينقصك شيء؟

ـ تحية لك، هميلقار، لقد عرفتك ما إن دخلت الغرفة. أنا لم أنس لقاءنا في ريجيون وقسَمَنا الذي من المؤكد أنه وراء بقائي على قيد الحياة. لا تقلق علي، إنهم يعاملوني معاملة بالغة الإحسان.

ـ إنك تتمتع بذلك تقديراً لرتبتك. وقسَمُنا لا علاقة له بالأمر. أنا لم أكن هناك عندما بتَّ مجلس المئة والأربعة بمصيرك. إذ كنت أبحث عن جسد صديقك البائس، كايوس كورنيليوس، لأقدم له التكريم الأخير.

ـ إن عائلته ستعترف لك بهذا الجميل. ونِعم ما فعلتْ. إني لست بواثق من تصرفي على هذا النحو إن أصابتك مصيبة القتل أو أسرك جنودي ولو كنتَ ابن شيخ. مرة ثانية شكراً لاهتمامك بكايوس. لقد كان رجلاً مخلصاً وشجاعاً. والموت سيجنبه عار الأسر.

ـ ماركوس أتيليوس، إني أفهم ما تشعر به. إنك مهزوم وعليك أن تكفر عما يبدو لك أنه خطأ من جانبك. لقد خبرتُ وضعاً مشابهاً في صقلية. عندما هُزمنا في أكراغاس. صدقني إنك لست مسؤولاً عن الهزيمة. لقد كنا نفوقكم عدداً وسط أرض مكشوفة، ولم تستطع فيالقك أن تفعل شيئاً حيال فيلتنا وخيالتنا.

ـ أشكرك على كلامك المطمئِن. لكنه لا يغير شيئاً من الواقع

الحزين. لقد أخفقت روما وهي التي أوشكت على النصر بعد نزول قواتنا في رأس بون وبعد معركة أديس.

ـ لهذا السبب، عندما استقبلتَ سفراءنا، وضعتَ مطالب مستحيلة التطبيق، اللهم إلا إذا غرقنا في الخزي. لقد اعتقدتَ أننا هالكون وأظهرتَ تعنتاً. لكن لم تستطع التكهن بأن الثروة ستغير الإتجاه.

ـ إني غير نادم على اقتراح واحد من اقتراحاتي ومازلت أتمسك بها وإن بدا لك ذلك مضحكاً لكوني أسيراً بين يديك. إن حرباً طاحنة تدور بين مدينتينا منذ عشر سنين. ولا بد أن تهلك واحدة منهما، مامن خيار آخر. آمل ان تفلح روما في تجنيد فيالق جديدة وأن تأتي لنجدة حاميتنا في أسبيس قبل سحقكم لها. إن كان الثمن الواجب دفعه لأجل ذلك هو حياتي المتواضعة فإني مستعد لبذلها في سبيل مدينة جدودي.

ـ أنت تحب روما وليس بوسع أحد أن يلومك على ذلك. لكن روما بوسعها العيش دون أن تدمر قرطاجة. لقد قيل لي أنك تحنُّ إلى ضيعتك في كامبانيا. لعل من الحكمة أكثر التخلي عن أحلامكم في الغزو والاكتفاء بما لديكم الآن، والذي هو شيء لايستهان به. أتعتقد أن من الحكمة أن نقدم لأطفالنا ولأحفادنا الحرب مع فظاعاتها وآلامها، وذلك في سبيل رؤية وحيدة؟ أتظن أن بوسعك الحياة وأنت بعيد باستمرارعن أهلك، لا ترى زوجتك ولا أطفالك، بعيداً عن قضاء أمسيات حلوة فوق سطح منزلك، تتمتع بكأس خمر جيد، وتستمع لغناء الحصادين العائدين من الحقول؟

ـ هميلقار، أنت تحب الحياة كثيراً. والبذخ الذي أحطت نفسك به في هذا المنزل قد أوهن إحساسك. أنا لا أتوق إلا إلى أمر واحد: أن أجعل من مدينة رومولوس وروموس مركز امبراطورية مترامية الأطراف. يجب عليها أن تُسيطر على العالم وأن تُخضع الأمم الأخرى لحكمها.

ـ وكيف تريد التوصل إلى ذلك؟

ـ بفيالق جندنا. مدينتنا لا ينقصها عاطلون. سنجندهم وسيقاتلون وسنكافئهم بنصيب من الأرض.

ـ لكن العمل العسكري لا يغوي الناس جميعاً!

ـ نحن نرى ذلك بوضوح عندكم أيها القرطاجيون. فأنتم تفضلون اللجوء إلى المرتزقة لأن تجاركم ينفرون من القتال ونبلاءكم يفضلون تأمل تماثيلهم الجميلة وقراءة مخطوطاتهم الثمينة. لقد عهدتم إلى غرباء بالدفاع عن مدينتكم، وأنتم تؤدون لهم الجزية لتحتفظوا بمستعمراتكم في صقلية، وسردينيا، وفي بلاد الأيبيريين. أنا لا أضمن مستقبل تلك الأملاك إن واصلتم الحياة على هذا النحو.

ـ ماركوس أتيليوس روغولوس إني أقاتل في سبيل فكرة معينة عن قرطاجة. قرطاجة تلك التي أحبها والتي لأجلها مستعد لأن أضحي بنفسي. لكني لن أفعل ذلك في سبيل قرطاجة تشبه روما مدينتك، إذ لا مكان لي فيها.

ـ أنتم تمثلون الماضي ونحن المستقبل، إني مقتنع اقتناعاً عميقاً بذلك. وهذا ما يجعل اعتقالي أقل مرارة. فليفعل مجلس المئة والأربعة بي ما يشاء. ليس لديه ما ينتظره مني. ومامن شك أن من الحصافة بمكان أن تقتلوني.

ـ أنت تحت حماية المجلس وعائلة برقا. ولن يصيبك سوء مهما يكن موقفك، شرط أن تحترم عهدك بألا تهرب.

ـ أعدك بذلك.

ـ سآتي لرؤيتك قريباً. إن احتجت شيئاً فأخبرني عن طريق إبيسيد، معلمي السابق. إنه مثقف مرهف ولن تفتقرا إلى موضوع نقاش.

عرض هميلقار على أبيه حديثه مع القنصل. واستخلص أدونيبعل أن الوقت لم يحن بعد للشروع في مفاوضات مع روما،

لكن على العكس، ينبغي زيادة الضغط على العدو. وقبل ذلك فإن المهمة الأكثر إلحاحاً هي قمع ثورة غايا، ابن عم جوبا. وكان قد تم تكليف جزء من المرتزقة بقيادة إكزانثيبوس بقمع العصيان. وعندما عرض هميلقار نفسه مع جوبا لقيادتهم عارض أبوه ذلك قائلاً:

- إن الحملة ستكون قاسية لا رحمة فيها. سنعاقب بصرامة شديدة قادة التمرد ومن غير المجدي اشتراكك أنت وجوبا في هذه القضية. ذات يوم سيحكم صاحبك شعبه، وسيكون بوسع البعض آنذاك أن يلومه على إراقته دم أقربائه. فتجنيبه إتهاماً كهذا سيكون من مصلحته. أما بالنسبة إليك فاعلم جيداً أن النوميديين هم حلفاؤنا منذ زمن الملكة إليسا البعيد وأن قرطاجة ستتلاشى عندما تفقد دعمهم. لعلك، ذات يوم، تكون بحاجة إليهم، عندما تحل في مكاني أو عندما تقود جيوشنا. إنهم آنذاك سيقدمون لك مؤازرتهم ما دام ليس لديهم اعتراض ضدك.

لم يجد مرتزقة إكزانثيبوس أي مشقة في قمع الثورة، سيما وأن عدداً كبيراً من القادة النوميديين، رأوا حينما علموا بهزيمة الروم أن من الملائم أكثر التماس عفو والد جوبا. أما غايا الذي قُبض عليه مع من تبقى من رفاقه، فقد تم تعليقهم في مشنقة جماعية، في حين حُكم على القبائل التي ساندته حتى آخر لحظة بدفع غرامة باهظة بلغت ألف تالان من الفضة وعشرين ألف رأس ماشية.

عاد المرتزقة إلى قرطاجة في بداية فصل الربيع. وكان الإبحار قد استؤنف في مياه البحر الكبير. وقام القرطاجيون الذين خشوا من هجوم رومي مفاجئ لإنقاذ حاميتهم في أسبيس بإرسال أسطول صوب شواطئهم مؤلف من مئتي سفينة. تلك السفن التقت في أعلى رأس هرمايا بثلاث مئة وأربع عشرة سفينة بقيادة القنصلين ماركوس أميليوس بولوس وسرفيوس فولفيوس بيتينوس. وانتصر الروم بفضل غربانهم، واستولوا على مئة وأربع عشرة سفينة

قرطاجية أما في قرطاجة فقد توقع الناس إنزالاً جديداً للقوات المعادية في منطقة رأس بون التي كان قد عاد إليها اللاجئون لتوِّهم، لقد فضل بعضهم الرجوع على أعقابه، وأثارت عودته إلى المدينة نذير رعب. فكان على هميلقار، الذي استأنف وظائفه في قيادة حرس مجلس الشيوخ، أن يضاعف عدد دوريات الطرق لفرض النظام ولتفريق تجمهرات الغوغاء.

اتضح أن مخاوف القرطاجيين لا أساس لها. إذ أن القنصلين، اللذين كانا بالأحرى وجلينْ، اكتفيا بإجلاء من بقي على قيد الحياة من جنود حملة ماركوس أتيليوس روغولوس، المحاصَرين منذ أشهر في أديس. لكن الكثير منهم لم ير روما ثانية أبداً. فما حصل أن الموكب الطويل المؤلف من ثلاث مئة وأربع عشرة سفينة رومية ومئة وأربع عشرة سفينة غُنمت من العدو، قد تعرض لعاصفة مخيفة وسط بحر صقلية. لقد أراد القادة العسكريون، بخلاف رغبة الملاحين، اتباع المسار الأسرع، لكنه كان أيضاً المسار الأخطر. فمع هبوب الرياح في أعالي كامارين انقذفت السفن على الحشاف(*) والرؤوس الصخرية في هذا الجزء من الساحل الصقلي. ولم ينج من الكارثة إلا ثمانين سفينة فقط.

* * *

كان هميلقار في قرطاجة متضجراً. ينتظر بفارغ الصبر العودة مجدداً إلى القتال. وعندما قرر مجلس المئة والأربعة أن يرسل إلى صقلية جنرالاً يدعى حسدروبال مع مئتي سفينة ومئة وأربعين فيلاً، ناور هميلقار ليكون مع الحملة العسكرية ونجح في مبتغاه. لقد استجاب قائده الجديد لطلبه وقد رأى أن من المجدي استمالة عطف ابن شيخ. أقلع الأسطول نحو ليليبيه، الموضع القرطاجي المحصَّن الرئيسي في الجزيرة. وما كاد حسدروبال ينزل إلى البر، حتى

(*) مفردها حشفة: صخرة كبيرة قرب شاطئ البحر.

أخضع قواته إلى تدريب قاس وقام بعدة غارات على أرض العدو، مستولياً في كل مرة على غنيمة وافرة.

تخلت آنذاك العديد من المدن اليونانية عن المعسكر الرومي لتقدم ولاءها من جديد لقرطاجة. واستولى القلق على القنصلين. أتيليوس كاياتينوس وكنوس كورنيليوس سيبيون، هذا الأخير الذي استحق بسبب هزيمته لقب «أزينا» المهين. جاء القنصلان مع ثلاثمئة سفينة، لضرب الحصار على مدينة بانورموس غير المحمية على نحو كاف. وأفلح المحاصَرون في إرسال مبعوثين إلى حسدروبال طلباً للنجدة. كُلِّف هميلقار بأن ينطلق براً، على رأس عدة آلاف من الجنود المشاة والفرسان لكسر حصار المدينة. ورغم السير الحثيث الذي أجبر عليه رجاله، سامحاً لهم ببضع ساعات من الراحة فقط كل ليلة، إلا أنه لم يستطع الوصول في الوقت المناسب. كان الروم قد أنزلوا من السفن عشرات المنجنيقات وأتلفوا بقذائفها سور بانورموس. بعد انهيار البرج الكبير الواقع بالقرب من البوابة الرئيسية انفتحت ثغرة واسعة في السور. فدخل من خلالها جنود الفيالق، ناهبين «المدينة الجديدة» وآسرين أكثر من خمسة عشر ألف شخص. أما السكان الآخرين الذين تحصنوا في قلعة «المدينة القديمة»، فقد فضلوا التفاوض مع الروم على شروط استسلامهم. تاركين مواطنيهم المساكين الذين وقعوا في الأسر يواجهون قدرهم الحزين.

ووفقاً للعرف السائد فإن القنصلين أبلغا المدن الصقلية الأخرى بأن بوسعها تحرير الأسرى الفقراء عن طريق دفع فديتهم. ذات مساء، وبينما كان هميلقار في معسكره المتمركز فوق التلال المطلة على بانورموس، أُخطر بوصول تاجر كامباني يحمل تصريح أمان أعطاه إياه حسدوبال شخصياً. دخل الرجل خيمة هميلقار، كان شخصاً منفراً، ذو كرش ضخم، وملامح ماكرة. والتقط أنفاسه قبل أن يقدم نفسه:

ـ أنا ماركوس سيتامولوس. أظن أنك هميلقار برقا.

ـ أجل. ماذا تريد مني؟

ـ إن عائلتي لها شرف خدمة آل كورنيليوس منذ أجيال عدة وكنوس كورنيليوس سيبيون طلب مني الاتصال بك. لقد بحثت عنك في ليليبيه وقد أمر قائدك باصطحابي إليك بعد أن اطلع على الرسالة التي أحملها.

ـ وهل هي تتعلق بالعمليات الجارية؟

ـ نعم ولا.

ـ تبدو لي غامضاً جداً وأنا لا أحب إطلاقاً تلك التكتمات التافهة. تكلم بوضوح.

ـ هل تعرف المدعو ألكايوس؟

ـ أجل. إنه أحد مواطني بانورموس الأكثر نفوذاً.

ـ كان كذلك. إنه اليوم من ضمن سكان «المدينة الجديدة» الذين أُسروا والذين نطالب بفدية لهم.

ـ قل لي ما هو الثمن الذي تريده وسيكون لك. واعلم أني سأفتدي أيضاً بنقودي الخاصة عبيده وكل الذين يحددهم لك. سأدفع لك قطعاً كثيرة من الذهب والفضة وبوسعي أن أؤكد لك أنك ستنال ربحاً عظيماً.

ـ إن الأمر لا يتعلق بنقود. إن صديقك وعبيده وأقرباءه سيُطلق سراحهم حال رجوعي إلى بانورموس وسيُرافقون إلى خطوطكم. ليس عليك أن تدفع أدنى مبلغ من المال. إن القنصل كنوس كورنيليوس سيبيون يريد بذلك أن يشكرك على تقديمك التكريم الأخير لابن أخيه، القاضي كايوس كورنيليوس، بعد موته في المعركة.

ـ وكيف علم بهذا الأمر؟

ـ كما تعرف، من المسموح به لماركوس أتيليوس روغولوس أن يتراسل مع عائلته التي قصَّ عليها بالتفصيل بادرتك. إن عائلة كورنيليوس التي تم إخطارها بذلك لم تكن تدري كيف تعبر لك عن اعترافها بالجميل. بعد سقوط بانورموس، وعندما سُئل الأسرى عمن بوسعه افتداءهم، فإن ألكايوس ذكر اسمك، مضيفاً أنك ابن أحد أعضاء مجلس المئة والأربعة. وقد ارتأى الضابط الذي كان قد سأل ألكايوس أن من الحكمة إخطار القنصل بالأمر، وما لبث القنصل أن طلب مني أن أرتب هذا الأمر.

ـ أشكر كنوس كورنيليوس سيبيون على كرمه. إنه امرؤ شريف وأنا أقدر عالياً بادرته. يؤسفني أن يشن الطرفان حرباً، لتظهر مروءتنا. لمَ لا نقوم بذلك في زمن السلم؟

ـ سأتجنب الرد عليك. فتلك هموم تتجاوزني. سأنصرف، بإذن منك. وبعد يومين سيكون عندك أولئك الذين شملتهم بحمايتك.

بالفعل، بعد غد، مثُل موكب طويل عند بداية الخطوط العسكرية القرطاجية. يتقدمه ألكايوس، طاعن في السن، منهك. ما إن أُذن له بالدخول على هميلقار حتى عانقه وهو يبكي بهدوء:

ـ أي سعادة في أن ألقاك، يا ابن أدونيبعل! كنت أعلم أنك ستأتي لمساعدتي، أنا وأتباعي، وهذا مما خفف عني خسارتي لمنزلي. اليوم لم يعد لدي أحد سواك ولا أعلم ماذا يخبئ لي المستقبل. لا يهم. إن عبيدي هم من اليوم عبيدك وبوسعك التصرف بهم كما تشاء.

ـ ألكايوس، لقد أسررتَ إلي بأنك تريد عتقهم قبل موتك الذي آمل أن يكون بعيداً ما أمكن. بما أنك قدمتهم لي هدية فإني أعتقهم. أخطرهم بأنهم من اليوم أحرار. أما بالنسبة إليك، فلا تشغل بالك بشيء. غداً سنرحل إلى ليليبيه. ومن هناك سأبحر معك إلى قرطاجة حيث سيكون منزلنا في ميغارا في انتظارك. ستقضي فيه أيامك بسلام، هذا إلا إن فضلت البقاء في صقلية.

ـ من منفى إلى منفى، إني أفضل أن أجد نفسي في الجانب الآخر من البحر الكبير، بعيداً عن هؤلاء الروم الملاعين.

كل شيء جرى كما كان هميلقار قد توقع. ففي ليليبيه كلفه حسدروبال بأن يقدم تقريراً لمجلس المئة والأربع عن الاستيلاء على بانورموس وذهب إلى قرطاجة مع ألكايوس. لدى وصولهما إلى ميغارا كاد إبيسيد، الذي كان قد خرج إلى السطح لاستقبال الزائرين، أن يغشى عليه، عندما لمح سيده القديم:

ـ هكذا إذن، ألكايوس، جئت تبحث عني. كنت أعتقد أن هميلقار قد أعتقني.

ـ لقد أعتقك وليس لدي أي نية في أن أُشكك في قراره الحكيم. لقد كدتُ أنا نفسي أن أصبح عبداً وهذا ما فتح عيني على أشياء كثيرة. لم أعد سوى رجل عجوز. إن تلميذك القديم استضافني بكرم منه. وسأنتظر هنا الموت متحدثاً معك عن شعرائنا وفلاسفتنا.

ترك هميلقار الرجلين يتبادلان الذكريات القديمة لينضم إلى جوبا الذي لم يكن قد رآه منذ عدة أشهر. كان لقاؤهما مشبوب العاطفة. كلما كبر الأمير الشاب كلما ازداد جمالاً ووسامة. ما كان سحر شعره الأجعد، وملامح وجهه التي تمتزج فيها المراهقة بالرشد، وعضلاته القوية، أقل من سحر رصانته وإخلاصه في كل اختبار.

أدى هميلقار مهمته لدى مجلس المئة والأربعة، موضحاً لهم ظروف ونتائج سقوط بانورموس، مصراً على ضرورة تعزيز الحاميات القرطاجية. كان الشيوخ يصغون إليه في صمت عميق لمدى الأهمية التي كانوا يعلقونها على آرائه. وعندما انتهى باشر مهرا بعل الكلام:

ـ سنفعل ما تقترحه علينا، فلا يمكننا أن نفقد صقلية. هذا وأمر آخر يشغل بالنا إلى أقصى حد. لقد لوحظ أسطول رومي

يتجاوز رأس بون متجهاً، على ما يبدو، إلى جزيرة اللوتوفاجيين(*). خذ بضع مئات من الفرسان النوميديين وتوجه نحو تلك المنطقة.

ـ كما تأمر.

ـ كن حذراً. ستغادر أرض قرطاجة وستجد نفسك وسط أقوام معادية يدفع بعضها لنا الجزية، رغماً عنه. اسأل زعماءهم وأسبر مقاصدهم. لا ينبغي للروم أن يفكروا بإنشاء مستعمرة هناك.

ـ إن كان كذلك هو الحال فهم سيأتون بأعداد أكبر.

ـ أنت على حق لكن قنصليهم، كنوس سيرفيليوس كيبيو وكايوس سمبرونيوس بليسوس، هما في هذه الحملة التي كان بإمكانهما أن يعهدا بها إلى مرؤوسين. إن هذا يخفي شيئاً ما ونحن نعتمد عليك لتوضح هذه القضية بتمامها.

عند عودة هميلقار إلى ميغارا استدعى إليه جوبا لإبلاغه بأوامره وكلف هيميلك بتنظيم قافلة الطعام التي تتبع الرتل العسكري وتمونه. شارك في هذه الحملة ألف رجل. كانوا جميعاً قد انطلقوا طواعية، بعضهم تحثهم طاعة عمياء لجوبا، والبعض الآخر يدفعهم الفضول. فقد كان الناس يتهامسون بأشياء كثيرة عن تلك المناطق، إلى درجة أن أولئك أرادوا معرفة ما تخفيه تلك الإشاعات.

غادر الجند قرطاجة عن طريق «البوابة» الجديدة، وسط شبه لامبالاة عامة. منذ رحيل الروم عن أديس لم يعد سكان مدينة إليسا يعبؤون بالحرب. والعمليات العسكرية في صقلية كانت أبعد من أن تستحوذ على اهتمامهم، وهكذا آثروا الانغماس في مشاغلهم اليومية. لم يكن ابن أدونيبعل ليعترض على ذلك. فتلك اللامبالاة كانت برهان إرادة حياة شرسة لدى مواطنيه، وبرهاناً على طبع بسيط كان يحبه كثيراً. كان يعلم أن هذا الشعب المتقلب والسطحي بوسعه،

(*) حالياً اسمها جزيرة جربة.

عند الضرورة، أن يظهر حزماً وشجاعة. ولقد برهن على ذلك حينما ظل مخلصاً بعناد للغة وتقاليد صور، رغم بُعد المسافة وقدم الزمن على وصول إليسا إلى هذه الشواطئ.

استغرقت رحلة هميلقار وجنده عدة أسابيع. بعد أن جعل الفرسان إلى شمالهم رأس بون، اتخذوا طريق حدريم، الذي تحميه جيداً أسوار مكينة. توقفوا في هذه المدينة ذات الحضارة الراقية. بعد ذلك بدأ المجهول. كان خندق عميق يحدد نهاية الأرض التي تحكمها قرطاجة وحلفاؤها.

ولما كانوا في قيظ الصيف فإن الحرارة كانت ترتفع بسرعة لا تطاق. ولكي لا يرهق هميلقار رجاله ودوابهم فقد قرر أن يكون الزحف ليلاً. أما في النهار فكانوا يستريحون في ظل صخور أو تحت فيء أشجار قليلة نمت في هذه المساحات القاحلة. كان بوسع الفرسان الذين كانوا ينطلقون بأحصنتهم في العتمة أن يروا من بعيد، فوق ذرى الجبال، نيراناً متقدة استدلوا بها على مسارهم. لكن القرى التي كانوا يجتازونها بدت جميعها خاوية. كأنها أُخليت على عجل. هذا العدوان الصامت، غير المحسوس، جعل بعض النوميديين متوتري الأعصاب. لقد كانوا في حال من الاحتراس المستمر، وتوجب على جوبا، أكثر من مرة، أن يمنعهم من مغادرة الرتل، لئلا يغامروا في الجبال، ملتقطين منها بعض الأسرى.

ذات صباح لمح هميلقار من بعيد جزيرة اللوتوفاجيين، بارزة في البحر. واكتشفوا في جوف خليج هادئ وديع قرية صيادين لم يهرب سكانها لدى اقترابهم. طلب جوبا، الذي حيره تصرفهم، من مترجم أن يأخذه هو وصديقه إلى الزعيم المحلي. كان ذاك عجوزاً، نظراته ماكرة وبشرته شبيهة بالرِّق(*). سأله هميلقار:

- لا ريب أن تقدمك في السن جعلك لا تخشى الموت وأنا أتفهم

(*) الرق: ورق مشمَّع.

بقاءك في منزلك. لكن جميع جيرانكم قد ولوا هاربين ما إن لمحونا. لمَ لم تتصرفوا مثلهم؟

ـ ليس للإنسان أمر تقرير مصيره. إن ذلك يعود للخالق، تبارك اسمه. لا أريد أن أفتري على جيراننا الذين هم أناس شجعان. لقد استقبل جدودهم جدودنا استقبالاً ودياً وسمحوا لهم بأن يجدوا لأنفسهم هنا ملاذاً. لعل لديهم أسباباً وجيهة ليتصرفوا تصرفهم ذاك. إني أجهل تماماً الخصومات بين شعبيكما. نحن لا نهتم بتلك الأمور. إن أراد الله أن يختار هذا اليوم ليكون يوم موتنا فلتكن تلك مشيئته!

استدار العجوز برهة قصيرة ليتكلم مع بنت صغيرة كانت تزحف على ركبتيها. ولما أصغى هميلقار له أصابه الذهول: كان الرجل يتكلم لغة غريبة. لم تكن لغة قرطاجية لكنها تشبهها شبهاً كبيراً. ولدى مراقبته لسكان القرية الآخرين لاحظ أن أولئك لم يكونوا يشبهون النوميديين أو قبائل المنطقة الأخرى. بل على العكس، إن كان قد التقى بهم بالقرب من معبد إشمون ما كان ليعيرهم انتباهاً فشكلهم شكل قرطاجي، شرقي على أي حال. ترى هل هم ذرية سكان مستعمرات فينيقية تلاشت فوق هذه الشواطئ ونسيها الجميع؟ أراد ابن أدونيبعل أن يقف على جلية الأمر:

ـ أيها الشيخ، إنك تتكلم لغة قريبة من لغتنا. هل تنحدر من صور أو من صيدا؟

ـ لا لقد جئت من بلد كنعان، لكني أعرف اسم المدينتين اللتين ذكرتهما. لقد كان ملوكنا حلفاءهما قديماً.

ـ ألست فينيقياً؟

ـ لا، ولو لن يعجبك هذا! فأنا وأتباعي ننتمي إلى بني إسرائيل الذين يخشون ويجلُّون الله الواحد، إله آبائنا إبراهيم، وإسحق، ويعقوب.

ـ لا أفقه شيئاً مما تقول. ليس لكم إلا إله واحد! هذا مستحيل!

ـ لنا إله واحد، وما من آلهة أخرى.

ـ ما من شك أنكم تشعرون أنكم بمفردكم وأنكم بحاجة لحماية. إذ لا بد من وجود إله على الأقل لكل شيء. لا يهم، إنها مسألة تخصك وأنا لم آت إلى هنا لأناقش مثل هذه المواضيع. أتعرف كيف بوسعي الذهاب إلى جزيرة اللوتوفاجيين؟

ـ إن أذنت لي فإن رجالي سيأخذونك إليها بزوارقهم. إن رجالك سيصلون جميعاً إلى غايتهم عبر عدة رحلات. لكن عليك الانتظار نهاراً واحداً. فمن مساء اليوم وحتى مساء الغد سنمتنع عن كل عمل كما أمرنا بذلك الخالق. ولا تسعى لأن تجبرنا على انتهاك هذه الوصية الإلهية. لأننا سنؤثر الموت على انتهاكها. لكن ما إن تنتهي تلك الدعوة المقدسة حتى ننقلكم إلى الجانب الآخر من البحر. إن حفيدي سيصحبكم بنفسه وسيأخذكم إلى زعماء شعبنا الذين سيكون بوسعهم إشباع فضولك. وفي انتظار ذلك ليسترح رجالك وليسقوا خيولهم من آبارنا.

ارتأى هميلقار أن من الأفضل ألا يعارض العجوز المنوَّر. فهو من جهة أول إنسان لم يَجِد عنه وعن جنوده منذ أيام عدة. ومن جهة أخرى فإن رجاله قد أتعبهم التجوال الطويل ولا بد من أن يستعيدوا قواهم. وعلاوة على هذا وذاك لم تُشاهد مراكب رومية في هذه الأنحاء، ومامن شيء يدعوه للاستعجال. بعد أن استشار هميلقار جوبا ارتأى أن يصبر دون تذمر، وأشار إلى الفرسان بالترجل عن خيولهم. وأمرهم بأن يتصرفوا على نحو وديٍّ مع القرويين وألا يزعجوهم عند احتفالهم بعيدهم الديني.

عندما بزغ فجر ثاني يوم التقى العجوز بابن أدونيبعل. كان رجال القرية قد أبحروا بمراكبهم وكذلك ببعض الطوافات التي حملوا عليها الخيول. استغرق نقل ألف فارس مع دوابهم النهار بأكمله. بعد ذلك نصبوا معسكرهم في طرف الجزيرة، بالقرب من

مرساة صخرية صغيرة. وعُين بعض الرجال للحراسة ليلاً، وسرعان ما خيَّم الهدوء. عندما لاح الصبح انطلق هميلقار وجوبا مع نصف رجالهما لاستكشاف الأماكن المحيطة بالجزيرة والتي بدا أنها قاحلة. لكن ابن الشيخ لاحظ هنا وهناك وجود صفوف من أشجار زيتون تمت صيانتها بعناية، وكذلك حقول قمح وبساتين. كان إبراهام حفيد العجوز يعدو بفرسه إلى جانبهما وقادهما إلى قرية متواضعة يتكلم سكانها اللغة نفسها التي يتكلمها إبراهام.

اصطُحب هميلقار وجوبا إلى منزل واسع من اللِبن(*) وانحنى إبراهام باحترام عندما تقدم رجل مسن للقائهم. وعن طريق ترجمان أوضح للشابين قائلاً:

ـ هذا إبراهام الكوهين كبير قومنا. إنه يحييكم ويشكركم على تشرفكم بزيارته. إنه مستعد للإجابة على أسئلتكم.

ـ اشكره على ضيافته، قال هميلقار، وقد عزم على ألا يسأله في الحال عن الأسطول الرومي. أنا ابن أدونيبعل، أقوم بخدمة مدينتي قرطاجة التي نتكلم فيها لغة قريبة من لغتكم. لقد قيل لي أن جدودك قد جاؤوا من كنعان، وهو بلد قريب من فينيقيا(**) التي ترجع إليها أصول جدودي. كيف وصلتم إلى هذه الشواطئ؟

ـ إن شعبنا ارتكب خطايا لا تحصى. لقد عصى شرائع الرب، فعاقبنا مرسلاً إلينا الآشوريين الذين خربوا مملكة يهودا واحتلوا عاصمتنا أورشليم(***)، وحرقوا فيها المعبد الذي بناه فيما مضى سليمان أعظم ملوكنا. إن جدودنا، حسب ما أعلم، ينحدرون من جماعة صغيرة من الهاربين الذين اصطحبوا معهم أحد أبواب (هيكل سليمان) الذي أخفيناه هنا في المكان الذي نجتمع فيه لأداء الصلاة.

(*) اللِبن: طين ممزوج بالقش.

(**) فينيقيا: هي قديماً البلاد الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من مصب العاصي شمالاً حتى رأس الناقورة (لبنان) جنوباً. م.

(***) أورشليم: مدينة القدس.

إن سفنهم، السيئة التوجيه، انجرفت نحو هذه الجزيرة التي وجدنا فيها السلام. إن بعض أقربائنا الذين التقيتَ بهم يعيشون على اليابسة لكننا ننضم إليهم أثناء أعيادنا الكبرى.

ـ إنك تعجبني. نحن أيضاً منفيون من مدينتنا صور التي خربها أيضاً الآشوريون. لا تخش شيئاً من رجالي. بوسعي حتى أن أعدك بحماية قرطاجة إن شئت.

ـ إني أشكرك على ذلك لكننا نفوض أمرنا إلى إلهنا. إلهنا وحده.

ـ من المحتمل ألا يكفي إلهكم ذات يوم. فهذه الأراضي تثير مطامع كثيرة. ألم تشاهدوا مؤخراً سفناً غريبة تجول هذه الأنحاء؟

ـ إنك واسع الإطلاع جيداً. فمنذ أسبوعين اقتربت من الجزيرة ستون سفينة وعلى متنها جنود. كانوا يجهلون جهلاً مطبقاً التيارات البحرية وهم في البداية جنحوا إلى رصيف رملي قبل أن تدركهم الأمواج ثانية. فما كان أمامهم إلا الهرب سبيلاً للنجاة، ولتسهيل ذلك، ألقوا من فوق أسطح سفنهم جميع معداتهم. فما كان من قبائل الجزيرة إلا أن نهبتها. وإن كنت ترغب بوسعي أن آخذك إلى أحد رؤساء تلك القبائل لتتفحص ممتلكات هؤلاء الزوار الغرباء. لقد رأيناهم يذهبون متجهين شمالاً وأعتقد أنهم لن يعودوا عما قريب.

ـ أشكرك على كل ما قلته لي آنفاً. سأعود إلى قرطاجة. ولينعم شعبك بالرخاء وليحيا بسلام في هذه الجزيرة. اعلم أن بوسعك دوماً أن ترسل في طلبي أو طلب رجالي إن كنت في حاجة أو هددك خطر ما.

* * *

لدى عودة هميلقار إلى مدينة إليسا قدم تقريره إلى مجلس المئة والأربعة، ذاكراً وجود تلك المجموعة المثيرة للفضول من ذرية بني إسرائيل التي قدمت له المساعدة. مضى عامان طويلان ولم

يحدث شيء يُذكر في صقلية أو على شواطئ رأس بون. كان يبدو أن الخصوم من الطرفين، وقد أنهكتهم الحرب، قد تخلوا عن أخذ زمام المبادرة واكتفوا بالحفاظ على مواقعهم. لم يعاود الروم، وقد لسعتهم مغامراتهم البحرية المزعجة، إرسال أساطيلهم بعيداً، واكتفوا بتزويد حاميتهم في بانورموس بالمؤن. أما حسدروبال فإنه لم يغادر ليليبيه على الإطلاق.

في مدينة إليسا كان الغضب يدمدم. فلأجل دفع رواتب المرتزقة فُرضت ضرائب ثقيلة على التجار وسواد الشعب. هؤلاء كانوا ينفرون من دفعها طالما أنها لا تجدي نفعاً. فما جدوى الحفاظ على هذا القدر من الجنود ما دام السكان يعيشون في حمى أسوار محصنة تحصيناً قوياً؟ كان القرطاجيون قد نسوا ما يدينون به لإكزانثيبوس ولرجاله. ونسوا أن هؤلاء قد خلصوهم من خطر مميت عندما خيم العدو على مسافة بضعة ستادات من مدينتهم. واستغل بعل يتون وأصدقاؤه الوضع ليستفيدوا من مغانم ذلك الموقف. أثناء جلسة حامية في مجلس الشيوخ صوتوا لإرسال وفد إلى حسدروبال. وكُلِّف أولئك المبعوثون بأمره بالتأهب حالاً للمعركة وباسترداد بانورموس بأي وسيلة.

كان هميلقار يظن أنه من بين الضباط المرافقين للشيوخ لكنه فوجئ إذ رأى أنه لم تتم الإشارة إليه. وكاشف أباه بمرارة قائلاً:

ـ أدونيبعل، تعلم أني كثيراً ما قاتلت في صقلية وأعرف جيداً تلك الجزيرة. فلمَ نكران جهودي؟ هل ضاع فضلي بنظرك أو بنظر زملائك؟

ـ إطلاقاً. لكن بعل يتون، عدونا القديم، ناور لإقصائك وليس بوسعي أن أفعل شيئاً ضد دسائسه. الحق أقول إني أشكر بالأحرى بعل حمون على عدم إشراكك في هذه المسالة. أشعر بهاجس سيء. إن الشيوخ الذين تم اختيارهم لإبلاغ حسدروبال بأمر القتال ليس

لديهم أي خبرة بالأمور العسكرية. إنهم يريدون، وهذا طبيعي، أن يتكللوا بالمجد وسيندفعون في عمليات سيئة الإعداد. كل ذلك سيؤول، وهذا ما أخشاه، إلى مصيبة والأفضل لك أن تمكث بعيداً عن كل ذلك.

أثبتت الأحداث صواب رأي عضو مجلس المئة والأربعة. فحال وصول أعضاء الوفد إلى ليلبيه بقيادة بعل يتون ألزموا حسدروبال بالتحرك نحو بانورموس. كان أحد القنصلين الروميين قد عاد إلى إيطاليا مع نصف فيالق الجند، أما الآخر لوكيوس كيسيليوس ميتيللوس فكان قد تحصن داخل المدينة. كانت تلك فترة الحصاد ولم يفكر حتى بأن يهبَّ لنجدة حلفائه الذين خرب القرطاجيون حقولهم. لكن التفاؤل كان سائداً عند هؤلاء القرطاجيين. وأوضح حسدروبال لبعل يتون، دون جدوى، أن سلبية القنصل تخفي وراءها فخاً، ولم يرد بعل يتون أن يعرف شيئاً. لقد أمره باجتياز المضيق المؤدي إلى بانورموس، وعبور النهر الواقع على مقربة من المدينة ونشر جنوده وفق تشكيل عسكري.

أُجبر حسدروبال على التنفيذ ووضع فيلته في مقدمة جيشه. كان حسدروبال قد لاحظ أن الفيلة في المعارك السابقة كانت تبث رعباً حقيقياً وسط الروم، وكانوا يفضلون الهرب خشية أن ينتهي أمرهم بسحق تلك الحيوانات لهم. في هذه المرة، لم يكن الأمر كذلك، لقد كان لوكيوس كيسيليوس ميتيللوس قد وضع أمام الخندق المحيط ببانورموس بعض الوحدات المتنقلة من المشاة ورماة السهام. وكان عمال من ورش السلاح قد وضعوا ليلاً في الخندق آلافاً عدة من الحراب والسهام. وهكذا، عندما بدأ تقدم القرطاجيين، أمطر الروم أجساد الفيلة بالسهام والحراب. وكلما احتاجوا إلى النبال تراجعوا إلى الخندق وتزودوا منه مجدداً وعاودوا الهجوم. صحيح أن كثيراً من تلك المقذوفات لم تصب هدفها، لكن بعضها أصابه جارحاً بقسوة الحيوانات. وسرعان ما تعذرت السيطرة

عليها من الألم الذي لحق بها. وبدلاً من أن تتقدم ارتدت هاربة من النبال الموجهة نحوها وعادت نحو الجنود القرطاجيين الذين كانوا وراءها، واطئة بأقدامها المرتزقة وناشرة الرعب في صفوفهم. ولما رأى الروم ذلك خرجوا من المدينة وقاموا، وقد انتهزوا فرصة شيوع الفوضى، بأسر أكثر من ثلاثة عشر قائداً، ومئة وعشرين فيلاً وآلاف الرجال، ومن بينهم كان بعل يتون. ارتأى حسدروبال، مع الجنود الذين بقوا معه، أن من الأفضل الإنسحاب إلى ليليبيه ومن هناك أرسل سفينة ثلاثية المجاذيف لتخطر مجلس المئة والأربعة بالهزيمة التي تكبدها لتوِّه لأنه قد اضطر إلى إطاعة أوامر الشيوخ.

ما إن وصل الخبر إلى قرطاجة حتى دعا أدونيبعل إلى اجتماع المجلس. وفوجئ مفاجأة عظيمة حينما وجد أن المناقشات يسودها الهدوء وهو الذي توقع أن تكون حامية الوطيس. فها هو هيميلكون، أحد أنصار بعل يتون الأشد عُتُواً، يُظهر حذقاً كبيراً. فبعد أن طلب أن يكون أول المتكلمين خاطب زملاءه بنبرة رجل منسحق القلب:

- اسمحوا لي أن أُقرِّظ حكمة وبصيرة أدونيبعل! لقد كان يعارض هذه الحملة وحبذا لو أننا أصغينا له.

- اعلم، قال والد هميلقار، إني أفضل أن أكون على خطأ وأكون أول من يسعد بنصر حسدروبال. في الوقت الراهن لندع المجاملات. ماذا تقترح فعله؟

- إن روما وقرطاجة في حالة حرب منذ أمد طويل. والتمرد يزمجر في مدينتنا. والتجار يشتكون من خسارة تجارتهم وقد شق عليهم أكثر فأكثر جمع المال لاستئجار السفن بسبب وطأة الضرائب. أما السفن الأجنبية فقد أخذت تتحول أكثر فأكثر عن مينائنا. وهذا الوضع هو نفسه عند أعدائنا. لقد انتصروا على الأرض لكن أسطولهم غير جدير بالتغلب على أسطولنا. إن قنصلهم ماركوس أتيليوس روغولوس وضع لنا مقترحات سلام فيما مضى، وكنا على

حق في رفضها. واليوم لعل بوسعنا أن نستفيد منه، وقد تغيرت الأحوال.

ـ بأي طريقة؟

ـ إنه أسيرنا. وهو رجل شريف لم يسع إطلاقاً إلى الهرب.

ـ أعرف ذلك فقد أسكنته في منزلي في ميغارا حيث يعيش عيشة تليق به. إني لم أسمعه يتذمر إطلاقاً. في الحقيقة إنه يتجنب لقائي أنا وابني، كما لو أنه لا يود أن يدين لنا بشيء. إني أشك كثيراً بقدرتك على الحصول على أدنى كلمة منه.

ـ بعل يتون؟

ـ ماذا! وهل عندك أخباره؟ إنه أسير الروم على حد علمي.

ـ لقد استطاع صديقنا اللامع إبلاغي رسالة بوسائل أُفضُّل عدم الكلام عنها. إنه يرى أن من الحكمة إرسال وفد إلى الروم وهؤلاء، كبرهان على حسن نيتهم، قرروا إطلاق سراحه ليأتي ويشرح أمامكم اقتراحاتهم.

ـ هيميلكون، أتريد أن أكلمك بصراحة؟ ما كان على سيدك، الذي كان يتباهى في الماضي بأنه زعيم حزب السلام، أن يقدر عالياً صحبة سجّانيه. إنه وهو المخلص لطبيعته، كان لابد له أن يناور للحصول على حريته، غير عابئ بالمصير المخبأ لباقي الأسرى.

ـ أدونيبعل، إن الغضب والحسد قد أفقداك رشدك. إن بعل يتون هو أحد الأعضاء الأكثر احتراماً في هذا المجلس وهو مخلص لقرطاجة قدر إخلاصك لها. فإن هو خاطر لإبلاغنا رسالة ما فهذا لأنها تستحق الدراسة. إنك تمحضه كرهاً عظيماً، الأمر الذي يجعلني أرى أنه من الأفضل أن أطلب إرجاء كل قرار قبل وصوله.

ـ إني أدعم اقتراحك وقد يدهشك ذلك. إن زعيمك هو خصمي لكنه قرطاجي. وقبل أن نتخذ هذا الرأي أو ذاك، من الأفضل استقبال آراء الجميع وسننتظر عودته لنبدي رأينا.

بعد انقضاء بضع أسابيع رست سفينة تجارية يونانية في الميناء التجاري. نزل بعل يتون منها وقد أضعف الأسر قواه، وذهب إلى مجلس الشيوخ حيث احتفى به أصدقاؤه. عندما توقف سيلهم انضموا جميعاً إلى قاعة الاجتماعات الكبرى. كان أدونيبعل قد آثر ترك مهرا بعل يترأس المداولات. ذاك الأخير، وبلهجة صارمة، خاطب الأسير السابق:

- هل جئت لتبرر تصرفك في بانورموس؟

- وما جدوى الحديث عن تلك القضية البائسة؟ إن الأخبار التي أحملها أكثر أهمية.

- هل قررت روما عقد السلام؟

- إنها تفكر في ذلك.

- هذا أمر لا يظهر جلياً.

- وهل ينبغي أن تقال الأشياء دوماً على نحو جلي؟ بعد وقوعي في الأسر حُددت إقامتي لدى القنصل لوكيوس كيسيليوس ميتيللوس الذي تناقشت معه طويلاً. إنه رجل حكيم ونبيه. وهو شديد الفخر بالشهرة وبالنصر الذي استحقه. إن ثلاثة عشر قائداً من قادتنا ومئة فيل تم استعراضهم في المدينة إلى أن بلغوا معبد جوبيتر الكابيتولي. أنا نفسي كنت أمشي في مقدمة هذا الموكب وإني لأدعو بعل حمون أن يجنبني إذلالاً كهذا مستقبلاً.

- إن الأمر عائد إليك لتستعيد بأفعالك شرفك. إن كان القنصل شديد الاعتزاز بنصره لمَ إذن يسعى إلى السلام؟

- لأنه يريد أن يعود إليه فضل توقيع اتفاق بين مدينتينا. ويحلم أن يُنسب إليه الفضل في ذلك ولا يريد أن يدع هذا الشرف لخلفائه. إن روما أيضاً أنهكتها الحرب، وعدد أنصار السلام في مجلس شيوخها كبير. والقنصل يريد بأي ثمن إبرام معاهدة، لذا فهو مستعد لتقديم تنازلات. علينا انتهاز هذه الفرصة.

- وماذا تعرف عن مقترحاتهم؟

- لم يُقل لي شيء عن هذا الموضوع. إن مجلس الشيوخ الرومي مستعد بكل بساطة لاستقبال مبعوثينا.

- اعذرني على مقاطعتك. قال أدونيبعل. منذ فترة من الزمن كلمنا صديقك هيميلكون عن ماركوس أتيليوس روغولوس. كان يبدو أن في رأسه مخططاً لا يمكن أن تكون جاهلاً به.

- بالفعل. أقترحُ إرسال القنصل مع مبعوثينا. إنه بعيد عن عائلته منذ سنين والفرح برؤيتها مجدداً سيجعله يجد حججاً هامة لصالح السلام. في الواقع إن السلام وحده هو الذي سيرد له حريته.

- إلا إذا اغتنم عودته إلى وطنه ليغادرنا ولا يعود إلينا. سيكون ذلك رد فعل بشري من جهته وبوسعك أن تفهم هذا، أنت يا بعل يتون، الذي انتهزت أول ذريعة لتهرب من سجنك.

- أنت على حق في أن تلفت نظري إلى هذا التفصيل. أعتقد أني وجدت الحل. فقبل السماح للقنصل بالإبحار مع مبعوثينا، عليه أن يقسم أنه في حال إخفاق المحادثات فإنه سيعود ليسلم نفسه لعدالة قرطاجة. لقد قلت أنت بنفسك أنه رجل شريف فلا يمكن إذاً أن ينتهك عهداً كهذا.

- بعل يتون، أنت تثير اشمئزازي. أتطالب الآخرين بالتصرف على نحو أفضل منك! ومع ذلك سأكلم ماركوس أتيليوس روغولوس وسأُطلع مجلس المئة والأربعة على إجابته.

عاد أدونيبعل أدراجه إلى منزله في ميغارا واستدعى إليه هميلقار ليوضح له آخر تطورات الوضع. ثم ذهب الإثنان إلى أجنحة القنصل الذي ألفياه يتحدث مع إبيسيد وألكايوس. انسحب اليونانيان بإشارة من هميلقار الذي حيّا ضيفه:

- ماركوس أتيليوس روغولوس إني سعيد لرؤيتي مزاجك

الكئيب السابق قد فارقك. آمل أن صديقيَّ لم يزعجاك كثيراً بثرثراتهما.

- اطمئن، لو كان الأمر كذلك لكنت قد طردتهما. أعترف أنهما سلَّياني وهما يكلماني عن هوميروس أو أرسطو. إنهما يعرفانهما أفضل مما أعرفهما وأحياناً أخجل من جهلي.

- إن أبي، الحاضر هنا قد عهد إليه مجلس المئة والأربعة بمهمة، وسأدعكما معاً منفردين.

- أهلاً بك أدونيبعل. كان آخر لقاء بيننا منذ عدة أشهر. إني أقدِّر ضيافتك ومجاملتك التي أبديتها نحوي. لكني لم أنس أني أسير وأن ذلك سيجبرني على أكبر قدر من التحفظات. اعلم مع ذلك أني لم أقصد الإساءة إليك عندما أصررت على البقاء وحدي. إن ذلك هو العقاب الذي أستحقه على هزيمتي وهذا وحده يفسر عدم امتثالي لدعواتك المتكررة.

- أمر جيد أني أدركت ذلك، وإني غير حاقد عليك إطلاقاً. إن كنت ترغب فلنتكلم الآن عن أمور أكثر جدية. لقد أبلغتنا مدينتك أنها لا تعارض الشروع في محادثات سلام. وإن مجلس المئة والأربعة لا يعارض ذلك وقد قرر إرسال مبعوثين بشرط واحد.

- ماهو؟

- عليك أن تكون من ضمن ذلك الوفد وأن تقطع على نفسك وعداً أنه في حال إخفاق المحادثات ستعود لتستسلم إلى عدالة قرطاجة.

- إنه اقتراح ليس فيه ما يخالف الشرف.

- ماركوس أتيليوس اسمح لي بأن أكلمك رجلاً لرجل. إني أحذرك من قبول ذلك الاقتراح. إني أعرف معرفة تامة أعضاء مجلس المئة والأربعة. إنك إن لم تفلح في التأثير على أعضاء مجلسك فإنهم سيجازفون في جعلك تدفع غالياً ثمن هذا الرفض. صدقني، إنك أكثر أماناً هنا. بوسعك أن ترفض هذا الاقتراح

ورفضك لن يمنعنا من إرسال مبعوثينا إلى روما. وبوسع هؤلاء المبعوثين التفاوض لإبرام معاهدة ترد إليك حريتك وإن هم لم يتوصلوا إليها فأنت لن تتحمل نتائج ذلك.

- أدونيبعل، إني أشكرك على صراحتك. وإنها شرف لك وأنا في غاية الامتنان لمحاولتك حماية حياتي البائسة. تلك الحياة التي لم يعد لها أي أهمية في نظري منذ أسري. لذا فأنا أقبل اقتراحك.

- وسيتم كما سمعت. سيصحبك ابني حفاظاً عليك.

- لن أعرف صاحباً أفضل منه. إنه امرؤ ذو شفافية واستقامة وأثق فيه ثقة كاملة.

بعد انقضاء بضعة أيام غادرت ميغارا جماعة صغيرة ليلاً. كانت تتألف من هميلقار، جوبا، إبيسيد والقنصل الرومي. وذهب الجميع إلى الميناء العسكري حيث ركبوا متن سفينة خماسية المجاذيف وكان قد ركب فيها أيضاً مهرا بعل وشيخان آخران منحهم مجلس المئة والأربعة كامل التفويض. عند بزوغ الفجر أقلع المركب إلى عرض البحر متجهاً إلى أوستي.

بعد شهرين قفل المركب عائداً. وما إن وصل ركابه، بسماتهم المتجهمة، حتى اتجهوا إلى مبنى مجلس الشيوخ. في المدينة سرت أقاويل بأن جلسة طارئة لمجلس المئة والأربعة هي على وشك الانعقاد. وكان أنصار بعل يتون قد بثُّوا إشاعة مفادها أن السلام قد وُقِّع مع روما وأن هذا النجاح يعود إلى حكمة سيدهم. الذي ما إن اجتاز المقام حتى هتف له حشد كبير من الناس مبتهج. لا بد أنه، وهو يبادل الحشد تحيته، كان يفكر بالإجراءات التي سيتخذها عندما يعهد إليه نظراؤه بإدارة المصالح العامة كبادرة شكران له. سيكون بوسعه أخيراً التخلص من هؤلاء البرقيين الذين جاوزت صفاقتهم احتماله. لكنه سرعان ما رُدَّ إلى الواقع الكئيب عندما ولج قاعة المجلس. ففي إحدى الزوايا كان يقف القنصل ماركوس

أتيليوس روغولوس محاطاً بالحرس. وما لبث مهرا بعل الذي يقف قبالة الشيوخ الآخرين أن سأل القادم الجديد:

ـ لم نكن ننتظر إلا أنت، يا بعل يتون، لافتتاح الجلسة.

ـ إني أتلهف لسماع تقريرك، ففي المدينة لا يتكلمون إلا عن السلام الموقع مع روما. لكني ألمح هنا قنصلهم. إن الأمر غير واضح.

ـ أيها الشيوخ اللامعون إليكم ما يتوجب علي قوله لكم. طبقاً لتعليماتكم فقد أبحرنا إلى أوستي. وقامت سفينتنا الخماسية المجاذيف برحلة موفقة. وتجاه شواطئ صقلية صادفنا بضع سفن رومية وعندما اطلعوا على مهمتنا، التي أكدها لهم ماركوس أتيليوس روغولوس، رافقونا إلى أوستي، سامحين لنا بالتزود بالماء والطعام في عدة موانئ في كامبانيا.

ـ هل استقبلك مجلس الشيوخ الرومي؟ سأل بعل يتون.

ـ إنك متعجل جداً. في أوستي كان القنصل لوكيوس كيسيليوس ميتيللوس في استقبالنا وصعد إلى ظهر السفينة ليحيي زميله. ذاك الذي أعلن له أنه يمتنع عن النزول من المركب لأنه يعتبر نفسه غير جدير، وهو الأسير، بأن يطأ تراب وطنه.

ـ وماذا فعلت؟

ـ قلت للرومي بأني أحترم قرارات ماركوس أتيليوس روغولوس وأني لن ألجأ إلى أي عنف تجاهه. اقترحتُ أن نذهب إلى روما وأن يُسمح لمندوبي مجلسه الرومي بالتحادث مع ماركوس أتيليوس وجهاً لوجه عدد المرات التي يرغبون بها. واستقبلهم ذاك الأخير.

ـ وماذا قال لهم؟

ـ لقد خاطبهم بلغة الجندي وآمل أن يعرف أبنائي ذات يوم أن يحدثوا أباهم مثله. لقد أوضح لهم أن العصيان يدوي في قرطاجة

وأن المدينة قد أنهكتها الحرب. لقد حضَّهم على المقاومة، وبناء أسطول جديد، وحثهم على تجنيد فيالق جديدة ليستأنفوا الهجوم ما إن يصبح ذلك ممكناً.

- لا أستطيع أن أصدقك، قال بعل يتون. كان يعرف أنه بكلامه هذا يحكم على نفسه بالعودة إلى أسر قرطاجة إذ أنه أعطانا كلمة شرف.

- هذا هو السبب الذي لأجله تراه هنا في هذه القاعة. إنه لم يحنث بعهده. من الممكن أن يفاجئك ذلك، أنت الذي أعطيت الوعد نفسه للروم.

- كيف تجرؤ؟

- إني فقط أنقل كلامهم ولدي أسباب وجيهة لأعتقد بأن كلامهم صائب.

- هذا صحيح لكني أنا أكثر نفعاً بكثير لقرطاجة، وأنا جالس في محفلنا، من أن أتعفن في سجن.

- سأدعك لضميرك إن كان لديك ضمير، الأمر الذي بدأت أشك فيه كثيراً.

- إن سخريتك لا تسلِّيني. لقد كان لديك طرق أخرى لترد هذا القنصل الملعون عن عناده. لو كنت في مكانك لكنت دبرت له لقاء مع عائلته. لا بد أن شجاعته كانت ستفارقه، لو أنه التقى بأهله، ورأى امرأته وأطفاله.

- وهذا ما أنا فعلته. لقد جاءت امرأته وأطفاله لرؤيته على ظهر سفينتنا الخماسية. وسمح هميلقار لهم بقضاء عدة أيام وليال معه. ولما تركناهم بمفردهم، كان بوسعنا، من بعيد، أن نسمع توسلاتهم وصراخهم وآهاتهم. لقد بدا شرساً، وهو يؤكد أنه لا يستحق الحياة بقربهم طالما أن روما لم تحرز نصرها الكامل على قرطاجة.

ـ إن أحاديث هذا الأحمق لا فائدة منها. قل لنا بالأحرى ما هي شروط السلام التي اقترحها شيوخ الروم.

ـ لم يقترحوا شيئاً لأن ماركوس أتيليوس روغولوس قد أقنعهم بكلامه. إن الحرب بين مدينتينا ستستمر في الوقت الحاضر وأخاف خوفاً حقيقياً من أن تستمر وقتاً طويلاً.

ـ وكل ذلك بسبب خطأ هذا الرجل، قال بعل يتون وهو يشير إلى ماركوس أتيليوس روغولوس. ياأعضاء هذا المحفل اللامعين، أقترح أن نجتمع عما قريب لمناقشة مصيره، إذ أن تصرفه يستدعي إنزال أقسى صنوف العذاب به.

عندما التقى مجدداً بعل يتون بالحشد في المقام أوقف هتافاتهم قائلاً:

ـ أيها القرطاجيون، أصدقائي، لا تفرحوا. كنت أود أن أزف إليكم خبر السلام مع روما، لكنها لم توقِّعه بسبب مناورة خسيسة من ذاك القنصل الملعون الذي يستضيفه آل برقا. اطمئنوا، عما قريب، سينال العقاب الذي يستحقه. وإلى أن يحدث ذلك عودوا إلى بيوتكم وتوسلوا إلى آلهة مدينتنا لتمنح جيوشنا النصر.

لدى عودتهما إلى ميغارا كانت أول بادرة قام بها أدونيبعل وهميلقار هي زيارة ماركوس أتيليوس روغولوس. استقبلهما هذا الأخير وقد بدت عليه سيماء الوقار والحزن:

ـ بوسعكما أن تتصرفا بحياتي كما ترغبان. لقد رأيت أهلي واستطعت توديعهم. لم يعد هنالك شيء يربطني بهذا العالم.

ـ أنت مخطئ، رد عليه هميلقار. إني معجب بقوتك وشجاعتك اللتين بوسعهما أن تنفعا مدينتك ثانية.

ـ إني أخاف عليك على نحو خاص، أضاف أدونيبعل. إن بعل يتون، الذي جحد بقسمه جحوداً مخزياً، سيسعى إلى الانتقام منك بطريقة بالغة الوحشية. إني أعرفه جيداً وأعرف انه قادر على فعل

الأسوأ. أنت ضيفي منذ سنوات وأنا كفلتُ أمنك وحياتك. طالما أني حي فلن يصيبك أي مكروه. سأعود لرؤيتك عما قريب لأخبرك بما قررناه.

ـ تذكر يا ماركوس، قسمنا، قال هميلقار. لقد أقسمتُ أن أقدم لك المساعدة ولدي نية حازمة في أن أكون وفياً لوعدي. لم أستطع أن أقوم بهذا الوفاء تجاه البائس كايوس كورنيليوس سيبيون، لذا فعلي واجب مقدس تجاهك.

ـ إني أشكركما. كنتُ إلى يوم وقوعي في الأسر أحتقر قرطاجة وسكانها. لكن، لدى احتكاكي بكما، تعلمت أن أراجع آرائي، وإني حريص على أن أقول لكما أني لا أنوي الحنث بعهدي. لقد وعدتُ بألا أهرب من مسكنكما، وحتى لو قدمتما لي فرصة الهرب فإني لن أتجه ثانية إلى روما. إن حنث عهدي سيحمل الشؤم إلى مدينتي ولا أريد ان أكون سبباً في نوائبها.

تناقش الرجلان البرقيان إلى وقت متأخر من الليل. ترى ماذا يفعلان إزاء ضيفهما المربك؟ كان الرجل عنيداً وأي حجة لم يكن بوسعها أن تزحزحه. اقترح هميلقار على أبيه تأجيل قرارهما بضعة أيام ليتسنى لهما دراسة جميع الإمكانيات. ذات مساء عاد أدونيبعل من مجلس الشيوخ، بعد انعقاد جلسة طويلة، وقد بدت على وجهه سيماء الهمّ.

ـ هميلقار، علينا التصرف بأقصى سرعة. إن ذاك الكلب بعل يتون قد قرر أن يطلب من مجلس المئة والأربعة الحكم بالإعدام على روغولوس. إنه يخبئ له أقسى أنواع العذاب: يريد أن يميته ببطء شديد وذلك بمنعه من النوم. كنت قد رأيت سابقاً هذا العقاب ينزل بالخونة. صدقني، رغم أنهم كانوا مدانين بأسوأ الأفعال، إلا أن آلامهم كانت تفوق كثيراً أخطاءهم ولا أريد أن يقاسي صديقنا التعس ذلك. ينبغي أن يرحل هذا المساء.

ـ لن يرضى بالرحيل.

ـ سيرفض إن نحن عرضنا عليه الرحيل كهروب. لكنه قد يقبل به إن اطمأن إلى أنه سيبقى أسيرنا بالوعد الذي قطعه.

ـ لا نستطيع أن نخبئه في ضيعة من ضياعنا. فرجال بعل يتون سينقبون الأماكن، ولا بد أن يكون هنالك ثمة عبد يخون مقابل الحصول على حريته.

ـ إني لا أبصر أي حل.

ـ لقد كلمتني عن تلك القبيلة المثيرة للفضول التي التقيتَ بها في جزيرة اللوتوفاجيين. لعلها تقبل استقبال القنصل. سنوضح له أننا عهدنا به إلى حراسة تلك القبيلة وأنه مايزال أسيرنا. إن ما سيفعله لاحقاً لم يعد يعنينا.

ـ إن فكرتك ذكية، لكن من الذي سيصحبه؟ لا أستطيع أنا ولا جوبا مغادرة قرطاجة مخافة إثارة الشكوك.

ـ لقد استدعيتُ هيميلك، مشرف أراضينا المخلص. إنه ينتظر في الفناء وإني على ثقة من أنه سيقبل القيام بتلك الرحلة الطويلة. لقد سبق وأن كلمته عنها وبدا لي أنه لا يعارض ذلك.

دخل المشرف الغرفة التي كان فيها أدونيبعل وهميلقار:

ـ هيميلك، قال الشيخ، هل فكرتَ في اقتراحي؟

ـ أجل وإني أقبله بشرط واحد.

ـ ما هو؟

ـ عندي ابن يحلم أن يكون جندياً مثل ابنك. سيكون بعد بضع سنين، في عمر يؤهله لحمل السلاح. إن أمنيتي الأغلى على قلبي أن يتخذه هميلقار مرافقاً له.

ـ أقسم لك بملقارت أن ذلك سيحدث.

ـ شكراً. قل لي ماذا علي أن أفعل؟

ـ ستسافر هذا المساء مع مترجم وبعض الفرسان النوميديين

إلى جزيرة اللوتوفاجيين. هنالك ستقدم نفسك لرجل يدعى إبراهام الكوهين وستعهد إليه بماركوس أتيليوس روغولوس. عد بعد ذلك سراً إلى قرطاجة. وإن أمكنك حاول أن تجد سفينة في حدريم بحيث يظن الناس أنك عائد من رحلة طويلة في البحر. وعند وصولك ستقدم لي تقريراً عن مهمتك.

ذهب هميلقار على عجل لرؤية القنصل الرومي وشرح له الحيلة التي وضعها أبوه. أخذ القنصل يقسم مراراً وتكراراً أنه سيظل أسير آل برقا ومدينة إليسا. هدّأ ابن أدونيبعل مخاوفه، مؤكداً أن الإجراء يهدف فقط لإبعاده مؤقتاً عن قرطاجة وعن حنق بعل يتون. وأنه في المستقبل، عندما تهدأ النفوس، سيعود إلى ميغارا. ومن يدري، ربما في أثناء ذلك يتم توقيع سلام مع روما!

ظل هيميلك غائباً لوقت طويل. وذات يوم وبينما كان هميلقار يتنزه على أرصفة الميناء التجاري فوجئ برؤيته ينزل من إحدى السفن اليونانية. أخذه جانباً ليسأله:

ـ هل وصل القنصل إلى المكان المقصود؟

ـ أجل. لقد رأيت صديقك العجوز إبراهام، ونقلتُ إليه رسالتك.

ـ وماذا قال لك؟

ـ وعد بأن يحافظ على ماركوس أتيليوس روغولوس وكان سيبرُّ بوعده لولا أن...

ـ لولا أن ماذا؟

ـ لولا أن ذاك الرومي اللعين، وقد اقتنص لحظة عدم انتباه مني، لينقض على سيف أحد الفرسان النوميديين ويقتل نفسه. وعلى الرغم من العناية التي بُذلت له بذلاً سخياً فإنه مات بعد بضع ساعات.

ـ هل أُقيم له حفل مأتم؟

ـ لا تقلق. لقد أمر إبراهام الكوهين بدفنه تحت الأرض مباشرة

كما هو متبع عند شعبه. وسمعته يتمتم بصلوات، بلغة تشبه لغتنا. ولقد سألني أيضاً عن القنصل. لقد أراد معرفة من أين جاء ومن هم قومه. وعن طريق مترجمنا حاولت أن أُشبع فضوله. هنالك أمر أذهلني.

- وما هو؟

- عندما أوضحت له ما هي روما ولمَ صديقك كان قد رفض بعناد الهرب، قال لي: «إني لا أحب هؤلاء الناس. إنهم بالغو القسوة ويجهلون كل ملذات الحياة. يريدون التغلب على القدر بدلاً من تفويض أمرهم لحكمة العلي القدير. أخاف ذات يوم أن يكونوا سبب مصائب كثيرة لشعبي وشعبك». إني أنقل إليك هذه الرسالة كما عُهد بها إلي.

- لقد أدركتُ تماماً مغزاها. شكراً، هيميلك، لتأديتك هذه المهمة الحساسة وكن واثقاً من أني سأتذكر الوعد الذي قُطع لك.

الفصل التاسع

في قرطاجة أثار اختفاء ماركوس أتيليوس روغولوس الغامض استفهامات كثيرة وجدلاً كلامياً. إن بعل يتون الذي اتهم أدونيبعل وهميلقار بمعرفتهما بأمر اختفائه طالب باجتماع عاجل لمجلس المئة والأربعة. وأمام نظرائه وجَّه اتهاماً صريحاً لآل برقا، وختم خطابه بهذه الكلمات:

- إن القنصل الرومي قد انتهك على نحو مخز الوعد الذي كان قد قطعه لنا وأقترح أن يُعلن اسمه خارجاً عن القانون في أراضي مدينتنا كافة. وأنا أقول، إن كل من يلتقي به سيكون له حق قتله، وواجب عليه ذلك. هذا هو التصرف المناسب إزاء ناكثي العهد من هذا الجنس. وإن منحته مدينة أجنبية الملجأ فبوسعنا المطالبة بتسليمنا إياه في الحال.

- لقد تكلم بعل يتون بحكمة، قال أدونيبعل. إني لا أفهم موقف ماركوس أتيليوس روغولوس. إن إخلاصه لعهده دفعه إلى العودة مستسلماً للعدالة في حين كان بوسعه البقاء في روما. بعل يتون، إني أخشى خشية عميقة أن يكون رعبه من تصريحك الذي وصفت فيه العذاب الذي سيحل به قد جعله ببساطة يتصرف كوطنيّ، وهو شعور يبدو أنك لا تفهمه. ترى ما هي خطيئته؟ ألأنه حثَّ مواطنيه على مواصلة الحرب؟ طبعاً، ألن يتصرف كل منا على هذا النحو إن وجد نفسه في وضع مماثل؟ بعل يتون، إنك بطلبك معاقبته نقضت أنت بنفسك، ميثاقاً مختوماً بيننا وبينه.

ـ يجب البحث عنه دون هوادة وقتله ككلب. هذا هو المصير الذي يستحقه جميع حانثي العهد على هذه الأرض.

ـ وهل أنت حقاً واثق من ذلك؟

ـ أجل وهذا لا يقبل أي اعتراض.

ـ إني معجب ببطولتك وشجاعتك.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ ماذا سنفعل إن طالبت بك روما؟ لقد كنت قد أعطيت عهداً بأنك ستعود إلى لوكيوس كيسيليوس ميتيللوس إن لم تنجح محادثات السلام وأنت لم تفعل ذلك، محتجاً بأن مكانك هنا بيننا. إن ماركوس أتيليوس روغولوس لم يفعل شيئاً سوى تقليدك، وهذه المرة أيضاً، يتفوق التلميذ على أستاذه.

دوت قهقهات ضحك قوية في أرجاء المجلس وبعل يتون، وبسحنة المغلوب، أشار إلى أن المناقشة قد انتهت.

عندما قابل بعل يتون أدونيبعل عند الخروج من مجلس الشيوخ أخذه الشيخ جانباً:

ـ لقد سخرت مني على نحو قاس ولن أغفر لك ذلك.

ـ أنت تخرِّف. لقد أنقذتُ، بالرغم مني، شرفك. من بوسعه أن يلومك على تصرفك ما دام عدونا نفسه يستحق الملامة؟ لو أن القنصل لم يهرب لكانت الفرصة سانحة أمام أعدائنا لإذلالك بتهكماتهم. من اليوم فصاعداً بوسعك أن ترد عليهم وأنت مرفوع الرأس، طالما أن القنصل قد برأك من خطيئتك.

ـ ما لا أحبه فيكم، آل برقا، هو عجرفتكم وأسلوبكم الذي تجعلون فيه الحق دوماً إلى جانبكم. ذات يوم سينتهي أمر عجرفتكم وطريقتكم إلى جعلكم غير محتملين بالنسبة لمواطني مدينتنا الذين

يفضلون استراحة كئيبة من المغامرات الحربية. الآن قد تعادل أحدنا تجاه الاخر.

ـ هل بوسعي إذن أن أنقل أخبارك؟

ـ لا تجعل نفسك أحمق من حمار. أنا أعرف أنك تحزر ما أنا أُلمح إليه. لكن اعلم أنه في أول فرصة سانحة سأنتقم.

لم ير أدونيبعل أن من المثمر نقل تلك المحادثة إلى ابنه. فمهمات أخرى، أكثر إلحاحاً، تنتظره. كانت الحرب قد استؤنفت في صقلية. وكانت روما، بعد انتصار لوكيوس كيسيليوس ميتيللوس قد أوفدت على جناح السرعة إلى الجزيرة فيالق جديدة وأسطولاً ضرب حصاراً على أسوار ليليبيه، المكان المحصن القرطاجي الرئيسي في الجزيرة. كانت حامية الموقع بإمرة هيميلكون الذي كان قد تحصن في المدينة مع عشرة آلاف من المرتزقة اليونانيين والغاليين. وطبقاً لعادة الروم فقد أقاموا معسكرهم داخل الأراضي، وأحاطوا المدينة بخندق وسياج شائك وحاصروا محاصرة كاملة المواقع القرطاجية. كان القنصل بوبليوس كلوديوس بولشر قد جلب معه أعداداً كبيرة من آلات الحصار التي وجهت ضربات قاسية لأسوار ليليبيه. كما أمر أيضاً جنوداً مدربين تدريباً خاصاً بحفر سراديب تحت الأرض، الأمر الذي سبب انهيار ستة أبراج في المكان المسوَّر.

داخل القلعة كانت الروح المعنوية للجنود في أدنى مستوياتها، لا سيما لدى المرتزقة اليونانيين. واجتمع بعض ضباطهم في سرِّية كبيرة لمناقشة إمكانية تسليم الموقع إلى المحاصِرين. كان ذلك أمراً يصعب اتخاذه. لم يكن رجالهم قد استلموا تمام رواتبهم وكان بوسع الروم أن يغروهم بوعود مبالغ فيها قبل أن يتخلوا عنهم ما إن تسقط المدينة. لكن، إن أُبرمت معاهدة سلام بين روما وقرطاجة، فإن أحد بنودها سينص حتماً على تسليم الجنود الهاربين إلى العدو. لا ريب أن عليهم إذاً بذل وقت طويل لإنضاج خيارهم. في آخر المطاف وصل اثنان منهما، مستفيدين من الظلام، إلى الخطوط

الرومية لعرض خدماتهما على القنصل. كانوا قد اتفقوا مع المتواطئين معهم الماكثين في المدينة على الالتقاء بعد مساءيْن، أسفل البرج الثامن للسور. فإن أُوقد مشعل وحُرِّك خمس مرات، فهذا يعني أن اتفاقاً قد تم ويُفتح حينذاك باب السر(*) للسماح بدخول جنود الفيالق.

هذا ما علمه فيما بعد أدونيبعل، المكلَّف بمنح إكرامية مجزية إلى أليكسون، وهو ضابط يوناني، من أصل أشيني، وكان ذاك قد اطلع على المؤامرة عن طريق أحد مواطنيه، لكنه وشى بالمتآمرين إلى القرطاجيين، آملاً أن يكافأ على دليل إخلاصه العظيم ذاك تجاه أسياده. ما إن أُخطر القادة القرطاجيون بالدسيسة حتى أمروا بجمع المرتزقة اليونانيين والغاليين وأقسموا لهم بأن رواتبهم ستتم مضاعفتها جزاء إخلاصهم. كان هنيبعل هو الأكثر بلاغة. لم يكن جنوده يجهلون أنه كانت لديه، هو أكثر من غيره، بواعث للحقد على قرطاجة وعلى قضاتها. وهكذا استقبلوا استقبالاً حسناً، خطبته الملتهبة، وأمطروا، وقد حمستهم قدوته، بالسهام رفاقهم عندما قدم أولئك كما هو متفق عليه إلى باب السر.

تلك الأحداث لم تدر بها قرطاجة عندما قرر مجلس المئة والأربعة إرسال أسطول نجدة إلى ليليبيه بإمرة أديربعل وشخص اسمه هنيبعل، ابن هميلقار، القائد السابق للموضع المحصَّن في ليليبيه، بصحبة عشرة آلاف رجل. وكان هذان القائدان اللذان قد تلقيا أمراً بكسر الحصار الرومي قد فعلا ذلك بجرأة كبيرة. لما أصبحا على مرمى من القلعة نشرا أشرعتهما وأقلعا إلى أن وصلا إلى داخل الميناء حيث لم تجرؤ السفن الرومية على المخاطرة خوفاً من وقوعها في فخ. على الأسوار كان رجال هيميلكون يتتبعون بقلق تلك التحركات، وأطلقوا صيحات فرح عندما بدأت القوات المرسلة لنجدتهم بالنزول من السفن. خيَّم حبور حقيقي على ليليبيه لأيام

(*) باب السر: باب خفي للنجاة في حصن أو قلعة.

وليال عدة. وبعد التشاور مع مساعديه قرر هيميلكون أن ينتقل إلى الهجوم مع كامل حاميته. وهكذا خرج أكثر من عشرين ألف رجل من الموقع المسور وألقوا بأنفسهم على خطوط الروم، حارقين آلات الحصار وذابحين المدافعين عنها دون شفقة. كان لا بد للقنصل بوبليوس كلوديوس بولشر المستنفر أن يرسل فيالق الاحتياط ليرد المهاجمين الذين فقدوا ربع قواتهم، أي حوالى خمسة آلاف رجل.

في قرطاجة قام مجلس المئة والأربعة على وجه السرعة، وقد استبد به القلق لعدم ورود أخبار عن ليليبيه، بإرسال سفينة خماسية المجاذيف، بإمرة هنيبعل الروديان، وهو من أب قرطاجي وأم يونانية. وكان هميلقار قد حصل من أبيه على الإذن بمرافقة هذا البحار ذي الشخصية اللامعة والتي يمجد الناس انتصاراتها الماضية على أرصفة الميناء التجاري. ولم يخب أمل هميلقار في قائده الجديد. فذاك كان قد أمضى حياته يمخر عباب البحر الكبير وقد عرف أدنى خباياه. وكان قد ذهب مراراً إلى ليليبيه ويعرف أن الأشقياء كانوا يسدون مدخل الخليج، مانعين السفن من الانتشار انتشاراً عسكريا، وكذلك من التحرك بسهولة. وكان أيضاً هو الوحيد الذي يعرف مدخلاً خفياً يمكن من خلاله دخول وخروج الميناء رغماً عن العدو. وهكذا استطاع أن يخدع بسهولة تيقظ السفن الرومية ويدخل الميناء.

استطاع هميلقار وهو في مكانه أن يجمع حشداً من المعلومات حول الوضع العسكري وانتظر بفارغ الصبر عرضها أمام مجلس المئة والأربعة. لكن كان لا بد له من التمكن من مغادرة ليليبيه ثانية! ولما استبد الحنق بالروم من الحيلة التي قام بها هنيبعل الروديان أمامهم حشدوا عشر سفن مقابل المدينة، عازمين على صدم سفن عدوهم ما إن يحاول بلوغ عرض البحر. ووسط مفاجأة عظيمة بدأ هنيبعل الروديان بقيادة السفينة في الميناء، ملزماً مجذفيه على القيام بذهاب وإياب متواصلين بين نقطتين. إن الروم الذين كانوا

يراقبونه سرعان ما ضاقوا ذرعاً بتحريك سفنهم تبعاً لسفينة خصمهم، وإذ ظنوا أنه لا يرمي إلى شيء، أمروا برفع المجاذيف وسمحوا للمجذفين بالصعود إلى سطح السفينة. في تلك اللحظة بالذات هب هواء بحري أخذ يزداد شيئاً فشيئاً. وبلمح البصر رفع هنيبعل الروديان شراعه وانطلق إلى عرض البحر. كان قد أصبح بعيداً عندما استطاع الروم بالكاد أن يتقدموا بسفنهم. غمز القائد الماكر هميلقار بعينه، كان جريئاً إلى حد أنه أوقف سفينته ورفع مجاذيفها، كما لو أنه يدعو مطارديه إلى الاستعجال للحاق به. ومن بعيد، ارتفع صياح عظيم من فوق أسوار ليليبيه. كان الجنود المرتزقة يحيون العمل الباهر الذي قامت به السفينة القرطاجية التي أخذت تختفي عن أنظارهم.

لم تكن الريح التي هبت هواءً بحرياً عابراً. لقد ظلت تهب بقوة غير عادية لساعات عدة، مسببة تساقط الكثير من المنجنيقات وأبراج الحصار. استفاد هيميلكون من تلك الريح ليحاول الخروج مع كامل قواته تقريباً. اجتاز المرتزقة الخندق وأضرموا بمشاعلهم النار بالقذافات والمنجنيقات. كانت الريح تسهل مهمتهم. وكانت العاصفة من القوة بحيث أن السهام التي رماها الروم كانت ترتد عليهم، في حين أن سهام المرتزقة كانت تُصيب هدفها بسرعة لا تُصدق. بعد بضع ساعات عاد المهاجمون إلى المدينة وشرعوا من جديد بإعادة بناء الأسوار، بينما اكتفى جنود الفيالق الموجودون في معسكرهم بالحفاظ على حصار المدينة.

لدى عودة هميلقار إلى قرطاجة، أُتيحت له الفرصة مرات عدة لمدح هنيبعل الروديان، وبخاصة أمام جوبا الذي سره لقاء هميلقار مجدداً. عزم الشابان، غير عابئين، على القيام بنزهة صيد في منطقة سيكا عند أوائل الصيف، وكانا يستمتعان بهذا الهروب المبكِّر. ذات مساء، ولدى عودته إلى ميغارا، بحث ابن أدونيبعل دون جدوى عن صديقه. وفي وقت متأخر من الليل ذهب إلى أبيه وقال:

ـ لقد اختفى جوبا.

ـ أعرف ذلك.

ـ ما معنى ما تقول؟

ـ لقد أرسلته إلى أبيه بعد أن علم بنبأ زواجك.

ـ نبأ زواجي؟

ـ أجل. تزوجتَ ابنة هنيبعل الرشيد، ذاك القائد البحري الذي أقسمتَ أن يحمل ابنك اسمه. وسيقام احتفال الزواج غداً.

ـ وجوبا؟

ـ حان الوقت لأن تتصرف كراشد. إن ذلك الحب العابر لم يعد يليق بعمرك. لقد أوضحتُ ذلك لصديقك وقلت له أن أبيه قد طالب به لتعزيز سلطة أسرتهما الحاكمة على شعبه. لم تكن تلك إلا كذبة بيضاء. فكثيراً ما رجاني الملك العجوز أن أقدم له المساعدة.

ـ لم يكن لك الحق في ذلك التصرف. وسيظن جوبا أني قد خنته. وسيكرهني كرهاً شديداً يمكن أن ينعكس بالسوء على مدينتنا.

ـ لا يهم. غداً ستتزوج تلك التي هيأتها لك والتي ستهبني أحفاداً أنا بحاجة إليهم لأطمئن على خلود نسبنا.

ـ أبي، إن احترام الإبن يأمرني أن أطيعك ولن أخون الثقة التي وضعتها فيَّ حتى وإن فاض قلبي حزناً. سأتزوج ابنة هنيبعل الرشيد. أما حبها فهذا أمر آخر.

ـ ستنتظرك مفاجأة سارة.

تم الزواج في حميمية، فعائلة العروس كانت ما تزال تحمل عبء الخزي الذي جلبه لها الموت الشائن لسيدها وكانت قد أقسمت على الامتناع عن جميع المباهج إلى أن يُرد الاعتبار لها. دهش هميلقار بسحر وجمال ونعومة زوجته، التي يراها للمرة الأولى والتي تصغره بعشر سنين. لما دخلا غرفتهما كانت أوصالها

ترتجف، متكهنة بما سيجري، جاهلة أي تصرف تتخذ. لكن ابن أدونيبعل طمأنها قائلاً:

ـ اعلمي أني أنا أيضاً قليل التهيؤ مثلك لهذا الزواج. لقد أراده أبي وسأفعل كل شيء لأجعلك سعيدة. لكني بالكاد أعرفك وأخشى أن أجرحك أو أهينك. إني جندي ولا أخاف أن أتلقى الجراح في المعركة لكن ما من أحد علمني كيف أتصرف مع امرأة.

ـ إني بدءاً من اليوم خادمتك الوضيعة وعليَّ احترامك وطاعتك.

ـ ليس على هذا النحو ينبغي أن تتصرف وتتكلم امرأة من آل برقا. لديك الحقوق نفسها التي لي. لنعط أنفسنا وقتاً حتى يتعرف كل منا على الآخر. وعندما يستيقظ الحب بيننا حينذاك ستصبحين امرأتي. في تلك اللحظة يكفيك أن تضعي على ثوبك هذا المشبك الذهبي الذي أقدمه لك. إني أملك مثله، وإذا رأيتني أعلقه فوق ردائي فلن نكون بحاجة حينذاك إلى كلمات لنتفاهم. الآن لنتصنَّع سلوكنا أمام عائلتينا. لا ينبغي أن تعرفا شيئاً عن اتفاقنا. سيكون ذلك سر بيننا. أرى أنك تبتسمين. هذه إشارة طيبة. من اليوم فصاعداً نحن متواطئان معاً.

* * *

كان هميلقار قد تخلى عن قيادة حرس مجلس الشيوخ. وكان شقيق زوجته، هنيبعل، قد استدعاه إليه في مركز قيادة البحرية ليراقبه من جهة وليشركه عن قرب في العمليات الجارية في صقلية. وكان أحد قراراتهما الأولى إعطاء أمر لأديربعل بالرسو مع قسم من أسطوله في دريبان(*) على بعد مئة وعشرين ستاداً من ليليبيه. وكان جواسيس قد أخبروا هنيبعل وهميلقار بمشاريع هجوم ضد تلك المدينة التي كاد لها كيداً بوبليوس كلوديوس بولشر، القنصل الجديد. وهو رجل مفعم بالخيلاء، يتبجح مسروراً بعبقريته

(*) هي اليوم Trapani.

العسكرية. وكان، بفضل عائلته، ذات النفوذ القوي في روما، قد حصل من مجلس الشيوخ على موافقة بإرسال فيالق جديدة. تلك الفيالق، وبعد نزولها في ميسين، وصلت مشياً إلى المعسكر المنفصل عن ليليبيه. وحال وصولها استدعى القنصل إليه جمعاً خليطاً من جنوده القدماء، والمجندين الجدد، وأعلن لهم أنه ينوي الانتقال عما قريب إلى الهجوم. ولتشجيعهم أغراهم بغنيمة وافرة تمكنهم من تأمين ثروة لعائلاتهم.

لقد كان عدد كبير من جنود الفيالق الذين سحرهم هذا الخطاب قد تطوعوا للخدمة على ظهر السفن. أبحر هؤلاء في بهمة الليل. وعند أول خيوط الفجر كانوا على مرمى البصر من دريبان، مستعدين للانقضاض على الاسطول القرطاجي. وبحسب العُرف أراد بوبليوس كلوديوس بولشر استشارة أفراخ الدجاج المقدس المحمولة على ظهر سفينته. فإن هي أكلت الحب المقدم لها فذلك يعني وعداً قاطعاً بالنصر. وإن لم تأكله فهذا شؤم وكان أشد المتطيرين يرفضون في تلك الظروف بدء القتال. وما حصل أن الدواجن حينما أُزقمت الطعام امتنعت عن ابتلاع الزاد المهيأ لها. فقام القنصل، وقد استشاط غضباً، بإلقائها في البحر وهو يصيح بفظاظة: «إن لم تُرد الأكل، فلتشرب!» أما الجنود فبدل من أن يأخذوا على محمل الجد ذاك التحذير أخذوا يقهقهون ويهتفون لقائدهم الذي نفخت فيهم جرأته الكافرة مزيداً من الشجاعة.

والحق يقال، إن الروم كانوا يتمتعون بميزة، وإن نظرية على الأقل. فقد كان البحارة القرطاجيون على اليابسة وكان المرتزقة قد تفرقوا في المدينة ليقصفوا(*) فيها. لكن أديربعل حينما لمح أسطول العدو لم يفقد صوابه، بل استدعى إليه ضباطه وأمرهم أن يجمعوا في هدوء كبير رجالهم. إذ لا ينبغي أن يعرف العدو، وهو الذي مازال بعيد جداً عن ملاحظة ما يجري في المدينة، بأن الجنود قد تم

(*) قصف، قصوف: شراهة في الأكل والشرب.

إنذارهم. عندما تم تجميع جميع الجنود والبحارة أوضح لهم أديربعل مخططه:

ـ يظن بوبليوس كلوديوس بولشر أننا نيام. لا ينبغي أبداً أن ينتبه إلى عكس ذلك، ستصعدون إلى السفن وتختبئون في العنابر. إن الروم سيتابعون تقدمهم وسيدخلون الميناء إلى يسارنا. سندعهم يدلفون وعند إشارة مني ستقلع جميع سفننا متجهة إلى عرض البحر لتنتشر انتشاراً عسكرياً. لن يكون لدى الروم الوقت للتراجع وسيحتم عليهم المتابعة إلى أرصفة الميناء قبل أن يستطيعوا المناورة. صدقوني، إن أنتم اتبعتم تعليماتي، فإن النصر سيكون حليفنا.

كان رأي أديربعل محقاً. فقد وقعت السفن الرومية في الفخ الذي نُصب لها. فما كادت أول سفينتين تدخلان الميناء حتى اتجهت سفن أديربعل إلى عرض البحر مجذفة تجذيفاً قوياً. وفي العنابر كان بعض الجنود يجلسون إلى جانب المجذفين لمساعدتهم على تحريك مجاذيفهم الثقيلة وعلى الانطلاق بأقصى سرعة. كان لا بد لبوبليوس كلوديوس بولشر، وقد استبد به الغضب، أن يأمر أسطوله بالعودة على أعقابه. لكن الحيز المكاني كان من الضيق بحيث أن عدداً كبيراً من السفن اصطدمت ببعضها وغرقت. وسبح بحارتها إلى الشاطئ حيث قام الجنود القرطاجيون الذين بقوا في المدينة بأسرهم. أما السفن الأخرى فقد وجدت نفسها قبالة أسطول أديربعل ودُفعت دفعاً نحو الشاطئ الصخري شمال دريبان حيث تحطمت. واستطاع القنصل الهرب مع ثلاثين سفينة، تاركاً للعدو ثلاثاً وتسعين سفينة ثلاثية وخماسية المجاذيف.

انسحب بوبليوس كلوديوس بولشر إلى بانورموس ليعيد بناء قواته وليستدعي زميله، لوكيوس جونيوس بولوس. ذاك الذي كان قد حشد في ريجيون أسطولاً من مئة وعشرين سفينة واتجه إلى سيراكوزة حيث قدم له هييرون كل التموين الضروري. ومن هناك

انطلق باحثاً عن الأسطول القرطاجي الذي أمل أن يجده في أعالي دريبان. لم يصغ لوكيوس جونيوس بولوس، وهو القليل الخبرة بأمور البحر، إلى المرشدين الذين كانوا قد حذروه من مخاطر العواصف. في الواقع كان فصل الشتاء يقترب وعادة ماكانت تسبقه ضربات ريح عنيفة يخشاها البحارة المحنكون. وهذا بالفعل ما حدث. فبينما كان الأسطولان يستعدان للمواجهة هبت عاصفة عنيفة. كان لدى أديربعل وقتٍ كافٍ ليلوذ بملجأ متجاوزاً رأس باشينوس(*). أما سفن القنصل، ولعدم تمكنها من الالتجاء إلى ميناء صديق، فقد غرقت أو انقذفت بقوة إلى الساحل، وسرعان ما أصبحت خليطاً من جثث وحطام. في بضع أسابيع كانت روما قد فقدت قوام أسطولها ولم يكن ذلك إلا بداية مصائبها.

وصل لوكيوس جونيوس بولوس، بعد أن أفلت من غضب الأمواج، إلى جبل إريكس(**)، شمال بانورموس. وفوق هذا الجبل كان يوجد أغنى معبد في الجزيرة، وقد شيد تكريماً للإلهة أفروديت، التي يسميها الروم بفينوس ويسميها القرطاجيون بعشتار. بالنسبة للقرطاجيين فإن قرار القنصل شكَّل إهانة وتحدياً. إن فينوس في الواقع كانت أم إنياس، الأمير الطروادي، الذي رسا في الماضي على شواطئ قرطاجة وفتن الملكة إليسا قبل أن يتخلى عنها ليذهب لتأسيس مدينة في اللاتيوم، وينجب ذرية ينحدر منها رومولوس وروموس، مؤسسا روما. لقد أراد القنصل باحتلاله ذاك المعبد أن يذكر القرطاجيين على نحو ساخر بتفوق مدينته على مدينتهم وأن يؤجج الجراح القديمة الغابرة.

لم يساور أديربعل أدنى شك في ذلك، وقرر أن يثأر لتلك الإهانة بالدم. قام على عجل بجمع عدة آلاف من الرجال، الذين نزلوا من سفنهم ليلاً واستولوا على جبل إريكس، وتم أسر القنصل أيضاً الذي

(*) وهو رأس يقع بالقرب من تراباني Trapani.

(**) وهو اليوم موقع مدينة إريس Erice.

أُخذ على حين غرة وهو نائم وأُرسل والقيود في قدميه إلى قرطاجة. إن الإعلان عن هذه المصيبة الإضافية أثار فاتحة رعب في روما. أمر مجلس الشيوخ بوبليوس كلوديوس بولشر أن يُسمي طاغية يُكلَّف بممارسة القيادة العليا. إن القنصل الذي لم تكشف الهزيمة عن غشاوة بصره اختار لهذه المهمة أحد كتَّابه، كلوديوس غليسيا، الأمر الذي استحق عليه توبيخاً قاسياً من مجلس الشيوخ بعد أن أغضبته رعونة هذا الاختيار.

تابع هميلقار عن بعد كل تلك الأحداث، وقد قيده شقيق امرأته بالقيام بمهمات إدارية وضيعة. كان يمضي نهاراته في مقر البحرية، وفي المساء يعود إلى دارته في ميغارا حيث كانت تنتظره زوجته، كانت هي نفسها منقطعة عن الناس في أجنحتها. وأخذ يعتاد شيئاً فشيئاً على أن يمضي معها أمسياته وأن يحكي لها عن حياته. قصَّت عليه بالتفصيل طفولتها وأخبرته عن الألم الذي شعرت به عند موت أبيها. وكلمها هو طويلاً عن جوبا، وفوجئ كثيراً حينما سألته بشغف عن الأمير النوميدي الشاب، ربما لتدرك كنه ذاك السحر الذي كان قد مارسه طويلاً على زوجها. ذات مساء، أثناء فصل الشتاء، والمطر يهطل خارجاً، فوجئ إذ رآها تظهر مرتدية ثوباً فاخراً، وقد زينته بالمشبك الذي كان قد قدمه لها. هو أيضاً كان قد شبك لتوه مشبكه فوق ردائه الرسمي. لم يكونا قد اتفقا على ذلك معاً، لكن كليهما كانت لديه الفكرة نفسها في اللحظة ذاتها. قهقه الزوجان وصرفا العبيد الذين كانوا يستعدون لتقديم الطعام لهما.

لم يكن ابن أدونيبعل، وعلى الرغم من تجربته في سيكا مع عاهرة مقدسة، يعرف كثيراً كيف يتصرف مع النساء. كانت زوجته قد تكهنت بذلك ولجأت إلى ملاطفات خبيرة قبل أن تخلع ثوبها المزين تزييناً باذخاً، والذي كان يخفي جسداً ناعماً لوحته الشمس. قبَّل هميلقار بشرة حلوة المذاق. والتقى الجسدان في تناغم واحد طويلاً، وبمشقة فارق هميلقار جسد محبوبته. كان يعرف أنه من

الآن لن يجد لذة إلا عند امرأة، إنها الشخص الوحيد في العالم القادر على التغلب عليه وعلى حمله على الاسترحام. عندما ذهب في الصباح الباكر إلى مقر البحرية شعر أنه رجل آخر، هادئ، ساكن، قادر على أن ينسجم مع نفسه أخيراً. بعد تسعة أشهر أنجبت له طفلاً سماه هنيبعل تكريماً لجده والد أمه. عندما جاء هميلقار إلى أدونيبعل ليخبره بولادة حفيده، استقبله الشيخ العجوز مبتسماً:

ـ لا جدوى من أن تزف إلي الخبر الذي تحمله. لقد أطلعني عليه قبلك إبيسيد وقد طار فرحاً لعلمه أنه، وبعد بضع سنين، سيعلم فتى برقاوياً. لقد أسميتَه هنيبعل لتبرَّ بقسمك، وأنا أهنئك على هذا. اعلم أنه ما من داع للخجل من هذا الإسم. فقد قرر مجلس المئة والأربع الذي انعقد مساءً، بناء على طلبي، رد الاعتبار إلى صديقك المسكين. لقد برأه تماماً من الاتهامات الموجهة ضده وسيتوجب على جلاده، جيسكون، تبرير سلوكه أمام محكمتنا.

ـ لقد غمرتني بالفرح.

ـ ولدي خبر آخر يسرك.

ـ ما هو؟

ـ لقد قرر مجلس الشيوخ استبدال أديربعل. إنه ضابط جيد ولم يخطىء في أفعاله. لكننا بحاجة إلى قائد عام جديد في صقلية. وأنت أحد المفضلين عندي لذلك.

ـ ومن أيضاً يتطلع إلى هذه المهمة؟

ـ بعل يتون شخصياً. لا ريب أنه كان من الأفضل له لو أن ابنه اضطلع بها طواعية. لكنك تعرف كارتالون. إنه يمقت الأسفار والمعارك. لذا فإن أبيه هو الذي يطالب بشرف قيادة جيوشنا.

ـ وما هي حظوظه؟

ـ أنت تعرف أنه ومنذ أجيال عدة، وامتياز اختيار قائد عام يعود إلى الشعب المجتمع في المقام. إنه تنازل توجب على مجلس

المئة والأربعة أن يقدمه لرعاع الناس بعد كثير من القرارات المشؤومة. إني واثق من أن وكلاء بعل يتون يعملون الآن في المدينة. إنهم يوزعون قطع الذهب والفضة ويشيدون بفضائل سيدهم.

ـ ولمَ لا نتصرف نحن؟

ـ إني أعرف مواطنينا. إنهم يضعون المال في جيوبهم ثم يقررون الثقة بمزاجهم. صدقني، إنك أنت صاحب الشعبية الكبيرة في قرطاجة، هذا إن لم تكن تعرف ذلك بعد. إن الناس معجبون بحكمتك قدر اعجابهم بشجاعتك وإني مقتنع أنهم سيختارونك. كن في صباح الغد الباكر في المقام. وهناك سيتقرر مصيرك.

عند تباشير الفجر الأولى بدأت الجموع بالتدفق على السوق الرئيسي واحتشدت قبالة مبنى مجلس الشيوخ. كان الناس قد تجمعوا بحسب حرفهم أو أحيائهم، وهم يتبادلون بصخب انطباعاتهم. أما أنصار بعل يتون فكانوا يتجولون بصعوبة كبيرة بين الجماعات ويوزعون بسخاء كبير قطع الذهب والفضة. عندما أصبح المقام أسود من كثرة الجموع تقدم أفراد مجلس المئة والأربعة بنظام فوق درجات مجلس الشيوخ وبدأ مهرا بعل الكلام:

ـ يا شعب قرطاجة عليكم اليوم أن تختاروا الرجل الذي سيقود جيوشنا في صقلية. إن الحرب مستمرة منذ سنوات طويلة وكثير من أبنائكم ماتوا بعيداً، أو هم في السجون الرومية منذ أمد طويل. إن المرتزقة، الذين جندناهم بالآلاف، يكلفون الخزينة العامة غالياً.

ـ ونحن على وجه الخصوص من يدفع الضرائب الكثيرة، انطلق صوت صائحاً من وسط الحشد.

ـ هذا صحيح. إن الضرائب ثقيلة جداً وستبقى هكذا طالما نحن في حالة حرب. لأجل ذلك علينا بأي ثمن أن نفوز بنصر مؤزر في صقلية ونجبر العدو على طلب السلام. إن الروم قد فقدوا أسطولهم

وقد وهنت معنويات جنودهم. أما جنودنا فهم على عكس ذلك، مفعمون بالنشاط وسيتلقون عما قريب تعزيزات جديدة. عليكم الآن اختيار ذاك الذي سيقودهم. إن مجلسنا يقترح عليكم اسمين، هميلقار برقا وبعل يتون. سنعترف باختياركم مهما كان. سيتوجه الإثنان لمخاطبتكما، ثم ستعيِّنون هاتفين ذاك الذي تفضلونه. وإن يسمح هميلقار فإني أدع الكلام إلى صاحب الأقدمية بعل يتون، عضو مجلس المئة والأربعة. أيها الزميل اللامع إنَّا نصغي إليك.

انفصل والد كارتالون عن مجموعة الشيوخ، تأمل الحشد ثم قال بصوت جليٍّ النبرات:

ـ شعب قرطاجة، تعرف أني صديقك وأني غمرتك بالهدايا في كل احتفال من احتفالاتنا. أنا مثلك أتطلع إلى السلام. ولفترة طويلة كنت معادياً للحرب، الأمر الذي عرضني للشتم والافتراء. عوملت على أني صديق للروم. قاتلت في صقلية ووقعت في الأسر. وبحيلة نجحت في استرداد حريتي مقنعاً أعداءنا أن مفاوضات السلام يمكن أن تبدأ فيما بيننا. وكنت قد أعطيت وعداً بالعودة إلى روما لأسلم نفسي إن أخفقت تلك المحادثات ولم أفعل ذلك، ومن يومها وروما تعتبرني ناكث عهد. ما من شيء آمله منها سوى الموت. لأجل ذلك أنا الشخص الأجدر لقيادة جيوشنا في صقلية. علي أن أنتصر لأبقى على قيد الحياة. ليس بوسعكم أن تختاروا اختياراً أفضل من ذلك. هذا هو قولي.

التفت مهرا بعل نحو هميلقار:

ـ دورك الآن، ابن أدونيبعل.

ـ مواطنو قرطاجة، مدينة محبوبتنا الملكة إليسا، تعلمون من أنا وماذا أنجزت في الماضي. إن بعل يتون قد عرض عليكم لتوه وببراعة الأسباب التي ينبغي أن تحثكم على اختياره قائداً عاماً. يجب أن أعترف بأنها أسباب ممتازة.

انبعثت من الحشد همهمة ساخطة، هدَّأها هميلقار رافعاً ذراعه:

ـ قلت إنها كانت ممتازة. لكنها غير كافية. إنه يريد أن يربح الحرب في صقلية. وأنا أريد ذلك أيضاً. لكن التغلب على الروم ليس كل شيء. ماذا سنفعل بذلك النصر؟ إن هذه الحرب قد أظهرت جيداً قوتنا لكنها أظهرت أيضاً ضعفنا. لا جدوى من سحق روما إن لم نجد لدينا الموارد الضرورية لبناء إمبراطورية بمستوى مدينتنا، إمبراطورية تستطيع أن تؤمن لمدينتنا أمنها وغناها. أريد إحراز النصر في صقلية بحيث يكون بداية مغامرة كبيرة ستشتركون جميعاً فيها. ربما سيصدم ما سأقوله الآن الكثير منكم: إن نصراً قرطاجياً لن يرضيني إن هو غفا واتَّكل على مجد تليد. أحب قرطاجة وأحب آلهتها، أحب مدينتنا وشعبها لأننا بنية نابضة بالحياة، في تغير دائم، نأخذ أفضل ما لدى الشعوب الأخرى ونمنحها أفضل ما عندنا. انظروا خلفكم إلى هضبة بيرسا المقدسة، وأبعد منها أيضاً، إلى الخندق الذي يحدد نهاية أرضنا. إن مستقبلنا ليس في هذه الأرض الشاسعة التي بالكاد نعرفها. إنه في تلك الجهة، جهة البحر، فنحن شعب من البحارة، مثلنا مثل جنودنا القادمين من صور وصيدا. إن بلاداً أخرى بعد صقلية ستقدم نفسها لنا. اعلموا إذاً، إن أنتم سميتموني قائداً عاماً، فهذا لن يكون فقط من أجل استعادة بانورموس، أكراغاس، ميسين أو سيراكوزة. وإنما سيكون ذلك لأجل حمل علامة تانيت إلى أقاصي البحر الكبير. هذا هو قولي.

مهرا بعل، وقد جعل أحد المرشحين إلى يمينه والآخر إلى شماله، خاطب الشعب قائلاً:

ـ لقد سمعتم الرجلين الحكيمين المفعمين بالتجارب يعرضان عليكم أفكارهما. وعليكم أن تحكموا أنتم.

ـ بعل يتون، بعل يتون، انطلقت أصوات هزيلة لا تتجاوز العشرين، لكنها انقطعت سريعاً، وسط قهقهة الناس من ذلك الحماس المتدني، وقُذفت في الهواء القطع النقدية التي وزعها أنصار الشيخ. ثم، ومن جميع الأرجاء، دوت صيحة واحدة، ترددت طويلاً:

ـ هميلقار برقا، هميلقار برقا.

وسرعان ما قام جنود الحراسة المشيخية وقد استولى عليهم الحماس بضرب تروسهم بسيوفهم صائحين باسم قائدهم السابق.

ـ سيتولى إذن هميلقار برقا قيادة جيوشنا، قال مهرا بعل بصوت يرتجف انفعالاً. إنه اختيار يبتهج له مجلس المئة والأربعة ويشرِّف واحدة من أكثر عائلات مدينتنا شهرة. إني أتمنى له نجاحاً باهراً في العمليات التي عليه أن يقوم بها، وأنا واثق من أنه سينفذ على نحو كامل مهامه الجديدة. وقبل أن نفترق وبحسب التقاليد، فأنا أعهد إليه بإلقاء بضع كلمات:

دوت طويلاً من جديد هتافات الناس الحماسية. وأخيراً رفع ابن أدونيبعل ذراعه طالباً الهدوء:

ـ أيها القرطاجيون، إني فخور بقبول القيادة التي عهدتم بها إلي. اعلم، بعل يتون، أني أفهم خيبة أملك. بوسعك أن تطمئن إلى أني سأتعاون دوماً وبإخلاص معك تعاوني مع أعضاء مجلس المئة والأربعة الآخرين. وإن كنت ترغب في مرافقتي إلى صقلية فعلى الرحب والسعة.

عند سماع الشيخ تلك الكلمات اكتفى بهز رأسه وعلامات الهزيمة على محياه. كان واضحاً أن الفكرة لم يعجبه منها إلا نصفها. وتابع المنتصر عليه قائلاً:

ـ اعلموا أن روما ستدفع غالياً، غالياً جداً، ثمن الجراح التي كبدتنا إياها منذ سنين والتي كاد بعضها أن يهلكنا. سأبحر بعد بضعة أيام، وسأعود في نهاية فصل الصيف، لأضع عند أقدامكم

نسور وشعارات روما. بعد ذلك عندما نفرغ من شكر آلهتنا على كرمها تجاهنا، سأنطلق لغزو الإمبراطورية التي بدونها لن تستطيع مدينتنا الحياة. إني أضع في حمايتكم ابني وزوجتي. فليهبنا ملقارت النصر!

استغرق تفرق انصراف الناس الكثير من الوقت. كان المواطنون يعقبون بانفعال على أحداث النهار وكثير منهم أنفقوا في الحانات القطع النقدية التي كانوا قد تلقوها من وكلاء بعل يتون في ميغارا، وأحاط بمسكن آل برقا أمواج من الزائرين: شيوخ، ضباط، تجار وكهنة، جميعهم أقبلوا ليهنئوا القائد العام الجديد وليحاولوا الاستفادة من أفضاله. كان العبيد منهمكين في تقديم الشراب المرطب للجميع وفي تهيئة الغرف لأولئك الذين فضلوا قضاء الليل في مكانهم. بينما كان هميلقار، بإرشاد من أبيه الذي كان يهمس في أذنه ببعض الأسماء، يتجول من جماعة لأخرى، ناثراً كلاماً طيباً وابتسامات تخرج أحياناً على مضض منه. ولم يستطع أن ينكفئ إلى أجنحته إلا في وقت متأخر جداً. وفي الصباح الباكر، وبينما كان عدد كبير من المدعوين يغط في نوم عميق، امتطى جواده متجهاً إلى مقر البحرية ليتدارس مع شقيق زوجته هنيبعل تشكيل الأسطول الذي على متنه سينطلق مبحراً.

الفصل العاشر

ما إن أُخطر هميلقار بأن الشواطئ الصقلية أصبحت على مرمى البصر حتى اعتلى برج قيادة سفينته الأميرالية. ولم يستطع وهو يتأمل الساحل أن يكبح مشاعر التأثر. لقد عاد أكثر من مرة إلى هذه الجزيرة التي قاتل فيها كثيراً. لكنه في هذه المرة، هو القائد العام للجيوش القرطاجية وقد عزم عزماً لا يلين على توجيه ضربة قاضية لطموحات روما التي تجاوزت الحدود. كان جواسيسه قد أخبروه بتعيين قنصل جديد، هو فابيوس بوتو، الذي كانت عائلته قد حلت محل عائلة آل كلوديوس في مجلس الشيوخ. ما إن وصل ابن أدونيبعل إلى ليليبيه، حتى توجه إلى أديربعل الذي لم يكن مستاءً من تخليه عن مهامه. لقد بدا الرجل متعباً منهكاً. واكتفى بأن قدم إلى خلفه هميلقار، مساعده، حنون، وهو قائد بحري كانت تزعم الألسنة القارصة بأنه ينفر من الصعود إلى سطح سفينة وأن رجاله يطلقون عليه فيما بينهم لقب الرعديد.

ارتأى هميلقار أنه من الحكمة أن يدع حنون الرعديد في ليليبيه وأن يتجاوز بسفنه رأس باشينوس. كان هميلقار في أثناء حملاته السابقة يلاحظ وجود موقع بين بانورموس وجبل إريكس. كان ذلك هو جبل هيركتيه، وهو قلعة طبيعية رائعة، لا يمكن بلوغها إلا عن طريق ممرات وعرة تبدأ من ميناء شهير بجودة مرساه. وقد شكلت قمة هيركتيه هضبة واسعة تنتشر فيها بوفرة الحقول والمراعي التي يمكن أن تؤمن المؤونة لرجاله ودوابهم. كما كانت توجد أيضاً

ينابيع عديدة. وعلاوة على ذلك لم يكن باستطاعة أحد الاقتراب من هذا الموقع قادماً من داخل الجزيرة، إذ كان سور صخري هائل يسد المدخل. اكتفى القائد العام بتشييد بضع تحصينات من جانب البحر، الأمرالذي شغل رجاله لأسابيع عدة. وعندما انتهوا أخضعهم لتدريب مكثف، معوداً إياهم على القتال في مجموعات صغيرة سريعة الحركة، قادرة على إنجاز سير طويل بوقت محدود.

في بانورموس كان الروم يتساءلون حول تصرف هميلقار برقا. وما إن أُعلن عن وصوله حتى قاموا بتعزيز جميع المواقع، متوقعين قيامه بغارات مفاجئة. لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل والصيف أصبح في منتصفه. بطبيعة الحال لم يفت فابيوس بوتو الاستفادة من ذلك، فادعى أن صيته قد شلَّ رعباً القائد القرطاجي الذي كان يتفاخر بقدرته على الحصول على استسلام سريع من خصمه.

ذات صباح وصلت إلى بانورموس سفينة خماسية المجاذيف ونزل منها ثلاثة شيوخ روم. ولما بلغوا القلعة أُعلن عن وصولهم إلى القنصل الذي أسرع لاستقبالهم. وها هو أصغر المبعوثين سناً، كايوس لوتاتيوس كاتولوس، يبادر مضيفه الكلام بلهجة تتكلف اللطف:

ـ كيف يبدو الوضع؟

ـ كل شيء يسير نحو الأفضل كما كنت قد أخبرتكم عن طريق رسلي. إن هميلقار مختبئ في جحره اختباء ثعلب في وكره. قريباً ستهطل الأمطار ويضرب الصقيع. وحينذاك ستتوقف الأعمال العسكرية، وعندما تُستأنف سنطرد هذا القرطاجي اللعين من صقلية. صدقوني ليس لدى روما ما تخشاه.

ـ هل أنت واثق من ذلك؟

ـ بالطبع. أكرر عليكم إن هذا الجبان لن يخرج من قلعته. ولو أنه يريد ذلك لعلمتُ بالأمر.

ـ فابيوس بوتو، إنك فعلاً جندي رديء، قال كايوس لوتاتيوس كاتولوس.

ـ كيف تجرؤ على قول هذا لي؟ إن لم تقدم لي اعتذاراتك حالاً فسآمر حراسي بتوقيفك.

ـ بوسعك أن تفعل ذلك لكن زميليْ سيجبرانهم على إخلاء سبيلي بحسب الأوامر التي منحنا إياها مجلس الشيوخ. نحن مكلفون بالاستماع إليك لأنك متهم بتقصيرات خطيرة في قيادة الحرب.

ـ إنك تهذي!

ـ بالطريقة نفسها التي تهذي بها عائلات ضحايا هميلقار برقا على شواطئ كامبانيا وبروتيوم.

ـ غارات قرطاجية على شواطئنا، هذا مستحيل!

ـ ومع ذلك فقد حدثت. هذا الرجل شيطان، وبسفينتين أو ثلاث وبضع مئات من الجنود يظهر هناك حيث لا يتوقع أحد ظهوره وغالباً عند هبوط الليل. ويقوم جنوده، مستفيدين من العتمة، بالسلب وحرق الضياع وتخريب الحقول والكروم، باعثين الرعب والخراب في كل مكان. وعندما يلوح الصبح يبحر ثانية ليضرب مكاناً أبعد.

ـ هذا محال. إن كان ما تقوله صحيح لكان تم إبلاغي عن تحركات سفنه.

ـ بما أن مخبريك أو جواسيسك لم يعلموك بذلك فهذا يحمل على الاعتقاد بأنهم غير راضين عن المبالغ التي تدفعها لهم. بالمناسبة، هل لديك ضيعة في كامبانيا، عند سفح فيزوف؟

ـ أجل.

ـ اعلم أن عليك بناءها من جديد إذ لم يتبق منها إلا الأطلال.

ـ أمر واحد يهمني: أهلي هل هم سالمون؟

ـ أجل، لقد تحاشاهم هميلقار حينما عرف من هم.

ـ لعله يريد بهذه الطريقة أن أتسامح معه عندما أقوم بأسره.

ـ إن عجرفتك ستضيعك. إن ذاك القرطاجي لا يتصرف مثل مواطنيه. هناك حادثة ستثبت لك ذلك. من هم جيرانك؟

ـ أرملة وأطفال ماركوس أتيليوس روغولوس، وهو قنصلنا الذي مات في الأسر والذي قام سجانوه، بحسب ما ترددت الشائعات، بإيقاع عذاب رهيب به.

ـ لكن سلوك عدونا تجاههم يجعلني أشكك كثيراً في صحة هذا الكلام، فعندما علم هميلقار من هم، حيَّاهم بمودة، وحدثهم عن ماركوس أتيليوس الذي كان قد استضافه عنده، وصان بمنتهى الدقة ممتلكاتهم. وحتى أنه أمر بإعدام بعض جنوده الذين خالفوا أوامره.

ـ حقاً، إنه لرجل غريب الأطوار!

ـ بوسعك أن تقول ذلك. اعلم على أي حال أن ريحاً حقيقية من الرعب اجتاحت كامبانيا. لقد تدفق الجنود الفارون بالمئات على روما التي يثير فيها تقاعسك الآثم الكثير من التعليقات. وقد كلفنا مجلس الشيوخ بالتحقيق حول تصرفاتك. لقد تأكدتُ الآن أننا نحن الذين ننقل إليك الأخبار التي كان عليك أنت أن تنقلها إلينا.

ـ إني لا أستحق تأنيبكم. تقولون أن روما غاضبة. لكن ما هي الوسائل التي أعطتني إياها لأحرز نصراً على القرطاجيين؟ هل لدي فيلة؟ لا. هل لدي عدد كاف من السفن؟ لا، إذ فقدنا غالبية أسطولنا في دريبان. بماذا إذن بوسعي أن أحرس الشواطئ؟ إن كان مجلس الشيوخ يريد سماعي، فأنا على أتم استعداد للمجيء لتبرير سلوكي. لكن، لتعلموا، أني سأحصي بدقة كل الأخطاء التي ترتكبونها وكذلك نسيانكم المتكرر لإرسال الطعام أو إرسال قوات جديدة. إن ذلك يمكن أن يهمَّ الشعب.

ـ فابيوس بوتو لا يجدي نفعاً أن نتشاجر. إننا جميعاً سنخسر

أكثر مما سنربح في هذه القضية وقد أردنا بالضبط أن نعرف رد فعلك. نحن مدركون للصعوبات التي تلقاها وسنعمل على تداركها بأقصى سرعة ممكنة.

ـ لقد آن أوان ذلك فعلاً.

* * *

بينما كان الروم يتجادلون، كان هميلقار يجهز، في سريَّة كبيرة، حملته القادمة. ووسط استيائه العظيم تبين أن أديربعل، وبعد أن طرد من جبل إريكس القنصل جونيوس بولوس، جلا هو نفسه عن هذا الموقع الذي قامت الجيوش المعادية في الحال بإعادة احتلاله وحولت معبد عشتار إلى قلعة حقيقية. بالنسبة لهميلقار كان ذلك خطأ جسيماً، نظراً للحظوة التي كان يتمتع بها هذا المعبد في صقلية. لذلك، ما إن بدأ فصل الصيف، حتى أرسل عدة آلاف من مرتزقته للإغارة على مدينة إريكس، الواقعة في منتصف الطريق بين البحر والصرح الديني. احتل جنوده المدينة، وقد حمَّسهم الوعد بغنيمة وافرة، ونجحوا في البقاء فيها بالرغم من الهجومات المضادة الكثيرة. نادراً ما شوهد حصار على هذا القدر من التعقيد. كان قرطاجيو إريكس يحاصرون الروم الملتجئين إلى أعلى الجبل لكنهم هم أيضاً كانت تحاصرهم جيوش فابيوس بوتو المتمركزة في أسفله. ومن حسن حظ أولئك القرطاجيين أنهم استطاعوا أن يقدُّوا من الصخر نفسه درجاً يؤدي إلى البحر، وعبره كانت تصلهم المؤونة ليلاً.

انطلاقاً من هيركتيه شن هميلقار العديد من العمليات ضد المواقع المعادية والمدن الحليفة لروما متابعاً اجتياح الكامبانيا. كان هدفه الذي نجح في تحقيقه هو قطع طرق اتصال الروم وخلق جو من انعدام الأمن. وهكذا سرعان ما شوهدت الرسل تتدفق إلى المعسكر القرطاجي من عدة مدن يونانية في صقلية، مستعلمة عن

المزايا التي ستكسبها تلك المدن، في حال جددت ثانية روابط الماضي مع مدينة إليسا.

كانت نجاحات ابن أدونيبعل كبيرة بحيث استطاع مراراً مغادرة ساحة العمليات العسكرية ليعود إلى أهله في ميغارا. كانت امرأته قد أنجبت له ابناً ثانياً، ماغون، الذي أصبح في التاسعة من عمره، وكذلك إبنة، سالامبو، وتصغر أخاها بعامين، والتي يشيد الجميع بسحرها وجمالها. أما إبيسيد فقد استعاد مهمته كمعلم، وتحت كنفه الرقيق حقق الفتى هنيبعل تقدمات سريعة. لقد أصبح الآن يقرأ ويكتب الفينيقية واليونانية ولا شيء أحب على نفسه من اللعب بأسلحة أبيه. كان أدونيبعل قد شاخ لكنه استمر في شغل مركزه في مجلس المئة والأربعة، وأصبح فيه بعد وفاة مهرا بعل، أكثر الأعضاء تأثيراً. ذات مساء، تحادث الرجلان حديثاً طويلاً:

ـ هميلقار، أريد أن تجيبني بصراحة هل لدينا فرصة سانحة لكسب هذه الحرب؟

ـ أبي، إني أرى النصر أكيد إن نحن راعينا بعض الشروط.

ـ ما هي؟

ـ أن نقاتل فقط على اليابسة مستخدمين مرتزقتنا وفيلتنا. لم يعد بوسعنا الاعتماد على أسطولنا.

ـ لماذا؟ إن الروم لم يعد لديهم أسطول ونحن نسيطر مجدداً على البحر الكبير!

ـ إنه وضع مؤقت، مؤقت جداً. فجواسيسي أخبروني بذلك منذ وقت قريب، إن روما تجهز سفناً جديدة.

ـ هذا مستحيل. لا سيما أن خزائنهم فارغة مثل خزائننا.

إن صناديق الخزينة العامة فارغة فعلاً لكن الصناديق الخاصة مليئة بالأموال. لهذا فإن الشيوخ عرضوا فكرة طرح قرض للاكتتاب من نوع خاص. إن المواطنين الأكثر ثراء في المدينة موّلوا بناء

مئتي سفينة خماسية المجاذيف، كل بحسب إمكانياته. بعضهم استطاع بمفرده تجهيز سفينة، والبعض الآخر اشترك مع آخرين للقيام بذلك. لم يرفض أحد المشاركة، في حين أنه هنا، في قرطاجة، سيكون من العبث مطالبة تجارنا بتضحية مماثلة.

ـ إن تجارنا لا يحبون خسارة أموالهم.

ـ والروم كذلك. ببساطة لقد ضمن لهم مجلس الشيوخ أن يستوفوا حقهم في حالة النصر، وذلك من الغنائم المستولى عليها أو من تعويض الحرب الذي سيطالب به الطرف المنهزم.

ـ سيكون عندهم أسطول، وماذا بعد؟

ـ أبي، إن الأمور تغيرت كثيراً منذ أيام شبابك. في الماضي كان شعبنا سيد البحر الكبير ولم تكن تجرؤ سفينة على المجازفة فيه دون إذننا. اليوم تغيرت الأمور. لقد تعلم الروم الإبحار وقادتهم البحريون هم أفضل من قادتنا. لهذا السبب أرفض مواجهتهم قبالة الشواطئ الصقلية.

ـ وما هو مخططك؟

ـ أريد أن أرغمهم على الاشتباك معي في معركة كبيرة فوق أرض مكشوفة، بالقرب من بانورموس مثلاً. صدقني، إن مرتزقتنا السردينيين واليونانيين أو الغاليين قد أُعدوا لهذا النمط من الحرب. بوسعنا أن نطلب منهم كل شيء وسيفعلون المعجزات بمساندة الفيلة والجنود المشاة. لكنهم يخشون البحر خشية المتطيِّر منه، وينفرون من الإبحار على ظهر سفننا. لقد قال لي أحد قادتهم: «إني أدع للأسماك مهمة السباحة». إن هذا الرجل كان يتكلم بحكمة.

ـ تفكيرك سديد. وأرجو أن تبرهن الأحداث على صوابه!

تأكدت مخاوف هميلقار لدى عودته إلى صقلية. لقد كان الروم قد انتهوا من بناء أسطولهم، وكان ذاك قد اتجه إلى الجزيرة بقيادة كايوس لوتاتيوس كاتولوس. بعد توقف القنصل في سيراكوزة اتجه

نحو ليليبيه ودريبان، اللتين كان يحميهما حنون الرعديد على نحو سيء. إن ذاك القائد القرطاجي، الذي تجاوز حذره الحدود، استسلم للخوف ما إن أُخبر بتوجه مئتي سفينة إليه. ففضل التخلي عن الميناءين والعودة إلى قرطاجة. عندما علم ابن أدونيبعل بالأمر احتد بعنف ضد مساعده حنون، وذلك أمام أركان حربه:

- إن حماقة حنون تلك تحرمنا من مينائيْ رسو ممتازيْن. من اليوم، وبسبب غلطته، لم نعد نملك أي قاعدة للتموين فوق الجزيرة. كل شيء، ينبغي إرساله الآن انطلاقاً من قرطاجة وهذا يستلزم استئجار أسطول ضخم سيجذب مطامع الروم. إني أخشى حدوث الأسوأ. هيميلك، أنت المشرف عندنا منذ سنوات، هل لدينا ما يكفي من الأعلاف والأقوات لمواجهة فصل الشتاء؟

- لقد تحسبت لما حدث الآن، ولذلك اتخذت بعض التدابير. بوسعنا الصمود دون مشكلة إلى حين قدوم فصل الربيع. لكننا حينذاك نكون قد استهلكنا كل زادنا، وإن لم نتلق قافلة مؤونة قادمة من قرطاجة. فالأسوأ هو ما نخشى وقوعه.

- إني أكلفك بإخطار مجلس المئة والأربعة بهذا الوضع. ولتنجز الأمور على عجل! إننا ننتظر بفارغ الصبر عودتك مع الأسطول الذي سيرسله إلينا مجلس الشيوخ.

في تلك السنة كان الشتاء قاسياً على نحو غير عادي. بعد رياح عاتية وأمطار قارسة سقط الثلج بغزارة فوق مرتفعات هيركتيه. بالنسبة لهميلقار وأتباعه من القرطاجيين كان ذلك مفاجأة حقيقية. في البداية لعبوا مثل أطفال بالندافات البيضاء التي بدت لهم كأزهار تسقط من السماء. لكن أوهامهم طارت سريعاً. اخترقهم البرد ولم يعد للجميع سوى هم واحد: البقاء في منجى، والتماس الدفء أمام نيران عظيمة ما انفك الجنود يوقدونها. حتى الغاليون، ورغم اعتيادهم على ظروف الحياة القاسية، كانوا يرتعشون برداً ويرغون ويزبدون تأففاً من الصقيع.

عُلِّقت الأعمال الحربية خلال تلك الفترة كلها. وإن حدث وصادفت دورية قرطاجية أخرى رومية، كان رجال الدوريتين يتلامحون عن بعد، ويحرصون على تحاشي بعضهم بعضاً. كان الجميع يتعجل للعودة إلى مواقعه وطلب الدفء أمام نار حامية. لم تكن فكرة القتال لتخطر حتى ببالهم. كان الضباط من الطرفين قد اتخذوا قرارهم. وعرفوا أن عليهم توفير جنودهم، متطلعين إلى المعارك القادمة، ومدركين أن مبارزات الفروسية في الثلج لن يكون لها أي تأثير على مجرى الحرب.

ما إن عاد فصل الربيع، حتى وضع هميلقار حراساً على طول الشاطئ ليعلموه بوصول الموكب القادم من قرطاجة. كل يوم كان يسأل متلهفاً ضباطه ليعلم إن كان أحد قد لمح أشرعة ما في الأفق. ذات صباح أقبل إليه أحد مرافقيه، بوستار، وإمارات الخيبة بادية عليه:

ـ ماذا بك؟ هل ألمَّ بك وجع؟

ـ ابن أدونيبعل، علي أن أعلن إليك خبراً بالغ السوء. إن الأسطول الذي يقوده حنون الرعديد قد تكبَّد هزيمة مريعة تجاه جزر أغات.

ـ ماذا تقصد بهزيمة مريعة؟

ـ كان حنون على رأس مئتي سفينة محملة بالمؤن لأجلنا ولأجل حاميتنا في إريكس. ولما كان يخشى ملاقاة أسطول كايوس لوتاتيوس كاتولوس في عرض البحر، فقد سعى للإلتجاء إلى أرخبيل جزر أغات حيث رسا لبضعة أيام. ثم رتب سفنه في رتل واحد، وجمعها متتابعة على خط واحد. واتجه صوب إريكس. هنا وقع في فخ حقيقي فقد كان القنصل، والذي حسبه حنون أنه في عرض البحر، ينتظره عند مخرج الجزر، قاطعاً عليه الطريق يمنة وشمالاً. لم يكن أمام سفنه الأولى خيار آخر إلا التهشم على الشاطئ بينما حاولت السفن الأخرى أن تتحرك لكن وزنها المفرط أعاقها.

وهكذا، وفي ساعات عدة، فقد حنون مئة وعشرين سفينة ثلاثية وخماسية. خمسون منها غرقت، بينما استولى الروم على سبعين سفينة مع أطقم بحارتها. أما السفن الأخرى فلا بد أن نبصرها عما قريب، إذ إن إحدى تلك السفن، وهي الأسرع من غيرها أقبلت في الطليعة تحمل إلينا خبر هذه المعركة.

ـ على الأقل سيكون لدينا قليل من المؤونة. إننا بحاجة كبيرة إليها.

ـ ماذا يجب التصرف إزاء حنون الرعديد؟

ـ عليك أن تعتقله ما إن يصبح هنا. يوشك هذا الأحمق أن يحرمني من نصري النهائي. لقد اقترف خطأ جسيماً في القيادة ويتوجب عليه أن يبرر هذا الخطأ أمام مجلس الشيوخ.

ـ هميلقار، قال بوستار، هل بوسعي أن أطرح عليك سؤالاً؟

ـ ما هو؟

ـ ما رأيك بهذه المصيبة؟

ـ ليكن ذهنك صافياً. إنها ليست مصيبة، إنما هي هزيمة سيئة. هزيمة بالتأكيد لكن يمكن تعويضها. بوسعنا، بفضل المؤونة التي وصلتنا، أن نستأنف الهجوم على الأرض وأن ندحر الروم وحلفاءهم. يجب مفاجأتهم. إنهم يتوهمون أننا يائسون. من صالحنا أن نتركهم في أوهامهم تجاهنا، لكنهم سيبلعون سريعاً صيحات فرحهم.

* * *

حال وصوله إلى المعسكر، اعتُقل حنون الرعديد وأرسله القائد العام إلى قرطاجة، كان يحسب هميلقار أن مجلس الشيوخ سيحكم عليه بغرامة ثقيلة أو بنفي مؤقت من المدينة. في الواقع إن البائس، وبعد محاكمة ساخرة، صُلب على أبواب المدينة. لم يكن ابن

أدونيبعل يريد عذاباً كهذا لكنه ورغماً عنه تأكد من أن غالبية مجلس المئة والأربعة قد تغيَّرت. ووسط مفاجأته العظيمة تلقى أمراً بألا يشتبك مع الروم في عمليات فوق اليابسة وأن ينتظر تعليمات مجلس الشيوخ الذي سيتصل به عن طريق مبعوث عالي الرتبة.

ذاك لم يكن سوى هنيبعل، شقيق زوجته، والذي لم تكن سيماؤه لتبشر بخير. بعد أن أعلمه بأخبار أهله أوضح هنيبعل لهميلقار أن ثورة حقيقية قد حدثت:

- إن حزب آل برقا، الذي ترمز إليه أنت وأبوك قد جعله أنصار بعل يتون أقلية في مجلس الشيوخ. وهؤلاء الأنصار قد صوَّتوا للشروع في محادثات سلام مع روما.

- إنها خيانة حقيقية. بوسعك أن تتحقق من ذلك مستعرضاً رجالي، إنهم عاقدوا العزم على القتال حتى النهاية. بوسعنا من الغد استئناف العمال الحربية وتكبيد العدو خسائر جسيمة.

- إن مجلس الشيوخ قد ارتأى رأياً آخر.

- إنها لسخافة وسوء تفكير. لنفرض أنه يجب التفاوض. حالياً نحن في وضع متدن. لكن إحراز نجاح سيتيح لنا أن نبرز على نحو أفضل مطالبنا وأن نرفض الخضوع لشروط جائرة لن تلبث أن تقدمها روما. لقد عرفنا سابقاً وضعاً مشابهاً عندما كان ماركوس أتيليوس روغولوس على أبواب المدينة بعد نكبة أديس. لقد بدا متطلباً لا يلين ثم ألفى نفسه بعد ذلك أسيراً. ومن الممكن كثيراً أن يحصل ذلك لكايوس لوتاتيوس كاتولوس.

- أنت تردد خطاباً ألقاه أبوك أمام مجلس المئة والأربعة، خطاب لم يُقنع غالبية الأعضاء.

- حسناً، سأذهب إلى قرطاجة لأحصل على موافقتهم.

- أخشى كثيراً أنك لن تحصل عليها. إن الشعب قد سئم هذه الحرب التي دامت طويلاً دون أن يدرك رهانها. إن مواطنينا يجهلون

كل شيء عن صقلية وسردينيا ويشعرون أن ضرائبهم تُصرف لتمويل حملات غير مجدية.

ـ عندما يفتقرون إلى قمح وخمر تلك الجزر وزيتها سيكون الأوان قد فات ليأسفوا على خسارتهم.

ـ ربما تكون على حق لكن بعل يتون وأصدقاءه قد واجهوا هذا الأمر بحجة قوية لما قالوا: إن الأرض التي نشغلها ضيقة على نحو مثير للضحك. يكفينا أن نتوسع إلى ما وراء الخندق الذي يحدد حدودها.

ـ لقد نسيتَ أن تلك الأراضي تعود للنوميديين وأننا بذلك سندفعهم للعصيان.

ـ إن بعل يتون قد رد على ذلك بأنك أنت وأبوك قد أظهرتما على الدوام، ولأسباب شتى، تساهلاً كبيراً إزاء النوميديين وإني لأشاطره الرأي. فبدلاً من أن نهتم بمناطق مجهولة أحرى بنا أن نهتم بما هو وراء أرضنا.

ـ إن كنت أفهم جيداً، ليس أمامي سوى خيار واحد وهو الطاعة. متى سيذهب وفدنا إلى روما؟

ـ عليَّ أن أصل الآن إلى الجزء الأكثر حساسية في مهمتي. لن نرسل وفداً إلى شواطئ التيبر.

ـ ومن إذن سيتفاوض بشأن السلام؟

ـ أنت.

ـ أنا!

ـ أجل.

ـ إنه عار حقيقي. ليس فقط لا يُسمح لي بمواصلة الحرب وإنما أُعينَّ مطلق الصلاحية كي أُعتبر، عند اللزوم، مسؤولاً عن معاهدة ظالمة. إني هنا أعترف ببراعة بعل يتون الشريرة.

ـ أظنك ذكي بما يكفي لتتخلص من هذا الفخ.

ـ سأتدبر الأمر.

انكفأ هميلقار إلى خيمته بقلب ثقيل. لم يشاهده أحد طيلة النهار، وفي المساء امتنع عن مشاركة ضباطه الطعام كما اعتاد على ذلك. وفي الغد انفرد لساعات عدة مع مشرفه هيميلك. وينطلق هذا الأخير مزوَّداً بكل تصاريح الأمان الضرورية إلى بانورموس ليلتقي هناك بالقنصل وليحضِّر للمقابلة المقبلة بين القائدين العاميْن. بعد مساومات شاقة تقرَّر أن يتم أول لقاء فوق أرض خالية تقع على بُعد بضع ستادات من المدينة. سيأتي كل قائد مع حاشيته وكوكبة من عشرين فارساً. وستنصب خيام لإيوائهم إن هم قررا مواصلة محادثاتهما لأيام عدة. سيتم تبادل رهائن من الطرفين لضمان أمن الجميع وسيعاملون بكل احترام يليق بمرتبتهم. وفي أثناء ذلك ستُعلق كل العمليات العسكرية أرضاً وبحراً.

وفي اليوم الذي اتفق عليه مبعوثاهما، كان القائدان العسكريان في منزل نظفه وجدده جمع من العبيد. حيّا هميلقار برقا وكايوس لوتاتيوس كاتولوس بعضهما بإيماءة من رأسيهما وظلا واقفين لا يدريان أي تصرف يتخذان. كسر هيميلك الصمت موجهاً إليهما هذه الكلمات:

ـ لقد أُعدت لكما غرفة لتتناقشا فيها، في حين سينظِّم ضباطكما الأمور الروتينية. إن كليكما يتكلم اليونانية ولستما بحاجة إلى مترجم. سأرشدكما إلى ذلك المكان وسننتظر عودتكما لمعرفة ما ينبغي فعله.

بعد أن أنجز المشرف مهمته انسحب. وأصبح الرجلان وحدهما وجهاً لوجه.

ـ هميلقار، قال القنصل، إني سعيد بمعرفتك. إنك جندي شجاع

وأكثر من مرة أسفت لأنك لست رومياً. إني أفهم الألم الذي تشعر به هذا النهار. إن ربة الحظ فضلت مدينتي على مدينتك. إن الأمور هكذا ولا نستطيع إزاءها فعل شيء.

ـ وأنت كذلك معروف عندي. ليست ربة الحظ هي التي ابتسمت لك. لقد عرفتَ على نحو رائع أن تناور بأسطولك وأحرزت نصراً رائعاً على ذاك البائس حنون الذي لم يكن بحاراً جيداً. لقد قرر مجلس شيوخ قرطاجة أن يبرم السلام معكم وإني أُذعن لقراره. ما هي شروطكم؟

ـ سيدهشك اعتدالها.

ـ سأكلمك بصراحة، كنت أفضل لو أنها كانت شروطاً قاسية. وبذلك تكون لهذه الحرب الطويلة معنى. لكن أن يقاتل المرء ليصل إلى تسوية متواضعة جداً فهذا يثير الحنق. كم من رجال قُتلوا سدى!

ـ إني بدلاً من أن أشاطرك رد فعلك فأنا أتفهمه. أنا أيضاً أُطبق التعليمات التي تلقيتها من روما وليس لي الحق بإبداء الرأي.

ـ لنكف عن الجدال. ما هي مطالبكم؟

ـ عليكم أن تتخلوا عن صقلية.

ـ كل صقلية؟

ـ أجل. إنه ليس بطلب غير معقول. ليس لديكم سوى موقعين محصنين، إريكس وهيركتيه. إن المدن التي كانت في الماضي حليفة لكم أصبحت الآن تحت حمايتنا.

ـ لو أنني كنت المنتصر، لخانتكم!

ـ لا يساورني وهم حول هذا الموضوع. لقد حُدثتُ كثيراً عن الزيارات التي تلقيتها من جانب أصدقاءنا المخلصين. لأجل هذا لم يعد بوسعنا القبول بأي وجود آخر على هذه الجزيرة سوى وجودنا.

- كانت روما بالكاد موجودة عندما كانت قرطاجة تمتلك مستعمرات في صقلية، تقدم لنا على الدوام الخمر، والزيت، والقمح الذي نحتاجه.

- إن تم توقيع السلام فبوسعكم التجارة معنا وستتزودون بهذه المنتجات بأسعار ملائمة جداً. وحتى أنكم ستقتصدون في النفقات طالما لم يعد لديكم مواقع تحافظون عليها. إن لدينا مصلحة كبرى في تسليمكم البضائع التي ستطلبونها. إن مدينتكم غنية وتدفع جيداً.

- وماذا سيحصل لمستعمراتنا في سردينيا وكورسيكا؟

- ستحتفظون بها. نحن ليس لدينا أي مطالب بخصوصها.

- هل أنت أكيد من ذلك؟

- أعطيك وعداً بهذا.

- إني أصدقك. سنجلو إذن عن صقلية.

- حسناً. من الطبيعي أن تتعهد قرطاجة بألا تشن حرباً على المدن الصقلية الحليفة لروما، خاصة على سيراكوزة وملكها هييرون.

- سندعه لكم. لقد خاننا وسيخونكم.

- كيف تنوي تنظيم رحيل جيوشك؟

- ستأتي سفن لتأخذهم مجموعات صغيرة، حتى يتسنى لنا الوقت الكافي لتهيئة إقامتهم في قرطاجة. عندي مطلب أريد تقديمه.

- ما هو؟

- إن رجالي ليسوا رجالاً مهزومين، وهم ما زالوا أحراراً في تحركهم. لذا أطلب السماح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم. إن محاولة تجريدهم منها سيكون عملاً أخرقاً ويمكن أن يثير أحداثاً.

- إنك على حق. نحن لا نرغب في إذلال رجالك وسيكون بوسعهم الاحتفاظ بأسلحتهم.

ـ أشكرك على ذلك. هنالك أيضاً أمر تسوية مسألة الفارين من جيشك. لقد وعدتهم بحمايتي الشخصية ولا أريد أن أرجع عن وعدي.

ـ لي الحق بالمطالبة بتسليمهم لكني لن أفعل ذلك. هؤلاء الرجال لا يستحقون اسم الروم وسيموتون بعيداً عن ذويهم وستلاحقهم لعناتهم. إنهم يستحقون كل صنوف العذاب.

ـ إني أشكرك. بالمقابل اعلم أننا سنرد إليكم كل الأسرى دون المطالبة بفدية. وسأحرص شخصياً على ألا ينقصهم شيء أثناء عودتهم.

ـ إنك تعلم أن الحرب قد كلفت شعبيْنا غالياً. لقد التزمنا بنفقات هائلة لبناء أسطول ولذلك نحن نطالب بأن تدفع قرطاجة تعويضاً قدره 2200 تالان من الفضة.

ـ إنه مبلغ عظيم. ليس بوسعنا دفعه دفعة واحدة.

ـ نحن لا نطلب منكم ذلك. أمامكم عشرون سنة لدفعه. إنها مهلة معقولة.

ـ أعتقد أننا وجدنا أسس اتفاق جدير بالاحترام وأقترح عليك أن نخطر به ضباطنا.

التقى القائدان بأركان حربهما. وترك هميلقار برقا لكايوس لوتاتيوس كاتولوس شرف قراءة مشروع المعاهدة التي حضَّراها:

«حسب الشروط التي سأذكرها الآن، ستكون هنالك صداقة بين قرطاجة وروما، مع مراعاة تصديق الشعب الرومي عليها:

ـ أن تجلو قرطاجة عن صقلية بأكملها؛

ـ ألا تشن قرطاجة الحرب على هييرون، وألا تحمل السلاح ضد سيراكوزة، أو ضد حلفاء سيراكوزة؛

ـ أن ترد قرطاجة لروما جميع الأسرى دون فدية؛

ـ أن تدفع قرطاجة لروما، على مدى عشرين عاماً تعويضاً من الفضة مقداره 2200 تالان.

* * *

لدى عودة هميلقار إلى هيركتيه عرض على زوج أخته لقاءه مع القنصل. فكر هنيبعل لبضع لحظات ثم قال:

ـ لقد أحسنت التفاوض وأنا أكيد من أن مجلس المئة والأربعة سيصادق على هذا الاتفاق. لقد فقدنا صقلية على أي حال ولم يعد بوسعنا البقاء فيها. إلا أني لست واثقاً من أنك قد تصرفت على نحو جيد فيما يتعلق برجالك.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أعتقد ان مجلس شيوخنا كان سيقبل بإجبارهم على تسليم أسلحتهم. بالطبع أنا أتكلم عن المرتزقة وليس عن القرطاجيين.

ـ لكن أولئك المرتزقة ليسوا بمهزومين وقاتلوا كالأسود في سبيل مدينة إليسا. إن إذلالهم سيكون جزاء سيئاً لإخلاصهم.

ـ أنت تمس هنا وتراً حساساً.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنت تتكلم عن مكافأة خدماتهم، وبوسعي أن أقول لك أن هذا الأمر هو شغلنا الشاغل. أنت تعرف أن صناديق الخزينة العامة فارغة.

ـ لست متأكداً كثيراً من ذلك.

ـ لنقل أن ادخارات قد تم توفيرها على افتراض عقدنا السلام مع روما. يجب علينا أن ندفع 2200 تالان في عشرين قسط سنوي لروما، مع استمرارنا في إعالة مدينتنا، والحفاظ على معابدها وأبنيتها، وكذلك مع استمرارنا في بناء أسطول وفي إرسال المال والرجال إلى مستعمراتنا وراء أعمدة ملقارت. إن أردنا أن نفي بالتزاماتنا في جميع تلك الميادين ـ والشعب لن يسامحنا إن لم نفعل

ذلك ـ فإني أتساءل متشائماً: كيف بوسعنا أن ندفع رواتب أولئك المرتزقة على نحو كامل؟ إن عاد هؤلاء بدون أسلحتهم فسيكون من السهولة بمكان إقناعهم.

ـ هكذا إذن، أنت تجرؤ على التخيل بأن بوسعي خيانة الثقة التي منحني إياها هؤلاء. وكل ذلك لكي لا تجابه شحَّ شيوخنا وتجارنا. إنها نظرة غير صائبة نحوي!

ـ هميلقار، إنهم ليسوا سوى غرباء.

ـ أنت وزملاؤك لم تقولوا ذلك عندما توسلتم إليهم ليأتوا للقتال في سبيل قرطاجة لأن أبناءكم يخافون من حمل السلاح. ووكلاؤكم في التجنيد قدموا لهم وعوداً مبالغاً فيها، بعيدة جداً عما كان يمكن تحقيقه. واليوم تنكثون بوعدكم لأن جهة الريح تغيرت! أنت على حق بقولك إنهم غرباء. وأنا أعرف حقيقتهم. إنهم متوحشون، جشعون، مستعدون لفعل أي شيء ليلتقطوا نصيبهم من الغنيمة، إنهم قادرون على فعل الأفضل قدرتهم على اقتراف الأسوأ. إنهم أشخاص أفظاظ، ينبغي فرض نظام صارم عليهم إن أردنا أن يكونوا طائعين. أنا لا أحب العيش معهم، ولا أحب أن أعرف أنهم استقروا بالقرب من مدينتنا على نحو دائم. لأجل هذا السبب علينا أن نفي، وبمنتهى الدقة، بتعهداتنا إزاءهم.

ـ أكرر لك أننا لا نملك الموارد لدفع تمام المبالغ المستحقة لهم.

ـ بلى. يكفي لأجل ذلك أن يقبل التجار أن يقدموا لقرطاجة جزءاً زهيداً من ثروتهم الشخصية. إن الروم قد فعلوا ذلك لبناء الأسطول الذي هو سبب مصائبنا، وإن جزءاً من مبلغ الـ 2200 تالان الذي سندفعه لهم، سيستخدم لسداد قرض أولئك الذين جهزوا للإبحار سفناً ثلاثية وخماسية المجاذيف. لقد أظهروا لنا مثالاً يُحتذى.

ـ لن يسمح مجلس الشيوخ بذلك على الإطلاق.

ـ هذا ما أخشاه. إن المال العام هو فكرة غريبة على غالبية أعضاء المجلس. إنهم يفضلون سحق الطبقة الدنيا بضرائب جديدة على إقراض زار(*) واحد للخزينة العامة.

ـ هميلقار، إنك لا تظهر أي مرونة. ومع ذلك فليست هذه هي اللحظة المؤاتية بالنسبة لك لتختلف مع مجلس المئة والأربعة. إن «حزبكم» أصبح يشكل الآن أقلية فيه.

ـ إني أقدر كلمة «حزبكم» تلك، أنا على يقين من أنك قد استطعت التآلف بسرعة كبيرة مع الوضع الجديد. ولن يدهشني أن تكون قد أصبحت واحداً من أنصار بعل يتون.

ـ إنه رجل ذو عقل سليم.

ـ لقد قلتَ كل شيء. وقراري قد اتُخذ. سأعود إلى قرطاجة وسأقدم لك استقالتي كقائد عام للجيش.

ـ لا يمكنك ذلك.

ـ لي كامل الحق في هذا، وأنت تعرف ذلك. لقد اختارني الشعب وهو وحده يستطيع أن يجردني من القيادة إلا إذا تخليت عنها من تلقاء نفسي. إني لا أنوي أن أُشرَك في أحداث مهلكة ستقع قريباً، وكنتُ قد حذرتكم منها دون جدوى.

ـ من سيهتم بإعادة جيوشنا إلى الوطن؟

ـ أنت.

ـ هذا غير وارد. إن أوامري هي أن أتبعك إن قررتَ العودة إلى مدينتنا.

ـ أنت وبعل يتون قد تحسبتما لكل شيء. وعرفتما ماذا سيكون رد فعلي.

(*) زار: وحدة النقد القرطاجية.

ـ يمكن التكهن دوماً بما يفعله رجل شرف.

ـ والعكس ليس صحيحاً.

ـ لا شك في ذلك.

ـ على أي حال أعرف من بوسعك أن تعهد إليه بمهمة تنظيم رحيل المرتزقة. لقد فوجئتُ كثيراً عندما لاحظتُ وجود جيسكون بين أتباعك.

ـ إنه صديق بعل يتون.

ـ أعرف ذلك. إنه يحرص كثيراً على تجنبي، وهنالك سبب وجيه لهذا. ولا ينبغي لهذا السبب أن يكون مجهولاً لديك. لقد كان هذا الشقي، ذات يوم، جلاد أبيك في سردينيا. لقد أمر بصلبه بعد أن فقد أبوك أسطوله. لا ريب أنه كان يحلم بأن يوقع بي العقاب نفسه متهماً إياي بالمسؤولية عن هزيمتنا. لكن مجلس الشيوخ حدد المذنب في شخص ذلك المسكين حنون، والروم أنفسهم اعترفوا بأني لم أكن مغلوباً إذ تركوا لجنودي أسلحتهم.

ـ إني أفهم على نحو أفضل لم حرصتَ كثيراً على أن تحتفظ مرتزقتك بسيوفها ورماحها.

ـ أنا أحب قرطاجة، لكني أعرف أنها قادرة على فعل الأسوأ. لقد اتخذتُ احتياطاتي. لنعهد إذن إلى جيسكون بأمر تقلُّد القيادة في صقلية حتى يتم رحيل جنودنا. فإن حدث شيء ما فستُلقى عليه مسؤوليته وسيتوجب عليه دفع ثمن ذلك. من العبث أن تكون صديقاً لبعل يتون، إن الاحترام الذي تدين به لأبيك يلزمك السعي للانتقام له، جاعلاً قاتله في موقف صعب.

ـ هميلقار، لقد كان يقال لي الكثير عن آل برقا لكني أعتقد أن ماكان يُقال هو أدنى من الحقيقة. إن عائلتكم مخيفة. أنتم تدافعون عن مصالحكم قدر دفاعكم عن مصالح المدينة على نحو تجمعون فيه بين المصلحتين. فرغتَ لتوك من تلقيني درساً جيداً وأعتقد أني

كنت مخطئاً في انضمامي بسرعة كبيرة إلى بعل يتون حتى وإن لم يكن بوسعي العودة عن اختياري. لقد فكرتُ في الحاضر، وأنت تفكر في الغد. إن مجلس المئة والأربعة، عاجلاً أم آجلاً، لا بد أن يستدعيك. بقي أن أعرف إن كنت حينذاك ستقبل أن تساعده.

ـ إن أصدقاءك يريدون فعلاً التيقن من ذلك لكي يتمكنوا من اقتراف أخطائهم دون أي عقاب. إني أفضل عدم إعطائهم الضمانة على ذلك. لعل هذا يحثهم على التعقل.

ـ إنك ماكر، ماكر جداً. أنت تخيفني وإني لأتساءل إن كان لا يتوجب علينا أن نجعلك على الحياد.

* * *

لدى وصوله إلى قرطاجة انزوى هميلقار في دارته في ميغارا، رافضاً بعناد الذهاب إلى المدينة أو لقاء الشيوخ الذين ظلوا مخلصين لأبيه. كان يمضي كل أيامه مع امرأته ومع أطفاله، ناظراً إليهم وهم يلهون ويقفزون في المنزل كما كان يفعل هو نفسه في السنين الخوالي. بعد انقضاء بضعة أسابيع، سئم بسرعة من كربه اليومي. فقرر الذهاب مع أحد مرافقيه السابقين واثنين من عبيده للصيد فيما وراء سيكا. في الواقع لم يكن يحلم إلا بأمر واحد، وإن لم يعترف به: أن يلتقي بصديقه جوبا بعد سنوات طويلة من الفراق. قام ابن الملك العجوز وقد أخطره بعض الفرسان النوميديين بزيارة معسكر هميلقار. كان جوبا قد كبر في السن ونضج. عانق صديقه وأمضى الرجلان الليل وهما يتناقشان حول النار:

ـ قيل لي أنك قد عُيِّنت قائداً عاماً في صقلية.

ـ لنكف عن الحديث عن ذلك. هذا شيء من الماضي. لقد هُزمنا وأصبح بعل يتون الشخصية الأكثر نفوذاً في قرطاجة.

ـ نحن نعرف ذلك ونخشى جانبه.

ـ لماذا؟

ـ لأنه يريد أن يستولي على أرضنا. لن ندعه إطلاقاً يفعل هذا.

ـ أتقاتل ضد مدينتي؟

ـ والألم يحز في نفسي سأفعل ذلك إن استلزم الأمر.

ـ هل يفكر أبوك مثلك؟

ـ لم يعد لديه القوة ليحكم. أحاول أن أحل محله على أفضل ما أستطيع بمساعدة أخي نهرواس.

ـ هل تزوجت؟

ـ أجل، وإن كانت النسوة قد جعلنني على قدر كبير من اللامبالاة.

ـ جوبا، إني لا أنكر أبداً ماضينا وأنت ستظل صديقي. بكل بساطة إن أشكال تلك الصداقة قد تغيرت. هل لديك أطفال؟

ـ ابنتان وصبي.

ـ وما اسم وريثك؟

ـ هميلقار.

ـ أتطلق عليه اسم هميلقار ولا تألو جهداً في إخطاري بذلك!

ـ كنتَ بعيداً واعتقدت أنك لم تعد تريد رؤيتي مجدداً. لقد كان رحيلي من ميغارا متعجلاً إلى حد أنه كان أشبه بهروب أو طرد.

ـ لم أكن مسؤولاً عن ذلك.

ـ وهل قلتُ أنك أنت المسؤول؟

ـ هل ستأتي إلى قرطاجة؟

ـ أشك في ذلك. لدي الكثير لأنجزه ولقد أفلتُ بصعوبة كبيرة من القصر حيث لا بد أنهم الآن ينتظرون عودتي. ها هو الفجر قد بزغ. حان وقت وداعنا. اعلم أنك إن كنت بحاجتي فسأكون على الدوام هنا. لأجلك وليس لأجل قرطاجة.

عندما عاد ابن أدونيبعل إلى ميغارا ألفى صمتاً ثقيلاً يرفُّ على المنزل. وحينما دخل أجنحته وجد هيميلك ينتظره، قال وقسمات وجهه متشنجة:

ـ هميلقار، امرأتك!

ـ ماذا، ماذا جرى؟ هل هي مريضة؟ أين أطفالي؟

ـ امرأتك ماتت. منذ عشرة أيام، وبعد تناولها الطعام انتابتها نوبات قيء عنيفة، وبالرغم من كل عنايتنا فارقت الحياة.

ـ ومن كان يأكل معها؟

ـ شقيقها هنيبعل وأطفالك. ولم يمرض أي منهم.

ـ لقد سمم أخته! سأقتله. اعطني سيفي.

ـ هميلقار، إني أفهم ألمك لكن لا يشتط غضبك. إني أمرتُ بجلد وتعذيب العبيد الذين قدموا لهم الطعام لأتأكد من أن سماً لم يُدس فيه. لقد مات أولئك وهم يتمتمون باسمك دليل إخلاصهم لك. لو كان الطعام مسموماً، لكان الأطفال الذين كانوا يتسلون بتناول الطعام من يد أمهم قد هلكوا هم أيضاً. كلا، إن المسكينة قد استولى عليها ألم غريب لم يستطع إشمون إزاءه أن يفعل شيئاً.

ـ أين هم أطفالي؟

ـ لقد سافروا مع أدونيبعل إلى أسبيس حيث ضيعتك قد تم بناؤها مجدداً، وهم لا يعرفونها بعد. صدقني إنها أفضل مكان لأجلهم. وهم في أحضان الطبيعة سينسون حزنهم.

لم يثق هميلقار بتفسيرات هيميلك لكن، ولعدم توفر الأدلة، لم يستطع اتهام شقيق زوجته بالقتل. لقد حُكم عليه بانتظار اليوم الذي يستطيع فيه أخيراً إفحامه وجعله يدفع ثمن جرمه غالياً. إن تلك المأساة، إضافة إلى الوحدة التي انقطع فيها عن الناس جعلتاه يُهمل القضايا العامة لشهور طويلة. ولم يهتم فعلياً بالأخبار الواردة من

روما. لقد كانت جمعيات الشعب الرومية قد رفضت مشروع المعاهدة التي كان قد وضعها مع كايوس لوتاتيوس كاتولوس. وطالبت روما بأن يُدفع التعويض، الذي رُفع من 2200 إلى 3200 تالان، خلال عشر سنوات بدلاً من عشرين سنة، وأن يتعهد القرطاجيون بألا يقيموا مستعمرات في الجزر بين صقلية وإيطاليا. وافق مجلس المئة والأربعة على تلك المطالب الجديدة وأُبرم السلام. لكن، ما كان الجميع يجهله هو أن حرباً جديدة ستبدأ، تناوئ فيها قرطاجة مرتزقتها السابقين.

الفصل الحادي عشر

ساد هياج محموم أزقة قرطاجة. فكل يوم، ومنذ إبرام السلام مع روما، كانت تصل إلى الميناء سفن محملة بالمرتزقة. في البداية كان بالإمكان تأمين إقامتهم في ثكنات أُقيمت على امتداد السور. لكن سريعاً لم يعد هنالك مكان لإيوائهم وتوجب على القادمين الجدد أن ينصبوا خيامهم في ميغارا حيث لحق ببعضهم، الذين هم من أصل ليبي، زوجاتهم وأطفالهم. كانوا، وقد حُكم عليهم بالبطالة، يُمضون نهاراتهم متنزهين في المدينة، يشربون في الحانات ويتبادلون فيما بينهم روايات عن مآثرهم الماضية. لم يكن الغاليون واليونانيون والسردينيون والبلياريون والنوميديون يختلطون مع بعضهم البعض، كما لو أن منافسة خفية فيما بينهم كانت تعترضهم.

غير أن آراءهم جميعاً اتفقت على استحسان العقوبة التي أوقعتها قرطاجة بثلاثة آلاف فارّ من جيش هميلقار الذين سلمهم الروم لقرطاجة، لقد كان الروم بذلك أقل احتراماً من القائد العام السابق للوعد المعطى لهؤلاء الرجال. وهكذا حُكم على الأوفر حظاً منهم بالخدمة مجذفين أو بيعوا عبيداً. وتم صلب عدد قليل منهم ليكون عبرة لغيره. لقد رأى رفاقهم السابقون في السلاح أن ما حدث لرفاقهم ما هو إلا عقاب عادل. أما هم، على العكس، فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن يكافئ مجلس المئة والأربعة خدماتهم الجيدة والمخلصة بتسديد التزاماته تجاههم تسديداً دقيقاً.

وصل جيسكون الذي استدعاه مجلس الشيوخ على متن آخر سفينة قادمة من صقلية. ومثل مصحوباً بضباطه أمام أعضاء المجلس، الذين كان عددهم كبيراً على نحو غير عادي في ذلك اليوم. كان بعل يتون هو الذي يترأس الجلسة، سأل صديقه قائلاً:

ـ جيسكون، هل عاد جميع المرتزقة؟

ـ أجل.

ـ كم عددهم على وجه الدقة؟

ـ حوالى خمسة عشر ألفاً وبعضهم خدم في جيشنا منذ بداية الحرب ضد روما.

ـ أنت تعرف أن خزائن الخزينة العامة فارغة، وليس بوسعنا أن ندفع لهم مرتباتهم في الوقت الحاضر. بالتأكيد لا بد لنا ان نؤجل الدفع وأن نجعلهم يصبرون.

ـ بوسعنا أن نشرح للمرتزقة بأن حساب مرتباتهم هو أصعب من المتوقع. في الحقيقة من جهة هنالك رواتبهم، ومن جهة أخرى، هنالك التعويض الذي علينا أن ندفعه لهم لنسدد المبالغ التي أنفقوها لشراء طعامهم وعلف دوابهم. إن ذلك يستلزم الكثير من العمل وإني واثق من أنهم سيقتنعون بهذه الحجة.

ـ إن نصيحتك حصيفة وسنتبعها بشرط واحد.

ـ ما هو؟

ـ أن يغادروا المدينة كلها وينصبوا معسكرهم في سيكا. إن المكان هناك متوافر وبذلك لا نعد مجبرين على تحملهم في أزقة مدينتنا. كل يوم أخشى عواقب حدوث مشاجرة بين مواطنينا وبين مرتزقة ثملين. طالما أنهم في مدينتنا فهم سيشكلون خطراً دائماً.

ـ لقد توقعت رغبتك هذه ولذا كنت قد سألت ضباطي عن هذا الأمر. إن رجالي سيقبلون طوعاً إخلاء المدينة التي يقيمون فيها

الآن إقامة سيئة. لكنهم يأملون أن تبقى عائلاتهم بين ظهرانينا لنسهر على مصالحهم وليطمئنوا إلى أننا لا نهيئ ضدهم عملاً شنيعاً.

- إن على عائلاتهم الذهاب أيضاً. كل أولئك النسوة والأطفال ثيابهم مهلهلة وسارقون، ولم أعد أريدهم في أزقتنا.

- ليس لديهم مال لإطعامهم. هنا في قرطاجة يقتسمون مع عوائلهم العصائد(*) التي نعطيها لهم. أما في سيكا فلن تكون الحال هكذا.

- يمكن تسوية الأمر. أخبر المرتزقة أن رواتبهم ستدفع لهم في سيكا. هناك سيلتقي الكتبة والمحاسبون بكل واحد منهم لتحديد المبالغ المستحقة. ولحثهم على الذهاب أكد لهم أنه لدى وصولهم إلى تلك المدينة فإن سلفة مقدارها ستاتير ذهبي(**) سيوافق عليها لأجلهم. وسيكون لأولئك الذين يأتون مع عائلاتهم ستاتيران ذهبيان. وأقول لك إنهم سيتعجلون في حزم متاعهم وفي الرحيل.

بالفعل بعد بضعة أيام توجه المرتزقة مع نسائهم وأطفالهم، إلى سيكا، يتبعهم عن بُعد بضعة فرسان نوميديين مكلفين بالتأكد من عدم نهبهم للمزارع والضياع الواقعة في طريقهم. لدى وصولهم إلى مقصدهم نصبوا خيامهم خارج المدينة حيث ما لبث أن سعى أولئك الأكثر نشاطاً منهم وراء ملذات الجسد بين أذرع عاهرات معبد عشتار المقدسات.

هؤلاء الجنود العاطلون، الذين تخلى عنهم ضباطهم القرطاجيون، سرعان ما اتخذوا لأنفسهم قادة في أشخاص سبانديوس، وماثو، وأوتاريتوس. كان الأول يونانياً من كامبانيا، فاراً من الجيش الرومي، مشهوراً ببشاشته الدائمة

(*) مفردها عصيدة: دقيق يخلط بالسمن ثم يُطبخ.
(**) ستاتير Statere: نقد إغريقي قديم.

وبملاحظاته اللاذعة. أما الثاني فهو محارب ذو عضلات مفتولة، من أصل ليبي، ويتكلم القرطاجية بطلاقة ويتمتع بمهابة عظيمة لدى مواطنيه. أما الثالث فكان غالياً، شعره أشقر طويل، ومعروف ببسالته في القتال.

كان المرتزقة يمضون وقت انتظارهم وهم يحسبون المبالغ المستحقة لهم. وما لبث أكثر المرتزقة طمعاً أن بدا لهم أنه ينبغي طلب مزيد من المال من الخزينة العامة القرطاجية، تحضهم على ذلك الوعود الخادعة التي كان قد قطعها لهم رؤساؤهم في صقلية. بالطبع إن القادة المعنيين كانوا قد هلكوا جميعاً ولم يعد من الممكن إنكار تلك التأكيدات. عندما ذهب حنون، القائد العام للجيوش القرطاجية إلى سيكا، أطبق عليه حشد من اللجوجين والملحِّين مطالبين إياه بالمبالغ الفاحشة. وكان قد جاء ليطلب من المرتزقة أن يخفضوا من أطماعهم، لكنه، وقد خاف على حياته إن هو كشف لهم عما يريد، اكتفى بالكلام المعسول. وحذره سبانديوس قبل أن يرافقه خارج المعسكر قائلاً:

ـ إن مناوراتكم لا تخدعنا. إن قرطاجة ولكي تهتم بنا ترسل جنرالات وضباطاً لم يقاتلوا إلى جانبنا في صقلية ولا يعرفون بالتالي شيئاً عن إخلاصنا وأعمالنا الباهرة! إنك تتذرع بأن مشاغلهم قد استبقتهم في قرطاجة. لا بأس! سنذهب غداً إلى تونس وسنقيم معسكرنا على بعد مئة وعشرين ستاداً من مدينتكم. إن ضباطنا بوسعهم بالتالي المجيء لرؤيتنا وتأكيد أقوالنا.

تملك الرعب أهالي مدينة إليسا لما رأوا المرتزقة ينصبون خيامهم في ضواحي تونس. لم تكن المدينة بعد محاصرة، لكنها أصبحت تحت رحمة تلك الحشود الفظَّة. وحاول الأهالي استمالة المرتزقة فنظموا لأجلهم أسواقاً كان بوسعهم التزود منها بأسعار مخفضة، بالطعام والأقمشة والمجوهرات. وأقبل رسل من مجلس المئة والأربعة لرؤية قادة المرتزقة وليقسموا لهم بأن مجلس

الشيوخ سيدفع حتى آخر زار المبالغ المطالب بها. وإذ رأى سباندیوس، وماثو، وأوتاريتوس أنهم قد أحرزوا على نحو مرض هذا النجاح قاموا بتقديم مطالب جديدة. فطلبوا أن يُدفع لرجالهم ثمن القمح الذي كانوا قد اشتروه مثبتين إياه بالسعر الأكثر ارتفاعاً. وعلى النحو ذاته طالبوا بدفع ثمن الخيول التي قُتلت في المعركة. عندما علم وكلاء بعل يتون بتلك المطالب قاموا بلعب دور مبلبل. وأخذوا يتملقون أولئك المرتزقة، ويتظاهرون بالرثاء لهم وبالإهتمام بتظلماتهم. وسمات التعاطف والشفقة بادية عليهم. لقد استغل أولئك الوكلاء الأمر ليلمحوا لهم بأن سبب شقائهم هو هميلقار برقا. ألم يفضل التخلي عن قيادته لينزوي في منزله المترف في ميغارا، بدلاً من أن يهتم برجاله؟ وهكذا، عندما اقترح مجلس المئة والأربعة على المرتزقة وساطة ابن أدونيبعل، رفضوا بصخب كبير الأمر، مؤكدين أنهم لا يريدون التعامل إلا مع جيسكون.

هذا الأخير ترافقه عربات محملة بصناديق ثقيلة من الخشب وصل ذات صباح إلى مدخل المعسكر. واجتمع آلاف الرجال مثيرين سحابة غبار هائلة، وهم ينتظرون بفارغ الصبر بدء التوزيع. وعما قريب، وقد انتظم المرتزقة جماعات بحسب أصولهم، نادى موظفو الخزانة العامة على رجال المرتزقة وتم دفع قطع نقدية وافرة لهم. بدا الفرح جلياً في عيونهم وأخذ بعضهم يطالب رفاقه بالمبالغ الصغيرة التي كانوا قد اقترضوها منهم.

عند انتصاف النهار خطب جيسكون قائلاً:

ـ لقد أوفت قرطاجة بوعدها وبوسعكم التحقق من ذلك.

ـ لم يُدفع كل شيء، صاح سباندیوس.

ـ إن زعيمكم على حق. بقي علينا أن ندفع لكم ثمن حصص القمح والأحصنة المقتولة في المعركة. سنفعل ذلك بعد بضعة أشهر. بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في ليبيا فإن قضاة مدننا سيقومون بإبلاغهم في تلك المنطقة. أما الآخرون فعودوا بسلام إلى أوطانكم:

إلى سردينيا، واليونان وغاليا. إن سفناً ستحمل إلى وكلاء تجنيدنا في تلك البلاد المبالغ المستحقة، شرط أن توزعها عليهم. لقد تصرفنا كثيراً في الماضي على هذا النحو، ولم يتذمر آباؤكم قط من ذلك.

- جيسكون، قال الكامباني، لقد أصغينا لاقتراحك. اخرج الآن مع رجالك إلى تخوم المعسكر. سنستدعيك عندما يتداول مجلسنا الأمر.

ابتعد القائد القرطاجي الذي كان بالأحرى واثقاً من سير الأحداث الجيد. وعندما غاب عن الأنظار أوضح سبانديوس للرجال - وكان كلامه يترجمه مختلف المترجمين - بأنه هو وماثو وأوتاريتوس سيتكلمون الواحد إثر الآخر، ليوضحوا وجهات نظرهم حول اقتراح جيسكون. كان أول من تكلم القائد الغالي:

- لقد حصلنا على المال على نحو مرض، عدا ما يتعلق بالقمح والخيول. في الوقت الحاضر ليس باستطاعتنا أن نفعل الكثير. فنحن نعتمد على قرطاجة. ونحن بحاجة إلى سفنها للعودة إلى أوطاننا ولن نستطيع استخدامها إلا إن قبلنا شروطهم. إننا متعجلون للعودة إلى بلادنا والاهتمام بأراضينا ومنازلنا. لذا، ياإخواني إن الحكمة تدعونا إلى موافقة جيسكون.

- أوتاريتوس، صديقي، قال ماثو، إني أفهم مشاعرك وأحترمها. اعلم مع ذلك أنك بذهابك أنت ورجالك إنما أنتم تخدمون مصالح قرطاجة بمضرتنا. إن الشيوخ ليس لديهم إلا رغبة واحدة: أن يروا الغاليين، والإيبيريين والسردينيين واليونانيين يغادرون هذه الشواطئ. وعندما يحصل ذلك سينقلبون ضدنا نحن الذين نعاني بؤس العيش على سواحلهم وسيسحقوننا دون شفقة. أنتم ستكونون بعيدين وسيكون من السهل عليهم حينذاك أن ينسوا إرسال المبالغ التي يدينون بها لكم. صدقني إن عروض جيسكون ما هي إلا فخ.

- إن ماثو على حق، قال سبانديوس مؤيداً. أنا وكثير من رجالي فارون من الجيش الرومي. ولا نستطيع العودة إلى أوطاننا وسيصيبنا دون أدنى شك المصير الذي سيصيب مواطني ماثو. ليس أمامنا بالتالي إلا حل وحيد: أن نحصل على تسديد فوري لما هو مستحق وأن نبقى متحدين. إن قرطاجة ولكي تتخلص منا عليها القيام بجهود إضافية، وهي إذ تفعل هذا سيكون من المستحيل أن تشن حرباً ضدنا. ترى هل سنحصل على أراض؟ في جميع الأحوال سنكون في منجى من انتقامها. دوركم الآن في الكلام.

تقدم العديد من الرجال ليخاطبوا رفاقهم. لقد كانوا يجهلون أن سبانديوس قد وضع خطة مع الفارين الآخرين، اتفقوا فيها على أن أولئك الذين سيؤيدون رأي جيسكون سيرجمون بالحجارة ما إن تدوي صيحة «اضربوهم». وهكذا، لم يكن أمام الخطيب الأول، وهو غالي، وقت ليفصِّل حججه ولاقى بعض اليونانيين والسردينيين المصير ذاته. لقد أصابتهم مختلف المقذوفات واحتضروا أرضاً. وإذ تملك المجلس الرعب قرر التزام توصيات سبانديوس وماثو. وعندما استدعي جيسكون ورجاله تقدموا واثقين. ولم تقلقهم جثث الجنود المرجومة. لقد تخيلوا أن الأمر يتعلق بمتمردين يعارضون اتفاقاً. لكن أوهامهم ما لبثت أن طارت عندما أحاط بهم الحشد واتخذهم أسرى. بدءاً من اليوم، بين قرطاجة وجنودها السابقين، ستشتعل الحرب.

انتشر الخبر في كل المناطق الواقعة تحت سيطرة قرطاجة وأبعد من ذلك بكثير. وثار النوميديون والليبيون، إذ تعبوا من الضرائب المرهقة التي أثقلتهم، في حين هرب آلاف العبيد من الأراضي التي كانوا ملزمين بالعمل فيها، واتجهوا إلى معسكر المرتزقة. وجاء عشرات الآلاف من الرجال من ليبيا ليأخذوا أماكنهم تحت إمرة ماثو. وليؤمن لهم معاشهم كان لا بد لماثو أن يطلب من نساء شعبه تقديم مجوهراتهم وحليهم. لم تشتك تلك النسوة بل كن

يتنافسن في الكرم، مظهرين بذلك كم كانت كراهيتهن لقرطاجة عميقة.

كان سبانديوس وأوتاريتوس وماثو قد قسموا الجيش إلى ثلاث مجموعات. ضربت المجموعة الأولى الحصار على أوتيكا، أما المجموعة الثانية فقد حاصرت هيبّوا أكرا، بينما نظمت المجموعة الثالثة وقد بقيت في تونس، حصاراً برياً على مدينة إليسا. وحتى أنها قامت ببعض الغارات على بساتين ميغارا. قرر مجلس المئة والأربعة الذي اجتمع على عجل، أن يعهد بقيادة العمليات إلى حنون. وهكذا توجه هذا القائد مع عشرات الفيلة إلى أوتيكا التي استقبله أهلها بفورات الاستبشار. طلب منهم أن يقدموا له كل آلات الحصار التي يملكونها: منجنيقات، قذّافات، راجمات حجارة، وشن في الحال هجوماً ضد معاقل الأعداء وفيه بثّت فيلته، الموجهة توجيهاً جيداً، الرعب في صفوف المرتزقة وداست مئات منهم بأرجلها، بينما هرب الآخرون إلى الجبال المجاورة.

جرت المعركة في الصباح الباكر، وبعد انتصار حنون فيها أسكره النجاح، فقرر العودة إلى أوتيكا ليأخذ حماماً ويستعيد قواه. إن رجاله الذين تُركوا لأنفسهم تشتتوا في الريف للسلب والنهب. ولما أُخطر سبانديوس بهذا الإهمال جمع جنوده وهاجم المواقع القرطاجية، مستولياً بلا عناء على جميع معدات الحصار التي عهدت بها أوتيكا إلى حنون. بعد بضعة أيام تعرض هذا الأخير إلى هزيمة جديدة واضطر للعودة إلى قرطاجة مع ما تبقى من جيشه.

في مجلس المئة والأربعة، انعقدت جلسة كانت بالأحرى حامية الوطيس. إن بعل يتون الذي كان حتى ذلك الحين موضع حظوة لدى الشيوخ الآخرين تم انتقاده بعنف، وكان لا بد له من أن يعتذر جهاراً:

- زملائي الأعزاء، أعترف أني بخست من جرأة هؤلاء

الأشقياء. إن المسكين جيسكون هو الآن بين أيديهم ولا ينبغي أن نقدم على أمر يمكن أن يسبب هلاكه.

ـ أنت تهتم بصديقك، جلجل صوت أدونيبعل، وليس بقرطاجة. أتعتقد أن أولئك الذين خدعناهم وخاتلناهم سيمكثون في أوتيكا؟ لو كنتُ في مكانهم لرحلتُ ولن يدهشني أن نجد أنفسنا مرة أخرى محاصرين من جميع الجهات، والبحر هو الطريق الوحيد للاتصال مع الخارج. إن عدم كفاءتك كلفتنا غالياً، غالياً جداً.

ـ وماذا تقترح؟

ـ وهل علي أنا حقاً أن أفعل ذلك؟ لقد أبعدتَ بدسائسك ومؤامراتك ابني عن قيادة الشؤون العامة.

ـ هذا ليس صحيحاً!

أطلقت صفوف من الشيوخ صيحات استهجان أسكتها أدونيبعل بإشارة من يده:

ـ إن العديد من زملائي وضباطنا بوسعهم أن يشهدوا على ذلك، إن وكلاءك حرضوا المرتزقة ضد هميلقار، مقنعين إياهم بأنه المسؤول الوحيد عن مصائبهم. إن كان الأمر يتعلق بشخص آخر غير ابني لكنت طلبت أن يوجه إليك مجلس المئة والأربعة اتهاماً. إني لن أفعل هذا وأمنع أي شخص من فعله لأبين تماماً أن خلافنا لا يحمل بواعث شخصية.

ـ لأجل هذا آل برقا أسياد قرطاجة من جديد، تنهد بعل يتون. آمل ألا يؤاخذنا بعل حمّون على هذا الاختيار! أيها الزملاء الأجلاء، بحزن كبير، أعترف بأخطائي وأطلب منكم أن ترسلوا إلى ميغارا الشريف أدونيبعل ليلح على ابنه أن يتولى قيادة جيوشنا.

ـ ليس علي أن ألح عليه. يكفيني أن أقول له بأن مدينته هي فعلاً في خطر ليضرب صفحاً عن جميع شكاواه. من الغد سيكون على أتم استعداد.

استجاب هميلقار لطلب أبيه وأحاط نفسه بضباط خدموا معه سابقاً في صقلية. لم تكن جموع المرتزقة هي التي تشغل باله إلى أقصى حد وإنما النوميديون الذين تمردوا جميعاً ضد مجلس الشيوخ باستحسان من جوبا، استحسان ضمني على الأقل، إن لم تكن موافقة. أما الرسل الذين كان هميلقار قد أوفدهم على جناح السرعة إلى البلاط فإنهم لم يستطيعوا لقاء العاهل العجوز بينما رفض ابنيْه، متعللين بذرائع شتى استقبالهم. وانتهى الأمر بابن أدونيبعل، وقد يئس من الأمر، إلى أن يستدعي إليه مشرفه هيميلك:

ـ هل ابنك مستعد للقتال؟ في أي عمر هو؟ لقد مضى وقت طويل دون أن أراه.

ـ إنه أكبر سناً مما تظن. لقد تزوج منذ عامين ولديه ابن يحمل اسمي. ويعيش مع امرأته في أسبيس.

ـ استدعه، هو وأهله.

لدى وصول ابن هيميلك، اصطُحب إلى هميلقار:

ـ هل أنت جاهز للخدمة تحت أوامري؟

ـ سيكون لي شرف عظيم في ذلك.

ـ سأكلفك بمهمة: اعثر بأي وسيلة على جوبا وشقيقه نهرواس. وقل لهما: إن ابن أدونيبعل يفهم اعتراضاتكماواعتراضات شعبكما. ليست قرطاجة هي التي تلتمس مساعدتكما وإنما هميلقار برقا. صديقكما وأخوكما. إنه يرجوكما بألا تقدما بعد اليوم المعونة العسكرية إلى المرتزقة وإنما أن تضعا فرسانكما تحت أوامره.

ـ هل عليَّ أن أعدهما بمكافأة؟

ـ كلا، سيكون ذلك إهانة بالغة لهما! احصل على موافقتهما وابق معهما الوقت اللازم لنصحهما. وفي أثناء ذلك ستكون امرأتك وابنك في ضيافتي في ميغارا.

بعد بضعة أيام غادر هميلقار قرطاجة مع عدة آلاف من الرجال وحوالى مئة من الفيلة. وتم تجنيد جميع المواطنين الذين كانوا قد خدموا سابقاً في الجيش. أما الجنود الآخرون فقد كانوا من الفارين الذين حكم عليهم بالتجذيف على متن السفن، أو بالبيع عبيداً. لكن مجلس الشيوخ قبِل بتحريرهم شرط أن يعاودوا حمل السلاح، ووعدهم بحصة من الغنيمة المستولى عليها من العدو. وسرعان ما قبل أولئك الفارون أن ينضووا مجدداً تحت راية مدينة إليسا حينما تذكروا أن رفاقهم قد وافقوا على معاقبتهم.

خرج الجميع، رجالاً ودواباً، من بوابة ميغارا واتجهوا نحو أوتيكا. كانت المدينة ما تزال محاصرة وبدأت تفتقر إلى الطعام. كان المتمردون قد أحاقوا بها تماماً وسدوا كل طرق الدخول، لا سيما الجسر الحجري فوق نهر ماكاراس، الذي يتعذر اجتيازه من أي مكان آخر. لأيام عدة حاول ابن أدونيبعل أن يتحرى عن معبر ما، لكن دون جدوى. وأخيراً ابتسم له الحظ. فقد لاحظت دورية مرسلة بالقرب من مصب النهر أن المياه كانت تنخفض، حين هبوب الرياح مساء، مما يتيح الوصول إلى الضفة الأخرى مشياً على الأقدام. اتجه الجيش نحو البحر في سرية تامة، وفي الليلة التالية اجتاز نهر ماكاراس، ليصل بعد سير طويل إلى سهل واسع يقع أمام أوتيكا.

عندما لاحت تباشير الصبح كان القرطاجيون قد أصبحوا على مشارف معسكر سبانديوس. كانت الفيلة تسير في المقدمة يتبعها الفرسان المشاة. أما المرتزقة الواثقون من تفوقهم فقد انتشروا في السهل وانتقلوا إلى الهجوم. كان ذلك ما ينتظره هميلقار الذي ما لبث أن أمر طليعة جيشه بالانكفاء إلى الوراء. إن سحابة الغبار التي أثارتها الفيلة والخيل بتراجعها، حالت دون رؤية رجال سبانديوس لما يجري فوق أرض المعركة. لقد اعتقدوا أن خصومهم قد تقهقروا على عجل. فما كان منهم إلا أن نقضوا الصف وانقسموا، وهم

يصيحون فرحين، إلى مجموعات صغيرة، بحسب تجانسها. وسرعان ما سحقت رماح المشاة القرطاجيين تلك المجموعات. فجأة استدار أولئك المشاة القرطاجيون يمنة ويسرة ليفسحوا المجال أمام الفيلة والفرسان ليمرُّوا، وهؤلاء قاموا مجدداً بالانكفاء إلى الوراء. وهكذا فإن مئات المرتزقة وقد أسقطتهم خيولهم أرضاً، داستهم قوائم الفيلة. عندما بدأت الشمس بالغروب كان ستة آلاف رجل من رجال سباندیوس قد لقوا حتفهم وتم أسر ألفي رجل. وهؤلاء اقترح عليهم هميلقار القتال إلى جانبه أو استرداد حريتهم شرط أن يقسموا بألا يحملوا السلاح ثانية ضد قرطاجة. واختارت غالبيتهم الحل الثاني.

استفاد هميلقار من هذا النصر ليريح جنوده. كان يعلم أن الحملة ستكون طويلة ولم يكن يريد إتعابهم سدى. ذات صباح، وعندما كان يتفقد أطراف المعسكر، لمح مجموعة من مئتي فارس نوميدي تقترب إلى أن أصبحت على مسافة مناسبة. لم يكن هميلقار يدري على وجه الدقة مقاصدها. فانسحب مع ضباطه إلى وراء السياج الشائك. وفي غمرة المفاجأة انفصل فارس نوميدي عن رفاقه ملقياً على الأرض رمحه وسيفه. كان بحماس وسرعة يعدو بفرسه، ودخل بكل فخر المعسكر تحت أنظار الحرس المشدوهين. لم يستطع هميلقار آنذاك أن يكتم صيحة فرحه. ذاك الجندي المقدام لم يكن إلا نهرواس، شقيق جوبا، حياه هميلقار بحرارة قائلاً:

- أشكر قدومك للقائي. أظن أنك تكلمت مع ابن هيميلك.

- إن ابن المشرف هو في بلادنا وسنكون بحاجة إليه لبضعة أشهر أخرى. إنه منظِّم جيد وموضع ثقة جوبا الكاملة. لقد أرسلني جوبا إليك على وجه السرعة لأؤكد لك أن ودَّه ممنوح لك على الدوام. أنت دعوتنا لنجدتك ونحن لن نخلف الوعد الذي أعطيناه لك في الماضي. عما قريب سينضم إلي ألفا خيَّال. أرجو أن تحدد المنطقة التي بوسعي أن أمركزهم فيها في معسكرك.

- إن ضباطي سيحددون لك ذلك. اعلم أني لن أنسى أبداً بادرتكما. إن النوميديين هم حلفاؤنا الأكثر وفاء والأشد إخلاصاً لقرطاجة.

كان انضمام جوبا هو الخبر الطيب الوحيد الذي بلَّغه هميلقار إلى مجلس المئة والأربعة. على النقيض من ذلك أخبر المجلس هميلقار بأحداث مفجعة. ففي سردينيا، تمردت المرتزقة ضد ضباطهم القرطاجيين وذبحتهم دون شفقة. وكان جيش نجدة بقيادة حنون قد أُبيد في كمين وصُلب قائده بعد أن عُذِّب بقسوة. بالنسبة لقرطاجة كانت تلك كارثة حقيقية. فبعد صقلية فقدت مدينة إليسا سردينيا، وهي إحدى أملاكها الأكثر غنى، دون أمل من أن تتمكن من استرجاعها بسرعة.

* * *

علم سبانديوس وأوتاريتوس وماثو بعصيان المرتزقة في سردينيا بوساطة المبعوثين الذين أرسلهم المتمردون إليهم. فبعد انتصارهم على الجيش القرطاجي قاموا بنهب البلد دون حياء وأصبح وجودهم لا يطاق بالنسبة للسكان إلى حد أن هؤلاء قاموا بطردهم. وهكذا أُجبروا على اللجوء إلى الشواطئ الإيطالية، لقد كانوا يبحثون عن ملاذ لهم واقترحوا على رفاقهم أن ينضموا إليهم في قتال قرطاجة. وافق قادة المتمردين على ذلك وعادت الرسل تحمل النبأ الطيب إلى رفاقهم في السلاح.

كان حضورهم في المعسكر واضحاً واعتقد سبانديوس أنه حاذق في استخدامه. ذات صباح دوى صوت الأبواق، منادياً الرجال إلى التجمع. خاطبهم الكامباني بلهجة جافة آمرة:

- إن ضباطكم قد قصوا علي أن بعضاً منكم قد تأثر إيجابياً بالكرم الذي أبداه هميلقار تجاه أسرانا مجنداً إياهم في جيشه أو معيداً إليهم حريتهم. إن ذلك القائد اللعين قد بلغ هدفه الذي أراده

وهو أن يفرقنا وأن يضعف معنوياتنا. أيها المرتزقة، إخواني، أنتم تعرفون أفضل مني أولئك الذين يبرُّون مساء وهم حول النار، بوعود المصالحة والتهدئة. أنتم تعتقدون أنهم يدافعون عن مصالحهم وعن مصالحكم. لا تحسبوا ذلك أبداً. إن رسالة من أخواننا في سردينيا أبلغتنا أن هؤلاء الرجال قد تصرفوا وفق أوامر جيسكون. لقد وعدهم جيسكون بالنجاة وبكمية ضخمة من المال إن هم أفلحوا في إقناعكم بالإفراج عنه.

ـ أجل، هذا صحيح، قال صوت منعزل. قيل لنا أن جيسكون، إن تم إطلاق سراحه، فبوسعه أن يدافع عن قضيتنا لدى الشيوخ. سنتكلم أيضاً عن موضوع عرض هذا الاقتراح لتصويتنا.

ـ أرأيتم، قال أوتاريتوس، ها هي الخيانة تطوف حولنا. لنفترض أننا حررنا جيسكون. ماذا سيفعل برأيكم؟ سيبين لنظرائه أن الشقاق يسيطر علينا وأنه يجب الاستفادة من ذلك في شن هجوم على معسكرنا، هجوم لن نكون قادرين على الوقوف في وجهه. حينذاك سينسى القرطاجيون وعودهم المعسولة وسيذبحوننا دون شفقة. ولتوقي هذا الخطر لا أرى إلاحلاً واحداً: أن نجعل بين مدينة إليسا ومرتزقتها القدامى هوَّة لا يمكن اجتيازها. علينا أن نعقد العزم على ألا ترمم أبداً تلك الهوة. لأجل هذا ليس أمامنا إلا هذا الخيار: تعذيب وقتل جيسكون ورجاله.

انطلق هتاف قوي مرحباً بتلك الكلمات. ولم يحتج إلا بضعة رجال فقط. تقدم أحد هؤلاء المحتجين، وهو غاليّ، وخاطب رفاقه قائلاً:

ـ أخواني، لقد وهبت حياتي لقرطاجة وتشهد على ذلك الندوب التي تغطي جسدي. إنها مدينة لي بالكثير من المال وأنا لا أزمع أن أقدمه لها هدية. لكني امرؤ شريف. إن جيسكون تصرف على الدوام بكرم نحونا وبفضل جهوده تمكَّنا من مغادرة صقلية مع أسلحتنا

ومطايانا. لقد فعل ما بوسعه لمساعدتنا. وبما أنكم قررتم موته فجنبوه على الأقل التعذيب. إنه لا يستحقه.

ما كاد الرجل ينهي كلامه حتى ضربه أوتاريتوس بسيفه:

- هذا هو المصير الذي رصدته لجميع أنصار قرطاجة والمتواطئين معها.

توجه المرتزقة، المتعطشون إلى الدماء، نحو السور حيث وُضع السجناء. اقتيد المساكين، تحت وابل من الشتائم واللكمات، إلى خارج المعسكر حيث قُطِّعت أيديهم وأرجلهم قبل أن يُلقى بهم في حفرة واسعة نازعوا فيها لأيام طويلة. وفي نهاية المطاف، قام المرتزقة، ولم يعد بوسعهم تحمل صرخات وأنَّات ضحاياهم، بتغطيتهم بالتراب، فقضى اختناقاً كل من كان يتردد فيه نفس حياة.

من فوق أسوار قرطاجة كان بوسع عائلات الأسرى أن تشهد عذاب أبنائها. ولما انتهى كل شيء أرسل مجلس المئة والأربعة مبعوثين إلى المرتزقة، مقترحاً عليهم، مقابل مبلغ كبير، افتداء الجثث ليؤدى لها التكريم الأخير. رفض سبانديوس، مستخفاً بجميع قوانين الحرب، أن يرد الأجساد وهدد الرسل بأن تلاقي المصير نفسه. وأخيراً، قبل أن يدع الرسل تعود، لكنه حذرها قائلاً بأن كل مبعوث قرطاجي، من اليوم فصاعداً، سيلاقي حتفه على الفور.

إن قساوة سبانديوس أثارت لدى هميلقار غضباً عارماً. من المؤكد أنه لم يكن يحب جيسكون، وهو المسؤول عن موت أحد أصدقائه، لكن لم يكن بوسعه قبول هذا العمل المتوحش الذي قام به المرتزقة. ولكي يعاقبهم، أمر بأن تدوس الفيلة بقوائمها جميع الأسرى الذين هم بحوزته. ثم، ومتلهفاً إلى الانتقال بأسرع ما يمكن إلى العمل، طلب من حنون أن ينضم إليه مع قواته. وبذلك سيكون بوسع الجيشين أن يوحدا عملياتهما وأن يحاولا تحرير أوتيكا التي ما تزال محاصرة. لم تكن الفكرة موفقة. فحنون، الجندي السيء، كان ذا حساسية مرضية وارتأى أنه لا يليق به إطاعة هميلقار،

الأصغر سناً منه وبالتالي، فهو بحسب رأيه، أقل خبرة. لذا رفض باستمرار تنفيذ التعليمات الواردة إليه، مما أدى في كثير من المرات إلى إلحاق المشقة برجاله. وما كان من هميلقار الذي أعياه الأمر إلا أن التمس التحكيم لدى مجلس المئة والأربعة الذي قرر استدعاء حنون إلى قرطاجة وترك لهميلقار وحده مهمة قيادة الحملة.

لدى اقتراب فصل الشتاء قرر ابن أدونيبعل أن يعلق مؤقتاً العمليات العسكرية وأن يلجأإلى داخل الأسوار. ذات مساء، في ميغارا، أصرَّ أبوه على أن يراه.

ـ هميلقار، أنت تعرف الوضع، إن المدينة تضج بإشاعات شتى. وأنت ملوم على سلبيتك وتسويفك. أنت الذي كنت في الماضي سريع التصرف أراك تغيرت كثيراً!

ـ إني أفهم دهشتك، لكن لا تقلق. فأنا أقاتل حتى وإن كنت بعيداً عن ساحة المعركة. إن الصراع على قدر من الأهمية، وإني أريد أن أضع بحوزتي كل وسائل النجاح إن أنا تأكدت من حيادية الروم، شرِّ أعدائنا.

ـ هل قمت باتصالات معهم؟

ـ كان لا بد من ذلك. إن سفننا قد فتشت سفناً تجارية رومية محملة بأطعمة مرسلة إلى المرتزقة. واقتيدت طواقم السفن إلى الميناء العسكري وحرصتُ على أن تتم معاملتها معاملة حسنة.

ـ كان ينبغي إخطارنا بتلك المسألة!

ـ لقد تجاهلت عن عمد فعل ذلك لأني كنت أخشى رد فعل مواطنينا. إذ إن بعضهم قد تسوَّل له نفسه بمهاجمة السجناء وإزعاجهم. إن كايوس كيسيليوس كاتولوس، وهو القنصل الذي كان عدوي في صقلية، قد أرسل إلي سراً مبعوثيْن أجريت معهما محادثات طويلة. وتوصلنا منذ فترة قصيرة إلى اتفاق، فمقابل تحرير السجناء تلتزم روما بتزويدنا بجميع البضائع التي نحن

بحاجة إليها وتمتنع عن التجارة مع أعدائنا. وعند قدوم فصل الربيع سيصل أسطول من أوستي مجنباً إيانا المجاعة.

ـ لقد تصرفت بحكمة.

ـ ليس هذا كل شيء. لقد جددت علاقاتي مع هييرون، ذاك النذل الكبير، المسؤول عن جميع مصائبنا لخيانته في بداية الحرب. إن صداقة الروم تزعجه كثيراً منذ أن غادرنا صقلية. إنه يخشى على استقلال مملكته، لذلك فهو بحاجة إلى أن تكون قرطاجة قوية وهو لم يمانع في إرسال كميات ضخمة من القمح والزيت إلينا.

عندما أقبل فصل الصيف غادر هميلقار قرطاجة مع جيشه. كان يستعد لاجتياز ماكاراس عندما لحق به رسول من مجلس المئة والأربعة:

ـ ابن أدونيبعل، يجب علي ان أبلغك خبرين سيئين.

ـ تكلم.

ـ إن إحدى سفننا قد استطاعت مغادرة أوتيكا قبل أن تقع المدينة بيد المرتزقة.

ـ هذا مستحيل.

ـ أجل. لقد تمت خيانتنا بطريقة شنيعة، وذلك من جانب أناس هم من عرقنا نفسه ويتكلمون لغتنا ويبجلون الآلهة التي نبجِّل. في البداية اقترحوا على الروم التحالف معهم، لكن الروم رفضوا.

ـ إنهم أعداء لكنهم مخلصون للوعد الذي قطعوه لي.

ـ والتقى سكان أوتيكا بعد ذلك بماثو الذي وعدهم بالمحافظة على حياتهم وأموالهم إن هم سلموه المدينة. لقد نفذوا هذا العمل المشؤوم وذبحوا دون رحمة رجالنا الذين كانوا بقيادة شقيق زوجتك هنيبعل، وألقيت أجسادهم من فوق السور.

ـ وهل تجنب هنيبعل هذا المصير؟

ـ حسب ما أعلم فإنه قد تصرف بجبن، متوسلاً إلى سكان أوتيكا أن يدعوه على قيد الحياة مقابل أن يدلهم على المخابئ التي التجأ إليها بعض رجاله. لكن أحد ضباطه، وقد رأى ذلك، ضربه بسيفه ضربة مميتة معاقباً إياه على مكره. وذلك قبل أن يُقتل هو نفسه.

ـ نِعم ما فعل. إن هنيبعل مات كما عاش، خائناً، جباناً. إن نهايته تواسيني في أشياء كثيرة.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ هذا أمر يخصني وحدي. وما هو الخبر السيء الثاني؟

ـ أبوك.

ـ ماذا حدث؟

ـ كان في إحدى جلسات مجلس الشيوخ عندما أُعلن عن سقوط أوتيكا. لقد نهض واضعاً يده على صدره ثم هوى ووجهه تلقاء الأرض. لم يفق من غيبوبته، لقد مات. اعلم أن المدينة قد أقامت له جنازة عظيمة.

ـ اتركني.

ظل هميلقار وقتاً طويلاً خائر القوى، يفكر بأبيه الذي ستعوزه عوزاً مرًّاً نصائحه القيمة. إن أدونيبعل كان يعامله أحياناً بقسوة، محرماً عليه لسنوات الانخراط في السلك العسكري. وكان قد أرسله، إزعاجاً له وإكراهاً، إلى ضيعتهم في أسبيس حيث شعر بأنه مهمل. واليوم فهم أن أباه كان يريد أن يمتحن قوة رغبته وأن يعلمه فضيلتي الصبر والتفكير. تلك الصفات التي أتاحت له، فيما بعد، أن يصبح قائداً قوياً ومخططاً عسكرياً ممتازاً. بكى طويلاً وهو يفكر بإمارات المحبة الرزينة تلك، وندم كثيراً على حدته في الأيام الماضية. ثم، وبعد أن هدأت نفسه، أقسم أن يكرم بانتصارات عظيمة، ذكرى أبيه المتوفى. وسرعان ما ابتسم له الدهر.

ذات صباح أخطرته كشَّافة نوميدية بأنها لاحظت جيشاً ضخماً من المتمردين، حوالى خمسين ألف رجل، بقيادة سبانديوس وأوتاريتوس. كان الجيش يتقدم محتمياً بالجبال، دون أن يرسل أي دورية على الأرض المنبسطة. قرر القائد القرطاجي ألا يبدأ المعركة على الفور. فمنذ كارثة أديس والقرطاجيون يعرفون أن فيلتهم وفرسانهم ليس لهم نفع في التضاريس الوعرة ، وعلى العكس من ذلك، كانوا لا يقهرون في الأرض المنبسطة. وهذا هو السبب الذي لأجله فضَّل المرتزقة البقاء في الجبال.

وبينما كان هميلقار يعدو بفرسه متقدماً رجاله انضم إليه نهراواس وقال:

ـ لقد أرسل إلي جوبا رسولاً. كلفني أن أقول لك أنه قد بكى حينما علم بموت أدونيبعل. إنه يعتبره بمثابة أبيه ويدين له بأي شيء تعلمه.

ـ إن أخاك هو أيضاً أخي. ومن الطبيعي أن نتشاطر الأحزان نفسها. لنتكلم، إن شئت، عن الوضع. يغضبني أن أتبع أعداءنا دون أن أستطيع مهاجمتهم. بوسعهم، إن شاؤوا، أن يقودونا على هذا النحو حتى أعمدة ملقارت.

ـ اطمئن، إن انتظارك سينتهي عاجلاً.

ـ أشك في ذلك.

ـ لا تتعجل الأمور. إني أعرف جيداً هذه المنطقة التي كثيراً ما أصطاد فيها. لقد سلك هؤلاء الحمقى الطريق السيء. وبعد يومين سيصلون إلى مكان نسميه مضيق «المنشار». إنه يتألف من شعاب مختلفة يخفي كل منها الآخر وتشبه أسنان المنشار. ولا يعرف من يغامر بنفسه في هذه المنطقة أنه سينتهي إلى سور صخري هائل لا يمكن اجتيازه على الإطلاق.

ـ هل تقصد أن هذا المضيق هو في الواقع طريق مسدودة وأن المرء لا يتنبه لها إلا في آخر لحظة؟

ـ أجل، بكل تأكيد. لأجل هذا ينبغي ترك المرتزقة يتابعون طريقهم. وعندما يلجون المضيق سنبادر نحن بسرعة بالتحرك نحوهم. سأقوم أنا مع فرساني بسد المدخل. وتهتم أنت ورجالك بالجبال. ولن يكون أمامنا بعد ذلك سوى انتظار هؤلاء المتمردين اللعينين حتى يتوسلوا إلينا لنقبل استسلامهم.

ـ شكراً على هذه الإفادة التي أقدر أهميتها تقديراً كبيراً. إنها دليل جديد على إخلاصك لقرطاجة.

ـ بل على إخلاصي لهميلقار برقا لأنه صديق أخي. أما مدينتك فأفضل ألا أقول شيئاً عنها، إن أخذتُ باعتباري الجحود الذي أبدته في الماضي نحوك.

كان رأي نهرواس صائباً. فالمرتزقة بعد أن قدم لهم أدلاؤهم معلومات خاطئة اندفعوا في مضيق «المنشار» بخطوات نشيطة. كان رتلهم الطويل يتموج عبر الشعاب، ثم توقف وقد ألجمته المفاجأة والسخط، أمام جرف هائل سد عليهم المرور. دوت الأبواق لإعطاء أمر للرجال بالعودة على أعقابهم، لكن أولئك لم يتبينوا صوتها. إذ إن قرقعة مرعبة حالت دون سماعهم لإنذارها. كانت تلك ضجة كتل الصخور التي دحرجها جنود هميلقار فوق المنحدر ليسدوا مدخل المضيق.

قيَّم سبانديوس وأوتاريتوس، وهما العسكريان الخبيران، بدقة كافية الوضع. كان وضعاً ميؤوساً منه تقريباً، لكنهما ارتأيا أن من الأفضل ألا يحذرا رجالهما، وهكذا أمروهم بنصب الخيام كما لو أن شيئاً لم يحدث. كان الليل آنذاك قد هبط وسرعان ما أوقدت أول النيران وأذكيت بالعديد من أخشاب الأدغال التي تغطي المنحدرات. وإلى وقت متأخر من الليل كانت تترامى إلى الأسماع أغاني الغاليين والسردينيين، أناشيد خفيضة الصوت نائحة، تتكلم عن الوطن الأم وبهائه. في الصباح الباكر استيقظ الرجال منتظرين أوامر الانطلاق التي لا بد أن يوعز بها لهم قائداهم، مضت ساعات

طويلة قبل أن يتفضل سبانديوس وأوتاريتوس بالظهور يصحبهم زارزاس، وهو مساعد ماثو. كان سبانديوس هو الوحيد الذي تكلم:

- أخواني لقد وقعنا في فخ بسبب خطأ أدلائنا الذين أعدمتهم الليلة. إني أرسلت العديد من الرسل إلى رجالنا المتمركزين في تونس. ولقد انطلق عشرة وسيتمكن واحد منهم على الأقل من اجتياز صفوف الأعداء. وبعد بضعة أيام سيكون ماثو هنا مع رجاله والمؤونة. سيخلصنا وسيكون بوسعنا أن نستأنف القتال ضد هميلقار برقا. وفي انتظار ذلك لا تبذروا الزاد. إن ضباطكم سيوزعون الماء والطعام عليكم مرتين في اليوم. كونوا أقوياء وشجعاناً، ما هي إلا برهة عصيبة ينبغي اجتيازها. وبعد بضعة أيام ستأكلون حتى التخمة وسط أطلال المعسكر القرطاجي.

تفرق المرتزقة وهم بالأحرى متفائلون. كانوا يثقون ثقة عمياء بسبانديوس، فما قاله لا يمكن أن يكون إلا الحقيقة وما كان أحد ليخاطر بنفسه وينقضها. خلال عشرة أيام اصطبروا بلا شكوى، آملين كل مساء أن توقظهم الأبواق في الصباح الباكر مبشرة بوصول ماثو وأتباعه. وقد حدثوا بعضهم بعضاً أنه لم يأت إليهم حتى الآن، ربما لاضطراره إلى تأخير رحيله لئلا يخلي مواقعه على نحو خطر. لم يظهر القرطاجيون قط. بالتأكيد، كان حراسهم يُشاهدون وهم يحرسون فوق الجبال، لكنهم لم يسعوا إلى الهجوم على المتمردين، ولا حتى إلى إرسال دوريات ليلاً بالقرب من الخيام. لقد كانوا يكتفون بوجودهم هناك، كتهديد غير منظور يحوم فوق رجال سبانديوس.

عندما انتهى اليوم الخامس عشر استولى على المرتزقة غضب مكتوم وقد قُلِّلت حصصهم اليومية من الطعام على نحو صارم. ثم تجمعوا ونادوا بصيحات عظيمة قائديهم. ظهر القائدان وإمارات الانهزام بادية عليهما.

- أين ماثو ورجاله؟ صرخت أصوات كثيرة هائجة.

ـ نحن ننتظر قدومهم بين يوم وآخر، أجاب سبانديوس. لا يمكنهم إلا أن يأتوا.

ـ هذا زعمك انت.

ـ لم أكذب عليكم قط، وأنتم تعرفون ذلك. أرجوكم أن تثقوا بي.

ـ ثلاثة أيام، سنعطيك ثلاثة أيام ولا يوم آخر أزيد.

في نهاية المدة المحددة تجمع المرتزقة مجدداً وأثقلوا سبانديوس بتهكماتهم، فانبرى أوتاريتوس للدفاع عنه بفصاحة واقتناع. أما زارزاس فقد كان أكثر حذراً، كما لو أنه كان يقدِّر أن ساعة أجله لم تأت بعد. تفرق الرجال دون أن يقرروا شيئاً.

قام بعض الرجال وهم في حال هياج، وقد عذبهم الجوع، بذبح دوابهم والتهامها بعد أن شربوا دمها بشراهة. كان قد استولى نهم مسعور على المعسكر كله، كان المرتزقة يأكلون لأيام وليال عديدة، مغترفين من مؤونتهم كل ما يمكن أكله وشربه. ورقص قليل منهم لساعات قبل أن يهووا على الأرض. واكتفى الآخرون بالطعام مجبرين أنفسهم أحياناً على القيء ليستطيعوا الاستمرار في التهام الغذاء.

عند حلول اليوم الواحد والعشرين توقف النهم. لم يعد هنالك ما يؤكل أو يُشرب. وظل الرجال راقدين، وهم أضعف من أن يستطيعوا القيام بأدنى جهد، كانوا بالكاد يتكلمون، منتظرين بفارغ الصبر ندى الصباح ليرطبوا شفاههم اليابسة بنذر يسير من الماء. في بداية اليوم الثلاثين شوهدت مناظر رعب. بعض المرتزقة، وقد عذبهم الجوع، قتلوا عبيدهم وشرعوا في التهامهم بالرغم من لوم ضباطهم. كانت تلك هي اللحظة التي اختارها زارزاس ليتقدم. ولما دعا إليه جميع الرجال القادرين على الوقوف على أقدامهم خاطبهم قائلاً:

ـ يجب ألا نتعلل بالأوهام، إن ماثو لن يأتي لنجدتنا. إني أرثي

له خصوصاً وأنه واحد من مواطني. لا ريب أنه هو نفسه محاصر. وهذا هو السبب الوحيد الذي أراه لغيابه.

- ماذا تقترح؟ قال عدة غاليين، سبق له أن كسب صداقتهم.

- نبعث برسل إلى هميلقار برقا. لقد كان، رغم كل شيء، قائدنا في صقلية ولا يمكن أن يكون غير عابئ بمصير مجنديه القدامى. لعله يقبل الصفح عن أخطائنا ويرد لنا حريتنا إن نحن أقسمنا بألا نحمل السلاح ثانية ضد قرطاجة.

- سبانديوس، جلجل صوت مرتزق يوناني، لقد قلت في الماضي أن أولئك الذين يتقدمون بكلام كهذا هم خونة يجب معاقبتهم. لكنك الآن لم تقل شيئاً أثناء خطاب زارزاس. هل توافقه الرأي؟

- إني لا أستطيع والألم يحز في نفسي، أجاب الكامباني، أن أعارض صديقنا المقدام. إن كلامي في الماضي لم يعد له مصداقية اليوم. نحن مثل سمكة وُضعت في قفة، ليس أمامنا أي حظ في الإفلات. لعل من المجدي أن نعرف أي مصير يرصده لنا هميلقار. فلنرسل إليه وفداً.

مثُل المبعوثون الذين اختارهم المرتزقة أمام مدخل المضيق واقتيدوا، تحت حراسة مشددة، إلى المعسكر القرطاجي. هناك أخبرهم أحد المساعدين بأن القائد العام مستعد لاستقبال زعمائهم العشرة المهمِّين، والذين سيذكر أسماءهم، شرط ألا يأتوا مع أسلحتهم.

في الغد وصل سبانديوس وأوتاريتوس وزارزاس ورفاقهم إلى خيمة هميلقار. استقبلهم ذاك استقبالاً لطيفاً وقدم لهم على الفور فواكه وشراباً بارداً. تبادل المبعوثون النظرات، وهم يحاولون التكهن بمن سيكون أول من يلتهم قطعة فاكهة أو يشرب كأس خمر صقلية. مرت برهة قصيرة، ولفرط سعادتهم استطاعوا أخيراً أن

يقتاتوا بعد حرمان قاس، لم يعودوا يعيرون انتباهاً لرد فعل من بجوارهم. تركهم ابن أدونيبعل يأكلوا على سجيتهم. إن كان القادة يتصرفون على هذا النحو فما هو حال رجالهم إذن؟ لقد عرف، بفضل حيلته الصغيرة تلك، وقبل أن يبدأ النقاش، أن محاوريه ليسوا قادرين على معارضة مطالبه. كان ذلك يستحق إخراجاً مسرحياً صغيراً. توجه إليهم ما إن رآهم قد شبعوا.

ـ ماذا تتمنون؟

ـ معرفة أن السلام ممكن بين قومينا، قال سبانديوس.

ـ لسنا نحن الذين أعلنا هذه الحرب.

ـ هذا صحيح. وربما ستستمر. أنت لا تجهل أن ماثو قد أقبل لنجدتنا.

ـ إن ذلك سيدهشني كثيراً.

ـ لقد أرسلنا إليه رسلاً.

ـ أنت تتكلم عن أولئك الرجال العشرة الذين أمرت بصلبهم. إن ماثو يجهل كل شيء عن وضعكم. لا تعتمدوا عليه.

ـ ما هي شروطك إن نحن اقترحنا عليك أن نستسلم؟

ـ ولم تفعلون ذلك؟

ـ أنت تزدرينا. أنت تعرف جيداً أنه لم يعد لدينا ماء ولا غذاء وأنه محكوم علينا بالهلاك جوعاً إن بقينا في هذا المضيق اللعين.

ـ هذا يمكن أن يكون عقاباً عادلاً لأخطائكم وأفعالكم الفظّة تجاه جيسكون ورفاقه. مع ذلك أنا لم أنس أنكم قد خدمتم في الماضي تحت إمرتي في صقلية وأنكم كنتم جنوداً أكفاء. هاكم إذن مطالبي التي لا تقبل أي نقاش: تضعون أسلحتكم أسفل المضيق، ثم تمثلون أمام مدخله. إني أمنح الحرية لجميع رجالكم شرط وعد

منهم بألا يقاتلوا ثانية مدينتي وأن يتخلوا عن جميع ما يملكون عدا قمصانهم. سيتم أخذ عشرة رجال عشوائياً من بينكم وسيضمنون بحياتهم التنفيذ الحسن لهذا الوعد وأنا سأقرر وحدي مصيرهم.

- إن عرضك كريم، قال سبانديوس. وأنا لا أشك بقبول المرتزقة له. في الواقع إنه عرض لاقى القبول الآن بما أن لدينا السلطة بالتكلم باسمهم. لقد عقدنا اتفاقاً. وندعو الآلهة أن يُحترم بدقة.

- سيكون ذلك. إذاً، أكدتم لي أن كلمتكم كافية لأن يكون اتفاقنا صحيحاً ولأن نضعه موضع التطبيق. إن كان الأمر كذلك أنتم وأنا لنا الحق في اتخاذ الإجراءات الأولى التي يتطلبها الوضع.

- أنت على حق تماماً. نحن لا نطلب أفضل من هذا. حان وقت اختصار معاناة قواتنا.

- حسن جداً. لقد قلت لكم بأن عشرة من رجالكم سيضمنون بحياتهم تنفيذ اتفاقنا. إن هؤلاء الجنود العشرة هم أمامي.

- هميلقار، أنت تهذي، احتج سبانديوس. لقد حسبنا أنك ستختار عشوائياً هؤلاء الرهائن العشر من بين مرتزقتنا.

- هذا صحيح، إن أولئك الذين عينتهم لي المصادفة بنباهة قد جاؤوا باعتبارهم رسلاً. لقد طلبتم مني تطبيق اتفاقنا وأنا أفعل ذلك. أيها الحرس اذهبوا بالسجناء.

في معسكر المرتزقة لم ترد أخبار عن المبعوثين. وعندما هبط الليل لم يكونوا قد عادوا بعد. لم يساور القلق الرجال: لا ريب أن المناقشات كانت مطولة أكثر مما توقعوا. بعد انقضاء يومين اجتمع الرجال مقتنعين بأن هميلقار قد أمر بإعدام الرسل. فاندفعوا على عجل، يائسين، نحو مدخل المضيق، تحثهم غريزة بقاء بدائية، وأفلحوا في تسلق الصخور التي تسد الممر. وسرعان ما وجدوا

أنفسهم في مكان واسع منبسط حيث تمددوا ليلتقطوا أنفاسهم قليلاً. فجأة أيقظتهم ضجة مرعبة. كانت تلك ضجة فيلة هميلقار. فعندما لاحظ ذلك القائد هروب المرتزقة أعطى أوامره لضباطه بأن يجمعوا الفيلة في السهل ثم يقودوها إلى مدخل المضيق. ما إن أبصر الضباط حشد المرتزقة حتى أطلقوا فيلتهم. ما كان من تلك الحيوانات التي هيجتها صرخات الجنود وقرقعة أسلحتهم إلا أن قامت بدوسهم بقوائمها. لم تعد لدى رجال سبانديوس وقد أضعفهم الحرمان أي قوة للهرب. وأكثرهم استسلاماً، انتظر بأعين مفعمة بالرعب، أن تسحقه تلك الحيوانات الصفيقة الجلد، أما الآخرون فقد ألقوا بأنفسهم تحت أرجلها وهم يطلقون صيحات جافلة. في نهاية النهار كانت تغطي الأرض ما يقارب أربعين ألف جثة.

* * *

بعد هذا النصر قرر هميلقار الرجوع إلى قرطاجة ليشن معركة على ماثو، المتحصِّن تحصناً منيعاً في معسكره في تونس. وللتأثير عليه ولمحاولة جره للاستسلام، أمر بصلب سباندیوس ورفاقه التسعة على بعد بضع ستادات من سياج المتمردين. ترك هميلقار رجاله هناك وعاد إلى ميغارا حيث استقبله أبناؤه بفرح يشوبه القلق. سأل هميلقار ابنه اليافع:

ـ هنيبعل، إن ملامحك المهمومة لا تناسب فتى في عمرك. جدير بك أن تلعب مع ابن جوبا بدلاً من أن تجتر أفكاراً سوداوية.

ـ أبي، إني خائف.

ـ مم تخاف؟ إن فرداً من آل برقا لا يعرف هذا الشعور.

ـ أخاف من إشاعات تسري في المدينة، يتهامس فيها الناس عن الحرب التي استمرت لزمن طويل، ويقولون أن تدخل الآلهة وحده بمقدوره أن يضع نهاية لها.

- إني لا أجدِّف، لكني لم أنتظر تلك الالهة أن تسحق أعداءنا في مضيق «المنشار».

- إن كهنة بعل حمون قد أقنعوا الشعب بأنه من أجل الحصول على النصر، يجب أن يقدم لإلههم قربان «مولك(*)».

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- إنها إشاعة لكن المدينة بأكملها تتكلم عن ذلك.

- إني أفهم على نحو أفضل قلقك. لقد استولى الجنون على مدينتنا. وهي تريد أن ترتبط مجدداً ببعض تقاليد آبائنا التي كنا قد تخلينا عنها. إن إلقاء أطفال في جمار النار لن يفيدنا في شيء. وإلهاً يحب الدم هو من السوء بحيث لا يستطيع مساعدة مؤمنيه. لأجل هذا فإن قبيلتنا، آل برقا، اختارت تعبُّد ملقارت بدلاً من بعل حمون.

- أبي، اعلم أني لست خائفاً من الموت في سبيل مدينتي، إني أتطلع مثلك إلى أن أقدم لها حياتي شرط أن يكون ذلك في ساحة المعركة. لكني لا أريد أن أُحرق حياً وسأدافع عن نفسي حتى النهاية وإن توجب علي قتل أو جرح كاهن.

- لن يكون عليك فعل ذلك.

بعد تلك المحادثة استدعى هميلقار إليه مشرفه هيميلك.

- هل ابنك ماغون ما زال في بلاد صديقنا جوبا؟

- أجل. إن امرأته وابنه هنا وهما يشكرانك على كرم ضيافتك.

- أنت أيضاً ملامحك تحمل الهمَّ.

- لقد اشتقتُ إلى ماغون ولم تعد لدينا أخبار عنه منذ عدة أشهر. إني أرتاب من النوميديين.

- أنت مخطئ.

(*) molk.

ـ أعرف، لكن أبويَّ قد قتلهما في الماضي سلاَّب من هؤلاء القوم، وإني منذ ذلك الحين أمحضهم كرهاً وبغضاً. أخاف أن يكون ابني أسيراً عندهم رغماً عنه. ليس عندي مال لافتدائه وإني أرتجف عندما يخطر ببالي أنه ربما يكون ضحية خداع ما.

ـ أفهم مشاعرك. إنك خادم مخلص لعائلتنا وإني أريد أن أقدم لك عرفاني بالجميل على نحو باهر. في هذا المساء سيسافر أطفالي مع إبيسيد إلى جوبا. سيحملون رسالة أقترح فيها على صديقي أن يأخذهم رهائن ليطلق سراح ماغون إن كان أسيراً، لا يخالجنَّك أدنى خوف، سيعودون جميعهم سالمين وسنحتفل فرحين بتلك المناسبة.

ـ وإن لم يعودوا؟

ـ سيعاقب حينئذ جوبا. ولأهدئ من مخاوفك الأخيرة سأفعل أكثر من ذلك. لقد تبنيتُ اليوم ابن ماغون. وهو من الآن ابني وسيرث أموالي إن لم يستطع بقية أبنائي ذلك.

ـ سيدي، إنك الكرم بعينه ويشرفني أن يكون حفيدي من اليوم فصاعداً ابنك. أنت وأبوك لم تتوقفا إطلاقاً عن غمري بالنعم. اعلم أن بوسعك أن تطلب ما تريد مني.

ـ وهذا ما حصل.

في المساء نفسه غادرت مجموعة صغيرة ميغارا على عجل برفقة بعض الحراس. وفي اليوم التالي أيقظ بوستار هميلقار، وهو مرافقه المفضل.

ـ ابن أدونيبعل، لا بد من حضورك إلى «البوابة» الجديدة.

ـ ما الذي يجري؟

ـ إن جنودنا يتراجعون إلى المدينة وسط فوضى عارمة.

ـ ولمَ يهربون؟

ـ لقد ارتكبوا خطأ جسيماً. إذ تشتتوا في الأنحاء بعد أن تم

صلب سبانديوس وأتباعه. بعضهم انطلق ليسلب الأملاك والبعض الآخر كان ثملاً وتخلى عن مواقعه. وعندما لاحظ ماثو ذلك استفاد من ذلك ليشن هجوماً مفاجئاً على معسكرنا. وابتسم الحظ له. لقد قام بذبح جميع الجنود الذين وقعوا بين يديه. وانتقامه لم يتوقف عند هذا، بل أمر بأن يُصلب في مكان سبانديوس أحد جنرالاتنا، وهو هنيبعل الحكيم، وثلاثون شيخاً قدموا للاحتفال معه بالنصر. والآن إنه يطوق قرطاجة مع جنوده، بينما تضرب آلاته الحربية بحجارتها أسوارنا.

- شكراً على معلوماتك. من المؤكد أني لست محظوظاً بجنرالاتي. يبدو أنهم، في أغلب الأحيان، لا تحمل عقولهم سوى فكرة واحدة: حرماني من ثمرة انتصاراتنا. سألحق بك. إني أنتظر بفارغ الصبر أن أتفحص الوضع.

تمكن هميلقار لدى وصوله إلى «البوابة» الجديدة من اتخاذ إجراءات طارئة. كان السهل يعج بالمرتزقة الذين كانوا يشتمون القرطاجيين المتجمعين ثانية فوق السور ويتوعدونهم باسوأ العقوبات. عندما أحصى هميلقار عدد رجال ماثو تبين له أن هذا الأخير قد تلقى تعزيزات جديدة أرسلها الليبيون. وبعد استشارة ضباطه شرع هميلقار برقا في تعزيز بعض المواقع وفي إخلاء مواقع أخرى. كان مقتنعاً من أن المرتزقة لن تجرؤ على مهاجمة السور الثلاثي وإنما ستحاول خرق الدفاعات من جانب ميغارا.

أما في المدينة فقد كانت تزمجر ريح رعب حقيقية. لم يكن هذا التقهقر الجديد للقوات القرطاجية يبشر بالخير، وبدأ المتشائمون، وقد اقتنعوا بسقوط وشيك لمدينتهم، بحفر مخابئ ليواروا فيها ثرواتهم وذهبهم. وفي مجلس المئة والأربعة، كانت المناقشات تجري بسرعة. ومن جديد أصبح بعل يتون محط تحريضات متملقة وأخذ يصب كلاماً لاذعاً على هميلقار. لكن ضوضاء مصمّة للآذان

قطعت مداولات الشيوخ. كان الجمهور قد دخل البناء يقوده الكوهين هاكوهانيم، الكاهن الأكبر لبعل حمون.

بادر الكاهن، الذي كان يعتمر قلنسوة، ويرتدي رداء طويلاً من الكتان الأبيض، القضاة قائلاً:

ـ إن بعل حمون يُنزل بنا عقاباً أليماً، لكننا نستحقه بتكبُّركم وكفركم الأثيم، لقد أهملتم أن تقدموا له قرابين مولك التي يطالب بها، فهي حقه وسروره الكبير. لقد أظهر إلهنا، ولوقت طويل، جنوناً إزاءنا، آملاً أن تغيروا ما بأنفسكم وأن تعودوا إلى تقاليد آبائنا. لم تصغوا إلى تحذيراتي وقست قلوبكم. وبدلاً من أن تعودوا إلى معبد بعل حمون فضلتم تكريم إشمون أو عشتار. ها هو اليوم، وبكل قسوة، يعاقبكم على جحودكم.

ـ أيها الكاهن، ما الذي يتوجب علينا فعله؟ تمتم بعل يتون بصوت يتصنع الهلع والتضرع.

ـ قدمّوا لبعل حمون ما يجب تقديمه: أبناءكم. عندي هنا قائمة بأبكار(*) أشهر عائلات المدينة. فليقتادوا الساعة إلى المعبد ليلتقوا هناك بأطفال آخرين قدمهم مواطنونا الشجعان والأتقياء طوعاً ليُضحَّى بهم.

أطلق الحشد، وقد أسكره الغضب والورع، صيحات الاستحسان. وما لبثت أن ترددت في أحياء المدينة الغنية صرخات تمزق القلب من أمهات يحاولن انتزاع أبنائهن من الجنود الذين أتوا لأخذهم. في ميغارا استقبل هميلقار بنفسه الضابط الذي أتى مطالباً إياه بابنه. تظاهر هميلقار بأشد الألم قبل أن يتمالك نفسه:

ـ انتظرني هنا. ستذهب به.

(*) بكر: هو أول ولد أبويه.

استعلم ابن أدونيبعل عن وجود هيميلك في المنزل. ولما أخبره أحد العبيد أنه غائب، أمرالعبد بإحضار حفيد هيميلك، وهو غلام في الثالثة من العمر، ذو ملامح ضاحكة فرحة. لاطفه هميلقار وقال له أن جده هيميلك ينتظره في المدينة التي سيؤخذ إليها. ثم التفت إلى الضابط:

ـ خذ طفل آل برقا.

ـ هذا ليس ابنك.

ـ بلى.

ـ كلا. إن هنيبعل، وكما يعرف الجميع، أكبر سناً.

ـ هذا صحيح لكنه موجود حالياً في بلاد النوميديين. بوسعك أن تفتش المنزل كله ولن تجده. لقد تبنيتُ هذا الطفل. فهو بالتالي ابني وإني أقدمه إلى مدينتي. بالمناسبة ما هو اسمك.

ـ بوميلقار.

ـ اعلم أني سأسمح لك بما لم أتساهل به إطلاقاً مع أي كان. أظهر عنفاً نحوي مهدداً إياي بسيفك لتنتزع مني هذا الطفل، وأنا أعزل من السلاح، ليشهد الجميع أني لم أرد موته وأنك أخذته مطبقاً أوامر مجلس المئة والأربعة. وسأكافؤك على ذلك فيما بعد.

وافق الضابط وتصرف كما كان قد طلب منه هميلقار. في قرطاجة كان المواطنون قد تجمعوا في معبد بعل حمون، أمام تمثال الإله الهائل. وعند أقدامه ظهر باب من البرونز يؤدي إلى حفرة اشتعلت فيها محرقة. بدت ألسنة اللهب فيها كأنها بحر حقيقي من النار. وعلى الجانب الأيمن كان يقف أهالي الأطفال المهيئين للتضحية. وطبقاً للتقاليد كان هؤلاء الأهالي يتصنعون الفرح، ويلعبون مع أطفالهم، ويداعبونهم ويشبعونهم تقبيلاً وهم يعدونهم بحلوى كثيرة إن هم كانوا هادئين.

رفع الكوهين هاكوهانيم يده:

ـ يا شعب قرطاجة حان وقت التماس العفو من بعل حمون. عسى أن تكسبنا هذه القرابين نعمه من جديد!

أخذ بين ذراعيه رضيعاً ينوح رعباً وألقاه في الحفرة، وحذا حذوه الكهنة الآخرون والمؤمنون. لم يكتف أولئك، وهم فريسة جنون حقيقي، بالتضحية بأبكارهم وإنما أيضاً ضحوا بأخواتهم وأخوتهم، غير عابئين بتوسلاتهم وصيحاتهم التي تمزق القلوب. عندما انتهى الاحتفال كان قد هلك حوالى ألف طفل واستطاعت المدينة أخيراً أن تستسلم لألمها.

لأسابيع عديدة ظل القرطاجيون والمرتزقة يراقبون بعضهم بعضاً. لم تستطع آلات الحصار لدى المرتزقة التغلب على أسوار المدينة المنيعة، ولم يحاول المدافعون عنها، الذين مكثوا في مأمن خلف أسوارها، القيام إلا بمحاولات خروج قليلة في جماعات ملتحمة ومتمرسة على الهرب ما إن يقترب العدو. أما هميلقار الذي انعزل في منزله في ميغارا فقد كان يعمل باستمرار مع ضباطه لتهيئة مخطط المعركة القادمة. ذات صباح استُدعي ليمثل أمام مجلس المئة والأربعة. سأله بعل يتون بلهجة جافة حاقدة:

ـ ماذا يفعل قائدنا العام؟

ـ إنه يهيء حملته.

ـ إنه لاهتمام جدير بمواهبه. وفي انتظار ذلك ها هي المدينة محاصرة وها نحن نتأمل من فوق أسوارنا الحرائق التي تدمر ضياعنا. ألأجل هذا استدعيناك لتتسلم قيادة جيوشنا؟

ـ لقد عينتموني في هذا المركز لأن قادتكم الآخرين قد أثبتوا عدم جدارتهم.

ـ أنت على حق، لكن ذلك لا يبرر شيئاً من كَسَلِك.

ـ بعل يتون، إنك لن تكون أبداً عسكرياً جيداً. أنت عديم الصبر مثل امرأة فزعة، ويشتد بك الغيظ لأننا لا نقاتل. بيد أنك لست سوى

رجل مدني. تخيل ما يشعر به ماثو ورجاله. إن هؤلاء هم جنود، جنود أكفاء، والتعطل يزعجهم. أضف إلى ذلك هم لا يحبون الحصارات. إنهم يفضلون القتال في ساحة المعركة، ويصيبهم السأم خلف أسلاك معسكرهم الشائكة. إني أريد أن أتركهم يتعفنون فيه بضعة أسابيع أخرى. وعندما يفقدون صبرهم سأغادر المدينة عبر بوابة ميغارا باتجاه نهر ماكاراس. وهناك ستحدث المواجهة الحاسمة التي أنوي فعلاً أن أخرج منها منتصراً.

- إن خطتك حاذقة، لكن هل سيقبل المرتزقة الإذعان لمشاريعك؟

- ليس لديهم حل آخر. إنهم يعرفون أنهم غير قادرين على الاستيلاء على أسوارنا.

- فلينته كل شيء قبل فصل الشتاء! هذه هي إرادة مجلس المئة والأربعة.

- سيُطاع الأمر.

خرج هميلقار مع مرافقيه ومن ضمنهم، سيُشاهد من الآن فصاعداً بوميلقار. ولاحظه بعل يتون، وذات مساء استدعى إليه هذا الضابط الذي كان يعرف أباه.

- بوميلقار، ها أنت موضع تكريم لدى هميلقار الذي جعلك من المقربين لديه. لا بد أنك أذهلته بمآثرك في قتال مازال ينبغي التفكير فيه ملياً، إن هذا لأمر مستحيل! لقد كنت من ضمن الحرس المشايخي وأنت لم تترك إطلاقاً المدينة. إني لا أفهم أبداً سبب بادرة الثقة المفاجئة تلك التي أبداها شخص من آل برقا نحوك.

- لا أعلم إن كان يحق لي أن أكشف لك عن السبب.

- لست أنا وإنما مجلس المئة والأربعة هو الذي يطلب منك ذلك.

قصَّ بوميلقار على بعل يتون ظروف لقائه مع هميلقار. ثم غادر مجلس الشيوخ هادئاً، دون أن يتنبه إلى الرجلين اللذين كانا

يتبعانه، ثم انقضا عليه في زاوية زقاق مظلم. بعد أن أنجزا جرمهما ألقيا بجثته في مياه الميناء التجاري وأخطرا بعل يتون أنه من الآن هو وحده الذي يحتفظ بسر ثقيل.

بعد مرور شهر على اختفاء بوميلقار دوَّت الأبواق في قرطاجة. غادر الجيش المدينة عبر بوابة ميغارا، مصحوباً بجمهور هائل العدد. كان هميلقار يمتطي جواده في المقدمة وإلى يمينه نهراواس وحنون إلى شماله. وكان هذا الأخير قد توسل إليه أن يسمح له بأن يظفر بميتة مشرفة في القتال ليمحو بها أخطاءه الماضية، ولم يشأ ابن أدونيبعل أن يرفض له هذا الثأر من الأيام.

وكما كان قد توقع هميلقار فإن المرتزقة ما لبثوا أن غادروا معسكرهم وطاردوه. وفي مرات كثيرة كان هميلقار يتظاهر بمباشرة القتال ثم ينسحب. وعندما شعر بأن خصومه بدؤوا يشعرون بأولى تأثيرات التعب الناجم عن سيرهم الحثيث الطويل قام بترتيب جيشه وفق تشكيل عسكري، وذلك بالقرب من مصب نهر ماكاراس. كانت سفن تنتظره وسط المياه وبإشارة منه اقتربت من الضفة لإنزال قوات جديدة وأكثر من مئتي فيل. أدرك ماثو وأتباعه أن ساعة نهايتهم قد أزفت. قاتلوا بشجاعة لنهارين وليلتين. وفي صباح اليوم الثالث بقيت حفنة من الرجال تقاوم إلى جانب القائد النوميدي لكنها سقطت تحت رماح القرطاجيين، وأفلت ماثو. وكان هميلقار قد عرض جائزة ضخمة لمن يقبض عليه. وهكذا عندما اقتيد زعيم المتمردين إلى حضرة ابن أدونيبعل حملق الرجلان ببعضهما طويلاً. كان ماثو مكبلاً بالسلاسل، ولم يفقد شيئاً من كبريائه ولم يغض طرفه كما أمره بذلك حراسه. كان قد أعد نفسه لتحمل العقاب المؤلم الذي لا بد أن تنزله به قرطاجة ألا وهو الموت!

لم يكن لدى هميلقار وقت قط للتمتع بانتصاره. إذ إن تهديدات جديدة كانت تحوم فوق مدينته. فها هم الروم، الذين أظهروا أنفسهم بأنهم حلفاء مخلصين خلال الحرب ضد المرتزقة، سرعان

ما ذكَّروا القرطاجيين بأنهم هم وحدهم سادة «البحر الكبير». وقدم سفراؤهم إلى قرطاجة ليشيروا إلى أن المعاهدة التي تم توقيعها في الماضي والتي كانت قد نزعت من مدينة إليسا صقلية ينبغي تعديلها. لقد توجب على مجلس المئة والأربعة التخلي عن تعزيز مواقعه في سردينيا وكورسيكا، فتلك الجزيرتان أصبحتا الآن حليفتين للروم. فضلاً عن ذلك توجب على مدينة إليسا دفع تعويض إضافي هو 1200 تالان، وإلا فإن جحافل الروم ستنزل في منطقة رأس بون. إن مجلس الشيوخ، الذي لا يملك وسائل لمعارضة مطالب كتلك، وقع على معاهدة جديدة، متجنباً إخبار هميلقار بها على الفور. ولم يعلم بها هميلقار إلا عندما قدم وفد من مجلس المئة والأربعة ليمنحه لقب «المخطط» وهو لقب كان إلى ذلك الحين غير معروف، وذلك مكافأة له على خدماته الجيدة والمخلصة. أخبر هميلقار الوفد، وقد استبد به الحنق لجبنهم أمام الروم، بأنه قد استقال من جميع وظائفه، عازماً على تكريس نفسه لتربية أبنائه. والحق يقال إن الشيوخ لم يسعوا إلى جعله يرجع عن قراره. لقد عادوا، وهم يقتادون ماثو، الذي، وبعد بضعة أيام سُلِّم للجمهور. إن قائد المرتزقة، بعد أن ضُرب على كل جزء من أجزاء جسده قضى وهو ينزف وسط المقام وأُلقيت جثته إلى الحيوانات المفترسة.

الفصل الثاني عشر

بعد الموت الفظيع الذي حل بماثو احتفلت قرطاجة بكل أبهة بانتصارها على المرتزقة وذلك لأيام وليال عديدة متواصلة. وكان التجار والشيوخ، رغم شُحِّهم، قد قدموا إلى المواطنين بوفرة الأطعمة والخمر كما لو أنهم يريدون بتلك الطريقة أن يستولوا على غنيمة السلام الذي حلَّ أخيراً. على حد قولهم إن فضل النصر يعود إليهم وليس إلى هميلقار. أما سواد الشعب الذي عانى حرماناً فظيعاً فما كان لينشغل بتلك الاعتبارات. فما يهمه الآن أن الحرب المشتعلة قد انتهت، وانتهت معها كل الضرائب الثقيلة التي كان يتوجب عليه سدادها. وقريباً ستعود السفن التجارية بأعداد أكثر من ذي قبل لتصب ثرواتها في مدينة إليسا ولن ينقص سكانها شيء بعد الآن. كان آلاف المؤمنين قد ذهبوا إلى المعابد لتقديم قرابينهم إلى الآلهة والربَّات الحامية للمدينة. أما العائلات التي كانت قد قدمت إلى المحرقة أطفالها فكانت تعزِّي نفسها بأن موتهم لم يذهب هباء، وكانت بعض تلك العائلات ترمق بازدراء جيرانها، معتبرة أن هؤلاء عليهم أن يظهروا لها الامتنان على تفانيها.

لم ينضم هميلقار برقا إلى الأفراح العامة. ليس بسبب استيائه وإنما لاعتبارات سياسية. كان يعرف أفضل من أيٍّ كان أن جميع المآسي التي سببتها حرب المرتزقة كان من الممكن بكل سهولة تجنبها لو أن الشيوخ قبلوا الوفاء بتعهداتهم ودفعوا الرواتب

المستحقة. إن شُحهم المفرط كلفهم غالياً، غالياً جداً. ولقمع العصيان، توجب على مدينة إليسا أن تنفق مبالغ هائلة، وها هم الروم قد استفادوا من ضعفها ليستولوا على سردينيا وكورسيكا. لم يكن أحد يريد سماع نداءات التعقل التي كان أطلقها ابن أدونيبعل إلى أن أصبح الوضع ميئوساً منه فعلاً. حينذاك، وحينذاك فقط، جاء أعضاء مجلس المئة والأربعة يطلبونه في عزلته في ميغارا راجين إياه أن يُنقذ، ثانية، مدينته من الدمار. وبناء على نصائح أبيه الذي كان مشرفاً على الموت، أخرس غيظه وقبِل تسلُّم القيادة العامة للجيوش القرطاجية. واليوم وقد فاز بالنصر فإنه يعلم أن مجلس الشيوخ لن يعترف له به، بل على العكس. إن كان بوسع قرطاجة ألا تحب جنرالاتها المهزومين وأن تحكم عليهم بالصلب فإنها قادرة على إنزال الجزاء نفسه بجنرالاتها المنتصرين الذين تخشى من شعبيتهم ونفوذهم على عامة الشعب. بالطبع، كل ذلك لم يكن يقال على نحو صريح، وإنما ببساطة همساً أو على نحو ضمني في مجلس الشيوخ. عند عودة هميلقار استقبله أصدقاؤه وكذلك أعداؤه بكلمات التملق. كان الجميع يمدح شجاعته وإخلاصه، إنهما فضيلتان يتمتع بهما فعلاً، وانتظر بفارغ الصبر أن يضع نهاية لذلك الفيض المفتعل.

من جديد انقطع والد هنيبعل عن الناس في ميغارا، كان يمضي أيامه يجترُّ أفكاراً سوداوية. ذات صباح أخطره إبيسيد بقدوم شيخ اسمه بوميلقار يطلب مقابلته فقبِل هميلقار لقاءه وسط دهشة معلمه القديم.

ـ مرحباً بك، بوميلقار. لقد كنت مناصراً مخلصاً لأبي وتكريماً لذكراه فإني أنقض القاعدة التي وضعتها بألا أستقبل أي زائر.

ـ إني ممتن لك على ذلك. كنت سأحزن لو لم أستطع لقاءك فأنت أثير على قلبي. صدقني، إننا بأعداد كبيرة في مجلس الشيوخ نأسف لغيابك بينما نحن في حاجة لخبرتك ونصائحك الحكيمة.

ـ لستُ متأكداً بأن غالبية زملائك يشاطرونك وجهة النظر تلك.

ـ أنت مخطئ، وأبوك، أدونيبعل، لم يكن ليتصرف على شاكلتك. ففي أحلك لحظات تاريخ مدينتنا، سيَّما حينما كانت هدفاً لهجمات ظالمة، ماكان ليتخلف قط عن جلسة واحدة لمجلس المئة والأربعة. وإننا اليوم، بسبب غيابه، نفتقر بمرارة لحكمة آل برقا.

ـ أشكرك على كلماتك الطيبة. إني أعلم أنها صادقة لأنها خرجت منك. لكن مكاني ليس في مجلس الشيوخ. إني أمقت الدسائس والمؤامرات وكذلك النقاشات اللامتناهية التي تبدو لكم أنها تطعمكم حتى الشبع. ما أنا إلا جندي وليس لدي أي طموح سوى أن أقاتل. وبما أننا في سلام مع روما ومع جيراننا فإن سيفي غير ذي جدوى وأنا أكتفي بمراقبة تربية أبنائي، وهذا ليس بشأن هينٍ.

ـ هميلقار، أنت تعلم أن هنالك طرقاً عديدة للقتال. والحرب ما هي إلا واحدة منها.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ إننا في سلام مع الروم والنوميديين، وقد تمت معاقبة المرتزقة بما يستحقون. لكن قرطاجة لا تزال في كفاح.

ـ ضد من؟

ـ إنها ليست بحاجة أبداً لعدو لتكون في كفاح. إنها تقاتل ليس ضد أحد وإنما لأجل نفسها ولأجل مستقبلها.

ـ تابع حديثك، إن كلماتك تبدو لي بالغة الحكمة وتثير انتباهي.

ـ إن مدينتنا تقاتل لتصبح من جديد المدينة العظيمة التي كانت في الماضي، قبل أن تتوالى عليها تلك المصائب المفجعة، التي لسنا نحن بمسؤولين عنها! إن تحدينا الأول هو أن ندفع لهؤلاء الروم الملاعين التعويض الهائل الواجب أداؤه لهم. لستُ في حاجة لأن أصف لك وضعنا المالي. نحن بالكاد نملك موارد لتسديد القسط السنوي الجاري لكننا لن نكون قادرين على أن نفعل أكثر، وروما

لن تتردد في حمل السلاح مجدداً ضدنا. إني بالكاد أجرؤ على تخيل ما يمكن أن يحدث آنذاك. إنهم سينزلون مجدداً على شواطئنا.

- أستطيع أن أقول لك أننا في تلك الحالة سنهزم تماماً، وهذا ما سيحدث إن لم نبن مجدداً أسطولنا البحري وجيشنا. ولأجل ذلك يلزمنا الكثير من الذهب والفضة. وواقع الحال أننا فقدنا صقلية، وكورسيكا وسردينيا، اللاتي كن يسهمن إسهاماً كبيراً في ثرواتنا. لقد تم إسقاطنا في فخ لا نستطيع منه فكاكاً. ما الذي سيحل محل تلك الأملاك المفقودة؟

- هنالك طريقة.

- ما هي؟

- إني أذكر الخطاب الذي ألقيته بصوت مفعم بالرجولة في المقام عندما اختارك الشعب قائداً عاماً. لقد تكلمت فيه عن ضرورة الدفاع لأجل مدينتنا وضرورة زيادة أملاكها في الخارج.

- بالفعل، لكننا فقدنا تلك الأملاك.

- هل نسيت أنه بقي لنا منها.

- وماذا بقي؟

- مستعمراتنا في بلاد الإيبيريين. لقد نسيت وجودها، مثلك مثل الكثير من مواطنينا، ونسيت أن أسلافنا قد تركوا وكالات تجارية أسسها في الماضي حنُّون في منطقة «قرن الشرق». إني لا ألومك على ذلك، لكن اسمح لي أن أذكرك بأن إحداها وهي قادش قد أقامها أجدادنا الفينيقيون قبل أوتيكا وقرطاجة بزمن طويل. وفيما بعد، أنشأنا وكالات تجارية أخرى، خصوصاً في سيكسي، ومالقا، وماستيا، وأبدير وكذلك في إبيزوس(*). وفي هذه المدينة الأخيرة جنَّدنا رماة المقلاع البلياريين الذين بوسعك أن تثمن عالياً فعاليتهم في القتال.

(*) إبيزا الحالية. عدا مالقا، فإن تحديد بقية المدن معرَّض للجدال.

ـ أنت على حق. إنهم جنود ممتازون.

ـ لكن، من بين جميع أملاكنا، لا شيء يضاهي مدينة تارتيسُوس، الواقعة في جزيرة عند مصب نهر بيتيز الذي ينبع من «جبال الفضة» التي سميت هكذا لغناها بمناجم الذهب والفضة. إن النهر نفسه يجرف هذين المعدنين الثمينين بكميات ضخمة، إضافة إلى القصدير. لقد أراد يونانيو مسَّاليا في الماضي الاستيلاء عليها لكن جنرالاتنا هزموهم.

ـ أنت تحدثني عن الماضي. لكن اليوم ماذا نعرف عن تلك المستعمرات؟

ـ القليل، وهذا خطأ منا. لقد مضى زمن طويل لم يغادر فيه أي أسطول قرطاجة لزيارة تلك المستعمرات التي ظلت مخلصة للغتنا ولجدودنا. أنت تعرف أفضل من أي شخص آخر أن مجلس الشيوخ بوسعه، وعلى نحو مثير للعجب، أن يكون جاحداً تجاه أصدقائه. لذا سيكون من النباهة أن تتزعم حملة عسكرية لإعادة عقد روابط الماضي مع مستعمراتنا، بدءاً من مستعمرات قادش وتارتيسوس.

ـ إن فكرتك تغريني كثيراً، لكني أود أن أحصل على بعض الإيضاحات الإضافية. هل هذا الأمر اقتراح أُعد لشخص هميلقار برقا أم مهمة رسمية يعهد بها إلي مجلس الشيوخ؟

ـ إني سعيد لأنك لم تقابلني على الفور برفض مبدئي. لكن زملائي كانوا خائفين كثيراً من رد فعلك بحيث فضلوا إرسالي لجسِّ إمكانية العمل. في الواقع إن مجلس المئة والأربعة سيشرفه أن تقبل قيادة جميع أملاكنا في الطرف الآخر من «البحر الكبير». ستذهب مع خمسة آلاف رجل ولك مطلق الصلاحية في تجنيد مرتزقة من تلك المنطقة.

ـ هل سأتمتع بجميع السلطات المدنية والسياسية؟

ـ أجل.

ـ ماذا سيتوجب علي فعله بالضبط؟

ـ من جهة عليك أن تتأكد من أن وكالاتنا التجارية محمية على نحو جيد، وإن لم تكن كذلك فعليك اتخاذ جميع الإجراءات المطلوبة لضمان أمنها. ومن جهة أخرى أقم مع رجالك مستعمرات جديدة.

ـ آمل ألا يكون هذا كل شيء.

ـ كلا. إن جوهر مهمتك سيرتكز على إحياء نشاط مناجم الذهب والفضة التي سترسل إلينا إنتاجها. اعلم أنك حينما ستكون على بعد مئات الستادات من مدينتنا فإن مصير تلك المدينة سيكون بين يديك. هذا يعني أننا نضع ثقة وآمالاً كبيرة فيك.

ـ بقدر ما أنا مؤمن بصدق كلامك بقدر ما أنا أتساءل إن كان هذا العرض ما هو إلا وسيلة من بعض الأشخاص لإبعادي عن مدينتنا وبالتالي لإضعاف حزب آل برقا.

ـ إني أفهم قلقك. إنه مبرر وجدير بالثناء. وهذا يعني أن الأعداء الحقيقيين لآل برقا ليسوا هم بالضرورة أعضاء الحزب المناوئ، وإنما هميلقار برقا نفسه!

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أتعتقد أن من السهل على أنصارك أن يدافعوا عنك وأنت ممتنع عن الظهور في مجلس الشيوخ وعن المشاركة في مناقشاتنا؟ تريد أن تكون متبوعاً لكنك تصدّ المخلصين لك وتثبط عزائمهم. على نحو ما إن رحيلك عن قرطاجة سيسهل علينا المهمة، حيث تصبح لا غنى عنك لمدينتنا دون أن تكون حاضراً. وهكذا فأنت ستقدم خدمة هائلة لأصدقائك ونفوذك سيتزايد كذلك.

ـ هل بوسعي أن أختار بنفسي الضباط الذين سيرافقونني؟

ـ سيكون لك الخيار الكامل في هذا.

ـ انقل إلى زملائك قبولي لاقتراحهم حباً بمدينتي، لكني لست

غافلاً عن تدابيرهم. لا يحسبوا أني غير متنبه لدسائسهم الوضيعة. سأخبرك متى أرى الوقت مناسباً للانطلاق.

ما إن غادر بوميلقار ميغارا، حتى استدعى هميلقار إليه مشرفه:

- هيميلك، أتذكر الوعد الذي قطعته لك منذ وقت طويل؟

- أي وعد، سيدي؟

- أن أتخذ ابنك ماغون مرافقاً لي.

- أتنوي الرحيل؟

- أجل، وأنا بحاجة إليه.

- بعد المحن التي تعرض لها، فإن إقامة طويلة بعيدة عن قرطاجة ربما ستخفف من ألمه وغيظه. سأقوم بإخطاره وسيأتي ليتلقى أوامره منك. اعلم أني شاكر لك شكراً عميقاً لتفكيرك به.

لأسابيع عديدة عمل هميلقار دون انقطاع لتنظيم حملته العسكرية التي شاعت حولها في المدينة أنباء متنوعة مختلفة. هذا الاضطراب أدى بالطبع إلى أن يدخل المشهد أشخاص مريبون، مغامرون لا ضمير لهم أو تجار محتالون، لكن ابن أدونيبعل أبعدهم جميعاً دون شفقة. بعد تفكير حصيف قرر هميلقار بلوغ قادش براً وليس بحراً. فقواته ستجتاز سيراً على الأقدام المساحة الشاسعة التي تفصل قرطاجة عن أعمدة ملقارت، ثم سيقوم أسطول بنقلها لتجتاز المضيق. وعلى هذا النحو سيكون بوسعه أن يُظهر للقبائل النوميدية أن مدينته لم تفقد شيئاً من قوتها بالرغم من مصائبها وأنها تنوي إقامة إمبراطورية جديدة في المناطق التي يسكنها الإيبيريون. وعزم أيضاً على أن يجند من القبائل، في طريقه، بضع مئات من الفرسان النوميديين الذين كان يثمِّن جرأتهم ومهارتهم.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً، استدعى هميلقار إليه إبيسيد:

ـ غداً، ستأخذ أبنائي إلى معبد بعل حمون وسألحق بكم في آخر النهار.

ـ سنكون هناك، أنا وهنيبعل وماغون.

ـ لقد نسيت سالامبو.

ـ أترغب بحضورها؟

ـ لقد عاملتها دوماً على قدم المساواة مع أخويها ولا أرى سبباً لتغيير موقفي.

ـ حسن. ستكون معنا.

في الغد التقى الجميع في المعبد. ابتعد الكهنة باحترام حينما عرفوا هميلقار، وتركوا المجموعة تتفرغ إلى نفسها أمام مسلة النُذر التي شيدها في الماضي آل برقا. كان ابن أدونيبعل ينظر إلى أولاده نظرة حنان وتحكم في آن معاً، ثم أمرهم بالاقتراب منه.

ـ لم أكن على الدوام أباً جيداً لكم فقد كنت أمضي من الوقت في ساحات المعارك أكثر مما أمضيه في منزلي في ميغارا. عليكم أن تعرفوا مع ذلك أني أحبكم حباً عميقاً وأن هذا الشعور ما فتئ يزداد منذ وفاة أمكم. واليوم، ولإنقاذ مدينتنا من الخراب والأحزان، علي أن أفارقكم مجدداً لفترة طويلة جداً. أعدكما، هنيبعل وماغون، أن تلحقا بي حينما تصبحان في عمر حمل السلاح. أما أنت، سالامبو، فإني آمل أن تجدي زوجاً يليق بك وبجمالك. بيد أني لم أجمعكم لهذا السبب في هذا المكان الأثير على قلوب جميع المواطنين. أنتم تعلمون أن هدفي الأوحد طيلة حياتي هو الإسهام في مجد قرطاجة والدفاع عنها ضد أعدائها. وروما، هي عدوها الأهم، إن لم أقل الوحيد. إنها تريد هلاكنا وستحاول بلوغ ذلك بجميع الوسائل، بما فيها إغراء مواطنينا الأكثر جبناً بسراب السلام. إني أستحلفكم بألا تمنحوا الروم أدنى ثقة على الإطلاق. ولكي تتذكروا ذلك حتى آخر رمق فيكم قررتُ أن نلتزم جميعاً بقَسَم نمحض فيه روما والروم

كراهية أبدية، ونقول فيه أننا لن نعرف الراحة طالما هؤلاء يلحقون الأذى بنا. والآن، رددوا بعدي: «أقسم ببعل حمون، أن أبغض روما والروم حتى آخر نفس يتردد فيَّ وأن أفعل كل شيء ليتلاشى هذا الجنس وتلك المدينة الملعونين من فوق سطح الأرض».

بصوت واحد، ردد أبناء هميلقار الثلاث تلك الكلمات. وعندما انتهوا ابتسم لهم أبوهم.

ـ لقد قيل ما هو مهم. عودوا الآن إلى ميغارا مع إبيسيد، أخلص المستخدمين، وأخلص أصدقائي أيضاً. سأسافر غداً وأفضل أن نودع بعضنا هنا لنتجنب الدموع والآهات. لا تخافوا، إن رسلاً ستحمل إليكم أخباري بانتظام شديد. هيا اذهبوا قبل أن يستبد بي التأثر.

ابتعد ماغون وهنيبعل وسالامبو بصحبة معلمهم. ظل أبوهم طويلاً أمام مسلة آل برقا قبل أن يطلب من كاهن أن يتلو الصلوات المعتادة. قام مؤدي الصلاة، وهو شاب يرتدي ثوباً من الكتان الأبيض، حافي القدمين، بأداء مهمته. وعندما أراد ابن أدونيبعل أن يسلمه مبلغاً من المال، رفض قائلاً:

ـ لا أريد زاراتك، هميلقار برقا. إنه شرف لي أن أبتهل لبعل حمون إكراماً لك.

ـ ماذا تريد إذن؟

ـ أن أطلب منك معروفاً.

ـ ما هو؟

ـ إنك ذاهب إلى بلاد الإيبيريين. وإن كاهناً عجوزاً كلمني في الماضي عن معبد شُيد إكراماً لبعل في قادش ويقوم عرّاف بأداء الصلاة فيه. لقد أكد لي بقية كهنة معبدنا هنا بأن آلهتنا قد أنعمت علي بموهبة التكهن بالمستقبل. وأنا أود أن أتأكد من ذلك، ولهذا أحلم بالذهاب إلى قادش. أرجوك اصطحبني مع جنودك.

- أنت تتظاهر بأنك عرَّاف مثير للفضول. وتزعم أنك قادر على معرفة ما سيحصل. إذن، عليك أن تكون قادراً على إخباري إن كنت سأقبل طلبك أو أرفضه. برأيك ماذا ستكون إجابتي؟

- هميلقار، إن قدرة عرَّاف ليست كما تعتقد. فأنا أستطيع أن أقول لك كيف ستموت لكني لا أستطيع إطلاقاً أن أوضح لك ما هو جوهري لمعرفة أسباب وفاتك والتي أنت وحدك تعرفها. وعلى هذا النحو، لديَّ إحساس بأنك ستستجيب لطلبي، لكني سأظل جاهلاً لمَ ستفعل ذلك.

- أنت تعجبني. ما اسمك؟

- آزر بعل.

- ستكون مع خاصتنا في هذه الحملة وسأقول لك لماذا.

- لأنك تريد أن تسمع مني كيف ستموت.

- ليس لدي رغبة ولا حاجة لمعرفة ذلك.

- لكن هذا ما قد يتمناه أي رجل عادي. حتى أن بعض الناس قد يدفع غالياً ثمن هذه المعلومات ليحاول التأثير على مصيره.

- ليس لدي قدر وإنما مقدور وذاك سيتحقق دون أن أستطيع فعل شيء له لأنه يستجيب لقوانين وقوة تتجاوزاني. كلا لقد عزمت على أن آخذك معي لأنك تفضل الأسئلة على الإجابات. إن حصل وأردتُ استشارتك فسؤالي لن يكون لتقول لي ما سيحصل، وإنما بالأحرى لمساعدتي على تفحص كل بادرة مني وطرحها للتساؤل. لنأت إلى المهمِّ. أظن أنك تفضل التسلل من هذا المعبد دون إذن من الكوهين هاكوهانيم، الكاهن الأكبر لبعل حمون، الذي سيرفض أن تسافر إلى قادش.

- ولمَ سيرفض الإذن لي؟

- لأن وجود عرَّاف لا غنى عنه لازدهار معبد وشهرته. إنه بلا ريب قد سمع عن مواهبك وهو يريد أن يدعم بعض المشاريع بخصوصك ليملأ خزائن معبده ذهباً. أنا أكيد من أنك قد لاحظت هذا

الأمر، وأن لذلك صلة برغبتك في مغادرة قرطاجة. أنت لا تريد أن تكون أداة لطموحاته. هل أنا مخطئ؟

ـ أنت أيضاً قادر على قراءة ما في قلوب الناس.

ـ لكن وفق طريقتي. سأرسل بعد قليل بعض رجالي ليقدموا قرابين إلى بعل حمون. وسيسارع الكهنة إليهم ليقدموا لهم خدماتهم لقاء نقود لا بأس بها. استفد حينذاك من الفوضى الحاصلة لتتسلل هارباً. سينتظرك أحد جنودي خارج حرم العبد ومعه لباس عسكري عليك بارتدائه. سأقول لك متى بوسعك أن تعود إلى ثوبك الكتاني الأبيض. آه، هنالك أمر ثانوي: عليك أيضاً انتعال خفٍّ من الجلد لأن قدميك العاريتين ستكشفان عن هويتك. حاول أن تُظهر رباطة جأش وأن لا تتعثر وأنت تمشي إذ أمامنا طريق طويل علينا اجتيازه لنصل إلى قادش.

ـ لقد قيل لي الكثير من الأشياء عن آل برقا لكن، ومن الآن فصاعداً، أعرف أن أهم فضيلة في عائلتك اللامعة هي الكرم. عندما أفكر بالذهن البليد لدى كثير من مواطنينا المشهورين، أقول لنفسي أنكم أنتم الذين تحرسون روح قرطاجة الحقيقية على نحو أفضل مما نقوم به نحن الكهنة.

ـ انتبه لنفسك، آزر بعل، إنك لم تعد تتنبأ، أنت تمالق وأنا لا أحب هذا مطلقاً. حان الوقت لنفترق. سنلتقي عما قريب. والآن علي الذهاب لرؤية الكاهن الأكبر.

ـ هل لتخبره عني؟

ـ حتماً إنك لعرَّاف تافه وستكون بحاجة إلى دروس عرَّاف قادش. كلا، سأذهب لرؤيته لأشتكي منك. وهكذا لا يمكن لأحد أن يتخيل أنك سافرت معي.

* * *

انضم هميلقار في المساء إلى قواته المتوقفة خارج المدينة. وبعد أن اجتاز سيكا، توغل هو ورجاله، بمراحل قصيرة، وسط بلاد

النوميديين، وسرعان ما التقى الجندُ الكشافة الذين كانوا في الطليعة بفرقة فرسان يترأسها نهراواس النوميدي. ذاك الأخير عرفه أحد الضباط القرطاجيين، وكان قد قاتل معه أثناء الحرب الشرسة، سلَّم عليه بحرارة قائلاً:

- إني سعيد برؤيتك مجدداً، لا بد أن هميلقار سيتأثر بالشرف الذي قدمته له بحضورك إلينا.

- أطلب منك أن تُعلمه برغبة أخي جوبا في استقباله، هو وحاشيته، في قصره. سيكون بوسع رجالكم نصب خيامهم في الحقول المجاورة. وسيدلكم أحد جنودي على منطقة غزيرة المياه. أما الطعام فسيُحمل إليكم بكميات كافية.

- أشكرك على ضيافتك اللائقة بحليف حقيقي لقرطاجة. لكن من سيرشدنا إلى مدينتكم؟

- انصبوا مطمئنين معسكركم. وفيما بعد سيأتي أحد فرساني لاصطحاب ابن أدونيبعل ورفاقه.

بعد أن أرهقهم المسير الطويل تحت شمس محرقة تمتع الجنود أخيراً بتمكنهم من تناول قسط من الراحة. وسريعاً، وخلف رقعة واسعة من الخيام المنصوبة، شوهد الطباخون وهم يضرمون نيراناً عظيمة، بينما كانت عربات محملة بالقوت تصل قادمة من القصر الملكي. وعندما بدأت الشمس في الغروب تقدم نوميدي إلى مدخل المعسكر. عدا هميلقار بفرسه خلفه، متبوعاً بعشرة ضباط. عند خروجه من المضيق، انبهرت أنفاس هميلقار إعجاباً: كان ينتصب أمامه رأس صخري تحميه شعاب عميقة، ويتصل بالهضبة بوساطة جسر لا بد أن بناءه قد كلَّف مئات الرجال حياتهم. لم تكن المدينة المبنية فوق سفح الجبل باذخة بذخ قرطاجة، لكن المنازل المشيدة من كتل حجرية هائلة بدت مريحة. وفي الأزقة، كان المارة القليلون بالكاد ينظرون إلى الجنود الغرباء، كان أمراً مثيراً للاستغراب ألا يعيروهم انتباهاً. خلصت المجموعة إلى ساحة واسعة ظهر في

نهايتها القصر الملكي، كان بناء جليلاً يحيط به رواق أنيق من المرمر.

اصطُحب الزائرون، بعد إذ ترجلوا، عبر صف قاعات مضاءة بالمشاعل إلى فسحة خضراء وضعت فيها أرائك ومناضد. رحب نهراواس بهم وأمر بتقديم الطعام والشراب إليهم. ثم أخذ بيد هميلقار واصطحبه إلى الأجنحة الملكية حيث رغب جوبا بالتحادث معه على انفراد. لما التقى الرجلان لم يستطيعا إخفاء انفعالهما:

ـ هل ينبغي علي أن أناديك جوبا أم جلالتكم؟ فمنذ لقائنا الأخير اعتليتَ عرش أبيك وينبغي احترامك.

ـ وأي لقب أنا أخاطبك به؟ أنت الرجل الأقوى في مدينتك دون أن تكون قاضياً أو شيخاً أو عضواً في مجلس المئة والأربعة. دع المزاح. أنا جوبا وأنت هميلقار، صديقان لا يمكن أن يفرقهما شيء.

ـ هذا يطمئنني فالشك تمكن من مراودتي. وأنت ماذا أصبحت؟

ـ إني أحكم، صدقني، إنه عبء ثقيل يحرمني الكثير من المسرات. لقد اتخذت قراري في هذا. أما أنت فأرى أنك عاودت القيام بحملاتك وآمل ألا تكون حربك ضد شعبي.

ـ أنت تعلم جيداً أني كنت دوماً صديق النوميديين وأني أثمن الإخلاص الذي أظهرتموه تجاهنا. كلا، إني لا أزمع شن قتال ضد شعبك، وهيهات أن أفعل ذلك. إني أتجه نحو أعمدة ملقارت ومن هناك سأبحر إلى قادش.

ـ أفهم من كلامك انك ستغيب لفترة طويلة.

ـ نعم، ولأجل هذا كنت سأحزن إن لم أتمكن من رؤيتك ثانية.

ـ أتمنى لك نجاحاً كاملاً في حملتك العسكرية. إني أعرفك ولا بد أن بواعث نبيلة هي التي دفعتك إليها.

- إن مدينتي تعيش في الوقت الراهن أوقاتاً صعبة وعلينا إيجاد المال اللازم لندفع للروم التعويض الذي فُرض علينا.

- اعلم، وأنا أتكلم هنا بصفتي ملكاً، أن الجزية التي ندفعها إليكم لن تُزاد.

- أنا لم أقترح هذا مطلقاً، وأتجنب فعل ذلك، إكراماً لصداقتك من جهة ، ولئلا تسوء علاقتنا مع شعبك من جهة أخرى.

- أنت تتكلم بلسان الحكمة. ترى هل هذا هو أيضاً لسان مجلس المئة والأربعة؟

- لقد تلقى تعليمات بهذا المعنى.

- أنا أصدقك. هل من أمر ما بوسعي أن أفعله لك؟

- أجل، اسمح لي أن أجند من شعبك ألف فارس. أنت تعلم أني لا أعتمد إلا على النوميديين في القتال على ظهور الخيل.

- سينضم إليك ألفا رجل بعد بضعة أيام وسيأخذون مكانهم تحت قيادتك. تصرف بهم كما تشاء. ولا تقلق بشأن رواتبهم. سأتكفل أمرها. وعلى هذا النحو سأشترك في حملتك باعتباري حليفاً لك. والآن، لنتكلم في أمر آخر. عندي مفاجأة لك.

- ما هي؟

صفق جوبا بيديه فخرج فتى من غرفة مجاورة وإمارات المرح والسرور بادية عليه.

- هميلقار، ها هو هميلقار.

ظل ابن أدونيبعل صامتاً. لقد كان الصبي صنواً حقيقياً لأبيه حينما كان في عمره، ورؤيته عادت بذاكرة القائد القرطاجي سنوات إلى الوراء عندما كان يقفز مع رفيق اللعب في حدائق ميغارا. شد هميلقار إليه ابن صديقه، وقد استبد به التأثر العميق، ومسح بيديه شعره الأجعد، ومن ثم سأل جوبا:

ـ هل يتكلم القرطاجية؟

ـ أتحسب أني أحمل هذا الإسم وأجهل لغتك؟ قال الصبي. إني أتكلمها كما أتكلم لغة جدودي، وإن تسمح فإني أريد أن أطلب منك معروفاً.

ـ هميلقار، كيف تجرؤ على التصرف هكذا؟ احتج الملك.

ـ دعه يتكلم. إنه يذكرني بفتى أعرفه وأنت تعرف من أقصد.

ـ شكراً لدفاعك عني. إن الملك قد كلمني كثيراً عنك وعن إقامته في مسكن أبيك في ميغارا. يبدو أن ابنك هو في مثل سني. إني أشعر بالسأم هنا، وأرغب أن تتوافر لي تربية معتنى بها كتلك التي تلقيتماها. لذا، أتوسل إليك، اسمح لي بالسكن عندك. سيكون هنيبعل بمثابة أخ لي.

ـ أوافق على ذلك عن طيب خاطر، فضلاً عن ذلك هذا ما كنت أُزمع طلبه من أبيك. إني لا أريد أن يعيش ابني وسط القرطاجيين وحسب، دون أن يعرف الشعوب الأخرى وتقاليدهم. جوبا، صديقي، هل تعارض هذا المشروع؟

ـ لا، وأنا أشكرك على كرمك. إن إبيسيد بوسعه تماماً الاهتمام بطفلينا. هميلقار، بنيَّ، ستذهب إلى قرطاجة بعد بضعة أيام. والآن، لقد تأخر الوقت وعلي ان أدعك تعود إلى معسكرك، إلا إذا...

ـ نعم.

ـ إلا إذا كنت تود تمضية الليل هنا. لقد أُعدت أجنحة لضباطك ولن تنقصهم الصحبة الممتعة. أما بالنسبة إلينا فما زال أمامنا أمور كثيرة نتحادث حولها.

ذهب الفتى ما إن نطق أبوه بكلماته الأولى، مفعماً بالفرح لتحقق حلمه. وهكذا لم ينتظر بقية الحديث لشدة تلهفه لزف النبأ إلى خدَّامه. أما ابن أدونيبعل فقد كان يصغي إلى جوبا، ورأى في صديقه ملامح ما تزال فتية وجسداً ناعماً.

- جوبا، إني أخشى كثيراً، أن ترغب في الثرثرة هذا المساء تحديداً. لقد شعرتَ، أنت، باستيقاظ الرغبات القديمة فيك، وأنا لا أستطيع أن أحقد عليك لأني أحياناً أحن إليها. سيكون رجالي في غاية الامتنان لك على دعوتك. سنلتقي بهم غداً صباحاً. والآن سأتبعك.

عندما بزغ الفجر وجد هميلقار الذي كان وجهه يشع ببريق سلام غريب، بعض المشقة في جمع ضباطه الذين كانت ليلتهم مضطربة مثل ليلته. استأذن هميلقار جوبا بالإنصراف وتوجه مباشرة إلى معسكره حيث انهمك الرجال في ترقب نهار جديد من المسير.

تابعت الحملة العسكرية طريقها بمراحل كانت تطول أو تقصر. وكانت تتوقف أحياناً بمحاذاة الشاطئ، في وكالة تجارية فينيقية، حيث كان سكانها يستقبلون بفرح مبعوثي قرطاجة. وأخيراً وصل الجيش الذي لحق به فرسان نوميديون إلى مشارف أعمدة ملقارت بعد أن التف حول جبل هائل. وفي الخليج كان الأسطول قد حُشد، وقامت السفن برحلات ذهاب وإياب متعاقبة لنقل الرجال إلى الجهة الأخرى من المضيق ومن هناك اتجهوا إلى مدينة قادش.

استقبلتهم المدينة استقبالاً حماسياً. واندفع سكانها بالمئات أمام الجنود، يحيونهم فرحين ويقدمون لهم الخمر والفاكهة. عندما نزل هميلقار في القلعة لم يكن لديه وقت قط للراحة. فقد أقبل إليه مرافقه ماغون ليقول له:

- ابن أدونيبعل، إن رجلاً عجوزاً يطلب رؤيتك وأنا متأكد من أنك ستستفيد من هذه الزيارة.

- أدخله.

كان الزائر عجوزاً قد خدّدت وجهه تجاعيد عميقة. وبصوت مرتعش، يتعثر أحياناً في كلماته، هاجم هميلقار قائلاً:

ـ اسمي عبداريش، وأنا قاضي هذه المدينة التي ولد فيها والديَّ وجدودهما. إن كنت ترغب سأصحبك لرؤية أضرحتهم في مدينة أمواتنا.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا بد أن قرطاجة فعلاً في عوز حتى تتنازل وتتذكرنا.

ـ إنك تلومنا، وأنا لا يمكنني أن أحقد عليك. نحن مذنبون في إهمالكم، وأنا أول المذنبين. صُبَّ علينا جام غضبك، إن لك الحق في ذلك، وواجب عليك أيضاً.

ـ إن صراحتك تعجبني. من أنت بالضبط؟

ـ هميلقار برقا، ابن أدونيبعل، الذي كان فيما مضى عضواً في مجلس المئة والأربعة.

ـ عرفتُ أباك منذ وقت طويل. لقد جاء مع آخر أسطول صغير ارتأت قرطاجة إرساله إلينا. لقد تكلمنا طويلاً وربما بفضله لم يفارقني الأمل رغم جحدان وطننا الأصلي لنا.

ـ إنه أجمل تكريم بوسعك أن تقدمه له، ولقد أثَّر في نفسي. وسأحاول أن أكون جديراً به. ما هو الوضع هنا؟

ـ لقد استطعت أن تشاهد الوضع بنفسك وأنت تدخل المدينة، فأسوارنا لم يعد لها وجود فعلي، ونحن لا نملك موارد لإعادة بنائها. لقد فتكت الأمراض والأوبئة بشعبنا إلى حد أننا كنا سنهلك لولا أن تزوج عدد من مواطنينا بنساء من القبائل المجاورة. وبفضل زعماء تلك القبائل لم نفتقر إلى الغذاء، والأسوأ تم تفاديه.

ـ ما حال مناجم الذهب والفضة؟ أتعرف ما يجري في تارتيشُوس؟

ـ لقد اضطررنا إلى التوقف عن استثمار المناجم لعدم توافر العبيد الذين يعملون فيها. أما في تارتيسوس فالوضع أسوأ مما

عندنا. إن المدينة مهدمة وقد هجرتها غالبية سكانها. والذين بقوا فيها قطعوا علاقتهم معنا، حتى أنهم لم يعودوا يأتون لتقديم القرابين لمعبدنا المشيَّد إكراماً لبعل حمون.

ـ أشكرك على هذه المعلومات. إن المهمة التي تنتظرني هائلة، لكن قل لمواطنيك أني مزمع على تأديتها على نحو جيد وأني أتمنى مؤازرتهم. ليس مصير قرطاجة وحده في خطر وإنما مصيرهم أيضاً.

لشهور طويلة مكث هميلقار مع جنوده في قادش. قايض رجاله سيوفهم بأدوات ورفعوا فوق الأرض سوراً جديداً محصناً. أما ألفا فارس نوميدي، بقيادة ماغون، فقد شنوا عدة حملات في أراضي القبائل المتمردة في الداخل، وعادوا جالبين معهم مئات الأسرى. خشي الزعماء الجبليون الآخرون وقد أصابهم الرعب أن يكونوا هدفاً للهجمات القرطاجية المقبلة، لذا فقد فضلوا أن يضعوا أنفسهم تحت حماية هميلقار. لم يطلب ابن أدونيبعل منهم دفع جزية مال وإنما ألزمهم بتسليم كميات هائلة من القوت والأعلاف للتمكن من مواجهة فصل الشتاء الذي أقبل، والذي كان قارساً على نحو خاص.

عند عودة فصل الربيع كرس هميلقار وقته لإعادة فتح مناجم الذهب والفضة. واقتيد الأسرى إلى مكان عملهم وسط معزوفة مُصمَّة من العويل والآهات. كان المساكين المحكوم عليهم بالعمل في المناجم يعرفون أنهم لن يروا نور النهار ثانية أبداً. كانوا، وقد نزلوا بوساطة سلالم من الحبال إلى قاع الآبار، يعملون في دهاليز طويلة جداً، على ضوء القناديل والمشاعل. كان الرجال ينقبون في الصخر، بينما كانت النساء والأطفال يملؤون السلال بقطع الركاز(*) ثم يتم رفعها بعدئذ إلى السطح. هكذا كان يعيش رجال ونساء وأطفال في جوف الأرض، منتظرين بفارغ الصبر أن يدوي بوق

(*) ركاز: معدن غير خالص.

المراقب مشيراً إلى انتهاء نهار العمل. وكان يتم كل يومين إنزال سلال الخبز وجرار الماء. وأحياناً، يحق لهم تناول لحم أو فاكهة فينقضون عليه بشراهة عظيمة. كان أشدهم صلابة يأمل أن يبقى على قيد الحياة في تلك الظروف خمس أو ست سنوات. لكن غالبيتهم كانت تموت بعد عام أو عامين. أما الجثث فكانت تُكدس في دهليز، تحوَّل استعماله لتتعفن مطلقة رائحة لا تحتمل. لم يكن رفاق أولئك الموتى يألون جهداً في إخطار المراقبين بوفاتهم. إذ كانوا يفضلون الاستيلاء على حصصهم الهزيلة! وعندما كان يتضاءل الإنتاج على نحو كبير يعرف حينئذ المسؤولون عن المنجم أنه أصبح عليهم إنزال عبيد جدد. حينذاك كان فرسان ماغون النوميديون يذهبون إلى الجبال لينتزعوا من قراها مئات الكائنات البشرية الموعودة بنهاية بائسة.

* * *

عندما استعادت قادش بهاءها انطلق هميلقار إلى تارتيسوس وأعاد بناء تلك المدينة. أقبل الجبليون بالآلاف للاستقرار بالقرب من ضفتي النهر وسط ضياع شاسعة تركها ملاَّكها الفينيقيون. وبدلاً من البحث عن ورثة أولئك ارتأى ابن أدونيبعل أن من الأصوب إعادة توزيع الأراضي على شاغلي المكان الجدد، باستثناء أرض واسعة خصصها هميلقار لجنوده وللنوميديين، مؤمناً لهم بذلك علاوة هامة إضافية على رواتبهم. وأُعيد فتح مناجم جبال الفضة، وشرع مئات العبيد، الأكثر حظاً من أولئك الذين حُكم عليهم بالاختفاء في جوف الأرض، بالعمل على حوافِ نهر بيتيز لالتقاط تبر(*) الذهب. وسرعان ما استدعت كل الوكالات التجارية القرطاجية هميلقار، ملتمسة حمايته التي منحها لها مقابل دفع ضريبة. وهكذا ما إن حلت السنة الثالثة على إقامته فيما وراء أعمدة ملقارت حتى كان

(*) التبر: فتات الذهب أو الفضة قبل أن يُصاغا.

بمقدوره أن يرسل إلى قرطاجة آلاف القطع الذهبية والفضية. وعادت سفنه محملة ببضائع شتى. لكن، أي ممثل من مجلس المئة والأربعة لم يحل محله. لقد تُرك القائد العام وشأنه، الأمر الذي لم يضايق هميلقار أبداً.

كل عام كان الجنود النوميديون ينتظرون بفارغ الصبر وصول الأسطول القادم من الوطن الأم. وفي أحد الأعوام نزل من سفينة ثلاثية المجاذيف هنيبعل، وهميلقار، وماغون، وإبيسيد ورجل جسيم القامة، طويلها. ارتعش ابن أدونيبعل من الانفعال حينما التقى بأبنائه ومعلمه القديم وكذلك بابن جوبا الذي أصبح يافعاً وسيماً. أما رفيقهم فقد قدم نفسه قائلاً:

ـ أنا حسدروبال وقد تزوجت ابنتك سالامبو.

ـ أعرف ذلك حيث أني كنت قد أعطيتُ موافقتي على هذا الزواج. إني سعيد بلقائك. ماذا جئت تفعل هنا في حين أن كل شيء يحثك على البقاء في ميغارا؟

ـ جئت لأقاتل إلى جانبك. ستلحق ابنتك بنا بعد أن تلد طفلنا.

ـ إنه لخبر يملؤني فرحاً. أهلاً وسهلاً بك. عما قريب سأشركك في مختلف مشاريعي. أما بالنسبة لولديَّ وصديقهما فقد أصبحوا في سن القتال وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن أرى كيف سيتصرفون في ساحة المعركة. بعد ذلك سيعودون إلى قرطاجة بالقافلة المقبلة. إني لا أريد أن يبقى ابني بعيداً عن مدينته الأم لفترة طويلة.

بعد بضعة أيام استدعى هميلقار إليه مرافقه ماغون:

ـ إني أكلفك بمهمة، اعثر من بين مشاتنا على المدعو آزر بعل. قل له أني بحاجة إليه.

أطاع ماغون الأمر رغم أن هذا الطلب قد أثار فضوله. لم يفهم سبب حرص رئيسه الشديد على لقاء رجل بسيط من الجند. وسرعان

ما أدرك أن عليه، من الآن، أن يُظهر بعض الاحترام نحو ذاك الشخص المجهول:

- هميلقار، ها هو آزر بعل.

- تحيتي لك، ابن أدونيبعل. لقد يئست يأساً مطلقاً من رؤيتك ثانية.

- إن وعدي مقدس. وآن الآوان بالنسبة لي لأبرَّ بالوعد الذي قطعته لك. من الغد ستخلع هذا اللباس وترتدي من جديد ثوبك الكتاني الأبيض. بأقدام عارية سنذهب إلى معبد بعل حمون الذي توفي عرّافه. وستحل أنت محله. سيترتب على كلامك أمور كثيرة، لذا أظهر الحكمة ونفاذ البصيرة في مهماتك الجديدة، علاوة على الصراحة.

عندما لاحت تباشير الصباح اتجه هميلقار، وولديه، وإبيسيد، وحسدروبال، وماغون وآزر بعل إلى المعبد الذي تحسن وضعه كثيراً منذ عودة الرخاء إلى قادش. قدم القائد الكاهن إلى رفاقه، ثم وبلهجة لا تقبل أي نقاش أمره أن يقول ما يخبئه القدر لهنيبعل. جلس العرَّاف وقد أدار ظهره لتمثال الإله، وبعد بضع لحظات من التأمل نطق بالكلمات التالية:

- إن ابنك سيفوقك بسالة وحكمة. سيحرز انتصارات كثيرة على أعدائه لكنه لن يتغلب على أقربائه الذين لن يضاهي جحودهم شيئاً سوى حسدهم. ستمضي حياته بعيداً عن قرطاجة ولن يموت فيها. سيبقى اسمه إلى الأبد مقترناً بتاريخ مدينتنا. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك.

- هل سيطيح بالروم أولئك الأوباش الملاعين؟

- لقد قلت لك أنه سيربح معارك كثيرة ضد أعدائه دون أن يستطيع التغلب على أقربائه. إن الأسباب تهرب مني، وليس بوسعي أن ألحَّ أكثر أمام الإله. سيكون ذلك تجديفاً يمكن أن تكون عقوبته رهيبة.

أُخبر هميلقار عند عودته إلى قادش بوصول وفد رومي، وقام باستقبال أفراده في منزله:

ـ هل أنتم رسل أنباء سيئة أم مطالب إضافية؟

ـ إنما جئنا ببساطة لنقدم لك احترامنا.

ـ إنها رحلة طويلة لأمر غير ذي بال.

ـ ومن لا يبتهج بلقاء قائد حربي يتمتع بمزاياك؟

ـ إن بعض قادتكم أحزنتهم تلك المزايا.

ـ من الأجدر ألا ننكأ ثانية جراح الماضي. قيل لنا أنك تقاتل كثيراً.

ـ ألستُ رجلاً عسكرياً؟ إني أحمي مدننا ووكالاتنا التجارية. علاوة على ذلك لا بد لي من الحصول على مئات العبيد لإرسالهم للعمل في المناجم.

ـ لكنك تجازف بإثارة حرب ضد جيرانك.

ـ إنها مجازفة ينبغي القيام بها لحماية مصالحكم.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ لقد زدتم تعويض الحرب المتوجب دفعه على قرطاجة من 2200 إلى 4200 تالان. وأنا أعرف أن مجلس شيوخنا يدفع لكم بمنتهى الدقة كل قسط سنوي. أين تعتقدون أن تلك القطع النقدية التي تُغنيكم، تُسبك وتُسكُّ؟ هنا بالطبع في قادش وفي تارتيسوس كما تشير إلى ذلك الكتابات المنقوشة عليها. إني إن صح القول أمين خزانتكم على كره مني. لذا دعوني أتصرف وفق ما أراه مناسباً فأنتم المنتفعون الأساسيون من ذلك.

عند رحيل الوفد الرومي استدعى هميلقار إليه صهره حسدروبال وضباطه الرئيسيين. وأعلن لهم عن عزمه على إنشاء مدينة جديدة: روش لابان «الرأس الأبيض»، في شمال تارتيسوس.

عند قدوم فصل الربيع كانت أسوار المدينة قد ارتفعت عالياً، وتم تجنيد آلاف الرجال كمرتزقة. وبمساعدتهم، أخضع والد هنيبعل، وخلال ثلاث حملات متتابعة، المناطق المجاورة. لكن مدينة واحدة رفضت بعناد قبول حامية قرطاجية في أراضيها، وهي هيليكيه. بيد أن هميلقار، وقد أغضبه هذا العصيان، قام بضرب الحصار على المدينة التي يدافع عنها جبليو«أوريس». وبعد شن قتال ضد المحاصَرين حمله ماغون على لقاء ذلك الغبي النذل: كارتالون.

الفصل الثالث عشر

تحت خيمة القائد العام بدأ الشيخ كارتالون يفور من نفاد صبره. في البداية، بدا له صمت هميلقار الطويل فألاً حسناً. فإن كان الرجل لا يرد عليه ولا يريد أن يقاطعه، فهذا يعني أنه يصغي إليه باستمرار ويقدر كلامه حق قدره. كان ذلك ما يرجوه! لا بد أن ابن أدونيبعل قد عقَّله العمر ولا بد أن البعاد عن الوطن قد حمل له نتائج خيِّرة، فها هي عجرفته قد فارقته وتنازل أخيراً ليصغي إلى الآخرين متصنعاً أمامهم لهجة خشنة. بيد أن كارتالون سرعان ما اضطر إلى الصحو من أوهامه حينما راقب جيداً هميلقار. في الواقع، كان ذاك غارقاً فيما يشبه الحلم ولا يعير أي انتباه إلى ما يحاول ابن بعل يتون أن يوضحه له.

غادر كارتالون، وقد استشاط غضباً، الخيمة بخطوات بطيئة، وهو الذي كان قد قدَّم نفسه كمبعوث لمجلس شيوخ قرطاجة. في الخارج كان ينتظره ماغون الذي عرض عليه مرافقته. في الواقع كان ذاك المرافق يتحرق متلهفاً لمعرفة ما دار خلال اللقاء. إن حفاوة الضابط المفاجئة، والمتناقضة مع برودة الاستقبال الأول أثارت اهتمام الشيخ كارتالون. لا بد أن هذا الرجل العسكري لديه أسباب قوية ليتصرف على هذا النحو، وربما يكفي أن يغريه ببعض وعود الترقية ليحصل منه مباشرة على معلومات حول تصرفات قائده السيئة.

وهكذا دعا كارتالون ماغون إلى مشاركته كأس خمر ليشكره على لطفه. بعد أن دعاه إلى الجلوس على أريكة سأله بغتة:

ـ منذ متى وأنت في إسبانيا؟

ـ منذ حوالى تسع سنوات. لقد كان أبي مشرفاً لدى أدونيبعل، وخادماً تحت إمرة إبنه، أظن أني أواصل تقليداً عائلياً.

ـ هذا الإخلاص يشرفك ولا يفاجئني. إن آل برقا يعرفون جيداً كيف يتصرفون مع أنصارهم. لكنك أنت لست نفّاجاً(*) بل إني على قناعة كبيرة بأنك شخص صريح وأنك لن ترفض إفادة مجلس شيوخ قرطاجة بآرائك. ومن هنا سؤالي: هل أنت حقاً راض عن طاعتك لهميلقار برقا؟

ـ لقد أَقسَم لأبي أن يجعلني مرافقاً له عندما أُصبح قادراً على حمل السلاح. لقد برَّ بوعده وقاتلت إلى جانبه خلال حرب المرتزقة. وإن اتّباعه إلى قادش ثم إلى هيليكيه ليس بأمر مخالف للمنطق.

ـ أرى أنك فطن. تقصُ علي أحوال خدمتك، التي لا أشك في أنها مدعاة للفخر، لكنك تمتنع عن إبداء أي رأي حول قائدك.

ـ وهل دور مرؤوس أن يفعل ذلك؟ أنتم، أعضاء مجلس الشيوخ، أجدر بدراسة تصرف قادتنا وأنتم وحدكم القادرون على استخلاص نتائجه التي تفرض نفسها.

ـ إنه لأمر غير مرغوب: هل برأيك هنالك نتائج تفرض نفسها؟

ـ أجل ودون أن أنتقص من احترامي لرئيسي.

ـ إن كلامك يدعني أتكهن أنك لا تتفق على الدوام مع قراراته وتصرفاته.

ـ إن رؤيتك صائبة.

(*) النفج: فخر المرء بما ليس عنده.

- وعلى ماذا تنتقده؟

- كارتالون، اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً.

- نعم، ما هو؟

- هل بوسعي أن أثق بك؟

- أجل، طالما أنك ستكون نافعاً لي ولمصالحي.

- لديك ميزة الصراحة، وأنا أفضل إجابتك تلك على كلام الرياء الذي أخشى أن أسمعه من فمك. وإن كنت تريد مداهنتي فإن الشك حينئذ سيداخلني. إني أعلم أنك تفكر لأجل غاية سياسية وليس بأمر مستحيل أن نجد أرضية تفاهم بيننا.

- ماغون، إني أحب أولئك الذين هم من طينتك. أنا وأنت من نمط واحد. صدقني إنك تضيع وقتك في هذه الجبال بينما ينتظرك مستقبل لامع في قرطاجة.

- منذ سنوات وأنا أرفض باستمرار أن أضع قدمي مجدداً في تلك المدينة فاسمها مقرون عندي بذكريات فظيعة جداً. إني ما زلت لا أطيق فكرة رؤية بعض الأماكن ثانية، وإن المنفى الذي حكمت به على نفسي أحتمله أكثر.

- أحس في كلامك مرارة وألماً، لكني ألمس فيه حنيناً أيضاً. إنك مشتاق إلى مدينتك الأم، حتى وإن كنت تكره التسليم بذلك.

- إن ابن قرطاجة لا يستطيع أن ينسى مدينته، لكن قد يكون من المستحيل عليه أن يغفر لها الجحود الذي أظهرته له.

- لا أعرف إن كانت تلك هي العبارة الدقيقة التي ينبغي استخدامها في هذا الظرف. قبل مجيئي إلى هنا استعلمتُ عنك. لا تحتج على ذلك. لدي مخبِرون قلائل في كل مكان، وأعتقد أني أعرف سبب غضبك. أتريد أن أُنعش ذاكرتك وإن كدرك ذلك؟

- قل وسأحكم على صدق كلامك.

ـ لقد غادرتَ مدينتنا لأنها قدمت أصغر أبنائك قرباناً إلى بعل حمون.

راقب كارتالون خلسة ماغون. لقد انهار ذاك فجأة على الأريكة وأخذ ينتحب بهدوء. تجنب الشيخ أن تصدر منه أدنى بادرة وظل صامتاً، مظهراً بذلك احترامه لألم محدّثه. وأخيراً وقف المرافق ماغون وتمتم بصوت سحقه الحزن:

ـ إذاً أنت على علم بالمصيبة التي انقضَّت على عائلتنا. إنك ترى بهذا المثال وحده كيف أن قرطاجة مدينة عظيمة، لكنها تستطيع أن تكون قاسية نحو أفضل خدامها.

ـ إني أفهم غضبك. لو كنت في مكانك لما تصرفت على نحو آخر. لكن هل سألتَ نفسك إن كانت مدينتنا هي وحدها المسؤولة عن مصائبك؟

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ إنه لأمر صحيح أن كهنة بعل حمّون قرروا، ولتجنب الخطر الذي كان يحوم فوق مدينتهم عندما حاصرها المرتزقة المتمردون، أن يضحوا بعشرات الأطفال، والذين انحدر بعضهم من أشرف العائلات. وفي مجلس الشيوخ بدا لنا طبيعياً أن يكون آل برقا، وهم مناصرو حرب الإبادة، من أوائل المشاركين في التضحية.

ـ ماذا تقول! هل كان على هميلقار أن يقدم أحد ولديه قرباناً؟

ـ أجل، وأقصد هنيبعل الصغير، ابنه البكر.

ـ لا أفهم. لقد كان هنيبعل هنا منذ وقت قريب، وهو على قيد الحياة ويخدم تحت أوامر أبيه. إنه ضابط جيد وأنا أحبه كثيراً.

ـ إنه هنا لأن الجنود عندما جاؤوا إلى ميغارا لإحضاره أوضح لهم هميلقار أن ابنيه قد سافرا مع إبيسيد إلى منزل صديقهم جوبا.

ـ هذا صحيح، فأبي، هيميلك كان قد كلمني عن تلك الرحلة.

ـ لكنك تجهل بلا شك أن هميلقار، وليهدئ من غضب الجنود وهيجان الآلهة، عهد إليهم بابنك الذي كان قد تكفَّل بتبنيه ليُقدَّم إلى محرقة في هيكل بعل حمّون.

ـ ماذا تقول، لا يمكنني أن أصدقك. إن أبي، الذي كان حينذاك في ميغارا، أكد لي باستمرار أن كهنة بعل حمون كانوا قد اختاروا اسم ابني مدرجين إياه في قائمة الضحايا. لذا فقد كان مجبراً على تسليمه إليهم. وهو أيضاً أقسم لي بذلك قبل وفاته بقليل.

ـ لقد كان أبوك رجلاً شريفاً. إني أعرفه جيداً وعليك أن تعلم أنه إن اضطر إلى طاعة ابن أدونيبعل فذلك لأنه كان يمارس عليه تهديداً شنيعاً. وإن هو رفض تنفيذ أوامره فهو حينذاك يخاطر بتعريض نفسه للهلاك والموت وسط آلام فظيعة. لكن، وبالرغم من كل جهودي، لم يرد أبداً أن يكشف لي عن سرِّه.

ـ هل أنت واثق مما تقول عن هميلقار، وخصوصاً عن أنه أودى بابني إلى نهاية لا أجرؤ على وصفها؟

ـ أنت تعرف خطَّ أبيك. لقد عهد إلي بهذه الوثيقة لأسلمها إليك في اليوم الذي أراه مناسباً. وقد حان هذا اليوم. إنها تحوي كل قصة تلك الحادثة المشؤومة. لقد ترددتُ طويلاً قبل أن أكشف لك عن وجودها. لكني، وأنا أفعل ذلك، أعتقد أني أتصرف في سبيل خير قرطاجة وهذا مما يخفف من وعثاء رحلتي الفظيعة.

قرأ ماغون بانتباه الوثيقة ثم وضعها جانباً.

ـ كارتالون، سأبوح لك، شرط أن تكتم السر، بمعلومات يمكن أن تكون نافعة لك. إلى اليوم لم أربط بين تلك الحادثة وحادثة أخرى تجهلها أنت ولم يتكلم عنها هيميلك في نصِّه المكتوب. الآن أُدركُ علاقة إحداهما مع الأخرى.

ـ إني أصغي إليك بانتباه وتلهف.

ـ أتذكر ماركوس أتيليوس روغولوس؟

ـ إنه ذاك القنصل الرومي الذي كان أسيراً، والذي ذهب إلى روما ليحث على متابعة الحرب، ثم عاد، بحسب الوعد المقطوع لقرطاجة، قبل أن يختفي على نحو غامض. إن تلك القضية آنذاك قد أثارت الكثير من الضجة. وكان أبي قد اتهم آل برقا بأنهم وراء هروبه، لكن أدونيبعل هزّأه أمام مجلس الشيوخ وتعذّر على أبي إثبات تأكيداته.

ـ بوسعي الآن أن أكشف لك عن الحقيقة كاملة. إن ماركوس أتيليوس روغولوس هرب فعلاً من قرطاجة بفضل آل برقا. لقد كُلِّف هيميلك بأخذه إلى جزيرة اللوتوفاجيين حيث استضافته قبيلة صديقة. بالطبع كان لا بد لأدونيبعل أن يرتب أموره بحيث يرى شهود، سراً، رحيل أبي وصاحبه ويستطيعون، عند اللزوم، أن يقسموا بالآلهة جميعها بأن المشرف هيميلك، وبعد أن رشاه القنصل رشوة سخية، قد تصرف بمبادرته الخاصة. لأجل هذا عندما جاء الكهنة يطلبون ابني اضطر جده أن يرضخ لإرادة آل برقا ويقدم قرباناً من لحمي ودمي.

ـ ها أنت كشفت سر هذه القضية الغامضة. أرأيت كم من الظلم أن تحمِّل قرطاجة وزر خطيئة لم ترتكبها.

ـ ذلك لا يخفف عني ألم فقدان ابني، لكني من الآن فصاعداً أعلم أنه يتحتم علي واجب الانتقام له.

ـ إني أشاركك مشاعرك بل وحتى أكثر. إن ما قصصته علي لتوِّك يحمل أهمية سياسية كبرى. هكذا إذن، آل برقا، الذين يجرؤون على الادعاء بأنهم زعماء الحزب المناهض للروم، ينقذون أشرس خصوم قرطاجة: ماركوس أتيليوس روغولوس! سيكون في ذلك مفاجأة لأكثر من شخص من مناصريهم الذين ما فتِئوا يمدحون فضائلهم وإخلاصهم الدؤوب لمدينتهم.

- كارتالون، إني واثق من أنك ستعرف كيف تستغل هذه المعلومات ما إن ترجع إلى مدينتنا.

- إني على وشك أن أخيب أملك. فمع عدم توافر أدلة ملموسة لن يصدقنا أحد وسيعزون اتهاماتي إلى إرادة انتقام مشبوهة. أعلم أن هميلقار قد حرق جميع الوثائق التي كتبها أبوك، عدا تلك التي كان قد عهد بها إليَّ، وأظن أنك لم تحتفظ بأي وثيقة.

- إنك على صواب فيما تقول.

- إذاً سيتهموننا باختلاق كل شيء إن أنا قدمت هذه الوثيقة التي أنت وحدك القادر على الجزم بمصداقيتها، في حين أن عشرات الشهود سيؤكدون وجود تزوير.

- لن يكون بوسعي إذن الانتقام لابني إطلاقاً.

- أنت مخطئ في تفكيرك هذا. إذ لديك أصدقاء وهم مستعدون لمساعدتك.

- أود أن أعرفهم.

- ها هو أحدهم أمامك، وهو يمثل جميع أولئك الأعضاء القلقين في مجلس شيوخ قرطاجة من المكائد الخطرة لهميلقار وطغمته. إن تعطشه للفتوحات يوشك أن يثير من جديد الحرب ضد روما ونحن لسنا بقادرين على أن نسمح لأنفسنا بفتح صراع جديد. يجب إذن إيقافه عن الإيذاء نهائياً بأسرع ما يمكن.

- إني لا أرى وسيلة أخرى سوى السم الذي سيثير شكوك أهله. إن هميلقار بالغ الحذر، وأنا أفهم الآن لمَ حين أكون أنا وهو بمفردنا يحرص على أن يكون سيفه في متناول يده دوماً. وقد تأكدتُ من ذلك أيضاً منذ قليل. بالطبع غير مجد أن نرشو بعض أقاربه. أما حراسه وعبيده فهم مخلصون له إخلاصاً تاماً، ويهتمون به ليل نهار. صدقني من شبه المستحيل أن تحاول أمراً ما ضده في نطاق المعسكر.

ـ أعرف هذا، وعلاوة على ما تقول لا ينبغي لقرطاجي جدير بهذا الإسم أن يُتهم بالاعتداء على ألمع قادتنا. إن الشعب الذي هام به لن يغفر لنا ذلك وسيكون قادراً على الانتقام منا لموته.

ـ إني أؤكد لك ما كنت قد قلته آنفاً: نحن عاجزون تماماً.

ـ كلا، إن هميلقار يمكن أن يموت ميتة مشرفة أمام العدو إن نحن أفلحنا في جعله يقع في كمين ينصبه أعداؤنا المفترضون والذين نكون قد أبرمنا معهم اتفاقاً سرياً. إنكم تحاصرون منذ عدة أشهر هذه المدينة. ومن العجيب أنك أنت ورجالك لم تتصلوا على الإطلاق بالعدو ولم تأخذوا منه أسرى.

ـ إن هؤلاء الأسرى قد تم إرسالهم عبيداً إلى المناجم. وقد جاء بعض الفارين إلى مواقعنا، فأمر هميلقار بقتل بعضهم، لكني استطعتُ أن أنقذ منهم حوالى عشرة وهم شاكرون لي ما فعلتُ شكراً عظيماً.

ـ هل تستطيع أن تضمنهم؟

ـ أنت تعلم أن الفارين هم أناس ضعيفو الولاء. إنهم يخونون وطنهم فلمَ لا يخونون سادتهم الجدد؟ مع ذلك، أستطيع أن أدبر لك لقاء مع واحد منهم، وهو محارب طموح فتيٌّ، انضم إلى صفوفنا لأنه رأى أن أحد قادته قد أنزل به عقاباً ظالماً. إنه يقظ وذكي وأعتقد، أنه مقابل مثوبة كبيرة، لن يرفض مساعدتنا. ما هي خطتك؟

ـ سنرد له حريته وستتكفل بمرافقته إلى مراكز العدو المتقدمة. سيحمل رسالة إلى قضاة المدينة وفيها سأقترح عليهم عقد لقاء. ستأتي معي وسترى بنفسك الاهتمام الذي أحمله لقضيتك.

ـ أمهلني بضع ساعات لأرتب هذه الخدعة. وسأُخطرك عندما يكون كل شيء جاهزاً.

بعد يومين ذهب ماغون إلى كارتالون عند هبوط الليل.

ـ اتبعني إن خصومنا ينتظرونك خارج محيط المعسكر. لاتخش

شيئاً. لقد جاؤوا دون سلاحٍ وبحسب ما قال لي جندي هارب فإنهم، على ما يبدو، يعقدون آمالاً عظاماً على هذا اللقاء. إن أحدهم يتكلم القرطاجية وبوسعك محادثته دون وساطة ترجمان.

اندس الرجلان في العتمة، متحاشين جنود الحراسة، اجتازوا السياج الشائك وبلغوا أيكة مشجرة أخفتهم عن عيون الحرس.

ـ أنا كارتالون، شيخ من قرطاجة، وإني مسرور لتمكني من التكلم مع ممثلي سكان هيليكيه. اعلموا أني شفيق بمعاناتكم. لكن جنون هميلقار برقا هو الوحيد المسؤول عنها، وهو يريد أن يحتل جميع مدن منطقتكم، وهذا أمر لم نطلبه منه إطلاقاً. والحق يقال إنه عدونا كما هو عدوكم ونحن لا نريد غزو مدينتكم، بل نحن نفضل العيش بسلام والتجارة معها بكل اطمئنان كما هي الحال في الماضي في سبيل مصلحة الجميع. إن هميلقار هو العقبة الوحيدة التي تحول دون رفع الحصار. صدقوني، إن أنتم ساعدتمونا على التخلص منه، فإن جنده حينذاك وقد أربكهم فقدان قائدهم لن يلبثوا أن يعودوا سريعاً إلى «الرأس الأبيض». وإني سأحرص على أن تصدر إليهم أوامر بهذا الخصوص وستعرف هيليكيه من جديد أياماً سعيدة.

ـ ماذا تقترح علينا؟ قال عجوز يتكلم القرطاجية بطلاقة.

ـ إن جنودكم المحاصَرين يعوزهم كل شيء وهم منهكون. لكن ليستجمعوا قواهم وليستعدوا للقيام بخروج. حينذاك سيتجه هميلقار للقائهم. من المؤكد وجود مضيق عند مدخل مدينتكم، وفيه يمكن أن يُعزل هميلقار عن غالبية جنده ويهلك في كمين.

ـ أترى خلفي هذه الربوة المليئة بالحصى؟ يوجد هنالك مضيق وعر حيث يجري سيل هادر. لقد حطمنا الجسر الخشبي فوقه، أما الممر المؤدي إلى هذا الجسر فهو بالغ الضيق. إن أفلحتم في أن تدفعوا قائدكم إلى هناك فإن جنودي المتربصين سيسقطون كتلاً صخرية ثقيلة عليه وعلى حرسه. ولن يكون أمامهم حل آخر إلا أن

يلقوا بأنفسهم في الماء وسيهلكون غرقاً. إن التيارات بالغة القوة في هذا المكان وقد قضت في الماضي على سباحين مشهورين. إني أعدك بأننا سنتصرف كما قلت لك آنفاً. لكن من يضمن لي أنك ستحترم تعهداتك وترفع الحصار؟ إن القرطاجيين كرماء بإعطاء وعود ينسون الوفاء بها. وإن المرتزقة قد تعلموا ذلك من كيسهم.

ـ أنا أتفهم ارتيابك وإني مستعد لفعل الكثير لأبدده. خذ هذا الخاتم المنقوش عليه اسمي. إن مجرد امتلاكك له يعني أننا قد التقينا معاً. فإن أنا أخلفت بوعدي بوسعك استخدامه ضدي وأنا واثق أنك لن تتردد في فعل ذلك. أنت ترى الآن أنه ما من داع لأن تخشى شيئاً.

ـ إني لا أحب أن أنتمي إلى شعب قادر على قتل أفضل أبنائه. لكن سلامة مدينتي أمر يتصدر كل شيء. غداً مساء سنلوِّح بمشعل ثلاث مرات فوق أسوارنا إخطاراً لك بأننا سنقوم بخروج عند تباشير الصبح. عليك التصرف حسب ما يقتضيه الأمر.

عند عودتهما إلى المعسكر افترق ماغون وكارتالون سريعاً وذهب الواحد تلو الآخر إلى خيمته. في ضحوة النهار استدعى هميلقار إليه جميع ضباط أركان الحرب، ودعا أيضاً الشيخ إلى الاجتماع.

ـ ما الجديد؟ قال القائد العام بنبرة متعبة متقززة. ماغون، لقد طلبتك هذه الليلة لكن لم نجد لك أثراً. وقد قال لي أحد حراسك أنك لا بد أن تكون مع رفقة رقيقة في جهة ما من المعسكر.

ـ لم أحظ أبداً بتلك المسرة. لقد كنت أقوم بأعمال الدورية مع بعض الكشافة خارج خطوطنا، ذلك أني كنت قد لاحظت تحركات مشبوهة بالقرب من هيليكيه. ولا أعلم تماماً ما القصد منها. من الممكن أن قبائل جبلية جديدة قد قررت مد يد العون إلى أخوانها وأن المحاصَرين سيحاولون عما قريب القيام بمحاولة خروج جديدة.

- أنا أشك في ذلك. فصهري حسدروبال يراقب كل المنطقة. ولقد أرسلته في حملة عسكرية منذ أكثر من خمسة عشر يوماً، ولو أنه كان قد لاحظ أدنى شيء لنبهني إليه عن طريق رسول.

- لكن، ربما قتل أعداؤنا ذاك الرسول.

- هذا صحيح. في تلك الحالة لعل الأمر يعني أن المحاصَرين يعدُّون لهجوم.

- هميلقار، إنك تفكر الآن على نحو صائب. إن محاولة الخروج تلك بالنسبة إليهم هي الفرصة الوحيدة للخلاص. وإن هم نجحوا في مباغتتنا وفي تدمير معسكرنا فإننا حينذاك سنكون في وضع سيء وسيتحتم علينا التراجع إلى «الرأس الأبيض».

- إن ماغون يُبالغ في الأمر، قال كارتالون. لا بد أن هؤلاء الأشقياء منهكون ويحاولون خداعنا بإقناعنا بوصول نجدة إليهم. يكفي لأجل ذلك القيام بشيء من الضجيج وإثارة بعض الغبار. إن دحرهم مهمة بوسعنا أن نعهد بها إلى عبيدنا وهؤلاء سينفذونها على أفضل وجه.

- ماذا تقترح؟ قال هميلقار.

- على افتراض أن هؤلاء الحمقى سيغادرون السور المحصَّن الذي يختبئون خلفه مثل الجبناء، حينذاك سأُخلي معسكرك وسأدفع بجميع قواتي في هجوم على المدينة. أنت واثق من النجاح.

- ابن بعل يتون، ربما تكون سياسياً محنكاً، لكنك تجهل تماماً فن الحروب. إن القائد الذي يترك معسكره دون دفاع لا بد أن يحل به الخراب. وأنا أعرف ذلك من التجربة، إذ في الماضي، في صقلية، كثيراً ما ارتكب قناصلة الروم هذا الخطأ الذي استفدنا منه على نحو واسع. وأنا لا أزمع الوقوع في فخ كبير. إن حاولت حامية هيليكيه القيام بخروج فأنا سأمضي إلى لقائها مع ماغون وفرساني النوميديين فقط. أما بقية الرجال فلن يغادروا المعسكر.

- ومن سيقود أولئك الرجال؟

- أنت بالطبع، عزيزي كارتالون. فهذه فرصتك غير المتوقعة لتتعلم الجندية، ولن تسنح لك هذه الفرصة ثانية.

- أنت تمزح! إني لا أملك أي خبرة في الحرب كما قلتَ ويشقُّ علي المشي. أنت تدع ماغون يضلّك وهو يريد أن يحتال علي. إني لا أحبه وهو يبادلني الشعور نفسه. لقد رأيتُ ذلك في استقباله الفاتر لي، وما زال يُظهر لي قلة احترام.

- إن خلافاتكم الوضيعة لا تهمني. وستتحاسبان بعد المعركة. اطمئن، لن تكون بمفردك. سيبقى ضباطي الآخرون معك وبوسعهم مساعدتك بنصائحهم الصائبة. بالنسبة لي يكفيني أن يكون مرافقي إلى جانبي. والآن ليتفرغ كل امرئ لأعماله!

في المساء لُوِّح بمشعل ثلاث مرات فوق أحد أبراج السور. وعندما لاح الصبح دوى صوت الأبواق مبكراً في المعسكر القرطاجي. كان الحرس قد لاحظوا، بالرغم من الضباب، عدة مئات من المقاتلين وهم يغادرون المدينة ويتفرقون في جميع الاتجاهات، كما لو أنهم يحاولون بذر خداع حول ما يرمون إليه. استخلص هميلقار من ذلك أنهم يقومون بتقسيم جندهم، وأن غالبية هؤلاء تتأهب لمهاجمة المعقل القرطاجي. ما كان من هميلقار إلا ان تصرف بالضبط كما كان قد قال: عهد بقيادة المعسكر إلى كارتالون واكتفى باصطحاب ثلاث مئة فارس نوميدي معه وقسمهم إلى ثلاث مجموعات. كلَّف أولاها بالالتفاف حول المدينة والتأكد من عدم مجيء جند من داخل الأراضي، أما المجموعة الثانية فعليها أن تظل في الخلف لتحمي انسحاباً محتملاً. وعلى رأس المجموعة الثالثة مضى هميلقار ومعه ماغون متحرياً عن مختلف المضائق المؤدية إلى هيليكيه. وقاموا، دون جدوى، بروحات وغدوات كثيرة، لكن العدو ظل غير مرئي. كأنه تلاشى في الطبيعة أو ابتلعه جوف الأرض!

وعندما وصلوا إلى مدخل المضيق أمر ماغون الرجال بالتوقف والتفت إلى قائده:

ـ هميلقار، من الأفضل ألا ندلف إلى هذا المضيق.

ـ لماذا؟ إنه ليس أكثر خطورة من تلك المضائق التي استكشفناها سابقاً. فضلاً عن ذلك انظر إلى خيولنا. إنها هادئة. لو كان العدو في هذه الأنحاء لشعرت به ولكشطت التراب بحوافرها.

ـ هميلقار، إني أكرر لك ما قلتُ، إن كل ذلك لا يبدو لي جيداً. بل إني أرى هذا السكون مشبوهاً. تخيل لو أن الأمر معكوس، أي العدو في الجانب الآخر من المضيق، هناك حيث يوجد الجسر المهدَّم!

ـ قطعاً، أنا لم أعد أعرفك، هذا الصباح كنت منحازاً إلى جانبي ضد كارتالون. والآن تشاركه الرأي رغم أن الوفاق لا يبدو سائداً بينكما. إنك متوتر الأعصاب وأنا أفهم ذلك بعد سنوات الحرب الطويلة. إن أباك لم يفقد على الإطلاق رباطة جأشه ولأجل هذا كنت أمحضه ثقة عمياء. تمالك نفسك، أنت الآن لست في حالة قتال، لذا امكث هنا مع عشرة رجال تختارهم. أما الآخرون فسيتبعونني ولن نلبث أن نرجع خائبين من مطاردة أشباح أولئك المحاربين الإيبيريين.

اختار المرافق عشرة جنود محنكين يعرفهم منذ أمد طويل وكانوا يمحضونه إخلاصاً مطلقاً. رأى ماغون قائده العام يندفع إلى المضيق بسرعة كبيرة، يتبعه رجاله وهم يطلقون صيحات الفرح ويهزؤون من جبن ماغون. فجأة، ومن بعيد، ترامى إلى السمع ضجة غريبة. كانت السماء مرتفعة وصافية، لكن انبعث صوت كأنه دويُّ عاصفة رعدية مرقطة هائلة. مضى ماغون إلى الأمام ليراقب المشهد. كانت كتل صخرية ضخمة قد انفصلت عن حواف الجبل، جارفة كل شيء في طريقها. وإحدى تلك الكتل، الأكبر حجماً من غيرها، قطعت على فرسان هميلقار طريق التراجع، وأخذت

أحصنتهم المذعورة تشبُّ صاهلة من الخوف. كانت الصخور المتدحرجة فوق الجبل تسحق النوميديين في طريقها أو تقذفهم إلى السيل لتجرفهم المياه. وسرعان ما أصبح هميلقار وحيداً يبحث يائساً عن منفذ للخروج من هذا الفخ. أخذ يسبُّ بصوت قوي جهير العدو المختبئ في المرتفعات والذي ما زال لا يجرؤ على الظهور. وأخيراً وقف أحدهم، والذي لم يفلح هميلقار في تبين ملامحه، وعنَّف القائد القرطاجي:

ـ هميلقار، أنت أقل هيبة اليوم من أول أمس عندما قتلت ابني في المعركة.

ـ كان محارباً مقداماً وإني أُحيِّ شجاعته. لكن الحرمان أضعفه كثيراً بحيث لم يكن لديه أي حظ في الفوز في مبارزتنا. وهذا هو المصير الذي ينتظركم جميعاً عما قريب. صدقني إن التعقل الأكبر بالنسبة لكم هو استسلامكم وأعدك أن أُظهر على نحو استثنائي كرماً تجاه سكان مدينتك. إنهم لن يصبحوا عبيداً وسآمر جنودي بألا يسلبوا منازلكم، وألا يغتصبوا نساءكم.

ـ لكن هذا المصير السيء كنت تزمع إنزاله بمدينتي.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لست أنت الوحيد الذي لديه مخبرين تحت إمرته.

ـ لقد قدموا لك معلومات جيدة لكني، فيما بعد، غيرت رأيي.

ـ إن الأسد الواقع في الفخ يحاول مداهنة الغزال ويصبح وديعاً مثل حَمَل. لا تتكل على شفقتي. ستظل هنا محصوراً دون حراك، وسيهلكك عما قريب جوعك وعطشك وسط آلام فظيعة. وسأراقب بفرح احتضارك.

ثم، ومن مسافة بعيدة، سُمعت ضجة. كان ماغون قد نجح في تسلق الكتلة الصخرية الهائلة التي حالت دون تراجع قائده، خاطب هميلقار متظاهراً بأقصى درجات الحزن:

ـ لا تفقد الأمل. ليس أمامك إلا حل واحد لتتخلص من هذه الأزمة التي أتحمل مسؤوليتها. ليس بوسعك من هذا الجانب أن تتسلق الصخر. الق بنفسك إذن في السيل مع حصانك. سيحملك التيار نحونا. وأنا سأعد حبلاً متيناً من رحلنا وحمالات سيوفنا وأحزمتنا، عليك أن تمسكه في المعبر ليكون بمقدورنا سحبك نحو الضفة. دع لي وقتاً لأجهزه وسأعطيك إشارة.

بعد بضع دقائق صاح ماغون في هميلقار:

ـ دورك الآن! نحن ننتظرك. تشجع ستكون عما قريب سالماً. حاول السباحة ما إن تصبح في الماء لتصل إلى جانب الضفة اليسرى.

ـ ماغون، إني لن أنسى إطلاقاً ما تفعله لأجلي وأعدك بأن أُسبغ عليك العطايا ما إن نعود إلى المعسكر.

ـ هميلقار، إني لا أطلب منك شيئاً. ما أفعله الآن هو جزاء السنوات الماضية الخيِّرة في خدمتك وجزاء تصرفك تجاهي. تشجع صديقي، وإلى اللقاء!

تقدم ابن أدونيبعل بضع خطوات إلى الأمام ثم ارتد إلى الوراء وأطلق فرسه على عجل. ارتمى الحيوان في الماء ومنخراه يرتعشان، وأخذ يسبح بشجاعة، يشجعه صوت قوي من سيده، بينما كانت دوامات السيل المجمدة تضرب جنبيه. وفي لحظات قليلة بلغت المطية وفارسها مستوى ماغون، الذي كان بمفرده على الضفة المنحدرة والحبل في يده. حدق المرافق في القائد وذراعه لا تبدر منها أي حركة.

ـ ماغون، رجاه هميلقار، الق الحبل.

ـ كلا، لقد أهلكت ابني الوحيد بالنار، وسأفعل بك الأمر نفسه لكن بالماء.

ـ إن رجالك يقفون في الأسفل. أتعتقد أنهم سيتصرفون على هذا النحو تجاهي؟

ـ أشك في ذلك لكن لا حبل في حوزتهم.

ما كاد ينطق بتلك الكلمات حتى اصطدم فرس هميلقار بصخرة. كانت المياه الصاخبة تتقاذف القائد الذي أرهقته الصدمة مثل دمية متصدِّعة قبل أن يغرق بسبب ثقل لأمته(*).

بعد أن لحق ماغون برجاله، عثروا، قبل الغروب، على جسد هميلقار وقد فارق الحياة على بعد بضع ستادات من المكان الذي ألقى بنفسه فيه وسط الماء. ودون أن ينبسوا بكلمة حملوه فوق حصان واتخذوا طريقهم عائدين، غافلين أنهم متبوعون.

إلى المعسكر القرطاجي، عادت السَّريتان الأوليتان عند هبوط الليل. وترقب الجميع لفترة طويلة عودة هميلقار وماغون ورجالهما. أخيراً توقع الضباط أنهم قد يكونون فضلوا قضاء الليل في مكان آمن وأنهم سيعودون ما إن تبزغ خيوط الفجر الأولى. شكلياً تم وضع بضع حراس إضافيين في المراكز المتقدمة، لكن أولئك لم يشيروا إلى أي شيء يثير الريبة.

لكن، وفي الصباح الباكر، شوهد من بعيد جنود إيبيريون وسريعاً ما عادوا على أعقابهم. أُرسلت زمرة من الفرسان على وجه السرعة إلى المكان واكتشفت اكتشافاً جنائزياً. فوق مرقد من أغصان الشجر، كان المحاصَرون قد وضعوا جسد هميلقار، وبخلاف العادة، تركوا معه أسلحته ودرعه. وإلى جانبه طُرح أرضاً، رأس ماغون المقطوع، وفي فمه خاتم سارع الشيخ كارتالون إلى إخفائه. هميلقار برقا، أسد الصحراء، مات.

وصل صهره حسدروبال، بعد أن أخطره رسول، إلى هيليكيه

(*) لأمة: مجموعة آلات الوقاية كالدرع والخوذة.

وأقام لحموه جنازة جليلة، وذلك قبل أن يستولي على المدينة ويقتل بالسيف جميع سكانها، رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً. إلا أنه وعد بالإبقاء على حياة قاضي قضاة المدينة إن هو باح له عن سبب احترام جثة ابن أدونيبعل بينما حلَّت أسوأ الإهانات بجثة ماغون. نظر الرجل في عيني حسدروبال، وقبل أن يهلك بضربة سيف اكتفى بالقول: «أيها القرطاجيون، لست أنا بل أنتم المسؤولون عن هذا الموت وعن هذا القرار».

الجزء الثاني

هنيبعل

«تحت أسوار روما»

مدخل

استيقظت قرطاجة بتثاقل عندما نشرت سفينة خماسية المجاذيف كبيرة قِلْعَها الأرجواني العريض، وصلت فعلاً إلى مدخل الميناء التجاري بعد غروب الشمس ووجب عليها أن تلقي مرساتها في الخليج طوال تلك الليلة. إنّها قاعدة صارمة لا تستثني أحداً. يتوجب على كل مركب يظهر بعد أن تغلق السلسلة الحديدية الثقيلة مدخل الميناء أن ينتظر حتى يرفع هذا القيد الحديدي، الذي يوصد به العمال الليبيون الأشداء المدخل، في الصباح. إنّهم مخصّصون لهذه المهمة الرئيسية الضامنة لأمن المدينة وهم لا يعاملون معاملة العبد الخنوع. يُغَذُّون جيّداً غير أن استخدام الخمر محرّم عليهم لاعتماد تكليفهم بمهام صعبة في كل لحظة. إنّه نظام تُعَدُّ مخالفته موجبة للموت، وهي أمر بسيط لقاء ما يتمتعون به من عناية كبيرة. المدّلكون حريصون على تطرية عضلات العبيد ودهن أجسادهم بالزيت قبل بدء عملهم؛ ويفكر رؤساء العمال المشهورون بتشددهم مرتين قبل فرض عقوبة الجلد على المخالف، وفي الحقيقة فإن كل عقوبة تطبق بشكل مخفف على بعض الشبان الجدد لقمع عنفوانهم.

لم يكن الأمر على مثل هذه الحال ذلك اليوم. فمنذ أن أعلن عن وجود السفينة قرب المرافئ، انطلقت الأوامر من كل مكان. ومن أعلى برج الأميرية، قام ضابط الحراسة، بوميلقار، بالتعرف في الواقع على إحدى السفن المرسلة قبل عدة أشهر من ذلك الوقت إلى

روش لابان «الرأس الأبيض» في إيبيريا وعلى متنها الشيخ كارتالون. هناك أمر لفت انتباهه: لا يوجد في مقدمة السفينة أكواز الصنوبر وأيدي بعل وهي الرموز التقليدية لمدينة إليسا. تلك كانت علامة الحداد، وبدأ كل واحد في الميناء يتساءل عن الشخصية الهامّة التي قضت نحبها خلال تلك الرحلة البحرية الطويلة.

تمتم أحد المساعدين الحربيين: لم يستطع هذا اللعين كارتالون ابن بعل يتون أن يتحمّل مشاقّ الرحلة حتى أعمدة ملقارت. كان أبوه مخطئاً في عزمه التخلّص من هميلقار عدوه القديم. البكاء والنحيب سيُسمعان قريباً في بيته الخاص؛ مما يخبئ لنا بعض المفاجآت للانتقام لمقتل ولده، سواء من أتباع آل برقا أو من أصدقائه الذين اقترحوا أن تُعهَد هذه المهمة لابنه، بينما يجب القول إن هذا الأخير أكثر تلاؤماً مع التجارة منه مع القضايا العسكرية والسياسية.

عقب بوميلقار بقوله: احرص على كلماتك. قد تكون على حقّ لكن لا تنس أن لكارتالون جواسيس في كل مكان، وحتى في هذا المكان يمكن أن تُنْقَل كلماتك إليه فتستحق في أفضل الحالات النفي، وفي أسوئها الصلب.

ـ شكراً على ملاحظاتك. إن صراحتي تبرهن بكل بساطة على الثقة المطلقة بك. لكن لنصبر قليلاً حتى إرساء السفينة الخماسية المجاذيف وسماع المزيد من الأخبار.

بعد دقائق انتظار لا نهاية لها دخل المركب إلى الميناء العسكري، واستقر في مقدمته حيث يوجد عمودان عاليان من الرخام الأبيض يعلوهما إفريز من المرمر. فوجئ القادة العسكريون برؤية كارتالون الذي حسبوه ميتاً، يتسلّق مضطرباً الجسر ويدخل بخطوات حذرة صغيرة إلى الممر المؤدّي إلى الشاطئ وقد بدا وجهه قاتماً قلقاً.

قال بوميلقار: لك التحية أيها الشيخ النبيل. أرجو لك حسن

الوفادة في قرطاجة. لكن ما دلالة علامات الحداد المرتسمة على سفينتك؟ هل تحمل أنباء سيّئة؟

ـ لا يمكنني التصريح لك بشيء، قبل أن أقدّم تقريري إلى مجلس المئة والأربعة ومجلس الشيوخ. أنبئ جميع أعضائه عن عودتي وبأنهم سيجدونني في معبد إشمون بأسرع ما يمكن للاستماع إلى معلومات على قدر كبير من الاهمية. بانتظار تلبية الجميع هذه الدعوة سأعمد إلى الاستراحة قليلاً في شقتك، إن لم يكن لديك ثمة مانع.

ـ ستُنفّذ أوامرك في الحال. اتبعني، وسأقودك إلى غرفتي حيث سيكون عبيدي تحت تصرفك لتلبية جميع رغباتك.

عجّل بوميلقار بعد أن استقرّ محدثه، بإيفاد رُسل إلى المدينة لدعوة الشيوخ. حوالى منتصف النهار حثّت وفود غفيرة صاخبة خطاها نحو المعبد الواقع على هضبة بيرسا، وهم يعلّقون بلهفة على وصول القضاة الرئيسيين في المدينة ممن تعكس وجوههم علائم القلق، وكان كارتالون يحيط به حراسه آخر الداخلين إلى البناء الذي أغلقت خلفه سريعاً الأبواب البرونزية الضخمة.

لاحظه نظراؤه وهو يصعد ببطء إلى صحن المعبد، يتوقّف أحياناً ليحيي بعض أتباعه أو ليبعد بيد مزدرية انتهازياً حقيراً يحاول متأخراً استمالته. بعد أن انحنى أمام تمثال الربّ تحوّل إلى الحضور، وبصوت حازم صرح بهذه الكلمات:

ـ لدي أيّها القرطاجيون نبأ مؤسف أعلنه لكم، وقد حرصت على أن أجمع أعضاء جمعيتكم الموقرة ليكونوا أول المطلعين عليه، إذ أنه قد يُحدث اضطراباً في المدينة بعد معرفته مما يتيح لنا اتخاذ التدابير المناسبة اتقاءً للبلبلة والفوضى.

عند إعلان هذا الخَطَر غير المتوقع، سرت قشعريرة بين الحاضرين، ولم يستطع حنون الكبير وهو أحد كبار الرجال الأكثر نفوذاً في مجلس المئة والأربعة المحافظة على هدوئه، فانطلق

مزمجراً: كارتالون بدلاً من إضاعة وقتنا بمُضمراتك والتزام الحذر في الكلام انطلق مباشرة إلى الهدف. أيّة كارثة تحمل إلينا؟

ـ مات هميلقار برقا.

ساد صمت عميق عقب هذا الإعلان، المنقطع سريعاً بالصراخ والصيحات من أنصار ابن أدونيبعل(*). وانطلق هيميلكون أحدهم وتقدّم من الخطيب مهدداً:

ـ قل الحقيقة! حكمتم عليه أنت وأتباعك بالموت، وكلّفت من قِبل أعوانك بتنفيذ الحكم. إنّه هدف رحلتك إلى روش لابان.

ـ هيميلكون، إنّك تخالف الصواب ويمكن أن أطلب إنزال أقسى العقوبات بك لأنك تخدع نفسك. لن أفعل ذلك لأنني أحترم أَلَمك. اعلم أنني أنا أيضاً أبكي موت جنرالنا الباسل. إنني أعرفه منذ عهد الشباب وأقدّره حتى في خلافاتنا غالباً عند الحكم في إدارة الشؤون العامة. كان موته ضربة قاسية على مدينتنا التي تعتمد جزئياً على إرسال الذهب والفضة والحديد التي تصل إلينا كلّ عام. هلك والسلاح في يده محاولاً صدّ هجوم الجبليين الأوريسيين آنذاك خلال حصار مدينة هيليكيه، وقد غدت منذ ذلك التاريخ بين يدي قواتنا. حرصت شخصياً على إقامة مأتم مهيب على شرفه في قادش، حيث يستريح في حرم معبد ملقارت المقدّس، معبد عائلته، وبالاتفاق مع صهره حسدروبال الذي أعلنته قائداً لجيشنا في إيبيريا وجّهت أشرعتي مباشرة إلى قرطاجة لأعلن لكم هذا النبأ الرهيب، حاملاً عريضة صاغها صهر هميلقار.

ـ ما هي؟ أشار حنون الكبير. هل يريد تسميته قاضياً رئيسياً «شوفيت»(**) والعهدة إليه بمقاليد الحكم؟ هذه المطالبة الوقحة لا تدهشني من أحد أعضاء عائلة برقا.

(*) ابن أدونيبعل هو هميلقار.

(**) شوفيت Suffete: كلمة بونية تعني «قاضياً سامياً» من القضاة الاثنين اللذين يتوليان مقاليد الحكم في قرطاجة لمدة عام.

- هنا أيضاً، تقع بدورك في الخطأ وتسترسل في الغضب والحسد دون أن تتمتّع، مثل هيميلكون، بعذر الألم. كلا، يرجو حسدروبال بكل بساطة ليتمكّن من متابعة عمل عمّه في إيبيريا أن نسمح لأبناء عمومته، أبناء برقا، هنيبعل وماغون وحسدروبال الصغير، اللحاق به في «روش لابان» ليتمكنوا من تعلّم مهنة حمل السلاح ليستطيعوا أن يخلفوه في أحد الأيام.

- يجب عدم الانخداع بهذه العناية العائلية المؤثرة، أجاب حنون الكبير. ها هو حسدروبال يتحوّل أمامنا إلى حام لليتيم. أوشك أن أبكي كأن الأمر الطيّب واقع فعلاً. إنها الحيلة الأخيرة لهذا المخادع الذي يدين برفعته الأخيرة السريعة إلى التراتب المعاكس للطبيعة، الذي وافق عمه بشأنه على ما نعرف جميعاً من فساد أخلاقه المتوارثة عن الإغريق. إن الأمر واضح كأنه الماء الرقراق المنساب من نوافيرنا. حسدروبال المنحط في تعامله أيام شبابه مع والد هنيبعل يفكّر أن من حقّه أن يعامل أبناءه بالمثل. مثل هذا العمل الشائن لا يمكن التساهل به بين جدراننا. إذا كان شبابنا ينطلقون بعيداً أحياناً دون أمل في رؤية أوطانهم، فذلك لخدمة الوطن لا ليكونوا طعماً لنزوات جنرالاتهم المعيبة، وحتى حين لم يكن أمام حسدروبال همّ غير السهر على تربية أبناء حميّه اليافعين. هل يجب أن يتوقع منا التسليم برغبته؟ ماذا سيعلمهم؟ لغتنا، كتبنا ومحليّاتنا؟ اليونانية أو فنّ الخطابة؟ إنّها ليست مجالات يتفوّق بها وأتصوّره يستبدل بكل سوء بالسيف والمجن ملفات أوراق البردي. ما يريد تعليمهم لا يتطرق إليه الشكّ لحظة واحدة، هو روح الاستقلال والتمرّد المميّزة لآل برقا. هذه الذرية لا تهدف إلا لأمر واحد هو ممارسة الاستبداد الأكثر ضراوة على مدينتنا، وقد تطمح إلى تنظيم توارث السلطة لمصلحتها، وهذا ما يتم العمل به حالياً: هميلقار ترك جيوشه ميراثاً لصهره، وسيقترح هذا الآن تقديمها لابن المرحوم البكر. لا يمكننا التساهل بمثل هذا التحريف في قوانيننا. ثقوا أن

هنيبعل سيبقى حيث هو ليتعلم من قضاتنا أعرافنا وعاداتنا المقدسة. لا يمكنه أن يكون أكثر أو أقلّ من قرطاجي شاب في مثل عمره. وهو مايزال في هذه اللحظة شعلة خافتة إذا نفخنا فوقها ستغدو مِشعلاً يحمل اللهب إلى كل مكان بما فيه منازلنا الخاصّة.

أحدثت خطبة حنون ضجّة حقيقية في المعبد. ثارت ثائرة عدد من أنصار آل برقا معبرين عن غضبهم واستنكارهم بصخب وضجيج، وعَلَت من أركان المعبد الأربعة دفقات الاستنكار وصيحات الحقد: «الموت لحنون!»، «فليدفع على خشبة الصليب ثمن افتراءاته»، «لنطرد من حرمنا هذا العدو المعدُّ قرطاجياً وهو حليف الرومانيين!». واقترب بعضهم محاولين الاعتداء عليه، لكنهم أبعدوا من الحراس الذين هرعوا لحمايته منذ بدء البلبلة. حاول كارتالون أن يبدّد الضجّة بمباشرة الكلام، وبعد عدة محاولات غير مجدية استطاع إسماع صوته:

- لتُنسَ كلمات صديقتنا من قبل أولئك الذين استمعوا إليها وممن تفوّه بها وندم عليها بمرارة الآن كما هو مؤكّد! أيّها الشيوخ الأجلّاء أنتم تعلمون أن حنون صديقي وقد اعتدت أن أقف إلى جانبه خلال مناقشاتنا. وليس هذا هو الوضع حالياً لأنه على خطأ. من جهة التأكيد أن حسدروبال قد عهد إليه إمرة جيوش حميّه. فقد عيّنته أنا شخصياً مستغلاً السلطات الممنوحة لي خلال سفري من قرطاجة، وأنا غير آسف على هذا القرار لأنّه يفرض نفسه. ومن جهة أخرى فإن وجود أبناء بطلنا المرحوم إلى جانبه لا يبدو لي مخالفاً للصواب. فهؤلاء الشباب المحرومون سابقاً من أمهم ليس لهم من الآن فصاعداً عائلة غيره ومن الحمق منع لقاءاتهم بعد الفراق. هكذا يا زملائي الأعزاء أقترح الإجابة عملياً وبالإيجاب على ذلك الطلب، إنّما بشرط واحد: هو عدم اضطراري لمرافقة هؤلاء الشباب إلى قادش. فرحلة واحدة تكفيني طوال حياتي!

أغرق الحضور في ضحك عصبي أزال بعض التوتّر، وصادق

الحاضرون بالإجماع تقريباً على القرار المقترح من كارتالون. وعندما تفرّقوا أسرّ هيميلكون إلى المقربين له:

ـ كاد هذا الرجل الشيطان أن يمرّغنا في التراب!

سأله مستشاره إيتربعل: إلى من تلمّح بكلامك؟ وجب بالعكس أن يتراجع أمام عزيمتنا وقوتنا. بعد بضع لحظات ستعرف المدينة كلها أن حنون اللعين قد انفك عن روحه المشؤومة.

ـ هنا مكمن خطئك بتعلّقك بالظواهر فقط. كان المتواطئان يعملان لمصلحتهما. يخططان للتخلّص من ورثة هميلقار بإبعادهم عن هذه المدينة، التي ستتنسى مع مرور السنين حتى وجودهم، وهذا ما يتيح لهما توجيه مجلس الشيوخ وإملاء سياسة الصلح مع روما التي يحلمان بها.

ـ إنك تتنسى أننا معشر آل بَرْقا الأمناء سابقاً لهميلقار ننتمي اليوم إلى حسدروبال وغداً لهنيبعل إن لزم الأمر.

ـ يا لها من فكرة جميلة! أنصار دون رؤساء هذا ما نحن فيه من الآن فصاعداً. ليس في هذا الواقع ما يسرّ القلب.

* * *

في ميغارا وبعيداً عن الاضطرابات التي تهزّ مجلس المئة والأربعة كانت الحياة تجري هادئة بعد أن أعيد الأولاد إلى قرطاجة عقب إقامة قصيرة في قادش قرب والدهم. شبّ هنيبعل وماغون وحسدروبال أصغر أبناء العائلة بصحبة هميلقار النوميدي ابن جوبا في ظلّ عصا إبيسيد المتسامحة، وعندما توفي هذا الأخير متأثراً بالتهاب رئوي، حلّ محله سوسيلوس وهو إغريقي من مدينة تارنت، وعالم بلاغي ماهر هاوي مصارعة وسباحة. ومع مرور السنين توسّع البيت الذي بناه أدونيبعل بشكل كبير رغم غياب مالكه الطويل. سمحت الثروة المتجمعة على ضفتي نهر بيتيز لهميلقار بإصدار الأوامر لبناء أجنحة جديدة، وتجديد الأقسام الأكثر قدماً

من القصر العائلي. إعداداً لهذا الأمر أُحضِرَ الرخام الأغلى ثمناً من صقلية، كما استدعي من أثينا أمهر الرسامين وأغلاهم سعراً ممن اشتهروا بإنجاز الرسوم الجدارية التي تروي الأعمال الباهرة لملقارت او للاسكندر الكبير. جمعوا أثاث الخشب الثمين ذا الروائح العطرة المزين بزخارف من الذهب والفضة في الحجرات، فبدت مثل منائر من البروز، إضافة الى الطاولات ذات الأرجل المشغولة بدقة، أما الحدائق فقد زرعت فيها النباتات الأكثر ندرة يتعهد العناية بها عشرات العبيد المقتلعين من تربتهم الأصليّة.

ختاماً للدورة الطقسية من الحداد التي تقيّدوا بها منعزلين واهنين عندما علموا بوفاة والدهم، تلقى أبناء هميلقار زيارة هيميلكون المكلف بالإعلان لهم باسم مجلس الشيوخ عن رحيلهم القريب إلى قادش. على الفور فوجئ رئيس الحزب البرقاوي بالتغيّر الحاصل لدى هنيبعل منذ لقائهما الأخير قبل ذلك بعدة أشهر. غدا الفتى شاباً بشَعْر أجعد وأنف أقنى ونظرة تملؤها ثقة الذكورة. قامة طويلة جيّدة التناسق، وعضلات تتناسب جيّداً مع الممارسة اليومية للألعاب الرياضية، إلى جانب اللون النحاسي المميّز للفينيقيين. حتى لتحسبه مراهقاً أثينياً ببشرة لفحتها شمس أفريقيا، وأخوته ينتصبون باحترام إلى جانبه يلتهمونه بأعينهم.

قال هيميلكون بصوت يرتعش انفعالاً: هنيبعل، إن شعب قرطاجة يشاركك الحزن ويحفظ على الدوام في قلبه ذكرى والدك حيّة. سيبقى بفضلها شعارنا يرفرف خفّاقاً على جانبي البحر الكبير. وقد رغب صهركم حسدروبال أن تلتحق وأخوتك به في روش لابان، ووافق مجلس المئة والأربعة. متى يمكنكم الرحيل؟

أجاب الابن البكر: في هذه الساعة إن لزم الأمر.

ـ أقدّر عالياً تقيّدك بالنظام غير أنني واثق من وجوب تسوية كثير من التفاصيل قبل رحيلك.

ـ ليس لدي أي سبب لتأخير رحيلنا. ووكيلنا يعرف ما عليه

فعله وهو يدير جيّداً أملاكنا. إنني شديد الشوق لملاقاة ضفتي نهر بيتيز ومعبد قادش حيث كان أبي يقودنا في السابق لاستشارة أحد متنبئي الغيب.

ـ هو آزر بعل الراهب، الهارب من معبد بعل حمّون.

ـ وكيف عرفت؟

ـ واجبي أن أعرف كل ما يساهم بعظمة آل برقا.

ـ أنت لاتجهل إذن أن العرّاف تنبأ لي بقدر استثنائي.

ـ القدر الذي حَلُم به والدك لك ولأخوتك. هنا في هذا المكان عندما كنتم أطفالاً لا تقوون على الوقوف على أقدامكم. قال لي مشيراً إليكم: ها هم الأشبال الشباب الذين أربيهم ليهاجموا يوماً روما الرومانية. حان الوقت لتبرهنوا على أنه لم يكن مخدوعاً.

ـ ملقارت يحمينا. أريد منك حظوة.

ـ وما هي؟

ـ كَبُرَ هميلقار النوميدي ابن جوبا إلى جانبي، وأرجو أن يرافقني.

ـ توقعت هذا الالتماس وأطلعت مجلس المئة والأربعة. أعضاؤه يرجون أن يلتحق هذا الشاب بولايات جده، الملك العجوز غايا.

ـ لكنه صديقي!

ـ ماتزال حدثاً لتفهم بعض الأشياء والأذى الذي يمكن أن تحدثه إشاعات غير مبرّرة عن طبيعة الصداقة بين شابين.

ـ لا أهمية للأمر. وفي عهدتنا، نحن آل برقا، دَينٌ نحو جوبا وأهله.

ـ ولقرطاجة أيضاً. ولهذا السبب فإن ابن جوبا الأصغر، ماسّينيسا، سيذهب ليخدم في إيبيريا تحت إمرة حسدروبال. من جهة أخرى هناك أمير أخر من قبيلة منافسة لهم، سيفاكس، بحيث يشترك الماسيليون والمازاسيليون في توسيع مجال مدينتنا.

- إنني بحاجة إلى هميلقار والتمرّد على أوامر قادتنا يكلفني غالياً. أعلمني في الوقت المناسب عن موعد مغادرة وطننا.

مرت أشهر طويلة قبل الرحيل الكبير. رحل هيملقار النوميدي بعيداً عن أهله، وفي القلب غصة. ولم يكن سيفاكس المازاسيلي وماسّينيسا الماسيلي مستعجلين لهجرة جبالهم وغاباتهم. وصلوا الى قرطاجة على انفراد كل من جهته، وليبرهنوا أن تحالف شعوبهم الخاصّة مع مدينة إليسا هو النقطة الوحيدة المشتركة. بدا سيفاكس أكبر عمراً بوضوح. هو شاب بقامة مشيقة وعضلات قويّة بارزة. تربّى من قبل مؤدّب إغريقي، يحرك بمزيد من الاتقان لغة هوميروس. لم يترك سوسيلوس فرصة منذ البداية دون السخرية من مغالاته بالتعلق بكلّ ما يمتُّ إلى الإغريقية بصلة. ورغم أن ماسينيسا بمثل ثقافة منافسه، لكنه بقي أميناً على تقاليد وعادات شعبه، وهو يذكر بأنفة أفضاله العالية مع بعض رعونة.

ما كاد ينقضي يومان على إقامته في ميغارا حتى ارتكب خطأ. هل كان مقصوداً أم بدون قصد؟ خلال حديثه مع هنيبعل عند حلول المساء حول حدائق الفيلا الرائعة، انطلق الشابان الساعيان إلى الاستثارة المتبادلة في نقاش لا ينتهي حول أساس طيبة محتدهم ونبل سلالتهم. اعتقد هنيبعل أن من المهارة أن يستميل رفيقه الجديد، فذكر أن الهاربين بقيادة إليسا لم يتمكنوا من تأسيس مدينتهم إلا بفضل أريحية هيارباس ملك المازيسيين. لم تكن دهشته قليلة عندما سمع مخاطبه يعقب على ذلك بثبات ورباط جأش:

- تصرف سلفي بحكمة وبالتوافق مع قوانين الشرف. إنّها غلطة كبيرة من جهتنا إنكار هذه المكتسبات العريقة، ولكن هي وحدها فوق كل نزاع.

- ماذا تعني؟

- تتوقّف حدودك، في نظري، على هضبة بيرسا والبقعة التي

تحدّدها ملكيتك بتقسيم جلد العجل إلى سيور كتانية دقيقة وكل ما تبقى يعود إلينا.

ـ لكنك تعلم أن مجال مدينتنا يمتد إلى ما بعد هذا الموقع الأصلي، وأننا لن نتراجع عن التوسّعات اللاحقة، والواقع أن المعاهدات المبرمة بين شعبينا قد أقرّت هذا الوضع. هل يجب أن أستخلص أنك لا تعترف بالمعاهدات العريقة في القدم؟

ـ وحق ملقارت، إلهك، إنك تأخذ اقتراحاتي على محمل الجدّ. نحن لم نتجاوز مرحلة اليفاع وها إننا نهتم بالسياسة العليا وتقسيم ملكياتنا كأننا ننهش قطعة لحم، أمامنا أعمال أهم من ذلك، أردت بكل بساطة أن أظهر لك أننا بمزيد من تحريك الماضي نصل إلى مجازفات لا جدوى منها.

حرص هنيبعل أن يكتم عن أيٍ كان تلك المحادثة وهو يعد النفس ألا يطرحها من ذهنه. استشفّ في مخاطبه محدّثاً من معدنه يفضل أن يحظى بصداقته وثقته. دفعه سيفاكس للتأسف بشدّة على هميلقار النوميدي الذي لا يحظى بذكائه ولا بتكتّمه الحذر. إنّما هنا أيضاً حرص ابن هميلقار بَرْقا بعناية على كتمان عواطفه. في تفكيره بعبارات مخاطبه أَمِلَ أنه يريد اختبار أعصابه. إنّه حادث لا أهمية له فالأمير النوميدي الصغير في عمر يُفضّل فيه الحب ونيل الإعجاب بدلاً من الدسّ والكراهية. هكذا لم يقصّر في حسن وفادته وهو في مقره وإقناعه بأن الماسيليين والمازاسيليين ليسا فقط حلفاء إنما هما أيضاً ندّان لقرطاجة يمكن في مستقبل قريب أن تعتمد عليهما في عداد مواطنيها.

أخيراً حلّ اليوم الكبير. تلقى ابن هميلقار، صباح أحد الأيام، رسولاً من مجلس المئة والأربعة. حُدّد السفر مع البدر القادم وسط أجمل فصول السنة. تملّك اضطراب محموم المسكن وهرع العبيد لإعداد الأمتعة وصناديق الخشب الثقيلة المكسوّة بالجلد. اختار السائسون في الإسطبلات أفضل الركائب ودققوا بعناية في البرادع

والرواحل. عشية يوم الإقلاع للسفر، قضى هنيبعل نهاره وهو يتجوّل في جميع أرجاء المدينة ويختلط خفية بالسكان في الخانات والأسواق. تنّشق جميع الروائح وعبّأ أنفاسه بضجيج البلدة متوقعاً عدم رؤيتها على الأرجح مستقبلاً. قبل هبوط الليل بقليل التقى به أخوته بصحبة سوسيلوس وسيفاكس وماسينيسا في معبد بعل حمّون أمام النُصُب التذكاري المشاد من آل برقا. لم يتبادلوا أيّة كلمة. كل يتأمّل ويُصلّي. من هناك وصلوا إلى المرفأ وأقلعوا على سفينة خماسية المجاذيف جاهزة تزيّنت حوافّها بألوان جميلة.

لم يظهر الشباب طوال فترة الرحلة. استقروا قابعين في مقصوراتهم لا يجتمعون إلا في مواعيد تناول الطعام. لاحظ طاقم البحّارة أنهم قليلوا الكلام خلال تناول وجباتهم. يبدو كل منهم غارقاً في أفكار غامضة، يفكر على الأرجح في المصير الذي ينتظره في مقاطعة يجهل كلّ شيء عنها وستكون ملجأ له لسنوات طويلة. كانت الريح مواتية لهم، ووصلوا روش لابان بعد أسبوع من الإبحار. على رصيف الميناء استقبلهم ضابط قرطاجي بحرارة:

- أرحّب بكم جميعاً. إنني مهرا بعل قائد الخيّالة. يرجو حسدروبال أن تعذروا غيابه وأن تتجهوا إليه سريعاً.

قال هنيبعل: إنني متلهف لرؤية روش لابان والقصر القديم الذي أنشأه والدي فيها.

- يؤسفني ذلك. إنّما يجب أن أقلّك إلى العاصمة الجديدة، قرطاجنة(*)، حيث تُبنى قرطاجة الجديدة تكريماً لذكرى المرحوم والدك. لا شيء على هذه الضفاف سيعادل بهاءها. ثق إنّها تستحق جيّداً اسمها وستحسّ بها وكأنّك في ظلال هضبة بيرسا.

كان مهرا بعل متقدّماً قليلاً. عندما وصلوا الى قرطاجنة وجدوها تكاد لا تخرج من الأرض. هنا وهناك تنتشر بعض المنازل

(*) قرطاجنة: هي المدينة الحديثة التي أنشأها والد هنيبعل على الشاطئ الإسباني.

المنتهية حديثاً. كما يمكن تمييز الشوارع المستقيمة بعرضها الواسع، وفي خارج النطاق المسوّر بدأت تظهر جدرانها المكوّنة من الأحجار القاسية المقتلعة من الجبل المجاور، حيث أقام حسدروبال معسكره. وقد هرع عند رؤيته مجموعة المسافرين الصغيرة للقائهم وقد تهلّل وجهه وهو يقول:

ـ ها أنتم أخيراً! عائلة برقا تجتمع من الآن فصاعداً. إنه الحلم الذي كان يداعب حميي وأنا فخور لإنجازه. قسماً بوجه أمنا تانيت تبدون متغيّرين وأنا عاجز عن التعرف على كلّ منكم.

ـ أنا هنيبعل وهذان أخواي ماغون وحسدروبال الصغير وهؤلاء سيفاكس وماسينيسا أصدقاؤنا النوميديون وسوسيلوس مؤدّبي. أنا بدوري أجد صعوبة في التعرّف على أنك صهري. علمنا بوفاة زوجتك سالامبو أختنا. غير أن وفاتها لا تغيّر شيئاً من الوضع أنت زعيم حزبنا ونحن هنا لنتعلم منك فنّ الحرب.

ـ بني إن سمحت لي بأن أناديك هكذا. كلماتك تمسح بالبلسم شغاف قلبي. مهرا بعل سيرشدكم إلى منازلكم. سنلتقي غداً صباحاً لأحدّد لكل منكم مهامه. استريحوا اليوم فأمامكم الكثير من الأعمال.

منذ فجر اليوم التالي مَثُل الشباب أمام حسدروبال يحيط به قادته الرئيسيون. أدرجت أسماء ماغون وحسدروبال اليافع وسيفاكس وماسينيسا في وحدات المشاة والخيّالة للتدرّب على مهمتهم جنوداً. أما هنيبعل فقد أعلمه صهره بجفاء أنه اختير معاوناً له للإشراف على بناء المدينة.

قال الشاب: أتيت إلى هنا للقتال وليس لأكون بنَّاءً أو نجاراً.

ـ إنّك جدير باسم أبيك. اعلم أن هميلقار في مثل سنك أرسل من قبل جدّك أدونيبعل في إلى ملكيته في أسبيس، بالقرب من رأس بون ليهتم بإدارة الأراضي ورعاية الماشية مما ساعده كثيراً عندما وصل إلى رأس السلطة، لم يكن له مثيل في السهر على قضايا

الإدارة. ستتيسّر لك بدورك المناسبة لحصار المدن. ويجب أن تعلم كيف قامت وأنشئت لتدرك أماكن ضعفها. تأكّد أنّك لن تندم على هذه التجربة وستشكرني.

بعد أعمال شاقّة استغرقت أشهراً انتهت قرطاجنة، وغدت مركزاً تجارياً وسياسياً من الدرجة الأولى في الأهمية، مزيحة منافستيها قادش وروش لابان. أبنية عامة، معابد، منازل تتنافس في بهائها وجمالها. لم يخف المسافرون الوافدون من قرطاجة أو مسّاليا(*) الإغريقية إعجابهم بها ومخاوفهم أيضاً. يُقدَّر لبلدة على هذه الشاكلة أن تغدو مؤهّلة لتكون عاصمة لمنطقة سَكنية أكثر سعة بما لا يقاس عن البلدات القرطاجية الغابرة. يجب الاستيلاء على المناطق الخلفية من البلاد، حيث مناجم جبل الفضة، وحيازة الأصقاع الشمالية لإيقاف النزوات التجارية الطموح للرومان وأهل مسَّاليوت.

استجابة لتلك السياسة لم ينفر حسدروبال من الحملات العسكرية لكنه لجأ أيضاً إلى الدبلوماسية والإغراء. تزوّج ثانية بعد سنتين من ترمّله من ابنة مليك جَبَلِيٍّ تحالفت عائلته مع كثير من الأسر المالكة المحلية تكثر حولها الفتيات المؤهّلات للزواج. وُجدت إحداهن إميليسي في الموقع المناسب من قرطاجنة بعد أن عهد بها إلى عمتها زوجة حسدروبال.

وقع هنيبعل مغرماً باليافعة ذات الشعر الأسود اللمّاع المجعّد والقامة المشيقة ذات الردف المتموّج بطريقة مُغرية. إنّها بعكس زميلاتها، ذات بشرة بيضاء حليبيّة شبه الأوبالين تزيد من رقة تقاطيعها. تتكلم بطلاقة اللغة البونية التي تعلّمتها عن جدّتها المرأة القرطاجية الماهرة. لم يَفُت إميليسي الجميلة ملاحظة مناورة ابن هميلقار وهي التي دوخ جمالها كثيراً من الرؤوس. استخدمت

(*) مرسيليا الحالية.

بدهائها استراتيجية محدّدة للوصول إلى أهدافها. تذرّعت بالحنين إلى الوطن الأم وأعلنت عدم قدرتها على تحمّل قرطاجنة في حرّ القيظ، ورجت عمتها أن تسمح لها بقضاء الصيف في الجبال المكسوة بالثلج المغطّي للقمم الأكثر ارتفاعاً. بالطبع هي تحتاج إلى حراسة لمرافقتها مع حاشيتها في هذه المناطق المتباعدة، فالطرقات في رأيها مغزوّة بقطّاع الطرق مع علم الجميع سرّاً أنّ آخر غزاوتهم تعود إلى عهود بعيدة سابقة.

تظاهر حسدروبال بأنه يأخذ بجديّة مخاوف نسيبته وأشار إلى هنيبعل لمرافقتها. دعا إليه الشاب الذي استبد به الضجر وهو يراقب بناء إحدى الأقنية المائية.

- ما هو وضع مهندسنا المعماري؟

- إنني ملتزم بأوامرك.

- صوتك لا يعبّر عن الحماس.

- قنعت بما كلّفتني به من أعمال، وأدركت أسباب قرارك غير أنني أحلم بقدرتي في يوم من الأيام على القتال بشيء آخر غير كتلة الحجارة والمشطرين.

- ستخوض التجربة إذن. إميليسي تريد زيارة أهلها وستسلك طريقاً يتعرض لغزو قبائل معادية لنا. وأكلّفك بالسهر على أمنها. والدها أحد حلفائنا الأكثر إخلاصاً لنا، وأي حادث يحصل لابنته يعود بعواقب وخيمة علينا.

- سأنفذ بعناية فائقة أوامرك. متى يجب علينا الرحيل؟

- منذ الغد. ستتغيّب لعدة أسابيع. احرص على جميع الاحتياطات اللازمة لحسن سير العمل وكلّف معاونيك بإنهاء بناء القناة.

عجّل ابن هميلقار بتنفيذ هذا الأمر الذي ملأ قلبه فرحاً، فلأوّل مرة في حياته سيمارس القيادة العسكرية، ويأمل أن لا يتأخر العدو

بإظهار نفسه. كان يعمل بحماسة تثير الابتسامة على شفاه الضباط المكلفين بمراقبته من قِبَل صهره. على طول الطريق كان يرأس المجموعة، يتقدمه الكشافون الذين يترقبون أخطار كمين هنا أو هناك. كان يقيم ليلاً حراسة حول خيمة إميليسي التي تلاحظ بسخرية من تسميه «سجّانها». بعد أسبوع من المسير وصل الركب الصغير إلى مدينة تقع فوق رأس جبل صخري. كانت الشوارع ضيّقة قذرة، تحيط بها بيوت حقيرة في حالة سيّئة. الأثر الوحيد، بعد المعبد، الذي يستحق هذا الاسم هو القصر الملكي المحمي بسور ثلاثي مُدَعّم. وباجتياز الأخير يتم الوصول إلى حديقة واسعة، مهملة، في داخلها عدة بيوت صغيرة هي مزيج من بناءٍ معماري إغريقي وبوني المنشأ.

في المساء نفسه دعي هنيبعل إلى مأدبة أقامها والد إميليسي. شيخ وقور ذو لحية كثّة وحاجبين كثيفين وهو يتحدّث اللغة البونية، إنّما بلهجة تختلط بأخطاء لغوية مستملحة. بسرعة تطور الحوار بين الرجلين.

ـ هكذا أنت ابن صديقي القديم هميلقار الذي أغرقني موته في حزن قاتم. آمل أن تكون بمثل تعقّله ويقظته.

ـ أحاول أن أشرّف ذكرى والدي دون أن أخيّب أملك.

ـ حدّثتني إميليسي كثيراً عنك.

ـ ابنتك؟ يخيل إليّ أنها تسخر مني.

ـ أنت لا تعرف نساء هذه المنطقة. يبدون في الظاهر متحفّظات متوجّسات غير أن قلوبهن لها عنف السيول الهادرة التي تكتسح جبالنا. إنّهن يتحكمن بأرواحنا وعقولنا دون احتراس وهي تجدك فتى وسيماً.

ـ وأنا أعترف بأنني مُستعبَد لجمالها. اغفر لي جرأتي لكنني أعترف أنني سأختارها زوجة إن لم تعترض على هذا الوفاق.

- مثل هذا الزواج يُعَدُّ شرفاً كبيراً لنا. غير أنّه يضع أمامي مشكلة.

- وما هي؟

- طلب أحد مواليّ يدها وهو أيضاً فتى مقدام. إضافة إلى أنني أخشى إثارة غضبه وانتقامه بتفضيلي لك دونه.

- يمكنك أن تعتمد على دعم قرطاجة فقواتنا ستتغلب عليه وعلى رجاله بسهولة فائقة.

- سأحدث إميليسي في هذا الأمر. لا تستغرب أن تطلب منك ملاقاتها. فهي وحدها التي تقرر مصيرها، وكلماتي لا وزن لها أمام ميول قلبها.

بعد تلك المداولة بيومين أعلن الملك لهنيبعل أن ابنته تنتظره على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة غير بعيد عن خميلة مقدسة مزروعة قرب ينبوع. قفز الشاب مباشرة إلى فرس قتاله، وأسرع إلى المكان المحدّد برفقة أحد الخدم. كدليل كانت الفتاة تنتظره وهي ترتدي غلالة من كتان أبيض وعيناها تبرقان مكراً.

- إنني سعيدة، للقائك في هذا المكان الذي أحب الاستراحة فيه.

- أنا مستعد للذهاب إلى أماكن أخرى أقل متعة تضمن لي وجودك فيها. يجب أن نتوصل إلى حل مُرضٍ.

- حول أي موضوع؟

- منذ لقائنا الأول أسرتني فتنتك وأريد أن تكوني زوجتي وأم أولادي.

- تريد! إن ما أفكّر فيه لا أهمية له.

- ما فتئت تخضعينني للاختبار والتحدي طوال رحلتنا لمعرفة تصرفي. أفترض أنك تثبتين على أمر. وربما كنت تفضلين مولى والدك.

- هذا ما يجرح كبرياء الديك المتغطرس!

ـ ألا قولي لي: إن التهكّمات وحدها ما يمكن أن تخرج من فمك؟

ـ إنني قادرة على أشياء أخرى غيرها. أشارت إميليسي وهي تتمدّد بلا مبالاة على الأرض.

كانت دعوة لا تخفى على أحد، تمدّد هنيبعل إلى جانبها، وهو يعرك جسدها بيديه غير الحاذقتين. سعى فمه إلى شفتي الشابة المالحتين. وبعد بضع دقائق سيطرت عليهما عاطفة متهيجة فتعريّا من ثيابهما، وتمكن ابن هميلقار من إبداء إعجابه الكامل بمفاتن زوجة المستقبل. أغرق رأسه في صدرها وبدأ يقبّل نهديها بحلمتيها المرتعشتين تدريجياً بالمتعة، قبل أن يهبط إلى وركي حسنائه وحوضها، ثم انتابه الهياج كأن عاصفة هوجاء تملكته فولج بها دون أن يتأثّر بصرخاتها المتحوّلة إلى آهات. وتحت ضرباته اللاذعة انساقت له إلى أن انتابتها رعشة لذة عنيفة. تمدّد بعدها الشابان طويلاً يتداعبان بشهوانية عارمة، ومع حلول الليل ودون أيّة كلمة التحقا بالقصر الملكي.

بعد ثلاثة أشهر وفي قرطاجنة احتفل بزواجهما المترف تحت نظرات حسدروبال المتسامحة. كان القرطاجيون بعكس بعض الغزاة لا يعتبرون معيباً في نظرهم الزواج من نساء القبائل المهزومة والخاضعة، خاصة في حال كونهن من سلالة أرستقراطية. الخطيبة التي غدت اليوم في قلب مراسيم الزواج كانت من دم بوني وإيبيري. تنتمي جدتها كما سبق أن ذكرنا إلى عائلة من أغنياء المستوطنين المستقرين منذ أجيال في قادش وقد أغوت مليكاً جبلياً فَتَنَه جمالها وثروتها. بعد أن غدا أرملُ ابنة هميلقار البكر التي نسي حتى اسمها، لقي حسدروبال العزاء بين ذراعي أميرة إيبيرية هي نسيبة إميليسي.

بالطبع كان لدى بعض العائلات العريقة لأعضاء مجلس الشيوخ عدم ثقة بهذه المصاهرات التي تفسد نقاء السلالة الفينيقية، ونذكر بالطبع أن الملكة إليسا فضلت سابقاً أن تلقي بنفسها في محرقة بدلاً من الزواج بملك نوميدي. ساعد الحظ خصوم هذه الآراء المنحازة المتعارضة مع القلة من النوميديين الذي انصهروا مع السكان

الأصليين بتقديم سوابق تثبت العكس. هميلقار الماغوني المنتصر في معركة هيميرا(*) وسليل عائلة إليسا هو ابن سيراكوزة. منذ حرب صقلية تدين الشعوب المحاصرة في ليليبيه بالسلام الى هنيبعل الروديان وهو بحار سليل اتحاد بين بونيّ وإغريقية.

بالنسبة لكثير من النساء الأجنبيات المثبطات بسلوك مواطنيهن الخشن يُعَدُّ الزواج من مواطن قرطاجي دلالة شرف وضمان لأمنهن ورفاهيتهن. وبعكس الشعوب الشرقية الأخرى، لم يمارس البونيون تعدّد الزوجات، حتى في حال حصوله ـ وحدوث بعض المغامرات المستهترة مع بعض العاهرات ـ فإن ذلك لن يحول من أن تمارس الزوجات الشرعيات حياة حرّة تمكنهن من إدارة أملاكهن الخاصة.

خلال زواج إميليسي وهنيبعل ووفقاً للتقاليد الجارية تمّ توقيع عقد بين الزوجين وفق الأصول حرص فيه كل منهما على إدارة أملاكه الخاصة رغم واجب الزوج الإنفاق على الزوجة. إنما لتجنيب الصهر هذا الإزعاج فإن والد إميليسي منح ابنته بسخاء، وبسخاء كبير، فعدا الصناديق الممتلئة بالذهب والفضة عمد إلى تشغيل أمهر الصاغة بعدد وافر من الخواتم والأقراط والعقود والأحزمة والتيجان، دون حصر للأساور المصنوعة بمهارة. كما أن المحاسبين الأكثر مهارة قضوا عشرات الليالي والأيام في إعداد قوائم الأرواب المزيّنة بخيوط الذهب والفضة والمعاطف والغلالات، والأخفاف من أنقى الجلود، كما أن هنيبعل قدّم لعروسه عدة مناجم من الذهب والفضة، وكذلك ثلاث سفن تجارية لنقل المنتجات وحراستها.

في يوم العرس المحدّد، وفد مئات من المقاتلين الإيبيريين وأحاطوا بقرطاجنة دون نيّة عدوانية. ووزّعت الخيام والمقاعد والموائد على الأماكن الخارجية للاحتفال بهدوء. وأقيمت مأدبة

(*) نحو العام 480 ق.م.

رسمية على شرف كل رئيس، بذلك عبرت قرطاجة عن تقديرها لمدعويها. عُهد إلى الأكثر أهمية بينهم بالمشاركة مع كاهن من معبد بعل حمّون محاطاً بعدد من كهنة الرعية ذوي الجلابيب الكتانية الناصعة البياض. في الاحتفال بمراسم الزواج وخلال عدة أيام بدأ القصف والإفراط في المأكل، وتناوبت مشاهد مصارعة الحيوانات والمبارزات بين المحاربين المتنافسين للتعبير عن شجاعتهم، إنّما التُزم بقاعدة تقضي بالتوقف عن الترامح مع سيلان أول قطرة دم حتى لا يغرق المنزل بالحداد.

جرى كل ذلك امتثالاً لتقاليد شعبه، فقد أتى والد إميليسي برفقة جميع معاونيه بمن فيهم المولى المرفوض من الابنة. فوجئ هذا الأخير ذات مساء والسيف في يده، وقد أخفاه خلف ستارة في غرفة حسدروبال. ليس ثمة حاجة للتعذيب من أجل الاعتراف بأنه أراد قتل من يعُدّه مسؤولاً عن حزنه الغرامي. أراد الجنرال القرطاجي عن حسن نيّة تجنيبه المحنة، غير أن والد إميليسي طلب تسليمه المذنب. وعمد إلى هلاكه بحبس قضى فيه التعيس نحبه جوعاً.

مضت ثلاث سنوات طويلة بعد تنفيذ ذلك الحكم. ونُسي الموضوع من قبل جميع الناس، بدءاً من القرطاجيين. فهؤلاء رفضوا ذلك الموت وأرادوا عبثاً طلب العفو عن المذنب. في قراهم الجاثِمة على رؤوس الجبال الشديدة الانحدار كان أعضاء عائلة المعذّب يفكرون بالانتقام وهم لا يريدونه من والد إميليسي، رغم أنه جلّاد ولدهم فقد تصرف في نظرهم مثلما يفعل أي مليك عندما تسنح له فرصة مماثلة. بالنسبة لهذه الكائنات الفظّة يُعَدُّ حسدروبال الذي تمتد سلطته على جميع الموالي القرطاجيين مسؤولاً عن تلك الجريمة. كان يستطيع تخليص ضحيته من حاكمها بالقوة وتهديد الأخير بتدابير انتقامية إن استبد برغبته الإجرامية. أبدى حسدروبال رغبته في الغفران الذي بقي دون تأثير. ووجب إذن أن يكفّر عن مظهر ضعفه.

للقيام بهذا العمل، تم اختيار خادم الرئيس المحبوس من قبل زملائه. وصل هذا الشاب إلى قرطاجنة وكسب سريعاً حظوة الرئيس البوني الذي ضمّه إلى حرسه الشخصي. وبذريعة الاحتفال مع رفاقه الجدد بهذا التميّز الخاص، نظم الرجل مأدبة حفلت بالخمور والعاهرات. وأكدّ وهو الثابت العزيمة أنّه سيحلُّ محل المدعوين للسهر على باب مقاصير سيده، فليشربوا وليأكلوا حتى الشبع داعين له بحسن العافية! إنه لن ينام حتى بزوغ الفجر وسيقوم بدور الحارس الأمين. أُعدّت الاستراتيجية بعناية فائقة وتمّت الاحتفالات الحميمة في قاعة بعيدة عن غرفة الجنرال البوني، وبينما كان الجنود يتذوّقون المأكولات والأشربة المقدمة من قبل الفتيات الجميلات، دخل الخائن إلى مقاصير حسدروبال مستغلاً فرصة عدم انتباه صهر هنيبعل ليغرز في عنقه خنجراً قبل أن يكمّم بشدة منافسه ليخنق صيحاته. وبالطريقة التي يتصرف بها النوميديون مع أعدائهم في ميدان المعركة قطع له باطن ركبتيه ووقف يتأمله بفرح خفي وهو يفرغ دماءه تدريجياً. وعند الصباح الباكر، انسلّ المجرم بينما الحرس نيام في سبات السكارى. عندما قلق ضباط الأركان لعدم رؤية جنرالهم اقتحموا باب مقاصيره، فوجدوه ميتاً غارقاً في دمه. لم يعش حسدروبال غير خمس سنوات بعد حميه، وقضى مثله ضحية تلك الأرض القاسية المناهضة التي أراد البارسيديون تقديمها لوطنهم للتخفيف عن هزائمه.

الفصل الأول

كان مأتم صهر هميلقار مهيباً. أرسلت جميع بلدات الجوار البونية مندوبين هامين لحضوره، وحضر الملوك الإيبيريون الحريصون على مظاهر الولاء لخليفته يرافقهم محاربوهم الأشداء. واحتفل كهنة قادش بالمراسم الدينية وهم يرددون على نغمات وحيدة الأوتار الصلوات التقليدية. ثم نُقِلَ جثمان المرحوم إلى المقبرة المشادة خارج حرم المدينة، وبمناسبة جنازة حسدروبال جمع مهرا بعل ألوية الجيش إلى ميادين قلعة قرطاجنة حيث أحاط بهم ضباط عائلة المرحوم، وهناك خطب في الناس الذين قاتلوا سابقاً إلى جانب قائدهم في صقلية وسردينيا أو ضد الجنود المرتزقة فقال:

- أيّها المقاتلون الأشداء مات قائدنا الأعلى ضحية خيانة مخجلة ارتكبها متمرّد على سلطتنا. يجب علينا اليوم أن نشير إلى خلفه دون أي تأخير. تقضي الأعراف بالتأكيد أن نرسل إلى قرطاجة مبعوثاً ليعلن مواطنونا، المجتمعون عند المقام التذكاري من ساحة المدينة الكبرى، بالهتافات اسم المرشّح المتفق عليه. أنا لن أخالف قوانيننا غير أن الوقت يدركنا وأمام مواجهة الأخطار التي تهددنا، من الجنون أن ننتظر عودة رسولنا. سنختار نحن بالذات رئيسنا ونعرض لاحقاً قرار الموافقة على مجلس المئة والأربعة لإبرامه. إنّه إجراء شكلي خالص لأنهم قليلون جداً القادة الذين يقبلون بترك

بيوتهم المرفّهة ليقاسمونا المحن والآلام. عليكم أن تحكموا، من تختارون؟

صاح صوت من الجمهور: إنّك المختار يامهرا بعل.

ـ أشكرك على ثقتك وصداقتك لكن اعلموا جميعاً أنني لست مرشّحاً لهذا المركز. شرّفني حسدروبال بصداقته وبما أنني تناقشت معه طويلاً حول هذا الموضوع؛ أشعر أنني مخوّل بالقول إنه كان يرجو تسمية هنيبعل الموجود بينكم خليفة له. أعترف في البدء أنني شعرت ببعض الامتعاض. مرّت علينا عقود عديدة ألغينا فيها الملكية المطلقة وأنا مؤمن بقيم الرجال الفردية أكثر من فضائل الأسلاف على شهرتهم. إن هذا الصعلوك ـ وأشار بيده مازحاً إلى حيث يقف ابن همليقار ـ قد ألزمني على مراجعة جميع أحكامي. أؤكد أنني أرى أمام عيني صورة المرحوم والده. هذا لا يعود إلى شبهه الغريب به، فللرجلين بريق المكر النفّاذ في النظرات غير أن هنيبعل عرف كيف يمتلك قلبي بشجاعته وبساطته واحتماله الأهوال.

ـ إنك على حق، قال بوستار، قائد المرتزقة الليغوريين. قاتلت إلى جانبه، عندما أرسله حسدروبال بعد زواجه، للقضاء على الثورة الجبلية. كانت معركة قاسية ومرعبة قد تمّت والشتاء يعمّ المكان والثلج اللعين يغطّي خيامنا ونحن نرتعش من البرد. كان يقف في وسطنا غير مبال بالبرد والتعب، وليس لديه إلا هم واحد: هو أن ننتهي سريعاً بأسرع ما يمكن من آلامنا منتهزين الفرصة المناسبة لتوجيه الضربة القاضية على عدوّنا المشؤوم. رأيته يسهر ليالي وليالي كاملة ثم يقودنا وهو على أتمّ الاستعداد وبمنتهى النشاط إلى المعركة. لم تذهب جهوده عبثاً لأنه أتاح لنا حيازة النصر والحصول على غنيمة كبيرة قدّم القسم الأعظم منها لرفاق كفاحه. أقسم لكم أيّها الجنود بأقدس ما لديّ أنني أرى في هذا الرجل مشروع قائد عظيم، ولا أرى من هو أجدر منه ليخلف حسدروبال.

إن وُجِد رجل آخر فلينهض وليتقدّم إلينا وإلا فلنسلّم حالاً بعصا القيادة لابن هميلقار!

تصاعد من الجماهير تهليل لا نهاية له عمّ الساحة، وهم يضربون بسيوفهم مجنّاتهم، وقام المحاربون القدامى بملامحهم القاسية المتغضّنة بالريح يهلّلون لهنيبعل. وقد وجد هذا الأخير صعوبة كبرى في تهدئة حماس الجماهير وفرض السيطرة عليهم:

- يا مقاتلو مدينة إليسا، إنني أذعن لكم ولمطالب قادتكم وأشكر ثقتكم. إنني متأكّد أننا سنحقق معاً أشياء كبيرة لنعيد لمدينتنا مجدها الغابر والأراضي التي ضيعها منها بعض الجبناء. أفضل أن أحدّثكم بصراحة؛ إنني جندي، ابن جندي، لا أنفر من الحرب، بل بالعكس، فرغم المصائب التي تنشرها في طريقها، ليس أمامنا إلا عدو واحد، هو روما والمدن المتحالفة معها. لا أكنّ أيّة ضغينة للرومان بحكم كونهم رومانيين وأنتم تعلمون أننا طبّقنا بإخلاص معاهدة روما مع القنصل لوتاتيوس بعد هزيمتنا في صقليّة. من أجل أن ندفع للمنتصرين التعويض الهائل المطلوب من قرطاجة، وجب أن نستثمر هنا ثروات إيبيريا البعيدة. جاء سفرؤاهم إلى مؤسساتنا لمراقبتها وأبدوا احترامهم لصدق مشاعرنا. ياأصدقائي حان الوقت ليخدم عرق جباهكم شيئاً آخر غير مشايخهم ونسائهم الجشعات، حلّت الساعة في قرطاجة لتفكر في رفاهية أبنائها وبالدرجة الأولى جنودها الذين يقومون بخدمتها بعيداً عن هضبة بيرسا. قريباً سأعلن لكم عن مشاريعي، غير أن هذا اليوم الاحتفالي مخصّص لإقامة الأفراح والبهجة. سأقيم هذا المساء مأدبة على شرفكم وعلى نفقتي، وأصدرت أوامري بشيّ العجول وإخراج دنان الخمر من مخابئها. كلوا واشربوا حتى السكر وأنتم تستحقونه وإنني فخور بقيادة رجال بمثل بسالتكم.

مع هبوط الليل اختلط هنيبعل بالجنود المحتفلين وتأخّر طويلاً في صحبتهم، فالخمر أطلقت الألسن. قام بعض الجنود القدامى

المحنّكين بالتودّد إليه واستمع إليهم بانتباه، ولم يقصِّر في استخدام كلمات المجاملة لكل منهم مذكِّراً بعضهم باستثماراته الماضية، والواقع أنها كانت بالنسبة لمعظمهم وقائع حربية حصلت قبل أن يولد أو أنه كان مايزال يرضع ثدي مربيته. مما يعني أنه إطلع بعناية على حملات رجاله وتلك السمة المعبّرة عن الاهتمام الذي منحه مزيداً من الشعبيّة. في ذلك المساء لم ينمّ أحد، استمتع ابن هيملقار بمشاركة جنوده الاحتفال وقد غمرتهم السعادة، لأنهم وجدوا أنفسهم بنظر رئيسهم شيئاً آخر غير الكائنات المتوحشة الموعودة بموت محتم.

استدعى هنيبعل في الصباح الباكر، بعد أن استمد قسطاً من الراحة، قوّاده الرئيسيين، لم يفكر أحد عند رؤيته أنه قضى القسم الأعظم من الليل في الشراب والمزاح مع رجاله. وجّه أولى كلماته إلى مهرا بعل:

ـ في رأيك، ما الأمر الذي يشغلني بطريقة عاجلة؟

ـ هو الكابوس الجاثم على كل قائد قرطاجي: تسديد الأعطيات ومتأخراتها. إننا مدينون لجنودنا ومرتزقتنا بسنتي تأخير وصناديقنا فارغة.

ـ هذا غير ممكن. فنحن نستخرج من مناجم البيتك(*) الذهب والفضة بكميات تملأ صناديقنا.

ـ نعم علّق مهرا بعل، لكنك تجهل جشع أصحاب الصناديق. كل شيء يُرحَّل على حوافّ سفننا الخماسيه المجاذيف إلى قرطاجة، حيث يتصرف مجلس المئة وأربع كما يحلو له بهذه الثروات الهائلة. وخلال هذا الوقت يقتصر عيش قواتنا على الاختلاس والإجراءات المؤقتة.

ـ لم يعتبر شيوخنا بأي درس من حرب المرتزقة. لا أستغرب

(*) بيتك سلسلة جبال تمتد في الجنوب الشرقي من إسبانيا.

هذا. في الواقع إنّهم أغبياء لا يفكرون إلا بشيء واحد هو جمع احتياطي أسطوري من المعادن الثمينة يحرصون على إخفائه عن أعين مواطنيهم. يمكنني أن أوقف إرسال الدفعات النقديّة إلى مدينتنا، لكننا ارتكبنا مجازفة هائلة بتسميتي قائداً للجيوش الموجودة هنا وليس لشعب قرطاجة. يمكن لذلك الشعب أن يسامحنا على خطيئتنا الأولى لكنه لن يغفر لنا عند ارتكاب الخطيئة الثانية. ماهو الحل المتوافر لدينا؟

- حل واحد يا هنيبعل: أعلن الحرب على الأولكاد(*) والڤاكسيين(**) والكاربتيين(***) المتمردين على سلطتنا الذين ضاعفوا في الأوقات الأخيرة الهجمات على حامياتنا ومناجمنا. مدنهم كارتالا وهرماندا وأربوكالا تعجّ بالثروات. الغنائم التي سنستولي عليها تكفي عن سعة لتسديد الديون المستحقة مع الاحتفاظ بكميات كافية للقيام بعمليات أخرى ضد المدن المستمرة في رفض حمايتنا.

- بمن تفكر؟

قال مهرا بعل: بساغونت. قادتها يستخفون بنا لإفلاتهم من القصاص منذ أن قُتِلَ أنصارنا في قلب مجلس الشيوخ المحلي أو أجبروا على النزوح من قبل خصومهم إغريق مساليا، والتجار الرومان الذين يعيشون هناك ويوزّعون الرشاوي على أنصارهم. ساغونت شوكة حقيقية غُرزت في قلب ملكياتنا، ولن ننعم بالأمان مادامت ممعنة في تحدينا.

- أدرك هذا غير أننا وقّعنا معاهدة مع الرومانيين نتعهد فيها بعدم التدخل شمال نهر الإيبر.

- ساغونت تقع جنوب هذا النهر، في منطقة نفوذنا المعترف

(*) سكان المانش الحاليين، بين الوادي الكبير وجوكار.
(**) شعوب منطقة سلامنك.
(***) سكان طليطلة ومنطقتها.

بها. هذه المعاهدة التي تشير إليها يا هنيبعل ليست معاهدة رسمية، إنَّما هي اتفاق شفهي جرى بين حسدروبال وسفراء روم جاؤوا إلى زيارته في قرطاجنة منذ عدة أشهر مضت، كنت أثناءها عند حميّك. في الواقع، وفي حال حدوث خطأ فإنه يتوجب أن نطلب من محاورينا ضماناً خطيّاً.

ـ ما هو رد فعل الروم إذا هاجمنا ساغونت؟

ـ سيتركوننا وشأننا حتى لو أعلن الساغونتيون رسمياً تحالفهم مع مدينة رومولوس وأرسلوا سفيراً إلى مجلس الشيوخ لطلب المساعدة العسكرية. سيُشّبعون بالوعود الطيّبة لكنهم سرعان ما يخيب أملهم. وأضاف: ليس لروما طموحات لسياستها ولا سياسة لطموحاتها.

ـ من يمدُك بهذا العلم يا مهرا بعل؟ أنا لا أمزح. إنما يغريني تحليلك وأحب أن أعرف المنابع والأدلّة المميِّزة لهذا العرض الرائع للواقع.

ـ إنّها أقرب مما تتوقّع. وهي تعود إلى سوسيلوس الذي دعوته إلى هذا الاجتماع. إنه مهذّبك وهو ينتظر الأمر للمثول أمامك.

ـ ليدخل!

بأمر من مهرا بعل ذهب أحد الحراس يبحث عن خليفة إبيسيد. هو رجل مايزال شاباً. لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، بشعر أسود فاحم تتخلّله بعض شعيرات بيض. يرتدي ثوباً أنيقاً يضم خصره حزام من فضة وينتعل خفاً من الجلد، مهيب الطلعة. وجّه تحية بسيطة محترمة من يده لتلميذه القديم، لم ينحنِ بل اكتفى بإشارة من يده تدلّ على ما بين الرجلين من مودّة طويلة الأمد. كان من بين أصحاب المقامات المختارة، وُلِدَ عبداً وحرر من قبل عائلة برقا، ويبدو للوافد الجديد أنه أحد المستشارين الأجلّاء المنحدرين

من سلالة قرطاجية تعجّ بها حاشية ابن هميلقار، خاصة وأنه يملك في تلك اللحظة وفق عادته نظرة متحفّظة ساخرة عن الرجال والأشياء، وهو موقف قليل التوافق مع رزانة مهامه المتوقّعة.

هرع هنيبعل لملاقاته وعانقه بحرارة قبل سؤاله:

- إنني سعيد لرؤيتك مجدّداً يا معلمي القديم، ومايزال شعرك فاحم السواد. قيل لي إنك هجرت التعليم لاهتمامات أكثر جدّية.

- تركت التعليم بسبب أخويك ماغون وحسدروبال، اللذين فضّلا الحرب على الاستماع الى محاضراتي حول هوميروس وأرسطو. سنحت لي الفرصة لأراقب وأقرأ وألتقي بكثير من الناس، سواء من الإغريقيين أو الرومان أو الإيطاليين أو الغوليين أو القرطاجيين أو الإيليريين. والخمر تطلق الألسنة الكثيرة، ويكفيني أن أقارن ما أرى لأستنتج فكرة عن الوضع.

- كيف تولّدت لديك فكرة أن روما لن تتدخّل؟

- أبناء الذئبة لديهم مواضيع للاهتمام بها غير الساغونتيين. فقد قضوا بصعوبة على ثورة البويين(*)، والإنسوبريين(**) والجيزيين(**)، والقبائل الغولية الشمالية، الذين لا يتحملون تأسيس مستعمرات رومانية في أرمينيوم(****). عندما تقدّم البويون باتجاه نهر التيبر هرع الشيوخ المذعورون لالتماس مساعدة الآلهة بدفن إغريقيين وغوليين أحياء في ساحة سوق العجول.

قال مهرا بعل وهو يصرّ على أسنانه: وهم يتهموننا بالتضحية بأبنائنا في معبد بعل حمّون.

(*) سكان بولونيا ومنطقتها.
(**) سكان حوض البو.
(***) سكان وادي ڤالي، وأطلق عليهم هذا الاسم لأنهم استخدموا الخوازيق سلاحاً.
(****) سكان ريميني الحالية.

تابع سوسيلوس: فشل البويون حيث نجح برنوس بالسيطرة على روما وإطلاقه ضد البرلمانيين الرومان الذين جاؤوا يستثيرون شفقته صرخة «الويل للمهزومين»، غير أنهم استمروا يهددون وتأملوا دعم أخوتهم الغاليين المستقرين وراء الألب الذين تفصلنا عنهم البيرينيه، ولنا بينهم أصدقاء عديدون. البويون ليسوا الخطر الوحيد، فالإيليريون اشتركوا في الخلاف وأبدى ملكهم ديمتريوس استعداده للتحالف مع فيليب المقدوني لوضع حدّ لدسائس الشيوخ الإغريقيين. أيا كانت مظاهر قوتهم فان الرومان لا يستطيعون القتال على عدة جبهات، وقد حَلُمت الشعوب الإيطالية الخاضعة لسيطرتهم أن تنتزع هذا النير عنها عندما تحين لها الفرصة. تأكّد من أن خصومك سيفكّرون مرتين قبل معارضتنا جنوب نهر الإيبر. إن إثارة حرب جديدة ستُسقط في معسكرنا جميع أعدائهم.

تقرّر في نهاية الاجتماع أن تهاجم الجيوش القرطاجيّة الأولكاد والڤاكسيين والكاربتيين. تعهّد عدة آلاف من الجنود البونيين ومئات من الخيّالة النوميديين بتدمير أراضي القبائل، التي تبدو عاجزة عن التفاهم وإقامة جبهة مشتركة ضد العدو. أُلزمت تلك الشعوب خلال حملتين جرتا في الربيع والصيف على الخضوع وتسليم ثرواتها. أدار هنيبعل بنجاح انتصاراته الأولى، وتمكّن من تأمين أعطيات الجنود مع إكرامية سخيّة ثم أحضر من قرطاجة خمسة عشر ألف رجل نوميدي وليبي فينيقي عهد بهم إلى إمرة أخيه حسدروبال الشاب. وعجّل في الوقت نفسه بإرسال خمسة عشر ألف مرتزق إيبيري وبلياري ليحلوا محل الجنود المرسلين الى إيبيريا عبر مدينة إليسا. لجأ في استخدامهم إلى مساعي حميّه الطيّبة، وكان هذا الأخير لا يعرف ماذا يفعل ليكسب عرفان صهره سواء تودّداً له أو ضماناً للمستقبل. كانت ابنته إميليسي حاملاً منذ بعض الوقت وهو يحلم من أجل حفيده الصغير بقدر استثنائي. ربّما سيأتي يوم ويعم قرطاجة السلام على يد سليل إيبيري جبلي، وقد أثملته تلك النظرة العطرة. أمّا والدة المستقبل فهي مغرمة بزوجها كما في أيام

لقائهما الأوّل وهي لا تتأخر عن لقائه كل ليلة. وتمارس عليه تأثيراً خفيّاً لكنه حقيقي دفع كثيراً من ضباط قرطاجة لصرّ أسنانهم غيرةً.

حان موعد مهاجمة ساغونت، أرسل قضاتها، كما هو منتظر، وفداً إلى روما ليشكوا تصرفات ابن هميلقار. حوصرت المدينة بجيش يتألّف من خمسين ألف رجل وستة آلاف فارس ومئتي فيل. شكّلت الفيلة إحدى أهم دعائم القوات القرطاجية في الميدان لمدة طويلة. منذ البدء كان البونيون مثل جميع الشرقيين يعمدون إلى اختراق صفوف العدو بوساطة عربات القتال دون الفيلة، وهي تجري خفيفة سريعة يقودها سائس يحميه نبّال، غير أنهم باستقرارهم على السواحل الأفريقية تعلّموا من النوميديين استخدام تلك الفيلة ذات الهامة الصغيرة نسبياً، التي ما فتئت أهميتها في المعارك تزداد مع مرور السنين. استقرّ نحو ثلاثمئة منها باستمرار في الإسطبلات الواسعة المنشأة خلف أسوار المدينة. ما من قائد عسكري جديد بهذا الاسم ينطلق في حملة حربية دون أن يرافقه دعم من عشرين فيلاً على الأقل، عُرفت بمهارتها في تدمير صفوف العدو وتقرير مصير المعركة.

لم تستخدم يوماً حيوانات جرّ أو خدمة تعامل باحترام وتقدير وتوضع في الصفّ الأول أو الثاني لتخترق في الوقت المناسب أرتال العدو وتدبّ الذعر فيها. في ساغونتَ حدّد هنيبعل بسرعة المكان الأكثر فائدة لها. قسمٌ من سور مبنيٍّ على منفذ واد فسيح رحب حيث يتمكن من ترتيب آلات حصاره، ويستطيع إطلاق قذائفه عند الهجوم على الأسوار مع فيلته، هي المنطقة الوحيدة التي يستطيع المحاصرون تنفيذ دفاعاتهم جميعاً، عدا ذلك فان الوديان الضيقة ومجاري السيول تخلق حواجز لا يمكن اجتيازها من قِبل الطرفين. كانت محاولات الساغونتيين الشرسة لكسر الطوق تدحر بوساطة الفيلة التي تسحق كتائب العدو ملزمة إياها بترك مئات الجثث المسحوقة والمتحولة الى عجين

رغم الهزائم، قرر المحاصرون الصمود حتى النفس الأخير

وأبدى مقاتلوهم البيّنة على شجاعة متناهية. قاتلوا كأُسودٍ ضارية سلاحاً رهيباً اسمه السهام اللاهبة، إنه قاذفة مُحرِقة تنتهي برأس حديدي وتحاط قاعدته بقماش مطلي بالزفت. هم يشعلون اللهب قبل إطلاق تلك الحربة بحيث يعمد الخصم المصاب الى وضع سلاحه لإطفائها؛ ويكون هدفاً مثالياً لقاذفات لهبٍ أخرى. تمكنت إحدى تلك الأسلحة من أن تجرح هنيبعل جرحاً بليغاً في فخذه مما اضطره أن يلازم الفراش لبضعة أيام ويدير منه سير المعركة. ورغم أن القرطاجيين قد ضعفت معنوياتهم لإصابة قائدهم فقد تمكنوا بوساطة قاذفاتهم من تهديم قسم من الأسوار وثلاثة أبراج، لكنهم اضطروا للجلاء عن تلك الثغرة بسبب الهجوم المفاجئ من المحاصرين الذين أحدثوا ضربات قاسية في صفوفهم.

بعد عدة أيام من تلك النكسة التي أحدثت بروداً في حماس القوات البونية، ظهرت في عرض ساغونت سفينه ثلاثية المجاذيف وعلى متنها مندوبان من الشيوخ الرومان، هما بوبليوس فاليريوس فلاكوس وكانتوس بابيوس تامفيليوس. رفض هنيبعل استقبالهما متذرعاً بعدم ضمان أمنهما. فمركز قيادته، الذي لا يغادره، يقع على مرمى سهام الساغونتيين وستقنطه رؤية روماني يصاب لسوء الحظ بسهم ملتهب. تعذر السماح لهما بدخول المدينة أثناء الهدنة، وعندما وجد أهل ساغونت أن حلفاءهم لم يرسلوا لهم الأسطول والدعم اللازم قرروا أن يعدوا لهم مقلباً. تمكن بوبليوس فاليريوس فلاكوس أن يتداول مع مهرا بعل، مندوب هنيبعل، لترتيب لقاء معه غير أن نقاشهما انتهى سريعاً دون نتيجة.

هاجم الروماني قائلاً: طلبنا منكم عدم اجتياز الإيبر.

ـ لكن ساغونت تقع إلى جنوب هذا النهر كما يمكن أن تلاحظ وقد تقيّدنا بدقة بملاحظاتكم وبقينا إلى جانب الحدود المعنية.

ـ أنت تتحايل وأنا أعلم جيّداً الغدر البوني. إنّك تجادل لتخفي أمراً رئيسياً: هاجمتم أحد حلفائنا.

ـ لماذا تختارونهم من المناطق الخاضعة لسيطرتنا؟ أهي طريقة لإضعافنا ومنعنا من كل حركة ضمن المنطقة التي تعترفون بأنفسكم أنها تعود إلينا بعد أن اقتلعتم سردينيا من سيطرتنا منتهكين وعودكم الخاصة؟

ـ إنك تفهمني جيّداً. يجب عدم التحرك بوصة واحدة إلا للتراجع عن أسوار ساغونت.

ـ لا جدوى من مناقشتنا ضمن هذه الشروط.

ـ نعم هذا ما توصلنا إليه معك ومع هنيبعل. لهذا السبب سأذهب مع زميلي إلى قرطاجة لاقناع مجلس المئة والأربعة لإعادتكما إلى جادة الصواب، ولدي أمل في التوصل إلى نتيجة لأن بعض قادتكم رجال عقلاء حكماء يخالفون مغامرات آل برقا الهوجاء. يبقى معرفة إمكان وصولنا إلى المرفأ الأمين لأن سيدك مراوغ وهو قادر على إغراق سفينتنا في أعالي البحار.

ـ أنا أعلم أنكم تتهمونه بممارسة ما تسمونه المكر الأكثر بونيّة. منذ قليل وجهت لي هذا اللوم. إنه تظلّم لا أساس له من الصحة. ولطمأنتك سيرافقك أخوه الشاب ماغون. هل تعتقد أن ابن هميلقار قادر على توجيه الاعتداء لأخيه؟ في قرطاجة ستستقبل من رجال يليقون بمقامك لكنني أشك في قدرتك على الحصول على أغلبية مجلس شيوخنا. المعسكر المقرّب للروم أقلية واللهجة المنتقمة لن تساعدك على تقوية حججك.

كانت مخاوف الروم تناسب هنيبعل. ذهب أخوه مكلّفاً بتعليمات سريّة موجّهة إلى قادة الحزب البارسيدي، تطلب منه أن يطيل أمد المناقشات وأن يلزم حنون الكبير خصم آل برقا الرئيسي وأنصاره الصمت. خلال الرحلة التي دامت عدة أيام أظهر ماغون تودّداً تجاه رفاق الطريق وتمكن من الحصول على معلومات ذات أهمية. فهم بعكس ما كانوا يوحون لا يتمتعون بالسلطات الضرورية للتعامل مع قرطاجة. هم مكلّفون بمهمة إعلامية بسيطة، وقد وعد

ابن هميلقار الثاني باستخدام هذه المعلومة لإساءة سمعة محاوريه عند بروز حاجة لذلك.

اقتيد الرومانيان عند وصولهما إلى مدينة إليسا إلى مجلس الشيوخ، حيث عرضا وجهة نظرهما مضيفين مطالبهما باحترام المعاهدات الموقّعة وتسليم مهرا بعل وهنيبعل. كما كان متوقعاً، حنون وحده تجاوب مع هذا الاتجاه. بمثل ما عرف عنه دائماً من هوى للصراع، انطلق ضد ابن هميلقار البكر في رسالة طعن عنيفة.

- سبق أن نوّهت لكم بالأمس القريب: إن والد هنيبعل يتابعنا بعقابه منذ رحيله الى الهاوية. سيستمر على ذلك ما بقي على قيد الحياة عضو واحد من تلك السلالة المشؤومة. لن تُحترم المعاهدات المبرمة مع روما طالما بقي في قرطاجة رجل سليل تلك العائلة. هذا الفتى جندي بروحه وقد بقي مدة طويلة بعيداً عن مدينتنا ليتذكر مسرات الحياة البسيطة والهادئة. لقد تأخّر في توسيع سلطته علينا والوسيلة المثلى للتوصل إلى ذلك هي إثارة حرب بعد أخرى. هو لا يشعر بالراحة إلا وسط جيوشه وحشود مرتزقته التي تدمّر أعطياتهم ميزانيتنا. قديماً قارنته بشرارة. وهو الآن يتحول إلى مشعل يزرع الرعب والغمّ في طريقه. جيوشكم وهي جيوشنا تحاصر ساغونت دون أن تتلقى وكالة من قِبلنا. أعتقد أن بإمكاني أن أتوقع ماسيحدث. قريباً سيرسخ الجنود معسكرهم تحت أسوار مدينتنا. لن تكون الجموع المتسربلة بمجد هنيبعل بل هي الفرق الرومانية الوافدة للمطالبة بالعدالة. تضرّعتم جيّداً لتانيت وبعل حمّون وعلّمتنا التجارب أن آلهتهم أشدّ قوة من آلهتنا.

قاطعه إيتربعل أحد رؤساء الحزب البرقاوي بقوله: نسيت أن هنيبعل يقاتل دفاعاً عن حقوقنا في إيبيريا ولاحترام المعاهدة المبرمة شفهياً مع الرومانيين، الذين يضعون منطقة جنوب الإيبر تحت حمايتنا.

- الهوى يجمح بك وأنت تمتنع عن تقدير النتائج البعيدة

لحركته. تتصور هذا الصعلوك يقاتل ضد أعدائنا؛ على الأقل من تتصوّرهم أعداءً. غير أن الواقع هو أن هنيبعل يقيم أبراجه وقذائفه ضد أسوار قرطاجة، يحاصرها بمنجنيقاته التي يدفعها الرجال. إن خراب ساغونت ـ أرجو أن أكون نبيّاً كاذباً ـ سيقع قريباً على رؤوسنا، والحرب التي ابتدأت مع هذه المدينة سيترتب علينا متابعتها حتى روما.

ـ لنفترض يا حنون أن الرومان لا تنقصهم الصفاقة. لقد أوصلتهم وقاحتهم الى المطالبة بتسليم هنيبعل ومهرا بعل مقيدين. سيأتي دور المطالبة بك قريباً وسيعربون عن ارتياحهم عند المطالبة برأسك، سنكون آنذاك محرجين إن طلبنا استثناء لك.

ـ إنّك تلمس نقطة حساسة. إنني حاكم سيّء في هذا المجال. لا أحد يجهل الحقد الشديد الذي أكنه لوالده هميلقار. أقول مجازفاً بتعرضي للسخرية: ابتهجت لموته، ولو تابع عمله التخريبي في إيبيريا لأعلنت روما علينا الحرب وسبّبت لنا في البر والبحر هزائم كاوية. فكرت في إحدى الفترات أن صهره حسدروبال سيكون أكثر تعقلاً. في الحقيقة، التلميذ تجاوز المعلم. لكن يمكننا أن نأسف لأن هنيبعل يفوقهم أذىً بمئة مرة. إنّني أكرهه وسترون أنّه سيكون في أحد الأيام سبب دمار مدينتنا. من الأفضل والأكثر تعقلاً أن يُسلّم إلى الساغونتيين أو الرومان. لكن لنكن أكثر شجاعة، إن رفضه الرومان لنقرر نفيه الى مكان بعيد، بعيد جداً عن هضبة بيرسا، إلى مكان تنطفئ فيه شهرته المنكودة في العزلة والقنوط. ستكون عندها قرطاجة أفضل حالاً بما لا يقاس.

هتف إيتربعل بصوت يرتعش استنكاراً: أيّها الشيوخ الأجّلاء، هل تفكرون بهذا التهديد الرهيب. إن أحد رؤسائكم وهو ليس أقلهم شأناً يجد من الطبيعي جداً أن يحكم بالإبعاد الدائم على أحد أشهر أبناء عائلاتنا، سليل ملقارت، الذي يجري في جسمه دم مؤسستنا، إليسا العظيمة. آمل لهذه النبوءة المشؤومة ألا تتحقق أبداً مادامت

مدينتنا في منأى عن الأيدي الغريبة. يبدوا أن حنون ومن خلال وساطته بعيد كل البعد عن التأثر بإرادتنا للمعالجة بما يُظهر من تطلب وتشدد. ليسلّمنا إذن الآن مكنون فكره.

- هاأنذا، حب قرطاجة والاهتمام بحياتها يستحوذان وحدهما على أفكاري. إنني نصير الإرادة الطيّبة، وأنا نصير لإرسال أوّل سفارة عاجلة إلى روما لطمأنة مجلس الشيوخ، وسفارة ثانية تأمر هنيبعل برفع الحصار عن ساغونت، والثالثة تعرض على الساغونتيين الإصلاحات المالية التي يحقّ لهم مطالبتنا بها.

أثارت هذه المطالب ضجّة عارمة بين أعضاء المجلس. وفاجأ الشيخ هدروبال الصموت جميع الناس بخروجه عن سكوته الأسطوري ليلخص الرأي العام:

- حنون لست جديراً أن تقيم بيننا. لو كنت في مكانك سأبحر إلى روما حيث سيكافئك المتواطئون معك على خيانتك واعتبارك مواطناً رومانياً. ومن يعلم؟ قد تُنتَخَبُ قنصلاً. قد تتكلّم البونيّة غير أن قلبك روماني. إن أردت نصيحة طيّبة، غادر هذه المدينة إلى إحدى ملكياتك لأن سلامتك غير مضمونة بين جدراننا. المواطنون الساخطون يمكن أن ينتقموا من أجل الشتائم التي قذفتها على آل بَرْقَا، أما أنتم يا ممثلو مجلس الشيوخ الروماني، فقدّموا الوثائق التي تشير إلى تفويضكم الرسمي لنستطيع أن نحدّد بيننا معاهدة رسمية وفق الأصول المتّبعة.

- كلا، لا يمكننا إجراء هذا العمل يجب علينا العودة إلى زملائنا، والقناصل الممارسون وحدهم مؤهلون لتقرير السلوك الواجب اتباعه بالنسبة لكم.

- في هذه الحال من الأفضل لكم مغادرة هذه المدينة. سيرافقكم حراسنا حتى سفينتكم، وأنا أعتمد عليكم لتقديم تقرير صحيح عما سمعتم وإعلامهم عن عزمنا بعدم التراجع أمام تهديداتكم غير المبررة. إذا أراد مجلس شيوخكم السلم حقاً فليرسل لنا سفراء معتمدين من قبله.

بعد هذه الجلسة العاصفة جرت مداولة طويلة بين ماغون وإيتربعل، ثم عاد إلى قرطاجنة مزوّداً بتعليمات تُلزِم هنيبعل بالاستيلاء بأسرع ما يمكن على ساغونت.

عند وصوله إلى إيبيريا، كان الأمر قد تمّ منذ عدة أيام. قاتل المحاصرون، على الأقل البعض منهم بقوة وبسالة مع اليأس. حاول آخرون قانطون من النتيجة الحتمية للمعركة، التفاوض على استسلام مشرّف بإرسال ألكون إلى المعسكر القرطاجي تحت جنح الظلام، وهو من أكثر الرجال غنى في المدينة. ارتمى ألكون أمام قدمي هنيبعل باكياً مثل النساء، محاولاً إثارة شفقته غير أن مخاطبه صمد مثل صخرة صلدة وكرّر طلباته القاسية: على المحاصرين إلقاء الأسلحة وتسليم الذهب والفضة ومغادرة المدينة دون أن يحتفظوا إلا بثوب واحد يرتدونه.

عند النطق بذلك الحكم فضل ألكون أن يبقى مثل هارب في المعسكر القرطاجي، مدّعياً أن مواطنيه سيذبحونه إن حمل إليهم مثل هذه الأقاويل. غير أن مقاتلاً إيبيرياً آخر يقاتل بالتأكيد إلى جانب هنيبعل بدا أكثر جرأة منه وهو المسمّى ألوركوس، وقد بدا في السابق صديقاً رسمياً للشعب الساغونتي واخترق الخطوط العدوة ليحرّض الساغونتيين على إنقاذ حياتهم، رسم لوحة مؤثّرة لوضعهم القانط لخصه بهذه الكلمات:

ـ إنني أحدُ حماتكم حتى لو عملت في جيش العدو، وبهذه الصفة أطلب أن تعيروني انتباهكم. لا تنتظروا شيئاً من روما التي تخلّت عنكم. رفض جيرانكم أنفسهم، خشية انتقام القرطاجيين، أن يقدموا لكم السلاح والأقوات والمساعدات، بكلمة واحدة، إنكم تائهون. يمكن لاقتراحات هنيبعل أن تبدو صارمة، وهي كذلك فعلاً، غير أنها أفضل من الموت الذي ينتظركم إن رفضتم.

«لم تخسروا كل شيء. بالتأكيد يمكنكم أن تتركوا مدينتكم

الموقّرة متخلّين عن ثرواتكم، إنما سيبقى لكم ما هو أهم من كل ذلك: الحياة الآمنة لكم ولنسائكم وعائلاتكم وأولادكم. إنّه يوافق لكم على إعادة بناء مدينة في مكان آخر سيشير عليكم به، وأنا أعرفكم مهرة لن تنقضي عدّة سنوات حتى تتجاوز ساغونت الجديدة في جمالها وترفها مدينتكم القديمة. إنني أعرف شهامة هنيبعل وهي بعكس ما تعتقدون: إنه حفيٌ شفوق عندما تكون الحفاوة أداة لسياسته. سوف تحركه مشاعر الشفقة تجاه المبعدين حملة الثوب الواحد، وهذا ما سيدفعه دون شك إلى العودة عن قراره المشؤوم والقاسي. وما فتئت من جهتي أستحثه على السير في هذا الاتجاه. إن اخترتم الرأي الآخر ستقتلون بحدّ السيف بعد أن تروا نساءكم وبناتكم مغتصبات ومقادات للبيع مثل العبيد وفق قوانين الحرب القاسية. غير أنني مقتنع أنه سيلطف شروطه عندما يغدو كل شيء في حوزته، إنّما من الأفضل في رأيي قبول شروطه بدلاً من تعرضكم للذبح. سيفوت الأوان عندها لالتماس رحمة المنتصر.

بدا ظاهراً أن هذه الكلمات قد ثبطت عزيمة قسم من الحضور، غير أنها أثارت غضباً متعاظماً لدى أعضاء مجلس الشيوخ المحلي. فهؤلاء أنصار إبعاد جماعة قرطاجة خافوا من محاسبتهم وشكّوا في عدم قدرتهم على الاستفادة من حلم المنتصر، وهكذا غامروا بكل شيء للحصول على كل شيء، أمروا جنودهم بتفتيش البيوت الخاصة وجميع أبنية المدينة العامة للاستيلاء على ما يجدونه من ذهب وفضة. سمحوا لرجال الجيش بتفتيش أصغر الزوايا والأماكن والحصول عند الحاجة وبالتعذيب للرافضين تسليم مخابئ ثروتهم. في الحال ساقت عربات ثقيلة الغنائم التي جمعت إلى الساحة الكبرى حيث أوقدت محرقة عظيمة. ألقي فيها في البدء بالكؤوس والمزهريات وأكياس القطع الفضية والذهبية والأثاث الثمين وتماثيل البرونز، ثم ألقى القادة الرئيسيون أنفسهم على الجمر وتحوّلت أجسامهم بسرعة إلى رماد بسبب الكتل الملتهبة من المعدن

المنصهر. انتشرت رائحة اللحم المحروق غير المحتملة في الأجواء، مما دفع الحضور الكثر إلى تغطية وجوههم بقماش ليحولوا دون تنفسهم واستنشاقهم تلك الأبخرة العفنة الموبوءة.

لم يتسنَ لعائلات ضحايا تلك المحرقة الفريدة الوقت لذرف الدموع على ضحاياهم، فبينما كانت النار تقضي على البقايا الأخيرة من ثروة ساغونت؛ سُمِع دوي رهيب. انهار البرج المُدافع عن السور الداخلي وقَتَل خلال سقوطه جميع المدافعين عنه. من خلال الثغرة التي انفتحت اندفع الجنود القرطاجيون والمرتزقة الإيبيريون والفرسان النوميديون يزرعون الرعب والدمار في طريقهم. تمّ ما تنبأ به ألوركوس. كل منزل أخلي بالقوة وأحرق. فُرِزَ ساكنوه المذعورون المتأوّهون إلى مجموعتين. من جهة الشيوخ من الجنسين والرجال واليافعون، ومن الأخرى النساء والأطفال. قتل الأوائل بحدّ السيف واقتيد الآخرون إلى خارج المدينةِ. اغتصبت النساء اللواتي حاولن المقاومة أو التعلّق بأزواجهن من قبل عساكر أسكرهم الدم. عندما حل المساء غابت ساغونت عن الوجود، ومنذ اليوم التالي حملت عربات ثقيلة الغنائم متجهة في طريق قرطاجنة.

* * *

لم يتعد سوسيلوس في دوره الجديد كاستراتيجي إلا نصف الحقيقة. بالتأكيد لم يرسل الرومان الجيوش والأساطيل لمساعدة حلفائهم، لكنهم اعتبروا الاستيلاء على المدينة أمراً منتهياً. سيطرت على المدينة ذات الهضاب السبع حمى حربية حقيقية، وبينما كان القنصلان الجديدان بوبليوس كورنيليوس سيبيون وتيبريوس سمبرونيوس لونغوس يستلمان مهامهما، تم تجنيد ست فرق بسرعة، ووجب على الحلفاء الإيطاليين أن يقدّموا أربعة آلاف وأربعمئة فارس يضافون إلى أربعة وعشرين ألفاً من المشاة، وثمانمئة خيّال ومواطن روماني. بقي إجراء أخير: محاولة

مصالحة أخيرة قبل الاعلان عن بدء القتال. اختير السفراء الموفدون إلى قرطاجة من الشيوخ الأكثر اعتدالاً في المجلس: كانتوس فابيوس مكسيموس، وماركوس ليڤيوس سالنياتور، وكايوس ليسينيوس، وكانتوس بابيوس. أبحروا من أوستي على متن سفينه خماسية المجاذيف، وبعد استراحة قصيرة في صقلية تابعوا رحلتهم الى مدينة إليسا. وصلت اثنتين من ثلاثيات المجاذيف لنقلهم الى ميناء الكوتون العسكري حيث تم اقتيادهم ضمن محفات ذات سجف ثخينة لحجبهم عن الأنظار حتى مجلس الشيوخ. اتّخذ الحرس النوميدي على طول الطريق مواقعه يأمر السكان المحبوسين في مساكنهم بعدم مغادرتها. أثار وصول الوفد الزائر بلبلة كبيرة، وهدّد أنصار البرقاويين بالتصدي للرسل ورجمهم. أنذر حنون الكبير وأقنع زملاءه بأن الرسل قد يحملون كلمات ملطفة، ومن الجيد الاستماع إليهم ومحاولة الوصول الى مصالحة أخيرة.

لم تُجد تلك المحاولات. فما أن أُدخل الرسل إلى حرم المجلس حتى برهنوا بسلوكهم المتعجرف واللهجة التي استخدموها على أنهم يحملون أنباء سيّئة. ودون أن ينتظر خطاب ترحيب حنون، دوى صوت كانتوس فابيوس مكسيموس:

- كلماتكم الجميلة لا تهمنا. ونحن لم نقطع هذه المسافة الطويلة لنعلّل النفس بعباراتكم المعسولة، لننتقل سريعاً إلى الوقائع. هل تصرّف هنيبعل عند مهاجمة ساغونت وفق توجيهات مجلس المئة والأربعة؟

اغتاظ الداهية آزر بعل، رغم اعتداله، من هذه الخشونة المتعمدة، فقاطع مخاطبه بخشونة:

- أيها الرومانيون لا يجوز أن نتهمكم بنقص الجرأة. طالبتم خلال سفارتكم الأولى بإنزال العقوبات بهنيبعل لأنه يقاتل ضمن أراضٍ تعود لسلطته. من أجل عدم إزعاجنا، أسمعتمونا أن الأمر

يعود لتصرف خاص من رئيسه المباشر وفتشتم في مجلسنا عن الداعمين والمتواطئين. الآن وبعد أن أصبح الكلام بدون تحفظ، لا يوجد في رأسكم إلا فكرة واحدة، وهي تحميلنا مسؤولية الحرب ومطالبتنا بالتعويضات، وكأننا نعترف بمسؤوليتنا.

«في الواقع لم يجب أعضاء هذا المجلس الأجلّاء على السؤال الشائك الذي طرحتموه عليهم: «هل تقرّر الهجوم على ساغونت من قبل الدولة أو بقرار خاص؟». هل طلبنا منكم بيان الأسباب التي دفعتكم لإعلان الحرب على البوينيين الذين خدم أكثرهم مرتزقة تحت إمرتنا، ويمكنهم بدورهم الإدعاء بدورهم القانوني أنهم حلفاء لقرطاجة؟ السؤال الوحيد المتعلق بساغونت هو التالي: «هل كانت تلك الحرب عادلة أوظالمة؟ هل منعت أو سُمِح بها بموجب المعاهدات الجارية بين البلدين؟». أما في ما يتعلق بتصرف أحد المواطنين بأمر منه أم من رئيسه المباشر وما هي عقوبته فهذا أمر يتعلّق بنا. نحن لانحاكم الرعايا الرومان. بأي حق تريدون محاكمة أحد أتباعنا؟

«الحق يقال إنكم أيّها الشيوخ المحترمون، في موقع سيّء للتمييز بين التصرفات الرسمية ومبادرات الجنرالات الخاصة. يجب إنعاش ذاكرتكم. خلال هزيمة قواتنا في صقلية وقّعنا مع القنصل كايوس لوتاتيوس معاهدة تلزم كل طرف بعدم مهاجمة حلفاء الطرف الآخر، غير أنّ هذا الشرط لا يتعلّق بالساغونتيين الذين لا يطالبون بحمايتكم. وعندما فرضتم علينا بعد قليل من الوقت ميثاق عدم اعتداء آخر ينزع يدنا عن سردينيا لم تشيروا بشكل مفصّل إلى الساغونتيين الرافضين لصداقتكم.

«للالتفاف على هذه العقبة دعوتم السلطات إلى اتفاق شفهي بينكم وبين حسدروبال لم نطّلع عليه لتصديقه. هل يجب تذكيركم بأنكم خالفتم المعاهدة الأولى الموقعة من القنصل لوتاتيوس معنا بذريعة عدم استشارة مجلس شيوخكم وجمعيات ناخبيكم. من أجل

ذلك فرضتم علينا نصاً آخر أكثر تشدّداً ارتضينا به. إن كنتم حريصين على التمسّك بالمعاهدات التي حظيت بموافقتكم وصادق عليها الشعب، فإن معاهدة حسدروبال الموقّعة دون علمنا لا تلزمنا. بهذا التصرف نحن نسير على خطاكم. فلنكفّ عن الكلام المتعلّق بساغونت ونهر الإيبر ولننتقل إلى الأمر الرئيسي. ما هي مطالبكم الأساسية؟

أضاف شيخ آخر: لا أحب سماعكم أيها الرومانيون تتعلّلون مرّة أخرى بالمعاهدات والوعود المقطوعة. أقسمتم أن تبقى سردينيا تحت سيطرتنا واغتصبتموها مزدرين بوعودكم، أهو تصرّف يتطابق مع الشرف؟

بدا كانتوس فابيوس مكسيموس مغتاظاً من هذه الاتهامات. إنه يعلم في قرارة نفسه أن محاوريه ليسوا مخطئين كليّاً رغم عدم إمكانية التصديق على كلامهم. ونظراً لغياب البيّنات القاطعة الباتّة، انتصب بحركة مسرحية وشكّل ثنية من حلته الكتانية التي نسجتها أيدي زوجته المخلصة.

ـ في هذه الثنية نحمل إليكم الحرب أو السلم. حدّدوا موقفكم.

علّق إيتربعل بقوله: عليك أنت الاختيار لأننا غير مسؤولين عن هذا الوضع.

ـ هي الحرب إذن.

ـ لتكن، سنخوضها ولن تحظى أمهاتكم وزوجاتكم بالقدر الكافي من الدموع لتذرفها على الأموات وإرهاقكم بملاماتهم.

عمّ الصمت الرهيب، قدّر كل من الموجودين مدى أهمية القرار المتخذ، وسُمع الناس ينطلقون وهم يعلنون بوقار عن هذا الحدث. غادر السفراء حرم مجلس الشيوخ يرافقهم إيتربعل الذي ثارت شكوكه حول غضب مواطنيه ورجاهم أن يجمعوا أبناء بلدهم الحاضرين في المدينة ويقترح عليهم الرحيل، وسيضع مجلس المئة والأربعة تحت تصرفهم المراكب الضرورية، وللرومان الحرية في

أن يحملوا معهم ثرواتهم وعبيدهم، بل وفرض عليهم أن يدفعوا مبلغاً إجمالياً من أجل الديون المترتبه لدى التجار المحليين، غير أن اقتراحه رُفِض من قبل كايوس ليسينيوس.

- أفضل أن أعلم سبب هذا الحقد الذي تُبديه.

- ليكن، إنما لا تنسى أن تروي لزملائك أن أمثالك قد نُهبوا من قبل مجلس شيوخ روما وليس من قبل مجلس قرطاجة.

اكتفي بيومين لتنظيم جلاء الرومانيين من قرطاجة باستثناء مجموعة قليلة منهم تزوّجوا نساء بونيات وأبدوا عدم رغبتهم بهجرة عائلاتهم رغم تأنيبات السفراء. أقلعت السفن مع الفجر، وعند خروجها من الخليج انفصلت إحداها، مقلعة نحو قرطاجنة وعلى متنها ماغون لتنبيه هنيبعل إلى الأحداث الأخيرة. ما إن علم بتلك الأحداث حتى تملك ابن هميلقار نشاط محموم. قام سعاة مجهزون بمبالغ كبيرة من المال بالسفر إلى بلاد الغال الألبية، والى البلاد الواقعة بين جبال الألب وجبال البيرينيه في مهمة تقوية الروابط المعقودة منذ زمن طويل مع الرؤساء الغاليين، لإعلامهم أن الجيش القرطاجي سيعبر بسرعة مناطقهم للذهاب لمواجهة الجيوش الرومانية. أكّد هنيبعل لهم في رسائله العاجلة أن أرزاقهم وحريتهم ستحترم بدقّة، وسيكون سعيداً في استقبال عدد من مبعوثيهم في قرطاجنة عاصمته.

عَبَر هؤلاء بسرعة جبال البيرينيه، والتقوا في طريقهم بالرومانيين الذين أتوا ملتمسين مساعدة القبائل الإيبيرية وعادوا خائبين لفشل مهمتهم، فقد استقبلوا ببرود من الملوك الإسبان القلقين حول رؤية مقاطعاتهم تتعرض لمصير ساغونت نفسه. اضطرّ ماركوس لوسيوس لبيدوس أن يغادر بسرعة الأرض البرغوسية(*) التي أنّبه رئيسها نظراً لأهمية الوضع:

(*) شعب كاتالونيا المؤلّف من مقاطعة برشلونة الإسبانية خاصة.

- أيها الرومان، أنتم تلتمسون مساعدتنا ضد قرطاجة، ما هو مصيرنا في حال الاستجابة لهذه المطالب وإشهار هنيبعل السلاح ضدنا؟ سلاح ساغونت! لقد انتظر مدافعوها عبثاً وصول فرقكم ولفظوا أنفاسهم وهم يلعنون اسمكم ومواعيدكم. إذا أردتم حلفاء لكم اضربوا في الأرض التي لم تعرف دمار ساغونت، لأن خراب تلك البلدة هو برهان مأساوي لا يدحض، بعدم الاعتماد على صداقة روما.

اصطدم الرومان بخيبة أمل مماثلة في بلاد الغال الألبية. الوحيدون الذين وعدوهم بالدعم كانوا إغريق مسّاليا، الذين أضمر لهم جيرانهم حقداً مميتاً. وهكذا فقبل بدء المنازعات تكبد أبناء الذئبة أولى هزائمهم. أما هنيبعل فقد تملقه زعماء القبائل الغالية، قبائل البرنس، الذين كانوا قد قدموا إلى قرطاجنة للتفاوض على شروط تحالفهم معه. في المدينة أثارت قامتهم العالية، وشعرهم الطويل، وشواربهم الكثة، وزيهم المتمثل بسروال مثبت على الخصر بحبل يعري جذوعهم، كثيراً من التعليقات. عند مرور هؤلاء المقاتلين الشرسين، عمَّ الصمت لإدراك الجميع شدة حذرهم وحساسيتهم. المبعوثون الغاليون المسربلون بالهدايا راعهم تصميم قائدهم الجنرال البوني الشاب. فقد عمد لبيان مدى سيطرته على كامل إيبيريا على أن يعيد مرتزقته الإيبيريين إلى منازلهم لأخذ استراحة قبل الانطلاق في حملات جديدة. أعلن لهم منحهم العطلة المؤقتة بهذه العبارات:

- حاربتم دائماً يا أصدقائي بإخلاص إلى جانبنا وإنني متأكد أنكم ستكونون أيضاً معنا عندما تسير قواتنا قريباً إلى إيطاليا البعيدة لتتقصى المغانم وأكاليل المجد. قاتلنا خلال سنوات بعيداً عن منازلنا، وأنا أعلم أنكم بشوق للقاء عائلاتكم قبل تلك الرحلة الكبيرة التي ستثير الإعجاب والحسد. إنني أدرك هذه العاطفة وأسمح لكم بالتوجّه إلى جبالكم وقراكم لقضاء فصل الشتاء فيها،

وسأنتظركم مع عودة الربيع لنقيم بعون الآلهة حرباً ستحمل إلينا المجد والثروة.

مع بداية الأيام الجميلة، عاد المقاتلون الإيبيريون إلى هنيبعل الذي وجد نفسه على رأس قوة هائلة من مئتي ألف رجل، وهي أكبر حملة عرفتها قرطاجة في تاريخها. تقرّر بقاء قسم من تلك القوات في مكانها تحت قيادة حسدروبال الشاب. وفرز له أحد عشر ألف وثمانمئة وخمسين من المشاة وثلاثمئة مرتزق ليغوري وخمسمئة مقلاعي بلياري وألفان وستمئة فارس نوميدي أو موري، وواحد وعشرون فيلاً. أضيف إليها أسطول من اثنتين وثلاثين سفينة خماسية المجاذيف وخمس ثلاثيات مكلّفة برقابة الشاطئ الإيبيري، وأكثر من ثمانين ألف جندي يشكلون هيكل هذه الحملة المستقبلّية. هي في الظاهر تضافر مصالح غير متجانس توحّدها، فقط، كراهية وحشية لاسم روماني. شكّل أربعة آلاف قرطاجي، اقتلعوا من أرضهم الوطنية نوعاً من كتيبة مقدّسة. نصفها من المشاة، والقسم الآخر من الخيالة الثقيلة، المجهزة بخوذات ودروع وسيوف ورماح. تألّفت الخيالة الخفيفة من إيبيريين ونوميديين. تسلّح الأوائل بالسيوف، والآخرون بالرماح التي يطلقونها بدقة هائلة. كان المشاة مشكلين من الجبليين المجهزين بمجن من الجلد وسيف قاطع، ومن الغاليين الذي يسهل التعرف عليهم من اللفيفات والأساور التي تشدُّ أذرعهم المتينة، الماهرة في تحريك سيوف طويلة وثقيلة أو فؤوس شديدة. يضم جيش المشاة في صفوفه جموعاً فينيقية ليبيّة وافدة من أفريقيا ومجهّزة مثل المشاة الإغريق بخوذة ذات خصلة ريش مزيّنة ورمح وسيف ودرع دائري، ويُحمى الجسم بواقيات ساق ودرع معدّ في دور صناعة قرطاجنة. أما الجبليون الإيبيريون الذين يخدمون إلى جانبهم فيمكن التعرف عليهم من مجنّ الزَرَد والسيف المعقوف والدرع المتطاول الذي يزعمون أنهم لا يقهرون خلفه.

لم يهمل هنيبعل أي احتياط قبل سيره. زار معبد ملقارت في قادش حيث تنبّأ له قديماً آزر بعل الكاهن بمستقبل باهر. احتفل في طريق العودة برفقة ضباطه وخالف عاداته باحتساء مزيد من الخمور. خلال الليل المضطرب الذي أعقب ذلك الاحتفال ظهر له في الحلم إله شاب مكلّف برفقته حتى إيطاليا. رأى ابن هميلقار نفسه في الحلم يتبع رسول ملقارت الذي ألزمه بألا ينظر حوله، ولا يلتفت إلى الوراء. على مثال أورفه، امتنع الشاب عن الالتزام بذلك الأمر ـ على الأقل هذا ما يتذكّره ـ وجد نفسه في مواجهة التنين الذي يدمّر في طريقه الأشجار والنباتات بينما الرعد يدوّي والمطر الغزير يهبط من سماء مخططة ببروق متوعّدة. عندما سأل سوسيلوس عن ذلك الكابوس طمأنه مؤدّبه. كلا إنّها ليس تكراراً لمغامرة حصلت لأورفه بعد نزوله إلى الجحيم ليبحث عن أوريديس الجميلة. التنين يرمز إلى الجيش القرطاجي وهياجه المدمّر يرمز للدمار الذي سيلحقه هذا الجيش بقوة روما المتغطرسة. أحسّ هنيبعل بفرح شديد وطلب في حدة هياجه حالاً من سوسيلوس أن يرافقه ليكتب يومياً سرداً لحملته العسكريه. غير أن المربي الحريص لم يرفض اقتراح تلميذه، وطلب لتحرير النصّ المقترح أن يكلّف بهذه المهمة أحد مواطنيه سيلينوس، وهو لاجئ من مسّاليا، أتى لعرض خدماته على معلم قرطاجنة.

استجاب ابن هميلقار لذلك الالتماس لكنه أراد في البدء ملاقاة محرّر أخباره المستقبلي، وظهر الرجل في قصر قرطاجنة حيث استقبل في جلسة عامة. هو شاب يتكلم الإغريقية والبونية بطلاقة. له مرأى بشوش ومظهر ماكر مع لذعة غطرسة في صوته. تأمله هنيبعل طويلاً ثم قال له.

ـ أنت مرشح لتقوم بكتابة قصة حملتي العسكرية.

ـ امتدت شهرتك حتى مدينة مولدي حيث أشعر بالضيق. فمواطنّي تجّار يهتمون فقط بزيادة أرباحهم، وبكتابة قصائد تمجّد تجارة الزيت والخمور التي لا يتباهى بها أحد.

ـ لدى قرطاجة العديد من الأفراد المماثلين. وفي تبديل وضعك أنت الرابح.

ـ ربّما، غير أنك تختلف عن مواطنيك كاختلاف أبيك. وانتصاراتك في إيبيريا تشير إلى أنك قائد كبير لا يظهر إلا واحد أو اثنان منهم كل جيل، هكذا لا أريد أبداً أن تفوتني هذه الفرصة.

ـ أتحب الحقيقة؟

ـ هو اصطلاح استبعدته من لغتي فالناس بحاجة إلى الأساطير والمآثر. يجب إرضاء الأذواق بمجانبة الحقيقة أحياناً.

ـ هذا بالضبط ما أمنعك من إجرائه. أريد أن تسجّل بدقّة أدقّ تفاصيل رحلتي دون أن يفوتك الإشارة إلى مواطن ضعفي وأخطائي.

ـ كل شيء يتعلق بالطريقة التي تُعَرض فيها.

ـ أرى أنك تعرف كيف تتجنب الصعوبات. إنّني أضمّك إلى أركان حربي وستتبعني حيث أذهب. من المناسب اتخاذ الاحتياط. لن تكون رحلة متعة ولا تتصوّر أنك ستحيا حياة رفاه بل من الممكن أن تقاتل والسلاح في يدك.

ـ إنني أفضل المسبار واليراع غير أنني أعرف كيف أظهر على مستوى الأحداث عند وقوعها.

ـ هل تؤمن بنجاح جيوشنا؟

ـ يجب من أجل هذا استشارة الكهنة والعرافين. الواقع أنني لست واثقاً من خروجك منتصراً في تلك الحرب، غير أن التاريخ سيسجل اسمك أكثر من أولئك الجنرالات الذين سيُكبّدون الهزائم. فأولئك لا يفكرون إلا بالمراكز التي يحصلون عليها مكافأة على انتصاراتهم. إنني أستشعر أنك تصارع من أجل فكرة وأنك تتناول الكائن الإنساني حتى عند عدم اهتمامك بالفلسفة. إن بعض

العسكريين تجار عاميون وأفضّل أن أرى رؤوسهم ملتهبة. مغامرة من هذا النوع تثيرني، لذلك أنت سيدي وأنا مستعد لاتباعك.

- تعجبني صراحتك، ستستلم وظائفك منذ اليوم. وستأتي كل عشرة أيام، لرؤيتي وقراءة ما كتبت.

- هل تؤكّد لي عدم التعرّض لغضبك في حال عدم رضاك عن بعض المقاطع؟

- سأسلمك جواز مرور يتيح لك مغادرة معسكري عندما يحلو لك، وأقسم لك بملقارت أن أحرص على تعهدي مهما كلّفني الأمر.

- إن رجلاً لا يخشى على مستقبله هو واثق من امتلاك ماضٍ مجيد. ومستقبلك أنت في نظر التاريخ سيكون مجيداً.

الفصل الثاني

وجب على هنيبعل قبل أن يرحل إلى غزو إيطاليا، أن يجابه عدواً أكثر رهبة من بوبليوس كورنيليوس سيبيون، وهو مجرّد من السلاح أمامه، إميليسي زوجته التي منحته في بداية الشتاء طفلاً. ومع ذلك تركها تقوم بتهيئة جميع استعدادات سفره دون أن تتفوه بكلمة. هذا الصمت لا يعبر عن أمر طيب، وهو ليس الإذعان المستسلم الخاص بنساء الأرستقراطية القرطاجية الحبيسات داخل منازلهن الثرية متجنّبات بعناية كبيرة شؤون المدينة. إنها بالأحرى غضبة باردة تنتظر سنوح الفرصة المناسبة لتنتصب وتنقض على المذنب، لأن ابن هميلقار يحس بأنه مذنب في أعين شريكته، فجريمته تستدعي الاستمرار في مغامرة تستمر أشهراً بل سنوات دون سعي لمشاركتها فيها أو اللحاق به، وهي القادرة على مواجهة جميع الأخطار. أَمِلتْ إميليسي في مناسبات عديدة أن يأمر والد طفلها باتخاذ احتياطاته واختيار خادمات قديرات لتحمل حياة المعسكر والسير الاضطراري. كلمة، كلمة واحدة تكفي لإغراقها في ينابيع من السرور. ولكن هذه الجملة لم تسمعها، ليس لأنه لا يملك الشجاعة على الاعتراف لها ولكنه مرتبك، ويخجل أن يقول لها: بأنها لن ترافقه في هذه الحملة الحربية. بدا ظاهراً أن الجنرال الشاب يسعى لكسب الوقت وإبعاد اللحظة المقدرة لشرحها إلى أقصى نهاية ممكنة. صمت الزوجان عن التعّرض لهذا السؤال، ومغامراتهما الغرامية لم تتأثّر بذلك الالتباس. بل بالعكس فما كادت

إميليسي تخرج من مرحلة مخاضها حتى بدأت تغدق على زوجها متعاً جديدة مرهفة فاقت الخيال، كما أنه بدوره أظهر أنه العاشق المتيّم الذي لا يرتوي، درءاً لشبهاتها.

بعد عودته من قادش وقد غادرت طلائع جيشه لأوّل مرة ثكناتها. اضطر هنيبعل أن يتعرّض للموضوع الذي يهابه. أسرَّ لجنوده بمنتهى الكتمان بمغادرة المدينة مع الفجر من باب الشمال. التحق بغرفته في وقت متأخّر من الليل حيث تنتظره إميليسي. كانت ترتدي ثوباً طويلاً مؤلفاً من غلالة شفافة تكاد لا تخفي مفاتنها المثيرة، خصلات شعرها الأسود الطويل تحيط بقسمات وجهها الرقيق، وبعكس نساء حاشيتها لم تتخضب لأن وجهها الحليبي يشكل أكبر مفاتنها. إنها لا تجهل شيئاً من محاسنها، وهي تعرف جيّداً كيف تستغلّها. فتن بها ابن هميلقار الذي لم تثره الغيرة القائمة بين ضباطه والأمراء الإيبيريين المدعوين إلى مائدته، فقد كانت الآمال بالأحرى تعلله لأنه يعرف الحظ الاستثنائي الحائز عليه في إرضاء مخلوقة بمثل تلك الفتنة. أمومتها الحديثة لم تغيّر من معالمها بل زادتها نضارة. غدت أكثر أنوثة وثقة بنفسها دون أن تفقد شيئاً من شبابها. ابنها الذي لم يتعد عدة أشهر ينام غير بعيد عنها. يراقبه ليلاً ونهاراً سرب من الجواري الإغريقيات والإيبيريات. زيادة في التطيّر لم يمنح حتى تاريخه اسماً لإبعاد الأرواح الشريرة عن مهده. احتجب خلف ستارة، وبقي هنيبعل مدة طويلة يتأمّل زوجته التي تجوب الغرفة وهي تذوب شوقاً. أخيراً تنحنح بخفة ليعلن عن وجوده، وسأل زوجته بصوت مداعب:

- هل قضيت يوماً طيّباً.

- أجمل مما أتوقع. أي مشهد أبهى من رؤية هؤلاء المشاة يسيرون بخطى حربية، وهذه العربات الثقيلة التي تجرّها الثيران والخيول. تابعتُ هذا المشهد بكامل تفاصيله خشية أن يفوتني مرورك على رأس رجالك، موجّهاً لي الوداع اللائق بزوجة مُحبّة.

- طريقة سخريتك تنفذ إلى قلبي.

ـ أتتكلّم عما يتعلق بي يا هنيبعل؟ أنت قائد عظيم وليس لك مثيل يحرض الرجال ويسيّرهم على دروب أمجاد ورفعة قرطاجة. إنك قادر على نشر كنوز عبقريتك والتفاوض مع الرومان وإسماعهم الكلمات التي يرغبون بها والقيام في الوقت نفسه بعكس ما تؤكد. غير أن التحدُّث مع زوجتك عن مصيرها يجلُّ عن قواك.

ـ إنّك تخطئين.

ـ أنت لا تحسن الكذب.

ـ أؤكد لك أنني حتى هذا المساء لم أقرّر شيئاً بشأنك. إن كان الأمر يتعلّق بي فإنّك تشكلي مع طفلي جزءاً من تلك الحملة.

ـ هل تتوقع معارضة مجلس شيوخ قرطاجة؟ هل أرسل لك موفداً بهذا الخصوص؟ هل تظن أن بإمكانه الرفض.

ـ ليس الأمر على هذا القدر من البساطة. إنني بحاجة إليك.

ـ سأسافر إذن.

ـ لم تتركي لي مجالاً لأرشدك إلى المكان الذي تستطيعين أن تكوني عوناً لي فيه. إنه في قرطاجة وليس وسط رجالي.

ـ لماذا؟

ـ ها قد مضت عشر سنوات وأنا بعيد عن وطني، منقطع عن أنصاري وسط مجلس المئة والأربعة. يمكنني إن اقتضت الحاجة أن أوجّه أمري إلى أحد أخوتي للعودة إلى مدينتنا والدفاع عن قضية لي. ليس هذا هو الوضع حالياً. فأحدهما وهو حسدروبال، سيبقى هنا ليسهر على هدوء هذه المقاطعة. والآخر ماغون سيتبعني. فالمعركة التي سنتبّعها حاسمة وأعدائي في قلب مجلس الشيوخ يحصون أخطائي الأولى بفارغ الصبر ليتحروا هزيمتي المتوقعة. بالطبع، يمكنني الاعتماد على إيتربعل، زعيم الحزب البرقاوي، دون أن يداخلني وهم عن هذا الانسان. إنّه مخلص لي. غير أن بإمكانه

أن يخونني سواء عن قناعة أو عن ميل إلى الدسائس. إنني بحاجة لشخص يمكن أن يؤتمن كلّياً على مصالح عائلتنا لأنها تعود إليه وخسارتنا تعني خسارته. لا أعرف أحداً غيرك. ما فتئت تخلصين لي بالنصائح الثمينة. إنك ماهرة ومراوغة ويسهل تغلّبك على مكر خصومنا وتعرفين دفعهم إلى تأييد آرائنا، إنهم يعلمون أنّك تتكلّمين باسمي وأن رأيك سيتغلّب على آرائهم. وهم لا يقومون بالتصرف نفسه عندما أرسل لهم أحد مستشاري.

- إنّك تنسى أنني لست قرطاجيّة.

- هو بالعكس عامل ثمين. للبونية عيوب سلالتها: هي أحياناً جشعة، وأحياناً أخرى متحسبة مقصِّرة مُستعدة لكل عوامل الخِسّة للمحافظة على ثروتها. وأنت بالذات حتى وإن كانت جدّتك واحدة منا فأنت تنتمين إلى شعب يعرف قيمة الاستقلال لأنه أضاعه. من هنا ترد عزّة نفسك. وهكذا فأنا مقتنع بقدرتك على الإقناع وأعرف ما يكلفك هذا البعد عن بعضنا وأقسم بملقارت، وأنا مدين له، رغم إخفاء مشاعري عن رجالي فبعد كل حساب عليهم بدورهم أن يتخلوا عن عائلاتهم، غير أن المهمة التي أكلّفك بها تعتمد على الحب الذي أدين لك به، وبين يديك من الآن فصاعداً، بين يديك وحدهما، تكمن سلامة قرطاجة ومصالح عائلة بَرْقَا.

رفعت إميليسي بشكل آلي يدها إلى قلادتها العقيقية، ثم أجابت والرزانة تملأ محياها:

- عند زواجي بك اخترت أن أربط مصيري بمصير سلالتك. لن أخيب أمل هذا التعهد الرسمي الذي أجريته أمام مذبح بعل حمّون. عرفت كيف تذكّرني بواجباتي، وأنا أشكرك، ما أن أنهي استعداداتي حتى أنطلق على متن خماسية مجاذيف إلى مسكنك في ميغارا الذي حدّثتني كثيراً عنه. سيكون ابننا مسروراً باستكشاف أصغر زوايا حدائقك والعثور على الأماكن التي ارتكب فيها والده وهو فتي يافع

أغرب حماقاته، أما أنا فسألاحظ وأوافيك بالمعلومات اللازمة بوساطة الرسل عما يجري في إليسا. لن أطالبك إلا بشيء واحد.

ـ وما هو؟

ـ أن يبقى شرفي سليماً لا تدنّسه الشائعات.

ـ يمكنك الوثوق بأمانتي. لن تحلّ امرأة مكانك في مضجعي.

ـ ليس هذا ما أطلبه منك. إن المقاتل يحتاج إلى بعض رفاهية. ولستَ أرفع من باقي الرجال بحيث لا تغريك متع الجسد. ربما ألزمتك السياسة بأن تشرّف بعنفوانك ابنة هذا القائد الغالي أو ذاك بحيث يقتنع بتموين جيشك.

ـ كيف يخطر على بالك مثل هذه الأفكار؟

ـ لا أرى في هذا أي ضرر. أنا أعلم أنك تزوجتني عن حب بينما تزوج صهرك حسدروبال ليستميل عواطف حميه النبيلة الذي امتدت سلطته على جميع الشعوب جنوب نهر الإيبر. أعلم أنني لن أتمسّك بالشكليات، إن قامت علاقة عابرة مع إحدى فتيات الرؤساء أو الأسرى. غير أن أيّاً منها لن تصمد وتأخذ مكاني. إن حقدي سيلاحقك آنذاك إلى أي مكان ستوجد فيه، وستعرف عندئذ ما يمكن للمرأة إنجازه.

ألقى هنيبعل بإميليسي على السرير ليبرهن لها أنه لن يجازف بتحمّلها هذا العار. بقي حتى الفجر يداعب طويلاً جسد زوجته يستكشف جميع زواياه التشريحية. يغمر رأسه بين ثدييها وثنيات حقويها يمتلكها ويدفعها إلى التأوّه رغبة ومتعة. في مناسبات عديدة، كان يشعر بضعفها واستعدادها للسكينة فيوقظ رغباتها بقبلات محمومة، ويشد يدها إلى عضوه التناسلي دون أن تتمكن أية مداعبة من تهدئته. أخيراً طلبت إميليسي الصفح واستقر رأسها عند كتف زوجها وغابت في نوم عميق. وعندما استيقظت كان المكان قد بَرُد منذ فترة طويلة، ووجدت فيه جُعلاً منحوتاً في عاج ثمين وقد

نقشت فيه صورة هنيبعل. عرف الفنان بدقّة كيف يرسم قسمات شعره المجعّدة وثنية شفتيه المشتهاة. لم تغادر غرفتها خلال يومين ورفضت كل غذاء ومرافقة، ثم شوهدت تظهر مجدّداً مكلفة خادماتها بجمع كل أغراضها ونقلها على متن إحدى السفن الراسية في الميناء، وبعد أسبوعين كانت تستقرُّ في ميغارا، وبدت وكأنها قضت كل وجودها هناك لمعرفتها أدقّ تفاصيل تلك الزوايا.

ما كادت تصل حتى توجّه إيتربعل وقادة الحزب البرقاوي الرئيسيون يُقدمون لها احتراماتهم ويلتمسون ودّها. استقبلتهم بحفاوة ولم تقصّر في توجيه كلمة لطيفة لكل منهم والإشارة بوضوح أنّها هي الوحيدة القادرة على الكلام باسم زوجها، وعند العودة إلى قرطاجة قال إيتربعل لرفاقه.

- شكوت مراراً من غياب هميلقار وحسدروبال وأسفت لعدم استطاعتي رؤية هنيبعل منذ مغادرته هذه المدينة، غير أنني لست واثقاً من إمكان ارتياحنا لوجود إميليسي بيننا. رغم أن دمّ آل برقا لا يسري في عروقها فإنها تتصف بجميع مزايا تلك العائلة وكذلك بعيوبها أيضاً، معها يجب أن نتوقع كل شيء، أفضل الحلول وأسوأها.

* * *

غادر جيش هنيبعل، في ترتيب جيّد، قرطاجنة عاصمة إيبيريا البرقاوية. وبعد قطع عدة ستادات انقسم الجيش إلى ثلاث مجموعات وسار باتجاه نهر الإيبر الذي وصل إليه خلال مسيرة عشرة أيام، كانت كل مجموعة تثير في طريقها عاصفة حقيقية من الغبار تنبئ سكان الجوار باقترابها. فيوجّه أكثرهم فزعاً عائلاتهم ومواشيهم نحو الغابات والجبال مباشرة خشية النهب والتجاوزات غير القانونية المرتكبة. انتشر الخبر سريعاً بأن هؤلاء الأجلاف الجشعين يمتنعون عن كل سلب ونهب واغتصاب. تحت رقابة صارمة من ضباطهم، وعملاء حساباتهم كانوا يسددون بدقّة ثمن الأقوات المصادرة. بالرغم مما اشتهروا به في السابق بعدم

انضباطهم وهواهم الجموح في النهب فقد كان النوميديون من أسرع الناس إلى تأدية ما يترتب عليهم من دون تذمر. سجلت مخالفة واحدة إزاء الأوامر الصادرة إلى الجيش، اغتصاب فتاة جبلية من قبل أرستقراطي قرطاجي شاب أفرط في تناول الشراب. حُكم عليه أن يهلك على الصليب بوجود جنوده ولم تتمكن توسّلات رفاقه من تحريك مشاعر هنيبعل. كان مصمماً على تلقينهم الدرس كي يحول دون خروج المتهورين، من المشاركين في الحملة، على التعليمات التي يرددها الرسل كل يوم.

تمّ عبور الإيبر دون صعوبة. تمكن الكشّافون الإيبيريون من إحداث ثلاث مخّاضات على النهر اجتازها المشاة والفرسان والفيلة المجللة بأحمالها وكأنهم يسيرون على الأرض الجافة. خلّفت الأرتال الثلاثة وراءها بقايا دمار ساغونت وتغلغلت في الأراضي المعادية، وتردّدت القبائل والشعوب المحلية حول السلوك الواجب اتباعه معهم. حَلُم بعضهم بتناول السلاح، بعد زيارة الرسل الإغريق المساليوت، ومهاجمة مفارز مؤخّرة الجيش المعزولة. إلا أن البعض الآخر، ومن شدة الخوف مما حلّ بالساغونتيين، لم يكن لهم غير همّ واحد: هو إعلان خضوعهم وتقديم الهدايا الفخمة للجنرال الشاب لنيل رضاه. ونِعم ما فعلوا، فقد قُبِض على أفراد العصابات المتمردة التي هاجمت المؤخرة القرطاجية وذبحوا بدون رحمة من قِبَل الخيالة النوميديين، وأحرقت قراهم، وأرسل سكانها إلى أسواق العبيد في قرطاجنة حيث أحدث مرآهم قنوطاً لدى التجار نتج عنه هبوط القيمة الشرائية للأقنان. أحزنت هذه المنازعات البسيطة نفوس صغار ضباط الأركان العامة الذين اقتنعوا أنهم لن يلقوا أيّة مقاومة قبل وصولهم إلى إيطاليا. لم يخف بعضهم غيظه وتذمره من فطنة قائدهم المفرطة، ومن هذه الحملة المزعومة التي لن تعود عليهم بأي امتياز.

شعر هنيبعل بتعليقاتهم اللاذعة فجمع المستائين، ودون أيّة مقدمة انتهرهم بقسوة:

- ها هم شبابنا يأسفون على عدم استطاعتهم التصادم مع أعدائنا، ويلومنني لأنني لم أسفح لهم دماً يظمؤون إليه كأنه يتعلق برحيق إلهي. إننا مانزال في بداية حملة حربيه طويلة، ويجب أن تكون كل مرحلة نجتازها هي لقاء معارك تجري دون شفقة ومجابهات جديرة بالصراعات التي قادها سابقاً الاسكندر أو ملك الفرس، لو أن الأمر يتعلق بي لأرسلت هؤلاء الرعناء إلى قرطاجنة لأنهم أكثر خطراً على مصير جيوشنا من سرب جواسيسٍ أوغاد استأجرتهم روما. لن أفعل ذلك لأنني أجد لهم عذراً في شبابهم الطائش، وهياجهم الأحمق يذكرني بغواية شاب اغتاظ لقضاء فترة شبابه يبني مدينة بينما هو يحلم بقطع رؤوس وأذرع أعدائه. كما ترون: أنا هذا الجرو الغبي، إنني أنظر إليكم بالصبر والتسامح اللذين كان يقابلني بهما صهري حسدروبال. اعرفوا جيّداً أنَّ القائد العسكري الجيد حريص دائماً على حياة رجاله وبعض انتصاراته لا تعود بالضرورة إلى ميدان القتال. إن بعض المعارك التي أجريناها لا ترضيكم أما أنا فإنها تقلقني إلى أقصى حدّ. ستسعى هذه القبائل لتأخذ بثأرها بمجرد عبورنا البيرينيه دون عودة. وتهاجم مدننا وحامياتنا الواجب أن أسهر على أمنها. هكذا يجب عليّ أن أعهد إلى حنون الصموت بقيادة عشرة آلاف من المشاة ومئات من الخيالة لإحلال السلام الكامل في هذه المناطق. إنهم جنود سيغيبون عنا بقسوة فيما بعد. فحنون وأشار إلى زملائه، هذا الضابط الشاب، آمل أن يتصرف بسرعة ليستطيع بعد استتباب الأمن أن يلتحق بنا.

- سأحاول القيام بأفضل ما أستطيع يا ابن هميلقار، وأنا أشكرك على ثقتك. اسمح لي أن أشير إلى أحد همومي. إن تحت إمرتي، إضافة إلى القوات التي أشرت إليها، مرتزقة كرباتيون يبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وهم ينتمون إلى قبيلة خضعت حديثاً لنا ولم يبرهنوا على معاداتنا، إنهم مخلصون وأنا أضمن إخلاصهم غير أنهم ليسوا مستعدين لاتباعنا إلى أماكن بعيدة ومرافقتنا حتى

إيطاليا. إن ألزمناهم بذلك سيهربون من بين صفوفنا مسببين الضرر لجنودنا الآخرين.

ـ من الأفضل الافتراق عنهم. قل لهم ـ كبادرة حسن النية ـ إنني أوافق على موالاتهم والعودة شرط أن يؤمنوا حماية الأراضي الواقعة تحت رقابتنا جنوب نهر الإيبر. سيستطيعون بذلك العودة كل شتاء إلى منازلهم.

ـ إنك تجري بذلك اختياراً وجيهاً تؤمّن به اعترافهم بالجميل وسيعرفون كيف يبرهنون لك عن ولائهم.

لم يطرح اجتياز البيرينيه خلال الفصل الجميل أيّة مشكلة. حرص هنيبعل أن يتجنّب مدن الساحل الموالية لمسّاليا، فسيّر قواته عبر بعض الممرات الصغيرة الواقعة على ارتفاع ضعيف وهي تنعطف بارتفاع لطيف نحو سفح الجبل الآخر. كانت هذه المناطق مقفرة تماماً وهي ممرعة بالخضرة بحيث تقدّم للخيول والفيلة الغذاء اللازم لها، وقد وجب الانتظار عدة أيام أخرى لوصول مؤخرة الجيش لاستئناف الطريق.

عندما وصلوا إلى السهل الساحلي، أقام القرطاجيون معسكرهم قرب إيليبرس(*). أمر هنيبعل احتياطاً بحفر حفرة واسعة وإقامة سياج من الخشب غير أن معظم رجاله أقاموا خارج تلك الحظيرة. في كل يوم تجتاز عدة دوريات المنطقة المجاورة، مهمتهما انتظار ومراقبة مندوبي الملوك الغاليين المنتمين إلى اتحاد فولسك آركوميك. فهم يعودون في استقرارهم في تلك المنطقة إلى بضع عشرات من السنين، وقد التزموا بعنايه الابتعاد عن النزاعات، رافضين عروض البونيين وعروض الإغريق والرومان أيضاً.

(*) هي حالياً مدينة إلن القريبة من بربينيان في منطقة البيرينيه الفرنسية.

عند إعلان دخول الجيوش القرطاجيّة إلى أراضيهم انتاب قرويي المناطق المجاورة الذعر، وتضاعفت مخاوفهم عندما لاحظوا، للمرة الأولى، الفيلة تسير في مقدمة الجيش. بالرغم من أن هؤلاء القوم القساة قد اعتادوا العيش وسط البهائم المتوحشة: في الشتاء ترود الذئاب والدببة حول تجمعاتهم وتهاجم المسافرين المعزولين. كانوا يهابونهم إنّما لا يرتعبون منهم. ليست هذه هي الحال مع الفيلة. بملاحظاتهم خيّل للغاليين أنهم يتأملون تلك الأشباح الرهيبة التي تشير إليها أساطيرهم الأكثر قدماً. بالطريقة التي كانت تتحرك فيها تلك البهائم وهي تسحق العشب والحشائش الجافّة في طريقها، كان من السهل تصوّر الدمار الرهيب الذي تمارسه إذ طلب منها إجراء الأمر بالتنفيذ.

عجل الملوك الفولسكيون، وقد سبقهم الهاربون إلى مدينة روسينو(*) المحصّنة للاجتماع فيها، لإجراء أحاديث طويلة لا تنتهي تتخللها مآدب وحفلات شراب. كان رسل هنيبعل يموتون من السأم بعد أن قنطوا من الاجتماع بهؤلاء الأقوام الأجلاف هواة اللحوم المطبوخة والمشروبات. إنّها في الواقع خدعة من الفولسكيين، إنهم يعلمون أن الجنرال البوني لا يستطيع أن يتأخّر طويلاً في تلك النواحي وهو يرغب في عبور الألب قبل بداية الشتاء، ويرغبون في تقاضي المال المناسب لقاء حق العبور. أدرك الوقت القائد البوني فاضطر أن ينثني أمام مطالب خصومه، إلا في حال الالتزام بالمعركة وتجميد حملته العسكرية طوال أسابيع كثيرة وقد عملت خدعتهم بشكل باهر. وأمام غضبة هنيبعل الكبرى حصل قوادهم على تعويض كبير والوعد بأن تمر القوات البونية على مسافة جيّدة من مدنهم. التنازل الوحيد الذي التزموا به: هو التعهد بتقديم أدلاء يعرفون الطرقات الأكثر سرعة للوصول حتى نهر الرون متجنبين مصبّات ذلك النهر المستنقعية.

(*) هي كاستل روسيون الحالية من مقاطعة البيرينيه الشرقية.

اجتاز الجنود، تحت شمس لاهبة، منطقة وعرة مزروعة هنا وهناك بهضاب وخوانق عميقة تخترقها سيول مياه صافية باردة. في إحدى الأمسيات توقف هنيبعل على ضفة نهر تسيطر على هضبته مجموعة أشجار تعود لعدة قرون، من أعلى ذلك المنحدر الشديد تمكن أن يلاحظ شريط الأرض الذي يَفْصِل ذلك المكان عن نهر الرون الذي تجري مياهه الغزيرة بهدوء كبير.

استمتع ابن هميلقار بتلك الوقفة بقدر ما كانت مناسبة لاستقبال مبعوثي القبائل الغالية الألبية، التي تحمل أخباراً طيّبة. استشاط البويون غيظاً من إنشاء مستعمرات جديدة في بلاسنتيا(*)وكريمونا(**). وألزموا الفلاحين الرومان بأن يجدوا لهم ملجأ خلف سور موتينا(***) المحصّن. كان ممثل روما في تلك المنطقة كايوس لوتاتيوس قد أخذ أسيراً من قبل المتمردين وأثار هذا الخبر الجديد ابتسام ابن هميلقار. هذا اللوتاتيوس هو في الواقع القنصل الذي ألزم منذ ثلاثين سنة قرطاجة على توقيع عقد يلزمها بخسارة صقلية. أرسل الحاكم الشرعي لوسيوس مانيليوس فولسو لنجدته فوقع بدوره في كمين خلّف عدة قتلى على الأرض، قاتلوا متراجعين حتى موتينا. سيطر الذعر على مجلس الشيوخ وعهد إلى الحاكم الشرعي كايوس أتيليوس رومانوس بإحدى الفرقتين المنسوبتين سابقاً إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيون مع مهمة معاقبة المتمردين. قام القنصل وقد حُرم من قواته بتشكيل فرقة جديدة رغم الصعوبات، تألفت من شباب تعوزهم التجربة وهم عاجزون عن القيام بالحرب. أخيراً، وبدلاً عن سلوك الطريق البري، اضطروا الى سلوك الطريق البحري على متن ستين سفينة ووصلوا إلى مسّاليا وأقاموا في جوارها معسكراً مجتزأً.

(*) هي بليزانس الحالية.
(**) هي كريمونا الحالية.
(***) هي مورينا الحالية.

جرى حديث الرومان مدة طويلة عن موقع ذلك المعسكر. قدّروا أن هنيبعل من أجل الوصول إلى إيطاليا سيسلك الطريق الساحلي، رغم وجود التجمعات المسّالية في أولبيا(*) وأنتيبوليس(**) ونيكايا(***)، إنّها المسافة الأسهل الحاوية بغزارة على منابع المياه. غير أن ابن هميلقار لم يرد السقوط في مثل هذا الفخ الغبي ويستسلم لاغراء السهولة. نضج في رأسه منذ عدة أسابيع مشروع أخر: سلوك الطريق الهرقلي، مع العلم بأن هذه الطريق شديدة الانحدار ومتعرجة تخترق جبال الألب بوديان محصورة وممرات جبلية مرتفعة. أرادت الأسطورة أن يشق هرقل هذا الممر سابقاً بيديه القويتين. كان هذا بالنسبة لهنيبعل أكثر من رمز لأن هراقلس، وهو ملقارت الفينيقيين، هو الإله الحارس لعائلته. كان الرومان أكثر جبناً ليتوقعوا أن خصمهم يغامر بمتابعة خط تلك الرحلة المشهور بتعذّر عبوره. وهكذا بقيت فرقهم مستقرّة على طول الممر الساحلي تنتظر وصول الجيوش القرطاجية.

كانت هذه الجيوش موجودة آنذاك على ضفاف نهر الرون، تراقبها من الجانبين قبائل فولسكية مترددة حول السلوك الواجب اتباعه، فقد انقسم رؤساؤها إلى معسكرين: الأوّل مؤيد لهنيبعل، والآخر للرومان. أرسل الحزب الأخير مبعوثين إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيون لتنبهه إلى قرب اجتياز النهر من قبل القرطاجيين. اكتفى القنصل بأمر ثلاثمئة خيال روماني يدعمهم بعض المساعدين الغاليين بالطواف في دوريات على طول النهر، ومنعهم مع ذلك من إشعال فتيل الحرب مع العدو، عليهم فقط ملاحظة حركاته ومراقبة تصرفاته. القنصل مقتنع بأن خصومه مصممون على اجتياز طريقهم نحو الجنوب.

(*) هي هيير الحالية.
(**) هي أنتيب الحالية.
(***) هي نيس الحالية.

خلال ذلك الوقت، كان هنيبعل يبذل نشاطاً لا مثيل له. قام عدة آلاف من المشاة بمبادلة سيوفهم ورماحهم بفؤوس قطعوا بها مئات ومئات من أشجار الغابات المجاورة لإعداد أطوافٍ وقوارب. في كل لحظة من النهار كان يُسمع ضجّة صماء من جراء سقوط الأشجار وهي تنسحق على الأرض لتتعرى سريعاً من أغصانها وأوراقها، وتسحب الجذوع حتى ضفة النهر وتربط عشرةً عشرةً بحبال متينة أو تفرغ بمثاقب. تشكّل خلال أسبوع أسطول حقيقي من الأطواف والشرّاقات المقعّرة.

من الجانب الآخر من النهر كان الفولسكيون المؤيّدون للرومان يلاحظون هذه الاستعدادات وهم يطلقون صرخات عدائية ويضاعفون الحركات المهدّدة. ينضمُّ إليهم في كل يوم وفود جديدة من الفرسان والمشاة وقد قرّروا قتال العدو. قدر هنيبعل ضرورة سحق الفولسكيين بخدعة، دون أن يجازف بتعريض قواته لخسائر كبيرة عند اجتياز النهر. أوعز في غاية السريّة إلى حنون أحد ضباطه وهو ابن القاضي بوميلقار أن يصعد الى ضفة النهر على بعد مئتي فرسخ(*). وفق مقاييس الأدلة الغاليين، يوجد جزيرة في منتصف الطريق بين الضفة والأخرى من النهر مما يتيح له أن يتجاوز دون خطر عدة آلاف من المرتزقة الإيبيريين المتآلفين مع السير الإلزامي ليلاً ونهاراً. وما عليهم، بعد ذلك، إلا أن يعودوا القهقرى، وينذروا بالنيران، هنيبعل بوصولهم، كي يطوقوا أعداءهم الفولسك كما في كماشة ويبيدونهم دون رحمة.

لم يكذب الأدلّة الغاليون، فقد وجد حنون الممر الشهير وعبرته قواته على متن طوافات تم إعدادها بسرعة كبيرة، وقد فضل بعض المرتزقة أن يحشوا القِرَب بملابسهم، واضعين فوقها مجنّاتهم الطويلة مجتازين النهر تحت هتافات رفاقهم الفرحة. وُجد حنون وجنوده بعد أربعة أيام من رحيلهم وهم على مستوى ارتفاع

(*) نحو أربعين كيلومتراً بمقاييس الزمن الحالي.

القرطاجيين إنّما من الجانب الآخر من النهر مختبئين في الغابة. تم تبادل الإشارات المتفق عليها، وفي الصباح الباكر أعطى هنيبعل الأمر لجيشه بالانطلاق. كان أمام النهر صف من الطوافات لتحطيم قوة التيار. تجمّع المشاة على القوارب بينما خاض الفرسان عباب الماء بمطيّهم التي بذلت مجهوداً فائقاً لتحافظ على رأسها خارج الماء وهي تتقدم نحو الشاطئ الآخر. لاحظ الفولسكيون، حلفاء الرومان تلك العمليات ساخرين. كانوا قد تجمّعوا في ساحة واسعة تحيط بالنهر وهم مستعدون لدحر مهاجميهم. علت أصواتهم بأغاني الحرب بجهوريتها العالية، ونشروا فوق رؤوسهم المجنّات والسيوف يصالبونها لتردّ عنهم صيحات الجنود القرطاجيين وقد تخلّى حراسهم عن مراكزهم بحيث لا يوجد من يستطيع أن يوجّه الإنذار عندما تخرج قوات حنون من الغابة.

تعرّضوا لهجمات الغاليين من الناحية الخلفية، وقد قسروا على التراجع حتى ضفتي نهر الرون حيث نزل أوائل جنود هنيبعل الذين أحاقوا بهم من كل جانب. صارع المقاتلون كالأسود وهم يحركون بمهارة سيوفهم الطويلة وجذوع أجسامهم تنضح بالعرق. هاجموا العدو وهم يطلقون صيحات رهيبة. انجلت صفوفهم عندما وجّه حَمَلة المقلاع البلياريين رصاصاتهم الغضارية تفجّر رؤوس المقاتلين العارية من الخوذ الواقية مما دفعهم إلى التراجع سريعاً متعرضين لسهام القرطاجيين التي اخترقت صدورهم وأجسامهم، فتراجعوا سريعاً بينما جثا الأحياء الباقون والسلاح في أيديهم يستعطفون العدو دون جدوى. جُمعوا في أمكنة عديدة حيث قطعتهم سيوف الفرسان النوميديين إرباً. للحال لم يَعد يسمع غير أنين المحتضرين، وهم يعانون سكرات الموت ودماؤهم تروي ببطء تربة المعركة.

غير أن ضجيج المعركة ترك مع ذلك نتيجة غير متوقّعة، فمن الجانب الآخر من النهر، قلقت الفِيلة من ضربات السيوف على

مجناتها وصياح الجنود وأفلتت عن رقابة سائسيها وتفرقّت منتشرة في المناطق المجاورة، ووجب الذهاب للبحث عنها والانتظار إلى أن تستعيد تلك البهائم هدوءها بعد أن وزعت عليها وجبة علف مضاعفة. تم تحسين وضع الطوافات المغطاة بالطحالب والمخصصة لمواكبة تلك البهائم على مجموعات ثلاثية: ذكران مسبوقان بأنثى، مع المحافظة على رصيف الركوب القوي بطول خمسة عشر متراً والممتد بجسري مركب هائلين من جهة وأخرى من النهر المثبتين على الأرض الصلبة بحبال متينة. بين هذين الجسرين الثابتين إلى مسافة ستين متراً جهزت طوافتان تم ربط الواحدة بالاخرى بقوة، تجرهما مراكب ذات مجاذيف، ثم يتم فصلهما عن الجسر الأول المحضر على عجل وتُجر الى الشط الاخر من النهر. إنّها اللحظة الأكثر حساسية في العملية لأن الحيوانين اللذين يخشيان الغرق يتحركان في كل الاتجاهات تحت خطر انقلاب القارب والتعرّض للغرق. لمرتين أو ثلاث شوهدت بعض البهائم ترمي بنفسها في الماء، وقد رفعت خراطيمها فوق مستوى المياه؛ وعندما تصل أخيراً إلى الضفّة ترسل أصواتاً طويلة خاصة وتعجّل للعثور على رفاقها تتمسّح بها خائفة. بعد أن تهدأ الفيلة يقترب منها الفيالون ويقدمون لها الطعام مع كلمات لطيفة ومشجّعة. تتكرّر المحاولة عشرات المرات لتتمكن جميع الفيلة من العودة إلى الضفة المقابلة. عندما حل المساء كان الجيش القرطاجي كلّه قد اجتاز نهر الرون. لم يَشكُ من خسارة إلا بضع عشرات من الرجال من العناصر غير المتقيّدة بالنظام. بعض الجنود غير الواعين للخطر رفضوا أن يلزموا الطوّافات وراهنوا بقسم من أعطياتهم أن بإمكانهم السباحة من ضفة إلى أخرى بقوّة أذرعهم. هلكوا جميعاً سواء، لأن الدوّامات النهرية قد أغرقتهم أو لاستنفاد قواهم بما بذلوه من جهد.

لاحظ الفرسان الرومان المرسلون بمثابة كشّافين اجتياز نهر الرون من قبل تلك الكتلة الهائلة من الرجال والحيوانات، فتملكهم الإعجاب والرعب، وقد فضل ضباطهم الهرب عندما انطلقت بعض

الدوريات النوميدية تلاحقهم. الواقع أن الخوف لم يكن ملهمهم الوحيد. بالنسبة لهم، يجب عليهم بأي ثمن، تجنّب الأسر أو الموت، والعودة بسرعة إلى معسكر بوبليوس كورنيليوس لإنذاره بالإنجاز الذي حقّقه هنيبعل، ونصحه بالوصول إلى إيطاليا عن طريق البحر.

لم يفهم بعض الفرسان الرومان الشباب من الطبقة الأرستقراطية التصرّف بهذه الطريقة فعملوا على مخالفة الأوامر الموجهة لهم، وجابهوا ببسالة النوميديين مخلّفين وراءهم مئتي قتيل. خسر الرومان بدورهم مئة وأربعين رجلاً، إضافة إلى الجرحى وإلى محاصرة الفرقة التي يقودها سيبيون. اتخذ هذا بسرعة الاجراءات اللازمة: هذه الأحداث التي لا سابق لها شجعت هنيبعل الذي أحس بقوته فعاف طريق الساحل وسلك الطريق الهرقلي. لم يكن هذا افتراضاً بسيطاً. تمكّن أحد الجواسيس القادرين على التسرب عبر المعسكر القرطاجي، الذي استطاع مغادرته مستفيداً من الظلمة، أن يكون شاهداً على خطاب وجهه الجنرال القرطاجي إلى رجاله قبل أن يتخذ طريقه باتجاه الشمال. اهتم بطمأنة جنوده حول الاستقبال الذي يحتفظ لهم به عند الجهة الأخرى من الألب. قدم لهم ماجيلوس سفير الغاليين الألبيين المنتدب من قبل رفاقه البويين في الثورة التي تكتسب مزيداً من الأراضي يومياً. واستأنف هنيبعل الكلام بعده وهو يزن كل كلمة من كلماته. هو يعلم أن جنوده سيجتمعون عند المساء حول النار وسيشيرون بأصابعهم إلى الارتفاعات الواجب تسلّقها؛ وسيصبون جام غضبهم على قائدهم ويتهمونه باللامبالاة بحياة رجاله. أبداً لم يتجرأ هميلقار وهو الأكثر جرأة على التصرّف بتلك الطريقة. كان بإمكانه أن يأتي من قرطاجة بخماسيات مجاذيف وثلاثيات تنقل قوّاته حتى المرافئ الليغورية، لكنه لن يتحدّى غضب الآلهة بمحاولة اغتصاب القمم الثلجية المؤديّة إلى مجالاتهم.

كان معتزماً توقّي جميع المحاذير، خاصة التمرد والفرار من

الجيش. نافس هنيبعل فصاحة البلغاء ليؤمن ولاء قواته، وبصوت يخالطه، حيناً التملّق وحيناً آخر السخط والإثارة، قال لهم:

ـ أيّها الجنود والمرتزقة. يصعب عليَّ الاعتقاد بالمخاوف المرعبة التي تتعلَّق باجتياز الألب، وهي دون شك إشاعات كاذبة يذيعها مروّجون يتمنون إلحاق الضرر بكم ويدفعونني إلى التخلّي عن الثقة المطلقة التي أوليها لكم. منذ أن استدعاني المأسوف عليه حسدروبال إلى جواره كنت شاهداً على بسالتكم وانتصاراتكم التي لا حصر لها. خضعتم بتسامح لسلطة قرطاجة مثل عشرات القبائل التي يقاتل محاربوها من الآن فصاعداً في صفوفنا واشتهروا عند عبور نهر الرون. وعندما لامتكم روما على حصار ساغونت وطلبت من مجلس الشيوخ محاكمتي أُهنتم في كبريائكم وشرفكم، وكانت ردة فعلكم إجماعية: العدالة تتطلّب معاقبة هؤلاء الوقحين الأعداء المميتين لمجد مدينتنا. اجتزتم نهر الإيبر وقطعتم أكثر من نصف المسافة التي تفصلنا عن إيطاليا، وأنتم تسيرون تحت شمس حارقة أو تحت عواصف الصيف. لم تصدر شكوى من شفاهكم ولم تترددوا في الصعود إلى الزوارق والطوافات التي تروح وتجيء بين ضفتي الرون. أفضل من هذا ما كدتم تستقرون حتى هزمتم، بمساعدة فرق حنون، الفولسكيين. تأكدوا أن صدى هذا الانتصار تردّد في مسّاليا وقرطاجة وجميع موانئ البحر الكبير. الذين يتحدثون عنه لا يترددون في إجزاء المديح لكم. قريباً سيصل موفدون من الوطن الأم مكلّفون بتوزيع الهدايا، وجوائز التقدير للمستحقين.

«تصوّروا خيبة أملهم عندما يعلمون أن الرجال الذين يعتزون بهم قد جمّدوا خشية اجتياز جبال الألب. اعترف بالتأكيد أن هذه الجبال أعلى من البيرينيه غير أنّها بعكس الاعتقاد السائد لا تصل إلى السماء، ولن يجازف أحد منكم بالتغلغل في مجالات الآلهة بالكسر أو الخلع. هذه الارتفاعات التي يُزعم برهبتها تُسكَنُ وتستثمر من قبل قبائل لا تخاف من البقاء فيها طوال السنة، صيفاً

وشتاءً. هل تعتقدون أن ماجيلوس موفد البويين قد حضر محلّقاً فوق جبال الألب؟ في السابق اجتاز أسلافه مع نسائهم وأولادهم وقطعانهم وعرباتهم تلك الكتلة الجبلية، هل اجتازوها على متن طيور عملاقة؟ هل ستظهرون عجزكم عن تقليدهم، أنتم يا من تعتبرون أفضل جنود العالم.

ارتفع صوت بين الجمهور قائلاً: كان بإمكاننا أن نأخذ الطريق الساحلي.

ـ في الواقع هناك ينتظرنا الرومان الملاعين ولا أريد أن أوفر لهم هذه المتعة. لا أريد مجابهة قواتهم ما دمنا لسنا فوق الأرض الإيطالية. علينا ادّخار كل قوّتنا ومفاجأتهم في سهل البو. هناك سنكنس رجال بوبليوس كورنيليوس سيبيون وسيكون طريق روما مفتوحاً أمامنا. من أجل هذا يجب اجتياز معابر الألب، وأنا أعلم قدرتكم على ذلك ببذل بعض التضحيات. لتخرس إذن التمتمات العابثة والمهاترات! ليكن في رأسكم هدف واحد هو: مدينة رومولوس وثقوا بقائدكم الذي لم يخيب أملكم.

ارتفعت هتافات هائلة تحيي عباراته وقطع الجنود الموضوعون في الصف الأول التراصف، وفي تزاحم فرِح أحاطوا بقائدهم وتفرّق الرجال الآخرون وهم يشددون على اسم هنيبعل ويضربون بسيوفهم على مجنّاتهم، وارتفعت عقيرة الإيبيريين والبليار بالأناشيد الحربية. توزع الفرسان على مجموعات صغيرة وارتجلوا عشاء للمناسبة. سادت الفوضى المحمومة بين الجماهير وتركهم ابن هميلقار يتصرفون كما يحلو لهم، كان واثقاً أن وحداته المختارة قد أقامت حراسة مشدّدة لصد كل هجوم مضاد، إنّما لم يكن ثمة داع لهذا الحذر فقد أنبأه أحد جواسيسه بالنوايا المعتمدة من قبل بوبليوس كورنيليوس سيبيون الذي أسرع لمغادرة معسكره المجاور لمساليا وأبحر إلى ليغوريا، غير أن قسماً من رجاله توجه

بقيادة أخيه كنايوس نحو إيبيريا في مهمة محاصرة الحامية القرطاجية التي عهد الأخ البكر برئاستها إلى حسدروبال الشاب.

* * *

بعد عدة أيام من الاستراحة بدأ هنيبعل رحلته متغلغلاً في منطقة الألوبروج وقد كانت مسرحاً لحرب أهلية خفيّة. إنها قائمة بين سيّدها برانيوس وأحد أخوته. استمع إلى كل منهما، وأعطى ابن هميلقار رأياً مؤيّداً لمصلحة الأول ليس لأنه الوريث الشرعي للعرش بل لأنه يكنُّ حقداً مريراً للرومان. لاءمه ذلك القرار لأن ملك ألوبروج قدم له الأرزاق بسخاء وكذلك مئات من الفراء لجنوده. إنّها هدية ملائمة خاصة في بداية شهر تشرين الأول وقد بدأت أوائل الثلوج تتساقط على المرتفعات وتغطي الأرض ببساط أبيض رقيق.

وضع برانيوس تحت تصرف الجنرال البوني أدلّة اشتهروا بمعرفتهم للمرات الضيقة وإقامة علاقات ودية مع القبائل الجبلية، وهي بدورها ألوبروجية لكنها لا تعترف بسلطته الشرعية. تحت مطر خريفي جليدي، بدأ هذا السيل الضخم طريقه محاذياً نهراً ذا مياه صاخبة. كانت الخيالة والفيلة تسير في المقدمة، تتبعها عربات النقل وفرق المشاة الثقيلة. وتصادف هنا وهناك بعض القرى المنتثرة، وهي في الواقع بيوت بائسة من الحجر تنطلق منها خطوط حلزونية صغيرة من الدخان. كان الجنود، وقد ابتلوا حتى العظم يتخبطون في الوحل، ويتقدمون في صمت مطبق، منتظرين بفارغ الصبر محطة المساء كي ينصبوا أكواخاً من أغصان الشجر. توقّف المطر لحسن الحظ عندما بدؤوا بتسلّق أول المنحدرات الثلجية. امتدت أمام أعينهم مناظر مأساوية موحشة، حيث يمكن أن تُميّز فيها بيوت قذرةٍ معشعشة على الأوتاد. يحيا فيها الناس والبهائم في أدنى حالات الاختلاط، يرتدون جلود الحيوانات الغليظة ويتميّزون بقذارة بغيضة، وهم مصابون على الأغلب بتشوّهات قبيحة يلجؤون

إلى الهرب عندما يصادفون الجنود، ويرفضون أي اتصال مع الأدلّة الغاليين المرسلين من قبل هنيبعل للقائهم.

بعد مسيرة يومين وصل الجيش إلى مدخل ممر ضيق وتوقف لقضاء ليلته. بينما كان الرجال يتهيؤون ويَعدُّون الخيم، جمع الجنرال في خيمته قادته الرئيسين ليقرر الوضع الواجب اتخاذه. وفقاً للمعلومات التي جمعها الكشافون فإن الطريق الضيّق العابر للمكان تحيط به من جهة الجبال ومن الجهة الأخرى الوديان والمهاوي. والسكان الجبليون المعلّقون في أعلى المرتفعات يمكنهم في كل حين أن يدحرجوا كتلاً من الحجارة لينشروا الفوضى ويعيقوا تقدّم ألوية الجيش. يجب إذن إلزامياً التفاوض حول تعاونهم أو تكبيدهم هزيمة قاسية. انتهت المحادثات الجارية في اليوم التالي إلى الفشل. المقاتلون الذين اقتادهم الأدلة الغاليون إلى المخيم رفضوا باحتقار الذهب والفضة المقدّمين لهم، إنّهم لا يتركون أوكارهم إلا نادراً وينتجون كل ما يحتاجون إليه. لا يعرفون ماذا يفعلون بهذه الثروات وشرحوا بوساطة التراجمة لهنيبعل أن عليه مع أتباعه العودة من حيث أتوا. إذا نجحوا باجتياز الممر الضيق فهذا يعني انتهاء الحياة القاسية والبسيطة التي يمارسها السكان البدائيون وهم أقرب إلى الحيوان منهم إلى الإنسان. بعد الجنود يأتي التّجار والفلاحون الباحثون عن الأراضي أو الحرية، وهذه مجازفة لم يرد هنيبعل الخوض فيها. استمع إليهم القائد البوني دون إظهار أيّة عاطفة، لا يمكن الحصول على شيء من هؤلاء الناس المحدودين والحمقى الذين يمكن أن يُلحقوا أخطاراً جسيمة بقواته. بعد أن صرف الناطق الرسمي باسم الجبليين أمر بعض الجواسيس بملاحظة حركات العدو، فلاحظ هؤلاء أن خصومهم المترقبين على مرتفعاتهم يقيمون الحراسة نهاراً غير أنهم يلتحقون بمنازلهم مع حلول الليل دون إقامة حراسة أو تسيير دوريات. فقرّر ابن هميلقار اللجوء إلى عملية استراتيجية.

عندما غلَّف الليل تلك الجبال المعزولة سيَّر أفضل جنوده، وخاصة المرتزقة الإيبيريين، وأمرهم بالتسلق فوق المنحدرات بصمت وإشغال الأمكنة العالية الواقعة أعلى من مدى رؤية الألوبروج. في الصباح الباكر أعلن النفير بقرع البوق في المعسكر القرطاجي. فتحرّكت عدة مئات من المشاة والفرسان، واتخذت العربات مكانها في الوسط، تحركت هذه الكتائب ببطء وهي تخترق الممر الجبلي، وللحال عمد الجبليون إلى دحرجة كتل الحجارة على طول المنحدرات وزرعوا الرعب في الصفوف البونية. أسرع الرجال والخيول والعربات إلى المنحدرات أو هربوا في فوضى وهم يسحقون في طريقهم الجرحى والمتخلفين. اقتنع المعتدون بحصولهم على النصر فتخلوا عن مواقعهم وسلكوا عند نزولهم الشعاب الضيّقة المعروفة من قبلهم، فقط لينهوا قضاءهم على المحتضرين والاستيلاء على أسلحتهم. عندها بدأ المرتزقة الإيبيريون غير المنظورين في حينه حركتهم وهم يطلقون صيحات الحرب التقليدية. فانصبوا على الألوبروج بينما عاد المشاة الذين نجوا من الحجارة بسرعة وانتقموا لرفاقهم الأقل حظاً منهم. لم يبال هنيبعل بنصائح الحذر التي أسداها له قادته فاختلط بالجماهير يقتل أو يجرح جميع الأعداء الذين شاء سوء حظهم أن يوجدوا في طريقه. قُضي على الأحياء من قبل جنود أسكرهم مرأى الدم ولم يبالوا بتوسلات الجرحى. ودون هدر الوقت بدفن الموتى أمر الجنرال قواته باجتياز المضيق. طيور كاسرة وحيوانات متوحشة وجدت طعامها من جثث المقاتلين والخيول المطروحة على جوانب الوهدات. انطلق الفرسان النوميديون في مقدمة الركب واستولوا على قرية تخلّى عنها سكانها، وتوقفوا عندها ثلاثة أيام يتغذون من الأقوات التي وجدوها في الأقبية وعنابر المنازل. لم يعمد القرويون إلى اصطحاب بهائمهم، وبذلك استطاع القرطاجيون أن يحصلوا ويعوضوا كامل البهائم التي خسروها خلال ذلك الكمين.

تابع ابن هميلقار طريقه مغادراً أراضي الألوبروج... حضر إليه الرؤساء المحليون يعرضون خدماتهم ويقدمون له رهائن لضمان ولائهم. ومع أنه قد أَلِف هذه الخدع والمراوغات، وهو فنّان برع فيهما، انقاد الجنرال الشاب لمظاهر تلك الصداقة ونسي أن يتحقّق من هوية الأسرى الذين يحتجزهم. هم بالنسبة إليه أبناء أو أبناء أخوة الملوك الغاليين، والواقع إنهم أبناء عائلات بائسة سُلّموا من أهلهم المساكين لقاء بعض مكاييل من القمح، ولن يبكيهم أحد إن اضطروا لتسديد خيانة أسيادهم. حرص الأدلّة الغاليون المعيّنون من براينوس الذي عرفوا حيلهم أن يكتموا أمرهم فحصل ما وجب أن يحصل لهم: فبينما كانوا يجتازون أحد الممرات الجبلية الضيقة هوجمت طليعة القوات البونية، ومؤخّرتها. هرع النوميديون لنجدة العربات بينما المشاة الذين يشكّلون مؤخرة الجيش يدفعون ببسالة غضب مئات من المقاتلين ذوي الأسلحة البدائية المدفوعة بهياج حقيقي قتّال. كانوا يحرّكون السيوف والأوتاد ويضربون كيفما اتفق، وقد نجحوا في فصل الجيش إلى قسمين غير أن حلول الليل حمل استراحة منقذة. مع الفجر استغلّ زوج إميليسي نوم الجبليين فأخرج جنوده من المضيق. خسر في الطريق عدداً من البهائم، بعد أن دفعهم سائقوهم مستخفين بالمحاذير، وقد تعثروا بأخاديد رخوة تحيط بالطريق، وسُحقوا بضجّة مكتومة على الأرض المفروشة بحصى حادة.

استمد هنيبعل من ذلك الكمين درساً ثميناً: الجبليون لا يهاجمون الفيلة فمرآها وحده يدفعهم إلى الهرب. لذلك وزّع تلك البهائم على طول القافلة مما أوهن عزيمة المقاتلين الأعداء. إضافة إلى شعورهم بالرضا بسبب الاجراء الحكيم الذي صدر عنه: حرّر جميع العبيد الرهائن المرتهنين لديه آخذاً بعين الاعتبار أصلهم الوضيع. فانطلقوا يحملون بعض الهدايا وحكايات عن شجاعة القرطاجيين وعدم إمكان قهرهم. كلّف الأسرى المحررين برسالة لأولئك الذين حاولوا إعاقة تقدمه، هي بأنه يفهم حرصهم على

المحافظة على استقلالهم ضمن منعزلاتهم المتجمدة، وكان يشك كثيراً في قيام قائد غيره، فيما بعد، بفعل ما فعل.

لم يشعر بأي حقد بسبب الخسائر القاسية التي لحقت به. الواقع أن العقاب العظيم كان موجّهاً ضد أدلّته الغاليين بعد أن كشف مناورتهم. عدا عن أنهم لم يفشوا سر الخدعة المحاكة من قبل مواطنيهم، فإنهم ما فتئوا يؤشرون إلى طرقات مزيفة تقود الجيش إلى وديان تنتهي بطرق مسدودة وتضطرهم إلى العودة من حيث أتوا. هذه الحركات المتكررة أرهقت الجيش ودفعته بحق إلى عدم الانتظام. أراد ابن هميلقار عندها أن يرضي رجاله فدعا جميع الأدلة ووجّه إليهم التوبيخ المناسب؛ وما إن اجتمعوا تحت خيمته حتى جرّد الحرس النوميدي خناجرهم وقتلوا ثلثهم. نبّه الباقون إلى أن مصيراً مماثلاً ينتظرهم إن لم يمتنعوا عن مظاهر عدم الولاء.

* * *

أعطى الدرس ثماره وقاد الغاليون هنيبعل ورجاله إلى ممر جبلي زاعمين أن إيطاليا موجودة خلفه. أقاموا معسكراً بسرعة وتمكن الرجال خلال يومين أن يستريحوا ويضمدوا جراحهم. رؤي شيئاً فشيئاً وصول رهط من المشاة اعتُقد ضياعهم، غير أنهم في صميم المعركة تغلغلوا في الغابات وتاهوا محتفظين بأمل العثور على القسم الأعظم من الجيش. على طول رحلة تغربهم المحفوفة بالمخاطر استردّوا خيولاً وبهائم هجرها فرسانها وسائسوها. كان لهذه المساعدات أهميتها؛ فمنذ اجتياز نهر الرون فقد هنيبعل أكثر من خمسة عشر ألف رجل، منهم عدد من المرتزقة الإيبيريين الذين عُدَّ غيابهم صدمة قاسية في المعارك القادمة.

صباح اليوم الثالث بدأ الثلج يتساقط بشكل ندفات ثخينة. اعتبره كثيرون بادرة شؤم لأن هذا التغيّر في الطقس يتطابق في السماء مع كوكبة الثريا المكرّمة خاصة من الفينيقيين. بالنسبة

لهنيبعل، الذي يسخر في مجلسه الخاص من هذه التشاؤمات الحمقاء، غير أنه لا يُعلِن عن أيّ منها جهراً، كانت الفترة حاسمة. يجب أن يجتازها مهما كلّف الأمر. بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على أبعد حدّ سيتغطى المعبر بطبقة ثخينة من الثلج ويغدو غير صالح للعبور. ارتعش خوفاً خشية أن يفرض على جنوده أمراً بالتراجع وسط القبائل المعادية. كلا لا يستطيع التراجع، إنه لا يجد سبيلاً إلى النوم ليلاً، ولأوّل مرة في حياته يشعر أنه في موعد مع القدر وهو يشعر أن على كتفيه حملاً ثقيلاً. على نجاحه يتوقّف مستقبل مدينته قرطاجة التي تتراءى له بشوارعها وحقولها الممرعة المتباينة مع القمم الثلجية المتطاولة حتى السماء. عندما مَثُل في الصباح الباكر أمام رجاله لم يحتج إلى إلقاء الخُطَب، فكل واحد أدرك في ذلك اليوم أهمية الرهان.

لتسلق المنحدر المغطى بالجليد حيناً، والموحل حيناً آخر، حرص الفرسان على تأمين موطئ قدم مؤقت لهم. داعبوا أعناق خيولهم وقادوا بحذر خطواتها. كان المشاة قد تجمّعوا في زُمُر صغيرة من مئتي شخص، والضباط يتجولون بين صفوفهم لانتقاء الأكثر صلابة وقوة. هؤلاء سيعملون على حمل معدات رفيقين أو ثلاثة من رفاقهم إضافة لما يحملون من تجهيزات. وعلى هؤلاء المتحرّرين من أثقالهم الانتقال إلى قرب عربات المعدّات والأقوات استعداداً لدفعها عندما تنغرز دواليبها في التربة المبلّلة بعد غياب الطبقة الرقيقة من الجليد. أما الفيلة فهي تسير ببطء متشجّعة بأدّلتها الذين تلقوا الأمر بعدم إجهادها. كانت أنصبة العلف المقرّرة لكل فيل توشك على النفاذ ولن تدعّم قبل الوصول إلى إيطاليا. في الطريق يجب عدم الاعتماد على أعشاب المروج النادرة أو المخبوءة تحت الثلوج وليس على أوراق الأشجار المتوزعة في مناطق لا يمكن الوصول إليها. ما إن بدأت تلك الكتلة البشرية بالسير قُدماً حتى وقف هنيبعل في مؤخّرة الجيش يراقب، وقد انعقدت معدته، ذلك الكمّ

الهائل من الخلق المماثل لكتلة واسعة تنتشر فوق قطعة من نسيج. ما أثار اهتمامه خاصة هو ذلك الصمت الثقيل المسيطر على القوم في صعودهم. الرجال، المتوتّرون بجهودهم، لا يوجّهون حتى كلمات التشجيع والبهائم لا تريد إجهاد نفسها دون جدوى، تبدو متماسكة دون الصهيل أو النهيم(*). أفعى طويلة صامتة تزنّر الجبل وتَجْهَد لوصول قمّته في منتصف النهار.

لم يستطع الجنود الأوائل الذين وصلوا إلى أعلى الممرّ الجبلي أن يخفوا دهشتهم أمام المشهد الغريب المتجلي لأعينهم. أمامهم تتمطى إيطاليا وسهل البو تداعبهما إشعاعات شمس الشتاء الأخيرة؛ وفي المدى اللامحدود تلاحظ حقول حسنة الرعاية ومدن وقرى مزدهرة ينعم سكانها بدفء الشتاء وقد لزموا مساكنهم المريحة. لم يستطع هنيبعل، وقد أخفى انفعاله، أن يمتنع عن مخاطبة قواته وبعد أن هنّأهم على بسالتهم، وعدهم بالانتصار على البويين. خلال عدة أسابيع سيكون أمام أسوار روما بعد أن يسحق قوات بوبليوس كورنيليوس سيبيون، ولن يجد سوءاً في سحله إذ من يستطيع الوقوف في وجه عابر الألب بعد سلوكه الطريق الهرقلي؟

اعتُبرت هذه العبارات المطمئنة ترحيباً حتّى لو وجد بعض الضباط بأنه قد صرّح بها في وقت مبكر. ذلك لأن الآلام التي تحملها جنوده منذ عبور نهر الرون لا تعد شيئاً أمام تلك التي ادخّرها لهم نزول السفح الإيطالي. بالتأكيد ما من شك بهجمات القبائل الجبلية المعادية له، غير أن الطبيعة من الآن فصاعداً هي التي تشكّل العدو اللدود، الأشد شراسة للقوّات. لم يتأخروا في فهم ذلك غداة تلقوا الأمر بأن يسيروا في الطريق. في البدء تقدّمت الطليعة بسهولة تزيح بأقدامها الثلج المتحول بسرعة إلى وحل أسود إنما وجب أن تتمهل في خطواتها، فالرجال والبهائم يتعثرون في الثقوب وآثار العجلات

(*) النهيم: صوت الفيلة.

غير المنظورة، ومن يسقط منهم يجرُّ بدوره رفاقه الذي يصيحون رعباً قبل أن ينسحقوا في أسفل الأخاديد. خلال دقائق خسر الجيش مئات من الجنود الأشداء قضوا يتأوهون دون إمكان مساعدتهم.

استدعي هنيبعل إلى رأس ذلك العمود البشري، فأعطى الأمر مباشرة بإيقاف تقدمه. بأيديهم العارية وخوذاتهم وقف المشاة يزيلون عوائق الطريق قبل أن يستأنفوا سيرهم غير أن عائقاً غير متوقع أوقفهم بشكل كلي، كان الطريق منتهياً بزقّاق مسدود. في هذه المرة لا يمكن أن يُنسب الجرم إلى خبث ودهاء الأدلّة الغاليين. فمنذ مرورهم الأخير في ذلك المكان حدث انهيار في الأرض مردّه المطر الشديد. انزاح الجبل إلى علو يفوق عشر ستادات مفسحاً المجال لبطانة شديدة الانحدار يتعذر اجتيازها. عاد الجنرال البوني أدراجه، فهو يريد الانفراد للتفكير بحل سريع لهذه المشكلة المؤسفة.

قام بعض الضباط يدفعهم حماسهم، خلال غيابه، بتوجيه الأمر إلى رجالهم بالتحول إلى يمين ويسار الصدع. كان هذا أسوأ حل يمكن أن يحدث، إذ أن صفائح من الجليد الرقيق كانت تختفي تحت طبقة الثلج الرقيقة. انغرزت الحيوانات والعربات بعمق في الوحول الجليدية وغدت أسيرتها. حاول الفرسان والسائقون إثارتها بمهارة بوساطة أسواطها النوميدية القصيرة فلم تتحرّك الخيول والحيوانات قيد بوصة وكأنها مشدودة بروابط غامضة تخرج من الأرض لتعبّر عن غضبها. قام الضباط الشباب قليلو الخبرة بإعطاء أوامر إلى المشاة للالتفاف وتجاوز القافلة المتوقفة. فاضطر الجنود المشاة للتنفيذ بتأفّف وتمّت رؤيتهم آنذاك ينزلقون بدورهم على رقاق الجليد ولا يستطيعون إيقاف سقوطهم رغم تمسّكهم عند سقوطهم، بأغصان بعض الشجيرات العجفاء المتناثرة في الجوار أو على بعض تعرّجات من الجدار الصخري. هناك أيضاً قدّر عدد الضحايا بالمئات إلى أن عاد هنيبعل ووجّه لوماً شديداً للمسؤولين

عن تلك الكارثة، وأمر الأحياء بالتجمّع في الساحة الواقعة على بعد بعض مئات الأمتار من المكان حيث ينتظره معظم جيشه.

بينما كان الجنود يقيمون ببعض صعوبة معسكراً بدائياً، انصرف رئيسهم للتفكير، فأشرقت عليه الفكرة مثل استنارة. عادت به الذاكرة إلى سنوات حداثته ومراهقته، عندما وصل إلى قرطاجنة، حيث كلفه صهره حسدروبال بإنهاء بناء المدينة. قضى أشهراً يرسم الشوارع بالحبال ويبني الطرقات المُوجّهة إلى عاصمة الإمبراطورية البرقاوية في إيبيريا. كان معقله يقع فوق كتف جدار صخري بمثل علو الجدار المنتصب أمام هنيبعل، وقد حفر في الصخر نفسه طريقاً يؤدي إلى أبواب السور الحصين.

إنه يجد نفسه الآن يجابه مشكلة معمارية ومشكلة أشغال عامة. هذا الجبل هو على الأكثر امرأة أسيرة يجب أن تذعن لإرادته الحديدية. بلهجة حازمة أمر رجاله بقطع الأشجار الموجودة في الغابة المجاورة وجرّ جذوعها حتى حافة الجدار. هناك ستكون تلك الجذوع مرميّة في الفراغ لتشكل محرقة عملاقة. في الصباح الباكر وبينما ريح شديدة بدأت تزمجر، وتجمّد الجنود حتى العظم، أمر هنيبعل بإطلاق عشرات من المشاعل الملتهبة على كتل الخشب، ارتفع في الحال عمود من اللهب إلى السماء محولاً الصخر الى جمر. عندما رأى هنيبعل الصخر محمراً ومتوهجاً صبَّ عليه كمية هائلة من الخلّ. كان جيش الأرياف يحمل دائماً براميل عديدة منه، لأن الجيش يستخدمها ممزوجة بالماء ليصنع منها بديلاً عن الخمر. هنا يمكن لخواص الخلّ أن تجعل الصخر سهل التفتت. أمضى هنيبعل ليلته يعمل على تبريد الحجر وجمع جنوده الذين عملوا تحت إمرته في بناء قرطاجنة، وقد تسلّحوا بالمعاول والعدد الثقيلة لمهاجمة الجدار الصخري عاملين ليل ونهار على ضوء المشاعل. توصلوا خلال أربعة أيام وبعد جهود مضنية لشق طريق متعرج بعرض يسمح بمرور الفيلة والعربات.

خلال هذا الوقت، بلغ التوتر ذروته في المعسكر حيث الرجال يرتاحون. بدأت الأقوات تنقص وهدّد الجوع الحيوانات التي غدت فجأة عصبيّة لا يجسر أحد على الاقتراب منها. حلّ الفرح على الجميع في صباح اليوم الخامس، عندما ضجّت الأبواق معلنة الرحيل. على مرحلتين وصل الجيش الكبير إلى السهل. حلّ الجنود في المرفأ الأمين وقد علا هتافهم اللامتناهي لهنيبعل، الذي وُصِف منذ ذلك الحين بأنه الرئيس الكبير في جميع الأزمنة. تغلّب الاسكندر على الملوك وعلى الجيوش، غير أن ابن هميلقار، وقد اعتاد على تلك الأعمال الباهرة، انتصر أيضاً على الطبيعة وعلى العقبات الرهيبة التي اعترضت طريقه. اقتنع الجميع الآن: أن روما ليست بالحجم الذي تصارع فيه مثل هذا الخصم وهزيمتها محتمة، مُسجّلة بين الكواكب ومتطابقة مع إرادة الآلهة.

الفصل الثالث

بينما كان رجال هنيبعل يأخذون عن استحقاق في معسكراتهم الشتوية المعدة على عجل، قسطاً من الراحة، كان قائدهم مفعماً بالنشاط. تسارع الرسل من جميع القبائل في البلاد الغالية الألبية، لدعوته إلى ضم قواتهم ومقاتليهم تحت راية قرطاجة. كان تحالفه معهم بالنسبة له قضية حياة أو موت تتعلق بها سائر العمليات. خلال عبور الألب فقد ابن هميلقار عشرات آلاف الرجال والبهائم. بقي لديه عشرون ألفاً من المشاة وستة آلاف فارس، أي ما يعادل ربع الجيش الذي غادر قرطاجنة. كانوا بالتأكيد محاربين أشداء لأنهم مارسوا الحروب غير أنهم قليلو العدد لمجابهة الجيش الروماني المرسل على عجل ليقطع عليهم الطرقات. عاد بوبليوس كورنيليوس سيبيون إلى منطقة مسّاليا بحراً، ووصل الى بلاسنتيا لتولّي قيادة قوّات كايوس أتيليوس سرانوس ولوسيوس مانيليوس فولسو اللذين انحطت معنوياتهما بهزيمتهما أمام البوبيين. هو بدوره أرسل رسلاً إنما لغير الغاليين الذين يحقد عليهم كالطاعون، كما أن زميله تيبريوس سمبرونيوس لونغوس المستمرّ في ليليبيه يستحثه على مغادرة صقلية بأسرع ما يمكن والوصول إلى أريمينوم وإجراء مسيرة إلزامية نحو الشمال.

كان الجنرال البوني يعرف أن عليه توحيد البلاد الغالية والإيطالية وضرب العدو قبل أن ينضم إليه القنصلان. بعد أن

استشار ضباطه قرّر أن يضرب العاصمة التورينية(*) التي استولى عليها بعد ثلاثة أيام من الحصار، وأعمل القتل ذبحاً بجميع سكانها دون تمييز في العمر أو الجنس. انتشر الخبر في جميع المناطق المجاورة: على معارضي القوات القرطاجية ألا يأملوا أو ينتظروا أية شفقة أو تسامح من قِبل رؤساء هذه القوات.

خلال هذا الوقت، كان بوبليوس كورنيليوس سيبيون، الذي فقد الأمل من وصول المساعدات المرجوة، قد عبر نهر تيسن على جسر من خشب أُعِدَّ سريعاً. وأقام معسكره على بُعد بضع عشرات من الستادات. رأى للحال جيش هنيبعل ينظم قواته على عطفة من سهل البو. الحرب التي ستدور رحاها بين الجنرالين تتخذ طابعاً غير متساو. إن هُزم الرومان بإمكانهم اجتياز التيسن واللجوء إلى بلاسنتيا لقضاء فصل الشتاء. وإن عاكس القدر ابن هميلقار فإن عليه انتظار الربيع وسط شعوب معادية له قبل أن يصل إلى إيبيريا. عمد الطرفان إلى إثارة قواتهما. كانت المعركة بالنسبة لسيبيون تمريناً مشكوكاً بنتائجه: هو خطيب ضعيف، فعندما جمع قواته تحت رذاذ مطر خفيف كان عليه بذل جهد كبير ليلقي عليهم بعض الكلمات، قال:

- أيّها الجنود ستجابهون غداً عدواً تمكن آباؤكم من قهره، وسبق لنا أن انتزعنا منه صقلية وسردينيا قبل إلزامه بدفع فدية غالية خلال عشرين عاماً من سيطرتنا. إنّهم زمرة من المغلوبين الذين يظهرون أمامكم، إنّما بأية حال! تصور قائدهم إمكان عبور جبال الألب بسلوك الطريق الأكثر طولاً وقسوة، الطريق الهرقلي. خلال هذه الحملة فقد القسم الأعظم من معداته وعتاده. وفقاً لتقارير جواسيسي، القرطاجيون منهكون من التعب، ويتألمون من البرد، وهم المتعوّدون على المناخ المعتدل. صدئت أسلحتهم وانتاب

(*) قبيلة تعيش في منطقة تورينو أعداء الأنسوبريين، حلفاء قرطاجة.

العجز خيولهم فضعفت وانتابها الهزال فلا يرضى بها أحد منكم حتى لو عرضت عليه هدية دون مقابل.

«هذا هو عدوكم؛ واعلموا أنني مهتم بانتصاركم. رعب واحد يمتلك قلبي: فكرة أن يغدو الألب تحت سيطرة غزاة دون رحمة أو إيمان، مستعدين لنقل الدمار إلى وطننا. هذه الجبال الأبيّة أبقت قسماً صغيراً منهم لتؤمن لكم وسيلة سحقهم، والعودة إلى منازلكم وعائلاتكم مثقلين بالفخار والغنائم. قدّروا الحظ الذي ابتسم لكم: من شجاعتكم وإقدامكم تستمد روما مجدها وخلاصها ومستقبلها. تناقلت الأجيال الأحاديث بكثير من الإعجاب في ساحات روما العامة عن جنودها الذين يسحقون نهائياً ألد أعداء مدينتنا. لا تتركوا فرصة استحقاقكم لاعتراف مواطنيكم ومجلس شيوخكم بفضلكم تفوتكم. بعد الانتصار سنقدم الشكر للآلهة بتقديم عدة أضحيات لهم. لتكن أضحياتكم جثثاً لا حصر لها من أعدائكم البونيين ومرتزقتهم.

أطلق الحاضرون على هذا الإعلان المنطلق بلهجة قاتمة وجافّة بعض هتافات خامدة. وفي المعسكر المناوئ كانت تسود بالعكس فرحة حقيقية. قبل أن يفرض هنيبعل خطاباً طويلاً على قوّاته، وضعهم في ترتيب دائري لمكافأتهم ضمن مشهد قتال فردي، مبارزة حتى الموت، بين جبليين وقعوا في الأسر خلال عبور الألب. سيتلقّى المنتصر عدا عن حريته حصاناً وشكّة سلاح. سيلتقي الآن أول فريق غالي، مبارزة بالسيف، كان الأوّل طويل القامة، أشقر اللون، والثاني صغير ذو شعر أسود منعقد بشريط خلف عنقه. أمام هتاف الجماهير المصفقة للفائز والمراهنة عليه بأُعطية شهرها أو بقسم من غنيمة المستقبل، نشب العراك بين الخصمين فكانا مثل أسدين ضاريين يتدحرجان على الأرض المبلّلة مرات عديدة، ورغم أخوّتهم السلالية كان كل منهم يصارع بقنوط اليائس من أجل الحياة. أبدى المقاتل الأشقر بسرعة علائم التعب فخصمه المتميّز بخفّة لا تُصدَّق أجبره في الواقع على الانتقال دون انقطاع واستنفاد

قواه. رؤي فجأة العملاق الكبير ينزلق من جديد على الأرض دون أن يستطيع النهوض والغالي الآخر ينقض عليه ويحزُّ رأسه ويرفعه في الهواء، وهو يطلق صيحة رهيبة، وقد شرع في القيام بخطوات راقصة. عندما قدّم ابن هميلقار للفائز مطيّة مسرجة كاملة العدّة صدرت عن جماهير الأسرى الآخرين هتافات مدويّة، حتى أن بعضهم قفز عنوة إلى حلبة القتال ليجابه منافسين آخرين لا رحمة في قلوبهم مما أوقع أرضاً نحو مئة مصاب.

عندما وصلت استثارة الرجال إلى قمتها نهض هنيبعل وأسكتهم بإشارة من يده قائلاً:

ـ ظننتم أنكم تحضرون حفلة لعب. هؤلاء الأسرى في الواقع لم يقدّموا لكم مشهداً عادياً، إنّما صورة وضعكم الحاضر على حقيقته. بالتأكيد لستم مثقلين بالسلاسل مثلهم إلا أن جبال الألب والنهر هي القيود التي تقيدكم وتضعكم تحت رحمة الرومان. ماعليكم لأجل التخلّص منها إلا خيار الانتصار أو الموت، مثلما فعل هذان المقاتلان الغاليان.

«عشت منذ سنوات في وسطكم، وأنا أعلم أنكم لستم أقل شأناً منهم، فيا جميع القرطاجيين البواسل. وأنتم ياحلفاءنا الإيبيريين والسلتيين لا تفكروا إلا بشيء واحد: عندما ستسوء الحالة بحيث تنقطع الجسور بين الانتصار أو الموت يجب الانتصار أو في أسوأ الأحوال الحصول على الخلاص في المعركة لا في الهرب. فإن كنتم تؤمنون جميعاً بهذا الحل فنحن مع النصر على موعد. ازدراء الموت خير وسيلة منحتها الآلهة للرجال، لكسب الحرب.

«اطلبوا الموت لتستحقوا الحياة التي تعرضها لكم قرطاجة، فمن الظلم ألا تكافأ بسالتكم كما تستحق. نتيجة لتلك المعركة سيتلقّى كل منكم أرضاً إمّا في أفريقيا أو في إيبيريا أو في إيطاليا. حتى لا ينسى أحد الفضل العميم الذي حوّلكم ملّاكاً ملكية ستبقى إلى الأبد معفاة من الضرائب، بحيث أن مجدكم سيتفجّر مجدّداً على أبنائكم

وأحفادكم دون أن يستطيع أحد الجباة إزعاجهم بمطالبة نالت عفواً ملكياً. أولئك الغرباء بينكم سيغدون مواطنين في مدينة إليسا، مع جميع المزايا التي ستبرهن عليها مدينتي نحو العبيد الذين سيرافقونكم والذين سيتلقون ثمن عذابهم حريتهم الموعودة. لن تتعرضوا للغبن من قبل أسيادكم، وسيسمح لكل واحد من العبيد المحررين باختيار أسيرين من بين آلاف أسرانا.

هتف ماثو أحد القادة الليبيين: هنيبعل لا أشك بكلماتك لأنّك رجل نبيل وشهم، لكن من يضمن لنا موافقة مجلس المئة والأربعة على وعودك المقطوعة لنا؟ لن ننسى الجحود الذي قوبل به المرتزقة خلال الحرب السابقة.

- إنني أفهم ريبتك وأنا سعيد لجرأتك على طرح السؤال الذي يحرق شفتي كثيرين منكم. أطلب منكم الوثوق بي، وأقسم أمام ملقارت، إله آبائي، أن أصون هذا العهد. لقد حرصت على أن أضع إلى جانبي خروفاً وقطعة صخر مقتلعة من الألب. إذا لم تحصلوا على ما وُعدتم به فليحطم ملقارت عنقي كما أحطم عنق هذا الحيوان بهذا الحجر.

قرن ابن هميلقار القول بالفعل وقدّم لآلهته الضحية الموعودة. سال الدم من رأس الخروف قطرات صغيرة على الدرع المذهّب، بينما شكّل الرجال حلقة حوله، وحمله ماثو مع مجموعته وداروا به منتصرين.

زرعت صيحات الفرح الصادرة عن المعسكر القرطاجي الرهبة لدى الرومان، ولقي بوبليوس كورنيليوس سيبيون كثيراً من العناء في جمع مشاته وتهيئتهم للمعركة. عهد إلى قواده باستتباب الهدوء وعهد إلى فرسانه وقاذفي نباله الحارقة بلقاء خصومه. عند بدء القتال كان هنيبعل واقفاً وسط جيشه القرطاجي الثقيل المحمي من الجانبين بكتائب نوميدية قدّمها سيفاكس وماسينيسا. اصطدم الفرسان الرومان بتلك الكتلة البشرية المتراصّة، وعند تعذر اطلاق

سهامهم تراجعوا في فوضى نحو «الممرّات» المعدّة بين الوحدات التي أقامها سيبيون. عندها تدفّق النوميديون إلى يمين ويسار الخيالة الرومان يذبحون رماة الأسهم، ثم عادوا أدراجهم بسرعة البرق ليهاجموا مؤخرة الفرسان التي تراجعت أمام غضبة القرطاجيين الشرسة. جرح القنصل الروماني بشكل خطير بضربة نَبلٍ ولم ينجُ إلا بتدخل ابنه بوبليوس الشاب الذي لم يبلغ إلا الثامنة عشرة من عمره، عندما أخبره أحد العبيد الليغوريين أن والده إذا لم يُسعَف في ذلك الوقت سيؤخذ أسيراً. مع نحو مئة رجل اخترق الشاب خطوط العدو وتمكن من إخراج والده من الشَرك الذي أطبق بقسوة عليه، ما أن علم ضباط القائد بنجاة قنصلهم حتى أعطوا الأمر بالتراجع. مستغلين حلول الظلام المخيّم، عجّل الجنود الرومان بعبور الجسر المحصّن قبل إحراقه ولجؤوا الى قلعة بلاسنتيا.

دون استعجال الخطى كان هنيبعل يتابع تحركات جنده وهو يبحث عن معبر يتيح له أن يجتاز، ضمن شروط جيّدة، سهل البو وإقامة معسكر. غزي معسكره بسرعة من قِبَل جموع القادة الغاليين الذين حضروا يعرضون خدماتهم الآن وقد بدأ طالع الحرب ينقلب لمصلحة القرطاجيين. خلال عدة أيام تزايد عدد أفراد جيشه إلى عدة آلاف، اختار موقعاً لمعسكره العام بلدة كلاستيديوم(*) التي فتح له القائد أبوابها. كان هذا الأخير المسمى داسيوس يعود أصلاً إلى برنديزيوم(**) المتحالفة، حتى هذا التاريخ، مع الرومان وهو يحلم برؤية مواطنيه الجنوبيين يتخلصون من نير مدينة رومولس بوساطة البونيين. لمكافأته عمد ابن هميلقار بتقديم هدية سخية له وضمّ جنوده إلى فرقته مؤكداً لهم معاملته إياهم على قدم المساواة مع رفاقهم في حمل السلاح.

(*) هي اليوم كاستيغيو.

(**) هي بلدة برنديزي.

أقام هنيبعل مأدبة على شرف القائد المرتد، ودار حديث وديّ بعد أن جلس القائدان على سريرين فخمين يتداولان خلال الليل. قال القائد المنشق:

ـ أيّها النبيل القرطاجي، إنني سعيد من الآن فصاعداً لقيامي بخدمة جنرال تذكّر انتصاراته بالاسكندر، اسمح لي مع ذلك بإسداء نصيحة.

ـ إنني مصغ لك.

ـ حتى الآن سعيت إلى الاعتماد على الغاليين لأنهم قدموا إليك خدماتهم. إنك تعتقد أنّهم عسكريون جيّدون وهذا خطأ. بالتأكيد هم مقاتلون أشدّاء غير أن المعركة لا تهمهم. اعلم أن هؤلاء الخشنين لا يحلمون إلا بشيء واحد هو نهب المستعمرات الرومانية، ولا يفكّرون إلا بالذهب والفضة وينضمون إلى من يبدو أكثر كرماً معهم. علمت أن بعضاً منهم ذبحوا في معسكر سيبيون الجنود الرومان، الذين تجاور مضارب خيامهم ملاجئهم المصنوعة من الأغصان والأوراق، لقد فوجئوا أثناء نومهم وقطعت رؤوسهم وفقاً لعاداتهم غير اللائقة بأي رجل شريف. سيتقدّمون بعد قليل إلى مراكزكم المتقدمة، وهم يحملون هداياهم الحقيرة، فاستقبلهم بشكل لائق لكن احذر منهم فهم قادرون على تكبيد رجالك العذابات القاسية نفسها.

ـ مع ذلك هم الحلفاء الوحيدون الذين أعتمد عليهم حالياً.

ـ هذا هو خطؤك إن قررت البقاء شمال إيطاليا. أصدقاؤك الحقيقيون ينتشرون في الجنوب مثل لوكانيا وكامبانيا وبروتيوم. هناك توجد المدن القديمة التي أسسها الإغريق والشعوب الإيطالية التي تعاني من النير الروماني. هذا الاستعباد لا يمكن احتماله، خاصة عندما يمارسه هؤلاء الأجلاف غير المثقفين على هذه الشعوب التي أعطت عشرات من الشعراء والفلاسفة والعلماء والفنانين. إنهم يتذكّرون الطريقة التي عامل فيها أباؤكم أهل

صقلية عندما كانوا سادة تلك الجزيرة. لقد احترمتم تقاليدهم وآلهتهم وسمحتم لهم بالمحافظة على مؤسساتهم وقضاتهم. إنني متأكد أنّك عند دخولك إلى كامبانيا أو لوكانيا ستنهض هذه المدن وتطرد، كما أفعل الآن، الحاميات الرومانية وهي مكروهة من الجميع.

- خطتك جريئة وتستحق التفكير. وأنت تعلم أنني غير قادر على إعطائك جواباً فورياً.

- لا أطالب بمثل هذا. ومع ذلك، ومن أجل مساعدتك، اسمح لي أن أقدّم لك بدوري هدية في شخص فتاة شابة، إنها هيلين، صديقة زوجتي وهي تحلم بالتعرف عليك. إنها وافدة من أعرق عائلات تارنتم(*) ويشرفها أن تغدو صديقة لك. إنك رجل شجاع وحتى لو كنت متزوجاً على ما قيل لي من إميليسي، ومع ذلك لا يناسب عظمتك قضاء الليل في مرارة العزلة. سأنسحب وأتركك بمفردك معها. غداً ستبرهن لي ابتسامتك على أن هديتي قد راقت لك دون شك.

ترك داسيوس غرفة مضيفه حيث تسلّلت امرأة في العشرين من عمرها ترتدي ثوباً أبيض طويلاً يشده على قامتها زنار قطني مطرّز. هي ذات شعر طويل أسود مجعّد وبشرة كامدة، وعينين كستانئيتين، ووجنتين مخضبتين ببعض حمرة عُلقت في أذنيها أساور ثقيلة ودقيقة من ذهب متقنة الصنع، وتدلّت من يديها دمالج من ذهب وفضة. إنها دون شك قد قضت قسماً من نهارها تتهيّأ لهذا اللقاء برفقة خادماتها، إذ لوحظ أن جسمها قد مُسح بزيت ناعم معطّر وخلاصات نادرة، دون أن يلاحظها هنيبعل قالت:

- إنني رهن أوامرك، وبدا عليها تردّد مزيف واستأنفت: جئت بملء خاطري فأنا لست عبدة داسيوس كما أنني لست خليلته كما قد

(*) هي تارنت الحالية.

يتبادر إلى ذهنك. ارتبطت عائلتانا منذ مدة طويلة وتبعت زوجته، وهي رفيقة صباي، عندما عهد إليه هؤلاء الرومان الملاعين بحامية كلاستيديوم. حتى الوقت الحاضر كنت ألعن الآلهة لأنها طرحتني في هذه البقعة المملّة، أما الآن فأنا أشكر طيبتها لأن القدرة الإلهية وضعتك على طريقي.

ـ لا تنقصك الجرأة وهذا ما لا يسيء لي. ليس لدي أشياء مرغوبة أقدمها لك. إنني متزوج، ولا أستبدل بزوجتي المحبوبة إميليسي أي امرأة كانت. لا تتصوّري أن بإمكانك أن تشغلي مكانها إلى جانبي. إنت فاتنة ومرغوبة ويمكنك منذ هذا المساء مقاسمتي الفراش، فقد مضى زمن طويل لم تقاسمني امرأة مضجعي. مع ذلك فإنني أكنّ لك كثيراً من الاحترام حتى أنني لا أفكر في معاملتك كفاتنة لعوب. لذلك فأنا أناشدك أن ترحلي قبل أن يفوت الأوان، سأغمرك بالهدايا وسأعدّ لك حراساً يرافقونك إلى أقرب مرفأ حيث تقودك سفينة إلى أهلك.

ـ قيل لي إنك رجل مختلف عن الآخرين وأنا متأكّدة الآن أن الأمر ليس كذبة يوحيها التملق. إن بدا علي بعض تردّد فقد أزاحته كلماتك. اجعل مني رفيقة لك، فأنا أعرف المحافظة على موقعي ولن أنسى أبداً حدود اتحادنا.

أضجعها هنيبعل على الفراش ومارس معها الحب مكتشفاً فيها ممارسات تجهلها إميليسي، تموجّت هيلين بلذة غير أنها في اللحظة الأخيرة شردت منه لتفسح له المجال للانطلاق في نزوات الجنس إلى أن جمع بين جسديهما وميض الملذات. أحسّ ابن هميلقار بالانتعاش وغدا مستعداً لمجابهة أخطار جديدة. عندما غلب العاشق النعاس بقيت المرأة الشابة مستيقظة تداعب أقراط أذنيها، وتهمس في أذن حبيبها بكلماتٍ ناعمة. في الصباح الباكر عندما استيقظ مارسا الحب من جديد قبل أن ينفصلا. عند خروج

هنيبعل من خيمته التقى بسيلينوس وألقى عليه بسخرية السؤال التالي:

- أما تزال تكتب سرد انتصاراتي؟

- ليست مهمتي سهلة فأنت تطير من نجاح إلى آخر، وأجد صعوبة في فصل الحقيقة عن الأسطورة في العبارات التي يطلقها أتباعك بخصوصك. يبدو لي أحياناً انطباع مبالغة وأكتشف بدهشة أن أقوالهم أقل من الحقيقة. تأكد أن روايه إنجازات نصف إله هي مهمة صعبة.

- لا تجدّف دون طائل خشية إثارة غضب ملقارت وبعل حمّون. أنا لست إلا كائناً بسيطاً فانياً يتعرّض لاغراءات الجسد، وأبذل كل عناية لعدم نسيان ذلك، ولأتمكن في كل يوم من قياس الحظوات التي تغمرني بها الأرواح العليا.

- إنك حَذِرٌ، كثير الحذر، وهذا ما قد يسبب لك مقلباً إذا ما تابعت عنادك ورفضت تحدي القدر. غير أنني سآخذ بالاعتبار نصائحك لتروق كتاباتي في عينيك.

- أشكرك وبالمناسبة ألا يعود أصلك إلى تارنتم.

- فعلاً، وما سبب هذا السؤال؟

- تحت قبّة خيمتي توجد شابّة اسمها هيلين هي من الآن فصاعداً خليلتي. وهي واحدة من مواطناتك. أكلفك بالسهر عليها ومرافقتها خلال النهار. افعل كل ما يلزم لتحقيق رغباتها.

- سألتزم بتعليماتك وأنا واثق أنّها ستقصُّ عليّ بعض مآثرك التي ستبقى مجهولة عن رجالك.

- من حسن حظّك أن مهذّبي السابق أوصاني بك. لو لم يكن الأمر كذلك لتملكّتني الرغبة في معاقبة غطرستك.

- لن تفعل شيئاً من هذا لأنني الوحيد الذي يُحدّثك بصراحة

وصدق، وهذا يريح بالك. إن معاونيك وكل مجموعة القادة الغاليين المحيطين بك يزنون بحساب جميع كلماتهم بأمل نوال نِعَمِك وعدم إثارة غضبك. تبدو كلماتي جافة غير أنها مخلصة وفي كل مرة تطلب نصحي فإنك لا تأسف لأنني أعتمد لغة الاستقامة والحقيقة. أنا سعيد من أجلك فإلى جانبك رفيقة أفخر بأنها مواطنتي، إذ لا يستحسن من جنرال بمرتبتك أن يُحكم عليه بالوحدة. لا تخشَ رأي جنودك. سيُسرّون لسعادتك ففي هذا ما يقرّبك منهم ويجعلك أكثر قبولاً لفهم الطبيعة البشرية. هكذا كما ترى لن أعتبرك نصف إله وستستجاب أمنيتك.

ارتسمت على شفتي هنيبعل نصف ابتسامة، وترك مخاطبه ليلتحق بمهرا بعل قائد الفرسان، وبأخيه ماغون، الذي يرجو التداول معه بشأن العمليات الجارية، وهذان الأخيران يحرضانه منذ بعض الوقت أن يعجّل بأخذ زمام المبادرة قبل أن يلزمهم الصقيع المرافق للانقلاب الشتوي باستراحة إجبارية. في ذلك الصباح كان مهرا بعل أكثر إلحاحاً من عادته، فقال:

ـ إننا نضيع وقتاً ثميناً وقد بدأ حلفاؤنا يتساءلون عن نوايانا. التقطت عدة رسائل موجّهة إلى الرومان من قبل بعض القادة الغاليين الحاضرين في هذا المعسكر، وأعطيت الأمر لبعض المفارز لتدمير أراضي هؤلاء الخونة، ليعرفوا أننا لن نتسامح بأي نفاق من ناحيتهم. إننا في وضع جيد. بوبليوس كورنيليوس سيبيون مصاب بجرح خطير، وسيبقى مدة طويلة غير قادر على ممارسة قيادة جيوشه. والقنصل الآخر تيبريوس سمبرونيوس لونغوس، جاء ليلتحق به على رأس فرقتين ووفقاً لتعليمات جواسيسي فهو يسعى للاتصال بنا.

ـ أعداؤنا يتلقون المعونات وأنت تسمي ذلك أخباراً طيّبة.

ـ نعم، لأن القائد الجديد لا يعرف شيئاً من فنون القتال. لن يستمر طويلاً قبل أن يسلّم سلطاته للقناصل الجدد الذين ستنتخبهم

روما، وهو يحلم بإنهاء مهمته بعمل باهر يستحق به إعجاب مواطنيه. إن حرّضناه على مهاجمتنا فسيلقي بنفسه بين فكي الذئب دون فرصة للتفكير، وأنا أفكر مع أخيك بكمين يودي به إلى الهلاك.

- يسرُّني أن أعرف قدرة ماغون وخبرته الاستراتيجية رغم حداثة سنه.

- لا تسخر مني ياهنيبعل، قال ماغون وهو يصرُّ على أسنانه. ماذا ستقول لو لاحظت حسدروبال الوسيم يوافيك بالجواب نفسه؟ بين معسكرنا والمعسكر الروماني لاحظت وجود جدول محصور بين ضفاف تظلله جنينات وأدغال متكاثفة من نباتات عالية، مما يمكن للفرسان الاختفاء بسهولة. إن رضيت مرافقتنا لتحري الأمكنة فسترى مدى السهولة في نصب كمين لهم.

قام ابن هميلقار بصحبة أخيه ومهرا بعل بزيارة الموقع المحدّد، وهزّ رأسه وهو يتأمل برضى وإعجاب الجدول والسهل الواسع المحيط به.

- أخطأت يا ماغون في السخرية منك. وسأكون في المستقبل أكثر انتباهاً لآرائك. لنلتق هذا المساء. لدى مخطط درسته بعناية، وسأعطيكم أوامري التي ستقودنا يوم غد إلى النصر.

لم ينقطع ابن هميلقار طوال بعد الظهر عن رسم وإعادة رسم مواقع فرقه وفرق العدو، واستعرض في ذهنه مختلف احتمالات الهجوم. كانت هيلين تنظر إليه بصمت مكتفية بأن تمدّ إليه بين وقت وآخر كأس نبيذ دافئ يحتسيه قبل أن يغرق مجدّداً في أفكاره. التحق به ماغون ومهرا بعل برفقة ضباطهما. عندما وقف الجميع أمامه بدرت منه ابتسامة:

- يبدو أن الآلهة ستكون سخية معنا وتسلمنا الرومان بشرط أن تنفّذوا تعليماتي بدقّة. إن القوى العاملة في الجيشين هي وفقاً لمعلوماتي متماثلة تقريباً: يُقدَّر كل منها بنحو أربعين ألف رجل.

ستقرر الخديعة لا العدد مصير المعركة. إليكم تصوّري عنها: ستختار يا ماغون مئة فارس ومئة جندي من المشاة المتميّزين في قواتنا، وستطلب من كل قائد أن يسمّي لك تسعة من رجاله الذين يثق بهم كل الثقة. في تلك الليلة بعد تناول وجبة عامرة وارتداء الثياب المناسبة ستختبئون بين الأعشاب على طول مجرى النهر. لا تتحركوا أيّاً كانت الذريعة إلى أن أعطيكم الأمر بقرعتي جرس متباعدتين يردّدهما بوق. سترتجفون برداً لكن من المهم أن يجهل العدو وجودكم. ستقفُ أنت يا مهرا بعل مع الفجر بصحبة فرسانك النوميديين أمام أسوار المعسكر المعادي. وسيتجهز فرسانك بعدد كبير من الرماح القصيرة لتحريض الرومان ووصفهم بالجبن والخسّة. وعندما سيطلق تيبريوس سمبرونيوس لونغوس فرسانه لملاحقتكم، أظهروا الذعر واجتازوا من جديد نهر تريبي للالتحاق بالجيش الذي وضعته على خط طويل واحد من عشرين مرحلة.

«ستحرصون جميعاً أيها الضباط على مسح أجسام جنودكم بالزيت والشحم لحمايتها من البرد، وستسهرون على تناولهم وجبة دسمة حول النيران المتقدة أمام خيمكم. على المهاجمين أن يجتازوا النهر المتجمّد ليبلغوا المستوى الذي نحن فيه، وسأعتمد على بلاهة القنصل الذي يتوقّع هرب النوميديين الذين يقاتلون متراجعين ليأمر جنوده بالحركة وهم شبه نيام وبطونهم فارغة. ليحرص كل منكم على تنفيذ أوامري بصمت كبير. لنحتفظ بعدم تعكير هذه الليلة الأخيرة على الأرض لهؤلاء الرومان الملعونين، فمن الواجب ألا يفلت أحد منهم من هذا الشَّرَك.

في الصباح الباكر أطلق هنيبعل تنهدة ارتياح وشكر ملقارت. فالشروط المناخية كارثية والحرارة قد هبطت خلال الليل، ومطر ثلجي متقطع يسقط على أرض المعركة ويسبب الارتعاش للخيول وللعبيد المنشغلين بمسح أجساد المشاة بالدهن والزيت. عمّا قريب ستسمع من بعيد صيحات النوميديين الحادّة وهي تدور نصف دورة

أمام النطاق الروماني قبل أن تنثني في فوضى مصطنعة بمهارة؛ ما إن يبلغوا مواقع القرطاجيين حتى يتخذوا مواقعهم إلى اليمين واليسار من جيش المشاة.

كما توقّع هنيبعل انطلق تيبريوس سمبرونيوس لونغوس لملاحقتهم مع ستة آلاف فارس وفرق مشاته الخفيفة. لاحظ أن الطريق خالٍ فأمر فرسانه بإجراء حركة في اتجاه النهر. بالآلاف غاص جنوده تحت ثقل معداتهم حتى الآباط في الماء البارد كالثلج، وعندما ثبتت سنابكهم على الضفة المقابلة لوحظ أنهم يحاولون الحمحمة برعونة وقد تغيّرت وجوههم من شدة الألم الذي فرضته عليهم لذعة البرد.

اشتبك المشاة من الجانبين في المعركة بينما تابع الثلج الجليدي هطوله. كان الجنود القرطاجيون محميين ضد الصقيع، وقد استندوا على المرتزقة الإيبيريين والغاليين وتحمّلوا ببسالة هجوم العدو مع تعرّضهم لخسائر قاسية. عندما لاحظ هنيبعل أن الليغوريين يوشكون على الاستسلام، وجّه أمره إلى القوات النوميدية بأن تكنس فرسان الرومان مستعينة بالفيلة التي أثار ظهورها الرعب في صفوف القوات الإيطالية. خلف النوميديين تقدّم الرمّاحون وحملة المقلاع البليار يمعنون الطعن في جوانب مشاة العدو التي غدت دون حماية. عند ذلك سُمِعَ بشكل متميز جرسا بوقين منفصلين متباعدين. خرج ماغون ورجاله الألفان من الأدغال وهاجموا من الناحية الخلفية قوات تيبريوس سمبرونيوس لونغوس التي تقاتل وظهرها إلى النهر ولا ترغب مطلقاً العودة للغوص في مياهه الثلجية للوصول إلى معسكرها. الحل الوحيد أمامهم هو محاولة اقتحام الجدار الحديدي المكوّن من المشاة القرطاجية. فقط عشرة آلاف جندي روماني استطاعوا شق طريقهم نحو بلاسنتيا تحت الضربات الشرسة من المرتزقة الغاليين، بينما سقط ثلاثون ألفاً قتلى أو أسرى.

في نهاية اليوم تعالى هتاف الرجال بحياة هنيبعل. فعمد إلى جمع أسراه وقسمهم قسمين. منح الإيطاليين الحرية وأمرهم بأن يلتحقوا بمنازلهم وإعلام ولاة مدنهم أن القرطاجيين وفدوا أصدقاء لتحريرهم من عبودية مدينة رومولوس. أما الرومان وقد لوحظ بينهم عدة شيوخ وفرسان فتم وضعهم تحت حراسة شديدة؛ غير أن الجنرال البوني وعدهم بإطلاق سراحهم عند دفع فدية كبيرة من عائلاتهم.

قام هنيبعل بعد ذلك بتفقد صفوف جيشه ولاحظ أن خسائره ليست قليلة. قلق خاصة من وضع فيلته، فمن الثمانين المنطلقين من قرطاجنة، لم يبق له إلا عشرة تقريباً منهم ثمانية محكوم عليهم بالموت رغم العناية التي يبذلها سائسوهم لهم. ضمن هذه الشروط بدا له من الخطر الانطلاق في ملاحقة تيبريوس سمبرونيوس لونغوس واكتفى بأن يستولي على معسكره الأكثر رفاهية، مما يتيح لرجاله أن يأخذوا قسطاً من الراحة لتجديد قواهم. بعد نحو عشرة أيام تابع طريقه تحت الثلج نحو إحدى المدن البوينية الرئيسية: موتينا التي اتخذها مقراً شتوياً له. أصبحت ساعات النهار قصيرة جدّاً لا تسمح بإجراء عمليات هامة، وقد أنبأه معتمدو غلاله أن مؤونة أعلافه من الحبوب والكلأ قد نفدت. ووجب عليه رغماً عنه أن يلجأ إلى عملية توقف لا تخلو من الأخطار.

* * *

تجلى الخطر الأول في أن روما حرصت على الاستفادة من فترة راحة ثمينة لإعادة بناء قواتها تحت إمرة قنصلين جديدين: كنايوس سرڤيليوس جمينوس أحد الأرستقراطيين المعجبين بتفوقهم، وكايوس فلامينيوس نيبوس وهو زعيم شعبي قديم اشتهر في أوساط الشعب باعتباره ملحداً. اضطرا لتوحيد جهودهما، ونجحا في تجييش مئة ألف رجل توزّعوا على إحدى عشرة فرقة منها اثنتان موجّهتان إلى أرمينيوم، واثنتان غيرهما

الى أرتيوم(*) تسدّان على هنيبعل طريق روما باتجاه أتروريا أو الابنين.

وفد الخطر الثاني من الغاليين بعد أن تبين أنهم من الحلفاء غير المريحين والمتقلبين. شكا قوادهم من أنهم خلال معركة تريبي عمد القائد البوني للتضحية، عن عمد، بحلفائه الليغوريين والبويين ليحتفظ بقواته القرطاجية سليمة. عملوا بمهارة مع الجواسيس الرومان واتصلوا مع القناصل الجدد لمعرفة شروط بيع خدماتهم. اعترض رجال مهرا بعل طريق مراسليهم، وأجرى أحكام إعدام في عدة قادة غاليين اتهموا بالخيانة العظمى. وصل عدم الأمان في موتينا إلى حد أن بعضهم قام بنشر هذه الشائعة الغريبة: إن هنيبعل الذي يخشى من ارتداد حلفائه عليه لا يسير إلا متخفياً، مرتدياً قبعة من الشعر المستعار يبدّلها كل يوم، ليخفي شخصيته. قيل إن أخاه ماغون بالذات تصدّى في الشارع للقائد البوني المزيّف الذي لم يتعرّف عليه، وهدّده ذلك الرجل الذي يدّعي أنّه ابن هميلقار بَرْقا بسوء العاقبة. كان هذا ادعاء خالصاً لكنه يفسح المجال لالتباسات سائغة. في شوارع العاصمة البوينية كانت توجه الدعوات إلى الجنود القرطاجيين المرتدين الثياب الفاخرة والخواتم المسلوبة من كبار الأسرى الرومان من قبل المتملقين الذين غمروهم بالتزلّف معتقدين أنّهم قد وصلوا إلى هنيبعل، مما اضطرّ هذا من أجل تبديد كل سوء تفاهم أن يظهر مرات عديدة أمام الجمهور.

استغلت هيلين تلك الأحداث لتكرّر لخليلها وجوب ابتعاده بأي ثمنٍ عن بلاد الغال الألبية ليلتحق بجنوب شبه الجزيرة، حيث ينتظره حلفاؤه الأمناء الأوفياء. تمكنت من إقناعه، بفضل مداعباتها الماهرة وليالي حبّها اللاهبة، بغرضها، رغم معارضة مهرا بعل الكبرى، وهو المعروف بصراحته، الذي فاجأ قائده الأعلى زاجراً بقوله:

(*) هي أرزو الحالية.

ـ تركت امرأة تملي عليك شروطها. ما كان أبوك هميلقار يرتكب مثل هذا الخطأ أبداً.

ـ أتكون حاسداً لي على حسن حظّي؟

ـ أبداً. غير أنني رجل مثل بقية الرجال ولديّ صاحبة مختارة من بين الأسيرات. إنّما أنا حريص على أن أبدّل رفيقتي كلّ أسبوع خشية وجود جاسوسة بينهن تعمل لصالح أعدائنا.

ـ أنت تعلم أن هذا ليس هو وضع هيلين. إنّها تنتمي إلى أشهر عائلات تارنتم وسيلينوس مواطنها أكّد لي أن جماعتها عرفوا دائماً بمجابهتهم لأبناء الذئبة.

ـ أنا لا أعارض في هذا، غير أنني لا أحبّ أن تحشر النساء أنوفهن في قضايا عسكرية وسياسية. ماذا ستقول زوجتك إميليسي إن أبلغها ذوو النوايا الطيّبة عن علاقتك بتلك المرأة؟

ـ لا تخشى شيئاً من هذا الجانب. إن بيننا عقداً ضمنيّاً. وأؤكد لك في حال لحاق إميليسي بي ستترك هيلين معسكري في الحال.

ـ لست مطمئناً تماماً لرغباتك. غير أن تقديري الكبير لك يدفعني إلى الوثوق بك. سينتهي الفصل السيّء قريباً، وعلينا مباشرة طريقنا مجدّداً وأريد أن أعرف نواياك.

ـ ينتظر مني القناصل أن أسلك درب أورليا أو درب كاسيا لأصل إلى روما. يكفيهم عندئذ ملاقاتي في وادي التيبر الأعلى لإجباري على مواجهتهم في منطقة يعرفونها تماماً ولا أعلم عنها شيئاً. كما أن أدلّتنا الغاليين ليسوا أفضل خبرة منا ولا ترجى منهم فائدة.

ـ إنّك قادر على إنجاز الاعمال الباهرة، لكنك لم تقل لي إن الأرباب سيدفعوننا إلى اجتياز جبال الابنين على أجنحة النسور التي تتكاثر في هذه المنطقة.

- حتى لو قدّمت مئات القرابين أضحيات لملقارت فإنه لن يستطيع إفادتنا في هذا المجال. سنكرّر المأثرة التي كسبناها عند اجتيازنا الألب. غير أنني في هذه المرّة سأقود جيشي في منطقة لن يخطر على بال أكثر القادة الرومان جرأة سلوكها. من موتينا سألتحق ببونونيا(*) وسنجتاز الابنين عند شِعْب كولينا، من هناك سننحرف نحو فلورنسيا(**). يحيط بتلك المدينة نهر تتعرّج حوله منطقة مستنقعات يزداد خطرها مع فيضان نهر الأرنو. سنخوض تلك المياه الموحلة ولن تكون رحلتنا ممتعة، ولك أن تتأكّد من قولي. غير أن هذا سيدفعنا إلى الانقضاض المفاجئ على جيش كايوس فلامينيوس نيبوس وتعرّضه لهزيمة لا سابق لها.

مع أوليات الأيام الجميلة بدأ الجيش القرطاجي طريقه. تمت المرحلة الأولى من المسافة دون صعوبات كبيرة، والجنود يسيرون بخطى خفيفة مقتنعين أن ما تبقى من الطريق سيكون بالسهولة ذاتها. غير أن الفزع انتابهم عند المستنقعات المغطاة بطبقة من الضباب الكثيف والذي تنطلق منه روائح كريهة. لتجنُّب الفرار عمد هنيبعل إلى تقسيم جيشه إلى مجموعات متميّزة. على رأس كل مجموعة يسير الإيبيريون والليبيون يتبعهم المحاربون القرطاجيون الأكثر ولاء من رفاقهم، وهم مستعدون للموت فداء قائدهم إن تلقوا أمراً بذلك. يتبعهم المشاة غير الموثوقين من الغاليين، وفي إثرهم الفرسان القرطاجيون والنوميديون التابعون لماغون ومهمتهم منع البويين والإنسوبريين والليغوريين من التراجع أو التوقّف خلال الاستراحات الطويلة. خلال أربعة أيام وثلاث ليال شقّ الجيش طريقاً في الوحل. لم يحظَ بأي طريق جاف واحد ليتمكن من النوم بضع ساعات. وجب عليه السير أو بالأحرى التخبط في الماء الجليدي،

(*) هي منطقة بولونيا الحالية.

(**) فلورنسيا: هي منطقة فلورنسا الحالية.

دون أن يفقد الإشارات التي ترمز للجيش باتباع الطريق لتجنّب المناطق الموبوءة والأغوار التي يرسمها فيضان النهر. أولئك الذين يضنيهم التعب يُستبعدون من الفريق، يهلكون غرقاً وتطفو جثثهم المنتفخة على السطح، وتتفسخ بسرعة مثل جثث البهائم التي تنفق تحت وطأة أثقالها.

سرعان ما يفقد الرجال كلّ حسّ بالاحترام نحو موتاهم. الغاليون، الذين يلعنون في لغاتهم المحليّة ذات الإيقاعات الغريبة أربابهم وابن هميلقار، يستخدمون جثث رفاقهم وخيولهم مثل الزوارق ليتقدّموا بها عبر المستنقعات. كان هنيبعل بدوره قد اتخذ مع هيلين مكاناً على الفيل الوحيد الحي الباقي لديهم، وأعطياه اللقب «السوري» المحبّب لأسباب معروفة له وحده، وقد حرص على عدم إذاعتها إلى المقربين إليه. منذ اليوم الثاني شكا هنيبعل من ألم شديد في عينه اليمنى تضاعف بحمى شديدة الحرارة. عمدت خليلته الخبيرة بأمور الطب إلى إعداد كمادات من الأعشاب التي تحتفظ بها في صندوق تحسباً لمثل هذه الحالات، كما عمدت إلى تغيير هذه الكمادات باستمرار مع تنظيف محجر العينين بالنبيذ والزيت. في اليوم الثالث غدت العين جرحاً متقيّحاً، أعلمه الطبيب الإغريقي دون مواربة أنه إن لم يسمح بقلع العين المصابة، فقد حُكم عليه بالموت. أعطى الطبيب لمريضه كأساً من الخمر صب فيها كميات من المخدر القوي، وبعد أن تمدّد على سرير حقلي متين؛ وبوساطة شفرة حادة قطع بعناية العضو المريض قبل أن يقطع العصب البصري، ماسحاً الدماء التي سالت بغزارة من الجرح وغطت ملاءة السرير الذي يرقد عليه القائد البوني. عمد الطبيب الإغريقي إلى كمادة غطّى بها محجر العين الفارغ. أنقذت هذه العملية حياة هنيبعل غير أنها شوّهته إلى الأبد. غدا الشاب الوسيم، الذي أعجب الجميع بجماله من الآن فصاعداً أعور، غير أن هذه العاهة أكسبته إعجاب رجاله. هل يمكنهم الآن الشكوى بينما غدا رئيسهم، الذي قاسمهم حتى النهاية آلامهم، معاقاً بسبب تلك العاهة؟

صدرت عن الجيش تنهدة ارتياح واسعة عندما ترك أخيراً تلك المنطقة المستنقعية ليطأ بأقدامه أخيراً الأرض الصلبة. وبعد توقّف دام يومين بدأ السير مجدّداً، منتقماً من خيباته الأخيرة بالسطو على الأملاك الغنية العائدة للرومان. انتشر في كل مكان دخان الحرائق التي دمّرت المزارع، والإسطبلات، والعنابر المهجورة من مالكيها. سياسة الأرض المحروقة هذه لم تكن بالنسبة لهنيبعل انتقاماً خسيساً، فقط، حيث أن جواسيسه أعلموه أن القنصل كايوس فلامينيوس نيبوس بنى كل مسيرته السياسية دفاعاً عن الملكية الزراعية الصغيرة وهو شديد الحرص على مبدأ واحد: مساعدة أصحابها من المزارعين الرومانيين دون أي اعتبار لنصائح الحذر التي أشار له بها ضباطه وشيوخه.

هذا ما جرى، في الواقع، فبعد وصوله الى منطقة أرِّتيوم، رفض كايوس فلامينيوس نيبوس انتظار وصول فِرَق زميله كنايوس سرفيليوس جمينوس أحد الأشراف الذين لا يثق بهم. هرع أعضاء مجلس الشيوخ الروماني لنصحه بالتعقل، وقد استقبلهم بترحاب وبعد أن استمع إلى نصائحهم المتعقلة. فقد هدوءَه وألقى بازدراء في وجوههم: «أريد أن ألخص فكرتكم بهذه التعابير. لنبق مقيمين أمام أسوار أرِّتيوم. نحن هنا. هذا أمر معروف أنه وطننا، مأوى آلهتنا. لنترك هنيبعل يسرح ويمرح. فليدمّر إيطاليا وبعد أن يحرق ويخرب كلّ شيء يصل إلى أسوار روما! أما نحن فنُحرَم من أية حركة حرماناً مطلقاً إلى أن يصل آباؤنا المبجّلون أعضاء مجلس الشيوخ، وهم يرتعشون خوفاً على منتجعاتهم الفخمة في عاصمتنا، ويقرّروا أخيراً التدخل. أخبروا مجلس الشيوخ أنني سأعصى أوامره وأن الشعب سيمنحني هذا الحقّ».

ثم أمر جيشه بمباشرة الحركة على الفور. وقفز هو بالذات وقد بلغ أقصى التوتّر إلى حصانه الذي فقد توازنه وسقط على الأرض مسبّباً سقوط القنصل بدوره. كان هذا نذير شرّ رهيب يتطلّب

تأجيل العملية، غير أن القائد الروماني لم يرد معرفة شيء. إضافة إلى أن أحد قادة المئة قد أعلمه أن حامل الراية لم يستطع رفع رايته عن البقعة التي غرزت فيها. غير أن فلامينيوس نظر إليه بازدراء وأطلق في وجهه: «ألا تحمل أيضاً رسالة تنقلها لي من مجلس الشيوخ تمنعني من الانخراط في القتال؟ اذهب وقل لهم بوجوب سحب تلك الراية بضربات الفأس إن وصل بهم الخوف إلى حدّ العجز عن رفعها بأيديهم!».

قرّر هنيبعل، بعد أن علم برحيل القنصل، أن يقوده إلى ضفاف بحيرة تراسيمين التي لاحظ فرسان مهرا بعل أنّها تشكل مكاناً ملائماً لإقامة كمين مماثل لما نصبوه في تريبي. فعند أقدام جبال كورتون يوجد ممر ضيّق يفصل ضفاف البحيرة عن الجبل وينفتح على سهل واسع أقام فيه القائد البوني معسكره. لم يترك فيه إلا الوحدات الليبية والإيبيرية، أمّا البليار والمشاة القرطاجية الخفيفة فقد انتقلت إلى الجهة المقابلة من الجبل مختفية عن أنظار العدو مثل اختفاء الفرسان النوميديين في الخوانق الواقعة على مدخل الممر. وصل القائد الروماني مع هبوط الليل، بعد يومين من عشية الانقلاب الصيفي، وهو تاريخ غير ملائم للمعارك لأسباب دينية. أقام كايوس فلامينيوس نيبوس معسكره بسرعة، ولم يكلّف نفسه إرسال دوريات للتعرف على المناطق المجاورة.

عند بزوغ الفجر لوحظ ضباب كثيف غير مألوف في ذلك الفصل يغطي البحيرة ومدخل الممر حيث كانت الجيوش الرومانية تتوغل بخطى سريعة، وقد فقدوا الصبر للوصول إلى السهل حيث يقع المعسكر القرطاجي. أمر هنيبعل رجاله المختفين في الارتفاعات وعند الخوانق القريبة من الممر بالانقضاض على العدو المحاصر بطليعة مرتزقته الإيبيريين ومحاربيه القرطاجيين المتمرّسين. وجد الرومان أنفسهم محاصرين من جميع الجهات. ورغم الجهود المبذولة من قبلهم لفكّ الحصار قطعوا الصفوف وانتشروا في جميع الاتجاهات. برهنوا عن شجاعة تعوّض عن نقص ذكائهم. حاول

القنصل أن يجمع الهاربين ويشجعهم على القتال والمصارعة مثل الأسود قائلاً: «لا يمكن أن تخلصوا أنفسكم بالأمنيات والتوسلات إلى الآلهة. تلزمكم رباطة الجأش والشجاعة، وبسيوفكم تستطيعون شق الطريق وسط أعدائكم فغالباً ما كان التغلّب على الخوف دافعاً إلى درء المخاطر».

تجابه الخصوم خلال ما يقرب من ثلاث ساعات في نزال لارحمة فيه. كانوا منشغلين في التقاتل حتى أنّ أياً منهم لم يلاحظ الهزّة الأرضية العنيفة التي حدثت قريباً من ذلك المكان مدمّرة عدة مدن ومحدثة انهيارات كاملة في الجبل. كان كايوس فلامينيوس نيبوس في كل مكان ويسهل التعرف عليه من مجنِّه المدرع ومعطف القيادة. من بين المحاربين الغاليين المهاجمين له مقاتلون متمردون سبق له قبل عدة سنوات أن دمّر قراهم وأباد جميع السكان بحد السيف. أحدهم المسمى دوكاريوس فقد خلال المذابح زوجته وأولاده فصمّم على الانتقام لهم، واستحثّ جواده واختلط بجموع الفرسان ليجزَّ بسيفه الثقيل حماة القائد الروماني. وعندما وصل إلى موازاته التفت إلى رفاقه وقال:«ها هو الرجل الذي دمّر جيشنا وألحق الخراب بحقولنا ومدننا. أريد أن أُضحّي به فداء لقتلانا»، وقرن القول بالفعل واخترق رمحه صدر القنصل، قبل أن يقطع رأسه ويلتحق بأخوانه في السلاح وهو يطلق صيحة رهيبة.

أحدث موت كايوس فلامينيوس نيبوس تشتّت الرومان. حاول بعضهم تسلّق السفوح الجبلية، غير أنهم انزلقوا في هوّات أو سقطوا بعد أن حطمت رؤوسهم كرات الغضار الصلبة المنطلقة بدقة مذهلة من رماة المقلاع البليار. غاص آخرون في مياه البحيرة وماتوا غرقاً. مَنْ تخلّص من الغرق ووصل إلى الشاطئ ذبحه الفرسان النوميديون الظامئون إلى الدم. لم يسلم سوى ستة آلاف من مشاة الطليعة الذين تمكّنوا من اختراق خطوط الأعداء واللجوء إلى مدينة مجاورة غزتها قوات مهرا بعل وأخذتهم أسرى.

شعَ هنيبعل فرحاً مساء يوم المعركة. تعرّضت روما للهزيمة الأكثر أهمية في تاريخها، فقد خسرت خمسة عشر ألف رجل بينما لم تصل خسائر هنيبعل لأكثر من ألف وخمسمئة قتيل، معظمهم من المرتزقة الغاليين. أمر جنوده بجمع الأسلحة التي تركها رجال الفرق الرومانية ليسلّح بها رجاله. تقيّد بعدها بالأمانة المتّبعة لدى جنود بَرْقَا فأمر بتقديم السلاح المأتمي احتراماً للضباط الأعداء الذين سقطوا قتلى دفاعاً عن وطنهم، ثم أحرقت جثثهم خلال الليل فوق محارق أشعلت على عجل.

* * *

في روما أعلن الحاكم العسكري ماركوس بومبونيوس ماثو من أعلى منابر المعارك الهزيمة التي تعرّض لها كايوس فلامينيوس نيبوس عند بحيرة تراسيمين وموته مع آلاف من رجاله. كان من سخرية القدر أن تكون تلك المنابر المنتصبة هي مقدمات المراكب المأخوذة سابقاً من القرطاجيين خلال المعركة التي جرت على طول السواحل الصقلية. كان الوجوم والحداد الثقيلان يخيّمان على المدينة، حيث تتجمّع النساء كل يوم على مدخل السور يترقبن عودة أزواجهن أو أبنائهن غير المحتملة.

وجد القنصل الثاني نفسه في استحالة الاتصال مع مجلس الشيوخ، تم استدعاء مجالس الشعب المئوية الرومانية القديمة لانتخاب ديكتاتور، أي قاض مفوَّض لفترة قصيرة بالسلطات الكاملة سواء المدنية أو العسكرية يرافقه مساعد يحمل لقب معلم الخيّالة. شغل كانتوس فابيوس مكسيموس ڤروكوزوس هذين المنصبين مرتين قنصلاً، ومنذ عهد قريب عضواً في السفارة المرسلة إلى قرطاجة بعد الاستيلاء على ساغونت، كما شغل المنصب الثاني منافسه ماركوس مينوسيوس روفوس أحد خصومه الرئيسيين في قلب مجلس الشيوخ.

قدّر كانتوس فابيوس مكسيموس، وهو رجل ورع وتقي، أن الكارثة تعود إلى كفر فلامينيوس وقسوته، لم يأخذ بالاعتبار التشاؤمات غير المناسبة: سقوطه عن الحصان، وقضية الراية المنغرزة في الأرض، لذلك قرّر أن يلتمس مغفرة الآلهة بإقامة معبد للربة ڤينوس الإريسنية. كان المعبد الرئيسي لهذه الربة في صقلية قد استخدم خلال الحرب السابقة مع مدينة إليسا كملجأ لهميلقار، ووجب على هذا الأخير أن يتخلى عنه عند استسلام قواته، ثم إنّ الحبر الأعظم لوسيوس كورنيليوس لنتولوس أقسم أمام الشعب أن يضحّي أمام الآلهة بإنتاج الربيع التالي للنصر.

بعد الموافقة على هذه التدابير جند الديكتاتور فرقتين جديدتين للالتحاق بتلك التي يقودها كنايوس سرفيليوس جمينوس، قائد الجيش العام في أبوليا، حيث أقام معسكره في إكلا(*) بعد أن أمر بإخلاء جميع المواقع التي هدّدها هنيبعل. لأن هذا الأخير بعد انتصاره اخترق أومبريا ووصل إلى شواطئ الأدرياتيكي، بعد أن نهب خلال مروره سهول بيسينوم الخصبة. كان رجاله قد حققوا من الغنائم ما جعلهم ينوؤون تحت ثقل مسروقاتهم. وعندما وصلوا إلى ساحل البحر صدرت عنهم تنهدات فرح وسرور لأنهم لم يروه منذ رحيلهم عن قرطاجنة قبل سنتين. نَعِموا، لعدة أسابيع، باستراحة يستحقونها جيّداً تقطعها جلسات تدريب تتعلق بتجهيزاتهم الجديدة. قرّر هنيبعل في الواقع أن يستخدم جنوده من الآن فصاعداً المجنّات الرومانية، وهي مجنّات متطاولة يتسلح بها الفرسان الرومان. جُمع آلاف منها في ميدان معركة تراسيمين. أمّا الخيول التي كانت تتألم من الجرب فقد عولجت بغسلها بالخمر المعتّقة، وأشبعت بالعلف الطازج بانتظار وصول المعونة المطلوبة من قرطاجة مع الأفيال الواجب أن تحلّ محلّ تلك التي نفقت خلال بردّ الشتاء وتغيّراته.

(*) هي تروجا الحالية.

عندما وجد رجاله على استعداد لاستئناف الأعمال القتالية، قادهم ابن هميلقار لتدمير شمال كامبانيا وخاصة وادي ڤولتورن الشهير بكرومه التي قُطِعَت سوقها حتى الجذور. أحرق الغاليون في كل مكان المزارع مسببين هرب المزارعين الرومان الذين تذمّروا ضد خمول كانتوس فابيوس مكسيموس، الذي اكتفت قواته باتباع الجيش القرطاجي عن بعد. علم هنيبعل بهذا الاستياء فزاد من حِدّته بتدمير سلسلة من المواقع باستثناء واحدة منها تعود ملكيتها إلى الديكتاتور، تجنّبها لإثارة الاعتقاد بأن هذه الأريحية هي ثمرة مساومات سرية جرت بين القائدين.

أراد القائد الروماني أن يتبرّأ من هذه التهمة الشائنة، فقرّر أن يقوم بضربة حاسمة بقطع الطريق على خصمه الذي كان يستعد للوصول إلى بوي لقضاء الشتاء. ركّز قواته على مدخل وادي كاليكولا في منتصف الهضاب المطلّة على ممر ضيق يتوجب على الجيش القرطاجي اجتيازه. لو أن قائداً آخر غير ابن هميلقار لوقع في هذا الفخ أو لحارب متراجعاً، أمّا ابن هميلقار فقد لجأ إلى خدعة مرهفة ليتخلّص من هذا المأزق الحرج. أمر أحد مساعديه المسمى حسدروبال أن يختار من الماشية المصادرة من الرومان ألفي عجلٍ وربط عليها حُزَماً من الحطب اليابس. أرسلت هذه البهائم، مع أواخر الليل، إلى ذرى الجبال التي تحتلها قوات حسدروبال وأُشعِلت النيران في الأغصان التي تزيّن رؤوسها. اعتقد الرومان أنّ القرطاجيين يحاولون اجتياز المرتفعات، فزحفوا للقائهم تاركين الممر بدون حراسة ليقوم الجيش البوني بعبوره بأقصى سرعة ممكنة. كان الوقت الذي استغرقه العدو ليعيد نزوله إلى الوادي كافياً لقوات القائد الأعور لتصبح بعيدة عن متناول الجيش الروماني ووصلت إلى قرية جيرونيوم(*) حيث تمكّنت من

(*) محلّة منقرضة في وادي فورتور.

إزاحة العدو، إنما بعد تكبّدها خسائر ثقيلة صدّت بها هجمات جنود ماركوس مينوسيوس روفوس.

قرّر هذا الأخير ذلك الهجوم لرغبته في الحصول على السلطات التي كان يتمتع بها كانتوس فابيوس مكسيموس نفسها. لقب سيّد الخيّالة لا يكفيه، وقد حرّض أتباعه في روما على المطالبة بتعديل وضعه. ظنّ منافسوه تحييد طموحاته بانتخابه قنصلاً بديلاً عن المرحوم كايوس فلامينيوس نيبوس، خاصّة وأن أحد أولاده ماركوس أتيليوس روغولوس قد أُسِر عند أسوار قرطاجة. لم تكن هذه الإجراءات كافية لتهدئة عامة الشعب، الذي أقرّ في استفتاء شعبي تسمية ماركوس مينوسيوس روفوس ديكتاتوراً ثانياً.

اهتم القائد الروماني بعد تلقّيه الخبر الجديد بالعمل على مجابهة هنيبعل، مقيماً معسكره في مواجهة معسكر القائد البوني. أحسّ هذا الأخير أن خصمه الذي يتحرّق شوقاً لمنازلته سيسقط في أوّل فخ ينصبه له: اكتشف هضبة واقعة في منتصف الطريق الموصل بينه وبين خصمه سيد الخيالة فعمد إلى الاستيلاء عليها بوساطة بعض المفارز النوميدية الموضوعة تحت إمرة أخيه ماغون، من شأن قلة عددهم أن يوهم القائد الروماني بأنه قادر على إنزال الهزيمة بهم دون عناء. هذا ما طمح إليه ماركوس مينوسيوس روفوس عندما اقتنع بسهولة التغلّب عليهم. خرج مسرعاً من معسكره لينطلق مهاجماً الهضبة، والحال أن هنيبعل أخفى، في الليل السابق للمعركة، في المغاور والكهوف المحيطة خمسة آلاف من المشاة وخمسمئة فارس تركوا للعدو فرصة الانتشار في الوادي وتناولهم من المؤخرة عندما بدأ بتسلّق المرتفعات التي شغلها النوميديون. لم يتمكن الجنرال الروماني من النجاة إلا بالوصول السريع لفِرَق كانتوس فابيوس مكسيموس التي أتاحت لمجموعاته أن تقاتل وهي متراجعة بعد أن تركت في أرض المعركة عدة مئات من القتلى. بخجل اعترف ماركوس مينوسيوس روفوس بخطئه،

وأرسل إلى مجلس الشيوخ رسالة ينبئ فيها الآباء أعضاء المجلس أنه سيتخلّى عن وظائفه الديكتاتورية لشعوره بأنه غير جدير بها.

للأسف لم يكن لهذا الحلّ المتعقل أي تأثير على انتخاب القنصلين في السنة التالية. صوّت الشعب بالأغلبية لكايوس تيرنيتوس فارون، أحد الخصوم الأكثر ثباتاً في مواجهة كانتوس فابيوس مكسيموس، ووجد أشراف روما صعوبة كبيرة لانتخاب لوسيوس أميليوس بولوس أحدهم وهو المشهور بحكمته واعتداله. في مدينة رومولوس، التي تمرّست بالهزائم خلال السنتين السابقتين، كان يتمّ التحضير بحماس للأخذ بالثأر. تم تجنيد ثمانية فرق جديدة مما زاد في عدد المشاة من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف وزيادة الفرسان من ثلاثمئة إلى خمسمئة فارس. قدّم الحلفاء الإيطاليون عدداً مماثلاً من المشاة وضعف عدد الفرسان. هكذا أمكن استنفار ثمانين ألف رجل بينما لم يتمكن هنيبعل من تجنيد سوى نصف هذا العدد. هذا الحماس الاستثنائي المضطرم وطنية تمّ بتأثير عامة الشعب المؤيد لحرب ستستمر طويلة الأمد، والمقتنع بنفاق مجلس الشيوخ المتهم بدعوة القائد البوني إلى تخريب إيطاليا لقمع تطلعات عامة الشعب لمزيد من الحرية والسلطة. خلال المعركة الانتخابية لم يكن كايوس تيرنتيوس فارون الأخير في ترويج ذلك الخبر، مما لا يسّهل علاقاته مع زميله الشريف الروماني لوسيوس أميليوس بولوس. وبما أن القنصلين قد جمعا فرقهما في داخل جيش واحد وجب عليهما الخضوع لتفرُدٍ قانوني مثقَلٍ بالنتائج، بينما اقتصرت مهام كل منهما على قيادة الجيش كل بدوره لمدة شهر. أما التناوب في هذه المرة فقد غدا يومياً. يوم لكايوس تيرنتيوس فارون يمارس فيه إدارة العمليات ليعمل زميله في اليوم التالي على إلغاء القرارات المتخذة، ويعمد إلى وضع قرارات أخرى.

بقي الخصمان في مواقعهما الخاصة خلال الشتاء والربيع

وقسم من الصيف. كان هنيبعل أول من خرج على الوضع القائم فقام بمغادرة جيرونيوم ليسير باتجاه كانّاي(*)، القرية المتواضعة الواقعة على ضفة نهر الأوفيد(**) في قلب منطقة تأخذ فيها المنتجات الزراعية طريقها إلى النضج. هناك عقد العزم على إقامة معسكره في منطقة محمية من القولتورن(***)، وهي الرياح التي تهبُّ صيفاً فتجرف آلاف الحبوب مع غبارها. تحت ضغط الشعب عمد القنصلان إلى لقائه لإلزامه على خوض المعركة. وصلا في نهاية شهر تموز وبعد أن قضيا عدة أيام في خصام: كان فارون يرى ضرورة البدء بالهجوم مباشرة، بينما أكّد الآخر بإصرار بأنه يتبرأ من كل مسؤولية في حالة انعقاد العزم على خوص مبادرة مشؤومة. في صباح أول آب أخرج هنيبعل قوّاته من معسكرها غير أن لوسيوس أميليوس بولوس رفض الاشتباك.

في اليوم التالي قام زميله الثائر ضد جبن منافسه، ودعا منذ الصباح الباكر الضباط ليعلن لهم أن ساعة الحسم قد حلّت. أظهر عدم تأثره بالنقد المثار من قبل معاونيه، ورتب كتائبه استعداداً للمعركة على جبهة يصل طولها إلى نحو عشرين ستاداً، يحتل مركزها القائدان كايوس سرڤيليوس جمينوس، وماركوس أتيليوس روغولوس. بينما شغل لوسيوس أميليوس بولوس مع فرسانه الجناح الأيمن، واحتل منافسه الجناح الأيسر مستنداً إلى عناصر من الخيالة الحليفة وفرقتين مؤلفتين من مجندين جُدُد يعتمد فيهما على حماستهم وتأييدهم الكبير.

مع ملاحظة حركة العدو، عند بزوغ الفجر، أسرع ماغون إلى خيمة أخيه البكر لإيقاظه. وجده نائماً وهيلين إلى جانبه نصف عارية. اعتذر لجرأته، وأعلم ابن هميلقار البكر أن المعركة ستبدأ خلال فترة قصيرة.

(*) هي مدينة «كان» الحالية.

(**) نهر أوفانتو حالياً.

(***) تسمى حالياً «ليبكسيو» بالإيطالية. رياح معادلة للسيروكو.

قال له هنيبعل: حافظ على هدوئك، فستحتاج إليه هذا اليوم لأن خصومنا يملكون ضعف ما نملك من الرجال. لكن لو بلغ عددهم ثلاثة أضعاف فسأبقى واثقاً من نتيجة هذه المجابهة. فالرومان قد استنفدوا جهودهم في حمارة القيظ وزعيمهم فارون دعيٌّ مغرور يجهل كل شيء عن فنّ الحرب. وسيلقى ذات المصير الذي أودى بسلفه، كايوس فلامينيوس نيبوس، الذي هزمناه بقسوة في تراسيمين.

ـ ما هي أوامرك؟

ـ ضع الأوفيد في خدمة البليار، واستخدم سلاح المشاة الخفيف في الخط الأوّل، ليكن مشاتنا الغاليون والإيبيريون في وضع سريع يتقدّمون فرق المشاة القرطاجية والليبية الثقيلة بحيث يشكّل الفرسان الجناح الأيسر في مواجهة الفرسان الرومان، كما يشكل النوميديون جانبنا الأيسر. بعد أن تنهي هذه الاستعدادات ستلتحق بي لتقاتل إلى جانبي بصفتك القائد الثاني.

ـ من سيقود فرساننا؟

ـ مهرا بعل. إنّما سأعهد بالنوميديين لمساعدك حنون فهو ضابط شاب وأريد أن أختبر قدراته.

انطلق ماغون يمتلئ اعتزازاً بمثل هذه الثقة الكبيرة، وحرص بكل عناية على تنظيم سريع للقوات القرطاجية. ناوب في المراكز المقاتلون الغاليون، والإيبيريون، بحيث يشكلون مجموعة مدهشة. الأوائل عراة الصدر مسلّحون بسيوف ثقيلة وقد بدؤوا أغنياتهم التقليدية المتقاطعة مع صيحات وحشية، والقسم الآخر يرتدي جلابيب من الكتّان الأبيض المزيّن بأشرطة أرجوانية يشهرون خناجرهم القصيرة وهي سلاحهم المفضّل. بعكس جيرانهم في الجبهة المعادية، الذين لزموا الصمت المشير إلى تصميمهم البارد الذي يملأ قلب الخصوم رهبة.

ما كادت الصبيحة تبدأ تحت وطأة حرارة خانقة، حتى فتح الفرسان الغاليون والإيبيريون عدوانهم بحملة هوجاء على الرومان وألزموهم على التراجع تدريجياً مما أحدث اختلاطاً مشوّشاً. تزاحم بعضهم في إثر بعضهم الآخر، مما عرقل مناورتهم، فتعلّقوا بجلابيب أعدائهم يسعون إلى إلقائهم عن ظهور رواحلهم التي أثارت عاصفة من الغبار قطعت الأنفاس. لم يكن في المستطاع تمييز مايحصل غير سماع الأصوات المختنقة للخيول الجريحة والمحتضرة التي تضرب بسنابكها الأرض الغارقة بدماء الرجال والحيوانات.

لاحظ فارون ما يعانيه فرسانه من صعوبات، فأشار إلى خيالته بإجراء مناورة. انطلق الجنود الذين يعانون حرّ الهاجرة بخطوات سريعة واخترقوا صفوف المشاة الإيبيريين القليلة الكثافة فزعزعوها وأجبروها على الانثناء. اعتقد القنصل أن النصر ابتسم له فأمر رجاله بمتابعة تقدّمهم إلى أن وجدوا أنفسهم وقد فُصِلوا عن بقية الجيش، وهم محاطون من كل جانب بأرتال من المشاة القرطاجية الثقيلة، التي أجرت تحويلاً من مئة وثمانين درجة بشكل أُغلِقت فيه قرينتا الهلال المشكّل لفرق ماغون المهاجمة للعدو الذي وقع في الشرك مثل سمكة في سلّة الصيادين، مع أن النوميديين بعد تشتيتهم للفرسان الرومان والإيطاليين هاجموا مؤخرة الفرق وأمعنوا فيها الذبح دون شفقة.

عندها خطرت لحنون مساعد ماغون خدعة أثارت حقد خصومه طوال الحرب. أمر خمسمئة من فرسانه بالتظاعر بالذعر والاستسلام للعدو بإلقاء أسلحتهم ومجنّاتهم أمام الفرق الرومانية التي اقتادتهم إلى الخلف وهم بحالة مزرية حتى أنهم تُركوا دون رقابة. والحال أن كلاً منهم قد أخفى في جلبابه سيفاً قصيراً. وبإشارة من ضباطهم نهضوا بقفزة واحدة والتقطوا مجنّات الموتى

وأخذوا على حين غرة سجّانيهم اللامبالين، وكبّدوهم خسائر فادحة؛ وسرعان ما تعبوا من القتل بدون عراك فالتحقوا مجدّداً بالصفوف القرطاجية.

بدأ الذعر يسود شيئاً فشيئاً صفوف المقاتلين بقدر ما نفخت رياح «الڤولتورن» باتجاههم لتزيدهم ظمأً. أصيب لوسيوس أميليوس بولوس إصابة خطيرة بضربة مقلاع، لكنه لم يشأ أن يتخلى عن رجاله وقاد عدة هجمات غاضبة لكنها غير مثمرة ضد المقاتلين القرطاجيين والليبريين المتمرسين. أخيراً آلمته جراحه بشدّة واضطر أن يترجّل بينما شكّل ضباطه حوله سدّاً منيعاً لحمايته. لاحظ هنيبعل المشهد من بعد فقال لماغون: «هذا أفضل! لكأنه يسلّمني رجاله والقيود في معاصمهم وأقدامهم». تحت تأثير ضربات المشاة القرطاجيين العنيفة، التي حرص ماغون بعناية على تزويدها بالمياه اللازمة لها، بدأ الرومان يقاتلون متراجعين بشكل منظّم في البدء ثم في فوضى عارمة. لم يكن أمام الجندي الروماني سوى فكرة تجول في رأسه هي إنقاذ حياته بعد تخليه عن أسلحته وعتاده لينجو بنفسه في أسرع وقت ممكن.

جلس لوسيوس أميليوس بولوس على حجر، ووجهه مضرّج بالدم، وقلبه منكسر، وجسمه محطم. بسبب هذه الهزيمة يحول ضعفه الشديد دون محاولة وقف هذا الذعر. لاحظه الحاكم الشرعي، كنايوس لنتولوس، شقيق الحبر الأعظم، فاقترب منه وتوسل إليه ليضعه في مكان آمن. قال:

- أيّها القنصل الباسل، أنت الوحيد بيننا الذي يستحق أن تنقذ حياته لأنك فعلت أقصى ما باستطاعتك لمنع هذه الكارثة. دعني أردفك خلفي، لنصل إلى معسكرك ونحاول تنظيم مقاومة يائسة قبل حلول الليل وإلزامنا بالقتال متراجعين. روما تحتاج إليك وقد برهنت لها عن جدارتك. انظر حولك تَرَ الأرض وقد تناثرت عليها

جثث ضباطك الذين قدّموا دماءهم لحمايتك. أكرم ذكراهم بتلبية أمينتهم.

- كنايوس لنتولوس، أشكرك على شجاعتك وعلى اقتراحك، وأنا شديد الأسف لرفضه. إنني أشعر بجرحي المميت وبعد قليل سألتحق بأرواح أسلافي. لا تضيع الوقت الثمين بالبقاء قربي. أسرع إلى روما لتوجيه مجلس الشيوخ بإغلاق أسوار المدينة، بعد إدخال الأقوات والأعلاف والمؤن اللازمة لمواجهة حصار طويل. فليأمروا المدنيين باللجوء إلى مستعمراتنا الواقعة في الشمال، فذلك سيخفف من عدد الذين يحتاجون إلى الطعام. قل للآباء أعضاء مجلس الشيوخ ليعهدوا بإدارة العمليات لصديقي القديم كانتوس فابيوس مكسيموس، الذي أُجلّ حكمته وأَتْبعُ على الدوام نصائحه. هو وحده القادر على تقويم الوضع الحرج الذي أدت إليه حماقة كايوس تيرنتيوس فارون الإجرامية. أشكر الآلهة التي تنحيني عن الوجود، إذ يجب في حال تغلبي على جراحي اتهامه علناً أمام الشعب، وأنا أزدري الرعاع الذين يقدمون مشهداً، مجحفاً بوجاهة مؤسّساتنا. وداعاً يا صديقي، آمل أن تتمكن من النجاة من هذه المجزرة وتتمّم المهمة المقدّسة التي أعهد بها إليك.

ما كاد ينتهي من نطق هذه الكلمات الرصينة حتى وصلت جماعة من المشاة القرطاجيين إلى مستواه وأمطرته بسهام قاتلة. لم يَنجُ الحاكم إلا بفضل حصانه الذي انطلق رغم الجرح المصاب به عدواً مُقلّاً فارسه. مع بضعٍ مئات من الناجين تمكن كايوس تيرنتيوس فارون، مخبولاً وخائر القوى، من الوصول إلى كانوزيوم(*) حيث أمكن لأحد قادة المئة من إعطاء التقديرات الأوليّة للخسائر التي تعرض لها الجيش نتيجة ذلك اليوم المشؤوم: هلك خمسة وأربعون ألف جندي من المشاة وستة آلاف وسبعمئة

(*) هي كانوزا الحالية.

فارس، بينما أُسِرَ نحو تسعة عشر ألف رجل. ارتفعت الخسائر إذن إلى ستة وستين ألف جندي من مجموع بلغ سبعة وثمانين ألف رجل مما يشكّل أكبر هزيمة دموية عانت منها روما. من بين الضحايا عدا لوسيوس أميليوس بولوس، يظهر تسع وعشرون حاكماً عسكرياً وقناصل سابقون من بينهم ماركوس مينوسيوس روفوس وكنايوس سرڤيلوس جمينوس وعشرات من المديرين الماليين وقيّمو المدينة وثمانون شيخاً مقاتلاً من المتطوعين الاختياريين. كان الغاليون والإيبيريون، وهم يسلبون الجثث، قد اكتشفوا بضع مئات من الفرسان الرومانيين، وقد باتوا معروفين بفضل الخواتم الذهبية التي يحملونها في أصابعهم.

من الناجين الذين هربوا وهاموا على وجوههم بين الأماكن المجاورة، بعد أن استبدّ بهم القنوط، بعض الضباط الشباب الذين تجمعوا حول بوبليوس فوريوس فيلوس. كان والده فيما مضى أحد القناصل السابقين. وجدوا أن لا شيء يمكن أن ينقذ روما من الكارثة، وأقسموا على الوصول إلى أحد المرافئ المجاورة ليقلعوا على متن السفن الخصصة للإيجار للوصول إلى بلاد الإغريق أو إلى آسيا وتقديم خدماتهم للملوك الأجانب الذين يقبلون استقبالهم. عندما علم الشاب بوبليوس كورنيليوس سيبيون، الذي أنقذ أباه من الموت في معركة تريبي، أسرع إلى المتآمرين وأوقفهم. ثم سلّط السيف عارياً فوق رؤوسهم، وألزمهم بترديد القسم التالي: «أقسم بروحي وضميري الحي ألا أتخلى عن الجمهورية الرومانية ولاأتساهل مع أي مواطن روماني يسمح بذلك. إن أهملت عن قصد هذا الوعد أبتهل إلى جوبيتر الفائق العظمة والكِبَر أن يضرب شخصي وبيتي وعائلتي وأملاكي بالمصائب الأشد هولاً». لم يتخلّف أحد عن العودة إلى مدينة رومولوس، وعملوا على إحياء الأمل لدى مواطنيهم المجلّلين بالحداد. وقد عمدوا بغية تهدئة غضب الآلهة إلى دفن إغريقيين وغاليين أحياءً في ساحة مواشي البلدة.

أحصي في المعسكر القرطاجي سبعة آلاف قتيل منهم أربعة آلاف مرتزق غالي وإيبيري. أجري احتفال حقيقي لفارس نوميدي اكتشف حيّاً تحت جثة روماني وقد جدع الأخير أنفه وأذنيه، فلجأ عند عجزه عن حمل السلاح إلى تمزيق وجه خصمه بأسنانه. عند حلول المساء، التقى مهرا بعل وماغون وضباطهما تحت خيمة هنيبعل وهنؤوه بحرارة على انتصاره. توجّه قائد الفرسان الأكثر جرأة إلى ابن هميلقار قائلاً:

ـ اسمح لي أن أنطلق مع وحدة من الفرسان باتجاه روما. بحثِّ الخطى سأكون هناك خلال يومين وسأنتظرك في الكابيتول وسنتناول عشاءنا في معبد جوبيتر، يخدمنا شيوخ مقيّدون بالسلاسل.

ـ فكرتك تغريني إنّما يجب أن أفكر قبل اتخاذ قرار بمثل هذه الأهمية. هوّن عليك فخلال وقت قصير سأفعل ما يرضيك.

ـ جوابك يحطم قلبي، فقد كنت أنتظر ما هو أفضل من ابن هميلقار. ما كان أبوك يتردّد لحظة. أما أنت فتجادل وتفضّل أن تترك العدو يهرب بدلاً من توجيه ضربة قاضية له. أستخلص من هذا أن الآلهة بإظهار سماحتهم لك لم يمنحوك كلَّ شيء. إنّك قادر على قهر عدوّك، إلا أنّك لا تعرف كيف تستفيد من انتصارك.

ـ مهرا بعل لو أن ضابطاً غيرك وجّه لي هذا الكلام لصلبته في الحال لتمرّده. إنني أقدرك وأستمع إلى رأيك. في الوقت الحاضر لينصرف كلٌ منا الى مشاغله، سنستعيد هذا النقاش برأس مستريح. توجّه لجمع أسلحة العدو ومجنّاته المهجورة وإعادة جمع آلاف الأسرى بعد تقسيمهم إلى زمرتين منفصلتين: الإيطاليون والرومان. يمنح الأوائل الحريّة شرط تعهدهم بعدم إثارة الحرب ضدنا. أما الآخرون فيلنتخبوا مندوبين عنهم، وسأعهد إلى أحد السفراء بمرافقتهم إلى روما للتفاوض على الفدية الهائلة التي سنطلبها من

عائلاتهم. أعلمهم أنني سأتحدّث إليهم يوم غد وسيدهشون من حِلمي. الآن دعوني فأنا أريد أن أقوم بفروض العبادة وتقديم الشكر لملقارت الذي غمرني بنِعمه في هذا اليوم الذي سيبقى خالداً في حوليات قرطاجة، لأنه يمحو جمع مظاهر الذلّ التي تعرّض لها وطننا منذ سنوات.

الفصل الرابع

أحيا الرجال في المعسكر القرطاجي انتصارهم خلال بضعة أيام. كانت سلسلة حفلات قَصْفٍ وسُكر تنافس الغاليون والإيبيريون في المرح، وتشابكوا أحياناً بالأيدي وقد أثملتهم الخمر. تبادل الجنود فيما بينهم الفكاهات والشتائم. أما هنيبعل فبقي تحت خيمته يدور في رأسه دون انقطاع السؤال نفسه: هل يسير أو لا يسير باتجاه روما؟

طلب مهرا بعل وماغون منه الإسراع، غير أن نصائحهم المدعمة بالحجج القيّمة اصطدمت بمعارضة هيلين التي حرّضته مستخدمة مفاتنها بالنزول إلى بروتيوم(*). إنها تعلم أن هذا الاقتراح يرضي صديقها الذي تقرأ ما بنفسه كأنّها أمام كتاب مفتوح. يكفيها ملاحظته لتخمن أن القائد البوني لا يكنُّ أيّة رغبة في الدخول منتصراً إلى مدينة رومولوس. لا خيار أمامه إلا تدميرها وتغيير وضعها كلياً وهذا ما يكرهه، أو أن يتركها مدة طويلة تحت حراسة مشدّدة يجنّد لها آلاف الرجال دون جدوى. إنه من صنف الفاتحين الذين يكرهون سحق عدوُهم كليّاً خشية عدم عودة هذا العدو إلى مقاتلته، ووجوب الالتحاق مجدّداً بوطنه مكلّلاً بأمجاد النصر وعزته. خمّنت هيلين ذلك وضحكت في سرّها عندما حدّثها هنيبعل ذات مساءٍ مطوّلاً عن مشاريعه وعن هدنة متوقّعة مع روما.

(*) هي كالابر الحاليّة.

كان يستفيض في الحديث عن هذا الموضوع، ويؤكد أن المطلوب ليس الانتصار بحد ذاته، بل انتصار المبادئ والعدالة. ذات صباح حضر ماغون، وكانت الشابة تكرهه، إلى خيمة أخيه، وقد بدا عليه الاهتمام وسأله:

ـ لقد فقد ضباطك الصبر وهم يريدون معرفة ما نويت أن تفعله. لم يقدّموا إليك النصر لتسترخي في سريرك وتشبع نهمك من أطايب النبيذ والأطعمة الفاخرة. ما هي نواياك إذن؟

ـ إبرام الصلح مع روما.

ـ الصلح. كيف تفكر به ونحن منتصرون وباستطاعتنا الاستيلاء دون عناءٍ على المدينة! أمن أجل مثل هذه النتيجة الهزيلة عانيت هذا القَدْر من الآلام والمحن وفقدت عيناً عند اجتياز المستنقعات؟

ـ إنّك تحاكم دون تفكير بالمستقبل. ماذا أفعل بمدينة ليست من وطني ولن تكون أبداً؟ لا وجود لها في عيني. ما أن يدرك حُلفاء روما مدى دمار معركة «كانّاي»، سيتحوّلون عنها ليسعوا إلى الاتفاق معنا. لكنهم سيعمدون إلى إلزامنا بسعر فادح لقاء ولائهم ما دُمنا في نزاع مع أبناء الذئبة، لأنهم سيعتبرون ـ وهم غير مخطئين في ذلك ـ أن مساعدتهم لنا ضرورية. بالمقابل إن توصّلنا إلى معاهدة مع مجلس الشيوخ فسيشكّون بعدم ارتداد جيشي وانقلابه ضدّهم وسيظهرون أكثر تساهلاً، وسأتمكّن عندئذ من تحقيق حُلمي.

ـ وما هو حلمك؟

ـ إنه الحلم الذي تغذى ونما وكبر لدى والدنا هميلقار: أمنح مدينة إليسا إمبراطورية واسعة تمتد من أعمدة ملقارت حتى تارنتم، لتضم صقلية وكورسيكا وسردينيا التي سنستعيدها ممن سرقوها منا غدراً منذ بضع سنوات. سيعود البحر الكبير لنا بكامله، وستتمكن سفننا من شقّ عبابه بكل طمأنينة. تيقّن أن ثروة هذه الأقاليم ستصبُّ في مرفأ قرطاجة الذي سيصل ازدهاره إلى أبعد مما نتصوّر،

وسيضطر خصومنا في مجلس المئة والأربعة إلى التزام الصمت، وستضمن عائلتنا اعترافاً أبدياً بمواطنيتنا. سيقدمون كل احترام لاسم بَرقا وسيدين لنا أحفادنا بالمكان المرغوب والمحترم الذي سيشغلونه في مجلس الشيوخ.

- لاأهتم إلا قليلاً بمستقبل أبنائي وأفضّل أن يدينوا بمسؤلياتهم إلى جدارتهم لا إلى مولدهم. اعترف أن مخطّطك شديد الإغراء، إنما يبقى علينا معرفة إذا كان عدونا يرضى بأن يتصرف كما تأمل وتريد.

- لدي طريقة جيّدة لمعرفة ذلك.

- وما هي؟

- في معسكرنا عشرون ألف أسير روماني تنتظر عائلاتهم بفارغ الصبر عودتهم. سأعتمد على إرسال سفير إلى مجلس الشيوخ لأقترح عليه تحرير هؤلاء الرجال لقاء فدية أو التوصل إلى معاهدة سلام أحدّدها. لا أشكّ لحظة واحدة في جواب أعضاء مجلس الشيوخ.

- هل تعتقد بقبولهم مقترحاتك؟

- سيُقسرون عليها ببكاء الأمهات وتوسلاتهن وعذاب الزوجات لغياب أولادهن وأزواجهن. تأكّد أن وثيقة تسامح أثمن بكثير من ذبح أو استعباد آلاف الرجال. أتعتقد لحظة أن عائلات أسرانا ترتضي أن يغدو أبناءهم عبيدنا وأن يقضوا بقية حياتهم في حراثة أراضينا الأفريقية.

- من سيقود تلك السفارة؟

- كارتالون.

- من، هذه القربة من الجلد التي تنضح خمراً، وأشرس أعداء والدنا!

ـ هو بالذات، إنك سريع النسيان، ألا تذكر أننا مدينون له بفضل إلحاق حسدروبال الوسيم في قرطاجنة. إنه كائن عديم الذمة. ولو أن الامر يتعلق بي لأرسلته للالتحاق بأجداده. إن الحدس يدفعني إلى التفكير بأنه لم يكن بريئاً ولا بعيداً عن المصائب التي حلّت بآل برقا منذ موت هميلقار. غير أنّه يُعَدُّ صديقاً للرومان وسيرى هؤلاء بتسميته دلالة بادرة طيبة من قبلنا. لهذا السبب أرى أنه الأجدر بهذه المهمة الحسّاسة.

بعد بضعة أيام سافر كارتالون بصحبة عشرة أسرى إلى روما، تحرسه مفرزة من الفرسان النوميديين. كان يجهل كل شيء عن المناخ السائد على ضفاف نهر التيبر وتسمية ماركوس جونيوس بيرا ديكتاتوراً منتخباً وتيبريوس سمبرونيوس كراكشوس معلم خيالة. هذان القاضيان المشهوران بقسوتهما وتشدّدهما، عمدا سريعاً إلى إصدار أمر استنفار عام لجميع الشبان ممن تزيد أعمارهم على سبعة عشر عاماً. وبما أن عددهم اعتبر غير كاف، فقد اشتريا من أموال الصندوق العام ثمانية آلاف عبد أدرجوا في الفرق الأربعة الجديدة المشكّلة بسرعة والمدعّمة بوصول الوحدات العسكرية المتحالفة والمجندة حديثاً.

ما أن أعلن عن اقتراب كارتالون حتى استدعى ماركوس جونيوس بيرا أحد القضاة لمنع الوفد من اجتياز الحدود الطبيعية لروما. وجب عليه أن يكتفي بإرسال أحد الأسرى العشرة ليشرح أمام مجلس الشيوخ سبب قدومهم وانتظار جواب هذا المجلس. كان القرطاجي في مسعاه الدائم للمسايرة والتوفيق، وقد أعياه السفر، قد خضع لهذا الإنذار واتخذ له مقراً في مزرعة واسعة نهب دون حياء أقبيتها ومستودعات الخمر فيها.

اقتيد ممثل الأسرى إلى أعضاء مجلس الشيوخ، ودعي إلى التعبير عن وجهة نظره، فتناولها بلهجة استدرّت الدموع أكثر الحاضرين قسوة، قال:

ـ أيّها الشيوخ الأجلّاء. أنا لا أجهل إن روما رفضت دائماً أن تشتري أولئك الذين ساقهم سوء الحظّ إلى الوقوع بين يدي العدو. كل جندي يعرف هذه القاعدة التي تملي عليه سلوكه في ميدان القتال. وأنا أبعد ما أكون عن طلب إلغاء هذا المبدأ الممتلئ حكمة. ليُسمح لي مع ذلك بشرح الأسباب التي تدفعني إلى طلب استثنائنا من هذه القاعدة ومنحنا الحظوة. لم نؤخذ أسرى خلال المعركة أتْمَمنا واجبنا فيها حتى النهاية. عندما ساد الذعر في الجيش بعد موت لوسيوس أميليوس بولوس تخندقنا خلف نطاق معسكرنا آملين أن يحضر كايوس تيرنتيوس فارون لنجدتنا، باعتبار الأوامر الموجّهة إليه صريحة بهذا الشأن، غير أنه كان مهتماً بأمانه الشخصي دون إعارة اهتمام بهؤلاء الضحايا المساكين الذين تخلى عنهم باستهتاره وعدم كفاءته لقيادة الفرق الرومانية. ماذا يمكننا أن نفعل وقد حوصرنا من الأعداء وحُرِمنا شربة الماء؟ فكّرنا أن إنقاذ حياتنا بشراء حريتنا هي الخدمة الأخيرة الذي يمكن تأديتها لمدينتنا. غير أن مدينتنا تخلّت بقسوة عن دعمنا. قيل لي إنكم جنّدتم ثمانية آلاف عبد لينخرطوا في الجيش. هل تعتقدون أن هؤلاء أكثر خبرة منا في فن الحرب؟ هكذا أيّها الآباء الأجلّاء، أتوسّل إليكم باسم جميع رفاقنا شراءنا لنتمكن من اتخاذ مكاننا في المعركة والانتقام لشهدائنا الأبرار.

سُمِع بعد انتهاء كلامه عن بعد، تأوّهات عائلات السجناء الذين حاولوا أن يقتحموا السدّ القائم حول مجلس الشيوخ. خشي لوسيوس مانيليوس توركاتوس الكهل أن تؤثّر هذه التظاهرات على اختيار زملائه، فنهض وأعلن بصوت يرتعش بالغضب والاستنكار:

ـ الانفعال مستشار سيء، واحذروا أن يضلّ بكم إن استجبتم إلى توسُّلات مواطنينا. استمعت بانتباه إلى عروض ممثل الأسرى، وتأثّرت مما قاله. لي بين الأسرى أهل وأقرباء عزيزون. إن قلبي يدمى وأنا أفكّر بما ينتظرهم، غير أن شيئاً واحداً يهمُّني: خلاص

روما. هل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الطلب الذي عُرِضَ علينا؟ أجيب كلا لأنه صِيغ من رجال لاحقّ لهم في أن يُعَدُّوا من مواطنينا. كانوا كذلك من قبل وتخلوا عن حقّهم بعد أن غدوا عبيد قرطاجة. إنّهم يزعمون تفضيلهم إنقاذ حياتهم ليستمروا بعد شرائها في خدمة جيشنا. ماذا سيفكر المجنّدون الجدد، الذين نحاول أن نغرس في أذهانهم معنى الانضباط الذي سلكه رفاقهم؟ من يضمن لنا عدم تسليمهم لأنفسهم خلال معركة قريبة قادمة للعدو ليضمنوا شراءهم من قبل مدينتنا دون أن يسبّبوا انجذاب رفاقهم الأقل خبرة لينسجوا على منوالهم؟ هل يعتقدون أن دفع الفدية سيكفي لغسل جبنهم وعارهم؟ يجب أن نبقى أمناء لتقاليدنا وللقاعدة الثابتة التي تقضي بأن يُترَك الأسرى إلى مصيرهم. من جهة أخرى فإن مخالفة هذه القاعدة تقدم خدمة كبرى لهنيبعل. هذا البوني الملعون سيتلقى مقابل الأسرى كمية من الذهب والفضة تسمح له بتجنيد آلاف وآلاف من المرتزقة الجدد في إيبيريا وغاليا لتكبيدنا خسائر جديدة. سنستعيد عشرين ألف رجل ليربح ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف هذا العدد! هذا يعني أننا نُعِدُّ بأيدينا تعاستنا. لذا، فلنرفض، والحزن في القلب، العرض المقدّم لنا وبما أنّ هؤلاء الرومان يزعمون حبّ وطنهم فليخدموه بتضحيتهم بحريتهم في سبيله. بهذا الشرط لن يلعنهم خَلَفهم، وسيجدون تعزية بالتفكير أنهم أنقذوا بهذه الطريقة مدينتهم من الفناء.

ـ يوجد حلٌّ آخر، صرّح أحد الأشخاص، مع حرصه الشديد على عدم التصريح باسمه: عقد الصلح مع قرطاجة وتضمينه شرطاً نسبياً لإنهاء قضية الأسرى وسيكون مصيرهم منسجماً مع القوانين. ومع ذلك فكلّ شيء يدعونا لإلقاء السلاح، إذ لا قدرة لنا على إيقاف المدّ البوني إن توجّه للاستيلاء على مدينتنا.

ـ هذا هو الفخ الذي نصبه الأعور لنا، ويسعدني أياً كان شأنك أنّك قد عبّرت عن هذا العرض الذي يحرق شفاه كثيرين من زملائك.

إنّه يساعدنا على فهم أفضل للنوايا التي يخفيها العدو. نعم إن ابن هميلقار يريد أن نطلب الصلح كما فعل آباؤه بعد هزيمتهم في صقلية، لأنّه يخشى أن يغرف من ثروته الشخصيّة لتمويل متابعة العمليات العسكرية. القرطاجيون سلالة تجّار أنذال يجهلون ما تعنيه كلمة شَرَف. أمَّا نحن، ذريّة رومولوس، فمن طينة أخرى. نحن لسنا تجاراً إنما جنود لا نهتم إلا بمجد شعارنا. إنك تزعم أن الوضع يائس. يا للموضوع الجميل! في مناسبات عديدة قاتلنا ضد الغاليين أو ضد كسرى ملك الفرس وأوشكنا أن نستسلمْ، غير أن الآلهة مدّت لنا يد العون وأتاحت لنا أن ننتصر على الخصوم. إن الأفضلية الآن في معسكر قرطاجة. إلى متى سيدوم ذلك؟ صدقوني إن رفضتم عروض هنيبعل الخادعة ستضعونه في وضع حرج يجد من العسير عليه الخلاص منه. إنَّكم تبرهنون له أن روما، ليست كما يعتقد، جاثية على ركبتيها ولا تتمكن من النهوض لتكبّده هزيمة تنهي جميع آماله. عليكم أن تختاروا ما تتطلّبه مصلحة بلدكم!

ألهب خطاب لوسيوس مانيليوس توركاتوس المشبع بالحزم مشاعر عدد من زملائه، وقرّر هؤلاء بأغلبية كبيرة عدم شراء الأسرى. اقتيد مندوبهم مجدّداً تحت حراسة مشدّدة حتى معسكر كارتالون. عندما أبلغ رفاقه التسعة الآخرين سيّئي الحظ بقرار مجلس الشيوخ استغل أحدهم حلول الظلام ليهرب ويصل إلى روما حيث استقبلته عائلته بدموع الفرح والسرور. عمد ماركوس جونيوس بيرا عندما علم بالأمر إلى إيقاف الهارب، وأرسله حتى المواقع البونية حتى لا يعمد أيّ من ضحايا قرار مجلس الشيوخ إلى الزعم بأنه في منجاة من المصير المشترك.

* * *

لم يُخفِ هنيبعل خيبة أمله عندما أعلمه كارتالون بفشل مشروع سفارته، لكنه لم يتأخّر عن استعادة سرعة خاطره. أراد الرومان الحرب وسيحصلون عليها ويذرفون دموعاً من الدم ثمناً

لعنادهم الإجرامي. كان قراره الأوّل الإسراع في إيفاد أخيه الأصغر إلى قرطاجة لالتماس نصيحة مجلس المئة والأربعة لإرسال الإمدادات، وخاصة الفيلة التي عانى من مرارة فقدها خلال معاركه السابقة. مع وصوله إلى مدينة مولده التي لم يرها منذ عشر سنوات استقبل ماغون بالهتاف من شعبه معظّماً اسمه واسم أخيه. للتأثير على القضاة توجّه إلى مجلس الشيوخ بعد أن سبقه إليه عشرات العبيد وهم يحملون في سلال من القصب خواتم الذهب المنتزعة من جثث الفرسان الرومان الذين سقطوا في تراسيمين وكانّاي. وسار خلفه الشيوخ، المأمورون الماليون، الحكّام، وأعضاء مجالس الملاعب والبلديات وقد أثقلوا بأصفاد الأسر، كما ألزموا بارتداء ثيابهم الرومانية الرسمية. تقدّموا بين صيحات الاستنكار وسخريات الجمهور المتزاحم في الشوارع المؤدّية إلى مقام المعبد.

سَرَد ماغون أمام الشيوخ المآثر التي أنجزها الجيش منذ رحيله من قرطاجنة، وكان شرحه واضحاً ومختصراً مشوباً بالتواضع الجدير بالتقدير ـ حرص على الزهو بشجاعة رجاله وعدم الإشارة كثيراً إلى اسم أخيه ـ قوبل بعاصفة من التصفيق. قبل أن يتناول إيتربعل زعيم الحزب البرقاوي الكلام، قام هيميلكون وهو أحد أنصاره وأطلق في وجه حنون الكبير، وهو أبرز زعيم في الحزب المعارض، هذه الكلمات:

ـ قل لنا، يا حنون، إن كنت ماتزال آسفاً لإعلاننا الحرب على روما، أتريد دائماً أن نسلّمها هنيبعل لأنه تجرأ على امتلاك ساغونت والتغلب مرتين على القناصل في تراسيمين وكاناي؟ تكلّم لنتمكن من سماع روماني يعبّر عما في نفسه داخل مجلس شيوخ قرطاجة!

ردّ صاحب العلاقة، بصوت ممتلئ بالسخرية: في الواقع لاأرغب في التعبير اليوم كي لا أفسد مرح بعض أصحاب النوايا الطيبة. غير أن عدم إجابة هيميلكون يُعَدُّ خطأً فادحاً من قبلي. نعم أقولها بمنتهى الصراحة إنّي آسف على انفصام الصلح، وسأقوم به عندما

تعرض علينا مدينة رومولوس معاهدة تعيد إلى مدينتنا مكانتها السابقة. استمعت بانتباه إلى ماغون وانتشيت طرباً معه لإنجازات السلاح التي حقّقها جنودنا البواسل. إنني أطرب فرحاً لانتصاراتنا، إنّما من أجل تقدير أهميتها الحقيقية لدي سؤال أطرحه.

سأل ماغون: ما هو؟

ـ قل لي ما هي الشعوب التي تحالفت مع أخيك بعد انتصاراته الرائعة.

ـ إنهم عديدون بدءاً من الغاليين الألبيين الذين تردّدوا طويلاً قبل أن يعلنوا ولاءهم المطلق. وغداة يوم كانّاي قسم من الأبوليين وعدد من السامنيين واللوكانيين والكامبانيين والبورتيين الذين أرسلوا لنا سفراء ووعدونا بمساعدتهم على ذات المستوى الذي تقوم به المدن الإغريقية في جنوب شبه الجزيرة. أنا أعلم أيضاً أنّ الصقليين والسردينيين مستعدون للنهوض ضد الحاميات الرومانية التي أُنقص عددها الإجمالي بشكل معتبر. بكلمة واحدة روما معزولة وإيطاليا بكاملها تسير خلفنا.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ نعم.

ـ إنّك مخدوع وتخدعنا.

ـ حنون إنّ لصبري حدوده ويمكنك أن تأسف على كلماتك!

ـ لا أريد إغاظتك يا ماغون لأنني أكنُّ لك كل الاحترام. غير أنني ألاحظ أنّك لم تجب على سؤالي. ذكرت شعوباً تُعَدُّ من الرعايا الرومانية، لأن الرومان أخضعوهم وألزموهم بدفع أتاوة. من الطبيعي إذن أن يحاولوا هزّ نير سيّدهم. إن أردأ العبيد يتصرف مثل تصرفهم. إنّه التصرف الطبيعي الذي يقوم به أي كلب رُبط مدة طويلة وتمكّن أن يفلت من قيوده.

«كان بإمكانك إقناعي لو أشرت إلى اسم أي شعب لاتيني واحد خان الأمانة لتملّكتني فرحة عارمة. لو أنّك أخبرتني أن قبيلة واحدة

على الأقل من القبائل الخمس والثلاثين التي تشكّل روما ثارت على الأقل ضد مجلس الشيوخ لأقنعتني. لكن ليس هذا هو الحال وأنت تعرفه جيّداً. أتجرؤ على أن تخفي عن زملائي خطاب لوسيوس مانيليوس توركاتوس الذي يرفض فيه أبناء الذئبة شراء العشرين ألف أسير المحتجزين بين أيديكم، رغم الضغط الشديد الذي مارسه أهلوهم على مجلس الشيوخ؟ إن مدينة قادرة على أن تضحّي بمثل هذا العدد الكبير من أبنائها الأعزاء لا تُقهَر، بل هي أبعد عن ذلك، وتبدو لي أيضاً أكثر رهبة من أي يوم مضى. أشرت إلى سفراء السامنيين واللوكانيين؟ أين رسل روما لطلب السلام؟ هل تحمل اقتراحات مصاغة من قبلهم، إن تَقُل نعم، فما هي؟ لقد لزمت الصمت لأنك لا تستطيع الردّ على ملاحظاتي.

- هل تعتقد أن انتصاراتنا في تراسيمين وكانّاي لا أهمية لها بسهولة.

- ماتزال حدثاً لتكتسب خبرة ومراس والدك، هميلقار، ولو أنه الآن موجود بيننا لعرف كيف يحدثك. خلال حربنا السابقة ضد روما، كبدنا العدو عدة هزائم في البر والبحر. وكفى تدمير أسطولنا في عرض جُزُر أغات لإجبارنا على الاستسلام. مثل هذه الهزيمة يمكن أن تحدث، ربما هي قيد الإعداد الآن. وعندما ستعود إلى قرطاجة قد يفاجئ العدو أخاك ويهزمه. ماذا ستقول آنذاك إن حضر رسول يحمل إلينا غداً مثل هذه الهزيمة الجديدة؟

- حنون أنت تكره عائلتنا وهذا الشعور يفقدك الصواب. هل يمكنك أن تنكر انتصاراتنا.

- في الحقيقة، نعم. فلا شيء تغيّر بشكل رئيسي منذ مغادرتكم قرطاجنة. مانزال في حرب لم تحسم نتيجتها، فبماذا تريد مناقشتي؟ إذا طرحنا على التصويت السؤال التالي: هل تقترحون على العدو فرض السلام أم قبوله؟ فإنني أعلم جيّداً ماذا ستكون النتيجة. غير أن المقترحات التي تعرضها علينا مختلفة إذ تطلب منا إرسال

نجدات. في هذا الوضع يتلخّص موقفي في عدم إرسال شيء بل بالعكس، الحكمة تقتضي التأكيد على استدعائكم.

انطلقت من كل مكان صيحات عدم الموافقة. استغلّ إيتربعل هذه البلبلة وحصل على الموافقة السريعة بإرسال أربعة آلاف رجل وأربعين فيلاً لهنيبعل، ودفع ألف وخمسمئة مثقال فضة(*) لتسديد رواتب المرتزقة تحت إمرة وقيادة الأميرال بوميلقار. وأُقرَّ مع حلول فصل الربيع التالي إرسال إثني عشر ألف من جُند المشاة، وألف وخمسمئة فارس، وعشرين فيلاً وستين سفينة حربية تُوجَّه إلى سواحل مرفأ بروتيوم. كما قرّر مجلس الشيوخ إرسال عشرين ألف جندي من المشاة وأربعة آلاف فارس نوميدي لدعم جيش حسدروبال برفقة كارتالون وهميليكون.

عانى ماغون مشقّة للإفلات من ضغط مواطنيه الذين أرادوا تهنئته أو طلب هذه الحظوة أو تلك منه. أخيراً، استطاع أن يغادر قاعة المداولات ليمرّ على ميغارا لتحية زوجة أخيه إميليسي قبل سفره. استقبلته هذه بالفرحة على مدخل مسكن آل بَرْقا القديم. كانت ترتدي ثوباً من الكتان الأبيض الناعم يكشف عن مفاتن قوامها، ويبدو أن السنين لم تترك أثارها على وجهها المستمرّ بإشعاع الفتنة، ودلالة على الترحيب قدّمت لنسيبها قدحاً من الخمر الفاخر وانتظرت أن يحتسيه قبل أن تسأله:

ـ كيف حال زوجي؟

ـ على أفضل ما يستطاع. تعلمين دون شكّ أنّه فقد عينه خلال اجتياز المستنقعات.

ـ علمت ذلك، إنما أراه في أحلامي، كما هو في السابق وإنني متلهفة لألقاه مجدداً.

ـ إن كان الأمر يتعلّق بي ستستقلين السفينة التي ستنقلني إلى

(*) المثقال: نقد يوناني قديم يساوي حوالى 26 كغ من الفضة (ملاحظة المترجم، الكامل الكبير).

إيطاليا، وأنا متأكّد أن هنيبعل سيكون سعيداً لمبادرتي. غير أننا نحتاج إليك هنا أكثر من أي وقت مضى، فخصومنا في مجلس الشيوخ يشحذون الأسلحة لمعاكستنا رغم الأخبار الممتازة التي نقلتها إليهم. فهذا اللعين حنون يتصرّف وكأنني أحمل إليه هزيمتنا الكاملة. أتصوّر أنه يحيك من وراء ظهرنا الدسائس وأنت الوحيدة القادرة على إفشال مساعيه.

- إنّك تحكم علي بالبقاء هنا بعيداً عن زوجي، كلماتك هذه تنغرز في قلبي كالخناجر.

- هل نسيت ما قلته لك؟ لو كان الأمر ممكناً، لما تطلب سفرك سوى بضع ساعات. كلا تأكّدي أن آل بَرقا لن يسمحوا بمغادرتك قرطاجة بينما يضاعف أعداؤهم في المدينة من نشاطاتهم.

- لا تضف شيئاً لحديثك. قطعت وعداً لهنيبعل وسأنفذه.

- يا عزيزتي إميليسي. خمّنت السؤال الذي لم تجرؤي على طرحه: أليس زوجك أميناً على العقد الجاري بينك وبينه قبل رحيله عن قرطاجنة؟ سمعت دون شك حديثاً عن هيلين خليلته. ومن الحمق أن أتجاهل وجودها. يمكنني مع أؤكد لك أنها بالنسبة إليه أُلهية بسيطة وستبقين وحدك حبه الحقيقي. فأجأته أحياناً دون أن يشكّ بوجودي وهو يتمتم برقة باسمك وأؤكد لك أن هذا البرهان لمحبة حميمة قد استدرّ الدموع من عينيَّ. في كل مرّة كنت أتحاشى قطع تلك اللحظة من العاطفة الصادقة التي تحسدك عليها نساء كثيرات لو عرفن واقع الأمر.

- ماغون أنا أعلم أنك غير قادر على الكذب وأنك لا تستطيع ابتكار ما تقصه عليّ. فلتغمرك الآلهة على أعمالك الخيّرة وتحميك في طريق عودتك. قل لهنيبعل إنني سأدعمه هنا بكل ما أستطيع، وأنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سألقاه بها.

* * *

التحق ماغون بأخيه في كابوا[*] حيث استقر بعد أن رفع الحصار عن نيابوليس[**] المحصّنة بشدة، والتي يتطلب الاستيلاء عليها آلاف الرجال. فضل هنيبعل قبول دعوة أعيان المدينة القديمة الشهيرة بكرومها الغنيّة وسُوقِ عطورها، في سبلازيا، حيث تباع منتجاتها بسعر باهظ حول البحر الكبير بكامله. بعد أن أعلم ماغون هنيبعل عن الاستقبال الذي لقيه في قرطاجة، ونقل إليه رسالة إميليسي، تجرأ على القول له:

ـ اقتنعت برؤيتك مجدّداً في تارنتم إذ أنني اعتقدت أن هيلين مافتئت تحاول أن تثبت لك ضرورة تحرير وطنها.

ـ وعدتها أن أفعل، إنما لا داعي للعجلة. بعكس ما تعتقد لن تفرض علي رأياً مهما كانت وجاهته. رأيت من الأفضل لمعنويات جيشي إعادة تشكيل قوته ضمن إطار جيّد، وعندما بيّنت لهم أهمية وجودنا في كابوا استقبلوا الخبر بتصفيق حار. من بين جميع مدن كامبانيا تُعَدُّ كابوا المدينة الأكثر غنى وعنابرها تعجّ بالمؤن ولن تتأخّر بتقدير مذاقها الفاخر. حرص أهلها على حسن استقبالنا، وقد أكّدت لي حفاوتهم الأخوية ضرورة تحالفنا معهم، واعدين إياهم بمنحهم حرياتهم السابقة قبل خضوعهم لروما.

ـ لا تبالغ في صدق عواطفهم؟ بعد كل حساب هم لا يرغبون في تحويل مدينتهم إلى رماد.

ـ أقول لك الحقيقة، كان أفضل حليف لنا في هذه القضية، القنصل كايوس تيرنتيوس فارون، هذا المغرور الأحمق الذي سحقته في كانّاي. أرسل له الكابويون سفيراً يلتمسون حمايته، وقد حرص أن يقدّم لمندوبهم خطاباً كفيلاً بإلقائهم في معسكرنا. أكد

(*) هي كابو الحالية.
(**) هي مدينة نابولي الحالية.

لهم أن روما لن ترسل لهم أيّة حامية وعلى جميع الفرقاء تأمين حراسة مدينة رومولوس. ثم وصفنا بالمظهر الأكثر قتامة، متهماً إيانا بأكل اللحوم البشرية ولجوئنا إلى جثث أعدائنا لبناء جسور تعبر بنا الأنهار الأكثر عمقاً. لا يُعَدُّ هذا شيئاً تجاه العيوب التي أطلقها على أبطالنا النوميديين الأباة باعتبارهم متوحّشين دمويين يلزمهم يومياً مئات من الضحايا لإطفاء ظمئهم إلى الدم.

«غير أنه لو أراد، لاستطاع إطفاء ظمأ الكابويين بقوله إنني لا أحب هدر وقتي في حصار المدن ـ وفي هذا منتهى الصواب ـ وإنني لدى أقلّ مبادرة مقاومة يظهرونها أحوّل عنان قواتي إلى بروتيوم. كان بمقدوره الاعتماد على دَغْم راسخ من العائلات الكابوينية الغنية المرتبطة بأواصر المصاهرة مع السلالات الارستقراطية الرومانية. وستقابل قريباً قاضي كابوا الرئيسي ـ باكوڤيوس كالاڤيوس. وهو ليس مواطناً رومانياً فقط بل هو صهر القنصل السابق أبيوس كلوديوس بولشر وعَمُّ القنصل الآخر، ماركوس ليڤيوس ساليناتور. وقد نشأ ابنه وشبّ على ضفاف نهر التيبر، وهو يشعر أنه روماني أكثر من أيّ مولود في تلك المدينة. ثلاثمئة من رفاقه يعملون ضمن الفرق التي تقيم في صقلية وقد اشتهروا بشجاعتهم وانضباطهم.

ـ لكن لماذا خان آباؤهم حُلفاءهم القدامى؟ إنّه أمر لم أتوصل إلى فهمه وأنا أستمع إليك!

ـ إنها قضية في منتهى البساطة. عندما نقل سفراؤهم مقترحات كايوس تيرنتيوس فارون، ظنّ سكان كابوا أن هذا الأخير فقد عقله وأن مجلس الشيوخ سيكون أكثر تعاطفاً واهتماماً بمطالبهم. أرسلوا وفوداً إلى مدينة رومولوس كي يؤكدوا وفاءهم لها، ويطالبوها بضمانة وحيدة، لعدم تخليها عنهم، وهي أن تختار أحد القنصلين المقبلين من صفوفهم. استاء شيوخ المدينة من هذا الادّعاء وأمروا الوفد بمغادرة المدينة في الحال. اضطر المساكين

إلىالإذعان، وتملّكهم الغضب لهذا الجحود فَقَدِموا إلى أبواب معسكري ملتمسين المقابلة.

ـ كنت أعتقد أنك نشرت كنوز معرفتك لإغرائهم بالتحالف معك.

ـ أنت مخطئ. تصرّفت بكل بساطة كأي كائن بشري متواضع، واستقبلتهم بمظاهر التكريم المتلائمة مع مكانتهم. استمعت إليهم ولم أرد أن أزيد من ثقل خيبتهم، مما كفاهم أن يوقّعوا في الحال المعاهدة التالية: «لا يمكن لأي قائد أو رئيس قرطاجي ممارسة أي حقّ على مواطن كامباني. لا يُفرَض أيّ التزام عسكري أو أيّة عبوديّة على المواطن الكامباني؛ وستحتفظ كابوا بمؤسساتها وقضاتها. وسيترك هنيبعل للكامبانيين اختيار ثلاثمئة رهينة رومانية لإجراء التبادل مع فرسانهم المتطوّعين في صقلية». لم يطلبوا أكثر من ذلك ليفتحوا لنا أبواب مدينتهم.

ـ إنني مسرور لهذا الاتفاق غير أنني كنت أفضل، حفظاً لكرامة الكابويين، أن يفضل الأكثر شجاعة بينهم معارضة هذا الاستسلام المقنّع بكل الوسائل، فأنا لا أحب اتخاذ الجبناء حلفاء لنا.

ـ اطمئن. يوجد من بينهم رجلان على الأقل يستجيبان لأمنياتك. الأول هو ابن باكوڤيوس كالاڤيوس الذي كلمتك عنه؟ وقد أقام والده مأدبة على شرفي؛ ولأجل تكريمه قررت أن أضع ابنه إلى يميني، ولكن هذا الصعلوك لم يكتف بعدم توجيه الكلام لي، بل رفض أن يشرب كأس الخمر الذي رفعته تكريماً للاتفاق الجديد الجاري بين كابوا وقرطاجة وفضّل مغادرة القاعة. وانطلق والده في إثره. أمَرت سيلينوس بالتجسس على محادثتهما، وما نقله إليّ كان مؤثراً. أسرّ الشاب لوالده وهو يبكي بأنه أخفى تحت جلبابه خنجراً عَزَمَ على أن يخترق به فؤادي عند إسرافي في تناول الخمر. من أجل إقناعه بالعدول عن مجازفته لم يجد الأب حلاً لإثارة شفقته وهو يسكب الدموع الحارّة إلا بقوله: «لا أستطيع يا بني أن أمنعك مما يقتضيه واجب الشرف أو ما تعتبره شرفاً من القيام به. غير أنّ هنيبعل

ضيفي ولا أستطيع التساهل في ارتكاب عمل يخالف قواعد الضيافة المقدسة تحت سقف بيتي. أعلم أنني في حال عزمك على تنفيذ نيّتك الإجرامية أنني سأحمي ضيفي البوني بأن أجعل صدري سدّاً منيعاً في وجهك». عند هذه الكلمات انفجر الشاب منتحباً، وقال لباعث أسباب حياته: «سأضحّي لوالدي بما يوجبه علي وطني. إنني أتألم من أجلك، وأعتبر أنّك مذنب للمرّة الثالثة تجاه مدينتك: المرة الأولى عند اقتراحك التخلّي عن روما، والثانية بلجوئك إلى الصلح مع هنيبعل، والثالثة في هذا اليوم الذي تؤخّر وتمنع فيه كابوا من التحالف مع روما. إيه يا وطني، استقبل هذا السيف الذي أعددته لإنقاذك، عندما دخلت في جحر هؤلاء الأعداء، لأن والدي ينتزعه من يديّ. ورمى به من أعلى سور الحديقة، فالتقطه سيلينوس. وأعدته للشاب عندما استعاد مكانه على المائدة، لأبرهن له عن إعجابي به. وغدونا بعد ذلك من أعز الأصحاب في العالم.

- ومن هو عدوّك الثاني؟

- إنّه دسيوس ماجيوس أحد الشيوخ المحليين، وقد تحدّاني علناً عندما توجّهت إلى زملائه. وبعد أن تم اقتياده إلى معسكري لأتحاور معه على انفراد، ما فتئ طوال الطريق يخطب في الجماهير التي تجمّعت حول الموكب: «ستحصلون أيها الكامبانيون على الحرية التي تطلبونها. في وسط الساحة العامة وضوء النهار الساطع يعمُّ الكون وتحت أعينكم يلقى القبض عليّ وأنا المواطن الرئيسي في المدينة، أُقيّد وأُجَرّ إلى الموت. إن أُخذت كابوا أية بلية أشدُّ من ذلك؟».

- هل عمدت إلى شنقه؟

- كان سيعتبر ذلك متعة له. فضّلت أن أضعه على متن قارب متوجّه إلى قرطاجة، غير أن مركبه ضلّ طريقه بسبب العاصفة ووصل إلى مرفأ سيرين ومنها إلى الاسكندرية حيث وضع نفسه تحت حماية فرعون. وقد عرض هذا عليه إعادته إلى كابوا أو إلى

روما. غير أنّه رفض العرض بكل تهذيب زاعماً أن مملكة من أعاد إليه حريته تلك التي يفضل أن يقضي بها بقية أيام حياته. وهكذا فقد انتهينا منه إلى الأبد.

بعد اتخاذه كابوا قاعدة رئيسية لجيشه، وجّه هنيبعل عدّة هجمات، تكللت جميعها بالنجاح، ضد الحاميات الرومانية في نوسيريا(*) ونولا وأسيريا(**)، قبل صعوده إلى كازيلينوم الواقعة على ضفاف الڤولتورن التي استولى عليها بخسائر خفيفة. ثم عاد إلى كابوا ليقضي فيها مع جنوده فترة الشتاء.

كانت أشهر الفصل السيّء التي مرت على رجاله في المدينة الكامبانية أفضل أيام حياتهم. استطاعوا أن يهجروا خيامهم ليأووا إلى مساكن المواطنين في المدينة الذين رأوا في ذلك بادرة تكريم ليقدموا لهم ما يحتاجون إليه. لأوّل مرّة في حياتهم لم ينم الغاليون أو الإيبيريون على الأرض أو على أغصان الأشجار المجمعة على عجل، بل في أسرّة حقيقية ذات أغطية ناعمة تدفئها حرارة الأغطية الصوفيّة المنسوجة بدقّة، وخاصّة، في أحضان الشابات الكابونيات اللواتي كن يطنبن في مديح مهارات رفاقهن الغرامية. قضوا أيامهم القصيرة بين التمتع بمشاهد الألعاب البهلوانية والتمارين الرياضية والحفلات المبذرة برفقة صحبة ظريفة. عندما قصُ الجواسيس على ماركوس كلوديوس مارسيلوس، أحد القادة الرومان الرئيسيين، كيف يقضي جنود هنيبعل الأباة المنيعون أيامهم مستسلمين «لملذات كابوا»، نطق سريعاً بتلك العبارة التي أشاعها أنصاره في الشوارع الضيّقة المحيطة بالساحة: «لقد أُنقذت روما. كابوا ستكون كانّاي البونيين!».

(*) هي نوسيرا الحالية.
(**) هي أسيرا الحالية.

في الحقيقة كان في ذلك كثير من التسرّع. فمنذ رحيل جنود إليسا عن قرطاجنة عانوا كثيراً الحرمان والآلام حتى أنّ هذه الأسابيع من الترفيه كانت ضرورية لتجديد قواهم. إضافة إلى أن القائد البوني قد حرص على ألا يستفيد المتطوعون الجدد القادمون من قرطاجة تحت إمرة بوميلقار من هذه المعاملة الخاصة، حيث تم وضعهم تحت إمرة ماغون، وهم يحتاجون إلى تدريب كثيف ليستطيعوا في اليوم الموعود مساواة رفاقهم في السلاح. ردّ فعل الرومان يعتمد في هدفه خاصة على طمأنة مواطنيهم لأن لديهم كل الأسباب المثيرة للقلق.

ذلك أن القنصلين الجديدين اللذين مارسا أعمالهما منذ بداية العام، تيبريوس سمبرونيوس كراكشوس ولوسيوس بوستيموس ألبينوس، لقيا مصاعب جمّة لإعادة النظام وإدارة قارب الدولة. قُتل الثاني بعد تنصيبه بقليل في كمين أعدّه البويون وأنصارهم، فانهارت معنويات رجاله، وتخلوا عن مواقعهم المنيعة في بلاسنتيا وكريمونا التي تدفق سكانهما أفواجاً على ضفة نهر التيبر، ليزيدوا في عدد اللاجئين الذين تزخر بهم الأحياء الشعبية في المدينة.

اختارت مجالس الشعب الرومانية المئوية ماركوس كلوديوس مارسيلوس بديلاً عنه، غير أن انتخابه ألغي من قبل خصومه داخل مجلس الشيوخ الروماني احتجاجاً على أصله الوضيع. وجب عليه أن يعهد بمهامه إلى كانتوس فابيوس مكسيموس أحد المقربين منه والكهل الذي اكتفى بممارسة عمل قنصل الإقليم للمرة الثالثة، متولياً قيادة القوات المقيمة شمال كامبانيا ليقطع طريق روما على القرطاجيين.

مع عودة الفصل الجميل استقرّ هنيبعل على جبل تيفاتا(*)،

(*) هي مدينة مونت ڤرجين شمال أڤيلينو.

وأرسل أحد قوّاده هيميلكون بن بوستار لإتمام احتلال بروتيوم بالاستيلاء على بتيليا(*) وكونسنتيا(**) وكروتون ولوكرس التي تضمُّ معبداً مشهوراً يُنسَب إلى بروزربين امتنع القرطاجيون عن نهبه. بقيت مدينة ريجيوم(***) وحدها، رغم محاصرتها من جميع الجوانب، تابعة لروما. هذه الانتصارات تمّت من قبل جيش قيل عنه خطأً إنَّ مباهج كابوا قد أفسدته، وقد منحت هنيبعل تحالفات جديدة. أرسل فيليب، ملك مقدونيا، القلِق من جشع الرومان على السواحل الإيليرية المجاورة لمملكته، سفيراً إلى الجنرال الأعور ليعقد مع هذا الأخير معاهدة معونة متبادلة. نُظِر إلى تلك القضيّة بمنتهى الجديّة من قبل مجلس المئة والأربعة الذي أوفد على عجل ثلاثة من أعضائه هم ماغون وميركان وبارموكار لإدارة المفاوضات. نصّ الاتفاق على تضافر جهود قرطاجة ومقدونيا في حال الاعتداء الروماني على أي منهما. مكافأة لهذه الخدمات الطيبة والمخلصة يتلقى فيليب في نهاية الحرب إيليريا وإيبيريا، لكنه ارتضى بالمقابل الاعتراف بحماية قرطاجة على جنوب شبه الجزيرة الإيطالية.

إضافة الى ذلك تغيّر موقف الصقليين وأهل سيراكوزة خاصة، الذين كانوا ولقرون طويلة، الحلفاء الأمناء للقرطاجيين. في بداية الحرب البونية الأولى حارب ملكهم، هييرون، مع الماميرتانيين وفرق مدينة إليسا لطرد الحملة الرومانية بقيادة كلوديوس بولشر أزينا من الجزيرة الكبيرة. ثم خان بعمل طائش رفاق سلاحه وانتقل إلى خدمة روما متلقياً ثمن خيانته مبالغ كبيرة من الفضة وملكية مدينة ميسين(****). حار الملك التسعيني حاليّاً، بين ولائه لأبناء

(*) هي بتيليا الحالية.

(**) هي كوسانزا الحالية.

(***) هي مدينة ريجيو كالابر وريجيوم هو الاسم اللاتيني للمدينة التي أسسها الإغريق باسم ريجيون.

(****) هي مدينة مسينا الحالية.

الذئبة ودسائس، الأمير جيلون، الوريث المناصر للتقارب مع قرطاجة، الذي مات ضمن ظروف غامضة ضحية احتمال تسمّم. بعد اختفاء هييرون، خَلَفه حفيده هيرونيموس وكانت أول حركة له ملأى بالمعاني، إذ أرسل وفداً إلى هنيبعل ليسبر نوايا القائد القرطاجي. استقبل الأخير مندوبي سيراكوزة كأصدقاء قدامى، وأفهمهم أنّه لا يعير أهمية لخيانة هييرون. قدّم لهم هدايا فاخرة وأرسل الضابطين هيبوكراتس وإبيكدس لمرافقتهم في صقلية، وهما قرطاجيين عاش أسلافهما منذ أوقات طويلة في الجزيرة الكبرى حتى أنّهما حملا أسماء عائلية إغريقية.

تفاوض هذان الرجلان بضراوة مع هيرونيموس لعقد المعاهدة. وبدأ الملك الشاب بالادّعاء، في حال الانتصار على روما، بالحق في الحصول على نصف صقلية حتى نهر هيمراس(*)، ثم تذكّر فجأة بأنه حفيد الملك الإيبيري بيرهوس الذي ماتزال مآثره ماثلة في ذاكرة جميع الناس، وألزم مجلس المئة والأربعة بالاعتراف بملكية كل الجزيرة، على أن يضمن للقرطاجيين حق التصرّف بعدّة مرافئ وقلاع لقاء تسديد أتاوات فادحة. كان سفراؤه الذين أوفدهم بسرعة إلى قرطاجة، قد قدموا مطالبة بلهجة ملؤها العجرفة، مما أثار حفيظة حنون الكبير الذي التمس من الشيوخ في خطاب رنان رفض هذه العروض المعيبة وألهبت حججه مشاعر معظم زملائه.

أُخطرت إميليسي التي حصلت بعد مشقة كبرى على تقرير التصويت، فجمعت قادة الحزب البرقاوي الرئيسيين في قصر ميغارا وقدّمت لهم مأدبة اتفق جميع المشاركين فيها على بقائها في ذاكرة مدينة إليسا لسنوات كثيرة. وضعت الأرائك على مصطبة واسعة محمية من الشمس تحت ظل خيمة من الكتان الأبيض. وبين الخمائل

(*) هو نهر سالسو حالياً.

أنشد المغنون على أنغام قيثارة عذبة متناسقة. قام عبيد من الجنسين بالتتابع في حمل أصناف كثيرة من الأطعمة الفاخرة: طيور تَمٌّ وطواويس مع مَرَق هلامي، نَعامٌ مشوي، سمك مطهو مع توابل نادرة، ثمار طازجة ومسكرة واردة من البساتين الخاصة بالقصر وهي مقدّمة مع خمور أرسلها هنيبعل من كامبانيا. إلى جانب كل مدعو تُحرق عطور في مجامر فضيّة واردة من سبلازيا وهي تملأ الجو بروائح عطرة. في نهاية المأدبة غادرت إميليسي سرير استراحتها لتحيي شخصياً كلاً من المدعوين، ولتقدّم له إكراماً لزوجته صندوقاً تمت زخرفته بدقة ممتلئاً بحليٍّ واردة من سلب أملاك الشيوخ الرومان في كامبانيا ولوكانيا. ثم عادت إلى مكانها وتوجّهت إلى مدعويها بالكلمة التالية:

ـ أصدقائي الأعزاء، أعلم أن عدداً لا يستهان به منكم قد وافق على خطاب حنون الكبير بخصوص مطالبات الملك السيراكوزي الشاب. إنكم تقدرونها باهظة الثمن وأنتم تقترحون رفضها معتقدين أن في ذلك خدمة لقرطاجة. إنّه فخ نصبه لنا حنون اللعين، لأنه يعلم أن هنيبعل بحاجة لعقد تلك المعاهدة مع هيرونيموس ليوجه ضربة حاسمة لروما. خسارة صقلية تحرم مدينة رومولوس من مؤونة القمح وتلزمها على الاستسلام، بعد أن يضطر سكانها للتغذي بالعشب النابت بين بلاطات الساحات العامة. هل تفكرون لحظة واحدة أن المدن الأخرى في الجزيرة الكبيرة ترضى تبديلاً بالنير الروماني سوط السيراكوزيين؟ إن بانورموس وأكراغاس لا تتساهلان في هذا مطلقاً، وهما تتداعيان إلى تحكيمنا لنعيد هذا الشاب الأحمق هيرونيموس إلى التعقل ولنمنحهم الرضا والارتياح. ما يؤخذ في الحساب حالياً هو إيصاله إلى رفض تحالفه مع روما، ولن يكلّفنا شيئاً تقديم وعود له! ولهذا أرجوكم باسم زوجي أن تتظاهروا بالموافقة على تلك العريضة.

قال إيتربعل: إميليسي إننا نتبع نصائحك غير أنني أشكّ في تقدير الشعب لموقفنا، وسيعرف حنون كيف يستفيد من حقده.

ـ أنت تتكلم عن الشعب لكنك تجهل مشاعره لأنّك ترفض أن تختلط به خارج أوقات الانتخابات. أما أنا فإنني أعرفه جيّداً لأنني أتجوّل جيّداً في شوارع قرطاجة، على قدميّ، وليس في محفة فخمة مسبوقة بعبيد يطردون المارّة من أمامي. الحرفيون والحمالون يتوجّهون إليّ بمودة لأشاركهم في همومهم ومشاغلهم. وبهدايا بسيطة أحاول أن أخفف تعاسة الأكثر عوزاً منهم، وباتصالي بهم فهمت شيئاً: هؤلاء الناس الأكثر خشونة الذين تزدريهم، وأنت تتظاهر وتتصنّع الكلام باسمهم، ليس لهم إلا تعزية واحدة في حياتهم القاتمة: هي أن يعلموا أن آباءهم أو أبناءهم أو أخوتهم يقاتلون إلى جانب زوجي ويساهمون في تحقيق الفخار لمدينتنا. إن يلوموك على اختيارك أجبهم أنك تصرّفت بناء على طلبي، وتأكّد أن ذلك يخرس جميع المعارضين.

ـ ماذا يجدي اهتمامنا بصقلية؟ قال بوميلقار وهو شيخ ذو آراء متقلّبة، حتى أن إميليسي تساءلت عن سبب عناد إيتربعل في اعتباره أحد أصدقائه.

قالت: لم أكن أعتقد أنني دعوت إلى مأدبتي حنون الكبير. مثيرة مرح المدعوين الآخرين. لا شكّ أن ازدراءك للجزيرة الكبيرة مرده أن ملكية أسلافك كانت في سردينيا.

ـ هذا صحيح، وفشل بعثتنا الحديثة هناك يجب أن يحرّضنا على المزيد من الحذر.

ـ بما أن الخمر الباردة لم ترطب ذاكرتك، اسمح لي أن أفعل ذلك نيابة عنها. مَنْ أمر مجلس شيوخنا بإرسال حملة إلى كارال(*) بقيادة حسدروبال الأصلع وحنون ابن ميركان؟ أنت! وقد زعمت أنّك

(*) هي كاغلياري الحالية.

على علاقة مع سرديني من أم بونيّة، يسمى همبسيكوراس، أكّد أنّه قادر بكلمة بسيطة منه أن يثير الآلاف من مواطنيه المتأوهين تحت ثقل ضرائب روما. ولتكمل إقناع زملائك، دعمت كانتوس موسيوس سكافيولا الحاكم الجديد، وهو قليل الخبرة كليّاً ليتولى قيادة الفرق المقيمة في سردينيا، غير أن جيشنا المقيم في سردينيا المعتمد على الحلفاء المحليين لم يكن يشكّل إلا لقمة بخسة أمامه. للأسف لم يكن هذا الشاب بخبرته التافهة هو من أنزل قواته في الجزيرة إنما أحد القادة الرومان الأكثر كفاءة وخبرة، تيتوس مانيليوس توركاتوس. سحق هذا القائد الجليل قواتنا وأسر حسدروبال الأصلع وحنون وآلافاً من جنودنا. وجئت أنت لتقدم لنا النصائح. اخرج من منزلي ولا تظهر أمام وجهي! التحق بحنون الكبير، فأنت الذي تتجسس علينا لحسابه منذ سنوات عديدة.

انضمَّ بقية الشيوخ يشاركون إميليسي في رأيها، ورحل مبعوثو هيرونيموس إلى سيراكوزة ليعلنوا لسيّدهم قبول مجلس المئة والأربعة لمطالبهم، ولم يتيسّر للملك الشاب الوقت لاستغلال تلك الفرصة إذ أنه قضى نحبه مقتولاً في ليونتينوا(*)، بعد أن قاد جيشه لزحزحة حامية رومانية ضعيفة عن ذلك المكان الحصين. ولم يكن لموته أيّة أهمية لإبطال تحالف مدينته مع قرطاجة. وبدورها عُدّت صقلية جزيرة مرتدة.

* * *

لم يمرّ هذا الحادث دون تأثير على الانتخابات التي جرت في روما لانتخاب قنصلين جديدين، وهي انتخابات ترأسّها كانتوس فابيوس مكسيموس العريق في خبرته. وأمام دهشة الجميع بدا وهو المحافظ المغالي يتعامل بخفة أمام إجراء قديم جداً يتحكّم بالاقتراع. قُسّمت مجموعة الناخبين إلى مئات ضّمت أولياتها

(*) هي لنتين الحالية.

الفرسان والمواطنين الأكثر ثراءً الذين يُعَدُّ اقتراعهم مصدقاً من المئات الأخرى. تقليد فريد يفرض أن يدلي الناخبون بأصواتهم عن طريق القرعة باختيار مئة متميّزة لرأيها طالع الفأل السعيد. فاختارت المصادفة لذلك العام مجموعةً الشباب، أي الشبان الذين تقلّ أعمارهم عن ستة وأربعين عاماً من قبيلة آنيو الذين يعيشون شرق روما، وقد اختارت هذه المجموعة بأغلبية كبيرة تيتوس أوتاسيليوس كراسوس وماركوس أميليوس رجيلوس اللذين ضمنا وصولهما إلى القنصلية في المستقبل.

أمام الدهشة العامة ألغى فابيوس مكسيموس الانتخاب متذرعاً إمَّا بعدم جواز انتخاب المرشحين، أو عدم شرعية المُنتخبين لممارسة وظائفهما. كان ماركوس أميليوس رجيلوس كاهناً في كيرنيوس وهذه الصفة الدينية تحول بينه وبين مغادرة أسوار روما، وبالتالي ممارسة القيادة العسكرية. أما تيتوس أوتاسيليوس كراسوس فهو نسيب بالمصاهرة لكانتوس فابيوس مكسيموس وهو، وفق رأي الأخير، غير كفء لأنّه وهو قائد الأسطول لم يستطع أن يعترض سفن التموين المرسلة من قرطاجة لهنيبعل. استغل كانتوس فابيوس مكسيموس مكانته بصفته ديكتاتوراً سابقاً، وأقنع الناخبين بتسميته قنصلاً مع ماركوس كلوديوس مارسيلوس الذي أعيد إليه اعتباره مؤخراً.

اعتبر كانتوس فابيوس مكسيموس هذا الحراك السياسي المنطلق عن شعور طيب لا عن ظمأ جامح للسلطة معطلاً لإدارة الحرب، فما أن ينتهي القناصل من إعداد مخططات الحملات العسكرية حتى يتوجب عليهم تركها لخلفائهم المنتمين الى الجناح المعاكس. لذلك قرر وضع نظام يؤمن استمرارية أعمال الدولة: وهكذا عندما يفوز حزب ما يشغل أعضاءه بشكل متتابع وظائف القناصل، أما الآخرون خارج الحزب فتتضاءل سلطاتهم الى وظيفة قنصل إقليم، في هذا الظرف كان المستفيدون من هذا الخرق

للقوانين العريقة، حزب فابي، خصومهم، أعضاء جماعة كورنيليا ومن أشهرهم: بوبليوس، وكنايوس كورنيليوس سيبيون الذين وجدا نفسيهما يُوجَّهان إلى إيبيريا دون أمل كبير في استدعائهما قبل سنوات طويلة.

بانتظار استئناف العمليات ضد هنيبعل، عمد القنصلان الجديدان إلى إصلاح نقدي غدا ضرورياً بعد الهبوط المتتابع «للأس»، عملة البرونز التقليدية، التي أدّى سقوطها غداة معركة كانّاي إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية وفقر الطبقات الشعبية. اجتمع الشيوخ في لجنة صغيرة قرروا فيها ابتكار الدانق الفضي، الذي يزين وجهه رأس يعتمر خوذة تمثل روما. أمّا الضرائب فازدادت بشكل كبير مما دفع العائلات الأكثر غنى إلى تسديد مساهمات طوعية لتجهيز الأسطول وفرق الجيوش الجديدة. كانت تعزيتهم الوحيدة هي أن هذه السُلف سيتم تسديدها لاحقاً من الأراضي المقتطعة من الأملاك العامة.

هذه الاحتياطات التي لا سابق لها تشير إلى أن مدينة رومولوس تستعد لاستئناف الهجوم. احتل هنيبعل المناطق المجاورة لكابوا، قبل أن يعيث فساداً في أراضي كومس ونيابوليس. صادف خلال تلك الحملة على ضفاف بحيرة آفرن مجموعة شباب تارنتيين سبق أن أسروا في كانّاي ومن بينهم أقارب لهيلين وأطلق سراحهم. طلبوا منه مقابلتها بحضوره، وهم يرغبون دون شكّ في إثارة حماس وعطف القائد البوني: أكّدوا له أنهم مستعدون لتسليم مدينتهم إذا تمكن جيشه من الوصول إلى أسوارها. وثق ابن هميلقار بكلامهم. غير أنّه لاحظ عند وصوله إلى مقربة من تارنتم أن حاميتها قد دُعِّمت بقوى ماركوس فاليريوس لفنيوس الوافد من برنديزيوم، ولذلك انتهى الحصار إلى الفشل. تمّ عند المساء لقاء عاصف مع خليلته.

قال لها: ها هي الطريقة التي استقبلني بها مواطنوك. اعتقدت

أنَّهم مشوقون لنيل حريتهم، وخيِّل إليّ أنّ وجود عدة مئات من قواتي يكفي لجعلهم ودعاء كالخراف.

- إنني أدرك خيبة أملك يا هنيبعل، إلا أن الأمر يتعلق بسوء فهم. إن سمحت يمكنني الدخول ليلاً إلى المدينة، وأنا متأكّدة من قدرتي على إثارة فتنة شعبية فيها تلزم الرومان باللجوء إلى القلعة حيث تسهل عليك عملية استسلامهم.

- أمنعك من هذه المجازفة. لا أرغب في فقدك. وسأحترس مستقبلاً من الاستماع إلى نصائحك. لست مؤهلة للاهتمام بالسياسة أو القضايا العسكرية. عليك الاكتفاء بترفيه أمسياتي والترويح عني بدلاً من إزعاجي بمخططاتك الاعتباطية.

- لم أكن أعرف أنّك ستوجّه مثل هذه الخطابات لإميليسي.

- كلمة أخرى وأطردك دون شفقة من معسكري. أمنعك من النطق باسم زوجتي الأثيرة، إميليسي!

عُوِّضَ فشل تارنتم لحسن الحظ بالاستيلاء على سيراكوزة التي تمكن هيبوكراتس وأبيكيدس بعد توزيع مبالغ كبيرة من المال، بانتخابهم قضاة بمناسبة اقتراع بنُقَط تخلّلته مخالفات عديدة. لم يستطع أبيوس كلوديوس بولشر المحتجز في ليليبيه القيام بأي عمل بانتظار وصول القنصل الجديد ماركوس كُلوديوس مارسيلوس، ليقوم بمحاصرة المدينة المتمردة التي اشتهرت بدفاعات لا تقهر. كانت المدينة محميّة من ناحية اليابسة بهضبة إبيبولس المدَّعمة بسور قوي لم تؤثر به كرات الحجارة الثقيلة. أما الأشرادين أو المدينة المنخفضة، فهي محاطة بأسوار ليست أقل منعة، وهي تواجه جزيرة أورتيجي التي تحمي المرفأين الكبير والصغير. غير أن أهل سيراكوزة اقتنعوا أن أفضل مدافع عنهم عجوز نسيب لهييرون هو أرخميدس، المعينّ مهندساً رئيسياً في المدينة، وهو يعيش في منزل واسع قرب برج غالياغر، ويقضي أيامه في ضبط آلات حرب تزرع الذعر في صفوف العدو.

لم يتأخر ماركوس كلوديوس مارسيلوس من الاستخفاف به. استدعى إلى ليليبيه وريجيوم سفناً عديدة استقرّت في الخليج. اقتنع بمناعته، وعمل على ربط المراكب اثنين اثنين مشيّداً على منصّة مرتجلة أبراجاً واسعة تحتلُّ مواقعها المحدّدة أفواج مشاة الجيش الروماني ورماة الرماح، الموجودين على مستوى ارتفاع المدافعين عن الأسوار التي يستطيعون أن يمطروها بسهامهم القاتلة. هذا ما تصوّره القنصل على الأقل. وقد خفّف من غلوائه سريعاً لأن أرخميدس أعدّ على مستوى الحصن منجنيقات وأجهزة إطلاق تمكّن قذائفها من إغراق زوارق الخصوم. خيّل إليه أنه وجد أروع الفُرَص بربط ثمانية زوارق معاً مشيداً على جسورها سُلَّماً عملاقاً محميّاً بصفوف عديدة من المجنّات المتطاولة. اقترب هذا الوحش البحري بشكل خطير من حائط الأشرادين، واستعد الجنود للقفز على الطريق المستديرة المستترة حتى ذلك الحين تحت نسيج من القماش الثخين عندما أظهرت إحدى المنجنيقات شكلها القادر على أن يقذف كتلاً صخرية بحجم منزل كامل يسبّب عند تحطّمه على السفن غرقها مع مئات من الأشخاص على متونها. فكّر القنصل أنّ على السيراكوزيين أن يقضوا فترة طويلة لتزويد هذه الأداة الرهيبة بمواد قاذفة جديدة، فأمر عشرات المراكب بالاقتراب من نطاق السور. هناك أيضاً كان أرخميدس قد توقّع كلّ شيء فأدخل إلى ميدان العمل روافع عملاقة تنتهي بيد حديدية ضخمة، يكفي أن تناور بمهارة لتلتقط بحيزومها سفن الأعداء وترفعها بوساطة ملفاف في الهواء لتسقط بوحشية في مياه المرفأ.

لُذِعَ ماركوس كلوديوس مارسيلوس بتلك السلسلة من الهزائم، فرأى من الحكمة أن يؤخّر باقي أسطوله بعيداً عن الأسوار. ولم يسعه إلا الابتسام عندما لاحظ أن المدافعين في أعلى الأبراج يملكون بعض المرايا، وقال لضباطه:

ـ يفكر هذا الشيطان أرخميدس دون شك بالرغبة التي تتملكني

في أن أرى قواتي بكامل أهبتها. فلتقف إذن المراكب في ترتيب القتال ليتسنى لي أن أنظر كل شيء كما أرغب بفضل الجهاز الذي أعده لنا هذا العجوز المجنون!

سأله أحد قوّاد المئة: ألا تخشى خدعة جديدة من طرفه؟

- لا يوجد أي خطر وأريد أن أقنع هذا الرجل أنني أشك في اختراعاته. افعلوا ما أمرتكم به.

عندما بلغت الشمس نقطة السمت وأصبحت عمودية تماماً، حوّل أرخميدس المرايا بطريقة تعكس فيها انعكاس أشعة الشمس من عربة أبولون، إلى المراكب. وسرعان ما لاحظ الجميع أمام دهشتهم العامة، هياكل المراكب تلتهب بالنيران واضطرار ربابنتها إلى السير بها إلى عرض البحر ليتجنبوا رؤيتها وقد تحوّلت إلى رماد وهي محاطة بالماء. وعندما نُقِل هذا النبأ إلى زميله أبيوس كلوديوس بولشر، لم يستطع القنصل إلا أن يسخر من نفسه ومن مصائبه أمام غضب مخاطبه العارم.

ذلك أن هذا الأخير ومعسكره يقع داخل الأراضي اليابسة، قد حاول عبثاً أن يطلق الهجمة إثر الهجمة ضد الأسوار، ولم يتوصل إلى الصمود طويلاً تحت هذه الأسوار، وخشي أن يؤخذ فجأة من قبل حملة قرطاجية تتألّف من خمسة وعشرين ألف من المشاة وثلاثة آلاف فارس يساندهم عشرون فيلاً أشير إلى إنزالهم قرب هيراكليا مينوا غير بعيد عن أكراغاس(*) حيث استقرّت حاشية بونيّة. تجلّى الخطر الأكثر كِبراً في إحدى الليالي عندما نجح هيبوكراتس على رأس عدة آلاف من الجنود بمغادرة سيراكوزة، ليلتحق بالنجدات المُرسلة من مدينة إليسا والاستيلاء على عدة مدن أخرى كانت ماتزال موالية لروما.

دام الحصار عدة أشهر وبدا أنّ لا نهاية له عندما استولى

(*) هي أغريجنت.

ماركوس كلوديوس مارسيلوس على المدينة نتيجة خيانة. حُكِم على السيراكوزي هيبوكراتس بالجلد لقاء خطأ ووجد نفسه قد أُذِّل بهذا التحقير، فما كاد يبرأ من جروحه حتى انزلق في المعسكر الروماني لينذرهم بأن مدينته تستعد للاحتفال بعيد أرتميس، إحدى الربّات الحارسة. وستقدم الخمرة بغزارة إلى المدافعين الذين ستتلاشى قدرتهم على الرقابة. وَعَدَ القنصل الرجل بمكافأة سخية إن ثبتت صحة معلوماته، كما بيَّن النقاط الضعيفة في ترتيبات الدفاع السيراكوزية قرب برج غالياغر. مع هبوط الليل تسلّق عدة عشرات من الجنود في الظلمة حتى السور الذي نصبوا عليه سلالم عالية من الخشب. كان الحراس سكارى لإفراطهم في شرب الخمر على شرف أرتميس، مما مكّن هذه المفرزة الصغيرة دون عناء من الاستيلاء على الطريق الدائري ثم فتح أحد أبواب الهكسابيل، القلعة المسيطرة على مسطّح الإبيبولس، حيث تدفق بصمت تام جنود ماركوس كلوديوس مارسيلوس. مع الفجر كان هذا الأخير مسيطراً على المدينة العالية التي قتلت حاميتها حتى الرجل الأخير منهم.

كان إبيكيدس قد لجأ مع أرخميدس إلى الأشرادين، حيث تتوافر لهم الأغذية الكافية ولوازمهم من ماء الشرب لإجراءات الحصار الطويل عند الحاجة. عندما علم بموت مساعده هيبوكراتس في المعركة قرب أكراغاس وأن الحملة القرطاجية لن تعمل لنجدته، أبحر في إحدى الليالي سرّاً على متن أحد المراكب الذي اخترق الحصار الروماني ووصل إلى سواحل بروتيوم. قاومت الأشرادين عدة أيام غير أنّ موريكوس الضباط الإيبيري الذي يخدم في الجيش القرطاجي منذ سنوات طويلة دون ترقية اتصل بالقنصل ولقاء وعد بمكافأة سخية ومَنْح أراض شمال ساغونت، فتح للرومان الباب الواقع قرب ينبوع آرِكوز.

هكذا سقطت المدينة المنخفضة بين يدي ماركوس كلوديوس مارسيلوس ومعها ثروات ضخمة متجمعة منذ قرون في قصور

الأرستقراطيين السيراكوزيين. وُضع الأغلى ثمناً منها جانباً ليرسل إلى روما وطُرح الباقي عرضة لنهب الجنود الذين قضوا عدة أيام في سلب المدينة، بيتاً بيتاً، آسرين النساء، والأولاد، واليافعين، ذابحين دون رحمة أو شفقة الرجال القابلين لحمل السلاح والكهول. كان بين الضحايا أرخميدس الذي فوجئ في عزلته وهو يرسم على الرمل أشكالاً غريبة. عندما دخل أحد الجنود إلى الغرفة لم يُبدِ أية مقاومة ولم يكلّف نفسه كشف هويته للمتطفل حتى ينقذ حياته، لأن القنصل أمر بالحفاظ عليه وحمايته لاستخدام كفاءاته. غير أنه فضّل أن يغرق في أفكاره، مما دفع الجندي إلى زيادة حنقه وحزّ عنقه دون أن يعلم أنّه بذلك ينهي حياة أحد أكبر علماء ذلك العصر. عندما علم ماركوس كلوديوس مارسيلوس بالأمر انتابه غضب عنيف وأمر بقتل المذنب بضربات العصا. وحرص على أن يقدم كل مظاهر التكريم للعجوز الجليل، ويضع أقاربه تحت حمايته بعد أن اختاروا السكن لدى بعض السيراكوزيين الحزانى.

* * *

كانت خسارة صقلية صدمة قاسية لهنيبعل. عانت حملته القرطاجية الموضوعة تحت إمرة حنون وموتينس في منطقة أكراغاس مصاعب جمّة، ووجب العمل على إجلائها مهما كانت العقبات. وكلّف بذلك بوميلقار أحد أفضل قباطنة البحر البونيين. وجب على ابن هميلقار أن يذعن ويرضي خليلته بالتوجُّه نحو تارنتم وقد قرّر هذه المرّة الاستيلاء على المدينة. فمرفؤها يتيح له تلقّي مساعدات قرطاجة، وهو يأمل أن يحل فيها فيليب المقدوني ليسيرا معاً في جيش واحد إلى روما.

هنا أيضاً كان أفضل حلفائه أبناء الذئبة. فهم دون أن يعترفوا بفضل لسكان تارنتم لولائهم الطويل لهم، عمدوا إلى قتل عشرة منهم احتجزوا رهائن على ضفاف نهر التيبر، وذلك بإلقائهم من أعلى صخرة تاربيين. كان الضحايا شباباً ينتمون إلى أحسن العائلات

الأرستقراطية وقد أقسم أنسباؤهم على الانتقام لهم عندما تسنح الفرصة. عندما حاصر هنيبعل المدينة لاحظ مع هبوط الليل أن بعض مدافعيها يقومون بطلعات مسالمة، احترس جيّداً من مهاجمتهم حتى عندما كانت قواته تفوقهم عدداً. كانت المفارز النوميدية تعسكر في الجوار وبدا ظاهراً أنّ هؤلاء المقاتلين الفضوليين يسعون إلى الاتصال به، وأمر جنوده بعدم مهاجمتهم بل بالعكس التظاهر بالهرب حتى يتمكّن متابعوهم من اللحاق بهم إلى قرب معسكرهم، مع ابتعادهم بقدر كاف عن مدينتهم بحيث يغدو من المتعذر ملاحظة حركاتهم. خلال ثلاث أمسيات تمت المناورة نفسها مؤكدة لهنيبعل شكوكه؛ وفي اليوم الرابع انطلق مع مفرزة صغيرة للقاء التارنتيين ارتضى اثنان منهم هما نيكون وفيلومينوس اللحاق به إلى خيمته. هناك أكدت له هيلين أن هؤلاء الشباب ينتمون إلى أفضل العائلات الأرستقراطية المحليّة وأن أخوانهم البكر هم من الرهائن الذين أعدمتهم روما. سمح القائد البوني لهم بالرحيل، بل سمح لهم بنقل بعض المواشي معهم ليشرحوا لرئيس الحامية الرومانية قيامهم بغزوة موفقة في المعسكر القرطاجي.

بعد يومين عاد نيكون وفيلومينوس وأخبرا هنيبعل بالشروط التي وضعها أهلهما لاستسلام المدينة: يجب أن تستفيد من ذات المعاملة المطبقة على كابوا، وأن يتعهد القرطاجيون بالامتناع عن أي أعمال نهب فيها. سيُحتَفظ بماغون، الأخ الأصغر للقائد، رهينة في ملكية مجاورة لأحد المتواطئين بحيث تحترم شروط المعاهدة بشكل دقيق. كان الأسير المستقبلي أوّل من أيّد هذا المخطط، وتقرّر لشرح غيابه عن المعسكر أن يزعم ابن هميلقار البكر بتوجيه أمر إليه للعودة إلى قرطاجة. ذهب الشابان التارنتيان مرّة جديدة مع نحو عشرة ثيران وأبقار، إذ يجب أن يقدّما عذراً عن أسباب خروجهما ليلاً لإسكات عدم ثقة رؤسائهما. بالفعل عمدا كل ليلة إلى العودة لتحية هيلين ورفيقها قبل أن يعودا مع الفجر إلى المدينة

المحاصرة مستخدمين إشارة اتفق عليها مع الحارس بإطلاق صفارتين.

في إحدى الأمسيات أُعلم هنيبعل أن قائد الحامية سيقيم مأدبة لضباطه في الحصن الواقع في الجهة الأخرى من المدينة، وأن مراقبة الممر السري الواقع بعد باب تيمنيد سيعهد بها إلى عدة أشخاص متواطئين معه سيعمدون إلى تحويل انتباه الضابط الروماني المكلف بالحراسة معهم. أمر القائد البوني الاستفادة من الظلمة وتكليف عدة آلاف من جنوده للوصول إلى الهضبة المغطاة بالأحراج الواقعة على عدة مراحل من السور وقضاء النهار فيها وهم مختفون بين الأشجار الكثيفة، وفي مساء اليوم التالي مرّ مع مفرزة من الفرسان النوميديين قرب باب تيمنيد. عندما قام نيكون بلعب دوره البارع خائناً، وبلّغ القائد الروماني كايوس ليڤيوس، المنشغل بالانصراف إلى الأكل بأن نحو ثمانين قرطاجياً تقريباً يرودون في الجوار، أبلغه هذا الأخير بأنه مشغول ولا وقت لديه للاهتمام بعصبة من النّهابين، وأمر بعدم إزعاجه خلال السهرة التي يزمع قضاءها مع ضباطه الرئيسيين وبعض العاهرات.

التحق نيكون برفاقه وانتظر بفارغ الصبر وصول فيلومينوس الذي انطلق كعادته ـ على الأقل، هذا ما يزعمه ـ ليصطاد. لم يتأخّر شريكه في الوصول إلى أمام الباب السري الشهير يحمل على كفل حصانه جثّة خنزير بري وأطلق الصفيرين المألوفين. أمر قائد المئة المكلف بالحراسة بأن يفتح الباب للشاب وهرع لملاقاته وليتأمل بإعجاب الحيوان الذي يحمله. عندئذ سقط قتيلاً تحت ضربات النوميديين الذين انزلقوا في الظلمة حتى مخفر الحرس، ثم وصلوا إلى باب تيمينيد وقتلوا الحارسين قبل أن يفتحوا المصراعين الثقيلين اللذين اندفع من خلالهما جيش هنيبعل إلى المدينة، وباشر السكان في ذبح جنود الفرق الرومانية المقيمين بينهم. غير أن بعضاً منهم توصل مع ذلك إلى الهرب وأعلنوا النفير العام في

الحصن الواقع على جزيرة تفصلها عن البحر قناة مائية ضيّقة. استفاق كايوس ليفيوس من سكره وتمكن من جمع بقية الحامية ولجأ إلى داخل القلعة المحمية بأسوار منيعة. ومنها غدا يتحكم بالمرفأ حيث توجد سفن تجار تارنتيين محتجزة إلى أن خطرت لهنيبعل فكرة قطرها إلى المدينة المنخفضة على لفائف من خشب، عبر طريق مخصّص تّم الحصول عليه بهدم عدة مجموعات من المنازل.

كان هذا، رغم جهل هنيبعل، نجاحه الأخير. إذ وجب عليه أن يهب سريعاً لنصرة حلفائه الكابويين. فقد حوصرت مدينتهم من قبل أربع فرق تحت قيادة القنصلين كانتوس فولفيوس فلاكوس وأبيوس كلوديوس بولشر، اللذين هدّدهما مجلس الشيوخ بالموت إن لم يستوليا على المدينة المتمردة. ترك في بروتيوم معظم قوّاته، وتوجّه ابن هميلقار نحو روما في مسيرة إلزامية سالكاً طريق لاتينا، وقد تبعته بعد فترة قوات مؤلّفة من خمسة عشر ألف روماني سلكوا طريق آبيا. بدأت ريح مرعبة تهبُّ على شواطئ التيبر. ووجب على القائد المدني كايوس كالبورنيوس بيزون أن يُملي شروطاً قاسية لقمع بدء ثورة شعبيَّة. كان مجلس الشيوخ يعقد جلسة مستمرة في الساحة العامة والمواطنون يقضون أيامهم في المعابد يُضحون يومياً بآلاف من الأضاحي. حاول بعض مروّجي الشائعات المثيرة للخوف، مندفعين من أعلى الصخرة التاربية، إغراء الحرس بمغادرة المدينة قبل وصول الجيوش القرطاجية. إذ كانت الشائعات الأكثر جنوناً تروج بكثرة حول تلك الجيوش.

تقدّم بعض اللاجئين ذات صباح إلى باب كولين. وهم وافدون من آنيو، المقاطعة الريفية الواقعة على ثلاثين ستاداً من روما وأكّدوا أن هنيبعل على رأس مفرزة من ألفي رجل أقامت معسكراً لها في منازلهم. أمر أعضاء مجلس الشيوخ توجيه هؤلاء اللاجئين تحت حراسة جيّدة إلى العاصمة ومنعهم من أي اتصال مع السكان

حتى لا يثبطوا عزائم الآخرين. تبيّن عدم جدوى هذا الاحتياط، إذ تدافع الجمهور بعد ظهر ذلك اليوم بكثافة إلى الأسوار ليلاحظوا الفرسان النوميديين يقفزون بين باب كولين وباب إسكيلين. وفي وسطهم يبرز هنيبعل معتلياً صهوة حصان أسود يبرق بلمعانه، وقد عُرف من بزّة قيادته. حقّق أخيراً حُلَمه: كان تحت أسوار روما يتأمّلها بعينه الوحيدة مثل عقاب يتأمّل فريسته. رؤيت النيران خلال الليل ترتفع بوضوح من معسكره حيث انضمّت إليه بقية قوّاته.

بعد بزوغ الفجر انتظم الجيشان استعداداً للمعركة، وبدأ كل منهما بممارسة بعض الحركات عندما تفجّرت عاصفة بَرَد عنيفة أجبرت الجميع على الاحتماء. في اليوم التالي تمّت الظاهرة نفسها في المناطق المجاورة لباب كولين الذي غرق في ضباب كثيف. في المدينة انهارت عدّة منازل مسببةً موت سكانها وجيرانهم الذين أقاموا عندهم ينتظرون بنفاد صبر نهاية هذا الطوفان الذي رفع مستوى مياه نهر التيبر. بعد انقطاع المطر هرعت الجماهير إلى الأسوار وملأت صيحات الجماهير الأولى قلوب مواطنيهم ذعراً داخل المدينة معتقدين بسذاجة أن القرطاجيين بدؤوا تسلق الأسوار، غير أن هذا الخطأ تبدّد بسرعة بوساطة الرسل الذين كلّفهم مجلس الشيوخ بالإعلان للجميع عن خبر غير قابل للتصديق: رفع هنيبعل معسكره. أكّد الكشّافون النبأ. انثنت القوات البونية في انتظام جيّد باتجاه الجنوب متحولة نحو بروتيوم.

* * *

عندما التقى مهرا بعل وماغون مع هنيبعل قرب تارنتم أطلق الأوّل والحزن يغمره:

ـ رفضت هذه المرّة أيضاً أن تتناول عشاءك في الكابيتول، لأنني لم أكن إلى جانبك؟

ـ أرجوك وأستحلفك بملقارت العظيم ألا تضاعف ألمي! نعم

تأمّلت أسوار روما وقد كان بإمكاني على الأرجح أن أدخل تلك المدينة بعد شراء بعض المتواطئين بأسعار غالية. إنّها الطريقة الوحيدة للاستيلاء على المدينة لأنني لا أملك منجنيقات ولا آلات حصار لأهدم هذه الأسوار. كنت قريباً من الهدف غير أن خاطراً مشؤوماً دفعني لأدرك أن من الأفضل أن أعود أدراجي.

ـ إنّك شديد التقتير في كلامك. أي نذير شؤم قادر على إثارة الرعب في نفسك العصية على الخوف؟

ـ مهرا بعل، أنت تعرف أنني متهم بالكفر، لأنني بعكس هؤلاء الرومان الملاعين، أنا لا أحبُّ أن أتباهى بعواطفي الدينية، كنت واعياً للرسائل التي وجهتها لي الآلهة، وهاتان العاصفتان العنيفتان اللتان ضربتا معسكري وأنا أستعد لخوض المعركة مع العدو كانتا بالنسبة لي نذيراً لا إبهام فيه. كنت مقتنعاً أنني في حال خوض المعركة فإن الموت يترصدني ولا أريد أن أقدّم لأبناء الذئبة مشهد جثتي ممرغة عند أقدام أسوارهم. لدي شعور أكيد أنّهم سيغدون في أحد الأيام المسؤولين عن منيّتي إلا أن هذا الموقف لم يحن الآن. فضّلت إذن عدم إهانة بعل حمّون بتقديم ساعة موتي.

ـ لكلماتك وقعها الصحيح غير أنها لا تقنع أحداً. تفسيرات أخرى تدور وهي ليست لصالحك.

ـ أحبُّ أن أعرفها.

ـ تروج شائعة في صفوفنا أنّك تضايقت لأن الرومان عرضوا في المزاد الحقل الذي أقمت فيه معسكرك، وهو بناء على قوانين الحرب يُعَدُّ ملكية لك. تقدّم آلاف المشترين إلى مجلس الشيوخ ليترشّحوا مشترين لهذه القطعة من الأرض مما يبرهن على أن أبناء الذئبة مقتنعين بهزيمتك القريبة.

ـ هؤلاء الذين يروّجون هذه الشائعات يجهلون أن جنودي، في الوقت نفسه يشترون بوساطة مزايدات مماثلة، نظمتها أنا شخصياً،

حوانيت الصرّافين، الموجودة في ساحة البلدة. أقول هذا لتعلم كم كنت واثقاً من حظي الطيب إلى أن وجّهت لي الآلهة إنذارها.

ـ ماذا سيقول أولادنا وأحفادنا تجاه هذا الواقع؟ القائد العظيم، الأكثر أهمية الذي لم تَرَ قرطاجة له مثيلاً عبر مع جيوشه جبال البيرينيه والألب، لم يخشَ قيادة كتائبه في مياه المستنقعات المنتنة، حيث فقدَ عينه، ثم يؤدي تهطال بسيط للتراجع عن استيلاء عاصمة أعدائنا! شمس الصحراء وثلوج بكتريان لم تحل دون عزم الاسكندر الذي قاد جنوده حتى شواطئ نهر الهندوس.

عقب هنيبعل بدوره قائلاً: لا تنس أنه بدوره وجب عليه أن يعود بخطاه بينما أبواب إمبراطورية غامضة تنفتح أمامه. عرف أن حظه قد تقرّر في الأولمب، وأن الموت سيحصده قريباً. وقد فضّل أن يموت وسط أتباعه.

ـ وُجِد على بعد مئات من الستادات عن عاصمته. أما أنت فإنك على عدة أيام سيرٍ من بروتيوم ويعود إليك الأمر في إخطارنا. وسنهرع لنجدتك ومساعدتك على الانتصار وأخذ هذه المدينة اللعينة. إنني مستعد لمراهنتك بأنك لم تفكر كثيراً فكوابيسك دفعتك إلى فقدان المحاكمة.

ـ مهرا بعل لا تخلط بين الأحلام وإنذارات الآلهة، التي توجهها في رحمتها الكبرى لأولئك الذين تحبّهم أو الذين تريد نجاتهم من الضياع. لا تنس مصير قناصلهم الذين أهملوا التحذيرات والخسائر التي تكبدها الرومان في تراسيمين وكانّاي. إنني أهتم كثيراً برجالي ولا أريد دفعهم الى هذه المجازفة.

ـ قلت لي منذ قليل إنك لست بمثل ما يزعم خصومك من إلحاد وأنا أعتبر أن هذا الورع لدى إنسان متحفظ هو صادق فعلاً. كان عليّ أن أقود هذه الحملة، إذ أنني أترك عندها ملقارت وبعل حمّون يتدبرون شؤون أنفسهم. لا أطلب منهم أن يحشروا أنفسهم في القضايا الإنسانية، وليس لدي أي حرج في الحرب ضمن شوارع

روما. فات الأوان في الوقت الحاضر لإطلاق أي هجوم جديد. أبداً لن نرى ضفاف نهر التيبر.

قال ماغون بصوت خافت: مهرا بعل، من العبث إصلاح الماضي. يجب أن نفكر بالمستقبل، وإذا كنت ألوم أخي فلأنّه وجّه خطواته نحو بروتيوم بدلاً من أن يأتي لمساعدة حلفائه الكابويين ومدينتهم في طريقها إلى الاستسلام.

قال هنيبعل بمرارة: معلوماتك خاطئة، المدينة الآن في أيدي الأعداء. لم ينتظر أصدقاؤنا الكامبانيون «الطيّبون» وصولنا إلى أسوار روما لإجراء محادثات سريّة مع مجلس الشيوخ، وليعرضوا عليه تسليمه الحامية القرطاجية التي تقاوم ببسالة هجمات قوات أبيوس كلوديوس بولشر. اعترضتِ سبيل عدد من رُسُلهم وبيّنت لي الوثائق التي يحملونها أنهم لا يستحقون أن نُضَّحي من أجلهم برجل واحد من رجالنا. لا آسف إلا لأنني تخليت عن بوستار وحنون اللذين قادا قواتنا المتمركزة في تلك المدينة. غير أنّ الكابويين عوقبوا بصرامة على خيانتهم. أشبعهم الشيوخ وعوداً برّاقة وزيّنوا لهم بالوعود الجميلة الأمل بالحصول على عفوهم بشرط تسليم المتعاونين معنا إلى قضاتهم. تصرف هؤلاء بجدارة وفضلوا الانتحار على أن يتراجعوا عن كلمات الشرف. ما كادت أجسامهم تبرد حتى عجل مواطنوهم بفتح أبواب جوبيتر للفرق الرومانية وتسليمهم جنودنا. عومل هؤلاء بكل صرامة. قتل المنتصرون، الأكثر ثراء في كابوا وبيع الآخرون عبيداً دون تمييز في الجنس أو العمر. غدت أملاكهم من الآن فصاعداً ملكاً لمجلس الشيوخ الروماني، والمدينة الأكثر ازدهاراً في كامبانيا لم تَعُد إلا قرية بسيطة مسكونة بعبيد عتقاء وحرَفيين وضيعي المنشأ وُجِّهوا بعد مشقة من روما. هكذا تعامل تلك المدينة من يخونها؛ وجب لهذا الدرس أن يوحي بالرهبة والذعر لجميع حلفائنا. لن يحظوا بأيّة شفقة من مدينة رومولوس وحظّهم مرتبط دون رحمة بحظنا. ربّما كان هذا هو الانتصار الوحيد الذي يمكن أن أفخر به هذا العام.

الفصل الخامس

لم تعبّر الأحاديث التي باح بها القائد البوني لماغون ومهرا بعل عن عواطفه الحقيقية. الواقع، أنه منذ الإعلان عن استسلام كابوا، أصبح هنيبعل قلقاً، ومضطرباً، تنتابه نوبات غضب وقنوط عنيفة، حاولت خليلته هيلين عبثاً تهدئته باستخدام جاذبيتها والإغداق عليه من مداعباتها البارعة، لكنه دفعها دون مراعاة؛ وأمرها بعدم الحضور لمضايقته. اعتقدت الشابة أنها لحظة غضب عابرة وانسحبت إلى الطرف الآخر من المعسكر، وارتضت المغازلات المتعجلة التي يقوم بها بعض الضباط الشبان. طبيعي ليست المسألة بالنسبة لها الاستسلام لعروضهم، بل هي تريد بكل بساطة إثارة الغيرة في قلب الجنرال ودفعه إلى استدعائها لقربه. غير أنه لم يقلع عن غروره واستمر في تجاهلها بكبرياء وقضاء أمسياته وحيداً رافضاً أن يشارك قادته الرئيسيين وجبات طعامهم.

في صباح أحد الأيام، تقدم سيلينوس يرافقه بعض العبيد حاملين الهدايا إلى الخليلة المهجورة التي أخذ قلبها يخفق بعنف. طلبت من أمين سرّ رفيقها التحلّي بالصبر وأمرت خادماتها بتزيينها بأبهى حليها وأثمن جواهرها. وجب أن تكون في أبهى روعتها، عندما ستعبر بحذر أرجاء المعسكر لتصل إلى حيّ القائد الرئيسي أمام نظرة الجنود المفعمة بالإعجاب بجمالها، وستشكرهم بابتسامة ساحرة. فقدانها الحظوة سينتهي قريباً، وستعود لتجد قرب خليلها مكانتها المعتبرة سابقاً.

عندما ظهرت أمام سيلينوس انحنى لها الأخير باحترام، ولاحظت نظرته المشوبة بالشهوة فبادرته بالقول:

- يا صديقي. اشتقت إليك. أنا لا ألومك لأنك تطيع أوامر سيدك ولم ترد أن تثير غضبه بحضورك لزيارتي كما في السابق. إنّك تعرف ما أكنّه لك من تقدير، وكن واثقاً أنني لا أضمر أي حقد لسلوكك. هذه الهدايا التي يحملها خدمك تشير إلى أن هنيبعل مهتم بي وهو يريد الصفح عن تصرفه. أعدها إليه وقل له إنني لا أحتاج إلى هداياه لأهرع إلى جانبه. إنني أحبّه وأجنُّ فرحاً لفكرة لقياه من جديد.

- أخشى أن أخيّب أملك. إنّه يقدم لك هذه الهدايا الثمينة عرفاناً بجميلك. رفهتِ عنه وغمرته بنِعَمِكِ التي يدين لك بفضلها. أنت تعلمين أنه شهم بطبيعته، ويمكنني القول إنه تجاوز الحدود بوضعه تحت قدميك ثروة معتبرة يمكنك التصرف بها كما يحلو لك. لكنه يطلب أن تنسحبي من حياته إلى أي مكان آخر ترغبين فيه.

- هل تجرؤ على التأكيد لي أنه يطردني كما يفعل بعد ليلة حب عابر مع أيّة عاهرة أخرى؟

- إنّك تنساقين مع الغضب ولا تقدّرين كلماتك. تأكّدي أنّه يكنّ لك كل احترام. ولا يمكنك أن تتجاهلي علائم الرعاية الاستثنائية التي أحاطك بها. غير أنّه توقّف عن حبك ورغبته بك. اختلَفتْ من الآن فصاعداً طرقاتكما، وقد عهد إليّ بواجب العناية بتنظيم رحيلك.

- إنني أطلب رؤيته في الحال.

- هذا مستحيل. سافر ليلة البارحة على رأس عدة مئات من الرجال لنصب كمين لمفرزة رومانية أشير له بوجودها في المنطقة. من المحتمل أن تكون هذه الحملة طويلة ولن يفيدك شيئاً انتظار عودته. إنني مدرك لعنائك وحزنك. مع ذلك لا فائدة من الذهاب خلافاً لإرادته. اسمحي لي أن أنسحب الآن وسأعود بعد عدة أيام لأتلقى أوامرك، ولأسهر على مواكبتك إلى مقرك المستقبلي.

ـ وإذا كان هذا المقر هو روما؟

ـ هل تتوقعين الترحيب بك هناك. كانت مدينتك سابقاً حليفة لمدينة روغولوس، وحرّضت أتباعك على الانضمام إلى حزب قرطاجة. إنّها جريمة ستدفعين لأعدائنا ثمنها غالياً.

ـ يمكنهم الاهتمام ببعض المعلومات التي يمكنني منحها لهم.

ـ أية معلومات؟ أن يكون هنيبعل أعور؟ وأنه يستمتع بملذات الجسد؟ هذا ما يعرفونه منذ مدة طويلة ولا يحتاجون لخدماتك لمعرفة أوضاعنا. هذا المعسكر يعج بالجواسيس المأجورين لهم حتى ولو انتهينا إلى اكتشافهم وفرض العقوبة التي يستحقونها عليهم. لا تخدعنّك الآمال الكاذبة، فلن تستقبلي بأذرع مفتوحة على ضفاف التيبر. في أحسن الأحوال ستباعين أَمَة لإحدى العائلات الأرستقراطية. لقد عرض عليك هنيبعل إمكانية انسحابك إلى حيث تريدين مع ثروات تتيح لك العيش بعيداً عن أيّة حاجة حتى نهاية أيامك، التي أرجو أن تكون طويلة جداً.

ـ لم يبق لي من الحريّة إلا تلك التي تحدّد يوم ذهابي. ليكن ذلك. سأذهب خلال فترة قصيرة إلى بلاد الإغريق التي أتى منها أجدادي السابقين. قل لسيّدك إنني لن أغفر له أبداً العار الذي حلّ بي. غير أنني لن أسعى إلى الانتقام. سيتكفّل غيري بهذا الأمر وسيشعر به عندما سيغدو بعيداً، مهجوراً من الجميع.

عندما عاد وقد أرهقه التعب في حملته. وكان سيلينوس قد أنبأ هنيبعل بمداولته مع هيلين والعبارات التي نطقت بها. هزّ هنيبعل كتفيه دلالة الازدراء غير أن أمين سرّه لاحظ ما عراه من اضطراب جرّاء تلك النبوءة المشؤومة، حتى أنّه لزم خيمته عدة أيام رافضاً استقبال ضباطه. لم يُخفِ بعضهم انزعاجه ووجب على مهرا بعل، قائد الفرسان، أن يتدخل لإسكات تُهمهم.

ـ قائدكم رجل كبقية الرجال بعيوبه ومظاهر ضعفه. وقد وجب

أن يتنازل تجاه مصلحة الدولة العليا بانفصاله عن هيلين التي يحبها. إنه درس يستحق التأمل.

عقّب أحد الرؤساء الشبان بقوله: لا أرى جيداً أين تقع المصلحة العامة في هذه القضية.

ـ لن تتأخّر عن الاطلاع عليها.

بقي مهرا بعل محافظاً على غموضه كي لا يثير قلق رجاله. أدرك هؤلاء أنّه مطّلع على أحداث هامة من طبيعتها أن تعدّل مجرى الحرب، وضاعفوا إعجابهم برجاحة عقله عندما رأوا بعد عدة أيام إميليسي تهبط من سفينة خماسية المجاذيف قادمة من قرطاجة. بإباء ورفعة عمدت إلى من يقودها مباشرة إلى زوجها. لم يستطع أن يخفي انفعاله للقياها بعد غياب ثماني سنوات. ضمّها بين ذراعيه وغمرها بالقبل وصرف الحاضرين بحركة آمرة. تأخّر في اقتيادها إلى سريره. وبحركة مفاجئة أفلتت منه وعيناها تغشاهما الدموع وقالت له:

ـ انتظرت بفارغ الصبر هذه اللحظة وأنا سعيدة لشعوري بقوة هواك. لم أشك أبداً بحبك رغم أن بعض النفوس المحسنة لجأت إلى متعة ماكرة وأنبأتني بمغامراتك العاطفية الموفّقة. أنا أعلم حرصك على القَسَم المتبادل بيننا عند رحيلك عن قرطاجنة. أيقظ عناقك في نفسي كثيراً من الذكريات، وعمّا قريب سيتشابك جسدانا. إنّما قبل ذلك يجب أن أبلغك معلومات ذات أهمية من الدرجة الأولى.

ـ لا أشك في ذلك لحظة واحدة. غير أن بإمكانها أن تنتظر بضع ساعات.

ـ طلبت مني سابقاً أن أسهر على مصالح عائلة برقا، ولهذا السبب غادرت قرطاجة بسرعة وأعلمتك برسالة عن وصولي القريب المتوقّع لتتخذ بعض الإجراءات. فما سأقوله لك لا يحتمل أي تأجيل. اعلم يا زوجي العزيز أن مستشاريك يخفون عنك بعض الأشياء

خوفاً من إثارة غضبك، يشجعهم على ذلك إيتربعل، رئيس أنصارك. كنت على حق في عدم منحه ثقة لا محدودة. هو كائن موسوس لا يمكن الوثوق به بشكل حقيقي. أجبني صراحة: هل أطلعك على الأحداث الجارية في إيبيريا.

ـ لم يتعرّض لهذه القضية في رسائله ولست قلقاً تجاه هذا الموضوع. كما أن شقيقيّ حسدروبال وماغون لم يكتبا لي بهذا الشأن. أفترض أن كل شيء يسير لمصلحة قرطاجنة منذ أن تمكنا من تحييد بوبليوس وكنايوس كورنيليوس سيبيون.

ـ أهذا هو القائد الكبير الذي تزوّجته سابقاً؟ أنت أجهل بالوضع من روّاد مقاهي قرطاجة.

ـ هل عاد آل سيبيون مجدّداً من مملكة الأموات؟

ـ لا تجدّف عبثاً. لقد هلكوا وهذا من حسن حظّنا، فقد كان بإمكانهم أن يضعوا حدّاً لسيطرتك على وطني، وذلك بسبب إهمال مجلس المئة والأربعة الإجرامي. كان لدى حسدروبال عدد كاف من الرجال للسيطرة على البلاد ويقمع ثورة التارتيسيين. أرسلت له مدينتك نجدات كبيرة: أربعة آلاف من المشاة وخمسمئة فارس يجرون العجائب بالاعتماد على فرَق والدي. هذه الانتصارات السهلة أقنعت بعض ولاتك بعدم الحاجة إلى استنفار على ضفاف البيتيز والإيبر، خاصة وأنتم بحاجة إلى المجندين في إيطاليا. سرت شائعة عن رحيل محتمل لقسم من قوّاتكم في شوارع قرطاجنة بمثل سرعة البرق وقدر بعض صغار الملوك المشكوك بولائهم أن من الحكمة أن يميلوا إلى الجانب الروماني الذي وقعوا معه اتفاقيات سريّة. اجتازت عندئذ فرَق بوبليوس وكنايوس كورنيليوس سيبيون نهر الإيبر، وكبّدوا حسدروبال هزيمة كاوية أنقذه منها لحسن الحظ ماغون الوافد بسرعة من قرطاجة ومعه النجدات. إنّما في الخريف الماضي تمكن أعداؤك من الاستيلاء بخدعة على مدينة ساغونت،

ورايات روما ترفرف من الآن وصاعداً على جدران المدينة وعلى قلعتها.

ـ لا أجهل هذا. وأعلم أيضاً أن قرطاجة قد استنفرت وأرسلت على جناح السرعة الى قرطاجنة أحد القادة أصحاب الخبرة، حسدروبال ابن جيسكون الذي فعل الأعاجيب إذ أنه أحرز الغَلَبة وقتل القائدين الرومانيين.

ـ هذا الفضل لا يعود إليه. المنتصر الحقيقي هو ماسينيسا أخو جوبا الأصغر، صديق والدك هميلقار. حطم فرسانه صفوف الخيّالة الرومانيين وأجبروا بوبليوس كورنيليوس سيبيون على القتال متراجعاً قبل أن يقع في كمين نصبه له أبناء عمي. أنديبليس اخترق بضربة رمح صدر القنصل السابق. وفاجأ النوميديون أخاه كنايوس وألزموه على اللجوء إلى المرتفعات الحجريّة قرب إيلورسي(*)، حيث قضى بعد أن حاول الخروج بعملية قانطة.

ـ تحرمينني من ملذات ممارسة الحب معك لتبلغيني أخباراً تملأ قلبي زهواً وفرحاً.

ـ أنت تعلم إذن ما حدث بعد ذلك.

ـ كلا لأن صِلاتي مع قرطاجنة قد قُطِعَت. وجميع سفني احتجزت من الرومانيين، وها قد مضت مدة طويلة لم أتلق فيها أخبار أخوتي أو مساعدهم حسدروبال ابن جيسكون.

ـ اعلم إذن أن هؤلاء الرومان الملاعين لم ييأسوا بسبب فقدان قادتهم. فالفِرَق التي نجت من المذبحة لم تنتخب القائد المساعد تيبريوس فونتيوس إنما اعتمدت على لوسيوس مارسيوس سبتيموس الفارس الشاب الذي عرف كيف يؤجّج طاقة قوّاته. كما

(*) إيلورسي: هي لوركي الحالية على بعد نحو 20 كم من مورسي.

منح لقب حاكم وفاجأ معسكر أخيك حسدروبال واستولى على غنيمة كبيرة.

- لايهمُّ هذا. أما يزال أخي سالماً معافى.

- نعم. غير أن العدو استولى على متاعه الشخصي، وخاصة على مجنٍّ ثقيل من الفضة يحمل صورته مجسّمه، وعرض ذلك في معبد جوبيتر كابيتولن في روما الذي يزوره جمهور غفير كلّ يوم، يتأملونه بإعجاب ويكيلون الشتائم لمالكه القديم.

- سأعرف كيف أنتقم لشرف أخوتي، ومع عودة الطقس الجميل الملائم سأرسل رُسُلاً تأمر حسدروبال وماغون بمباشرة الهجوم.

- يقتصر عملهم بالوقت الحاضر على الدفاع.

- لن ينقصهم الرجال وأعتقد أن والدكِ سيرفدهم بمجندين جبليين جدد - إنني متأكد من هذا الأمر.

- بالتأكيد، لكن روما أرسلت إلى ضفاف الإيبر المنتصر في كابوا، كايوس كلوديوس نيرون مع عشرة آلاف رجل من المشاة وألفي فارس. وقد فاجأ حسدروبال في ممر الحجارة السوداء، الواقع في قلب بلاد أورتاني(*). ولم يسلم أخوك إلا بخدعة. بدأ مفاوضات مع القائد الروماني وقد وعده بالتخلّي عن قوّاتكم في إيبيريا إن تركه يلتحق بقرطاجنة مع رجاله، في اليوم المحدّد لتوقيع الاتفاق، ادعى بأن حائلاً دينياً يتطلّب تأجيل الاحتفال إلى اليوم التالي. الواقع أن ضباباً كثيفاً حجب خلال ذلك الليل المنطقة وتمكن ابن هميلقار الأصغر أن يغادر الممر مع قواته إلى مكان آمن.

- إن ملقارت يحمي جنودنا وسأقدم لشكره إحدى الأضاحي. كل خطر قد زال من الآن فصاعداً.

- كلا وهذا هو المبرّر الرئيسي ولحضوري إليك. جئت لأحذرك

(*) أورتاني: منطقة جنوب نهر الإيبر.

من روماني شاب يشبهك في عدة أمور هو بوبليوس كورنيليوس سيبيون ابن القنصل السابق المتوفي. إنه لا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، ومع ذلك فلديه سجل حافل بأعمال البطولة والبسالة استحق على أساسها إعجاب مواطنيه. في معركة كانّاي قاتل إلى جانب أخيه لوسيوس وكبّد قواتك خسائر فادحة.

ـ هذا الروماني يعجبني، رغم أنّه عدوي. وأنني أجد فيه الشاب الممثّل لي وأنا سعيد لأنني سأتعرف قريباً على خصم جدير بمنافستي.

ـ حصلت عليه لأن المجالس المئوية الرومانية قد عهدت إليه بولاية رومانية رغم أنّه ليس قنصلاً ولا والياً. وقد جنّدت والدته بومبونيا، المنتمية إلى إحدى أعرق عائلات مدينة رومولوس، أقاربها وذويها لمصلحة ولديها. وقد جال أتباعها في شوارع المدينة وهم يتناقلون الأخبار غير المعقولة. بسماعهم يخيل إلينا أن بوبليوس من منشأ إلهي وقد حُبل به من أفعى انزلقت إلى سرير والدته. هنا القصة الأقل ابتكاراً التي نقلها لي جواسيسي. قيل: إنّه خدّاع كثير المكر، غير أنني أخشى كثيراً أن يتقن هذا الرجل استخدام سذاجة جماعته ويتحكم بهم كما يحلو له.

ـ كيف أشكرك على معلوماتك الثمينة؟ منذ نهار غد سأنّبه حراسي لاتخاذ الاحتياطات العاجلة. أما الآن فلدي ما هو أكثر أهمية.

حلّ ابن همليقار مجنّه الثقيل ورفع إميليسي بذراعيه القويتين ووضعها بحذر على السرير، وبدأ يعرّيها وهو يغمرها بقبلاته. ارتعشت متعة وتنهّدت بعذوبة وهي تشدُّ على ظَهرِ زوجها بأظافرها. سرعان ما تمكن الفارس من تملّكها ونَفَذَ بها بشكل متهيج عاصف. تشابك الاثنان في نغم أحادي متوافق ببريق المتعة طوال الليل، بقيا مستيقظين يجددان دون كلل ترامحاتهما الحميمة. مع الفجر بلغ هنيبعل حدَّ الإشباع وغرق في إغفاءة عميقة. لم يَحظَ

منذ مدة طويلة بمثل هذه السعادة. عندما استيقظ كانت الشمس قد عَلَت في كبد السماء، وإميليسي ترقد إلى جانبه ترمقه بعين حانية:

- كنت مستعدة لأمنح صديقاتي القرطاجنيات مئات القطع الذهبية ليتمكنّ من الحضور هذه الليلة.

- كنت سأطردهن دون رحمة أو شفقة لأنك وحدك ملء ناظريّ.

- أعرف هذا، وأنا متأكدة منه.

- لا شيء يمكنه أن يحطّم توافقنا رغم أنني سبّبت لك لا إرادياً بعض الجراح. هكذا لن أغفر لنفسي لأنني لم أجْرِ إلى ميغارا في ساعة احتضار صغيرنا عبد ملقارت فريسة حمى خبيثة.

- ما كان وجودك يغيّر شيئاً من نتيجة مرضه المشؤوم. لم يستطع أمهر الأطباء إنقاذه. في الأيام الأخيرة من حياته القصيرة أصيب بالعمى ولم يعد يستجيب إلا لصوتي. انطفأ دون أن يتعذّب كأنه تخلّص من حمل ثقيل.

- قد نحظى بفضل ملقارت بطفل آخر.

- أشكُّ في ذلك. ماأزال في عمر الإنجاب. إلا أن ذكرى عبد ملقارت تمنعني من أن أكون تلك الأم البارّة. لنترك لأخوتك العناية باستمرار سلالة آل برقا، وسيبقى زواجنا فريداً لا مثيل له. حبي لك لا يتحمّل إنجاب ولد من صلبك يمكن أن يتجاوز يوماً رفعتك.

- قد تكونين على حقّ وسنتكلم عن هذا بعد أن يستريح رأسانا. يجب أن أقابل في هذه الساعة ضباطي وأبلغهم المعلومات التي وصلتني منك. سألقاك هذا المساء وأخشى أن أكون مضطراً لأفرض عليك وجودهم، لأنهم لن يدركوا عدم دعوتي لهم إلى مائدتي، وهم يتحرّقون شوقاً للتعرّف وللقاء المرأة التي عرفت كيف تتغلب على قائدهم.

- آمل ألا أخيب أملهم وسأحرص على أن تكون مأدبتنا عامرة.

قضى هنيبعل بقية يومه يتداول مع قادته ورؤساء فرقه، وفوجئ بأن مهرا بعل لا يجهل شيئاً عن الوضع الذي وُصف له، ولم يستطع أن يمنع نفسه عن سؤاله:

ـ إنك مساعدي الأوّل ولم أُخفِ عنك سرّاً. لِمَ كتمت هذه المعلومات. رغم أنني لست من أولئك الذين يشنقون حَمَلة الأخبار السيّئة.

قال معلم الفرسان ضاحكاً: بالتأكيد فضّلت أن أتصرف بهذه الطريقة لأنني أعرف طبعك الغضوب والمندفع. لو أنّك أنبئت بالوضع في قرطاجنة حيث تؤكّد الوقائع بعدم وجود أمل، فإنّك لن تتردّد لحظة في اجتياز الألب مجدّداً للقاء العدو من الناحية الخلفية. والحال نحن لا نستطيع أن نخلي حملتنا العسكرية من إيطاليا. وأملنا الوحيد هو في زيادة ضغطنا على روما وفي المحافظة على جيوشنا جنوب شبه الجزيرة، وضم المدن الإغريقية مثل بروتيوم وكامبانيا لقضيتنا، لأجل ذلك قررت عدم إبلاغك. دون أن أشكّ في أن أخوتك ستكون لهم الغلبة في النهاية.

ـ نعم ولكن بَعْدَ كَمْ من الزمن؟ قيل لي إن بوبليوس كورنيليوس سيبيون يتهيّأ لمغادرة أوستي بأسطول من ثلاثين سفينة على ظهرها عشرة آلاف جندي من المشاة وألف فارس. لا أستطيع أن أسمح بفقد مستعمراتنا ومصادر تجارتنا في إيبيريا لسببين. فهي من جهة، المعقل المهيّأ من والدي همليقار وصهري حسدروبال لتدارك خسارتنا في صقلية وسردينيا. إنّها وطني الثاني ويزداد حبها في قلبي لأنها موطن زوجتي. ومن جهة أخرى تقدّم لنا مناجم ذهبها وفضتها هذه الثروات التي تتيح لنا الاستمرار في الحرب دون الحاجة إلى طلب مساعدة مجلس المئة والأربعة. إذا فقدناها يجب مواجهة ولاة مدينتنا والإلحاح في طلب مساعدتهم، وسيرفض هؤلاء التجار الضعفاء الدخول في حرب ذات نفقات إضافية والنزح من احتياطي الخزينة. إنّهم يفضلون جباية ضرائب جديدة مثيرين

ضدنا استياء السكان. تأكّد أن علينا الإسراع لمساعدة حسدروبال وماغون أيّاً كان الثمن وخلال الوقت المناسب.

- ماذا تقترح؟

- تتجلّى خشيتي الوحيدة، مع قناعتي بما تقوله إميليسي، بأن حلفاءنا الإيبيريين العالمِين بضعفنا سيقلدون الآخرين ويعقدون صلات مع الرومان. ولن يقصّر هؤلاء في تقديم وعود مدهشة لهم. أما نحن فليس لدينا ما نقدمه لهم سوى صداقتنا وذكرى مساكنة على الأرض ذاتها منذ أجيال عديدة. هذا قليل غير أن هؤلاء الجبليين يتميزون بالإباء، وليس مستحيلاً بقاؤهم أمناء لنا.

- يبقى إيجاد الشخص القادر على الحوار معهم.

- إنّه موجود هنا.

- ومن تكون هذه الدرّة الثمينة.

- إميليسي زوجتي. جدَّتها قرطاجنيَّة ولكن والدها ملك إيبيري متحالف مع السلالات الرئيسية الحاكمة. غير أن جميع هؤلاء الملوك سيتملَّكهم الزهو عندما يعلمون أن هنيبعل الكبير يرسل لهم زوجته مندوبة عنه، وهذه المهمة ستفرض عليّ فراقها مجدداً، لكنها ستعيد الأمل للمترددين وتضم إلى صفوفنا بعض القبائل التي ماتزال مستقلّة. بالطبع ستحظى بجميع السلطات الممنوحة لسفراء مدينتنا، ويمكنها أن تمنح محدثيها الضمانات العائدة لشهامة قرطاجة بعد الانتصار المقام الدليل عليه بهذا الخصوص.

- هل تعتقد بقبولها؟

- إنني متأكّد منه.

كان ابن هميلقار قد اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لإعلان النبأ لزوجته. فهو لم يفارقها خلال شهر، وقد أقام على شرفها حفلات فخمة وغمرها بالهدايا مبرهناً لها، كل ليلة، عن قوة حبه، وقد شغفت والدة عبد ملقارت تماماً بالسعادة، إلا أنّها ملكت من

الذكاء ما دفعها إلى الشك بأن هذه الاهتمامات المتكرّرة تخفي أفكاراً مبطنة من زوجها. وفي إحدى الأمسيات التي كانا يرتاحان فيها ويحتضن كل منهما الآخر في السرير سألته:

- إنني زوجة مفعمة سعادة وفي كل يوم أبتهج بحظيّ الاستثنائي، غير أن قلقاً مبطّناً يحزُّ في قلبي وأتساءل إلى متى ستدوم هذه السعادة. أخشى بعد زمن قد يقصر أو يطول أن تطلب مني أن ألتحق بميغارا لأشرف على تصرّفات أتباعك.

- إنك الشخص الوحيد الذي لا أستطيع أن أكذب أمامه وأفضل أن أعترف لك بالحقيقة. يجب أن تفترق طرقاتنا قريباً. إنني بحاجة لإرسالك إلى إيبيريا في مهمة على درجة كبيرة من الأهمية.

شرح هنيبعل باختصار لإميليسي مضمون محادثاته مع مهرا بعل وضباطه وما ينتظره منها. واستمعت المرأة الشابة بكل انتباه لزوجها قبل أن تقبله بحنان:

- ما تطلبه يحزنني. أن أتركك مجدّداً تضحية كبيرة لي الحق في رفضها. غير أنني ابنة ملك ولا يمكنني أن أكون غير مهتمة بأبناء شعبنا. إن غدونا تحت السيطرة الرومانية حلّت بنا كارثة حقيقية. فأبناء الذئبة بعد أن يشبعوهم بالوعود البرّاقة سيعاملونهم معاملة جميع الشعوب الواقعة تحت سيطرتهم. أنتم أيّها القرطاجيون كنتم دائماً معلمين رحيمين، محترمين إن لم يكن من أجل استقلالنا، فعلى الأقل تقديراً لقوانيننا وعاداتنا وآلهتنا. توحّدت شعوبنا بروابط الدم فخفّ نيرنا. غير أنني أتصور دون مشقّة التدابير الانتقامية التي سيتعرّض لها شعبنا إن غزت قوات سيبيون أرضنا. اطلب تحضير خماسية المجاذيف لأقلع نحو قرطاجنة مع فترة توقّف في قرطاجة وأخرى في جزر البليار أتزوّد فيها بالمؤن والمياه، وعندما أنهي مهمتي سأعود إلى هنا لأبقى معك على الدوام. هذا هو الشرط الوحيد الذي أضعه لرحيلي وعليك القبول به.

قال: لك كلمتي، واحتضنها بحنان.

لم يكن في وداعهما ما يهزّ المشاعر، فهما يعلمان أنهما سيلتقيان بعد حين لقاءً دائماً.

* * *

عندما وصلت إميليسي إلى قرطاجنة لم يكن ابنا حميّها حسدروبال وماغون في استقبالها. فقد حرص الأوّل على استتباب الأمن في كاستولو(*)، مؤخرة البلاد. وانطلق الثاني يحارب الكاربتيين، أما حسدروبال ابن جيسكون فقد حبس نفسه في قادش. لم تجد في استقبالها غير بوستار الضابط الشاب على رأس حامية من ألف رجل. استقبلها بمظاهر التكريم اللائقة بها إلا أنه لم يتأخر في إفهامها عدم ثقته بآل برقا مفضلاً عليهم ابن جيسكون الأكثر تأثيراً في مجلس المئة والأربعة.

رسم لها لوحة متشائمة عن الوضع. بعد أن قضى بوبليوس كورنيليوس سيبيون فصل الشتاء في تاراغون التحق به قنصل سابق هو جوليوس سيلانوس الذي عهد إليه بحراسة المناطق الواقعة شمال الإيبر، أما سيبيون فعبر مع خمسة وعشرين ألف من المشاة وألفين وخمسمئة فارس الإيبر وتوجه في سير حثيث باتجاه الجنوب. بعد أن أعلمه جواسيسه أن القادة البونيين الثلاثة موجودون على بعد عشرة أيام من قرطاجنة سيراً على الأقدام، وأن بإمكانه إذن الاستيلاء على المدينة إن ساعده الحظ. كان لاليوس محافظ الأسطول وأحد حماته يمخر بسفنه عباب السواحل متّبعاً تقدّم مشاته السريع. وحط مرّساته قريباً من المدينة الواقعة في عمق خليج ضيّق وعميق، مانعاً السفن القرطاجنية أن تأخذ عرض البحر.

أقام سيبيون معسكره شرق قرطاجنة وتحرى المناطق المجاورة لها على صهوة حصانه بسرعة، فلاحظ وجود بحيرة شاطئية تتصل مع البحر بقناة ضيّقة وهي دون حراسة عملياً. كما

(*) في منطقة الأندلس العليا.

لاحظ مع حلول المساء، وهبوب الريح انخفاض مياه البحيرة بشكل محسوس وانسحابها باتجاه القناة مؤمنة لرجاله ممراً يسهل عبوره. ليتأكد من استمرارية المنظر راقبه لمدة يومين متتاليين، تكرّرت خلالهما تلك الظاهرة بشكل يستطيع فيه استغلالها. فجمع رجاله وخاطبهم بقوله:

- أيها الجنود، أنتم تعلمون أن الإله يغمرني بِنِعَمِه لشكري على الأضحيات السخيّة التي أقدّمها له. في هذه الليلة ظهر لي نبتون في الحلم ووعدني بالحضور لمساعدتي بمعجزة لا أستطيع الآن أن أكشف عنها. هكذا، نهار غد وبعد نشوب المعركة تأكّدوا أنكم حائزون على النصر، تجنّبوا الضعف، خشية إغاظة هذا الإله وتخييب آماله المعقودة عليكم.

مع الصباح الباكر وزّع سيبيون قسماً من رجاله شرق السور على أرض مسطّحة ومكشوفة. استغل بوستار الوضع محاولاً شق طريقه إلا أنه جوبه باندفاع الفرسان الرومانيين المختبئين خلف سياج كثيف من القصب. في نهاية بعد الظهر قام ابن بومبونيا بجمع خمسمئة من خيرة جنوده وعهد إليهم بسلالم عالية من الخشب. وعندما بدأت مياه البحيرة بالتراجع محوّلة بقعتها إلى بركة بسيطة موحلة، قال لهم:

- وعدتكم بحضور نبتون لنجدتنا ويمكنكم أن تتأكدوا من التزامه بكلامه. يجب أن تجتازوا بأسرع ما يمكن هذه البحيرة أو ما بقي منها وتتسلقوا الأسوار الخالية من المدافعين. عند دخولكم المدينة تجنبوا النهب واعملوا على دفع الحامية القرطاجنية باتجاه القلعة، بينما ستقوم مفرزة بفتح الأبواب لرفاقكم، أعدكم بعهد سيبيون أننا سننام هذا المساء في قرطاجنة.

اندفع الرجال في الماء الذي لم يبلغ ركبهم، ووجدوا أنفسهم سريعاً في أعلى السور ثم تفرقوا عبر شوارع المدينة الضيّقة، وهم يدفعون أمامهم الحامية القرطاجنيّة المذعورة التي عجّل قادتها بدخول القلعة. هذه القلعة التي كانت تجثم فوق قمة صخرية، بحيث

كان بوسعهم أن يصمدوا مدة طويلة أمام حصار لا ينقصهم فيه الماء ولا القوت. غير أن بوستار، الذي لم يكن يتحلى بالشجاعة، تخاذل وقدّر أن كل مقاومة لا تجدي وأرسل ضابطين للتفاوض حول شروط التسليم. كان مستعداً أن يسلم المدينة شرط أن يتلقى تأكيداً بأنه سيكون مع رجاله أسرى لقاء وعد شرف بأنه لن يبادل به أسرى رومان احتجزهم حسدروبال وماغون؛ فهو يعلم أنه بوقوعه بين أيدي القرطاجنيين سيدفع غالياً ثمن خيانته.

عندما علمت إميليسي بخبر هذه المناقشات، حاولت أن تقنع بوستار بعدم تلويث اسم العائلة ومتابعة القتال. أمام رفضه انسحبت إلى منزلها لتتهيّأ للموت. لم ترد أن تُسلَّم حيّة إلى الرومانيين، وهي تعلم أنهم سيستخدمونها أسيرة ليبرهنوا على تفوقهم. بل أكثر من هذا سيحاولون على الأرجح الضغط على زوجها ليوافق على الانسحاب من بروتيوم مقابل إخلاء سبيلها. هي تعلم كامرأة برقاوية حقيقية واجبها، وهكذا عندما حاولت اللجان اقتحام باب مقاصيرها هرعت إلى الشرفة، ودون أن تتفوه بكلمة ألقت بنفسها في الفراغ فتحطّمت على بلاط الساحة. أعلم أحد الضباط سيبيون سريعاً بموت زوجة هنيبعل البطولي. وُجِدَ القائد في نقاش مع بوستار. نظر بوبليوس كورنيليوس سيبيون بازدراء إلى مخاطبه، وبصوت ممتلئ بالتأثر قال له:

- إنني أشفق على قرطاجة، لأن الرجال من مواطنيها ينفرون من مواصلة القتال بينما تعرف نساؤهم الموت لإنقاذ شرف مدينتهم. اعمل على حرق جثمان إميليسي ضمن مظاهر التكريم المقدّمة من فرساني، وسأعمد إلى إرسال إناء من رماد رفاتها إلى زوجها. اطمئن لن تكون معنّياً بهذه المهمة لأنك غير جدير بها. سأكلف المدنيين البونيين بهذا الواجب بعد أن أوافق على منحهم الحرية إكراماً لشجاعة إميليسي. يمكنهم أن يغادروا قرطاجنة على متن مراكب أضعها تحت تصرفهم.

نُقِلَ هذا الفِعل الشهم سريعاً حسب الشائعات المنتشرة، ولم تكن غايته إنسانية فقط، فسيبيون يعلم أن سقوط العاصمة البرقاوية سيقرع أجراس حزن الوجود البوني في إيبيريا. ما كان يهمه من الآن فصاعداً هو اكتساب مودّة أصحاب النوايا الطيّبة من السكان المحليين ولم يدخر وسعاً في هذا السبيل. سلّم الرهائن المحتجزين لديه إلى عائلاتهم. وكان من بينهم شاب أرستقراطي إيبيري ذو وسامة فائقة. تقدّم الأخير إلى مدخل معسكر بوبليوس كورنيليوس سيبيون، ووضع أمام قدميه صندوقاً مملوءاً بقطع من الذهب والفضة كانت هذه هي الفدية التي ينبغي تسديدها للحصول على حرية حبيبته. أظهر الجنرال الروماني الرغبة في قبول الهدية وأمر العاشق بالتقدّم إليه في صباح اليوم التالي. في الساعة المحدّدة سلّمت الشابة إلى خطيبها الذي ردّ إليه سيبيون أمواله قائلاً:

ـ لم أستطع البارحة رفض ذهبك لأنه يبرهن عن حبّك لخطيبتك. اسمح لي أن أقدمه لها هدية عرس، ولتكن مضحيّة بمثل تضحية إميليسي نحو هنيبعل.

شكّل الاستيلاء على قرطاجنة بالنسبة للرومان، عدا عن أهميتها العسكرية، نعمة مالية حقيقية. في المرفأ تم الاستيلاء على ثلاث وستين سفينة محملة بالمؤن والأرزاق، وفي دار صناعة السفن تملّك الرومان كلّ المعدّات العسكرية للقرطاجيين: منجنيقات وأجهزة إطلاق، وعقارب بحريّة غير أنهم وجدوا خاصة في أقبية القلعة غنيمة كبيرة: إنتاج مناجم بيتيز من الذهب والفضة خلال ثلاث سنوات؛ وقد احتفظ بها ماغون احتياطياً لتمويل عمليات أخيه في إيطاليا. اهتم المنتصر بالبرهان لآلهة بلاده عرفانه بالجميل فأرسل القسم الأعظم من هذا الكنز إلى معبد أبولون(*) في دلفي، رغم خيبة آمال جنوده.

(*) أبولون: الأخ التوأم للربة أرتميس وهو إله الأنوار والموسيقى والعرافة، وهو ابن الإله زيوس.

أسرع عدة قادة إيبيريين من بينهم إديا وأندوباتس ومادرونيوس الذين تمتد سلطتهم على القسم الأعظم من إيبيريا في المجيء وإعلان خضوعهم، فكلّفهم بحفظ الأمن في المدينة قبل انطلاقه إلى الأرياف، لمواجهة حسدروبال، مكبداً إياه هزيمة دامية في باكولا(*) مرغماً القائد البوني على الهرب مع فيلته وكنوزه بعد أن ترك في ميدان القتال آلاف القتلى، والجرحى، والأسرى.

صباح يوم مشرق رأى هنيبعل سفينة خماسية المجاذيف تلقي مراسيها في مواجهة معسكره. أسرع إلى الرصيف مؤمّلاً رؤية إميليسي تهبط من السفينة. أنبأته نظرات الحزن في نفوس ركاب السفينة النازلين والدموع تذرف من أعينهم أن مصاباً كبيراً قد حلّ به. فطرح على القبطان سؤالاً واحداً:

- إميليسي؟

أظهر الرجل مرمدة يحملها بحارته باحترام. انهار ابن هميلقار وجلس على كومة من الحبال، وقد دفن رأسه بين يديه دون أن يتمكن من السيطرة على دموعه. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه لتقوية عزيمته. بعد فترة طويلة نهض وتناول بين ذراعيه المرمدة واجتاز المعسكر للوصول إلى خيمته. بقي ثمانية أيام دون أن يظهر للجمهور.

ذات صباح رؤي يلتحق بمكانه خلال اجتماع لأركان حربه. من النظرة التي أطلقها أدرك ضباطه عدم الفائدة من تقديم تعازيهم له. في نهاية الاجتماع اختلى بمهرا بعل وقال:

- فقدت مع إميليسي أغلى ما لدي في العالم، وفكّرت أكثر من مرة أن أضع حدّاً لحياتي. ليس لي من الآن فصاعداً سوى هدف واحد: الانتقام من روما بتحويلها إلى رماد. لا فائدة من البحث عن

(*) هي بيلن الحالية.

تهدئة آلامي بتقديم عاهرة لي. احتراماً لذكراها سأحرم على نفسي مسرّات الجسد. هذا ما لدي لأقوله لك.

* * *

بعد سقوط قرطاجنة اجتمع ماغون والحسدروبالان في قادش مع أركان حربهم ليقرروا هجوماً مضاداً. كانت المواجهة عاصفة لأنّ ابن جيسكون قرّر تهديم سلطة زميليه، وأنحى على الأخويين باللائمة بشكل جارح.

قال: دفعكما كبرياؤكما إلى الاعتقاد أنكما لا تقهران كما هو هنيبعل. بخطئكما فقدنا قاعدتنا الرئيسية على هذه الأرض، وحوّل القادة الإيبيريون أنظارهم عنا ليتحالفوا مع روما.

ـ كيف تجرؤ على توجيه هذه التهمة؟ ندّد به ماغون. لم توجّه لنا أي اعتراض عندما قررنا السفر في جولة عسكرية، وتركنا المدينة مع ألف من الرجال الذين يقودهم أحد أصدقائك، يحق لنا الاشتباه بأن هذا اللعين بوستار لم يقع عليه الاختيار مصادفة، وقد تكون شريكه في الخيانة. هكذا خذ حذرك وزن كلماتك بعناية إن كنت تريد ألا أردها إلى حلقك.

زمجر ماسينيسا شقيق جوبا الصغير صديق هميلقار الذي خدم منذ سنوات في الصفوف القرطاجنية: عد إلى مكانك فأنا أخجل من هذه النزاعات. إنكم تتمزقون بينما يقتضيكم الواجب أن ترصوا صفوفكم لصد الأعداء.

أجاب حسدروبال ابن جيسكون: لست بحاجة إلى نصائح غريب سبق لأسلافه أن قُهروا سابقاً من أسلافنا.

شهر ماسينيسا سيفه باتجاه القائد البوني، غير أن ماغون اعترض بينهما وهدّأ صديقه:

ـ إنني أتفهم غضبك وأنت حليف صادق ومخاطبك قد أغاظك

بقسوة. يمكنني أن أؤكد لك أنه يأسف على كلماته، وهو يرجو أن تنساها. أليس كذلك يا حسدروبال.

تمتم الأخير بلهجة مدمدمة: نعم.

قال ماسينيسا: سأرضى باعتذاره. إلا أنني لن أنسى العبارات التي استخدمها للافتراء على أسلافي. سأعرف كيف أتذكرها في الوقت المناسب. أمّا الآن ففي الوقت متسع، متسع كبير، لأن عليكم أيها القرطاجيون أن تعوا أنكم دون النوميديين لا تستطيعون الصمود في أفريقيا. تخلوا إذن عن كبريائكم غير المحتملة، وإلا فإنكم ستخسرون أكثر أصدقائكم إخلاصاً.

استخلص ماغون: القضية منتهية. وماسينيسا على حقّ: فبدلاً من المخاصمة من المناسب التوصل إلى استراتيجية. ماذا تقترحون؟

قال أخوه حسدروبال: يجب العودة إلى الهجوم. اقترح من أجل ذلك الذهاب مع جيشي إلى بلاد غاليا الألبية، واختراق إيطاليا والإلتقاء مع هنيبعل. لنصعد باتجاه روما وستلجأ هذه من أجل حماية نفسها إلى استدعاء قسم من حملة سيبيون. وخلال هذا الوقت ستنتقل يا ماغون إلى البليار لتجنيد عدة آلاف من المرتزقة. أما ابن جيسكون المعتمد على ماسينيسا فسيناوش الرومان وحلفاءهم بهجمات جريئة.

قرّر هنيبعل للتخفيف عن أخويه أن ينطلق في حملة إلى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية، لمقابلة خصميه القنصلين الجديدين ماركوس كلوديوس مارسيلوس وتيتوس كنكتيوس كريسبينوس، وهما من القادة ذوي الخبرة الذين يفترسهم الطموح. يحلمان بالثأر من القائد البوني، وقد قررا بعكس القاعدة المتّبعة توحيد قواهما، وبعد إعادة الهدوء إلى إتروريا انضمت قواتهما في بانتيا(*)

(*) هي بانزي الحالية.

الأبولية، وهناك أقاما معسكراً قرب المواقع القرطاجية التي كانت منفصلة بهضبة حرجية تبدو فارغة.

أمر هنيبعل قوات فرسانه النوميدية أن تختفي في غاية السرية ضمن الأشجار الكثيفة. بقوا ثلاثة أيام دون تلقي أيّة مؤونة في المعسكر الروماني. بدأ الضباط الشباب يفقدون الصبر، متذمرين من خمول القنصلين، فاقترح معظمهم الاستيلاء على المرتفع الحراجي قبل أن يسبقهم الخصم إلى ذلك. أثارت رغباتهم القنصل ماركوس كلوديوس مارسيلوس فقرّر سؤال أحشاء الحيوانات المقدمة أضحية للآلهة ليعلم إن كان الحظّ مواتياً لهم، فأتاه القرار الصادر عن عرّافي الأمعاء محيّراً. كبد الحيوان الأوّل طبيعي أما الثاني فمشوّه بَحَدبة هائلة. وجدوا أنفسهم إذن أمام نذير أوّل مؤيد، وآخر غير مؤيد. نصحه المتنبئون بتأجيل العملية المقررة فرفض وسار برفقة زميله على رأس مفرزة من مئتي فارس. أتاح النوميديون له فرصة الدخول في عمق الغابة بعيداً عن معسكرهم، وبعد أن أصبحوا على مسافة كافية منه انقضوا عليهم. أصيب ماركوس كلوديوس مارسيلوس بضربة رمح وسقط عن حصانه، وأجهز عليه فارس يجهل هوية ضحيته. تمكن تيتوس كنكتيوس كريسبينوس، وهو بدوره جريح، من الهرب والوصول إلى المواقع الرومانية. أمر بالتراجع غير أنه مات أثناء ذلك، دون أن يستطيع تحمل مشقة السفر على محفة أعدت خصيصاً له. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أوفد رسلاً لإعلام المدن والحاميات المجاورة بموت ماركوس كلوديوس.

كان الاحتياط واجباً لأن هنيبعل استعاد من جثة القنصل خاتمه مع ختمه الخاص. وأعدّ بوساطته رسائل مزيّفة اعتبر ختم القنصل فيها أصيلاً. وتوجّه إلى سلابيا، وهي مدينة خسرتها قواته منذ سنتين، وقدر وجود مؤن عديدة فيها. غير أن جندياً سابقاً يحمل رسالة أصلية بختم ماركوس كلوديوس مارسيلوس سبقه وأعلم

قادة المدينة بالخطة الحقيقية للخصم، فأظهروا فرحهم لوصول القنصل وأعادوا الرسول. وثق القائد البوني بنجاح خدعته فوضع على رأس جيشه الهاربين من الفرق الرومانية الذين شاهدوا أبواب المدينة تفتح أمامهم. فالباب الزلّاق مرفوع، وقد أسرعوا إلى الدخول عبره. وفجأة سمعوا ضجّة صماء. وأعيد اغلاق الشبك الحديدي، وحوصر الجنود الفارون وقتلوا دون رحمة. لم يستطع هنيبعل ورجاله فعل شيء لمنع تلك المذبحة وتراجعوا بشكل نظامي نحو بروتيوم، متخلين في طريقهم عن حنون السمنيتي(*) المحاصر في لوكريس.

للاستعاضة عن القنصلين المتوفين، سمي تيتوس مانيليوس توركاتوس، ديكتاتوراً، فعمد إلى تعيين اثنين من أنسبائه، كايوس كلوديوس نيرون والرجل المسن ماركوس ليڤيوس ساليناتور المحكوم عليه بالنفي سابقاً لعدم نزاهته. في روما هبّت رياح الذعر. فاستناداً إلى الاستراتيجية المحدّدة في قادش جمع حسدروبال برقا عدة آلاف من المشاة والفرسان والتف حول المناطق المحتلة من العدو، وتوجّه إلى البيرينيه والرون، وبعد أن اجتازهما استثنى الألب وسلك مساراً أقل مجازفة من طريق أخيه الهرقلي. وفي الربيع وجد نفسه في سهل البو، حيث استقبله القادة الغاليون الذين يعتبرون الحرب ضرورة لهم استقبالاً حسناً.

قرر تيتوس مانيليوس توركاتوس عدم استدعاء فرق بوبليوس كورنيليوس سيبيون من إيبيريا، مدركاً الفخ الذي نصبه له القرطاجيون. اتكل على الآلهة حامية مدينته وبعد استشارة الأحبار نظّم احتفالات فخمة على شرف جونون(**)، وكان معبدها واقعاً على الآڤنتين، وقد ضربته صاعقة. تمّ اختيار خمس وعشرين امرأة من الأكثر ثراءً وقد ضحين بقسم من مهرهن لتقديم حوض من

(*) السمنيتي: شعب إيطالي اندمج بالعرق الإيطالي في القرن الثالث ق.م.
(**) جونون: ربّة إيطالية ابنة ساتورن إلهة الزواج.

ذهب للآلهة. ثم توجّهت جوقة من ثلاثة صفوف من الفتيات في طواف حول المعبد وهن يُنشدن ترنيمة خاصة ألّفها ليفيوس أندرونيكوس وهو عبد إغريقي من تارنت حرّره ماركوس ليڤيوس ساليناتور. كان الموكب مسبوقاً بعِجْلتين بيضاوين سقطتا تحت سكاكين المضحين.

استجيبت صلوات الرومانيين، فحسدروبال برقا أضاع كثيراً من الوقت في تجنيد المرتزقة الليغوريين، وفي محاصرة بلاسنتيا المكان الحصين للحصول على حظوة القادة الغاليين. ووجَّه، وهو على محاذاة سواحل البحر الأدرياتيكي، وفداً إلى أخيه المستقر في كانوزيوم مؤلفاً من أربعة غاليين ونوميديين ليقترح عليه ضمّ الجيشين في أومبريا، غير أن هؤلاء أسروا من الرومان، الذين عرفوا من الآن فصاعداً نوايا خصومهم. جَهِلَ حسدروبال هذا العمل، فتابع سيره وألزم جنوده بمراحل طويلة نهارية وليلية. واصطدم في طريقه بفرق يقودها القنصلان وقد تحصنت بصلابة في سينا غاليكا(*) قرب نهر الميتور.

كانت قوّات الجنرال البوني منهكة جدّاً ولا تستطيع خوض القتال وقد قرّر قائدها تجنّب المجابهة. وجب من أجل ذلك اجتياز النهر والضياع خلال خمسة أيام بحثاً عن مَعبَرٍ، فطارده الرومان وألزموه على خوض المعركة في شروط غير ملائمة له، العدو أمامه ووراءه النهر. لم يتمكن حسدروبال برقا من تشييد معسكر محصّن. وضع الفيلة، واصطّف خلفها جنده الليغوريون في الخطّ الأول، ثم المرتزقة الغاليون المحميون بإحدى الهضاب. تولّى هو قيادة المركز، المكوّن من جنوده الإيبيريين المتمرسين، وشغل جناحه الأيمن بالفرسان الذين سيتحملون مواجهة الكتائب بقيادة ماركوس ليڤيوس ساليناتور.

(*) هي سينغاليا الحالية.

اعتمد ابن هميلقار على الجبليين الإيبيريين الذين كبّدوا خصومهم خسائر فادحة. تلقى دعم الفيلة لبعض الوقت غير أن أدلتها فقدوا السيطرة عليها وتاهت تلك الحيوانات تارة في الصفوف القرطاجية وتارة في الصفوف الرومانية محدثة بداية بلبلة عارمة. لم يتمكن الفيّالون من السيطرة عليها فاضطروا إلى القضاء على معظمها مستخدمين نصلاً مُتصلاً بعصا يغرزونها في عنق الحيوان الذي يصاب بجرح مميت فينهار على الأرض ويحرم البونيين من ورقة حظٍّ معتبرة.

غير أن حسدروبال في تلك اللحظة من المعركة اعتقد أنّه حاصل على النصر رغم خسائره الجسيمة، لأن قوات كلوديوس نيرون كانت محصورة منذ الصباح بالهضبة التي وُجد خلفها الغاليون حلفاء القرطاجيين، عندئذ خطرت للقنصل فكرة بارعة. دون الاستعانة برأي زميله قاتل مرتدّاً برجاله خلف خطوط القنصل الآخر، متناولاً حسدروبال من الخلف مفرقاً جنوده وقد تخلوا عن أسلحتهم وعتادهم، فلم يبق أمام القائد القرطاجي إلا حفنة قليلة من الضباط النوميديين وهو من الذكاء بحيث لا يجهل أن لا مجال أمامه إلا أن يختار بين أمرين: إما الأسر أو الموت. الشرف يفرض عليه ألا يسقط بين يدي المنتصر، الذي سيفرض عليه السير مقيّداً في شوارع روما.

خلال بضع لحظات أغلق عينيه واستعاد برؤية حالمة شريط الذكريات الرئيسية في حياته والأمكنة المفضلة لديه. كانت الصورة الأخيرة التي عبرت فكره حديقة ميغارا حيث كان مع هنيبعل وماغون وابن جوبا يتسلى في إعادة تشكيل المعارك التي قادها أباه بشكل مصغّر. كم مرّة اضطر أن يرزح تحت هجمات أخوته الثائرين الذين لا يدّخرون وسعاً فيما بعد لمواساته وإغداق آلاف النِعَم عليه! اليوم انتهى اللعب، وهو مقتنع أنّ ملقارت وبعل حمّون يحتفظان له باستقبال طيّب إن عرف كيف يموت كابن جدير بمدينة

إليسا. وهكذا مع صرخة «لك يا قرطاجة» انطلق نحو كوكبة من الفرسان شتّتها برمحه ومزراقه(*). ورؤي وهو يسقط ويدور بحصانه ويخدش الأرض بأظافره. إلا أن روحه أبت أن تفارق جسده، إلى أن اقترب منه فارس روماني وقطع رأسه وحمله على رأس سيفه وعرضه على رفاقه كأن به مسّاً من الشيطان.

عندما حلّ المساء أحصي أكثر من عشرين ألف قتيل من القرطاجيين واستسلم نحو أربعة آلاف وخمسمئة. بينما لم يخسر الرومان أكثر من ألفي رجل استُعيض عنهم بأربعة آلاف أسير محرر أُدرجوا مباشرة في الجيش القنصلي. لاحظ القنصلان أثناء تجوّلهما في ميدان القتال أن مياه نهر الميتور غدت حمراء قانية بالدم. أثّر بهما هذا المشهد، حتى أنهما أمرا مقدمة حراسهما بالتوقّف عن متابعة الغاليين والليغوريين الذين يحاولون الهرب شمالاً. أجاب ماركوس ليڤيوس ساليناتور الضباط، الذين كانوا يريدون قطع طريق العودة عنهم بكتيبتي فرسان، بصوت متعب مشوب بالإشفاق: «من الأفضل تركهم. يجب أن يبقى بعض الأحياء ليخبروا عن الدمار الذي حلّ بالأعداء وبانتصارنا». في روما جرت احتفالات فخمة احتفاء بالواقعة.

أُنبئ هنيبعل بالحدث بطريقة مروعة. عمد ماركوس كلوديوس مارسيلوس إلى نقل رأس حسدروبال إلى معسكر أخيه بوساطة أسيرين منحهما الحرية. عندما تأمّل ابن هميلقار ما بقي من أخيه الصغير، لم يستطع السيطرة على انفعاله ولم يحضر مأتمه وبقي خائر القوى ملازماً خيمته عدة أيام، وقد تشجّع مهرا بعل بعدها على أن يزور قائده، وبصوت يرتعش انفعالاً تمتم القائد:

ـ بعد إميليسي جاء دور أخي الصغير ليهلك من أجل قرطاجة التي لن تعترف بجميله وستنسى قريباً حتى اسمه. يمكنني أن أبوح

(*) المزراق: الرمح القصير.

لك بشيء يا صديقي الوحيد، لدي احساس بأن هناك لعنة غامضة تلاحق عائلتي. توقّف ملقارت عن حمايتنا وهذا نذير سيء حول نهاية هذه الحرب.

ـ كيف يمكن أن تعتقد بهذه التّرهات؟ أعداؤك يلومونك على إلحادك، وحتى لو كنت على اطلاع على التعبد الذي تبديه لآلهتنا الرئيسيين، فإن معلميك إبيسيد وسوسيلوس درّباك على أسبقية العقل. عرفتَ دائماً كيف تسكت عواطفك وتلجمَ أهواءك عندما يتطلب الموقف ذلك. لهذا أتوسل إليك أن تتماسك وتنقذ جيشنا من الدمار. علينا الانثناء إلى الطرف النهائي من بروتيوم، ونرسل من هناك رُسُلاً إلى قرطاجة لنحصل بسرعة كلية على النجدات. بعد وصولها يمكننا الانطلاق مجدداً في المعركة والانتقام لأخيك. هل تعتقد أن هذا الأخير يرضى برؤيتك قانطاً لا تتحرّك؟ تصرّف كما يريد منك أن تفعل. إنه أجمل تكريم يمكنك أن تقدّمه له.

ـ شكراً لما أكسبتني من شجاعة. وجّه الأمر لقواتنا لتستعد للرحيل.

* * *

بينما حسدروبال وهنيبعل يجابهان الرومان في إيطاليا. وجب على أخيهما ماغون إيقاف تقدم فِرَق بوبليوس كورنيليوس سيبيون. من المؤكد أن قرطاجة أرسلت له نجدات إلا أنّها كانت بقيادة ضابط شاب قليل التجربة اسمه حنون أُسر بعد أسابيع من وصوله من قبل سيلانوس. وجب على ماغون أن ينثني بسرعة إلى قادش حيث وجد منافسه حسدروبال ابن جيسكون. قرّر القائدان أن يقضيا الشتاء في مكانهما ويجنّدا مرتزقة جُدُداً. تمكنا أن يحصلا خلال وقت قريب على خمسين ألفاً من المشاة وألفين وخمس مئة فارس، بعد أن قررا بحزم المقاومة مهما كلّف الأمر ضمن الأراضي الأخيرة التي تشرف قرطاجة عليها في تلك المنطقة.

وُجد بوبليوس كورنيليوس سيبيون بفِرَقه الأربعة في نقص عددي تجاه خصميه، غير أنه تلقى دعماً غير مؤمل من كولشاس الأمير الإيبيري، مما أتاح لقواته أن ترفع عددها إلى خمسة وأربعين ألف من المشاة وثلاث آلاف فارس.

في الربيع قرر القرطاجنيون والرومان اختبار قواهما قرب إيليبا(*). اتخذ ماغون وماسينيسا زمام المبادرة بمهاجمتهما العناصر الرومانية الأولى المنشغلة ببناء معسكر منفرد، لكنهما اضطرا إلى الانسحاب بعد أن فاجأهما الفرسان الرومان من الخلف. بقي الخصوم يتراقبون ويتراصدون خلال ثلاثة أيام طويلة.

لم يرغب بوبليوس كورنيليوس سيبيون أن يبدأ معاركه قبل أن يدرس بعناية سلوك خصمه. لاحظ مع شروق الشمس أن حسدروبال ابن جيسكون ينساق مع العمل الرتيب. فهو في كل صباح يناور قواته وفق أوامر لا تتبدّل. يضع الفرسان الأفريقيين المدربين في مركز تدريبه، والفيلة والفرسان على الجناحين تغطيهم قوات ماغون الجبلية الجديدة. قرر الرومان أن يتظاهروا بقلة الخبرة على مثال القائد البوني، ولوحظ تنفيذ مناورات مماثلة ميكانيكياً لخصومهم: يضعون الفرق الرومانية في المركز والقوات الإيبيرية من الجانبين. وقد اهتموا بتوجيه الأمر إلى حلفائهم الجبليين بأن يُظهروا عدم خبرتهم، واستطاع القرطاجنيون أن يلاحظوا وهم يتهكّمون جهود بوبليوس كورنيليوس سيبيون لإجبارهم على الانثناء أمام تكتيكه العسكري.

عند بدء المعركة لم يغيّر حسدروبال من تصرفات فرقه. وتظاهر سيبيون بفعل الأمر نفسه. إنما في وسط النهار، وبينما المناوشون يقابلون طلائعهم الخاصة عدّل سيبيون مواقفه كلياً. وضع المجندين الإيبيريين في مركز ترتيبه بينما أعضاء الفرق الرومانية ينتشرون عن يمين ويسار حلفائهم، ثم وقفت كتائب

(*) هي ألكالا ألريو الواقعة على بعد نحو 15 كم من إشبيلية.

المشاة تجري انعطافاً من تسعين درجة نحو يسار الجناح الأيمن، وبعكس الجناح الأيسر الذي يقوده لوسيوس مارسيوس سبتيموس هذه الكتلة من الحديد ضربت الفيلة والفرق المحلية العاملة في خدمة قرطاجة. أما المحاربون الأفريقيون المتمرسون، وقد نفد صبرهم في انتظار طويل وسلسلة من الحركات غير المنتظمة، وشاهدوا مشاة سيبيون الإيبيريين يقفون جامدين لا يبدون أي حركة، مما دفعهم إلى اختراق صفوفهم، فانثنوا أولاً في ترتيب جيّد قبل أن يحلّ بهم الذعر ويتفرقوا في جميع الاتجاهات.

التجأ ابن جيسكون إلى قادش وعجل بإرسال سفراء إلى قرطاجة يلتمس رأي مجلس المئة والأربعة، وتُمكِن أنصاره في ذلك المجلس من استدعائه مع القسم الأعظم من قواته، مشيرين إلى تكليفهم بمراجعة الملك النوميدي سيفاكس لتأمين ولاء هذا الأخير. بقي ماغون وحده مع حامية صغيرة في قادش التي أفهمه سكانها أنهم غير مستعدين للتضحية بمستعمرتهم القديمة في إيبيريا للمحافظة على مدينة إليسا، فعمد إلى قتل الولاة الرئيسيين واستولى على ثرواتهم وأبحر مع قواته وبضع مئات من المدنيين القرطاجيين إلى البليار، تاركاً ماسينيسا ليلتحق بمواقعه بوسائله الخاصة. لم يستطع شقيق هنيبعل أن يمتنع عن البكاء عندما ابتعد عن السواحل الإيبيرية. توقفت مملكة برقا عن الوجود في تلك البقعة من العالم مما يعني انهيار الحلم الطّموح الذي كان يغذيه أباه العجوز هميلقار: تأمين إمبراطورية لمدينته تعوّض عن خسارة صقلية وسردينيا.

بينّ استقبال ماغون في البليار اختلاف الأزمنة. الوجود البوني في تلك الجزر يعود إلى أقدم العهود وهؤلاء السكان هم الذين قدموا دائماً لمدينتهم مجندين من المرتزقة، وخاصة ضاربي المقلاع، دون أي تبرّم. في هذه المرّة حرّضت النجاحات الرومانية القادة المحليين إلى الحذر، فلن تعتم سفن لاليوس، قائد الأسطول، أن تظهر في عرض البحر. في إيبيزا لم يُستقبل شقيق هنيبعل بحماس

كبير غير أن الذهب المنتزع من أغنياء قادش أتاح له أن يزيد عدد مقاتليه الشباب عدة مئات من أولئك الراغبين بالرصيد المالي المرتفع والرغبة في مغادرة أرض لا تقدر على تغذية أبنائها. من إيبيزا انتقل إلى ماجوركا التي استقبله أهلها بوجه قاتم، تجلّى في هرب جميع الرجال القادرين على حمل السلاح واللجوء إلى الاختباء في الكهوف أو في أوكار يتعذّر الوصول إليها. لم يبق في المدينة إلا العجائز والنساء والأولاد، الذين رفض القائد البوني أخذهم رهائن. الواقع أن المؤن قد قلّت لديه ولم يُرِد الارتباك بأفواه لا جدوى منها، وغادر أسطوله إلى مينوركا حيث قضى الشتاء.

حرص خلال الفصل السيّء أن تتناوب قواته فترات الراحة مع فترات تدريب ومناورات. وعندما استطاع أرسل سفينتين إحداهما إلى قرطاجة، والأخرى إلى بروتيوم لالتماس أوامر مجلس المئة والأربعة وهنيبعل. في مدينة إليسا استقبل مندوبه بحفاوة فماغون في الواقع هو البرقاوي الوحيد الذي قضى معظم وقته في وطنه دون أن يُظهر التكبر وعدم الثقة نحو قادته مثل أخوته. وهكذا حظي بمؤيدين عديدين في مجلس الشيوخ ومن حنون الكبير العدو الأكثر صرامة لآل برقا الذي لم يبخل بالمديح لشخصه، لذلك حصل دون صعوبة كبيرة على النجدات التي طلبها كما تلقى عدا عن ذلك كميات كبيرة من الحبوب والعلف: غير أنّ ما كان يجهله تماماً هو أن هذه الأقوات كانت مصادرة من الأملاك العامة العائدة لعائلته. قرطاجة عندما تُرغَم على تصرف شهامة لا يمكنها الامتناع عن إفساده ببادرة خِسّة.

استقبل هنيبعل رسول أخيه بفرح. لم يرَ مجدّداً، ماغون، منذ سنوات وهو من الآن فصاعداً العضو الوحيد على قيد الحياة من أفراد عائلته. كتب إليه رسالة طويلة يصف له وضعه، وليسأله أن يحاول إنزالاً في غاليا الألبية بهدف التخلص من الكماشة المطبقة عليه من الجنود الرومان التي تلزمه بإبقاء بعض الحاميات في

بروتيوم. كان يعاني صعوبات كبيرة في الاحتفاظ بنظام الصفوف في جيشه. استقرّ في صقلية غير أن الرومان وأسطولهم غدوا سادة البحر الكبير دون منازع، وتمكنوا في عدة مناسبات من اعتراض طريق قوافل التموين الوافدة من قرطاجة.

أقام هنيبعل معسكره في رأس لاسينون على بعد نحو مئة ستاد من كروتون، وهي مدينة إغريقية، تفخر سابقاً بأنها استضافت فيثاغورث، وكان يعاني مشقّة كبيرة في جمع المبالغ الضرورية لتسديد الأموال المترتبة عليه بشكل نظامي. وأمام غضب وكلاء الخزينة القرطاجية رفض حلاً يتضمن تسهيلات دفع من شأنها أن تعرضه لانتهاك حرمة المقدسات. قرب مواقعه يوجد معبد هيرا(*) الذي جمع كهنته عبر القرون ثروات هائلة. المعبد المقدّس يؤوي بشكل خاص عموداً كتلته الذهبية تستثير جشع القائد البوني. وقد قاده إليه أحد الكهنة بعد أن وعده بمكافأة كبيرة. دخل هنيبعل ليلاً إلى حرم المعبد وكشط من قِبل ذوي الخبرة القسم الخارجي من تلك الرائعة لمعرفة إن كانت فعلاً قد أعدت من الذهب أو أنّها موشّاة بطبقة رقيقة من المعدن الثمين، ولاحظ لدهشته أن أمناء ربة الهيكل المقدس لم يقتروا في الإنفاق، فالعمود هو كتلة من الذهب الخالص فعلاً. عاد إلى خيمته وحاول النوم، كان نومه مضطرباً بسبب كابوس مرعب. ظهرت له هيرا في الحلم وهددته بحرمانه من العين الباقية له إن أنجز مشروعه. ذُعِرَ وأعدّ بالأجزاء المنتزعة من المعبد تمثالاً صغيراً وقدّم عدة أُضحيات تكفيراً عن ذنبه. أكثر من هذا ليبرهن عن ورعه طلب من سيلينوس أن يؤلّف باللغتين الإغريقية والبونية نصاً يتحدث عن مفاخر، وحفره على مذبح برونزي لوضعه في الحرم المقدس خلال احتفال خاص.

اضطر هنيبعل إلى تجميد أعماله بانتظار وصول أخيه. جمع

(*) هيرا: ربّة الزواج الإغريقية، زوجة الإله زيوس، ورمز سيادة الامومة.

الرومان من أجل قطع الطريق على هذا الأخير أسطولين أحدهما في قرطاجنة والآخر في مسّاليا. فكروا أن ماغون سيرسو في غاليا الألبية ويحاول أن يجدّد مآثر أخيه عند عبور الألب. أُعلِم ماغون بهذه التحضيرات فقرّر أن يلتحق مباشرة بالسواحل الليغورية بدءاً من مينوركا في بداية الفصل الجميل. لم يجرؤ أي أميرال أن يحاول مثل هذا العمل الباهر إذ أنّ العواصف في مثل تلك الفترة من السنة ليست نادرة ويمكن أن تؤدي إلى غرق الأسطول. لجأ شقيق هنيبعل إلى أسلوب آخر، وأنزل قوّاته في جنوا واستقبله الليغوريون بحفاوة وانضمّ إليه آلاف المقاتلين الغاليين الذين ينتظرون بفارغ صبر تحطيم النير الروماني.

على رأس نحو عشرين ألف من المشاة وخمسة آلاف فارس عاث ماغون فساداً في المستعمرات المنشأة حديثاً من قبل مدينة رومولوس، وألزم أعداءه أن يلتجئوا إلى بعض الأماكن الحصينة. أثارت قصص توسّعاته في الساحة العامة تعليقات مرعبة، ولم يتأخّر الشعب في إبداء تذمّره ضد جمود قادته العسكريين. وجب على مجلس الشيوخ لتهدئة النفوس، اتخاذ اجراءات هامة فأصدر أمراً إلى ماركوس ليڤيوس ساليناتور، المنتصر في ميتور، أن يلتحق بأرمينيوم مع فرقتين من الجيش، ودعم الحاكم سبوريوس لوتاتيوس. في هذه الأثناء يصل ماركوس فاليريوس لاڤينوس إلى أتروريا مع قوات متماثلة.

أدرك ماغون أن الخصم يُضيّق عليه طرقات النفاذ إلى إيطاليا المركزية لمنعه من الاتصال بأخيه. وقرّر جذب القوّات المعادية في الشمال لمجابهته في أرض مكشوفة. إن توصل إلى قهرها لن يقوم أي عائق في طريقه. وإن هُزم فبإمكانه أن يبحر ثانية على أسطوله ليصل إلى قرطاجة وينتقل منها إلى بروتيوم.

تمّت المعركة في الصيف قرب مديولانوم(*) تحت وطأة صيف

(*) هي ميلانو الحالية.

شديد الحرّ. كان يقود الفرق الرومانية بوبليوس كينكتيليوس ڤاروس وماركوس كورنيليوس ستيغوس، منذ بداية القتال تراجع القائدان تحت وطأة الضربات القرطاجية العنيفة إلى درجة دفعت ڤاروس إلى دعوة زميله بسرعة ليقول له:

ـ يبدو أن الآلهة تخلّت عنا. بالتأكيد نحن نملك التفوّق العددي غير أن العدو، المفاجأ بصلابة المقاومة التي نبديها، متقدم علينا وسيحافظ على تقدمه بها ما لم نتمكن من ضعضعة صفوفه. الحل الوحيد للتوصل إلى ذلك هو منح فرساننا الذين أتولى قيادتهم، في الحال، كامل حريتهم في المعركة. وسأكون أنا المسؤول عن الهزيمة، إنّما تأكّد أنّك ستشاركني النصر إن تمكّنا من تحطيم خصمنا.

توصل بوبليوس كينكتيليوس ڤاروس على رأس عدة مئات من الفرسان بمبادرة الهجوم. بدا ميدان المعركة وقد حجبته سحابة كثيفة من الغبار منعت ستيغوس من رؤية ما يحدث. غير أنّه تمكن أن يرى بعد فترة عودة مجموعات من الخيّالة في حالة يرثى لها. فقد اصطدموا بجدار حقيقي من الحديد مكوّن من الفيلة التي أثارت بنهيمها الحاد المكان، ووثبت بقائمتيها الخلفيتين وهاجت على راكبيها. وما أن أنهت هيجانها حتى انكشف ميدان القتال عن ضجة عارمة. فقد وصلت الفيلة المجلّلة بحُلَل ثقيلة إلى مستوى المشاة الرومان وسحقت بخفّة عشرات الأشخاص وهم يصيحون رعباً.

التمعت في ذهن ستيغوس فكرة إجراء حركة من اليمين إلى اليسار. تمكّنت على أثرها كتيبتان من المشاة من الحركة يميناً ويساراً وتوجيه حرابهم إلى صدور البهائم الضخمة التي توقفت عن إطاعة فيّاليها، وهاجمت القرطاجيين والغاليين الذين تقدّموا باتجاهها. ووجب عندها القضاء عليها لمنع المزيد من الدمار ضمن صفوفها الخاصة بدلاً من صفوف العدو. حاول ماغون منذ بداية القتال وهو على رأس قواته قيادتها إلى اقتحام نهائي. تمكن أحد الرومانيين من معرفته، فتسلل زاحفاً على الأرض وسط الجثث

والجرحى، واقترب من القائد البوني ووجّه إليه طعنة اخترقت ساقه. انغرز السلاح في الساق ووصل إلى جسم الحصان الذي استبد به الألم فتراجع إلى الخلف. هذا الارتداد اللاإرادي أثار ذعر القرطاجيين والغاليين الذين تفرقوا متوجّهين نحو معسكرهم. ومنعت عاصفة، بقدرة إلهية، الرومانيين من اللحاق بهم وإبادتهم.

أوقف أحد ضباط ماغون حصانه، وهو بدوره عمل على الاستفادة من هذه الاستراحة فجمع رجاله واتجه بهم ليلاً نحو جنوا. كان يتمدد على نقالة أعدت على عجل، وكانت أقل صدمة تجعله يصرخ ألماً. غير أنّه تمكّن حتى النهاية من توجيه أوامره إلى فرسانه طالباً منهم التخلّص من معداتهم للإسراع في حركة الفرار. هو يعلم أن العدو لم ينطلق في إثره. بالتأكيد فَقَدَ نحو خمسة آلاف رجل تقريباً وجميع فيلته، إلا أن الرومان تعرّضوا بدورهم لخسارة قاسية. ثلاثة قناصل عسكرية ماركوس كوسكونيوس، وكايوس هلڤيوس، وماركوس ماڤيوس، قتلوا ومعهم اثنان وعشرون فارساً عُرفوا من الخاتم الذهبي الذي يزينون به أصابعهم. إضافة إلى نحو ألفين وخمسمئة رجل من المشاة قضوا نحبهم، ورأى قادتهم أن من الأفضل السماح للأحياء منهم بإعادة التجمع ونيل قسط من الراحة يستحقونه.

في جنوا وجد ماغون رُسُلاً وصلوا حديثاً من قرطاجة، أمروه بالإقلاع سريعاً للوصول إلى الوطن. وعندما سألهم عن أسباب هذا القرار أجابه أحد مندوبي مجلس المئة والأربعة بلهجة رصينة:

- ألست على إطلاع بالمصيبة التي حلّت بنا؟

- مضت سنتان دون أن تصلني أخباركم.

- أرسى بوبليوس كورنيليوس سيبيون قرب أوتيكا وحاصر تلك المدينة. عما قليل سنجد قواته تحت أسوار قرطاجة. لهذا قررنا أن نستدعي جميع قواتنا لدفع الغازي.

ـ هل أبلغتم هنيبعل؟

ـ نعم.

ـ وماذا كان رد فعله؟

ـ أنت تعلم بشكل أفضل صفات أخيك وإباءه اللامحدود. لم يخطر بباله أنه مسؤول عن هذه الكارثة نتيجة الأخطاء التي ارتكبها. عندما بلَّغته قرار مجلس المئة والأربعة، صاح مشيراً إلى زملائي المحترمين: «الآن يستدعونني صراحة بينما فعلوا كل شيء في الماضي لإبعادي والامتناع عن موافاتي بالنجدات والمال. كلا هنيبعل لم يُقهر من الشعب الروماني، الذي كثيراً ما هزمته وسحقته، إنّما بحقارة وحسد مجلس شيوخ قرطاجة. هذه العودة المخزية ستزيد من مسرة حنون أكثر من سيبيون، وهو الذي يسعى إلى سحق عائلتنا بدمار قرطاجة لأنه لا يستطيع ذلك بأية وسيلة أخرى».

ـ إنني أدرك مدى إغاظتك بسبب كلامه. إنّما يجب ان تعلم أن مدينتنا حظيت بأفضل قائد يفضل الموت على أن يرى العدو يطأ بقدميه حرم بيرسا المقدّس. ما أن نجتمع مجدّداً حتى أحصل منه على تعليل صريح، وسأنصحه بأن يتصالح معك ومع حنون لأن في ذلك مصلحة محققة للجميع. لا يمكننا النزاع بينما الرومان على أبواب مدينتنا.

ـ أعلم أن بإمكاني الاعتماد عليك وعلى حكمتك. الآن، استمتع براحة أنت أحوج إليها، وغدا ستقلع مع رجالك على متن سفنٍ اهتممت بجمعها وتأمينها لكم.

لم يستطع ماغون لقاء أخيه كما كان يأمل. ففي اليوم الثاني من العبور أُصيب بعارض حمى أعيا الأطباء. كان يتصبب عرقاً وهو يتقلب على فراشه رافضاً تناول أي غذاء وغير قادر على ابتلاع قطرة من ماء أو نبيذ. ثم بدأ بالهذيان وسمعه الضباط الساهرون على وضعه الصحي ينطق بجمل متقطعة وعبارات غير مفهومة. في الصباح الباكر هزت الحمى جسده الذي سقط بعدها

بدون حراك. التحق بأخيه حسدروبال. وعلى مثال أخيه وأبيه هميلقار مات بعيداً عن المدينة التي خصها بكل لحظة من حياته. مُنع الجنود من إلقاء جثته في البحر. وبعد وصول السفينة إلى قرطاجة دُفِن في المكان المخصص بأموات ميغارا، غير بعيد عن القصر القديم الذي قضى فيه طفولته.

قرّر مجلس المئة والأربعة أن يكتم خبر موت ماغون المأساوي عن هنيبعل، الذي يمكن أن يسعى إلى الانتقام في قلب إيطاليا نفسها. قرّر بكر آل برقا أن يتخلّى عن بروتيوم ويلتحق بقرطاجة. فعمد مع رجاله إلى بناء عشرات السفن، ثم استدعى قوّاته المعسكرة في المدن الأكثر بعداً عن كروتون. بقي عليه القيام بالعمل الأكثر قسوة وهو إعلام حلفائه الإيطاليين برحيله. إنه يعلم أن هؤلاء سيتعرضون لانتقام الرومان المصممين على محاسبتهم عن سنوات خيانتهم. جمع رؤساءهم وناشدهم السفر معه، غير أن معظمهم اعتذر عن تنفيذ طلبه فهم متعلقون بتربة أراضيهم لا يريدون الابتعاد عنها والاستقرار في مدينة إليسا حيث يشعرون بغربتهم الدائمة.

كان سيلينوس من المعارضين الأكثر تصميماً على عدم المغادرة، فهو منذ سنوات عديدة يكتب وقائع انتصارات هنيبعل. لقد نشأ في تارنتم وهو يحلم بأن ينهي أيامه في وطنه. إنه يعرف أن الرومان الراغبين بتتبع أخبار أكثر أعدائهم قوة وشراسة سيحافظون عليه بشرط أن أن يضع مواهبه في خدمتهم. بصوت منكسر نَهَره آخر أبناء برقا قائلاً:

- تبعتني منذ قرطاجنة ومنحتك ثقتي بناء على طلب معلمي سوسيلوس. لا أستطيع أن أفهم الأسباب التي تدفعك إلى التخلي عني. ومايزال أمامي كثير من المعارك التي سأخوضها وأتمنى أن تكتب تفاصيلها. ما سجلته محفوراً على مذبح من البرونز في الحرم المقدس بعيد عن الاكتمال.

ـ هنيبعل، إنك واحد من أكبر القادة الذين عرفهم العالم وأنا شديد الإعجاب بك. وإنني لفخور بأن أسرد انتصاراتك غير أنني لا أقوى على رواية هزائمك.

ـ هل تجرؤ على القول بأن الرومان سينتصرون في تلك الحرب؟

ـ أخشى ذلك. وإنني أرثي لهم سواء من أجل قرطاجة أو من أجلنا. إنّهم متغطرسون عديمو الشفقة، ومواطنونا يتألمون منذ زمن تحت نيرهم.

ـ هل تفكر فعلاً بأن تقاسمهم مصيرهم؟

ـ كلا غير أنني تعبت من ممارسة حياة تائهة.

ـ هذا هو وضعي أيضاً.

ـ نعم، لكن يبدو أنّك تقدّر هذا الوضع. واقع الأمر، أنني أعتقد أنّك عاجز عن العيش في قرطاجة. إنّك محب لبعض أفكار تلك المدينة غير أنّك تكره ما هي عليه في الواقع.

ـ لا أسمح لك بأن تكلّمني بهذه الطريقة!

ـ أنت لا تحب أن أصرّح لك بالحقيقة.

ـ لدي الرغبة في معاقبتك كما تستحق. ذكرى سوسيلوس وحدها تمنعني من أن أسلمك لحرّاسي لتطبق عليك العقوبة التي نخصّ بها الخونة. اعمل على أن تغادر كروتون منذ نهار غد لأني لا أستطيع أن أعمل من أجلك شيئاً.

مع الفجر غدا سيلينوس بعيداً. علم أن ابن هميلقار يستعد لمعاقبة أولئك الذين يرفضون أن يتبعوه حتى قرطاجة بقسوة، وكعادته لجأ هنيبعل إلى الخدعة، تظاهر بأنه يفهم حجج حلفائه، دعا الرؤساء الهامين منهم إلى مأدبة وداعية. وبعد أن سكروا أمر حراسه بإيقافهم واقتيادهم إلى سفينته.

ما إن انتشر الخبر في المعسكر حتى التجأ أنصارهم، وقد

تملّكهم الغضب بسبب هذه الخديعة، إلى معبد هيرا وأرسلوا بعض مندوبيهم يطلبون مساعدة القوات الرومانية الأقرب إليهم لنجدتهم. كانت هذه الحركة دلالة ضياعهم. اقتنع هنيبعل من الآن فصاعداً أن حلفاءه القدامى لن يترددوا للحصول على العفو عنهم من العرض على القنصلين الممارسين لوظائفهما أن يشكّلوا جزءاً من النجدات التي سترسل إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيون. وأيضاً وجه الأمر باقتحام المعبد وقتل جميع الموجودين فيه.

بعد يومين من هذه المذبحة الشنيعة صعد هنيبعل إلى متن سفينته الخماسية المجاذيف يرافقه مساعده الأمين مهرا بعل. لم يستطع عند مشاهدته سواحل بروتيوم عن بعد إلا أن يجهش بالبكاء. ولما استعاد وعيه أسرّ إلى قائد فرسانه:

- كان عليّ أن أتبع نصائحك بعد معركة كانّاي وأسير إلى روما دون توقّف. وقد كان بإمكاننا أن نتناول عشاءنا في الكابيتول كما ذكرت، وشيوخ المجلس يقومون على خدمتنا مثل العبيد. غير أنني فضلت أن أذعن لتوسلات جنودي الذين رغبوا أخيراً بالحصول على قسط من الراحة. وقد قدتهم أنا بنفسي إلى كابوا. وكنت أنا بالذات مقاداً بتعابير هيلين الجميلة التي فُتنت بحبها. لم تكن روما في يوم أقرب إلى ضياعها من ذلك اليوم ولا يعود الفضل بسلامها إلى قادتها بل إلى حماقتي. سيبيون اليوم على أبواب قرطاجة، وأقسم بملقارت أنه سيقلع عن غروره سريعاً. سأعرف كيف أحرمه في اللحظة الأخيرة من الانتصار الذي يحلم به. سآخذه أسيراً وسيصحبني في السفينة التي ستقلّني إلى أوستي لأوجّه الضربة القاضية لمدينة رومولوس. وفي هذه المرة ستزهو يا مهرا بعل إلى جانبي وجانب أخي ماغون. لك سيعود الفضل في اجتياز أول أسوار تلك المدينة الملعونة قبل أن أدمّرها بألسنة اللهب.

- فلتحقّق تانيت المحسنة صلواتك! أجاب مخاطبه، قبل أن يتوجه في تفكير يعروه الشك والارتياب إلى مقدمة السفينة.

الفصل السادس

كان إنزال بوبليوس كورنيليوس سيبيون في أفريقيا نتيجة جهود دبلوماسية حثيثة قام بها منذ عدة أشهر. بدأ كل شيء بعد سقوط قادش بين يديه. لاحظ القائد الروماني بدهشة كبيرة أن القادة البونيين عند مغادرتهم أحد الأمكنة يسرع الأمير النوميدي الشاب ماسينيسا إلى ذلك المكان مع فرسانه، ويمتنع عن كل عملية سلب وعن أي هجوم ضد سادة البلاد. وقد دفعه الفضول لدعوة الأمير إلى زيارته مؤمناً على مروره بإبقاء ابن أخيه رهينة في معسكر حلفاء قرطاجة القدماء لحين عودة قائدهم.

ذات صباح، لاحظ المسؤولون وصول مفرزة صغيرة من الفرسان إلى قرب الأسوار وعلى رأسها رجل شاب لوحت وجهه الشمس. توقّف، وأمر رجاله بالعودة وتقدّم وحيداً إلى المخفر الأمامي. وتوجّه إلى قائد المئة وسلّمه الوثيقة المحرّرة من سيبيون والممهورة بخاتمه. تأمّل معاون الضابط بانتباه جواز المرور. وباعتباره لا يتكلم الإغريقية أو البونية أشار للقائد النوميدي بأن يتبعه، وقاده حتى القلعة حيث ينتظره مضيفه.

قال الرجل بلغة هوميروس وبهدوء ورزانة: لك التحية ياماسينيسا. تأخّرت في التعرف عليك.

ـ وأنا أعترف أيضاً بأنني فوجئت بطلبك.

ـ لماذا.

ـ لأنني قاتلت على الدوام والدك وعمك قبلك، لقد كانا من أعدائي. وأنا مسؤول إلى حدّ ما عن موتهما، لأن قواتي أجبرتهما على التراجع إلى مواقع يسيطر عليها القرطاجنيون الذين لم يتورّعوا عن قتلهما، وأنا أعتقد لهذا السبب أنك تكنُّ لي حقداً قاسياً وحتى وصول ابن أخيك اعتقدت أنَّ دعوتك تتضمّن خدعة.

ـ وجد أهلي موتاً مشرفاً في خدمة روما وسجّلت أسماؤهم باحترام من مواطنينا. تمنّوا مثل هذه المكافأة وأنا أحترم ذكراهم، وليس لديّ أي سبب للشعور بالحقد تجاهك وبدرجة أقلّ محاولة الانتقام منك. إنك جندي وقد قمت بواجبك العسكري بمتابعتك لأهلي التعساء. من يجرؤ على لومك؟ لست أنا على كل حال. غير أنني ألاحظ ببساطة أنّ أصدقاءك لا يعترفون لك بهذا الجميل.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ علمتُ أن حسدروبال ابن جيسكون قد شتمك.

ـ لك مخبرون بارعون.

ـ إنني أدفع لهم ثمناً غالياً لقاء خدماتهم. وبالسماح لأحد رؤسائهم بالنميمة عنك برهنت قرطاجة عن جحودها، ولا أستغرب هذا من هؤلاء البونيين المتغطرسين.

ـ كان حسدروبال رجلاً طمّاعاً يفترسه الحقد على آل برقا. وأخي البكر جوبا ارتبط بصداقة مع هميلقار الذي عامله باحترام، وقد جئت إلى هذه الأرض الغريبة برفقة هنيبعل وأخويه الذين شرفوني بصداقتهم.

ـ إنني أفهم مشاعرك. وهي نبيلة وجديرة بالتقدير. انظر إلى الحقيقة أمامك توفي حسدروبال برقا، وذهب القرطاجيون إما إلى أفريقيا أو إلى البليار متخلين عنك وعن رجالك على هذه الشواطئ المناوئة لك.

ـ أخطأ رجالك هذه المرة في معلوماتهم. بقيت هنا بملء إرادتي لسبب بسيط.

ـ إنني أخمنّه.

ـ وما هو في رأيك؟

ـ والدك غايا رجل عجوز، واعذر صراحتي، موته قريب، هذا ما أخبرني به أخوك جوبا ولا يمكنك إنكاره ـ حتى أنّه رفض الجلوس على العرش وقدّر أن عمره الكبير يحول دون حسن ولايته. وقع عليك تسنّم هذا الحمل الثقيل وأنا أرثي لك بكل صدق.

ـ وما سبب كل هذا الاهتمام؟

ـ أعداؤك كثيرون بدءاً من جارك القوى سيفاكس ملك المازاسيل.

ـ يتنافس شعبه وشعبي، الماسيليون، منذ زمن طويل. غير أننا حاربنا معهم إلى جانب القرطاجنيين وقد عدّل هؤلاء من طموحاته الموجهة ضد مصالحي.

ـ هذا ما يستعد لإجرائه.

ـ كيف تعرف؟ أهم جواسيسك؟

ـ مع سيفاكس لا حاجة بي لخدماتهم. لأن هذا الصديق الوفي لقرطاجة لا يتردّد في الحديث معنا. أرسل سابقاً بسريّة كبرى سفيراً إلى روما ليعلم مدى استعدادنا لمنحه حمايتنا، وقد أرسل إليه مجلس الشيوخ ثلاثة من أعضائه يحملون له هدايا ثمينة: حُلّةً فاخرة وغلالةً أرجوانية، وكرسيّاً من عاج، وكأساً من ذهب.

ـ هذا ما أعرفه وأعرف أنه لم يرفض هذه الهدايا.

ـ إنّك على حق، لكنه تحاشى الطلبات المُلّحة من مندوبينا الذين عادوا دون جواب حاسم إلى ضفاف التيبر. واليوم ومن أجل الإجابة على سؤالك اعلم أن هذا الثعلب المراوغ ندم على تردداته

الماضية وهو يقترح علينا توقيع معاهدة تحالف شرط أن نساعده في الاستيلاء على أملاك غايا.

- أشكرك على معلوماتك الثمينة ولا أجهل الأسباب التي تملي سلوكك. تريد شق صفوفنا وكنت ماهراً في اللعب. في مكانك لا أتردد لحظة. وما بيني وبين سيفاكس فإنني أختار هذا الأخير الذي تمتد مملكته بين سيغا(*) وسيرتا(**) المدينة التي استولى عليها من أهلي منذ سنتين غدراً. وجيشه يفوق جيشي إلى حدّ كبير في العدد، وسيكون كبير الفائدة لك إن قررت تجاوز البحر الكبير والانتقال بالحرب حتى جدران مدينة قرطاجة.

- إنك بمثل محاكمة شيوخنا العاجزين عن رؤية ما هو أبعد من مصالحهم المباشرة. وأنا، بوبليوس كورنيليوس سيبيون، من معدن آخر وأعترف أنني لا أريد صداقة خائن لا يحترم تعهداته عندما نسمح له بوضع اليد على الأراضي التي يطمع بها، أفضّل أن أعتمد عليك حتى في مساعدتك القليلة لنا.

«عما قريب سأوجه جيوشي إلى الأرض الأفريقية وهناك سيتقرر مصير النزاع القائم بين إليسا وبين روما. ولا أشك في خروجي من هذه المغامرة منتصراً لحظة واحدة، إلا أنني بحاجة لحليف أمين في المكان، لا يسعى لبيع ولائه لصاحب السعر الأعلى. وأنا أعلم أنك بعكس سيفاكس رجل مستقيم. وقد منحتك ثقتي وأؤكد أنك لن تأسف على موالاتي. سأكون حامياً لك وعوناً يقظاً يهتم بمصالحك الحقيقية عندما يضطر هنيبعل إلى عقد الصلح معنا. سنمنع عن مدينته أي تدخل في إيبيريا وإيطاليا. هل تعلم ما سيفعل مجلس المئة والأربعة عند ذلك؟ سيقنع حنون الكبير وأنصاره زملاءهم بمدّ منطقة نفوذهم ونفوذ قرطاجة إلى سواحلكم ويحاولون ضمّ مملكتكم بكل بساطة إلى مملكة سيفاكس، لكنكم

(*) هي تكمبريت في منطقة وهران.
(**) هي قسطنطينة في الجزائر.

أقليّة وابن هميلقار لن يكون هنا ليهرع لمساعدتكم ومساعدة شعبكم المتعلق بضراوة باستقلاله وسيضطر إلى الاقتناع بالعبودية.

- ولن تتدخل روما بالطبع ضد أعدائنا.

- إلا إذا كان لديها أسباب طيبة للحيلولة دون ارتكاب مثل هذا العمل الشائن. مثل الاعتراف بالجميل نحو أمير شاب يساعدها على قهر عدوها الشرس.

- إنّك تطلب مني أن أخون هنيبعل وأخاه ماغون.

- إنني أبعد ما أكون عن هذه النية. إنّهم بالنسبة لك بمثابة الأهل وأنا أحترم شعورك، إنها قضية خاصة لا علاقة لي بها. في الواقع أنا أيضاً أحترم كِلا البرقاويين، وإذا تغيّرت الظروف والمقادير سأكون فخوراً بلقائهما والاعتزاز بصداقتهما.

- إنك تعتبرني على حقٍّ إذن.

- ستغدو عما قريب ملكاً وستعرف أن على الملك أن يهتم بمصالح رعاياه قبل اهتمامه بميول قلبه. في حال انهزام هنيبعل وماغون لن يكون لهما أي سلطان على مدينتهما، بل قد يحكم عليهما باللجوء إلى المنفى. سيكون خصومهما أحراراً، وبمهاجمتك لديهم القناعة بمتابعة الصراع ضد أبناء هميلقار. أنا بوبليوس كورنيليوس سيبيون أعرض عليك صداقتي وحمايتي، فكر جيّداً زن مالك وما عليك. لا أطلب منك جواباً عاجلاً. عندما تتوصل إلى قرار سأكون سعيداً في استقبال مندوب عنك ينقل لي أخبارك، وأنا مستعد للرهان على أنّها سترضيني.

- قيل لي الكثير عنك، عن ذكائك وحكمتك وإنسانيتك. إنّك قائد كبير ورجل سياسة داهية. لم يخطئ مخاطبيّ في ذلك. استمعت إلى مقترحاتك وسأدرسها بعناية عندما أعود إلى وطني باجا، التي تسود على الأراضي الواقعة ما بين أعمدة ملقارت ونهر مولوشا(*)،

(*) هو نهر المولوية شمال شرق المغرب.

إذ أنني وعدت هناك بتقديم حملة من أربعة آلاف فارس. وبفضلهم سأتمكن من اجتياز بلاد سيفاكس بأمان كلّي، وسأذكر لوالدي ما ينبغي علينا عمله. تأكّد أن صراحتك قد أثّرت بي بشكل كبير، وسأكون فخوراً في أن أستطيع يوماً إعلان نفسي صديقاً لك دون أن أمتنع عن الولاء لحلفائي.

لم يَسَع بوبليوس كورنيليوس سيبيون إلا أن يهنئ نفسه بهذه الزيارة. فما كاد ماسينيسا يصل إلى القصر الأبوي حتى وجب عليه أن يحضر اللحظات الأخيرة لوالده غايا، فالرجل العجوز بلغ حدّاً من الإرهاق لم يستطع خلاله التحدث إلى ابنه، غير أن نظرته كانت تشير إلى أنه يثق كل الثقة بابنه الحريص على مستقبل شعبه. فما كاد الملك الماسيلي يفارق الحياة ويُحمَل إلى الأرض المتنازع عليها مع سيفاكس حتى نشبت الخلافات بين ورثته. فشقيق الملك المتوفي أوزالسس زعم أن العرش يجب أن يعود إليه، وقد عمد إلى قتل أخيه الأصغر جوبا. ثم توفي تاركاً السلطة إلى أحد أبنائه، كابوسا، وهو شاب ضعيف موسوس أطاح به أحد أبناء عمه المسمى مازيتول. وهو إنسان حذر، فضل ألا يحمل لقب الملك وأقام على العرش أحد أولاده لاكومازس، وأعلن نفسه وصياً عليه، ثم اهتم بالتقارب مع سيفاكس ومع القرطاجيين وتزوّج نبيلة بونية هي ابنة أخت هنيبعل، أرملة أوزالسس، مستفيداً من وعد بدعمه وحمايته من قبل جيوش سيفاكس من عودة مرتقبة لماسينيسا. غير أن هذا الأخير واستناداً إلى نصائح جوبا هرب من القصر والتجأ مع حفنة من رجاله الأمناء إلى منطقة أمبوريا(*).

قرّر القائد الروماني المطّلع على هذه الأحداث أن يتوجّه إلى سيغا إحدى عاصمتي مملكة المازاسيل ليلتقي فيها مع المنتصر على ماسينيسا، مستجيباً للدعوة الموجّهة إليه إلا أنه نسي إعلامه عن تاريخ وصوله. أبحر مع لاليوس، محافظ الأسطول، على متن سفينة

(*) هي منطقة سيرت الصغرى الواقعة حالياً في تونس في مواجهة جزيرة جربة.

خماسية المجاذيف تحرسها سفينة بذات الحجم. عندما دخلت السفينتان في مرفأ سيغا فوجئا باكتشاف ثلاثية مجاذيف قرطاجنية قد ألقت بمراسيها. إنها مركب حسدروبال ابن جيسكون الذي عاد بعد أن ألقى بحطام جيشه في قرطاجة. لقد أتى ليستطلع نوايا حليفه. هذه المصادفة السيئة جعلت من سيفاكس متلبساً بجريمة اللعب على الحبلين، وبقي لعدة أيام ممتنعاً عن الظهور أمام مدعويه سواء أكانوا رومانيين أو بونيين. إذا كان حسدروبال لم يكتم غضبه، فإنَّ بوبليوس كورنيليوس سيبيون احتفظ له بهدوء ثابت. كان يعمل أحياناً على إرسال دورية من الجند الرومان في متعة خبيثة إلى شوارع المدينة لتلتقي بعسكريي قرطاجنة الملزمين بالابتعاد عن طريقهم مبدين لامبالاة ظاهرية.

أدرك سيفاكس أن عليه الخروج من هذا الموقف الحرج مهما كان الثمن، فقرّر دعوة القائدين العدوين إلى مأدبة في قصره. لم يستطيعا رفض الدعوة، والتزما بالصمت، لئلا يتعرض أي منهما للشبهات إزاء قضاتهم المحترمين. أراد أن يشرح للجميع أنه ملتزم بقوانين الضيافة المقدّسة ولا يريد أن يميّز أحد مدعويه عن الآخر. كان أكثر مكراً منهما إذ عمد إلى وضع سريرين في قاعة المأدبة، هو يشغل الأول منهما فيضطر مخاطباه، عند الطعام، إلى الجلوس جنباً إلى جنب على السرير الثاني، عاملاً على مواجهة الشدائد بقلب غير هياب.

كانت المأدبة رائعة. حرص فيها سيفاكس على اختيار أفضل خمور أقبيته، كما عمد طهاته إلى إعداد الأطباق الأكثر ندرة واشتهاءً، تُقدّمها مجموعات من العبيد الحريصين على إرضاء سيّدهم. استقبل مدعويه بفيض من الكلمات المعسولة وإطراءات كلها نفاق ورياء:

- قلبي يطفح فرحاً لرؤية بوبليوس كورنيليوس سيبيون وحسدروبال ابن جيسكون يجتمعان في قصري ويشرفاني بتقاسم

هذه المآكل المتواضعة. هذا اليوم من أجمل أيام حياتي، وأتضرَّع إلى آلهتنا وآلهتكم أن يكون فاتحة عصر جديد لشعوبنا. هناك وقت للحرب وآخر للسلام، ويبدو لي أن الأخير يقترب من تمامه، ولن تكون حياتي دون فائدة إن توصلت إلى أن أولّد في قلوبكم الرغبة في وضع حدّ لهذه الحرب بين الأخوة. وأنا أرفع كأسي لأشرب نخب نجاح هذا المشروع.

- سيفاكس، قال الروماني، إنك ممثل بارع وأنا معجب بالطريقة التي ترأب فيها سوء تصرفك. مع ثقتي بأن حسدروبال يقاسمني شعوري ويسرني أن أتعرف عليه في مثل هذه الظروف.

أجاب ابن جيسكون: أنا أيضاً، أتلهف للتحدث إلى العسكري العبقري الذي طرد أتباعي من قرطاجنة وقادش. تباً للمجاملات. لنجلس ولنبدأ الاحتفال!

أطلقت الخمر ألسنة المدعوين، وبسرعة نسي الجنرالان وجود سيفاكس ليتعرّضا للمعارك التي فرّقت بينهما وكل منهما يشيد بشجاعة الآخر. وعلى شاكلة الشرقي الساذج توقّع حسدروبال ابن جيسكون أن يكشف مخاطبه عن خبيئة نفسه. بينما أدرك سيبيون مايقصد فعمد إلى إفقاده الصبر، وعندما لاحظ أن البوني يكاد أن يفقد هدوءه قرّر أن يدخل في صلب الموضوع:

- حسدروبال، أخشى أن تجرح بعض عباراتي شعورك وأريد أن تعلم أنه ليس المقصود بعدم لباقتي جرح شعورك. أنا أقدّر مزاياك العسكرية، ويدهشني أن لا تعمد مدينتك إلى حسن الاستفادة منها مرّة أخرى. صحيح أن من سوء حظك أن تكون صديقاً لحنون الكبير ولمساعده حسدروبال جلد الجدي، وهما رجلان استهواهما السلام والمصالحة لذلك هما خصمان عنيدان لآل برقا، إلا أن شيئاً ما يدهشني. حماتك يعيشون في قرطاجة ويديرون شؤون المدينة، بينما عائلة هميلقار التي لم تشاهد مجدّداً مسقط رأسها منذ سنوات. كيف تفسر سلطتها شبه المطلقة في الممارسة والقدرة الممنوحة لها للتصرف كما يحلو لها.

ـ إن الشعب مخلص لهم ومبتهج بانتصاراتهم حتى الوقت الحاضر، وبما أن ثروات إيبيريا تحت تصرفهم فهم لا يطلبون أي عون مالي من ولاتنا. وبما أنهم لا يثقلون الشعب بالضرائب فما من سبب يدعوه لمعارضة حرب لا تكلفه شيئاً.

ـ تريد أن تقول إنها لم تكن تكلفه شيئاً. أما الآن ومع خسارة قادش وقرطاجنة فإن الذهب والفضة سيتوقفان عن رفد صناديق مدينتكم. وليس لديكم حالياً إلا خيار واحد وهو جباية ضرائب جديدة، وأنت تعلم أن هذه الإجراءات لا تحظى بأية شعبية. وتذمُّر عامّة الشعب سينقلب ضدكم وليس ضد هنيبعل القاطن بعيداً بعيداً جداً، وهو محافظ على شعبيته. عاجلاً أو آجلاً ستواجه أنت وأتباعك بوضع غير مرغوب فيه. ولن يتأخر أعوان آل برقا في أن يشرحوا بأن من المناسب البحث عن الذهب والفضة حيث يوجدان، أي في أقبية قصوركم. يكفي بعض العناصر التحريضية لإثارة الفتن وتنظيم النهب في مساكنكم.

ـ هي مجازفة حرص مجلس المئة والأربعة على الاهتمام بها واتخذ جميع الاحتياطات لدرء أخطارها. حامية قرطاجة دُعّمت بشكل لا تتردّد فيه باقتياد العصاة إلى مجلس الشيوخ، وخاصة المحرضين لهم ونحن نعرفهم لأنهم يتصرفون بشكل علني.

ـ إنني أثق بمدى قسوتك المشهورة بقمع كل محاولة عصيان بالدم، إلا أن هذا لا يحلّ بأي شكل مشكلتكم الرئيسية وهي توزّع السلطة في مدينتكم. حُكِمتم حتى الآن بأرستقراطية تعتزُّ بامتيازاتها وحظواتها. آل برقا الذين لا يكرهون الغوغائية وضعوا رجالهم في قلب مجلس المئة والأربعة، وقريباً عندما سيشكلون أكثرية فيه ستفقدون سلطتكم تماماً.

ـ سيبيون تحليلك لا تعوزه الدقة، غير أن فيه نقطة ضعيفة. ماتصفه لا ينطبق على إليسا وحدها. في روما ذاتها يتمتع أنصاركم بوضع مماثل وأنت بالذات غير بعيد أن تعُامل مثل هنيبعل. حزبك

يعتمد على الشعب ضد الأوساط المحافظة المتمثلة بديكتاتوركم القديم كانتوس فابيوس مكسيموس المعارض لمتابعة العمليات العسكرية خارج إيطاليا. أنت لست في الموقع المناسب للدفاع عن مصالح الأرستقراطية القرطاجية بينما تخفف من شأن نظيرتها الرومانية.

- إنني أنتمي إلى سلالة من أشراف القوم، الى عائلة من أقدم عائلات المدينة، وتأكّد أنني لا أنوي أن أرى عامة الشعب تملي علينا سلوكنا. أنا أتظاهر بالبحث عن صداقة الشعب بمداعبة أحلامه علماً بأنّ لا شيء يتغيّر في مؤسساتنا. ويكفي عندما يحين الوقت المناسب لاستخدام نفوذي أن أوجّه الغوغائيين إلى التعقل، رغم أنني لا أقل عنك كرهاً لهم.

- إنها لعبة خطرة وماهرة إنما يمكن أن تنقلب ضدك.

- إنّها فرصة أحرص ألا أهملها.

- لنتحدث بصراحة. ماذا تقترح بشأني؟

- تحالف ضمني. إذا توصّلت للتخلص من آل بَرقا ستعترف مدينتي بأفضالك، ويمكنها بالمقابل أن تعرض عليك شروط صلح أقل قسوة من تلك التي تتوقّع الوصول إليها بعنادك.

- سأنقل رسالتك إلى حنون الكبير وسأذكر له عند الحديث عنك: «مع مثل هذا الرجل على القرطاجنيين ألا يفتشوا كثيراً عن سبب خسارتهم لإسبانيا أكثر من تساؤلهم كيف نحافظ على أفريقيا». الآن إن كان هذا لا يغيظك، أطلب أذنك في الانسحاب. أتهيّأ للإقلاع بعد غد وأفترض وجوب تداولك مع سيفاكس. من جهتي تداولت معه بضراوة، وأنا أعلم أنّه لن يعطيني جواباً قبل أن يصل الى حل للمسائل العالقة معك.

- لتكن رياحك مناسبة! إنني مقتنع أننا سنتقابل مرة أخرى.

استأذن حسدروبال ابن جيسكون في المغادرة من القائد

الروماني ومن العاهل المازاسيلي. وبقي هذان أخيراً منفردين، يتناقشان حتى الفجر، وبوبليوس كورنيليوس سيبيون يقرن التهديدات بالوعود:

ـ سيفاكس اعلم أنني لا أكنّ الحقد لك بسبب ازدواجيتك. لم تتوقّع وصولي بينما عدوي القديم مايزال موجوداً في عاصمتك. وهكذا تسنى لي أن ألاقيه وأنا غير آسف على هذا اللقاء الذي علّمني أشياء كثيرة.

«يقال، إن روما تكن لك خصومة ثقيلة. وجّهت إلى علاقاتنا الرياح الساخنة والباردة ونحن نلقاك بالترحاب. لن نتساهل بعد الآن تجاه عدم التزامك ووعودك الكاذبة. وأنا أنقل إليك إنذاراً باسم مجلس الشيوخ: إمّا أن تقبل في الحال توقيع معاهدة ولاء وصداقة معنا، أو أن تتعرّض للعقاب الذي يستحقّه ولاؤك لقرطاجة، لمدينة ستلقى قريباً حصار قوّاتي. فماذا تختار؟

ـ نجاحاتك العسكرية الباهرة تشير لي صراحة بأن الحظّ يبسم لك. منذ طفولتي وأنا أفضل أن أكون مع الجانب المنتصر. نبّئ إذن قناصلك أنّ لمدينة رومولوس من الآن فصاعداً حليفاً جديداً هو سيفاكس ملك المازاسيليين.

* * *

انصرف سيبيون مسروراً نتيجة محادثاته، والتحق سريعاً بقادش ثم بروما. في مسقط رأسه تلقى استقبالاً حاراً وغصّ مقرّه الواقع في منطقة المتاجر القديمة على ضفاف الساحة بجماهير المناصرين الوافدين لتهنئته، أو لتقديم المطالب التي تهمّهم. بمساعدة والدته بومبونيا، التي ساهمت في حملته بشكل واسع، انتخب قنصلاً مع بوبليوس لوسينيوس كراسوس وهو زعيم شعبي فاحش الثراء استحق باسم كنوزه لقب «المحظوظ». بقي أن تحدّد الولايات التي ستجنح إلى جانب الولاة الجدد. اختار المنتصر على

حسدروبال ابن جيسكون صقلية وهي مرقاة طبيعية للمرور إلى أفريقيا، وسيكون من حظه الحصول عليها لأن زميله، الممارس منذ سنوات عديدة وظيفة الحبر الأعظم، لن يتمكن بسبب المحرّمات الدينية الملتصقة بذلك المنصب أن يترك الأراضي الإيطالية.

مع ذلك فإن عدداً لا يستهان به بدءاً من الشيخ كانتوس فابيوس مكسيموس، كانوا يعارضون الحملة المقترحة. وقام نقاش عاصف يعارض بوبليوس كورنيليوس سيبيون، وهاجم أول المعارضين من كان يعتبره شخصاً عديم الخبرة يضنيه الطموح:

- أيّها الآباء أعضاء مجلس الشيوخ: يجري الحديث لإرسال فرقنا إلى الجهة الأخرى من البحر الكبير، بينما هنيبعل اللعين يشغل دائماً بروتيوم ويزرع الرعب والدمار في أراضي حلفائنا. قبل حصار أسوار قرطاجة من الأفضل تحرير مجمل أراضي شبه الجزيرة ودحر الجنرال الأعور الذي سبّب لنا كل هذه المصائب إلى خارج إيطاليا. كان صراعي معه كافياً لأتمكن من الحكم عليه. هو يعيش منذ زمن طويل خارج مسقط رأسه حيث يتعذر التفكير بإعادته إليه يوماً ووجوب مجابهة نقد خصومه داخل مجلس المئة والأربعة. سيبقى غير عابئ بطلباته إذا رأى هذا الأخير قواتنا تخرّب ملكياته في رأس بون والمناطق المجاورة له وتناشده للعودة. وسيستغل ضعف قواتنا بالذات ليطلق على لوكانيا وكامبانيا، إحدى ضربات قبضته الجريئة التي يعرف سرّها.

«ضد هذا الرجل يجب أن نجند كامل طاقتنا. يجب أن يمنعه الأسطول من تلقي أي رفد بالمؤن اللازمة له وأن تقوم مشاتنا بتضييق الحصار عليه. سننتهي إلى إجهاده وإلزامه بالإقلاع. في إيطاليا يجب محاربته. ليس من الطبيعي، بل من الكفر مهاجمة بلاد الآخرين قبل الدفاع عن أراضينا. لنطرد أولاً من مناطقنا الخوف والذعر قبل أن تُحمل إلى الأرض الغريبة أياً كان مدى تلك المحاذير. إنني لا أكتم معارضتي العميقة لفكرة إنزال جيشنا في

أفريقيا، فأكثرنا تقدُّماً في العمر مايزال يذكر الأحداث المؤسفة التي جرت لقنصلنا التعيس ماركوس أتيليوس روغولوس وموته خارج وطنه. وأنا لا أتمنى لبوبليوس كورنيليوس سيبيون مواجهة المصير نفسه، ولهذا السبب فإنني أعارض مشروعه.

أشار أحد الشيوخ الموالين للقنصل الجديد: أهذا هو السبب الوحيد؟

- إنك تلزمني التطرق إلى موضوع حسّاس. أنا أجهل مزاياه العسكرية غير أنني أشكُّ بطموحاته السياسية. إنّه يريد إجراء ضربة قاضية ليجتذب عواطف الشعب ويغدو سيد مدينتنا المطلق. هو يتمتع بمزايا هنيبعل المتهورة نفسها. رأيناه جيّداً خلال حملات إيبيريا، يحاول أن يقرر وحده مصير العمليات العسكرية دون أن يكلف نفسه مشقة استشارتنا. منذ سنوات مرت حصل على السيطرة العسكرية بينما لم يمارس أيّة قدرة ذات شأن. واليوم بعد أن غدا يتمتّع بالهالة التي كسبها من الشعب ليس ثمّة سبب لكي يغيّر سلوكه، وهذا ما يقلقني أشد القلق.

- إنك تفضل دون شك أن تراه يقاتل في بروتيوم بينما يتمّ تكليفك بوضع الحصار على قرطاجة؟ صرح شيخ آخر. فمثل هذا الانتصار يتوّج مسيرتك ويحرم منافسك من انتصار يستحقه.

- إنّك على ضلال، استأنف كانتوس فابيوس مكسيموس. أنا لا أريد هذه الحملة على أفريقيا لأنها لا تقرر شيئاً من مصير الحرب. خلال نزاعنا السابق مع مدينة إليسا قادت عملياتنا الأشد فتكاً عدونا إلى توقيع معاهدة مع كايوس لوتاتيوس في صقلية، وقد كان هميلقار مضطراً إلى التخلص من دربانوم وجبل إريكس لنعلن انتصاراتنا. أي نصر أفضل من هذا لقنصلنا الشاب: هزيمة هنيبعل تحت جدران قرطاجة أم تحرير إيطاليا بعد أن حرّر إسبانيا. إن كان يحرص كل هذا الحرص على مجابهة الجنرال الأعور فليكن ذلك على أرضنا.

- إن أقوال كانتوس فابيوس مكسيموس، ردّ سيبيون، هي في الظاهر مشوبة بالحكمة والحذر وسنكون ممتنّين له إن تمكّن من إصلاح أوضاع جيوشنا بعد الهزائم الساحقة التي أنزلها بها هنيبعل. لقد كسب الوقت، وتجنّب معارك جديدة، لم نكن مستعدين لها وهذه السياسة قد أعطت ثمارها في وقتها.

«مع ذلك أيّها الآباء أعضاء المجلس فإنّ ذلك العصر قد تطوّر، لأن قرطاجة وليست روما هي الآن في الوضع اليائس. أعداؤنا خسروا ملكياتهم خارج أعمدة ملقارت. حسدروبال برقا لقي الموت على طول نهر الميتور. وهنيبعل ليس في أفضل حالاته وهو لا يحتاج لإرسال فرقنا ضده. إنه يتكفّل بتنظيم هزيمته بنفسه ولا أتوقع حرمانه من هذه المسرّة.

«إضافة إلى هذا فإنّ عاملاً جديداً قد تمَّ: إنه تغير موقف الأمراء النوميديين. أشرتُ بحق إلى سابقة ماركوس أتيليوس روغولوس. إذا كان هذا الأخير قد هزم فذلك لأنه لم يجد حلفاء له في المكان، وليس هذا هو وضعنا. سيفاكس ملك المازاسيليين وقّع معاهدة صداقة معنا، وستلتحق قوّاته بقوّاتنا لتوجّه إلى قرطاجة ضَرَبة قاضية.

- أنت لا تجهل عدم جدوى هذه الوعود، أجاب كانتوس فابيوس مكسيموس. سيفاكس أعلن سابقاً في الماضي أنه صديقنا وتلقّى منا هدايا ثمينة، لكنه بقي أميناً لمدينة إليسا وقام فرسانه بقتالنا في ساغونت وفي إيليبا.

- بالتأكيد، غير أننا أتحنا له أن يستولي على مملكة منافسه ماسينيسا وهذا الأمر لا يستطيع أن ينساه. هو يعلم أنّنا سنطالبه آجلاً أو عاجلاً بالمقابل.

- هل أنت متأكّد؟ لقد حصل على ما يريده، وفي أفضل الأحوال، سيكتفي أن يلاحظ في حياد حذر لمن سيبتسم الانتصار قبل أن يحدّد موقفه.

ـ إنك تتصرّف وكأنّه حليفنا الوحيد الممكن. إن خابت آمالنا به فسنتحوّل نحو ماسينيسا الذي التقيته في قادش، والذي يسعده أن يستفيد من مساعدتنا لاستعادة مناطقه. إنه موجود حالياً في أمبورتا وأنا على اتصال معه. وصل أحد مبعوثيه منذ وقت قليل حاملاً الجواب على السؤال الذي طرحته خلال لقائنا في قادش. بعد أن فكر ملياً في الأمر أعلن استعداده للانضمام إلى صفوفنا ويمكنه أن يجمع عدة آلاف من الفرسان والمشاة. سواء أكان حليفنا سيفاكس أو ماسينيسا نحن إذن متأكدون من الحصول على نجدات في المكان، وهذا هو السبب الذي يدعوني إلى ضرورة الإسراع بتهيئة عملية إنزال في أفريقيا. حان الوقت لتتلقى تلك المنطقة ماوجب على إيطاليا إجراؤه منذ سنوات عديدة. بهذه الطريقة نحن ننتقم لشهدائنا الذين نكنُّ لهم كل الحبّ ولجميع أولئك الذين وجب عليهم مغادرة منازلهم لتتعرض لنهب القرطاجيين وتخريبهم.

ـ لقد ألهبتني حججك وحرّكت مشاعري، قال كانتوس فولفيوس فلاكوس، أحد الشيوخ القدامى. تبقى القضية التي أثارها فابيوس مكسيموس: يسود الاعتقاد في روما أنك لا تكنُّ إلا بعض الولاء لمجلس الشيوخ، وأننا في حال رفضنا لإرضائك بمنحك مقاطعة صقلية فإنك مستعد للجوء في اتخاذ قرارك إلى مجالس الشعب الروماني، لتوجّه بذلك إلى زملائك خيبة أمل لايمكنهم احتمالها. هل يمكنك أن تؤمّن لنا تأكيداً بأنك ستنزل عند رغبة زملائك دون استشارة الشعب؟

ـ يمكنني أن أؤمن لك شيئاً: هو أنني سأتصرف في مصلحة روما. هل يوجد شيء أقدس من ذلك في نظرك؟

ـ في جوابك مهارة غير أنها مبهمة. إذ من يعلم مصلحة الدولة أنت أم نحن؟

ـ إن عائلتي تُعَدُّ من أعرق العائلات في مدينتنا وقد خدمتها على الدوام بأمانة وشجاعة. وهذا ما فعلته منذ سنوات بعد والدي

وعمي، خاصة وأنّ الاستيلاء المجدّد على ساغونت وقرطاجنة وقادش يشهد لصالحي. هل يمكنكم الاعتراض على نتائج مبادراتي؟ إنكم تثيرون الشائعات والشبهات والمخاوف المبهمة، وأنا أجيبكم بالحقيقة. ولكم أن تحكموا على ما هو أكثر فائدة لوطننا.

في النهاية، وافق مجلس الشيوخ على أن تمنح صقلية لبوبليوس كورنيليوس سيبيون والسماح له بالنزول في أفريقيا إن وجد ضرورة لذلك. صحيح أن بوبليوس لوسينيوس كراسوس قد ضمن قسماً كبيراً من المقترعين بتذكّره المنع المفروض عليه بمغادرة إيطاليا وفقاً لمهامه الدينية، إلا أنه كان متضامناً في جميع النقاط مع زميله.

* * *

كان من حسن حظ القنصل الشاب اختصار النقاش الدائر. فقد مرت أسابيع قصيرة لم يستطع خلالها الحصول على موافقة مجلس الشيوخ لأن حادثاً عارضاً قد طرأ، كان من شأنه أن يغيّر بعمق مجرى العمليات. تباهى بوبليوس كورنيليوس سيبيون بحصوله على معاهدة صداقة وقعها مع سيفاكس. إنما كما توقّع كانتوس فابيوس مكسيموس نقض ملك المازاسيليين هذا العقد الرسمي قبل انقضاء أسابيع لينضم نهائياً إلى قرطاجة.

كان صاحب هذا التحول حسدروبال ابن جيسكون، الذي أدرك أن سرّ هذا الرحيل السريع للقائد الروماني من سيغا يعود إلى أن هذا الأخير قد نال من مضيفه ما كان يرغب به ويتمناه. وتظاهر بعدم المعارضة، واستأذن بمودة من العاهل المازاسيلي السفر مع وعد بالعودة إلى رؤيته في أقرب فرصة. ما كاد يصل إلى مدينة إليسا حتى التقى منافس هنيبعل بحاميه حنون الكبير، ليعلمه بخيانة حليفه القديم ويعمل بالتعاون معه على تصوّر وسيلة هجوم مضاد.

هز رئيس الحزب المعارض لآل برقا رأسه غضباً، وسأل محدثه:

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟ إن نقض ولائه يشكّل خطراً لا يحتمل على مدينتنا، ونحن نعاني نقصاً في الرجال يحول دون إعادة سيفاكس إلى الطريق القويم.

ـ ستفعل امرأة ذلك.

ـ ماذا تعني بهذا؟

ـ لدي فتاة كافونبعل، «حامية بعل»، الملقبة بالإغريقية سوفونيسبي. إنّها، كما تعلم، ذات جمال لا يقاوم. وعديد من الشبان القرطاجيين مستعدون لكل شيء في سبيل الحظوة بالزواج منها. وقد قرّرت حبّاً بمدينتنا أن تكون إليسا الجديدة. من واجبها أن تُضَحّي لتؤمّن مستقبل قرطاجة. بعد قليل من الزمن سأغادر معها إلى سيرتا، وأنا مستعد للمراهنة بنصف ثروتي على أن سيفاكس سيتيه بها هياماً، وسأوافق على منحه يد ابنتي المحبوبة لقاء شرط واحد، هو أن يتخلّى عن تحالفه مع روما.

ـ إنّك تفرض عليها حملاً ثقيلاً. ألا تخشى أن يلومك بعض مواطنينا لأنك تبيع ابنة صغيرة لغريب وتلطّخ بذلك سمعة سلالتك.

ـ أنت تعلم جيداً حقيقة مشاعري حول هؤلاء النوميديين الملعونين، وأنا لا أكتم سرّ عواطفي حتى بحضور أحدهم وهو ماسينيسا. إنهم قوم متوحشون، عديمو التهذيب، وأقلّ ثقافة وذكاء من عبيدنا الإغريقيين. يمكنني أن أحلم بحظٍ أكثر ملاءمة لابنتي. لكنني بعد إمعان الفكر لا أجد حلاًّ آخر لحل هذه المعضلة. من واجبي أن ألزمها باتخاذ سيفاكس زوجاً لها شرط أن يفصم علاقته مع روما، كما أنني أرى في ذلك مزيّة أخرى: إضعاف موقف هنيبعل.

ـ بأية طريقة؟

ـ أنت تعلم تشجيع آل برقا على الدوام للماسيليين سواء أنصار غايا أو ماسينيسا. بتحالفنا مع من انتزع مُلكهم سنظهر لهذا الأخير

أن قرطاجة هي الوحيدة التي تسود دون منافس على هذه الشواطئ. سيحسّ أنه قد خُدِع بنا وبصديقه خاصة، ابن هميلقار، الذي لا يستطيع معارضة قرارنا. إنه بعيد، بعيد جداً، وهو متأكد أن أنصاره لا يشاطرونه افتتانه بالنوميديين. سنحرم بذلك قائدنا الأعلى من حليفٍ ثمينٍ سيلقي نفسه في أحضان الرومان إن أراد هؤلاء وجهاً بغيضاً منفياً. فضلاً عن شعوره بالعجز والحسد من رؤية ابنتي تغدو زوجة منافسه الأكبر منه عمراً والأقل وسامة، وسيسعى للانتقام، وبينما يتطاعن مع سيفاكس سنتمكّن من تصفية حساباتنا مع الرومان.

- قيل لي، إن قنصلهم يفكر بالنزول في أفريقيا.

- نعم لأنه يظنُّ أن ملك المازاسيليين سيعينه في حصار مدينتنا. لكنه عندما يلاحظ أن حليفه غدا صهراً لي سيأسف بمرارة على الانطلاق في تلك المغامرة، وسيغدو بمثابة روغولوس جديد. إلا أنه لا أحد من آل برقا سيكون موجوداً الآن ليتيح له فرصة الهرب من الأسر.

- لكن هل ستقبل ابنتك أن تشاطر هذه العجوز مضجعه؟

- إنني مقتنع بذلك.

سافر حسدروبال ابن جيسكون بموافقة حنون الكبير إلى سيرتا برفقة سوفونيسبي، وهي شابّة لم تتجاوز العشرين من عمرها، وبجمالٍ أخّاذ يسلب اللب. فشعرها الأسود الفاحم، ولونها المائل إلى السمرة، وقامتها المشيقة، وعيناها الكستنائيتان وفمها المشتهى لا تُعَدُّ شيئاً أمام ذكائها وجاذبيتها، وأمام سحر بيانها، تتساقط الكلمات من فمها كما تسيل قطرات الماء من بئر في الصحراء القاحلة. نظرتها تتحدى كل من يجرؤ على تأمُّلها متهادية في سيرها، صوتها الرخيم منبعث موسيقياً طروباً بعد أن أتقنت الغناء الذي حرصت إحدى المغنيات الإغريقيات الأسيرات إعطاءها دروسه المترافقة مع عزف على قيثارة ذات أنغام حزينة أضناها الشوق والحنين، بناء على توجيهات والدها.

منذ الأمسية الأولى التي قضياها في قصر سيرتا الملكي، لاحظ حسدروبال نظرة الشهوة التي يلقيها مضيفه على مدعوته. وطلب ابن جيسكون في آخر السهرة من سوفونيسبي أن تتحف الملك ببعض ألحانها، فتدلّلت بغنج ماكر. وعندما ارتفع صوتها صافياً كالبلور، أحسّ النوميدي بشهوة غريبة تنتابه أمام تلك الفتنة الطاغية، وبدا على أتمّ استعداد للوصول إلى أهدافه المرجوة.

بإشارة من والدها انسحبت سوفونيسبي ببراعة خفيّة لتلتحق بالأجنحة الخاصة بها، تاركة الرجلين وحدهما يتداولان على انفراد.

قال الملك: حسدروبال يا صديقي. إنني سعيد لرؤيتك مجدّداً. وعدتني بزيارة عاصمتي إلا أنني لم أكن أعلم أنني سأحظى بشرف التعرّف على ابنتك. خيّل إليّ إنّ عيني تريان إحدى ربّات الجمال.

ـ إنني أشكر الآلهة كل يوم لأنها منحتني هذه الصبية الجميلة. لكنني أعترف لك بأن قلبي الوالدي حزين.

ـ هل هذا ممكن؟

ـ هذه الفتاة الساذجة التي لم تخف إعجابك بها أظهرت رفضها لعدد من الشبان الأرستقراطيين الذين ينتمون إلى أفضل عائلات مدينتنا.

ـ لماذا؟ سأل العاهل النوميدي مظهراً عدم اهتمامه المزيّف.

ـ إنّها تزعم إنّهم فتيان أغرار. وفقاً لما صرحت لي به مربيتها الملتحقة على الدوام بخدمتنا، فإنها تفضل رفقة الأشخاص الأكثر نضجاً وعمراً منهم.

ـ لا يمكنني القول إنّها على خطأ.

ـ كما إنني لا أخفي عنك نزواتها.

ـ وما هي؟

ـ ربيتها على احترام تقاليدنا والحرص على ثقافتنا. لم ترفض يوماً الاحتفال بالأضحيات المتوجب تقديمها من شابة إلى تانيت وبعل حمّون. إلا أنني أكاد لا أصدق أنها قرطاجنية حقيقيّة.

ـ من يجرؤ على الشكّ وبرفقتها أب على شاكلتك؟

ـ أترى. إن معظم خدمي من النوميديات اللواتي ما فتئن يحدثنها عن شعبك وتقاليده. إنّه موضوع يستهويها لدرجة أعتقد أنها بلغت بها حد التوصل إلى أفكار غريبة.

ـ إنني مشوق إلى معرفتها.

ـ إنها تؤمن أنكم أنتم النوميديون ونحن القرطاجيون نشكّل أمة واحدة مع احتفاظ كل منا بميزاته الخاصة. إنني متأكد أنّها تركت على هواها فستتزوج أحد شبابكم بدلاً من ابن أحد أعضاء مجلس المئة والأربعة.

ـ لا أرى في ذلك خطأ. لكنك بُحت لي بأنها تفضل الأشخاص الأكثر نضجاً منها. أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح. هل تفكّر بأحد أنسبائك أو أبنائك. لقد تجاوزوا جميعاً، وفق ما قيل لي سن الثلاثين.

ـ إنني أشك في أعمارهم وأعتقد أنهم مايزالون أغراراً تحت رقابة مهذّبيهم. إنما لدي فكرة أخرى خطرت ببالي، ولكن أكاد لا أجرؤ على التحدث بها لك.

ـ إنني صديقك ويمكنك أن تسرّ لي بمكنوناتك دون أن تخشى أثر كلامك علي.

ـ هل تعتقد أنها سترتضيني زوجاً لها؟ أستطيع أن أؤكد لك أنها لن تجد زوجاً أكثر مني رعاية لها. ها إنني قد قلت لك ما يخفق به قلبي وأنا لا أطلب منك جواباً عاجلاً. تستطيع أن تقول أنّك لا تحب شعبنا، وأعتقد أن هذا لن يحول دون اتخاذي صهراً.

ـ سيفاكس إن لي أعداء كثيرين بدءاً من آل برقا الذين دافعوا دائماً عن منافسك غايا وأولاده جوبا وماسينيسا، وأشاعوا على حسابي وحساب صديقي حنون الكبير كثيراً من الافتراءات الخالية من كلّ أساس. وصفونا بأننا أعداء للنوميديين ومناصرين لتحويل هؤلاء إلى عبيد. وهذا كذب، كذب مبين. هل تعتقد أن عدوّاً المازاسيليين يترك ابنته تشغف بتاريخكم وبآلهتكم؟ كلّمتني بصراحة وأنا أجيبك دون لف أو دوران: لن أقف عائقاً أمام اتحادك بسوفونيسبي إن تمت موافقتها على الاقتران بك.

ـ ستجعل مني أسعد الرجال لأنني أعتقد أنّها ستستجيب لإرادتك.

ـ سأضع مع ذلك شرطاً لهذا.

ـ سأوافق عليه مسبقاً.

ـ إنا لست متأكداً من رأيك لأنه يتعلّق بقضية سياسية.

ـ إنني مصغ إليك.

ـ أنت عاهل ماهر وواسع الحيلة: مستعد للاحتفاظ بملكياتك وتوسيعها. مرّت سنوات كنت فيها حليفنا الأمين وتمكّن فرسانك عدة مرات من تجنيبنا الهزيمة في ميدان القتال، ولما انعكس ميزان القوى تقرّبت إلى الرومانيين. لا تعترض، عملت ما أملاه عليك وجدانك ولو أنني كنت في مكانك لما تصرفت بغير هذا الشكل. خلال لقائنا الأخير في سيغا توصّلت إلى اتفاقية سرية مع روما. وعندما سترسو مراكب بوبليوس كورنيليوس سيبيون في أفريقيا سيطلب منك أن تلتحق به مع قواتك.

«حتى الوقت الحاضر أنت حُرٌ في تصرفاتك، لأنّك لم تكن زوجاً لسوفونيسبي وليس عمّك حسدروبال ابن جيسكون. أنا لا أحتمل أن يحمل أحد أفراد عائلتي السلاح ضد مدينتي. ولهذا فإن الشرط الذي

أضعه لاتحادك مع ابنتي الوحيدة هو أن تلغي العقد الذي وقّعته مع مدينة رومولوس.

ـ أعدك بأن أفعل.

ـ هذه المرة لا أستطيع الاكتفاء بالكلمات الطيّبة الصادرة عنك. عليك أن ترسل مبعوثاً إلى سيبيون الموجود حالياً في صقلية، وسيصحب هيراكليس، أحد مستشاري، مبعوثك. إنّه إغريقي وسيُستخدم رسمياً مترجماً لك. سيحمل سفيرك الرسالة التالية:«أيّها النبيل الروماني. أنا لا أرغب بشيء أكثر من العيش بسلام مع مدينتك. يمكنك أن تتأكّد أنني لن أرسل قوافلي لتطأ وطنك وتحمل إليه الخراب والدمار. أتوقّع منك أن تتصرف بالطريقة نفسها. اعلم إذن أنّك في حال رُسّوك على شواطئنا واقترابك من قرطاجة فسترانى مضطراً لمحاربتك من أجل أفريقيا التي ولدت فيها ومن أجل وطن أبي وزوجتي القادمة». وعندما يؤدي سفيرك هذه المهمة التي سيبلغني عنها هيراكليس سنحتفل بزواجك، ويمكنني أن أَعِدَك أننا سنتحدث طويلاً عن ذلك الاحتفال الفخم.

الفصل السابع

كانت الأفكار في روما قلقة من تعدُّد المعجزات والخوارق وبعضها يثير المزيد من الدهشة. مثل الحمارة التي أنجبت حماراً ذا رأسين. وفي كل مكان من إيطاليا يُشار إلى أن أمطاراً كالحجارة هطلت بغزارة ولبعضها حجم قبضة اليد. فقرّر الحبر الأعظم بوبليوس لوسينيوس كراسوس، لقطع دابر الإشاعات أن يستشير رجل دلفي الموثوق، بعد أن عهد إليه بوبليوس كورنيليوس سيبيون بالكنوز المأخوذة من القرطاجنيين من مخابئها في قرطاجنة. توجّه وفد إلى معبد أبولون المقدّس وسمح له باستشارة كُتُب العرافين. وجد فيها نبوءة، كانت مهملة حتى ذلك الوقت، وهي قادرة على تفسير الظواهر الغريبة التي كانت مدينة رومولوس مسرحاً لها: «في اليوم الذي يقوم فيه عدو من عرق آخر بإجراء الحرب على الأرض الإيطالية، فإننا لن نتمكن من طرده وقهره إلا بشرط إحضار البسينونت، والدة الآلهة، وربة إيدا(*) إلى روما». عدا هذا النصّ فوجئ الرسل بملاحظة أحشاء حيوانات عديدة قدمت أضاحٍ إلى أبولون البيتي كانت مقبولة بكاملها. استخلص المرجع المُعتَمَد أن الشعب الروماني سيكسب قريباً انتصاراً أكثر أهمية من ذلك الذي قدم لمعبدهم الثروات العظيمة التي جمعها القرطاجنيون.

جرت في مجلس الشيوخ، بصورة خاصة، مناقشة حامية

(*) إيدا كلمة يونانية تعني سلسلتي الجبال في آسيا الصغرى وكريت.

لمعرفة إن كان من الملائم إحضار الحجر المقدس إلى ضفاف نهر التيبر، وهو حجر يعتبره السكان من بسينونت حتى فريجي ممثلاً لوالدة الآلهة المحتفظ به في مكان مقدس خاص بآتالا ملك برغام. لكن عدداً لا يستهان به من الآباء أعضاء المجلس عارضوا الفكرة بشدّة. فهم متمسكون بشدة بالتقاليد ولذلك يحاربون إدخال العبادات الغريبة اليونانية أو الشرقية الى مدينتهم، خشية رؤية المؤمنين يتخلّون عن الأمكنة المقدّسة للآلهة حامية المدينة واستثارة غيظهم. غير أنهم بتأثير ضغط الشعب قرّروا أن يرسلوا إلى فريجي سفارة مؤلّفة من ماركوس فاليريوس لاڤينوس الذي تولى القنصلية مرتين، وماركوس سيسيليس متيليوس الحاكم السابق ومعهما الوكلاء الماليون كنايوس ترملوس فلاكوس وماركوس فاليريوس فالتو.

في برغام استقبلهم آتالا بحرارة، وقادهم بنفسه إلى بسينونت ليسلمهم الحجر المقدس، وقبل رحيل مدعويه جرت له مع ماركوس فاليريوس لاڤينوس المحادثة التالية، قال له:

- اعلم أن منحي هذا التمثال يعني أنني من الآن فصاعداً حليفكم. كنتُ في السابق مؤيداً لعدم الاستجابة لطلبكم غير أن ابني أومين أقنعني باتخاذ موقف معاكس إذ يجب عمّا قريب استدعاء قواتكم لحمايتنا من أعدائنا.

- من يجرؤ على مهاجمة عاهل مسالم وشهم مثلك؟

-لي عدوان رهيبان. الأوّل هو فيليب المقدوني الذي تعرفه لأنّه عقد مع هنيبعل معاهدة، والثاني هو أنطيوخس السلوقي. وهو كائن يفترسه الطموح ويحلم بالاستيلاء على مملكتي وعلى بلاد الإغريق بكاملها.

- لن ندعهم يكملون جريمتهم الشنيعة، من يهاجم أثينا أو إسبارطة أو خلقيدونيا وغيرها من المدن التي أتى إليها أسلافكم منذ قديم الزمن، يهدّد مصالح روما، ويجب أن يتلقى العقاب الذي يستحقه. أما أنت فحركتك الأبيّة تستحق المكافأة ويمكن أن تعتمد

على حمايتنا. إن تجاوز عاهل غريب حدود ممالكك سيجد قواتنا في مواجهته.

ـ أشكرك باسم شعبي. غير أنني خجل من وجوب التصريح لك بخبر غير سار.

ـ وما هو؟

ـ إنني أرى في ملامح وجهك بعض القلق. لكن اطمئن، ليس في الأمر كارثة. إنّما هي قضية مجاملة يمكن أن تحدث بعض الانزعاج. تقضي التقاليد عند إعارة تمثال والدة الآلهة إلى مدينة غريبة أن تُستقبل من قبل أشهر وأنبل مواطن في المدينة. يجب إذن أن تختاروا من يستحق منكم هذا اللقب.

ـ تأكد أننا سنحترم بدقة هذا التقليد. جابهت كثيراً من المخاطر في حياتي وأعتقد أنني سأتوصل إلى إقناع زملائي بالعمل على إسكات كبريائهم، واختيار من يبدو لهم الأفضل لتمثيل عظمة روما.

لاحظ القنصل السابق عند عودته إلى ضفاف التيبر أن مهمته أكثر صعوبة مما توقّع. عديدون أولئك الشيوخ أو أفراد العائلات الشهيرة من النبلاء الذين طالبوا بأن يُخَصُّوا بلقب أفضل مواطن في مدينة رومولوس. بل رؤي أشخاص ذوو تقدير مشكوك به ينفقون ثروات كبيرة للحصول على اقتراع الآباء أعضاء المجلس، الذين اجتمعوا في جلسة مغلقة، وانتخبوا بوبليوس كورنيليوس نازيكا، ابن عم سيبيون الذي قضى والده كنايوس في إيبيريا. إنّه شاب في الرابعة والعشرين من العمر لم يمارس أيّة وظيفة هامّة، لكنه اشتهر بشعبيته في أوساط العامة والطبقة الأرستقراطية على السواء. لم يسمعه أحد مرّة يوجّه أي نقد خاص بأحد مواطنيه، كما أنه رفض أن يستغل لمصلحته الاسم الذي يحمله أو الموت المشرف لوالده.

عندما تقدم ابن عمّه للترشّح لمنصب القنصلية، طلبت بومبونيا،

أن يقوم بحملة لدعم قريبه ومايزال كل واحد يتذكّر جوابه: «لا يليق بي أن أدعم ترشيح عضو من عائلتي، هذا أمر مخجل وأرفضه. على الشعب وعلى مجلس الشيوخ أن يقررا، ووفقاً لاعتقادي أن بوبليوس كورنيليوس سيبيون يتمتع بجميع المزايا المؤهّلة ليشغل المنصب السامي. ليس لرأيي أيّة أهمية وأخشى ألا يتوقّع قريبي في المستقبل أن يعهد لي بأيّة معاملة مميّزة ليشكر المساعدة التي قدّمتها له. لهذا أقسم على عدم السعي إلى أي منصب كي لا يمكن اتهامنا بمصادرة السلطة لمصلحة فريق دون آخر». وقد التزم بكلامه وتجنب ممارسة الحياة العامة. هذا التواضع وتلك الشهامة التي برهن عليها تجاه الفقراء والمساكين أهلّته ليمثّل المدينة في استقبال الحجر المقدس.

بدأ الاحتفال الذي شهده جميع سكان المدينة في أوستي. قامت سفينة ثلاثية المجاذيف زيِّن مقدمها بأطواق الزهور بالمثول على مصب التيبر. صعد الشاب بوبليوس كورنيليوس نازيكا وحده على متن السفينة، ثم نزل وهو يحمل بين ذراعيه بكل أناة والدة الآلهة، التي سلمها إلى نساء مهيبات تمّ اختيارهن من أعرق عائلات المدينة. لكن حركة تراجع بدرت من الجماهير عندما لوحظت كلوديا كوينتا تنفصل عن الجماهير، فقد حصلت من أخواتها دون شك بفضل هدايا ثمينة على حظوة أن تتلقى الحمل الثمين. والحال لئن كانت مواجهتها تستحق المناداة «كأفضل سيّدة رومانية»، فهي تُعتبر على الأكثر المرأة ذات السمعة السيئة في المدينة. وقد لزم عدة صفائح من البرونز لحفر أسماء عشاقها، والتي يسري الهمس بأنها لا تأنف من مقاسمة العبيد الشبان المضجع الذي تحضّره، بعد أن تختارهم بعناية، في القسم الخلفي للمتجر. بصورة واضحة كانت المرأة تسعى إلى التكفير عن ذنوبها وسيرتها المريبة بمساهمتها في الاحتفال، لكن الوقت قد فات لمحاولة إقناعها بالعدول عن مطلبها، وتلقّت ووجهها مشوب بالانفعال والرصانة الحجر الذي حملته لمسافة من الطريق قبل أن تسلّمه لرفيقاتها. على مسافة

الطريق الذي سلكه الموكب تجمع جمهور غفير ينشر من المجامر عبق البخور وينشد التراتيل ويتلو الصلوات. اصطحبت أم الآلهة في جَذَل عام حتى معبد النصر على جبل بالاتين(*). فهذا المعبد المقدس كما يشير اسمه هو الأجدر باستقبالها، لأن نصر الجيش الذي يتمناه الرومان يتحقق بشفاعتها.

رافق بوبليوس كورنيليوس سيبيون عن قرب استعدادات الاحتفال رغم وجوده في صقلية، وطلب من والدته بومبونيا أن تقدم أضحيات عديدة على شرف حجر بسينونت المقدس. رأفته الطبيعية حرّضته إلا أنها تحركت بسبب فضيحة كانت على وشك الإنفجار، فقد سمح نائبه فلامينيوس لرجاله بنهب معبد بروزربين في لوكريس وقام سكان تلك المدينة، المغتاظون من انتهاك هذه الحرمة، بإرسال وفد إلى مجلس الشيوخ للحصول على فتح تحقيق بهذه القضية ومعاقبة مرتكبيها ورؤسائهم. أراد القنصل أن يستبق الأمور ويقطع دابر الفتنة التي يمكن أن تنقلب ضده. لم تقتصر بومبونيا على القيام بواجبها بمنتهى الحرص، لكنها حصلت من آباء المجلس المنتخب لتسمية أحد أنسبائها لمعالجة هذه المشكلة وهو ماركوس بومبينيوس ماثو. أدان هذا الأخير بجرأة؛ اللوكريين، ومارس عليهم عقوبة العشرة(**) لارتكابهم تلك الجريمة الشائنة. جمع الرجال في ساحة واسعة وتجوّل بين صفوفهم، وأشار إلى كل عاشر لتطبيق عقوبة الموت عليه، وهكذا تمّ موت مئتي «مقطوع» قطعت رؤوسهم تحت أعين رفقائهم المرتعبين.

تمكّن بوبليوس كورنيليوس سيبيون بعد أن تخلّص من هذه القضية المحرجة، أن ينصرف طوال تلك السنة إلى معالجة

(*) جبل بالاتين: إحدى الهضاب السبعة المكونة لمدينة روما القديمة.

(**) عقوبة العشرة: هي عقوبة عسكرية كان يطبقها القدامى على الجنود والبحارة في أحوال العصيان والتمرّد، وذلك بسحب أسمائهم بالقرعة وقتل كل رجل عاشر منهم.

الاستعدادات لإرسال الحملة المرتقبة على أفريقيا. استقرّ في قلعة ليليبيه القديمة وتولّى قيادة الفرقتين المنفيتين في الجزيرة منذ نحو عشر سنوات. كانتا مشكّلتين في قسمهما الرئيسي من محاربين متمرسين قاتلوا في تريبي وكانّاي، وهم يتحرّقون للانتقام من القرطاجيين. وقد انضم إليه سبعة آلاف رجل متطوع من أومبريا في سابينا لدى المارسيين والبيلينيين.

وُضعت ثلاثون سفينة من أسطول لاليوس تحت تصرفه، لكنها لم تكن كافية لتنقل إلى الجهة الأخرى من البحر الكبير كامل كتائب الحملة. خلال الفصل المناسب عمد القائد العام إلى قطع أشجار الغابات المشرفة على بانورموس، وتلقّت دور الصناعة في تلك المدينة الأمر بإنشاء عشرين سفينة خماسيّة المجاذيف وعشرة مراكب ثلاثية المجاذيف، وكذلك عدة مئات من سفن التموين المجهّزة بمنصّات واسعة، في أسرع وقت ممكن. اشتغل مئات العبيد والعمال دون توقّف نهاراً وليلاً على ضوء المشاعل لإنهاء تلك المهمة. وبعد تجهيز المراكب لاحظ سيبيون أن من المتعذر عليه أن يركب البحر، لأن الأخشاب ماتزال محافظة على خضرتها وعمل على أن يحرق طوال فصل الشتاء أكواماً من الحطب، استمرت مشتعلة طوال الشتاء أتاحت تجفيف هيكل خماسيات المجاذيف وثلاثياتها طوال الفصل الرطب. سادت في معسكره حركة مستمرة عمّت بسرعة كل أرجاء إيطاليا.

تنافس حلفاء روما لتقديم المعدّات اللازمة لهذا العمل الضخم. قامت وُرَش في بوبولانيا وتاركينيا ودي ڤولتيرا وأتروريا لإعداد اللوازم الحديدية والهياكل والأشرعة وحبال السفن، كما أن أرتيوم المتميّزة بكرمها وسخائها أرسلت كميات كبيرة من الفؤوس والمعاول والمناجل وسلال القصب، وكذلك بعض طواحين الحبوب ليستخدمها العمال في تجهيز وجباتهم الغذائية.

عندما بدأ القنصلان الجديدان ماركوس كورنيليوس ستيغوس

وبوبليوس سمبرونيوس توديتانوس مهامّهما وجدا جيشاً مستعداً للرحيل، وقد جدّد مجلس الشيوخ أمر القيادة لسيبيون القنصل المعتمد. وصلت عندها إلى مرفأ ليليبيه ثلاثية المجاذيف نوميدية وعليها رسول سيفاكس ومترجمه المسمى هيراكليس، اللذان طلبا مقابلة بوبليوس كورنيليوس سيبيون بأسرع وقت ممكن. أحسّ الأخير أن سيفاكس يُعدُّ له مناورة سيّئة وهو الحريص على عدم معاكسة حملته، فعمد إلى منع الموفدين من النزول من السفينة بإدعاء انتشار الحمّى في صفوف المدينة. هو لا يريد أن يعرّض حياتهما للخطر وحدّد لهما موعداً على بُعد عشرات الستادات عن ليليبيه في خليج معزول، انطلق إليه سيبيون مع حراسة فرسان كثيفة، لكنه توجّه بمفرده إلى ذلك المكان ليطّلع على فحوى الرسالة التي أعدّها العاهل المازاسيلي وفق التعابير التي أملاها حسدروبال ابن جيسكون، ومع متابعة القراءة كان وجه القائد العام يكفهر. وسرعان ما انفجر غضبه كالبركان قائلاً لهيراكليس ورفيقه:

ـ اعلما أنّ مهامي لا تتعلّق بكما شخصيّاً، إنّكما برتبة سفيرين وسأحرص على أن تصلا بسلام إلى سيغا. من واجب غيري أن يوجّه لكما عقوبات قاسية إنّما لا أعتبركما مسؤولين عن مكر سيفاكس. من أجل حبّ امرأة، اختار أن يرتكب اليمين الكاذب وأن يخون الآمال التي عقدناها عليه. بعد قليل سيأسف بمرارة على هذا التصرّف الأحمق، لأن قواتي ستدمّر ممتلكاته ولن يتوقع أيّة شفقة منا. أغلقنا الأعين طويلاً عن انقلاباته المفاجئة والمستمرة ونحن نرجو أن يتأثّر بدلالة تسامحنا. آن الأوان بل يكاد يمضي الوقت دون أن نضع حداً لهذه المهزلة. ارفعوا المراسي منذ نهار غد، ووجّهوا الأشرعة نحو أفريقيا لتعلنوا لأميركم أن الحرب من الآن فصاعداً بيننا وبينه. فليتهيّأ للموت في المعركة! إنها آخر الأمجاد بالنسبة له. إن أسرناه سيحاول عبثاً التماس صفحي؛ وسيرى نفسه مقيداً في الموكب الذي سأقوده في شوارع روما للاحتفال بانتصاري، وسيعرف أولاده مرارة العبودية.

عند عودته إلى ليليبيه، طرح ضباط بوبليوس كورنيليوس سيبيون الأسئلة العاجلة على قائدهم، لكنه امتنع عن التصريح لهم بالحقيقة، خشية التردد وإسداء النصيحة بتأخير حملته. وهكذا تظاهر بمزيد من الرضا وأسرّ إلى أعوانه:

ـ أضعنا كثيراً من الوقت وأصدقاؤنا النوميديون يحثوننا على الالتحاق بهم بأسرع ما يمكن. إنّهم يتحرقون شوقاً للانفصال عن قرطاجة، وهم يستغربون تباطؤنا أو أنهم يخشون بداية خيانة. كل تأخير إضافي يقودهم إلى فتح باب المفاوضات مع مجلس المئة والأربعة، وهو يملك ما يكفي من المال لإفساد تحالفنا. فلنعجّل باستعداداتنا. مع القمر القادم سيمخر أسطولنا البحر.

غدت ليليبيه خلال أيام معدودة مركز حركة محمومة. أقامت الفرق معسكراتها خارج الأسوار لعدم استطاعتها إيجاد أمكنة لها ضمن القلعة. أما الميناء فقد غصّ بالسفن من جميع الأحجام والمقاييس واضطر معظمها إلى أن يرسو في عرض البحر. وجد سيبيون نفسه على رأس حملة تتألّف من خمسة وثلاثين ألف مقاتل من المشاة والفرسان. قام لاليوس قائد الأسطول بتكليف البحّارة والمجذّفين بنقل مؤن بكميات كبيرة. فحُضِّرت مؤونة قمح تكفي لخمسة وأربعين يوماً، ثم جاء دور الخيول وآلات الحصار لرفعها إلى متن السفن. عندها، وعندها فقط، دعا القائد العام لاليوس والبحار المكلّف بقيادة الحملة، وهو رجل بحر متدرّب واسع الخبرة بجميع مكائد البحر الكبير، وتأكّد من عنايتهما بتخزين كميات كافية من احتياطي المياه اللازمة للرجال والخيول في العنابر. وعندما تأكد من هذه النقطة أعطى الأمر للفرق والقوات المعسكرة بالصعود إلى عدد كبير من المراكب. وسُمِع ذات صباح صوت الأبواق تُعلن إشارة الانطلاق.

شكلت سفن النقل الأربعمئة القسم المركزي من هذا الأسطول

الكبير، تحرسه عن يمينه وشماله عشرون سفينة ثلاثية وخماسية المجاذيف. إنه نظام إشارة فريد يتيح للقبطان الاهتداء. وقد تجهّزت سفينة الأميرالية بثلاثة نيران وسفن النقل بنارين والسفن الأخرى بنار واحدة.

خرج جيمع سكان ليليبيه من منازلهم ليراقبوا المشهد بإعجاب. لم يسبق لأسطول بهذه الضخامة أن جمعته روما. لم يضمَّ أسطولا لوسيوس مانيليوس فولسو، وماركوس أتيليوس روغولوس إلا ثلاثمئة وخمسين سفينة، وقد ضمت الحملة المرسلة لنجدتهم ثلاثمئة وخمسين وحدة أخرى. هنا كنا أمام خمسمئة سفينة دفعة واحدة، وقد وعى بوبليوس كورنيليوس سيبيون الطبيعة الغريبة للحَدَث فجمع كل قباطنته لصلاة مشتركة. وبصوت يتهدّج بالانفعال نطق بهذه الكلمات: «يا آلهة روما وإلاهاتها، الساكنين في البر والبحر، ألتمس مساعدتكم وحمايتكم. لتدور أعمالي الماضية والحاضرة والمستقبلة لما فيه مصلحة مدينتي وحلفائها. امنحوا قواتي الباسلة النصر، واحرصوا على أن تعود سليمة معافاة إلى مراكزها يكسوها المجد والمغانم. امنحوني نعمة إنزال نقمات العذاب المضاعفة مئة مرة على القرطاجيين، للتي أذاقوها لمواطنيّ». وفي نهاية هذا الخطاب قدّم حيواناً أضحية للآلهة، ورمى أحشاءه في قاع البحر.

* * *

انطلق موكب القافلة الضخم تحت أنوار الشمس الساطعة، وأتاحت الريح بقوّتها المتوسطة أن تهزّ الأشرعة وتيسّر مهمة المجذّفين. شيئاً فشيئاً غمرت الأسطول ضبابة كثيفة. بقيت المراكب خلال نهارين وليلتين تبحر بالتخمين، وفي صباح اليوم الثالث، انقشع الضباب ولاح الساحل الأفريقي على البعد. ألقى سيبيون مرساته وأمر الرؤساء للحاق به لتقرير المكان الأكثر ملاءمة للإنزال. سأل عن اسم الرأس البارز الذي يظهر على البعد فأجيب بأنه رأس بون. وهذا ما سرّه فقال: «أقبل حسن الطالع. سيروا في

هذا الاتجاه». ثم أرسل سفينة ثلاثية المجاذيف كشّافة لإقامة رأس جسر على الشاطئ.

في الواقع، كان الأمر يتعلّق بخدعة من قِبله. فهو لم يكن ينوي الإرساء في منطقة أسبيس كما فعل سلفه التعيس الحظّ ماركوس أتيليوس روغولوس. ووقع اختياره على مدينة أوتيكا المشهورة بنوعية مرساها. أنذره قائد الأسطول عن احتمال هبوب عاصفة في الليلة التالية قد تلقي بسفنه خارج هذه المنطقة. أُعلم أهل قرطاجة بوصول مركب روماني إلى منطقة رأس بون، فلم يقصّروا في إرسال النجدات إليه مما حرم أوتيكا من المساعدات التي لم تتأخر في طلبها. نجحت استراتيجيتهم بشكل رائع، وتمكّن الرومان من خندقة معسكرهم على الارتفاعات المطلة على المدينة.

أحدث إنزال القوات الرومانية عاصفة ذعر حقيقية بين سكان المناطق المجاورة. هرب الفلاحون بالآلاف مع نسائهم وأطفالهم ومواشيهم باتجاه قرطاجة، وتجمّعوا في ضاحية ميغارا حيث تنتشر مناطق زراعية عديدة. اجتمع أعضاء مجلس المئة والأربعة في جلسة خارجة عن المألوف وقرروا إغلاق أبواب المدينة وأقاموا دوريات الحماية. خشي تسرّب الجواسيس الرومانيين بين جماهير الهاربين، والواقع تمّ القبض على بعضهم وصلبوا في الحال.

سمّي حسدروبال ابن جيسكون لإدارة العمليات العسكرية، رغم معارضة إيتربعل وأنصارآل برقا. فقد لاحظ هؤلاء أن هذا القائد اشتهر بهزائمه أكثر من انتصاراته. فبسبب رعونته فقدت مدينة إليسا ملكياتها في إيبيريا، وبدا من المشكوك فيه إمكانية تحسين الوضع. إلا أن مجلس الشيوخ فكر بطريقة أخرى، فهو حَمُو سيفاكس والشخص الوحيد الذي يمكنه التحالف مع العاهل النوميدي وفريقه. بدأت المناوشات الأولى بين الرومان والقرطاجيين لغير صالح الأخيرين. فتحت إدارة من يُسمّى حنون أثار نحو ألفي فارس المعركة ضد رجال سيبيون فتقطّعوا إرباً، لكن هذه الكارثة لم تمنع

حسدروبال من إرسال حنون آخر هو ابن الشيخ هميلقار، الذي أقام معسكره في سالاكا(*). عندما أُعلم بوبليوس كورنيليوس سيبيون بالخبر أغرق في الضحك، وقال: «فرسان في ثكنة في عز أشهر الصيف! من الأفضل أن يكونوا أكثر عدداً بشرط الاحتفاظ بهذا القائد!».

بدا القائد الروماني أكثر اطمئناناً وسروراً عند وصول ماسينيسا العائد من المنفى برفقة ألفي فارس، كما أنه سيلتحق بمعسكره، في الأيام القادمة، مع مئات من الجنود المتمرسين الذين خدموا تحت إمرة غايا. صمّم الأمير الشاب على الانتقام، ضمن حمام دم، من العار المضاعف الذي ألحقته به مدينة إليسا: حرمانه من ميراثه من جهة، وحرمانه من سوفونيسبي التي أحبها سراً منذ سنوات لتزف إلى عدوه اللدود من جهة أخرى. حاصر سيبيون وماسينيسا سالاكا ووضعا استراتيجية بسيطة من المستغرب أن يقع فيها دون أي تمييز أفضل القادة القرطاجيين. في الصباح احتجب القادة الرومان خلف إحدى الهضاب المطلة على المدينة. دار النوميديون، فرسان ماسينيسا، دورات نصفيّة باعتزاز أمام الأسوار، وهم يشتمون المدافعين ويدعونهم إلى القتال. أحسّ حنون ابن هميلقار بالإهانة والغيظ ودعا رجاله للخروج. تظاهر ماسينيسا بالتراجع والقتال مدافعاً وهو يجرّ القرطاجيين معه نحو الهضاب. عندها انقضّ عليهم الرومان وأعملوا فيهم الذبح دون شفقة. كان من بين الضحايا الذين قضوا في المعركة حنون ومئتا نبيل شاب ينتمون إلى أكبر وأعرق عائلات المدينة التي انتشرت فيها صيحات ذعر الأمهات الحزينات.

توجه سيبيون وماسينيسا من جديد، وقد أثقلا بالغنائم وانطلقا لمهاجمة أوتيكا يريدان، مهما كان الثمن، أن يستوليا عليها. لكنهما اضطرا إلى التراجع عن عزمهما، فقد نجح حسدروبال بن جيسكون

(*) محلّة تقع قرب «مقطور» الحاليّة.

في تعبئة جيش يتكون من ثلاثين ألف من المشاة وثلاثة آلاف فارس، بينما التحق به صهره سيفاكس مع خمسين ألفاً من رجاله وعشرة آلاف فارس. فضّل القائد الروماني أن ينسحب إلى رأس متقدّم باتجاه الشاطئ، وهو يتصل باليابسة بممر ضيّق يسهل الدفاع فيه لتجنب هجوم من الخلف. سحب سفنه على الشاطئ الرملي وبنى ملاجئ لجنوده الذين أطلقوا على تلك المنطقة اسم قلعة كورنيليوس، وهناك قضوا فصل الشتاء بعد أن أحضروا من صقلية وسردينيا الأغطية والمعاطف والخيام لوقايتهم من برد الشتاء.

أقام القرطاجيون والمازاسيليون في مواجهتهم معسكرين متميّزين الأول أعد من مواد قوية وصلبة، والآخر عبارة عن أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر. عند مشاهدة سيفاكس يتجول بين رجاله تغلّب سيبيون على حقده السابق وقرّر التفاوض معه، فأرسل إليه رسلاً بصحبة بعض العبيد يحملون الهدايا الثمينة. الواقع أن هؤلاء العبيد كانوا ضباطاً مكلّفين بملاحظة المواقع النوميدية، والكشف عن مواطن الضعف في نظامهم الدفاعي؛ وقد انصرفوا بنشاط إلى تحقيق مهمتهم بينما انصرف السفراء إلى الحوار مع العاهل حول إجراء معاهدة، وجرّب الملك النوميدي مثل عادته المراوغة والمكر. فبدلاً من أن يصرح بجلاء عن موقفه لصالح هذا أو ذاك اقترح الحلّ التالي: انسحاب سيبيون من أفريقيا لقاء استدعاء قرطاجة لجيوشها من إيطاليا.

كان هذا الاقتراح صفقة الخاسر، فبوبليوس كورنيليوس سيبيون يعلم أن هنيبعل لن يتأخر عن اللحاق بأفريقيا لحماية مسقط رأسه. غير أنه تظاهر، لتهدئة شكوك سيفاكس، بالاهتمام بمشروعه وطالب دون انقطاع بتأكيدات إضافية مطالباً بالضمانات الواجب تقديمها من كل طرف.

في إحدى الأمسيات دعا القائد الروماني ضباطه وماسينيسا إلى خيمته، وقال لهم:

- إننا نجد أنفسنا في ورطة ولا يمكن لهذه الحالة أن تدوم. بفضل المعلومات التي تمّ جمعها من قِبلكم، نعلم أن معسكر المازاسيليين سيّئ الحماية وأن النظام غير سائد فيه. ويمكننا أن نخدع يقظة الحراس والدخول إليه وإيقاد النار في الأكواخ الخشبية. بهذه الطريقة نحدث لدى العدو ذعراً نلزمه فيه على الهرب. في هذه الليلة سنخرج جموعاً وسأقسم جيشي إلى قسمين يهاجم الأول مواقع جيش سيفاكس، ويقف الثاني بالمرصاد، وعندما أوجّه إليه الأمر سينطلق مهاجماً المواقع القرطاجية. ستتمُّ كل هذه العملية بهدوء كبير. وجّهوا الأوامر لرجالكم ليتجهّزوا بالمشاعل بأعداد كبيرة لحاجتهم إليها.

في ساعة متأخرة من الليل، بدأ الرومان والماسيليون طريقهم دون إحداث أيّة ضجّة ودخلت أول فرقهم بسهولة إلى معسكر سيفاكس من باب أهمل الحراس حمايته، بعد أن تعبوا من ليالي الحراسة دون جدوى. خلال بضع دقائق اشتعلت النيران في الأكواخ المصنوعة من أغصان الأشجار واستيقظ المقيمون فيها فجأة، وخرجوا في الظلام دون أن يحملوا أسلحتهم معتقدين أنه حريق عارض ناتج عن إهمال أحدهم نسي أن يطفئ نار رماد كامن. هكذا سقطوا مثل الذباب تحت ضربات أسلحة رجال ماسينيسا الرابضين في أماكن استراتيجية من المعسكر، وخاصة قرب الآبار التي توجّه إليها الهاربون بشكل طبيعي.

من مواقعهم على بعد نحو عشرة ستادات، أبصر القرطاجيون اللهب يجتاح خنادق حلفائهم. سرعان ما حملت الريح شرارات منه إلى خيمهم وتحصيناتهم. هناك أيضاً تجمع جنود حسدروبال دون سلاح يحاولون إطفاء بؤر النيران، وفوجئوا بدخول قوات الفرق الرومانية التي تقدّمت بصمت تذبح خصومهم المجردين من السلاح أو المفاجئين وهم مايزالون في أسرّتهم. مع الفجر كانت التربة مغطاة بأكثر من أربعين ألف جثة ومعظمها قد كلّسته النيران. لم ينج

إلا ألفا جندي من المشاة وخمسمئة فارس قادهم سيفاكس وحسدروبال، اللذان تمكّنا من النجاة، باتجاه أوتيكا متخلين عن خمسة آلاف أسير منهم، أحد عشر شيخاً، ومئة وأربعة وسبعون معلم تدريب عسكري، وألفان وسبعمئة فارس، وسبعة أفيال.

لم يتسن لبوبليوس كورنيليوس سيبيون الوقت لاستغلال هذا النصر غير المتوقع، لأن خصومه أعادوا تشكيل قواهم بسرعة. تلقى سيفاكس نجدات، أربعة آلاف جندي من المرتزقة الإيبيريين الذين حاربوا سابقاً تحت إمرته قرب قرطاجنة والذين عادوا إلى الخدمة، مع علمهم بأنه كان يُظهر من السخاء بقدر ما كانت مصالحه تتعرض للخطر. كما أجرى حسدروبال تجنيداً عاماً في المدن الليبية الفينيقية في الساحل، وتمكّن القائدان من جمع نحو ثلاثين ألف رجل احتشدوا على طول المكان المسمى السهول الواسعة(*) على مسيرة خمسة أيام من أوتيكا.

توجّه القائد الروماني بصحبة ماسينيسا للقائهم. ولكن القتال تأخر لمدة ثلاثة أيام طويلة حيث تربص الجيشان كل منهما يراقب الأخر، فقط جرت بعض الاشتباكات بين الدوريات بشكل منعزل. في صباح اليوم الرابع ضجّ صوت نفير الأبواق في المعسكرين، وعاد كل منهما إلى المواقع التي كانت قد حددت مساء الأمس، إبان اجتماعات القيادة العسكرية الأخيرة. اصطف الجنود الرومان في ثلاثة خطوط. تشكّل الأول منها من حملة الرماح والثاني من الجيش الرئيسي والثالث من جنود الصف الثلاثي الروماني. بينما وقف سلاح المشاة المجهزين بالسيوف القصيرة على مقربة من خنادق العدو المناوئة.

منذ بدء الاشتباك أغار الفرسان الإيطاليون والنوميديون بغضب على خيّالة القرطاجيين الثقيلة التي لم تتأخّر في الهرب.

(*) قرب بيجا التونسية الحالية.

وتلقّى المتطوّعون الإيبيريون المنعزلون هجمات الجنود الرومان، وهم يجهلون كل شيء عن المنطقة ويعلمون أن سيبيون لن يرحمهم - فقد وقّع رؤساؤهم معاهدات صداقة مع روما وهم يعتبرون متمردين وناكثي عهد - وتعرّضوا للقتل حتى الرجل الأخير منهم، إنّما بعد أن كبّدوا العدو خسائر فادحة.

بعد هذه الهزيمة التحق حسدروبال بقرطاجة سريعاً متوقّعاً أن تقوم قوات القائد الروماني بمحاصرة المدينة سريعاً. أما سيفاكس فقد التحق بدويلاته ليجمع آخر الموالين له محاولاً هجوماً معاكساً. لكن سوء الحظ لازمه، فخلال اشتباك مع ثلّة رومانية سقط عن ظهر حصانه الذي جُرح جرحاً مميتاً بضربة سيف. حوصر سريعاً بمجموعة من الفرسان واقتيد إلى قلعة كورنيليوس، وكبّل بالحديد. بالنسبة لماسينيسا حلّت ساعة الانتقام. قرّر الأمير الماسيلي أن يستولي على سيرتا وطلب من القائد الروماني أن يسلمه سيفاكس. عندما رأى المدافعون عن المدينة، الجاثمون على قمة جبل شديد الانحدار ومحاط بخوانق عميقة، عاهلهم مقيّداً بالحديد فضلوا الاستسلام.

حين وصل ابن غايا إلى القلعة استقبلته سوفونيسبي، ابنة حسدروبال، ملقية بنفسها على قدميه متوسلة إليه عدم تسليمها للرومان.

- يا أميري الشاب، جعلتك الآلهة وشجاعتك سيّد هذا القصر وأنا من الآن وصاعداً أسيرتك. ولك عليّ حق الحياة والموت، وأنا مستعدة لأرى رأسي يتدحرج تحت فأس الجلاد. لكن أيّاً كان المصير الذي تدّخره لي، التمس منك حظوة: لا تسلمني إلى سيبيون. سيكون هذا الرجل سعيداً جداً للضغط على أبي. وحسدروبال يعبدني ولا أشك أنه يحاول، من أجل إنقاذي، إقامة سلام مخجل وخيانة مصالح قرطاجة. لذلك أتضرّع إليك تخليصي من همومي بانتزاع حياتي.

لم يستطع ماسينيسا رفع نظره عن زوجة سيفاكس منذ أن بدأت بالحديث. كان مسحوراً بالمرأة الشابة التي زادها الألم والخوف جمالاً. رفعها بين يديه وضمها بشدّة إليه، وتمتم في أذنها بكلمات الحب. أَقسَم لها أنّها لن تُرَّحل إلى قلعة كورنيليوس. هو مستعد للزواج منها في الحال. وبغدوّها ملكة الماسيليين تصبح فوق النقد ولن يتجاسر الرومان الذين يدينون بالكثير لماسينيسا على إقامة أيّة عقبة أمام هذا الزواج.

ومع أن هذا ما حدث فإن لاليوس الذي وصل إلى سيرتا انتابه غضب شديد عند سماع النبأ وقطع احتفال الزواج موجّهاً الأمر لجنوده باقتياد سوفونيسبي إلى أجنحتها. أمّا ماسينيسا فقد تلقى الأمر بالمثول أمام سيبيون.

عندما علم هذا الأخير بتلك القضية الحسّاسة تردّد طويلاً قبل أن يتخذ قراراً. هو معجب بشجاعة وأمانة النوميدي الشاب ويكره أن يعاكس عواطفه، وهذا ما دفعه لتحديد موعد الاجتماع مع سيفاكس. وقد جُنَّ الأخير غضباً عندما علم أن زوجته تقاسم من الآن فصاعداً منافسه الفراش، ورأى أن من المهارة الإساءة إلى قدرها أمام القائد الروماني:

ـ اعلم يا بوبليوس كورنيليوس أن ابنة حسدروبال هي السبب الرئيسي لتغيّر موقفي تجاهك. هي شيطان تمكّنت بتأثيراتها السحرية أن تفسد حكمي وتجبرني على توقيع عقد مع أبيها. في موقفي البائس يعزيني شيء واحد: ماسينيسا يحبّها ولن يتأخر عن ارتكاب ذات الأخطاء التي مارستها تحت تأثيرها المؤذي، بدوره سيتحوّل عن روما ليتقرّب من قرطاجة وبهذه الحركة يفقد العرش الذي انتزعه من يديّ. هكذا أستطيع أن أموت بسلام إذ أن انتقامي قد تمّ منذ الآن.

شوّشت هذه الاعتبارات قلب القائد الروماني العام، وعندما مَثُل ماسينيسا أمامه نظر إليه محذّراً بقسوة وقال:

ـ في قادش خلال لقائنا الأوّل وعدتك بالسهر عليك وعلى مصالحك الحقيقية، وهذا ما فعلته حتى الآن. أخشى أن تسيء كلماتي إليك وأن تسبّب لك العناء إلا أنني أعتبرك مثل ابن لي ولا أتمنى أن يصيبك مكروه. إنّك قائد لامع وستكون ملكاً ممتازاً. أنت مهيّأ لمستقبل مشرق شرط أن تتعلّم التحكّم بعواطفك وألا تدعها تعتّم على حكمك. ثق أن من يعرف كيف يروض عواطفه ويكبح جماح غرائزه يكون انتصاره ومجده أكبر من انتصارنا على سيفاكس.

ـ بماذا تنصحني؟ سأله النوميدي.

ـ تخلى عن سوفونيسبي إن أردت الاحتفاظ بصداقتي. لا أتمكن من احتمال وجودها إلى جانبك؛ لأنّها تجازف بحيلها الشيطانية وتولِّد الحقد على روما في قلبك. إنّك شاب وأنا أفهم صعوبة مقاومة مخلوقة مثلها، لذلك من الأفضل لك ألا تسعى لرؤيتها مجدداً. بعد قليل سيأتي رجالي للبحث عنها واقتيادها إلى روما لتمثل أمام مجلس الشيوخ مدافعة عن جرائمها. خلال هذا الوقت تجوّل في مملكتك وسترى أنّك لن تتأخّر في نسيان حتّى ذكراها.

ـ إنك تطالبني بتضحية ثقيلة إلا أنني سأمتثل لرغباتك لأنك تنطق بلسان الحكمة والعقل. ألا ليتني لا أتعرض للندم يوماً ما!

عند عودة ماسينيسا إلى خيمته انهار على سريره يبكي بمرارة، تذكّر الوعد الذي قطعه على نفسه للمرأة الشابة وأقسم على التمسّك به. دعا إليه خادمه الأمين وقدّم إليه جرعة سمّ قاتل وجّهها لزوجة سيفاكس. وأمره بإنذارها بالوصول المرتقب لسجانيها، وتعهدها بالهرب منهم بتصميمها على التضحية العظمى.

تصرفت ابنة حسدروبال مثل قرطاجيّة حقيقة. فعندما اقترب الرومان إلى قصرها للاستيلاء عليه واقتيادها منه صبّت في كأس من النبيذ السمّ المرسل إليها من ماسينيسا، وقالت لخادمه:

ـ أشكر معلمك على شهامته تجاهي. ارتضيت مع وافر

الاعتراف بالجميل هدية العرس التي كان بإمكان من هو زوجي تقديمها لي لأنه سيجنبني بذلك العار. الشيء الوحيد الذي آسف عليه هو عدم استطاعتي الحياة طويلاً لأرى انتصار قرطاجة، لأنني لا أشك بنصر مدينتي. فلتعجل تضحيتي بقدومه!

عندما رأت أحد قوّاد المئة يقترب من الغرفة، جرعت الكأس دفعة واحدة وسقطت صرعى عند أقدام وصيفاتها.

خشي سيبيون أن تؤثر هذه النهاية المأساوية على ماسينيسا وأن يعمل بدوره على وضع حد لحياته. لذلك قرّر تكريمه علناً ودعا جميع قواته في الحال إلى اجتماع في قلعة كورنيليوس، وألقى خطاباً يدعم به القائد النوميدي الشاب:

- أيّها الجنود، تمكنتم جميعاً أن تقابلوا بإعجاب الجرأة التي برهن عليها ماسينيسا خلال هذه الحملة الطويلة. دون مساعدته لم نستطع أن نكبّد سيفاكس وحسدروبال هذه الهزائم الدامية. الأوّل غدا أسيراً لنا ولن يتأخر الثاني من الانغماس في سجوننا. لمكافأة تضحية حليفنا قرّرت باسم مجلس الشيوخ الروماني أن أعبر عن صداقتي له ببادرة استثنائية. ليس في نظر شعبنا أجمل من الانتصارات، ولن يلقى المنتصرون أجمل من المميزات التي حكم الآباء أعضاء مجلس الشيوخ بأنها جديرة بصديقنا. إننا ننعم عليه بلقب ملك النوميديين ونسلّمه شعارات منصبه: تاجاً وكأساً من ذهب، وكرسياً من عاج، وعصا مطعّمة بالجواهر، وحلّة مطرَّزة، وغلالة موشاة بسُعَف النخيل، ونرجو الحياة الطويلة لماسينيسا ملك الماسيليين والمازاسيليين وحليف الشعب الروماني حاميه.

ارتفعت صيحات الإعجاب تحيي هذه الكلمات، وترقرقت دموع الفرح تغشي عيني ماسينيسا. ولم يستطع إلا أن يتمتم ببعض عبارات الشكر، وأسرّ فيما بعد لبوبليوس كورنيليوس سيبيون أنّ باستطاعته الاعتماد على صداقته الدائمة المستمرة.

* * *

أثارت هزيمة السهول الكبرى في قرطاجة المخاوف الأكثر عنفاً. واجتمع مجلس المئة والأربعة في جلسة استثنائية لمناقشة الاستراتيجية الواجب تبنيها. جرت مشادة عنيفة بين إيتربعل وحنون الكبير. وانتقد الأوّل وهو زعيم الحزب البرقاوي بعنف أخطاء حسدروبال:

ـ خلال معركتين خسر ابن جيسكون ما يقرب من خمسين ألف رجل، وإن عهدنا إليه بأسطولنا سيغدو خلال وقت قصير حطاماً. نكاد نظن أنه يتعاون سرّاً لمصلحة روما وأن آماله تنحصر في رغبة واحدة: إقامة صلح مع أشرس أعدائنا. إن موت ابنته سوفونيسبي أغرقه في الحزن والكآبة وهو لم يَعُد صالحاً لتولي قيادة قوّاتنا. قريباً سيحلّ سيبيون تحت أسوارنا. إننا نملك بالتأكيد مؤونات تكفي لحصار طويل في ظل أسوارنا القوية، لكن عاجلاً أو آجلاً يجب أن نكسر هذا الحصار.

ـ ماذا تقترح؟ أجاب حنون الكبير إنك ناقد ماهر لكنك لا تحمل إلينا حلولاً بنّاءةً.

ـ أنت على خطأ. هنيبعل ومهرا بعل في إيطاليا ومعهما آلاف المشاة والفرسان. يكفينا استدعاؤهما، إنهما قائدان ممتازان ويعرفان دحر العدو.

ـ هما بعيدان، كما تلاحظ، عن شطآننا فهل يمكننا الصمود حتى عودتهما؟

ـ إنّك لا تقدّر جيّداً وضع قواتنا. مدينتنا محصنة بشدّة وليس لدى الرومان مراكب كافية لإغلاق المرفأ. فتلذهب ثلاثيتا مجاذيف منذ نهار غد إلى بروتيوم؛ وبانتظارهما نحاول كسب الوقت لتهدئة سوء نوايا سيبيون.

ـ بأيّة طريقة؟

ـ بإرسال سفارة تسبر نواياه.

ـ أنت يا إيتربعل، زعيم الحزب البرقاوي، تقترح المباشرة في حوار مع الرومان! أعترف إنني لا أفهمك.

ـ إنني لا أسعى إلى أي وَهْم حول نتائج هذه المباحثات، وحتى لو انتهت إلى نتائج محدّدة سأقاتل بكل ما أملك من قوّة لنتابع الصراع مع مدينة رومولوس. إلا أنني سأحرص على مصالح مدينتي وأعرف كيف أسكت الأهواء المعارضة التي تلحق أضراراً بالمصلحة العامة. أقول هذا لأسباب يسهل فهمها، وأنا لا أستطيع أن أعمل في الوفد الذي سيلتقي بالقائد الروماني لأن وجودي سيعتبر تحريضاً من طرفنا. الأفضل أن ترأس سفراءنا بصحبة ابن عمك حسدروبال جلد الجدي.

ـ بهذا يمكنك أن تتهمنا مستقبلاً بأننا صنائع الرومان!

ـ قسماً بملقارت لن أوجه أبداً لكم أي اتهام، ويمكنني أن أسلّمك وثيقة موقّعة بيدي تشهد على أنّك تصرّفت وفقاً لطلبي الخاص.

ـ ضمن هذه الشروط أقبل اقتراحك.

بعد ثلاثة أيام توجّه ثلاثون شيخاً، يرتدون أبهى حللهم من قرطاجة إلى المواقع الرومانية المقامة قرب تونس، تحرسهم ثلّة صغيرة من الفرسان. عندما وصلوا إلى المواقع الأمامية العدوة أمر حنون الكبير الجنود بالترجّل وإلقاء أسلحتهم، ثم توجّه نحو أحد الضباط وطلب منه أن يُعلم القائد العام بأن وفداً رسمياً مكلّفاً من قبل مجلس المئة والأربعة يريد لقاءه.

تردّد بوبليوس كورنيليوس سيبيون لحظات. هل يجب أن يلتقيهم في الحال أو يدعهم ينتظرون في حرّ الشمس بضع ساعات؟ أخيراً تغلّب عليه الفضول وارتدى درعه الرسمي وأمر باحضار السفراء إلى خيمته. عندما وصلوا إلى أمامه سجدوا عند قدميه وعفّروا رؤوسهم في الأرض وهم يتمتمون بالكلمات الأكثر تزلفاً له.

تضايق ابن بومبونيا منهم، وأمرهم بالنهوض وتقديم أنفسهم. قام حنون الكبير وحسدروبال جلد الجدي بالكشف عن هويتهما وعرّفا أصحابهما، ثم جلسوا على المقاعد التي أحضرها الجنود لهم على عجل وهم ينتظرون أن يباشر محاورهم الكلام. تأمّلهم سيبيون طويلاً ثم وجّه كلامه إلى حنون الكبير:

ـ أخيراً أدركت قرطاجة عدم قدرتها على كسب الحرب. جئتم إذن تلتسمون الصلح. كأنّ من الممكن أن تُمسَحَ بين ليلة وضحاها سنوات وسنوات من العذاب، والحرمان، والمذابح، وأحداث السلب والنهب. لم نرد أن نناهضكم العداوات وحذّرناكم من نتائج استيلاء قواتكم على ساغونت، غير أنّكم أغفلتم إنذاراتنا وعليكم أن تدفعوا ثمن أخطائكم.

أجاب حسدروبال جلد الجدي: لا يمكنني أن أخطئك، عارضت منذ البداية طموحات هنيبعل وأخوته الهوجاء. إنّهم المسؤولون الحقيقيون عن مصائبنا، ويمكنني أن أؤكد لك أننا سنعرف كيف نعاقب غطرستهم وعدم انضباطهم.

ـ كان من الحكمة منعهم من إحداث الضرر منذ البداية.

ـ أنت تعلم أن لهم مؤيّدين عديدين في مدينتنا ومؤيّدي الصلح اعتبروا بمثابة خونة، وهُدِّدوا من قِبَل الأكثر تعصّباً من مواطنينا. حنون نفسه وجب أن ينزوي لعدة أيام لتجنب الرجم من قبل أصدقاء هنيبعل. هذا الأخير يجب معاقبته لا قرطاجة. في مجلس شيوخها يوجد حلفاء عديدون يرغبون في إيجاد شروط تعاون مخلص بين مدينتينا، وباتحادهما يمكنهما تحقيق أشياء كبيرة. لاحظنا الطريقة التي تصرّفت بها نحو الشعوب التي غلبتها. برهنت عن شهامة تجاههم وهم يشيرون إلى اسمك باحترام وعرفان جميل. أتمنى بكل قواي أن يتمكّن أبناء إليسا من العمل وفق أسلوبك، فنحن لا نلتمس منك الإحسان بل العدالة. إننا مستعدون للاستماع إلى شروطك.

ـ هل تعلمون إنني درست هذا الموضوع ملياً.

ـ نعم لأنك رجل عاقل ومتفّهم. تكلّم ونحن نصغي إليك وسنكون سعداء بتحقيق رغباتك.

ـ اعلموا أيّها القرطاجيون أنني أتيت إلى أفريقيا لبثّ الرعب في مرابعكم، ولأنتقم من الدمار الذي أحدثه هنيبعل في مقاطعاتنا الإيطالية. أقول هذا وأنا لا أريد تدمير مدينتكم لأن روما مولعة بالعدالة والشرعيّة. إنّها تعرف إعلان الحرب وكذلك إنهاءها عندما تنتصر على أعدائها كما هو الحال اليوم. هذه هي شروطي إذن: يجب عليكم استدعاء هنيبعل وماغون. وتحرير جميع الأسرى والهاربين والعبيد الفارّين بين جدرانكم. ويجب التخلّي عن جميع مطالبكم في إيبيريا، ومغادرة جميع الجزر التي تشغلونها دون حقّ بين أفريقيا ووطني. وعليكم تسليم كلّ أسطولكم الحربي باستثناء عشرين مركباً، والتعهّد بأن ترسلوا إلى روما خمسمئة ألف صاع من القمح وثلاثمئة ألف صاع من الشعير. أخيراً عليكم أن تدفعوا ضريبة حرب مقدارها خمسة آلاف مثقال إيبويٍّ(*)، أخيراً يجب أن ترسلوا إلى روما سفارة معتمدة لأن لمجلس الشيوخ وحده الحق في الموافقة على مقترحاتكم.

ـ إنك تدرك أن علينا نحن بدورنا أخذ رأي مجلس المئة والأربعة.

ـ أنتظر جوابكم خلال ثلاثة أيام. مع انقضاء هذه المدة ستنطلق قواتي لمهاجمة أسواركم. وأنا أدعوكم للتجوّل بحريّة في معسكراتنا واختبار آلات الحصار التي نملكها، وستدهشون من عددها وقوّتها. ثقوا أن باستطاعتي أن أفتح ثغرات عديدة في جدرانكم وسيزرع جنودي عندها الرعب في شوارع مدينتكم، يذبحون نساءكم وأقاربكم. عليكم أن تقرروا دون تأخير مصير مدينتكم.

(*) المثقال الإيبوي يعادل ستة وعشرين كيلوغراماً من الفضة.

ـ هل يعني رضانا انتظار عودة مندوبينا أن هنالك هدنة بيننا؟

ـ نعم أؤكد لكم ذلك.

عاد السفراء إلى قرطاجة، وأطلعوا المجلس على المقترحات التي طالب بها بوبليوس كورنيليوس سيبيون. وكان أوّل المتدخلين إيتربعل:

ـ يجب أن نهنئ حنون الكبير على الطريقة التي تصرّف بها خلال مهمته. كما تعلمون وجّهت رُسلاً إلى ماغون وهنيبعل تأمرهم بالإقلاع دون توقّف نحو سواحلنا. وسيصلون خلال أسابيع. فليتهيّأ سفراؤنا للسفر إلى روما! لإظهار نوايانا الطيبة سيصحبهم بعض أسرانا. كما أننا سنسلمهم عدة عشرات من هؤلاء الهاربين من الجندية، فحياة هؤلاء الخونة لا أهمية لها في نظرنا.

ـ في هذه المرة، قال حسدروبال جلد الجدي، أوافق عدوي القديم إيتربعل. فلنقبل الهدنة التي عرضها القائد الروماني، وليبرهن هنيبعل عن إطاعته الأوامر بخضوعه لمطالبنا والعودة سريعاً لنجدة وطنه.

في اليوم التالي توجّه حنون الكبير من جديد لمقابلة القائد الروماني لإعلامه أن مجلس المئة والأربعة رضي بفتح المفاوضات على أساس مقترحاته. عندها توقّفت أعمال العنف، لكن سيبيون رفض السماح للفلاحين الذين لجؤوا إلى قرطاجة بالعودة إلى قراهم ومزارعهم وفقاً لما طلبه محاوره. فهو يعلم أن المدينة غير قادرة على إطعام هذه الأفواه وهذا ما يدفع قادتها إلى تلبية أوامره، مع قدوم فصل الحصاد والقطاف تحوّل الجنود العاطلون عن العمل إلى فلاحين لجني مواسم القمح والعنب وإرسالها إلى شواطئ التيبر.

رحل السفراء القرطاجيون مع نهاية الفصل الجميل يرافقهم كانتوس فولڤيوس جيلو على متن سفينة خماسية المجاذيف. وعند

وصولهم إلى روما لم يسمح لهم بدخول المدينة إذ أن ورودها ممنوع على ممثلي المدن المحاربة لها. وقد أسكنوا في منزلٍ مملوك لمجلس الشيوخ في الشان دي مارس على مقربة من معبد بلّون(*). في ذلك المعبد استُقبل الجنرالات المنتصرون قبل أن يحسم موضوع توزيع جوائز النصر عليهم، وفيه دارت المناقشات بين أعضاء مجلس الشيوخ ورُسُل مدينة إليسا بقيادة حسدروبال جلد الجدي. وتوجّه هذا بصوت يتهدّج انفعالاً إلى الرومان:

- يسرني أن ألتقي برجال بمثل تعقلكم وفطنتكم. إنّها تعزية في أوقات المحن التي حلّت بنا. وأنا لم أحضر إلى هنا متوسلاً رغم أن كل شيء يحرّضني على التوسل. جيوشكم تعسكر تحت أسوار قرطاجة، وفي كل مساء يشاهد مواطني جنودكم يوقدون النيران حماية لهم من البرد الذي يهبُّ على مناطقنا خلال الفصل السيء.

«لست آتياً لاستعطف وأنا رجل سلام ووفاق. وأنتم لا تجهلون أنني كنت معارضاً لجنون أبناء برقا الثلاثة. إنني أعتبر هؤلاء مسؤولين عن الخلاف الموجود بين مدينتينا. فبالاستيلاء على ساغونت وبغزو إيطاليا لم يخضع هنيبعل للأوامر التي منحت له لكنه تصرف بمبادرة خاصة منه. وأنتم على حقّ في إطلاق قواتكم ضده لأنكم تُعتَبرون في حال دفاع مشروع عن النفس. لكنني أكرّر أنه لم يكن في أيّة لحظة مخوّلاً بإذن منا ولهذا السبب لم نرسل له أية مساعدات رغم غضبه الكبير. لهذا تدركون أنني لم أحضر لأناقش خلاصة معاهدة جديدة للصلح، لأن مجلسنا لم ينكر أبداً تلك الموقّعة مع كايوس لوتاتيوس كاتولوس بعد هزيمتنا في صقلية التي مضى عليها زمن طويل.

- ماذا تنصُّ هذه المعاهدة؟ صاح ماركوس فاليريوس لاڤينوس القنصل السابق.

(*) بلون: من آلهة الحرب الرومانية

ـ أعترف أنني لا أعرف تماماً إجراءاتها. كنت ماأزال حدثاً، ولم أشارك آنذاك في الحياة العامة لمدينتنا.

ـ ها هي حقيقة أخرى من الخداع البوني الشهير! حسدروبال جلد الجدي يجرؤ على التأكيد لنا أننا كنا خلال سنوات نجابه فرداً منعزلاً لا قرطاجة. إضافة إلى ذلك، يطلب منا أن نضع مجدداً على بساط البحث معاهدة مناسبة جدّاً لمصالحهم كأن روما لم تتعرّض لخسائر هامة وتفقد آلافاً من أبنائها. ماذا ستقول أرواحهم إن علمت أننا سمحنا بأن نؤخذ بخدعة بمثل هذه الغلاظة. عرض عليكم بوبليوس كورنيليوس سيبيون شروطنا وتعهّدتم بقبولها. من أجل هذا ارتكب خطأ بإصداره قرار الهدنة. أقترح على زملائي رفض الطلب، وإرسالك مع زملائك إلى مدينتك لإعلامها بألا تنتظر شيئاً من قبلنا.

ـ إنني أؤيد اقتراح ماركوس ڤاليريوس لاڤينوس، أشار كايوس سرڤيليوس جمينوس وهو عضو عائلة معارضة علانية لآل كورنيليوس. اتخذ سيبيون قراراً غير مبرّر، وعليه الاعتماد على القتال والحرب.

ـ أيّها الأعضاء المحترمون، أشار كانتوس كاسيلوس متيليوس، إنني أفهم سبب غيظكم. غير أنكم لا تستطيعون لوم حسدروبال جلد الجدي باللجوء الى جميع الوسائل للحصول على تليين الإجراءات المنصوص عليها خلافاً لمبادئه. إن المفاوضات تفترض تنازلات من الجانبين، ونحن نعلم جميعاً أنّه لم ينقطع يوماً عن الكفاح ضد الموالين للجانب البرقاوي، ونصب نفسه محامياً في مناسبات عديدة لوقف أعمال القتال. إذا أعدناه إلى قرطاجة بعد اتهامه بالخيانة فإننا نُنقص كثيراً من اعتماد ثقة زملائه به أمام مجلس المئة والأربعة. لا أحد يعلم ماذا ستكون نتيجة الأحداث ومن المناسب عدم توجيه الشتائم للمستقبل. إنني أؤيد متابعة الهدنة بشرط أن يقدّم لي الجواب الذي يحرق شفتيّ: هل قام ولاتكم بتوجيه الأمر لماغون وهنيبعل بمغادرة إيطاليا.

ـ نعم، ويمكنني أن أقسم على ذلك بكل ما هو مقدّس في العالم، أجاب القرطاجي.

ـ في هذه الحال سيتخلص وطننا عما قليل من غزاته. إن هذا نصر مُعتَبر سنحتفل به بمظاهر فرح كبيرة لشكر أم الآلهة لأنها استجابت لطلباتنا. لننتظر إذن رحيل هنيبعل وماغون عن أرضنا لنقرر الخطوة التالية لهذه المحادثات.

صوَّت مجلس الشيوخ بأغلبية كبيرة على استمرار الهدنة، وأُعلم السفراء أن بإمكانهم العودة إلى مدينتهم عند إمكان الإبحار في البحر الكبير. وسيكونون حالياً ضيوفاً على الشعب الروماني، وحرص عدد كبير من الأرستقراطيين على زيارتهم للتعرف عليهم بشكل كامل، فإن عاد السلام يوماً ستعود العلاقات التجارية الواسعة بين روما وقرطاجة. ولكل طرف المصلحة ليكون له في المدينة الأخرى شخص يحظى بثقته ليقيم معه روابط متينة الصلات.

* * *

وفقاً لما هو معروف أبحر هنيبعل وهو متذمر من تقصير قومه، ومعه عشرون ألفاً من رجاله للوصول إلى أفريقيا. عزاؤه الوحيد هو أنّه سيلقى بعد قليل أخاه ماغون بعد أن انفصل عنه مدة سنوات طويلة. حملته الرياح نحو لبتي مينوس(*) وهو مرفأ يقع بين تبسوس(**) وروسبيرا(***). ومنها وصل إلى حدريم، وهي مدينة يملك قربها إقطاعات أرض واسعة، وفي إحداها استقبل ذات صباح إيتربعل رئيس الحزب البرقاوي الذي حضر لتحيته، ولينبئه بموت أخويه. صعق القائد الأعور وتمتم بألم:

ـ اللعنة تلاحق سلالتي. أخشى عما قريب أن تحين ساعة

(*) هي لمتى الحالية في تونس.
(**) هي رأس ديماس حالياً.
(***) هي مونستير حالياً.

منيتي. اعتقد أنني ارتكبت خطأً جسيماً ضد ملقارت الذي يحمي منذ زمن طويل عائلتنا. ماغون وحسدروبال يغيبان عني بقسوة. ليس فقط لأنهما أخواي العزيزان، بل لأنني بحاجة إلى مزاياهما الاستراتيجية. أفضّل ألا أقول أكثر من ذلك كي لا أؤجج ألمي. قل لي بالأحرى ماذا يحدث في قرطاجة، وماذا يُتوَّقع مني.

ـ أعاد وصولك الأمل إلى عدد كبير من مواطنينا، وهم جميعاً يأملون ألا تتأخّر في الحضور إلى المدينة حيث أعدّ لك استقبال حافل.

ـ مرة أخرى أخشى أن أخيّب آمال مواطنيّ. ليس في نيتي أن أعود إلى مسقط رأسي. إن فعلت سأكون أسير حنون الكبير والحسدروباليين اللذين سيعملون على إملاء شروط سلوكي. إنهم لا يعرفون شيئاً عن فنّ الحرب، ولم يَعُد لدي الصبر على تعليمهم. أفضّل أن أبقى هنا، حيث لا ينقص جيشي أي أمر ويمكنه أخيراً أن ينعم باستراحة يستحقُّها بعد أن قضى سنوات في ديار الغربة. يجب عليه إلزامياً استعادة قواه قبل أن ينتقل إلى الهجوم، لأن هذه الهدنة لن تدوم إلى الأبد. إنّ قوات سيبيون سينفد صبرها وستُثبِط همتها الإقامة في بلاد حيث الصقيع يعقب الحرّ الشديد. فلندعهم يتفتتون تدريجياً، وعندما تكبر الثورة في صفوفهم سأكبّدهم هزيمة أكبر من تلك التي حدثت لهم في كانّاي. عد إلى قرطاجة وأشرح لحنون الكبير أنني لا أستطيع في الوقت الحاضر أن أتجرّد من مواقعي حول حدريم. راقبه باهتمام، وعند اللحظة المناسبة تظاهر بأن الهدنة قد قُطعت. أترك لك اختيار الوسائل، وسأقدّم لك قبل رحيلك المال اللازم لتحريض الحميّة والاندفاع لدى مواطنينا. اعلم أن مصلحة مدينتنا تلزم سيبيون استعادة العمل العدائي، وفي هذه الفترة سأتوجّه إلى الشمال وسأجذب جيشه إلى كمين يكون شؤماً عليه.

في مدينة إليسا غدا الوضع حرجاً فقد بدأ احتياطي الحبوب

ينقص بشكل خطير والمرفأ لا يستقبل مراكب محملة بالمؤن، لأن التجار القلقين من مجرى الأحداث ليست لديهم أيّة رغبة في تسليم أية شحنة لم يُسدّد ثمنها. إنّها ليست المجاعة إنما، عاجلاً أو آجلاً، يجب على مجلس المئة والأربعة وضع شروط تقنين قاسية للعيش، وهذا لن يتمّ دون إثارة فتن شعبيّة.

عندها حدثت معجزة. إذ أن سفينة ثلاثية المجاذيف تقوم بالحراسة على طول الشواطئ أعلنت عن وصول قافلتي تموين رومانيتين. تتألّف الأولى من مئة مركب تحرسها عشرون سفينة حربية وقد تركت سردينيا تحت إمرة الوالي بوبليوس لنتولوس وأرست قرب أوتيكا. أما الثانية فواردة من صقلية ويقودها كنايوس أوكتاڤيوس، وهي أهم من الأولى بمقدار الضعف: وتتألّف من مئتي مركب مؤن وثلاثين خماسية مجاذيف لحمايتها. والواقع أنّها قد انحرفت عن طريقها برياح قوية وغرق عدد من مراكبها على شواطئ رأس بون في المكان المسمى المياه الحارّة(*). لاحظت الجماهير الجائعة المتجمعة فوق أسوار قرطاجة وبفرح عظيم الصعوبات التي يعانيها الأسطول الروماني، فاجتمعت عند المقام وطلبت من الشيوخ أن يرسلوا سفناً لتستولي على الأقوات المحميّة من قبل الجنود الرومان القلائل. شرح لهم حسدروبال جلد الجدي عبثاً أن هذه الحركة تعني نهاية الهدنة، وقرّر أن يعهد إلى قائد الأسطول حسدروبال بواجب الاستيلاء على السفن الغارقة وقيادتها إلى مدينة إليسا. نفّد القائد هذه المهمة بحمية ونشاط.

ما إن علم سيبيون بهذه الطعنة الخطيرة الموجهة للاتفاقيات المنصوص عنها بينه وبين القرطاجيين، حتى أرسل وفداً مؤلّفاً من لوسيوس بابيوس، ولوسيوس سرجيوس ولوسيوس فابيوس. وقد أتوا بحراً، ونزلوا في منطقة الميناء حيث اقتيدوا تحت الحراسة إلى

(*) هي كوربوس، في رأس بون، وهي محطة مياه حارة اشتُهرت منذ القدم.

مجلس الشيوخ. تجمّع جمهور غفير في شوارع قرطاجة ووجّهوا إليهم الشتائم والتهديد أثناء مرورهم. وتجرأ بعض المتهورين وأطلقوا على الرومانيين الثلاثة الأقذار والحجارة، مما اضطر حرس المجلس لحمايتهم بتشكيل نفق من المجنّات تقدموا في ظلّه بشكل بطيء. بعد أن سمح لهم بالدخول الى القاعة لمداولة القضاة القرطاجيين، وجه المرسلون الرومان احتجاجاً شديد اللهجة ضد القرصنة التي كانوا ضحية لها وكذلك الاستقبال الذي خصوا به. لم يرد حنون تسميم الجو، فوجّه لهم خطاباً مشوباً بالتزلّف قال:

- باسم مجلس المئة والأربعة أقدم للرومانيين اعتذارنا. وقد ألقى حراسنا القبض على بعض المتظاهرين، وسأسهر شخصياً على أن يواجه هؤلاء ما يقرّر القضاة توقيعه عليهم من عقوبات جسدية وغرامات ثقيلة.

«مع ذلك كان لهذا الحادث جانبه الإيجابي. فقد أظهر شعبنا أنه بحاجة إلى العيش وهو مستعد لأسوأ الظروف إن لم تنته الحرب سريعاً. نحن ننتظر العودة القريبة لسفرائنا ونأمل أن يكونوا حملة أخبار طيّبة. مع ذلك أخبروا سيبيون أن كل تأخير يضعف وضع أنصار التصالح مع روما ويقوي صفوف منافسيكم الأكثر صلابة».

قال لوسيوس بابيوس: كلماتك رصينة لكنها لا تقنعنا. إننا نطلب براهين ملموسة تؤكد إرادتكم الطيّبة.

- عما قليل يمكنني أن أؤكّد لكم أن سفنكم المصادرة ستعاد إليكم مع حمولتها، على الأقل ما بقي منها. ما نهب ووزع على الجمهور سيُدفع لكم ثمنه بشكل كامل.

- سأنقل مقترحاتك إلى قائدنا العام إن تمكنت مع زملائي من الوصول سالمين دون أن نُقتَل من الجماهير التي أسمع زمجرات حقدها.

- لا تخشوا شيئاً. سيقودكم ممر سريٌّ إلى الميناء التجاري.

ستسلكونه بصحبة رجال مخلصين لي كلياً، كما أن بوستار أحد أميرالاتنا قد تلقّى أمراً بتهيئة ثلاثيتي مجاذيف ستحرسكما حتى مصب نهر باغراداس(*).

انشغل حنون الكبير كليّاً بتهدئة غضب الرومانيين، ولم يكلّف نفسه عناء استشارة زملائه وطرح اقتراحاتهم على التصويت. حرص إيتربعل وجماعته على الصمت خلال الجلسة فاعتبر صمتهم بمثابة قبول مسبق من طرفهم. رأى حنون في ذلك البرهان على أن منافسه يتذكّر الاتفاق الذي انتهيا إليه معاً منذ عدة أشهر. كانت خطيئته قاتلة. لم يلاحظ حنون وحسدروبال جلد الجدي الحركة الخفية التي بدرت من قائد الحزب البرقاوي لآزر بعل أحد ضباطه الذي توارى حالاً باتجاه الميناء العسكري «الكوتون».

كما هو متوقّع تمكن السفراء الرومانيون الثلاثة من مغادرة قرطاجة سالمين معافين، وأبحرت خماسية مجاذيفهم ترافقها ثلاثيتا مجاذيف قرطاجيّة حربية. طمأنهم اللقاء مع حنون وسُرُّوا مسبقاً من المكافأة التي يستحقونها نتيجة مهمتهم. غير أنهم ما كادوا ينطلقون حتى لاحظوا فجأة على مدخل نهر مدجيردا ثلاثة ثلاثيات مجاذيف بونية تقف في كمين وتهاجم سفينتهم خماسية المجاذيف، محاولة عبثاً صدمها. اقترب أحد المراكب من السفينة الرومانية ليلقي على متنها عدة عبّارات وجسور صغيرة غاص فيها عدة عشرات من الرجال، حيث تمكّن الجنود الرومان من صدهم بعد عناء.

لاحظ لوسيوس سرجيوس، الذي كان يقاتل بجرأة كبيرة، بضعة جنود رومانيين يراقبون المعركة ويشجعون جماعتهم بصيحاتهم. أمر قبطان السفينة بأن يجنح بسفينته على الشاطئ. إنّها الوسيلة الوحيدة للهرب من الكمين الذي نصبه آزر بعل المتصرف

(*) هو نهر «مدجيردا» الذي كان يصب سابقاً في خليج أوتيكا.

وفقاً لأمر إيتربعل. أمر رئيس المجذفين بالإسراع في وتيرة التجذيف التي تضاعف عددها تحت سياط الحراس. وسرعان ما تحطمت خماسية المجاذيف على نتوء صخري، وأخليت سريعاً من ركابها بينما كانت ثلاثيات المجاذيف البونية تقلع في عرض البحر متوجهة إلى قرطاجة، حيث أعلم آزر بعل أنصار هنيبعل عن نتائج مهمته.

مع الفجر تقدّم ضابط إلى مجلس المئة والأربعة ليعلمهم أن دورية كانت تقوم بالتعرف الروتيني كعادتها كل يوم، عندما هوجمت من مفرزة فرسان رومانيين. بذلك انتهت الهدنة وانتشر الخبر سريعاً في شوارع المدينة محدثاً نوبة حماس غريبة. بعد ثلاثة أيام اجتمع مجلس الشيوخ في جلسة في معبد إشمون. وتوجه حنون الكبير المتفجّر غيظاً إلى إيتربعل قائلاً:

- في يوم ما، عندما سيتجول أبناؤنا على أنقاض مدينتنا، سيصفونك بحق بالمجرم. لقد خنت الثقة التي وُضعت فيك بسذاجة. سررت من اعتدالك وفكّرت أن مردّها الوطنية النبيلة، والواقع أنها ليست إلا خدعة شيطانية اعتاد عليها معلمكم هنيبعل. بغلطتك ستباشر روما الحرب وسندفع غالياً، وغالياً جداً ثمن خيانتك.

- إنّك ولد وتحاكم الأمور بشكل أحمق. توصّلنا إلى اتفاق لنكسب الوقت بانتظار وصول هنيبعل. لهذا السبب عقدنا هدنة مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون. قواتنا عادت من إيطاليا ولا تتوقع إلّا أمراً من قِبلنا لتغادر حدريم وتسرع إلى نجدتنا.

- أنت تنسى أن سفراءنا موجودون على ضفاف نهر التيبر باستمرار، ويمكن للرومان أن يمارسوا على هؤلاء الرجال الذين يُعدّون من أفضل مواطني مدينتنا عقوبات قاسية.

- أُشهد زملائي الحاضرين على حمقك، هل تعتقد أنني أتصرف بخفّةٍ وأنني أردت أن أعرض للخطر حياة مبعوثينا ولي بينهم أصدقاء أعزّاء؟ منذ زمن أنبأني جواسيسي بسفرهم. وقد وصلوا

إلى قلعة كورنيليوس في اليوم الذي تلقيت فيه خبر وصول هؤلاء الملاعين الرومان الثلاثة. وبما أنني أعلم أنّهم موجودون على سواحلنا أعطيت الأوامر لآزر بعل لممارسة نشاطه.

ـ يمكن لسيبيون أن يعمل على قتلهم.

ـ إنّك تسيء الحكم، بل إن حكمك في غاية السوء. تصرف هذا الرجل كان غير متوقع، ويبدو أنه أراد أن يذلّنا بالردّ على كلّ من خياناتنا بإشارة شهامة. لقد حرّرهم وهو يعتقد عدم مسؤوليتهم عن تصرفاتنا. لن يمرّ إلا وقت قصير وفقاً لما أشار لي به جواسيسنا إلا ويظهرون على أبواب مدينتنا.

ـ تأكّد يا إيتربعل أن الفضل في نجاتهم يعود إلى سيبيون وليس لك.

ـ هذا أمر قليل الأهمية. لديّ أمور أكثر أهمية في الوقت الحاضر.

ـ وعدتنا بأن هنيبعل لن يتأخّر في الحضور لمساعدتنا.

ـ فعلاً وهذا ما يجري الآن. أخبرني أحد رسله أنه تلقى مساعدات من الفرسان النوميديين الذين قادهم تيشايوس، أحد أنسباء سيفاكس البعيدين. قام ابن هذا الأخير، ڤرمينا، في الوقت الحاضر بتجييش آلاف من المشاة.

ـ بما أنّك حسن الإطلاع. هل تعلم ما هي نوايا رئيسك؟ جرياً على عادته لن يكلّف نفسه مشقّة استشارتنا. لا أهمية لنا في نظره، وسيتوجب عليه في أحد الأيام أن يأخذ بالاعتبار هذا الإهمال غير المبرّر.

ـ ترك حدريم، ليتخذ مواقعه في زاما(*)، على مسيرة خمسة

(*) اختلف المؤرخون في الموقع الصحيح لهذا المكان، ويميل بعضهم إلى مكان السبع بيار على بعد سبعة عشر كيلومتراً من المقطر، أو أنه في جاما على بعد ثلاثين كيلومتراً من الموقع السابق.

أيام من مدينتنا. وكما يمكن أن تلاحظ غادرت قوات سيبيون معسكرها في تونس لملاقاته. لن يمضي وقت قصير إلّا ونعلم نتيجة تلك المعركة.

إن كان هنيبعل قد تلقى مساعدات من تيشايوس وقرمينا فإن سيبيون بدوره تلقى العون من ماسينيسا المدعوم بأربعة آلاف فارس. يبدو أن الوضع جيد على الأرجح بالنسبة للقائد القرطاجي وهو على رأس خمسين ألف رجل هي في قسمها الأكبر من المرتزقة البليار، والغاليين والليغوريين، ومن ثمانين فيلاً بينما لا يتمتع خصمه إلا بثلاثة وعشرين ألف جندي وعشرة آلاف نوميدي.

خلال عدة أيام قام الجيشان بجسّ النبض. هيأ القائد الروماني معسكره في موقع يسمى نقّارة(*). أرسل ابن هميلقار بعض فصائل للتعرف على أوضاع خصمه. اعترض الفرسان النوميديون تلك الدوريات وقادوها إلى كورنيليوس بوبليوس سيبيون الذي لم يعاملهم كأسرى، بل عمد إلى أن يقوموا بزيارة معسكره قبل أن يعيدهم إلى هنيبعل.

أثارت هذه الحركة إلى أعلى الدرجات هنيبعل، حتى أنه طلب مقابلة القائد الروماني. وكان هذا أوّل لقاء بين الرجلين وقَبِل سيبيون بمنتهى الفرح مبدأ اللقاء. فهو يتحرّق شوقاً للتعرف على قاهر كانّاي وهو المعجب بعبقريته العسكرية. راق له أن يعتبره منافسه، بمثابة معادل له، بينما وهو ابن بومبونيا، لم يعبر البيرينيه والألب ولم يَهزم في معارك طاحنة قوات أكثر عدداً بما لا يقاس من قواته. قام الرسل برحلات مكوكية بين المعسكرين لتحديد شروط هذا اللقاء الذي لا سابق له في التاريخ، وتمّ الاتفاق على أن يجري في أرض مكشوفة تتوسّط المعسكرين. اجتمع الجنرالان برفقة ثلة حرس مختصرة، واحتلا موقعيهما تحت خيمة يحرسها عدد متساو من جنودهما الخاصّين.

(*) لم يُعْرَف موقع هذه المدينة.

في اليوم المحدّد اجتمع هنيبعل وسيبيون وجهاً لوجه. وبقيا فترة طويلة صامتين، متقابلين وقد خجل كل منهما من الآخر، ولم يعلما إن كان من واجبهما أن يتعانقا أو أن يحافظ كل منهما على مسافة معقولة من الآخر، ثم بدأ سيبيون الحديث(*):

- إنني سعيد للقياك رغم أنّ كل شيء يفرّق بيننا. أنا أعرفك أكثر مما تستطيع أن تتصور ولعائلتي على الدوام احترام كبير لعائلتك. لن تنسى أبداً مبادرة والدك هميلقار الذي قدّم احتراماً خالصاً لأحد أنسبائنا الذي سقط قتيلاً أمام قرطاجة خلال الحملة التعيسة التي قام بها ماركوس أتيليوس روغولوس.

- حدّثني والدي كثيراً ولفترة طويلة عن تلك الحادثة. لقد عرف نسيبك في ريجيوم وأُعجب به. لهذا اعتبر أن من الواجب الملّح أن يعثر على جثمان صديقه في ميدان المعركة ويحرقه وفقاً لتقاليدكم.

- يمكنني أن أعترف لك بأنه في فعلته قد ارتكب خطيئة.

- ما هي؟

- إن عائلة كورنيليا هي العائلة الوحيدة في روما التي لا تمارس حرق الموتى.

- لتغفر لنا إذن أرواح الموتى انتهاك هذه الحرمة اللاإرادي.

- لم تكونوا تعلمون هذا التقليد وقد أثارت مبادرتكم دموع أجدادي. تأكّد أنني آسف بكل إخلاص لأن القدر أراد أن نكون أعداء وكان باستطاعتنا أن نحقّق أشياء كثيرة معاً.

- ليس هذا متعذراً.

- ماذا تعني بذلك؟

- جئت أعرض عليك تحقيق صلح بين شعبينا وتجنّب المواجهة بين جيشينا لخوض حرب لا جدوى منها. سُفِح الدم غزيراً بيننا

(*) في سرد هذه المقابلة اعتمدنا بشكل رئيسي على الصيغة التي قدّمها المؤرخ تيت - ليف.

وبواسل جيشينا غالية توجب أن نجنّبهم بذل حياتهم. قد يكون من أهم أمجادك رؤية هنيبعل الذي أعطته الآلهة كثيراً من الإنتصارات عليكم، ينحني أمامك من أجل إنهاء هذه الحرب التي كانت انتصاراتنا فيها أكثر عدداً من انتصاراتكم.

- إنّك تتحدث عن السلام لأن جيوشي تعسكر تحت أسوار قرطاجة.

- كان بإمكاني أن أقوم بالعمل نفسه أمام أسوار روما. أنت تعلم جيّداً هذا الأمر.

- هذا ما لم يتمّ وقد لامك قوّادك عليه.

- إنني أفهم رد فعلك. إنك تفضل حبّاً بذاتك الانتصار على السلام. أنت شاب وأنا رجل هرم. لهذا يمكنني أن أحدثك انطلاقاً من خبرتي. ليكن معلوماً لديك إن كانت الآلهة تتيح للرجال صفاء الذهن وهم ينعمون بالسعادة؛ فإن على هؤلاء أن يأخذوا بالاعتبار ليس فقط أحداث الماضي بل تقلبات المستقبل. كلّما اقتربنا من السعادة المطلقة وجب علينا الحذر من القدر. وضعك في الوقت الحاضر جيّد، ونحن نعاني بعض الصعوبة. الصلح الذي تعطينا إياه نبيل وشهم لنا نحن الذين نطالب به وهو أقرب إلى الضرورة منه إلى الاعتزاز. إن صلحاً مؤكّداً أجلُّ ثمناً واستقراراً من نوال النصر، أحدهما يعود إلينا، والآخر يتعلّق بالآلهة.

- إنّك تلتمس الصلح وتتصرّف مثل مواطن حريص على مصالح مدينتك. أي ثمن تستطيع تسديده من أجل الحصول عليه؟

- أنت تطالبني بالتعبير شخصياً عن العقوبة التي ستحلّ بقرطاجة. سترى أن بإمكاني أن أظهر القسوة تجاه أنصاري. أستطيع أن أؤكّد لك أننا سنتخلّى عن جميع الأراضي التي ملكناها سابقاً خارج أفريقيا، وأننا سنترك لكم السيطرة الكلية على البحر الكبير.

ـ من يستطيع أن يضمن لي الالتزام بكلامك وأنت المتهم بمهارتك في الخداع؟

ـ إن شخصي يضمن كلماتي. تناقشتم حتى الآن مع حنون الكبير وحسدروبال جلد الجدي اللذين لا يملكان السلطة اللازمة ليفرضا على مواطنيّ التضحيات التي ذكرتها لك. أما أنا فأستطيع، لقد حقّقت عدداً من الانتصارات لن يستطيعوا نكرانها خوفاً أو جبناً. عليك إذن أن تقرّر إن كان من المفيد أن نتجابه.

ـ كم أودّ أن أحقق رغبتك لكن الوقت قد فات. ليس من مصلحتي أن أداريك. غداً سيتقابل جيشانا وسيتعاركان وستقرّر الآلهة لمن يعود الانتصار. للمغلوب، أياً كان، أرجو موتاً مشرّفاً على رأس جيوشه. وعلى المنتصر يقع العبء الثقيل في البرهان على شهامة مشرّفة تجاه خصومه التعساء. إنني أعلم أن كلينا سيتصرّف مثل كل كائن بشري، وعلى من يكسب المعركة أن يبرهن عن حلمه نحو الآخر. لننه هنا هذه المداولة إذ لم يعد لدينا شيء نقوله.

ـ لدي معروف أطلبه منك. ماسينيسا موجود في معسكرك. نشأنا معاً وأنا أحبّه وسأبقى محبّاً له مثل أخ حتى وإن أختار لأسباب أفهمها التحالف مع روما بعد قرطاجة التي برهنت عن عقوق تجاهه. أريد أن أحييه.

ـ توقّعت هذا الطلب وألححت عليه مدة طويلة أن ينضمّ إلينا، إلا أنني لم أستطع إقناعه بالعدول عن رفض لقياك وأنا أوّل الآسفين على ذلك.

ـ قراره يؤسفني وما يعزيني هو إخلاصك في عدم معارضة مثل هذا اللقاء. أنبئه أنه سيبقى صديقاً لي وأنني أتمنى أن أحصل له على ما رفضت مدينة إليسا، حماقة منها، أن تؤمنه له.

التحق القائدان بمعسكريهما الخاصين وتأخّرا في إبلاغ ضباطهما نتائج المقابلة. في نهاية النهار قررا جمع رجالهما

لإعلامهم بالنتيجة. شرح هنيبعل لجنوده أن ليس لديهم ما يخشونه، فهم يفوقون الرومان عدداً وفي مواجهتهم فرقتان نفيتا إلى روما وافدتين من صقلية لهزيمتهم في كانّاي. مرة أخرى أيضاً سيعرف الجنود المتمرسون مرارة الهزيمة. بمروره أمام الجنود المرتزقة حرص الجنرال الأعور على توجيه الكلام لحملة المقلاع البلياريين أو إلى المشاة الليغوريين ليذكّرهم بأحداث البطولة وهم صناعها، ووعدوا مزهوّين بأن يشرفوا سمعتهم.

أمّا سيبيون فقد تصرّف بشكل مغاير. إذ أعلم قوّاته أن خصمه طلب منه عقد صلح مباشر وعدم خوض معركة اليوم التالي، فقال:

- أيها الرومانيون، هذا برهان على أن الخصم رغم تفوّقه العددي قد ناله الإعياء والتعب دون التوصل إلى النصر. غيّر الأمل معسكره. لا تدعوه يؤثر فيكم بالحملات المعادية الأولى. سيحاول بثّ الذعر في صفوفكم وسيستنفد قواه بسرعة. وفي تلك اللحظة سيكون من واجبكم زحزحته عن مواقعه وإجباره على الفرار. مساء غدٍ أعدكم بأننا سنحتفل بانتصارنا.

مع بزوغ الشمس سادت حرارة خانقة ميدان المعركة. اتخذت القوات القرطاجية مواقعها منذ البداية. رتب هنيبعل في خطّ المواجهة الأوّل أفياله الثمانين. لم يحدث أبداً إدخال مثل هذا العدد في عملية واحدة. وضع خلفهم المساعدين الغاليين والليغوريين الذين دعمهم بحملة المقاليع البلياريين والمشاة النوميديين بقيادة تيشايوس. في الخط الثاني أعدّ المشاة القرطاجيين ونظراءهم الليبو- فينيقيين. وفي المؤخرة وقف فرسان جيوشه الإيطالية. كما عهد للفرسان حماية الميسرة والميمنة.

في مواجهة تلك القوات رتب سيبيون قواته في ثلاثة صفوف محمية بفرق الفرسان الإيطالية والنوميدية بقيادة ماسينيسا. أجرى تغييراً واحداً ذا دلالة بتوسيع رقعة المناورة مولّداً ممرات فسيحة. تقدّم المشاة إلى أقرب حدّ ممكن من الخطوط القرطاجية، وبمساعدة

نافخي الصور، وحملة الأبواق، أحدثوا ضجة عارمة رفضت على إثرها الأفيال الإذعان إلى أوامر فيّاليها، وبدأت تجول في الممرات الفاصلة بين وحدات المشاة الرومانية الذين أمطروها بوابل من السهام. أجرت الحيوانات الثقيلة نصف دورة وانطلقت تهاجم وحداتها الخاصة. عندها أمر هنيبعل مشاته الثقيلة أن تتقدّم برماحها وهذا ما دفع الأفيال للارتداد يميناً ويساراً لتغادر بعدها ميدان القتال في فوضى وتبعثر.

اصطف المشاة القرطاجيون بعد ذلك في صف واحد. وبدأت هجمة متحمسة من ماسينيسا فرقت فرسان الأعداء. عندما انطلق الجنود الرومان في هجمة على المواقع القرطاجية صمد فرسان هنيبعل المتمرّسون أمام اندفاع العدو، وأزاحوا للمرة الأولى المهاجمين وتهيؤوا للانطلاق في متابعتهم عندما هوجموا من الخلف بفرسان ماسينيسا فرجعوا القهقرى. حوصر رفاق هنيبعل وهلكوا جميعاً. مع حلول المساء أحصيت أكثر من عشرين ألف جثة من القرطاجيين في أرض المعركة، واستولى الرومان على عدد مماثل من الأسرى، وعلى مئة واثنين وثلاثين راية، وأحد عشر فيلاً، بينما لم يخسر سيبيون سوى ألفين من رجاله.

* * *

مع فلول جيشه التحق هنيبعل بحدريم وأرسل منها رسالة ينبئ مجلس المئة والأربعة بهزيمته في زاما. لم يفكّر في العودة مباشرة إلى قرطاجة لأسباب يسهل إدراكها. هو يعلم أي مصير تحتفظ به مدينته للقادة المنكسرين وواقع أنّه ابن هميلقار برقا والمنتصر في معارك عديدة لن يجعله محمياً من حكم بالصلب. فضّل أن يكسب الوقت ليتمكن أنصاره من تحريك مجمل قواهم وتأمين سلامته. ولما حصل على جميع الضمانات الضرورية صعد على متن ثلاثية مجاذيف قادته إلى المرفأ العسكري الكوتون. باجتيازه القناة الضيّقة الصاعدة من المرفأ التجاري إلى المرفأ العسكري لم يستطع

الامتناع عن ذرف الدموع. ها قد انقضت ست وثلاثون سنة على مغادرته وطنه. كان مايزال شاباً حدثاً وقد انطلق مكسوّاً بغلالة من المجد إلى جانب صهره حسدروبال مؤسس قرطاجنة، وهو الآن شيخ هرم أنهكته المحن والتجارب يعود مقهوراً ليشهد استسلام مدينته الأبيّة. عندما اقتيد إلى مجلس الشيوخ نصح مواطنيه بإلقاء السلاح مستسلمين:

ـ تخلّت عنا الآلهة ومن العبث إثارة غضبها بمتابعة الصراع. إن قرّر بوبليوس كورنيليوس سيبيون مهاجمة الأسوار، فسينجح بالدخول إلى قلب مدينتنا وأنت تعلمون دلالة هذا الأمر.

زمجر حنون الكبير قائلاً: إنك دائماً ذلك المتغطرس. أنت المسؤول الرئيسي عن مصائبنا وقد جئت تُشبعنا دروساً ونصائح.

ـ في ظروف أخرى سأعمل على أن تدفع غالياً ثمن ملاحظاتك. حقّقت خلال سنوات النصر إثر الآخر وأرسلت لكم مبالغ كبيرة من المال. بالمقابل لم أنل منكم أية مساعدة. عبّأتم جيوبكم من ذهبي وفضتي لكنكم لم تبدوا أي استعداد للإنفاق لمساعدة من حملوا، من الأراضي الأكثر بعداً، المجد لقرطاجة. طلبتم مني أن أهجر مواقعي في إيطاليا الجنوبية وأُسرع لنجدتكم. هل تلقيت أي دعم من فصيل مشاة أو فرسانٍ واحد؟ هل هيأتم لي الأقوات أو أكياس الذهب لتغذية جنودي أو تسديد رواتبهم؟ كلا وقد وجب عليَّ أن ألجأ إلى ما ادّخرته في ميادين عديدة وإلى ثروتي الشخصية لأحفظ لمدينتنا جيشاً. توقّف إذن عن وضع عبء الهزيمة على كتفيَّ. أنت الذي فعلت كل شيء لتحيل إلى العدم نتائج انتصاراتنا. ليس المجال متسعاً للجدل بل إلى الاتحاد. فلنعرف كيف نجابه المصيبة متحدين لئلا يستغل العدو تفرقنا ويفرض علينا صلحاً قاسياً.

خلال تلك المدة تمكن سيبيون من الالتحاق برّاً بقلعة كورنيليوس، ومن هناك أبحر في مركب إلى تونس. وبمروره في

رأس قرطاجة فوجئ بسفينة ثلاثية المجاذيف بونيّة حضرت للقائه. كان المركب مغطّى بأشرطة وأغصان الزيتون وهو يحمل في مقدمته شعار الآلهة. كان حنون الكبير وحسدروبال جلد الجدي على متنه، وقد أعطيا الأمر للقبطان للاقتراب قدر الإمكان من المركب الروماني. أعلما سيبيون أن مجلس المئة والأربعة قد كلّفهما لإعداد معاهدة سلام وفق الشروط المحددة للقائد المنتصر. فأجابهم القنصل بسخرية:

ـ سأنتصر إذن على قرطاجة في البحر، إذ أنكم حضرتم في عرضه وبعيداً عن سواحله لتظهروا لي خضوعكم. ليس هذا هو المكان الملائم للمناقشة. عودوا من حيث أتيتم وأرسلوا ممثليكم إلى تونس لأستقبلهم بحضور ضباطي.

في اليوم التالي وصل ثلاثون سفيراً قرطاجياً، في ثياب الحداد، إلى مدخل المعسكر الروماني. ووجب عليهم صعود الممر الرئيسي تحت أنظار الجنود المتهكمة. استقبلهم سيبيون في خيمته وأملى عليهم شروط المعاهدة. يجب أن يتخلوا عن إثارة الحرب في أفريقيا وخارج أفريقيا دون إذن مسبق من روما والتخلي عن كل ادعاء بإيبيريا وسردينيا، وكورسيكا، وجزر البليار، والجزر الأخرى في البحر الكبير، وإخلاء سبيل الأسرى والهاربين من الجنديّة الذين في حوزتهم، وتسليم جميع السفن الحربية باستثناء عشر ثلاثيات مجاذيف، ومنح الرومان جميع فِيَلتهم والتعهد بعدم امتلاك أي منها، وتعويض ماسينيسا عن الخسائر التي تعرّض لها بسببهم. أخيراً تقديم عشرة آلاف مثقال فضيٍّ خلال خمسين دفعة سنوية. إن التنفيذ المضمون لجميع هذه الشروط يستلزم تقديم مئة رهينة تتراوح أعمارهم بين أربعة عشر عاماً على الأقل وثلاثين عاماً على الأكثر من أنبل عائلات المدينة سيقادون إلى روما.

عندما أراد حنون الكبير مباشرة الكلام لطلب المزيد من السفن

ثلاثيات المجاذيف المخصّصة لمدينته، قاطعه سيبيون بخشونة قائلاً:

- جئت إلى هنا لتستمع لا لتناقش. اعلم أن عروضي سهلة إلى جانب تلك التي يفضلها مجلس الشيوخ الروماني وعدد من ضباطي الذين يريدون بكل بساطة زوال مدينتكم. وهذا ما سيحصل بالفعل إن لم تنفّذوا بدقة شروط هذه المعاهدة. فهل تقبلونها؟

- نعم، تمتمَ حنون الكبير، بصوت منكسر.

- في هذه الحال فإن مدينتينا من الآن فصاعداً في صلح.

بإعلان موافقته السريعة تصرّف حنون ببعض تهوّر. وعندما عاد الوفد إلى قرطاجة وجب عليه تقديم تقرير عن مهمته إلى الشعب المتجمّع عند المقام. عندما أنهى عرضه تقدّم جيسكون، أحد أنصار آل برقا، يحرّض مواطنيه على الموت والسلاح في أيديهم بدلاً من العيش في ظل العبودية. غضب هنيبعل لرؤية هذا الرجل المؤيد سابقاً للصلح يتباهى بسلطته، فتقدّم منه وطرحه أرضاً مما قطع كلّ نقاش. وقد لامه إيتربعل لاحقاً لتصرفه قائلاً:

- في قرطاجة يحقّ لكل مواطن أن يعبّر عن رأيه بكل صراحة، ويجب أن تذعن لهذه القاعدة.

- حتى الآن لم أعرف إلا الحياة العسكرية، وعندما يوجه الجنرال أمراً يجب إطاعته على الفور. ها أنا أعود مجدداً أو بالأحرى قد عدت مجدّداً إلى الحياة المدنية. عليك أنت إرشادي إلى الحقوق والاعتبارات والعادات الناظمة لهذه المدينة والتجمّعات الجارية عند هذا المقام.

- لن أقصّر في هذا، لأن مدينتنا بحاجة إلى نصائحك في الفترة الصعبة التي ستجتازها.

- في نظري إن الرومان لم يطلبوا تدميرها. الضربة التي تلقيناها قاسية بالتأكيد لكن لا شيء يمنعنا من الاستعداد للثأر مع

المحافظة على سرّ مسيرتنا الكبير. يجب عليّ القول: إنني لا أعتبر نفسي مغلوباً لسبب بسيط: أبناء الذئبة يؤكّدون أن الجنرال لا يكون منتصراً إلا عندما يصرِّح عدوه له بالغلبة. سأرفض حتى النفس الأخير أن أحقق لهم هذه المتعة. سيحاول سيبيون عبثاً الحظوة بشَرَف الانتصار ورؤية نفسه يزهو بلقب «الأفريقي»، وهو يترقّب على الدوام اللحظة التي سأعترف له بها بالهزيمة، وسيبيّض شعره كما هو شَعري الآن وهو مايزال ينتظر مني الكلمة التي ستحرّره من عدم رضاه وقلقه.

ـ يمكنك أن تقنع نفسك بهذه المواساة يا هنيبعل. لكن ماذا ستقول لمواطنينا؟

ـ ألّا يخجلوا من هذه الهزيمة. التاريخ سيحفظ لهم أنّهم قاتلوا بشجاعة من أجل حريّة شعوبهم الغاليّة والإيبيرية والإيطالية بهدف استقلالها وتحريرها من النير الروماني. لقد ماتوا للدفاع عن بعض مبادئهم التي لا يمكن لأحد أن ينكر شهامتها ونبلها. خلال أجيال عديدة ستتذكّر الشعوب التي ترزح تحت ثقل التجاوزات المرتكبة من أبناء الذئبة أن قرطاجة، مدينتنا، قد هبّت ليتجنّبوا هذه المِحَن. سيبقى اسمها خالداً عبر الأزمان وسيكون مرادفاً للعدالة وعزة النفس. تأكّد أن في هذا ما يعزيني من تقلّبات الحياة العابرة.

الفصل الثامن

بعد هزيمة زاما ونتيجة المعاهدة الشنيعة التي أملاها سيبيون الذي اتخذ من الآن فصاعداً لقب «الأفريقي»، وحريق الأسطول الحربي في عرض بحر قرطاجة، تصرّف هنيبعل بحذر متجنّباً القضايا العامة. هو يعلم أنه مدين بالحياة لشفاعة قائد الجيوش الروماني الأعلى وحدها. وأن الأمر لو تعلق بمجلس المئة والأربعة لتعرّض للموت مصلوباً لفشل جيوشه وتدمير أحلامه في غزو الأراضي حول البحر الكبير. بدأ أعداؤه محاطين بسريّة كبيرة يجمعون ضده البراهين والأدّلة لإجراء تحقيق ورفع دعوى ضد هنيبعل. تنبه القائد المنتصر، فاستدعى أحد ممثلي المعسكر المضاد للبرقاويين ليوبّخه بسبب أهمية الموضوع.

ـ اعتدنا نحن الرومانيين أن نلوم هنيبعل على غدره. ويعزّ علي أن أعترف أنّها لم تكن إلا نميمة إن قارنتُ أعماله المجيدة بتصرفاتكم السيئة. هو يظهر دائماً وفيّاً نحو من يبادله الاحترام، أميناً في ذلك مع ذكرى والده هميلقار الباسل الذي قدَّم أقصى مظاهر الاحترام لأحد أنسبائي الذي سقط قتيلاً عند أسوار ميغارا. وأنتم لم تتوقفوا عن إحاكة المؤامرات والفتن ضده، وهدفكم الوحيد إرضاء المنتصر.

ـ هي وشاية خالصة، يا سيبيون النبيل، وأنت تعلم. كنت مع حنون الكبير أحذر مواطني من جنون الهجوم على روما حتى إبان

أفدح هزائمكم: تراسيمين، كانّاي. إن كنا قد تمكّنا من توقيع معاهدة سلام، فلأننا استطعنا أن نعيد إلى الصواب جميع الطائشين الذين كانوا يحلمون بمتابعة القتال حتى القطرة الأخيرة من دمنا ودم عدوّنا. هل تجرؤ مع الأخذ بالاعتبار هذه الخدمات اتهامنا بالخيانة؟

- مدينتي لا تحتاج للعبيد من أمثالك لخدمتها. إن الجبان هو على الدوام حليف سيّء. ما أدينك به هو إثارتك مع أنصارك قضية هنيبعل الذي أحترمه لأن التاريخ لم يعرف إلا نادراً قائداً كبيراً مثله.

- إنني أعرف كثيرين، في مجلس شيوخك، لا يشاركونك وجهة نظرك.

- في بلادي مثل يقول: إنّ الطيور على أشكالها تقع! نحن أيضاً لدينا رجال مستعدون للتضحية بمصالح وطنهم للدفاع عن ثرواتهم الهائلة التي جمعوها بطرق غيرمشروعة. بالأمس القريب عملت على قطع بعض الرؤوس منهم لأزرع الرعب في قلوب المتواطئين معهم. ولهذا فإن التمسّك بحمايتهم لن يفيدك في شيء سوى زيادة نقمتي عليك.

- أعترف أنني لا أفهم ماذا تريد منا؟

- شيء واحد: دع هنيبعل بسلام واعلم أنك إن توصلت إلى مثوله أمام مجلس المئة والأربعة، فسأوجّه أوامري بمحاصرة مدينتكم.

- لكنه عدوك اللدود!

- إنك لا تعلم شيئاً من الأمور السياسية: إنني أفضل رؤية قرطاجة الضعيفة بالنزاعات بين مؤيدي البرقاويين ومنافسيهم بدلاً من رؤيتها محكومة بحزب واحد. أمن روما يعتمد على دسائسكم وعجزكم عن اتخاذ قرار من قِبل الأكثرية المطلوبة وفق قوانينكم. من أجل هذا، فإنني مهتم بمصير ابن همليقار.

ـ سنطيع أوامرك لكن ماذا سنفعل به؟ مبدئياً هو مايزال على رأس جيشنا، ويمكنه أن يثير المعارك ضد حلفائكم النوميديين.

ـ هذا ما سيحدّده المستقبل، غير أنني أشك كثيراً في اختياره هذا السبيل فلديه كثيراً من الأصدقاء بينهم، مما يشجعه على حلّ الخلافات العارضة سلمياً.

أطلع عضو مجلس الشيوخ عند عودته إلى قرطاجة زملاءه على هذه المقابلة وكانوا مترددين على شاكلته. وقرروا، وهم الحريصون، على إيقاف الإجراءات القضائية الجارية ضد هنيبعل؛ مع ذلك كان هذا الأخير في مأمن. إذ أنّه غادر مع رجاله المدينة وأقام في الملكيات الواسعة العائدة إليه في منطقة رأس بون وحدريم. وقد عاد الجواسيس المرسلون إلى المكان وهم يحملون خبراً لا يُصدَّق: تحوّل القائد السابق وجنوده إلى فلاحين وقطافي كروم وحصادي قمح يجنون الزيتون الذي نجا من الدمار. تحوّل هنيبعل إلى مزارع كما كان أبوه هميلقار سابقاً وكما أراد أدونيبعل أن يعطيه درساً. في الحقيقة كان المنتصر في كانّاي حتى وإن قرأ دروس ماغون الزراعية، لا يشعر بجاذبية خاصة نحو موهبته الجديدة. لكنه فكّر في تسديد أعطيات رجاله، إذ أظهر مجلس شيوخ قرطاجة مرة أخرى تخلّفه عن الدفع. من ناحية أخرى إنها وسيلة مناسبة لجمع احتياطات الذهب والفضة في حال اضطراره إلى الهرب بسرعة بعد مصادرة أملاكه.

منذ التوصل إلى معاهدة الصلح كانت الطبيعة مؤاتية للمهزومين. سقطت الأمطار بغزارة خلال الخريف وفصل الشتاء دافئ، ومنذ الربيع نبت القمح في الحقول بينما نضجت عناقيد العنب بهدوء تحت أشعة الشمس. بعكس روما والبلدان المتحالفة معها حيث استمرّ الدمار الذي أحدثه هنيبعل في تأثيره، متزايداً بمناخ سيء: جليد مبكر وأمطار، مع تساقط البَرَد بغزارة في السنة الأولى، لحقها جفاف في السنة التالية. ولتتمكن روما من تغذية شعوبها

عمدت إلى إرسال جيوشها لمحاربة الإغريق، ولجأت مدينة رومولوس إلى الاستنجاد بإليسا بعد سنة من معركة زاما. أرسلت قرطاجة إلى أوستي مئتي ألف مدّ(*) من القمح وكمية مماثلة منه للمحاربين في مقدونية.

كانت عشرات من السفن البونية تعبر البحر ويُستقبل تجارها بمزيد من الاهتمام في الأسواق غير البعيدة عن العاصمة. تعلّموا التكلّم باللغة اللاتينية بينما مخاطبوهم يرطنون باللغة البونية، ويلجؤون عندما لا تكفي الكلمات إلى حركات اليد ويتمّ الاتفاق ضمن لَغَطٍ سارٍ. كان التجار البونيون يصلون مع القمح ليعودوا بسفنهم المحملة بالآجر الكامباني المصنوع من التراب الأحمر لتلبية رغبات القرطاجيين باقتنائه. حدث عند ذلك شيء خارج عن المألوف. لم يَعُد لقرطاجة أسطول حرب، كذلك استأجر أهلها من أجل أسطولهم التجاري مراكب من مواطنيهم أهل صور، وأمام تدفّق المراكب وجب توسيع المرفأ العسكري المخصّص من الآن فصاعداً لأغراض مدنية بالإضافة للمرفأ التجاري. ولأجل كسب مساحة أكبر هُدِم باب البحر القديم واستخدمت كتل حجارته الضخمة قاعدة لحيٍّ جديد.

استولت على المدينة متعة حقيقية، ولوحظ تشكّل ثروات مدهشة بفضل عمليتين أو ثلاث عمليات تجارية تمّ إعدادها بنجاح. لم يَعُد يتذكّر أحد أو يريد أن يتذكّر أن تلك المدينة أرادت منذ قليل من الوقت أن تُخضع عسكرياً جميع الشعوب التي تحيا على طول البحر الكبير من أوتيكا حتى قادش مروراً بمسّاليا وريجيوم. وما لم تتمكن الحرب من السماح بالحصول عليه تمّ التوصُل إليه بالسلم، واجتذبت إليها ثروات الغرب والشرق.

في ملكية رأس بون تأمّل هنيبعل بألم ذلك التطوّر وأسرَّ لمهرا

(*) يعادل المدّ سعة 8.75 ليترات.

بعل أحد أمنائه المتبقين بقوله: اتُهِمتُ سابقاً ـ وكنتَ أول من فعل ذلك ـ بأنني تركت جيشي يتمرّغ ويستمتع وينهار في كابوا. صحيح أنني لم أملك آنذاك الجرأة على أن أبعث في رجالي مزيداً من الطاقة، وأطلب منهم جهوداً أكبر من تلك التي بذلوها سابقاً. وكان في هذا ضياعنا وسبب هزيمتنا. وأخشى اليوم أن يُعدَّ الرومان مفاجأة سيئة لنا. مدينتنا تشبه ثمرة ينتظرون نضجها. وعند الأوان سيقطفونها ويبتلعونها. ما من أحد يستطيع معارضتهم في ذلك لأن مواطنينا فقدوا ممارسة فنّ الحرب. لا أرى مخرجاً آخر سوى إثارة صدمة ناجعة في صفوفنا تقوّض هذا البناء الجميل، حصان طروادة هذا شيده ألدّ أعدائنا.

ـ إنني أشاركك الرأي، ومن أجل هذا يجب التخلّي عن إعتزالك الذي تجمّدت فيه منذ سنوات. أمامك حلّ وحيد: هو السعي لمنصب القاضي الرئيسي «شوفيت». ستحلّ الانتخابات قريباً، وإذا ترشّحت لها فإن آلاف الرجال سيقترعون لمصلحتك. من غير المهم أن تتحمّل إلى جانبك وجود مرشح آخر. لاتهتم به كثيراً فستعرف بالدهاء والتملّق كيف ترغمه على السكوت وعدم الحركة.

ـ لم تكن ودوداً لي يا مهرا بعل على الدوام. فماأزال أذكر مجادلتك لي مساء انتصار كانّاي عندما قلت: «إنّك تعرف كيف تنتصر يا هنيبعل، لكنك لا تعرف كيف تستفيد من انتصارك!». غير أنّك شريك أمين ومخلص ولي ثقة بك. أعلن إذن في قرطاجة أنني أسعى لمنصب القاضي الرئيسي: «الشوفيت».

كان للنبأ تأثيره المرتقب. انتخب هنيبعل للمركز الذي كان يشغله سابقاً والد أدونيبعل وهو والد جدّه. سارت في مجلس الشيوخ ومجلس المئة والأربعة حركة محمومة. بالنسبة لبعضهم فإن ابن هميلقار غوغائي يهتم بإجراء اتحاد مع الشعب ونفايات المجتمع ليتخلّص من الأرستقراطيين، وهو بالنسبة للآخرين الذين

يتذكّرون تأنيبات حنون الكبير له، شخص لا يحلم إلا بإعلانه ملكاً على الجماهير المحتشدة في المقام. زرع إصلاحه الأول الخلافات. أُتُهِم آزر بعل وهو وجيه ليست الفضيلة ميزته الوحيدة، من قِبل أبناء تاجر موسر، وقد اختلفوا حول إرث والدهم، بابتلاع قسم من المبلغ المؤتمن عليه. استدعي مراراً ليمثل أمام مجلس الشوفيت فرفض مدعيّاً أن رتبة القضاة المسمين لمدى الحياة قد منحته حصانة كاملة. لكنه أساء لنفسه. ومع فجر أحد الأيام حضرت ثلّة من الفرسان النوميديين إلى منزله الخاص في بيرسا لتقوده إلى مجلس الشعب، حيث بَيّن هنيبعل بالتفصيل قلة أمانته وتصرفاته الفظة. ثم اقترح إصلاحاً لقي الحماس: منذ الآن فصاعداً سيعيّن القضاة لسنة واحدة لا تُمدَّد إلا لمرة واحدة.

أحدث هذا القرار عند صدوره غضب مجلس المئة والأربعة فهم أيضاً يُسمُّون لمدى الحياة، وهم ليسوا طاهري الذيل على الدوام. من يمكنه أن يمنع الشوفيت من فرض معاملة مماثلة عليهم؟ إضافة إلى أن ابن هميلقار يفكر في تدقيق دفاتر حسابات الأموال العامة. في رأيه من غير المقبول أن يبقى المواطنون الأكثر فقراً معرّضين للضرائب المضاعفة بذريعة التسديد للرومانيين فريضة الحرب، بينما بعض القرطاجيين المُنعم عليهم يتهربون من مصلحة الضرائب لقاء بهلوانية قضائية تثير الفضول. ما هو أخطر من ذلك، فإن المراقبات التي أجريت على محاسبي المالية ـ الذين أخضعوا لحراسة شديدة ومنعوا من الاتصال بمجلس الشيوخ ـ بينت أن التجار منحوا إعفاءات ضريبية وجمركية تمثّل وحدها المبالغ السنوية المترتبة لروما. كانت هذه الفضيحة كامنة منذ أربع سنوات على الأقلّ، وهرع الرسل المتجمعون من مناطق المدينة الأربع يعلنون إنشاء مؤسسات تحقيق تتمتع بكامل السلطات ومن مسؤولياتها مصادرة المبالغ المستحقة. كثر البكاء والصراخ في منازل الأرستقراطيين الذين وجهوا أصابع الاتهام إلى زوجاتهم

المسؤولات بسبب تهورهن وجشعهن وبخلهن وميلهن للرفاهية، وعابت النساء على رجالهن خوفهم من هنيبعل وتصرفهم أمامه تصرّف الحمل أمام سكين الجزّار.

أخيراً، اجتمع الأعضاء الأكثر صلابة في الزمرة المضادة للبرقاويين وقرروا في مجلس مُصغّر اللجوء إلى الرومانيين. ومن أجل إذكاء حمية هؤلاء أعلنوا عن مشاريع الشوفيت في تحقيق تحالف دبلوماسي وعسكري مع فيليب الخامس المقدوني وأنطيوخس الثالث. لم يكن الأمر مستبعداً مطلقاً، فغداة انتصار كانّاي وبينما كان يفتش عن حلفاء قادرين على ضمّ المدن الإغريقية في لوكانيا وبروتيوم أبرم معاهدة مع فيليب المقدوني. وجد هذا الأخير نصيراً جديداً في شخص زعيم السلالة السلوقية المؤسَسة من قبل أحد جنرالات الاسكندر الكبير. طمع الاثنان بخيرات مصر وكان فرعونها طفلاً في الخامسة من عمره، وتمتدُّ ملكياتها من ليبيا إلى كيليكيا وقبرص وضفاف جسر أوكسين. كان المتواطئان قد عرّضا جيشيهما للهزائم، وخاضا المعارك بنتائج مزعومة. إذا كان أنطيوخس قد وضع اليد على سورية وفلسطين وصور، المدينة العزيزة على قلوب القرطاجيين، فإن فيليب بدوره قد طاف بتراقيا وخلقيدونيا الشيرسونيزية قبل أن يستولي على ساموس الشهيرة بخمورها، وعلى شيوس، مهدّداً أراضي الروديانين وآتالا ملك برغام، صديق مدينة الهضاب السبع(*) منذ تاريخ طويل.

أُوفد رُسُل على جناح السرعة من رودس وبرغام إلى روما لطلب المساعدة ولنقض اتفاقات أنطيوخس وفيليب ضد إغريق المضايق وبحر إيجه. والحال وبتوافق فريد وصل الوفد إلى ضفاف التيبر عندما أعلن مجلس الشعب الروماني بتأثير

(*) مدينة الهضاب السبع: روما.

سولبيسيوس غَالْبا رسمياً الحرب على فيليب. هي حرب لا جدوى منها، إذ أنها رغم المعاهدة المعقودة مع هنيبعل لم يسبق للعاهل المقدوني أن هدّد روما وملكياتها، لكن - (وهذه هي الخلاصة التي استمدها الشوفيت) - كانت مدينة رومولوس في صلحها مع الغرب، تحلم بمهاجمة الشرق، وبقاعه الواسعة الغنية بالثروات وأراضي الحبوب الجيّدة. وبالطبع مُوِّهت هذه الرغبة الظامئة للسلب والنهب بالدوافع الأكثر نبلاً. زعم القنصل تيتوس كينكتيوس فلامينيوس أنه يعمل لمصلحة حرية الإغريق المهددة بأطماع المقدونيين والسلوقيين الغاشمين.

حالفه الحظ، فالكتائب المقدونية القوية المنيعة منذ عهد الاسكندر، قد سُحقت في الهضاب المسماة كلبيّات الرؤوس، لأن شكلها يدفع إلى التفكير برؤوس الكلاب. حُرِم فيليب من قوّاته فاضطر إلى توقيع معاهدة تامبه، التي تعهد فيها بالتخلي عن جميع الحاميات التي يقيمها في المدن الإغريقية، بما فيها تلك العائدة إلى ملكيته الخاصة. وقد قرّر فلامينيوس للاحتفال بالحدث التوجّه إلى كورنثوس لافتتاح الألعاب البرزخية، وهي الألعاب الأكثر شهرة بعد تلك الأولمبية. هناك أثار مخيّلات مندوبي المدن الهيلينية بإعلان بيان لا يخلو من المقاصد الخفيّة بيّن فيه: «أن مجلس شيوخ روما وتيتوس كينكتيوس القائد الأعلى للجيوش، بعد انتصارهم على الملك فيليب يمنحون الحرية الكاملة وفق القوانين المرعيّة للقبائل والحاميات الكورنثية والروديسية واللوكرينية واللوبية وآخية فليوتيد والماغنيتية والتسالية والبرهيبية». والواقع أن بعض هذه المدن المحرّرة كانت تحتفظ ببعض القوات الرومانية وكان هذا هو وضع ديمترياس في تساليا وخلقيس الأوبية؛ وليس من الوارد إبقاءهما دون حامية. بينما ذهب أنطيوخس إلى فتح المدن الإغريقية في آسيا وبعد أن اجتاز الهيليسبون(*) دمّر

(*) هيليسبون: مضيق يصل بحر إيجة مع بحر مرمرة.

شيرسونيز(*) تراقيا. قديماً، طلب إغريق اليونان النجدة من روما، والآن جاء دور إغريق آسيا للقيام بالعمل ذاته.

كانت هذه فرصة سانحة بالنسبة لهنيبعل لاستئناف الصراع ضد مدينة رومولوس، ووضع ميزاته الاستراتيجية في خدمة أنطيوخس. أثار أعداؤه الشبهات، حتى قبل أن يتخذ قراره، وأكّدوا لمراسليهم الرومانيين بأنه استقبل في ملكية رأس بون العائدة له مبعوثين عديدين من مدينة صور مرسلين من قبل أنطيوخس. في مجلس شيوخ روما أعار خصوم البرقاويين إذناً صاغية لهذه الأقاويل. قدّر سيبيون وحده مثل عادته «إن عظمة الشعب الروماني تمنعه من التحالف مع أحقاد موجهي التهم لهنيبعل، وتعريض السلطة الرومانية العامة للعبة الحزبية القرطاجيّة». لم يصغ أحد إلى هذا التحذير العاقل، وأرسلت سفارة إلى مدينة إليسا للمطالبة باحالة الشوفيت الى المحاكمة، شمل الوفد المرسل كنايوس سرڤيليوس كابيو، وماركوس كلوديوس مارسيلوس، وكلاهما معارض لسيبيون، وكينكتيوس تيرنتيوس كوليو وهم مكلّفون رسمياً بالتحكيم بالنزاع حول الحدود بين قرطاجة وماسينيسا.

بمروره في ميغارا لم يثق ابن هميلقار بهذه الحكاية. أحسّ منذ وصول السفارة، أن مجلس المئة والأربعة سيقرّر توقيفه. حان الوقت ليغادر، وربما بشكل دائم، وطنه الذي لم يلق فيه طوال حياته إلا عدم الثقة والجحود. خلال إقامته في حدريم تسنّى له الوقت ليهيئ بدقة كاملة تفاصيل هربه مع أمنائه. كان الأكثر أهمية كما يعلم هو ألا يُظهر أيّاً من عواطفه. وهكذا قضى اليوم يتحرى التحصينات وحالة شوارع المدينة، وحرص على توجيه الأوامر المتعلّقة ببعض الأعمال مؤكّداً أنه سيأتي لاحقاً للتحقق من التنفيذ. انتهى جواسيس مجلس الشيوخ الذين لم يفارقوه لحظة إلى الملل من

(*) شيرسونيز: اسم أطلقة اليونانيون على عدة أشباه جزر، أكثرها شهرة شيرسونيز تراقيا.

هذه الرتابة، وفضلوا الذهاب لإطفاء عطشهم في إحدى الخمارات. فمايزال في الوقت متسع للعودة عند المساء إلى مقره في ميغارا الذي حرص هنيبعل على العودة إليه بكل حكمة.

عندما لاحظ الشوفيت إختفاءهم، هرع إلى حيّ المرفأ حيث ينتظره خادمان في منزل أحد الأصدقاء، وهناك غيّر ملابسه وخرج من الباب الشمالي للمدينة حيث اختلط بالفلاحين العائدين إلى قراهم بعد بيع منتجاتهم في أسواق المدينة المختلّفة. لم يلتفت الى الوراء ليتأمّل لآخر مرة هضبة بيرسا وسورها المحصن. سيراها مجدداً دون شك إن نجحت خططه في أحد الأيام. الشيء الهام في الوقت الحاضر: هو ملاقاة العبد القادم من ميغارا مع ثلاثة أحصنة، وهي أفضل خيول السباق في إسطبله. كان الرجل هناك إلى جانب الطريق يرقب بنظراته أولئك الذين ارتبط بموعد معهم. اهتزّت قسمات وجهه فرحاً عندما شاهدهم. وبصمت امتطى الرجال الثلاثة الهاربون راحلاتهم وانطلقوا تحت جنح الظلام.

أطلقوا لخيولهم العنان في الظلام ليتوقفوا عند الستاد المئة، ويستبدلوا بخيولهم خيولاً معدّة سابقاً. مع الصباح الباكر كانوا قد قطعوا نحو ستمئة ستاداً، ووصلوا إلى خليج معزول حيث ترسو خماسية مجاذيف. جمع العبيد العاملون في ملكياته في رأس بون منذ أكثر من شهر صناديق من الذهب والفضة وتماثيل وأثاث وأسلحة، ومختلف الوثائق المرسلة سرّاً بوساطة ناعورة تجري مع هبوط الليل. حافظ الرجال على استعداداتهم بصمت مطلق. إنّهم سيستخدمون في الرحلة كمجذفين، وقد وعدهم سيّدهم عند وصولهم إلى الشرق بتلقي رسائل تحرّرهم ومدّخر هام من المال يعينهم على قضاء حاجاتهم طوال أيام حياتهم.

صعد هنيبعل إلى السفينة وأعطى الأمر بالإقلاع نحو سرسينا(*)، فهو على موعد هناك مع يعقوب، آخر أحفاد إبراهام

(*) جزيرة هامة في أرخبيل كركنّا على ساحل صفاقس.

الكوهين الرجل الذي أوى بناءً على طلب هميلقار، ماركوس أتيليوس روغولوس. بقي آل برقا في علاقات وثيقة مع عبرانيي جزيرة اللوتوفاجيين، ولم يتأخر هؤلاء مطلقاً في مساعدة حاميهم القوي. كان هنيبعل قبل عدة أسابيع قد دعا يعقوب إلى ميغارا واستجوبه مطوّلاً. شرح له الشاب بأنه تعب من الحياة الرتيبة لدى أهله، وهو لا يحلم إلا بزيارة أورشليم مدينة أسلافه المنتقلة حديثاً إلى أيدي السلوقيين. كشف الشوفيت له أنه يفكّر بالإقلاع إلى الشرق وأنه سيأخذه برفقته حتى صور حيث سيفترقان، لكنه يحتاج إلى مساعدته ومساعدة جماعته كلهم.

سأل ابن هميلقار يعقوب عندئذ إن كانت السفن الفينيقية أو القرطاجية التي تعبر تجاه شاطئ سرسينا أو تتوقّف في مرساها كثيرة العدد. أجاب العبراني الشاب بنعم، وأضاف بأن قباطنة تلك المراكب على اتصال مستمر بسلطات حدريم، وهم يطلعونها على جميع الحركات البحرية. وضع الرجلان عندئذ استراتيجية. ما من شك بالتعرف على هنيبعل عندما يرسو في تلك الجزر. سيؤكّد إذن لمن يلحّون بأسئلتهم قيامه بمهمة رسمية إلى صور، وهو يحمل إلى معبد ملقارت المحلي الضريبة السنويّة التي تسدّدها مدينة إليسا إلى الوطن الأم. وبعد ذلك سيعلن أنّه يرجو قبل إقلاعه ووفقاً للتقاليد، أن يقدم أضحية استرضائية يدعو فيها جميع الحاضرين إلى مأدبة، وقد كلّف يعقوب بتحضير جميع الأمور الضرورية. وبما أن الاحتفالات ستتمُّ في وضح النهار وتحت شمس ساطعة، فسيعمل على الطلب من طاقم بحارة السفن الأخرى إعارة أشرعتهم وصواريهم لإقامة خيمة يلجأ إليها المدعوون. بهذه الطريقة لا يمكنهم مغادرة مياه سرسينا. وسيحضر رسول قبل أسبوع لإعلامه بقرب حدوث هذا الأمر.

عشيّة أحد أيام السبت تلقى يعقوب زيارة خادم من ميغارا ينبئه بأن صديقاً ينتظره بعد أربعة أيام في المكان المحدّد. وهكذا غادر

مع بعض أشخاص في مثل سنه يشاطرونه حلمه جزيرة اللوتوفاجيين، وتزود في الطريق بعجول وجرار من النبيذ مؤونة للاحتفالات. وفي سرسينا وزّع على البحّارة الذين صادفهم، لضمان ولائهم، مكافآت مختلفة بحيث لم يقلق أحد من رواحه ومجيئه على أرصفة الميناء. ليلتحق عند المساء بمخيمه الواقع على ضفة المدينة، ويتلو مع رفقائه الصلوات التقليدية.

عندما أُعلن له في نهاية اليوم، أن سفينة تُشاهد في عرض البحر، عرف ما يجب فعله. فقد بدأ رجاله يوقدون النيران لشي العجول وليوزّعوا ألواحاً خشبية على منصّات مثل الموائد. ثم اختلط بالجمهور على الرصيف وسرعان ما رأى الشوفيت ينزل إلى الأرض، وقد تعرّف عليه بسرعة. كان هنيبعل محاطاً بالقباطنة الفينيقيين والقرطاجيين ومن يلاحقه بالأسئلة، وكما هو متوقّع أعلن مع شيء من أبّهة المناسبة التي عُهد له بها من قِبل مجلس الشيوخ، واقترح أن يحتفل بهذا الحَدَث وفق المظهر اللائق. بعد كل حساب، ولأوّل مرة في حياته، يرى الشوفيت ينتقل إلى الموطن الأساسي لأسلافه، وستعد إهانة لملقارت عدم تقديم أضحية تتبعها مأدبة يدعى إليها جميع مستمعيه. يجب عدم إضاعة أيّة لحظة، وقد طلب ابن هميلقار من القباطنة إعارته أشرعتهم لنصب خيمة كبيرة تخصص لوقاية الحاضرين من حرّ الشمس. لم ينتظر البحّارة أوامر ضباطهم فأحضروا قطعاً كبيرة من الأقمشة المتعدّدة الألوان ونقلوها إلى مخيّم العبرانيين. ضمن الحركة العامة لم يكلّف أحد نفسه إبداء دهشته للتقدّم السريع في تحضير الاحتفال المتباين مع طابعه غير المتوقّع. مع انتصاف النهار بدأ المدعوون بالوصول، وبعد أن ساهموا في التضحية بأحد الحملان جلسوا إلى الموائد وأكلوا كثيراً وشربوا كثيراً. تجوّل هنيبعل بينهم وهو يبتسم بانشراح لا يضن بكلمة محببة لأحد القباطنة مقترحاً الشراب نخب قرطاجة وصور، وعندما كان مدعووه يفرغون كؤوسهم دفعة واحدة يكتفي المضيف

باحتساء بضع قطرات. في نهاية النهار سكر الضباط والبحّارة أو أنهم توزّعوا على الشاطئ بصحبة بعض العاهرات اللواتي اختارهن يعقوب.

مع هبوط الليل والتأكّد من عدم قدرة متعقبيه المكلفين على القيام بأية حركة، توارى الشوفيت سرّاً مع يعقوب ورجاله ورفع المراسي وأقلع تحت جنح الظلام. عندما استيقظ المدعوون متأخرين في اليوم التالي أدركوا أنّهم قد خدعوا. خجلوا وقرروا ملازمة الصمت التام حيال ما جرى لأن مجلس المئة والأربعة يمكن أن يعاقبهم بشدّة عند معرفة الحقيقة. انتظروا نحو أسبوعٍ ليبعثوا رسولاً إلى حدريم، حيث استفسرت السلطات منه مطوّلاً لمعرفة وصول هنيبعل على متن سفينة رست في سرسينا. أجاب بأنه لاحظ على البعد وفي عرض البحر خماسية مجاذيف تحمل شارات قرطاجة مما لا يدعو إلى القلق، فربّما كانت سفينة مراقبة مكلّفة بمتابعة القراصنة العديدين في الجوار. صرفه مسؤولو حدريم وقد أرهقوا من حمقه، بينما كان هنيبعل يبحر في البحر الكبير وقد بدت صور له على البعد.

ظهرت المدينة صغيرة نسبة لقرطاجة رغم أن مرفأها يعرف فعالية ناشطة. وقع ابن هميلقار فريسة انفعال شديد وتوجّه إلى معبد ملقارت ليشكر الآلهة لأنها حَمَتْه مرة أخرى. طلب من يعقوب أن يرافقه لكن هذا الأخير اعتذر عن الطلب مدّعياً أن قانون شعبه يمنعه بكل تأكيد من المساهمة في شعائر غريبة. تلاقى الرجلان في ساعة متأخّرة لإجراء مراسيم الوداع. قال هنيبعل:

ـ يعقوب إن طرقاتنا تتباعد هنا، ولا أعلم إن كنا سنتلاقى من جديد في أحد الأيام. أتمنى لك التوفيق في الطريق حتى أورشليم، وأسلمك جواز المرور الذي وافقت سلطات صور على منحه لك ولرفاقك، بناء على طلبي. ماذا ستفعل؟

ـ أن أحمل إلى معبدنا تقدمات مجموعتي وأن أصلي وسط

أهلي. ثم سأسافر مرة أخرى، عندما تسنح الفرصة لأعود الى جزيرة اللوتوفاجيين، من أجل تخليد تقاليدنا تحت سموات أخرى، وأنت، ما هي خططك وأرجو ألا أكون فضولياً في طلبي؟

ـ التوجّه إلى بلاط أنطيوخس وتقديم خدماتي ضد الرومانيين. أريد مواصلة الصراع لأعيد إلى قرطاجة المكانة التي يجب أن تكون لها رغم إرادة قادتها.

ـ وهل ستستقبل استقبالاً حسناً؟

ـ آمل ذلك. من المؤكّد أن أنطيوخس محاط بمستشارين دسّاسين، وسيتردّد طويلاً قبل أن يعلمني عن قراره. غير أن جوابه سيكون في النهاية إيجابياً. أنا أعلم أن روما تريد أن تتخلص منه مثلما فعلت بالجميع للحد من قوة مدينتي. سأغدو عاجلاً أو آجلاً ضرورياً له.

ـ أرجو أن تتحقق مشاريعك! اعلم أنني لن أنساك وأن مستقبل شعبينا سيبقى موطّداً إلى الأبد.

تعانق الرجلان مدة طويلة دون أن يتفوّها بكلمة، ثم افترقا كل من جهته نحو المصير المقدَّر له.

* * *

في صور تلقى الشوفيت السابق زيارة موفدي أنطيوخس الذين حضروا للترحيب به باسم سيدهم، والإشارة إلى أن هذا الأخير اضطر للتوقّف في تراقيا وأنّه سيحضر في الخريف القادم إلى أفسس. سيحاول كظم غيظه أشهراً طويلة. لم يتأكد من المستقبل الذي يدخره له، ولم يرد أن يشتري بيتاً بل نزل في ضيافة التاجر أريسطون الذي تؤم سفنه غالباً قرطاجة. ومنه علم، دون مفاجأة، أن مجلس المئة والأربعة قرّر مصادرة جميع أملاكه وأمر بتوقيف أهم أتباعه ومنهم مهرا بعل أخلص أمنائه. غدا أعداؤه من الآن فصاعداً سادة المدينة المطلقين وقد ضاعفوا مشاعر صداقتهم

لروما. كان هذا بالنسبة لهم عصراً جديداً ووسيلة ليبينوا لروما أن هرب هنيبعل سيفتح صفحة جديدة في العلاقات بين المدينتين، لأن الموضوع الرئيسي من خلافهما لا يشكّل أي تهديد. بكى ابن هميلقار خجلاً عندما علم أن مجلس شيوخ قرطاجة أرسل سفارتين لحضور انتصارات كاتون، الجَبَلين الإيبيريين الثائرين، وتيتوس كينكتيوس فلامينيوس «محرّر بلاد الإغريق». غدا، من الآن فصاعداً، يتعرّض للكابوس نفسه، يرى نفسه معلّقاً في عربة أحد القناصل. يسير حتى معبد جوبيتر كابيتولين وهو يمسح بصاق وإهانات الجماهير قبل أن يُذبح في سجن قاتم. يستيقظ وهو يتصبب عرقاً ويقضي وقتاً طويلاً جداً قبل أن يعرف طعم النوم. باستشارة أحد الأطباء نصحه باحتساء كأس خمر كل مساء قبل إغفائه، ومنحه بصورة خاصة سمّاً قاتلاً يقضي عليه خلال ثوان إن قُبض عليه. غدا هذا الأمر هاجسه الشاغل، يتحقق أينما حلّ أن في متناول يده إحدى الجرعات المحتواة في فصّ خاتم له.

في الخريف، وهي وفقاً لتوقعاته، أعدّ أنطيوخس مقابلة له في عاصمته أفسس. وهي مدينة رائعة تزيّنها المعابد الفخمة. قصر الملك واسع متدفق بالثروات، وجماهير من رجال البلاط تزدحم في مداخله وممراته تراقب كلّ وافد جديد وتحكم من مظهره وجوب الموافقة على منحه إذن الدخول أو رفضه. دخل قاهر كانّاي تحت حراسة ثلّة من الجنود، عهد إليهم بسيفه، إلى حديقة واسعة مظلّلة اعتاد العاهل السلوقي قضاء نهاره فيها يحيط به مستشاروه والمقربون إليه. نهض العاهل عندما أُعلن عن وصول ابن هميلقار وتقدم لملاقاته في بادرة نادرة سجّلها له الحضور، وقال بصوت مرح:

ـ ها أنا أمام الرجل الذي اجتاز جبال الألب وقهر الرومان في معارك عديدة قارنه الشعراء فيها بالاسكندر. إنني سعيد لرؤياك وأنا أعرض عليك ضيافتي.

ـ كلماتك النبيلة تؤثر فيّ بشكل عميق. مع إنني الآن لست إلا رجلاً مُبعداً طرده الدسّاسون من وطنه. إن المجد الذي تتعرّض له غدا الآن من الماضي.

ـ إنني أدرك مرارتك. لا شيء قد تمّ نهائياً وستتمكّن بمشيئة الآلهة من استعادة المكانة العائدة إليك شرعاً.

ـ أشكُّ في ذلك أحياناً. ما فتئت عائلتي تضحّي من أجل قرطاجة. جدي أدونيبعل لم يجنِ أيّة فائدة، والدي، صهري وأخواي قضوا نحبهم في خدمتها، وأنا الممثل الأخير لهذه السلالة منفيٌ كما تراني.

ـ أنا أعرف كيف أقرأ ما في قلوب الرجال. إنّك لا تؤمن فعلاً بما تقوله. لأن اسمك وحده كافٍ ليرتعد خوفاً منه أعتى الرجال، وكفاءاتك وحدها تُعَدُّ ضماناً لمن يستخدمها. إنك، بشهادة الجميع، أفضل قائد في زمننا وأنت أفضل من يعرف كيف يقود جيشاً في المعركة، ويهيّء مخططات تضمن له النصر حتى وإن كانت قواته أقلّ عدداً بكثير من قوات الخصم.

ـ هذه المواهب التي تريد جيّداً التعرّف عليها هي تحت تصرّفك. إنني مستعد للعمل تحت إمرتك ومحاربة أعدائك، بدءاً من روما أشرسهم.

ـ لا ينقصك بعد النظر. لن أتأخر في إعلامك عن نواياي. سيوضع قصر تحت تصرفك في أفسس، وسأدعوك في كل مرّة أحتاج فيها إلى نصائحك. خذ أيضاً قليلاً من الراحة لأن مهامّاً كبيرة تنتظرك.

ـ أشكرك على شهامتك، وأنا لن أتأخر في تعبيري عن العرفان بالجميل.

ما إن انتهت المقابلة حتى اجتمع أنطيوخس مع أحد مستشاريه الرئيسيين. قصّ على تواس الإتولي المقابلة الجارية وطلب نصيحته. حكم الرجل الداهية والسياسي الماهر بسرعة على الوضع، وأسرّ إلى السلوقي:

ـ يا صاحب الجلالة: يمكنك أن تُعدّ نفسك سعيداً لأنك اجتذبت إليك رجلاً من هذا المستوى الكبير. ستفكر روما، من الآن فصاعداً مرتين قبل أن تعلن عليك الحرب، لأنها لن تنسى الضربات الرهيبة التي وجهها إليها سابقاً. إنك تملك الآن الحجر الرئيسي في اللعب، فاحرص على الاحتفاظ به.

ـ ألاحظ في عرضك تعمد كتمان بعض الحقائق. أوضحت لي مزايا وجوده في بلاطي إنما يجب أن تقدّر المحاذير.

ـ إنّها موجودة. أحدها يجب استبعاده فوراً. فطالما هو في ضيافتك لن يعمد البوني إلى خيانتك أو الدسّ ضدك. هو جندي مخلص ونزيه لم يرد يوماً الإساءة إلى حلفائه. غير أنه شخصية بعيدة المدى تبسط نفوذها، من الصعب منحه مركز قيادة بالاستناد الى كفاءاته دون أن تكّدره أو تكدّر الآخرين. أن تجعل منه مستشاراً بسيطاً يغيظ كبرياءه؛ وتسميته على رأس جيوشك يغيظ قادتك. سيغضبون عندما يرون هذه الحظوة تمنح لغريب. فهم يبالغون في تثمين قدراتهم، حتى أن بعضاً منهم، اعلم ذلك، يعتقد أنه يفوق هنيبعل، لأنهم لم يعرفوا بعد مرارة الهزيمة.

ـ ما عليّ إلا أن أحدثهم وسيذعنون لرغبتي، وإلا سأسحقهم باللعب على المنافسات المفرّقة بينهم. هم حيوانات مفترسة مستعدة أن يفترس بعضها البعض الآخر ولا يملك أحدهم عبقرية ابن هميلقار. يمكن لهذا الأخير أن يمارس جيّداً مهمة القائد الأعلى للجيوش، وماضيه يشهد له.

ـ خاصة وأن هنيبعل كان دائماً سيد نفسه ولم يتوافر له أبداً من يُحاسبه. عاش القسم الأعظم من حياته بعيداً عن قرطاجة، ومجلس شيوخ تلك المدينة يعلم من الشائعات العامة القرارات التي يتخذها والأعمال الباهرة التي ينجزها. لم يعمد يوماً إلى استشارة مجلس المئة والأربعة ويرى في ذلك مضيعة للوقت. هو يعتمد بشكل خاص على استقلاله وليس من عادته أن يتلقى الأوامر. سيتصرّف معك وفقاً لتصرفه مع مسؤولي مدينته. من أجل مصلحتك بالتأكيد،

لكنك لن تستطيع الامتناع عن إثارة غيظه. لاتستعجل الأمر. أحكمت السيطرة على تراقيا وستزوّج ابنتك كليوباترا لفرعون مصر بطليموس إبيفان الرابع. إنك من الآن فصاعداً سيّد الشرق.

ـ إني لكذلك تقريباً لأن مدن آسيا الإغريقية، وخاصة لامبساك وسميرن المتعظتين بنصائح هذا اللعين أومين دي برغام ترفض دائماً منحي موالاتها. حاولت عبثاً أن أقنع أومين بتزويجه ابنة أخرى من بناتي لكنه كره هذا العرض. إنه يعتمد على حماية روما له وقد وعدته بالدعم عسكرياً ومالياً.

ـ كل شيء يسير إلى الأحسن، قال تواس، مدينة رومولوس ستعرف جيداً كيف توازن بينك وبين أومين. يكفي أن ترسل سفارة إلى ضفاف التيبر لتقترح على مجلس الشيوخ تقسيم العالم بينك وبينه. فليحتفظوا بالغرب وليتركوا لك الشرق. تأكد إنّك إذا تركت لهم بلاد الإغريق فإنهم لن يبالوا ببرغام.

ـ إنك على حقّ، سيتم العمل وفق ذلك، فليذهب وزيران مفوّضان إلى روما لسبر نواياها!

سافرت البعثة في بداية الشتاء ووصلت إلى مكانها المقصود في الربيع. عهد مجلس الشيوخ إلى تيتوس كينكتيوس فلامينيوس عناية توجيه المحادثات مع المبعوثين اللذين كشفا شيئاً فشيئاً عن مقترحاتهما، وأيقظا انتباه محدّثهما. كان هذا يحلم بإزاحة آل سيبيون وأنصارهم ليغدو سيّد الأوربس. وهكذا فإن المنتصر على فيليب المقدوني بعد أن ذكّر لمدة طويلة بأنه كان مرمّم الحريات الإغريقية، انتهى إلى إسماع صوت التوصل إلى اتفاق ممكن. كانت روما مستعدة لعدم اهتمامها بإغريق آسيا بشرط: على أنطيوخس أن يتخلى عن جميع ملكياته الواقعة من الناحية الأخرى لجسر هيليسبون أي عن تراقيا التي ورثها عن جدّه سلوقس الأوّل. سُرَّ السفراء لنصبهم شَرَكاً لمضيفهم فلم يعارضوا ذلك الالتماس برفض جازم، واكتفوا بالإعلام بأنهم لا يملكون السلطات الضرورية

للإجابة على مثل هذا الطلب، غير أنه لا يبدو لهم متعذراً لكنه يتعلّق بأنطيوخس، ولأنطيوخس وحده الحق في التنازل عن ميراث شخصي مقابل تعويض أساسيٍّ مالي. لأجل ذلك يكفي أن يرسل مجلس الشيوخ الروماني بدوره إلى أفسس سفارة ذات مستوى عال لتناقش الموضوع وتضع نقاطاً تفصيلية للاتفاق. تمّ الاتفاق على أن يستقبل العاهل السلوقي وفداً في بلاطه خلال الربيع القادم.

جرت في مجلس الشيوخ مناقشات حادّة حول هذا الموضوع، وقام تيتوس كينكتيوس فلامينيوس بتحقيق انتصار سهل على آل سيبيون. تلقى ثلاثة قناصل قدامى هم بوبليوس سولبيسيوس غالبا، وبوبليوس ڤيليوس تابولوس وسكستوس آيليوس باتوس، الأمر بالتوجّه إلى أفسس على أن يتوقّفوا مسبقاً في برغام ليتناقشوا مع أومين. كان هذا واعياً بأن مستقبل سلالته يتعلق بفشل المفاوضات، فأظهر الحزم تجاه مفاوضيه معلناً حتى عن وجود هنيبعل قرب أنطيوخس. وفي رأيه أن هذا الأخير يتطلّع إلى هدف واحد هو كسب الوقت. عندما يحصل على توقيع معاهدة مع روما ويخضع لسلطانه مدن آسيا الإغريقية، فإنه سيهدأ لمدة سنتين علىالأقل، ثم ينقض تعهداته باستعادة تراقيا وتهديد بلاد الإغريق ليحصل بذلك على تنازلات جديدة.

غادرت السفارة برغام إلى أفسس برئاسة بوبليوس سولبيسيوس غالبا الذي انتابه مرض شديد ألزمه البقاء في مكانه، في وضع غير مريح لوزير مفوّض يخشى فيه بين ليلة وضحاها أن يغدو رهينة. عندما وصل زميلاه إلى أفسس كان بانتظارهما نبأ سيّء، فأنطيوخس غير موجود إذ أنّه اضطر للذهاب ليقمع ثورة في بيسيديا. أخفيا انزعاجهما وانطلقا إلى عاصمة تلك المقاطعة آباميا حيث استطاعا بدء المفاوضات مع العاهل، والتي انقطعت لسوء الحظ بالحداد الذي أصاب العائلة السلوقية بوفاة الأمير الشاب أنطيوخس، ولي العهد، ضحية حمى أصيب بها في

سورية. تصرّف ڤيليوس تابولوس وسكستوس آيليوس باتوس مثل دبلوماسيين حقيقيين. قدما تعازيهما وتعازي الشعب الروماني إلى الملك، واقترحا تأجيل المناقشات إلى الخريف المقبل مع نهاية فترة الحداد. ثم انسحبا إلى برغام.

في الموعد المحدّد، أُعلما بانتظارهما في أفسس وذهبا بصحبة بوبليوس سولبيسيوس غالبا الذي شفي من مرضه. في القصر، صادف الموفدون الثلاثة هنيبعل ولم يترددوا بتوجيه تحية صداقة وودّ له. اهتم القائد القرطاجي ألا يزعج مدعوي مضيفه وبرهن عن مشاعر اللطف معهم. رأى بوبليوس ڤيليوس تابولوس مباشرة كلّ فائدة يمكن أن يستمدها من هذا الوضع فبإجرائه تودّد متواصلٌ لابن هميلقار يُعرّضه للتورط أمام عيني العاهل السلوقي، الذي اقتنع أن المبعد يسعى للتفاوض مع روما حول إعادته إلى وطنه. سار بالخداع إلى حد دعوته قاهر كانّاي إلى العشاء. إن القائد البوني، وقد اضطر لقبول الدعوة، تصرف بادئ الأمر في تكتم كبير. وكان القائد الروماني لا يتورع عن أي تملّق. سأل الروماني المُعجَب بالقضايا العسكرية مخاطبه من هو، في نظره، أكبر قائد عسكري في جميع الأزمنة؟ وجاءه الجواب جافّاً مثل حدّ السيف:

- إنه الاسكندر، أسّس إمبراطورية وجرى آلاف الستادات إلى أن وصل إلى شواطئ الهندوس(*) مع احترامه لعادات وتقاليد الشعوب المغلوبة التي تركها تحكم نفسها وفق تقاليدها الخاصة. كان سيغدو سيّد العالم لو لم ينتزعه الموت في وقت مبكر.

- إنّك على حقّ دون شك، أجاب الروماني، ومن هو الشخص الثاني؟

- إنه بيرهوس، ملك إيبير، لأنه كان الأفضل في فنّ البناء ومحاصرة القلاع، وقد تفوّق في ممارسة الدبلوماسية. وعرف كيف

(*) نهر الغانج.

يتجنّب الحروب بعقد المعاهدات المناسبة له مع مداراة حساسية الجهة المنافسة له.

ـ لو أنّك كنت المنتصر على سيبيون في زاما. أي مرتبة تمنحها لنفسك؟

ـ الدور الأوّل.

ـ هذا ما يدفع المنتصر عليك إلى الزهو.

ـ إنني أقدّره حق قدره، بعكس بعض مواطنيه وعدد منهم، وهو وفق ما قيل لي، يشغل مكانة طيّبة في نظرك.

نقل الموفد الروماني لأنطيوخس بدقة أقوال البوني، مشيراً إلى أن هذا لم يَرَ في أية لحظة العاهل السلوقي من كبار العسكريين في التاريخ. انتاب الملك الغضب فدعا إليه ابن هميلقار:

ـ قيل لي إنّك عدو لدود لروما، لكنك تتناول العشاء مع أحد ممثليها.

ـ إنّه ضيفك وأردت تجنّب أي حادث عرضي. وخشيت أن يتكدّر من رفضي لدعوته ويضطرك للقيام بتنازلات لا جدوى منها.

ـ لم تخطئ في تلبيتك دعوته. لكن هل تشكُّ فعلاً في قدراتي العسكرية؟

ـ أبداً. وقد لاحظت في جميع الأحوال أن أبناء الذئبة أرادوا أن يزرعوا بيننا الخلاف، وكادوا أن ينجحوا. لك أنت الذي أعتبره صديقاً يمكن أن أدلي باعتراف. منذ وقت طويل، وفي فترة كان والدي مزمعاً فيها على الرحيل إلى إيبيريا، جمع أولاده في معبد بعل حمّون. هناك دفعنا إلى القَسَم التالي: «أقسم ببعل حمّون أن أكره روما والرومانيين حتى الرمق الأخير من حياتي، وأن أعمل ما بوسعي لتختفي هذه السلالة وتلك المدينة اللعينة عن سطح الأرض». بقيت على الدوام أميناً لذلك الوعد، وآمل أن أحققه قبل أن ألقى

أجلي. إن كنت ممن يوافق على وجهة نظري فستجدني الحليف الأكثر ولاءً.

- إنّك تنسى الإجابة على سؤالي: هل تشكّ بقدراتي العسكرية؟

- ألأنني لم أذكر اسمك مع أسماء الاسكندر وبيرهوس وسيبيون؟ كنت واثقاً أن صديقنا الروماني سيستخدم هذا العمل ضدي. لم أفعل ذلك لسبب واحد: حققت سابقاً الانتصارات، لكنها لا تُعَدُّ شيئاً مقابل تلك التي تنتظرك لو لم تقع في الفخ الذي نصبه لك القناصل الثلاثة. إنّهم يريدون تحقيق معاهدة سلام معك لحرمانك من أكاليل الغار التي ستستحقها انتصاراتك الجديدة. وهذا الغار سيكون أكثر اعتزازاً وفخراً، لأن انتصاراتك ليست على بعض صغار الملوك الإغريق، وإنّما على القدرة الأولى في الغرب، روما.

- إنني لا أتساهل بمثل هذا الاعتداء على أمجادي. أستطيع التصريح لك بأن هذه المفاوضات تدور في حلقة مفرغة. كما أنني غير مستعد للتخلي عن تراقيا التي حصلت عليها من جدّي، وقد أزعجتني نزاعات مندوبي المدن الإغريقية المتواصلة التي أخطأت في دعوتها إلى هذا المؤتمر. استثارني أومين وجماعته وهم ما فتئوا كل يوم يظهرون أكثر فأكثر عجرفة وتحدّياً لسلطتي. منذ نهار غد سأعيد إلى روما سفراءها، أما أنت فابدأ عملك بأسرع وقت ممكن وقدّم لي مخططاً للحملة على روما.

حبس هنيبعل نفسه في قصره منذ عودته إليه وعمل مع بعض الضباط دون انقطاع ليلاً ونهاراً لأكثر من شهر، لا يمنحون أنفسهم إلّا بعض ساعات من النوم مع الفجر. وقد أثمر عن هذا التفكير مشروع فريد، جدير بأمهر الاستراتيجيين.

بوساطة نحو مئة سفينة هُيّئت خصيصاً لنقل عشرة آلاف جندي من المشاة وألف فارس سيبحر القائد البوني إلى قرطاجة ليستولي على السلطة فيها، وليهيء جنوداً آخرين يعبر فيهم إلى صقلية وإيطاليا. خلال هذا الوقت يمكن للعاهل السلوقي أن يفاجئ الرومان

في البلاد الإغريقية من الجهة الخلفية، قبل وصوله إلى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية ليعمل على الانضمام إلى ابن هميلقار. ليسير الاثنان معاً إلى روما، ويلزما هذه الأخيرة بالتخلي عن جميع فتوحاتها جنوب نهر التيبر.

لتحضير عودته إلى وطنه، أرسل الشوفيت السابق من مكانه معبوثاً يثق فيه كل الثقة هو، أرسطون، تاجر صور الذي استضافه عند وصوله إلى آسيا. وبصفته تاجراً ومالك عدّة سفن، فهو يتمتع بغطاء مثالي لنشاطاته الأخرى. توجّه التاجر الصوري إلى قرطاجة بشكل رسمي ليشتري قمحاً وزيتاً، وبصفة غير رسميّة للقاء قادة الحزب البرقاوي الذين مايزالون أحراراً. كانوا على الأغلب رجالاً متوسطي الحال، وجنوداً متمرّسين في حملات إيبيريا وغاليا وإيطاليا، وقد أخلصوا لقائدهم واستعدوا لاستئناف المعركة عند عودته إلى أرض وطنه. وبالطبع فإن ذهاب وإياب الفينيقيين أثار انتباه شرطة المئة والأربعة، خاصة وأن السريّة لم تكن يوماً الميزة الأكثر تميزاً لدى القرطاجيين، وضجّت سريعاً في أبهاء البلدة أخبار الاستعدادات السرية الجارية التي يحمل أرسطون أخبارها.

قرّر مجلس الشيوخ أن يعمد إلى توقيفه، غير أنه عاد عن قراره في اللحظة الأخيرة، فهو بعد كل حساب مواطن سلوقي والتجارة مع دولة هذا الرجل تساهم كثيراً في ازدهار المدينة. والقبض عليه مدعاة لإثارة القصاص ضد التجار القرطاجيين المقيمين في المرافئ الفينيقية وانفصام المعاهدات التجارية بين قرطاجة ومنطقتها الإقليمية القديمة. قاد الاهتمام الواضح لمصالح المدينة أعداء هنيبعل إلى إغلاق الأعين حول مساعي أرسطون، غير أنّه استدعي للسفر بالسرعة الممكنة وأتمّ ذلك على طريقته. فقد تعرّضت المدينة بعد سفره إلى نوبة ضحك هوجاء، عندما اكتُشف أن الإعلانات الصغيرة الملصقة في محكمة الشوفيت تنبئ بأن التعليمات السرية الشهيرة التي يحملها التاجر ليست مخصّصة فقط لأعضاء

الحزب البرقاوي، بل إنّها تشمل أيضاً الشيوخ المشتبه بولائهم، مما يوحي بإشتراكهم في المؤامرة؛ وهذا ما دفع الوجهاء الرئيسيين في الاجتماعات العامة إلى تبادل نظرات الارتياب، ليتساءل كل منهم إن لم يكن مخاطبه على علاقة مع أرسطون.

لتنقية هذا المناخ وإزالة الشكوك قرّر مجلس المئة والأربعة إرسال سفارة إلى روما لعرض ما حدث، وللشكوى من تصرفات ماسينيسا السيئة، الذي طالب بمنطقة أمبوريا وعاصمتها مدينة ليبتش(*) الغنية. أمر العاهل النوميدي ممثليه على ضفاف التيبر تأديب وإسكات القرطاجنيين المتعجرفين، وأعاد إلى الأذهان النظرية التي سبق أن دافع عنها أمام هنيبعل عندما كانا يافعين. ذريّة إليسا لا تملك شرعاً إلا الأراضي المحدّدة بجلد العجل الذي قامت أخت بقماليون بتقطيعه إلى سيور ناعمة جداً. كُلّف سيبيون الأفريقي بحسم هذا الخلاف فتوجّه إلى قرطاجة وقرّر تهدئة نفوس هؤلاء وأولئك. كشفت اتصالات أرسطون عن وجود حزب برقاوي هام مؤيد للتحالف مع أنطيوخس. من الأفضل لروما إذن عدم إثارة مشاعر البونيين مما يدفعهم إلى أحضان عدوها المستقبلي. أعيد ماسينيسا إلى جادة الصواب، وأنذر بالاعتراف بحقوق جاره على أمبوريا. بالدفاع عن نفسه، قدم هنيبعل بشكل مستغرب خدمة لمدينته المتملقة لأبناء الذئبة.

في أفسس وجد ابن هميلقار نفسه في وضع ضعيف. فبتأثير الاسكندر الأركاني، المستشار السابق لفيليب المقدوني، استبعد أنطيوخس الاتحادات التي تهيّء للدخول في الحرب مع القوات السلوقية، فباستثناء مشروعه في الاستيلاء على الشواطئ الأفريقية استبعدت باقي خطته بكل بساطة. أنطيوخس لا رغبة له مطلقاً في الذهاب إلى الحرب والقتال في إيطاليا وقيادة جيشه إلى أسوار

(*) هي ليبتس مانيا الحالية.

روما. شيء واحد يثير اهتمامه: هو إخضاع المدن الإغريقية الآسيوية، والاحتفاظ بتراقيا، وبشكل عرضي فرض حمايته على بلاد الإغريق القارّية.

رغب العاهل مع ذلك في التعبيرعن تقديره لابن هميلقار فدعاه إلى استعراض قوّاته في موكب احتفالي. اجتمع آلاف الأشخاص في السهل المحيط بأفسس تحت شمس حارقة، وشوهدت المشاة والكتائب المقدونية الثقيلة وقد تسلح الجنود بالرماح الطويلة التي تصل إلى ستة أمتار. شكّل مئات من المشاة كتلة متراصّة منيعة تقريباً تماثل قنفذاً عملاقاً أو شبكة أسلاك شائكة، وعندما تبدأ هذه الكتائب بالسير فإنها تثير سحابة كبيرة من الضباب والغبار، وقد أمرها أنطيوخس بالتوقف لترك المكان لخيّالته الخفيفة. لوحظ خلفها عربات القتال ذات العجلات المجهّزة بمناجل كبيرة وهي تبثُّ الذعر في صفوف الأعداء، وكذلك عشرات من الفيلة المثقلة بالجِلال المزركشة. كان كل منها مجهزاً ببرج يقف عليه رماة السهام وحملة السيوف القصيرة. سأل العاهل القائد العسكري البوني عندما التفت إليه، وقال:

ـ هل تظن أن الرومان سيسرُّون لمجابهة مثل هذا العدو؟

ـ لا أشكّ لحظة في ذلك ولسبب وحيد.

ـ وما هو؟

ـ إنّهم جشعون وهذا الجيش يشكّل بالنسبة لهم غنيمة حرب كافية.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ إنك تمتلك قوات محاربة جيّدة التدريب، إلا أنها ثقيلة المناورة، والنصر في الحرب الدائرة في أيامنا هذه يعود إلى الوحدات الصغيرة السريعة الحركة القادرة على ضرب العدو من حيث لا يتوقّع. يلزمك على الأقل يوم واحد لترتيب رجالك وتهيئتهم للقتال بشرط ملاقاتك في أرض مكشوفة. كتائبك رهيبة لكن ماذا

سيحدث إن هوجمت فجأة واضطررت إلى إعادة انتشارها؟ في الوقت الذي ستستغرقه لذلك ستُقطّع إرباً من خصمك. تأكّد أنني لو قُدت إحدى هذه الوحدات لما تحققت انتصاراتي في تراسيمين وكانّاي.

انزعج أنطيوخس وتجاهل هنيبعل منذ تلك اللحظة مفضلاً عليه علانية تواس، قائد الاتحاد الإتولي، وهو إغريقي خدّاع واسع الحيلة يكتفي بالقول للعاهل ما يشتهي سماعه. تزايد نفوذه في البلاط كثيراً بعد أن قامت المدن الأعضاء في الاتحاد بتوجيه نداء إلى العاهل السلوقي. وجب عليه أن يطير، وهو حام للهيلينية، لمساعدة الإغريق وحرياتهم المهدّدة من الرومانيين. بكلمة واحدة هو مؤهّل ليغدو اسكندراً جديداً. رغم عدم ثقته بالمتملق والمباهاة، تأثر أنطيوخس بهذا النداء دون أن يعمد إلى فتح باب الأعمال القتالية.

لجأ تواس عندئذ إلى الخداع. اشترى وهو يملك مبالغ كبيرة من المال قائد الحاميتين الرومانيتين في ديمترياس وتساليا، الذي سلّم المكان ورجاله مصرّحاً بوجوده تحت حماية السلوقيين. اشتدّ ساعده بهذا النجاح الأوّل، وشرع الإيتولي بإقناع الملك أن يرسل هنيبعل على رأس أسطول ليقود حملة تضليل إلى أفريقيا، كانت غير ضرورية. أوجب على السفن أن تقوم بنقل حملة مؤلّفة من عشرة آلاف جندي من المشاة وخمسمئة فارس وبعض الفيلة من بلاد الإغريق. وما أن يصل هو إلى الأرض الهيلينية حتى تهب هذه المدن كلها لتعلن ولاءها لراية أنطيوخس.

في هذه المرة لم يصمد هذا الأخير أمام الإغراء وأرسل القوة المطلوبة لتحتل ديمترياس ثم خلقيس الأوبية. وبواقع العصيان التلقائي في المدن الإغريقية، لم يستطع تواس أن يتباهى إلا بقتل الحامية الرومانية في دليوم والبويتية من قِبل سكان المدينة. بدم بارد ذبح الثلاثمئة جندي الذين استبقاهم هناك تيتوس كينكتيوس

فلامينيوس من الفيلق الروماني، وهم نيام، من قبل قبائل ثائرة بقيادة، مينيب، وهو ضابط في خدمة بلاط أفسس. لهذا سُجّلت هذه المذبحة واعتبرت بمثابة إعلان حرب حقيقية.

أحدث إعلان هذه المذبحة أزمة سياسية خطيرة في روما، ولام أنصار سيبيون القناصل الممارسين على سلبيتهم وإهمالهم حامية دليوم. وانتخب المعارضون مانيوس أسيليوس غلابريو وهو حاكم عسكري سابق من الشعب مقرب من سيبيون الأفريقي. لم يجرؤ مجلس الشيوخ على معارضة هذه التسمية، لكنه حرص على أن يضمَّ منافسين له بمثابة حاكمين عسكريين وهما ماركوس بورسيوس كاتون ولوسيوس فاليريوس فلاكوس.

ما كاد مانيوس أسيليوس غلابريو يستلم مهام وظيفته حتى أبحر إلى أبولونيا مع عشرين ألف جندي من المشاة وألفي فارس للالتحاق بقوات الحاكم ماركوس بابيوس تامفيلوس المقيمة في إيليريا، ومع قوّات فيليب المقدوني حليف هنيبعل السابق الذي قرر أن يلعب من الآن فصاعداً الورقة الرومانية ليحتفظ بعرشه وأملاكه. كسب أنطيوخس بوساطة قواته في تساليا بناءً على نصائح تواس، وقرّر مجابهة الرومان في ممر ترموفيل، في المكان الذي سبق لليونيداس(*) أن ضحّى بحياته وحياة رفقائه فيه لدفع الغزاة الفُرْس.

بدأت المعركة في الصباح الباكر لمصلحة السلوقيين. تمكن رجالهم المقيمون في الأعالي من توجيه وابل كثيف من السهام والرماح للرومانيين، وبينما كانت جيوش أنطيوخس المقيمة في الممر تشاهد شراذم الرومان تنسحق أمامها، سمعوا فجأة ضجّة غريبة خلفهم. برفقة ألفي رجل مشى ماركوس بورسيوس كاتون

(*) ليونيداس: ملك إسبارطة وبطل ترموفيل الذي دمر الفرس وقتل مع 300 جندي يوناني.

ليلاً من خلف القوّات السلوقية واحتلّ المرتفعات. غدا جيش مشاة الملك هدفاً للسهام وحاولوا بحركتهم الثقيلة أن يتخلصوا منها، لكنهم كما توقّع هنيبعل غدوا كتلة صعبة المناورة ضمن المساحة الضيّقة التي يشكلها الممرّ، وانتابهم الذعر فتفرّقوا متخلّين عن سهامهم ومجنّاتهم بعد أن ذبحوا ضباطهم الذين حاولوا دفعهم إلى الصمود. اضطر أنطيوخس إلى إعلان نفير التراجع بعد أن هُدِّد بالتقدم المفاجئ لقوات مانيوس أسيليوس غلابريو وأبحر إلى خلقيس بحراسة بعض الفرسان ومنها إلى أفسس. في يوم واحد خسر اليونان كلّها، لأنه استمع دون تبصر إلى نصائح تواس الذي التجأ من الآن فصاعداً إلى البلاط السلوقي.

أبدى هنيبعل حذره من التفاخر وتوقف في تحفظ يقظ ينتظر دعوة مضيفه لسؤاله عن رأيه. اكتفى بجمع بعض المعلومات، وكلها منذرة بالخطر، وقرّر أن ينقل العمليات إلى آسيا نفسها، فقد جمعت روما أسطولاً كبيراً يتألّف من نحو مئة سفينة، يظهر فيها بسخرية تثير الفضول، ستّ سفن معارة من قرطاجة. علاوة عن أن هذا الأسطول بقيادة كايوس ليفيوس ساليناتور ابن المنتصر في معركة الميتور، التي لقي فيها الأخ البرقاوي العزيز حسدروبال الموت.

استدعى أنطيوخس هنيبعل للمساهمة في مجلس حرب طارئ، فتوجّه إلى الاجتماع مع ضباطه. وعندما سأله العاهل عن رأيه تأنّى جيّداً في جوابه قبل أن يصرّح:

- حاربت دائماً على اليابسة وعليها حصلت على أكبر انتصاراتي. الآن، وبعد أن هَرِمت، يجب أن أتوقف عن قيادة المشاة والفرسان لأغدو أميرالاً، لأن مصير هذه الحرب سيتقرّر في مياه بحر إيجة. إذا أراد كايوس ليڤيوس ساليناتور الانتصار فيها فعليه تأمين تواصل سفنه مع سفن أومين دي برغام وحلفائه الروديانيين وهم من البحّارة المتمرسين. حظّنا الوحيد في النجاة يكمن في أن بوليكسنيداس وهو روودياني انتقل إلى خدمتك سيتمكن

من اعتراض سفن برغام وسفن وطنه القديم وتدميرها بكاملها. وجّه إليه الأمر لنصب أشرعته سريعاً والذهاب لملاقاتها.

ـ وأنت ماذا ستفعل؟ سأله أنطيوخس.

ـ قررت التوجُّه إلى صور وإلى جميع المرافئ الفينيقية لجمع أسطول إمداد ونجدة. إنني متأكّد من مساعدة أرسطون صديقي القديم، ومن ميزتي كبوني سأرجو مواطني الفينيقيين المجيء لمساعدة من قاد جيوش إليسا، وسيطرت عائلته على مدنهم منذ زمن طويل. أما أنت، وتوجه إلى أنطيوخس بالكلام، فاطلب بناء سفن جديدة إذ عليها سيتوقّف بعد الآن مصيرك.

ـ سأنفذ رغباتك بدقّة. إنني أعترف بأنني لم أكن عادلاً تجاهك مفضلاً الاستماع لنصائح تواس. إنه سياسي ماهر لكنه عسكري سيّء. من الآن فصاعداً لك ثقتي التامة، وسيحمل رُسُلي هذا الخبر إلى زوايا مملكتي الأربع. من يرفض تنفيذ أوامرك يعامل مثل خائن للعرش ويعاقب على فعلته.

تلقى هنيبعل عند وصوله إلى صور أنباءً سيّئة. لم يتمكن بوليكسنيداس من منع الاتصال بين الأسطول الروماني وسفن برغام ورودس، واضطر إلى خوض معركة قرب رأس كوريكوس قرب جزيرة شيوس(*) تعرّض فيها لخسائر جسيمة، غير أنه استطاع النجاة مع القسم الأعظم من سفنه واللجوء إلى خلجان صغيرة يعرف وحده سرّها. ومن هناك استطاع أن يثأر لكرامته بتدمير عشرات السفن العائدة لرودس قرب جزيرة ساموس(**)، مما رفع من المعنويات المضادة للرومان ودفع هؤلاء لانتخاب قنصلين جديدين كايوس لاليوس، ولوسيوس كورنيليوس سيبيون أخو بوبليوس كورنيليوس سيبيون الأفريقي، الذي قرّر مخالفاً رأي مجلس

(*) شيوس: جزيرة يونانية في بحر إيجة.

(**) ساموس: جزيرة يونانية في بحر إيجة، موطن فيثاغورث، مشهورة بالمباني البحرية في العصور الموغلة في القدم.

الشيوخ المساهمة في العملية. أمّا الأميرال كايوس ليڤيوس ساليناتور فقد استُبدل به، القائد ماركوس أميليوس رجيلوس الذي اشتهر خاصة بحرصه الزائد.

شكّل انقلاب هذا الوضع مفاجأة إلهية لهنيبعل؛ فأهل صور والفينيقيون من جهة اطمأنّوا إلى نجاح بوليكسنيداس في ساموس فوافقوا على تسليح سفن تزيد عما هو متوقع، ومن جهة أخرى فإن ابن هميلقار يعلم من الآن فصاعداً أنه الآن في مواجهة بوبليوس كورنيليوس سيبيون وأنّه سيتمكّن، بمشيئة ملقارت، أن ينتقم من هزيمة زاما بتكبيد قاهره السابق هزيمة مُرَّة. إنها بالنسبة له مناسبة يجب ألا تضيع يستخدم فيها كل نفوذه لدى أنطيوخس كي لا يستجيب هذا الأخير إلى عروض التفاوض المقدّمة لبلاط أفسس من قبل ماركوس أميليوس رجيلوس. أحسّ القائد الروماني أنه في وضع حرج فأبدى استعداده للنظر في شروط هدنة بل وإقامة صلح. لحسن الحظ فإن عدو العاهل السلوقي أومين دي برغام المصمم على قهره رفض بعنف، متذرعاً بأن مثل هذا القرار لا يمكن اتخاذه دون حضور القناصل.

غادر هنيبعل صور مع نحو أربعين سفينة وتوجّه إلى الشمال وحرارة الصيف على أشدّها، كما توجّه الأسطول الروردياني المكون من ست وثلاثين سفينة لملاقاته. صبيحة أحد أيام شهر آب تواجه الأسطولان في عرض سواحل بامفيليا(*)، غير بعيد عن شبه جزيرة سيدا. هاجم هنيبعل سريعاً لتمتعه بالقوة العددية وهو يقود الجناح الأيسر وعهد بميمنته إلى الأميرال أبولونيوس السلوقي. على متن خماسية مجاذيف قاد الربان البوني سفينته مثل رجل اعتاد على الحياة البحرية. تحمّس رجاله وهم يرون جنرالاً يبلغ الستين من العمر ويرتدي درعاً ثقيلاً وهو يروح ويجيء على طول الجسر في

(*) بامفيليا: منطقة في آسيا الصغرى (الأناضول) تخترقها جبال طوروس.

هذا الحرّ الشديد. وقد سبّب للعدو، الأميرال أوداموس، خسائر ثقيلة، إلا أنه عمد إلى تقديم العون لمساعده الذي فقد قسماً من مراكبه. لاحظ ابن هميلقار أن القسم الأكبر من الأسطول الروديانى يتهيّأ لدفعه نحو الشاطئ، فقام بجمع سفنه ونجح في الخروج من هذا الشَرَك متراجعاً نحو كوراكازيوم(*) حيث ألزم جنوده المنهكين من التعب، البدء باصلاح خماسيات المجاذيف ورباعياتها المتضرّرة.

لم يحقق في هذه المعركة البحرية الأولى الانتصار، إلا أنّه لم يُعانِ الهزيمة بل بالعكس، عانى الأسطول الروديانى خسارات أساسية لن يتمكّن من إصلاحها قبل مضي أسابيع. لهذا أرسل قاهر كانّاي إلى أنطيوخس طالباً منه مهاجمة الأسطول الروماني وأسطول برغام، الراسيين قرب رأس كوريكوس في نواحي ميونزوس. فبوليكسنيداس يتمتع مبدئياً بالتفوّق العددي، لكن السفن المعادية تكّبد سفنه أعطالاً عديدة. فهي تطلق ضدها حرّاقات وهي نوع من الأواني المملوءة بالزفت والكبريت الملتهب. وموضوعة في طرف خشبة طويلة واقعة في مقدمة خماسية المجاذيف، وبالمناورة بها يتمكن الرومان وحلفاؤهم من إحراق أشرعة السفن المعادية مسببين حريق المركب الذي يسرع البحّارة بإخلائه وإلقاء أنفسهم في الماء. لا أحد يهتم بصراخ المجذّفين المرعوبين والمقيدين على مقاعدهم الذين يهلكون غرقى. وبما أن هؤلاء الرجال كانوا في معظمهم من الأسرى الأعداء فإن القباطنة لا يشعرون بأي حَرَج بالتخلّي عنهم. إنّهم هنا بمثابة جنود لا يتمكن العدو من استعادتهم.

غدا الرومان من الآن فصاعداً سادة بحر إيجه، وجاء سيبيون إلى ضفاف هيليسبون(**) بامفيليا، ليجتازه في الخريف، متغلغلاً في المملكة السلوقية ينهب ويضع النار والدم في أهم المدن التي

(*) هي حالياً أنطاليا التركيّة.
(**) هيليسبون: مضيق يصل بحر إيجة مع بحر مرمرة.

يصادفها في طريقه. استعاد أنطيوخس شياطينه القديمة. كانت فكرة الهزيمة أمراً لا يطاق بالنسبة إليه، وكان يخشى أن يحل به المصير الذي كانت روما تنزله بالملوك المهزومين لذلك عجّل بإرسال هيراكليدس دوبيزانس، وهو من أهم شخصيات بلاطه، وزوّده بتعليمات واضحة. إنه يعترف بالهزائم التي تعرّض لها ويريد تجنّب الخسائر البشرية في المعسكرين، وقد أبدى استعداده لتسديد نصف نفقات الحرب للرومان والتخلّي عن جميع أملاكه في أوروبا بما فيها تراقيا، وعن ادعاءاته المطالبة بالمدينتين الإغريقيتين في آسيا، اللتين استنجدتا به في بداية النزاع مع مجلس الشيوخ وهما لامبساك وسميرن.

رفض لوسيوس كورنيليوس سيبيون بعد أن استشار أخاه سيبيون الأفريقي، تلك العروض جملة وتفصيلاً. إن أراد أنطيوخس حقيقةً نهاية النزاع فعليه أن يتخلّى عن جميع المقاطعات الواقعة في هذه الجهة من نهر طوروس، أي تسليم كل آسيا الصغرى. طلب هيراكليدس الذي يعرف بأن هذه المتطلّبات لا يمكن القبول لها، مقابلة على انفراد مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون، وأطلع الأفريقي على رسالة سريّة من أنطيوخس. ابن قاهر زاما أسير القوات السلوقية منذ بداية المعارك. وعند التعرف عليه فُصل عن بقية الأسرى وعومل بكل مظاهر الاحترام التي تليق بنبل محتده. وضع سرّاً داخل قصر أفسس حيث لا ينقصه شيء بما في ذلك الرفقة النسائية للترفيه عن ملل الأسر. أبدى سجّانه استعداده للتخلي عنه دون فدية لأبيه، ورحل الشاب وهو يحمل مبلغاً كبيراً من المال مخصصاً لمن هو سبب حياته لإقناع القادة الرومان الآخرين بعقد الصلح بالشروط الأولى المقترحة من قبل أنطيوخس، بل أفضل من ذلك فالأخير عرض على بوبليوس كورنيليوس سيبيون أن يقاسمه موارد مملكته المالية.

لم يُبد الأفريقي استياء يزيد عن الحدّ تجاه هذا الطلب. شكر العاهل السلوقي لأنه منح منذ الآن الحرية لابنه، ومقابل هذه الطريقة

الطيّبة طلب منه التعجيل بقبول العروض التي قدّمها أخوه. غير أنه لم يتطرق بكلمة لموضوع المال. إنّه يعلم أن الشرقيين يؤمنون بأن ما من كائن سويّ التكوين يمكنه مقاومة عرض ثروات معتبرة. لكن الرومان ليسوا كائنات عادية. إنهم يقاتلون من أجل مدينتهم ولايبالون على الأقل ـ حتى الآن ـ في تجميع ثروات هائلة بنهب البلدان الواقعة تحت سيطرتهم. إن رفض التقدمة يعني مع ذلك توجيه إهانة خطيرة للمانح... وهكذا شرع بوبليوس كورنيليوس سيبيون بتوزيعها على فرقه، متذرعاً بأن هذه الهبات تعود إلى منح استثنائية أُخِذَت من صندوقه الشخصي لمكافأتهم على غيرتهم الوطنية. ماركوس بورسيوس كاتون، عدوه اللدود، وحده حرص على أن يبدي له ملاحظة حول هذا الموضوع، فقال:

ـ إن عائلتك غنيّة، غنية جداً، إنّما ليس إلى حد تبذير هذا القدر من المال. سأكون مسروراً إن أطلعتني عن مصدر هذه الثروة المفاجئة.

ـ إنها من مدخراتي، وأنت لا تجهل أنني قررت أن أعدِّل سلوكي وفقاً لسلوكك وقد غدوت اقتصادياً جرياً على منوالك كي لا يقال إنني شحيح. لا يمكنك أن تزعم قيامي على الدوام بعكس تصرفاتك. في هذا المجال على الأقل غدوت زميلاً لك. والقيّمون على أموالي يهنئونك.

ـ إنني لا أحب سخريتك اللاذعة. وأكتفي في الوقت الحاضر بهذا التفسير، لكن اعلم أنني سأطلب في الوقت المناسب فتح تحقيق رسمي حول هذا الموضوع.

ـ إنني واثق أنك لن تفعل. لأن زملاءك في مجلس الشيوخ سيستغرقون في الضحك عندما يعلمون الحياة التقشفية التي تمارسها على أتباعك. أنت الذي تدرُّ عليه الأرض آلافاً وآلافاً من السسترس(*) تغذي عائلتك بحساء هزيل.

(*) السسترس: عملة رومانية قديمة.

بعد فشل هذه المحادثات وجب أن تتكلّم الأسلحة. التقت القوات الرومانية والكتائب السلوقية في مطلع الشتاء في مانييزيا دو سيبيل على ملتقى نهري فريجيوس وهرموس. عُهد بقوات مدينة رومولوس إلى القنصل السابق كنايوس دوميتيوس آهنوباربوس بحضور أومين دي برغام الذي كان يقود مع قواته الحليفة الميمنة. استطاع الرجلان منذ الصباح سحق قوات أنطيوخس المحبطة بشكل عميق لعدم تلقيها أي تموين منذ عدة أيام. هلك أكثر من خمسين ألف جندي وأخذ نحو عشرة آلاف أسير.

وصلت شراذم هذه القوّات بمشقّة كبيرة إلى أفسس، ونشرت قصتهم الذعر لدى سكان المدينة ومعظم مستشاري أنطيوخس. تخلى العاهل عن تشدده، وأرسل مجدداً رسلاً مفوّضين إلى سردينيا حيث حلّ آل سيبيون. وجب عليهم قبول شروط المنتصر مما يعني الانسحاب إلى ما بعد طوروس ودفع تعويض حرب هائل: خمسة عشر ألف مثقال. وهو مبلغ يزيد بخمسة آلاف مثقال عن ذلك الذي طُلب من قرطاجة بعد هزيمة زاما، عدا عن شرط سري يتطلب من أنطيوخس تسليم أرواحه الكريهة، وتعني بها: تواس الإتولي وهنيبعل البوني. وجب على الأول أن يدفع غالياً ثمن مسؤوليته في مذبحة حامية دليوم. وقد اعتبر الثاني مواطناً متمرّداً لمدينة عقدت الصلح مع روما، لكنه استأنف المنازعات ضدها دون أن يتلقى أوامر مجلس المئة والأربعة. فهو إذن حانث يمينه ومستحقٌ للموت. استخف أنطيوخس بجميع مظاهر الشرف وقواعده ووافق على هذه الشروط. تمكّن حراسه من القبض على تواس، وسلم مقيّد اليدين والرِجلين إلى سجانيه، أما هنيبعل فقد بقي مختفياً لم يُعثر عليه.

خاتمة

غدا الهرب من الآن فصاعداً هاجس هنيبعل. رغم كرهه العميق له، لم يستطع الامتناع عن الإشفاق على تواس التعيس الذي سلّمه أنطيوخس للرومان. وهو يعلم أن العاهل السلوقي سيقوم بالعمل نفسه إن بقي في بلاط أفسس. ما قيمة الخدمات المؤداة من أحد الأفراد، الغرباء خاصة، عندما يكون مستقبل الأسرة الحاكمة معرّضاً للخطر؟ ملقارت، الإله الحامي، كان من جديد ملاكه الحارس. حُصر القائد البوني في كوراكازيوم فكان في ملجأ آمن مؤقتاً. شكل القادة وفريق البحارة المخلصين له سوراً حوله لا يمكن اجتيازه، إلا أن الجنرال الأعور كان واعياً إلى أنه لن يستطيع أن يبقى إلى زمن لا حدّ له في مرسى هذا الخليج المجهول تقريباً. أسطول رودس غير بعيد عنه ويمكن أن يحاول مهاجمته للقبض عليه واستلام الجائزة الموعودة لقاء تسليمه للرومان، لأن رأسه ذو ثمن باهظ.

لهذا، في إحدى الأمسيات، والنسيم العليل يهب من البحر ليجعل الحياة ميسّرة قربه، دعا ابن هميلقار أريسته أخلص ضباطه وهو إغريقي من أم قرطاجية، ودخل هذا الأخير سريعاً في صلب الموضوع سأله:

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ قبل أن أهتم بمصيري يجب أن أهتم بمستقبلكم. عدم توقيفي

يشير إلى عصيانك أنت ورجالك أوامر عاهلكم الذي سيطلب منكم دفع الثمن غالياً جداً.

- نعم مبدئياً، لكنه سيتردّد لأن لدينا أصدقاء كثيرين بين ضباطه. وسيعمل هؤلاء، لأسباب يسهل فهمها، على اعتباره مسؤولاً عن الهزيمة ولن يرضوا أن نكون كبش المحرقة. القصر يغلي بالدّسّاسين والمتواطئين الذين ينتظرون اللحظة المناسبة للانتقال إلى العمل، ويمكن أن يشكل توقيفنا ذريعة جيدة لهم. والملك الحريص على عرشه يعلم ذلك ويتظاهر بجهل تصرفنا. ليس أمامنا إذن ما نخشاه، وبعكسك، إن أردت ذلك يمكننا نقلك إلى فينيقيا ولك فيها أنصار عديدون. هذه البلاد تغص بالجبال الصعبة المسالك، وسيسهل عليك إيجاد ملجأ لك فيها مع إخفاء هويتك عند الحاجة. يكفيك أن تغير لون شعرك وأن تحلق ذقنك.

- أنت تنسى أنني أعور وستشير هذه العاهة بدلالة واضحة للجواسيس الذين سيعجُّ مخبئي بهم. إضافة إلى أنني أنفر من فكرة التنكّر هذه. في السابق، عندما كنت في إيطاليا، أشاع الرومان الإدعاء بأني في خشيتي من الزعماء الغاليين الذين كنت أعيش في وسطهم، اصطنعت لنفسي العديد من قبعات الشعر المستعار وإنني كنت أغير كثيراً من شكلي لأفاجئ أعدائي دون توقّع منهم وهم داخل معسكري الخاص. كانت فرية صريحة، وأنا لا أريد إثبات صحتها اليوم، فأنا أعرف تماماً ما يستطيع مؤرخو المستقبل استنتاجه.

- إنني أدرك وساوسك. ربما تستطيع الوصول إلى سواحل ليبيا حيث تضمّ لصالحك المدن البونية في أمبوريا؟

- سترسل قرطاجة بسرعة جيشاً لمقاومتي، ولا أريد أن أحارب مواطنيَ حتى وإن كنت أنفر من ولاتهم. سُفِح كثير من الدم البوني وأرفض أن أكون مسؤولاً عن موت زملائي. إضافة إلى أن روما ستعمد إلى إرسال حملات عسكرية لتأسيس مواقع ومدن في تلك المنطقة. وستشكّل عاجلاً أو آجلاً أشواكاً مزروعة في جَنب إليسا.

مع مساندة النوميديين ستحضر فرقهم لمحاصرة الأسوار تحت ميغارا للاستيلاء على مدينتي.

ـ لم يبق عليك إذن إلا أن ترحل بحثاً عن ملاجئ مبنية قديماً بالقرب من القرن الغربي، أنشأها حنون الذي حدّثتني عن رحلاته البحرية الخارجة عن المألوف.

ـ نسيت أن أذكر لك أن والدي صادف ضابطاً رحل لتقديم المساعدة له، لكنه عاد خائباً من رحلته.

ـ مع ذلك من المهم جداً أن تتمكّن من إيجاد مأوى لك في مكان ما.

ـ منذ هذا المساء سأوجّه أشرعتي مع ما تبقى من ثروتي إلى كريت. إنّها عش قراصنة وفارين وتتجنّب السفن عادة أن تبحر في المناطق المجاورة لها. سأرسو فيها وباستخدام بعض الهدايا الموزّعة بمهارة سأحصل من القادة المحليين على إذن بالاختباء لديهم. سأغتنم هذه المهلة لأوجّه رسائل تشرح وضعي لرؤساء الممالك الواقعة ما بعد مملكة أنطيوخس. سيعمد أحدهم للمجازفة بدعوتي إلى بلاطه سواء للاستفادة من نصائحي أو لإعداد كمين لي يسهل علي التخلّص منه. سيتعب الرومان سريعاً من إنفاق مبالغ طائلة دون جدوى لاصطيادي، ويمكنني أن أبدأ بممارسة حياة جديدة بالنسبة لي.

ـ أتمنى لك ذلك من صميم قلبي. اعلم أنني عمدت إلى إحضار جميع الثروات المخبأة في قصر أفسس سرّاً. إنّها على متن سفينتك، وأنا أضمن ولاء بحارتها ضماني لنفسي. إنّهم يعملون في عبودية منذ سنوات، وهم يعلمون أنّك ستوافق على منحهم الحرية عندما سيصلون إلى مرفأ سرسينا في صور. إنني متأكد من تصرفك معهم عندما ستغدو خارج منطقة ملاحقيك. إن سئلت عن الوجهة التي اتخذتها سأجيب بانطلاقك إلى ليبيا، وهذا ما سيتيح لك وقتاً ثميناً.

ـ شكراً يا أريسته، لن أنسى إطلاعك على تنقلاتي. سأسلمك هذا الخاتم قدّمه لصديقي أرسطون في صور، وسيعرف كيف يكافئك.

توجّه هنيبعل في الليلة نفسها باتجاه كريت التي استقبله ولاتها، إن استطعنا منح هذه الصفة للقادة القراصنة في تلك الجزيرة، بحفاوة بعد أن قدّم لكل منهم كيساً من الذهب. استقر ابن هميلقار في ملكية منعزلة حمل إليها محتويات صناديق سفينته. وقد تمكّن بهذه الطريقة من إخفاء القسم الأعظم من ذهبه وفضته في تماثيل من البرونز أخفاها في حديقته. ثم عهد إلى معبد أرتميس، المزار الرئيسي المحلي، بآنية ثقيلة من طين الأرض غطي سطحها بقشرة من ذهب وفضة وأثقلت في الواقع بالرصاص. هو يعلم أن مضيفيه سيحرصون بدّقة على هذه الأواني، لاعتقادهم أنها تحتوي على جميع ثرواته وسيرفضون أياً كانت الذرائع تسليمه.

مرت أشهر عديدة، تعرّض فيها لملل عميق وهو محاط ببعض المخلصين له. ورفض متذرعاً بشيخوخته الصحبة النسائية التي عرضها عليه القراصنة. هجعت حوّاسه منذ فترة طويلة ولم يرد المجازفة باتخاذ خليلة تطلّع علي أسراره. توجّهت سفينته إلى جسر أوكسن تحمل على متنها رسولاً إلى ملك أرمينيا أرتكسياس ينبئه فيها أن هنيبعل مستعد ليضع نفسه في خدمته. طلب العاهل منحه عدة أيام يفكّر بها قبل أن يُعلمه بقراره. نظرياً هو حليف روما التي عقد معها معاهدة صداقة وتعاون إلا أن سفير مجلس الشيوخ الذي خشي قساوة المناخ وشظف حياة السكان، عجّل بالمغادرة عائداً إلى ضفاف نهر التيبر ولم يغامر أي تاجر من أبناء وطنه في الإقامة ضمن تلك البلاد البعيدة. إضافة إلى أن أرتكسياس كان يشكُ بأطماع أنطيوخس في الاستيلاء على مملكته. وحصوله على قائد قدير لجيوشه مثل قاهر كانّاي كفيل بردع جاره عن كل رغبة عدوانية. وهكذا بعد فترة معقولة استدعى رسول القائد البوني ليبلغه أنه يرحّب بحضور الأخير إلى بلاطه. عند عودة الرسول استُقبل مثل منقذ، فقد نبّه بعض الجواسيس هنيبعل أن أسطولاً رومانياً يتوجّه

نحو المدينة لينقذ عدداً من الأسرى الرومانيين المحتجزين لدى القراصنة. غادر هنيبعل عندها كريت ليلاً يحمل معه ثرواته الدفينة. هرع مضيفوه إلى معبد أرتميس لوضع اليد على الآنية الثمينة التي حطّموها بالمطارق؛ وعندما اكتشفوا الخدعة كان القائد البوني قد غدا بعيداً. بالمقابل كان الرومان مايزالون على ساحل الجزيرة عندما حرروا أسراهم، وأجبروا سجانيهم على أن يجذّفوا بسفنهم حتى الأسطول المعادي.

* * *

عند وصول هنيبعل إلى أرمينيا، علم سريعاً أن عاهلها قد تخلّى عن مشاريع حربه ضد زميله السلوقي، وقد فضل تخصيص دخل دولته لإنشاء عاصمة جديدة له بعد أن بدت له عاصمته القديمة بائسة وغير جديرة به. بعد أربعين عاماً من إنهاء بناء قرطاجنة التي سقطت حالياً في أيدي الرومان، غدا القائد البوني مهندساً معمارياً. رسم بدقة مخطّطات المدينة الواقعة على ضفاف نهر الأراكس التي منحها اسم أرتاكساتا. عندما انتهى من الأعمال الإنشائية أوفد رسولاً يعلم العاهل الأرمني بانتهاء مهمته، لكنه غادر في الحال مملكته. علم أن مضيفه بعد أن حصل منه على ما يرغب سيعمد إلى إلقاء القبض عليه وتسليمه للرومان. توجّه الهارب برفقة بعض خدمه إلى بيتينيا حيث استقبله بروسياس بحرارة. مضت مدة اختلف فيها هذا العاهل مع أومين دي برغام جاره وحليفه السابق. فقد تنازع الرجلان على إدارة ميزيا(*) وقد كانت في السابق مُلكاً لبرغام، غير أنّها احتلت من بضع سنوات من البيتينيين. وقد وضعت معاهدة الصلح حدّاً لإنهاء النزاع بين روما وأنطيوخس الذي اشترط صراحة إعادة فريجي إلى معلمها القديم.

رفض بروسياس لأسباب معقّدة إعادتها. فهذه الأرض القاحلة

(*) وهي معروفة أيضاً باسم فريجيا أبكتيت.

ليست ذات علاقة كبيرة ولكن يجب أن تغذي، بنفقات كبيرة، الحاميات التي تصونها من السكان المتمردين، والتخلي عنها هو اعتراف بسيطرة أومين على بعض صغار الملوك في المنطقة وهو ما لا يطيقه. ولهذا تقرّر إعلان الحرب على برغام. غير أنّ الوضع العسكري لا يناسبه، وهو بحاجة إلى قائد قادر على قيادة جنوده المؤلفين بشكل خاص من مرتزقة ومتمرسي حرب سلوقيين مسرّحين من قبل أنطيوخس. لهذا استقبل هنيبعل بكل مظاهر التكريم، وعُينّ أخيراً في الوظيفة المؤهّل لها، ويمكنه أن يمارس صلاحياته ومواهبه الاستراتيجية على البر والبحر.

لكن مهمته لم تكن سهلة. يمكن لبرغام أن يستنفر ضعف عدد رجال بيتينيا، وأسطوله يستطيع نشر الدمار على سواحل مملكة بروسياس. توجّه القائد البوني بنحو ثلاثين سفينة لملاقاة أسطول الخصم الذي ضمّ خمسين سفينة خماسية المجاذيف وثلاثيتها، فهو من الناحية العددية في وضع أقل قوّة من خصمه وأي أميرال في موضعه يعمد إلى تفادي خوض المعركة. إلا أن ابن هميلقار اعتمد استراتيجية ماهرة. تحت ذريعة التفاوض لتبادل الأسرى ذوي الرتب العالية، أرسل مبعوثاً يحمل رسالة إلى أومين وبملاحظة الطريق الذي سلكه القارب عن بعد، تمكن أن يكشف السفينة التي يوجد القائد الخصم على متنها وإليها توجّه بعد أن فشلت المفاوضات. حوّل إليها القسم الأعظم من سفنه، وقد أقام على متنها منجنيقات تطلق وحولاً مملوءة بأفاع سامّة تبث الرعب في صفوف البحّارة. في نهاية النهار كان نصف أسطول برغام قد غرق والنصف الآخر قد عاد إلى قاعدته، وهو عاجز عن تدمير المرافئ البيتينية المتروكة دون حماية كما هو متوقّع.

بعد هذا النجاح الأوّل أجرى هنيبعل عدة حملات في ميزيا تمكّن بها أن يخضع السكان. قرّر بروسياس لتأكيد سلطته على تلك المنطقة، أن يبني بها عاصمة جديدة يستبدل بها نيكوميديا السابقة.

خطرت له الفكرة بعد زيارته أرتكسياس، الذي كان سعيداً ومتباهياً باطلاع جاره على مدينة أرتاكساتا بمعابدها الغنيّة، ومسارحها الفخمة، وأبنيتها العامة المهيبة، التي أنشأها هنيبعل. دعا بروسياس عند عودته إلى مملكته قائده العسكري، وقال له:

ـ إنني أعرفك قائداً عسكرياً ماهراً لكنني كنت أجهل أنك قادر على إبراز المدن إلى السطح.

ـ إنني أحاصر المدن لكنني أبنيها أيضاً، إذ يجب أن تنتصر الحياة على الموت.

ـ هل أنت مستعد لتفعل لي مثل الذي فعلته لملك أرمينيا؟

ـ إن أعطيتني الرجال والوسائل الضرورية سأفعل ما تطلبه مني. منحتني ثقتك وحمايتك وسأكون مسروراً لأعبر لك عن عرفاني بجميلك.

ـ أريد أن تتجاوز عاصمتي الجديدة بجمالها جميع العواصم السابقة!

ـ ستكون وفقاً لأوامرك.

ـ اغفر لي جرأتي، لكن سؤالاً يحرق شفتي: ألا تعتبر هذه المهمة مشينة؟

ـ أستطيع أن أعترف لك. رأيتها كذلك في البدء، لكنني أدركت سريعاً أن الكبرياء لا مكان لها هنا، حتى أنني بدأت أحلم بمشروع رائع: بناء مدينة تحمل اسمي وتُستخدم ملجأ لأنصاري الراغبين في مغادرة قرطاجة لينشروا، في مأمن عن كل خطر، ثقافتنا وطراز حياتنا.

ـ يبدو لي أنك متشائم.

ـ كلا، إنني واقعي. أخشى كثيراً أن تكون أيام مدينة إليسا معدودة. قد يستغرق ذلك سنوات لكن كل شيء سينتهي إلى تمامه.

روما مثل صخرة تتدحرج من أعلى جبل وتسحق كل ما يعترض طريقها. لا يمكنها أن تحتمل وجود منافسين محتملين لها، وتريد أن تمد سيطرتها على العالم كله. فقد أخذت ضمن شباكها بلاد الإغريق وسيأتي سريعاً دور أفريقيا ثم آسيا، وأخيراً مصر.

ـ إنني أشاركك في تخوّفك غير أن بإمكان جميع هذه الشعوب أن تتوحّد للصراع ضد هذا الوحش الهائل.

ـ لا يفكّر أي من هذه الشعوب إلا بشيء واحد، وهو إنقاذ حياته، وهو يسخر جيّداً مما يحصل لجيرانه. أنا أعلم أنّك أنت بالذات، قد وقّعت سابقاً معاهدة صداقة مع روما وتخليت عن كل ما يربطك بأنطيوخس. وبعد هزيمة الأخير ابتعدت عن أصدقائك الجدد لأنهم يفضلون أومين دي برغام. إنك اليوم تخشى على مستقبل مملكتك ومستقبل السلالة الملكية. وتمنعك أنفتك من التحالف مع جيرانك لتعاكس دسائس مجلس الشيوخ.

ـ إنني أفهم ما تعانيه من مرارة. وهو ارتكاس طبيعي من رجل منفي. لكنني أكثر تفاؤلاً منك. تأكّد أن أبنائي وأحفادي سيسكنون المدينة التي ستشيدها!

ـ ربما ولكن هل سيملّكون عليها؟

ـ إنني مقتنع بذلك.

ـ لذلك أنت لا تقترح عليّ إنشاء قرطاجة الجديدة. إنّك تعتقد باستمرار حياتنا لأن اختفاءنا يعني خسارتك الخاصة.

لزم سنتان لهنيبعل ليُبرز إلى سطح الأرض مدينة بروسا(*). وعلى بعد بضع ستادات إلى الغرب من المدينة اختار أرضاً ليقيم عليها مقره الخاص، ذلك الذي سينهي عليه حياته. وفقاً لقوله وضع بنفسه المخططات وهو وحده الذي يعرف تفاصيلها. لبناء قصره

(*) هي بروسا حالياً في تركيا.

اشترى مئتي عبد وعدهم بتحريرهم بعد نهاية الأعمال. عُرف عنه تقيّده بالمواعيد، وقد سُرَّ الرجال المختارون من تصرّفه المتسامح ومن نوالهم الحرية بعد عملهم القاسي. لم يدّخروا إذن قواهم تحت إمرة رئيسي العمال كليارشوس وديوفانس فشروط حياتهم كانت قاسية. لم يكن بإمكانهم مغادرة الورشة المؤلفة من الحرفيين المحليين، النّحاتين، والبنائين الخ... العاملين تحت رقابة شديدة ومستمرة. كان محرّماً عليهم التجول في مكان لم يخصّص لهم، ولم يرفض أحد منهم أن ينثني أمام هذه القواعد الجائرة، لأن ابن هميلقار كان يكافئهم بسخاء، وشيئاً فشيئاً خرج القصر من الأرض. كان يشبه من جميع النقاط مقر آل برقا القديم في ميغارا: له الحدائق نفسها المصونة بكل عناية وذات الغرف المؤثثة ببذخ، مع مجموعة من الأحواض والينابيع. حرص القائد البوني على أن يُضمّن بعض القاعات بأبواب سريّة تقود إلى الأقبية تحت الأرض. هناك توجد ممرات مزروعة بعوائق مختلفة تقود إلى سبعة منافذ تنتهي جميعها إلى خارج النطاق المحصن. عندما انتهت أعمال البناء دعا القائد البوني العبيد إلى وليمة عامرة، وزّع عليهم في نهايتها وثائق حريتهم.

لم يتسن لأحد رؤية أي من المشاركين في هذا الاحتفال السار. لن يقلق أحد، لأن هؤلاء العبيد هم من أصول تعود إلى مناطق بعيدة، وقد التحقوا دون شكّ منذ تحريرهم بأوطانهم الخاصّة. هنيبعل وحده كان يعلم أنّهم هلكوا جميعاً متسممين. أحُرقت جثثهم من قِبل بعض العسكريين المخلصين لقائدهم الذي وزعهم عقب ذلك على وحدات مختلفة، وعرفوا بدورهم الموت أيضاً. كليارشوس وديوفانس وحدهما هربا من المذبحة. شكّا بما يُعَدُّ لهما فاختفيا صباح ذلك العيد المشؤوم، متذرعين بأنهما تلقيا الأمر بالذهاب إلى المدينة لإحضار بعض المؤن الإضافية. سمح لهما الحرّاس بمغادرة المكان لأنهما كانا يتردّدان على القائد البوني غالباً لإطلاعه على تقدم الأعمال. لم تَجِدِ الأبحاث الجارية للتحري عنهما بما فيها التوقيف المتكتم لأفراد عائلتيهما. هم يفضلون رؤية

هذين الشخصين قتيلين على أن يظهرا في بلاط بروسياس. رأى هذا الأخير فيهما البرهان على أن تهمة التجسّس الموجهة إليهما لا تخلو من أساس. هذان المجرمان التحقا دون شكّ ببرغام ليسلما لأومين مخطّط تحصينات العاصمة الجديدة التي لم يساهما في بنائها، حيث أن قاهر كانّاي نسي تقديم هذا التفصيل لمعلمه.

حصل هنيبعل من الملك على إذن بدعوة بعض أصدقائه القدامى إلى احتفالات تدشين المدينة، لبى الدعوة اثنان منهم أريسته وأرسطون. وفدا الاثنان من صور يحملان عدة رسائل من قرطاجيين حافظوا على ولائهم للحزب البرقاوي، وكانوا هدفاً لاعتبارات عديدة من قبل الموظفين البيتينيين. فقد ساهما في تضحيات مقدّمة في المعابد، واستقبلا باهتمام من قبل العاهل مع سفراء الممالك المجاورة. في نهاية الاحتفالات التي دامت عدة أيام جرت مداولة طويلة بين القائد البوني وضابطه السابق، قال:

ـ أريسته إنني فَرِحٌ للقياك بعد هذه السنوات الطويلة. خشيت طويلاً أن تدفع لأنطيوخس غالياً لقاء شهامتك نحوي.

ـ شرحت لك أن ليس لدي ما أخشاه. بفضلك تمكنت من الاستقرار في صور وغدوت شريك أرسطون، وأنا أطوف من أجله جميع مرافئ البحر الكبير.

ـ هل ذهبت مؤخّراً إلى مدينة مولدي؟

ـ مضت سنتان على سفري إلى قرطاجة، تصوّرتك وأنا أتجوّل في شوارعها ولداً يلعب مع أخوته. في المقاهي والمطاعم كان يكفي أن أشير إلى اسمك ليأتي الرجال ويجلسون إلى جانبي. إنّهم حاربوا سابقاً تحت إمرتك. لعنتك أحياناً في سري، إذ وجب أن أبقى ساعات طويلة وأنا أستمع لحكاياتهم.

ـ هل رأيت منزلي في ميغارا؟

ـ منعني أحد الحراس من الدخول إليه. إنه يعود من الآن فصاعداً لرجل اسمه بوستار، حفيد كارتالون وهو عدوّ قديم

لعائلتك. أفترض أن جواسيس مجلس المئة والأربعة يعرفون من أنا، ويشكّون بأنني مكلّف بمهمة خاصة، لذا نبّهوا زميلهم لوجودي وطلبوا منه التزام الحذر.

ـ أعرف هذا البوستار بالاسم فقط. بعد رحيلي قلب البناء رأساً على عقب، متوقّعاً العثور على الكنوز المخبأة فيه، غير أن التعيس لم يجد شيئاً! لنتحدّث عن شيء آخر فاسم ميغارا يوقظ في نفسي كثيراً من الذكريات المؤلمة. ماذا يحدث في روما؟

ـ عدوُّك القديم بوبليوس كورنيليوس سيبيون مات منذ وقت قليل في ليترن في كامبانيا مكان اعتزاله.

ـ لم أعرف أنّه تخلى عن الحياة العامة.

ـ ألزمه أعداؤه في مجلس الشيوخ على ذلك.

ـ لأي سبب؟

ـ أجرى ماركوس بورسيوس كاتون تحقيقاً حول المبالغ التي عمد إلى توزيعها على جنوده بعد أن استقبل مبعوث أنطيوخس وهو يسعى للمفاوضة على هدنة. لم يتحمّل قاهر زاما هذا الظلم. جمع جماهير الشعب في ساحة روما العامّة وقادهم إلى معبد جوبيتر كابيتولن، ليستعطفوا الإله منح مدينة رومولوس قادة بمثل نزاهته واستقامته. نزل عشرات الآلاف من الناس إلى الشارع لمرافقته وفرض قصاص عادل على متّهميه. استطاع استغلال الفرصة للحصول على قرار إبعاده. الواقع أن بوبليوس كورنيليوس سيبيون لم يستطع تحمل هذه الإهانة التي تمسُّ كرامته، وغادر المدينة بعد أن ترك أمر العناية بالدفاع عنه أمام القضاة لأخيه، ورأى هؤلاء من الحكمة إخلاء سبيله. لكنه لم يُرِدِ أن يظهر مجدّداً أمام الناس على ضفاف نهر التيبر. بلغت مرارته حدّاً بعد ذلك التاريخ طلب فيه أن يُكتَب على شاهدة قبره هذه العبارة الفريدة: «أيّها الوطن العاق، لن تحصل حتى على عظامي!».

ـ إنني أعرف مدى إبائه. هل تعلم أن آل سيبيون هم الوحيدون

بين العائلات الأرستقراطية الرومانية الذين لا يحرقون موتاهم؟ عندما مات أحد أنسباء سيبيون البعيدين تحت أسوار قرطاجة بحث هميلقار والدي عن جثمانه وهو يجهل هذه التفاصيل، وعمد إلى حرقه تكريماً له. غير أن أبناء كورنيليوس لم يحقدوا عليه، بل بالعكس قدّروا نيته الطيبة. وخلقت هذه البادرة الطيبة تواطؤاً ضمنياً وإعجاباً متبادلاً بين العائلتين أدهش الجميع. ألم نكن دائماً على خلاف خلال المعارك وفي ساحات القتال؟ وسيدهشون أكثر عندما يعلمون برغبتي الأخيرة التي أكلفك بتنفيذها. عندما يحين أجلي أعهد إليك بحرق جثماني ووضع رمادي في حُقٍ، يوضع في قبر، سأعمل على بنائه، ترفع فوقه شاهدة نقش عليها كلمات موجهة، إلى قرطاجة: «أيها الوطن العاق، لن تظفر حتى برمادي!». سيحاول أنصاري منعك غير أنني سأسلّمك وثيقة أصلية بخطّ يدي تمنحك حق التصرف بجثتي بعد الموت. مادامت مدينة إليسا مقادة بهؤلاء التجار الجشعين الذين يتصاغرون ويتذللون أمام روما فإني أرفض أن ينالوا شرف الحصول على جثماني(*).

ـ يمكنك أن تعتمد علي. رغم أن أجلك لم يحن بَعدُ، وأتمنى أن يطول بك العمر ليتمكن أحد أولادي من تنفيذ وصيتك، فأنا أراك في تمام الصحة والعافية.

ـ هذا هو الانطباع الذي أجهد في إعطائه إلى من يحيطون بي. لم يَعُد لجسمي نشاط الزمن الغابر، إلا أنني ما أزال أستطيع قيادة الحملات العسكرية في كل الأوقات، سواء تمت تحت الثلج أو في الحر الشديد. لن أدع أعدائي يتصوّرون أنني وصلت نهاية أيامي، وأنني مستعد لتحريرهم من الهمّ الذي يقضُّ مضاجعهم. خوفهم هو أفضل علاج لي. لكنني يا صديقي العزيز أسرُّ لك بأن ألماً داخليّاً

(*) احتُرمت هذه الرغبة بدقّة. وتركيا ماتزال تحتفظ بالقبر، الحقيقي أو الأسطوري لهنيبعل، بحيث أن مفاوضات جرت بين أنقرة ووزير الثقافة التونسي السيد بوسنينة، تم الاتفاق بموجبها على إعادة رماد القائد البوني إلى تونس. إذ من بين جميع بلاد المغرب العربي تُعَدُّ تونس البلد الوحيد الذي يقدّر الماضي ما قبل الإسلامي بمزيد من الاحترام والإجلال.

يعصف بي وهو أشدُّ وطأة من الألم الفيزيائي ويعود إلى الملل. إنني هنا أسأم من عزلة لا علاج لها. وكل يوم أرى فجره يكون عذاب جديد. أشغل نفسي وأرهقها بأمور تافهة، حتى أنني أخال نفسي سأنهار على سريري مع حلول المساء.

ـ أليس لك على الأقل رفاق أو صحبةٌ يرفهون عنك ويسيرون في صحبتك؟

ـ كلا، إنني أعيش مثل حيوان متوحش نادراً ما يخرج من جحره. خدمي البونيون الأخيرون ماتوا منذ زمن طويل، وليس لدي أي شخص أحدثه بلغتي الأم التي أحرص كل الحرص على التكلم بها. في صميم قلبي أنا إغريقي آسيوي.

ـ هذا يشرّفنا وهكذا ننظر إليك، لكن لا يمكن أن تنسى أنك وُلِدت قرطاجياً، يأمل كثير من مواطنيك عودتك إليهم.

ـ لم يأت أحد ليقول لي مثل هذا القول.

ـ إنني أحمل إليك رسائل من أنصارك.

ـ هذا صحيح. إنّما لا أحد منهم كلّف نفسه عناء الحضور لدعم عجوز يشكو العزلة.

ـ إنّك وحيد لأنك تريد ذلك. رجل بمثل شهرتك يمكنه أن يستهوي رؤوس كثير من الفتيات.

ـ لا وهم لي بهذا الشأن. وردني طلبات زواج من أرستقراطيات بيتينيات ينتمين في معظمهن إلى أعرق العائلات الملكية. وقد تضايقت من رفض عروضهن. كانت إميليسي زوجتي الشرعية الوحيدة، واحتراماً لذكراها لن أعاشر امرأة أخرى.

ـ في السابق عندما كنت تعيش بعيداً عنها لم تأنف من صداقة بعض الفاتنات وكانت تعلم ذلك ولم تلُمْكَ عليه.

ـ توصلنا إلى اتفاق حرصت على احترامه دائماً. يمكنك أن تعتبر أن موتها حرّرني من التزاماتي، هذا صحيح، وبإمكاني أن أتخذ خليلة. غير أنني أعلم، في أعماق ذاتي، أنني لا أستطيع تحمّل

ثرثرة امرأة بلهاء تزهو في كل مكان وتدّعي أنني أسير بنانها. إنني أزدري ثرثرة العاهرات اللاتي يعتبرن بصحبتي ويزعمن الإخلاص لي بمودة فائقة الحدّ، ولا يشغل فكرهن سوى هدف واحد هو: وضع اليد على ثرواتي المخبوءة في أمكنة مستورة.

- يحزنني ما تقوله. ولكن هل من وسيلة لإحياء أملك في الوجود؟

- كلا. إنني أعدّ نفسي ميتاً رغم أنني ماأزال على قيد الحياة. الموت هو الحظوة الوحيدة التي يمنحني إياها ملقارت الربّ الذي يحميني دائماً. إنّه بالنسبة لي وسيلة خلاص.

- قد يجلب الانتحار لك الخلاص.

- إنني أرفضه لأنه قبول بهزيمتي. لا أريد لروما، وأكثر من ذلك لقرطاجة الإدعاء أنّهما على حقّ. سواء من ناحية قسوتهما أو جحودهما. سأبقى حيّاً ما دام أمني غير مهدّد.

- أريد أن أنّبهك لأن لدي بعض معلوماتٍ مقلقة. لم يغفر لك أومين دي برغام هزيمته البحرية التي كبّدته إياها منذ سنوات. وأنا أعلم أنّه أرسل حديثاً إلى روما سفراء لتجييش مجلس شيوخها ضد بروسياس والكشف عن وجودك في بلاطه. تيتوس كينكتيوس فلامينيوس الذي تعرفه جيّداً في طريقه إلى هذا المكان وهو يحمل إنذاراً. يجب على مضيفيك التوصل مجدداً إلى عقد صداقة مع روما، وأحد شروطها الموضوعة في مشروع المعاهدة تسليمك إلى الرومان.

- يلزمه أشهر طويلة للوصول إلى هنا وقد يموت خلال رحلته. وبالانتظار، وإذا كانت مشاغلك تدع لك مجالاً للراحة، يسرني أن تبقى إلى جانبي لنتمكن من تبادل ذكريات الأيام الجميلة السابقة.

- لم أجرؤ على طلب ذلك منك، لكن إن حزت على رضاك سيكون من دواعي سروري أن أسجّل كتابيّاً السرد الدقيق لأعمالك الباهرة، مستخدماً المعلومات المستمدة من أفضل منبع. سبق لسيلينوس أن

كتب مجموعة أخبار ووقائع، وقد قرأتها ووجدتها مملوءة بالأخطاء.

- إنّك تجازف بإدخال الملل إلى نفسك بسماع هذياني ومهاتراتي. مع ذلك فالمنطقة مغرية. وسأكون مسروراً باصطحابك إلى الصيد، فالحيوانات هي آخر الأعداء الذين أقاتلهم.

- أقبل عرضك بسرور.

قضى أريسته عدة أشهر بصحبة صديقه وهو يجمع ذكرياته ويعجب لذاكرة القائد البوني. هو يتذكر أدقَّ التفاصيل، كما أنّه قادر على وصف حادثة تبدو ثانوية ولكنه يعتبرها حاسمة نظراً لتتابع الأحداث. كان الرجلان أحياناً يتخاصمان حول الموضوع ذاته: نتائج حملته. هي بالنسبة لهنيبعل قد سُدّدت ليس بهزيمة فقط، وإنما بعمل أكثر خطورة أيضاً يتمثّل بتوسُّعٍ لا يقاوم لسلطات روما على ضفاف البحر الكبير. وفي إحدى الأمسيات كان له مع مضيفه نقاشاً أكثر حماساً من المعتاد فقال قاهر كانّاي متمتماً:

- إن أمكن إعادة الأحداث أعتقد أنني لن أغادر بجيوشي قرطاجنة. كان من الواجب أن أمتّن أوضاعي في إيبيريا وأزيد من شأن إمبراطورية قرطاجة الإفريقية.

- ستُغمَر بالمجد في تلك المهمة، إنما ستتوقف دون عبور جبال الألب ودون إلحاق الهزائم بالجيوش الرومانية التي أثارت إعجاب العالم كله.

- كانت مدينتي ستنجو ولن تقاد من قِبل عصبة من الجبناء يسيرون بها إلى ضياعها. أمّا مدينة رومولوس فقد كانت ستُحرم من القدرة المتغطرسة التي تمارسها. لن تكون أبداً بمثل تلك القوة.

- إنني أسلّم معك في الظاهر، قال أريسته، غير أن الواقع أكثر تعقيداً. هل تذكر الحلم الذي رأيته سابقاً: أفعى تخرج من الأرض وتدمّر إيطاليا. إنها حملتك الموجّهة إليها والجراح التي أثخنت بها عدوك، مهما تقول عنها، ستكون مميتة مثل سمّ ذلك الحيوان.

- تريد مواساتي لكن الوقائع تخطئك.

ـ كلا إنّك أثرت حركة واسعة لا تتمكّن أيّة قوّة من إيقافها. لاستيعاب اقتحاماتك الغضوب، وجب على مجلس الشيوخ مضاعفة تنازلاته أمام الشعب وغدا أعضاؤه من الآن فصاعداً منقسمين إلى معسكرين لا يمكن التوفيق بينهما. أحدهما يريد استمرار نظام الحكم القديم، والمعسكر الآخر يحلم بجمهورية جديدة. الشعوب التي أخضعوها سوف لن ترضى بالعيش باستمرار في حالة خضوع، ولا تملك من الحقوق سوى حق دفع الأتاوات. يضطر سادتها لتفادي الثورات إلى تحسين أوضاعها ومنحها بعض الحريّات، بل والموافقة على إعطائها خلال عدة أجيال مواطنية تامة وخالصة. انظر ماذا حدث سابقاً: بلاد الإغريق مقهورة وأسيرة، مع أن آلهتها وشعراءها وفلاسفتها يسودون حالياً على ضفاف التيبر. روما تريد من الآن وصاعداً أن تلتهم آسيا. حسناً تفعل. في الواقع ستكون هي التي ستكتسحها يوماً وستدمُر تقاليدها ومعتقداتها. اطّلعت في أفسس على نصّ فضل مؤلّفه المحافظة على كتمان اسمه، وهو يروي أن بوبليوس كورنيليوس سيبيون حضر ليحيي إحدى أضحيات معبدنا في نوباكت في إتوليا فانتابه خبل بشكل مؤقت وتنبأ، بلسان هوميروس، أن منقذاً ملكاً يأتي من مناطقنا لينتقم من الضرر الذي أحدثه وطنه للإغريقيين.

ـ لكنك تعلم أنّ سيبيون لم يأبه يوماً لهذه المقولة.

ـ لا أهمية لهذا. ما يؤخذ بالاعتبار هو أن آلافاً من الناس يؤمنون بها. من يدري قد تكون أنت ذلك المنقذ.

ـ بلغت بي الشيخوخة حدّاً أعجز فيه الآن عن هذا الأمر.

ـ إذن من الممكن أن يكون شخصاً آخر وُلِد في فريجي أو فينيقيا أو فلسطين أو مصر، وهو مكلف بأن يوجّه ضربة قاضية لمدينة رومولوس. سينتقم لك وإن كان يجهل حتى اسمك.

ـ أشك جيّداً في أن يكون أحفاد أحفادك شهوداً على هذا الحدث.

ـ يمكننا أن نصبر ولا حساب للزمن لدينا. حرب طروادة البعيدة بالنسبة لك، تُعَدُّ مرحلة حديثة في تاريخنا. لذلك أنا أؤمن بهذه النبوءة. عاجلاً أو آجلاً سيأتي نور من الشرق يدمّر بلهبه روما مع الفرح العظيم لجميع شعوبنا.

ـ لنتوقف عن هذه النبوءات ولنذهب إلى النوم. تنتظرنا رحلة صيد غداً وأتوقع أن أكون أكثر توفيقاً منك.

لم تحدث تلك الرحلة إلى الصيد. في ساعة متأخرة من الليل حضر رسول من بروسا يفيد أنّ تيتوس كينكتيوس فلامينيوس وصل في العشية إلى بروسا. استقبله بروسياس بحفاوة وأمر العاهل بعقد معاهدة صداقة جديدة مع مجلس الشيوخ، وبرهاناً على نيّته الطيّبة، سيقوم بتسليم ضيفه، وإلا فإن قوات برغام المعسكرة في المنطقة ستسير ضد مملكته وتدمّرها. لم يتردّد العاهل البيتيني، وقد تملكته الرهبة، لحظة واحدة. جنود من حرسه في طريقهم الآن إلى قصر القائد البوني يرافقهم العائدان كليارشوس وديوفانس، رئيسا العمال الهاربان اللذان يعرفان مخططات القصر، وقد عرضا خدماتهما على القنصل.

أمر هنيبعل في الحال خدمه بإعداد بعض الحوائج وحمل بقية ثروته إلى ظهر سفينته. سيقلع بها متّجهاً نحو الشرق باحثاً عن ملجأ آخر يمكنه فيه أخيراً إقامة المدينة المقدّر لها أن تستقبل آخر أعوانه. لكن قيّم القصر لم يتأخر في العودة متجّهم الوجه وقال:

ـ البيت محاط برجال بروسياس.

ـ لنلجأ إلى الممرات السرية تحت الأرض. إن ابتسم لنا الحظ فإن أحد المخارج يكون دون حراسة.

ـ جميعها تحت حراسة مشدّدة. رئيسا العمال السابقان اتخذا كل الاحتياطات وسيكافآن بسخاء على خيانتهما دون شكّ.

ـ آتني بكأس من النبيذ. أعتقد أن حياتي الطويلة ستنتهي هذا اليوم.

ـ لماذا لا نموت والسلاح في يدنا؟ اقترح عليه أريسته.

ـ سُفح كثير من الدم يا صديقي. إنهم يريدون شخصي فقط وسيتركونكم أحراراً بعد انتهاء جريمتهم.

ـ إن تمت أريد الموت إلى جانبك.

ـ تذكر حوارنا الأخير. إنك المؤتمن على مذكراتي، وقد سميتك وريثاً لي لأن لا ذرية مباشرة لي. ها هي الوثائق المكتوبة بخط يدي التي تمنحك جميع أملاكي. أقدر أمانتك الخالية من كل عيب أو خَلَل إنما يجب وجود رجل حائز على ثقتي لاستقبال المنقذ الشهير الذي حدّثتني عنه بمزيد من القناعة.

قدّم قيم القصر لهنيبعل كأس الخمر الذي طلبه. صب ابن هميلقار السمّ المحتوى في فصّ خواتمه في الخمر، وقال لأريسته.

ـ بعد كل هذه السنوات سيرتعش الرومان مثل النساء عندما يشار إلى اسمي ولحضوري في مكان ما. فهم لا يملكون الصبر لانتظار المرض الذي يخلصهم مني. سأبرهن لهم إذن عن حلمي تجاههم وتحريرهم من مخاوفهم. تيتوس كينكتيوس فلامينيوس سيحمل آخر انتصاراته، انتصاراً لا يستحقه، ضمن شوارع مدينته. فيما بعد سيلعنه الشعراء والمؤرخون ويغمرونه باللوم. آمل بحقّ مع ذلك أن يحتفظوا بسهامهم الأكثر غدراً لبروسياس الذي خان قوانين الضيافة الأكثر قدسية. فلتوجّه إليه اللعنة ولتدمّر مملكته قريباً. في هذه اللحظة المشؤومة أتوجّه بصلاتي إلى ملقارت، الإله الحامي لعائلتي، وأرجو أن يصحبني في الطريق الطويل المنفتح أمامي حيث لا يمكن لأي كائن بشري أن يكون مرشداً لي. وداعاً للجميع. إنني فخور بأنكم كنتم أصدقاءً وأعواناً لي، وقد حقّق وجودكم إلى جانبي فرحاً يخفف من عذاب اللحظة الحاضرة.

سُمِعت ضجة عن بعد، وخطى مسرعة في جميع الاتجاهات.

اقتحم جنود بروسياس مدخل القصر وانتشروا في القاعات بحثاً عن فريستهم. حمل هنيبعل الكأس إلى شفتيه وشربه دفعة واحدة. انتابت جسمه هزة عنيفة وانهار على الأرض طريحاً. كان تأثير السم صاعقاً وسريعاً، حتى أنّه احتفظ بالابتسامة التي رافقت كلماته الأخيرة.

من طيّة جلبابه برزت قطعة من ورق البردي. تناولها أريسته وقرأها بعد بضع ساعات، فخجل بروسياس من فعلته، وأمر جنوده بأن يعيدوا إليه حريته. كانت رسالة وجّهها إليه بوبليوس كورنيليوس سيبيون قبل وقت قليل من وفاته، وفيها يحذّر عدوه القديم من الأخطار التي تهدده. وهي تنتهي بهذه الكلمات: «أعرف كثيراً جداً محتكري السلطة في مدينتي لأتصوّر إنهم لن يدعوك تنعم بالسلام. أنصحك إذن أن تتخذ جميع احتياطاتك كي لا تقع حيّاً بين أيديهم. التقدير الذي أكنّه لك يدفعني إلى هذا التصرف مع المجازفة بأن أظهر خائناً لمدينتي. لكن أريد أن تعلم أن بعض الرومانيين فخورون باعتبارك عدواً لهم، وكان يسعدهم أن يحسبوك من أصدقائهم. لا تشكرني: ليست عواطفي بالقدر الكبير من النبل الذي تتوقعه، لأن لي انتقاماً نهائياً منك أنت الذي لم ترد أن تعترف يوماً بهزيمتك، وبذلك حرمتني من أن أتذوّق طعم انتصاري كما يحلو لي. بإنذارك تعود لي الكلمة الأخيرة. على الأقل هذا هو الوهم الذي أتعلّل به، إنّما على خطأ؛ فأنا أعلم بعد موتك أن آلافاً وآلافاً من الرجال والنساء من جميع أنحاء الأرض في الغرب والشرق سيبكونك. إنّهم ليسوا فقط آخر أنصارك الخجولين في قرطاجة، وإنما هم كل أولئك الذين تجسّد لهم البطولة والشهامة. هذا هو انتصارك الأحلى والأجمل وقد أحرزته على روما غير الجديرة بالمجد الذي حققته أنا لها».

الجزء الثالث

حسد روبال

«محارق ميغارا»

مدخل

بدأت منذ بعض الوقت، بإملاء مذكراتي على ماغون مساعدي في الحرب ومرافقي الأمين الذي تبعني في منفاي. ترددت طويلاً قبل إرهاقه بعمل رتيب لا يليق بمقامه. وهو أكثر قدرة على تحريك السيف منه على اليراع، وقد كنت أستطيع أن استخدم ناسخاً لو أن الأعمال لا تتطلب المحافظة على السرّ الكبير. فلِمَ هذا القرار؟ إنني مازلت في صحة جيّدة رغم شعوري ببوادر الشيخوخة الأولى. وأمامي سنوات حياة طويلة سأعيشها. مع ذلك أخاف أن يحول عارض بسيط غير متوقّع أو مرض خفيّ غير منظور دون إتمام مهمتي بالشكل اللائق.

في الواقع إني أنتظر بفارغ الصبر الردّ على الافتراءات التي أطلقها عليَّ بوليب(*)، هذا الإغريقي الملعون الذي شمله بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس بحمايته، فكان المسؤول الأول عنها، وقد علمت من أحد أرقّائه أنه كان يكتب تاريخاً يتطرّق فيه إلى الحروب القائمة بين روما وقرطاجة. عندما كنت ألتقيه وأتبادل معه الحديث لم يساورني أي وهم بأنه سيعمل على توجيه النقد اللاذع لي والإكثار من المديح لحاميه، وهكذا اتخذت احتياطاتي

(*) Polybe: بوليب مؤرخ إغريقي ولد في ميغالوبوليس (200 - 125 ق.م) كان من بين آلاف الرهائن المسلمين إلى روما، عاش 17 سنة في روما وأصبح صديق القائد الروماني سيبيون أميليانوس.

منصرفاً إلى الموضوع الذي اختمر في ذهني منذ مدة طويلة. إذا استطعت تجنب الغوص في السخافات، سأقول عنه أنه قضية حياة أو موت.

لن يطّلع بوليب أبداً على مذكراتي لأنها سترد عليه، لكن ما أقنعني في آخر الأمر بأن أبوح إلى الأجيال القادمة بذكرياتي الخاصة، كان فتى تافهاً لا يتجاوز العاشرة من عمره. في كل مساء، عندما التحق مترنحاً بمسكني الواقع قرب الساحة العامة بعد تناولي عدة كؤوس من خمر صقلية في مقهى الدلفين الرشيق، كان ينتظرني ابن جيراني في المسكن مع رفقاء لعبه ليشبعني بالشتائم. كنت أملك أحياناً بعض الصفاء الذهني لأستمع لسخرياته: «انظروا السكير القرطاجي. يملك طلعة مهيبة، ولكنه ثمل مثل باخوس(*)، لأن الخمر هي الوسيلة الوحيدة التي وجدها لينسى جبنه وأخطاءه».

لم أتذمر يوماً لأشكوه إلى أبيه، قائد المئة السابق الذي يحمل جسمه أَثَر الطعنات التي تلقاها في القتال. أسكنه مجلس الشيوخ في جواري للمراقبة والتجسس أكثر منه لحمايتي، علي القبول للأسف، فكثير من الرومان وبعض مواطنيّ يحلمون بقتلي لأنهم يعتقدون بمسؤوليتي عن موت ذويهم. هذا الرجل الجريء يبدو لي وكأنّه أحد الحرّاس الأشدّاء وقد عمل أكثر من مَّرة على إحباط محاولات الاعتداء على حياتي. إن رويت له تصرُّفات وَلَده كان أول رد فِعلٍ له حُسنَ تأديبه خشية إحالة شكوى إلى السلطات المهتمة بشؤوني، فأنا لست أوّل سكّير يتعرّض له هؤلاء الأولاد الحائزون على قسوة عمرهم الفتيّ. غير أنّ معاناة هؤلاء الرجال أقلُّ إيلاماً من معاناتي. إنّهم صعاليك تعساء عرفوا على الدوام البؤس والعزلة وحملت لهم الخمر سكينةً مؤقتة. أما أنا فمن طينة مختلفة، وحتى عند استغراقي في تقيؤاتي لا أستطيع نسيان أنني حسدروبال البيوتاركي، القائد

(*) Bacchus باخوس: إله الخمرة عند الرومان. أطلق الرومان اسم باخوس على إله الكرمة والخمرة المسمى عند اليونان ديونيسوس.

العام السابق للجيوش القرطاجية، الجندي الذي آثر الاستسلام لأعدائه بدلاً من الهلاك مع أتباعه في نيران حريق مدينته ومسقط رأسه.

فتحت تهكّمات هؤلاء الفتيان عينيّ على مدى انهياري. سيسخَر مني جيّداً أبناء الذئبة. لم يكن استسلامي لهم يهدف إلى إنقاذ حياتي، إنما للتخفيف عن آلام مواطني وتجنيب القسم الأعظم منهم الذبح أو الانسياق إلى العبودية. أردت تماماً المداولة في استسلام مشرّف دون أن أغفل عمّا ينتظرني. في روما اعتاد الجنرالات الذين يسبغ عليهم مجلس الشيوخ امتيازات النصر أن يذبحوا مشاهير أسراهم بعد قسرهم على السير خلف عرباتهم حتى معبد جوبيتر كابيتولن. في يوم الاحتفال المعدّ للحفاوة بالانتصار الباهر لبوبليوس كورنيليوس أميليانوس، هيّأت نفسي للموت بسيف الجّلاد على نَسَقِ عدد من رفقائي التُعساء، لكن فاتني ذلك الحظّ. قرر خصمي المنتصر أن يتركني حياً عالماً أن استمراري في الحياة أشد هولاً من الموت وأنا ألفُظ مع أنفاسي للمرة الأخيرة اسم وطني المحبوب. لم يكن مُخْطِئاً، فها أنا منذ عشر سنوات أعاني ذُلّ الهزيمة وأحاول نسيانها بالسُكْر مثل خنزير. بالطبع كان باستطاعتي الانتحار، إنّما في هذا إقرار بحقّ خصومي.

شكرت ذلك الفتى الملعون على شتائمه لمرة أخرى إضافية. عندما استيقظت في فجر أحد الأيام وأنا طريح أوساخي طلبت من عبدي تحضير الحمام ودعوة ماغون مساعدي الحربي الأمين، وعندما أطلعته على مشروعي رأيت وجهه الذي خدّدته السنون يُشرق وأدركت أنه كان ينتظر تلك اللحظة مُدةً طويلة. في لحظة واحدة غفر لي جميع الإهانات التي وجّهتها إليه منذ وصولنا إلى ضفتي نهر التيبر. فيما بعد كنا نلتقي كلّ يوم لنعمل معاً، وماغون ليس محاوراً سَهْلاً. ولا أنتظر منه أيَّ تساهل، فذاكرته يقظة مُدهِشة حتى أنّه يلومني فوراً عندما أحذف حدثاً أو أتوجه إلى تجميل الوقائع لمصلحتي.

أدركتُ بفضله أن لا فائدة من كتابة تبرير عن تصرفاتي. في البداية خُيّل إليّ بكلّ سذاجة أن عرضاً صادقاً للأفكار التي دفعتني إلى التصرّف بهذه الطريقة دون تلك ستشدُّ انتباه قُرَّائي، فأقنعني ماغون أن المنتظر مني هو القصة الحقيقية لهذه الحرب التي اندلعت بين روما وقرطاجة دون أن أخفي المسؤوليات المترتبة على هذا الجانب أو على الجانب الآخر. لمرّة واحدة غدت الكلمة للمهزوم لا للمنتصر. مع ذلك كنت أهدف إلى غاية أكثر طموحاً: إدلاء الشهادة عن مدينة لم يبق منها حجر فوق حجر.

إنني في الواقع واحد من أواخر الأحياء عن حضارة منقرضة، على مثال الأطلانطيد(*) الغامضة التي تحدّث عنها أفلاطون(**) في كتاباته. أنا لا أجهل، بكل تأكيد، أنّ هنالك مدناً مثل أوتيكا يتكلم فيها الناس لغتنا ويعبدون آلهتنا ماتزال قائمة في الجهة المقابلة للبحر الكبير. الفلاحون الأشدّاء في الأرياف المجاورة لها اللامبالون بغضبة الأحداث حولهم لم يغيّروا شيئاً من طراز حياتهم وإليسا المحترمة، مؤسسة وبانية قرطاجة، لن تحسّ بالاغتراب إن عادت للاختلاط بهؤلاء الأقوام. كثير من السكان استمروا في إرسال الجزية إلى معبد ملقارت في صور الحاضرة التي وفد منها أجدادنا. وكلّي أمل أن هذه الشعلة المقدّسة لن تنطفئ أبداً، وأن الرومانيين لن يتوصلوا إلى انتزاع روح المقاومة والصمود الحافزة لمواطنيّ.

لكن قرطاجة، قرطاجة الكبيرة البهيّة، اختفت إلى الأبد. وغطّت موقعها الأعشاب البريّة والأحجار القليلة المتناثرة التي قاومت معاول الجنود الرومان ورفوشهم بعد أن كُلّفوا بتدميرها. تأثّرت

(*) Atlantide: أطلانتيد: جزيرة افتراضية في المحيط الأطلسي غرقت في البحر وألهمت الشعراء منذ عهد أفلاطون في كتابة الأساطير العديدة.

(**) Platon أفلاطون فيلسوف إغريقي تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو (428 ـ 348 أو 347 ق.م).

حتى اغرورقت عيناي بالدموع عندما قصّ علي أحد رفقائي القدماء، بعد أن حرّره سيّده الروماني من العبودية، أنه جازف بحياته وتوجّه إلى أفريقيا وخدع انتباه أبناء الذئبة وعاد إلى الأمكنة التي ترعرع فيها. وعندما هجع الليل حول الموانئ القديمة قال لي: إن صمت الموت كان يخيّم على تلك الأمكنة التي كانت تضجُّ بالحركة والحياة ليلاً نهاراً. غدا من المتعذر عليه حتى الاهتداء إلى المكان المحدّد للمقام والساحة التي كانت الجماهير تتجمع فيها لانتخاب رؤساء معبد إشمون الكبير القائم على هضبة بيرسا، أو قصر ذويه في رياض ميغارا. على نبرة صوته أدركت أن من واجبي إعادة إحياء موطني بسحر الكتابة ورواية الكارثة التي حلّت به وسبّبت دماره، دون أن تتدخّل آلهتنا الحامية لإنقاذنا.

لا أعلم ما سيحدث لهذه القصة. وأجهل تماماً إن كان بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس سيقدّر تماماً انشغالي بصياغتها. وهكذا كنت أعير كل انتباهي لخداع من يحيطون بي فأرتدُّ إلى حانة الدلفين الرشيق أتناول الخمر حتى أفقد وعيي. عندما يقوم بعض العمّال الأشداء بإعادتي إلى منزلي ألاحظ أن ابن جاري ورفاقه يسخرون مني. فحسدروبال البيوتاركي لم يَعُد في نظرهم إلا حسدروبال السكير.

عسى لهذا الوهم الكبير أن يستمر إلى ما لا نهاية! مايزال أمامي كثير وكثير من الأعمال الواجب إنجازها حتى ليعتريني الشك أحياناً في إمكان إنجاز هذا المشروع. غدا ذلك من الآن فصاعداً سبب بقائي الوحيد على قيد الحياة. يحدث لي أن ألتقي أحياناً ببوليب اللعين، بكل سفاهة كان يقرأ لي بعض مقاطع من كتاباته، ولاحظت أنه يتصرف فيها بحريّة غريبة في مخالفة الواقع. إنّه يلقي على عاتق قرطاجة مسؤولية كل هذه المصائب بينما نحن ضحية مؤامرة دُبِّرت بمهارة من أبناء الذئبة، بمن فيهم أولئك الذين يؤكّدون أنّهم أصدقاؤنا وحُماتنا. كان بإمكاننا الانتصار عليهم

لولا الخلافات والأحقاد التي نمت بين صفوفنا، هذه الخلافات التي أشعل نيرانها الرومان والنوميديون عن طريق توزيع الأموال. أنا في الموقع المناسب للكشف عنها، وسيدهش الكثيرون عند اطلاعهم على هذه الأسرار.

آمَلُ عند احتضاري أن يتمكّن ماغون من التخلص من فضول مجلس الشيوخ وإظهار ثمرة عملنا. اتخذت في الواقع جميع الاحتياطات، وأنا على يقين بأن جهودنا ستتكلّل بالنجاح ليس لما يعتريني من وهم حول القيمة الأدبيّة لشهادتي. كنت في فتوّتي تلميذاً طائشاً، أحلم كثيراً بالانصراف إلى اللهو والملذات والجري في الحقول، أكثر مما أهتم بتوجيهات معلمي الإغريقي. لست شاعراً ولا أجد إلا بمشقة الكلمات المعبّرة عن أفكاري، إلا أنني أرجو لهذا النصّ غير المكتمل أن يتجاوز الأحقاب والأجيال لتحظى قرطاجة بحقها المشروع، قرطاجة أجمل المدن وأنبلها على الإطلاق.

الفصل الأول

لا أعرف أمي، فقد توفيت جرملقارت بعد ولادتي. وفقاً لما قيل لي، كانت عليلة الجسم واهنة القوى وقد بقيت عليلة الصحة طوال الحَبَل بي. فكانت إحدى خادماتها تضع لها تحت مخدتها تمثالاً صغيراً لڤينيمان الربّة النوميدية، وهي تمسك بيدها ملقط جنين. لكن هذه التميمة لم تُجدِ نفعاً لأن الحمّى الشديدة انتابتها وتوفيت بعد مولدي بيومين. كنت بدوري شديد الضعف، لدرجة الاعتقاد أن حظيّ في الحياة شبه معدوم. لذا أُطلِقَ عليّ اسم حسدروبال، أي من يحتاج إلى عون بعل. وهو اسمٌ غير مألوف حتى ذلك الوقت في وسط عائلتنا.

لم يهتم والدي موتومبعل بي، وفي غمرة أحزانه اعتبرني مسؤولاً عن موت زوجته وكان بإمكانه أن يضحّي بي أمام بعل مولوخ غير أن أنصاره منعوه خشية الفضيحة، وأُرسلت مع مرضعة حَبَشية إلى إحدى ملكياته الواقعة في منطقة رأس بون حيث قضيت السنوات السبع الأولى من حياتي، وكانت هذه السنوات أمتع أيام وجودي. فقد نشأت بين العبيد والمقاولين، بصحبة حشد من الأطفال لا يجاملونني مطلقاً، فمن أين لهم أن يعرفوا أن هذا الطفل القذر، الأشعث الشعر، الممزّق الثياب الذي يقاسمهم ألعابهم هو ابن مالك هذه الأمكنة ومَنْ عليها؟ ننهض مع إطلالة الفجر الأولى فنهرع إلى الحقول، نحاول الإمساك بالعصافير، والحيوانات البرية، والأسماك السابحة في أقنية الري، وبعد عشاء بسيط على الأغلب

نقضي القسم الأعظم من الليل في مراقبة نجوم السماء قبل أن نعود إلى ذات العنبر فننام على القشّ حيث نتراصّ فيه خلال فصل الشتاء.

تعلمت كثيراً باحتكاكي مع رفقاء لعبي. كان بعضهم من النوميديين الذين درّبوني على لغتهم غير المألوفة وعلى معتقداتهم الغريبة، بعضهم من أبناء العبيد السردينيين أو الغاليين أو الليبيين وهم فتيان لا يدركون أنهم سيقضون العمر كله ليعملوا بقسوة في الأرض تحت رقابة المقاولين المتوحشين ممن يوزّعون عليهم، لأقلّ الذرائع، ضربات السياط والعقوبات الجسدية. ربّما رفضوا لهذا السبب بعنادٍ أن يعاملوني كرئيس عصابة لكنهم كانوا يتسلون لرؤيتي أظهر لهم طاعة عمياء. أتت في وقت مُبكّر جداً على هؤلاء التعساء الفترة التي تبدّلت فيها الأدوار وغدا لي عليهم الحقّ في الحياة والموت.

كانت مرضعتي امرأة بدينة، ذات بشرة سمراء، حاولت إرشادي كي أتصرَف بتعقل وأمتنع عن المجازفات المتهوّرة، وقد وَجَب عليها دون شكّ أن تطلع والدي في أوقات منتظمة على فعالياتي ونشاطي، وهو لا يتردّد في العمل على جلدها إن أصابني مكروه. عندما يجانبني الرقاد كانت تقصُّ عليّ مسيرة الحياة في بلدها الواقعة ما وراء الصحراء، وهي تعجّ بالحيوانات المفترسة التي يقضي السكان أوقاتهم في العراك معها، وقد رأت خلال أحد هذه الحروب قريتها تحترق، وأهلها يقتلون أمام عينيها ثم تقاد بدورها إلى الأسر لتباع لأحد النخّاسين وهو كبير متعهدي اليد العاملة في قرطاجة.

مازلت أذكر يوماً دخلت فيه عربة ثقيلة تجرها الثيران إلى باحة المُلكية. نزل منها رجل وقور وهو يرتدي جلباباً ثميناً من الكتّان الأبيض، وبدا بلحية مهابة ومشذّبة بعناية، فتقدم منه ربُّ الدار يحييه بكل احترام. بلهجة متعالية استفسر عن مكان وجود ابن السيد الكلي القدرة موتومبعل. عندما رآني بشعري المُشعث ووجهي

القذر وثيابي المهترئة لم يستطع أن يخفي غيظه، ورمقني بنظرة مزدرية:

- ألا تخجل من مظهرك؟ هل تظنُّ أنّك تشرّف ذويك؟

- لا أعلم. تعوّدت على هذا العيش. وأنا لا أعرف الأشخاص النبلاء الذين تشير إليهم.

- أرى أن الوقت قد حان، بل إنّه الوقت المناسب ليتذكّرك والدك. اذهب لتستحم والتحق بي في القاعة الكبرى من هذا المكان ليلبسك العبيد ما يتلاءم مع مرتبتك. غداً سننطلق إلى قرطاجة حيث ستتعرف على ذويك. أما أنا، فاعلم أنني أسمّي بعلَّ نواس وأنا مكلّف بتربيتك. وأرى أن أمامي أعمالاً كثيرة يجب إنجازها. أنت في الظاهر صبيٌّ متوحش وتبدو لي عصيّاً عن التطويع. لن أتردّد، إن لزم الأمر، في تقويمك لأعلمك العادات الحسنة وأجعل منك رجلاً جديراً بحمل هذا الاسم.

مرّت الأمور بسرعة كبيرة حتى أنني لم أستطع توديع رفقاء لعبي ومرضعتي الوفيّة. في اليوم التالي كنا في الطريق إلى تلك المدينة ذات الاسم الخفيّ، قرطاجة، التي لم أكن أعرفها أبداً. عندما رأيت على البعد أسوارها العالية المدعّمة بأبراج ضخمة أطلقت صرخة دهشة، لم أر من قبل مثل جمالها. تضاعف إعجابي عشر مرات عند اجتياز باب حدريم لدخول المدينة. على جانبي الطريق تنتصب أبنية ذات طوابق عديدة، وجموع غفيرة عملاقة تعجُّ بالعشرات والعشرات من الرجال. تنشغل الطوابق الأرضية فيها بأصحابِ حِرَفٍ يعرضون بضائع متنوعة: ثماراً وبقولاً وفخّاريات وأقمشة وأنسجة مطبّعة بمختلف الألوان، وتماثيل صغيرة، عدا عن العطور والحليّ. عانت عربتنا مشقّة في شق طريقها عبر هذه الجماهير، وبعد أن عبرنا ساحة واسعة دخل مركبنا إلى منطقة حدائق وبساتين قائمة داخل حَرَم مسوّر. بدا بعل نواس منتفخاً مثل قربة من جلد الماعز، وتمتم بتذلل وهو يهمس في أذني: «ها نحن

في ميغارا. بعد قليل سنصلُ إلى منزل والدك وهو أحد أجمل قصور قرطاجة. قف بمنتهى الأدب والاحتشام إن أردت تجنُّب سوطي الجلدي!».

لا ضرورة للقول أنني كنت منبهراً بروعة القصر الذي وقفت عربتنا أمامه. في أسبيس البلد الهام في منطقة رأس بون لاحظت كثيراً من بيوت أشراف المدينة خلال زياراتي لها، لكن هذه بَدَت مثل أكواخ اللبْن بالمقارنة مع هذا القصر الشامخ المحاط بممر واسع من المرمر والقاعات المجهزة بالمفروشات الفاخرة. تم اقتيادي إلى مكان غريب، جناح السكن المخصص لي. كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذه الكلمة، وذهلت عند اكتشاف هذه القاعات ذات الجدران المزخرفة برسوم تمثل الأرباب والرّبات. هذه الأبنية تطل على شرفة واسعة تُشرِفُ على بساتين تديرها مجموعة أقنان. وَجُدت في غرفتي سريراً عريضاً زُيِّنت قوائمه بنمنمات دقيقة. أستطيع الاعتراف الآن بأنه كان علي الانتظار عدة أشهر لأتمكن من الرقاد على هذا السرير الرائع. في الليل ما أن يدير بعل نواس اللعين ظهره، ويذهب بعيداً عني، حتى أهرع وأفترش الأرض. واختار، إن ساعدني الوقت، زاوية هادئة في الحديقة مع الاهتمام بالالتحاق بالمنزل قبل أن تشرق الشمس.

قُدّمت في المساء نفسه إلى والدي موتومبعل، وهو رجل ضخم ذو صوت قاطع ونظرة ثاقبة. لم يظهر أي بادرة حنان تجاهي، إلا أنه تأمَّلني من أخمص قدمي حتّى قمّة رأسي وكأنه جزّار يفحص بهيمة قبل شرائها.

ـ هكذا إذن، أنت حسدروبال، ولدي. اعلم أنني أحببت والدتك جرملقارت كثيراً ومازال أبكيها. لم أتزوج مجدداً وفاءً لذكراها وآمل أن تبجلها وتكرمها بحسن سلوكك. لا أستطيع الاهتمام بك في الوقت الحاضر لاهتمامي بمشاغلي ضمن مجلس المئة وأربعة. لقد ترعرعت في أملاكنا في رأس بون، مهتماً بشأن نفسك. أنت الآن في

سنتك السابعة ومن المناسب أن تتلقى علوم عصرك، لهذا السبب دعوتك إلى قرطاجة. غداً ستدخل إلى المدرسة الواقعة ضمن حرم معبد إشمون لتتعلم فيها القراءة والكتابة، وليعلمك كهنتنا تاريخ مدينتنا والأسرار المقدسة لديانتنا، لا أطلب منك إلا أن تكون طليعة صفك، وإن خالفت أمري سأعمد إلى توجيه الأوامر بجلدك حتى تنفر الدماء من جَسَدِكَ. لم تسنح الفرصة للقائنا، ولكن لا تتصور أن هذا يعني أنني غير مهتم بك. بل إن العكس هو الصحيح، وأنا أنتظر أن تصبح أهم الشخصيات في هذه المدينة، وآمل ألّا تخيب ظنّي، هل كنت واضحاً بما يكفي؟

ـ بلى يا والدي تمتمت بلهجة خائفة، قبل أن ألتحق بغرفتي وأنفجّر بالبكاء والنحيب، هل يعقل أن يكون هذا الرجل البارد، الفاقد الحس، والدي؟ ماذا فعلت له ليظهر لي في أوّل لقاءٍ لنا مثل هذا البرود؟ لم أتوصل إلى إجابة مقنعة عن هذه التساؤلات. بفضل لامبالاته الساخرة والظاهرة وجب عليَّ أن أعمل باستمرار لأكون جديراً بموقعي بين الأشراف وأوجه له أشد الإهانات. لو أنه أحبّني لغدوت مثل قبّرة وبدّدت وجودي في البحث عن مَلَذّات تافهة، على نسق معظم أبناء قرطاجة الأرستقراطيين القادرين على التمرّغ في البطالة المثيرة للاشمئزاز.

كرهت المدرسة الواقعة في معبد إشمون القائم على هضبة بيرسا المقدّسة. فجميع كهنته، باستثناء الكاهن الأكبر هورميز هيميلكات، كانوا من المنافقين والطمّاعين الراغبين قبل كل شيء باستغلال سذاجة المؤمنين، أقولها بشكل خاص لأن أعدائي اتهموني ظلماً بالإلحاد بذريعة أنني كنت أرفض دائماً وبعناد المساهمة في احتفالات التديّن والتأمل في بعض المحرمات. بالرغم عنهم، أنا الكائن الأكثر ورعاً في العالم، وأنا أوقّر بكل جِدٍّ وإخلاص وبالمستوى ذاته الرب بعل حمّون وأمَّنا تانيت. أتضرّع إليهما في كل مرّة يعتريني الشك وأجد طمأنينة كُبرى في توجيه

صلاتي إليهما. غير أنني لست قادراً على أن أنحني أمام رياء الكهنة.

في طفولتي أمكنني أن ألاحظ هؤلاء يسخرون بشكل مكشوف من المعتقدات التي يرشدوننا إليها، ويرددونها لنا بشكل رتيب ليتأكّدوا من أننا قادرون على حفظ دروسهم عن ظهر قلب. كانوا يحترسون جيّداً من الإجابة على أسئلتنا ويثبطون بفكاهات حمقاء الفضول المشروع لبعض منا. إنّهم على الأرجح المسؤولون الرئيسيون عن هزيمتنا. لماذا تهرع آلهتنا لنجدة مدينة يقوم كهنتها بازدرائها؟

أسعدني أن هيميلكات كاهن إشمون الأكبر يحيطني بصداقته. إنّه ينتمي إلى عائلة أمي ولم يتأخّر في إدراك ما أعانيه من ألم في عزلتي. من أجل إثارة اهتمام أصدقائي الجدد ضاعفت من مظاهر العصيان ورفضت بعناد الألفبائية البونية، وعندما أُنذر بسلوكي السيئ دعاني إليه، ووقفت أرتعش من العقاب الذي ينتظرني. عزمت الحبُوَّ على الأرض طالباً صفحَهُ عندما سمعت صوته المعذب يقول لي:

ـ حسدروبال، لا تخشَ شيئاً. إنني أدرك الأسباب التي تدفعك إلى التصرف مثل وَلَد سيّئ. اقتلعوك من الحياة الهادئة ليغرقوك في أرجاء قرطاجة، حيث يسعى كل واحد فيها للعيش وفق أهوائه ويطأ بقدميه المبادئ الأكثر قدسيَّة. إنك تتألّم من هذا الوضع وتعتقد بأنك تنتقم من أبيك بتصرفك مثل إنسان بائس وبرَفْضِك تعلُّم القراءة والكتابة سيعاقبك بقسوة لو عرف موقفك. وسَتَقِف بتفاخر كاذب معانداً بمجابهته، وسينتهي به الأمر إلى الملل تاركاً إياك لتلقى مصيرك البائس. ستغوص في فتوّة لامبالية فَرِحة لكنك، فيما بعد، عندما تغدو في العمر الرشيد لممارسة مسؤولياتك ستركَنُ في زاوية ما، بعد أن فاتَتْكَ الخبرة الضرورية لحسن التصرف، وعندها ستأسف على أخطائك إنّما بعد الخيبة وفوات الوقت لإصلاح ما انقطع. فكّر جيّداً في هذا الأمر.

ـ أشكرك أيّها الكاهن الكبير لشهامتك. كنت أتوقع منك عقاباً قاسياً، وأرى الآن الواقع معكوساً لمخاطبتك إياي بلغة القلب. مع ذلك، اعترف لك بأنني أزدري أساتذتي. فهم لا يرون فيّ إلا ابن موتومَبْعل ويسعون إلى كسب رضاه. الواقع، أنّهم لا يهتمون بي، ولا يبالون بما أتعلّمه وهذا ما يثبط عزيمتي. ما الفائدة من اكتساب المعرفة بالقرب من هؤلاء المعلمين التافهين؟

ـ لا تقل لأحد أنني أعطيتك هذه النصيحة: اخفِ مشاعرك وتعلّم خداع أعدائك. ازدرهم في داخل نفسك لكن استخدمهم لمصلحتك. معرفتي واسعة بقيمة أساتذتك. ولو أن الأمر يعود إليّ لن يكون لأيّ منهم الحقّ في اجتياز عتبة هذا المعبد المقدس، لكن للأسف عليّ التزام الحَذَر ومداراة بعض الحساسية.

ـ إذن لا مجال لإصلاح الوضع؟

ـ لكل مشكلة حلٌّ على الدوام. إن كنت مصمماً على الاستمرار بكونك تلميذاً كسولاً فإن في ذلك رضاهم وسرورهم، وسيسخرون من جهلك. وبتحوّلك إلى تلميذ ذكي ستضايقهم أكثر مما تتصوّر لأنّك ستجبرهم على العمل. سألزمك إذن أن تتعلّم قراءة لغتنا وكتابتها بأسرع ما يمكن. عندما تجتاز هذه المرحلة سأستدعيك إلى قربي وسأقوم بتعليمك تاريخ مدينتنا وكل ما يجب على الرجل المثقف أن يعرفه. لن تكون بحاجة إلى احتمال الأساتذة التافهين الذين تتحدّث عنهم. اطمئن سيكتمون الأمر عن والدك خشية فقدان المكافآت التي سيغمرهم بها لمرأى نتائجك. هل توافقني الرأي؟

ـ نعم. غير أنني يا هيميلكات الوقور أرى من واجبي أن أصارحك الرأي: إنني أشكُّ في مؤهلاتي العلمية. فما أنا إلا ابن زقاق ريفي، كائن فظّ، لو تراكمت عليه إرادة العالم لن تجعل منه إنساناً مثقفاً.

ـ إنّك تخلط في أمرين: العلوم الباطلة والحكمة الحقيقية. وهذه

الأخيرة لا يمكن تعلمها بالقوة من العلماء المختصين وإنما بالاختلاط مع البشر. أعلم ذلك بالخبرة. اعتمد علي وسيسير كل شيء نحو الأفضل.

لم يداخلني الندم لأنني اتَّبعت نصائح هيميلكات العجوز، فبفضله استطعت خداع والدي المزهوّ بالبيانات المغرية التي يعرضها كهنة المعبد لصالحي. كان فخوراً بي فامتنع لحسن الحظ عن مساءلتهم والبحث مطولاً بشأني. كنت في الواقع لا أراهم إلا نادراً، فأنا أقضي معظم أوقاتي مع الكاهن الكبير يقصُّ عليّ تاريخ قرطاجة بتفاصيله الدقيقة، وهو العارف لمراحل نشوئها منذ عهد تأسيس الملكة إليسا لها.

عندما بلغت الثالثة عشرة من عمري، عهد بي إلى أحد أصدقائه، وهو إغريقي اسمه أريسته، عمل في السابق مدرّساً لإحدى العائلات الأرستقراطية. علّمني لغة هوميروس وكذلك بعض مبادئ اللغة اللاتينية، التي عانيت مشقّة في اتباعها، وبعد عدة سنوات من تعلم الحكمة عدت مجدّداً إلى شياطيني القديمة ومراهقتي الطائشة، وغالباً ما يمر أسبوع دون أن أحضر إلى معبد إشمون. في الصباح أغادر قصرنا في ميغارا وأقضي النهار بصحبة بعض المراهقين في الحانات حول المرفأ، أستمع بشغف إلى حكايات البحّارة والتجار. أما أصحاب الحانات وقد علموا من أنا، فقد عملوا على تلبية طلباتي وتمكنت من إقامة الحفلات لمدعويَّ، وقد ازدادت فصاحتهم كلما أفرطوا في احتساء الأقداح. بفضلهم تعلّمت عادات الشعوب التي تعيش في الجانب الآخر من البحر والمنافسات القذرة القائمة بينهم. لم يوجّه لي هيميلكات أو أريسته أيَّ لوم بل طلبا مني بكل بساطة أن أروي لهما ما اكتسبته من معرفة، وساعداني على تمييز الصحيح من المزيّف.

في تلك الظروف تعرفت وأنا لم أتجاوز الخامسة عشرة من العمر على أحد الرومان، ماركوس لوسيوس أتيليوس، تاجر في

الثلاثين من العمر. عندما قدّمه لي جاره على منضدة الشراب بدرت مني قهقرة تراجع مفاجئة. روماني! إنّه بالنسبة لنا عدو بامتياز، تاجر من تلك المدينة الملعونة التي انتزعت من أيدينا جميع ملكياتنا باستثناء الأفريقية منها، وألزمتنا على تقديم غرامة باهظة بعد هزيمة قوّاتنا المخزية في زاما. لم يكن الرجل غرّاً مغفّلاً، وفضّل أن يقهقه ضاحكاً وقال:

ـ لا تقل لي أن بونياً شاباً يخاف شيخاً! قسماً بجوبيتر أرى مدينتينا تعيشان الآن في سلام، وأعترف صراحة بأنني أفضّل قرطاجة على موطني. هنا نشعر بالمتعة وحلاوة العيش بينما يقوم شيوخنا في ظل الكابيتول ببذل قصارى جهدهم للبرهان على تقشفهم لإرضاء معلّمهم النموذجي، هذا المتذمر المشؤوم ماركوس بورسيوس كاتون الذي يتغذّى بالماء القراح وبعض الحساء. اشرب كأساً من خمر صقلية وادعُ لي بالصحة ولنكن أصدقاء! ماذا تفعل في هذه الحانة؟ هل تسعى للتطوّع بحاراً على متن إحدى السفن ثلاثيات المجاذيف؟

ـ مازلت صغيراً على هذه المهنة. لنقل أنني مازلت أتابع دراستي.

ـ يا له من عالم غريب أين معلّمك؟ إنّه بعيد النظر أو قليل الكلام ليسمح لك بارتياد هذه الأمكنة الموبوءة.

ـ لنقل إنني المعلّم والتلميذ في آن واحد: وأنا لا أعتبر هذا المكان موبوءاً كما تزعم لأنني أطّلع فيه على جُملة من الأشياء الهامّة، مع ثقتي بأن سرد مغامراتك سيتيح لي فهماً أكثر عمقاً لشعبك وطريقة تصرفه معنا.

ـ لا أتوقع أن تاجراً مجهولاً يستطيع أن يقدم إليك الأخبار. أنا تاجر يشتري ويبيع الزيت والخمر والعبيد إن اقتضى الأمر عدا الأنسجة والعطور. لا أهتم إلا بأمرٍ واحد: جمع قطع الذهب والفضة لإعالة عائلتي والإنفاق على خليلاتي. ولدي واحدة هنا في قرطاجة،

وهذه العفريتة تكلفني ثمناً غالياً، إلَّا أنني مولعٌ بها لأنَّها ذات بشرة سمراء وناعمة وهي خبيرة بفن الغزل والغرام. مما يغيّر من وضع نساء روما اللواتي يمارسن الحب وكأنهن ضحايا ذبيحة بشريّة. لو أن الأمر بيدي لغدوت بكل ارتياح مواطناً في مدينتكم. مع ذلك، وبما أنك لا تمارس أي عمل يشغلك، أعرض عليك مرافقتي إلى محبوبتي إذ من الممكن أن يبسم لك الحظّ أنت أيضاً.

أدركت سريعاً مغزى كلماته الأخيرة. خليلته صاحبة ماخور يرتاده البحّارة. مع رؤيتهن لي أهم بالدخول أطلقت الفتيات صيحات الفرح. فمنظر فتى وسيم يغير من فظاظة وبلادة معاشريهن من الزبائن. إنّهن يتنافسن لمعرفة من ستحظى بتعليمه مسرات وأسرار الحب. ارتعشت رعباً، فاخترت نوميديّة شابة قادتني خلف ستارة. أسرعت بالانقضاض عليها تماماً، وألقيتها على وسادة صُنِعَت من خِرَق قديمة، وراح فمي يسعى إلى شفتيها قبل أن يهبط إلى صدرها. أذكر أنني غمرت رأسي بين ثدييها بينما راحت يداها الخبيرتان تداعبان ما بين ساقي. لم تعد تحتمل فولجت بها عميقاً وهي تتأوه متعة، بعد ذلك غمرني إحساس مثير بلذة عارمة، حتى كاد يضيع رشدي. وعندما عدت إلى القاعة الكبرى كان ماركوس لوسيوس أتيليوس ينتظرني، واستقبلني بصوت جهوري قائلاً:

ـ ها قد غدوت رجلاً. لنشرب نخبك أيّها البوني الشاب. وبالمناسبة ما اسمك؟

ـ حسدروبال.

ـ لن أنساه أبداً. إنما إن لزمك أي شيء فستعرف أين تجدني. والآن عُد إلى منزلك، فأهلك سيقلقون على كائن يملك مثل هذا الجمال النموذجي، ويبدو لي أنَّك ماتزال فتى يافعاً.

أذكر أنني تُهتُ لمدة طويلة في شوارع المدينة قبل أن ألتحق بمقرّي في ميغارا. غدوت رجلاً وتولّد لدي شعور بأن كلّ هذا يبدو على وجهي. في ساعة متأخرة من الليل التحقت بالقصر الأبوي

مروراً بالحدائق. وفي الصباح تذرعت بحمّى انتابتني لأتجنّب الذهاب إلى المدينة، والواقع أنني بقيت نحو ثمانية أيام ممدداً على فراشي وعين بعل نواس الحذرة تراقبني. كنت بحاجة إلى هذه الاستراحة لأصل إلى القرارات المحدّدة لموقفي طوال حياتي.

* * *

وُلِدت في سنة موت هنيبعل، الملزم على الانتحار بحقدٍ لا يُغتَفَرُ أضمره له أبناء الذئبة. لم يكن السمّ الذي تجرّعه لينهي أيامه إلا شراباً مُراً. وعاش بذاته إلى أن تمكنت مؤامرة دنيئة، حاكها الحزب الأرستقراطي ضده وضد أتباعه، من إلزامه على الهرب بسرعة ليفتش في الشرق عن ملجأ مجهول، قرب أمراء عقوقين. لم يُحدِث نبأ وفاته، وفقاً لما أنبئت به، أي انفعال خاص في مدينتنا. الرجل الذي خدم وطنه بإخلاص لا حدود له نُسيَ تقريباً من قبل مواطنيه، لم يَعُد يذكره أحد عدا مجموعة قليلة من المحاربين القدماء في إيبيريا وإيطاليا. اختار أعضاء الحزب البرقاوي، المضطَهدون من القادة الجدد لمجلس المئة وأربعة، ومن ضمنهم والدي العمل بسرية كاملة. وأمام الضرر الكبير حيث يتحمل الشعب العبء الرئيسي من الضرائب المرتفعة لدفع غرامة الحرب إلى الرومانيين، وقف الشعب صامتاً لا تطرف له عين متحملاً نير حنون ذي الحصة رجل مجلس الشيوخ القوي.

كان موتومبَعْل أحد الأوائل الذين انضّموا إلى المجلس عندما علم بموت قاهر كانّاي، وقد أمّنت له هذه الحركة الاحتفاظ بمركزه في قلب مجلس المئة وأربعة، وعدم التراجع إلى مصاف الشيوخ البسطاء. إلا أنني منذ وصلت إلى عُمرٍ أدرك فيه عمق السياسة لاحظت أن أبي يمارس لعبة مضاعفة. هو يدافع جهاراً عن حركة السلام، لكنه في مجلسه الخاص يقيم علاقات وثيقة مع أصدقائه القدامى وكذلك مع عصبة البرونوميديين الذين يقودهم إيتربعل. كان يضفي تأكيدات تُظهر حسن نيته للطرفين بحيث يأتي الجميع في

النهاية إليه للتحكيم بينهم، خاصة عندما تحدث بعض الخلافات بين قضاتنا. كان يملك فن إيجاد تسوية مُرضية للجميع، ويتمتع نتيجة ذلك بتقدير كبير.

كان يحرص جداً على إبعادي عن أيٍّ من مناوراته الغامضة. فأنا لست في عينيه إلا ذلك الفتى المتمرّد غير الملتزم بأي قانون رغم اعتراف معلمي المزيّفين بروعة نبوغي. خلال لقاءاتنا النادرة يحدثني بأمور تافهة ويسألني بصورة خاصة عمن أعاشر من الأصدقاء. إنّه يريد انتماء أصدقائي إلى النخبة الأرستقراطية المتميّزة، معتقداً أن هذه العلاقات ستعود علي بالنفع في الوقت المناسب لأصل إلى ذروة الأمجاد. اضطررت لتجنّب إزعاجه إلى الالتزام بلقاء هؤلاء الفتية المتحذلقين من أبناء عائلات في منتهى البلادة، كنت مغروراً وحاسداً لهم على امتيازاتهم. معهم كنت أذهب للصيد قرب نهر سيكا لنتجمع في حفل متناغم، وأعين جواسيس حنّون ذي الحصة تراقبنا. ولكن طيشنا يطمئنه. فليس لديه ما يخشاه من جهتنا.

استمر هيميلكات، لحسن الحظّ، في إرشادي وتبصيري بعينين يقظتين على واقع الحياة. كاهن إشمون الكبير من كبار المعجبين بهنيبعل، ومنه تعلمت المآثر المنجزة لأكبر قائد في جميع العصور، وخاصة عبوره جبال الألب. قررت وأنا منبهر بمسيرته أن أنصرف إلى مهنة الحرب، وتعلمت كيف أستعمل السيف والرمح مع بعض الجنود القدماء ممن أسعدهم أن يروا بونياً شاباً يغذّي في قرارة نفسه أحلام الأخذ بالثأر.

لم يعلم موتومبَعْل بما أفعله. هو يحلم لي بمصير آخر. حسب معلوماتي لا يتمنى لي أن أخلفه في مجلس الشيوخ، لعلمه بكرهي للخداع والمؤامرات. إنه يريد أن يجعل مني مالكاً للأرض ورجل أعمال. في الواقع، قام بالتوازي مع مشاغله العامة، بالعمل في المشاريع التجارية. منذ عدة أجيال تمتلك عائلته إقطاعات زراعية

واسعة في السهول الكبيرة شمال قرطاجة، وفي منطقة رأس بون، وفيها يعمل الآلاف من العبيد ممن يستثمرون أراضينا حيث ينبت القمح والشعير والكروم والزيتون والأشجار المثمرة. أما الأغنام السارحة في المروج فإنها تؤمن اللحوم لأسواق مدينة إليسا. اهتم كثيراً برعاية مصالحه، ولذلك كان يعمد أحياناً للقيام بزيارات غير متوقّعة ليتحقق من حسابات موكّليه ويظهر قاسياً عديم الشفقة تجاه من يحاول خداعه.

في تصرفه المبدع والخلّاق لم يكتفِ بما تؤمّنه الأرض له. لكنه كمواطن بوني لديه روح بحّار فطريّة ساهم مع مورّدي السُفُن بإنشاء شركات للاستفادة من العلاقات التجارية المزدهرة القائمة بين قرطاجة وروما. بعد هزيمة زاما وَجَبَ على القرطاجيين تدمير أسطولهم الحربي، إنّما مع الاحتفاظ بالسفن التجارية الموجودة في جميع مرافئ البحر الكبير. أعقب سنوات التقشف المفروضة، بسبب الحروب التي خاضها هنيبعل، هيجان من الترف تملّك مواطنينا. في البدء حاول مجلس المئة وأربعة التدخل بوضعه قيوداً تمنع النساء من ارتداء الثياب الفاخرة والحلي والمجوهرات الثمينة، غير أنّ زوجات رؤساء الشيوخ كن من أوائل المعارضات، وقام أزواجهن الذين ملّوا من استمرار هذه المهاترات فألغوا بسرعة تلك الإجراءات، بل سرت الأقاويل بأن بعضهم قد حصل في تلك المناسبة على مكافآت هائلة من قِبَل بعض التّجار.

يترتب علي القول بخجل كبير إن شعبي لا يمتلك الروح القتالية. فأبناء إليسا أقرب إلى ضراوة رجال الأعمال التجاريين منهم إلى شراسة المحاربين العسكريين، لذلك كان جشعهم مضرب الأمثال. مرفأ الكوتون العسكري خالٍ تقريباً من التجهيزات العسكرية، بينما كان المرفأ التجاري يعجُّ بالناس والحركة في الفصل الجميل موسم الخصب. على المراكب أن تنتظر عدة أيام أحياناً قبل أن تتمكّن من تفريغ حمولتها الثمينة على المرفأ. من أهم البضائع ذات القيمة

الكبيرة سيراميك كامبانيا، الذي يتمنى جميع مواطنينا، الأغنياء منهم والفقراء أن يحصلوا على بعض العينات المختارة منه: صحون، أصص أزهار، مصابيح إنارة، أباريق وجرارالخ. إنه فعلاً أجمل بكثير من فخاريات الحرفيين المحليين الهزيلة. أما بالنسبة إلى النساء فقد كنّ يزدهين بعطور كابوا. تلك المدينة التعيسة التي عوقبت بقسوة لأنها فتحت أبوابها لجيوش هنيبعل، لكن سكانها الجُدُد استعادوا فعاليات سابقيهم وكانت سوق سلابيا ترسل منتجاتها حتى بلاد المشرق. عرف سكان كامبانيا مع توقيع معاهدة الصلح طريق قرطاجة ولم يجدوا أي حَرَج في المتاجرة مع أعدائهم القدامى.

بالمقابل كنا نبيع بأسعار جيّدة قمحنا وشعيرنا وعلفنا وزيتنا لروما، التي ازدادت حاجاتها مع توالي انتصاراتها. في مناسبات عديدة التمس مجلس شيوخ روما من مجلس المئة وأربعة تأمين كميات كبيرة من الحبوب، لتموين الفرق المنطلقة لشن الحروب في اليونان والشرق. أُمِّنت طلباته بدقّة مشرّفة دون أن يطالب قادتنا بالمقابل تخفيض الغرامة التي تدفع لأبناء الذئبة كل عام، ودلالة على التحسن المستمر بين المدينتين استقرّت جالية رومانية في قرطاجة كما علمت من صديقي ماركوس لوسيوس أتيليوس. كما عاش في أوستي، وعلى ضفتي التيبر، تجّار بونيون عديدون كانوا بمرآهم ولهجتهم المنطلقة من حلقهم يسببون ضحك مواطني ماركوس بورسيوس كاتون.

قدم والدي إلى بعض هؤلاء التجار رساميل جنوا بعد استثمارها أرباحاً وفيرة أعيد توظيفها في أعمال تجارية أخرى. تملّكني شعور غامض بأنّ من واجبي أن أراقب مجموع فعالياتهم التجارية وأرهبتني الفكرة بشكل مضاعف. فأنا من جهة لا أميل إلى الأعمال التجارية، وأنا أوّل من يتعرض للسرقة من قبل أصحاب المتاجر الذين يرفضون مناقشتي في أسعارهم. من جهة أخرى

فتحت مناقشاتي الطويلة مع هيميلكات عيوني للاطلاع على أمر بغاية الوضوح، وقد أدهشني أن مواطنيّ لا يعيرونه اهتماماً: المنافسة بين روما وقرطاجة ستثير على المدى القريب أو البعيد حرباً جديدة. تموين حاضرة رومولوس باقتطاع قسم من مؤونتها، وحالة شبه العبودية التي تعيشها مدينة إليسا لا يمكّن استمرارها، فمن واجبها العمل على تأمين سلامة سفنها بأن تعيد بناء أسطولها الحربي، مخالفة بذلك المعاهدة الموقّعة مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون الأفريقي. وإلا فهي ملزمة عاجلاً أو آجلاً بالتخلي عن أهدافها المشروعة كقوة بحرية كبيرة والاكتفاء بقدرها، كقوة محدودة داخل البلاد، وهي أفقر من أن تشكّل سوقاً هامة لتصريف منتجاتها. أما روما، المنتصرة على المستوى العسكري، إنّما المدمّرة بالإرساليات الموجّهة إلى اليونان والشرق، فستتعرض لضربة مباشرة عند إيقاف الأتاوة السنوية عندما لا يتم تسديد هذا الدين من قِبلنا لصالحها. وإن أنصار استعمال القوة في روما سيحاولون من جديد إثارة النزاع لقسرنا على تسديد غرامة حرب جديدة لتعويم صناديق الخزينة العامّة.

بعد إدراك هذا الواقع، وباعتبار أن المواطن الجدير باسم بلده يجب أن يعد العدة لاحتمال وقوع الحرب، قررت الانتماء إلى السلك العسكري واتّباع خُطى هنيبعل، فهو الوحيد الذي أدرك أنّ بين قرطاجة وروما صراع مميت، وتطوّع لإنهائه لينتهي حتماً بزوال واحدة منهما. أخطأ هو بالذات، رغم عبقريته، لأنّه لم يتوجّه إلى روما غداة انتصاره في كانّاي، وقد قصّ علي هيميلكات أنّه أحس بندامة مستمرة. يجب إتمام مخططه، ولأجل ذلك يجب الحصول من والدي على الموافقة لأصبح جندياً.

كان تهيؤي لهذه المقابلة الحاسمة التي عزمت عليها في اليوم التالي لمغامرتي مع ماركوس لوسيوس أتيليوس، وفضّلت أن أبقى وحيداً لأستعيد قواي وأهيئ حُججي. زارني أريسته مُرسَلاً من

هيميلكات وقدّم لي بعض النصائح الثمينة. عندما قدّرت استعدادي لتحمل غضب موتومبعل أعلمته، بوساطة بعل نواس، أنني أرغب بلقائه. ولدهشتي الكبرى لم تكن مواجهتنا عاصفة وفق ما كنت أتصور وأخشى. بالتأكيد وجب أن ألازم منزلي أياماً عديدة ليجد أخيراً عدة دقائق يخصصها والدي للقائي، لكنه لأوّل مرّة منذ تلاقينا المجدّد استقبلني واستمع إليّ بكل هدوء. لم يقاطعني وتركني أتكلّم، وأبعد بإشارة من يده الخدم الوافدين لتذكيره بوصول الأشخاص الذين وعدهم باللقاء بهم. عندما أنهيت عرضي بقي صامتاً مدة طويلة. لو أنني واجهت مثل هذا الموقف منذ شهرين لاعتبرته سخريةً أو ازدراءً. هذه المرة اقتنعت أنه يفكّر باهتمام بنواياي، محاولاً أن يتبين صدقي وجديتي أم أنني أرغب بإثارته. أخيراً قررّ موتومبَعْل أن يجيبني، وكانت كلماته مدهشة عذبة بالنسبة لي:

ـ حسدروبال، ألاحظ أنّك تغيّرت فعلاً منذ عدة أشهر. لم أتصور أبداً أنَّك ستتخلّى عن عاداتك كوَلَدٍ فظٍّ خشن. تركتك سبع سنوات تتخبط في الجهل ضمن ملكيتي في رأس بون، وذلك لأنني اعتبرتك مسؤولاً عن موت أمّك. عندما رأيتك لأوّل مرّة خجلت منك ومن ذاتي أيضاً. إنّك الممثل الأخير لسلالة لامعة من مشاهير الرجال ومنهم بعض رفقاء إليسا، كما أن منهم عدة قضاة وكهنة كبار في مدينتنا. تصرفت بشكل سيّئ تجاهك ويمكنك أن تُكنّ لي الضغينة. دهشت وسررت للجهود التي بذلتها استدراكاً للزمن الضائع. أعلمني هيميلكات بأنبائك الطيّبة وملأ نفسي زهواً كأب لا يجهل بعض الأمور الجارية. لا تعترض، إنني على عِلْم بالاتفاق الجاري بينكما، أعرف منذ مدة طويلة أنك لا تذهب كلّ صباح إلى معبد إشمون لملاقاة تلاميذ مدرستك. اخترت لنفسك صفاً في حانات المرفأ التجاري. يالها من مدرسة سيئة! ألومك بقدر جهلك وأنت لهذا السبب شعبيٌّ جداً لدى العامّة. الواقع أنني أنتمي ومازال منتمياً سرّاً للحزب البرقاوي الذي يحارب سرّاً الأنانية العمياء للعائلات الأرستقراطية الكبيرة. في الوقت الحاضر، ومنذ رحيل هنيبعل

غدونا أقلية، لكن من غير المستبعد أن تجري الرياح لمصلحتنا. بفضلك يمكنني أن أكون على رأس المعارضة ضد حنّون ذي الحصة . إنّك خدمتني دون معرفة أو إرادة، وهذا يدفعني لأتفحّص إلتماسك بدراية. تريد أن تكون جندياً؟ كنت أحلم لك بمستقبل آخر، لكنني أوافق على التحليل الذي أجريته لتطوّر علاقاتنا مع روما. إنني مقتنع بأن من غير الممكن تجنُّب الحرب مع أبناء الذئبة. ليس لدينا لسوء الحظ جيش، إذ وجب أن نسرِّح معظم قواتنا الغريبة بعد هزيمة زاما. أمّا مواطنونا فأنت خير من يعرف أنهم يعتبرون السلك العسكري مهنة مخزية. يجب إذن بكل جِدٍّ إعادة بناء قوّاتنا بمنتهى السريّة، وهذه مهمتك في السنوات القادمة. وألفت انتباهك إلى ضرورة التحلي بالصبر والأناةِ. سيتَّخِذ مجلس المئة وأربعة، بناء على طلبي، منذ نهار غد قراراً بتعيينك في إحدى وحداتنا لتتعلم مهنة الضابط، وسيمرُّ وقت طويل دون أن تستطيع العودة إلى قرطاجة. إنها فرصة سانحة لك لتلاحظ ما يجري حولك. لا تعتبر بُعدك عنا كأنه نفي ولا تدع الغرور يسيطر عليك. ستتعرض لخيبات أمل ولمفاجآت سارّة، وستكون على تواصل مع النوميديين وهم حلفاؤنا سابقاً قبل انضمامهم إلى روما. حاول الارتباط معهم وخاصة مع أبناء ماسينيسا الشيخ، فمن الممكن أن يتعلق مصيرنا بهم ذات يوم. ها أنذا وليس لديّ شيء أقوله لك. لن أراك على الأرجح إلا بعد أشهر عديدة، لكن بعل نوّاس سيرافقك وسنبقى بفضله على اتصال. آمل ألا أتأسَّف على القرار الذي اتخذته هذا اليوم!

ـ لا تخش شيئاً يا أبي، سأعرف على الدوام كيف أكون مصدر فخر واعتزاز.

الفصل الثاني

وفى والدي بما وعد. بعد بضعة أيام من مداولتنا دعيت لمقابلة بعل يتون، أحد المستشارين الرئيسيين لحنون ذي الحصة، وهو رجل ذو سمعة سيئة. اتُهم جده سابقاً في المشاركة في مقتل هميلقار الكبير، والد هنيبعل، وهو يدير بالذات مجموعة من الجواسيس والوشاة المكلّفين بالرقابة على معارضي حاميه. بلهجة ساخرة لم يغُب عني خبثها، أعلن لي ضرورة التحاقي دون أي تأخير بحامية أوروسكوبا، وهي محلّة تقع على مسيرة عشرة أيام من قرطاجة في نهاية إقليم السهول الكبرى.

سرت مع بعل نوّاس ونصف دزينة من العبيد للالتحاق بذلك المركز النائي الذي يبدو أنّ لا أحد من الجنود يتذكّره. كنا نتوقّف كل مساء في ممتلكات أبي أو أحد أصدقائه، واستطعت بهذه الطريقة الحصول على بعض خيول الركوب النوميدية. كانت ضامرةً حروناً، لكنها قوية يجدر بكل ضابط حريص على اسمه ومكانته أن يمتلك بعضاً منها. تقيّدت فعلاً بنصيحة موتومبعل دون أن يداخلني أيُّ وهم، وخاب أملي بما اكتشفته وأنا أمارس وظيفتي. كانت أوروسكوبا ضيعة كبيرة جاثمة على هضبة تشرف على سهل واسع. إنّها للوهلة الأولى في موقع استراتيجي هام، لكنّ سور المدينة مدمّر لم يبق منه سوى برجين وبعض بقايا حيطان، في كلّ مكان كانت الحفر غاصّة بأحجار التحصينات وقد استخدمها السكان لتوسيع أو تقوية منازلهم.

عمد الجنود إلى مغادرة الحصن والإقامة عند محظياتهم في المدينة. منذ أكثر من سنة لم يتلقّوا أي أجرٍ وهم يعيشون عالة على السكان السعداء بإعالتهم بدلاً من انصرافهم إلى جبايات غير قانونية أو إلى أعمال النهب. كانوا، معظم الوقت، عاطلين عن العمل لكنّهم يمدّون يد المعونة إلى جيرانهم في مواسم القطاف أو عند جني الكروم.

لم يبلّغ رائدهم بودشمون بوصولي، فاستقبلني ببرود قائلاً:

ـ هكذا تذكّرتنا قرطاجة. علاوة على ذلك أرسلت إلينا ضابطاً فتياً مع حُسن قيامي بمهمتي. لا أجروْ على الترحيب بك لانعدام الوسائل الضرورية لذلك. أقم حيث تشاء إن وجدت مسكناً ملائماً في هذا البرج الذي أشك بصلاحيته. إنني بالذات أعيش مع ابنتي في غرفتين سيّئتين نختنق فيهما صيفاً ونقشعرّ برداً شتاءً. إنّه القسم الوحيد السليم في الثكنة، ولا أسمح لإنسان حتى لابن عضو في مجلس المئة وأربعة أن يزحزحني عن مكاني.

ـ لم أفكر بهذا الأمر أبداً، بل سأعمل وكأنني أدنى مرتبة منك وأنا واثق أن العائلات الغنيّة في البلدة ستتنافس على استقبالي معتقدين عن طيبة خاطر برضى والدي. أعِدُك عندما سنبني هذه القلعة بأنّك ستحظى بالمساكن الملائمة لمركزك.

ـ لستَ ساحراً يا حسدروبال. من أين لك المال للقيام بهذه الأعمال؟ إن على مجلس الشيوخ أن يأمر بصرف مستحقاتنا لتطبيق العدالة.

ـ قرّر موتومبَعْل أن يهتم شخصياً بهذا الأمر، وما عليك إلا أن تستوفي نصيبك من الخزينة. ستوزّع عليكم أعطياتكم منذ نهار غدٍ. أمّا السُلَف اللازمة لترميم هذا الموقع فسيحصل عليها من حنون ذي الحصة دون أيِّ عناء.

ـ إنّه أول خبر جيّد أسمع به منذ أشهر. أُغفر لي فظاظتي فهي

صادرة عن رجل لا يستحق المعاملة السيئة التي يلقاها من رؤسائه. تعفّنت هنا لعشرة أعوام دون أن أتلقى تعليمات من رؤسائي. اعتقدت أن قرطاجة نسيت حتى وجودي. ارتعشت أكثر من مرّة وأنا أفكّر فيما سيحدث لنا لو أن جيراننا النوميديين قرروا مهاجمتنا. لم يحدُث هذا لحسن الحظ إذ ليس لي، لو تمّ ذلك، غير الاستسلام. إنني مغتبط للأنباء المُعلنة عن قدومك وسيكون لنا دون شكّ عودة للتحدُّث عنها. عليك في الوقت الحاضر أن تجد لنفسك ولحاشيتك سَكَناً في المدينة.

ـ سيهتم وكيلي، بعْل نواس، دون شكّ بهذه التفاصيل. وأنا أرغب في الوقت الحاضر بالاحتفال بوصولنا هذا المساء. سأقيم مأدبة آمل أن تحضرها مع ابنتك. يبدو لي أن إقامتها في هذه القرية ليست سارّة على الدوام، وهي تستحق الشكر على صبرها.

ـ أشكر شهامتك غير أنني أشكُّ بقبولها.

ـ من المؤكّد أن ليس لها ثوباً جميلاً تظهر فيه أمام الناس. لا تعترض. أدركت تماماً ما تعنيه كلماتك، وأنا واثق أنّ مضيفتي ستعيرها ثوباً لحضور الاحتفال. إلى هذا المساء إذن.

أثناء هذا الحوار مع بودشمون، عمل بعل نواس على إيجاد مسكن نقيم فيه عند عبد مَلِك قاضي أوروسكوبا. هذا الشخص البدين ملاك أراضي كبير يعرف والدي، وقد أصرّ على زيارتي في المنازل المخصصة لي: سلسلة غرف مؤثثة بشكل فاخر تتوزّع على باحة داخلية تزين مركزها نافورة مياه. وجّه أوامره لوكيله لإقامة وليمة المساء، مهدّداً إياه بالجلد إن غاب بذخها عن الأعين، ولاحظت إبداء ازدرائه عندما أدرجت اسم بودشمون وابنته بين المدعوين، ولم يتردد في توجيه زوجته لإعارة عريشات ثوباً ملائماً ترتديه.

كانت الأمسية ناجحة جداً. ووَجَب أن أبذل جهودي الفائقة لإخفاء نفاد صبري للتعرف على ابنة رئيسي. عندما ظهرت وهي

ترتدي جلباباً مزيّناً بالمطرّزات، دهشت تماماً لجمالها. إنّها في الثامنة عشرة من العمر ذات بشرة كامدة مخملية وعينين ساحرتين، كانت ذات جمال مشرق، حيّتني بفرح:

- إنني سعيدة لتعرفي عليك يا حسدروبال، وأشكر اهتمامك. لولاك لما استطعت الظهور هذا المساء. أنا لا أملك جديّاً إلا أسمالاً باليةً، ويسرني أن ألقى صديقاً بمثل عمري، يغيّر نظرة هؤلاء العَجَزة المشؤومين الذين لا يتوقّفون عن مضايقتي بإزعاجاتهم المتواصلة. لن تتوافر لنا الفرصة في هذه المأدبة للكلام، لأن هؤلاء المنافقين سيستأثرون بك ليقدموا لك تظلّماتهم وليتبجّحوا باستحقاقاتهم. آمل أن تسنح لك الفرصة لزيارتي لأسمع من فمك آخر أخبار قرطاجة وقد أستطيع اطلاعك على بعض الأمور المفيدة.

لم تكن مخطئة. خلال تقديم اللحوم والبقول والفواكه، توافد الوجهاء المحليون في تزلّفات مفرطة موجهة إلى موتومبعْل ولتقديم خدماتهم لي. منهم من يرى رائد المفرزة بودشمون عاجزاً، ولذلك ابتهجوا لرؤية مجلس المئة وأربعة يمنحه معاوناً مميّزاً. لم أغفل عن كلماتهم الطيّبة ولم أعبأ باتباع نصائحهم حتى لو اعتُبر صمتي تأييداً لأقوالهم.

بعد يومين من تلك الأمسية جمعت جنود المفرزة داخل حرم الحصن المتداعي. كان كثير منهم قد تجاوز الثلاثين من العمر، ويبدو أنهم نسوا مهنة حمل السلاح. علا هتافهم الحماسي عند سماعهم تسديد أجورهم مع علاوات تسدّد من أموالي الخاصة. في المساء اجتمعت على الفور مع بودشمون الذي رسم لي لوحة مقبولة عن الوضع. تُعَدُّ المنطقة التي يشرف عليها واسعة المدى، تنتشر عليها ملكيات كبيرة تعود إلى القرطاجيين الذين توقّفوا عملياً عن زيارتها. في طرفها الشمالي ترتسم الحدود مع مملكة ماسينيسا النوميدية حيث يؤمُّ سكانها سوق أوروسكوبا ليشتروا منه الزيت والخمر ومختلف منتجات المواد الاستهلاكية الجارية مقابل بيع

خيولهم. وتقوم علاقات ودِّية بين الشعبين باستثناء بعض النهابين الذين يقومون بغزوات مفاجئة على المزارع المعزولة للسلب والنهب قبل لجوئهم إلى قراهم الجبلية. توجه الشكاوى المعلّة من بودشمون إلى ماسينيسا، وتدرس بعناية من الشيخ الهرم ثم يعوّض على المزارعين المنهوبين، ويتمسك ببراءته من هذه الأعمال فيرسل بعض مفارز الفرسان ترود علانية القرى المتضررة، مما يردع سكانها لفترة ما عن الاستسلام لنهّابيهم.

لم يخف بودشمون قلقه، رغم احترامه الكبير لماسينيسا.

- إنّ الرجل شيخ عجوز وأخاف مما سيحدث بعد موته. له ثلاثة أولاد ماستانابال وميسيبسا وغولوسا، وكل منهم يحلم باعتلاء العرش بعده. إنه يعرف ذلك لكنه يتجنّب مهما كان الثمن تجزئة مملكته. ولذلك هو يعمل على أن يترك لذريته ميراثاً كبيراً يجنّبهم صراع الأخوة. راح يسعى لتوسيع ملكياته ونحن ضحاياه، المستهدفون بأطماعه. إنّه حالياً مقيّد اليدين والرجلين بمعاهدة الصلح التي وقّعناها معه، وبذات الطريقة مع روما وهي تضمن لنا الملكية الشرعية للأراضي التي كنا نسيطر عليها في أفريقيا عند هزيمة زاما. إنّه يدرك أن حزب سيبيون لن يسمح له بالتعدّي على تعهداته المقدّسة ماداموا يتمتّعون بالأغلبية في مجلس الأعيان. لهذا السبب ارتبط ورثة العرش الثلاثة الملاعين مع ماركوس بورسيوس كاتون عدوّنا الأكثر شراسة. هل سمعت بأنبائه؟

- نعم، إنّما عن طريق صديق روماني لا يكن له أية مودة.

- صديقك على صواب. لأن ماركوس بورسيوس كاتون مجنون فقد صوابه تماماً. في كل مرّة يلقي خطاباً أمام أعوانه وأيّاً كان الموضوع لا يمتنع عن اختتامه بالعبارة التالية: «لهذا السبب، ياأعضاء المجلس الموقرين من الضروري تدمير قرطاجة». ويضحك الأعضاء في سرّهم من هذه الفكرة المتسلطة. بالنسبة لي إنها تقلقني. إنني أخشى هذا النوع من المتزمّتين لأنهم ينتهون على

الدوام إلى هزيمة الأشخاص العقلاء. بين يوم وآخر سيعمل على تشجيع ماستانابال وميسيبسا وغولوسا، وسيحرّضهم جهاراً على إطلاق حملة واسعة للاستيلاء على أوروسكوبا، بعد أن يعدهم بموافقة أبناء الذئبة أيّا كانت الذريعة على ضمها إليهم. وهكذا ترى أن ليس باستطاعتنا دفع قوّاته.

ـ بودشمون، إنني أقاسمك وجهة نظرك. ومخاوفك هي مخاوفي، ولهذا السبب اخترت أن أكون جنديّاً. تحليلك يؤكّد هواجسي وسأنبئ والدي في أوّل رسالة لي. إنّما يقتضينا الواجب الآن أن نتهيّأ سرّاً لدرء مخاطر هذه الأحداث المشؤومة.

ـ بأية طريقة؟

ـ الأكثر استعجالاً إعادة بناء القلعة. لا يمكن ترك بلدة هامّة مثل أوروسكوبا دون وسيلة دفاع عنها. مع بزوغ أول قمر ستبدأ الأعمال. سنكتفي بتشغيل اليد العاملة المستخدمة في مزارع القرطاجيين الأرستقراطيين. موسم الحصاد مايزال بعيداً، وهم منصرفون إلى شبه عطلة، وعلينا الاستفادة من هذه الفرصة.

ـ أتظنُّ أن مضيفك، عبد ملك، سيرضى بإعارتك عبيده؟ سيجد كل الذرائع الممكنة لتجنيبهم هذه الأعمال الشاقة.

ـ توقعت معارضته. أعلم أنّ والدي سيستدعيه بعد فترة وجيزة إلى قرطاجة. وسيمنّيه بالوعود ويدغدغ أحلامه بالكلمات الطيّبة، وسيفهمه بأنه سيكافأ على غيرته الوطنية بحصوله على منصب عين من الأعيان في مجلس الشيوخ، وهو منصب يهفو إليه منذ زمن بعيد، وسيعمد إلى التمسك بيد المساعدة الممدودة إليه بحيث يكون هو أول من سيعرض الاعتماد على خَدَمه لترميم الجدار. سيهمس موتومبعل في أذنه بهذه المبادرة دون أن نتطرق إليها، تيقّن أن عبد ملك سيطلب بالذات مقابلتنا وسيهدّدنا بأشدّ العقوبات إن لم نذعن لطلبه في إعادة بناء أسوار أوروسكوبا.

ـ بدأت تحوز على إعجابي يا حسدروبال! أرى أنك تحسن التعامل مع هؤلاء الأشخاص. لكن ما إن تُبنَ القلعة حتى تظهر مثل فوقعة فارغة دون وصول المساعدات. في الوقت نفسه وصول الجنود الجُدُد يقدم للنوميديين ذريعة لإثارة هجوم وقائي.

ـ لا أرغب في حصول هذا الفخ. ستبقى في الوقت الحاضر الحراسة على ما هي عليه، وسأعمد إلى استدعاء أهل الخبرة من قرطاجة ليبتكروا ورشات تصنع لنا السيوف، والدروع، والمجنّات، والسهام وكريات الغضار والمقاليع، وكل أدوات الحرب وبكميات كبيرة. ستخبّأ كل هذه الأسلحة أوّلاً بأوّلٍ في أماكن مخفيّة حول البلدة، وعندما تحلُّ ساعة القتال ستهرع القوات المقيمة في العاصمة بسير حثيث لا يرون فيه حاجة لحمل أسلحتهم، إذ سيجدون في الأمكنة المخصصة لهم ما هم بحاجة إليه، وسيتصوّر أعداؤنا أننا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا. وسنستغّل هذه الفرصة لنقطّعهم إرَباً ونكبدهم هزيمة كاوية. تظاهر أن رجالك مستمّرّون في نفورهم من العقوق الذي تبديه قرطاجة نحوهم، وأنا أعتمد على هؤلاء المحظيّات وجيرانهم لينقلوا إلى ماسينيسا وأولاده خطتي. إنَّهم بمنتهى السذاجة بحيث يصدّقون هذه التوافه وبهذا الشكل، وخلال فترة قصيرة نستطيع أن نلعب بهم هذا المقلب الشنيع.

أبديت ارتياحي من حماسة بودشمون الواضحة وحمق عبد ملك. التقى هذا الأخير بوالدي وتمّ اتفاقهما على ما توقّعناه منهما. استدعاني مع رئيسي عند عودته إلى أوروسكوبا ليوبّخنا على إهمالنا، وليكشف عما يحيق بالمدينة من خطر مميت في حال استمرارنا بلامبالاتنا.

أَمَرنا، بلهجة لا تحتمل أي معارضة، إعادة بناء أسوار المدينة في أقرب فرصة. بدا لنا أنه وحده وبمفرده صاحب الفكرة الرائعة التي تستحق إعجاباً حاراً من مجلس المئة وأربعة. عندما اعترض

بودشمون عن نقص العمال أجابه، بصفته قاضي المدينة وسيكون قريباً أَحَدَ أعيانها، بتجنيد جميع العاملين في أراضيه وأراضي جيرانه لإنجاز هذه المهمة. عندما غادر الغرفة التي استقبلنا بها أغرقت مع بودشمون في الضحك، نجحت خطتنا بمنتهى البراعة، وأمكنني أن أتحوّل لأسابيع طويلة إلى مقاولٍ يراقب جدَّ آلاف العمال في إعادة بناء الأسوار.

غادرت منزل عبد ملك لكسب مزيد من الحرية وسكنت في معسكر العمال. مارست حياتي تحت خيمة، أستيقظ مع الفجر وأعمل حتى ساعة متأخرة من الليل دون توقف. كنت الضابط الوحيد المسؤول، فقد سافر بودشمون إلى قرطاجة لاختيار العمال الملائمين لمحترفنا. عشت منزوياً إلى أن أعلن لي ذات مساء أحد خدمي أنَّ امرأة شابة تريد رؤيتي. كانت عريشات التي لم أرها منذ تلك المأدبة التي أقيمت عند وصولي. دخلت خيمتي وقد ارتدت جلباباً من الكتان الأبيض وبادرتني بشيء من السخرية:

ـ أحييك يا حسدروبال، البنّاء النبيل، المنصرف إلى العمل دون أن تبالي إن كانت ابنة رئيسك في أمان.

ـ كُفّي عن المزاح. أنني متأكّد من قدرتك على إلحاق الهزيمة بأكثر الناس إزعاجاً.

ـ وأنت هل تعتقد أنك من هؤلاء الناس؟

ـ أنا لا أهرب منك أبداً ولا تخطر هذه الفكرة السخيفة ببالي. لكنني كما قلت منشغل بعملي كلياً.

ـ إنّك تبالغ في الجدّ بالنسبة لعمرك. تأمل عمالك الذين يتصبّبون عَرَقاً ودماً ليرفعوا هذه الكتل الثقيلة إلى أعلى الهضبة. ولكن عندما يعلن نافخ البوق نهاية يوم العمل، يتجمّعون حول مواقد النار ليعزفوا وليرقصوا. دون ذلك لن يتمكّنوا من متابعة عملهم غداً.

ـ لا أستطيع الانضمام إليهم في هذا المجال لا لشعوري

بالتعالي أمام هؤلاء التعساء، لكنهم يلازمون الصمت سريعاً عند رؤيتي معتبرين حضوري، تجسساً عليهم.

- لهذا السبب قررت زيارتك لأكسر أغلال عزلتك، وقد أعدَّت خادمتي وجبة طعام فاخرة وما عليك إلا أن تزيح هذه المنضدة لنستطيع تناول العشاء.

- عريشات، سأكون عديم الذوق إن رفضت عرضك. لنُقبل إذن على هذه المآكل الشهيّة.

لم يَبدُ على الفتاة في نهاية الوجبة الرغبة في العودة إلى أوروسكوبا. رافقتني في نزهة طويلة حول المعسكر ثم قادتني إلى خميلة أشجار لا يرانا فيها أحد. رقدنا على الأرض نرقب بصمت النجوم تتلألأ في قبة السماء، وأحسست بيدها تداعب برفق صدري وهي تتمتم بكلمات ناعمة. كان هذا فوق ما آمل، وبسرعة فائقة تلاصق الجسمان في تدافع متهيج. بدا لي أنها تعرّفت قبلي على رجال آخرين لأنها لا تجهل شيئاً من تقنيات الغرام الحاذقة. عرفنا المتعة لأربع مرّات متكررة. أحسست بنشوة السعادة، وعندما استيقظنا مع الفجر تولّد لديّ شعور بأن رابطتنا لن تكون عابرة. وتولّد لديها بالذات ذلك الاستعداد الروحي، فأسرّت لي قبل الذهاب قائلة:

- حسدروبال، اعلم أنَّني مُلكك من الآن فصاعداً. يمكنك أن تطالبني بما تشاء. لا أملك إلا رغبة واحدة، هي أن أكون في خدمتك وألبيّ بكل أمانة جميع رغباتك. لا أطلب منك إلا شيئاً واحداً: لا تقل لأبي شيئاً عمّا جرى بيننا هذه الليلة. إنّني أعرفه وأدرك أنه يسعى إلى عقد قراني بابن أحد أعضاء مجلس المئة وأربعة. والحال إنّني رغم الحبّ الذي أكنُّه لك، حريصة على الاحتفاظ بحريّتي ولا أرغب أبداً في الدخول إلى إحدى عائلاتكم الأرستقراطية. ليس هذا عالمي. إن لديّ روح المغامرة والتمرّد، وأودُّ أن أختار قدري بنفسي.

- سأحترم رغبتك مهما كلّفني الأمر. تأخّرت في الاهتداء إليك.

اعلمي أنني سأنتظرك في جميع الليالي وأرجو أن تكوني أمينة على هذا الموعد.

* * *

عندما عاد بودشمون من قرطاجة كان يحمل أنباء شيّقة. بفضل دعم موتومبعل الفعّال استطاع استئجار مئات من العمال الذين أغرتهم أجور العمل المرتفعة عن المألوف وبالتواطؤ مع عبد ملك المغتر بنفسه، وبدوره أقام محترفات عديدة في جميع الملكيات الكبيرة القائمة حول أوروسكوبا، وتعالت بسرعة تطريقات الحدادين في تلك الأماكن التي اعتمدت سابقاً وبصورة خاصة على الأعمال الزراعية. لجأنا لتأمين الخشب اللازم لبناء أدوات الحرب إلى الغابات المعمّرة المحيطة بنهر سيكا واستطعنا خلال بضعة أشهر من تخزين آلاف السهام، والدروع والمجنّات في مخابئ خُفيَت بعناية سواء في المزارع أو في الكهوف.

لم تمنعني مشاغلي الكثيرة عن لقاء عريشات كل مساء، وقد ازددت بها غراماً. استمرت في معاملتي بطريقة مدهشة، أغدقت فيها علي بالمداعبات الماهرة، مستجيبة لجميع متطلباتي مع محافظتها على استقلالها الروحي الكبير. أحبتني بصدق، وكانت تجيد التعبير والتصريح بهذا الحب. غير أنني كنت مدركاً لهشاشة تلك الرابطة. سيأتي يوم تملُّني فيه وتذهب إلى ذراعي رجل آخر يمنحها مُتَعاً جديدة. اتخذت احتياطاتي بسهولة بحيث يتاح لي إظهار لامبالاتي بها عندما ألتقي بها مع أبيها. كان بودشمون في تلك الفترة يجهل كل شيء عن علاقاتي بعريشات ويبدي دهشته من تعقلي ورزانتي. لم يتكدر من معرفته أني ارتاد بعض خمارات أوروسكوبا التي اشتهرت عاملاتها بعرض مفاتنهن. وكان يسخر من مظهري المندفع إلى العمل بشكل كامل، ويسرف في نصائحه الثمينة لتهدئة خبرتي القليلة. يجب عليّ الاعتراف الآن أنّني بفضل هذا الجندي المتمرس استطعت التقدّم في السلك العسكري لأصبح قائداً جيداً. درّبني على

حسن توجيه الرجال ومداراتهم لأنها الطريقة المثلى، حسب رأيه، للحصول منهم على تضحية بلا حدود. وقد استطعت أن أتحقق من ذلك بعد عدة أشهر. موقع أوروسكوبا الصغير لم يَعُد موطناً لزمرة من العاطلين عن العمل والساخطين، بل غدا موئلاً جديداً لمجموعة مدفوعة الأجر بانتظام. أحبّ أعضاؤها مجدّداً مهنة محاورة السلاح وجابوا المنطقة لفرض النظام. وكان لإعادة الهدوء أثره الطيّب. وقد رأينا سريعاً وفود مئات المزارعين القادمين من أوتيكا أو من قرطاجة، ليقيموا في أراضٍ كانت مهجورة ليبدؤوا فيها أعمال الاستصلاح.

كنا نتابع خلال هذه الفترة خفية أعمال تخزين الأسلحة، ووصلنا خلال عامين إلى تحقيق أهدافنا. في إحدى الأمسيات حضر بودشمون لملاقاتي وقد بدا عليه الوقار:

ـ انتهت مهمتنا يا حسدروبال. إنّني فخور بك وأشكر مساعدتك القيّمة. يجب الآن تسريح يدنا العاملة ونحن نملك المال الكافي لمنحهم مكافآتهم. إلا أن هذه الفكرة تقلقني بدلاً من أن تزيد مسرّتي. فهؤلاء الرجال حازوا على رضانا بالتأكيد، لكنهم يمتلكون عبئاً ثقيلاً. اطّلع رجال كثيرون على ما حصل لدينا وأخشى أن يحاول بعضهم خيانتنا بالكشف لعدونا عن مواقع مستودعاتنا. أنت تعلم أن عدداً من النوميديين يعيشون في مدينة إليسا وبعضهم جواسيس لماسينيسا. إنهم أغنياء والمال يتيح انطلاق الألسن.

ـ إنني مسرور لتعرّضك لهذا الموضوع الذي يشغل بالي أيضاً. كتبت لوالدي بهذا الخصوص وأكّد لي أنّ ليس لدينا ما يُقلق. بعد فترة وجيزة سيعود هؤلاء التعساء إلى ديارهم حيث تنتظرهم مفاجأة سيّئة. إنّك تجهل على الأرجح أنّهم يتناولون وجبة غدائهم في الوُرَشِ الواقعة قرب المرفأ العسكري. سيخلط في أوعيتهم سمُّ زُعَاف لن يفلت فيه أحد منهم. بالطبع سيُفتح تحقيق في هذا الشأن وسينسب مجلس المئة وأربعة هذه المأساة الفاجعة، إلى مؤامرة

مدبّرة من بعض مجرمي الحقّ العام الذين سيحاكمون ويدانون على التّهَم الموجّهة إليهم لقاء الوعد بإخلاء سبيلهم. أما عائلات الضحايا فسينالون تعويضات كبيرة تخفّف من أحزانهم.

ـ هذا هو الحل الوحيد المعقول على الأرجح. غير أنني أعترف لك بأنني أقشعر منه رعباً. هذه الكائنات المسكينة عملت بقسوة ومن البشاعة مكافأتهم بهذه الطريقة. أخشى أن تعاقبنا الآلهة على هذه الجريمة الشنعاء.

ـ لن يتحمل أيٌّ منا مسؤولية قرار اتخذته السلطات العليا في مدينة إليسا. ما من أحد سيلقي على عاتقنا مسؤولية هذه الجريمة وهي ليست الأولى من نوعها، في ظروف أخرى استخدمت قرطاجة وسائل أكثر قسوة للحصول على النصر، ولا أعلم إن كان ذلك أغضب بعل حمّون والربة تانيت. هذه الوساوس تشرّفك غير أنني أنصحك بنسيان هذه المحادثة.

* * *

في الواقع، وبعد أسابيع من عودة العمال إلى ورشهم قرب المرفأ العسكري، أخبرني موتومبعْل في رسالة منه بتسمّم حصل لهم اعتُقِلَ المسؤولون عنه وحكم عليهم بالموت على الصليب. أعترف أنني لم أعلق أيّة أهميّة على مصيرهم، وأجهل حتى اليوم إن كان هؤلاء المتهمون المزيّفون قد أفلتوا من العقاب وفقاً لما اتفق عليه. إلا أن الأحداث بدأت تأخذ منحى آخر أشد خطراً. فقد نشب نزاع بين رعاة نوميديين ومقيمين قرطاجيين أدى إلى مقتل عشرة أشخاص من رعايا ماسينيسا، وتقيداً بواجب الشرف لست متأكداً من أنّ مواطنينا غير مسؤولين حقيقة عن هذه الأحداث. عمد هؤلاء المزارعون الجدد إلى استصلاح وتحديد الأراضي التي اعتاد النوميديون منذ عشرات السنين أن يرعوا قطعان مواشيهم فيها. دفعت الأضرار الواقعة على المزروعات فلاحينا إلى القيام بتدابير

انتقامية وتطورت النزاعات. اتخذ غولوسا أحد أبناء الملك العجوز هذه الأعمال ذريعة لغزو شمال السهول الكبرى ومقاطعة تيسكا، وإحراق المزارع وطرد العاملين فيها مما دفعهم إلى اللجوء إلى أسوار أوروسكوبا والاحتماء بها.

كانت ردّة فعلي مع بودشمون إغلاق أبواب المدينة والتعجيل بإرسال بعل نواس إلى قرطاجة، لطلب كتيبة داعمة لاستعادة الأراضي التي احتلها النوميديون دون وجه حق. كانت دهشتي كبيرة، فالجواب الوحيد الذي تلقيته هو الدعوة إلى المثول أمام مجلس المئة وأربعة في أقرب فرصة. هرولت سريعاً لأقطع المسافة التي تفصلني عن ميغارا خلال أربعة أيام فقط، وبعد أن قمت باستبدال ثيابي بسرعة توجّهت إلى مجلس الأعيان فوجدت حنون ذا الحصة وموتومبَعْل بانتظاري، ودون أن تتوافر لي فرصة لشرح الموقف اعترضني حنون بفظاظة قائلاً:

ـ بأي حق تجرؤ على توجيه الأمر لقواتنا بالتحرك نحو النوميديين مجازفاً بإثارة الحرب؟ ألا تعلم أنك تغامر بعملية عسكرية ممنوعة ضد حلفاء روما دون أن تحصل على إذن منها بذلك؟ إنّك شاب أرعن، ومبادرتك غير الملائمة لا تليق بضابط مسؤول. خفّتك تقتضي عقوبة رادعة إلا أنني تقديراً لصداقة والدك، وهو أحد أهم المستشارين لدي، سأعتبر أن مردَّ هذا الأمر إلى عدم خبرتك.

ـ حنون، قلت بلهجة ساخطة، أنا لا أفهم الملامات الموجهة لي. إنّنا ضحايا عدوان متعمّد من جيراننا، والأمر لا يتعلّق هذه المرّة بغزوة نهّابين منعزلة. إنّ ابن ماسينيسا بالذات يرأس هذه الحملة، وقد أقام سريعاً في المناطق المحتلة إدارة تفرض الضرائب والرسوم بدلاً عنّا، إنه اجتياح لأراضينا وكلُّ سلبيةٍ ستشجع النوميديين على مواصلة التغلغل فيها. ما فائدة انتظار الجواب من

روما؟ حقُّنا الطبيعي واضح بحيث لن يتمكّن أبناء الذئبة إلا الإقرار بتصرفنا هكذا.

ـ أنا لست مقتنعاً، استأنف موتومبعل، هؤلاء الرومان الملعونون متشككون للغاية عندما لا يتعلّق الأمر بهم. بإمكانهم وحدهم أن ينقضوا المعاهدات دون رادع أو عقاب وقد برهنوا على ذلك مرّات عديدة في الماضي. وعدونا بالتخلّي عن ملكية سردينيا ونقضوا وعدهم. وأقسموا على عدم المجازفة بجنوب الإيبر، وعندما أردنا دخول ساغونت، أكّدوا أنّ هذه المدينة تقع ضمن منطقة نفوذهم. لكن هذا الحنث باليمين المتكرر سيسمح للآخرين بتقليده.

ـ بإمكاننا إلزامهم بالأمر الواقع، أَرْدَفتُ.

ـ لمعلوماتك، إنّ أَحَدَ سفرائهم وهو كنايوس مارسيلوس روفوس يقيم في ربوعنا على رأس لجنة تحقيق مؤلّفة من عشرة أعيان. وقد حضروا ليستوفوا آخر قسط من الغرامة التي نرسلها إلى مدينة رومولوس بعد هزيمة زاما. بالطبع أَعْلَمَتْه بعض النفوس ذات المصلحة ببادرتك وطلب على الفور استقباله. كان اجتماعنا مضطرباً وقد بذلت فيه كلَّ كنوز الدبلوماسية لإقناعه بإرادتنا الطيّبة.

ـ ليأتِ إلى منطقة السهول الكبرى، ليتأكّد بنفسه من خداع النوميديين.

ـ حول هذه النقطة يمكنك أن تطمئن، استأنف موتومبعل، فأحد أصدقائك وهو تاجر اسمه ماركوس لوسيوس أتيليوس وُجِد في إحدى المدن المحتلّة من قبل غولوسا، ومن حسن حظنا تأكيده لأقوالك، مما سبّب تغيّراً كليّاً في موقف كنايوس مارسيلوس روفوس.

ـ أنت مدين لصديقك الروماني بالذات، أردف حنون، في عدم معاقبتك. صلة الصداقة مع هذا التاجر قدمت لنا خدمة فائقة دون

معرفة منك، إضافة إلى ذلك، موتومبعل هو من أهم المستشارين لديّ ولا أريد أن أعاقب ابنه.

ـ أشكرك على سماحتك، قلت بصوت متلطف، وأعدك في أن أكون مستقبلاً أكثر حذراً.

ـ ستبرهن لنا عن ذلك قريباً. ومن أجل ممارسة حقوقنا، استأنف حنون، قررنا إرسال سفارة إلى روما سيقودها صهري آزر بعل. ستكون مستشاراً له وستقدم له المعونة عند الحاجة. احرص على أن تزن، بكل عناية، كلماتك.

ـ حسدروبال، يا بنيّ، أضاف موتومبعل، لا مجال لإضاعة الوقت. سيغادر وفدنا قرطاجة غداً وعليك أن تتواجد هذه الليلة في المرفأ للإبحار. لا تخش شيئاً. أعطيت أوامري للخدم بإعداد حوائجك، وستجد في أحد الصناديق المال اللازم لتأمين حاجياتك لإفساد بعض أعدائنا من أبناء الذئبة عندما تستدعي الحاجة ذلك، أو لإثارة حماس أولئك الذين يريدون لنا الخير. أستطيع أن أؤكد لك أنني مع حنون نعدك بتكليفك بمهام أخرى. في حال نجاحك، عليك مغادرتنا الآن. فلا وقت لديك للذهاب إلى ميغارا والعودة منها.

في الواقع لم أقض أكثر من ساعتين في المنزل قبل الالتحاق بالمرفأ للصعود على متن ثلاثيّة مجاذيف حيث ينتظرني آزر بعل ورفقاؤه. استقبلني صهر حنون ذي الحصة ببرودٍ لم استغربه، فهو يشكٌ بولاء والدي ويعتقد بتأييده للحزب البرقاوي سرّاً، وقد امتعض لضرورة تحمل وجود ابنه في هذه المهمة التي يتوقف عليه نجاحها بشكل نسبي.

أظهر البرود في مخاطبتي، لكنه في اليوم الثالث من السفر، وبعد أن اجتزنا سواحل صقلية واجهتنا عاصفة شديدة، كادت الأمواج التي تضرب ظهر السفينة تحمله إلى القاع لو لم أدفعه بقوّة إلى حجرته. لم أكن واثقاً من قيامه بذات العمل لأجلي، غير أن هذه البادرة جعلته أكثر تودّداً لي.

لم نفترق خلال الفترة المتبقية من تلك الرحلة أبداً. سألني أن أحدثه بالتفصيل عن إقامتي في أوروسكوبا وعن كميات الأسلحة التي تم إعدادها. أدركت عند سماعه أنه مؤيد بلا قيد أو شرط للتحالف مع روما، وأنه مستعد لمضاعفة التنازلات للمحافظة على الوضع وعدم إحراج أعضاء مجلس الأعيان. لقد تلقّى دون شكّ تعليمات بهذا الخصوص من حنون ذي الحصة، لكنني أعلم أن هذا الأخير مخلص لوطنه ولا ينقصه الحزم عندما يتطلب الموقف. بدا لي صهره ذليلاً متزلفاً كثير المسايرة. أقنعته، وبحق، أن هذه البعثة لا تهدف إلى إيجاد الحلول للنزاع وإنّما لسبر الحالة المعنوية للمنتصرين علينا. لم يدرك إلا بعد عودته إلى قرطاجة أن مجلس المئة وأربعة قَرَّر فعلاً السلوك الواجب اتباعه وأنه سيرسل، عند الضرورة، بعثة أخرى للتوصّل إلى اتفاق.

بعد ستة أيام إبحار، رست سفينتنا الثلاثية المجاذيف في مرفأ أوستي. كان كنايوس مارسيلوس روفوس بانتظارنا، وقد بدا عليه بعض الانزعاج. أعلمنا أنه يتوجب علينا البقاء في هذه المدينة الصغيرة ريثما يأخذ مجلس الأعيان علماً بوصولنا وليتشاور حول إمكانية استقبالنا، بالانتظار ـ يحظر علينا الدخول إلى المنطقة المقدسة وهي أرض روما ومحيطها الشامل مع مناطقها المجاورة. وجدنا مقراً لنا عند بعض التجّار البونيين، الذين أبدوا فرحهم بلقاء بعض مواطنيهم والاستماع منهم عن أخبار قرطاجة الطازجة.

عند هبوط الليل قمت بجولة في حانات المرفأ لأستمع إلى محادثات الزبائن، وعندما دخلت إلى أوّل حانة أدهشني أن أرى فيها على إحدى الموائد العامرة بصحبة مَرِحَة ماركوس لوسيوس أتيليوس. أجلسني إلى جانبه وبدت عليه الفصاحة:

ـ كما ترى يا حسدروبال تركت بلدتكم الجميلة للالتحاق بوطني. كانت زوجتي غاضبة لغيابي الطويل، وقد حصلت على كثير من البضائع التي تؤمن لي الثراء عند بيعها. لكن ما سبَّب حضورك

إلينا؟ آمل ألّا تكون قد أتيت مفتشاً عن تسليات لتواسيك من خيبة أَمَل عاطفيّة لأنّك ستصاب بصدمة حقيقية. روما، كما سبق وذكرت لك، مدينة كالحة ونساؤها باحتشامٍ لا يطاق. ستصاب بالملل إن أطلت الإقامة في ربوعنا.

ـ إنني في مهمة رسمية. وأنا بصحبة البعثة التي يرأسها آزر بعل، حضرنا لنعترض على تصرفات النوميديين نحونا.

ـ إنني على عِلمٍ بهذه القضيّة، وقد سنحت لي الفرصة ـ ربّما تم إعلامك بذلك ـ للتداوُل مع كنايوس مارسيلوس روفوس، وأنا مقتنعٌ بأنه سيدعمكم أمام زملائه رغم أن هذا العجوز الغبيّ ماركوس بورسيوس كاتون سيستغل الفرصة كعادته للتنبؤ ضد مدينتكم. لحسن الحظ، هو لا يتمتع حالياً إلا بأقلية داخل مجلس الأعيان، حيث يُعَدُّ الرجل ذو الكلمة النافذة بوبليوس كورنيليوس كوركيلوم أحد أقرباء سيبيون الأفريقي. والحال أن آل سيبيون لأسباب غريبة كانوا دائماً يفضلون التعاون مع قرطاجة. وكلٌّ منا يتذكّر التقدير الذي كان يكنُّه المنتصر في زاما لهنيبعل، بل يجري الهمس بالذات عن قرب وصول بعثة لتقصي الحقائق حول قيام بروسياس بتسليمه إلى الرومان، وتشير إلى أنه هو من قدم له السم ليتيح له الإفلات من جلاديه. يمكنني أن أجمعك إذا رغبت ببوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم لأنه أحد كبار زبائني.

ـ أشكرك على عرضك، وسألجأ إليه إن شعرت بالحاجة له. علينا أن ننتظر جواب مجلس الأعيان على طلبنا المثول أمامه، وآمل عدم التأخير في ذلك.

ـ لا تخش شيئاً بهذا الخصوص. بدأ فصل الصيف مبكّراً هذا العام، وكثير من الآباء الشيوخ يرغبون في الالتحاق بداراتهم الكامبانية هرباً من حرارة روما.

ـ أصبت عين الحقيقة! على كل حال اعلم أننا نسكن عند مواطنينا في أوستي. إنني أعتمد على همتك لإعلامي بما تعرفه من

معلومات هامّة، أستطيع أن أعدك بمكافآت سخية على نشاطك وغيرتك.

- أنت صديقي وأنا مستعدٌّ دون مقابل لتأدية هذه الخدمة لك. غير أنني لا أخفيك بأنكم ستعقدون بسرعة اتفاقاً مع روما. وسأتمكن من العودة إلى قرطاجة لألقى خليلتي وأنسى بين ذراعيها الحياة الجهنمية التي تجرّني إليها زوجتي الشرعية. لهذا السبب أتمنى لك ولآزر بعل المزيد من النجاح!

الفصل الثالث

بعد انقضاء أسبوع على وصولنا، حضر كنايوس مارسيلوس روفوس ينبئنا أن بعثتنا ستُستَقْبَل بعد يومين. دعانا إلى مغادرة أوستي وعَرَض علينا الإقامة في مكان سكنه الواسع قرب الساحة. أخذنا طريقنا على جناح السرعة، وبعد عدة ساعات تراءت لنا روما بأسوارها. لم تعجبني على الفور هذه المدينة. إنّها أصغر من قرطاجة وأبنيتها التاريخية الأكثر أهمية تبدو تافهة أمام آثارنا. كانت شوارعها مزدحمة، تدب فيها الحركة، لكن الجو يبدو ثقيلاً فيها. رأيت علامات الحزن والقسوة مرسومة على وجوه سكانها سواء كانوا من العاملين، أو من العاطلين عن العمل. إنهم لا يملكون لامبالاة مواطنيّ المرحة ولا يتنادون فرحين بين دكان وآخر. استقبل موكبنا ببعض صيحات معادية ليس لأننا قرطاجيون، وإنَّما بسبب وجودنا غرباء بينهم الأمر الذي يضعنا في مجال الشبهات.

أدهشني ذلك، ففي مدينة إليسا جميع أعراق العالم وشعوبه المعروفة يتلاقون يومياً دون أيّة عداوة وَيكثُرُ فيها الزواج المختلط. أمّا هنا فإن سلالات رومولوس يعلنون بصراحة أنهم أكثر سموّاً من الأعراق الأخرى، لأن الأرباب قد عهدوا إليهم بأن يسودوا على كل الأراضي المعروفة. إنّهم يزدرون صراحة جميع من لا ينتمي لمدينتهم. أدركت عندئذٍ كيف استطاع هنيبعل خلال حملته أن يجتذب هذا القدر من الحلفاء الكامبانيين أو من سكان بروتيوم. فقد تحمّل هؤلاء عبودية أكثر قسوة مما فرضناه سابقاً على

السردينيين أو سكان إيبيريا. كان خطئي الوحيد الاعتقاد بإمكان استثمار هذا التذمر لمصلحتنا. لكن دعاة الحرية نادرون مع الأسف، فمعظم الناس يكتفون بقدرهم ويرتضون عبودية مذهّبة.

أنزلنا كنايوس مارسيلوس روفوس في منازل فاخرة أُعدَّت لنا وقضينا قسطاً كبيراً من الليل بتحضير الخطاب الذي سيلقيه آزر بعل. في الصباح أحضرت المحفات لنقلنا إلى مجلس المشيخة أو الكوريا هوستيليا، وهو المكان المألوف لمشاورات مجلس الأعيان حيث بقينا ننتظر في قاعة فسيحة بعد أن وضعت تحت تصرفنا بعض المرطبات.

من ذلك المكان أمكنني أن أستمع بوضوح إلى الاقتراحات المتبادلة بين الأعيان. كنت قد أخفيت بعناية على مضيفي معرفتي لغته. تبادلت معه الأحاديث باللغة اليونانية التي يعرفها آزر بعل بدوره. بقيت الكلمات التي وصلت إلى أذنيّ محفورة في ذاكرتي. وصلنا عندما كان ماركوس بورسيوس كاتون ينهي خطابه وهو يكرّر هذه العبارة: «مرّة أخرى أقول، وأكرّر القول، يا أعضاء مجلس شيوخ روما، إن جميع مشاكلنا ستجد حلاً إن توصلتم إلى هذه البديهية: يجب تدمير قرطاجة!». لم تقابل خاتمة كلامه بأي تصفيق، لكن ضحكة عالية لفتت انتباهي. كان الخطيب الجديد - وقد عرفت فيما بعد أنّه بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم - يوبّخ زميله بلهجة غاضبة:

- ماركوس بورسيوس كاتون(*)، كنت أتساءل فيما إذا كنت ستصل إلى وضع حكمتك المفضلة في نهاية عرضك الممل. وتعلمنا بأنك مكرس لإعادة بناء معبد جوبيتر كابيتولن. نجحت بالشرح لنا حول استطاعتنا تمويل هذه الأعمال وكثير غيرها عندما نحكم سيطرتنا على ثروات مدينة إليسا. حتماً إنك ماهر، بل كثير المهارة.

(*) كاتون القديم أو لسنسور: (149 - 234 ق. م) رجل دولة روماني ولد في توسكولوم (إحدى مدن إيطاليا القديمة) حاول إزاحة عنجهية قرطاجة، فكان ينهي على الدوام خطبه بالعبارة التالية (مع ذلك أعتقد بوجوب تدمير قرطاجة). م.

وأهنّئك على ذلك، لكن ألا تلاحظ الأَثَر الضعيف الذي أيقظته اقتراحاتك بين زملائنا. حان الوقت بل من الممكن أنه قد فات لتستجيب للحقيقة القاسية: وهي أنك الوحيد هنا في رغبتك، بأي ثمن كان، استئناف منازعاتنا مع قرطاجة.

ـ إنّني روماني، ولن أتوقّف مادمت حيّاً عن السعي لإبادة عدونا المميت! صرخ ماركوس بورسيوس كاتون حانقاً.

ـ كلٌّ يحاول أن يستعيد قوته على قَدَر استطاعته. أنت تفكر بالهرب من وطأة السنين بتصرّفك وكأنك ماتزال على رأس جيوشنا، وكأن هنيبعل مايزال موجوداً أيضاً تحت أسوار روما. ذلك الزمن أصبح وراءنا ولن يعود أبداً.

ـ لا تنخدع، وفقاً لمعلوماتي، يمكنني أن أؤكد لك أن...

ـ هل تعتقد، قال بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم، أنني سأسمح لك بمقاطعتي وأتركك تتكهّن كما يحلو لك؟ إن فعلت ستكون قادراً أن تقصّ علينا تفاصيل العلاقات التاريخية بين المدينتين منذ تأسيس مدينتنا من قبل روموس ورمولوس! لكنك تنسى بكل بساطة أمراً واحداً: إنّ نسيبي الشهير، سيبيون الأفريقي، قد حلّ هذه القضية منذ خمسين سنة عند هزيمة البونيين في معركة زاما. وقد وافق مجلس المئة وأربعة على الشروط المفروضة لإتمام الصلح: تدمير أسطول قرطاجة الحربي، ودفع غرامة عشرة آلاف تالان(*) من الفضة تَسدَّد ولمدة خمسين عاماً، ورغم ذلك قدم لنا حنون ذو الحصة رئيس مجلس الأعيان القرطاجي، الحليف الأكثر ولاءً لنا، خلال حربنا ضد بيرسة المقدوني، وبكل طيبة خاطر، في عرض مساعدته لنا، خمسين سفينة نقل؟ ولم يقتصر على هذا بل مَنحنا دون مقابل مليونَ صاعاً(**) من القمح ومئة وخمسين ألف

(*) وحدة وزن في اليونان تبلغ بين 20 إلى 27 كيلو غراماً.
(**) الصاع: وحدة وزن مقدارها 13 لتر تقريباً.

صاعٍ من الشعير لتموين قوّاتنا. حضر بنفسه إلى هذا المكان وأنا ماأزال أذكر كلماته المملوءة بالنُبل: «لن نتوسل إليكم لتحسين أوضاعنا. كنّا على خطأ عند استماعنا إلى هنيبعل ونحن نستحق العقاب الذي حلّ بنا. هذه الهدية والخدمة التي نقدمهما غير كافية لشكر الشعب الروماني، لكنهما مظهر تقدير لعرفاننّا بجميل سيبيون الذي أنقذ مدينتنا من الفناء. في أوقات وأزمنة أخرى، وعندما كانت ثروة شعوب بلدينا في ذروة ازدهارها، قمنا مراراً عديدة بالوفاء بواجباتنا كحلفاء أوفياء مخلصين، ونأمل الاستمرار في هذا العمل ليزول كلّ سوء تفاهم بيننا».

«دون تلك المعونة، أذكّركم، لم يكن بإمكاننا الانتصار على ثورة بيرسة المقدوني الذي ضمّ إلى راياته كل المدن الإغريقية الخاضعة له حديثاً. لم يكتف أعداؤنا القدماء بالكلمات المعسولة، لكنهم برهنوا لنا بالأفعال أنّهم منذ الآن أصدقاء أقوياء ومخلصون.

- أعرف جيداً مكر البونيين وخداعهم، أردف ماركوس بورسيوس كاتون. هذا الشعب عصابةٌ من الكذّابين الأشرار، وهو يسعى بكلّ الوسائل لتخدير شكوكنا به. أنا لا أتوقّع من رجل بمثل خبرتك أن يعتقد بصدق هذه المزاعم.

- أنا لا أعتقد فقط، انفجر بوبليوس كورنيليوس كوركيلوم غاضباً، بل أؤكد لك أن النتيجة ستختلف تماماً لو أن سيبيون الأفريقي استمع إلى نُصحِ من وجّهوه بإزالة قرطاجة من الوجود.

- أتلمّح لي بذلك؟ وقد كنتُ إلى جانب عمّك.

- أقسم لك بجوبيتر كابيتولن أن هذه الفكرة لم تخطر على بال. كنت في تلك الفترة أكثر رزانة في أحكامك على البونيين، واحتفظت بصواعقك لمواطنيك خاصّة المتّهمين بتخلّيهم عن عادات عاصمتنا المتقشّفة. مايزال بعضنا يذكر أنّك طردتَ من هذا الحَرَم القنصل مانيليوس لأن هذا الأخير تجرّأ على تقبيل زوجته عَلَناً.

ـ أنت تعلم جيّداً أن هذا الطراز الطائش لا يليق بسلالات رومولوس ويجب أن ينال عقابه!

ـ يا للعمل الجميل! قال أحد الأعيان ضاحكاً: أتتجرأ على الادِّعاء أنك لم تقم بهذا التصرف مع زوجتك؟

ـ لم يحدث هذا علناً، وإن حدث لي أن قبلتها فيكون بمنأى عن العيون الطفيلية، فقط عندما يقصف الرعد ويوقظ في داخلي بعض المخاوف الطفولية. لهذا السبب فإن الطقس السيئ يضعني في مزاج جيد.

ـ أقلقت خواطرنا، أردف بلهجة لاذعة بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم، يمكنني أن أقول لك اليوم أنّك تغلبت على صبري وأناتي، فقد أصبح لدينا الكثير من هذياناتك العبثية ونداءاتك المتكرّرة إلى الحرب. حتى الآن لم أكن لأعلم كيف أمنعك من الإزعاج. ولكن الآلهة استمعت لصلواتي وحضرت لمساعدتي، وغدوت بفضلها قادراً الآن على إسكاتك إلى الأبد. أيّها الأعيان المشهورون، أنتم تعلمون أن كنايوس مارسيلوس روفوس قد عاد من أفريقيا منذ أكثر من شهر، وقد أوفدناه إلى هناك مع بعض الأعيان لتقصي الحقائق. حتى الآن لم نحصل على تقريره، ومن المناسب الإطلاع عليه قبل استقبال البعثة القرطاجيّة. سيؤكد لكم حسن تصرفات حنون ذي الحصة تجاهنا، وسيحكم على أكثر ادعاءاتك إيلاماً يا ماركوس بروسيوس. من يعارض الاستماع إليه؟ لا أحد. كنايوس مارسيلوس روفوس سأترُكُ الكلام لك إذن لتطلعنا على مهمتك.

ـ أعضاء مجلس الأعيان الموقّرين. قضيّتُ مع رفقائي شهرين في الناحية الأخرى للبحر الكبير. كما تعلمون أنهت قرطاجة هذا العام الغرامة التي فرضها عليها سيبيون. وبتحريرهم من هذه الضريبة لديكم كل الحق في الخشية من عودتهم إلى تقاليدهم الحربية التي كنا نعاني منها في الماضي، وقد كلفتموني بتقصي

الحقائق حول اهتمام مجلس المئة وأربعة بإنشاء جيش جديد. يمكنني أن أبدّد مخاوفكم، وأقول لكم: إن هذا الخوف لا مبرِّر له.

«يعود ذلك إلى سبب بسيط: انطفأ العرق البرقاوي الملعون بعد موت هنيبعل، ومن غير المحتمل انبثاق قائد عسكري جديد يبرز من ظهور هذا الشعب المنصرف للتجارة. أفراده مهتمون قبل كل شيء بزيادة أرباحهم التي تؤمّنها لهم تجارتهم مع الشرق والغرب، وهم غير مخطئين لأن المرفأ التجاري لا يخلو من المراكب الوافدة أو المغادِرة لتفريغ أو شحن حمولاتها. كنت أوّل مندهش من عدد تجّارنا المقيمين في مدينة إليسا الذين يبيعون عطور كابوا عدا عن الخمور الصقليّة أو السيراميك الكامباني.

«يمكننا إذن أن نبتهج: انتصرنا عسكرياً على قرطاجة، كما أن ازدهارها الاقتصادي مرتبط ومعتمد على روما. إذا توقفنا عن شراء قمحها أو شعيرها أو انقطعنا عن إرسالياتنا من السيراميك والخمور والعطور، سيعاني حمّالوها الشقاء. لن يرغب أيٌّ منهم في إثارة الحرب على من هم سبب رزقه. إذا حاول حنون ذو الحصة وأصدقاؤه الثورة علينا، فإن التجار وبقية الشعب سيتمردون عليه. إن حزب أنصار الحرب هم قلّة مكروهة وقادته لا يجرؤون على إعلان وجهة نظرهم جهاراً. لذلك أستطيع أن أؤكّد لكم صحة جميع الآراء التي أبداها لكم بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم.

ـ أخاف كثيراً أن تكون مغالياً في أوهامك، تمتم ماركوس بورسيوس كاتون بلهجة حانقة، علّلك حنون ذو الحصة بالكلمات المعسولة وصدّقته بسذاجة. هل تحريت جيّداً في تحقيقاتك؟ إن مخبّري ـ وقد تابعت باهتمام كبير بوساطة جواسيسي الذين كانوا يراقبون تصرّفاتك ـ أكّدوا لي بتقاريرهم أنّك لم تغادر قطّ حدائق منزله الفاخر لتتحقّق من شرعية ادعاءاته.

ـ كاتون، لسانك الأفعوي يهيّئ لك على الدوام حيلاً خبيثة. إنّك تكذب إلى درجة تدفع الأكثر سذاجة إلى عدم تصديقك. يمكن لرفقائي

أن يضمنوا غيرتي وما بذلته من حماس لأنفذ مهمتي على أحسن وجه، لم يكن تجوالي في شوارع قرطاجة إلّا لألتقي فيها بثلاثة آلاف تاجر روماني يديرون متاجرهم. ولن أدهشك إن قلت لك إنّك لا تتمتع بأيّة شعبية بينهم. إنّهم يتهمونك بتعريض أمنهم وأعمالهم للخطر بسبب مشاريعك البعيدة عن الحكمة. توجّهت إلى أوتيكا حيث رأيت مجلس الأعيان مستعداً لقبول وجهة نظرنا. بل إنني انطلقت، ليطمئن قلبي، إلى زيارة رأس بون. وقد كانت في السابق معقل هنيبعل يغامر كل روماني بالقتل دون رحمة عند دخولها. أمّا الآن فسكانها هم أوّل من يعرض محاصيل قمحهم لمواطنينا، ولا يدّخرون وسعاً في حرصهم على تأمين راحتهم. تعلّم بعض التّجار الإغريقيين اللغة اللاتينية، للتواصل مع الرومان وللاستفادة من معاملة متميّزة. أقول وأكرّر القول إن ما رأيته لم يوقظ لدينا أي شعور بالشك أو القلق.

عند اقترابي من باب القاعة التي وُجدنا فيها لاحظت مشهداً غريباً. بعد أن استمعت إلى كلمات كنايوس مارسيلوس روفوس الأخيرة، نهض كاتون العجوز فجأة وسار عدة خطوات إلى الأمام ثم التفت إلى زملائه، وبلفتة من ثوبه الروماني الفضفاض المزين بشريط أرجواني عريض، عمل بمهارة على رمي ثلاث ثمرات من التين تدحرجت على الأرض الرخامية وكشفت عن قلب الثمرة الأحمر من خلال قشرتها السوداء.

ـ هذا هو البرهان على التهديد، قال المراقب القديم، الذي لم تستطع اكتشافه خلال مهمتك. قُطِفَت هذه الثمار قبل ثلاثة أيام من بساتين ميغارا وقد تلقّيتها هذا الصباح. يبدو لك ذلك قليل الأهمية لكنها الحقيقة المرّة. في أقلّ من ثلاثة أيام وعن طريق ميدولانيوم(*) يمكن لأسطول قرطاجي أن يصل إلى مرفأ أوستي ويدمّر بشكل مفاجئ سفننا الحربية أو التجارية. هذه الثمار، لست بحاجة لأقول لكم كم هي غضة ولذيذة الطعم، هي البرهان على غنى وقوة مدينة

(*) هي ميلانو الحاليّة.

إليسا. لهذا السبب أيها الآباء المقدَّرون أقول، وأكرر القول، بضرورة تدمير قرطاجة.

بدا مجلس الأعيان متأثراً بالبيّنة، وبقي صامتاً لفترة طويلة إلى أن غادر بوبليوس كورنيليوس كوركيلوم مكانه وذهب يلتقط إحدى التينات. رازها بيده اليمنى وقهقه ضاحكاً وهو يوجّه كلامه لكاتون:

ـ ماركوس بورسيوس، إنّك شخص مخادع وكما سبق لأحد زملائي أن أشار إلى ذلك من قبل، أنت مستعدٌ لكلّ شيءٍ للوصول إلى أهدافك. كل واحد منّا يعلم أنّك خبير في الزراعة وأنك أعددت لمزارعينا (كتاباً هاماً) في الزراعة يستحق التقدير. هذا المؤلّف يدين بالكثير إلى كتابات ماغون القرطاجي الأمر الذي حرصت على كتمانه. قرأته بانتباه ولن تكذبني إن أكّدت لك أن هذه التينات أتت من أحد بساتينك. إنّه نوع تأقْلَمَ مع جوّ بلادنا وهي ليست تينات أفريقيّة، لأن هذه الأخيرة أكثر ثقلاً ولا تتحمّل السفر بحراً. يجب أن تؤكل عند قطفها مباشرة.

ـ أتجرؤ على الشكّ بكلامي؟

ـ أنا أبعد الناس عن هذه الفكرة. اقتصرت فقط على ذكر الملاحظات القيمة المذكورة في كتابك مع التوضيح بأنها نتيجة خبرتك. هل أطلب من أحد الكتبة الذهاب للحصول على نسخة منه من مكتبة مجلس الأعيان لقراءَته إلى زملائي؟

ـ لا ضرورة لذلك، أربعة أيام، يلزم أربعة أيام يا أصحاب الرفعة لثلاثية مجاذيف قرطاجية لتصل إلى سواحلنا!

ـ أنت تعلم جيداً أنّ هذا غير صحيح أيضاً، عقَّب بوبليوس كورنيليوس كوركيلوم بسرعة، في هذا الفصل من السنة يلزم على الأقل ستة أيام لاجتياز مثل تلك المسافة، إذ لا يمكن الاعتماد على الرياح المؤاتية للإقلاع بسرعة معتمدين على قوة الشراع البسيطة. والمجذّفون الأكثر مهارة لن يستطيعوا العمل بانتظام ضروري

لاجتياز تلك المسافة في هذا الزمن القصير جداً. في الربيع أوافقك الرأي، على أن استثماراً من هذا النوع ليس مستحيلاً بقدر ما يكون من المتعذّر على السفينة المعتمدة والمدفوعة بالرياح الخفيفة التأكّد من قدرتها على الهرب من أسطولنا الذي يراقب باستمرار شاطئ صقلية وسردينيا. خذ تيناتك مجدّداً وتناول عشاءك بها. أردت أن تروّعنا ومن حسن حظك غياب معظم زملائي، وإلا لغدوتَ أضحوكة روما. في المرّة القادمة عليك اختيار حجج أكثر إقناعاً إن أردت إقناعنا بضرورة إعلان الحرب على مدينة إليسا.

- في الواقع، استأنف كنايوس مارسيلوس روفوس قائلاً، لن يقع الخطأ في حال حدوثه على مجلس المئة وأربعة وإنّما على حليفنا ماسينيسا الذي أجلسناه على عرش النوميديين بعد إزاحة منافسه سيفاكس. لم يكن هذا العجوز المراوغ يحلم إلا بشيء واحد: توسيع حدود مملكته وهو محق في ذلك، فأولاده الثلاثة ماستانابال، وميسيبسا وغولوسا ينتظرون موته ليتقاسموا تركته. ولإرضاء طموحِ كلٍّ منهم وتجنّب صراع الأخوة وجب عليه أن يمتلك أراضٍ كافيةً، كي لا يشعر أيٌّ منهم بالغبن عند توزيعها.

- إلى أين تريد أن تصل. تمتم بتذمُّر ماركوس بورسيوس كاتون.

- إلى ما يلي: انتهز حليفنا ضعف قرطاجة العسكري فغزا أرض السهول الكبرى الواقعة شمال مدينة إليسا، وكذلك مقاطعة اسمها تيسكا تشتهر بغنى وتعدُّد مدنها. عبثاً حاول حنون ذو الحصة الاعتراض على هذا الاختراق للمعاهدة التي تركت لمدينته جميع الأراضي التي كانت تشرف عليها عند هزيمتها. غير أن العاهل النوميدي لم يُرد الاستماع إلى هذا المطلب وأقام حاميات قويّة في تلك المناطق المحتلّة بالخدعة.

تمتم كاتون: هذه ادعاءات لا صحّة لها.

- كلا، أردف كنايوس مارسيلوس روفوس. استطعت التأكّد من

الواقعة بنفسي، وستؤيّد البعثة القرطاجية التي يقودها آزر بعل هذا الأمر أيّها السادة الموقرون أعضاء مجلس الأعيان. إن أعضاء البعثة القرطاجية ينتظرون في غرفة مجاورة ليتمكنوا من عرض شكواهم.

ـ يتهمُني محاوري أنني أخفي عنكم الحقيقة، قال ماركوس بورسيوس كاتون وهو يصرّ بأسنانه، لكني وجدت أنهم يأخذون من الحقائق ما يناسبهم فقط. بالعودة إلى جلستنا، كان بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم يعلم أن بإمكانه الطلب من كنايوس مارسيلوس روفوس للحضور أمامكم. لم يسبق إعلامي بالموضوع ولو علمت بالأمر لاستدعيت بعض أنصاري لمواجهة أقواله. الآن بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم ينبئنا بوجود بعثة قرطاجية في هذا المكان. إن فيه مساساً لا يطاق بامتيازاتنا وأنا أقول لكم: لا مجال لاستقبالها فوجودها في روما يَعَدُّ إهانة جسيمة لجنودنا الذين سقطوا في يريبي وكانّاي وهم يقاتلون هنيبعل. لتعد تلك الجالية إلى وطنها ولتنتظر إبلاغها قراراتنا، عندما يحلو لنا ذلك.

ـ كنت غائباً في الجلسة التي اتخذ فيها قرار حضور تلك البعثة وتظاهرت بتجاهلك لجدول أعمال مداولتنا اليوم، الذي تم إعلام الجميع به بشكل نظامي في مطلع الجلسة دون أن تعترض بهذا الخصوص، إضافة إلى أنني أشرت في خطابي بوضوح إلى حضور السفراء البونيين، ولم يصدر عنك أيُّ اعتراض. لماذا تعترض الآن؟

ـ غيّرت رأيي منذ بداية هذه الجلسة.

ـ لك الخيار في ذلك، لكن فات وقت اعتراضك على هذا الحضور بعد موافقة زملائك عليه. عدم استقبال هذه البعثة ضمن هذا الحَرَم يُعَدُّ خطأً جسيماً، ويفقدنا بكل تأكيد ودّ جميع حلفائنا القلقين من تكرار هذه السابقة. أتريد أن يثور الإغريق والإيبيريون والشعوب الأخرى لأنّك قرّرت تجاهلهم أو ازدراءهم؟ أتقول لي إن

الواجب يقتضينا ألا ندمّر قرطاجة وحدها وإنما ساغونت أو مسّاليا أو أثينا؟ لهذا أقترح، وأشار بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم، دعوة القرطاجيين للمثول أمامنا وفق ما تم عليه الاتفاق. من يوافقني؟

لم يعترض إلا ماركوس بورسيوس كاتون على هذا الطلب، وقرر مجلس الأعيان عدم تفويت الفرصة للقائنا. خلال تبادل الأحاديث اللاذعة كنت أترجم لآزر بعل كلّ ما يجري ليتمكن، إن رغب، تعديل بعض عبارات خطابه.

* * *

أُدخلنا إذن إلى قاعة مداولات مجلس الأعيان، أو الكوريا هوستيليا، وكنا وفداً يتألف مني ومن عشرة أعيان آخرين، نرتدي جميعاً جلابيب بونيّة تقليدية. قدمنا إلى أعضاء المجلس، كنايوس مارسيلوس روفوس. بدأ آزر بعل الكلام بلهجة ملؤها الوقار:

ـ يا أبناء روما، جئنا إلى هنا نطلب تحقيق العدالة. خسرنا الحرب وقد تحمّل شعبنا نتائج أخطائه، وأخصُّ منها الثقة المشؤومة التي أولاها لعائلة بَرْقا. حامينا حنون الكبير الغائب الآن، قد قام بكل ما يلزم لمعارضة أطماع هنيبعل وأخوته الإجرامية، لكنّ مواطنينا لم يصغوا إليه. وأنتم خير من يعرف، إن الشعب عندما يحكمه طغاة ومستبدون يسيطر عليه الغضب ويتصرف بتهور، وها هو يدفع الثمن الآن.

«لحسن الحظ مرت تلك الأيام، ولم يتوقف حزبنا عن المطالبة بتصحيح أخطاء الماضي وتنفيذ شروط العقد الموقّع مع سيبيون الأفريقي بكل دقّة، مهما كان الثمن. منذ ذلك التاريخ لم تجدوا حليفاً أكثر وفاءً منّا. فتشتم عبثاً عن أي أثر لتقصير أو مخالفة في تعهداتنا. بالمبالغ التي سدّدناها لكم سنوياً بنيتم المعابد والأبنية العامة التي تزيد من عظمة مدينتكم. لم أحضر إلى هنا لأطلب تعديلاً

للميثاق القائم بين مدينتنا، وآمل أن يستمر إلى مالا نهاية، ولا نطلب استعادة مستعمراتنا أو مؤسساتنا. كلُّ ما نريده، أيَّها السادة الموقرّون هو التطبيق الدقيق للنصّ المتنازع عليه. وإلا سنواجه مشاكل قانونية يتعذر حلُّها.

«استحوذ حليفكم ماسينيسًا بالخداع على قسم من السهول الكبيرة وعلى إحدى مقاطعاتنا التي ضمنتم لنا ملكيتها. كان بإمكاننا أن نعتبر أنفُسنا في حالة دفاع مشروع عن النفس وإثارة نزاعات ضده. إلا أن المعاهدة الموقّعة معكم تحول دون توجيه أعمال عسكرية ضد أحد حلفائكم قبل الحصول على موافقتكم.

«اطمئنوا، إننا لا نريد إثارة حرب بأي ثمن. أنتم تمتلكون وسائل ضغط كافية على العاهل النوميدي لإلزامه بالتعقُّل، وإجباره على قبول حل سلمي لهذا النزاع.

«بهذا الشكل تسددون ضربة حاسمة لمناورات منافسيكم في قلب مدينتنا، بالكشف لهم أن مدينة روملوس، وإن عرفت كيف تكون قاسية يمكنها أن تلجأ أيضاً إلى السماحة والشهامة. في حال عدم تدخّلكم، وهي فرضية لا نرغب في تصوّرها، ورغم بوادر حسن النية من طرفنا، سنعلم أنكم لا تحلمون إلا بأمرٍ واحدٍ فقط: الحكم على مدينتنا بالبؤس وإرغامها، طال الزمان أو قَصُرَ، على الاختفاء من الوجود. إذا لم تتوافر الإرادة على إزالة هذا الضرر وإذا كنتم منذ توقيع معاهدة السلام مع سيبيون، تقفون ضد تظلماتنا الشرعية، اعلمونا موقفكم صراحة، وسنفعل ما باستطاعتنا لينقشع سوء التفاهم. لكن يجب أن تعلموا أمراً واحداً: إننا نفضّل الموت على عبودية صريحة أو مقنَّعةٍ.

ـ أشكرك يا آزر بعل على صراحتك، قال كنايوس مارسيلوس روفوس، لا يداخلني شكٌ بإخلاص نواياك وإخلاص مجلس المئة وأربعة منذ أن عمد إلى طرد حزب آل برقا. لا نملك إلا طعنات نادرة

لا قيمة لها تجاهكم بدليل أننا حرّرنا، قبل تسديدكم لغرامة الحرب بمُدّة، الرهائن الذين كانوا يضمنون لنا حُسن تنفيذ العقد. لكن ماسينيسّا حليف لنا ولا نستطيع للأسف الدخول في حرب ضده.

عند النطق بهذه الكلمات تفجّرت بعثتنا بالنحيب وانتابتها انفعالات عنيفة، وسجدت أمام مجلس الأعيان متوسّلةً العودة عن هذا القرار. تمدّد الأعضاء على الأرض الرخامية للكوريا هوستيليا، يذرفون الدموع الحارّة صارخين بأنه حكمٌ بالموت لنا ولعائلاتنا، وازدراء بالعدالة والشرف. لم أكن موافقاً في قرارة نفسي على السلوك المعتمد من زملائي، إنّما وجب عليّ السير على منوالهم. وأدركت أن آزر بعل لم يكن مخطئاً في انصرافه لهذه المسرحية. فعدد كبير من سادة مجلس الأعيان الواعين لمكر العاهل النوميدي لم يستطيعوا إخفاء انفعالهم. بالتأكيد إنّهم الأبناء الأوفياء لروما القاسية وقد دهشوا من تصرفنا المفرط، فهم لا ينحنون مطلقاً بهذه الطريقة المخزية ليلتمسوا المساعدة من قوة أجنبية أو من خصمهم المنتصر عليهم، ومع ذلك لا يمكنهم البقاء فاقدي الحسّ أمام هذا المظهر المؤثّر من وطنية صادقة. قدّر بوبليوس كورنيليوس كوركيلوم هذا الموقف، ورأى من المناسب أن يعلّق بكلمة:

ـ آزر بعل أرجوك أن تطلب من زملائك السيطرة على أنفسهم. أسأت فهم مقاصد كنايوس مارسيلوس روفوس. روما تمنعكم من حمل السلاح ضد ماسينيسّا، وهذا لا يعني أننا نؤيّد تصرفاته. إن أحد أولاده ماستانابال يقيم حالياً في مدينتنا، ومنذ نهار غدٍ، سنطلب منه الحضور ليشرح لنا الموقف. عندها فقط يمكن إصدار حكمنا، واعلموا بأن هذا الحكم سيكون بقوة القانون.

أحسسنا ببعض الاطمئنان، وعُدنا ننتظر توالي الأحداث. حضر الأمير النوميدي في اليوم التالي أمام أعضاء المجلس، وبدا عليهم الانزعاج وهم يستمعون إلى إجاباته المراوغة على أسئلتهم

المحددة، مع تسليمه الكامل بقيام والده بضم مقاطعتين إلى أملاكه. أصر ماستانابال بأن هذا الضم لا يعتبر خرقاً للمعاهدات المبرمة مع قرطاجة، وهو يرى أن أجداده تخلوا قديماً للبونيين الهاربين من صور عن قطعة أرض بحجم جلد العجل، غير أن خدعة إليسا التي عملت على تقطيع الجلد سيوراً دقيقة أتاحت لهم احتلال منطقة المرافئ وهضبة بيرسا. بينما تعود جميع الأراضي الأخرى إلى الماسيليين والمازاسيليين. وبغزو السهول الكبرى استعاد هؤلاء أملاكهم. لم نحضر هذه الجلسة غير أن ماركوس لوسيوس أتيليوس قدّم لي تقريراً مفصلاً عنها، عند سؤال بوبليوس كورنيليوس كوركيلوم حول هذا الموضوع.

انتاب الأخير الغضب وتوجه بالكلام إلى الأمير النوميدي وبلهجة لا تحتمل أي اعتراض أو مناقشة:

ـ يا صديقي، سوء نيتك واضح، خلال قرون طويلة سمح أسلافك للبونيين أن يوسعوا أملاكهم داخل البلاد دون أي اعتراض. الأكثر من ذلك أنهم قدموا لهم المعونة بإسهامهم بالخيالة والمشاة، للمساعدة في القتال وإنشاء إمبراطورية كاملة في صقلية وسردينيا وإيبيريا. قبل أن تكونوا حلفاءنا كنتم حلفاء قرطاجة. والدك بالذات قاتل أهلي في إيبيريا ثم غيّر معسكره منتقلاً إلى جانبنا بعد إنزال الفرق الرومانية في أفريقيا، وعند توقيع معاهدة الصلح لم يطالب لنفسه بالأملاك التي تخلّينا عنها لعدوّنا. هو الذي يعلن نفسه الصديق الأكثر إخلاصاً لنا لم يتنازل ويستشرنا قبل أن يجتاح السهول الكبرى والمدن المجاورة لها ويخون العهد بيننا، لأنه يعلم أننا سندين حتماً هذه المغامرة المجرمة.

«ها إنني أوجّه إليك الأمر للتوجّه في الحال لتنقل إلى ماسينيسا الرسالة التالية: «فعلنا وسنفعل على الدوام الكثير لملك النوميديين لمكافأته على تضحيته، لكننا سنحترم العدالة ولن نستجيب لتحقيق مصالحه. يرغب الرومان أن تبقى الأراضي

المتنازع عليها في أيدي مالكها الشرعي وأن تحترم الحدود المرسومة بين الدولتين. أبناء الذئبة لم يعيدوا للقرطاجيين المغلوبين مدنهم وأراضيهم ليقتلعوها منهم بالقوّة بعد أن ساد السلام هذه الأراضي التي لم تتم إزاحتهم عنها بموجب حق الحرب». ليمتثَل إذن لهذا السلوك من جميع النواحي ولن يكون له ما يأسف عليه.

أدرك ابن ماسينيسا أنّه قد ذهب إلى أبعد من اللازم، وحاول أن يجد منفذاً للتخلص وهو يصرّح بلهجة متملّقة لمخاطبيه:

ـ إنني أقبل بحمل هذه الرسالة إلى والدي لكنها من الثقل بحيث أفضل أن ينقلها أحدكم إليه. سنكون سعداء باستقبال سفارة من مجلس الأعيان الروماني يستطيع فيه أعضاؤها إبطال أو تأكيد النتائج التي توصّل إليها كنايوس مارسيلوس روفوس. هذا أقل ما يلزمكم تقديمه لعائلتنا التي قامت بخدمات متعددة لكم، وأقترح أن يكون على رأس بعثتكم ماركوس بورسيوس كاتون.

وافق بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوزكيلوم على الاقتراح لعدم رغبته في تسميم الوضع، وعبّر عن رأيه بهذه الكلمات:

ـ إنك تختار رجلاً عرف بانحيازه غير أننا سنوافق على رغباتك! بعد كل حساب ربّما ستتنفّس روما بشكل أفضل عندما يبتعد عنها هذا العجوز الشرس.

ما إن علم وفدنا بهذا القرار حتى استعاد الأمل. الرسالة الموجّهة إلى ماسينيسا بوساطة ابنه يغلب عليها طابع الحزم الجاد رغم الصيغ المتملّقة التي تحويها. بقراءتها سيعيد العاهل النوميدي النَظَر مرتين قبل أن يتجاهل توصيات حُماته القادرين، وسيعلمونه بشكل واضح أنّه رغم ميزته حليفاً فإنه لا يتمتّع بجميع الحقوق، وخاصة تلك التي تدفعه إلى التعدّي على المعاهدات الموقعة من قِبلهم دون عقاب. الواقع نحن نعلم أنه دون دعم روما العسكري لن يتمكن من متابعة غزواته إلى أبعد من مناطق السهول الكبرى.

وباعتماد بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم إرسال هذا التنبيه له بدا أميناً لتقاليد عائلته المحبة للسلام.

كانت هذه أول نقطة إيجابية، وربما كانت الوحيدة التي نستطيع التباهي بها. أما في داخل بعثتنا فقد اختلفت الآراء، وخاصة حول مجيء ماركوس بورسيوس كاتون إلى مدينتنا، فقد اعتبره البعض مثل إدخال الذئب إلى الحظيرة ومنحه فرصة غير متوقعة لإحياء حقده وضغينته تجاهنا. دهشت لأن آزر بعل أظهر رأياً مخالفاً. بالتأكيد كان يفضل التحاور مع محاور آخر، لكن لم يداخله الشك لحظة واحدة أن السيد العجوز ملزم في مجابهته للواقع إلى مراجعة حكمه والاعتراف بذنبه، على الأقل سيبدو في المستقبل أكثر تبصراً. إضافة إلى ذلك كان هذا رأي تجار أوستي البونيين الذين أقاموا مأدبة عامرة لتهنئتنا بما توصلنا إليه من نتائج تفاعل الجميع بها، وغادرنا إلى قرطاجة مقتنعين أن روما ملتزمة بوعودها وستفرض على ماسينيسا إعادة ملكياتنا.

الفصل الرابع

ساعدتنا الرياح الملائمة، وقضينا خمسة أيام لاجتياز المسافة بين أوستي وقرطاجة. ما كدنا نرسو حتى توجهت مع آزر بعل إلى مجلس المئة وأربعة. كان بانتظارنا حنون ذو الحصة وموتومبعل، وبحثا تفصيلياً حول إقامتنا في روما والوضع المعنوي لأعضاء مجلس الأعيان. اعترف أن رئيس وفدنا فاجأني في الواقع عند سرد الأحداث. كنت أخشى في الواقع سعيه إلى زخرفة الحقيقة لصالحه، وإحالة النتائج الهزيلة التي حصلت عليها بعثتنا إلى مساعيه. فهو بعد كل حساب صهر الرجل الأكثر تأثيراً في مدينتنا، والارتياب الذي يكنه لأبي يمكن أن يحرضه على الإضرار بي واتهامي بمبادرات متطفلة. الواقع أنه غمرني بالمديح مشيراً إلى العون الثمين الذي حققه صديقي ماركوس لوسيوس أتيليوس بفضل علاقاته الطيبة مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم. تضاعفت دهشتي عند سماعه يصوغ اقتراحاً لم أكن أتوقعه:

ـ بعد فترة قصيرة سيكون ماركوس بورسيوس كاتون في ربوعنا، مفوضاً من مجلس الأعيان الروماني. إنه رجل رهيب من ألد أعدائنا. إنه مكار مثل ثعلب مسن وسيبحث في كل حركة من حركاتنا عن المكيدة التي قد يخفيها كل شخص عنه. كنت أفكر بأنني الشخص الأكثر كفاءة لاستقباله. إلا أنني غيرت رأيي. فهو يعرفني من أنصار حزب السلام، وسوف يستنتج أننا نسعى لخداعه بتقديمنا له أصدقاء روما فقط. من الأفضل العهدة بهذه المهمة إلى

حسدروبال. حتماً سيعمل جواسيسه على إخباره أن صديقنا الشاب قادر على استخدام القوة لمجابهة ماسينيسا. هذا الاختيار سيبرهن له أن القرطاجيين رغم اختلافاتهم فإنهم يتكلمون بصوت واحد. سنظهر له أن ليس لدينا إلا القليل مما يجب إخفاؤه، وأننا عهدنا بهذه المهمة الحساسة إلى أحد ممثلي الحزب الذي ينادي بالحرب.

ـ آزر بعل، قاطع موتومبعل المتكلم بخشونة، لا أستطيع تركك تتكلم بهذا الشكل. من المؤكد أن لابني حميا الشباب، وعند دخول النوميديين إلى أرضنا كاد يجازف بمهمة تدعو إلى الأسف لو لم نوبخه ونطلب منه التحلي بالهدوء. إنه ضابط مخلص ومستقيم، وقد استطعت أنت بالذات أن تتأكد من دقته في إطاعة الأوامر ومطابقة مقاصدها وتصاميمها على ما لديه. هل يجب أن أستنتج بصياغة ذلك المقترح وفقاً للتعابير التي استخدمتها أنك تصدق الشائعات التي تدور حولي؟ إنني متهم برئاسة الحزب البرقاوي بينما لا وجود لهذا الأخير. يمكن لصهرك أن يشهد، وقد دعمته بنصائحي الحكيمة، ولم أعارضه قط في سياسة السلام التي ينادي بها. هل تتهمني بحنث اليمين أو اللعب على الحبلين؟ أما فيما يتعلق بولدي فإنني أجيب عنه. إنه يعرف الكثير عن وضع جيشنا ولا يخطر بباله أن يثير غضب زائرنا.

ـ إنني أبعد الناس عن هذه الفكرة، قال آزر بعل، مؤيداً بهزة رأس من حنون ذي الحصة، أنا لا أشك لحظة واحدة بولائكما كليكما. غير أن ماركوس بورسيوس كاتون روماني، وقد كان في شبابه رجلاً عسكرياً ذا خبرة جيدة. إنه مقتنع أن جميع الشباب سواء كانوا مواطني مدينته أو من الإغريق أو القرطاجيين لا يحلمون إلا بشيء واحد: الموت في ميدان القتال دفاعاً عن استقلال وطنهم، أو لزيادة رقعته في المساحة. وحسدروبال في نظره يشكل واحداً من هذا النوع ولن يتمكن أحد من لومه. الواقع أن ابنك يا موتومبعل، كما أشرت تماماً، هو أول من يعرف أن قرطاجة في الظروف

الحالية لا تتوافر لها الوسائل لإعلان الحرب على أبناء الذئبة، وآمل أنه سيدلي ببعض اعترافات مرةٍ بهذا الخصوص إلى ذلك العجوز الشحيح. سيكون لها وزنها أكثر مما لو صدرت عن شيوخ مثلنا ألفوا الخداع والكذب. لهذا السبب يجب العهدة بهذه المهمة إلى هذا الفتى الشاب.

- ألا تخشى، استأنف أبي، أن يكون جواسيس ماركوس بورسيوس كاتون قد أطلعوه أيضاً بأن له صديقاً رومانياً مقرباً من بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم منافسه الرئيسي؟ أليس من الأنسب أن نجد بين صفوفنا أحد الاعيان أو قاضياً معجباً بكاتون؟

- أتظن أن هذا الأخير مغفل ليقتنع بهذه الخدعة الساذجة؟ هل يمكن أن نجد في مدينتنا إنساناً عاقلاً يعلن صداقته لمن ينهي خطبه بالعبارة: «أقول لكم وأكرر القول أيها السادة الموقرون بوجوب تدمير قرطاجة!». كلا إن الحكمة تقتضينا تكليف حسدروبال باستقبال هذا السفير الملعون ومرافقته في جميع تنقلاته.

اشترك حنون ذو الحصة مع والدي في موافقتهما على هذا الإجراء، وجب علي أن استعمل كنوز المكر والدهاء لتحضير حسن استقبال لعدونا. مع معرفتنا أنه سيرفض استضافته في مقرات أحدنا، حرصنا على تأمين سكن ملائم له لدى تاجر سيراميك روماني ثري هو سبتيموس أوريليوس روفوس عرف عنه أنه ذو بخل شديد مع غناه الفائق. كان مسكنه مؤثثاً بشكل بسيط ويتغذى معظم الوقت بحساء متواضع وماءٍ قراح، وهما الوجبة المفضلة لماركوس بورسيوس كاتون. مع ذلك يعود الفضل في ثرائه إلى تجارته مع مدينتنا. كنت واثقاً أنه سيشرح لضيفنا الموعود أن حرباً بين قرطاجة وروما ستكون ضارة بمصالح الأخيرة.

مرت أسابيع طويلة من الترقب. تأخرت روما في إرسال سفيرها، وعلمنا من مواطنينا المقيمين على ضفاف نهر التيبر أن

ماركوس بورسيوس كاتون مستمر في الحضور إلى جلسات مجلس الأعيان وفقاً لعادته. ثم ذهب إلى أراضيه بذريعة التحقق من حسابات معاونيه. تأكد جواسيسنا من صحة الأمر، وتساءلنا متى سيقوم هذا الروماني الملعون بالمهمة المكلف بها.

ذات صباح حضر مراسل من مجلس المئة وأربعة إلى ميغارا لإعلامي أن سفينة ثلاثية المجاذيف رومانية على أهبة الدخول إلى المرفأ. أسرعت لامتطاء حصاني لأكون موجوداً في المكان عند رسو ماركوس بورسيوس كاتون على شواطئنا. تمكن من خداع حذر مخبرينا، وغادر ملكيته إلى ريجيوم حيث كان بانتظاره أحد المراكب. كان يريد مفاجأتنا بوصوله. أدركت هذا عندما طلب مني أن أرافقه فوراً إلى الكوتون المرفأ العسكري، الذي اشتبه بأنه يعج بالمراكب الحربية. خاب أمله، فالمكان لا يحوي أولاً وأخيراً إلا عشر ثلاثيات مجاذيف، كان لمدينتنا حق الاحتفاظ بها بعد هزيمة زاما وهي في حالة يرثى لها. هذه المراكب البائسة كانت كل ما بقي لنا من أسطول الحرب البونية الغابر الذي سمح لنا بالسيادة على البحر الكبير. تاه بحارتها وقباطنتها دون عمل، ورضخوا لسلسلة طويلة من الاستجواب، قمت خلالها بدور المترجم بينهم وبين الروماني، فالضباط يشتكون من عدم قدرتهم على الخروج إلى عرض البحر إلا نادراً، وهم عاجزون عن تأمين الحماية لقوافل المراكب البحرية التجارية ضد قراصنة البحر الذين ينطلقون من سردينيا أو كورسيكا ويهاجمون دون تمييز سفننا وسفن روما. زرنا بخطى واسعة دور الصناعة العسكرية حيث يقوم عدة مئات من العمال كيفما اتفق بإصلاح الأسلحة السيئة والدروع المشوهة. معظمهم من العبيد الذين اشتريناهم بعد الاختفاء المفاجئ لأولئك الذين سبق لنا استخدامهم في أوروسكوبا، وهم يجهلون كل شيء عن الأسلحة المخبأة في المخازن المنتشرة حول حاميتي القديمة.

خُصصت الأيام التالية لمراقبة أسوار قرطاجة. كانت في وضع

جيد، لكنني لفتُّ نظر رفيقي الغضوب إلى أن الثكنات التي كان يعيش فيها الألوف من الرجال لا تؤوي حالياً إلا بضع مئات، وليس في حوزتنا أكثر من ألف فارس. فسألني مرتاباً:

ـ لكن أين آلات حربكم؟ أين فيلتكم؟

ـ دُمّرت آلات حربنا بأمرٍ من بوبليوس كورنيليوس سيبيون الأفريقي ولم نسع إلى تكوين جيل جديد منها، لأن السلم كان سائداً حتى اقتحام حلفائكم النوميديين منطقة السهول الكبرى. أما البهائم التي ساهمت في السابق بانتصار جيوشنا فيمكنني الإشارة إلى بعض الفيلة الهرمة العاجزة عن الحركة، وهي تنتظر الموت الكريم. ليست لدينا الوسائل لشراء فيلة شابة لما تتطلبه من إطلاق بعثات صيد لها، وهذه تكلف غالياً. الواقع، وجب علينا حتى العام الفائت تقديم غرامة باهظة، وصناديق مالنا بعد هذه المبالغ الطائلة، كانت فارغة إلى حدٍ يبعث على اليأس. كان من المفروض فرض ضرائب جديدة، لكن الشعب كان مسحوقاً بالمكوس وقد خشينا إحداث ثورة إن أردنا استغلاله.

ـ يبدو عليك الأسف لعدم قدرتك على تأمين الأفيال.

ـ هل تعتقد بأن شاباً قرطاجياً يرضى برؤية مدينته عاجزة عن الدفاع عن نفسها عند مهاجمتها؟ ماذا تقول لو أنك في مكاني وقمت بزيارة لروما المهزومة؟ لا أشك لحظة واحدة في أن قلبك سيكون مفعماً بالمرارة والخجل!

ـ لن أحلم عندها إلا بشيء واحد: الانتقام وتكبيد المنتصر هزيمة كاوية.

ـ إنك تتكلم مثل أي روماني. شعبك شعب محارب. فلاحوكم ومدنيوكم يقضون القسم الأعظم من شبابهم في خدمة الفرق العسكرية الموزعة في أركان إيطاليا الأربعة من اليونان حتى المشرق. تلجؤون لتأمين غذائكم من القمح والزيت والخمر واللحوم

إلى الشعوب الخاضعة لسلطانكم أو من ملكياتكم الواسعة التي تُستثمر من قبل أشراف روما ويعمل بها مئات الآلاف من العبيد.

ـ ألم تفعلوا الشيء ذاته في السابق؟

ـ نعم، ولكننا خسرنا كل ملكياتنا من الناحية الأخرى للبحر الكبير. إضافة إلى أن مواطني مسالمون. هم من البحارة أو التجار أو الحرفيين الذين يكرهون حرفة الحرب. عند اندلاع الحرب نعمد لدفع أسعارٍ من ذهب للمرتزقة لأن عدد المواطنين لا يكفي لتشكيل جيش جدير بهذا الاسم.

ـ مع ذلك أنت ضابط. لا تقل لي أنك لا تملك رجالاً يعملون تحت إمرتك.

ـ بعددٍ غير كاف، ومعظمهم من الغرباء ممن تتناسب شجاعتهم مع الرصيد المدفوع لهم. جيشنا يكاد لا يكفينا لضمان الأمن في قرطاجة وللذود عن حدودنا. ولذلك عند غزو ماسينيسا للسهول الكبيرة لم نستطع إرسال نجدات لإيقاف تقدمه.

ـ لكن هذا لم يمنعكم عن التماس موافقتنا على إعلان الحرب بغية استرداد أملاككم.

ـ النوميديون جيراننا وقد عشنا سوية بتفاهم ووفاء منذ زمن طويل. لم نرغب غزو أراضيهم وإحلال الخراب فيها، ولن نلجأ للقتال إذا أوعزت روما للملك العجوز بضرورة إعادة الأراضي التي استولى عليها.

ـ أريد أن أحدثك بكل صراحة يا حسدروبال: ماذا تفعلون لو أن مجلس أعياننا رفض تقديم ما يرضيكم؟

ـ هي فرضية أفضل استبعادها لأنها تبرهن على نقض مدينتكم للعهود المصرح بها أمام آلهتها. إنني أعرفك أكثر ورعاً وتخشى التعرض لانتقام هذه الآلهة.

ـ لكل سؤال جواب جاهز لديك، واعترف لك بأنك أول قرطاجي

استطاع زحزحة قناعاتي. إنني أدرك الآن السبب الدافع لحنون ذي الحصة ولجماعتك اختيارك لمرافقتي خلال هذه الزيارة. لكن يجب الاجتماع بهم لمعالجة بعض الأمور الجدية معهم. أعلمهم أنني أرجو لقاءهم بأسرع وقت ممكن.

نقلت هذا الطلب إلى والدي بعد أن رويت له بكل أمانة آراء وأحاديث مخاطبي. هنأني موتومبعل بحرارة على سلوكي وأطلع حنون على المنحى السار الذي تجري به الأحداث. هنا كان خطؤه، لأن صهر آزر بعل لا يريد لعائلتي أن يكون لها الفضل في إبعاد شبح الحرب والحصول من روما على شجب لسياسة ماسينيسا. فإن اقتنع بعقد جلسة لأعضاء مجلس المئة وأربعة، بحضور ماركوس بورسيوس كاتون فإنني اعتقد بصدق بإمكانية التوصل إلى تسوية تراعي حساسيات الأطراف الحاضرة. لكن حنون ذا الحصة المعتد بموقعه وامتيازاته ما كان ليقتنع بهذه النتيجة. هو سيد مدينتنا ولا يريد لأبي الاستفادة من المزيد في الشعبية.

إضافة إلى ذلك قام بتصرف آخر كانت نتائجه وخيمة. كان حنون ذو الحصة يعلم مدى شغف ماركوس بورسيوس كاتون بالزراعة، لذلك دعاه لقضاء عدة أيام في إحدى ملكياته في رأس بون ليلاحظ فيها الأعمال الحقلية وليتناقش بمفرده معه. قدّر الرئيس القرطاجي، بهذه الطريقة، بأن ضيفه سيعتبر أن مدينته منشغلة بمردود دخل الأراضي متخلية عن أحلامها بالتوسع خارج حدودها البحرية.

سر الروماني في البداية من هذه المغامرة في الريف، وتداول مع الفلاحين طويلاً حول الوسائل التقنية المستخدمة للحصول على محاصيل جيدة. بدا عليه في الظاهر الاعتماد على إغناء دراسته الشهيرة ببعض فصول إضافية. تنفس حنون ذو الحصة الصعداء. كان على خطأ فبقدر ما كان يكتشف من قدرات الاقتصاد القرطاجي العظيمة كان الحقد يتأجج في صدر ماركوس بورسيوس كاتون،

فهذه الثروات الممتدة أمام ناظريه بمثابة صفعة بالمقارنة مع فقر مدينته التي أنهكت ميزانيتها الحروب والفتوحات. خسرت قرطاجة الحرب بالتأكيد ولكنها تجاوزت روما في كثير من المجالات. إنه هنا أيضاً وأمام عينيه مثال واضح عن «المكر البوني» الذي تألم منه أتباعه كثيراً في الماضي. أدرك أنه في حال السماح لقرطاجة باستثمار القسم الداخلي من البلاد، فستكسب بسرعة سيطرة تامة على تجارة الحبوب والزيت والخمور وتهدد بذلك إنتاج الفلاحين الرومان. وفي هذا ما يضايق رفاهية الملاكين الأرستقراطيين. كان يخشى في الواقع أن ينتقل التجار الرومان إلى الجهة الأخرى من البحر الكبير ليتأثروا بروعة هذا الازدهار، ولينتهوا إلى تبني طراز حياتنا المتباين مع صرامة مدينته وبذلك تنكشف مظاهر عبثية مدينته. ذهبت جميع جهودي سدى. بنتيجة زيارته اقتنع أكثر من أي وقت مضى بضرورة تدمير قرطاجة.

لم ينبس بكلمة عن انطباعاته قبل رحيله، وشددت الكلمات الطيبة التي تبادلها معي ومع حنون ذي الحصة من عزيمتنا. اقتنعنا بربحنا للمعركة، وكم كانت خيبة أملنا كبيرة عندما أطلعنا أحد جواسيسنا على مضمون التقرير الذي رفعه إلى زملائه:

«قرطاجة تعيش بسلام ولا تسعى إلى الحرب. إنها لا تملك الإمكانيات اللازمة وقد تأكدت من ذلك. لكنها ماتزال أكثر خطراً. لم أشاهد أبداً مدينة بمثل غناها وهي تسعى إلى ما لانهاية إلى هذا الثراء بفضل جد وعبقرية سكانها. إذا لم نتنبه فسيحلون محل تجارنا في جميع مرافئ البحر الكبير وستُهجر أوستي سريعاً من السفن الوافدة من اليونان ومن المشرق، وسيتهامس عامة الشعب ضدنا متهمين إيانا بالمسؤولية عن تعاستهم.

«من الملائم إذن إعاقة نمو هذه المدينة والعمل على إشعارها بمدى سلطاننا. الوسيلة الوحيدة في الوقت الحاضر للوصول إلى الهدف هي تشجيع ماسينيسا سراً لمتابعة عملياته العسكرية. إنه

يشغل بالتأكيد ودون وجه حق الأراضي البونية لكن هذه، على ما أعلم، من الثروات الواجب ألا تقع في صناديق مال خصمنا. مادام هذا الأخير مهدداً من قبل النوميديين له، فسيضاعف من تنازلاته لنا ليؤمن تعاطفنا معه. لنترك الأمور تنساق إلى أن يصل أبطال المسرحية إلى تسوية، وسنكون، نحن بالتأكيد الضامنين لها».

علمنا من التجار القرطاجيين المقيمين في أوستي بالترحيب الذي حظي به تقرير ماركوس بورسيوس كاتون في مجلس الأعيان بمن فيهم خصومه. فقد شعروا بالارتياح لأن العجوز الشرس لم يستغل إقامته في أفريقيا ليطالب مرة أخرى وبكل بساطة بتدمير مدينة إليسا، بل اكتفى باقتراح حل يجنب اللجوء إلى استخدام الأسلحة. إن استمعنا إليه ستبقى أبواب معبد جانوس(*) مغلقة، دلالة على أن مدينة رومولوس لن تكون في حرب مع جيرانها. كان الجميع في غاية الامتنان لهذا الاعتدال النسبي المدهش. ووافق مجلس الأعيان، احتراماً لكبيرهم، على اتباع تعليماته حول الحذر والحياد وطلبوا من حنون ذي الحصة إجراء المفاوضات مع جيرانه للحصول على اتفاق سلام، وتبين بشكل واضح عدم موافقتهم على الجري وراء الحرب وتجنيد جيش لاستعادة السهول الكبرى ومقاطعة تيسكا المجاورة لها.

* * *

في هذه الظروف تسللت إلى مدينتنا بذرة شقاق مشؤوم، وهي مسؤولة عن جميع تعاساتنا المستقبلية. سيدهش بعضنا لهذا التأكيد، لكن المسؤول الحقيقي، في نظري، عن تدمير مدينتنا ليس بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس بل ماركوس بورسيوس كاتون، رغم أن هذا الأخير لم يعش مدة طويلة ليرى حلمه يتحقق.

(*) Janus جانوس: أحد آلهة روما القديمة، يرسم بوجهين متقابلين، ولا تغلق أبواب معبد جانوس إلا في أيام السلم.

أحدث تقريره في الواقع أزمة سياسية خطيرة في قلب مجلس المئة وأربعة، ولم تتوقف أحزاب المجلس منذ ذلك الحين عن التمزق والتناحر وعن عقد تحالفات عابرة بدلاً من العمل الجدي من أجل سلام مدينتنا. كانت هذه الأحزاب تسعى أحياناً للتصالح مع النوايا الحسنة لدى عدونا، وأحياناً أخرى لدفع هذا العدو إلى نهاية النفق وتدمير كل إمكانية لإيجاد مخرج مناسب للأزمة. بالتأكيد لم أكن مدركاً في حينه، ولكننا خسرنا الحرب قبل بدء أعمال القتال، رغم استعدادنا لها بجيش يفوق في عدده جيوش خصومنا. استشيط غيظاً وأنا أملي هذه العبارة على ماغون لكن قرطاجة أحرقت وبادت في اللهب بعد أن خبت لديها إرادة الحياة، غدا مواطنوها غرباء بعضهم أمام بعضهم الآخر وعاجزين عن إقامة جبهة مشتركة لمواجهة العدو.

وجب لإشارة أن تنذرني: القطيعة بين حنون ذي الحصة وآزر بعل. لم يبدِ الأول بعكس كل ما كان يُتوقع أي قلق لدى اطلاعه على تقرير ماركوس بورسيوس كاتون. جرت حساباته بسذاجة محيرة. استولى ماسينيسا على أراضٍ زراعية خصبة لكنه لا يملك اليد العاملة الضرورية لاستثمارها. بالتأكيد بقي العبيد والعمال القرطاجيون في أمكنتهم لكن معلميهم هم الوحيدون المسيطرون على التقنيات الضرورية لإنضاج العناقيد وتحويل العنب إلى خمر جيدة ومسكرة. إضافة إلى ذلك أن مشتري هذه المنتجات يسكنون قرطاجة، وأن أمراً من مجلس المئة وأربعة يمنع مواطنينا من المتاجرة مع المناطق المحتلة. أما التجار الرومانيون المقيمون في سيرتا فعليهم التفكير ملياً قبل شرائهم إنتاج هذه المزارع. وأعلم حنون ذو الحصة أبناء الذئبة أن مثل هذا الإجراء سيُعتبر تصرفاً معادياً. رغب بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم بإجراء دور سيئ مع ماركوس بورسيوس كاتون، فتعمد إلى منع دخول البضائع الواردة من السهول الكبرى ومن تيسكا إلى مرفأ أوستي تحت طائلة غرامات باهظة تفرض على رؤساء العمال. وهكذا كان ماسينيسا

إذن على رأس أراضٍ ترهق تكاليف العناية بها ميزانيته. عاجلاً أو آجلاً سيعمل على التفاوض للوصول إلى اتفاق لرد الأراضي المستولى عليها لقاء تسديد مئة تالان.

لم ترق هذه المناورة لآزر بعل، وهو حتى ذلك الحين الحليف الأمين لصهره حتى أن أصدقائي لم يترددوا في اعتباره مسؤولاً عن توقيف ونفي عشرات منهم. الواقع أنه تغير كلياً منذ سفره إلى روما. فهو مثل جميع الكائنات الماكرة المخادعة مازال يحتفظ ببقية من الشرف. إنها حديقته الخفية، والسبب السري لحياته الذي يمنعه من السقوط كلياً في نظره بالذات. اعتمد بإخلاص فائق على وعود روما حتى لا تصدمه في الصميم نوايا ماركوس بورسيوس كاتون السيئة. متطرفاً مثل بقية الأشخاص الذين ينتمون إلى طينته غرق في القنوط فانسحب إلى ملكيته الفاخرة في ميغارا يجتر حزنه وغيظه.

توجه ذات صباح إلى مجلس المئة وأربعة وكنت أشرف على الحراسة، حيث كلفت بأعمال قيادة الحراسة، تقديراً وشكراً لجهودي المخلصة والطيبة خلال إقامتي في روما وعند زيارة كاتون إلى مدينتنا. وبصوت يتهدج انفعالاً توجه آزر بعل إلى الزملاء:

ـ يا قضاة أجمل مدينة في العالم. يشرفني أن أجلس بينكم. إنما يجب أن أتخلى الآن عن هذا الامتياز لأسباب يشق علي عرضها أمامكم. انصرفت منذ عشرين سنة لأخص كل طاقتي للخدمة العامة، ولهذا السبب أهملت مصالحي الشخصية. استغل القيمون على شؤوني الفرصة لخداعي وأجدني الآن في وضع مالي كارثي. القسم الأعظم من ملكياتي مرهون ودائني من العقبان الكواسر الحقيقيين غير مستعدين لمنحي مهلة إلا بشرط أن أنظم أوضاعي شخصياً وأطرد أولئك الذين استغلوا ثقتي. إنني كما تعلمون أنتمي إلى أعرق عائلات هذه المدينة، ولا أستطيع حرمان أولادي من ميراث

يستحقونه. أتوسل إليكم إذن وقلبي مفعم بالهم لإعفائي مؤقتاً من وظائفي والسماح لي بالانسحاب إلى أراضيَّ.

بدا على زملائه الاقتناع بصدقه. بعضهم لا يجهل أن عرضه يتضمن جزءاً من الحقيقة. فقد تعودوا أن يحثوا الخطى في الحياة وألفوا عادة الاستدانة المؤسفة، كان بإمكان آزر بعل إذن الاعتماد على تسامح عديد من الأعيان المفلسين مثله. أما الباقون فهم سعداء لرؤيته ينسحب من الحياة العامة لبعض الوقت. فإذا نجحت المفاوضات مع ماسينيسا، فلن يتمكن من الحصول على أية فائدة وهذا ما يغمرهم بالرضا والسرور، إضافة إلى منحه عطلة هو نفسه يطالب بها.

هكذا انطلق آزر بعل في الحال إلى ملكياته في رأس بون. وعرفت من اتباعي أنه يتردد بكل دقة على سوق أسبيس، يراقب شخصياً مبيعات محاصيله إلى التجار الرومانيين الميسورين. لم يتأخر أصدقاؤه القدامى من السخرية بهذا الفظ الذي تحاور سابقاً مع عظماء هذا العالم وتقلص ليُحدّث من الآن فصاعداً أذناب خيوله. ولن أكون الأخير في الضحك منه كي لا أخدعه.

في الواقع كنت أعلم أن التظاهر بهواه المفاجئ لما تنتجه الأرض هو الذريعة الوحيدة التي وجدها لمغادرة قرطاجة دون إثارة شبهات صهره حنون ذي الحصة. وجب عليه بأي ثمن أن يبتعد عن الأنظار المتطفلة ليستقبل رجلاً يبعده كل شيء عنه: أنا بالذات. سبق أن قلت في تلك الفترة أنني غدوت شخصية هامة رغم شبابي. بعد عودتي من روما، سميت «البيوتارك» أي رئيس القوات الاحتياطية في الجيش. كان تحت إمرتي بضع مئات من المرتزقة الباقين في خدمة مدينتنا. أكسبني مثل هذا التمييز أن يتقرب مني بمنتهى الحماس رؤساء الحزب الديمقراطي المؤيد لاستئناف الحرب مع روما. فتظاهرت برفضي لهذه المبادرة، لكنني غدوت سراً واحداً منهم. علم آزر بعل بالأمر من جواسيسه، وبادر إلى

توظيف العلاقات المعقودة بيننا أثناء إقامتنا في روما للتفاوض مع أصدقائي.

في البداية، بدا هؤلاء شديدو التحفظ لفكرة التحالف مع من اضطهدهم خلال سنوات. وجب أن أستخدم كثيراً من المهارة لأفهمهم أن آزر بعل، لمرة واحدة، لا يقوم بلعبة مضاعفة. فخيبة الأمل التي شعر بها تجاه تصرف شيوخ المجلس في روما فتحت له الأعين. شعر أن رفضهم التدخل في النزاع مع ماسينيسا يخفي ارتباطاً ضمنياً مع خطط ماركوس بورسيوس كاتون القذرة. في مواجهة هذا الخطر أدرك أن على جميع المواطنين القرطاجيين نسيان خلافاتهم وتوحيد قواهم لإنقاذ مدينتهم من الخراب.

أذن لي قادة الحزب البرقاوي بإجراء محادثات معه. لم يكونوا يجازفون بأمر هام باتخاذهم ذلك القرار. رسمياً أنا لست واحداً منهم، ويستطيعون إن اقتضى الأمر التنصل من هذا الموضوع. لا يضيرهم بالصفة شبه الرسمية أن يطلعوا على ما يضمره خاطر مخاطبهم مع احتمال تباهيهم بعد ذلك بأنهم المحرضون الحقيقيون لقضيتنا. وجب علينا مضاعفة الحرص لتنظيم لقاء دون إثارة شبهات حنون ذي الحصة. فقد كان هذا على صلة بمجموعة من الجواسيس وقد تطلب مني ذلك التزام أقصى الحيطة والحذر. حضر لحسن الحظ أحد الرجال لمساعدتي. إنه أريسته معلمي السابق. كان يعيش على الدوام في قصر ميغارا، وكان أبي يمنحه مبلغاً متواضعاً من الدخل الشهري ليشكره على خدماته. أجرينا خدعة أضحكتنا كثيراً. أظهر أستاذي السابق سخطه علي ونادى في كل مكان بوجوب إيجاد مكان جديد له. وباعتبار أن لآزر بعل أولاد في سن الدراسة ضمه إلى خدمته بعد أن قام بزيارة له.

حضر هذا إلى ميغارا ليأخذ أمتعته، وتمكن من تسليمي رسالة من معلمه الجديد تحدد شروط لقائنا في ملكية رأس بون. بقي علينا إيجاد الوقت المناسب. أعلن حنون ذو الحصة تغيبه لبضعة أيام عن

قرطاجة في رحلة صيد بصحبة والدي. عرض عليَّ اللحاق بهم. فأظهرت إعجابي بدعوته، إلا أنني اتخذت مظهر المرتبك وبحت له في النهاية أنني على موعد غرامي مع ابنة إيتربعل رئيس الحزب البرونوميدي في مجلس المئة وأربعة. قلت له أن الفتاة هامت بي ولعاً رغم غضب أهلها، ورجوت حنون ألا يعاكس مشاريعنا. هذا ما دفعه إلى الضحك ومنحني الإذن بكل طيبة خاطر.

ذات مساء، ومع حلول الظلام، تقدم عداءان سيراً على الأقدام إلى باب ملكية آزر بعل لتنبيهه إلى قدومي المتوقع. سافرت على متن محفة يحملها ثمانية من أشداء الأثيوبيين ذوي العضلات البارزة. لم أكن منزعجاً بتحرري من سجني المتجول ووضع قدمي على الأرض. وجدت مضيفي ينتظرني على باب منزله.

ـ أرحب بك، قال لي بصوت بشوش، وأنا في غاية الامتنان لقبول عرضي، وأرجو أن تعذر احتياطاتي الخاصة الواجب اتخاذها للقائنا. أنت تعلم كم تعج المدينة بالجواسيس المأجورين لحساب مجلس المئة وأربعة، ولن يقصر هؤلاء بإعلام حنون ذي الحصة إن رؤوني أدخل إلى قصرك في ميغارا. هل أنت واثق من عدم ملاحقة أحد لك؟

ـ لا تقلق. تركت بعض المرتزقة المنتخبين بدقة في المؤخرة. لديهم أوامر باعتقال أي مار يشتبه به، ولي ملء الثقة بهم للتخلص من المزعجين المحتملين. لنكف عن الكلام في هذه التفاصيل فأنا متلهف لسماع ما تريد قوله لي.

ـ لندخل إلى منزلي: وسنكون أكثر إطمئناناً في حديثنا.

كانت دارة آزر بعل تغص بثروات نجت من جشع الدائنين: تماثيل واردة من بلاد الإغريق، رياش مذهبة ثقيلة وافدة من ورشات الاسكندرية الماهرة، شمعدانات كبيرة ومناضد من مصانع صقلية، سجف ثقيلة تعود في الأصل إلى صور، جلود فهود وأنياب أفيال محفورة واردة من داخل أراضي البدو الأفريقيين. تمددنا

على سريرين مريحين وتناولنا بعض المرطبات الخفيفة ونحن نتداول عبر معارفنا العامة. عندما جاء العبيد يحملون وجبات الطعام دخل آزر بعل في صميم الموضوع:

ـ حسدروبال، إقامتي على ضفتي التيبر فتحت عيني. بالتأكيد لا يتمنى جميع الرومانيين اختفاءنا من الوجود، لكن أخلص أصدقائنا في تلك المدينة غير مستعدين لحمايتنا من ماسينيسا. ليس من الصعب عليهم مع ذلك البرهان عن الحزم ضده. إنه مدين لهم بكل شيء ولا يساوي شيئاً دونهم. شعبه عصابة من المغامرين والمتمردين المستعدين لخدمة من يسمح لهم بالمزيد من أعمال السلب والنهب. تمكن أن يصمد على عرشه لأن مفارز رومانية تتواجد باستمرار في عاصمته سيرتا بذريعة السهر على أمن نحو مئة من التجار الإيطاليين. لم تحرك روما ساكناً وتجبره على طاعتها. هكذا نعلم لماذا شكل تساهل روما في هذا الصدد بنظري نذير شر مستطير.

ـ هل تعتقد أن مجلس الأعيان كان مطلعاً على مشاريعه وسمح له بالتسلط على السهول الكبيرة؟

ـ كلا. إنني مقتنع بقيامه بمبادرة خاصة من قبله. أراد أن يسبر قدرتنا على المقاومة ودرجة تأثيرنا على ضفتي التيبر. لو أدانت روما تصرفه لأمر قواته بالانسحاب سريعاً متذرعاً، بنفاق، أن قادته استغلوا فرصة مرضه للانطلاق بمثل هذه المغامرة. لا تنس أنه في الثمانين ونيف من العمر وأن آثار الجراح التي تلقاها في المعركة تلزمه باللجوء إلى فراشه لعدة أسابيع حائلة دون توجيهه لأمور مملكته. لهذا الثعلب المسن إذن عذره الداعم إن أدان الرومان حركته، لكنه لم يكن بحاجة لاستخدامه.

ـ غير أن مجلس الأعيان قدم لابنه رسالة تدين، بصراحة، مبادرته.

ـ بلا شك، استأنف آزر بعل، لكن عدونا الشرس ماركوس

بورسيوس كاتون أحبط كل ذلك عند صياغة تقريره، الذي تعرف مضمونه، بعد عودته من أفريقيا. بيننا وبين ماسينيسا قررت روما عدم الاختيار وفضلت مراقبة من سيخرج منتصراً من صراع القوى هذا، إن أعلنا الحرب رغم المعارضة التي ستوجه ضدنا لأمكننا سحق قواته قبل أن تتمكن الكتائب الرومانية التي سيستدعيها لنجدته من أن تطأ أفريقيا. سيتمكن بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم المستعد في السابق لدعمنا من استخلاص النتائج، وسيعتمد الوضع الراهن بعد أن يغمر ماسينيسا بالكلمات المواسية.

ـ كان من مصلحتنا الكلية إثارة المنازعات كما اقترحت منذ بداية هذه القضية.

ـ نعم، ومن أجل ذلك يجب الحصول على الأغلبية في مجلس المئة وأربعة. أنت لا تجهل أن نصف أعضائه ينتمون لعصبة حنون ذي الحصة المعارضين لكل عملية عسكرية. الأغلبية وَجِلة كثيراً من اتخاذ مثل هذا القرار، المخالف لتدابير المعاهدة الموقعة مع سيبيون الأفريقي. ليس هذا كل شيء. يجب الأخذ بالاعتبار أيضاً أعضاء الحزب البرونوميدي، حيث يعمل رجال ماسينيسا على غمرهم بالذهب والهدايا لشراء ضمائرهم وأصواتهم.

ـ في هذه الحالة علينا توحيد جهودنا في سرية تامة. وأنا مقتنع أن لك في عقر دارهم أصدقاء مخلصين، وهم قادرون على أن يضموا إليكم المترددين إن اقتنعوا بالأخطار المحيقة بمدينتنا، وبضرورة إجراء ضربة قوية توقف التعدي على حدودنا.

ـ هذا ما اقترح القيام به يا حسدروبال. إنني مقتنع بأن نحو مئة من الأعيان مستعدون لاتباعي. وهذا يعني انقلاباً في التحالفات الجارية في مجلس المئة وأربعة.

ـ أعرف هذا وأقدر مدى صعوبة تحقيقه. وجب على أصدقائي أن يتحملوا المعاكسات والإهانات بعد أن عُهد إليك بالإشراف على المجلس. سجن بعضهم وعانى آخرون النفي أو الحكم عليهم

بغرامات ثقيلة. خلقت هذه الحوادث المزعجة عداءات وأحقاداً تصعب إزالتها.

- هم يتوقعون العودة إلى السلطة مع جميع المزايا المفترضة، وسيتعزون أضعافاً مضاعفة عن إخفاقاتهم السابقة. بعد كل حساب لأنصاري المقربين اعتراضات ضدك. في فترة بهائهم لم يتصرف قادتكم آل برقا بشكل طيب نحو منافسيهم. نحن متساوون إذن. صدقني إن الوقت قد حان لوضع سطر على هذه المناظرات العقيمة والتفكير بالمستقبل.

- لا يسعني إلا موافقتك على هذه النقطة. ما هي مخططاتك؟

- علينا تحضير سبب مهم لإعلان الحرب على ماسينيسا لتحميله مسؤولية بدء النزاعات. أعتمد على بعض أصدقائي من النوميديين. أحد جنرالاتهم، بيتياس، مغتاظ تماماً ضد ماستانابال أحد أبناء الملك، الذي أصبح عشيق زوجته. هو يظهر تجاهله ليتجنب مصيبة أكثر إذلالاً من إخفاقه الزوجي. تأخر في الانتقام منه وأنا أعتمد على خدماته سراً، وقد هيأنا المناورة التالية: سيهاجم بعض رجاله إحدى قرانا وسيحرقونها بعد طرد السكان، ستكون وجوههم مخفيةً بعناية بحيث لا يمكن التعرف عليهم.

سيلجأ فلاحونا، مذعورين ومدمرين، إلى قرطاجة وسيكون مشهداً تدمع له أعين الأكثر قسوة من مواطنينا. سيلجأ أتباعي وأتباعك لإعلان ثورة شعبية تلزم مجلس المئة وأربعة بطرد أعضائه الموالين لماسينيسا. عند ذلك سنتمكن من وضع حنون ذي الحصة في أقلية، ونطلق بعثة تأديبية ضد جارنا مستندة إلى حقنا في الدفاع عن أنفسنا.

- يبدو مخططك بالغ الدقة ويمكنك التأكد من مساندتي له. حان وقت النوم. سأعود وسأدخل إلى قرطاجة غداً متبعاً طرقات ملتوية، وستتوافر لنا فرصة اللقاء قريباً لننتقل من القول إلى الفعل.

* * *

ذات صباح لفت نظر الحراس المناوبون في أعالي البرج المطل على باب أوتيكا، وعلى البعد غيمة كبيرة من الغبار. شك الضابط المسؤول بكونها غزوة من النهابين، ووجه الأمر لمفرزة من الخيالة بتعقبهم لمعرفة جلية الأمر. عند عودتهم اطمأن قليلاً بعد أن اعلمه الكشافون أن الأمر لا يتعلق بهجمة معادية بل بسلسلة طويلة من اللاجئين يصلون إلى عدة مئات، وهم وافدون من بلدة تقع على الحد الفاصل بين السهول الكبرى وأرض أوتيكا.

عند سؤالهم قص الهاربون ما لحق بهم من أذى قوض عزائمهم منذ ثلاثة أيام. فبينما الرجال منصرفون إلى أعمالهم الحقلية أو إلى متاجرهم في دكاكينهم المتواضعة، اندفعت مفرزة من النوميديين حجبوا وجوههم بقطعة من النسيج واقتحمت المحلة. أضرمت النار خلال أقل من ساعة في المنازل، وعنابر القمح، والأبنية العامة، وذبحت الماشية. لكن المثير للفضول تجنبهم اللجوء إلى العنف مع السكان المتجمعين في ساحة القرية الذين التحق بهم الفلاحون. أمر رئيس الغزاة النوميدي جمهور المروعين بالتوجه مباشرة إلى طريق قرطاجة إن أرادوا تجنب الموت ذبحاً من قِبل الجنود الآخرين المختبئين في الروابي المجاورة.

عندما توغل الموكب المثير للشفقة داخل حرم العاصمة البونية، لم يستطع السكان المتجمعون قرب باب أوتيكا من حبس دموعهم. وبنظرة حنوٍّ وإشفاق قدموا لهؤلاء التعساء ملجأ مؤقتاً في المساكن غير المأهولة، هي نصف ريفية ونصف مدنية في الغرب من ميغارا. إلا أن الأكثر تهيجاً بينهم غزوا الحانات العديدة في المرفأ التجاري، علت أصواتهم مسرعة والخمر تساعدهم على سرد حكاياتهم. ليسوا قط من قرية واحدة لكنهم من عشرات القرى التي أحرقها الأوغاد المأجورون التابعون لماسينيسا. لم يكتف هؤلاء بذبح الشيوخ والأطفال اليافعين، بل عمدوا في وقت واحد إلى

اغتصاب الشابات والسيدات المحترمات تحت أعين أمهاتهن وأزواجهن المرتعبة.

لم يتأخر أعضاء مجلس المئة وأربعة عن ملاحظة أن مروجي هذه الأخبار السيئة هم العناصر التي تعمل في خدمة آزر بعل. كانت أكياس نقودهم ممتلئة، وحرصوا على أن يجددوا مشروبات المستمعين المصغين لهم، واضطر أصحاب الحانات إلى إخراج الجرار من بيوت مؤونتهم. مع هبوط الليل غدت الجماهير أكثر عدداً ونشبت منازعات ضارية بين أولئك الذين يقللون من شأن الأحداث العارضة، وأولئك الذين يعدون أنفسهم من أنصار الانتقام عديم الشفقة. في حانة الدلفين الرشيق انبرى شخص تشير ثيابه الأنيقة إلى أنه لا يختلط إلا نادراً بجموع الأحياء الشعبية، توصل إلى إقناع الجماهير لعقد اجتماع في صباح اليوم التالي في المقام، ليطالبوا مجلس المئة وأربعة بالرد المناسب على الإهانة الموجهة لمدينة إليسا.

نقل عملاء حنون ذي الحصة هذه الأخبار مباشرة لسيدهم، واجتمع هذا الأخير يحيط به مستشاروه الرئيسيون وسأل المقربين إليه:

ـ هل يجب توجيه الأمر إلى الحراس بتفريق أولئك الذين سيجتمعون غداً صباحاً أمام مبنى المجلس دون رحمة أو شفقة؟

ـ تستطيع ذلك لكنني لا أنصح به، علق أحدهم المسمى جيسكون، الرجال غير موثوق بهم، ولا نستطيع الاعتماد على عناصر مساعدي حسدروبال رئيس القوات الاحتياطية «البيوتارك». بديهي أنه يشكل قسماً من المؤامرة المحاكة ضدك، وسيجد كل الذرائع لعدم تدخل قواته.

ـ فقدنا الأمل إذن!

ـ كلا، يكفي كسب الوقت بالتظاهر أننا نمتثل لمطالب الدهماء.

ـ ما هي؟

ـ يطالبون بالانتقام ويطلبون إطلاق حملة تأديبية لمعاقبة ماسينيسا. إنها مجازفة يصعب تنفيذها لكننا نستطيع إيجاد وسيلة.

ـ ما هي؟ سأل حنون ذو الحصة.

ـ في قلب المجلس يتمتع العاهل النوميدي بنحو أربعين من المؤيدين الذين سيهرعون لمساعدته. سنحول غضبة مواطنينا إليهم باعتبارهم خونة قرطاجة ونعمل على طردهم خارج أسوارنا. إنهم من الأثرياء ويكفينا الإعلان أن ما ينتج عن بيع ممتلكاتهم سيوزع على المحتاجين واللاجئين. سيسعد هؤلاء البؤساء أن يتقاسموا بعض قطع النقود الصغيرة مهللين لاعتبارنا منقذي الوطن، وستكون جميع هذه النفقات على حساب حسدروبال ورفاقه. سيأتي الوقت المناسب، فيما بعد، عندما يعود الهدوء، لمطالبتهم بدفع ثمن تصرفهم اللامسؤول.

ـ جيسكون إنك ذو فكر عبقري وسنعمل وفق توجيهاتك.

في اليوم التالي ومع بزوغ الفجر، وصلت الوفود زمراً صغيرة متراصة إلى المقام رجالاً ونساءً وأطفالاً، وبدا أن رعاع مدينة إليسا بكاملها على موعد في هذا المكان. كانت الوجوه رزينة وحضر بعضهم مزودين بالرماح والأسلحة الثقيلة مما يشير إلى نواياهم السيئة. عندما وصل اللاجئون ضحايا بربرية النوميديين من معسكرهم المؤقت في ميغارا صدر عن الجمهور هتاف حماسي رائع يعلن عن رغبته بالتعبير عن تضامنه.

تعرض أعضاء مجلس المئة وأربعة لكثير من المشقة لفتح طريق للوصول إلى مبنى المجلس حيث يمكنهم إجراء مداولاتهم. كان حنون ذو الحصة آخر الوافدين، وافتتح الجلسة بصوت قوي مطمئن متوجهاً إلى زملائه:

ـ أعضاء المجلس الموقرين، أنتم تعلمون أنني على الدوام نصير للسلام وقد قاتلت جميع الذين حاولوا إقحامنا في مشاريعهم

المشؤومة حيث البرقاويون هم الرائدون في هذا المجال. الاعتداء الشنيع الذي راحت ضحاياه فئة من مواطني إحدى القرى البعيدة يجب إدانته بقوة كبيرة، وقد توجه سفراء مزودون بتعليمات صريحة جداً إلى سيرتا لملاقاة ماسينيسا ومطالبته بإنزال العقاب المناسب بالمذنبين. سيتعلق الموقف الذي سنتبناه بالجواب الذي سيحملونه. لا أستبعد أية فرضية وآمل أن يتصرف العاهل النوميدي كملك حكيم.

- أخطأت في إرسال هذا الوفد دون استشارتنا المسبقة، قال إيتربعل رئيس الحزب البرونوميدي، كان من الأفضل إجراء تحقيق معمق عن هذه المسألة قبل المباشرة بهذه المحاولة الوقحة. بهذا الشكل تعتبر ماسينيسا مذنباً بينما فرضيات أخرى تخالف ذلك. أعضاء المجلس الكبير الموقرين، أنتم تعلمون أن سكان هذه المناطق ذوو طبيعة عدوانية سواء أكانوا نوميديين أو بونيين. حدث في الماضي، وفي مرات متكررة، أن مواطنينا المتمردين على سلطة قضاتنا أجروا عمليات لدى الماسيليين أو المازاسيليين للاستيلاء على مواشيهم أو على محاصيلهم. من يستطيع أن يجزم أن هذا الهجوم ليس عمل انتقامياً من النوميديين أعد للثأر بتحريض من مواطنينا دون أن نعلم بهذا الأمر؟ قبل أن نتهم الآخرين لنسأل أنفسنا من هم المجرمون الحقيقيون، لأن لدي بعض الشكوك حول المخططين لهذه الجريمة البشعة، للأسف لا أستطيع تقديم الأدلة أمامكم في الوقت الحاضر.

أثارت هذه الكلمات عاصفة قوية من الغضب. غادر عدة أعيان مقاعدهم متوجهين إلى إيتربعل وأعوانه بنوايا غير ودية، وسمعت صيحات تتفجر من كل مكان:

- الويل لمن يفرح بدمار مواطنينا!

- الموت للخونة! إنهم غير جديرين باسم القرطاجيين. لنسلمهم إلى الشعب ليذبحهم دون شفقة!

ـ ليحوّل بعل حمّون إلى رماد كل من يدعمونك. إنك أشد سوءاً من الكلاب التي تثور أحياناً عندما يسيء سيدها معاملتها. إنك تفضل التضحية بأقاربك بالذات، لأن ملك قبيلة من المتوحشين الحقيرين يوافق أحياناً على مكافأتك بابتسامة.

بحركة من يده أشار حنون ذو الحصة إلى المعترضين للعودة إلى أمكنتهم والالتزام بالصمت، ثم مد يده مشيراً ومهدداً إيتربعل، وانفجر غاضباً:

ـ حتى هنيبعل برقا، الذي سبّب كثيراً من الشرور لمدينتنا لم يفضل يوماً مصالح غريب على أخوته بالدم. إيتربعل، سلوكك شائن وألاحظ بأسى أن لا أحد من مناصريك يملك الجرأة ونفاذ البصيرة للاعتراض على تصرفك المشؤوم. إنه إهمال لمصالح وطننا الحيوية السماح بمرور هذه الجريمة دون عقاب. لذلك وبصفتي القاضي الرئيسي في قرطاجة اقترح طردك مع أتباعك نهائياً من هذه المدينة، ومصادرة أملاكك لتباع ويستخدم محصولها لتخفيف آلام اللاجئين والفقراء. أمامك يومان لمغادرة مساكنك مع عائلتك. احترس من الاعتراض لأن هذا القرار متسامح جداً في نظري. كان بإمكاني الحكم عليك بالموت لكنني امتنعت عنه لأن بعض أسلافك خدموا مدينتنا ببسالة، واعترافاً بفضلهم العميم استطعت البقاء على قيد الحياة. هل توافقون على هذا القرار يا أسياد المجلس الكبير الموقر؟

ارتفعت غابة من الأيدي المؤيدة بينما فرض الحصار على أنصار إيتربعل من الحراس، واقتيدوا تحت حراسة شديدة إلى باب خروج منعزل في المبنى ليفلتوا من عقاب الجماهير وتجنب المصير المقدر لهم.

بعد يومين من هذا التصويت غادر هؤلاء التعساء المدينة، تتبعهم عائلاتهم وسخريات وصيحات استهجان المارة تلاحقهم، توجهوا نحو مدينة سيرتا حيث توقعوا استقبالهم من قبل ماسينيسا

ومكافأتهم على ولائهم. تكدر الملك عند رؤيتهم، فقد كانوا مفيدين له ماداموا في مجلس أعيان المئة وأربعة، وعمل ما بوسعه للتقرب منهم. الآن غدوا من المنفيين ومن غير المحتمل عودتهم إلى أوطانهم. كما أن تقديم الضيافة والإعالة لهم في بلاطه من شأنه إثارة حفيظة حنون ذي الحصة. لهذا عمد إلى تحديد مكان إقامتهم في مناطق بعيدة جداً عن عاصمته وحرمهم من الحصول على أي مالٍ. خلال عدة أشهر هلك عدد كبير من هؤلاء القرطاجيين أصحاب الملكيات الواسعة سابقاً بعد تعرضهم للجوع والبرد، واضطر الآخرون للتسول على أبواب المعابد لإعاشة عائلاتهم.

مقابل حزم قرطاجة وحياد روما الظاهر، أدرك ماسينيسا أنه أفرط في التصرف الطائش. حان الوقت لإعطاء ضمانات تهدئة لمدينة إليسا. عمد إلى التقرب من حسدروبال الطائش، وهو عضو في مجلس الأعيان ومتزوج من إحدى حفيداته، ويعد من الأعيان الأكثر اعتدالاً. أعلمه بقرب وصول سفارة غير عادية يقودها اثنان من أولاده غولوسا وميسيبسا وهما يحملان اقتراحات لإنهاء الأزمة. سيبلّغ الأميران القضاة القرطاجيين أن الهجوم على القرية، الذي أثار هذه الأزمة كان من فعل متمردين تصرفوا دون علم ملكهم. جرت تحريات للعثور على الجناة، وأعلن التعرف عليهم وإيقافهم ونقلوا إلى قرطاجة ليحاكموا ويعاقبوا كما يستحقون.

اطلع غولوسا وميسيبسا على هذه المعلومات واتخذا طريقهما بصحبة قافلة أثقلت بالهدايا الفاخرة، كما رافقهما عدة قضاة من مدن السهول الكبرى سجنوا لرفضهم قسم يمين الولاء للعاهل النوميدي وشملهم العفو. على بعد عشرات من الستادات عن قرطاجة، انضمت إليهم مفرزة قرطاجية كان على رأسها حسدروبال الطائش ليبلغهم أن مجلس المئة وأربعة أمر مع شديد الأسف أن تقيم المجموعة معسكرها خارج حرم المدينة. وشرح لهم أن القضاة البونيين باشروا النظر إمكانية استقبالهم. وسيتلقون الجواب

خلال فترة وجيزة، وبالانتظار ستقدم مدينة إليسا التموين الضروري لرجالهم ولدوابهم.

مرت عدة أيام، والأعيان في اجتماع مستمر في معبد إشمون دون أن يتوصلوا إلى اتفاق. كان حنون ذو الحصة مؤيداً لافتتاح المفاوضات مع أبناء ماسينيسا، وعرض بإسهاب وجهة نظره لزملائه:

ـ الشكر لآلهتنا على نعمها وشهامتها، الشكر للربة تانيت على كرمها. استجابوا لتوسلاتنا وأرهفوا الحس لما نعانيه من بؤس. ميسيبسا وغولوسا لم يحضرا كمنتصرين متعجرفين إنما مثل سائلين ملحين. أضعفتهما ترددات حاميهما القوي حتى لو حاولا إفهامنا عكس ذلك. نحن إذن في موقع قوة لنطالب بإخلاء تدريجي للسهول الكبرى.

ـ لماذا تطلب الإخلاء التدريجي؟ صاح صديق لآزر بعل، يجب أن يعيدوا لنا كامل الأراضي المحتلة دون وجه حق، ودفع تعويضات للأضرار الحادثة لمواطنينا الذين دمرت مساكنهم وحقولهم.

ـ إنه تحقيق للعدالة من جهة لكنه عمل طائش سياسياً. يجب العمل على مراحل للبرهان على إرادتنا الطيبة. ستسر روما لعدم تأزيم الوضع وتسميم الجو من قبلنا، وستسمح لنا أخيراً باستعادة كامل ملكياتنا عندما يعترف النوميديون علنا بخرق المعاهدات التي وقعوها معها.

ـ إنك تقترح علينا مسايرة أعدائنا ونحن قادرون على سحقهم نهائياً، صاح أبي موتومبعل منفعلاً ومقاطعاً علناً التحالف مع حنون ذي الحصة، أذكركم أيها السادة الأعيان الموقرون، تحملت قرطاجة طويلاً قانون المنتصر وأوفت بتعهداتها تجاه روما التي أرهقت ميزانية مدينتنا. أظهرنا أننا شركاء مخلصون، ومخلصون جداً، لروما وحلفائها، ولم نحصل لقاء إخلاصنا إلا على التهكم،

والشتائم والإجراءات الجائرة. حان الوقت، الوقت المناسب لترفع مدينتنا رأسها لتعلن أن قرطاجة هي من جديد قرطاجة. وأقترح، أشار موتومبعل، تنبيه غولوسا وميسيبسا بأننا نرفض استقبالهما مادام جنودنا لا يستطيعون العودة إلى مفارز قلاعهم القديمة. في هذه الحالة، بل وفيها وحدها نستطيع التفاوض على معاهدة جديدة لضمان حقوق الطرفين.

ـ إنني أؤيد هذا الاقتراح، قال صديق آزر بعل، إنه صوت الحكمة وسيتيح لنا كسب وقت ثمين لتعزيز تحصيناتنا وتجنيد المرتزقة ممن نحتاجهم إن تطلب الموقف إثارة القضايا من جديد.

رغم الجهود التي بذلها حنون ذو الحصة، تم تبني اقتراح والدي بأغلبية كبيرة. في المساء تيسر لي لأول مرة، وبعد مدة طويلة، تبادل محادثة جدية معه. خلافا للعادة كنت البادئ بالحديث:

ـ أشكرك على تدخلك لتحويل ميزان المترددين لصالحنا. مع ذلك لا يمكننا التوقف عند انتصارنا الأول. قناعتي بأننا لن نتوصل إلى اتفاق مع النوميديين، وعلينا أن نتخلص من هذه الطغمة الملعونة المستعدة لتقديم خدماتها لروما. الحرب معهم محتمة ولا مفر منها.

ـ ماذا تقترح؟ سأل موتومبعل.

ـ قَدّمَ بيتياس المتواطئ معنا فرصة ذهبية بمهاجمته لقرية مواطنينا التعساء. لذلك أخشى أن يسعى حنون ذو الحصة المتكدر من خيانتك له للتوصل إلى اتفاق مع ماسينيسا. يلزمنا افتعال مشكلة لا يمكن حلها ونصب كمين لغولوسا وميسيبسا عند عودتهما. سيكبدهما جنودنا خسائر فادحة مع محافظتهم على حياة الأميرين، ولن يكون الحل إلا بإعلان ماسينيسا الحرب علينا، وسننتهز هذه الفرصة لنطرد حنون ذا الحصة، والاستيلاء على دفة مجلس المئة وأربعة.

- إنها فكرة رائعة. سأذهب بصحبة حسدروبال الطائش، لأحمل جواب المجلس لميسيبسا وغولوسا. وستقوم أنت بالإعداد للهجوم على النوميديين.

- سررت يا موتومبعل لاطلاعي أن لديك مثل هذه الاستعدادات. إلا أن القرار المتخَذ مملوء بالمجازفات على مستقبل مدينتنا. إذا جرت الأمور خلافاً لما نتوقع وهرعت روما لنجدة حليفها فإنني أؤكد لك صعوبة النجاح. في هذه المرة لن نكون تحت رحمة سيبيون الأفريقي بل تحت ضراوة ماركوس بورسيوس كاتون.

- أدرك قلقك وعانيت الليالي الطويلة دون أن أعرف الرقاد للتوصل إلى نتيجة، لا يوجد أمامنا خيار آخر. من الممكن أن تكون نتيجة هذا الصراع مشؤومة على مدينتنا. لكنها ستهلك بعزتها وعلو مقامها، وأفضّل لها هذه النهاية على عبودية مقنّعة تُفرض علينا عندما نرضى بالمساس بسيادتنا دون تحريك ساكن.

- أعتقد أنك تتكلم بلسان المواطن الحقيقي، وبالرغم من الاختلافات التي شابت علاقتنا في الماضي، فلن يفرق بيننا شيء بعد الآن.

* * *

في اليوم التالي نقل موتومبعل للأميرين النوميديين جواب مجلس المئة وأربعة. انتابهما الغيظ للإهانة الموجهة لهما وأمرا أتباعهما بالرحيل على الفور. توجه موكبهما نحو أوتيكا بعكس ما اقترحه ميسيبسا على غولوسا الذي لم يتخذ أي إجراء لأمنه، باعتباره يملك جواز مرور بشكل حربة قرطاجية يعلوها ذنبا حصان. لم يرسل أي كشاف للتأكد من خلو الطريق. سرعان ما وجد النوميديون أنفسهم أمام جسر ضيق يجتاز نهر باغراداس. كان مسدوداً بعربة انقلبت حمولتها الثقيلة من الحجارة على الدرب

الضيق، وقد هرع العبيد لتحرير الممر تحت رقابة مقاول احمرّ وجهه من الغضب، فتوجه إليه ميسيبسا وسأله:

ـ متى يمكننا المرور؟

ـ بعد أن ينهي هؤلاء الكلاب عملهم. داعبت ظهورهم كثيراً بسوطي الجلدي لإثارة حميتهم، ومع ذلك يبدو لي أن هؤلاء الحمقى يحتاجون إلى ساعات لإنجاز هذا العمل. أرى أيها السيد النبيل من الأفضل لك أن تسلك معبراً في النهر يقع على بُعد ساعة. إنه محدد بأكواخ بعض القرويين الذين سيطالبونكم بدفع رسم. وأفترض أن لديك الوسائل لإقناعهم.

ـ أشكرك على نصيحتك ولن يتأثر كيسي بمثل هذا الأمر التافه.

توجه الفريق النوميدي في الاتجاه المشار إليه وتوصل إلى قرب المعبر الخالي من الحراس. كانت الضفتان مكسوتين بأدغال كثيفة وبالقصب. وكل شيء هادئ. أمر غولوسا رجاله بالتعري واجتياز النهر سباحة بركائبهم بعد إمساكها من أعناقها. تقدمت الخيول وجلة لكنها تشجعت بجرأة خياليها في اجتياز قوة التيار. بعد الوصول سالمين نزع الرجال ثيابهم لتجفيفها في الشمس، وتبادلوا الأحاديث مرحين بينما انطلقت الخيول ترعى أعشاب المرج. فجأة دوى صوت البوق، وخرج من القصب مجموعة فرسان قرطاجيين، كنت في طليعتهم، إذ أمكن بسهولة معرفتي من معطف قيادتي، وانقضت على المفرزة النوميدية الصغيرة تذبح أكثر من نصف أعضائها. توافر الوقت لنَجْلي ماسينيسا مع بعض الناجين للهرب إلى أقرب مدينة تشغلها حامية مازاسيليين دون أن يلاحظوا أن مهاجميهم بعد اكتمال عملهم سلكوا طريق قرطاجة، تاركين للعقبان وغيرها من الطيور الكاسرة تمزيق الجثامين المرمية أرضاً.

عند وصولهما إلى سيرتا وجدا أباهما في استقبالهما. كان

الشيخ في السابعة والثمانين من العمر ذي لحية ناصعة البياض ويتمتع رغم الجراح التي تلقاها في المعارك بحيوية فائقة.

بعد أن استمع إلى رواية الأحداث والكمين الذي تعرضت له سفارته انفجر غاضباً:

- هذا الهجوم يشكل تعدياً صارخاً لقوانين الضيافة المقدسة، خاصة وأنك محمي بجواز سفر مسلم من حسدروبال الطائش. من كان يقود مهاجميك؟

- حسدروبال البيوتاركي بنفسه، دون أي احتراس ليستتر عن نظرنا. صدقني يا أبي، أشار غولوسا، إنه إعلان حرب حقيقية حتى وإن عمل القرطاجيون على الحرص على سلامة ولديك، خوفاً من آثار هذا العمل في المستقبل. يخيل لي أنهم تلقوا تعليمات بالمحافظة على حياتنا والاكتفاء بذبح قسم من بعثتنا.

- لم يتصرف حسدروبال بطيش، استأنف الملك، إنه يذعن لأوامر مجلس المئة وأربعة. بما أن مدينة إليسا أرادت الحرب فستحصل عليها. سأعطي الأوامر لقادة جيشي لجمع قواتهم وقريباً سنتوجه نحو قرطاجة لمعاقبة هؤلاء الخونة على صفاقتهم. ستتوجه يا غولوسا حالاً إلى روما لإعلام القناصل عن هذا الوضع والتماس عونهم، للعمل على الإسراع بإرسال سفارة وقوات داعمة.

- أبي، قال ميسيبسا معترضاً، أليس هذا القرار سابقاً لأوانه؟ بعد كل حساب مايزال لدينا بعض الأصدقاء عند البونيين. حسدروبال الطائش تزوج إحدى حفيداتك ويمكننا أن نطلب منه استخدام نفوذه لمعاقبة المذنبين.

- إنك تعلل مثل طفل. وفقاً لما قيل لي تم اختياره من مجلس المئة وأربعة ليعلن لكم عدم ترحيبه بكم، وأدى المهمة مرغماً، وكنت أول المقتنعين بعدم رغبته بالقيام بها لكن حنون ذا الحصة أراد أن يعلن أن رابطة القرابة المنسوجة بيننا وبين الطبقة الارستقراطية

البونية ليس لها أية أهمية. هؤلاء القرطاجيون يستحقون أن نلقنهم درساً. إنهم من الماكرين، جاحدي النعمة. عاش شعبانا مدة طويلة جنباً إلى جنبٍ متفاهمين. استقبلنا بكل حفاوة المنفيين الوافدين مع الملكة إليسا وأغدقنا عليهم وعلى ذريتهم النعم. كان أعز أصدقاء هميلقار الكبير عمي جوبا وترعرعت بصحبة أبنائه هنيبعل وماغون وحسدروبال وأعتبرهم بمثابة أخوتي. حاربت إلى جانبهم في إيبيريا وأنا فخور بانتصاراتنا.

ـ يبدو أنك آسف على تلك الفترة، قال غولوسا.

ـ بذل البرقاويون بإدارتهم للمدينة عناية كبرى في احترام عاداتنا وتكريمنا بشتى الطرق. كانوا بحاجةٍ لنا ولجنودنا، وعاملونا على الأقل كأناس مساوين لهم. أنِفوا الاستيلاء على أراضينا لأنهم كانوا يرون مستقبل مدينتهم في إشادة إمبراطوريتهم في الجهة الأخرى من البحر الكبير.

«تغير كل شيء بعد هزيمة زاما وأتساءل: هل ارتكبت خطأ كبيراً بانضمامي إلى سيبيون. إذ لم يعد أمام البونيين خيار بعد أن حرموا من خيرات صقلية وسردينيا سوى إيجاد مناطق جديدة والتوسع باتجاه مملكتنا، ليتمكنوا من تأمين الاستقرار لشعوبهم المتكاثرة. باحتلالنا للسهول الكبرى أردت توجيه إنذاراً لهم ليخففوا من عطشهم للغزو. ازدروا بمقاصدي معتقدين أنني أغتصب حقوقهم في ملكيات حسبوا أنهم ينعمون بها منذ الأزل.

«كانت خطتهم واضحة بالنسبة لي. إنهم يريدون استخدام ما يتمتعون به من تأثير على ضفتي التيبر للحصول على دعم روما، لكن بعد كل حساب، لروما كل المصلحة بأن ترى القرطاجيين يهتمون بمصالحهم في أفريقيا الداخلية ويتخلوا عن فكرة استعادة ملكياتهم في الجهة الأخرى من البحر الكبير. سيكون اتفاقهم مع مجلس المئة وأربعة أكثر ضماناً لهم من عقد اتفاق معنا. ليس لنا أي رغبة بالأراضي التي يسيطر عليها أبناء الذئبة. يمكن لهنيبعلٍ

جديدٍ أن يطلب تعديلاً للأوضاع الراهنة، عندما تصبح مدينة رومولوس في موقف ضعف بسبب ثورات حلفائها الإغريقيين أو الغاليين. سجل حنون ذو الحصة نقطة إيجابية بمساعدتهم للقضاء على بيرسة المقدوني، ولم يطلب بالمقابل شيئاً لكن قد يأتي يوم ويطلب منهم بعض التعويضات. في تلك الفترة لن ترجح كفتنا في الميزان. في مواجهة هذا الوضع سيهتم مجلس الأعيان الروماني قبل كل أمر بضمان سلامة روما، وسيتحالف مع الجهة التي تستطيع أن تؤمن له نجاح قواته. وجيراننا أفضل وضعاً منا بتأمين النجدات الضرورية.

«يتوجب علينا تجنب الوصول إلى موقف مزعج، يجب أن نتحرك لقطع العشب من تحت أقدام جيراننا المخادعين موضحين لهم بأننا لسنا أقل مكراً منهم. غولوسا، بني، المصلحة العليا لشعبنا تقتضي التوجه فوراً إلى روما، لشرح قضيتنا أمام صديقنا الحقيقي ماركوس بورسيوس كاتون. لا أشك لحظة واحدة بجوابه. ومع ذلك عليك أن ترتبط بصداقةٍ مع منافسيه، وخاصة آل سيبيون الذين أهملناهم كثيراً، ويمكنك بإقامة الحجة استدراجهم بمهارة لمراجعة موقفهم. لا تعد قبل اكتساب ودهم. على كتفيك الناحلتين يستند مستقبل مملكتنا. اعتمدُ عليك فلا تخيب ثقتي المطلقة بك وأنت أهل لها، وستنال ما يرضيك في الوقت القريب.

الفصل الخامس

غضب حنون ذو الحصة غضباً شديداً عند اطلاعه على الكمين الذي أوقعنا به غولوسا وميسيبسا، لكنه ولأهداف سياسية، وهو الماكر، عرف كيف يكظم غيظه. فهو مايزال يرأس مجلس المئة وأربعة رغم هزيمته بأغلبية الأصوات. رفض موتومبعل أن يرشح نفسه خليفة له بناء على نصيحة آزر بعل. كان هذا الأخير، ومايزال مقيماً في أراضيه، وهو يعرف أن أنصاره يترددون في مساندة رئيس الحزب البرقاوي. من الأفضل له أن يداري حساسيتهم وأن ينضم منفرداً لهم وهو يعدهم بالكثير من المكاسب. في موقف ضعفه رأى حنون ذو الحصة أن يخاتل ويظهر متسامحاً في تلك الظروف بدلاً من أن يقف على رأس المعارضة. كنت أعلم أنه لن يجرؤ على معارضتي خشية ردود فعل يثيرها بحركته.

عرف الشعب بامتنان أنني لقنت درساً جيداً للنوميديين، وكان يتم التهامس بإعجاب باسمي في الحانات حول المرفأ. في الوقت نفسه هرع عديد من الأرستقراطيين الذين كانوا يجهلونني نهائياً إلى تهنئتي بحرارة ووجهوا دعواتهم لي لزيارتهم. لم أكن مخدوعاً بتغير موقفهم. لديهم بنات راغبات بالزواج وأنا زوج مثالي. والدي ثري ويعرف كثيرون عاجلاً أو آجلاً أنني سأدعى لإدارة مدينتنا. كان موتومبعل على علم بهذه الدسائس التي تحاك حولي وقد دعاني إليه ليسبر نواياي.

- حسدروبال، إنني شيخ هرم ولا أريد أن أموت قبل أن أرى أحفادي. عائلتنا من كبار نبلاء قرطاجة ولا يمكن أن تزول. حان الوقت لتجد قرينة لك. وفقاً لما قيل لي هنالك مرشحات كثيرات، وأريد أن أعرف من هي التي اختارها قلبك.

- للأسف يا والدي لم أختر واحدة، قد تجهل بأنني خلال إقامتي في أوروسكوبا توطدت علاقتي مع عريشات، ابنة بودشمون قائد القوات هناك، لكنني لم أعد أراها منذ عدة أشهر، إن كان ذلك ممكناً، فهي من اختارها قلبي.

- مثل هذا الارتباط يشكل زواجاً غير متكافئ، وأنت تدرك بسهولة عدم موافقتي.

- لا تهتمّ بالأمر. عريشات إنسانة غريبة الأطوار. إنها شديدة الحرص على استقلالها ولذلك لا تستطيع تحمل وضع الانعزال الذي نفرضه على زوجاتنا، لقد اعترفت لي بذلك عند لقائنا، ولا أظنها غيّرت رأيها، وهذا ما يرضيك تماماً لأن لديك العروس التي تعرضها علي.

- في الواقع. أرى أن لديها كل ما يرضيك. إنها إميلكة، ابنة زميلي عبد ملك حفيد ماغون شقيق هنيبعل، وبزواجك منها ستدخل في عائلة برقا وسينعكس عليك مجدها. ما رأيك؟

- أهي جميلة؟ لا أريد دميمة في مضجعي.

- إنني أصارحك الرأي. إنها دون شكّ أقل جاذبية وفتنة من عريشات ولكنها ليست دميمة، تلقت تربية ممتازة وستكون ربة بيت وأم رائعة وهذا يكفيك، ميزتها الأساسية سلالتها المنحدرة عن عائلة هنيبعل مما يسمح لي بإبعاد المنافسين من الحزب البرقاوي.

- هل يمكن أن ألقاها؟

- ستكون هذا المساء من المدعوين، وستحكم بنفسك وستعلمني عن قرارك.

خشيت الأمر الأسوأ وأنا أستمع إلى كلمات والدي الحذرة. الواقع إن إميلكة وهي في العشرين من عمرها كانت فاتنة. ذات شعر أسود جَعْدٍ، ووجه بيضوي، وقوام متناسق وذكاء متميز. القول بسيطرتها يعني مع ذلك الذهاب بعيداً، إنما بدا لي أنني ألمح خلف ابتسامتها قسوة روح قد أعاني منها في يوم ما. مع ذلك فأنا على مستوىً يتحمل مثل تلك المضايقات، وعندما انسحب المدعوون أعلمت والدي برغبتي بالقران بها. وضعت شرطاً واحداً: الذهاب مسبقاً إلى أوروسكوبا لإعلان النبأ لعريشات.

سررت كثيراً للقاء مفرزتي السابقة حيث يتابع بودشمون قيادتها بسلطته المعهودة. هنأني على ارتقائي إلى رتبة بيوتارك دون أن يطلب حظوة لنفسه، في الواقع هو سعيد بالحياة في تلك المدينة ولن يتركها لأي سبب في العالم. مع هبوط الليل وجدت عريشات خارج الأسوار، في المكان الذي شهد لقاءاتنا السابقة، وقد نَضُجت وازدادت جمالاً. وبلهجة ماكرة سألتني:

ـ إنه لأمرٌ هام تريد إعلامي به، يا حسدروبال، لتتذكر وجودي بعد كل هذه الأشهر.

ـ شغلت كثيراً بمهامي الجديدة، وبقيت مدة طويلة غائباً عن قرطاجة حتى أنني لم أستطع الحضور لزيارتك.

ـ لا تفتش عن عذر وأنبئني بالواقع.

ـ طالبني والدي بأن اتخذ زوجة لضمان استمرار عائلتنا.

ـ ومن هي التي اختارها لتشغل تلك المهمة؟

ـ إميلكة إحدى نسيبات هنيبعل البعيدات.

ـ أهي من الحسناوات؟

ـ أقل منك جمالاً!

ـ أتحبها؟

ـ لم أكترث بها حتى الآن، إلا أنني أشكّ في أن أعرف المُتَع التي كشفت لي عنها.

ـ لست بحاجة لطلب الإذن مني للاقتران بها. هي أرستقراطية وأنا ابنة ضابط بسيط فقير. على كلّ حال، وكما سبق أن قلت لك، أنني بالغة الحرص على استقلالي وحريتي، ولن أنحبس في قصرك ولا رفقة لي إلا بعض الأرقاء والنسوة المهيبات.

ـ هل يعني هذا أنك انقطعت عن حبّي؟

ـ كنت لي عاشقاً رائعاً ولن أنساك أبداً. وآمل أن نبقى أصدقاء وأن تسنح لنا فرصة اللقاء مرة أُخرى، لكن أبداً، وعلى الإطلاق، لن أصبح زوجتك أو زوجة أي رجل آخر.

عُدتُ ثانية إلى قرطاجة منشرح الصدر حيث احتُفِلَ بزواجنا بأُبَهة في قصرنا في ميغارا. حتى حنون ذو الحصة كان مضطراً للمشاركة في الاحتفال، محاولاً إخفاء شعور عدم الرضا عما يسببه وجود قرابة بين ابن موتومبعل ونسيبة هنيبعل البعيدة. لئن كان الاحتفال بهيجاً فإن ليلة زفافنا لم تكن على شاكلته. وجب أن أدرب إميلكة على مُتَع الجسد وتبين لي أنها تأنف منها. هي تذعن لرغباتي على كره منها، وسرعان ما عافت سريري وأقامت مع خادماتها في شقّة موازية لمسكني. في العلانية يتولد انطباع بأننا متآلفان. أما في حياتنا الخاصة فنحن غريبان. بالتأكيد، وبعد مرور عدة سنوات، رُزِقنا بوَلَد وفتاة وبعد ذلك ـ وهذه قصة أخرى ـ توقفنا عن كل علاقة جنسية.

لم يَعُد لي أي متسع من الوقت للاهتمام بتعاستي الزوجية، لأن الأحداث تسارعت. وفقاً لتوقعاتنا أرسل ماسينيسا إلى روما بعثة يقودها ابنه الأصغر غولوسا. كان اختياراً ذكياً. فبمقدار ما كان غولوسا حكيماً بمقدار ما كان أخاه الأكبر ماستانابال فاشلاً محباً للأطعمة وللفتيات. علاقته مع زوجة الجنرال بيتياس معروفة للجميع، باعتبار أن تلك الحمقاء تلاحقه بشكل علني، بلامبالاة تدخل

إلى منازله عنوة بأية ساعة من النهار أو الليل. كان الأمير الشاب مستعبَداً لها واستغلت وضعه لتغمر بالهدايا جشع خدمها. لم نستطع إلا أن نبارك ذلك الوضع، فبيتياس الممتلئ غيظاً لانتهاك كرامته أصبح أحد رجالنا. أما ابن ماسينيسا الآخر ميسيبسا، فجواسيسنا تراقبه عن قرب وهي حريصة على شراء خدماته. هو كائن مراوغ يستبد به جشع مَرَضي ولإبعاد الشبهات عنه ـ أُتهم بإعداد خطة لإزاحة أخويه المرشحين لخلافة والده على العرش ـ كان يتظاهر بأنه يقف على الحياد من الحياة العامة، وأنه منصرف إلى هواية سباق الخيول.

الابن الأصغر يطيع تلقائياً وبرضى أوامر والده، وخاصة عندما يأمره بالانطلاق بعيداً عن العاصمة التي يختنق فيها كلياً، إنه يمقت جو هذه القرية الريفية المكتظة بأناس ذوي طباع فظة وغليظة غير مكترثين بالروائع، في روما أو في بلاد الإغريق، التي كشف له معلموه عنها خلال سنوات دراسته. كان لطيفاً ومثقفاً، لم يقصر في إغراء مخاطبيه على ضفاف نهر التيبر والمرافعة عن اعتقاد راسخ بقضية والده. من المفارقة أن إعجابه بمنجزات أبناء الذئبة أتاح لنا تحييده. تقدم، بناءً على أوامري، صديقي ماركوس لوسيوس أتيليوس إلى الأمير الشاب، يقترح عليه تماثيل ومزهريات واردة من مسقط رأسه. كان لرفيق حفلات سكري في حانة الدلفين الرشيق ما يكفي من الثرثرة ليحظى برضا غولوسا، دون أن يخفي عنه روابطه مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم ودون أن يبالغ في الأهمية. لهذا، عندما أمر ماسينيسا ابنه الأصغر للذهاب إلى أوستي اقترح الأخير أن يصحب معه ماركوس لوسيوس أتيليوس.

سمحت له بإجراء تلك الرحلة إذ لن يفوتني، عبر النقود الفضيّة أو الذهبية، أن أكون مطّلعاً على المساومات الجارية بين النوميديين ومواطنيه الرومان. الواقع أن هذه المفاوضات امتدت أكثر مما

يتوقّع. وصل غولوسا إلى روما في بداية الصيف، ووجدها مدينة خالية من الأشراف والقضاة، الفقراء والأقنان المكلفون بحراسة قصور معلميهم وحدهم داخل الأسوار يلازمون دارات أسيادهم. هم متعطلون يقضون معظم أوقاتهم في الخمّارات يشربون ويلعبون بالأكعاب (النرد). أما النساء والأولاد فيتجمعون قرب الساحات العامّة حيث تتسرّب شبكة رقيقة من الماء. عند توهج الشمس ظهراً ينطلقون في مواكب فرحة إلى ضفاف النهر للاستحمام. وعند هبوط الليل تعجّ الشوارع بجمهور غفير يؤجلون لأطول مدة ممكنة العودة إلى جحورهم القذرة حيث تتجمع عشرات العائلات في حجرات ضيقة وعاتمة. تنشب أحياناً نزاعات بين السكارى، غير أن الأولاد الجاثمين على الشرفات يشيرون بصيحات تنبئ بوصول قوى الشرطة القليلة المكلفة بتجنب أي تشوش.

بسبب العطلة الإجبارية طلب غولوسا من ماركوس لوسيوس أتيليوس الحصول على بعض التسلية فجمعه بعاهرات من معارفه تباهين بإغداق نعماهُنّ على ابن ملك. كان هذا منشغلاً خفية بتحضير لقاء بين الأمير وبوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم الذي يتصرف بمودة تجاه قرطاجة. لم يمر الأمر دون صعوبة، فالأخير موجود في كامبانيا ولا يرغب في العودة إلى روما وجوها المنتن. لحسن الحظ، قضيةٌ استدعت حضوره واستغل صديقي المناسبة ليقدم ابن ماسينيسا للسيناتور الذي أعجبت سابقاً بمواهبه خطيباً خلال استقبال سفارتنا داخل مجمع القضاة «الكوريا هوستيليا». من جميع الرومانيين الذين قابلتهم كان له على البعد تأثيراً كبيراً. والده، بوبليوس كورنيليوس سيبيون نازيكا، ابن عمٍّ لسيبيون الأفريقي، وأنهى مسيرته الرائعة أميراً في مجلس الشيوخ. ذكراه ليست بعيدة عن التقدير الذي يحظى به ابنه. مُعارض للحملات الحربية المطلوبة من عامة الشعب، مرتبط بقوة بامتيازات طبقته، وقد يكون مكروهاً من معظم مواطنيه. غير أن أكثرهم فقراً يقدرون سجاياه وصراحته وبساطته. هو لا يتردّد في الاختلاط بالجمهور

المجتمع في الساحة العامة، يستمع بصبر إلى أكثر الناس بساطة ويبذل قصارى جهده لإيجاد حلٍّ للحالات الأكثر مأساويّة.

كان لبوبليوس كورنيليوس سيبيون نازيكا سيرابيو ابن وحيد ترعرع برفقة ابن عمه بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس مع جهلي أنه سيكون يوماً سجّاني. هذا الأخير لا ينتمي إلى سلالة كورنيليا، من آل سيبيون. فجدُه هو ذلك القنصل لوسيوس أميليانوس بولوس، الذي لقي موتاً مشرّفاً في كانّاي وهو يحاول أن يجمع الفرق الهاربة من وجه المشاة القرطاجية ـ ولسخرية القدَر ـ من الخيّالة النوميدية. والده، بولوس المقدونيقي، بعد أن أبعد القراصنة الذين يهاجمون سواحل ليغوريا، هزم بيرسة المقدوني خلال معركة بيدنا مما دعا إلى تلقيبه بالمقدونيقي وبنصرٍ مايزال الجميع يذكره. خلال تلك الحرب طلبت روما من قرطاجة تزويده بكميات هامّة من القمح والزيت، وهو ما فعلناه دون طلب مقابل له. هذه المبادرة لم تكن غريبة عن رابطة الصداقة التي يكنُّها لنا بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم ولا يمكن لابن بولوس المقدونيقي تجاهلها. لقد دخل في عائلة آل سيبيون بعد وفاة والده الابن المتبنى لسيبيون الأفريقي المحروم من الذرّية وزوجته عقيم. إنه تقليد روماني قديم يتيح عدم اختفاء بعض سلالات أشراف روما.

وفق ما أعلمني ماركوس لوسيوس أتيليوس، تصرّف بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم مع غولوسا بطريقة ودّية. أفهمه عدم إمكان بدء المفاوضات في حال غياب معظم الأعيان. كان آسفاً على الأمير الشاب الذي أكّد له أنه سيجد مع ابنه ومع ابن أخيه رفقة طيّبة قادرة على الترفيه عنه. غير أن عميلي القديم أضحكني عندما ذكر في إحدى رسائله التي رأى من المستحسن أن يصوغها عن كورنيليوس سيبيون نازيكا سرابيو:

ـ أبي، يعتقد غولوسا أنه وقع في فخٍ، بعد كل حساب جاء يدافع هنا عن مصالح أبيه. إلا أن عائلتنا معروفة بإدانتها لتصرُفات

ماسينيسا مع وقوفها إلى جانب قرطاجة. إنه يخاطر بشعوره بخيبة الأمل بصحبة خصوم أقوياء.

ـ إنّك تحاكم كأحمق. أجبته. هل أنت من البلاهة لتعتقد أن خلافات على قضايا سياسية تقف عائقاً أمام نشوء صداقة؟ بإفراغكم بعض كؤوس من خمرة صقلية لن تفكرّوا إلا برواية مغامراتكم العاطفية مع العاهرات وستنسون كل ماعداها. سرعان ما ستكون أول من يضحك على سذاجتك.

في الواقع غدا الشباب الثلاثة بسرعة أصدقاء حميمين، وماركوس لوسيوس أتيليوس يؤمن لهم ما يلزم للاستمتاع بحياتهم المرفهة. بدأت المدينة تتحدث بانفعال عن طيش ورعونة هؤلاء الفتيان الذين قرروا أن يستغلوا كل مُتَعِ الحياة. ارتبط الأمير النوميدي الشاب بشكل خاص مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس الذي أعجب بشخصيته المرحة، وتضاعفت تلك الصداقة عندما قدم له هذا الأخير شابة قرطاجية رائعة الجمال. إنّها ابنة أحد الرهائن المُسلَّمين من مدينة إليسا إلى روما بعد هزيمة زاما لضمان تسديد تعويض الحرب. توفي أهلها وهم من سلالة أرستقراطية عريقة خلال فترة احتجازهم. ترعرعت الفتاة اليتيمة في روما وتربّت في منزل سيبيون الأفريقي، الذي أوصى ابنه بمعاملتها بكل مظاهر الإكرام اللائقة بمقامها.

وقع غولوسا في غرامها منذ رؤيتها لكن، عريشات ـ وهذا اسمها مما يدفع إلى الابتسام ـ كانت وفقاً لقول مخبري جذّابة، نحيلة القوام، ذات عينين سوداوين تزيدان من مظهرها الغامض، ولها جسم رائع، يشفُّ ثوبها عن نهدين مكتنزين مستديرين. وتُبدي في مشيتها تمايلاً مثيراً.

تابعها الأمير الشاب متودّداً بإعجاب، لكنها صدته بفظاظة. اغتاظ وهدّد بخطفها. لكن أصدقاءه نصحوه بالامتناع عن هذه

الطريقة التي مارسها الرومان قديماً مع سكان(*) سابين. شرحوا له ضاحكين أن الشابة المزهوّة سرّاً من توجيه الأنظار إليها كانت قد قررّت إخضاعه للتجربة لتتأكد من صدق عواطفه، وستنتهي إلى الاستسلام عندما يحين الوقت المناسب.

بالطبع تقرّب ماركوس لوسيوس أتيليوس من الفتاة، مجازفاً بمخاطر كبيرة، وكشف لها عن دوره الحقيقي. أظهرت في البدء دهشتها وعدم ثقتها. لحسن الحظ كان أحد أعمامها الساكنين في قرطاجة صديقاً لوالدي. بعد إطلاعه على السر كتب إلى نسيبته رسالة تمَّ انتقاء عباراتها بعناية، وهو يناشدها فيها ألا تنسى أصلها وأن تطيع التعليمات التي يوجهها إليها مخبرنا. ازدهت الفتاة لاستطاعتها التواصل مع أنسبائها، وأدت عريشات دورها تماماً. في إحدى الأمسيات انضمت إلى هؤلاء الشباب للمشاركة في عشائهم، وبعد مغادرتها حضرت إحدى العبدات تنبئ غولوسا أن محبوبته تنتظره في إحدى مقاصيرها. عندما التقى أحدهما بالآخر لم يجدا ضرورة للكلام، طرحها الأمير على سريرها وبعد مداعبات حميمية مارسا الحبّ بشوق.

في ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن أضناهما صراعهما الغرامي، تبادلا اعترافاتهما الأولى. شرحت عريشات لصديقها بأنها فُتنت به منذ لقائهما الأول، لكنها أصيبت بخيبة الأمل عندما علمت بأنه ابنُ ألد أعداء قرطاجة. بعد ذلك أيقنت أن عليها أن تعترف بالواقع: إنهّا ترغب فيه وتشتهيه، لذلك وبعد تردّد طويل قررت المغامرة وتجاوز كل العقبات. غدا العاشقان لا ينفصلان، الأمر الذي أدى إلى كثرة الأحاديث بين السيّدات الرومانيات.

مع نهاية فصل الصيف عاد الأعيان والقضاة الرئيسيون والقناصل إلى المدينة وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي. أسرع

(*) Sabine : بلدة قديمة في وسط إيطاليا عمل الرومان على خطف شعبها.

ماسينيسا بتوجيه الرسل للإطلاع على تقدم مساعي ابنه. ولسوء حظ هذا الأخير اضطر للقيام بواجباته كسفير لبلاده. في كل يوم يسعى إلى «الكوريا هوستيليا» لملاقاة الآباء أعضاء مجلس الشيوخ البارزين ليدافع عن قضية والده دون التوصل إلى نتيجة. نصحه آل سيبيون بالأناة، وأضافوا أن امتلاك السهول الكبرى لن يضيف شيئاً إلى كِبَر النوميديين خاصة وأن صغار المزارعين لن يستثمروا ملكيات الأرستقراطيين البونيين الأثرياء. أما الأعيان الآخرون، ما عدا أنصار ماركوس بورسيوس كاتون، فقد اكتفوا بالإسراف بمدحه بالكلام المعسول مع بذل جهودهم لعدم توجيه المحادثات نحو القضايا الشائكة، بالتأكيد، إنهّم يدينون الكمين المنصوب لإبني الملك لكنهم لا يريدون البدء بنزاع عدواني. لأنهم كانوا يستفيدون من أرباح تجارية كبيرة مع مدينتنا بوساطة رجال أعمالهم، وهم لا يريدون خسارة هذه الموارد الكبيرة.

كتب غولوسا لوالده يعلمه أن تدخّل روما غير وارد قطعاً، لكن الواجب يتطلب منه البقاء على ضفاف نهر التيبر للسهر على مصالحهم. أعتقد أن ماركوس بورسيوس كاتون دفع ميسيبسا وماستانابال لإقناع والدهما بأنه لن يستطيع تحمُّل التعدّي على كرامته مدّة أطول. فهو الحليف الوفي لأبناء الذئبة وكافأه هؤلاء مكافأة سيئة على خدماته. لذلك يترتب عليه المبادرة للانتقام من الحامية القرطاجيّة المعزولة وغسل العار الذي لحق به. في صباح أحد الأيام استدعى ماركوس بورسيوس كاتون غولوسا ليعلمه أن القوّات النوميدية اجتازت الحدود واستولت على عدة مدن بونية، وقد غمرت الفرحة هذه المدن لأنها اشترت سلامها بتسديد تلك الضريبة الفادحة. مكانه هو من الآن فصاعداً إلى جانب أخوته وثلاثية مجاذيف تنتظره في مرفأ أوستي لتسير به من جديد إلى أفريقيا. حاول الأمير الشاب عبثاً أن يستمهله، لكن محاوره ملك جواباً مقنعاً لاعتراضاته. ليكسب الوقت تذرّع بعدم إمكانه مغادرة روما دون إذن بسبب مناسبة عيد هام يتطلب الإعداد له عدة أيام، عند مضيفه

بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم إضافة إلى ذلك، كانت تعذبه فكرة ترك رفقاء لهوه. فأجاب كاتون بوجه عابس:

ـ لا أفهم مطلقاً أسباب صداقتك مع آل سيبيون واعتبرهم عملاء حنون ذي الحصة. توقعت اعتراضك وحرصت على أن أجنّبك فراقاً مؤلماً. أسكتُ مشاعري وحصلت على موافقة مجلس الأعيان ليقوم صديقك سيبيون أميليانوس ابن أخ بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم بمرافقتك بصفته مراقباً، منذ بضع ساعات، وفي غاية السريّة. أخبرته أن يكون على أهبة الاستعداد وهو موجود حالياً في أوستي. أفترض أنّك لا تتوقّع منه أن ينتظر!

ـ من واجبي مع ذلك اتخاذ بعض التدابير.

ـ نعم، وعلى سبيل المثال، وداعك لخليلتك القرطاجية.

ـ إنك بالتأكيد جيّد الإطّلاع.

ـ لديّ كل أسباب عدم الثقة بها. إنّها تنتمي إلى سلالة ملعونة. ولن استغرب إن علمتُ أنها تتجسّس عليك لحساب مجلس المئة وأربعة.

ـ هي؟ في كل مرّة أتحدّث فيها مع أصدقائي عن أمور هامة، تنسحب إلى زاوية لتبدي استياءها إلى أن استدعيها لنتحدث بأمور أكثر تسلية، إنّها لا تخرج عملياً من منزلي ولا تتلقى أيّة زيارة. مخاوفك إذن لا مبرّر لها إلا إن كنت تريد أن تمنعها من مرافقتي لتتمكن من مغازلتها على هواك.

ـ لو أنني أصغر بعدة سنوات لن أخفي عنك أنني سأكون قادراً على نسيان أصلها ومحاولة إغرائها خلال غيابك. غير أنني شيخ هرم ركبته الآلام ولم تعد تهمني هذه الأشياء. يمكنك أن تسافر معها إن رغبت بالأمر. ما يهمنّي أن تغادر روما بأسرع وقت ممكن. أرجو لك رحلةً موفَّقة، وأطلعني على ما ستحقّقه جيوشك من انتصارات.

ـ لن أقصر.

ـ أرجو، من جوبيتر كابيتولن أن يمدني بالقوة لأعيش وأشهد اليوم الذي يحمل لي رسول من قِبلك نبأ تدمير قرطاجة! غير أنني أخشى ألا أشهد تلك اللحظة من السعادة الفائقة. صحتي تتدهور يوماً بعد يوم وسيأخذني الموت قريباً. هذا قليل الأهمية! ينتابني حدس بأن هذه الحرب لن تنتهي إلا باختفاء مدينه إليسا، وفي هذا ما يكفي لأكون أكثر تحملاً لبقية حياتي.

* * *

لا بد من أن أعترف. لقد أحدثت هجمة ماسينيسا المفاجئة في أول الأمر ذعراً في قرطاجة. مع بدء الأعمال القتالية استدعاني حنون ذو الحصة، وهو يزبد كلياً من الغضب، واتهمني بأنني المسؤول الرئيسي عن هذا الوضع وأنني أقضي أكثر أوقاتي منشغلاً بالسياسة بدلاً من تنظيم الدفاع عن مدينتنا. وعدت لاسترضائه بالتوقف عن كل نشاط داخل الحزب البرقاوي وعهدت بمهامي إلى هميلقار الساميت الرجل الذي يتمتع بثقتي. بل فعلت أكثر من ذلك: بلغت حنون ذو الحصة أنني مستعد للاستقالة من وظائفي كبيوتارك إن كان ذلك يشكل حسن نية موجهة إلى أعدائنا. أخبرني أن الأمر غدا متأخراً جداً. النوميديون مصممون على تكبيدنا هزيمة كاوية والأمر الملح هو إعادة تنظيم جيشنا. من أجل ذلك اقترحت تجنيد عدة آلاف من المرتزقة، مع الإشارة إلى أن هؤلاء طلبوا ضمانات أكيدة قبل أن يوافقوا على القتال معنا. كانت ذكرى فتنة ماثو وسبانديوس بمناسبة أول نزاع مع روما ماتزال ماثلة لدى أناس كثيرين ولتجنب تكرار مثل تلك المأساة، غداة هزيمة زاما، حرص هنيبعل على أن يتلقى الجنود كامل المبالغ الباقية لهم. أكد لي حنون ذو الحصة أن مجلس المئة وأربعون يمتلك احتياطات كافية ليمنح المجندين الجدد سلفة مهمة، وأمر محاسبي الخزينة بأن يفوضوا المجندين بتسديد عدة مئات من الوزنات الكبيرة «تالان» لتوزع على رؤساء القبائل القادرين على تأمين الوحدات

اللازمة لنا. كان هذا القرار حكيماً. أينما توجهنا كنّا نستقبل بحفاوة. تدفق إلينا السكان الغاليون، والإيبيريون، والإغريق والرومان والمصريون والليبيون ليقدموا خدماتهم لقرطاجة. أمكنني بسرعة أن أعلن لحنون ذي الحصة بأنه أصبح لدينا خمسة وأربعين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف فارس. عند ذكر الرقم الأخير أظهر استياءه قائلاً:

ـ فرسان ماسينيسا أكبر بخمسة مرات وهي التي أخشاها. هذا النوميدي اللعين سيستخدمها ليهاجم مدننا وقرانا على حين غرة. عندما ستصل مشاتنا إليها لن يجدوا فيها إلا الخراب والدمار. أطلب منك وبسعر من ذهب إن لزم الأمر، تجنيد خمسة آلاف فارس إضافي. تستطيع مدن أمبوريا(*) تأمين هذه السوقات وإن امتنعت سنعرف كيف نردها إلى جادة الصواب.

ـ لا تخش شيئاً، خمنت رغباتك وسنتلقى بعد قليل النجدات.

ـ من أمبوريا؟

ـ كلا من منافسينا بالذات.

ـ وكيف سيتم الأمر؟

ـ أنت لا تجهل أن بيتياس أحد قادة ماسينيسا قد أُذل بعد أن اتخذ ماستانابال من زوجته خليلة له. منذ زمن طويل يسعى للانتقام منه وقد التقيت به منذ مدة قريبة سراً. سيأتي اثنان من قادته، أزاسياس وجوبا، وبصحبتهم ستة آلاف فارس لينضموا إلى جيشنا.

ـ أهنئك على تصرفك الحكيم. ما هي خطتك الحربية؟

ـ انتهى فصل الصيف، وأنجز الفلاحون أعمال الحصاد وإعداد البذار. يمكنهم إذن مغادرة مزارعهم والتمركز داخل أسوارنا. عندما يقرر ماسينيسا السير نحو قرطاجة، سيجد في طريقه قلعة أوروسكوبا، تلك البلدة التي أجريت فيها تدريبي جندياً. أنا أضمن

(*) أمبوريا: منطقة واقعة على خليج سِرت في ليبيا الحالية.

بكامل الثقة قيادة حاميتها تحت إمرة بودشمون، وطلبت من قواتكم تسليم مؤونة كافية له لمواجهة حصار طويل. كما طلبت منهم دفع أعطيات إلى الجنود لإثارة حماسهم.

ـ أحسنت بعملك وسأسهر على تنفيذ أوامرك بمنتهى الدقة. وكل مخالف لها سيعاقب بشدة. وأنت ماذا ستفعل الآن؟

ـ أريد خداع ماسينيسا. سيكتفي بداية الأمر هو وجيشه بسرقة المزارع المهجورة لإرواء عطشهم إلى السلب والنهب. ومهما كلف الأمر سنتركه يتصرف. عند ذلك سيعتقد أننا لا نملك القوة الكافية لدحر هجومه، فيواصل تغلغله في أراضينا مبتعداً عن مواقعه. سأستغل الفرصة لألتف حول ميسرتهم وأولد لديه الانطباع بأنني متجه نحو سيرتا عاصمته. سيعود على عقبيه وخلال أقل من شهر سنتواجه في أوروسكوبا، وهناك سأكبده هزيمة سيتذكرها على طول المدى.

ـ ليحقق بعل حمّون أمنياتك!

في المدينة أثار وصول بعض اللاجئين والإعلان عن الدمار الناجم عن أعمال النوميديين الهلع، فعملتُ على تسيير فرق من المرتزقة في الشوارع لتطمئن النفوس. عمدوا إلى السير في صفوف متراصة وهم يشرعون بفخر سيوفهم الطويلة أو فؤوسهم أو أقواسهم أو حرابهم. إنهم الغاليون والسردينيون والإيبيريون والمصريون والإغريق. أثار هذا العرض المشاعر. بكى الأكبر عمراً منهم وهم يرون مدينتهم تستيقظ من سباتها وترتبط مجدداً بتقاليدها العسكرية. أما الأكثر شباباً المندهشين من عظمة دروع القادة فقد هتفوا مدة طويلة يحيون أولئك الذين استعدوا للموت لتأمين حمايتهم. لم يُعرف لحماسهم حدود إلى أن أتى رسول ينبئ حنون ذا الحصة أن عدة آلاف من الفرسان النوميديين يقودهم أزاسياس وجوبا أقاموا معسكراتهم قرب ميغارا. أطاعوا أوامر بيتياس وغادروا أماكنهم، وأمرت ألفاً منهم أن يلتحقوا بمسيرة

العرض العسكري. عندما ظهروا على ظهور خيولهم القصيرة الطيعة تردد المشاهدون في الموقف الواجب اتخاذه. بعضهم حضر من قرى نهبتها قوات ماسينيسا وسُمعت بعض صيحات معادية. غير أنني عملت على وضع رجال ذوي ثقة على طول المسيرة قادرين على التحرك بسرعة مع توجيه الأوامر إلى الحشد الكبير باستقبال الفرسان الفارين بتصفيق وهتاف شديدين، سروا بهذا الترحيب وعمدوا إلى القفز على صهوات خيولهم وهم يرددون أغانيهم الحربية التقليدية التي حجبت صوت الأبواق والصور.

بعد عدة أيام من ذلك العرض العسكري بدأ جيشنا حركته مثيراً في خطواته غيمة هائلة من الغبار، اتخذ الطريق المتجه نحو الشمال. في المقدمة الخيالة الثقيلة والخفيفة ثم المشاة وكتائب المرتزقة التي شكلت جداراً من الحديد. وفي المؤخرة تتقدم عربات المؤن ومعدات الحرب تجرها الثيران. على طول الطريق كان الفلاحون القاطنون في قراهم يهرعون لتقديم المياه والخمور والثمار.

بعد اجتياز سيكا انحرف الجيش باتجاه سيرتا، راقب الفرسان النوميديون تحرك الجيش عن بعد. ذات مساء حضر كشافان وأنبآني بأن ماسينيسا انتابه القلق على مصير عاصمته وأمر قواته أن تعود القهقرى، كانت الخطة ناجحة. لن يمضي إلا بعض الوقت حتى تبدأ المعركة الحاسمة.

لم أغير شيئاً من مخططاتي واتخذت موقعي في جوار أوروسكوبا. المدينة شديدة التحصين وهي تقع على مدخل سهل واسع مغلق من طرفه بهضبة كثيفة الأشجار أقمت على سفوحها معسكري المخفي بعناية بصفٍّ من الأشجار العالية. عندما سيتورط الملك الهرم بين المدينة والمرتفعات دون اتخاذ احتياطات خاصة سيجد نفسه بين فكي كماشة قواتي من جهة وحامية المدينة من جهة أخرى وسيقطعه جنود الحامية إرباً. مع إعلان اقتراب العدو استدعيت ضباطي الرئيسيين لأوجه لهم تعليماتي النهائية.

ـ غداً سيتقدم ماسينيسا في السهل الذي يحيط بأوروسكوبا دون أن يتوافر له الوقت لمحاصرتنا. عندما سيغدو في منتصف الطريق من تلك الهضبة التي نختبئ فيها، سأطلق عليه هجوماً مفاجئاً وسيقوم به مشاتنا وكتائب المرتزقة، وفي هذه الأثناء تجري حامية المدينة طلعة لتتناولهم من الخلف. سأوجه إليه الضربة القاضية بإصدار أوامري إلى أزاسياس وجوبا بملاحقة الهاربين. اقتلوا الجميع لا أريد أسرى. يجب إبادة النوميديين إلى آخر فرد منهم لنتمكن من استعادة المقاطعات التي ضموها بالخداع. بعد هذا الانتصار ستعرف روما من السيد هنا، سيقلق أعيان مجلس الشيوخ في روما بسبب موقفهم السلبي تجاه قضيتنا وسيسمحون لنا باحتلال مملكته مما يتيح لنا إقامة ملكية نستطيع فيها إنشاء مستعمرات جديدة. الآن عودوا إلى رجالكم. ليأكلوا جيداً ولينامو باكراً لأنني لن أتساهل بأي تقاعس من طرفهم خلال المعركة.

مع الفجر أطلت طليعة جيش ماسينيسا على مشارف أوروسكوبا. أمكنني من بعيد أن أرى العاهل يمتطي صهوة حصانه وسط قواته، والى قربه أولاده الثلاثة وبوبليوس كورنيليوس أميليانوس. وفقاً لما روى لي لاحقاً ماركوس لوسيوس أتيليوس أنه بعد أن استبد به الغضب من قرار ماركوس بورسيوس كاتون حول إرساله إلى أفريقيا لم يأسف لوجوده منفياً بعيداً عن ضفاف نهر التيبر. مع وصوله انطلق من انبهار إلى انبهار على التوالي وهو يكتشف ثروات تلك البلاد. في مناسبات عديدة ساهم في أعمال قتالية عديدة إلى جانب النوميديين مخاطراً بحياته مما سبب له تحذيرات قاسية من طرف عريشات. لكنه صرف النظر عن نصائحها الحذرة. هل كان بإمكانه أن يكون وجلاً بينما والد غولوسا كان أول من انطلق في المعركة، رغم أنه تجاوز السابعة والثمانين من العمر؟

أعتقد فعلاً أنه منذ تلك الفترة عدل رأيه من ناحيتنا. دون أن

يوافق على جميع قرارات ماسينيسا، غدا يدرك الآن بشكل أفضل كثيراً تعطشه الشديد إلى الاستقلال وإرادته في أن يجنب أولاده بعد موته مملكة ليست كثيرة الاتساع. بتجواله في السهول الكبرى استرعى انتباهه أن قرطاجة تمارس سلطة اسمية فقط، ففي ضواحي بعض المدن تعسكر حاميات تحكم نفسها بنفسها. كما أن ملكيات الأرستقراطية البونية الكبرى كانت تدار من وكلاء تحت إمرتهم آلاف العبيد الذين يعيشون في شروط بائسة. لم تطأها أقدام مالكيها البتة كما يشهد على ذلك عدم وجود الأماكن الجديرة باستقبالهم. اكتفوا بالإيرادات الهائلة التي تؤمنها لهم الأراضي الخصبة كل سنةٍ دون أن يبالوا بمصير السكان المحليين. بالنسبة للروماني الشاب كان من الممكن دون شك عقد الصلح لو أن النوميديين يضمنون للقرطاجيين التمتع بتلك الملكيات. بعد كل حساب فإن مدينة إليسا بقيت مدة طويلة في نظره غير مهتمة بفرض سيطرتها على تلك الأراضي.

كنت أجهل كل هذا عندما أعطيت الأمر بالهجوم. انحدر مشاتنا ومرتزقتنا بالآلاف من الهضبة وهم يطلقون صيحات رهيبة. لدهشتي الشديدة لم يجرب ماسينيسا الهرب باتجاه سيرتا مع أولاده وبضع مئات من الفرسان، وتضاعفت مفاجأتي عندما لم أجد حامية أوروسكوبا تخرج من القلعة لتمد لنا يد العون. كنت أعتقد أنني أخدع الملك العجوز لكن هذا تفوق علي بمكره. اتصل أتباعه ببوستار، وهو المساعد الثاني لصديقي القديم بودشمون، ضابط يتميز بمهارته وطموحه. كان يكره رئيسه وينتقده في مناسبات عديدة لأنه لم يحصل على الترقية التي يستحقها. أكثر من ذلك، وإضافة إلى النفقات المعتبرة التي أجريناها لتجنيد المرتزقة، فإن مجلس المئة وأربعة، وخلافاً للتعهد الجاري مع حنون ذي الحصة لم يمنح حامية أوروسكوبا الأعطيات المستحقة. نشب التمرد في الصفوف، وبتواطؤ بوستار مع بعض الضباط الآخرين والجنود تم توقيف بودشمون. وعندما وجهت رسلاً إلى أوروسكوبا للتنسيق

بين قواتنا والحامية أحسن العصاة استقبالهم. شرحوا لهم أن بودشمون أصيب بحمى خبيثة وقد ذهب إلى أوتيكا ليعالج فيها. اجتمع بوستار مع معاونيّ مدة طويلة وغفل هؤلاء عن كل ما يجري. وثقت بهم وأنا أدفع الآن الثمن.

لاكتمال في سوء الحظ أعلمني الكشافون بأن عاصفة من الغبار وافدة من الشمال نحونا. إنها الإمدادات التي طلبها ماسينيسا من سيرتا. أحيط بنا من كل جانب. دامت المعركة طوال النهار. تمكنت من بعيد أن أشاهد الملك العجوز يضرب بسيفه أعداءه، منتصباً على صهوة حصانه والرؤوس والأذرع تتطاير من حوله، ويطلق صيحة الظفر في كل مرة يصيب فيها أحد الرجال. حاول الغاليون عزله ومحاصرته لكنه مزقهم إرباً قبل وصول مساعديه الحربيين لدعمه. غرق في دم ضحاياه، وبدا أنه عصي لا يقهر. هذا العجوز ابن السابعة والثمانين عاماً كان يقاتل بحيوية وحماس شاب في مقتبل العمر. عند مشاهدته غرقت في الحنين إلى الماضي، حيث كان يحارب إلى جانبنا وقد كبد الرومان خسائر فادحة قبل أن يدفعه العقوق الذي قابلناه به لتغيير معسكره وينتقل إلى الصف المناوئ لنا.

مع هبوط الليل كان السهل مملوءاً بمئات الجثث. تسمع حشرجات الجنود وتأوهاتهم عندما يحضر رجال ماسينيسا لجزّ أعناقهم إن كانوا من المرتزقة العاديين، أو أخذهم أسرى إن ابتسم لهم الحظ ووقع بين أيديهم ضباط بونيين يتعرفون عليهم بوساطة أسلحتهم ومجناتهم المشغولة بمهارة وإتقان. ستعمد عائلاتهم إلى دفع فديات ثقيلة لشراء حريتهم. يُجمعون تحت حراسة شديدة، مضطرين إلى تسليم سجانيهم بعض حوائجهم الشخصية مثل الخواتم والأساور، ليتمكن رسلهم المفاوضون في قرطاجة من تقديم الأدلة على بقائهم على قيد الحياة للتداول في سعر شرائهم.

اضطررت، والأسى يغمر قلبي، أن أطلب من رجالي اللحاق بي

إلى الهضبة حيث أقمنا معسكرنا. لزمت للحال الحذر وعمدت إلى إرسال عدة مبعوثين إلى حنون ذي الحصة لأنبئه بهزيمتنا ولأطلب مساعدته. تهيأت لمؤن كافية لحصار بضعة أسابيع، وكنت أعلم أن النوميديين بالذات يكرهون مثل هذه العملية. لن يتأخروا في العودة إلى منازلهم قبل بدء فصل الشتاء بحيث يهربون أفواجاً مما يلزم ماسينيسا بالالتحاق بعاصمته.

وجب علي تغيير مخططاتي بسرعة. منذ صباح اليوم التالي رأيت الآلاف من العبيد المحتجزين في المناطق المجاورة يحفرون حول الهضبة حفرتين عميقتين، ويشيدون سياجاً سميكاً بوساطة الحجارة المقطوعة من برج المراقبة. حاولت عبثاً إرسال مفارز لقتل هؤلاء العمال، لكنها كانت تتراجع في كل مرة تحت ثقل الضربات الموجعة من الخيالة النوميدية. يجب الإقرار بالأمر الواقع، الوسيلة الوحيدة لنجاتنا هي وصول جيش إنقاذ يفك هذا الحصار، ويسمح لنا بالقتال متراجعين. ذات مساءٍ حضر أحد مساعدي معسكري وأنذرني بأن مندوبين مفاوضين يقتربون من مخافرنا الأمامية. كانت ردة فعلي الأولى أنهم حضروا يطلبون منا الاستسلام. في الواقع كانت مهمتهم أن يحضروا إلى خطوطنا بودشمون وابنته عريشات بعد أن قرر ماسينيسا منحه حريته. لم أستطع إخفاء انفعالي للقياهم مجدداً، اقتيدت عريشات إلى خيمة لتحاشي الأنظار الفضولية، وأجريت مع والدها محادثة طويلة:

- كيف يمكن لبوستار أن يخون وطنه؟

- حسدروبال، أنت خير من يدرك الجشع الذي ينهشه.

- أعتقد أن ذهب النوميديين قد أفسده.

- لا أريد أن أدافع عن هذا الخائن الذي سيلقى، في يوم ما، الجزاء الذي يستحق. لكنني أعتقد بصدق أنه لم يتصرف عن رغبة في الكسب. عائلته تعيش في قرطاجة وهو يعرف أن مجلس المئة وأربعة سيمارس ضدها تدابير انتقام قاسية. لكن الحقيقة مخالفة

لذلك. إنني أشتبه منذ مدة طويلة بأنه من أنصار إيتربعل الرئيس القديم للحزب البرونوميدي داخل مجلس الأعيان وأنه عمل وفق نصائحه. مجازفاً بإغاظتك، أستطيع أن أؤكد لك أن تصرفه كان بدافع من الولاء الوطني. إنه على مثالنا نحن الآخرين مرتبط بحياة قرطاجة لكنه يعتقد أن مدينتنا لن تكسب شيئاً من النزاع والقتال مع ماسينيسا. أعرفه معتزاً بأنه بوني، يحترم آلهتنا وأعرافنا وهو لا يرضى بأن يتنكر لأصوله على الإطلاق ويؤمن بأن قضاتنا يسيرون بمدينتنا إلى ضياعها.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ حسدروبال، تجهل أنت وأتباعك عواطف قسم من مواطنيك، منذ سنوات وحنون ذو الحصة يمارس ديكتاتورية لا تلين وأنصاركم هم أول الضحايا. منذ أن أصبح في صف الأقلية بتدبير من والدك ومن آزر بعل، لم تتغير الأمور البتة. حكمتم بالنفي على إيتربعل وأصدقائه لأن هؤلاء خمنوا أنك أنت المحرض على الكمين الذي أعد لغولوسا وميسيبسا.

ـ أنت مخطئ. حنون ذو الحصة هو من اقترح إبعادهم.

ـ لسبب وحيد هو إحباط المناورة الجارية من موتومبعل ضده. رغم خلافاتكم في الرأي تصرفتم بالطريقة نفسها. اعتبرتم كل أولئك الذين شاء سوء حظهم ألا يفكروا على طريقتكم خونة . هذا يفسر على الأقل موقف بوستار. لن أتحدث عن الوعود المزيفة التي نثرتموها له ولم تتقيدوا بها.

ـ وما هي؟

ـ عند بدء المنازعات أرسلتم لنا قوافل عديدة من القمح والزيت والخمر لنتمكن من مواجهة الحصار. كما أعلنتم لنا أن مجلس المئة وأربعة سيؤمن لنا منحة عدة أشهر مسبقة وانتشى رجالي فرحاً. عندما وصل وكلاء الخزينة العامة إلى أسوارنا تصرفوا بغطرسة لا

مثيل لها، تحققوا بعناية من وزن كل كيس قمح ومن محتوى كل جرة خمر، وحرمونا من استخدامها مادمنا نستطيع تلقي المؤونة من الريف المجاور. عندما طالبنا بتسديد منحنا سخروا منا مؤكدين لنا أنهم لم يتلقوا أية تعليمات بهذا الخصوص. شرحوا لنا بلهجة حاسمة أن صناديق الدولة فارغة وأننا مخطئون في مطالبتنا باستحقاقاتنا. غير أنك تعلم جيداً أن قرطاجة لم تكن يوماً بمثل ازدهارها بسبب تدفق التجار على مرفئنا. استخدمتم بسعر من ذهب آلافاً مؤلفة من المرتزقة وخلافاً للمألوف تلقى كل واحد منهم مثقالاً من الفضة. برهنتم عن حسن المعاملة نحو الغرباء لكنكم ازدريتم بمواطنيكم الذين بدلاً من أن يغتنوا في التجارة اختاروا اللجوء إلى الخدمة العسكرية. وقاحة وكلاء الخزينة العامة حرضت على العصيان الذي قاده بوستار وكنت أنا الضحية. إلا أنني وإن كنت غير موافق على حركته لا أستطيع إدانته وأنا أعلم، إن احتاج الأمر، أنه سيكون مستعداً للموت والسلاح في يده ليدافع عن مدينتنا إن أراد النوميديون والرومان تدميرها حقاً.

- هذا ما يستعدون للقيام به.

- لنقل إنك تريد دفعنا إلى الاعتقاد بذلك. الحقيقة غير ذلك. أنت تعلم أكثر مني أن لا مصلحة لماسينيسا بزوالنا لأن الرومان سيستفيدون لينغرسوا على شواطئنا وليضموا مملكته إلى بلادهم.

- سأسلم بالأمر، لكن لا تنس أن ماركوس بورسيوس كاتون يحلم بزوال مدينتنا من الوجود.

- استطعت بحث هذا الموضوع خلال أسري مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس أحد أصدقاء غولوسا وهو لا يشاطرك وجهة نظرك هذه.

- ماذا قال لك؟

- إن روما تنوي فقط معاقبة أولئك الذين يتسافهون ويشرعون

الأسلحة ضد النوميديين قبلَ السماح لهم بذلك. بالمقابل فإن جميع المدن البونية الراضية بحياة سلام مع ماسينيسا ستعامل كحلفاء لمجلس الأعيان. دهشت من ردة الفعل هذه، وخشيت من مسعاه في فصلنا عن المدن التي يسكنها أخوتنا في هذه المنطقة.

ـ لا أحد من هذه المدن، يقبل أن يفصل مصيره عن مصيرنا.

ـ أخشى على ذلك كثيراً فأوتيكا وأشولا(*) وتابسوس(**) وليبتيمينوس(***) وحدريم لا تستهويهم هذه الأفكار.

ـ ما هي الأسباب التي دعتك إلى هذه القناعة؟

ـ يجب أن تسأل قضاتهم. لكنني أعرف جيداً أوتيكا فهي البلد الذي نشأت فيه أمي، تأسست قبل قرطاجة وحرصت دوماً على صيانة استقلالها. أستطيع أن أؤكد لك منذ الآن أن سكانها يكرهوننا. فهم يشكون من المنافسة غير المشروعة لمرفئهم من قبل مرفأنا. إن يختفي هذا الأخير سيحظوا بالنجاح والرخاء وموقفهم يقلقني إلى حد كبير.

ـ بودشمون قدمت لي الآن معلومات ثمينة سأطلع عليها في أقرب وقت حنون ذا الحصة وموتومبعل. لنصلي إلى الربة تانيت لتبعد عنا المآسي حتى لا نفقد حلفاءنا الحقيقيين. احرص في الوقت الحاضر على أن تأخذ قسطاً من الراحة بعد التجارب التي قاسيتها، واستعد قواك بأسرع ما يمكن، لن يكون كثيراً أن تصبح معاوني في الأسابيع المقبلة.

ـ إنني رهن إشاراتك ويسعدني كثيراً النضال إلى جانبكم.

* * *

(*) هي هانشير بوتريا حالياً.
(**) هي رأس ديماس حالياً.
(***) هي لمتا حالياً.

اتخذت في البدء إجراءات قاسية لإحلال النظام الأكثر صرامة في المعسكر. كنت أعلم عن خبرة أن أي تهاون سيلحق ضرراً كبيراً بمعنويات الفرق المقاتلة وقد يدفع العناصر المترددة إلى الهرب. حرصت على التكلم مع الجنود وإلقاء الخطب لطمأنتهم. بالتأكيد إن خيانة حامية أوروسكوبا حرمتنا من النصر لكن لدينا مخزونات كافية والهضبة التي حبسنا فيها تحوي عدة ينابيع ماء. الرسائل التي وجهتها إلى قرطاجة وصلت دون شك، ومن المتوقع أن يجري مجلس المئة وأربعة الترتيبات الضرورية لتنظيم انطلاق المساعدات لنجدتنا. استمرت المرتزقة تتدفق بالمئات على مدينتنا منجذبين بالمبالغ المرتفعة التي تدفع لهم. كنت مقتنعاً أيضاً ـ لا أستطيع القول للقوات ـ أن حنون ذا الحصة أرسل منذ الآن سفارة إلى روما يلتمس توسطها.

يلزمنا أن نتخلى عن الذعر ونبرهن عن صبر وطول أناة، ولإشغال الرجال عمدت إلى قطع مئات الأشجار لبناء سياج مدعم وبراكات يمكنهم اللجوء إليها عند بدء الشتاء، ومواسم الأمطار والرياح الجليدية. بعد بضعة أسابيع تمكن رسول وافد من قرطاجة من اختراق الخطوط النوميدية ليحمل لي أخباراً تدعو إلى الطمأنينة في الظاهر: بعد فترة وجيزة ستحضر إرسالية تضم عدة آلاف من المرتزقة متوجهة إلى أوروسكوبا ومعها قوافل من المؤن تحت حراسة أرتال من الخيالة وهي الآن في الطريق. عندما يعلن لنا عن وصولها يجب العمل على تنفيذ اختراق لتأمين وصولها إلى خنادقنا.

أدهشتني هذه الرسالة بدلاً من أن تفرحني. لماذا قررت قرطاجة إرسال قوافل مؤن لا مساعدات عاجلة؟ بدا جلياً بعد هزيمتنا أن حنون ذا الحصة قد استعاد الرقابة على مجلس المئة وأربعة، وهو يفضل رؤية النوميديين يحاصروننا بدلاً من أن يتوجهوا نحو قرطاجة. قرر أن يتركنا نعاني مصيرنا ولن يتدخل إلا

في اللحظة الأخيرة ليظهر منقذاً لجيشنا. وليحكم علي بالحكم الذي تدخره مدينة إليسا إلى جنرالاتها المهزومين: الصلب. مخاوفي ليست عن عبث. فبعد بضعة أيام عمد ماسينيسا إلى ترك بعض الأحياء القلائل الناجين من الكمين الذي نصبه رجاله لقوافل المساعدات يدخلون إلى معسكرنا. قريباً ورغم التقنين الصارم الذي فرضته سيطل علينا شبح العوز وما ينجم عنه من أضرار فادحة.

بعد أن نفذت جميع مخزونات العلف أعطيت أوامري بنحر الخيول والماشية مما أكسبنا هدنة ثمينة. ثم نقص اللحم، واضطر المرتزقة والجنود إلى الاكتفاء بسلق النباتات التي تظهر على الهضبة والى قشور الأشجار للتغلب على جوعهم، لجأ بعضهم إلى مضغ نعالهم وحمالات سيوفهم واستخدموها في صنع حساء عديم الطعم. مع وصول أوائل المطر والبرد هلك الكثيرون من الإرهاق، حال ضعفهم دون دفن موتاهم أو إعداد محرقة لهم فتركوا جثامينهم تتفسخ في الهواء. انتشرت الروائح النتنة في معسكراتنا وأصبح الجو خانقاً. في هذه الظروف ظهر وباء الطاعون وحصد الآلاف من الجنود الذين كنت أسمع تأوهات احتضارهم: يجب مواجهة الحقيقة المرة، بدون معجزة، سيحكم علينا بالموت البطيء جوعاً. كنت بالذات قد وصلت إلى درجة من النحول لاكتفائي بنظام غذائي يقتصر على عصيدة من الماء المخلوط بالتراب وجذور الأرض. بقيت مدة يومين أعيش منزوياً في خيمتي أفكر فيما يجب عمله. في صباح اليوم الثالث ارتديت أجمل درع لي ومعطف قيادتي وسرت مترنحاً، مصحوباً باثنين من ضباطي نحو خطوط الأعداء، وبلغت العساكر القائمين على الخدمة أنني أريد التحدث مع ملكهم. أخطر ماسينيسا بالأمر فقادني إلى خيمته واستقبلني بمودة:

ـ أحيي بسالتك يا حسدروبال، وعنادك، قبل كل شيء، اعتن بتجديد قواك. أعددت لأجلك وجبة طعام فاخرة وأعلمك أنني لن أتداول معك قبل أن تستعيد قواك.

ـ أشكرك على عنايتك الكريمة، لكن بماذا سيفكر جنودي إن عرفوا رئيسهم يلتهم قطعة لحم وبطونهم ساغبة؟

ـ سيقولون أنك على حق. كيف يمكنك أن تفاوض عن مصيرهم وعن مصالحهم إذا كانت رأسك تدور بك في كل لحظة؟ لا تدع الأوهام تسيطر عليك، تناول طعامك وسنتحدث فيما بعد.

ابتلعت كسرة من خبز وبضع ثمرات من الفاكهة ورفضت تناول الخمر الذي عرضه لي أحد العبيد. غمرني شعور غريب بالراحة، وكان علي بذل جهد شاق على كياني بالذات حتى لا أقع تحت تأثير الخدر الذي استولى علي. جمعت قواي، وبدأت مع مخاطبي نقاشاً طويلاً وعنيفاً. برهن ماسينيسا عن بعض الاعتدال. وضع شرطاً لتطبيق الهدنة: تسديد قرطاجة خلال خمسين سنة خمسمئة مثقال فضة، واستدعاء أنصار إيتربعل المنفيين سابقاً من مدينة قرطاجة، وتسليم الفارين من جيشه. حاولت عبثاً أن أحمي أزاسياس وجوبا لأنني أعلم المصير الذي يدخره العاهل لهما ألا وهو الصلب. لكنني لم أستطع ثنيه عن عزيمته، واضطررت والحزن يعصر القلب أن أرضى بجميع طلبات الملك، شرط الموافقة اللاحقة على هذا الاتفاق من مجلس المئة وأربعة. بقي أن نحدد المصير المتوقع للمرتزقة والجنود القرطاجيين. هل كان بالإمكان اعتبارهم أسرى حرب ويمكن بالتالي انسحابهم بحرية؟ بدا ماسينيسا داهية، وعدني بالسماح لرجالي بالعودة إلى قرطاجة بعد أن يتخلوا عن أسلحتهم ويغادروا معسكرهم واحداً واحداً. عند هذه الكلمات عارضت بشدة.

ـ من يضمن لي أنك ستحترم تعهداتك؟

ـ فيما يتعلق بي تكفيك كلمتي. لا أحد يستطيع اتهامي بنكث العهد طوال حياتي الطويلة، ولا أتوقع أن أغدو كذلك والموت ينتظرني.

ـ لا تأخذ على محمل نية السوء ما قلته لك. مدينتنا اتخذتك

حليفاً لها مدة طويلة وقد حاربت إلى جانب قواتنا في إيبيريا، ووالد سيبيون الأفريقي فقد حياته وهو محاصر بجنودك على شاكلتي هذا اليوم. إنما بعد استسلام قرطاجنة وغادير. خنت هنيبعل وتحالفت مع الرومان.

ـ أيها البونيون لديكم طريقة فريدة في كتابة التاريخ. نسيتم دائماً من ألحق الأذى بسمعتكم. اعلم أنني مازلت أميناً للبرقاويين وللصداقة التي كانت تربطني مع ابن هميلقار وأخوته. إن كنت غيرت معسكري فالخطأ يقع على منافسيهم وسط مجلس أعيانكم. استغلوا غيابهم، فعند موت أبي غايا لزموا جانب منافسه سيفاكس وعمدوا إلى خلعي عن العرش وأنا صاحب الحق فيه. في هذه الظروف وجب أن أتحالف مع سيبيون الأفريقي لتأخذ العدالة مجراها. مدينتكم هي المسؤولة الأولى عن القطيعة بيننا، وليس لأصدقائك إلا أن يلعنوا الموقف غير المسؤول لآبائهم بدلاً من اتهامي بالخيانة.

ـ لا يمكنني إلا موافقتك، ولو كنت مكانك لتصرفت بالطريقة ذاتها. ومع ذلك يجب أن تدرك أن من العسير علي أن أطلب من جنودي أن يلقوا سلاحهم ليجدوا أنفسهم تحت رحمتك.

ـ سيكون مصيرهم أفضل من المصير الذي ادخرته سابقاً للفرسان الذين رافقوا ولدي غولوسا وميسيبسا إلى قرطاجة. سافروا مجهزين بجواز مرور موقع بيدك وأنت من هاجمهم عند اجتيازهم معبر نهر باغراداس. أتظن أنني نسيت هذا العار؟ سأذكره إلى نهاية أيامي. غير أنني لا أنوي الانتقام وأقسم بكل ما هو مقدس أن ليس لجنودك ما يخشونه. إنني مستعد حتى لتسليمك رهائن ستكون حياتهم ضماناً لحياة جنودك.

ـ لا تكلف نفسك أي عناء. إنني أثق بك وأطلب ببساطة أن تفسح لي المجال بضعة أيام لتسوية جميع تفاصيل استسلامنا. يجب نزع أسلحة رجال أزاسياس وجوبا بشكل مفاجئ، إلا أن مرتزقتي في حالة ضعف شديد لفعل ذلك.

ـ توقعت كل هذا، أجاب ماسينيسا، سأسمح بمرور قافلة تموين يمكن فيها لقواتكم أن تسترد قواها، وبعدها ستسلمني الهاربين. في اليوم التالي ستكون أنت وأتباعك أحراراً في الرحيل. بالطبع أنت وضباطك سيسمح لكم بالاحتفاظ بأسلحتكم ويمكنكم مراقبة خروج رجالكم من المعسكر عن بعد، بتخليهم عن أسلحتهم سيلتحقون بكم لتصلوا بأمان تام إلى قرطاجة.

ـ فلننجز الأمر إذن!

انفصلنا عند هذه العبارات التي تشير بنظري إلى نهاية الحرب بين شعبينا.

الفصل السادس

كانت الشمس متألقة في ذلك اليوم. تجمع فرسان ماسينيسا مع خيوط الفجر الأولى في السهل والتفوا حول راياتهم المنشورة، وأعلامهم تتماوج في ظلال نسمة خفيفة. انتصبوا على خيولهم الضامرة وهي تضرب الأرض بشدة وقد فقدت الصبر، واندفعوا بقفزات منتظمة يطلقون صيحات الانتصار وقد تضاعفت شدة عند ظهور غولوسا، وميسيبسا وماستانابال أبناء الملك الثلاثة. دوت الأبواق، عند تلك الإشارة تقدمت بحراسة الحراس الشخصيين والقادة الرئيسيين لدى ماسينيسا إلى الخطوط الأمامية للعدو، بعد ذلك تم اقتيادي نحو الأمراء الشباب. وجه لي ماستانابال التحية:

- والدي يرجو أن تعذر غيابه. معارك الأيام الأخيرة أنهكته وأقعدته الحمى في خيمته. منحنا شرف الاهتمام بتنفيذ الاتفاق الجاري بينكما. قمت بواجبك عند تسليمنا، ليلة البارحة، أزاسياس وجوبا وجميع الخونة الذين تبعوهما في ثورتهما ضد ملكهم الشرعي. تأكد أنهم سيعاملون بشهامة. قادتهم وحدهم سيدفعون حياتهم ثمن خطئهم. أما الآخرون فقد عُفي عنهم ويمكنك أن تلاحظ أنهم احتلوا أمكنتهم بين صفوف جيشنا.

- عرفتهم وأهنئ قراركم. اعترف لك أنني عند محاصرتي لهم وقيادتهم بالقوة حتى خطوطكم الأمامية بكيت خجلاً. قدّرت جرأتهم ولو حدث لهم مكروه لاكتسيت بالعار إلى الأبد. تصرف والدكم

بحكمة وحسن تدبير وسأجتهد في المستقبل لأبرهن له عن عرفاني بالجميل. قل له إنه كسب صديقاً جديداً داخل مجلس المئة وأربعة.

- هذا ما يبهجني، قال ماستانابال، الآن، حان وقت العمل للقيام باستسلام قواتكم. عليك وعلى حراسك التوجه نحو خميلة الأشجار حيث تلاحظ على البعد خيمة نصبت. سيلتحق بكم جنودكم بعد قليل عندما يضعون أسلحتهم أمام أقدامنا دلالة خضوعهم. قبل مغرب الشمس ستكونون كلكم في الطريق إلى قرطاجة حيث تنتظركم عائلاتكم.

لحق بي رفقائي إلى المكان المشار إليه، ونزلت عن صهوة حصاني. استطعت أن أتأمل المشهد الجاري عند أسفل الهضبة. كان الجنود المرتزقة الغرباء والقرطاجيون العسكريون، واحداً، واحداً، يغادرون مخيمهم ويقفون أمام منتصريهم، ملقين على الأرض سيوفهم وحرابهم، ومجناتهم حيث يقوم حشد من العبيد بوضعها في العربات. جرت تلك الحفلة في صمت مثير وتمت بجدارة كبيرة. كان المقهورون يسيرون برؤوس عالية، وقد حبسوا دموعهم، وثبتوا نظراتهم على النوميديين بحزم وشجاعة. الأكثر جرأة منهم نزعوا دروعهم أو ملابسهم ليظهروا ندبات الجراح السابقة التي تلقوها في معارك قديمة دلالة على بسالتهم. بعد أن تخلصوا من معداتهم تجمعوا في وحدات صغيرة، وبإشارة أطلقها ضباطهم شكلوا صفوفهم، بعد أن رفضوا الالتفات إلى الخلف ليشاهدوا للمرة الأخيرة المكان الذي عانوا فيه المزيد من الآلام بشجاعة وتفان متميزين.

ثم بدأ الغاليون والإيبيريون والسردينيون يطلقون أغاني حربهم التقليدية تمجيداً لقتلاهم. كانوا قد اجتازوا نصف المسافة الفاصلة عن المكان الذي وجدت فيه، عندما اندفع نحوهم فرسان النوميديين وهم يطلقون صيحات رهيبة وحاصروهم ليفصلوهم إلى زمر صغيرة عملوا فيهم قتلاً وتقطيعاً. خلال دقائق، ورغم

المقاومة اليائسة التي دفعت بعضهم للقتال بأذرعهم لينتزعوا أسلحة مهاجميهم ويستولوا على سيوفهم، هلك نحو خمسة وعشرين ألف رجل تحت عيني المرتعبين. للأسف كنا قليلي العدد ولم نتمكن من مساعدتهم. وغرقت الأرض بدماء هؤلاء الرجال ضحايا الخيانة الأكثر شناعة.

انتابني القنوط وعزمت على الهرب باتجاه قرطاجة محولاً نظري بعناية عن أوروسكوبا وقد تجمعت حاميتها فوق الأسوار، تلاحظ المشهد دون أن تحرك ساكناً. عند وصولي إلى سيكا فوجئت بوجود وفد من مجلس الأعيان القرطاجي يقوده حنون ذو الحصة شخصياً. أزبد الأخير كلياً من الغيظ ووبخني بفظاظة:

ـ أنت المسؤول الأول عن المأساة الدائرة أمامنا. أبناء ماسينيسا أرادوا بهذه الطريقة أن ينتقموا للكمين الذي نصبته لهم بينما كانوا يتوجهون إلى بلدانهم وهم مجهزون بجوازات سفر شرعية. مع صديقك آزر بعل تجرأتما، دون استشارتي، على خدعة انقلبت ضدك. آلاف من الشجعان دفعوا حياتهم لقاء غدرك وذكراهم ستلازمك وتؤرق لياليك لمدة طويلة.

ـ لا تلُمني. أخطأت بتصرفي وفق ما جرى، كنت قد تفاهمت مع والد غولوسا، وأقسم العاهل بشرفه على أنه لن يغسل بالدم هذا العار. إنما بترك مقاتلينا يُذبحون يعد مذنباً بحنث يمين ممقوت لن تقصر آلهتنا في معاقبته بقسوة بالغة.

ـ إنك أكثر حمقاً مما اعتقدت! ألا تدرك ماذا حصل؟

ـ بما أنك مطلع جيد على ما جرى فإنني انتظر تعليلاتك واعلم أنني لن أتركك توجه التهم لي جزافاً.

ـ رتب ماسينيسا أمره ليلعب معك دوراً على طريقته، وكما أعرفه أقسم لك بأغلظ الأيمان بأنه سيفي بدقة كاملة بتعهداته تجاهك. وقد صدقته أنت. وبإهمال لكل حرص أردت أن تُظهر

صفاء النفس وطيبة الروح برفضك تقديم رهائن. هذا ما كان ينتظره منك وقد سقطت في فخه. تذرع بحمى موهومة ليغيب عن الاحتفال. وأصبح في مواجهتك أبناؤه غير المتقيدين بوعود والدهم. بعد أن تركوك محاصراً في هضبة يستحيل وصول أية معونة لك وقعت في فخ آخر. من الآن فصاعداً، وبخطئك حرمت مدينتنا من جيشها وأصبحت تحت رحمة أعدائها. أيها الحراس، أشار حنون ذو الحصة، احجزوا هذا الرجل. فليقيد بالسلاسل ويساق إلى السجن بانتظار محاكمته مع المتواطئين معه.

مع آزر بعل، الذي أُوقف في ملكيته في رأس بون، وأحد مستشاريه المسمى كارتالون، مثلت أمام مجلس المئة وأربعة. عندما توغلنا داخل معبد إشمون، تحت حراسة شديدة، فوجئنا بوجود إيتربعل والأعيان القلائل الذين نجوا بعد طردهم من المدينة لتعاطفهم مع ماسينيسا، من بين قضاتنا. كان كارتالون أول المستجوَبين من حنون ذي الحصة:

ـ ماذا تقول لتدافع عن نفسك؟ كنت مستشاري الأمين لعدة سنوات، والدك الذي تحمل اسمه سيحمر وجهه خجلاً لو كان مايزال حياً عندما يراك هنا. لقد كان معارضاً على الدوام لدسائس وأعمال الشغب التي يقوم بها آل برقا، وحارب هميلقار وهنيبعل ببسالة وحزم أثارتا إعجاب مواطنيه الحقيقيين. ماذا تقول وقد التحقت بمعسكر أكثر أعدائه شراسة لأسباب خفيت علينا؟ هل رضخت لطعم الكسب والوعود العجيبة التي لم يقصر حسدروبال وأتباعه في عرضها عليك؟.

ـ لا تدع وشايتك تزيد في المصائب التي أرهقتني في الماضي. لا يهمني المال لأن من حظي أنني ولدت في عائلة ثرية. تصرفت عن قناعة لأكفر عن الجريمة الشنيعة التي ارتكبها أبي. على سرير موته عهد إلي بسر رهيب جثم على صدري سنوات طويلة. كشف لي أنه كان المحرض على موت هميلقار برقا. هذا الأخير هلك كما تذكرون

في كمين بينما كان يحاصر مدينة في إيبيريا ثارت ضد سلطتنا. قتلته، وهم من المحاربين الفاسدين، نفذوا ذلك بتوجيه من كارتالون ومن مساعد عسكري سابق لهميلقار قُدِمَ ابنه بدلاً من هنيبعل كذبيحة لبعل حمّون على يد هميلقار ـ وفق عادة كبار قادتنا العسكريين. منذ ذلك الوقت وأنا أتعذب بتبكيت الضمير وبتحالفي مع أنصار البرقاويين، أردت بكل بساطة أن أكفر عن الجريمة التي ارتكبها والدي. لن آسف على شيء وأنا مستعد لدفع الثمن.

ـ أنت يا آزر بعل، أردف إيتربعل بلهجة ساخرة، أتريد خدمتنا بخرافة مماثلة لتبرير سلوكك؟ كنت على الدوام عدوي على مستوى حنون ذي الحصة نفسه. عندما تآمرت مع هذا الأخير ونظمتما مع بيتياس القائد النوميدي الخائن لملكه هجوماً على إحدى قرانا لإيجاد ذريعة لإعلان الحرب على ماسينيسا، لعب حاميك دوره في توجيه غضب الشعب ضدي وضد أنصاري. وقع علينا الضرر، دون أن نملك للأسف البرهان على أنه أمر معدّ لتكدير صفو العلاقة مع جيراننا الأقوياء. وعبثاً حاولنا إنذار زملائنا. كانت المكافأة أننا طردنا نحن وعائلاتنا من قرطاجة وهلك معظمنا من الجوع أو من البرد خلال المنفى. اليوم وبفضل اهتمام وعطف ماسينيسا لقينا بيوتنا ومكاننا في هذا المجلس المهيب. لكن عليك أن تعاقب على الضرر الذي ألحقته بأصدقائي، وأنا أطالب حنون ذو الحصة حاميك القديم أن يحكم عليك بالموت.

ـ إنني مستعد، أجاب آزر بعل، للهلاك فداء لمدينتنا. الحياة لا تهمني. لكن اعلموا يا أعضاء مجلس المئة وأربعة أن منيتي لن تبعد الأخطار التي تهدد مدينتنا. سفاراتي العديدة في روما أقنعتني بأن أولاد الذئبة قرروا مسح قرطاجة عن وجه الأرض. انتظروا انتهاء الحرب بيننا وبين ماسينيسا لينضموا إلى الغالبين. من الآن فصاعداً لن نتوقع الرحمة منهم، وأنا أشكركم مسبقاً للحكم الذي ستنطقون به ضدي. سيجنبني أن أكون شاهداً على تدمير مدينتنا وتسليمها

للهيب حارق، وستتذكرون بأسف أنكم لم تستمعوا إلى إنذاراتي وعباراتي.

ـ وأنت يا حسدروبال، قال حنون، كيف تبرر سلوكك؟ أنت تعلم المصير الذي تدخره مدينتنا للقادة المهزومين: الصلب. اعتقدت أنني وجدت فيك حليفاً، وطلبت منك أن تمتنع عن مسؤولياتك السياسية لتمضي وقتك مدافعاً عن وطننا بكل إخلاص. لكنك خذلتني ونتيجة لخطئك هلك أكثر من خمسين ألف جندي من الجوع أو المرض، أو تحت ضربات النوميديين. من بين جميع المتهمين تستحق العقوبة الأكثر قسوة.

ـ قمت بواجبي العسكري ولم يضرب الحصار علي لولا خيانة حامية أوروسكوبا بقيادة بوستار الذي انضم إلى عدونا، فقد فترت عزيمته لأنه لم يتلق منذ عدة أشهر الأعطيات المستحقة. ماذا فعلتم بهذه الأموال؟ أما قوافل التموين التي أرسلتموها لي فقد استولى عليها فرسان غولوسا بعد هرب حراسها بجبن أمامهم، ولم تفكروا بإرسال تموينات جديدة محمية بفرسان أكثر أهمية. تركتمونا نواجه مصيرنا كأنكم لا تبالون بالمصائب التي تحل بنا. وجب أن أستسلم ولكنكم بتراخيكم كنتم مسؤولين عن تلك الهزيمة. يمكنكم صلبي إن طاب لكم الأمر، لكن اعلموا أن الشعب سيدخر لكم عاجلاً أو آجلاً المصير ذاته عندما يدرك خطورة أخطائكم.

وحده هميلقار الساميت قدم دفاعاً لمصلحتنا مشيراً إلى تضحياتنا من أجل قرطاجة، ورجا زملاءه العفو عنا لئلا يؤججوا غضب الجماهير. لكن مرافعته لم تُسمع وترك حنون ذو الحصة لإيتربعل أمر العناية بقرار الاتهام والنطق بالحكم. نهض المنفي السابق وقلبه مملوء بالضغينة الأكثر قتامة ليديننا بالعبارات الأكثر ظلماً، مؤكداً أن الحكم علينا بالموت سيكون عربون الإرادة الطيبة إلى كل من النوميديين والرومان. مع ملاحظة أن قرطاجة كانت تعاقب بقسوة صانعي الحروب فإن أعداءها السعداء برؤية حزب

السلام ينتصر مجدداً سيظهرون ميالين إلى التساهل، وسيؤثر قرارهم بثقل لا يمكن إهماله في الخلاف على حدود السهول الكبرى. بأغلبية كبيرة حكم علينا بالموت وتقرر تنفيذ الحكم في نهاية الأعياد المقامة على شرف تانيت الأم الحامية لمدينتنا.

تم اقتيادنا إلى السجن الواقع داخل المرفأ العسكري، والتحق كل منا بزنزانته الضيقة والمظلمة حيث كنا نختنق فيها نهاراً ونرتعش ليلاً. مارس حراس حنون ذو الحصة وإيتربعل رقابة مستمرة، مُنعنا من الاتصال مع الخارج إضافة إلى التفتيش الدقيق للأطعمة والحاجيات التي ترسل لنا من عائلاتنا. في إحدى الليالي استيقظنا من نومنا على حركة غير مألوفة، وخيل إلينا أن ساعتنا الأخيرة قد حلت. حضر بعض الجنود الذين ينتمون ظاهراً إلى وحدة كلفت منذ وقت قريب بحراستنا، عصبوا أعيننا وأجبرونا على ارتداء معاطف تخفي قلنسوتها وجوهنا. عبر ممرات طويلة لا نهاية لها اقتادونا إلى مكان جهدنا عبثاً أن نحدد معالمه. اليقين الوحيد أننا موجودون خارج السجن وخارج برج الأميرالية لأن نسمة هواء بحري تهب علينا ونحن نستمع إلى اصطدام أمواج البحر بسور المدينة. بعد انتظار طويل نزعوا العصائب عن عيوننا واكتشفنا بذهول أننا على أحد أرصفة المرفأ التجاري، قرب سفينة إغريقية ويبدو بشكل واضح أنها توشك على الإبحار.

رفض الحراس بعناد الإجابة على أسئلتنا القلقة. فجأة رأينا مجموعة صغيرة تقترب منا يقودها حنون ذو الحصة، وبصحبته امرأة شابة لم نرها من قبل مطلقاً. ألقى علينا رئيس مجلس المئة وأربعة التحية بلهجة مرحة:

ـ أرجو المعذرة على هذه الطريقة التي أحدثت لديكم ذعراً حقيقياً. قررت اللجوء إلى هذا الأسلوب حتى لا يشك أحد بلقائنا. انتهزت فرصة غياب إيتربعل، المسافر بمهمة إلى جيراننا

النوميديين، لآمر رجاله بالقيام براحة يستحقونها. تم إعداد حفلة على شرفهم، وفي هذه الساعة يغطون في نوم عميق لأنهم أكثروا من الطعام والشراب. الجنود الذين رافقوكم ينتمون إلى حرسي الخاص وأنا أثق بهم، لن يتكلم أحد منهم حتى تحت التعذيب ولن تسمع آذان أصحاب النوايا السيئة ما سأقوله لكم.

- أشكركم على حركتكم، قال آزر بعل، وآمل أن يكون سبب قدومك إعلامنا بإنقاذ حياتنا.

- لو أن الأمر عائد إلي لعمدت إلى قتلكم لأنكم خنتم ثقتي بالطريقة الأكثر غدراً. اشكروا بالأحرى تلك التي تقف إلى جانبي وتشفعت لمصلحتكم.

- أياً كنت، اعلمي أننا سنعرف كيف نبرهن على عرفاننا بالجميل!

- إنني أعفيكم من تشكراتكم التي لا أعرف كيف أقبلها، قالت المرأة الشابة، اسمي عريشات وأنا مولودة في روما من أبوين قرطاجيين أرسلا رهينتين إلى تلك المدينة بعد معركة زاما. إنها المرة الأولى التي أطأ فيها تربة المدينة وهي أرض أجدادي. في ظروف أخرى سيتملكني الفرح للتجول في شوارع قرطاجة، لأكتشف الروائع التي سمعت عنها من المسافرين القادمين منها إلى ضفتي التيبر. اعلموا في الواقع أنني نشأت في منزل سيبيون الأفريقي الذي آواني عندما غدوت يتيمة.

«لن أنسى ما حييت أنني كنت بونية، ومنذ نعومة أظافري لم أنقطع عن استغلال وضعي المحظوظ لخدمة مواطني عندما تسنح لي الفرصة. إنه واجب مقدس أقوم به تكريماً لذكرى والدي وأنتم المستفيدون الآن رغم عدم استحقاقكم. هو ذا سبب وجودي هنا هذا المساء بعد أن عبرت باب أوتيكا في السر، وهو شرط رئيسي لنجاح خطتنا.

- وما هي خطتكم؟ سأل آزر بعل.

ـ أدرك نفاد صبرك، أجابت المرأة الشابة، لكن دعني أقدم لك بعض التفاصيل الإضافية. اعلم بأنني خليلة غولوسا وأنا أتصرف بناء على طلبه الملح.

ـ أهو غولوسا الذي ذبح وقتل مرتزقتنا ناقضاً عهد أبيه مَنْ يريد إنقاذنا الآن؟ تمتم كارتالون متشككاً، هل أنت متأكدة بأن ما تقولينه هو الحقيقة؟

ـ حنون ذي الحصة، أجابت عريشات ضاحكة، نبهني إلى أنك تدرك بصعوبة خفايا الأمور السياسية وألاحظ أنه لم يكن مخطئاً. حبيبي لا يتصرف عن شفقة لكنه اقتنع بمحاكماتي بعدما وجد فيها مصلحته. لقد قتل بالتأكيد المرتزقة لأنه أراد هو وأخوته الانتقام من الكمين الذي نصبه لهم حسدروبال. الفرسان الذين كلفوا بالمهمة كانوا من الفارين النوميديين المنتقلين لخدمتكم مع رئيسيهم أزاسياس وجوبا، وبهذا الثمن أرادوا الحصول على ثقة ورضى أمرائهم وهذا ما يفسر ضراوتهم. غير أنك أنت بالذات ياحسدروبال، أظهرت عقوقك بشكل خاص نحوهم بقبولك تسليمهم لملكهم. لقد خضعوا لاختبار غولوسا وأخوته. لم يكونوا مرتبطين بالوعود التي قدمها لك ماسينيسا وبالتالي فليس ثمة ما يلزمهم.

ـ لكن هذا لا يوضح لي السبب الدافع لغولوسا لإنقاذنا بأي ثمن!

ـ لسبب وجيه وبسيط وهو إمكانية الإفادة منكم في يوم ما.

ـ بأية طريقة؟

ـ خلافة والده لم ترتب حتى الآن. لم تقرر روما من سيعتلي العرش بعد أن يغيب ماسينيسا، ويخشى غولوسا أن يلحقه الأذى بسبب صداقته مع بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس. قد تجهلون أن ماركوس بورسيوس كاتون، هذا العجوز المشاكس قد مات. إنما أصدقاؤه مازالوا كثراً داخل مجلس الأعيان ولن يغفروا

لعاشقي ازدرائه بنصائح معلمهم. أخوته ميسيبسا وماستانابال يتآمران عليه منذ الآن وأرسلا سفارة إلى ضفاف التيبر، وهما يكنان لك حقداً شرساً ولهما مصلحة خالصة في ضياعك.

«أستطيع أن ادعي أنني مارست على الأخ الأصغر تأثيراً ملائماً، وأفهمته أن من مصلحته التقرب إلى قرطاجة. دافعت أمامه عن مصلحتك. حسدروبال، أهلك وأهلي كانوا جيراناً سابقاً وقد كان والدي يتحدث غالباً عن عائلتك التي ارتبط معها بود عميق. وفاءً لذكرى عائلتي أشعر باضطراري إلى المجيء إليك لمساعدتك منذ أن علمت بالأمر الذي حدث لكم، أنت وأصدقاؤك. طلب غولوسا من حنون ذي الحصة البرهان على حلمه معكم. للأسف لم يتمكن من نيل عفو مجلس الأعيان بسبب مقاومة إيتربعل الضارية.

- مع ذلك، قال آزر بعل، إن إيتربعل صديق للنوميديين والأجدر به التوجه إليهم.

- أنت تنسى أنكم أنتم المحرضون الرئيسيون على نفيه مع رفقائه، لذلك أقسَم في المنفى على الثأر. إضافة إلى أنه صنيعة ماستانابال وميسيبسا. إن شعر، لسوء الحظ، بمحاولتي، لن يقصر في الوشاية بي لحماته ولأبيهما أيضاً.

- بما أن مجلس الأعيان رفض تخفيف الحكم عنا، فما هو المخرج؟

- الهرب، قالت عريشات، هذه السفينة الإغريقية على المرفأ ستقودكم إلى حدريم، وستنزلون ضيوفاً في إحدى ملكيات حنون ذي الحصة، مع عدم الموافقة على خروجكم قبل أن يتم استدعاؤكم رسمياً إلى قرطاجة. أنجز قبطانها هذا المساء جميع الإجراءات الضرورية للرحيل وهو ينتظر أن ترفع السلسلة مع خيوط الفجر الأولى ليبحر في عرض البحر. عندما سيستيقظ جنود إيتربعل من سكرهم ستكونون بعيدين وسيعاقبهم معلمهم بشدة على إهمالهم الفادح.

- كيف نبرهن لك عن شكرنا؟ سألتها.

ـ في الوقت المناسب، سأعلمكم بما ينتظره غولوسا منكم وآمل في هذه المرة ألا تسببوا له إحدى مفاجآتكم المعتادة. لا تنسوا مطلقاً أنكم مدينون بحياتكم لحنون ذي الحصة، فقد كنتم ضحية مؤامرة يجب أن تأخذوا منها العبر. الآن حان وقت الرحيل والفراق، انزلقوا إلى داخل السفينة ولتحمكم الربة تانيت طوال طريقكم.

* * *

لم يلبث هربنا أن عُرف من جميع الناس. خلال اجتماع عاصف لمجلس المئة وأربعة تناول حنون ذو الحصة بعنف إيتربعل وانتقد بقسوة سلوك حراسه الشائن، وتساءل بسخرية إن لم يكن من الواجب أن يرى فيها حركة متعمدة. بعد كل حساب، الهاربون مثل رئيس الحزب البرونوميدي ينتمون إلى المعارضة، وبإمكانهم التغلب على عداواتهم القديمة ومحاولة إقامة حلف موجه ضد القاضي الرئيسي في المدينة. ما كاد المذنب المشار إليه، وهو العائد حديثاً من المنفى وقد أحس بأنه أقلية، حتى رأى أن من الأفضل له ألا يجابه منافسه. وبمظهر كاذب يبدو عليه الندم، أعلن لزملائه أن رجاله سيدفعون حياتهم ثمن خطيئتهم. رغم احتجاجاتهم بالبراءة اقتادوهم إلى خارج حرم المدينة وصلبوهم. بقي المصلوبون يحتضرون عدة أيام وسمعت، على الأقل في البداية، صرخات آلامهم.

هذه النتيجة سمحت لحنون ذي الحصة أن يوطد سلطته على مواطنيه في فترة جوبه فيها بصعوبات عديدة. غدت قرطاجة منذ استسلام قواتها المأساوي في أوروسكوبا دون جيش جديد بهذا الاسم رغم أن عملاء مطوَعين جهزوا بكميات وافرة من المال، أرسلوا إلى بلاد الإغريق والغال لتجنيد مرتزقة جدد. الأمر الذي يدل قبل كل شيء على توقع ضربات من النوميديين ضد القلاع والحاميات البعيدة، بل والعمل على ردع بعض المواقع البونية من الاختلاف والانشقاق. ولكن في القصور داخل ميغارا كما في مجلس

الأعيان فإن جميع المحادثات كانت تدور حول الموقف التي ستعتمده روما. كان وجود بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس إلى جانب ماسينيسا وأولاده يُقلق المواطنين الأكثر تأييداً لأبناء الذئبة. دون أدنى شك، الشاب العائد إلى وطنه لن يقصر في وضع صورة متشائمة عن الوضع السائد في مدينة إليسا، مثل بعض الحجج التي من شأنها دعم معسكر أنصار ماركوس بورسيوس كاتون. بعض التجار القرطاجيين العائدين من إيطاليا نشروا الفوضى، بالكشف عن الكارثة التي حلت في أوروسكوبا، فعمدت روما إلى تجنيد كتل كبيرة من الجنود لدى حلفائها وتدفقت أفواج هامة من بروتيوم وكامبانيا وأبوليا وليغوريا نحو أوستي، حيث عمال دور الصناعة يندفعون إلى العمل بحماسة لبناء عشرات السفن من ثلاثيات المجاذيف وخماسياتها.

بدعوة من حنون ذي الحصة اجتمع مجلس أعيان المئة وأربعة دون انقطاع لعدة ساعات داخل حرم معبد إشمون لمناقشة احتمال إرسال سفارة إلى روما. كانت المناقشات حامية الوطيس وكل فريق يواجه الآخر واثقاً من صحة وجهة نظره، وحده القائد في الحزب البرقاوي، ومايزال حراً، هميلقار الساميت، كان أول المتكلمين متوجهاً بطعن لاذع ضد مدينة سيبيون:

- لن يفيد شيئاً التعلل بالأوهام والاعتقاد أن أعداءنا الأكثر شراسة سينقادون للتراخي أمام بعض المندوبين المحملين بالهدايا، وفمهم مملوء بالكلمات المعسولة المطمئنة يلتمسون رحمتهم. سبق أن رأيتهم في الكوريا هوستيليا يتذكرون الأعمال النبيلة التي يمكن أن نتباهى بها، على سبيل المثال المساعدة التي حملناها إلى أبناء الذئبة وقد كانوا في حرب ضد ملك مقدونية. في تلك الفترة ذعروا لرؤية كل اليونان تثور ضدهم واعتبرونا المنقذين لهم. وبهزيمة ذلك الملك السيئ الحظ، انقطعنا عن كوننا مفيدين لهم ولهذا السبب استطاع ماسينيسا أن يستولي على ملكياتنا ناجياً من كل عقاب.

مادام ملك مقدونية حياً، كانت روما تدارينا خشية أن نتحالف معه مثل ما فعل هنيبعل مع فيليب المقدوني. وقد أحسنا التصرف عندما أمرنا ما بقي من أسطولنا الحربي بتفتيش السفن الرومانية في أعلى البحر. وفي الحال كان بإمكاننا أن نرى الأعيان يصلون إلى المرفأ حاملين معاهدة سلام جديدة أكثر ملاءمة بما لا يقاس لمدينتنا. إنما فضلنا اتباع نصائح حنون ذي الحصة.

ـ لقد كانت هذه النصائح ممتازة، أجاب أحدهم.

ـ في نظرك ونظر حزبك دون أدنى شك، قال هميلقار، باستثناء هذا ـ وهو شيء ذو أهمية ـ لم يكن هدفكم في مساعيكم محبة مواطنيكم ولا المحافظة على كرامتكم. إذ يجب قول هذا، فأنت وأتباعك تتصرفون وكأنكم تخجلون من أنكم قرطاجيون. منذ سنوات وأنتم تحمرون خجلاً عندما يتذكر الرومان «الخيانة البونية»، هذا اللوم يعذبكم بشدة حتى أنكم تفتشون بكل الوسائل لغسل تلك التهمة بتبنيكم موقفاً خانعاً ومفرطاً في المجاملة تجاه عدونا. أنتم مستعدون لقبول كل شيء لقاء التلطف بتوجيه كلمات حلوة لكم وغمركم بعبارات المديح. أنتم تتألقون حبوراً عندما يشيد بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم بولائكم، ويؤكد أنكم مختلفون عن هميلقار وهنيبعل.

«إن ما يسميه الرومان ولاء واستقامة لدى الشعوب الأخرى هو الخضوع لمصالحهم الخاصة. وما يطلقون عليه خيانة هو الطريقة التي تستخدمها الشعوب للدفاع عن نفسها ضد تعطشهم للسيطرة وإرادتهم في الاستيلاء على جميع الأراضي المعروفة. مع ذلك بخصوص الخديعة والمكر، إن لذرية رومولوس أن تظهر لنا عن سعة البرهان. ما إن يتوصل مفاوضوها إلى عقد المعاهدات حتى يعملوا على إيجاد الوسائل لخرقها، حان الوقت وهو الوقت المناسب ليستعيد شعبنا معنى الشرف والكرامة.

ـ بأية طريقة؟ سأل حنون ذو الحصة.

- بالتقدم عليهم، أجاب هميلقار الساميت بقوة، وبمجابهة روما قبل أن تغدو قوية جداً.

- أين هي الجيوش الرهيبة التي ستتيح لنا تحقيق هذا العمل الكبير؟ سأل أحد الأعيان، قل لنا أين تختبئ مئات الأفيال، وآلاف الخيول، والمرتزقة الذين لا حصر لهم وهم طوع بنانك لتنقض على الفرق الرومانية؟ افترض أنك جمعتهم مستنزفاً ثروتك الشخصية إذ لا تتوافر لمدينتنا وسائل إعدادهم. إذا كان هذا هو الحال سأكون أول من يطلب إقامة تمثالٍ لك مكافأة على تضحيتك.

- يمكنك أن تسخر مني لكن، قريباً، وعندما يرضى الجميع بإجراء التضحيات الضرورية فإن شوارع بيرسا ستعج بجماهير المرتزقة الوافدين من البقاع البحرية الكبيرة الأربع لمساعدتنا. بالانتظار يمكن منذ الآن زرع الشقاق في صفوف أعدائنا بإثارة بعض حلفائهم لعصيانهم. تعب الغاليون والإيبيريون من دفع الضرائب لهم، وهم مستعدون لحمل السلاح وسيتوجب على روما أن ترسل ضدهم قسماً من الجيوش التي أعدّتها.

«أخيراً وقد يكون في هذا ما يدهشك من جهتي، أعتقد أن من واجبنا إرسال بعثة إلى ماسينيسا لتشرح له أن اختفاء قرطاجة يعني على المدى الطويل أو القصير زوال ملكه. هذا اللعين ماركوس بورسيوس كاتون غمره بالأعطيات ليبعده عنا. لكن إن حدثت الكارثة ودُمرت مدينتنا سيصبح عند ذلك دون فائدة للرومان وسيستولي هؤلاء على ملكياته. يجب تنبيهه لهذا الخطر هو وابنه غولوسا.

- أرى، قال إيتربعل رئيس الحزب البرونوميدي، أنك تختار بعناية مخاطبيك. نسيت أن للملك ولدين آخرين ميسيبسا وماستانابال ولهما تأثير أخيهما الأصغر نفسه. أتظن أن من المهارة إبعادهما عن المناقشات؟ أو يجب أن نستخلص أنك وضعت في حسابك تجنبهما لمصلحة غولوسا؟ أقول هذا وأنا أقاسمك

ياهميلقار رأيك. في مواجهة أبناء الذئبة، علينا جميعاً قرطاجيون ونوميديون تشكيل جبهة مشتركة. نحن أبناء أرض واحدة. على مر السنين، اختلطت عائلاتنا بالدم وتبنّى جيراننا آلهتنا وبعض تقاليدنا. لن يستطيع أي فاتح الثبات على هذه الضفاف ضد إرادة سكانها، لهذا السبب أنا أنضم إلى اقتراحكم.

أجاب حنون ذو الحصة: إني ألاحظ أن الدسائس التي تحاك ضدي تجري على قدم وساق، إن أسوأ الخصوم المطلوب الوقوف في وجوههم فيما يخص الحرب هم قادة هذه المدينة، فهم جاهزون لإجراء التسويات والتحالفات المشبوهة. لنفرض أن أبناء ماسينيسا ارتضوا ربط مصيرهم بمصيرنا. قريباً لن تفكروا إلا بنهش بعضكم للبعض الآخر بدلاً من سهركم على ازدهار قرطاجة، وستخصصون كل طاقتكم لتدبير مؤامرات لتأمين انتصار حزبكم الخاص. أنت يا إيتربعل لن يهدأ لك بال دون الحصول على إبعاد هميلقار وسيقابلك الأخير بالمثل. شقاق أكثر حدة مما هو سائد اليوم سيدفع مواطنينا للتصرف مثل الوحوش المفترسة.

«بعد عدة سنوات سيتوجه أحدكم إلى روما محاطاً بسرٍّ كبير ليلتمس تدخل مجلس الأعيان. إنكم ديكة فتية مغرورون قادرون على القفز إلى مزابلكم لتتأملوا قوتكم، لكنكم تجهلون معنى كلمة أَحَب وطنه وشعبه!

ـ بما أنك على هذا القدر من الحكمة أيها النبيل العجوز، أجاب هميلقار الساميت، أهدنا إلى أنوارك وأخبرنا ما يجب علينا فعله؟

ـ أنا لا أحب اللهجة الهزلية، دمدم حنون ذو الحصة، هي لا تتوافق مع خطورة المناسبة، وتبرهن على أنك غير جدير بقيادة مدينتنا. أما أنا فأعلن بكل خشوع أنني مسحوق بثقل مسؤولياتي الكبيرة. هي ذي ليال لا أعرف فيها طعم النوم خشية اعتماد قرار وخيم العاقبة. لا أريد قيادة قرطاجة إلى الضياع. إنما هذا ما

سيحصل بالتأكيد إن قررنا مهاجمة روما أو سارعنا إلى التحالف مع النوميديين. في الحالة الأولى ما بقي من جيشنا سيسحق في معركة واحدة. أما في الثانية فسنضطر للخضوع إلى تلك الكائنات المتوحشة والفظة التي ستغدو متطلباتها باهظة الثمن. لا يداخلني أي وهم أن لقرطاجة حليفاً واحداً: الزمن. في مواجهة التهديدات التي تثقل على مستقبلنا يجب أن نصبر ونقبل ببعض المهانات العابرة لنتمكن من إعادة بناء قواتنا. هو ذا سبب اقتراحي بإرسال بعثة إلى روما لأسألها التحكيم في نزاعنا مع ماسينيسا: لنا ما يكفي من الأصدقاء داخل مجلس الأعيان ليعملوا لمصلحتنا، ويجدر بنا أن نتحرك بسرعة، فعاجلاً أو آجلاً ستوصلنا تدبيراتكم إلى التوسل إلى أبناء الذئبة للتوسط. ومن الأفضل اتخاذ الإجراءات المناسبة الآن باعتبار أن وضعنا مايزال مقبولاً.

تمت الموافقة على اقتراح حنون بالأكثرية فبيناته أدت إلى تحريك المشاعر لدى المترددين، وأيضاً لدى الذين يفكرون باتباع نصائح خصومه. قاد ماغون البعثة القرطاجية ووجب أن ينتظر أسابيع طويلة قبل أن يتم استقباله. أنصار كاتون ناوروا في الواقع بمهارة وانتظروا مغادرة بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم المدينة في جولة تفتيشية إلى بلاد الإغريق، حتى سمحوا باستقبال سفرائنا بعد حرمانهم من أكثر حماتهم تأثيراً. في الكوريا هوستيليا، ومع غياب نصف الأعضاء، رافع ماغون أفضل مرافعة عن قضيته مشيراً إلى أن حسن نية قرطاجة لا يتطرق إليه الشك. ألم يحكم مجلس المئة وأربعة بالموت على حسدروبال البوتياركي والمتواطئين معه، أي المسؤولين عن بدء الأعمال العدوانية مع ماسينيسا في انتهاك صارخ للمعاهدة الموقعة سابقاً مع سيبيون الأفريقي؟ عند هذه العبارات لم يستطع أحد أعضاء المجلس ماركوس أيليوس أن يتمالك غيظه، وقاطع الخطيب بشكل فظ:

- إننا نهنئ أنفسنا بحرارة لأننا نعلم أن الأكثر خيانة بينكم

يجب أن يدفعوا غالياً لقاء ما اقترفوه من جرائم واقتيادهم إلى الجلاد. إنما بمصادفة غريبة استطاعوا أن يهربوا من سجنهم وهم من الآن فصاعداً طلقاء. لدي أسباب هامة تدفعني إلى الاعتقاد أن معلمكم، حنون ذا الحصة، لم يكن غريباً كلياً عن ذلك الهرب العجائبي. الواقع أنكم كنتم عاجزين عن إلحاق الأذى بحسدروبال والمتواطئين معه لمنعه من الاعتداء الغادر على ماسينيسا. غير أنكم تغاضيتم عن تصرفاتهم لأنكم اقتنعتم أن جيشكم سيسحق بسهولة الملك النوميدي العجوز وأن الأخير سيقتل في المعركة. لكن الآلهة في حكمتها رأت غير ذلك وفي تلك اللحظة فقط ولتهدئة غيظنا، حكمتم بالموت على مسؤولي تعاستكم. هل تعتقدون أننا بلغنا درجة من الحمق لندعكم تتصرفون بمثل هذه السفاهة؟ في نظر مجلس الأعيان أنتم أيضاً مذنبون بقدر حسدروبال وآزر بعل وخداعكم يقتضي عقوبة مماثلة.

- إن كنت تعتقد بأننا مذنبون قل لنا بالأحرى كيف نستطيع استحقاق عفوكم، تكلم وأنا أؤكد لك أن مدينتي ستتقيد بدقة بأوامركم. إنما لا تنسى إذا كان تصرفنا سيئاً أنكم بدوركم لم تنفذوا الالتزامات المترتبة عليكم. منذ بداية الأزمة أردنا احترام المعاهدات الموقعة مع سيبيون الأفريقي والتمسنا تدخلكم وعللتمونا بكلمات طيبة، وفي وقت ما توقعنا أن يتبع الرسالة التي وجهتموها إلى ماسينيسا ضغوطات من جهتكم على العاهل الذي تجرأ على غزو أراضينا. لم تحركوا ساكناً عندما تجاهل تحذيراتكم. تجنبتم بعناية النطق بكلمة واضحة لأنكم انتظرتم معرفة نهاية هذا النزاع. لو أن النوميديين قُهروا لطلبتم عالياً وبشدة معاقبتهم على سفههم وسألتمونا الموافقة على منح الامتيازات التجارية إلى تجاركم المقيمين في مناطق نفوذنا. بسلبيتكم حرضتم كل فريق على الآخر وهذا ما يوجب عليكم التسامح تجاهنا. أيضاً أستحلفكم للمرة الأخيرة، إعلامنا ما هي طلباتكم.

ـ شيء واحد: الحصول على رضا الشعب الروماني!

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ عليك أنت أن تعرف ما يسبب سرورنا. عد إلى قرطاجة والتمس رأي زملائك وعد باقتراحات محددة. وسنعرف عندها إذا كنت تتكلم بلغة الحقيقة.

* * *

عند عودته إلى مدينتنا نقل ماغون بأمانة إلى مجلس المئة وأربعة متطلبات روما. ناقش قضاتنا خلال ساعات طويلة ما يشير إليه التعبير: الحصول على رضا الشعب الروماني. كان بالنسبة لبعضهم دعوة مقنعة لدفع ضريبة جديدة. مدينة رومولوس تفتقر إلى الأموال وتفتش عن موارد مالية جديدة وهي تعلم أن باستطاعتنا أن نسدد لها أتاوة معادلة لتلك الموافق عليها لماسينيسا. أما بالنسبة للآخرين كان يعني إفساح المجال لها لإشادة مستعمرات ومواقع في منطقة أمبوريا وقد غدت عملياً مستقلة. بسرية تامة طلب حنون ذو الحصة رأيي ورأي آزر بعل، فحضر أحد مستشاريه لملاقاتنا في المزرعة حيث كنا مختبئين وقد سئمنا من الانتظار. أعلمناه أننا في مواجهة الحل الأول يجب أن لا يتحمل الشعب وحده عبء الضريبة الجديدة. أما بالنسبة للحل الثاني فهو غير موجود. بالتأكيد عندما يستقر أولاد الذئبة في أمبوريا سيجدون أنفسهم بمواجهة الشعوب المحلية المقاتلة، ولن يستطيعوا فرض سلطتهم قبل مرور سنوات طوال. ولكن سينتهون إلى إخضاع أجيالهم الجديدة وستصبح فيالق جيوشهم على بعد عشرات الأيام من المسير عن قرطاجة. لم نكن نستطيع التساهل، ومن المناسب كسب الوقت وإرسال بعثة جديدة تطلب إيضاحات إضافية وتوزع إكراميات على أصدقائنا داخل مجلس الأعيان. سافر ماغون مجدداً إلى روما حيث استقبله ماركوس إيليوس ببرود، وعند سؤاله: «ماذا

علينا أن نفعل للحصول على رضاكم؟»، كان الجواب دائماً: «أنت تعلم: لا تجعلنا نضيع وقتنا».

استقبل بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم سفيرنا ليشرح له أسباب ذلك الموقف. صلّب مجلس الأعيان مواقفه منذ وصول بعثة وافدة من أوتيكا. حضر أعضاؤها يقترحون توقيع معاهدة صداقة بينهم وبين مدينة رومولوس مقابل منح تجارهم حقوقاً باهظة: سيعفى هؤلاء من دفع رسوم الجمارك والضرائب على بضائعهم المفرغة في أوستي، وخاصة القمح والخمر والزيت، مما يسمح لهم بإزاحة منافسيهم القرطاجيين. بالمقابل، يمكن للسفن الحربية الرومانية أن تتحرك في مرفئهم بكل حرية وتنقل وحدات عسكرية بعدد لا محدود وهم ممن يفترض أنهم يعملون على تأمين سلامة التجار المقيمين في سيرتا. من الواضح أن هذه القوات لن تغادر العاصمة النوميدية لكنها ستقيم معسكراتها في جوار أوتيكا. عندما أعلمني حنون ذو الحصة بهذه المفاوضات تذكرت أحاديث صديقي الوفي بودشمون في أوروسكوبا. علينا الامتثال للأمر الواقع: المدن البونية الأفريقية الأخرى اختارت تركنا لمصيرنا البائس. اتخذت مواقعها الواحدة بعد الأخرى تحت حماية أبناء الذئبة بأمل أن يسمح لها هؤلاء بالاحتفاظ بقوانينها وحرياتها.

بالتأكيد لا يمكنني أن أخطئهم كلياً. عاملناهم في أغلب الأحيان بازدراء واستخفاف، وألزمناهم بتسليمنا مشاة وفرساناً دون مشاركتهم على الإطلاق في قيادة العمليات. أعياننا كانوا يعاملون قضاتهم كثقلاء غلاظ خشني الطباع ويرفضون تزويجهم بناتهم خشية عدم التكافؤ. بناء على اقتراحي قرر حنون ذو الحصة إرسال معلمي القديم هيميلكات كاهن معبد إشمون إلى صور ليطلب وساطة كهنة معبد بعل ملقارت ذوي المقام الكبير، وإليهم يقدم مواطنونا التقدمات السنوية فهم وحدهم القادرون على إسماع كلمتهم للمواطنين الأوتيكيين.

لم يتسن له إنجاز تلك الرحلة. كان على وشك الإبحار عندما علمنا بتوقيع معاهدة رسمية بين روما وجارتنا. الخبر السيئ لا يأتي وحده، فمواطنونا المقيمون على ضفتي التيير أعلمونا بتسمية قنصلين جديدين مانيوس مانيليوس ومارسيوس سنسورينوس، وهما من أشد أنصار ماركوس بورسيوس كاتون تعصباً. تغلبا على المرشحين المدعومين من بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم وحصلا على موافقة مجلس الأعيان في تجنيد أربعة أفواج من قوات الاحتياط أي ثمانين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف فارس أرسلوا مباشرة إلى صقلية. الذريعة الرسمية كانت مواجهة: ثورة العبيد في تلك الجزيرة التابعة لنا سابقاً. الواقع وكما برهن: وصول خمسين من خماسيات المجاذيف إلى مرفأ ليليبيه. كانت تلك الفرق تستعد لاجتياز البحر الكبير والنزول في أفريقيا.

بدت الحرب محتمة غير أن حنون ذا الحصة، بعكس رأي أقرب أنصاره، لزم هدوءاً مدهشاً وقرر إرسال بعثة جديدة إلى روما مؤلفة من جيسكون وميديس وجيليكا وماغون. كانت مهمة هذه البعثة الإعلان لمجلس الأعيان أن قرطاجة تضع نفسها وشعبها وأعيانها وأملاكها تحت رحمة الشعب الروماني. أي أننا قبلنا مسبقاً الشروط التي ستفرض علينا. لا أستطيع لوم حنون ذي الحصة على هذا الإجراء فهو معارض منذ بداية مسيرته السياسية لهنيبعل وأخوته ومشاريعهم الحربية، التي كانت بالنسبة إليه سبب دمار مدينتنا. كان مرتبطاً بشدة بإحلال السلام وكان يعتمد بسذاجة على صداقة آل سيبيون، هو مستعد لكل شيء لتجنب النزاع الذي يستشعر نتيجته المشؤومة. كان يثق ثقة عمياء بمحاوريه، معتبراً أن لديهم القيم الأخلاقية التي يتحلّى بها. إضافة إلى أنه بمعرفته بأن الجهود والمبادئ التي نشرها طوال حياته ليحقق أهدافه ضاعت سدى فإن ذلك أمراً لا يستطيع تحمله. لا شيء يمكن أن يغير رأيه، حتى جواب الآباء أعضاء مجلس أعيان روما لمندوبينا.

فعندما دخلوا إلى حرم الكوريا هوستيليا، قال لهم ماريوس سنسورينوس بلهجة حازمة: «بما أنكم اتخذتم هذا القرار الحكيم، فإن مجلس الأعيان يترك لكم حريتكم وقوانينكم وأراضيكم. مع ذلك لن تكون الموافقة نهائية على هذه الأمور إذا لم ترسلوا إلى ليليبيه، قبل شهر، ثلاثمئة رهينة من أوائل عائلات جمهوريتكم أو إن رفضتم الخضوع إلى القناصل».

عندما أعلموا مجلس المئة وأربعة بهذا المطلب، لم يستطع أعضاء المجلس إخفاء سخطهم وقنوطهم. كانوا يعلمون بأنه سيتم اختيار أبنائهم كرهائن وهم لا يطيقون هذا الاحتمال. منذ زمن بعيد استخدموا هذا المركز الرفيع لجمع ثروات كبيرة وللاستفادة من مختلف المزايا. جبلوا أنانية، فقد معظمهم الإحساس بالصالح العام، وأظهروا البخل والتقتير بأموالهم عندما كانت صناديق الدولة فارغة. فضلوا عندئذ إرهاق الشعب بضرائب جديدة بدلاً من أن يساهموا معه بنقودهم. اعتقدوا أنفسهم فوق القوانين، لكنهم هذه المرة وقعوا في الفخ. لا يستطيعون شراء بدائل كما كان يفعل بعضهم خلال الأضاحي البشرية المقدمة لبعل مولوخ في بعض المناسبات المأساوية. يجب عليهم الآن أن يقدموا الدم، دمهم الخاص، واللحم لحمهم دون أن يعرفوا إن كانوا سيشاهدون ذريتهم من جديد.

في مساكن أغنياء ميغارا كان يسمع صراخ الأمهات، يمزقن الوجه بأظافرهن ويلعن القدر الذي جعلهن من مولودات العائلات الأرستقراطية. حاول بعض الأعيان الاستقالة من مناصبهم على أمل ألا يحسبوا من مشاهير الأعيان في مدينتنا. لم تجدهم محاولاتهم نفعاً. حنون ذو الحصة وضع قائمة بأسماء الرهائن. يجب الاعتراف بأنه برهن عن عدالة كبيرة. استثنى من ضريبة الدم هذه آزر بعل وإيتربعل وأنا شخصياً كي لا يُتهم بالانتقام منا. بالمقابل سجل على القائمة أولاده بالذات وأحفاده وأبناء أخوته أي نحو ثلاثين

شخصاً، وهو عشر العدد الفعلي المطلوب. ذات صباح جاءت ثلة من الجنود إلى القصر تطالب بصفوة شبابنا اليافعة. قاموا بأعمالهم سريعاً، استمروا غير مبالين بتضرعات الآباء والأمهات ومبالغ المال الضخمة المقدمة لهم لشراء رحمتهم. قادوا الأولاد بعد انتزاعهم من ذويهم إلى مرفأ الكوتون وتبعهم أهلهم يذرفون الدموع. في الشوارع تجمع الأهل لمشاهدة مرور الموكب. أعرف أن شعبنا يكره الأرستقراطيين القرطاجيين الطماعين المتعجرفين الذين أظهروا عدم شفقتهم نحوه، فكثيراً ما حكموا بالسجن والعبودية على من لم يستطع دفع ضرائبهم. لكن في هذه المرة فإن العاهرة الأكثر ذلة أو الحمال الأكثر بؤساً لم يستطع حبس الدموع وهو يرى هؤلاء الثلاثمئة من الشباب والشابات يمشون بوقار نحو المرفأ العسكري حيث تنتظرهم سفن ثلاثيات المجاذيف تقودهم إلى ليليبيه، كان الشعب يعرف بالغريزة عدم جدوى تضحياته. والرومان بعد أن امتلكوا هذا القطيع البائس أصبحوا أكثر تشدداً وقسوة وهم يعلمون أن أهل الأسرى سيعملون على تلبية طلباتهم الرهيبة لإنقاذ أبنائهم. لكن سيأتي يوم سيصدر أبناء الذئبة قراراً بمسح مدينتنا عن وجه الأرض، وعلينا الدفاع والقتال حتى آخر فرد لإنقاذ وطننا. الرهائن سيقتلون دون أن يتعزوا برؤية وتقبيل ذويهم قبل أن يعمل الجلاد على حصد أرواحهم. لذلك شاركت المدينة كلها، في ذلك اليوم، الأهالي آلامهم.

أثبتت الوقائع صحة هذا الهاجس المشؤوم. عندما سلم جيسكون وماغون الأسرى في ليليبيه وطلبا الاطّلاع على قرار مجلس الأعيان الروماني المتعلق بمستقبل قرطاجة، أجابهما ماركوس أيليوس بلهجة ازدراء: «ستعرفون في أوتيكا ما يجب فعله للحصول على السلام». الواقع وبينما كانت ثلاثيات المجاذيف تتوجه إلى صقلية وهي تقل نخبة شبابنا أبحر القنصلان مانيوس مانيليوس ومارسيوس سنسورينوس مع جنودهما على متن عدة مئات من المراكب ورسوا على الأرض الأفريقية. وأقاموا معسكراً

لهم قرب أوتيكا في مكان استخدمه سابقاً سيبيون الأفريقي لتنظيم جيشه. إلى هناك حضر وفد من مجلس المئة وأربعة وعلى رأسهم ميديس، وهو أحد أخلص مستشاري حنون ذي الحصة، وقد كان يعتقد أن حاميه سيصادق على كل التنازلات التي كان جاهزاً لإجرائها. لكنه أخطأ في تقديره، لأن حنون ذا الحصة أدرك أخيراً خطورة الموقف. فعمل سراً على إلغاء الحكم بالموت الصادر بشأن آزر بعل وكارتالون وأنا بالذات. أمرني بتشكيل جيش من عشرين ألف رجل في منطقة حدريم فوراً. قمت بهذه المهمة بفضل المال الواصل إلي من موتومبعل، وكنت فخوراً لأن نصف مجندي قرطاجيين «ليسوا من المرتزقة الغرباء». وكنت أعلم أن آلافاً غيرهم من مواطني سيلتحقون بي إذا فشلت محاولة المصالحة الأخيرة مع روما.

الفصل السابع

أقمت مركز قيادتي في مزرعة قرب حدريم، وفيها كنت أتلقى الرسائل التي تصلني يومياً وتحمل لي المعلومات عن تقدم المفاوضات الجارية مع الرومان. ورغم أنها كانت خالية من كل وهم في هذا الصدد، لم أستطع إلا أن استشيط غيظاً عندما علمت بكيفية استقبال قناصلهم للبعثة التي يقودها ميديس. بعد انتظار مدة طويلة خارج معسكرهم المسمى بلغتهم «كاسترا كورنيليا» (أي قلعة كورنيليوس) إشارة إلى سيبيون الأفريقي سلفهم في تلك الأماكن، استقبلوا أعضاء الوفد في احتفال حُسِبَ بعناية. بقي مانيوس مانيليوس ومارسيوس سنسورينوس جالسين على منصة، يحيط بهما قادة فيالقهما، وقد اصطفوا في تنظيم كامل حول عقبانهم وأعلامهم وعلى البعد، في الخليج، تلاحظ مئات من المراكب تحمل من أفريقيا فيلق الحملة العسكرية، بينما تجمعت جماهير أوتيكا على الأسوار لمتابعة الأحداث.

اقتيد ميديس ورفقاؤه إلى أسفل المنصة، خلافاً للمألوف، ولم يسمح لهم محاوروهم بالجلوس. بلهجة متعجرفة، سألهم مارسيوس سنسورينوس، وهو أكثر فصاحة من زميله، عما يوجد لديهم لقوله. وبصوت يرتعش انفعالاً انطلق مستشار حنون ذي الحصة في خطاب طويل راز كلّ كلماته:

ـ فخامة ممثلي مجلس الأعيان الروماني، أنتم ترون عند أقدامكم المواطنين الأكثر مهابة لمدينة موغلة في القدم، سبق أن

أُسست وشُيدت قبل مدينتكم. مضت قرون ونحن سادة هذه المناطق دون منازع سواء ما كان منها على اليابسة أو مجاوراً للبحر الكبير، مؤسسين مستعمرات في صقلية وسردينيا وكورسيكا وإيبيريا وما يتجاوز أعمدة ملقارت. في كل مكان كان يُعبَر باحترام عن اسم قرطاجة والملوك الغرباء يتنافسون في حماسٍ ليوقعوا معاهدات تحالف وصداقة. أقمنا علاقات المودة مع روما، وقد كانت هذه الأخيرة ضيعة متواضعة نذكر منها استضافة ملكتنا إليسا إنياس المنحدر من رومولوس، وقد أحبت هذا الأمير الشاب الذي أجبر على الهرب، على شاكلتها، من وطنه. لن أدخل هنا في تفاصيل الحروب التي اندلعت بيننا وبينكم وتتحمل عائلة برقا مسؤوليتها الكاملة. آلهتكم أقرت لكم انتصارات باهرة وجميع ملكياتنا وقعت بين أيديكم. منذ هزيمة زاما ما فتئت روما تنشر سلطانها على بلاد الإغريق والشرق دون أن نحاول لأي سبب معاكستها. إنما بالعكس حملنا إليكم مساعدة مخلصة، فعندما حاول بيرسة المقدوني أن يثير المدن الإغريقية ضد سلطتكم قدمنا لفيالقكم الحنطة. كما قدمنا السفن التجارية دون مقابل.

«اليوم أنتم الأكثر قوة وقرطاجة ليست إلا ظل نفسها. حظنا العاثر يجب أن يثير عواطفكم ويدفعكم إلى التسامح نحونا. بعد كل حساب المنتصر الحقيقي هو من يعرف كيف يعبر عن الشهامة نحو عدوه ولا يفكر بإبادته. فكروا بالموقف المتبنى من الإسكندر الإغريقي أمام الشعوب الخاضعة لسلطان فيالقه إذ سمح لها بالاحتفاظ بقضاتها، وقوانينها، وآلهتها، فبكته عند موته مئات الألوف من النساء والرجال، بسبب أعماله هذه. كان معادلاً لإله. إنكم تستحقون بدوركم شهرة مماثلة إن أظهرتم العدالة والشهامة نحونا.

«سيكون من العدل النظر إلى الإخلاص الذي ساد علاقاتنا مع مدينتكم. حُكم علينا مرتين بدفع غرامة حرب ثقيلة وقد سددنا بكل دقة التزاماتنا دون أي تأخير. لم نسع إلى إعادة بناء أسطولنا

واستقبلنا بين جدراننا عدة مئات من تجاركم، وهم يعيشون بيننا في وئام وقد اغتنوا بمتاجرتهم معنا. لا يمكنكم لومنا على محاولتنا الدفاع عن أنفسنا ضد التصرفات غير المشروعة لماسينيسا، وقد استولى على الأراضي التي قدم لنا مجلس أعيانكم ضمانة لملكيتها. لهذا السبب حمل آزر بعل وحسدروبال وكارتالون السلاح ضده. وعندما علمنا أن هذه الحركة لا تسركم عاقبناهم بشدة. حُكم عليهم بالموت كما حكم على جميع أولئك الذين أرادوا الدفاع عنهم بغرامات ثقيلة أو قسروا على المنافي. عندما طلبتم تسليم ثلاثمئة رهينة من خيرة العائلات القرطاجية قدمناهم دون تأخير قبل شهر من المدة المحددة من قبلكم، اقتلعوا من أهاليهم دون التساهل مع أية مقاومة. إنني أعلم عمن أتكلم لأن لي ولدين بينهم. وعدتمونا بمعرفة قرار مجلس الأعيان. ونحن هنا لمعرفة المصير المكنون لنا بعد أن قدمنا لكم كل ما يرضيكم:

تناول مارسيوس سنسورينوس عندئذ الكلام، وستبقى كلماته محفورة في قلب أولئك الذين سمعوه:

- أيها البونيون، لا أريد أن أناقش معكم الأحداث التي سبقت هذا اليوم. عرضك التفصيلي يا ميديس يتضمن أكاذيب يسهل علي دحضها لكنني أعرفك صديقاً مخلصاً لروما ولا أريد إذلالك. يجب أن أقول لك أن تسرعكم في تقديم الرهائن استحق تحية الآباء أعضاء مجلس الأعيان الذين تأثروا من مبادرتكم. إنكم تبرهنون على أنكم تسعون فعلاً إلى الصلح. ونحن نطلب منكم منحنا البرهان الأخير: سلمونا أسلحتكم. فقد أصبحت الآن لا فائدة ترتجى منها مادامت مدينتكم قد اختارت طريق السلام.

- مارسيوس سنسورينوس، أجاب ميديس، سأنقل طلبك إلى مجلس المئة وأربعة وأستطيع أن أؤكد لك بأنه سيعمل على الحصول على رضاك، إنما أنت تعلم دون شك أن حسدروبال الخائن جهز جيشاً من عشرين ألف رجل في منطقة حدريم. كيف سنستطيع إبادته إذا كان لا يوجد لدينا قوات كافية لمنعه من الضرر. سترى أننا

نسعى حقاً إلى السلام لأننا مستعدون لسفك دماء مواطنينا للحصول على رضاكم.

ـ لا تقلق بهذا الخصوص. نحن لا نرغب في أن تشرع السيف ضد أشقائك ومواطنيك ففيالقنا ستتكفل بهذا الوقح. الآن التحق بقرطاجة وعد إلينا بأسرع ما يمكن لتنقل إلينا قرار قضاتكم والتاريخ المحدد لتسليم أسلحتكم وآلات حربكم.

نقل ميديس بأمانة إلى مجلس المئة وأربعة اقتراحات القنصل، واستقبل بصمت مطبق. رافع بحماس مؤيداً قبول شروط الرومان، وانتصب والدي ليبين له التناقض. أشار ألا أحد يتذكر صياغة التماس مشابه كأساس للتوقيع أو لتجديد اتفاقيات صداقة. حتى غداة هزيمة زاما، سمح لنا سيبيون الأفريقي بالاحتفاظ بعشر ثلاثيات مجاذيف حربية وبجيش صغير. ولم يعترض فيما بعد عند انتخاب هنيبعل، أشرس أعدائه قاضياً لمدينتنا «شوفيت». إن قبلنا تنفيذ طلبهم الباهظ السعر هذا، تابع والدي، فإن أولاد الذئبة لن يترددوا في المطالبة بتدمير أسوارنا لأننا سنكون عاجزين عن الدفاع عنها. حججه هزت قسماً من الحاضرين بدءاً من حنون ذي الحصة. عندما طلب منه ميديس بيان رأيه بقي ساكناً، وقد كان وجهه غارقاً بالدموع، وفسر صمته بإنكار لعروض مستشاره. مع ذلك كسب هذا أخيراً القضية، فزملاؤه كانوا يعلمون أن الرومان في حال رفضنا لشروطهم سيعتبرون ذلك ذريعة لقتل الرهائن، أي أبنائهم، لذلك طلبوا تسليم الأسلحة خوفاً عليهم وقد أمروا بتسلم الأسلحة المخزنة في دور الصناعة إلى القناصل وهم يرتعشون خوفاً.

انتدب هؤلاء كورنيليوس بوبليوس سيبيون نازيكا سيرابو وكنايوس كورنيليوس هيسبانيكوس لمراقبة حسن سير العملية. جمع العمال في مئات من العربات أكثر من مئتي ألف قطعة سلاح، آلاف الرماح والسيوف وفككوا أكثر من ألفي منجنيق. ذات صباح غادر قرطاجة عبر باب أوتيكا: مئات من العربات تجرها الثيران،

ويتبعها السفراء والمواطنون من جميع الملل وهم يحملون سعف النخيل وأغصان الزيتون علامة للسلام. لزمهم نحو يومين ليصلوا إلى كاسترا كورنيليا حيث توجه مارسيوس سنسورينوس بوجهه المقطب العابس إلى الجماهير.

- أيها القرطاجيون، إن مجلس الأعيان الروماني ممتن لإطاعتكم وقد كلفني بأن أوصل إليكم قراره القطعي والنهائي. ستكون مدينتكم من الآن وصاعداً صديقتنا وحليفتنا لكنها ستكون قرطاجة الجديدة. من أجل مصلحتكم نأمركم بالتخلي عن الموقع الحالي لمدينتكم والانسحاب ثلاثة فراسخ على الأقل إلى داخل الأرض لتبنوا عليها عاصمتكم. قرطاجة القديمة وقد شكونا منها مراراً ستسلم لمعول الهدامين. يمكنكم بالطبع أن تحملوا معكم ثرواتكم وأثاثكم وسنسهر على تلقيكم كميات كافية من الخمر والزيت خلال فترة مواصلة بناء منازلكم الجديدة.

لم يستطع القنصل الاستمرار في الحديث. مع نطقه بتلك العبارة أجهش جميع القرطاجيين الحاضرين بالنحيب، والصراخ، والدموع، واللعنات. مزق بعضهم ثيابه الثمينة وعفّر رأسه بالتراب، كما مزق آخرون وجوههم وتمرغ الأكثر قنوطاً على التراب وهم يُشهدون الأرباب على غدر أبناء الذئبة. إلا أن آخرين جهدوا بالمحافظة على هدوئهم، وخاصة كهنة معبد إشمون، حيث اتجه المؤمنون نحوهم متهمين إياهم بالمسؤولية عن مصائبنا بسبب كفرهم.

لوحظ التزام ميديس الصمت، ربما خشية منه بالمجازفة في أعين القناصل أو لأنه حصل على ضمانة بمعاملته بطريقة متميزة. أحد زملائه بانو فرض الصمت على مواطنيه وتوجه إلى مارسيوس سنسورينوس.

- أيها القنصل إنني عجوز يحتمل أن أموت خلال أسابيع لأنني أشعر بتخاذل قواي يوماً بعد يوم. وأنا أتوجه بعرفان الجميل للربة تانيت لأنها ستنقذني من رؤية المصير الرهيب الذي ينتظر مدينتي.

مع ذلك يجب أن أنبهك إلى نتائج حركتك. اعلم أن قرطاجة تحوي مالا يحصى من المعابد والمقابر حيث يستريح أجدادنا منذ وصولهم إلى هذه الضفاف مع الملكة إليسا. هل تجرؤ على أخذهم من مقابرهم حيث يرقدون بسلام؟ كذلك أتظن أن آلهتكم ستغفر لكم تدنيس مقدساتنا؟ ألا تذكرون ما حصل لهنيبعل عندما اغتصب معبد هيرا في تارنتوم وذبح من لجؤوا إليه؟ استحق على هذا العقوق أن تهزمه قواتكم في زاما.

«لذلك أناشدك أن تتخلى عن مشروعك وأعرض عليك حلين آخرين. الأول هو الأكثر سهولة ونحن مستعدون على الموافقة عليه. بدلاً من تدمير مدينتنا اذبح جميع سكانها مفاجأة. يمكنك أن تتصرف مثلما تريد. نحن مجردون من السلاح، وقبل أن يصل حسدروبال لنجدتنا ستكون قد أنهيت جريمتك. بهذه الطريقة ستصب جام غضبك على كائنات بشرية وليس على المعابد والمقابر، ولن تحقد عليك الآلهة بل إن بعضهم سيكونون مسرورين بهذه التضحية. أما نحن فسنتلاشى والبسمة على الشفاه ونحن نتأمل لآخر مرة أجمل المدائن. لن نتمكن أن نحيا دونها ولا بعيداً عنها.

ـ لكن روما لم تعتد على ذبح الأبرياء، زمجر مارسيوس سنسورينوس.

ـ إذن بقي لديك حل آخر. اسمح لنا أن نرسل وفداً إلى ضفاف التيبر ليلتمس رحمة الأعيان ويطلب منهم العودة عن هذا القرار الأخرق. إذ بماذا يفكر حلفاؤكم إن نفذتم هذا التهديد؟ أثينا ستخشى يوماً أن ينالها نصيب قرطاجة، وكذلك كورنثوس ودلفي وأولمبيا. لن يقبل أي شعب عقد معاهدة مع مدينة قادرة على إجراء مثل هذه الأعمال الرهيبة. ثق بي، إنني أكلمك صديقاً، وبتسارع الأحداث فإنك تخدم المصالح الحقيقية لروما.

ـ أيها البوني النبيل إنك تعبر ببلاغة وأنا أقدر حججك. لكن مجلس الأعيان اتخذ قراره وليس باستطاعتي أن أعارض قوانينه، خاصة فيما يتعلق بمصالحكم. بما أنك تكلمت بصراحة سأقوم

بدوري بالتكلم معك بصدق وإخلاص. على شعبكم أن يبدل طراز حياته. لأن قرطاجة كانت في كل وقت قوة بحرية سعت إلى تأسيس مستعمرات لها في صقلية وسردينيا وكورسيكا وإيبيريا ودخلت في نزاع معنا. الإغريقيون بدورهم أسسوا مدناً في شبه الجزيرة الإيطالية وفي آسيا. سعوا إلى غزو العالم والسيطرة على البحر الكبير، وهذا الطمع المشؤوم أضاعهم.

«ثق بي، سيعرف مواطنوك حياة أكثر أمناً بانصرافهم بعيداً عن البحر وانشغالهم بالأعمال الزراعية. بالتأكيد سيكونون أقل استفادة بالزراعة منهم في التجارة لكنهم سيعيشون في طمأنينة. إن مدينة بحرية بدت لي على الدوام مثل مركب جاهز للغرق، بينما مدينة واقعة في عمق الأراضي تكون بمنأى عن الرياح العاصفة. هل لاحظت أن معظم الإمبراطوريات الكبرى مثل الميديين والآشوريين والفرس يدينون بقوتهم إلى أنهم بعيدون على الدوام عن البحر؟

«من الأفضل لكم أن تنطلقوا إلى أعماق أفريقيا حيث الأراضي متوافرة، وهي تقريباً شبه خالية، ولا تخافوا من هجوم أقوامٍ معادين لكم. ستشتري روما إنتاجكم من القمح والزيت والخمرً وتعيشون بتواضعٍ ورخاء، وهذا ما يرضي مواطنينا بشكل خاص. نحن نعلم أن عدداً غير قليل من سكان مدينتكم يعيشون من فعاليات ترتبط بالبحر وأن من الصعب عليهم للوهلة الأولى أن يغدوا فلاحين. لذلك قررنا أن ترتفع مدينتكم الجديدة ثلاثة فراسخ عن البحر. ليست مسافة كبيرة. هي على كل حال أقل من تلك التي تفصل مدينتنا عن أوستي مرفئنا.

«يمكنني أن أطمئنك عن نقطة محددة. أشرت إلى معابدكم ومقابركم. أعدكم بأن معاول الهدامين ستتجنب تهديمها. ويمكنكم متى شئتم أن تعودوا إليها لإقامة شعائركم الدينية وتكريم ذكرى موتاكم. وكل ما بقي عدا ذلك سيهدم. حسب معلوماتي لن تقوموا بأي تعبد قرب أسواركم أو مبانيكم العامة أو مرفئكم التجاري!

«كنا وعدناكم بأن نجنِّب قرطاجة الدمار، ونحن عند وعدنا. في نظري قرطاجة هي قرطاجة بسكانها لا بالمكان الموجودة فيه. لذلك عليكم الانتباه ولا تتهمونا بأننا خالفنا تعهداتنا، سنمنحكم إمكانية العيش في مدينة يسوّغ لكم فيها تسميتها قرطاجة وهذا يكفيكم. أنتم مضطرون للخضوع لأوامرنا لأنكم ارتضيتم ذلك في وفد سابق بوضع أنفسكم وأملاككم وأرزاقكم تحت رحمتنا، وكل ذلك تم قوله. عليكم التعجيل سريعاً بإطاعة أوامر مجلس الأعيان. عودوا إلى قرطاجة. ليس لكم في نظري ما تخشونه لأنكم لم تخسروا الأخلاق الكريمة التي تحمي وتَزود عن السفراء.

في تلك اللحظة ووفقاً لما ذكر لي لاحقاً، اقترب ميديس من مارسيوس سنسورينوس وطلب أن يكلمه على انفراد. رفض القنصل وتوجب على مستشار حنون ذي الحصة تقديم طلبه علناً، طلب معيب يصدر عن رجلٍ شريفٍ:

- إن عدنا إلى مدينتنا حاملين هذا الخبر الرهيب الواجب إعلانه لمواطنينا فإننا نخشى أن نُذبح. لذلك نرجو أن توجهوا أسطولكم إلى مرفئنا باعتبار أن رؤية مراكبكم تساعدنا في صياغة كلماتنا، كما تساعد الشعب على تفهم الضرورة الملحة لإطاعة قراراتكم.

استجاب مارسيوس سنسورينوس لهذا الطلب، وتوجهت نحو عشرين خماسية مجاذيف رومانية من خليج أوتيكا إلى قرطاجة، ثم انطلق السفراء وجميع الذين رافقوهم سيراً على الأقدام باتجاه ميغارا. خلال الطريق خشي بعض الأعيان من الأحداث القادمة فانسحبوا خلسة ليلتحقوا بسرعة إلى ملكياتهم في رأس بون ليكونوا في مأمن.

ما أن أبصر الحراس الجاثمون على البرج الذي يعلو باب أوتيكا الموكب، حتى دقوا البوق. هرعت المدينة إلى لقاء البعثة بصيحات الترحاب لقناعتهم بعودتها حاملة أنباء طيبة. ولكن عندما

شاهدوا وجهي ميديس وبانو الحزينين خيم حزن كالموت على الجماهير وانتابهم قلق عميق. بعض أصحاب الجرأة ألحوا على السفراء بالأسئلة، لكن هؤلاء لزموا الصمت بعناد. وبعد قليل ثار غضب الجماهير وهددوهم وحملوا الحجارة والسيوف، ونادوا بقتلهم حتى آخر واحد منهم إن رفضوا الكلام. تقدم بانو نحوهم بهدوء مسكتاً إياهم ورماهم بكلماته: «أيها القرطاجيون. هل فقدتم الرأس لدرجة محاولة قتل الذين يجهدون بجميع الوسائل لإنقاذكم؟ دعونا نتقدم إلى مجلس الأعيان لإعلامه بالقرارات التي اتخذتها روما. يمكنكم الانتظار حتى انتهاء مداولاتنا في المقام لأنني واثق أن حنون ذا الحصة سيقرر التوجه إليكم».

بعد لأي وعناء توصل أعضاء البعثة لشق طريقهم إلى مجلس الأعيان وقد حضر جميع أعضائه. افتتح حنون الجلسة بعد أن نادى الحاضرين طالباً بركة تانيت. قص ميديس بصوت مضطرب وخافت الطريقة التي استُقبل بها من قِبل أبناء الذئبة. عندما نقل عبارات مارسيوس سنسورينوس وقف جميع أعضاء المجلس وزمجروا قانطين. وصرخوا صرخة واحدة عندما علموا أن القنصل رفض إرسال بعثة جديدة إلى روما، وما أن أدرك الجمهور المحتشد في المقام بأن أمراً غريباً في طريقه إلى الحصول حتى هجموا على الحراس وضربوهم. وعندما علموا بالمصير الذي تحتفظ به روما لمدينتنا، لم يعرف لغضبهم حدود وقاموا بقتل جميع الشيوخ الذين قبلوا تسليم الرهائن إلى أعدائنا، وكذلك السفراء العائدين من أوتيكا بمن فيهم بانو المسكين، وهو المدافع الوحيد عن مصالح مواطنيه. ثم انطلق الجمهور إلى المدينة، وخاصة إلى حي المرفأ بحثاً عن التجار الرومان الذين انتزعوا من مساكنهم بعنف وعذبوا بشراسة، ثم قطّعوا إرباً قبل أن يُرمى بهم إلى أتون النار الملتهبة مع ممتلكاتهم.

* * *

خلال المذبحة في داخل مجلس الأعيان كان موتومبعل وأنصاره قد تجمعوا حول حنون ذي الحصة لحمايته من غضب الثائرين. عندما أزاح الحرس الجماهير الثائرة إلى خارج الحرم تجمع الأعيان من مجلس المئة وأربعة لنهارين وليلتين لاتخاذ الاحتياطات العاجلة والضرورية. كُلف أبي بترؤس الجمعية وأول مابدر منه دعوتي إلى قرطاجة. رغم مأساوية الظروف. كنت مسروراً للقاء مدينة نشأتي ومسكني القديم في ميغارا حيث كانت تنتظرني زوجتي إميلكة وولداي. استقبلني هؤلاء بفرحة العيد وقضيت قسماً من الأمسية معهم، وتركتهم يلعبون بخوذتي وسيفي وأنا أجيب على أسئلتهم التي لا نهاية لها. عملت قدر استطاعتي لطمأنتهم، وعدتهم في حال معالجة الأمور بحكمة سنتمكن من الخروج من هذه المحنة منتصرين. غلبهم النعاس بعد فترة وسار بهما العبيد إلى غرفهما بينما لحقت بي زوجتي. لم يتضمن اللقاء شيئاً من الدفء. وبلهجة لا تخلو من تهذيب قالت لي:

ـ هكذا توصلت مع والدك إلى تحقيق أهدافكما.

ـ ماذا تعنين بقولك؟

ـ ها أنت على رأس مدينتنا.

ـ يجب أن تكوني سعيدة لمعرفة أن شعبنا استأنف عاداته القتالية التي أثارها قريبك الشهير هنيبعل. أعتقد أنه سيوافق على سلوكنا، مع ذلك اعلمي بأني لا أفضل إثارة الحرب.

ـ أنت لا تحب إلا الحرب، وأنا لست غافلة عن الأسباب التي دفعتك للزواج بي. أصبحت زوجتك لأنني سليلة عائلة برقا، وهذا ضروري لإنجاح مهمتك في الحياة.

ـ أنت تنسين والدك الذي وجد فيّ العريس المناسب وقد عمل كثيراً لأصبح زوجك. ارتضيت بهدف ضمان استمرار عائلتي. لم أقصر يوماً في احترامك وتحملت كثيراً من خيبات الأمل دون أن

أتفوه بكلمة بحثا عن تعديل نهج حياتك. أتعتقدين أن الفرصة مناسبة لنزاعنا؟ العدو كامن على أبوابنا وكنت آمل أن أجدك عوناً لي ونصيراً. لا أسألك إلا شيئاً واحداً: هو السهر على أطفالنا لأنني أحبهما فوق العالم كله. الآن اتركيني لأتوجه إلى مجلس المئة وأربعة للتداول مع والدي.

كان موتومبعل ينتظرني في مجلس المئة وأربعة حيث سادت حركة محمومة. ضمني بين ذراعيه، وأبلغني قرارات المجلس:

- قررنا تقسيم جيشنا إلى قسمين. وستقود الفرق إلى خارج المدينة.

- من سيكون على رأس الحامية؟

- حسدروبال الطائش.

- أنت تعلم جيداً أنه أحد منافسينا.

- اليوم لا أعرف عدواً لنا بين القرطاجيين. اخترته لنسبه من جهة أمه وزوجته إلى ماسينيسا. أعلمني مخبري أن الملك العجوز لم ينظر بعين الرضا لنزول الرومان في أفريقيا. لم يرَ هؤلاء ضرورة إعلامه بما يحدث الأمر الذي أساء إليه كثيراً. هو في الوقت الحاضر حَرِدٌ في قصره في سيرتا، وآمل أن يستمر مزاجه السيئ مدة أطول. شيء واحد مؤكد: مادام حسدروبال الطائش يحمي قرطاجة لن يجرؤ ماسينيسا على التقدم نحونا.

- عشرون ألف رجل ينتظروني في حدريم وقريباً سيفد مئات من المرتزقة يعرضون خدماتهم. لكن بأي جنود تريد الدفاع عن مدينتنا في الأيام القادمة؟

- قرر المجلس تجنيد جميع العبيد الراضين بالانخراط ضمن مشاتنا أو في خيالتنا. هذا الإجراء ينطبق عليهم وعلى عائلاتهم. الآلاف منهم تقدموا سابقاً إلى الثكنات، وأمرت بالتعبئة العامة للشباب الأحرار من السابعة عشرة حتى الخامسة والثلاثين من العمر.

ـ هل يجب أن نقاتل وأيدينا عارية؟ نسيت أننا سلمنا للقناصل أسلحتنا وآلات حربنا.

ـ لا تقلق بهذا الخصوص. اتخذت الإجراءات الضرورية. وقريباً سيتلقى كل رجل عدته الكاملة. الآن حان الوقت لتلتحق بحدريم ومنها سأبلغك أوامري.

أنفق موتومبعل دون حساب لتهيئة قرطاجة لدحر كل هجوم معادٍ. في المرحلة الأولى، وبما أن الحرب لم تكن قد أعلنت رسمياً مع روما، طلب من القناصل تمديد السلام لثلاثين يوماً. رُفض طلبه، لكن هذا القرار لم يثنه عن عزمه وضاعف طاقته. في الترسانات العسكرية كان العمال يشتغلون ليلاً ونهاراً لصنع الأسلحة. المعابد والأبنية الرئيسية العامة تحولت إلى ورش، أعيد استخدام الحرفيين الفنيين وجميع الرجال المستثنين من العمل الفعال. هذه الجهود أينعت ثمارها. كانت قرطاجة تنتج كل يوم مئة وأربعين مجناً، وثلاثمئة سيف، وخمسمئة رمح، وألف كرة منجنيق. جُند النجارون لإنشاء آلات حرب، وعندما ظهر نقص في حبال المنجنيقات هرعت نساء الشعب إلى تقديم شعورهن ونسجت الزوجات الأرستقراطيات على منوالهن وغدت النساء اللواتي كن يخرجن إلى الشارع دون حلق رؤوسهن هدفاً للسخرية، وقلائل اللواتي تهربن من تلك التضحية.

تلقيت الأمر بجمع الحبوب والأعلاف المتوافرة وإرسالها إلى قرطاجة لتشكيل مؤونات لمواجهة حصار طويل. تجولت مع رجالي في ريف حدريم ومنطقة رأس بون وباشرت استثمارات لدى صغار المزارعين وكبار المستوطنين. في كل يوم كانت تنطلق قوافل تحت حراسة جيدة إلى مدينة إليسا. مع معاوني الأمين بودشمون توغلت في المناطق المحتلة من النوميديين لشراء محتوى خزائن غلالهم، آلاف الخيول وكل محتويات مزارعهم، حرصت على أن أتجهز بأموال كثيرة وأن أسدد ثمن البضائع بأسعار تزيد عن سعرها المألوف.

حققت هذه العملية نجاحاً حقيقياً. عرفت من عملائي أن القناصل كانوا يعانون بدورهم من صعوبة تموين حقيقية. وحدها أوتيكا وبعض المدن البونية الساحلية كانوا يبيعون لهم الحبوب والأعلاف والمواشي. عندما علموا أنهم لن يستطيعوا مطلقاً الحصول من النوميديين على الإنتاج بعد أن اشتريت محصول السنة والمخزون، ظنوا أن ماسينيسا هيأ لهم حيلة على طريقته. أرسلوا إلى الملك العجوز وفداً مؤلفاً من ضباط قليلي الخبرة تصرفوا مع العاهل وكأنه أحد رعايا روما. تكلموا معه بقسوة بالغة فغضب غولوسا الابن الأصغر من وقاحتهم وشهر سيفه لمواجهتهم. بجهود كبيرة تم الفصل بين المتشابكين، وعاد مبعوثو القناصل إلى أوتيكا وأيديهم فارغة حيث عوقبوا على سلوكهم غير المسؤول.

أطلعني صديقي القديم ماركوس لوسيوس أتيليوس المتواجد في سيرتا على الحادث، وعرض علي لقاء غولوسا، إذا كنت أرغب بذلك. تمت المقابلة في مكان غير بعيد عن أوروسكوبا، في ملكية لأحد الأرستقراطيين البونيين الهاربين. يصعب علي الآن أن أستحضر هذا الفصل من الأحداث لأنه يقرر نهاية الحرب علاوة على أنه، يجب أن اعترف، بأن سلوكي كان في الأساس سبب فشل تلك المحادثات، التي لو نجحت، لأتاحت لمدينة إليسا أن تقذف بالرومان إلى البحر، مع ذلك بدا كل شيء بأسعد طالع. استقبلني أخ ميسيبسا وماستانابال بحرارة وكلمني بكل حرية:

- حسدروبال، إنني سعيد للقياك في هذا المكان. أنا أعلم أنه يثير في نفسك ذكريات سيئة. هنا ذبح رجالك بعد أن استسلموا لوالدي. مع أخوي قررنا ألا نفي بالعهد الممنوح من ماسينيسا لأننا أردنا الانتقام للعار الذي ألحقته بنا على جسر باغراداس. آمل مع ذلك أنك من الذكاء بحيث تمسح الماضي وتنظر إلى مصالحة بين شعبينا.

- أشكرك على صراحتك. الحق يقال إنني لا أحفظ لك ضغينة

البتة على تلك المذبحة لسبب تستغربه. رغم أنك كنت المحرض فإنك لا تتحمل المسؤولية. كنت أداة لانتقام الآلهة العادل ضدي. لقد عمدوا إلى معاقبتي على جريمة فظيعة ارتكبتها أيام شبابي، كما ترى، فعندما سميت ضابطاً واستلمت مهامي في أوروسكوبا أحضرت إلى المنطقة عمالاً من دور الصناعة لينشئوا لي بسرية تامة مخزونات أسلحة كافية لرد هجماتكم أو هجمات الرومان. عندما انتهت مهمة هؤلاء الرجال وبدلاً من مكافأتهم وفق استحقاقهم، عمدت إلى دس السم لهم لأتأكد من صمتهم إلى الأبد. ارتكبت هذه الجريمة الشنيعة باسم مدينتي ومن الطبيعي أن نتلقى من الآلهة العقاب المناسب لتلك الجريمة القذرة. عمل بعل حمّون بوساطتك ليكبد جنودي ومرتزقتي المصير الذي ادخرته سابقاً لعمالي، إنه انتهاك الحرمات والمقدسات من قبلي فلا لوم عليك.

ـ تُتهم غالباً بالكفر. وألاحظ أنك لست كذلك وهذا يسرني. إنني مقتنع بدوري أيضاً أن الآلهة تعاقبني أنا وأخواي على تصرفاتنا، ولذلك أرسلت الرومان إلى هذه السواحل. إنهم يتصرفون وكأنهم أسياد مملكتنا ويوجهون لنا الأوامر وكأننا تابعون لهم أو عبيد ولسنا حلفاءهم.

ـ طالما كنتم الوحيدين الذين يستطيعون الاعتماد عليهم فإنهم يحترمونكم ويغمرونكم بالهدايا. حالياً عقدوا مع المدن البونية التي خانتنا على الساحل معاهدات ولم يعد التحالف معكم ضرورياً، هم يشعرونكم بأنها ليست إلا بداية. عندما سينتهون من قرطاجة سيرتدون عليكم ويضمون ملكياتكم ليقيموا عليها جنودهم ومستعمراتهم. اعلم أنه إذا دمرت مدينة إليسا وسلمت إلى الهدامين فستحظى مدينة سيرتا بعد وقت قريب بالمصير نفسه.

ـ إنني مدرك تماماً لمسؤوليتي وحضرت للقائك. وأنا مكلف من والدي وأتكلم باسمه. حان الوقت لنضع حداً لخصامنا. إننا مستعدون للقتال إلى جانبكم ضد أبناء الذئبة، لكننا نرغب أن نعرف

الطريقة التي يمكن فيها لأعضاء مجلس المئة وأربعة مكافأتنا على تغيير موقفنا.

- بطريقة شهمة جداً. أنت تعلم أن الحرب قد بدأت بيننا بسبب السهول الكبرى والمقاطعات التي استوليتم عليها غدراً. إذا أمنتم لملاكينا حق الانتفاع بمليكاتهم، فإننا مستعدون لنتخلى لكم عن تلك الأراضي. وبالمقابل عليكم التخلي عن مطالباتكم بأمبوريا والسماح لنا بإنشاء مواقع ووكالات على طول شواطئكم. إضافة إلى أن ماسينيسا شيخ عجوز وسنحرص على أن يكون أحسن أبنائه، وأنت على وجه الخصوص، خليفته على العرش.

- هل يمكن أن أعتبر هذه الوعود تعهداً من مدينتك؟

- أبي يرأس مجلس المئة وأربعة ولا أعتقد برجوعه عن وعوده. نحن نحرص كثيراً على التحالف معكم ليس فقط من أجل الظروف الحالية. أنتم، النوميديون، أنقذتم حياتنا للمرة الأولى، وقد مضى زمن طويل على هذا. عندما قدمتم الضيافة لملكتنا إليسا ورفقائها. تأسست قرطاجة على الأرض التي تخليتم لنا عنها وأفترض أنكم ألغيتم حساباتكم السخيفة عن الحجم الصحيح لجلد العجل المستخدم لتعيين حدودها. اليوم وعدوّنا الأكثر شراسة جاثم على أبوابنا تطلبون أن ندحر قواته. كيف يمكن أن نظهر هذا العقوق؟ في السابق حارب والدكم إلى جانب هنيبعل وأخوته. أنتظر بفارغ الصبر اختبار تلك الأخوة. مع عودتي إلى حدريم سأرسل وفداً إلى موتومبعل وستتلقى جوابه قبل إطلالة القمر الجديد. فلتتهيأ جيوشك للسير إلى أوتيكا!

في المساء أقام غولوسا مأدبة فخمة احتفالاً بمصالحتنا. اهتم بالحضور مع لوازم الاحتفال ليبرهن أن قراره قد اتُخذ قبل لقائنا نفسه. مع هبوط الليل ظهر مع خليلته، عريشات، وقد كنت حررت سابقاً من سجون قرطاجة بوساطتها. خلال لقائنا الليلي الأول والقصير على ضفة المرفأ التجاري كدت لا أتميزها. أما الآن فقد كان حضورها قوياً أمام عيني. إنها إنسانة رائعة ما إن رأيتها

حتى فقدت رشدي. شعرت بجميع مشاعري تستيقظ ولم يعد في رأسي إلا فكرة واحدة: اختطافها من عشيقها. كنت خلال المأدبة مستلقياً على سرير ميداني، ولقيت صعوبة كبيرة في إخفاء مشاعري المستثارة. لم تكن متضايقة لمظهري الكئيب وتأملتني بانتباه، تعايرني مثل تاجر خيل يفحص جواداً. لم تتأخر عن رميي بنظرات مغرية تشكل دعوات صريحة ووجهت لي في مناسبات عديدة عبارات تسألني فيها عن قرطاجة. لم يفتني أنها كانت تلتهمني بنظراتها زيادة عن اللزوم. وسرعان ما لاحظتها تعمد إلى دعوة غولوسا إلى الشراب بأكثر من احتماله. وبعد عدة كؤوس من خمر صقلية ترنح الأمير الشاب وثقل صوته وغرق سريعاً نتيجة السكر الشديد. وجب السير به إلى مقاصيره وأناب رفيقته لترأس المأدبة التي امتدت إلى ساعة متأخرة من الليل. وبعد انصراف المدعوين بقينا بمفردنا.

مضت أشهر لم أقرب فيها امرأة، وليست إميلكة زوجتي الشرعية مستعدة لإطفاء شهواتي. بدوري كنت منتشياً بالخمرة فاقتربت من عريشات. لم تبدر منها أية محاولة للهرب. وبدلاً من محاولة إبعادي عنها اندفعت نحوي بتهيج. كانت يداها ناعمتين وخبيرتين وجسدها العطر يناديني لأغمره بالقبلات والمداعبات. التحقت بي إلى خيمتي وتعرينا بسرعة. استسلمت لي سريعاً وشعرت بجسمها اللدن يتلوى تحت جسدي وهي تطلق آهات المتعة وتشد على ظهري بأصابعها. بلغنا النشوة القصوى في وقت واحد وكررنا التجربة عدة مرات. بقينا مدة طويلة متعانقين نتمتم بكلمات ناعمة. كنت أعلم أنني لن أستطيع الاستغناء عنها مطلقاً. سحرت بها كلياً ولم أتصور الحياة دونها مستقبلاً. أسرّت لي بأنها كانت تحلم بلقاء موطن أسلافها مجدداً، وأنها لم تغدُ خليلة غولوسا إلا لتتبعه إلى أفريقيا. لهذا ارتكبت عندئذ حماقة انتزاعها من عشيقها والهرب بها مثل لص برفقة حرسي في أواخر الليل، وقد تدثرت بمعطف طويل يغطي وجهها.

بعد وصولنا بيومين إلى حدريم حضر فارس نوميدي وطلب رؤيتي. كان يحمل رسالة من غولوسا: «حسدروبال، آمنت بكل إخلاص بوعودك وسررت بالمصالحة الباهرة بين شعبينا. خنتني بالطريقة الأكثر قبحاً في الكون وعشيقتي جرت على منوالك. أنتما تنتميان إلى تلك السلالة الملعونة التي قال الرومان بحقٍّ أنها فاسدة وماكرة. لا أحس بأي وهم لما يدخره أبناء الذئبة لنا في المستقبل، لكنني برؤية قرطاجة تحترق أشعر بالراحة وأنا أفكر بالنيران الملتهبة تدمر مساكنكم وجميع القاطنين فيها. ليس لكم أي تعاطف تتوقعونه مني، ومنذ غد ستسير جيوشي إلى أوتيكا لتلتحق بفيالق القناصل وسنحمل الوحشة والموت إلى شوارع مدينتكم».

أقدر جيداً نتائج فعلتي الحقيرة. فقد كنت أمسك بين يدي خلاص قرطاجة، وكان بإمكاني أن أتصور مدى صيحات الفرح عند إعلان معاهدة سلام بين مجلس المئة وأربعة وماسينيسا. بالتأكيد كان يمكن لقوات الملك العجوز أن تساعدنا في دحر أعدائنا وتؤمن لنا الحصول على أكثر من خمسين سنة من الطمأنينة. لأن الأجيال الجديدة من أبناء رومولوس الغاضبين من فشلهم لن يتخلوا يوماً عن رغبتهم في إبادة القوتين الأخيرتين اللتين تتحديان سلطتهم، وكل شيء يحملني على التفكير أنهم سيتوصلون إلى بلوغ أهدافهم. منذ بدايات وقوعي في الأسر، ورغم الصراعات الداخلية الدامية القائمة بين النبلاء والعوام، استطعت ملاحظة أن هؤلاء الرومان الملعونين لم يتوقفوا عن مد سلطانهم على امتداد العالم المعروف، وأن معظم الأمم التي ماتزال مستقلة تسعى إلى طلب حمايتهم والخضوع لقراراتهم. كنت أدرك بأنني أضخّم من أهمية هذه الظاهرة بهدف التخلص من الشعور بالذنب. هذا يسمح لي ألا أبقى على الدوام معذباً بتبكيت الضمير، وبإمكانية أن أجد سبيلاً إلى النوم في بعض الليالي. ولكن يجب الاعتراف لقد ساهمت حماقتي في هزيمتنا.

في هذا الظرف، كما في ظروف أخرى عديدة، عملت على أن تسبق مصلحتي الخاصة مصلحة قرطاجة، متصرفاً تماماً وبذات الطريقة التي يتصرف بها جميع أولئك الأرستقراطيين البونيين الذين كنت ألومهم على عدم تضحيتهم بثرواتهم للمساهمة بالدفاع عن وطنهم. إنهم يتصرفون عن جشع بينما يحركني الهوى وهو على الدوام مرشد سيئ. مهما كلف الأمر، فالحديث يحررني من عبء ثقيل، وأولئك الذين سيقرؤون فيما بعد هذه المذكرات سيعرفون أنني لم أسعَ لإخفاء فداحة خطيئتي. تعرضت منذ أيام شبابي لكثير من الإذلال من مجلس المئة وأربعة ومن مواطني مما يشكل في عيني نوعاً من الانتقام اللطيف. بعد كل حساب، ورغم قيامي بأعبائي الثقيلة، كان من حقي أن أكون سعيداً وقد زودتني عريشات بالطاقة الضرورية لأستطيع، خلال أشهر طويلة، القتال مثل أسد. ماذا كان باستطاعتي أن أفعل في الحالة المعاكسة لأدخل المعركة ولا تعزية أمامي إلا رؤية إميلكة والعجرفة التي تبديها حيالي؟

يجب علي أن أشرح لموتومبعل أسباب فشل مفاوضاتي مع غولوسا. عزمت على أن أقول له كل الحقيقة لأنني أعلم أن منافسيّ سيطلعونه عليها عاجلاً أو آجلاً. كتبت له رسالة طويلة تبرر سلوكي وتلتمس حلمه. فوجئت ذات مساء برؤيته يدخل إلى خيمتي على رأس حراسة قوية. رسمياً كان في جولة تفتيش، وبصفة غير رسمية كان يرغب بمناقشة مستفيضة معي. استقبلته في خيمتي خفية عن الأعين الفضولية وقضينا الليل بكامله نتكلم. اعترف أنني دهشت كثيراً لاعتدال كلماته:

ـ حسدروبال. اعلم أن ردة فعلي الأولى كانت بلعنتك. رزحت أمام مسرات الجسد وحرمتنا بهذه الطريقة من دعم النوميديين. بإمكان أحد غيري أن يعتبرها خيانة كبرى تعاقب عليها بشدة. لا أحب أن أبقى عند انفعالاتي الأولى وفكرت طويلاً بنتائج تصرفك. من جهة لا شيء يسمح لنا بالتفكير أن هذا التحالف سيبقى طوال مدة

الحرب. فماسينيسا لن يلبث أن يموت وحتى لو انضم غولوسا إلى صفوفنا فإن أخوته ميسيبسا وماستانابال الغاضبان من دعمنا لأخيهما الأصغر سيختاران التحالف مع الرومانيين وسيجران في إثرهما قسماً كبيراً من رعاياهما. أياً يكن الأمر وحتى لو انضم إلينا جميع النوميديين فستكون مساعدتهم لنا ضارة أكثر منها نافعة. من جهة أولى فإن إحساس مواطنينا بالنهاية السعيدة للنزاع سيؤدي إلى التراخي في بذل جهودهم، وسيهرب كثيرون من صفوف جيشنا معتقدين بأنه لا يليق بهم أن ينغمسوا في أعمال القتال. وسيستأنفون عادتهم المشؤومة بالعهدة للمرتزقة الأجانب في الدفاع عن مدينتنا. ومن جهة أخرى فإن بذرة الشقاق ستدخل من جديد إلى صفوفنا. إيتربعل وجميع أعضاء الفريق المقرب للنوميديين سيحاولون استغلال روابطهم مع ماسينيسا لإضعاف موقعي داخل مجلس المئة وأربعة. هم منافقون بما فيه الكفاية للعمل على جعل مواطنينا يعتقدون أنهم هم، وليس أنت، وراء هذا التحول العجيب في الأوضاع.

«من الآن فصاعداً الأشياء واضحة جلية. إننا وحدنا ضد الجميع ولا خيار أمامنا إلا بين الانتصار أو الهلاك. لا شيء إطلاقاً أفضل من هذا لتحفيز الهمم وإثارة الطاقات. دون إدراك منك قدمت خدمة جليلة لقرطاجة. جئت لأقول لك هذا لأني علمت بأنك فريسة تأنيب الضمير، ولا أريد أن يكون ذلك مؤذياً للمهام الكبيرة التي تنتظرك. أطلب منك شيئاً واحداً: اعمل على ألا تظهر كثيراً مع خليلتك. لا أكنّ لها أية ضغينة، وأنا متأكد أنها تبذل قصارى جهدها لتغمرك بالحب الذي حرمتك منه زوجتك دون وجه حق. مع ذلك فإن جنودك ليسوا محظوظين مثلك وهم يعيشون بعيداً عن زوجاتهم وآمل أن تعنى جيداً بإبعاد العاهرات، اللواتي يتبعن الجيوش عادة، عن معسكراتهم فالأعداء غالباً ما يختارون من بين صفوفهن جاسوسات. احرص على أن لا تدع رجالك يثرثرون بأن قادتهم

أوفر حظاً منهم، لأن عدم الرضا يؤدي إلى زعزعة النظام. هل أنا واضح بهذا الخصوص؟

- نعم يا أبي، وسأعمل بنصائحك القيمة.

- حسن. قمت الآن بتفتيش قواتك وأهنئك على حسن انضباطها. لقد أجروا عملاً ممتازاً ومخازن أعلاف مدينتنا تطفح بفضلهم بالمؤن. بقي عليك مهمة أخيرة يجب إنجازها. ما أن تغادر هذه النواحي حتى تفتح حدريم وأنشولا وبقية المدن أبوابها للرومان على غرار ما قام به مواطنونا في أوتيكا. يجب عليك تدمير هذه المدن وإلزام سكانها باللجوء إلى قرطاجة مع جميع أرزاقهم. إننا بحاجة ماسة للرجال والنساء والأولاد والشيوخ ليقاتل بعضهم ويعمل الآخرون في المشاغل والمساعدة في تدعيم أسوارنا وحفر الخنادق التي تحول دون تقدم القوات. يجب ألا يُسمح لأحد بالبقاء في هذه الأماكن بعد رحيلك.

«اعمل على تطبيق هذه التعليمات على منطقة رأس بون. على مزارعينا ومستوطنينا أن يحرقوا المزارع ويدمروا أسوار مدنهم لئلا يستخدم الرومان هذه الأسوار كملجأ لهم عندما سنوجه ضدهم هجماتنا القوية. فليقتلعوا أشجار الزيتون ونباتات الكرمة وليحرقوا بذورهم ويسمموا آبارهم، يجب ألا يلقى العدو أمامه إلا الدمار والخراب والعزلة. اعمل بطريقة تدفع جميع المراكب لمغادرة الميناء وتلتحق بقرطاجة لنتمكن من تحويلها إلى مراكب حربية. أما العبيد فأبلغهم سريعاً بتحريرهم عند التزامهم بدخول جيشك. هذا القرار سيؤتي أُكله في قرطاجة، وسنحصل بتلك الطريقة على آلاف من الرجال الاحتياطيين. لديك شهر واحد لتنفيذ هذه الأوامر. عندما ينتهي كل شيء خذ موقعك مع جيشك على طرف بحيرة تونس وأنشئ معسكراً محصناً، لأنني أخشى أن يسعى القناصل إلى احتلال هذه المنطقة الاستراتيجية.

«أطلعني بشكل منتظم على تقدم استعداداتك، واعلم أن بإمكانك

أن تطلب عوننا عند الضرورة. لن أسمح بأي خطأ في تنفيذ مهمتك، وستكون المسؤول الأول والأخير. الآن حان وقت فراقنا. يلزمني الوقت كي أصل إلى مدينة إليسا وعلي كثيرٌ مما يجب فعله. هل أنا واضح؟

- نعم، ويمكنك أن تعتمد على ولائي وإخلاصي. شيء أخير: ألا تطمئنني على أولادي؟

- إنهم معنا في قصر ميغارا وعمرهم اليافع لا يحول دون عملهم في المحترفات التي التحقوا بها. لقد تغيرت مقراتنا كثيراً. اتخذ الحدادون مواقعهم في مواضع الخدمة وهم يعدّون فيها يومياً السيوف والحراب، أما حدائقنا فقد تحولت إلى مزارع بقول مماثلة لمزارع جيراننا. وهذا يتيح لنا عدم استهلاك محتويات مخازن الحبوب في الوقت الراهن. في المناطق المجاورة لنا، عملنا على إنشاء معسكرات لإيواء آلاف اللاجئين الذين سيصلون قريباً ولن يجدوا أمكنة لسكناهم في المدينة. تأكد أنني عندما أشاهد هذا الحماس الحقيقي الذي يبدو على قرطاجة أتفاءل جداً بنتائج الأحداث. للرومان فيالقهم، ولنا نحن كل الشعب الذي يعي أنه يقاتل من أجل حياته. بين الاثنين فإن اللعبة حتماً غير متكافئة.

الفصل الثامن

بعثت فيّ مقابلة موتومبعل مزيداً من الطاقة وبقلب منشرح انطلقت إلى حدريم لألقى مجدداً جنودي وبصورة خاصة عريشات، كان عليّ قبل كل شيء معاينة تحصينات قرطاجة مع حسدروبال الطائش. كان بقامته النحيلة، ومحياه الضامر، وشعره الأشيب، وشرود ذهنه الشهير، قد استحق هذا اللقب الذي يثير الضحك. حضر إلي مع ضباطه عند خروجي من مبنى مجلس الأعيان، وكأنه يريد أن يقول لي أنه يضع نفسه تحت تصرفي تلقائياً. أعترف أنني كنت متأثراً، دون أن أغفل عن نواياه، لقاء تلك الإشارة من المجاملة. كان يريد إزالة سوء التفاهم وأن يظهر طواعيته الطيبة.

سمحت لي نزهتنا حول المدينة المنشأة فوق شبه جزيرة، أن ألاحظ حُسن حمايتها. أحيطت من ناحية اليابسة بثلاثة أنظمة دفاعية: حفرة عميقة محاطة بسياج من القضبان المتشابكة، جدار أول لا يمكن اجتيازه إلا بالاستعانة بالسلالم، وسور عالي وثخين توزعت عليه وعلى مسافات منتظمة أبراج ضخمة يضاف إلى ذلك سور إضافي يفصل ميغارا عن قرطاجة. على الضفة، انتصب جدار ضخم معد من كتل حجرية هائلة وصخور غير منحوتة محكم الإغلاق على طول سياج البوابة القديمة للبحر. خلف المقام تنتصب قلعة بيرسا القديمة، يعلوها برج معبد إشمون الذي يوصل إليه بسلم مكون من مئات الدرجات. المرفآن، التجاري والعسكري، محصنان بشدة. وعند المضيق المطل على البحر يوجد شريط بري ضيق،

شريط تانيا، يفصل بين شبه الجزيرة لبحيرة تونس والخليج. لاحظت ضعف الدفاعات المشادة في ذلك المكان، ووعدني حسدروبال الطائش بأنه سيتم استخدام مئات العمال لرفع السور وتحصين هذه الحلقة الضعيفة في تحصيناتنا.

كنت على حق في رؤيتي. فبعد وصولي إلى حدريم علمت أن فيالق القنصلين أجرت تحركات وتوجهت نحو مدينتنا. سلك مانيوس مانيليوس الطريق البري وأقام مواقعه شمال ميغارا، قرب باب أوتيكا. قدم مارسيوس سنسورينوس مع الأسطول ونزل في طرف تانيا، وأقام معسكراً له في مكان ضيق نسبياً. مع الإشارة إلى وصولهم أنذر حسدروبال الطائش الجند المتربص وطلب منهم أن يكونوا جاهزين داخل ثكناتهم وعدم الظهور في أعلى السور. استنتج أبناء الذئبة أن قرطاجة خالية من الأسلحة ومن معدات الحرب، وهي دون دفاع ويكفيهم أن يطلقوا هجوماً مضاعفاً، من الشمال والشرق، لدخول المدينة. أعطى أصحاب الصور والبواقون الأمر إلى فرقهم بإجراء حركة دورانية. اجتاز المهاجمون بسهولة الحفرة، والسياج والجدار الأول. عندما اقتربوا من السور بغية الانتشار وجدوا فجأة الطريق مملوءة بآلاف المدافعين المجهزين جيداً وهم يطلقون صرخات ثاقبة. قلبت السلالم المنصوبة من أبناء الذئبة بوساطة عصي طويلة ينتهي كل منها بكلاب طويل، وتساقطت كتل حجرية كبيرة على المهاجمين تسحق جثامينهم، مثل حجر رحى يحول الحب طحيناً. غُمرت الأرض بدم الضحايا وقتل العشرات من الهاربين بالسهام المنطلقة من رماتنا. في أقل من ساعة فقد المهاجمون نحو ألف رجل وعدد مماثل من الجرحى في صفوفهم. تراجعوا سريعاً إلى الخلف نحو معسكراتهم رغم الجهود التي بذلها قواد المئة لجمعهم ومحاولة القيام بهجوم جديد. نقل الرسل النبأ الطيب لموتومبعل وإلى مجلس المئة وأربعة. انقضت أيام طويلة قبل أن يجرؤ الرومان وقد لدغوا بالتجربة على مغادرة مواقعهم مجدداً. لقد علموا أن قرطاجة في موقع حصين وليس بإمكانهم الاستيلاء

عليها إلا بعد حصار عدة أشهر. طوال الليل غزا الجمهور شوارع المدينة يغني ويرقص، بينما هرع المتقدمون في العمر لتقديم الأضحيات لتانيت وبعل حمّون وإشمون.

بينما كان مواطني يصدون هذه الهجمة الأولى، بدأت بتطبيق المخطط الذي أملاه والدي. جزئياً فقط. الطريق بين حدريم ومدينتي مقطوع بمعسكر قائم على طرف تانيا. يتعذر علي، في الوقت الحاضر، إجلاء سكان المدن الموضوعة تحت سلطتي القضائية، وأهالي رأس بون، نحو قرطاجة. قررت عندئذ توجيههم نحو أسبيس مع كميات كبيرة من وسائل العيش. بعد ذلك، إذا توصلنا إلى اختراق الحصار البحري نستطيع نقل هؤلاء المساكين التعساء حتى المرفأ التجاري، ليستقروا كما هو متوقع في ميغارا. بعد إحراق المزارع والبذور وتسميم الآبار، قمت بدورة نحو نفريس(*) الواقعة في منتصف الطريق بين بحيرة تونس ونيابوليس(**). من هناك كنت أستطيع قيادة الغزو في الريف ومراقبة تحركات مارسيوس سنسورينوس.

كان خطيباً لامعاً، بالمقارنة مع القنصل الآخر، الذي وجدته جاهلاً لا خبرة لديه بقيادة الجيوش، فقد مارس سلطته خاصة على القضاء المدني وهو يجهل كل شيء عن فن الحرب. إضافة إلى كونه متعجرفاً وذا حساسية مرضية، وهو مغتر بنفسه لا يصغي لنصائح الضباط الأكثر خبرة الموضوعين تحت إمرته، وخاصة بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس الشاب الذي تخلص منه مانيوس مانيليوس وألحقه بأركان حرب زميله.

كنت أوفر حظاً. سمي موتومبعل، هيميلكون فامياس رئيساً للفرسان، هو جندي محترف ولذلك فإن التشابه بيننا كبير. منذ لقائنا الأول أعجبت بهذا الضابط اللامع الذي لا تعرف جرأته

(*) هي هنشير بوبكر الحالية.
(**) هي نابل الحالية.

وجسارته الحدود مطلقاً. منذ سنوات كان يكبح غيظه في قرطاجة واستقبل تصريح الحرب بارتياح. أخيراً غدا بإمكانه القتال! رجاله ومن بينهم عدد غير قليل من المساعدين النوميديين كانوا مخلصين له كلياً. قضينا ساعات طويلة نضع استراتيجيتنا. الوقت مبكر جداً لإطلاق هجوم ميداني ضد القوات الرومانية، واتفقنا على أن من الأفضل لنا إضعاف معنويات هؤلاء والاستمرار في مناخ القلق المستمر. سنحت لنا الفرصة مع مارسيوس سنسورينوس الذي أراد تقوية دفاعات معسكره وإنشاء آلات حرب جديدة. كان يحتاج إلى الخشب فأرسل مفرزة من ألفي جندي لقطع أشجار الغابة الواقعة في السفح المطل على بحيرة تونس. روقبوا عن بُعد من جواسيسي. أنجز أبناء الذئبة مهمتهم خلال يومين وقطعوا قسماً من أشجار الهضبة. اقتنعوا أنهم في أمان تام، وتخلوا سريعاً عن حذرهم وأهملوا إرسال دوريات تكشف المناطق المجاورة. انتهزت الفرصة لأوجه الأمر لهيميلكون فامياس كي يخفي فرسانه في عدة مزارع مهجورة على ضفة البحيرة، ليقطع بذلك تراجع الرومان. عندما توجه هؤلاء نحو رصيف الشحن حيث تنتظرهم سفن النقل، كانوا على درجة من التعب بسبب أعمالهم الشاقة خلال الأيام السابقة حتى أنهم لم يستطيعوا دفع غضبة خيالتنا الساخطة. تخلوا عن عرباتهم الثقيلة المحملة بجذوع الأشجار وهرع المشاة إلى الماء ليمتطوا متن المراكب. مزق فرسان مساعدي فرسان العدو شر تمزيق، وقتل نحو خمسمئة منهم خلال تلك المعركة.

لم تؤخذ العبرة من هذه الهزيمة الكاوية، فعمد مارسيوس سنسورينوس إلى إقناع مانيوس مانيليوس بشن هجوم جديد على سور قرطاجة. تقدم جنودهم خلال الليل دون أن يُكشفوا من الحرس في الطريق الدائري والأبراج. في الصباح الباكر نصبوا سلالمهم وباشروا بتسلق السور. لحسن الحظ أمكن توجيه الإنذار للحامية في الوقت المناسب، فهرع المدافعون إلى الأسوار بأسرع ما يمكن وعندما وصلوا كان أوائل المهاجمين يحاولون تثبيت أقدامهم.

تصدوا لقتالهم كالأسود، أزاحهم رجالنا بعد تكبيدهم خسائر ثقيلة. أبلغني الجواسيس أن هذا الفشل الجديد أدى إلى مناقشة حامية الوطيس بين القنصلين. قدر مانيوس مانيليوس أن المدينة عصية على السقوط من جهة معسكره، وقرر انتظار النجدات الوافدة من روما قبل أن ينطلق في عمليات جديدة.

هذا الأمر لم يزعج مارسيوس سنسورينوس كثيراً، باعتبار أن موقف زميله يطلق يديه في العمل، إضافة إلى حماس بعض رجال حاشيته المهتمين بكسب رضاه، الذين أقنعوه بأن جمود زميله يتيح له قطف أكاليل الغار بمفرده. لاحظوا ضعف تحصيناتنا في اتجاه تانيا. وبعكس ما تم الاتفاق عليه نسي حسدروبال الطائش رفعها وتقويتها. تحرك أبناء الذئبة على مرحلتين، قبل كل شيء ردموا قسماً من البحيرة بهدف توسيع محيط معاقلهم. ثم أنشؤوا خلال الليل منجنيقين هائلين تم إخفاؤهما عن عيون حراسنا خلال النهار، وهما مؤلفان من عدة جذوع أشجار متصلة فيما بينها وينتهي كل منها برأس حديدي كبير منحوت. رُفعت هاتان الآلتان الضخمتان بسواعد مئات الرجال الملتجئين إلى أفاريز الخشب وفتحوا ثغرة واسعة في السور. في كل ليلة كان آلاف الرجال والنساء يعملون على إصلاح الأضرار الناجمة عن تلك الآلات، لكنها بانتقالها بين مكان وآخر كانت تُحدث الأضرار، مستمرة في مهمتها التخريبية المشؤومة. حضر موتومبعل إلى تلك الأماكن ليقدر مدى خطورة الوضع، وأدرك سريعاً ضرورة تعطيل هذين المنجنيقين، فجمع الرجال الجاهزين للقيام بالمهمة وأمر بشن هجوم ليلي. خرج آلاف المرتزقة الأجانب والمشاة القرطاجيين من الحرم وأحرقوهما. ما كادوا ينهون هذه العملية بنجاح حتى سمعوا ضجة حقيقية خلفهم.

لتأمين نجاح تلك العملية وجب على مواطني أن يتركوا حراسة ضعيفة لبعض أقسام السور وخاصة بعض ثغرات قليلة التدعيم. عن طريق هذه الثغرات حاولت الوحدات الاحتياطية لدى مارسيوس

سنسورينوس التغلغل في المدينة، واصطدمت بمقاومة شرسة من المدافعين. بوستار وهو ضابط مغمور مع مئة من المرتزقة الغاليين ونحو خمسين نبالاً نوميدياً، صمدوا أمام عدو أكبر عدداً منهم عشر مرات. أمر رجاله بالاختباء خلف كتل الأحجار المنهارة أو الأبنية المدمرة. بعد تسلق الرومان الأنقاض وقبل متابعة سيرهم كانوا يعمدون إلى فترة راحة فيصبحون في مرمى سهام قواتنا، ويعمد مشاتنا إلى ذبح الأحياء منهم. كرر بوستار تلك العملية عدة مرات مفسحاً المجال لقواتنا المتمركزة في ميغارا بإجراء حركة سريعة نحو تانيا. عندما وصلوا إليها أخيراً أطبقوا مثل كماشة على الدفعة الأولى من أبناء الذئبة. انتاب هؤلاء الذعر فتخلوا عن مجنّاتهم وتجهيزاتهم ليقاتلوا متراجعين وليذبحوا مئات من قادتهم المئويين ممن يحاولون تثبيت النظام. آخرون ألقوا بأسلحتهم على الأرض واستسلموا ليقتادوهم إلى قرطاجة تحت حراسة بسيطة. لم يكن من الضروري ربط أيديهم. قنطوا من عدم خبرة قائدهم ولم يفكروا إلا بشيء واحد: إنقاذ حياتهم. عند استجوابهم شرحوا بأن قادتهم أكدوا لهم أن مدينتنا محرومة من الأسلحة وآلات الحرب، ويمكن أن تؤخذ خلال أيام. إنما استطاعوا أن يلاحظوا استعدادنا لتحمل حصار طويل ومجهز كفاية للخروج منتصرين. كان ذلك كافياً لإقناع الأقل جرأة من بينهم بعدم المخاطرة، دون جدوى، بحياتهم. جرح مارسيوس سنسورينوس جرحاً بليغاً في يده اليمنى، فأعطى الأمر بالتراجع وكاد أن يهلك مع رجاله لو لم يهرع بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس لنجدته مع مفرزة من الخيالة ليشق له طريقاً على طول تانيا يسمح له بالوصول إلى خيمته. مع الفجر أحصي في ميدان المعركة أكثر من ألف جثة رومانية. ولم تفقد قواتنا سوى مئتي رجل وتعالت هتافات الجماهير عند وصولهم إلى ثكناتهم. من جديد عرفت قرطاجة يوماً من البهجة ولم تتأخر فرحة هذا النجاح في الانتشار، الأمر الذي أدى إلى تدفق مئات المرتزقة الأجانب إلى المرفأ طالبين الانضمام إلى صفوف المنتصرين.

بدأ الفصل الحار، وقريباً تنتشر الروائح الكريهة من مياه بحيرة تونس العفنة الآسنة حاملة أوخاماً مميتة. قلق القنصل، وأراد تجنب الوباء فأمر سفنه بالتوجه إلى عرض البحر، لكن قلة منهم من وصل إليه. من أعلى السور أطلق المدافعون عن المدينة حراقات على المراكب وأحرقوا عشرات منها. أرغم مارسيوس سنسورينوس على تجميد حركة قواته ورحل إلى روما، حيث اقتضت الضرورة وجوده حرصاً على تنظيم انتخاب جمعيات الشعب المنتخبة للقناصل في السنة التالية.

لم يسبب لنا زميله أي إزعاج مطلقاً. كان متمركزاً على بعد عدة مراحل من باب أوتيكا، واقتصر نشاطه على إرسال دوريات إلى المنطقة المجاورة لاعتراض قوافل المؤونة الخاصة بالمحاصرين. أنشئ معسكره على عجل، ولم يكن حصيناً، وقد قرر حسدروبال الطائش أن يلقنه درساً جيداً. علم من جواسيسه، أن مانيوس مانيليوس قرر إقامة احتفالات تكريماً لمارس(*)، إله الحرب لدى مواطنيه إلتماساً لحمايته. تبع الاحتفال الديني مأدبة قُدمت للجيش وتدفق فيها الخمر بغزارة. بسرية تامة أمر رئيس حاميتنا خيالته ومشاته أن يجتمعوا في ضاحية ميغارا مع هبوط الليل. عندما دل الضجيج الصادر عن المعسكر المعادي أن القوم قد سكروا أجرى طلعة، تغلغل فيها إلى داخل المعسكر الروماني مقتلعاً جزءاً من السور ذابحاً مئات الجنود، وحارقاً مخزونات المؤن وبعض آلات الحرب. للأسف أنذر بوبليوس كورنيليوس سيبيون بالنيران المتعالية حتى السماء المزدانة بالنجوم، فالتف إلى شمال أسوارنا وقلعة بيرسا، وهرع إلى نجدة أتباعه ودحر أتباعنا. ولكن، بعد نقاش مقتضب مع مانيوس مانيليوس، أمره باستبدال السياج الخشبي بسور من الحجارة المقتلعة من المزارع ومن

(*) Mars مارس «المريخ»: إله الحرب والزراعة عند الرومان. كما يعتبره الرومان ابن جونون وأب رومولوس.

المنازل المهجورة من سكانها، كما أمر بإنشاء حصن قرب البحر لتوضع فيه المؤن الواصلة إلى أوتيكا عن طريق البحر.

تركه حسدروبال الطائش يفعل ما يحلو له، معتقداً أن الرومان قد حُبسوا في نوع من السجن. بالنسبة لي انصرفت إلى بذل كل جهودي للحيلولة دون تمكن أبناء الذئبة من الحصول على العلف اللازم من المحاصيل التي أصبحت جاهزة للحصاد. في كل يوم كانت عدة مفارز عدوة تغامر في مكان غير بعيد عن مواقعها. مستعيدين حركات طفولتهم ويفاعهم، كان الجنود الرومان يحصدون القمح والعلف ويحملون على عربات ثقيلة الحب وكلأ المواشي. لاحظ فامياس أنهم يعملون غالباً دون حماية، وهكذا أطلق عليهم بدءاً من نفريس هجمات جريئة كبدتهم خسائر قاسية. اختبأ رجاله في الوديان والغابات وانقضوا بشكل فجائي على مخازن العلف. لم يتأخر بوبليوس كورنيليوس سيبيون بردة الفعل مغيراً نهج عمله. اكتفى بتحري المساحات الصغيرة من الأراضي المزروعة حيث يقوم فرسانه بحماية المنشغلين بأعمال الحقول، فما أن يُشاهدوا على البعد مفارز فامياس حتى يتراجعوا في نظام تام.

حققت نجاحات معاوني فامياس شعبية كبيرة أثارت شبهاتي، خاصة وأن خليلتي عريشات أبدت اهتماماً بجاذبيته. نشب بيننا جدل حاد وأفهمتها أنني لست الرجل الذي يرضى بأن يُخدع. بدا عليها الارتباك واعتذرت لكن الشر وقع. كان فامياس مغرماً بها، فاجأته أكثر من مرة يحوم حول خيمتي ويجد عذراً واهياً ليبرر وجوده. لا يمكنني الدخول في نزاع معه ووجب أن أظهر كنوزاً من النفاق لأتظاهر بتصديق تعليلاته المرتبكة. لكن بذرة الخلاف بدأت بالظهور بيننا وساهمت لاحقاً في خيانته.

مثل تلك الخلافات كانت موجودة أيضاً لدى أبناء الذئبة. فالعلاقات بين مانيوس مانيليوس وبوبليوس كورنيليوس

أميليانوس ليست على ما يرام أيضاً. بعد أن تخلص الأول من مارسيوس سنسورينوس، كان يأمل بإنهاء قنصليته بمفخرة عظيمة. أحس بعدم استطاعته إخضاع قرطاجة فوضعني في حالة عدم إمكانية إلحاق الأذى به بتدمير معسكري في نفريس. قبل بدء تساقط الأمطار الأولى سار على رأس عدة آلاف من المقاتلين باتجاه الجنوب. تقدم فيلقه بصعوبة لنقص الأدلاء المجربين. وصل مع ذلك إلى المناطق المشرفة على مواقعنا، لكن لبلوغها يجب اجتياز نهر علت مياهه. نصحه حفيد سيبيون الأفريقي بالتبني أن يؤجل تلك العملية، أو ينتظر ليرى قواتي تعبر من المخاضات الأخرى التي أعرفها دون غيري. لم يعجب هذا الرأي الضباط الآخرين لدرجة أن واحداً منهم انتابه غضب شديد: «إذا أردنا إطاعة سيبيون دون القنصل فإنني أفضل إلقاء سيفي». بعد مداولات شديدة مع مرؤوسيه وافق مانيليوس على رأيهم، وعمل على إنشاء أطواف مرتجلة لنقل رجاله إلى الضفة الأخرى لمجرى الماء.

في نفريس أمكنني أن ألاحظ حركاته ورتبت جيشي استعداداً للقتال في السهل. كان رجالي مرتاحين ومستعدين بعكس الرومان الذين أنهكهم السير المتواصل. تحولت المعركة سريعاً لصالحنا. تضايق الرومان من مشاتي ومن فرسان فامياس فأخلوا الموقع سريعاً. انفصلت عدة مفارز عن كتلة الجيش ووجدت ملجأ لها على هضبة مشجرة بينما الآخرون يتراجعون باتجاه النهر، وهم يأملون باجتيازه على متن الأطواف. لكن عددها لم يكن كافياً لاستيعاب جميع الجنود فألقى الهاربون العديدون بأنفسهم في النهر متخلين عن مجنّاتهم وأسلحتهم وخوذاتهم مما لم يحل دون غرقهم. بينما صارع الآخرون الموج بعد أن ابتعدوا عن الضفة بانتظار وصول مساعدات متعرضين لخسائر كبيرة.

مرة أخرى أنقذ بوبليوس كورنيليوس سيبيون أتباعه من كارثة. فقد عملت في الواقع على تركيز هجماتي على المفارز

المعزولة على الهضبة لأجعلها لقمة سائغة. غير أن المحامي الشاب لم يبال بأي حرص أو حذر وقرر تحريرهم بعد أن شرح موقفه لمانيوس مانيليوس: «جنودنا يتعرضون لخطر كبير ويجدر بنا ألا ندعهم يموتون البتة. علينا الآن أن نبرهن عن الجرأة. إذا عهدت لي بقسم من الخيالة سأحاول تحريرهم أو أموت معهم».

أَذِن له القنصل بالعمل، هو مقتنع بأن منافسه قد لا يخرج حياً. متحرراً فيما بعد عند إلقاء خطابه التأبيني من اتهامه بالتهور والتسبب في هذه الكارثة لذلك تركه يتصرف على هواه.

لكن الوضع اختلف تماماً. فبعد ساعات طويلة من القتال أظهر رجالي دلائل التعب بينما فرسان المحامي الشاب وجنده المحيطون بهم استطاعوا استرداد قواهم. لم يكن في نيتي أن أضحي بمشاتي، واستطاع بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس أن يسير بكتائبه المحاصرة إلى الضفة الأخرى من النهر، حيث أعد لهم أبناء الذئبة استقبالاً حافلاً. لذلك بُدئ منذ تلك الفترة الهمس بأنه ورث عن جده بالتبني، إضافة إلى شجاعته وبعد نظره، حماية جوبيتر كابيتولن شخصياً له. بعد نجاتهم من هذا المأزق العسير، أخذ أبناء الذئبة طريقهم إلى قرطاجة رغم الهجوم المستمر من مفارز الانقضاض التابعة لفامياس الذين قتلوا دون شفقة المتأخرين عن رفاقهم. أوفدت رسلاً لإنذار حسدروبال الطائش بتراجع العدو، وخرج على رأس خيالته ليكبد قوات القنصل خسائر جديدة.

* * *

في روما أحدثت تلك السلسلة من الهزائم جدلاً عنيفاً في مجلس الأعيان. غضب بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم فوبخ بخطابات طويلة القيادة غير الحكيمة وغير المسؤولة للقناصل. لم يقصر في الإشارة إلى أن تدخل ابن أخيه قد أنقذ أبناء الذئبة من الرحيل عن الشواطئ الأفريقية. قرر زملاؤه إرسال لجنة لتقصي الحقائق أكدت بدورها من جميع الجوانب هذا التحليل. خلال عدة

أشهر أضاع الرومان جميع الأوراق الرابحة التي كانوا يملكونها عند وصولهم، وخاصة بعد أن أجبرونا غدراً على تسليمهم أسلحتنا وآلاتنا الحربية. لم يكونوا متأكدين من نجاح العمليات لذلك اقترح بعض الشيوخ الرومانيين إيفاد بعثة عاجلة إلى قرطاجة مكلفة بمعرفة الشروط التي نضعها لإيقاف القتال. رُفض هذا الاقتراح بأكثرية ضئيلة جداً. توصل مارسيوس سنسورينوس في الواقع إلى إقناع زملائه بأن هذا القرار سابق لأوانه. لدى روما، في المكان عينه الحلفاء النوميديين الذين التزموا حتى ذلك الحين الترقب الحذر. من المناسب تذكيرهم بواجباتهم والطلب منهم المساعدات بالرجال.

غادر وفد أوستي إلى سيرتا. عندما وصل كان ماسينيسا قد أسلم الروح ودفن في المقبرة الملكية المتواضعة الواقعة خارج المدينة. دهش أعضاء مجلس الأعيان وهم يلاحظون أن خلافته قد سويت سابقاً من قِبل الشاب بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس، المكلف من العاهل السابق ليكون منفذ الوصية. برهن عن مواهب دبلوماسيَة حقيقية لتفادي أي نزاع بين أبناء المرحوم الثلاثة، فقد حظي كل منهم بلقب ملك إنما بوظائف مختلفة. تولى غولوسا قيادة الجيش، وميسيبسا الدوائر العدلية، وماستانابال، وهو الأكثر جشعاً، إدارة البلاد، أي وضع الضرائب والرسوم. كان وضع الجيش تحت إمرة القائد الشاب غولوسا قراراً حكيماً. قرر أخوته الالتزام بالحياد الحذر الذي التزموا به منذ بداية النزاع، نظراً لأن لأخيهم الأصغر الشاب حسابات يجب تسويتها مع قرطاجة أو بالأصح معي بالذات، خاصة وقد سلبته خليلته.

كانت هذه الخليلة سبب كارثة جديدة سبق أن تطرقت إليها، فقد وقع فامياس بغرامها وحري بي أن ألطف من عنفوانه وعواطفه الجياشة. غير أن عريشات كانت مستهترة أكثر مما يمكن تصوره. هي تحبني، دون شك، لكنها تحب أن ترى الرجال يتزاحمون حولها

ويتوددون إليها ويغازلونها ملاطفين، تقدم لهم اقتراحات متهورة وتتأخر في رفض عروضهم. بالنسبة إليها هي لعبة تعزيها دون شك وتعوض عن الوحدة المرة لأيام شبابها وليس لي أن ألومها. المهم أنها تعقّد بشكل غريب مهمتي بتصرفاتها، وقد سنحت لي الفرصة للاطلاع على سلوكها عندما استمرت رغم توصياتي في متابعة علاقتها مع معاوني. أعتقد فامياس بدنو أجله، عندما علمت من خدمي بزياراته المتكررة إلى مقري خلال غيابي، وجرى لي معه هذا الحوار العاصف:

- فامياس، أنت من أفضل ضباطي وقد أعجبت ببسالتك وشجاعتك. كبدت في مناسبات عديدة الرومان هزائم قاسية واسمك وحده يحدث الذعر في صفوفهم. طلبت من مجلس المئة وأربعة منحك مكافأة سخية. اعلم أنني سأسعى جهدي لتحظى بلقب القائد الرئيس لخيالتنا لأنك تستحقه بجدارة. مع ذلك، هذا يفرض أن نعمل بتوافق دون أي تكدير لتعاوننا. لذلك يجب أن اعترف لك أنني لا أستحسن سلوكك مع تلك التي تقاسمني مضجعي عريشات.

- إنني أحبها، وأعتقد أنها تحبني. عليك أن ترضخ لحكم الواقع وإن جرح كبرياؤك.

- ألم تلاحظ كيف تنظر بعين الصبابة إلى الضباط الآخرين. يالها من امرأة جمعت كل عيوب بنات جنسها. مع ذلك لا تتوهم أبداً، أقدارنا مترابطة على الدوام وستجازف بخيبة أملك بقسوة عندما ستتخلى عنك. أريد أن أجنبك ذل الخزي وأريدك أن تبتعد عنها.

- أهو حسدروبال الإنسان الذي يحدثني أو أنه رئيسي الأعلى؟

- إنهما الاثنان وأريدك أن تطيعني. وإن لزم الأمر، وهذا ما لا أتمناه، فلن أتردد في اتخاذ إجراءات حاسمة وإبعادك عن نفريس والقيام بتعينك في حامية قرطاجة.

- افترض أن لا خيار لي إلا امتثالي.

- فعلاً.

غادر فامياس خيمتي وهو فريسة غضب شديد، وأظهرت له عريشات، بعد توجيه اللوم لها أيضاً، البرود بدءاً من ذلك اليوم، وأصبح محطم القلب. انقضت أسابيع وفى فيها بالتزاماته وكأن شيئاً لم يحدث وخيل لي بسذاجة أن القضية منتهية. بذريعة أن يضع مسافة لبُعد ضروري له عن خليلتي طلب مني السماح له بسفر طويل. هو يرغب، وفق قوله، أن يهاجم الزمر الرومانية المعزولة في الريف ولم أمانع في مشروعه. في الواقع استغل فترة غيابه للاتصال سراً ببوبليوس كورنيليوس أميليانوس. المصادفة هيأت لقاءهما. في أحد الأيام، وبينما كان يسير بمحاذاة النهر، لاحظ فامياس أن المحامي الشاب يقوم بدورية على الضفة الأخرى. تبادل الفريقان النظرات دون أن يقررا القتال. أخيراً تقدم الروماني إلى الأمام بصحبة فارس واحد وأشار إلى منافسه بأنه يريد التداول معه بالكلام. التقى الرجلان وسط المخاضة وسبق حفيد سيبيون الأفريقي تمنيات مخاطبه وبدأ معه الكلام:

- فامياس، أنت مقاتل باسل، وأنا معجب ببسالتك رغم أنها كلفت قواتي غالياً. بسم لك الحظ الآن، وأعترف لك أن قناصلنا ليسوا على مستوى المهمة التي عهد إليهم بها. أعتقد كثير من زملائك، عن خطأ، أنهم كسبوا الحرب. الأمور ليست بالبساطة التي يرونها. لا يمكنكم الاعتماد إلا على قواتكم الخاصة، وربما على وصول بضعة مئات من المرتزقة الأجانب الإضافيين. هذا قليل جداً مقابل المساعدات التي ستجتاز قريباً البحر الكبير. إننا نمتلك الجيوش الجرارة وسنعمل على إرسال عشرات الألوف من الرجال إلى أفريقيا، إننا صبورون، صبورون جداً. سيأتي يوم تشعر فيه قرطاجة بنقص المؤن. سنشن هجوماً عندئذ وسنستولي على مدينتكم. اعلم أن سكانها لن يتوقعوا منا أية شفقة، وسيذبحون أو يستعبدون لأنهم رفضوا العرض السخي الذي قدمناه: إعادة بناء مدينتكم على بعد خمس وثمانين ستاداً من البحر. يشق علي أن أعلمك أنك مع أتباعك ستنهون أيامكم عبيداً في خدمة عائلة

رومانية. إنما يمكنني منحك كلمة شرف، روما ستعامل بشهامة هؤلاء وأولئك الذين يتحلون بالحكمة ويسعون للتحالف معها، وسيستفيدون من الضمانات التي وافقنا على منحها لمواطنيكم في أوتيكا وحدريم. لك يعود الأمر لتصبح القاضي الرئيسي في قرطاجة المستقبل.

ـ عروضك تدهشني. اعترفت بنفسك أنني سبب موت مئات من جنودك. فلماذا تعفيني؟ لو أنني في مكانك، لعرفت جيداً ما سأفعله.

ـ ليس لنا شيء ضدك أو ضد مواطنيك. عائلتي، كما تعلم، كانت على الدوام صديقة لمدينتكم ولم تشارك يوماً ذلك العجوز المجنون ماركوس بورسيوس كاتون، الحقد الضاري الذي يكنه لكم. لأسباب أمنية، لا نستطيع مطلقاً أن تبقى قرطاجة قوة بحرية تهدد مصالحنا على طول البحر الكبير. لكننا لا ننوي طردكم من أفريقيا، ومنعكم من التحدث بلغتكم أو عبادة آلهتكم. نفكر بمعاملتكم مثل معاملتنا للمدن الإغريقية الواقعة تحت سيطرتنا ولا تشكو سوء حظها. أنت تعلم أن عديدين منهم يرسلون لنا أفضل ممثليهم، واعتمد من بين المؤتمنين على أسراري على بوليب الذي أشك أحياناً أنه غدا أكثر رومانية مني. إن رضيت الانتقال إلى جانبنا، فإنني متأكد أن حركتك ستدفع الكثير من مواطنيك إلى التبصر، وأن أحفادهم سيباركونك لأنك أتحت لعائلاتهم الاحتفاظ بحريتهم.

ـ اقتراحك جذاب لكنه لا يعنيني كثيراً. توفي أهلي منذ مدة طويلة، لا عائلة لي.

ـ لست متزوجاً؟

ـ كلا والمرأة التي أحب هي خليلة حسدروبال البوتياركي وأشك في رضاها هجره لتقاسمني حياتي.

ـ أعرفها، اسمها عريشات وقد نشأت في عائلتنا قبل أن تتدله

وتغرم بغولوسا بن ماسينيسا ثم تهجره بعدها لتلتحق بقائدك. كانت بالنسبة لي مثل أخت في زمن شبابنا. حافظت لها على مودتي وأنا أعلم أنها لا تستحق التضحية. تيقن أن مصلحتك تتلخص بأن تتخلى عن تلك المرأة التي ستنشر حولها دون إرادتها التعاسة والعزلة. في الواقع إنني أهنئ نفسي لأنك وحيد. لا أحد سيتمكن من اتهامك بأنك اخترت هذا القرار لإنقاذ خاصتك، ما تختاره وتعمل به سيكون بدافع حبك لشعبك ولمدينتك.

ـ سأفكر بعرضك وسأعلمك بجوابي عن طريق رسول.

علي القول، أنا حسدروبال البوتياركي، رغم العديد من الجواسيس والمخبرين، لم أشتبه بفامياس واستعداده، محاطاً بالسر الكبير، لخيانتي. كان أول من يتطوع بإرادته ليهاجم القوافل الرومانية واشتهر عنه بأنه لم يؤسَر يوماً. لهذا عندما قرر مانيوس مانيليوس أن يطلق حملة جديدة ضد قواتنا عهدت إليه بقيادة القوات المكلفة بدحره. تعهد القيام بتلك المهمة متحمساً. تلقى القنصل على رأس آلاف الرجال هجمات خيالتنا المستمرة وهو يتقدم بمشقة في اتجاه نفريس ووجب أن يخضع للأمر الواقع: لن يتمكن مطلقاً من الاستيلاء على ذلك الموقع. استعد ليعود أدراجه عندما تقدم إلى مفارزه الأمامية ذات مساء فارس نوميدي يحمل رسالة كُلف بتسليمها شخصياً إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس وهو يشكل جزءاً من تلك الحملة العسكرية.

رغم أن الرسالة دون توقيع، أدرك المحامي الشاب دون عناء أنها من يد فامياس. كتب الأخير بيدٍ غير حاذقة هذه الأسطر: «فكرت جيداً بعرضك وأنا مستعد لقبوله، لهذا علينا الاتفاق على بعض الشروط. خلال يومين سأخيم مع حراسة بسيطة في مكان غير بعيد عن مكان لقائنا. خذ موقعك في الناحية الأخرى من النهر. مع هبوط الليل سأحرك المشعل ثلاث مرات وسأنتظرك تحت خيمتي، ولك كلمة الشرف أن بإمكانك الرحيل متى شئت أياً كانت نتيجة مناقشاتنا».

أخطر مانيوس مانيليوس بتلك المبادرة فأظهر ارتيابه، ووجب أن يكشف بوبليوس كورنيليوس سيبيون عن كنوز فصاحته لإقناعه بالنية الحسنة لمخاطبه. في التاريخ المحدد التقى الرجلان. كانت المداولة قصيرة جداً، أطلع فيها فامياس الروماني على قراره:

- إنني مستعد للانتقال إلى معسكرك. أضع مصيري بين يديك وأرجو أن تحترم وعودك. أنا متأكد أن مئات من رجالي مستعدون لاتباعي وأنا أطلب من أجلهم ومن أجل عائلاتهم الضمانات التي تعهدتم بها. ذووهم ونساؤهم وأولادهم يعيشون في قرطاجة، وهم سيصبحوا دون شك سجناء برسم الانتقام منهم. عندما ستستولون على المدينة حاول أن لا يمسهم أذى. جنودي سيكونون إلى جانبكم ليشيروا إليهم. إن أخلفتم الوعد فإن آلهتكم لن تترك مثل تلك الجريمة دون عقاب.

- اخترت طريق الحكمة وسيتم كل أمر وفق رغباتك.

- خلال ثلاثة أيام ستلتقي قواتنا في السهل. حسدروبال ومشاته في نفريس ولن يشاركوا في النزاع الجاري. في صباح ذلك اللقاء سأخطب في قواتي وسأحرضهم على أن يتبعوني. عندما ستمثل مفارزي أمام خطوطكم يمكنني أن أؤكد لكم أنهم سيأتون مسالمين. اعمد إلى أمر جنودك بعدم مهاجمتهم وتركهم يعبرون خطوطكم دون سعي منكم لتجريدهم من أسلحتهم. سينضم بعضهم إلى قواتكم. أما الباقون فأريد منكم أن تدعوهم يرحلون إلى أوتيكا مع السماح لهم بالمحافظة على أسلحتهم. يجب أن يعاملوا كحلفاء لا كمساجين. اعتمد عليك في استمرار تلقيهم لأعطياتهم حتى نهاية الحرب، كما يتم توزيع الأراضي عليهم خلال انتظارهم لاتفاقية السلام. هل نحن على اتفاق تام؟

- نعم، من الآن فصاعداً تعتبرك روما حليفاً لها وستقوم بمكافأتك على إخلاصك.

التزم فامياس بكلامه، فعندما تواجه الجيشان لم تتحرك قواتنا بوصة واحدة. من بعيد أبصرت القائد القرطاجي يعيد جمع ضباطه حوله ثم توجه إلى خيالته. روي لي، فيما بعد، الخطاب الموجه إليهم:

ـ أيها القرطاجيون أريد أن أحدثكم عن أشياء خطيرة. مرت أهِلَّة عديدة ونحن نحارب دون تهاون أبناء الذئبة لننقذ مدينتنا من الدمار. لم توفروا جهودكم وأنا فخور بقيادتكم. إنكم الأفضل من جميع الجنود الذين أعرفهم، وأقدر شجاعتكم مثلما تقدرون حزمي وعزيمتي. إذا أردنا يمكننا الاستمرار في تكبيد العدو خسائر رهيبة، حالياً أنا مقتنع بقدرتنا على نصر سهل قريب.

«هذه الانتصارات لها قيمة إذا كنا واثقين من الانتصار على المدى الطويل. ولكن لدي القناعة الأكيدة بأن آلهتنا سوف لن تسمح لنا بالخروج منتصرين من تلك الحرب. رغم التضحيات المقدمة لهم والصلوات الموجهة إليهم استمروا صامتين أمام تضرعاتنا، وكل شيء يشير إلى تخليهم عنا لنعاقب على خطايانا وخطايا آبائنا. الصراع الجاري ضد أبناء الذئبة هو في بداياته. وقريباً سينزل آلاف وآلاف من الرومانيين على الشواطئ الأفريقية لمساعدة الفرق التي استقرت فيها منذ مدة، وستتبعهم قوات غولوسا وسنجد أنفسنا نقاتل عدواً يصل إلى ثلاثة أضعافنا. بالتأكيد ستقولون لي إننا نملك ما يكفي من الرجال والأسلحة لنؤخر النتيجة المشؤومة لكننا لن نستطيع منعها.

«عندما يستولون على المدن البونية القليلة التي بقيت على ولائها لنا سنضطر إلى التخلي عن نفريس لنلجأ إلى قرطاجة. سنلتزم بحصار طويل. سيحاصر أسطولهم مرفأنا وسرعان ما تنفد المؤن لدينا. لن نستطيع الاعتماد على وصول مساعدات خارجية وسيحكم على عائلاتنا التعيسة بالموت جوعاً. عندما يبدؤون

بالهجوم على مدينتنا لن نحظى بأية شفقة منهم. سيذبحون الحامية وسيحولون الأحياء إلى عبيد. نساؤكم وأولادكم سيقادون إلى الأسر وسيعملون وفق أوامر الأرستقراطية الرومانية في صقلية وكامبانيا. سينهون أيامهم بعيدين عن تربتهم الوطنية، وسينسى أحفادهم لغة آبائنا لينصهروا في كتلة الشعوب المهزومة أمام أبناء الذئبة.

«فكرت ملياً وأعتقد أن الحرب ليست، ولن تكون الوسيلة الوحيدة، لإنقاذ وطننا وتقاليدنا. إذا اقترح الرومان منعنا من تكلم لغتنا وعبادة آلهتنا وإدارة قوانيننا، سأكون أول من يضحي بحياته لأن هذه الحياة لن يكون لها معنى عندئذ. غير أنهم لا يسعون إلى هذا الهدف. أخضعوا الإغريق وشعوباً أخرى واستمر هؤلاء في الحياة على بهائهم السابق. بالتأكيد استمروا في تسديد الضرائب ووفوا ما عليهم منها، غير أنها على ارتفاعها لا تصل إلى ما يلزمنا مجلس المئة وأربعة بتسديده.

«أعترف لكم، التقيت في مناسبات عديدة بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس، وأكد لي بأننا سنعامل مثل مواطنينا في أوتيكا وحدريم إن ألقينا السلاح. إنني أثق به. هو ينتمي إلى عائلة وإن قاتلتنا على الدوام فقد برهنت عن اعتدال نحو مدينتنا، عارضت عائلته نوايا ماركوس بورسيوس كاتون في الإضرار بنا بعد هزيمتنا في زاما، ولم تعرض علينا استسلاماً مخلاً بالشرف. مخاطبي رجل شريف وأنا أعرف التزامه بتعهداته. بتفاوضي معه، لم أفكر لحظة واحدة بشخصي فقط، فأنا لست مبالياً بحياتي كما تعلمون، ولا عائلة لي. إلا أنني أشعر بمسؤوليتي عن مصيركم لذلك تدخلت لمصلحتكم وتشفعت لكم عنده. ولأجلكم حصلت على الضمانات التالية. إن ارتضيتم اتباعي وتخليتم عن حسدروبال البوتياركي ومغامراته الهوجاء سيُسمح لكم بالاحتفاظ بأسلحتكم

والاستقرار في أي مكان تشاؤون. من كان يرغب منكم بالانخراط في صفوف الجيش الروماني يستطيع أن يفعل مع احتفاظه برتبته. أما الآخرون فيمكنهم الالتحاق بأوتيكا وسيستمرون في تلقي رواتبهم، وستعطى لهم الأراضي ليتمكنوا من استصلاحها وجعلها ذات قيمة. ستكون معفاة من الضرائب خلال خمسين سنة، ولن تخضعوا للقرعة العسكرية أنتم وأخلافكم. عائلاتكم المقيمة في قرطاجة ستبقى تحت حماية مجلس الأعيان الروماني، والرهائن الثلاثمئة المعتقلون في ليلبيه سيكونون ضمانة لهم. ليس أمامكم إذن ما تخشونه من أجلهم.

«لكم أن تختاروا الآن بين الحياة والموت، بين السعادة والألم، بين الحرب والسلام. فكروا جيداً. هل تظنون أن حسدروبال وأتباعه سيكافئونكم على تضحيتكم في حالة اضطرارهم للاستسلام؟ تذكروا الحظ البائس الذي ادُخر لجنود هنيبعل، القائد الأكثر بسالة وإقداماً من جميع قادتنا. عندما ألزم هنيبعل على الهرب من قرطاجة مطارداً من مجلس المئة وأربعة، سرح جنوده القدماء دون أي تعويض. هؤلاء الرجال الذين قاتلوا في إيبيريا، وإيطاليا وزاما، وسفحوا دمهم لأجل وطنهم، هؤلاء الأبطال الذين غطت أجسادهم الجراح المجيدة اضطروا أن يستجدوا خبزهم. الأرستقراطيون الذين سادوا على مدينتنا أجيالاً عديدة قابلوهم بازدراء. لم يفكروا إلا بشيء واحد: بثرواتهم الخيالية وقصورهم حيث يعيشون معتزلين بعيدين عن الجمهور. هم يرهقون الشعب بالضرائب لأنهم يرفضون تمويل المشاريع الضرورية لتشغيل مدينتنا من أموالهم. هل يستحق هؤلاء الغيلان الموت من أجلهم؟ قطعاً لا. لذلك لا تأسفوا على تركهم إلى المصير الذي ينتظرهم.

«كلمة أخيرة: أنتم جنود وشرفكم يمنعكم من إلقاء السلاح. اعلموا إذن أن الأمر ليس استسلاماً. مجلس المئة وأربعة ليس

الوحيد الذي يمثل قرطاجة. أنتم تمثلون قرطاجة على المستوى نفسه، وأنتم تقررون بحرية مصيركم ومصير مدينتكم. بالسماح لها في الاستمرار بالعيش، لا تخونونها بل تحرصون على مصالحها. هؤلاء الذين يريدون أن ينضموا لي عليهم أن يأخذوا مكانهم إلى جانبي!

انقضت لحظات طويلة، بقي فيها الجنود مذهولين تحت صدمة كلمات رئيسهم الرهيبة. ثم انفصل بعضهم عن رفقائه وهرعوا إلى فامياس يتبعهم ألفان غيرهم. رضي فامياس أن يسمح لأحد ضباطه، حنون، له شكري وعرفاني، بالانطلاق حراً إلى نفريس ومعه مئتا خيال رفضوا الخضوع لحججه. مع رجاله توجه فامياس إلى الخطوط الرومانية حيث كان ينتظره سيبيون أميليانوس. استقبلهم الجنود بهتاف حماسي باهر وسرعان ما سادت بينهم وبين جنود الرومان مشاعر الأخوة. بفضل هذا الدعم غير المتوقع استطاع مانيوس مانيليوس أن يلتحق بمعسكره المحصن حيث تتم التحضيرات اللازمة لقضاء فصل الشتاء.

عندما قص علي حنون ما جرى صُدمت دهشةً. بالتأكيد توافرت لي جميع الأسباب للشك بمعاوني منذ مقابلتنا الأخيرة، غير أنني لم أكن أتصور أنه سينتقم هكذا لخيبة أمله الغرامية. خلال نهارين وليلتين بقيت تحت خيمتي وحيداً ومنعت وصول عريشات. أردت البقاء وحيداً مع حزني. إنما يجب أن أتمالك أفكاري وأنذر مجلس المئة وأربعة بالخبر الرهيب. لا أجهل أنني مسؤول بشكل غير مباشر بسبب تصرفات خليلتي. إلا أنني لا أستطيع الاعتراف لموتومبعل لأنه سيطلب أن انفصل عنها في الحال. توسلت إلى تانيت المحسنة بشكل لا يعمد فيه معاوني الخائن إلى الإعلان عن هذا السبب لتبرير تصرفه.

فضلت إذن أن أنسب فراره إلى جشعه. أبناء الذئبة اشتروا بثمن من الذهب انضواءه مع رجاله، كانت أعطيات هؤلاء متدنية،

وانساقوا طمعاً بالمال. حاولت أيضاً أن أخفف من نتائج تلك الخيانة. بالتأكيد فقدنا قائداً ممتازاً وألفي فارس ذوي خبرة، ولكن قلة هم الذين يقبلون الخدمة بشكل ثانوي تحت العقبان الرومانية. أفهمت قضاتنا بشكل خاص أن عليهم الامتناع، خلافاً للمألوف، عن الانتقام من عائلات الخونة. إذ سيكون الضحايا الأوائل هم رهائننا المحتجزون في ليليبيه، فارتعش أعضاء المجلس الخائفين على أبنائهم واتبعوا نصيحتي.

في الواقع، أدرك الآن فقط، أن الرحمة التي طالبت بها كانت انعكاساً للاضطراب العميق الذي أثارته بي حركة فامياس. عندما أنبأني حنون بالنوايا التي عبر عنها لرجاله، وجب أن أوافق له بأن هذه الأفكار لم تنقصها الحكمة. شدد فامياس على رؤية الأمور التي كنا نرفض بعناد رؤيتها: خدمة بلد لا تعني بالضرورة وجوب الموت من أجله أو الطاعة العمياء لقادته. ربما كنا على خطأ عند رفض اقتراح مجلس الشيوخ بإعادة بناء قرطاجة على بعد خمسة وثمانين ستاداً من البحر. هل كان من الضروري أن نضحي من أجل ذلك بحياة عشرات وعشرات الألوف من الرجال والنساء والأولاد والعجائز؟ بالنسبة لأرستقراطيينا وأغنياء تجارنا، الجواب مسلّم به. مثل هذا الانتقال سيؤدي إلى إفلاسهم لكن هل سيكون الأمر نفسه بالنسبة إلى الشعب دون تفكيرٍ باستشارته؟ بالتأكيد قام الشعب بقتل حاملي هذا العرض، ولكنه تصرف تحت تأثير ثورة الغضب كما أن رجالنا كانوا في قمة الهياج نتيجة توزيع المال والخمر التي ألهبت رؤوسهم بغزارة. ربما أتى اليوم الذي يواجه فيه الشعب الحقيقة المرة، ويأسف على ذلك التصرف.

من الأفضل إذن عدم تعليق أهمية مفرطة على هذه القضية، ولهذا السبب فعلت كل شيء للمطالبة بالتهدئة. أيد قضاتنا اقتراحاتي باستثناء حسدروبال الطائش. فهذا الرجل منذ أن دحر هجمات الرومان مرتين بانتصار باهر انتابه طموح مرضي. أقنعه

مستشاروه المتملقون إليه أنه منقذ قرطاجة الحقيقي وتمسك بواقع عدم فعالية جيشي. وجاءت خيانة معاوني لتؤكد هذا التحليل. كان يسعى إلى استغلال الموقف لتسميته قائداً عاماً لجيوشنا. غير أن موتومبعل توصل، بعد لأي لمعاكسة هذا المناورة. لكنني كنت أعرف أن نزاعاً حتى الموت سينشب من الآن فصاعداً بيننا نحن الاثنين فإما أن أزيحه، أو يزيحني. انتهى زمن ثنائية القيادة، وقررت أن أخرج منتصراً من هذه التجربة.

* * *

مع قدوم فصل الشتاء، تباطأت العمليات العسكرية بشكل واضح. اكتفى مانيوس مانيليوس بإرسال دوريات لإجراء بعض مهمات الاستطلاع أو لمراقبة تسيير القوافل التموينية القادمة من مملكة النوميديين. أما الأسطول الروماني المقيم على شاطئ بحيرة تونس، فقد رؤي أن من الأفضل له أن يقضي فصل الشتاء في خليج أوتيكا المحمي من الرياح. أتاح لي رفع الحصار البحري المؤقت العمل على إجلاء قسم من المدنيين اللاجئين إلى أسبيس. أبحروا على متن ثلاثيات مجاذيف سيئة وتوصلوا إلى الالتحاق بقرطاجة دون عائق حيث أقاموا في ضاحية ميغارا. أمكن لمدينتنا أن تستقبل عدة مئات من الأشخاص الإضافيين لأن عنابرها مملوءة بالمؤن.

وجد الحرفيون والحمالون المجبرون على البطالة مجالاً للعمل في الورش والمشاغل في أماكن الصناعة والمحترفات والمباني العامة، وبلغ إنتاج الأسلحة أرقاماً عالية غير متوقعة، لم نكتف فقط بإعادة دعم احتياطياتنا بل ضاعفناها مرتين. جرى الأمر نفسه بالنسبة للمعدات القتالية. ورغم رضا والدي عن تلك النتائج فإنه لم يكتف بها. استطعت أن أوصل إليه كميات كبيرة من الخشب القوي لأجل هياكل المراكب وباشر بإنشاء أسطول حرب وفقاً لاحتمالات الهجمات في المستقبل. تعالت صيحات العمال في المرفأ العسكري الذي بقي مهجوراً لمدة طويلة. بعد فترة قصيرة

أعلن لي موتومبعل بأنه أصبح لدينا مئة سفينة ثلاثية المجاذيف وخمسون من خماسيات المجاذيف، ويمكنني مع عودة الربيع مهاجمة المراكب القادمة من أوستي أو من صقلية.

باستغلال فترة الهدوء استطعت تحقيق مشروع يشغل تفكيري منذ مدة طويلة: تفقد المدن البونية الوفية لتحالفنا ومعاينة أوضاعها. بدأت زياراتي الأولى إلى نيابوليس وأسبيس. أمكنني أن ألاحظ شدة تحصينها وحراستها بحاميات مدربة ومملوءة بالحركة. انتقلت بعدها بحراً إلى هيبودياريتوس(*) متعرضاً لعاصفة هوجاء. كان قبطان المركب لحسن الحظ بحاراً خبيراً واستطعنا الوصول بخسائر بسيطة إلى المرفأ الواسع للمدينة الواقعة إلى شمال أوتيكا. يحكمها القاضي الأعلى عبداريش الذي يبلغ عمره أكثر من ستين عاماً وهو يفيض حركة ونشاطاً. أعاد بنيان السور الذي يحمي المدينة من جهة اليابسة على نفقته مستفيداً من علاقات المودة التي تربطه مع النوميديين، وأنشأ عنابر مؤن هامة على المرفأ. هو يملك نحو عشرين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف فارس أمكنني استعراضهم. اعتزوا كلهم بمظهرهم وحسن هندامهم. عدت مطمئناً كلياً من تلك الجولة التفقدية. بعكس تنبؤات فامياس المشؤومة، مواقعنا ليست مقنطة قطعاً وسيعاني الرومان مشقات كبيرة منها عند تكرار هجومهم.

كنت أعلم عن طريق المخبرين أن معنويات فرقهم متدنية تماماً. هم لا يتحملون البرد القارس والمطر، والجنود يتذمرون ضد القنصل مانيوس مانيليوس الذي يعتبرونه مسؤولاً عن فشل الهجمات المنطلقة ضد قرطاجة. وبالمقابل يكرسون إجلالاً حقيقياً لبوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس وأبدوا امتعاضهم الظاهر عندما استدعي الأخير إلى روما للمشاورة. طمأنهم حفيد سيبيون الأفريقي: أعضاء مجلس الأعيان يريدون استشارته قبل

(*) هي مدينة بنزرت الحالية.

تسمية قيادات جديدة للمشاة والبحرية ولا يمكن التملص من هذه الدعوة، ومع ذلك، فقد وعدهم بالعودة في أسرع وقت ممكن ليستمر في قيادتهم إلى المعركة.

رافق فامياس القنصل إلى روما واستقبل بالحفاوة المناسبة لمركزه. للبرهان على عرفانهم بجميله، قدم له الآباء الشيوخ منزلاً رائعاً خلف الميدان ومبلغاً كبيراً من المال. نزل ضيفاً على أكرم العائلات الرومانية الشريفة، وعند مروره في الشارع يحييه الناس بحرارة. لم تتأخر علائم المودة هذه في إعطاء ثمارها. بينما كان معظم رجاله قد اختاروا وضع السلاح جانباً والاستقرار في الأراضي المخصصة لهم في مناطق السهول الكبرى، رضي فامياس العمل في خدمة أبناء الذئبة، وحظي بقيادة الخيالة المساعدة المؤلفة من الإيطاليين والنوميديين.

كان سيبيون أميليانوس، بدوره أقل حظاً منه. فبمقدار ما اتفق أعضاء مجلس الأعيان على تهنئته لشجاعته بمقدار ما اعترضوا على تسليمه القيادة الأكثر أهمية، خشية تقوية موقع والده بالتبني وعمه في مجلسهم حيث مايزال أنصار ماركوس بورسيوس كاتون يشكلون أكثرية. أثار هؤلاء الاهتمام لتفضيل مرشحيهم الخاصين ودفعهم إلى المقدمة. سمي القنصل السابق كالبورنيوس بيزون على رأس فرقة المشاة، ولوسيوس مانسينوس على رأس البحرية بينما استدعي لوسيوس مانيليوس إلى روما، وهو زوال حظوة اضطر لقبوله دون رضاه. أُعلمت بهذه القرارات بوساطة ماركوس لوسيوس أتيليوس ورسالته ملأت نفسي سروراً. منافسو المستقبل جنود جيدون لكنهم يفتقرون للاستراتيجية الخلاقة، دون دراية قدمت روما عاماً جديداً من الاستراحة.

الفصل التاسع

بانتظار وصول القادة الرومانيين الجدد، تسنى لي الوقت الكافي لتقوية التحصينات في معسكر نفريس وتدريب عدة مئات من المتطوعين الجدد المنتسبين إلى جيشي. الأمر يتعلق بمتطوعين بونيين هربوا من مدنهم المتحالفة مع أعدائنا، أو من فرسان نوميديين في عصيان مفتوح ضد أبناء ماسينيسا. في البدء استقبلتهم بحفاوة لأن حركتهم تبين أن روح المقاومة ماتزال تحرك حتى الآن أفضل أبناء شعبنا. أبناء حمالين، أو حرفيين، أو تجار، أو أشراف، أو أرستقراطيين، كان هؤلاء الشباب يبكون خجلاً عندما علموا أن قضاتهم بمؤازرة قسم كبير من الشعب فضلوا الاستسلام غير المشرف وشرعوا أبواب مدنهم لألد أعدائنا. مع إخفاء مشاعرهم انتظروا الفرصة السانحة للهرب والالتحاق بمعسكري بعد أيام عديدة من السير غير مبالين بآلاف الأخطار. فوجئوا بدورية رومانية قتلت على الفور عدداً منهم باعتبارهم حنثوا باليمين المعطى من آبائهم، فكلمة عهد لا تلزمهم لكنهم أجبروهم على احترامها.

من ناحية أخرى هم يقدمون لي معلومات ثمينة. بالتأكيد كثير منهم مغامرون متهورون لا يحلمون إلا بشيء واحد: القتال والنهب والاغتصاب. لا يمكنهم تحمل النظام الصارم الذي يفرضه القناصل. بعضهم فوجئ متلبساً باللصوصية، فحكم عليه بتلقي عشر ضربات مقرعة سخية على العضلات الأكثر إيلاماً. بالتحاقهم بي عرفوا

بأنني أتركهم أحراراً يقاتلون على هواهم وأنني سأغض الطرف عن أسلابهم عندما أعلم أنها موجهة إلى أعداء قضيتنا. غير أن بين هؤلاء المنشقين يوجد أيضاً أبناء أو أحفاد محاربي جيوش هنيبعل ونحن بالنسبة إليهم جيران وأصدقاء، بعكس الرومان الذين يعتبرونهم غرباء وكل شيء يبعدهم عنهم. في حديثي معهم بألفة اكتشفت بسرعة خيبة أملهم بغولوسا.

في البداية استقبلوا بسرور تسميته على رأس الجيش. فمن بين جميع أبناء ماسينيسا هو الأكثر بسالة والأكثر جدارة لشغل هذا المنصب. لكنهم خففوا من غلوائهم سريعاً. فهو لا يتمتع بالحكمة الضرورية للقيادة، وقد شجع بعض القبائل على حساب القبائل الأخرى. هي بالضبط التي ينتمون إليها. ثاروا على ذلك الظلم، والتحقوا بقراهم ليأمنوا على عائلاتهم. الأماكن الحصينة في جبال نوميديا كثيرة وكان الفارون يأتون بذويهم إليها ليجنبوهم الانتقام. ثم يقفزون على خيولهم الضامرة ليجتازوا منطقة السهول الكبرى ليأتوا وينضموا إلي. أصدرت أوامري إلى ضباطي بحسن معاملتهم وطلبت منهم، خلافاً لرأي معتمدي العسكريين، منحهم أعطية سنة كاملة. كان لهذه الحركة أثرها البالغ حيث تبعها تحالفات جديدة. قريباً سأكون على رأس أكثر من ثلاثين ألف رجل ثلثهم أو أكثر فرسان، وهذا ما أتاح لي التطلع إلى المستقبل بمزيد من التفاؤل وحسن الطالع.

مع عودة الربيع استؤنفت المعارك وتحولت سريعاً لصالحنا نتيجة الأخطاء الكثيرة المرتكبة من منافسينا. لم أفاجأ مطلقاً. ما كاد كالبورنيوس بيزون، المزدري بنصائح توخي الحذر من الضباط الذين خدموا تحت إمرة لوسيوس مانسينوس، ينزل في أوتيكا حتى قرر القيام بعمليات عسكرية في شمال قرطاجة ومنطقة رأس بون. باكتشافه الحالة المحزنة للقوات الموضوعة تحت إمرته انفجر غاضباً، كانت الفرق الموضوعة تحت تصرفه بحالة معنوية

سيئة لدرجة لا يستطيع فيها التفكير بإرسالهم لمهاجمة أسوار مدينتنا حيث تكبدوا فيما مضى هزائم عدة. عسكريوه فقدوا كبرياءهم، وتصرفات البطولة الوحيدة التي أظهروا استمرار شجاعتهم فيها كانت مهاجمة المزارع المجاورة، وإثارة اعتراض قضاة أوتيكا غير الراضين من تصرفاتهم.

بحزن عميق اضطر كالبورنيوس بيزون ولوسيوس مانسينوس إلى الرضوخ لحكم الواقع: يجب استئناف أعمال القتال مجدداً. لإنعاش الأمل وإحياء روح البطولة ضمن جيشهما، أعدا غزوة ضد مدينة أسبيس المعزولة على طرف رأس بون. المدينة محصورة بين الأرض والبحر، ويحميها سور جيد التحصين. لحسن الحظ منذ حرصي على إجلاء سكانها، زودت تلك المدينة بالمؤن لتغذية المدافعين عنها المتحصنين بثبات خلف استحكاماتهم دون أن تستطيع المنجنيقات الإضرار بها. هُزمت هجمات كالبورنيوس بيزون بعد تعرض المهاجمين لخسائر فادحة. أما المراكب الرومانية الراسية في المرفأ فقد قام أسطولنا الحربي المكون بمبادرة موتومبعل بتدميرها. لم تنجُ إلا عدة خماسيات مجاذيف، تمكنت بعد لأي من الوصول إلى أوتيكا بسبب إصابتها بأضرار جسيمة.

بعد تقهقر لوسيوس مانسينوس المزري، رجع زميله أدراجه باتجاه نيابوليس، التي أظهر له قادتها تواطؤاً أثيماً. فقد أهملوا توصياتي، كما أهملوا تقوية تحصيناتهم ولم يتوافر لهم إلا بضعة مئات من الرجال للدفاع عنها. عندما حاصرت القوات الرومانية مدينتهم دب الذعر بين السكان. وبدلاً من أن يوجهوا رسلاً إلي لطلب المساعدة وأنا على مسيرة يوم واحد منهم ـ ذبحوا أولئك الذين استعدوا للمقاومة وأجبروا مجالس قضاتهم على إجراء محادثات سلام مع أبناء الذئبة. عرضوا فتح أبواب مدينتهم شرط مكافأتهم على هذا التصرف. حرص القنصل على تسجيل انتصار في عمله، فوعدهم بمعاملتهم كحلفاء للشعب الروماني وباحترام أملاكهم

وأشخاصهم. وهكذا خضعت نيابوليس دون قتال وحرمت من قاعدة خلفية ثمينة. إلا أنني لم أتذمر كثيراً من هذا الاستسلام.

ما كاد الجنود يدخلون المدينة حتى تمردوا على أوامر ضباطهم، وانصرفوا إلى النهب لثلاثة أيام وليال متواصلة، يذبحون دون شفقة أولئك الذين صدقوا كلمات القنصل. لم يستطع القنصل تصحيح الوضع، فطلب مساعدات من بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس. وصل المحامي الشاب بعد سير حثيث من أوتيكا، ولم يقصّر في اتخاذ الوسائل لإعادة النظام. بعد أن وضع تحت حمايته الأحياء القلائل الناجين من تلك المجزرة الرهيبة، حاصر بقواته الوحدات المدانة بالعصيان وفرض عليها عقوبة العشر، وهي إحدى العقوبات الأشد رهبة الممارسة لدى أعدائنا. في صمت مطبق يجول قواد المئة في صفوف الجنود ويختارون من بين كل عشرة واحد منهم ليموت تحت ضربة سيف الجلاد. قتل أكثر من مئتي رجل بكل برود عبثاً. أتت تلك العقوبة متأخرة جداً. فقد علمت المدن البونية الأخرى بخيانة أبناء الذئبة فقطعت صلاتها معهم وانضمت مجدداً إلى صفوفنا، بعد أن أهلكت أو أبعدت من محيطها أولئك الذين تجرؤوا على الكلام عن الاستسلام.

قرر كالبورنيوس بيزون غسل العار الذي أصابه من سيبيون أميليانوس بمهاجمة هيبودياريتوس، شمال أوتيكا التي أراد أن يستولي عليها بأي ثمن ليضمن وصول قوافل التموين الوافدة من المملكة النوميدية. سبق أن قلت إنني فتشت دفاعات تلك المدينة ومنحت ثقتي لقاضيها عبداريش، وهو رجل مستقيم وفاضل، وقد صمم على عدم الاستسلام. عندما حاصر الرومان المدينة اتخذ جميع استعداداته، فلم تتوصل آلات حربهم المرعبة إلى فتح ثغرات في السور، ونفذ عبداريش، مراراً عديدة، طلعات جريئة لتدمير شبه كامل لقذافاتهم ومنجنيقاتهم. من البحر كان يتلقى كل المؤن التي يحتاجها وقد استطعت إيصال نجدات إضافية بتخفيض حامية

أسبيس، بعد أن أصبحت من الآن فصاعداً خارج الخطر. خلال الصيف أصر كالبورنيوس بيزون على متابعة الحصار، مضحياً بعدة مئات من رجاله جراء العطش أو المرض أو السهام المنطلقة من رماتنا.

كبرياؤه وارتيابه منعاه من طلب مساعدة بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس المضطر للبقاء في أوتيكا لقطع طريقي، إن غامرت بإجراء حركة نحو هيبوديارايتوس. لم يكن لدي هذا الهدف غير أنني لخداعه سلك بعض خيالتي درب الشمال للاستمرار في أوهامه. مع قدوم الشتاء وبينما حولت الأمطار خنادقه إلى وحول فضل كالبورنيوس بيزون أن يقلع بخيامه ويلتحق بأوتيكا إلى كاسترا كورنيليا حيث اتخذ منها مقره الشتائي.

أثمر فشل هجومه عن نتائج مفيدة لنا. مضت سنتان والرومان يتخبطون في أفريقيا وأظهروا عجزهم عن إحراز أي نصر على مدينتنا المحصنة والمنيعة بأسوارها العالية، وهي تتحداهم وتكبدهم هزيمة إثر هزيمة. هذا الوضع القلق يلحق الاضطراب لدى حلفائهم. ذات صباح وفد إلى نفريس أكثر من ثمانمئة فارس نوميدي يقودهم ضابط اسمه هيمبسال، بعد إحضارهم إلى خيمتي بدا لي هذا الأخير كثير الكلام:

ـ حسدروبال، إنني ورجالي فخورون بالخدمة تحت أوامرك. سمعنا عن نجاحاتك ونحن مقتنعون أنك ستقود قرطاجة نحو النصر، ليحرسك بعل حمّون الغفور الرحيم وآلهة أعدائك لن تتمكن من قهره.

ـ أرحب بك بيننا، يا هيمبسال. يمكنني أن أؤكد لك أن مجلس المئة وأربعة سيعرف كيف يعبر عن عرفانه بالجميل. ولإظهار تقديري لك أسميك منذ اليوم معاوناً ثانياً شخصياً لي.

ـ آمل أن أستحق ثقتك.

ـ لا أشك بهذا لحظة واحدة. سيرشدك مرافقي العسكري ماغون إلى مقرك وسيقدم لك العناصر التي ستعمل تحت إمرتك. لنتكلم الآن عن الأمور الهامة: أنت قادم من سيرتا وأنا متلهف لأعلم من فمك مايجري في أروقة قصر الملك. قدومك أتاح لي الافتراض أن المؤامرات والدسائس جارية على قدم وساق.

ـ مادام ماسينيسا على قيد الحياة، كانت الألفة سائدة بين الماسيليين والمازاسيليين. لقد شرفني أن أخدم مثل هذا العاهل وما كنت لأخونه، حتى لو قدمت لي كل كنوز الأرض. للأسف مضت تلك الأيام. الآن، ورثته الثلاثة يتنافسون على السلطة ويظهرون عاجزين عن الحكم. عندما يتخذ غولوسا قراراً يهرع أخويه لنقضه ويعاقبون بقسوة من شاء سوء حظه إطاعة أخيهم الأصغر. في الواقع إنهم منقسمون بشكل كبير حول طريقة القيادة الواجب الاعتماد عليها.

ـ يدهشني ما تقوله. يبدو لي أن غولوسا أجرى اختياره. إنه على رأس الجيش وجنوده يحاربون إلى جانب الرومان. أما ماستانابال وميسيبسا، فإنهما يجبيان الضرائب أو يحكمان في القضاء ويعاملان مواطني التعساء الخاضعين لسلطتهم بغلاظة. استقبلا بحفاوة من كالبورنيوس بيزون، ولا تفوتهما مناسبة للتأكيد على ولائهما له.

ـ أؤكد لك أن هذه الكلمات لا تعني شيئاً. هؤلاء الغرباء الملعونون يتصرفون نحونا وكأننا عبيدهم ولا يكلفون نفسهم عناء استشارتنا عند قيامهم بمهمة عسكرية. مع أننا نعرف هذه البلاد أفضل من معرفتهم بها. إنهم لا يبالون. لأنني عارضت أوامر غبية من قائد مئة تخبطت أياماً عديدة في السجن إلى أن أخذت العدالة مجراها. تدخل ميسيبسا وماستانابال أمام القنصل مرة لتحريري وهذا ما أتاح لي الاطلاع على عدم تمتعهما بالثقة اللازمة. للانتقام من هذه الإهانة قررت الالتحاق بك لأنك تتصرف بلباقة مع من يخدمونك.

ـ لا يمكنني لومك على تصرفك لكنه يدهشني. بدلاً من الانتقال لخدمة قرطاجة كان بإمكانك أن تشكر أخوة غولوسا وتضع نفسك في ظل حمايتهما. وبدورهما سيعملان على مكافأتك بسخاء بعد أن تنضم إليهما مع جنودك الذين سيتيحون لهما إنشاء حرس شخصي، على حساب حرس غولوسا.

ـ لن يحتاجا إليّ حيث لا ينقصهما النوميديون الأمناء لهما شخصياً. مع ذلك، اعلم أنني استشرتهما قبل مغادرتي سيرتا. كشفت لهما عن أفكاري ولم يثبطا عزيمتي، بل ذهبا إلى أبعد من هذا. دون مساعدتهما لم أستطع الرحيل مع رجالي. تظاهرا بتكليفي بمهمة ـ قمع تمرد قبيلة جبلية ـ لئلا يثير رحيلي أية شبهة. إن كنت توافق يمكنك ملاقاتهما عندما ترغب بذلك.

ـ أهي أمنية نُذِرت من قبلك أم أنك مكلف رسمياً بتنظيم هذا اللقاء؟

ـ لم يقل لي ميسيبسا شيئاً محدداً. إنه حريص ألا يتورط في قضية مادام غير متأكد من نجاحها. بالمقابل فإن ماستانابال أبلغني عن سروره لاستطاعته لقاءك ومناقشتك. إنك تعرفه، هو محب للمال وأنا واثق أنه مستعد لتقديم خدماته شرط ألا يظهر قضاتك عقوقهم له.

ـ ليلتحق أحد رجالك بسيرتا على وجه السرعة، مؤكداً أنه استطاع الهرب من نفريس حيث اقتدته بالقوة. ليبلغ ماستانابال أنني مستعد للتداول معه بأسرع ما يمكن في المكان الذي يبدو له مناسباً.

ـ سينفذ أوامرك معاوني، أدربال، بكل أمانة. إنني واثق منه ومن قدرته على إحباط رقابة غولوسا.

بعد شهر، عاد «الهارب» يحمل رسالة من ماستانابال. كان الأخير ينتظرني في مكان غير بعيد عن سيكا، منطقة أعرفها جيداً، لقيامي، في أيام شبابي، برحلات صيد عديدة إليها. توجهت إليها

بحراسة ضعيفة، وكي لا أثير انتباه الدوريات الرومانية كنا نختبئ خلال النهار. وعند هبوط الليل نعود إلى خيولنا ونجري عليها حتى الفجر، تتبعنا مفرزة صغيرة لتمسح آثار مرورنا، أخيراً وصلنا سالمين دون أذى إلى المكان المحدد للقاء. كان ماستانابال موجوداً منذ عدة أيام مع مجموعة من الفرسان وخصني بلقاء حار:

- إنني مسرور للقياك، يا حسدروبال البوتياركي، قائد جيوش قرطاجة والمدافع عن الحريات الأفريقية.

- مجاملاتك تسر قلبي. وأنا مبتهج بدوري لرؤيتي أحد أبناء ماسينيسا وقد كان صديقاً سابقاً لنا، يمكنك أن تشكر هيمبسال لأنه عرف اختيار الكلمات لإقناعي بهذه المقابلة. آمل أن يصدق القول وهو يتحدث عن مشاريعك وقطع علاقاتكم مع أبناء الذئبة.

- لهذا حضرت، ويمكن أن أؤكد لك أنني حضرت لأقنعك باسمي واسم أخي ميسيبسا. كما تعلم، بعد موت والدنا كلف غولوسا بقيادة جيشنا، ورغم نصائحنا له بالحذر اختار القتال إلى جانب الرومان لأسباب غير مبررة.

- دعني أوضح لك الأمر بهذا الخصوص. لم تكن الوحيد الذي حضر طالباً مساعدتي. في السابق، حضر أخوكما الأصغر وأجرى معي محاولة مماثلة، التقينا سراً في أوروسكوبا قبل وفاة والدك. عرض علي نسيان خلافاتنا لوضع قواته في خدمتنا.

- ضمن أي شروط؟

- في غاية البساطة. علينا مساعدته ليغدو ملكاً بعد وفاة ماسينيسا.

- دعني أحزر الباقي: كان يعتمد عليك لإزاحتنا، نحن الاثنين، أخي وأنا

- نعم.

- وهل قبلت بهذا؟

- بالطبع.

ـ صراحتك تشرفك. لو أنني مكانك لأكدت حسن نيتي معلناً بأنني عزيز عليك ولا يمكنك القبول بذلك العرض.

ـ لماذا أكذب عليك؟ لم أكن أفكر إلا بأمر واحد: ضمان سلام بلادي حتى لو كان ثمن الحصول عليه، ألا تبقى على قيد الحياة؟

ـ وما الذي منعك من قتلي؟

ـ أمر غير متوقع.

ـ لا تقل لي أن لك رؤيا إلهية.

ـ الأمر أبسط من ذلك. حضر أخوك مع خليلته، عريشات، إحدى مواطناتي ولم أستطع مقاومة جاذبية الأخيرة واختطفتها، لذلك قرر غولوسا، العاشق الحزين، التحالف مع الرومان.

ـ أدرك أن فتنت بعريشات لأنها مخلوقة رائعة الجمال. غير أن أخي أخفى عني الظروف الحقيقية لاختفائها، واطلاعي على هذه الظروف غمرني بمشاعر الرضى.

ـ مع أن أخاك الأصغر هدد وجود مملكتكم ليشفي غليله بانتقام شخصي.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ لم يملِ عليه تصرفه حب وطنه، وإنما ما يكنه لي من حقد أعمى بصيرته وحرمه من التدقيق في المخاطر الحقيقية لتلك الحرب. إلا أنني قلت وأكرر القول لجميع أصدقائي النوميديين، نحن لسنا وحدنا هدفاً لأطماع مدينة رومولوس. مصيرنا إذن مترابط إلى الأبد. إذا شاء سوء حظ قرطاجة في الاختفاء فلن يتأخر الرومان في نقل جيوشهم الظافرة إلى أرضكم وضمها إلى بلادهم. غير أنكم تقدمون على هذه المجازفة فقط لأن أحد أبناء ماسينيسا، بدلاً من أن يفكر ويحاكم الأمور كملك، ترك قلبه يقوده وليس له سوى هدف واحد: أن يدفع شعبه وتدفع مدينته ثمن شقائه في الحب دون أية أهمية.

- لست مخطئاً في قولك. ما من امرأة في العالم تستحق أن يضحّى بكل شيء من أجلها. كان الأحرى به بدلاً من أن يتباكى على همومه الشخصية، التفكير بمصلحة أسرتنا الملكية لهذا السبب أرغب في إجراء انقلاب على حلفائنا.

- وهل ميسيبسا مستعد لاتباعك؟

- دون أدنى شك.

- إذن عليك أنت أن تقرر كيف يمكنك منع غولوسا من إلحاق المزيد من الضرر بعرشكم. مدينتي، وأعدك بذلك، ستعرف كيف تكافئ تضحيتكم.

- هل أنت متأكد؟

- وهل تشك بكلمتي يا ماستانابال؟

- كلا لأنني أعرفك رجلاً شريفاً، وقد برهنت لي باعترافك بالتخطيط لقتلي. إنني مقتنع بك لكن هذا لا يكفيني. بعد كل حساب لماذا سأثق بك؟ لست الوحيد في قيادة قرطاجة.

- رغم أنني لا أمارس أي منصب قضائي لكنني قائد الجيش وهذا ما يمنحني بعض التأثير، كما أن والدي، وأنت لا تجهل، يدير مجلس المئة وأربعة وسيعرف كيف يقنع أصدقائه بالانضمام إلى مشروعنا.

- هل سيتمكن بالفعل؟

- ماذا تعني بذلك؟

- موتومبعل ليس حراً في قراراته. أخذ السلطة بالتحالف مع منافسي حنون ذي الحصة ووجب عليه أن يجري تنازلات عديدة للوصول إلى أهدافه.

- وما هي؟

- على سبيل المثال، القبول بتقاسم قيادة جيشكم مع

حسدروبال الطائش. أخبرني جواسيسي عن سوء التفاهم السائد بينكما. منافسك يحلم بإزاحتك.

- حاول ذلك من قبل لكن دون جدوى.

- بالتأكيد. ولكن يمكنه أن ينجح إن توصل لإقناع مواطنيك أن السلام متوقف عليه.

- بأية طريقة؟

- بتلقيه من الرومان بعض الضمانات، أهمها تلطيف المصير المراد ادخاره لمدينتكم.

- هل سيغير الرومان رأيهم؟

- الهزائم التي تعرضوا لها أمام جيوشكم دفعت عدداً طيباً من الشيوخ الرومانيين إلى التفكير. على ضفتي التيبر الشعب مستاء. من جهة كثير من الأمهات والزوجات يبكين الميت في معركة أبنائهن وأزواجهن والآخرون يشكون بحق عما إذا كانت هذه الحروب سوف تدوم دون أن يكون فيها منتصر ومهزوم. ومن جهة أخرى فإن مجلس الأعيان يخشى أن يراكم تعقدون تحالفات مع بعض القوات الغريبة التي لا تطلب إلا قلع نير عبودية روما.

- أنا لا أعلم أن لدينا مثل هؤلاء الحلفاء.

- إنني أكثر علماً منك من خلال جواسيسي. والدك، موتومبعل تركك تجهل بعض أشياء لأن زملاءه ألزموه على إبقائها سراً. اعلم أن وفداً ترك مرفأكم إلى بلاد الإغريق ليقابل فيليب ابن ملك مقدونية وجيوشه متحالفة مع جيوش كورنثوس(*) ومع جيوش جنوب اليونان(**) وتقاتل جيوش روما. مندوبوكم يحملون مبلغاً كبيراً من المال لتشجيع ذلك العاهل على تشديد حملته ضد أبناء الذئبة

(*) Corinthe إحدى أغنى المدن الإغريقية القديمة. دمرها الرومان عام 146 ق.ب.
(**) Lique achéenne اتحاد بين 12 مدينة في شبه جزيرة بيلوبونيز في جنوب اليونان أبيدت من قبل الرومان عام 146 ق. م.

لإجبارهم على إرسال عدة فرق إلى هلاد(*) الإغريقية، هذه الفرق التي ينتظرها عبثاً كالبورنيوس بيزون. يمكن أيضاً لقسم من أسطولكم الحربي الجديد أن يُرسَل إلى الجهة الأخرى من البحر الكبير لمساعدة المقدونيين.

ـ يالها من أخبار جديدة لا أستطيع إلا أن أُسر بها.

ـ حسبتك أكثر تعقلاً. واجه بعض الشيوخ الرومان حقيقة استحالة الحرب على جبهتين فقرروا إجراء الصلح معكم. عيونهم موجهة الآن إلى بلاد الإغريق لا إلى أفريقيا، وقد أدركوا أن ماركوس بورسيوس كاتون قد خدعهم بمطالبته بتدمير مدينتكم حيث سيقاتلون فيها أصدقاء كثيرين. كانوا على استعداد لعقد أواصر الصلة مع حنون ذي الحصة وأنصاره، ومن بينهم منذ الآن منافسك حسدروبال الطائش. عندما يأتي هذا الأخير ويعلن للشعب أنه بفضل مساعيه الحميدة رجعت مدينة رومولوس عن شروطها الأولى وخاصة إلزامكم بإعادة بناء مدينتكم على بعد خمس وثمانين ستاداً عن البحر، وأنها ترضى بترك قرطاجة تحيا في صداقة طيبة مع روما، سيحمله الشعب على الأكتاف مزهواً بانتصاره وسيعمل على ذبح جميع منافسيه، بدءاً من والدك.

ـ أيضاً كان يجب على حسدروبال الطائش أن يتفاوض مع الرومان! إلا أنه حوصر وراقبه جواسيس مجلس المئة وأربعة بشدة. لو حدثت كل هذه الإجراءات لعلمنا بها، ولاتخذ موتومبعل الإجراءات الضرورية لمعاقبته على هذه الجريمة الشنعاء.

ـ منافسك يعرف ذلك جيداً وهو حريص أشد الحرص فلا يتحرك بشكل مكشوف أبداً. مع ذلك أنت تنسى شيئاً: لقد تزوج إحدى أخواتي.

ـ هذا ما يسبب اطمئناني! بالأحرى، يمكنك أن تعتمد عليها.

(*) Hellad هي القسم المركزي من اليونان القديمة.

- لا تعتمد على هذا. تلك البلهاء تكرهنا أنا وميسيبسا وهي متحالفة مع غولوسا الأحمق. هل تعلم أن قائد الحرس لمدينة قرطاجة يتفاوض حالياً مع أخي ومع حلفائه الرومان بوساطة خادمة زوجته. لهذا السبب سألتك حالياً إن كانت مدينتك مستعدة للإيفاء بالعهود التي تتعهد بها نحونا. من يقول لنا، غداً، من سيديرها، أنت وأتباعك أيضاً؟ ماذا سيحدث لنا، إذا شاء سوء الحظ، وبعد أن يعقد حسدروبال الطائش الصلح مع الرومان، أن يصل إلى رأس مجلس أعيان المئة وأربعة؟ لشكر غولوسا على خدماته الجيدة، سيساعده على التخلص منا. أريد أن أتعاون معك إنما بشرط الاستفادة حقاً منك. ولكن مادام حسدروبال الطائش حياً فلا أنا ولا أخي أصابنا الجنون لنربط مصيرنا بمصيرك لأن في ذلك ضياعنا.

- وإذا زال من الوجود؟

- لا يبقى لغولوسا والرومان مطلقاً مخاطبوهم في قرطاجة، وعندها يغدو كل شيء ممكناً. في تلك اللحظة فقط سأرضى برؤيتك مجدداً لأوقع مع شعبك معاهدة صداقة. بتوحيد قوانا يمكننا أن نطرد الرومان من أفريقية ونتقاسمها معاً. عليك أنت القرار. عندما تتمكن من تأمين الضمانات التي أطلبها ما عليك إلا أن ترسل لي هيمبسال. هذا كافٍ لترسيخ عرى الصداقة. الآن حان وقت انفصالنا.

بالعودة إلى نفريس فكرت طويلاً باقتراح ماستانابال. أنه شديد الإغراء ولو أمكن لقضاتنا الاطلاع عليه لوجهوا لي الأمر للقيام بتلك المؤامرة. مع ذلك فإن أمراً أثار ريبتي: واقع الأمر هو أن هيمبسال بدلاً من أن يربط مصيره بمصير أمرائه اختار أن يلجأ إلى معسكري، متحدثاً بإفاضة عن ضعف الصلاحيات التي يتمتعان بها في مجالاتهما. فهل بإمكانهما فعلاً أن يحكما مملكة، ويوطدا دعائم الحكم ويقدما لنا المساعدات التي نحتاجها؟ المهام التي تم

تكليفهما بها هي القضاء والمالية، ومع أهميتهما فإنها أقل أهمية بالمقارنة بقيادة الجيش الموكلة إلى غولوسا. بقدر ما رأيت نفسي أحارب مع الفرسان النوميديين بقدر ما كنت أتصور أنني أتعامل مع شرذمة من القضاة وجامعي الضرائب لبلوغ أهداف عسكرية. بدت الحقيقة واضحة: علي أن أتفاوض مع غولوسا الأخ الأصغر. أو على الأقل وضع المعالم الأولى بهدف المصالحة.

كان هذا يعني اتخاذ زمام المبادرة وإزاحة منافسي، حسدروبال الطائش، خاصة بعدما أعلمني ماستانابال بتصرفاته المشبوهة. توجه ماغون مرافقي العسكري المفضل إلى قرطاجة يحمل رسالة موجهة إلى والدي وأعلمته فيها بالمساومات الجارية من قبل قائد الحامية، بمساعدة إحدى خادمات زوجته، وطلبت منه أن يضع المرأتين تحت الرقابة الشديدة مع الحرص على عدم إزعاجهما. بعد كل حساب كانت إحداهما ابنة وأخت ملك وعلاقاتنا المستقبلية تتعلق جزئياً بالاحترام الذي نبديه تجاهها. جواسيس المئة وأربعة بذلوا جهوداً لإيقاعها في الشرك، ولكن زوجة حسدروبال الطائش وخادمتها أظهرتا الشك وكانتا حذرتين جداً. لكن تانيت المحسنة أقبلت لمساعدتنا بطريقة مفاجئة. إحدى ثلاثيات مجاذيفنا ضبطت في عرض البحر مركباً رومانياً متوجهاً إلى أوستي، وعثر في غرفة قيادة القبطان على صندوق وُضعت فيه رسالة من غولوسا إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيون، وفيها يقص على الأخير بالتفصيل مناقشاته غير المباشرة مع منافسي. أرفق مع هذه الرسالة كتاب من حسدروبال الطائش يلتمس فيه من الأمير النوميدي تدخله لإطلاق سراح أحد أبنائه الأسير خلال استسلام نيابوليس.

ليس في هذا النص أي عيب. وكنت أستطيع شخصياً القيام بالعمل نفسه لو أن أحد أنسبائي سقط بين أيدي أبناء الذئبة. إلا أن موتومبعل استخدمه لاتهام قائد حامية قرطاجة بالخيانة العظمى.

وأمام زملائه أصر والدي على أن طلب الأخير يشكل خدمة مستترة لأعدائنا الأكثر قسوة. وبمهارة امتنع عن الإشارة إلى الدور الذي لعبته أخت غولوسا ومسيبسا وماستانابال في هذه القضية. بل إنه وجه المديح لهذه المرأة، القرطاجية بالتبني، المتماثلة تماماً مع قضية مدينتنا حتى أنها لم تفكر لحظة واحدة بالتدخل لمصلحة ابنها، بعكس زوجها. استحق الطائش اسمه، ووقع في الفخ. لا يمكنه أن يدافع عن نفسه ويتهم زوجته مما يعني إدانتها وضياع ثقة غولوسا. كما لا يمكنه أيضاً الادعاء بأن اعترافات الأخير إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيون لم تكن إلا سلسلة أكاذيب، لأن رسالته تؤكد في جميع الأحوال وجود علاقة بينه وبين النوميديين وحلفائهم.

توضيحاته المبهمة أغضبت أعضاء مجلس المئة وأربعة الذين قرروا توقيفه. وبعد أن أخضع للتعذيب اعترف بكل ما أشار إليه موتومبعل، ونتيجة لمحاكمة سريعة حكم عليه بالموت. واقتيد إلى خارج حرم مدينتنا، وأنزل به العقاب المنتظر للخونة وهو الصلب. علق على الصليب وربط بحبال متينة رضت جسده، بقي مصلوباً تحت أشعة الشمس، احتضر بعد بضعة أيام أمام نزوات الجماهير التي لم تتردد في المجازفة بالتواجد خارج الأسوار لتتأمل هذا المشهد.

برهن موتومبعل عن شهامة مصطنعة، وسمح لأرملة حسدروبال الطائش بمغادرة قرطاجة مع كل أملاكها وجميع خدمها بينما كانت تتوقع أن تُسجن وتدفع حياتها ثمن خطيئة زوجها. اقتيدت تحت حراسة جيدة إلى المعسكرات النوميدية الأمامية وصحب الضابطُ المفرزة المرافقة للأرملة الحزينة ولديه الأمر بتسليمها إلى يدي غولوسا شخصياً. لأن مجلس المئة وأربعة، وبالرغم من علمه بجميع المساعي التي قامت بها أخته فإنه لن يوافق على سفك دم أبناء ماسينيسا. بعد عدة أيام حضر فارس نوميدي إلى مدخل خيمتي وطلب مقابلتي على انفراد. حرصت على

عدم تجريده من سلاحه، معرضاً نفسي لخطر أكيد، فقد يكون قادماً لقتلي، إلا أني أردت كسب ثقته وثقة معلمه. وهنأت نفسي على قراري. قال لي الرجل وهو نبيل شاب يتكلم لغتنا بطلاقة:

- غولوسا يشكرك ويشكر والدك لمراعاة أخته.

- ليس لدينا أي سبب لمحاسبتها على أخطاء زوجها.

- لا تحاول خداعي، رد علي. نحن نعلم أنك لا تجهل شيئاً عن المساعي التي قامت بها الأرملة.

- فعلاً وأطلب منك إبلاغ أميرك أنني أُخبرت من أخويه نفسيهما، ولم يفكر كلٌ منهما إلا بشيء واحد وهو إزاحته. لدي بخصوص غولوسا اعتراضات كثيرة وهو بدوره لم يحرم منها تجاهي، إنما هو بين أبناء ماسينيسا الثلاثة من اعتبره جديراً بخلافة والده وأنا معجب ببسالته. وأتأسف لأنه ولأسباب لا تتعلق إلا بي وبه قد اختار أن يتحالف مع أعدائنا، وأتمنى أن يفكر بنتائج هذا التحالف. قل له من جهتي ألا يثق بميسيبسا وماستانابال وأن يطمئن من ناحيتنا. أشياء كثيرة يمكن حدوثها إن رضي نسيان ما يفرق بيننا.

- لا أملك سلطة إجابتك لكنني أشك كثيراً في أن يقبل غولوسا خيانة حلفائنا الرومان. اعلم مع ذلك أنه كان متأثراً من حركتك إن كنت بحاجة إليه، ليتوسط لمصلحتك، وسيعمل على تلبية طلبك مسروراً. وإنني واثق من إدراكك لمعنى هذه الرسالة، وأنك لن تفسد بالتماسات غير لائقة أو عديمة التبصر الفائدة التي يمكنك أن تجنيها منها.

- سأعرف كيف أتذكر كلماتك وتنبيهك. ما اسمك؟

- بيتيا.

- إنني سعيد للتعرف بك، وقد تسنح الفرصة للقائنا مجدداً. وسألقاك على الدوام بترحاب ولأبرهن لك أعهد إليك بهذا الخاتم

الذهبي وقد حفر عليه اسمي. لنتوافق على أن إيصاله لي يعني حاجتك لمساعدتي، وهي منذ الآن مقررة. وكما ترى فإنني أمنحك كامل ثقتي لأن آخرين غيرك يمكنهم استعمال هذا الموضوع لضياعي. غير أنني أعلم أنك تتصرف كرجل شريف، وأنك ستلتزم الصمت والهدوء عن كل ما جرى خلال هذه المقابلة.

ـ لن أضيف شيئاً إلى ما سبق لك قوله، يا حسدروبال، لأن كلماتك تعبر عما يجول في خاطري.

الآن استغرب كثيراً ما بدر مني من التهور، في الواقع استولت علي الدهشة لمرأى هذا الضابط الشاب بهيبته ونظرته الثاقبة المطبوعة بالصراحة، فأنا الذي يُحسب داهية، غدار، بعيد النظر، استجبت إلى حدس مبهم لا يوجد ما يبرره. بالتأكيد، بدعم من موتومبعل تخلصت من منافسي، حسدروبال الطائش، وأصبحت من الآن فصاعداً القائد الوحيد لجيوش قرطاجة. لكنني لن أحصل على شيء أكثر من هذا على الإطلاق، فغولوسا على ما يبدو باقٍ على ولائه لحلفائه الرومان، وبمحاولتي التقرب إليه دمرت جميع حظوظي بالتوصل إلى اتفاق مع أخويه اللذين سيتعاملان معي بجفاء لأنني أخبرت غولوسا بالدسائس التي يدبرانها له. غير أنني كنت واثقاً من المستقبل، على خطأ دون شك، لأن الأنباء التي تلقيتها من جواسيسي لدى أبناء الذئبة من شأنها أن تُقلق الأكثر تفاؤلاً.

* * *

في روما أدت الهزائم المتتالية التي مُني بها كالبورنيوس بيزون إلى الاعتقاد بضرورة تأييد الاستراتيجية التي ينادي بها لوسيوس مانيليوس وهي دعم معسكر مؤيدي وقف الأعمال القتالية مع قرطاجة. رأى كثيرون من أعضاء مجلس الأعيان أن العسكريين لن يتوصلوا مطلقاً للنيل من مدينتنا المحصنة بشدة والمحمية من آلهتها، أما عامة الشعب، فقد خشيت أن تؤدي متابعة الحرب إلى فرض ضرائب جديدة وإلى التجنيد الإجباري لآلاف الجنود

الإضافيين. لم يتأخر سيبيون كوركيلوم في استخدام هذا التذمر لمصلحة حزبه. ونظراً لاقتراب موعد انتخاب أعضاء مجلس القضاة انتشر وكلاؤه في الحانات لينتقدوا بشدة الأخطاء المرتكبة من القناصل السابقين وللتباهي، بالمقابل، بمآثر المحامي الشاب سيبيون أميليانوس. تحدثوا عنه مرات عديدة وبما يروي ظمأ مستمعيهم! إنه أنقذ رفاق سلاحه من كارثة. وليس هذا ثمرة المصادفة. وإنما هو على مثال جده بالتبني سيبيون الأفريقي، المنتصر في الحرب البونية الثانية، وهو المعزز والمكرم من جوبيتر كابيتولن ومالك موهبة التنبؤ التي تتيح له توقع حركات العدو واتخاذ الإجراءات الضرورية لتجنبها. ازدادت شعبيته سريعاً، في الشارع كانت الجماهير تحيط به لتتوسل إليه ليتبوأ مركز القنصل. كان فامياس في أغلب الأحيان موجوداً إلى جانبه ودعم حضوره قناعة أبناء الذئبة: إن تمكن هذا الرجل الشاب من كسب أفضل القادة القرطاجيين لمصلحته فهو قادر على اجتراح معجزات أخرى.

كان الهدف من المديح والإطراء للمحامي الشاب يتضمن كثيراً من الفطنة، فهو ملتزم بقوانين بلده، وهو يعلم جيداً أن شبابه يمنعه من السعي ليكون قنصلاً: إذ يجب أن يكون في السابعة والثلاثين وهو لا يتجاوز الآن الحادية والثلاثين. لن يستطيع في أفضل الأحوال إلا أن يكون عضو بلدية، وهذا ما يلزمه على البقاء على ضفاف التيبر للانشغال بمهام إدارية خالصة: صيانة شبكة الطرق والمباني العامة وشؤون تموين المدينة، وتحسينها وتزيينها. عند اجتماع مجالس الشعب الرومانية المؤلف كل منها من مئة مواطن لاختيار كبار الموظفين في الإدارة والقضاء للعام القادم، حدث أمر غير مسبوق: اختارت هذه المجالس سيبيون أميليانوس قنصلاً بالإجماع رغم أنه ليس مرشحاً. عند إعلان النتيجة عم الفرح الكبير وعلت هتافات الترحيب بها، ثم تحركت الجموع الغفيرة نحو مجلس الشيوخ لتصديق ذلك القرار. حاول بعض الشيوخ الأرستقراطيين

المنتمين إلى الحزب الأرستقراطي معارضة هذا الخرق المخالف لقوانين الجمهورية، غير أن زملاءهم لفتوا نظرهم إلى أن رفضهم يثير فتنة تهاجم العامة فيها مقرات المناهضين وتنهبها. كان هذا الاحتمال كافياً لتغيير آراء الأعيان الأكثر تصلباً ووافقوا على اختيار مجالس الشعب. بل أكثر من ذلك، فبينما المقاطعات تقترع تقليدياً لانتخاب أحد قنصلين تلقى سيبيون أميليانوس أمر قيادة الجيش دون الحاجة إلى تلك الإجراءات.

أدار القنصل الجديد منصبه بمهارة وقام بزيارة لجميع الأعيان ليشكرهم على الثقة التي أبدوها له وليعبر لهم أنه لا يفكر بالتطاول على سلطاتهم وامتيازاتهم. بعد ذلك أعلن، ليطمئن الشعب، أن المجندين الجدد الذين سيطلب منهم الانخراط في الجيش لن يؤخذوا من مواطني روما بل من حلفائها الإيطاليين والإغريقيين والغاليين، بحيث يعلم الجميع أن مدينته لن تتهاون أمام أي رفض. وما أن هبت الرياح المناسبة حتى أبحر متوجهاً إلى أفريقيا على رأس عدة آلاف من الفرسان والمشاة.

كان قائد جيش البحرية، القبطان لوسيوس مانسينوس لا يميل إلى هذا المغرور، كما كان يسميه استخفافاً به، وقرر إعطاءه درساً مناسباً قبل وصوله. أعد خفية عملية أرضية وبحرية ضد قرطاجة بعد أن لاحظ أن سورنا شمال ضاحية ميغارا محمي بسلسلة جبلية شديدة(*) الانحدار وبحر ذي مياه ضحلة وصخور كثيرة، وقد تركت هذه الجهة دون مدافعين تقريباً. توصّل تحت جنح الظلام إلى تسلق السور مع مجموعة من الرجال وتبعهم بمئات من بحارته على متن مراكب خفيفة أبحروا فيها على طول الشاطئ وحاصروا مقبرة ميغارا التي دُعمت على عجل.

كان من الممكن لهذا العمل الجريء أن ينجح لو تمّ إعداده

(*) هي هضبة سيدي بوسعيد دون شك.

بعناية، إلا أن لوسيوس مانسينوس نسي أن يأخذ معه المؤن اللازمة، إضافة إلى أن عدداً كبيراً من جنوده فقدوا أسلحتهم عند اجتيازهم الصخور البحرية. وغدوا تحت رحمة هجوم مضاد صاعق من قواتنا مما دفع لوسيوس لتوجيه رسول إلى أوتيكا، يرجو كالبورنيوس بيزون المتهيئ، لدخول روما، لإرسال مساعدات له.

كانت مخاوفه مشروعة. فميغارا مسكونة بآلاف من اللاجئين الذين يستثمرون الحقول والبساتين لزراعة الفواكه والبقول لتغذية المحاصرين. بعودتهم إلى أشغالهم لاحظ بعضهم حركات مشبوهة من ناحية المقبرة وأنذروا حامية قرطاجة فتوجهت عدة مفارز منها نحو الضاحية لمهاجمة المواقع الرومانية. واضطر لوسيوس مانسينوس إلى التراجع بعد تكبده خسائر جسيمة، فعند توجههم نحو الشاطئ كان سيكون مصيرهم الفناء لو لم يصل بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس بما يشبه المعجزة، بعد أن قادته رياح معاكسة ليتوجه نحو مدينتنا بدلاً من وجهته الأساسية إلى أوتيكا. لاحظ أن مواطنيه في ضيقٍ فهب لنجدتهم متيحاً لهم إمكانية الإقلاع مجدداً.

نشب نزاع عنيف بين القادة الرومان الموجودين في كاسترا كورنيليا لتقييم الوضع. سأل قائد الجيش الجديد لوسيوس مانسينوس عن سببه قيامه بهذا الهجوم المفاجئ.

ـ اكتشفت هذه الحلقة الضعيفة في ترتيبات العدو الدفاعية، وخشيت أن يلاحظها. لذلك قررت التنفيذ بسرعة دون أن أخجل من هذا التصرف. فلأول مرة منذ بداية الحصار أمكننا الدخول إلى سور المدينة مما سيظهر للبونيين أنهم ليسوا أبداً في أمان وراء أسوارهم. أضيف إلى أن النصر كان في متناول يدي لو أن كالبورنيوس بيزون أرسل لي النجدات التي طلبتها.

ـ ولماذا لم يفعل؟

ـ أفترض أنه كان منشغلاً بتحضير سفره إلى روما.

ـ لوسيوس مانسينوس، أنت كذاب بامتياز، أجاب بحزم كالبورنيوس بيزون، امتنعت متعمداً عن اطلاعي على تلك العملية لتحصل على المجد عندما يبتسم لك النصر. إذا كنت لم أستطع الوصول إليك بالقوات فذلك لأنني لم أتمكن من إخلاء مواقع الدفاع عن كاسترا كورنيليا. حاولت عبثاً أن أرجو غولوسا إرسال عدة مفارز نوميدية موضوعة تحت إمرة بيتيا، أحد أفضل ضباطه، لكن هذا الأخير لم يكن موجوداً.

ـ فليستدع غولوسا على الفور.

لم يتأخر ابن ماسينيسا في الانضمام إلى أبناء الذئبة. كان كل شيء يدفعني إلى الاعتقاد أنه لم يتصرف بطيش بعدم إرسال فرسانه لمساعدة حلفائه، فقد كان حريصاً على حياة رجاله والهزائم السابقة التي سببها لوسيوس مانسينوس لم تشجعه على التضحية بأتباعه عبثاً. ومع ذلك فقد كان يعلم أنه لن يتمكن أمام صديقه سيبيون أميليانوس التذرع بمثل هذا العذر دون إثارة شكوك الأخير. لذلك قرر أن يتخلص من تلك الورطة وتحميلها على مرؤوسه:

ـ بحثت عبثاً عن بيتيا في معسكري ولم أجده، إنه ضابط لامع لكنه شاب وطائش أحياناً، وعندما سألته اعترف لي خجلاً بأنه استغل فترة الهدوء النسبي السائد في المعسكر ليقضي فترة ممتعة مع إحدى محظياته. انطلق العاشقان في نزهة باتجاه سيكا ولم يعودا من تلك المغامرة الغرامية إلا في أواخر الليل. هذا هو سبب عدم استطاعتنا إرسال النجدات إلى لوسيوس مانسينوس. بعد كل حساب لن يكون الفرسان أكثر كفاءة لإجراء هذه العملية نظراً للتضاريس الوعرة والشديدة الانحدار التي انطلق إليها جنودكم مشياً على الأقدام. وكان الأفضل أن يلبي الطلب كالبورنيوس بيزون بوساطة فرق مشاته.

ـ غولوسا، أشار بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس،

معلقاً على النقطة الأخيرة، إنك على صواب دون شك لكنني جئت إلى هنا لتعزيز النظام وفرض الانضباط وما ينطبق على الرومان يسري تماماً على النوميديين. ارتكب بيتيا خطأً فادحاً عند تغيبه دون إذن، وأتوقع منك معاقبته. على العدالة أن تأخذ مجراها وسيمثل كالبورنيوس بيزون ليُسأل عن تصرفاته أمام مجلس الأعيان في روما. أما لوسيوس مانسينوس فأقدر أن رعونته تجعله غير جدير بالاستمرار قائداً لأسطولنا. وسيحل محله سرانوس منذ الآن.

حاول كالبورنيوس وزميله جاهدين الاحتجاج، غير أن القنصل أبى الاستماع إلى رجائهما وحججهما، وألزم غولوسا بمعاقبة مرؤوسه بيتيا.

احتدم بيتيا غيظاً ولم يحتمل عقوبة التوقيف الإجباري، ورؤية أحد منافسيه وقد عين على رأس خيالته النوميدية. في إحدى الأمسيات حضر رجل إلى نفريس وسلمني الخاتم المقدم لبيتيا خلال لقائنا وأعلمني أن هذا الشخص على رأس ألف رجل في طريقه إلى معسكري. أمرت ماغون في الحال أن يهيئ المأوى لهؤلاء المجندين الجدد، وعندما أعلمني الكشافون بوصولهم عملت على ترتيب رجالي على جانبي الطريق لتشكيل موكب شرف. تقدم بيتيا على رأس فرسانه وسط هتاف القرطاجيين إلى مركز قيادتي، وكان لقاؤنا حاراً:

ـ بيتيا، أنا أعلم أنك ضحية عمل ظالم وأنك لا تستحق المعاملة الجائرة التي حدثت لك. تفخر قرطاجة بأن تعدك من الآن فصاعداً من حلفائها، ولأبرهن لك على ذلك قررت أن تتولى المهام التي كان يشغلها سابقاً فامياس قبل خيانتنا. ها أنت الآن القائد الرئيسي لخيالتنا، وستساهم بهذه الصفة في جميع اجتماعات قيادتي.

ـ حسدروبال، أشكرك على كرمك، لم أشك لحظة واحدة بحسن استقبالك وهتافات رجالك ملأتني اعتزازاً. وإنني واثق أن كثيرين من أخوتي سيلتحقون بي عندما سيعلمون كيف يعامل غولوسا أولئك

الذين يخدمونه بإخلاص. كنت أظنه من القوة بحيث يمكنه، عند الاقتضاء، أن يجابه أبناء الذئبة. والواقع إنه لعبة بين أيديهم مما يعد بادرة شؤم في المستقبل. أتمنى لحركتي أن تؤدي إلى المصالحة بين شعبينا وتحرضهما على دفع الغازي الغريب. نحن جميعاً أبناء هذه الأرض الأفريقية ولن ندع للغرباء زمام قيادتنا.

في الأيام التالية أوفد بيتيا عدة رسل إلى النوميديين لإعلامهم بأسباب فراره وعاد هؤلاء مباشرة ومعهم ألفا فارس اندمجوا مباشرة في جيشنا. أتت هذه المعونات في الوقت المناسب.

يبدو أن الحرب قد دخلت في مرحلة جديدة. والواقع أن سيبيون أميليانوس أمر قواته بإجراء حركة في اتجاه مدينتنا مع جميع آلاتهم الحربية. إنها الإشارة بأن الحصار استؤنف وأنا أعرف أنه سيقود المعركة إلى النهاية أياً كانت النتيجة. بعد مناقشة طويلة أمرني مجلس المئة وأربعة أن أحضر دون تأخير لقيادة الحامية ولتقويتها مع قسم من رجالي. تركت أربعة وعشرين ألفاً منهم في نفريس للقيام بعمليات العصابات على المراكز الرومانية المعزولة، وأقلع الآخرون، أي نحو ستة آلاف من المشاة وألف خيال إلى أسبيس ومنها إلى قرطاجة لألتحق بهم بعد بضعة أيام بصحبة بيتيا.

وصلت خليّ البال إلى مدينتنا، ومع ذلك لم أتمكن من الإقامة داخل قصري في ميغارا لأن إميلكة منعتني من الدخول إليه. جرى لي معها مقابلة عاصفة، فما كدنا ندخل إلى غرفنا السابقة حتى أرهقتني بالشتائم:

ـ قد أكون القرطاجية الوحيدة التي لم تسرها عودتك. فطوال مدة بقائك في نفريس كانت المظاهر سليمة، ولا أحد يجهل أنك تقضي لياليك مع خليلتك، ولكن هذا هو سلوك المقاتلين خلال المعارك ولست الضابط الوحيد الذي يتصرف على هذا الشكل. عدد من صديقاتي لا يجهلن مطلقاً رعونات أزواجهن عندما يحاربون

بعيداً عن مدينتنا. مع ذلك لا أحد منهم خطر له أن يعود بمنتهى الصفاقة برفقة عشيقته. أما أنت فقد فعلتها، وبدلاً من أن تتركها تنغمس في الرذيلة في معسكرك أتيت بها إلى هنا، واستطاع كل واحد رؤيتها تتبختر كالطاووس إلى جانبك عندما وصلت إلى المرفأ. لم يخطر ببالك للحظة واحدة أنك تلحق العار بأفراد عائلتنا.

ـ كفاك نفاقاً! لا يليق بك أن تتظاهري بدور الزوجة الفاضلة، بينما كنت ترفضين بكل عناد أن أدخل إلى غرفتك عندما أتمكن من الحضور لقضاء بضعة أيام في هذه المدينة.

ـ لم يعد بيننا على الإطلاق أية ألفة. بالتأكيد يمكنك أن تتصرف مثل أي جندي فظ وتعمد إلى اغتصابي كما يفعل رجالك بأولئك التعيسات اللواتي يقعن بين أيديهم. ولا أنصحك بذلك لأن صيحاتي ستنذر عاجلاً خدم المنزل وستتعرض لفضيحة لا يشرفك الوقوع فيها.

ـ اعلمي أنني هنا في بيتي ويمكنني أن أدخل إليه عندما أريد.

ـ خطأ: هذا القصر هو قصر أبيك، موتومبعل، وبالرغم من أنه يكن لك مودة لا تستحقها، اعلم أنه لا يريد التساهل معك بإهانتك لي. لا يمكنك المكوث هنا إلا بشرط إعادة تلك الدساسة، التي ستقودك إلى الضياع، إلى نفريس.

ـ هل تبلغينني أمر والدي؟

ـ نعم.

ـ حسناً. لا أريد أن أعصي أوامره. سأقيم إذن في مساكن الأميرالية.

ـ هل فكرت بما سيقوله ولداك؟

ـ هل ستعترفين لهما باستخدامك إياهما لإطفاء ظمأ انتقامك ولتصفية حساباتك مع زوجك؟ هما الآن طفلان لا يمكنهما تفهم ما

يحدث، ولكن سيأتي يوم ويعلمان فيه الحقيقة ولست متأكداً من اعتبارك على حق.

ـ وماذا أفعل؟

ـ يكفيك أن تبيني لهما أن وظائفي قائداً للجيش تقتضي وجودي ليلاً نهاراً إلى جانب أركان حربي. بالطبع سأحضر بين وقت وآخر لزيارتكم. بمفردي لا تخشي شيئاً وأتوقع أن تتصرفي عندئذ مثل أم وزوجة لبقة. سأتركك الآن. تأخرت على عريشات. هي تقدر على الأقل أهمية وضخامة الأعباء التي تشغلني وتحرص على عدم إزعاجي.

في المساء نفسه أخبرت رفيقتي بذلك المشهد مضيفاً بابتسامة أن إجراء الصلح مع روما أهون بكثير من التصالح مع إميلكة، أظهرت بشاشتها لتلك الكلمة المرحة وشرعت في تجهيز شقتنا على قدر استطاعتها. كنت أحضر إلى ميغارا مرة أو مرتين في الأسبوع، خاصة عندما أعرف أن والدي يقضي الأمسية هناك.

انتهزت بجبن حضوره ذات مساءٍ ودعوت ابني وابنتي للحضور إلى مقري العام لزيارتي. لم تستطع أمهما الاعتراض، وفي اليوم التالي زارا المرفأ العسكري وورشات المراكب. أظهرا السرور لتلك الرحلة وحصلا على إذن من موتومبعل للعودة لرؤيتي في مواعيد منتظمة. فيما بيننا، غدا ذلك سريعاً نوعاً من اللعب. كان جدهما موتومبعل يكافئهما على تصرفاتهما الحكيمة بالسماح لهما الحضور لرؤيتي، بعد التحقق من عدم انشغالي ومن وجود الوقت اللازم لاستقبالهما. سرعان ما سلمت بالأمر الواقع: لم يكن لدي عملياً إلا لحظات نادرة لأكرسها لهما، غير أنني خشية خيبة أملهما، لم ألغِ تلك الزيارات. فبعد أن أقضي بضع دقائق معهما كنت أعهد بهما إلى بعض مرؤوسي اللذين كانا يسألونهما عن فعالياتي. هكذا قامت مودة بين ابني وأحد الضباط النوميديين الشباب فقام بتدريبه

على إتقان استعمال الأسلحة وعهد إليه أحياناً بقيادة إحدى دوريات المدينة. أما ابنتي فكانت تقضي معظم وقتها في الورشات تلاحظ عمل النساء ينسجن الحبال لآلات حربنا ومراكبنا، بينما تقوم العاملات بإعطائها بعض الأعمال اليسيرة لإتمامها.

عند حضورهما كانت عريشات تتجنب الظهور، وهذا ما أشكرها عليه، كما ساهم ذلك في تقوية روابطنا. كان تأثيرها علي يزداد يوماً بعد يوم، كما سبق أن ذكرت، فقد كانت ذكية على نحو رائع، دون أن تكون دساسة، تعرف في الوقت المناسب تقديم نصائح ثمينة لي. عرفت سريعاً تقدير ذلك. ارتبطتْ بصداقة مع بيتيا دون أن أشعر بأية غيرة إذ أن معاوني وفق ما هو معلوم لدى الجميع مقاتل رجولي صلب، وهو مهتم بصبيانه الشباب أكثر من اهتمامه بالنساء. أتاحت لها المناقشات الطويلة الجارية معه جمع معلومات ثمينة وإغناء خطة أحببت أن تكون نتاج أحد قادتي. ذات مساء، وبينما كنا ممددين على سريرنا، بعد ممارسة الحب، سألتني:

ـ هل تشعر يا حسدروبال أنك وقعت في فخ داخل قرطاجة؟

ـ ماذا تعنين بذلك؟

ـ إنك تتحصن وراء أسوار مدينتنا العالية وتأمل بأن تكون كافية لضمان انتصارنا. أثبتت الوقائع أنك على حقٍّ لأن جميع هجمات الرومان فشلت بشكل يثير الرثاء. غير أنني لا أعتمد على الحجارة وحدها أياً كانت صلابتها.

ـ وممن سنطلب المساعدة؟

ـ من النوميديين.

ـ لم أتوقف عن السعي لضمهم إلى صفنا، وقد صادفت بعض النجاح. فبيتيا التحق بنا سابقاً وآمل أن يسير آخرون على نهجه ويتبعوه.

ـ تحدثت إليه ويجب علي إعلامك بأن لا تغالي كثيراً في الآمال

حول هذا الموضوع. في أفضل الأحوال يمكن أن يضم إليه ألفي أو ثلاثة آلاف فارس ممن عملوا تحت إمرته في جيش غولوسا.

- إلى أي من النوميديين الآخرين تلمحين؟

- حسدروبال، أنت تعلم أن قسماً من هذا الشعب فقط خاضع لأبناء ماسينيسا، بينما آخرون يعيشون في منطقة أعمدة ملقارت وما جاوزها.

- أعرف فإلى هناك كنا نذهب في الماضي لصيد الفيلة التي صنعت المجد لجيوشنا. كما أنني أعلم أنه في تلك المناطق يوجد بعض البونيين الذي يمارسون الأعمال التجارية، مضى زمن طويل ولم نعد نسمع أخبارهم.

- تحدثت في ذلك مع بيتيا، وهو يقترح توجيه رسل لملاقاة رؤساء تلك العشائر فلأبيه علاقات في السابق معها. تستطيع أن تعمل على مرافقة هؤلاء المندوبين مع بعض ضباط أركان حربك لإجراء اتصالات مع المدن البونية التي تتحدث لي عنها، وتطلب من قضاتهم الحضور لمساعدتنا بإرسال الرجال وخاصة الأعلاف. إن قام هؤلاء النوميديون على مملكة غولوسا، فعلى الأخير أن يتخلى عن الرومان لملاقاتهم. وبحرمان بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس من حليفه الرئيسي عليه التراجع نحو أوتيكا لأن روما لا تتحمل حرباً تزيد عن سنة.

- عريشات، لا أحب مطلقاً أن تتدخل النساء في شؤون السياسة، لكن علي الاعتراف أنك تصرفت بحكمة وتعقل. سنرسل في أسرع وقت سفارة باتجاه أعمدة ملقارت، متضرعين إلى الربة المحسنة تانيت أن تكلل تلك المهمة بالنجاح.

الفصل العاشر

لم تخطئ عريشات في تنبيهي إلى الحذر من الثقة المفرطة التي كان يوليها مواطني حول صلابة أسوارنا المنيعة. كان يكفيني بضعة أيام لألاحظ أن حامية قرطاجة ليست في الواقع قادرة على تحمل حصار يقوده عدو شرس عرف ويعرف كيف يقاتل مثل سيبيون أميليانوس. لم يكن حسدروبال الطائش راضياً عن خيانة مدينته وهو يتفاوض سراً مع النوميديين والرومان. كما ألحقَ بلامبالاته وجهله فن الحرب ضرراً شديداً على معنويات جنودنا بتساهل إجرامي في تطبيق النظام. أما ضباطه القدماء فكانوا سعداء لتخلصهم من رئيس غير مؤهل، ورسموا لي لوحة قاتمة جداً عن الوضع.

ترك معظم رجالهم وحداتهم ليعودوا للعيش في المدينة بين عائلاتهم. لم يظهروا إلا عند استلام أعطياتهم. بعبارة أخرى كانوا ينصرفون إلى أعمالهم المعتادة زمن السلم ويقضون أيامهم في حانات المرفأ، هناك في المكان نفسه الذي قضيت فيه مراهقتي كرجل شاب. في المساء كان يُترك قسم من السور دون رقابة لعدم وجود جند كاف للمناوبة خلال مختلف أدوار الحراسة. كنت قد عانيت التجربة المريرة في إحدى الليالي عند عودتي من دورية قمت بها في المناطق المجاورة لبحيرة تونس على رأس مفرزة من خمسمئة فارس. أجبرت رجالي على القيام بلفة طويلة حول البلد، واخترت العودة عبر باب أوتيكا، الواقع في الطرف الشمالي من

ميغارا، وعندما توقفت أمامه فوجئت باكتشاف حراسته الضعيفة المكونة من نحو مئة رجل، ثلثهم فقد وعيه من السكر ولا يمكنهم القتال. وعندما أجريت دورة حول السور لاحظت أن عدد المدافعين لا يتجاوز ألفي مقاتل، أي نحو خُمس العدد الضروري المطلوب وجوده في الحراسة. هذا يعني أن بإمكان أبناء الذئبة دخول مدينتنا مفاجأةً قبل أن تتمكن النجدات من الوصول في الوقت المناسب.

في صباح اليوم التالي عمدت إلى اتخاذ الإجراءات الحاسمة التي يتطلبها الوضع. جاب المنادون العامون شوارع المدينة ليعلنوا أن محاسبي الخزينة العامة سيدفعون للرجال المجندين أعطياتهم المتأخرة الواجبة التسديد. وللحال هرع آلاف العساكر إلى الثكنات لاستلام تلك الأعطية غير المنتظرة. أؤكد أن لا أحد فاته النداء، وتزاحم الجميع للوصول إلى الموظفين المكلفين بتسديد المبالغ المحسوبة، لكنهم لم ينتبهوا إلى ما يدور حولهم. الوحدات الأكثر وفاءً من الحامية اتخذت موقعها على مدخل الثكنات حيث أعيد إغلاق البوابات الكبيرة. توجهت إلى كل ثكنة لأنذرهم وأعلمهم بأنهم من الآن فصاعداً محتجزين في ثكناتهم ومن يحاول الإفلات من هذا الالتزام سيعاقب بالقتل على اعتبار ذلك هروباً من الواجب الإلزامي. سبقتني شهرتي إلى الناس وغدا كل فرد يعرف أنني لا أتردد في تطبيق ذلك التهديد.

خلال بضعة أيام خضع المجندون، بعد التحقق من تجهيزاتهم، إلى تدريب مكثف، وفي كل مساء كان عشرة آلاف منهم يتمركزون على طول الطريق الدائري للسهر حتى الفجر. بعد انشغالي بالجيش انصرفت إلى المدنيين، وخاصة أولئك العاملين في الورشات العسكرية التي تناقص إنتاجها بشكل كبير. بعد حماسة الأزمنة الأولى - يذكر كل واحد أن النساء قدمن شعورهن ليجعلنها حبالاً نحتاج إليها - تعاقب تهاون كبير، هُجرت الورشات تدريجياً من عمالها وعاملاتها باستثناء عدد قليل منهم، ورغم حصولنا على

مخزونات هامة من السيوف، والدروع، والأقواس، والسهام، والمقاليع والكرات الغضارية، فأنا أعلم أنه في حال استئناف المعارك سيتم استنفادها بسرعة دون أن يتسنى لنا تجديدها. بناءً على إلحاحي أصدر مجلس المئة وأربعة عدة أوامر تقضي بتعبئة كل القوى العاملة المدنية المتاحة، مع إنذار بتعرض المناهضين لغرامات فادحة يمكن أن تشمل مصادرة أملاكهم.

أجريت مع المعتمدين العسكريين تفتيشاً مفصلاً لمستودعات مؤونتنا. مبدئياً يجب أن تكون مملوءة حتى جمامها. وقد اكتشفت أن الوضع لم يكن على هذه الحال دائماً. وشايات مغفلة أعلمتني أن بعض الموظفين الذين تنقصهم الأمانة قد غرفوا من المستودعات ليشكلوا مخزونات لاستعمالاتهم، أو أنهم باعوا كميات كبيرة من الحبوب للتجار المهتمين بالمضاربة بسوق المواد الغذائية عندما تصبح هذه المواد قليلة. أصدرت أوامر تفتيش لمساكن المتهمين مما سمح لنا باسترداد مئات الصاعات من القمح والشعير. أحلت كل هؤلاء المتورطين في هذه القضايا الخسيسة إلى الوحدات المحاربة، واستبدلت بهم رجالاً حائزين على كامل ثقتي.

كلفتني هذه الإجراءات كراهية قسم من الشعب. أعلمني المخبرون أن عدداً من القرطاجيين اشتكوا من الديكتاتورية القاسية التي أمارسها عليهم. لم أهتم بتلك الاعتراضات، فبنظري مدينتنا تتعرض من الآن فصاعداً لخطر مميت وموتومبعل لم يكن مخطئاً عندما دعاني لإعادة تنظيم قيادة العمليات العسكرية. حتى ذلك الوقت، ولحسن الحظ تعاقب على إدارة أعمال الحرب لدى أعدائنا قادة غير أكفاء عملنا على استغلال أخطائهم الاستراتيجية لتكبيدهم هزائم عسكرية ثقيلة. إنما مع تسمية بوبليوس سيبيون أميليانوس، تغير الوضع كلياً، أمكن لبعض الإشارات التي تبدو ظاهرياً ليست ذات قيمة أن توضح لي صورة الوضع.

عمدنا مدة طويلة إلى استغلال الفوضى السائدة في المعسكر

الروماني لإيصال جواسيسنا. كانوا يختلطون بين جماهير المواطنين الأكثر بؤساً في أوتيكا الوافدين لشراء حصيلة سرقات الجنود من المزارع المجاورة. إضافة إلى ذلك، ووفقاً لتقليد عريق في القدم، استقر عدد من العاهرات قرب كاسترا كورنيليا وبدأن بتقديم خدماتهن سواء إلى النوميديين أو إلى الرومان بتجولهن بحرية داخل الأسوار يقاسمن خلانهن الحياة وجلسات الشراب، يلملمن معلومات ثمينة تسمح لنا بنصب كمائن للطوابير المعادية.

ما إن ثبّت القنصل الشاب مواقعه شمال ميغارا، حتى تصرف على مثال هرقل(*) في الأساطير الإغريقية الذي نوقره نحن أبناء قرطاجة، تحت اسم ملقارت. وفقاً لما أشار به مؤدبي السابق أريسته قام بتنظيف بؤر الفساد كما عزز، بدوره نظاماً صارماً في صفوف قواته، جمعهم ووجه إليهم خطاباً بمنتهى القسوة:

«أيها الجنود، عندما خدمت معكم تحت إمرة مانيليوس قدمت لكم على الدوام مثالاً عن الطاعة كما يشهد على ذلك كل منكم. الآن أنا رئيسكم أطلب منكم الشيء نفسه لأن لي القدرة على معاقبة المخطئين بشدة، إلا أنني أفضل تنبيهكم أولاً. أنتم تعرفون فداحة تصرفاتكم، ويمنعني الخجل من التكلم عنها، إنكم لصوص لا جنود، تسعون إلى المغانم والرفاهية قبل أن تنالوا النصر. ولهذا السبب فإن العدو الضعيف تمكن من أن يتطاول برأسه. أريد أن أضرب صفحاً عن الماضي، فقد جئت إلى هنا لأنتصر لا لأنهب، جئت إلى هنا لأهزم العدو. والآن على جميع أولئك غير المؤهلين للجندية أن يغادروا المعسكر في فترة يومين. أما أنتم أيها الجنود، جنود الفيلق الروماني ابتعدوا عن الترف وعن السعي وراء المكاسب».

لو أن هذه الكلمات جاءت من أحد غير بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس لاستحق قائلها أن يقطع إرباً، ولكنها قوبلت

(*) عمل هرقل على تنظيف الإسطبلات الشاسعة للملك أوجيا بتمرير نهر الفي بها. وأوجيا ملك أسطوري لإحدى المدن اليونانية.

بالهتافات المدوية من الذين وجهت إليهم. أشهر عديدة مضت عليهم بعيداً عن أوطانهم ينفذون أوامر قادة غير أكفاء، كان الجنود سعداء بلقاء قائد حقيقي يسير بهم وهو مستعد لقيادتهم حتى النصر، لذلك فإنهم بمجموعهم ارتضوا أن يمتثلوا لأوامره. وتم إعادة أصحاب الرؤوس العنيدة التي تجرأت على تحدي حفيد سيبيون الأفريقي المتبنى إلى جادة الصواب. فالجندي الذي يضبط بالشروع بالسرقة يحكم عليه بعشر جلدات، وفي حال تكرار الجرم يعرض للشمس دون غذاء أو ماء عدة أيام. أعطت هذه الطريقة ثمارها وأصبحت منذ الآن حالات السرقة نادرة جداً، خاصة وأن المجرمين لا يستطيعون مطلقاً ترويج غنيمتهم لدى المدنيين الذين منعهم سيبيون من الدخول إلى معسكره.

سبب لي هذا القرار مضايقة كبيرة، بسبب عدم إمكانية الالتقاء بالجنود الرومان، حيث تعترض جواسيسنا من الآن وصاعداً صعوبات كبيرة في جني المعلومات، التي كنا في حاجة ماسة لها إذ بدا جلياً أن أبناء الذئبة يهيئون هجوماً على نطاق واسع. في كل يوم أمكن للكشافين أن يلاحظوا الجنود يجرون التدريب في حقل المناورات أو ينطلقون في مسيرات طويلة برهاناً على قدرة تحملهم، بينما انشغل آخرون في إصلاح آلات الحرب وتخزين كتل الصخور والسهام المعدة من أجل المنجنيقات والقذافات في العربات. بسبب نقص الاستخبارات وجب أن أوجه الأوامر بمضاعفة الدوريات لمراقبة حركات العدو، غير أن ذلك لم يمنع حدوث كارثة شديدة الوطأة نتيجة استمرار الحصار.

ذات مساءٍ حصل ما كنت أخشاه. كنا في بداية الصيف وكان ذلك النهار حاراً بشكل استثنائي. الشوارع خالية من السكان تقريباً، وقد لجأ الناس إلى منازلهم ليجدوا فيها قليلاً من الظل. أجريت مع أركان حربي دورة تفتيش داخل المعسكر وعدت مطمئناً. الرجال متمركزون بعدد كافٍ ويحل بدلاؤهم في أوقات منتظمة. على البعد

في معسكر العدو، السكون سائد أو يبدو أنه كذلك. أبناء الذئبة يعانون على شاكلتنا أو بما هو أشد من تلك الحرارة المرتفعة ولا يبدو عليهم أية رغبة في القتال. كل شيء في مزيد من الهدوء مما دفعني استثنائياً لعدم تمضية هذا المساء في حي القيادة وزيارة عائلتي في قصرنا في ميغارا. سيسر ولداي لتلك البادرة ولن تعترض إميلكة.

سها عن بالي أن أذكر تحسن علاقاتنا بشكل كبير منذ عدة أيام. بالتأكيد لم تفتها فرصة اغتياب عريشات ونشر أسوأ النمائم عنها بين صديقاتها. إلا أن ما حملته إليها الأنباء عن إخلاصي المتفاني في الدفاع عن مدينتنا أثار شعورها لصالحي وعملت على التقرب إلي، على الأقل بتجنب أي خصام يمس هدوئي وسكينتي.

أعترف أنني في ذلك المساء كنت سعيداً في التواجد في قصرنا، وهو واحد من أجمل وأغنى قصور مدينتنا، وفي لقاء ابني وابنتي، وقد تهللا فرحاً لتلك الزيارة المفاجئة، واصطحباني للتنزه في الحدائق المشغولة بعناية بأيدي العبيد حيث تتدفق ينابيع المياه بغزارة. زرت معهما حظيرة تلهو فيها كل أصناف الحيوانات باللعب حرة أو تبقى حبيسة أقفاصها. سريعاً أرهقتهما تلك الجولة الطويلة، والتحقا بغرفهما وبقيت مع إميلكة مضطجعين على أسرّة مريحة على الشرفة قدم لنا فيها مأدبة طعام أكلنا فيها بشهية. وفي نهاية العشاء وبعد أن تبادلنا خلاله مواضيع غير ذات أهمية، انتقلت إلى أمور جدية قائلة:

ـ متى تعتمد على التخلص من تلك المومس عريشات؟

ـ ولماذا أتخلى عنها؟ ها قد انقضت سنوات منعتني فيها من دخول مساكنك. وأنا أرى نفسي مضطراً لأفتش في مكان آخر عن إشباع رغباتي.

ـ أدرك أنها كانت مفيدة لك في يوم ما. وهي ليست كذلك الآن. بالمقابل أنت لا تجهل قوة عائلتي وقدرتها على مساعدتك في

محادثاتك في مجلس المئة وأربعة. أحب واحترم والدك ولم أدخر وسعاً في دعمه، وخاصة عندما كان هدفاً لهجوم ظالم. إنه بحاجة لعائلتي ليحتفظ بالأغلبية داخل مجلس أعياننا، وهم سيكونون بغاية الرضا عندما يعلمون بأنك أصبحت الزوج المخلص الوفي.

ـ أشكرك على صراحتك. التضحية التي تطلبينها مني على قدر من الأهمية وأعدك بالتفكير بها.

ما كدت أنطق هذه الكلمات حتى دوت على البعد عدة أصوات أبواق. أدركت أن الحراس في النوبة على الطرف الشمالي من ميغارا أنذروا بالخطر. خلال بضع دقائق لبست درعي، وامتطيت حصاني وعدوت بسرعة نحو ذلك الجزء من سورنا، وهو دون ريب ضحية هجوم روماني. كان هذا هو الواقع فعلاً، فقد استفاد العدو من الظلام الدامس فقام مئات من الجنود، مجهزين بالسلالم والحبال، بمحاولة تسلق السور. توصلت بعد عناءٍ لصد تلك الهجمة غير أن المعارك دامت عدة ساعات. كنت حينها وحدي صاحب السلطة وجميع الأوامر صدرت عني، ولكن لم يخطر ببالي أن هذه المناورة هي عملية إلهاء وتضليل.

ذلك كان خطئي الكبير، وهو خطأ في محاكمة الأمور لا أغفره لنفسي حتى الآن، خلال ذلك الوقت توجه سيبيون أميليانوس إلى ناحية أخرى من السور، تبعد عنها بنحو عشرين ستاداً، وكان المدافعون عنها قلة بسبب حضور قسم منهم لمساعدتنا. ومن بقي منهم في المكان حارب ببسالة ودحر المهاجمين بعد التعرض لخسائر فادحة. للأسف، وأمام جزء من السور حيث توجد الحراسة، يوجد برج منعزل تمكن الرومان من الاستيلاء عليه. عمل قنصلهم على إحضار عشرات من الجنود ليصعدوا إليه حاملين ألواحاً خشبية وعضادات تمكنوا بوساطتها من إحداث جسر، وصلوا عن طريقه أيضاً إلى الطريق الدائري للسور الأساسي وتقدموا حتى الباب

السري ودمروه فتطاير شظايا. وبوساطة هذا الممر استطاع نحو أربعة آلاف شخص دخول ميغارا وإثارة الذعر فيها.

في هذه الضاحية نصف الريفية كان يعيش في أكواخ صغيرة وبيوت بائسة عدة آلاف من اللاجئين الوافدين من الأرياف المجاورة لأبسيس. عند سماعهم ضجيج المعارك هجروا مساكنهم المتواضعة وارتدوا في زحام يتعذر وصفه إلى السور الثاني الحامي لمدخل المدينة فعلاً. انضم إليهم في الطريق سكان المناطق الأرستقراطية المضطرين لترك قصورهم وهم يحملون معهم الأشياء الضرورية. اختلطت مع الجماهير قطعان الحيوانات التي ترعى في حدائق وبساتين ميغارا. كان بيتيا يقوم بالحراسة على باب ميغارا. أمر بإدخالهم إلى المدينة حيث انتشرت الفوضى واستيقظ المواطنون وقد تملكهم الذعر.

مع عدة مئات من الفرسان شق بيتيا طريقه عبر جمهرة الهاربين للقائي وحماية تراجعي. تمكنا من الانثناء في نظام تام لأن بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس فضل التراجع لنقص الأدلاء وعدم المغامرة بالتوغل في ميغارا مكتفياً بالسيطرة على السور، بعد إلغاء مراكز المراقبة المعزولة الواحد بعد الآخر.

مع إشراقة الشمس استطعت أن أتبين حجم الكارثة، خلال ساعات فقدنا أكثر من نصف مواقعنا. بالتأكيد كنا في حماية السور الكبير الحامي للبلد بالذات ولقلعة بيرسا. مع ذلك وجب أن نتخلى عن البساتين والحدائق في الضاحية الشمالية، وقد كانت محاصيلها تؤمن قسماً كبيراً من تموينا. يضاف إلى ذلك أنني قلقت على مصير أهلي. هل استطاعت إميلكة وولدي الهرب في الوقت المناسب؟ غير أن ماغون مرافقي الأمين طمأنني إلى أنهم في أمان، وقد تمكنوا من الوصول إلى مبنى الأميرالية وهي مقر قيادتي العامة واستقبلتهم عريشات، بعد أن أسكتت مشاعرها على قوتها، وأنزلتهم في غرف أعدت على عجل.

عند عودتي إلى مجلس المئة وأربعة استطعت ملاحظة الجمهور في الشوارع المزدحمة بالعشرات والعشرات من اللاجئين المرهقين الذين اضطروا إلى النوم على الأرض. كانت وجوه المارة قاسية وقلقة وقد احمرت عيون النساء من الدموع الحزينة التي ذرفت خلال الليل. تلقينا أول هزيمة جادة، وبدأ سريان الشائعات الأكثر تشاؤماً في المدينة. عند اجتيازي المقام التقاني بودرشات وهو مستشار سابق لحنون ذي الحصة، واستجوبني بلهجة متعجرفة:

- أنظر إلى أين أودى بنا عنادك الإجرامي يا حسدروبال. الرومان على أبواب مدينتنا ولا أستبعد أن يستولوا عليها بعد فترة وجيزة.

- إنك تهذي. استولوا على ميغارا. لكنني أعدُّ منذ اللحظة هجوماً مضاداً لطردهم منها. أما فيما يتعلق بعبور السور الكبير الذي يحمينا فإنها قضية أخرى وستمر شهور طويلة قبل أن يتمكنوا من اختراقه، عندها وهذا ما أشك به، تكون آلهتنا تخلت عنا.

- كيف يمكننا الوثوق بك؟ قلت لنا أن لا أحد يستطيع تسلق سور قرطاجة. لم أكن أطلب إلا الاقتناع بخططك ولكن لا يمكن الاعتماد عليك. منذ عدة أيام حرصت على الحديث بخصوص ميغارا وطمأنتنا ونحن نعلم ما جرى. وهذا يحثنا على المزيد من التفكير. مايزال لدينا بعض الوقت لإيجاد أرضية للتفاهم مع أعدائنا بدلاً من التشبث في مواصلة القتال.

- بودرشات، إنك شيخ مسن، وأنا احترم شعرك الأبيض وأفضّل ألا أسمع الكلمات التي سبق لك قولها. لو أن أحداً من جنودي عبّر بطريقتك لشنق حالاً. اعلم وليعلم كل من حولك أننا لن نرتضي تسوية عرجاء مع أبناء الذئبة.

ما كدت أصل إلى موتومبعل ومستشاريه حتى أبلغتهم بأقوال مخاطبي، ورجوتهم ألا يستخفوا بها.

- صرح بودرشات بصوت عال ما يهمس به آخرون كثر.

أحداث الليلة الماضية أثرت بعمق على معنويات قسم من الشباب، وأخشى في الأيام المقبلة أن تهب رياح الهزيمة على مدينتنا. لن يتأخر أنصار حنون ذي الحصة في استثمار هذا التذمر والعمل على تقويض سلطتنا. الحاجة ملحة لإجراء سريع.

ـ ماذا تقترح؟ سألني والدي.

ـ يجب إيقاف أية محاولة تفاوض مع الرومان. والوسيلة الوحيدة للوصول إلى مبتغانا هي خلق وضع لا رجعة فيه.

ـ وكيف؟

ـ لدينا مئتا أسير من الجنود الرومان وقد عاملناهم حتى الآن بشكل لائق. فإن اتخذنا قراراً بقتلهم سيعمل مواطنوهم على تأجيج حقد هائل ضدنا وسيرفضون التعامل معنا. وهكذا سنقطع الطريق على أولئك الذين يتوقعون أن باستطاعتهم استدرار شفقة عدونا لأن الأخير سيعتبرهم أيضاً مسؤولين عن تلك المذبحة.

ـ أنت تنسى يا حسدروبال، أجاب موتومبعل، أنهم يحتفظون في ليليبيه بثلاثمئة ولد من أفضل عائلات المدينة، وفي هذه الليلة فإن عدة آلاف من مواطنينا وقعوا بين أيديهم. يمكن لهؤلاء أن يدفعوا حياتهم لقاء هذه الجريمة الشنيعة.

ـ إن يتعلق الأمر بالرهائن فها قد مضت أشهر لم يصلنا فيه أي خبر عن هؤلاء التعساء ولا شيء يجيز لنا اعتبارهم مازالوا في هذا العالم. ربما قتلوا خلال إعلان الحرب. إن لم يكن هذا هو الحال فليس لهم ما يخشون من قراراتنا. يمكننا في رأيي قتل الأسرى الرومان المتمتعين بالحصانة الكاملة. وبعد كل حساب فإن عدونا سبقنا في هذا المجال لنتذكر ما حدث في نيابوليس: سكان تلك المدينة استسلموا للقنصل لوسيوس مانيليوس، ومع ذلك فإن جنوده خرقوا معاهدة الاستسلام وقتلوا ببرود الذين واللواتي وعدوهم بحياة سليمة. وهكذا هلك عدة آلاف من المدنيين الأبرياء. ولست

بحاجة لأذكرك بالنتائج الكارثية لتلك الجريمة على الرومان. المدن والمواقع البونية التي كانت تتهيأ لإعلان خضوعها قطعت المحادثات المتعلقة بهذا الشأن. سيحرص سيبيون أميليانوس على أن يتجنب الأمر بقتل رهائننا من أجل الأخذ بالثأر. إنه داهية في هذا المجال. بالتأكيد سيؤكد بصوت عال أن الجريمة الشنعاء التي ارتكبناها ستجعلنا مذنبين وخارجين عن القانون مما يحول دون إجراء الصلح بين مدينتينا. ولكنه سيفضل تجنب قتل معتقلي ليلیبيه الثلاثمئة ليبرهن عن قدرته في التسامح وليستخدمها في جذب مواطنينا الذين مايزالون صامدين ضد التحالف معه، في أسبيس أو في هيبودياريتوس. ستكون هذه طريقته ليكفّر عن الخطأ المرتكب من سابقيه في نيابوليس. أما أسرى هذه الليلة فلن يتعرض لهم لسبب بسيط: أفترض أنه سيباشر بأعمال ردم حول مدينتنا وسيحتاج إذن لليد العاملة. رجائي لكم أن تقتنعوا معي بهذه النقطة: بيننا وبينه القوى غير متعادلة. يمكننا السماح لأنفسنا بارتكاب جريمة، ولكنها جريمة ضرورية، بينما هو في وضع عدم إمكانية الثأر لمواطنيه بسفك دم أبنائنا أو مواطنينا.

انسحب أعضاء مجلس المئة وأربعة للتداول مطولاً حول اقتراحي وبعد مناقشات انفعالية قرروا أن مصالح قرطاجة العليا تجعل من الضروري التضحية بالأسرى الذين كنا نحتفظ بهم، إنما بشرط أن تمثل هذه الحركة جوابنا على مذبحة نيابوليس وأن أرضى بتحمل كامل المسؤولية. كان هذا التشدد بعيداً عن مفاجأتي ووعدتهم بتبليغهم أمر موقع بيدي، يبرهن أنني كنت وحيداً في مصدر هذا الإجراء، للاحتفاظ به في أرشيفنا.

كنت متنبهاً بشكل كافٍ لخسة النفس البشرية، حتى أنني لا أجهل أن بعض قضاتنا لم يقصروا في توجيه رسلٍ إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس لإبلاغه بأنني أجبرتهم مستخدماً التهديد. بعبارات تم اختيارها بدقة، شرحوا له لو أن الأمر بيدهم

لما اتخذوا قراراً مماثلاً، لأنهم ضحايا نظام إرهابي سيطر على مدينتنا، وكل رفض من قبلهم يعرضهم لمصير مؤلم على غرار مصير حسدروبال الطائش. بانصرافهم إلى هذا العمل المعيب، وقّعوا دون علم منهم على ضياعهم. أعرف جيداً طباع القنصل الشاب ومدى ما سيُحدث مسعاهم من غضب وازدراء، وسيحفظ لهم الضغينة على جبنهم أكثر من حقده على قسوتي على مواطنيه.

عندما أطلعني مجلس المئة وأربعة على قراره، جمعت كل ضباطي لاستكمال تنظيم تلك العملية المروعة. دهشت لإظهار بعضهم تردداً واضحاً بدءاً من ماغون، مرافقي العسكري الأمين، وهو، حتى الآن، لم يناقش معي أمراً من أوامري. توجه إلي غاضباً:

ـ حسدروبال ما تطلبه منا مخالف ومعاكس لقوانين الحرب. اعلم، في الواقع، أنهم أخفوا عنك حقيقة هؤلاء السجناء. أنت تعتقد دون شك أنه تم إلقاء القبض عليهم بعد أن قاتلوا مدة طويلة وببسالة. هذا ما أكده لك بعضهم. الواقع لا شيء من هذا. كان هؤلاء الرجال يشغلون برجاً صغيراً معزولاً في الحصن قرب بحيرة تونس يعيق الاتصالات بين قرطاجة ومعسكرك في نفريس، وتقربوا من جواسيسنا وارتضوا الاستسلام لقاء ضمان سلامتهم. لا أشفق عليهم لأنني أكره أبناء الذئبة وأكره الخونة أكثر منك، أياً كان الجيش الذي ينتمون إليه. وجودهم لا يهمني. بالمقابل لي شرفي العسكري، باعتبار ما تطلبه منا يعتبر جريمة عدم الوفاء بالعهد. إنها شتيمة موجهة لقيمنا وأرجو أن تعود عن قرارك لأننا سنخجل من أنفسنا طوال أيام حياتنا بسببه.

ـ ماغون، أعترف لك أنني كنت أجهل كل شيء عن تلك القضية، وسأعمد إلى معرفة أولئك الذين خدعوني لإنزال العقاب المناسب بهم. غير أن هذا لا يغير شيئاً مما أمرت به، إنما بالعكس. أنت قلت هؤلاء التعساء هم من الفارين الذين سيقتلون من قبل قادتهم بالذات إذا حصلوا على الحرية. وهم لذلك لن يستطيعوا لومنا على إنزال

العقاب العادل بهؤلاء الأسرى. إضافة إلى أن بقاءهم على قيد الحياة قد اتُخذ من قِبَل سلفي حسدروبال الطائش وقد كان خائناً متواطئاً مع العدو، وتصرفاته لا قيمة لها ولا يمكن أن يلتزم بها أحد غيره. أيضاً أنت لم تكن في قرطاجة بل كنت معي في نفريس.

- أنت تعلم جيداً أن هذا لا ينطبق على الضباط الآخرين الحاضرين هنا.

- أَمِنَ الشرف أن نذعن لأوامر خائن؟ لي الحق بل أجد من واجبي نقض قراراته. أريد رؤية الأشياء واضحة بيننا: كل من يرفض حكم الإعدام المقرر من مجلس المئة وأربعة، أي المحكمة العليا في بلدنا سيتم اعتباره متواطئاً مع حسدروبال الطائش وسيلقى المصير ذاته. حان الوقت بل إنه الوقت المناسب ليعرف الجميع أنني القائد الرئيسي لجيشنا، وأن قرطاجة جاهزة لتنتصر على جميع أولئك الذين يسعون لدمارها.

- ضمن هذه الشروط لك كل ما ترغب به! ماذا تتوقع منا؟

- أن ينادي المنادون العامون في كل أنحاء المدينة أن الأسرى سيقتلون غداً صباحاً، وأن الخمر والقمح سيوزعان عند انتهاء تنفيذ الأحكام على جميع الحاضرين.

- حسدروبال كلماتك الأخيرة تفتح عيني لأرى ما تهدف إليه، واعترف لك بأنها تستهويني بقدر ما تروعني.

- ما هو الهدف في رأيك يا ماغون؟

- قررت موت هؤلاء التعساء ليبقى اسم قرطاجة على الدوام ملعوناً من أبناء الذئبة، وليرفض هؤلاء الراغبون في الانتقام لذويهم من الآن فصاعداً التعامل مع قتلتهم.

- إنك على حق: لا معنى لكل ما صممنا على تنفيذه إن لم تؤيده الغالبية من مواطنينا، أو على الأقل المشاركة به، ليكونوا مسؤولين بمقدار مسؤوليتنا عن إرتكاب هذه المجزرة. لا خيار لنا للأسف

تجاه هذا العمل الممقوت. إنه يتعلق بسلام مدينتنا في ظرف استولى فيه العدو على قسم من مواقعنا، وزرع الفوضى لدى سكان هذه المدينة. هذا يستحق أن نُسكِتَ وساوسنا.

ـ إن كان هذا هو ثمن الحصول على تلك النتيجة فبإمكاني أن أؤكد لك تصميمنا كلنا على التضحية بشرفنا والإدانة بجريمة الحنث باليمين. فلتغفر لنا تانيت المحسنة تصرفاتنا الآتية لأن لا هدف لنا إلا الحرص على معبدها المقدس وعدم انتهاك حرمته من قبل الأيدي الغريبة.

ـ تكلمت بحكمة يا ماغون. اعمل عندما سيستدعي المنادون الشعب على إسماع المخافر الرومانية الأمامية بالخبر. أريد من أعدائنا أن يروا بأم أعينهم ما ندّخره لكل من يجرؤ على التفكير في مسح مدينة إليسا عن الخارطة.

في اليوم التالي أُخرج الأسرى من زنزاناتهم، لم يخفِ الحراس عنهم مصيرهم المنتظر. أعترف أنهم حرصوا على عدم التوسل لجلاديهم مذكرين بالوعود المعطاة لهم. عندما ظهروا في الهواء الطلق بدرت منهم حركة تقهقر. انقضت عليهم أشهر تعفنوا خلالها في الظلمة ثم بهرهم ضوء الشمس الساطع فغشيت أعينهم للحظة ولم يلبثوا أن تماسكوا وتقدموا باعتزاز إلى العذاب، متأبطين الأذرع ومتحمسين ليساعد كل منهم الآخر مناشدين آلهتهم افتداء أخطائهم الماضية.

على طريقهم تجمع الجمهور معارضاً وساخراً في آن واحد. كان هناك بين الصفوف العديد من أهل أو أصدقاء الذين سقطوا في أيدي العدو عند الاستيلاء على ميغارا. كان الشرر يتطاير من أعين القرطاجيين وهم يشتمون الرومان المساكين ويرمون وجههم بالحجارة والأقذار. ومرة بعد مرة يتدخل الحراس ليحولوا دون تقطيعهم إرباً.

دوت الأبواق عندما اجتازوا السلم الموصل إلى الطريق الدوار.
إنها الإشارة المتفق عليها ليتوقف المدافعون منذ تلك اللحظة عن أي قتال مع المقتحمين. يمكن لهؤلاء إذن أن يقتربوا من أسوارنا ليتأملوا عذاب مواطنيهم. الأكثر حظاً، وفي الواقع الأسوأ تلقوا الضربات خلال سيرهم عبر شوارع المدينة، ثم ذُبحوا من قبل كهنة بعل إشمون، المرتدين أثوابهم الفاخرة. أما الآخرون فعذبوا مدة طويلة بين هتافات الجماهير السكرى بالدم والغضب. منهم من اقتلعت بأدوات من الحديد عيناه ولسانه وأوتاره وأعضاؤه التناسلية، أو قُطعت أطرافه الواحد بعد الآخر. يندفع الجلادون المتحمسون، بسبب صيحات الجماهير، بوحشية على ضحاياهم حيث تتعالى صيحات الألم التي ترعب الأكثر قسوة بيننا.

أرسل سيبيون أميليانوس، ثلاث مرات، مفاوضين كلفوا باقتراح استبدال الأسرى الأحياء بالمدنيين المعتقلين عند دخوله ميغارا. وفي كل مرة كنت أبلغه أنني رغم رغبتي الصادقة في رضاه لا يمكنني تلبية مطالبه. ادعيت أن القرطاجيين هم الذين دفعوني إلى هذه التصرفات الأثيمة، مفضلين قتل الأسرى وحراسهم بدلاً من رؤية ذويهم يستردون الحرية. لا أعلم إن كان غافلاً عن جوابي لكنه كف عن الإلحاح. ربما علم بدوره أيضاً أن هؤلاء الجند كانوا خونة لا مقاتلين اضطروا لرمي السلاح بعد أن قاوموا حتى النهاية. عندما لفظ آخر هؤلاء التعساء أنفاسه أمرت بأن يلقى بجثثهم من فوق السور وأن ترمى السهام على كل من يقترب منهم ليؤمن لهم لحداً مقبولاً. بعد عدة أيام جفت أجسامهم المتفسخة في الشمس وهي تنشر رائحة نتنة. أُعلمت ذات صباح باختفائهم فقد قام الجنود الرومان تحت جنح الظلام بالتصدي للموت لإنقاذ ما بقي من أجساد رفاقهم من الطيور الكواسر. وضع في مكانهم على وتد رأس أوفير، وهو عضو مجلس أعيان سجن منذ عدة سنوات ينتمي إلى حزب

حنون ذي الحصة أي الحزب المؤيد للسلام. كان هذا هو جواب بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس على قتل السجناء وهو يظهر بوضوح في أية حالة نفسية وُجد بها القنصل. بلغت غايتي. من الآن فصاعداً نشبت حرب مميتة بيننا، ولن يتمكن أي قرطاجي من ترجيح صداقاته القديمة ليهرب من المصير الذي ادخره أبناء الذئبة للمحاصرين إن منحتهم آلهتهم الانتصار.

* * *

بالاستيلاء على ميغارا قلص الرومان بشكل كبير محيط دفاعنا وحرمونا من مصدر تموين ثمين لنا. هذه الضاحية نصف الريفية كانت عنبر قرطاجة لتموين مدينتنا بالثمار والبقول الطازجة محسّنةً بشكل رئيسي حياة مواطنينا العاديين. يضاف إلى ذلك آلاف من البهائم التي كانت ترعى بكل هدوء، وقد استطعنا إدخالها إلى السور الثاني لتستقر في إسطبلات نصف خالية. غير أننا كنا نعاني من نقص شديد في العلف لتغذيتها، ووجب أن أوجه بسرعة إلى أسبيس وهيبودياريتوس رسلاً ترجو هاتين المدينتين إيصال الكميات الضرورية من ذلك المأكول الثمين وإلا اضطررنا إلى ذبح ماشيتنا بكاملها. هؤلاء الأخوة الطيبون الحلفاء الأوفياء وافقوا على طلبنا مشيرين إلى صعوبة إرسالهم لقوافل أخرى قبل عدة أشهر.

خلاصنا متوقف من الآن فصاعداً على هاتين المدينتين إذ أن اتصالاتنا البرية مع المدن الداخلية قُطعت فجأة. كان سيبيون أميليانوس خبيراً بفن حصار المدن، ولا يؤمن بالمعارك في أرض مكشوفة، التي نادراً ما تنتهي بسحق العدو بشكل كامل. المعول والمجرفة بالنسبة إليه هما أيضاً أسلحة ثمينة وفعالة بقدر السيف والسهم. لهذا حول جنوده إلى حفارين يعاضدهم آلاف من الأسرى الموضوعين تحت تصرفهم. لاحظ حراسنا المراقبون على الطريق الدائري رجال العدو يحفرون نهاراً وليلاً، حفرة بطول خمسة

وعشرين ستاداً(*) تنطلق من مقبرة ميغارا إلى بحيرة تونس. عندما انتهت الحفرة الأولى، قام بإنشاء ثانية إلى جانب الأراضي وعمل على وصلهما باثنتين أخريين تقطعان بزاوية قائمة سابقتيهما. كانت كلها مجهزة بأوتاد مدببة ومحمية بسياج، بعلو عشرة أقدام(**). أخيراً أتم ترتيبات دفاعه بتشييد سور على طول الخندق الرئيسي وعلى مرمى سهم من أسوارنا بارتفاع 12 قدماً(***) مدعم على مسافات منتظمة بأبراج وحصون، يمكن فيها لرجاله أن يلاحظوا كل ما يجري في مدينتنا.

لتجنب إحراق ذلك الحاجز الرهيب استخدم أحجاراً مقتلعة من أسوار ومنازل ميغارا، حيث آلاف من الأسرى تحت رقابة أسيادهم الذين لا يترددون في استخدام السوط لتحريض حماس عمالهم حتى وصلوا إلى المواقع الرومانية المتقدمة. استمرت هذه الأعمال عشرين يوماً، نهاراً، وليلاً، دون انقطاع وقد صدت الهجمات العديدة التي أجريتها مع قسم من حاميتي بعد وقوع خسائر باهظة في صفوفنا. من الآن وصاعداً، غدا البحر الطريق الوحيد لاتصالنا بالعالم الخارجي، وحرصت على الاهتمام بإخراج أسطولنا الحربي من المرفأ لأمنع المراكب العدوة من الاقتراب باتجاه سواحلنا.

انتهت الأعمال الجارية المقررة من القنصل في مطلع فصل الشتاء حيث يتم تقليدياً توقف العمليات العسكرية ذات النطاق الواسع. تلقيت ذات صباح أمراً بأن أمثل أمام مجلس المئة وأربعة الذي يرجو استجوابي عن الوضع. توجهت إليه برفقة ضباط أركاني ودهشت من اللقاء الذي ينتظرنا. حتى الآن لم يفكر أعضاء المجلس بالتدخل في الحرب، وما فتئوا يكيلون المديح لنا. هذه المره الريح هبّت لغير مصلحتنا رغم الجهود التي بذلها موتومبعل لتهدئة

(*) نحو 4.5 كم.
(**) نحو 2.5 م.
(***) نحو 3.5 م.

الخواطر. عندما أنهيت عرضي شارحاً الاحتياطات المتخذة لتقوية تحصيناتنا، قاطعني أحدهم المسمى زابوك الذي يضمر لعائلتنا، لأسباب غامضة، حقداً كبيراً:

ـ حسدروبال، لا أحد يعترض على تضحيتك وقدراتك، لكن تفسيراتك غير كاملة. ها قد انقضت أسابيع كاملة دون أن تصل إلى قرطاجة قوافل التموين القادمة من رأس بون.

ـ أمر طبيعي جداً لأن الرومان قطعوا اتصالاتنا البرية.

ـ كيف تضمن في هذه الشروط قوت الشعب؟

ـ نمتلك احتياطات كافية لقضاء فصل الشتاء، إنما مع تطبيق تقنين دقيق للمواد الغذائية. يبدو لي من الضروري أن يأمر مجلس أعيانكم القرطاجيين بتسليم جميع مخزوناتهم الغذائية إلى المخازن العامة. ومقابل ذلك سيتلقى كل شخص جرايته من القمح والزيت والخمر بدلالة عدد أفراد عائلته وعدد من في خدمته. بذلك لن يموت أحد جوعاً. يمكنني التأكيد لك، لكن لا حاجة لتنظيم مآدب وحفلات والتبذير بالمدخرات الموجودة.

ـ أتظن أن مواطنينا يقبلون بتسليم مخزوناتهم عن طيب خاطر؟

ـ سبق لنا أن أجرينا في الماضي تفتيشات دقيقة في منازل بعضها يعود لأعضاء في هذا المجلس الموقر، وقد حرصوا على جمع السلع الغذائية المشتراة بطريقة غير مشروعة. بينما أتحدث الآن يتجول جنودي في المدينة ينقبون في أقبية ومخازن القصور والمعابد والأبنية حيث يزدحم السكان. أتوقع أن تكون حصيلتهم جيدة ومن يحاول أن يقاومهم سيدان بغرامة فادحة. إن أشير لنا مستقبلاً بوجود مخابئ لمواد التموين، فاعلم أن المخالفين سيشطبون مباشرة من الحصص المحددة لهم من الطعام، وهكذا يتعرضون لموت بطيء.

- إنك تغالي في سلطتك، ندد زابوك بعنفٍ، أنت بالتأكيد القائد الرئيسي في الجيش ولكنك لست سيد هذه المدينة. يجب عليك إطاعة مجلس الأعيان وأستطيع أن أؤكد لك أن هذا لن يدعك تتطاول على امتيازاته.

- هل تخاف على صاعات القمح والشعير الذي يذخر بها قصرك إذن؟ خلافاً لما تفكر به لا أملك روح الديكتاتور، وإذا كنت قد اخترت المهنة العسكرية فلأنني لا أجد أية رغبة في الجلوس بينكم، لأخلف بعد حين والدي. إنما في وضعنا الآن لا يمكن لأحد أن يتباهى بمولده أو بوظائفه ليحظى بالحصول على المراعاة. أقسم ببعل إشمون أن زوجتي وولديّ لن يتلقوا أكثر أو أقل من حصة حمال بسيط، وأنت بدورك سيتوجب عليك أن تكتفي بالجراية التي سيمنحها لك وكلاء مدينتنا. إذا كان الإخلاص للمصلحة العامة يُعَدُّ بالنسبة لك شكلاً من أشكال الديكتاتورية فيجب أن تخضع لها دون مناقشة. على الشعب أن يدرك أن قادته هم المثال والقدوة وإلا فإننا نتعرض لتسديد ثمن باهظ لقاء ذلك الخرق للقانون العام.

- بقبولنا أن هذا النظام قائم ويعمل بالشكل الصحيح، سألني موتومبعل، إلى متى نستطيع الصمود؟

- نحو ستة أشهر.

- وماذا سيجري بعد ذلك؟

- مع عودة الربيع سيغدو البحر الكبير صالحاً للملاحة وسنتلقى شحنات القمح التي طلبتها من مصر وبلاد الغال. إضافة إلى أنك تعلم بإيفادنا رسلاً إلى البلاد البونية الواقعة ما وراء أعمدة ملقارت. وإجابات مبعوثينا مشجعة جداً. أبناء سلالتنا عازمون على أن يهرعوا لنجدتنا ويطوعون الفرق المحلية من أبناء الشعب الذي يكنّ حقداً كبيراً لغولوسا وأخوته. عندما يبدأ هذا الجيش مسيرته يترتب على أبناء ماسينيسا ترك حلفائهم الرومان وحماية عاصمتهم. عند ذلك نستطيع سحق هؤلاء وطردهم نهائياً من أفريقيا.

مر الشتاء دون مشاكل تذكر. وبعودة الأيام الجميلة طلب هيلسبعل رئيس المعتمدين العسكريين لقائي عاجلاً. كان يبدو عليه القلق الكبير:

- متى ستصل المراكب التي حدثتنا عنها؟

- بعد قليل.

- هل أنت متأكد؟

- آمل ذلك. ثلاثيات مجاذيف عديدة من سفننا انطلقت في طريقها إلى جزيرة اللوتوفاجيين لتحرس القوافل الواردة من مصر.

- هل يجب أن أستخلص أنه تم إعلامك بانطلاقها من الإسكندرية؟

- كلا، لكنني لا أشك لحظة واحدة بولاء التجار المصريين الذين دفعنا لهم مسبقاً. لِمَ أنت قلق لهذا الحد؟

- حسدروبال، يشق علي أن أخبرك: عنابرنا شبه فارغة. إننا نوزع حالياً أكثر من مئة وخمسين ألف جراية طعام أسبوعياً. إذا لم نتلق خلال خمسة عشر يوماً ما نملأ به مستودعاتنا فعلينا التوقف عن التوزيع.

- ما هو الوضع الصحيح لاحتياطاتنا؟

- إذا غاب عنا القمح المصري فلن يتوافر لنا إلا تأمين إعالة ثلاثين ألف رجل من الحامية، مع ضرورة فرضِ تقنين قاسٍ عليهم. أما السكان المدنيون فسيتعرضون للموت جوعاً.

- اعتمد عليك وعلى وكلائك كي لا تذاع مداولتنا. من غير المجدي إنذار مواطنينا بينما ساعة الخلاص قريبة.

من أجل حسمٍ سريع للشائعات المحتملة نظمت مواكب لتطلب مباركة آلهتنا. فيٍ الوقت نفسه ضحي بمئات من الحيوانات في المعابد، وسال فيها دم الذبائح المقدمة غزيراً أضاحي للوطن.

اطمأن المؤمنون الذين وزعت عليهم بقايا تلك البهائم، فهذا يؤكد للجميع عدم الخوف من المجاعة.

كان المراقبون الجاثمون على الأبراج يتفحصون الأفق آملين أن يلمحوا على البعد أشرعة المراكب الواردة من مصر أو من بلاد الغال: ذات صباح خيل إلي أن تانيت المحسنة قد استجابت لصلواتي. فقد وصلت خمسة من خماسيات المجاذيف إلى المرفأ وهي وافدة من أسبيس وكانت مملوءة بالحبوب غير أن قباطنتها أسرّوا لي أن لا علم لهم بأسطولنا الوافد من جزيرة اللوتوفاجيين، وأن أن تجار الإسكندرية الذين توقفوا في أسبيس يجهلون أية أخبار عن انطلاق قوافل نحو قرطاجة.

بعد يومين عاد هيلسبعل لرؤيتي.

ـ حسدروبال، هذه المرة أصبح الوضع حرجاً ومقلقاً. غداً سأباشر في توزيع آخر وجبة غذاء على السكان المدنيين. بعدها سأضطر إلى أن استبقي الجرايات إلى المدافعين عن المدينة وحدهم. يجب أن تعلن هذا الأمر دون تأخير على مجلس المئة وأربعة.

بناء على طلبي جمع موتومبعل زملاءه واضطررت إلى أن اعترف لهم بالحقيقة. أثار خطابي عاصفة من الاعتراضات ووجب على جنودي الدخول إلى مجلس الأعيان للرد إلى الصواب أولئك الذين أرادوا إلحاق الأذى بي. عندما هدأت الضجة أخيراً بدأ والدي الكلام:

ـ الآلهة تفرض علينا تجربة قاسية لأنها تود أن تعلم مدى قوتنا المستمدة من الإيمان بتدخلها. سيكون تحديها انتهاكاً لحرماتها وعلينا أن نذعن لقوانينها مهما كلف الأمر. منذ نهار غد سينطلق المنادون العامون يعلنون من شارع إلى آخر الإيقاف المؤقت لتوزيع الغذاء. إنني أعرف جيداً مواطني وأدرك أنهم

يستطيعون الصمود خمسة عشر يوماً أخرى. أما جنودنا، فلكل منهم عائلة وسيتقاسم معها المواد الغذائية الممنوحة له. وهذا ما يترك لنا فرصة انتظار وصول القوافل المصرية والغالية.

بانقضاء الفترة المحددة من موتومبعل، يجب الرضوخ لحكم الواقع: لم تصل المراكب، وظهرت المجاعة في قرطاجة. لجأ السكان إلى كل السبل التي لا تخطر على البال سعياً إلى الغذاء. قدمت الحدائق التابعة للمعابد والمنازل الخاصة إلى الكهنة والى مالكيها الثمار والبقول، التي لم يتردد بعضهم ببيعها بأسعار من الذهب في الأسواق. في جميع الأماكن العامة كانت باقة العشب تقتلع وفقد بعضهم حياته بتسلق الأسوار ليستولي على الأعشاب البرية التي تنبت فيها. الأشجار وأدغال الشوارع اختفت، لاستخدام أوراقها وقشرتها في تحضير حساء يهدئ جوع مستهلكيه. منذ الأيام الأولى قتلت والتهمت الكلاب والحيوانات البيتية بما فيها الطيور الأكثر ندرة التي أحب الأغنياء جمعها. وبعد قليل قامت جموع الشعب بالبحث عن الجرذان والفئران في المجارير، والأقبية، والعنابر الفارغة. لم يسلم منهم شيء. غزيت الشوارع بجماعات من الكائنات المعروقة العارية من اللحم، بوجه مذعور، يستجدي عبثاً كسرة خبز. وجب أن أضاعف الدوريات لكبح تفاقم أحداث القتل التي لا يمكن إحصاؤها، لأن السفاحين يستولون على جثث ضحاياهم ليقطعوها وليلتهموها. نفذت أحكام الإعدام على أولئك الذين أوقِفوا وقد شرعوا في ممارسة تلك المنكرات المدنسة للحرمات، لكن ذلك لم يكن كافياً لمنع تفشي ظاهرة أكل لحوم البشر.

في كل صباح يجر العبيد بمشقة عربات ثقيلة تطوف شوارع المدينة لتجمع أموات الليلة، خاصة العجائز والأولاد ممن تحول بنيتهم الضعيفة دون تحمل شظف العيش. منذ الاستيلاء على ميغارا أصبح لا سبيل إلى الوصول إلى المقبرة الكبيرة التي جرت العادة أن ندفن فيها موتانا مما استلزم تهيئة مساحة واسعة في نهاية المرفأ

التجاري لنحرق فيها على محارق شاسعة ضحايا الجوع. روى لي جواسيسي أن عدداً من أعضاء مجلس الأعيان، ومعظمهم من أنصار حنون ذي الحصة السابقين اجتمعوا سراً لإشعال نار فتنة شعبية ضدي وضد موتومبعل. أوقفت أحدهم، واسمه تسور، وعند رؤيته غرفة التعذيب بدا وديعاً كالحمل، وُعد بسلامة حياته، فتسلمت منه أسماء المتواطئين معه الذين تمت إحالتهم للقضاء أمام مجلس المئة وأربعة وحكم عليهم بالموت نتيجة محاكمة نظامية.

ذات مساء، وبينما كنت التحق بمركز القيادة بعد أن فتشت دفاعاتنا، وجدت إميلكة باكية. كان ابننا يشكو من المرض وارتاب الطبيب الإغريقي الموجود قرب سريره بإمكان بقائه على قيد الحياة أكثر من بضعة أيام. أعترف أنني بكيت تأثراً من وفاء ضباطي الذين تقاسموا معه وجبة طعامهم الهزيلة وأتاحوا له إمكانية استعادة قواه ونجاته من الأزمة. مشهد ولدي وهو يعاني الجوع أربكني إلى حدٍّ جعلني اتخذ قراراً دون الرجوع إلي موتومبعل ومستشاريه. هذا القرار لو علموا به لاعتبروني مستحقاً للمصير الذي لقيه حسدروبال الطائش. لم أنس تلك الرسالة التي وجهها إلي غولوسا بوساطة بيتيا بعد أن سمحت لأخته أن تغادر بحرية مع أملاكها وعبيدها مدينتنا. وعدني ابن ماسينيسا بتقديم المساعدة عندما أطلبها منه. بالتأكيد كنت آمل رؤية المدن البونية والقبائل النوميدية المقيمة ما بعد أعمدة ملقارت تأتي لنجدتنا. بانتظار وصول التعزيزات المنتظرة ـ وقد تم التأكيد على انطلاقها بوساطة الرسل المبعوثين من سفرائنا في تلك المناطق البعيدة ـ يتوجب علي سباق الزمن.

كنت واثقاً أن الرومان لا يجهلون شيئاً عن هبة الشعب بجيش معد لخلاصنا، وأن هذا الاحتمال قد يقودهم إلى التفاوض لوضع نهاية لهذه الحرب. منذ عدة أسابيع توقف سيبيون أميليانوس عن إطلاق الهجمات المضادة ضد مكان انحصارنا، وقد غادر قسم من جنوده معسكره إلى وجهة غير معلومة. هذا ما دفعني إلى الافتراض

أنهم انطلقوا باتجاه سيرتا، بناء على طلب ميسيبسا وماستانابال، فقد غزيت أراضيهم من حلفائنا. واقع تأخرهم في العودة يعني على الأرجح أنهم تعرضوا لسوء حظ كاوٍ، وآمل إذن الاستفادة من هذا الوضع للمفاوضة على هدنة أو فترة توقف تتيح لنا إعادة بناء قواتنا.

باعتباري المسؤول الأول عن الجريمة الشنيعة بقتل الأسرى الرومانيين، لا يمكنني إرسال مفوضين لمقابلة حفيد سيبيون الأفريقي. غير أن لا شيء يمنعني مع ذلك من الاتصال به بشكل غير مباشر عن طريق غولوسا، مما دفعني إلى الإسراع بإرسال ضابط نوميدي غادر المدينة ليلاً على متن زورق صيد خفيف باتجاه بحيرة تونس حيث يمكنه، مع بعض الحذر، أن يتصل بالأمير النوميدي الشاب ويوصل إليه اقتراحي بلقاء سري.

شعرت بالارتياح لهذه المبادرة. فبعد عدة أيام عاد موفدي ليعلمني أن غولوسا سينتظرني بعد غدٍ في مزرعة معزولة تقع على الهضبة المشرفة على البحيرة، شرط الوصول بحراسة لا تتجاوز عشرة رجال. كلفت حارسي الأمين ماغون بإبلاغ موتومبعل أنني أشكو من ارتفاع في درجة الحرارة ويلزمني البقاء في السرير حتى شفائي التام، ومنع استقبال أي كان نظراً للطابع الخبيث لهذا الداء. بتلك الطريقة استطعت مغادرة المدينة على متن قارب بصحبة عشرة رجال أثق بهم كلياً. تمّ العبور دون أي عائق وعندما نزلنا من الجهة الأخرى للبحيرة وجدنا نوميدياً بانتظارنا مع الخيول اللازمة ليقودنا إلى رئيسه.

توجست قليلاً من تلاقينا المجدد. لم يشاهد أي منا الآخر منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي خضعت فيه لملذاتي، وهربت مع خليلته عريشات التي غدت تقاسمني منذ ذلك الوقت مضجعي. كل إنسان يسعى ليغسل بالدم ذلك العار، إلا أنني كنت أعلم أن ابن ماسينيسا كان من طينة أخرى. فهو قادر أن يكون في وقت واحد مخادعاً وصريحاً، حاقداً وكثير النسيان للإساءات الماضية. في الواقع هو

لا يمتثل إلا لما يرى فيه مصلحة مملكته. وعندما تلتبس الأشياء في ذهنه لا يستسلم للهوى، لاحظت ذلك من الكلمات الأولى المشوبة بسخرية لاذعة توجه بها إلي:

- حسدروبال، يا صديقي، لماذا أتيت إلى هذه المقابلة وأنت تلبس درعك ومعطف قيادتك؟ يمكن لأي كان أن يفكر بأنك تتهيأ للقتال لا للنقاش مع محاور همه الوحيد أن يرضيك. هل تخشى انتقامي من العار الذي ألحقته بي باستيلائك على عريشات؟ اعلم أنني غفرت لك تلك الحركة منذ مدة طويلة. إنني أعرفها، وأنا مقتنع أنك لم تكن بحاجة لاستخدام العنف لتصحبها معك. الواقع إنها قررت منذ مدة طويلة الهرب لأنها توقفت عن حبي أو لأنها كانت تتحرق شهوة لتلتحق بأنسبائها. فمنها لا منك سأنتقم يوماً. لذلك لست بحاجة للحضور هذا المساء بكامل سلاحك للقائي.

- لم أشك يوماً بنبلك وإخلاصك. لكنني أخشى ببساطة غدر حلفائك الرومان. وسيبيون أميليانوس قدم عروضاً مغرية للتخلص من شخصي. كما تعلم حواشينا تعج بالجواسيس وأخشى أن يعلم بوساطتهم بلقائنا. هل أنت واثق أن لا أحد قد تبعك؟

- إنني متأكد من ذلك. اتخذت كل الإجراءات الضرورية ليكون سفري خفياً. إنني نوميدي وأحب جولات الخيل الطويلة المنفردة. إنها تغير الجو الخانق السائد في المعسكر الروماني وليست هي المرة الأولى التي أغيب فيها عن المعسكر لعدة أيام. القنصل مطّلع على الأمر ويترك لي حرية حركاتي.

- يبدو جلياً أنك لا تقدر النظام الروماني.

- احترس من استخراج الأحكام المبكرة. أنفر من النظام القرطاجي بالقدر نفسه. لنعد إلى الموضوع الرئيسي طلبت رؤيتي لكنني أفترض بأنني لست أنا من تريد التحدث معه.

- بالعكس لدي أقوال كثيرة أقولها لك.

ـ لنكن صريحين، إنك تخشى الرومان بحيث تختبئ خلف أسوار مدينتك دون أن تسعى لمجابهتهم في أرض مكشوفة. لكنك لم تحضر إلى هنا لتطلب مني، مرة أخرى، قطع علاقتي مع أبناء الذئبة. أعرف أنك أدركت ذلك منذ مدة طويلة أن ما من شيء يغير قناعتي، وأنا عازم على البقاء أميناً للكلمة التي أعطيتهم إياها. في الحقيقة إنك تريد أن تكلفني بمهمة تجاه حلفائي.

ـ أشكرك على صراحتك. الواقع هذا ما أرجو طلبه منك.

ـ بإمكانك التوجه مباشرة إلى القنصل بدلاً من الوصول إليه بوساطتي.

ـ أشك كثيراً في موافقته على لقاء من أمر بالقتل، مزدرياً بقوانين الحرب، الرجال الذين كنا نحتفظ بهم كأسرى لدينا.

ـ تريد ذكر هؤلاء الخونة الذين استسلموا لحسدروبال الطائش معتمدين على وعد منه بحفظ حياتهم. أعلمني سيبيون بأن عائلاتهم تباركك لأنك تصرفت وفق ما حدث. موتهم البطولي أتاح لهم التكفير عن خطاياهم واستعادة سمعتهم في نظر مواطنيهم.

ـ أيعني ذلك أنه لا يضمر لي ضغينة عن تلك الجريمة؟

ـ تصرفت أنت وضباطك مثل العسكريين الذين يحكمون على الجبناء بالعقوبة التي يستحقونها، لكنه لا يشعر إلا بالاحتقار والكراهية نحو المدنيين القرطاجيين الذين منعوك من العفو عن الأحياء عندما طلب منك ذلك. ويمكن أن أؤكد لك أن هؤلاء لن يحظوا بأية شفقة عندما تحين ساعة الحساب. لكن يكفي الحديث عن الماضي! هل جئت لتعلن لي أنك ترجو معرفة شروط الاستسلام؟

ـ لا مجال لذلك. حتى لو كنا نجتاز لحظات صعبة، لم نفقد الأمل برؤية آلهتنا تأتي لمساعدتنا. قد تستمر الحرب بين روما وقرطاجة سنوات طويلة أيضاً وسيسقط فيها آلاف القتلى، وقد حان الوقت لوضع حد لها. في السابق، قبل بدء القتال، اقترحنا على

مجلس الشيوخ العيش في تفاهم ورضا مع روما شرط أن تتصرف هذه نحونا مثل تصرفها مع أخوتنا في حدريم وأوتيكا، اللذين تخلوا عن جيشهم وعن أسطولهم الحربي مقابل أن يقرر مجلس الأعيان لهم الاحتفاظ بقضاتهم للحكم وفق قوانينهم. نحن مستعدون لتسريح جيشنا وتهديم أسطولنا الحربي، وتقويض أسوارنا ودفع ضريبة لأبناء الذئبة إن تركنا هؤلاء نعيش بسلام في ظل هضبة بيرسا.

ـ حسدروبال، يا صديقي، إنك تهذر أو تتكلم مثل طفلٍ. الشروط التي تذكرها لم تعد واردة منذ مدة طويلة. آخر عرض قدمته لكم روما كان نقل مدينتكم إلى مسافة خمس وثمانين ستاداً داخل الأراضي. يمكنني أن استخدم نفوذي لترجيح ذلك الحل الحكيم، ولا يمكنني التعهد بأكثر من ذلك.

ـ أطلب منك مع ذلك أن تنقل عرضي إلى القنصل. قل له إننا لم نفقد الأمل كما يبدو له، ونحن نملك جيشاً قوياً مؤلفاً من عشرات آلاف الرجال في نفريس تحت قيادة ديوجين القائد اللامع، ومدن أسبيس وهيبودياريتوس هم حلفاؤنا. وعما قريب يمكنني أن أبوح لك أننا سنتلقى نجدات بعدد كافٍ بحيث نزيح الرومان بل ونغزو مملكتكم. من الأفضل إذن لسيبيون أميليانوس ألا يلطخ اسمه بهزيمة يستفيد منها أعداؤه على ضفاف التيبر ليطالبوا بتنحيته.

ـ لأثبت لك صدق نيتي، أوافق على حضور أحد حراسك للمداولة التي سأقوم بها مع القنصل. سأكفل له الأمان مقابل حياتي. لنتواجد هنا بعد ثلاثة أيام، وستعرف عندئذ أي مصير ينتظر مدينتك.

علي أن أعترف أنني عدت من تلك المقابلة أكثر اطمئناناً. استمع إلي غولوسا ولم يعارضني ويدفع بعدم قبول عروضي، حتى وإن حاول ـ وهذا منطقي ـ أن يبرهن لي عن ضعف بعض حججي. وهكذا غادرت دون خوف إلى اللقاء الثاني الذي تواعدنا فيه. ما أن لمحت الضابط الذي تركته لمرافقة الأمير النوميدي حتى تجمد الدم

في عروقي من الذعر. كان وجهه قاتماً وبدا فريسة قنوط عنيف. عندما سألته لم يستطع إلا بعد لأي في أن يغمغم ببعض كلمات غير واضحة لشدة انفعاله، وتناول غولوسا الكلام بدلاً عنه:

- حسدروبال، اغفر لهذا الرجل هذه اللحظة من الضعف لأن الأخبار التي نحملها لك سيئة جداً.

- هل رفض القنصل عرضي؟

- قهقه ضاحكاً عندما رويت له عروضك.

- سيهزأ أقل من ذلك عندما ستصل النجدات التي أنتظرها.

- إنها لن تصل البتة.

- وما يدريك؟ البارحة وردتني رسالة من سفرائنا تعلن لي أن المتطوعين البونيين والنوميديين هبوا لنصرتنا وغادروا أعمدة ملقارت، وهم يسيرون منذ شهر باتجاه قرطاجة براً وبحراً.

- الرجل المعني قصير القامة ذو شعر مائل للحمرة ويحمل ندبة على خده الأيسر.

- كيف عرفت؟

- إنه أحد عملائي. اعلم أن سفراءك لم يصلوا أبداً إلى الأمكنة المقصودة. كان علينا أسرهم منذ ذلك الحين وتحت الإكراه لم ينقطعوا عن إشباعك بالأخبار الكاذبة التي أخطأت بالثقة بها. جيشك العظيم لا وجود له، ولم يكن موجوداً أبداً.

- ضاعت قرطاجة إذن؟

- نعم. ومع ذلك، وبالنظر إلى مكانتك وتقديراً لشخصك، صمم سيبيون أميليانوس أنك إن قبلت الاستسلام فأنت وزوجتك وأولادك وعائلتك وعائلات ضباط أركان حربك ستكونون أحراراً في الرحيل إلى المكان الذي تختارونه مزودين بعشر تالانات من الفضة وعبيدكم.

عند سماع هذا العرض خرجت عن طوري حاولت كثيراً أن أحافظ على هدوئي، لأنني لا أريد أن أظهر أمام غولوسا كرجل غير مهذب بعد محاولته تليين موقف حليفه القوي. وعندما استعدت هدوئي نظرت إليه بحزم وقلت له:

- أشكرك يا ابن ماسينيسا لأنك وافقت على التوسط لصالحنا. لا أعتبرك مسؤولاً عن اقتراحهم المعيب. قل لسيبيون: الآلهة والقدر يشهدان أن الشمس لن ترى على الإطلاق قرطاجة مدمرة وحسدروبال حياً. أنبل الرجولة أن يدفن الرجل الكريم تحت أنقاض وطنه إذا لم ينجح في إنقاذه.

* * *

عدت إلى قرطاجة ولم يلاحظ أحد غيابي، دهشت لجو الحبور الذي كان يسود المدينة وعلمت سريعاً السبب. قوافل الحبوب الواردة من مصر وبلاد الغال وصلت أخيراً. من الآن فصاعداً، وبالتقنين الشديد على السكان، يمكننا أن نصمد أيضاً عدة أشهر. عادت الثقة إلى نفس مواطني، وأمكنني أن أوطد سلطتي وسلطة والدي على مجلس المئة وأربعة.

عندما أدرك سيبيون أميليانوس أن مدينتنا غدت في مأمن من الجوع قرر منع المراكب الأجنبية من دخول مرفئنا بسد مدخله بحاجز تبلغ سماكته أربعة وعشرين قدماً عند القمة بينما تصل سماكة قاعدته إلى ستة وتسعين قدماً، شيد بين نهاية بحيرة تونس والمضيق الواقع على مدخل مرفئنا التجاري. عمل على إلقاء كتل ضخمة من الصخور في البحر، جلبها آلاف الأسرى والجنود الذين تحولوا مجدداً إلى ردّامين.

عندما تنبهت إلى إنشاء هذا الحاجز الضخم أمرت بعدم العمل على عرقلته. يجب على الجنود الرومان أن يُرهقوا بهذا العمل الشاق. ومع انتهائهم منه طلبت من جميع أعضاء حاميتنا وجميع

أفراد الشعب القادرين الاجتماع في المساء نفسه على ضفة المرفأ التجاري ليفتحوا ثغرة في السور الذي يفصله عن البحر. عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأولاد عملوا على ضوء المشاعل ليلاً ليهدموا جزءاً من سورنا. أمكن للرومان وهم في معسكرهم أن يسمعوا جلبة تصم الآذان لكنهم عجزوا عن معرفة ما يحدث. في الصباح كانت ثغرة واسعة قد فتحت في مكان يمنع فيه عمق المياه وشدة التيارات أبناء الذئبة من إنشاء سد آخر.

بوساطة هذا الممر أمكن لأسطولنا الحربي أن يخرج ويتوجه نحو المراكب المعادية. وقد كانت هذه في حراسة قبضة من الجنود والبحارة، لأن سيبيون عمل على إرسال ملاحيها ومجذفيها إلى اليابسة لإنشاء سد لمواجهة الموج. أما قادة أسطولنا فقد اكتفوا أن يصادفوا في عرض البحر الأسطول المعادي دون أن يخوضوا حرباً معه. تأخر الأسطول المعادي ثلاثة أيام حتى تسنى لسيبيون إعادة رجاله على متن زوارقهم الحربية. صعد كل الشعب في قرطاجة إلى الأسوار ليشاهد المعركة ويشجع بحارتنا. على متن ثلاثيات مجاذيفهم وخماسياتهم صدموا وأغرقوا عشرات المراكب الرومانية قبل أن يلتحقوا بالمرفأ مع هبوط الليل، مع بعض الصعوبة من خلال الثغرة المفتوحة في سورنا، فهي في الواقع ضيقة ولا تسمح إلا بمرور سفينة واحدة. دخلت السفن الخفيفة والصغيرة بسرعة بينما التحقت السفن الأخرى بالتانيا، ذلك الرصيف القديم المستخدم سابقاً لإنزال البضائع. وجهت مقدمة السفن نحو البحر من أجل إلقاء المرساة انتظاراً للفترة المؤاتية للالتحاق بالمرفأ العسكري.

يجب الاعتراف بأن هذا النجاح غير المتوقع أثار فرحنا العارم بحيث أهملنا اتخاذ الاحتياطات الأكثر أهمية. طوال الليل انتشر الجمهور في الشوارع للاحتفال بانتصارنا وانضم إليهم حراس الأسوار ليرقصوا ويغنوا. استغل الملاعين أبناء الذئبة المناسبة ليقيموا على طرف حافة التانيا وليسيّروا إليها بصمت آلات حربهم

ومنجنيقين ضخمين، وبدؤوا مع الفجر في خرق السور الذي بنيناه بين رصيف المرفأ والسور. لا يمكننا لإزاحة الرومان استدعاء أسطولنا، ففي ذلك المكان توجد في الواقع سفننا المثقلة بالمنجنيقات وستتعرض للغرق في حال إبحارها. كما لا يمكن اللجوء إلى هجوم أرضي نظراً لضيق الضفة، وسيتعرض رجالنا للإبادة بسهام نبالهم قبل بلوغ هدفهم.

خطرت عندئذ لماغون فكرة عبقرية. جمع عدة آلاف من الرجال، وأمرهم بأن يخلعوا ثيابهم ويلقوا بأنفسهم في البحر وسلاحهم الوحيد مشاعل مطفأة. كانت أجسام جنودنا تغوص في الماء حتى الجذع، وقد انزلقوا في الظلمة على طول المرفأ التجاري والتانيا وبعضهم يسير بصعوبة والآخرون يسبحون. وهكذا اقتربوا من آلات حرب العدو بينما كان مدافعوها يغطون في النوم. فجأة وبإشارة من ماغون، اشتعلت حافة التانيا بالمشاعل سريعاً وأحرقت المنجنيقات والمدكات المائية، ورمت الذعر في صفوف العدو. انسحب الجنود الرومان في فوضى إلى معسكر القنصل الذي استيقظ وحاول إعادة النظام إلى نصابه، حتى لو اضطر إلى قتل بعض الهاربين بيده لتشجيع الآخرين على القتال. خلال ذلك الوقت، وبعد أن أتم ماغون ورجاله حرق كل شيء حتى آخر منجنيق التحقوا بمدينتنا سالكين الطريق الذي ذهبوا منه بالذات.

لم نكن ندري أن تلك المفخرة الجديدة بأن يسجلها التاريخ هي آخر انتصاراتنا. اغتاظ سيبيون أميليانوس من المقلب السيئ الذي لعبناه معه، فعزم على الانتقام بإطلاق هجمات مضادة ومتواصلة استمرت بضعة أيام، اضطرتنا لإخلاء مواقعنا الأمامية وضياع التحكم في التانيا. عمد عند ذلك إلى إقامة جدار من الآجر مماثل لارتفاع سورنا ووضع في أعلاه أكثر من أربعة آلاف نبالٍ أدى إلى تعذر إجراء غارة برية، وأخذت مراكبه موقعها على طول الرصيف الذي غدا من الآن فصاعداً تحت الرقابة نهاراً وليلاً. أصبحنا الآن

واقعين في فخٍّ. غدت قرطاجة قفصاً بأبوابه المغلقة بإحكام حتى وإن استطاعت في أوقات منتظمة بعض المراكب التجارية أن تتغلب على الحصار الروماني وتحمل إلينا المؤن التي نحتاج إليها.

ذات صباح تنبهت إلى أن المعسكر الروماني نصف فارغ. توجه سيبيون أميليانوس مع فوجين من الكتائب قاصداً نفريس ليستولي على تلك القاعدة التي يديرها معاوني، ديوجين. أنذرته بالخطر المتوقع، لكنني كنت عاجزاً على أن أمده بالعون ولم يكن لدي إلا التوسل لآلهتنا لتقوده إلى الانتصار.

خاتمة

كان ديوجين جندياً إغريقياً، صديقاً لأريسته، معلمي السابق. وهو ينتسب إلى كورنثوس ويضمر لأبناء الذئبة حقداً لا يمكن التكفير عنه، لأن هؤلاء جذبوا إلى كمين معظم أفراد عائلته المشتبه بتعاطفهم مع بيرسة المقدوني، وقتلوهم حتى آخر واحد منهم. حضر يعرض علينا خدماته منذ بداية الحرب، وتزوج إحدى أخوات ماغون مساعدي الحربي، فكافأه مجلس المئة وأربعة على إخلاصه بمنحه اسم المواطن القرطاجي.

هو خبير بالخطط الحربية، ضنين بحياة رجاله، وقد استطاع بقدراته أن يضم إليه قبائل عديدة من أمبوريا بعد أن وعدهم بإعفائهم من الضرائب ومن توزيعات الأراضي المصادرة من حكام المدن البونية الذين خانوا، بشكل معيب، قضيتنا. إنه الآن على رأس جيش من سبعين ألف مقاتل منهم عشرون ألف فارس، وبفضله استطعنا أن نحافظ على سلطتنا في منطقة رأس بون وسهول القمح الفسيحة الغنية بالحبوب في جنوب نيابوليس حيث يعمل على تزويدنا بكميات هائلة منها.

قام سابقاً بهجمات جريئة ضد المواقع الرومانية والنوميدية في المناطق المجاورة، واستطاع أن يشل حركة جنود سيبيون أميليانوس الذي كان في أمس الحاجة لهم أمام أسوار قرطاجة. لذلك لم يكن من المستغرب أن يعمد القنصل إلى اصطحاب فرقتين من

الجيش الروماني وعددٍ مماثلٍ من جنود حلفائه أي ما يقارب عشرين ألف رجل، ساعياً إلى وضع حدٍ نهائيٍّ لديوجين وإبعاد أذاه. لم أكن قلقاً عليه فله مزية العدد. وبإمكانه أن يرص صفوفاً أكبر ثلاث مرات من قوى عدوه. نظرياً على الأقل، لأن الأمور في الواقع كانت أكثر تعقيداً. روى لي بوليب بعد سنوات عديدة من الأحداث أن حفيد سيبيون الأفريقي كان يعرف بشكل مدهش تقاليد النوميديين ونفورهم من القتال الطويل مبتعدينٍ عن عائلاتهم. وهكذا باشر بأعمال إلهاء ضد الأمبوريين، عاملاً على إنزال المقاتلين لتخريب تلك المنطقة، يحرقون القرى والمحاصيل ويذبحون دون شفقة عائلات مرتزقتنا.

عجل هؤلاء إلى نجدة ذويهم، وليس ذلك في نظرهم هروباً. عند انتهائهم من أولئك الذين يهددون عائلاتهم يلتحقون بنفريس، وأصموا آذانهم عن توبيخات ضباطهم. ترك الآلاف منهم مواقعنا ليحرموا ديوجين من بعض قواته. اطّلع جواسيس أبناء الذئبة الذين يعملون في نفريس على هذه الأمور، ونقلوا صورة الوضع إلى معلميهم مشيرين إلى حالة السور السيئة الذي لحق به الضرر في موقعين منه بسبب الأمطار الغزيرة، دون أن يفكر أحد بإجراء الإصلاحات اللازمة. عندئذ دبر سيبيون أميليانوس إحدى تلك الخطط الجهنمية التي يجيدها ويمتلك أسرارها، وقسم جيشه إلى قسمين.

عمل على توزيع القسم الأول إلى ثلاث فرق تعمل في رأس بون وجنوب نفريس. تلقى قادة هذه الفرق الأوامر بالتظاهر بالتعب والذعر عند بدء اشتباكهم مع قواتنا، مما دفع ديوجين للتفكير بقدرته على سحق تلك المفارز إحداها بعد الأخرى. وهكذا أخلى معسكره وأطلق القسم الأعظم من رجاله لملاحقة الرومان. وبسير حثيث عمل القائد على توجيه القسم الثاني باتجاه معاقلنا المتقدمة الواقعة على نحو عشرة ستادات من نفريس، وانطلق في هجومه

واختار هدفاً له إحدى الثغرات المفتوحة في السور. اندفع إليها معاوني بكامل مشاته التي يملكها وألحق بالمهاجمين خسائر هامة. وعند رؤيته لهم يتراجعون خرج من السور ليسحقهم في أرض مكشوفة.

غير أن حفيد سيبيون الأفريقي بالتبني ترك احتياطياً من ألفي فارس نوميدي مختبئين في غابة، وقد خرجوا مع هبوط الليل من مخبئهم واخترقوا المعسكر، يذبحون المدنيين وبعض الحراس القائمين في الحراسة قبل إحراقه. وفي الوقت نفسه أشارت الأبواق إلى الوصول الطارئ للقسم الأول من الجيش العائد بسرعة للالتحاق بالجيش الروماني الكامل. هزموا مشاتنا وفرساننا بقيادة ديوجين. لاقى الأخير صعوبة كبيرة في جمع رجاله والعودة بهم خلف أسوار نفريس حيث لا شيء يؤمن له الصمود أمام حصار طويل. فالمدينة تعاني من نقص الأغذية وقد قطع أبناء الذئبة القناة التي تغذي المدينة بالمياه.

قاوم معاوني، وقد وقع في كمين، مقاومة يائسة مدة اثنين وعشرين يوماً. وعندما وُضعت آلات حرب العدو في أسفل السور، لجأ مع مئة من رجاله إلى القلعة يلاحظ من أعلى الجدران أبناء الذئبة ينهبون ويحرقون المنازل ويقتلون بالسيف، في الوقت نفسه، الجنود المدافعين الذين لم يستطيعوا اللحاق به والمدنيين. رغم توسلات الأخيرين، لعدة مرات اقترح سيبيون أميليانوس على ديوجين الاستسلام وفق مراسم الحرب لكنه خشي أن ينهي حياته أسيراً، وفضل الانتحار مقلداً جميع رفاقه في حظهم العاثر.

أدى سقوط نفريس إلى استسلام آخر المدن التي بقيت أمينة لنا، وخاصة أسبيس وهيبودياريتوس. قاتلت هذه المدن ببسالة إلى جانبنا، لكن حزب السلام فيها رفع رأسه وأقنع القضاة أن كل مقاومة غدت من الآن فصاعداً دون جدوى. تصرف القنصل معهما بمهارة سياسية: ضَمِنَ للسكان حياتهم سالمة مع حماية أملاكهم،

وشملت تلك الإجراءات حتى المدافعين عن المدينة شرط أن يتعهد هؤلاء ويقسموا على عدم حمل السلاح ضد روما حتى نهاية الحملة. أوقعت بنا هذه التحولات ضربة شديدة. غدونا من الآن فصاعداً وحيدين، وحيدين بشكل مأساوي. دارت مناقشات حامية في مجلس المئة وأربعة لتحديد السلوك الواجب اعتماده. وجب عندئذ أن أكشف لأعيان مجلس المئة وأربعة المداولة الجارية لي مع غولوسا: رغم كل ما نفعله، فإن أبناء الذئبة قد صمموا على مسح قرطاجة والانتقام من المدنيين عن قتل أسراهم. لا حل أمامنا إلا أن نقاتل حتى الموت آملين أن تحقق المحسنة تانيت معجزةً لمصلحتنا.

أدرك سيبيون أميليانوس الهدف ونظم عندها احتفالاً جمد قلوبنا ذعراً. طلب مني هدنة يومين ليستطيع إقامة احتفال ديني. فكرت أنه يريد تكريم ذكرى أمواتهم، وكنت من الضعف بحيث لبيت طلبه. في اليوم الثاني من وقف القتال المؤقت جمع القنصل كل جيشه على مسافة قريبة من باب ميغارا. أعدت مذابح وهياكل على عجل، وتحت جنح الظلام، حول تماثيل آلهتنا المنقولة من المعابد المشادة قديماً في الضاحية. تقدم سيبيون أميليانوس برفقة ضباطه الرئيسيين والكهنة من الرومان والقرطاجيين ـ وقد ضمن لهؤلاء الأخيرين الحرية لقاء اشتراكهم في الصلوات المزمع إقامتها ـ ضحّى بمئات الذبائح على شرف آلهة روما وآلهة مدينتنا، ثم وقف في مواجهة سورنا، وقد تجمع عليه جمهور غفير، وأطلق بصوت جهوري خطاباً طويلاً ليتمكن الجميع من سماع كلماته:

ـ يا آلهة قرطاجة، في هذا اليوم من الصلاة والخشوع، أنا بوبليوس كورنيليوس سيبيون حفيد سيبيون الأفريقي بالتبني، وسليل بول إميل المقدام، الذي لقي الموت المجيد في كانّاي. أعلن بصوت عال إنني احترمكم وأبجلكم بمقدار احترامي وتقديري لجوبيتر كابيتولن، أو جونون، أو مارس إله الحرب. إنني أعرف مقدرتكم الهائلة، وأعلم أنكم كنتم مرات عديدة مع هذه المدينة

لإنقاذها عندما كان يقودها رجال أفاضل وذوو قدر. اعلموا أن ليس لكم ما تخشونه منا فنحن أبناؤكم المحبون المطيعون. ففي أوتيكا، وحدريم، وأسبيس، وهيبوديباريتوس، جثوت في معابدكم وقدمت أعطيات سخية ليتمكن كهنتها من الاستمرار في تكريمكم كما تستحقون. أحببت أن أفعل الشيء نفسه لقرطاجة. أنتم تعلمون أن مجلس الأعيان في روما بحكمته الواسعة وعد بعدم تدمير معابدكم إن رضي سكان هذه المدينة بإعادة بنائها على بعد خمس وثمانين ستاداً عن البحر.

«عنادهم الإجرامي أدى إلى الاستيلاء عليها الذي سيتم قريباً. في أتون المعارك أخشى أن تمتد النيران بشكل كامل، وتدمر مساكنكم. أطلب منكم إذن يا أرباب وربات قرطاجة أن تتخلوا عن هذه المدينة، وأعدكم بأننا سنشيد في روما محاريب رائعة تقام فيها شعائركم يومياً. ستأخذون مكاناً في مدفن عظمائنا وسنستقبلكم كما استقبلنا أرباب وربات حلفائنا الإغريق والإيطاليين والإيبيريين.

«أتوجه بهذا الدعاء خاصة إلى تانيت النبيلة والمحسنة، أم وحامية قرطاجة، التي نجلّها نحن باسم جونون، آه أيتها الأم العظيمة رأيتك في الحلم وأردت بملء خاطرك منحي بركاتك. تحت ظل حمايتك أضع جيشي وأشكرك مقدماً على البركات التي منحتني إياها.

«أما أنتم أيها البونيون الذين تستمعون لي من أعالي سوركم، ارتعبوا وفكروا ملياً بكلماتي. آلهتكم، المغتاظون من الأعمال المتهورة التي تجعلكم مذنبين، قرروا معاقبتكم. وستكون مناسبة طيبة لتقدموا البخور والأضاحي، بل وحتى أبناءكم بالذات كما جرت العادة لدى شعبكم البربري. لكنها ستكون دون جدوى. لقد هجروا محاريبكم وحضروا ليستظلوا بحمايتنا.

هتافات الصياح وصرخات القنوط استقبلت خطابه. وللحال استدعيت معلمي السابق هيميلكات كاهن بعل إشمون لأطلب منه تنظيم سهرة صلوات، في معبده الواقع أعلى هضبة بيرسا المقدسة، على أن يحضرها جميع أعضاء مجلس المئة وأربعة. نفذ جميع أوامري، وفي المساء نفسه، تسلق قضاتنا يتبعهم جمهور غفير السلم الأثري المفضي إلى المحراب. لم أر يوماً شعباً يتضرع بمثل ذلك الورع لتلك القوى السامية التي يتوقف عليها خلاصنا. وبينما كان الجميع مستغرقين في التأمل، ويستمعون إلى ابتهالاتهم، هبت عاصفة عنيفة محدثة وميض برقٍ تبعتْهُ صاعقة سقطت على سطح المعبد مسببةً أضرار جسيمة. حاول هيميلكات قدر استطاعته أن يطمئن المؤمنين ويشرح لهم أن بعل إشمون يظهر بذلك غضبه ضد خطاب سيبيون أميليانوس، واستنتج كثيرون أن هذا الإله قد تخلى عنهم وعادوا إلى منازلهم ليخبئوا كنوزهم الشحيحة، وليبحثوا عن ملاجئ توقعاً لهجمة نهائية.

* * *

مرت عدة أشهر قبل أن ينتقل أبناء الذئبة للهجوم. علا التوتر من يوم إلى آخر وهرعت النساء الحوامل إلى قابلات خبيرات ببعض الأعشاب الطبية ليسقطن الأجنة التي ينتظرنها، لأنهن يعرفن أن هذا الطفل إن رأى النور سيذبح أو يحول إلى عبد رقيق. صدّ الحراس خلال مرات عديدة الجنود الفارين الذين يسعون للوصول إلى عرض البحر على متن زوارق خفيفة أو للانزلاق على طول السور بحبال قليلة المتانة. ذات صباح نشبت المعركة الحاسمة. استغل سيبيون الظلمة فهدم الجدار الآجري المرتفع سابقاً في نهاية التانيا حيث كبد نبالوه دفاعاتنا خسائر رهيبة. فتحت آلات الحرب الجديدة الواردة من أوتيكا ثلاث ثغرات هائلة في السور المانع لدخول المرفأ التجاري. عمدت لإعاقة تقدمه إلى إحراق جميع المراكب الموجودة فيه والى إحراق الأرصفة حيث كانت ترسو سابقاً الزوارق التي أثرت

مدينتنا. حال جدار حقيقي من اللهب دون تقدم فيالق الأعداء خلال النهار.

بينما كنت منشغلاً بمراقبة تلك العمليات اقترب لاليوس، أحد معاوني القنصل، مع بعض السفن إلى القسم الحامي للمرفأ العسكري من السور، وبعد تعرضه لخسائر عديدة أرسى عدة آلاف من الرجال تسلقوا الأسوار وأصبحوا سادة المكان. اضطررت مع ضباطي وعائلتي إلى مغادرة مبنى الأميرالية والالتحاق بالمدينة بالذات حيث بدأ الذعر يسود. جمع السكان ممتلكاتهم الهزيلة واختلطوا بالآلاف بجنودنا معرقلين حركة هؤلاء.

عند تعذر قدرتنا على إعادة الانتشار لصد المهاجمين وجب علينا ونحن في منتهى اليأس أن نتراجع إلى الدفاع عن مبنى مجلس المئة وأربعة حيث التجأ إليه القضاة الرئيسيون لمدينتنا لعقد اجتماع تلو الاجتماع. مع الفجر، وبينما النيران تدمر كل حي المرفأ، أدخل سيبيون إلى المدينة قوات جديدة أخذت مواقعها في المقام والمناطق المجاورة له، وقضت على مقاومة الجُزر الأخيرة في قسم السور المشرف على ميغارا. مع ذلك لم نفقد الأمل كلياً. مع ضباط قيادتي باشرت برفع متاريس في الأحياء التي تفصل المقام عن قلعة بيرسا التي يعلوها معبد بعل إشمون.

خلال ستة أيام بلياليها جرت المعارك العنيفة المتواصلة في شوارع تلك المدينة الضيقة المحاطة بأبنية طابقية بعلو ستة طوابق. تحول كل منزل إلى قلعة صغيرة حقيقية حيث أمطر جنودنا والمدنيون على الرومان أمتعة المنازل وكتل الحجارة والزيت الفوار. دار بعد دار وطابقاً بعد آخر، هبت المدينة كلها تقاتل ببسالة مكبدة العدو خسائر باهظة. انتقلت بعض المساكن من يد إلى يد عدة مرات، وأُجبر أبناء الذئبة على سلوك الشوارع الضيقة المتصلة فيما بينها بممرات ضيقة لا يعرفها إلا سكانها.

أقمت في معبد إشمون مع ضباط قيادتي وأمكنني أن أتأمل المشاهد البغيضة التي تدور في المناطق المنخفضة. عندما يستولي الرومان على منزل يعمد ساكنوه إلى اللجوء إلى السطح مفضلين إلقاء أنفسهم مع نسائهم وأولادهم على حراب جنود الرومان بدلاً من أن يقعوا أحياء بين أيديهم. كان بعضهم يقتل في الحال، أما الآخرون المثقلون بالجراح والكسور فيضطجعون أرضاً، وهم يحتضرون بآلام مبرحة لأن العدو الثمل للانتقام يرفض إنهاء حياتهم، بل يصب عليهم أحياناً زيت القطران المحروق أو يلقي على جراحهم الملح، ويرفض أن يقدم لهم جرعة ماء ليشربوها. من كل مكان كان يسمع صراخ المحتضرين ينادون أفراد عائلاتهم أو يتضرعون إلى آلهتهم لتخفف آلامهم. جدير بي القول: إنني امتلأت إعجاباً بمواطني. انقضت فترة طويلة على هؤلاء وقد احتقروا مهنة الحرب، تاركين مهمة الدفاع عن قرطاجة إلى المرتزقة الأجانب، وبينما قرطاجة في طريقها إلى الزوال، كانوا يهرعون مضحين بالجسد والروح لأجلها متأكدين من عدم قدرتهم على العيش بعد اختفائها. استمرت مقاومتهم الشديدة نحو سبعة أيام. أخيراً توصل سيبيون أميليانوس إلى السيطرة على الموقع بعد أن أحضر من أوتيكا قوات جديدة، وتراجع المدافعون عنه وعددهم خمسون ألفاً نحو القلعة حيث أغلقت أبوابها البرونزية الثقيلة .

هكذا توقفت المعارك فجأة مثلما بدأت، وليتمكن من تجهيز منجنيقات الحرب التي يحتاج إليها ليدمر آخر تحصيناتنا، أمر القنصل بأن يمسح كلياً جميع المنازل نصف المدمرة التي وجدت قواته صعوبة كبيرة في الاستيلاء عليها. ثم أضرم الجنود الرومان النار في الأثاث، على الأقل ما بقي منه. كانت جدران البيوت التي أحرقتها النيران تنهار بقرقعة تصم الآذان، بينما النساء والأولاد والعجائز الذين مايزالون في الأقبية والمخابئ المعدة لهم يحاولون دون جدوى الهروب من أتون النار.

عندما تحول كل شيء إلى رماد عمد القنصل إلى تكليف آلاف الأسرى برفع الركام وإلقائه في هوة كبيرة حفرت في مكان المقام، أعمدة، وأحجار، وجثث مايزال بعضها يتنفس. جُرّت أجسامهم بوساطة المذاري والرفوش على طول الطريق من قبل جنود فقدوا كل إحساس بالشفقة وتصرفوا مثل البهائم المتوحشة. من الصعب جداً أن نلومهم. كل شيء كان يسعى إلى أن ريحاً هستيرية تنفخ في مدينتنا وتسير بها إلى الاحتضار: ضجيج الأبواق والأوامر المرسلة بصوت أجش من قواد المئات، وفرقعات اللهيب وصيحات المحتضرين التي كانت تملأ أبناء الذئبة بغضب شديد يطغى على كل شعور إنساني.

بعد أن أنهى الجيش الروماني رفع الأنقاض، انصرف إلى هدنة امتدت ثمانية أيام. فتش فيها الجنود بين الركام بحثاً عن كنوز كانت مدفونة من قبل مواطنينا التعساء. في كل مرة يكتشفون فيها بعض القطع الذهبية أو الحلي يطلقون صيحات الفرح. في المساء كانوا يلعبون بالنرد والمراهنة بالقمار على الثروات التي جمعوها، وينتهي كل شوط بمشاجرات عنيفة يجد قواد المئة صعوبات كبيرة في وضع حد لها.

عمد سيبيون أميليانوس إلى مكافأة بسالة جنوده، فسمح لهم بالاستيلاء على أملاك الشعب. وبالمقابل منع عنهم الدخول إلى مباني مجلس الأعيان، وكذلك إلى المعابد والقصور الأرستقراطية. الكنوز التي تحويها هذه المباني تعود من الآن وصاعداً إلى روما. وهو لا يقبل أي استثناء لهذه القاعدة، لذلك لقي بعض الجنود الذين سلبوا الصناديق الممتلئة ذهباً من أثرياء عائلات مدينتنا عقوبة الموت دون رحمة. رغب بعض الناجين من الحرب المتشوقين دون شك للحصول على حريتهم إلى إرشاده إلى الكنوز التي تفيض بها مبانينا العامة. وهكذا تمكن أبناء الذئبة من الاستيلاء على مكتبة مجلس الأعيان التي تحتوي أكثر من ثمانين ألف مخطوطة وملفات

قديمة للمدينة تعود لعهود سحيقة. فُحصت الثانية بعناية وأرسلت إلى روما. أما الأولى فقد عمد القنصل إلى توزيعها بين غولوسا وأخوته ومواطنينا في أوتيكا وحدريم، منقذاً بذلك من الخراب مدونات شعرائنا ومفكرينا ومهندسينا الزراعيين.

* * *

مع أكثر من خمسين ألفاً من سكان مدينتنا لجأت إلى قلعة بيرسا، وسررت لرؤية أهلي كلهم، إميلكة وولدينا وعريشات. وحده موتومبعل لم يكن موجوداً. لا أعلم إن كان أسيراً أو قتيلاً. ذات مساءٍ أعلمني ماغون بالحقيقة المؤلمة التي أخبره بها أحد حراس مجلس المئة وأربعة الذي نجح في الهرب والالتحاق بأحد مواقعنا. كان والدي قد بقي داخل مبنى مجلس الأعيان عندما دخل الجنود الرومان إليه، وبينما زملاؤه يسجدون عند أقدام العدو يرجونه أن يعفو عنهم وبعضهم يؤكد أنهم كانوا على الدوام مؤيدين للسلم مع مدينة رومولوس، وهو جالس على الكرسي الذهبي المصمت المخصص له، واجه بجرأة الدخلاء يتحداهم ويشتمهم، قبل أن يسقط قتيلاً بعد أن اخترقته سهام عديدة.

تأثر سيبيون أميليانوس ببسالته، فأمر بأن يعد له مأتم مهيب بحضور جميع زملائه الذين لامهم على جبنهم ونفاقهم، وتمنى لو استطاع قتلهم دون أي تبكيت ضمير. لم أحزن لموت موتومبعل، فهو الذي كان يقود أقوى مدينة في أفريقيا لن يستطيع أن يستمر على قيد الحياة بعد دمار مدينته وإنهاء أيامه في الأسر. بل أكثر من ذلك، فزواله يحررني من عبء كبير. ويمكنني من الآن وصاعداً أن أتصرف على هواي دون أن يخيفني حكمه. لأول مرة في حياتي غدوت الآن حراً، وقد كان لهذا الأمر تأثيره على تتمة الأحداث.

عند استئناف المعارك انقلبت سريعاً لغير صالحنا. تغلبت المنجنيقات بعد فترة قصيرة جداً على أسوارنا وقلعتنا واضطررنا

إلى إخلائها سريعاً لنتوجه إلى معبد بعل إشمون، الواقع في أعلى هضبة بيرسا والذي يمكن الوصول إليه بسلم من ستين درجة يسهل الدفاع عنه. أجريت مع ماغون وضباط قيادتي اجتماعاً لبحث الخطة الواجب اتباعها. المعبد الذي التجأنا إليه كان حصيناً تقريباً شرط ألا يعرقل أعمال جنودنا وجود مدنيين تبعوننا وهم أفواه لا تجدي تغذيتهم.

إذا غادر هؤلاء المدنيون المكان أمكننا أن نصمد عدة أشهر ونحصل من الخصم على شروط استسلام ملائمة، فدعوت هيميلكات، الكاهن الكبير، أستاذي السابق، لأطلب منه التفاوض مع الرومان لإجلاء غير المقاتلين. مازلت أذكر الكلمات النبيلة التي بدرت من القنصل خلال تضرعه لآلهتنا وكنت مقتنعاً بموافقته على ضمان حياة آمنة لجميع أولئك الذين يمثلون أمامه ويضعون أنفسهم تحت حمايته. صلى هيميلكات طويلاً ولكنه استجاب أخيراً إلى صلوات مواطنينا التي ينفطر لها القلب منفذاً المطلوب بحذر شديد.

نزل هيميلكات، معتمداً على أريسته الدرجات الستين المؤدية إلى المراكز الرومانية المتقدمة، وجرى له مع سيبيون أميليانوس حديث طويل. وعندما عاد كان قاتم الوجه، فعلمت فوراً أن مهمته قد باءت بالفشل غير أنه طمأنني بصوت خافت:

ـ لا أستطيع أن أخبرك بفحوى محادثتنا الكاملة، لأسباب شخصية يجب أن أحافظ على بعض الشروط المتعلقة بي. إنما أخبرك مع ذلك أن القنصل بدا متأثراً بحججي. عرفت منه أنه لن يعمد إلى ذبح الجميع، المدنيين والعسكريين، الذين سيستلمهم رجاله. إنما للأسف يجب أن أنبهك إلى أن هذه المعاملة لا تتضمن الرأفة بالمنشقين النوميديين. لم يستطع حول هذه النقطة إثارة شفقة غولوسا. هذا الأخير يعتبرهم خونة ويرفض منحهم صفحه.

ـ فعلت أفضل ما تستطيع وأنا أشكر بكل صدق حصولك على هذه النتيجة. دروبنا ستفصل بيننا من الآن وصاعداً، ويجب أن أقول

لك إنني أكن لك كل مودة وإعجاب. تصرفت تجاهي مثل والد وبرهنت عن تسامح بالنسبة لي، عندما كنت تلميذك أتحت لي أن أغدو ما أنا عليه. أنت رجل طيب وأرجو من بعل إشمون أن يكافئك على جميع النعم التي أغدقتها علي. اسهر على أريسته الذي أدين له بالكثير.

تم تبادل الإشارات بين محطاتنا الأمامية والمراكز الرومانية. وتوقفت المعارك لبعض النهار لإتاحة الفرصة لنحو خمسين ألف قرطاجي من الرجال، والعجائز، والنساء، والأولاد لمغادرة معبد بعل إشمون، متخلين عن بعض الملكيات الشحيحة التي تمكنوا من حملها خلال هربهم. شكلوا موكباً ورأيناهم يستسلمون لأبناء الذئبة ويتوجهون إلى ضاحية ميغارا حيث أشعلت نيران محارق لحرق الآلاف من ضحايانا الذين هلكوا في قتال الشوارع. عندما هبت الريح كانت تحمل معها نحو القلعة الرائحة الكريهة للجثث التي التهمتها النيران.

* * *

في المعبد اقتصر عددنا على تسعمئة شخص فقط من الآن فصاعداً. كان إلى قربي عريشات وإميلكة وولداي. عدا ماغون تخلى عني جميع ضباطي وقادتي وجميع الجنود القرطاجيين ولم يبق لدي كمدافعين سوى فرسان بيتيا النوميديين. هم يتوقعون عدم رحمة المنتصرين بهم وقد قاتلوا بشراسة اليائس من الحياة، وصدوا هجوم الأعداء مرات عديدة بعد تكبيدهم خسائر جسيمة.

ذات مساء حضرت عريشات للقائي:

ـ حسدروبال، أعرفك على قدر الذكاء لتعلم أن قرطاجة قد ضاعت. المدينة تدمرت وسلمت لمعاول الرادمين. ما فائدة العناد في متابعة القتال. أنت تعلم أنني نشأت في كنف عائلة بوبليوس كورنيليوس سيبيون كوركيلوم وابن أخيه، عدوك، اعتبرني على

الدوام مثل واحدة من أهله. إن أردت يمكنني أن أتوسط لمصلحتك ومصلحة ذويك، أنت أعلمتني أن غولوسا أرسل من طرفه اقتراحاً يعرض عليك فيه الأمان لك ولأتباعك إذا وافقت على إلقاء السلاح. وأنا واثقة أنه مايزال مرتبطاً بكلامه فهو رجل شريف، ولا يرجع عما يقوله.

- أنت تنسين بيتيا وجنوده النوميديين لقد قاتلوا ببسالة إلى جانبنا وسيكون التخلي عنهم خطأ لا يغتفر.

- أنا لا أناقش بسالتهم وهم ينتمون إلى شعب خاننا وهو مسؤول عن تعاستنا، وما سيحدث لهم ليس إلا ثمن خيانة أسلافهم لنا. فكر بالمقابل بابنك وابنتك. إنهما يافعان في مطلع العمر ولا يستحقان الموت. بقبولك الاستسلام للقنصل تستطيع أن تأمل أن يجنبهما الموت ويعاملهما المعاملة التي تليق بمكانتهما. أعرفه قادراً على هذه التصرفات الشهمة. بعد كل حساب صديقه بوليب ينتمي أيضاً إلى عائلة قاتلت روما مدة طويلة. وهذا لم يمنعه من أن يتخذه الآن موضع ثقته. ينتسب أولادك من ناحية الأم إلى هميلقار المجيد، سلالة البرقاويين، التي صنعت الفخر الذي لا ينطفئ لمدينة إليسا. من يعلم؟ غداً يمكن لابنك أن يرفع راية أسلافه ويعيد بناء مدينة هناك في المكان الذي سيجد فيه ملاذاً، مدينة سيسميها قرطاجة وسيتمكن الأحياء الباقون من شعبنا اللجوء إليها.

- اتركي لي بضعة أيام أفكر فيها باقتراحك وسأعلمك بجوابي في أقرب وقت. ومع ذلك اعلمي أنني لن أكتفي بالمرافعة فقط لمصلحة ذويّ، لكنني سأطلب من القنصل صفحه عن المنشقين النوميديين. إن عدم الاهتمام بمصيرهم يعد جريمة وأنا لا أشاطرك الرأي بالنسبة لهم. إنهم لا يستحقون اللوم، بعكس غولوسا وأخويه.

أعترف أنني لم أتمالك الشجاعة لأسرّ إلى زوجتي إميلكة بما قالته لي عريشات، إلا أن الساعات التي كنت أقضيها مع ولدي أربكتني بشكل عميق. لم يشعرا بما يجري حولهما، كانا يلعبان

داخل المعبد ويغمرانني بالقبلات عندما اقترب منهما. بتأملهما، أدركت أنه من غير المحتمل رؤية سيف الجلاد الروماني يقطع عنقيهما، إنني والدهما ومن واجبي أن أفعل كل شيء لإنقاذهما حتى وإن اعتبرت خائناً في نظر بعضهم. أخبرت خليلتي أنني قررت اتباع نصائحها وأننا سنستسلم للرومان عندما تسنح الفرصة.

في ليلة غاب قمرها، وخيم ظلام قاتم حجب خنادقنا، قدمت الخمر للحراس المناوبين على مدخل المعبد وسرعان ما غلبهم النوم بعد أن ثملوا. مع عريشات ومرافقي ماغون، وقد أطلعته على السر، انتهزت الفرصة لأنسل إلى خارج السور. تقدمنا بصعوبة واعترضتنا دورية رومانية عرّفت بنفسي على آمرها قائد المئة وطلبت منه أن يسير بي في الحال إلى قائده. امتثل القائد وهو يعرف أن تصرفه يهيؤه لمكافأة سخية. استقبلني بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس تحت خيمته، وقدم لي كأساً من نبيذ صقلية تجرعته دفعة واحدة، وقال لي بصوتٍ عذبٍ:

ـ حسدروبال، ها أنت بيننا أخيراً! أعترف لك أنني توقعت أن تحضر، عاجلاً أو آجلاً، للاستسلام لنا لأن هذا ما انتظرته منك هذه المرة.

ـ تذكرت الوعد الذي وعدتني به سابقاً بمنحي الأمان لي ولأفراد عائلتي ولضباط قيادتي إن قبلنا وضع أسلحتنا. رفضت في تلك الفترة لأنني فكرت بحصولي على قوات كافية لمتابعة القتال. اليوم انقطعت مدينتي عن الوجود وبضع مئات من الرجال المحبوسين معي في معبد إشمون لن يستطيعوا أن يغيروا شيئاً في الموقف. حضرت إلى هنا بملء إرادتي مع رفيقتي عريشات التي تعرفها، ومرافقي ماغون، الذي أزعج جيداً ضباطك. افعل بي ما تريد فأنا لا أخاف الموت، فهو لأكثر من مرة فتح لي ذراعيه خلال هذه الحرب الطويلة. لكنني أرجوك أن تنقذ حياة ولديّ. إن وافقت سيذهب ماغون ويحضرهما إلى معسكرك. إنني واثق أنك ستعرف كيف تعنى بهما وستجنبهما ذل العبودية. لك كل المصلحة في ذلك،

فكل إنسان سيمتدح شهامتك وكبر نفسك. وسيساهم ذلك بزيادة شهرتك وزيادة أكاليل الغار التي تمجد انتصارك بتحقيق الحلم القديم لماركوس بروسيوس كاتون. أطلب منك أيضاً أن تتوسط لدى غولوسا لبيتيا ورجاله. هو لم يتصل بصفوفنا إلا بعد أن أسيئت معاملته من ابن ماسينيسا الذي وجهت إليه اللوم على أسلوب إدارته. وبدلاً من أن يتحمل مسؤولياته فضل أن يُحمّل خطأه لأفضل ضباطه، ولولا ذلك لبقي بيتيا على ولائه ولغدا اليوم بين صفوف منتصرينا.

ـ حسدروبال إنني أحس بالمشاعر التي تحركك. إنك تحب ولديك وأعدك بألا تمس شعرة من رأسيهما. إنما بشرط واحد. غداً صباحاً سترافقني حتى مراكزنا الأمامية، وهناك وأمام رجالك ستتضرع إلي جاثياً على ركبتيك طالباً الرحمة لذويك. لو كان باستطاعتي لجنبتك مثل هذا الإذلال لكن الحقد الذي يكنه جنودي للقرطاجيين وصل إلى حد لا يفهمون فيه عكس ذلك. أما ماغون وعريشات فهما من الآن وصاعداً تحت حمايتي، وسأحرص على معاملتهما بشكل حسن. للأسف لا أستطيع فعل شيء لبيتيا وجنوده. أعرف أن غولوسا سيرفض العفو عنهم، ولا أريد أن أدخل في نزاع معه حول هذا الموضوع.

في الصباح دوت الأبواق في المعسكر الروماني. وتقدمت مع القنصل حتى مسافة على مرمى سهام مدافعي المعبد الذين هرعوا إلى محيط السور ليلاحظوا المشهد. سمعتهم يطلقون صيحات اليأس لأنهم ظنوا في البدء أنني وقعت أسيراً نتيجة خيانة خلال عملية ليلية مع بعض عناصر حراستي. وبرؤيتي أجثو أمام سيبيون أميليانوس وأطلب منه بصوت عال أن يجنب زوجتي وولدي الموت والأسر أوسعت بالشتائم. لا أجسر الآن على إعادة سردها رغم أنني ماأزال أذكر كل كلمة من كلماتها. صمتوا عندما توجه القنصل إلى جنوده، وصرح وهو يشير نحوي:

ـ انظروا أيها الجنود كيف يمكن لسوء الحظ أن يوجه الدروس

لضروب الرجال الذين تخلت أحكام العقل عنهم. ها هو حسدروبال، من كان بالأمس يرفض جميع العروض السخية التي قدمتها له قائلاً أن أجمل المآتم تلك التي يلتهم فيها الحريق الوطن. ها هو الآن هنا مع سُعف المتضرِع يتوسل إلينا أن نحافظ على حياته ويعلق علينا كل آماله. من هذا المشهد ندرك عدم التعاطف مع رجل تصرف بعنف وعنجهية.

«أنتم تعلمون أنني منذ بداية هذه الحرب قاتلت إلى جانبكم، ولأكثر من مرة أقدمت لنجدتكم عندما عرّض رؤساء غير أكفاء حياتكم للخطر. شاركتكم متاعبكم وآلامكم ولم أطلب شيئاً لقاء ذلك. وبصفتي قائدكم يحق لي الحصول على قسم من غنائم هذه المدينة، وأنا أمنحكم هذا القسم مقابل تأمين سلامة أشرس أعدائي حسدروبال وزوجته وولديه. أنا أعرف أن كثيرين من بينكم يريدون الانتقام لذكرى رفقائهم الذين سقطوا في المعركة أو قتلهم البونيون. إنني أقدر هذا الشعور المشرف لكم، إلا أنني أرجو للأجيال المقبلة ألا تتذكر فقط الأعمال الباهرة وإنما سمو الروح. إنني واثق أن سيبيون الأفريقي وبول إميل لن يتصرفا إلا بمثل تصرفي وباسمهما أرجوكم الموافقة على هذا الطلب.

حيا الجمهور بهتاف عال عروض القنصل، وقرع الجنود سيوفهم على دروعهم معلنين موافقتهم. ولما عاد الهدوء سمع صوت من بعيد. كان صوت إميلكة زوجتي، وقد أحاط بها ولداها وخدمها وتناثر شعرها المغطى بالرماد دلالة الحداد، لكنها كانت في أبهى حلة، وقد توجهت إلى سيبيون أميليانوس:

ـ أيها الروماني النبيل أشكرك على عطائك الشهم وأرجو آلهتنا أن تمنحك حياة طويلة لهذه البادرة. ومع ذلك لا أرضى أن أستسلم وأترك للموت الأكيد جميع أولئك الذين يحيطون بي. إنني أنتمي لعائلة هميلقار وهنيبعل ومن واجبي أن أرعى مقامي. ما دامت قرطاجة منتصبة، كان لي الحق في الحياة وكنت أتضرع كل يوم

لبعل حمّون ولتانيت المحسنة لتمنح جيشنا النصر. لكن القدر أراد غير ذلك وأنا أذعن لأحكامه. أحب ولديّ. إنهما قطعة من لحمي ودم من دمي. ربيتهما على احترام تقاليدنا وحب وطننا، ولا يمكنني أن أتصور أن بإمكانهما أن يشعرا بالسعادة بعيداً عن تلك المدينة التي ولدا فيها، ولا شيء أقبح في عيني من رؤيتهما يتثقفان على أرض غريبة ويُحكم عليهما بالخضوع لعيشة فاسدة بينما أبناء عمومتهم، وأعمامهم وعديد من أهلهم بذلوا حياتهم للدفاع عن أجمل المدن. بما أن قرطاجة قد هلكت فإنني أريدهما أن يهلكا معها.

«أطلب منك معروفاً واحداً لتقدمه لي، يا بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس. الرجل الذي تجرأ على الزعم بأنه زوجي لا يستحق حلمك، لقد خان آلهته وزوجته وولديه. وسابقاً عمد إلى قتل منافسه، حسدروبال الطائش، لأن هذا أراد التفاوض مع حليفك غولوسا. وقتل المئات من مواطنيه الذين اشتبه ببرود عاطفتهم. باسمهم وباسم آلهة قرطاجة عاقبه بالعقوبة التي احتفظت بها لأولئك الذين وصفتهم بالخونة. هذا ما أريد قوله لك أيها الروماني.

«أما أنت يا حسدروبال، فاعلم أنك الأكثر خسة والأكثر حقارة من جميع الرجال. ستراني أموت هنا مع ولديّ، ولكنك قريباً ستزين موكب النصر لمن جثوت أمامه وقبّلت قدميه. ستسير أمام عربته في شوارع روما، وفي نهاية ذلك الاحتفال سيأتي الجلاد ليقطع عنقك. سيكون أيضاً موتاً ذليلاً لإنسان نذل وحقير وستذكر الأجيال القادمة خسّتك.

ما إن أنهت كلامها حتى هرعت وتناولت سيف بيتيا وقتلت ابنها وابنتها. ثم انطلقت مع شاغلي الحرم الآخرين وأشعلت النار في معبد بعل إشمون، وهلكت في الحريق.

دام ذلك الحريق نحو أسبوع لأننا عملنا سابقاً على جمع كميات هامة من الحطب بهدف دعم أسوار المعبد. خلال النهار تصاعد دخان أسود كثيف غطى المدينة وحجب نور السماء. وعندما غربت

الشمس لتتخلى عن المكان لدياجير الظلام، أمكن على بُعد عدة ستادات من جميع الجهات التوجه على ضوء النيران الحمراء التي كانت تشكل جهاز تنوير عملاق.

عندما انطفأت النار لم يبق شيء من بناء المعبد الذي كان يشكل سابقاً مجد قرطاجة ويتوجه إليه كل عام آلاف الحجاج ليقدموا الأضاحي إلى بعل إشمون. كانت التربة ملتهبة إلى درجة أجبرت المنتصرين إلى الانتظار عدة أيام قبل الدخول إلى الحرم حيث المنافذ في حراسة مشددة من قبل عدة مئات من الجنود الرومان. مهمتهم أن يعترضوا سبيل الأحياء النادرين المختبئين في أقبية البناء، ونجحوا في الإفلات من الموت. في كل ليلة كان العديد من هؤلاء التعساء، وأغلبهم من الكهنة، يؤسرون ويشنقون في الحال. لم تنج من بينهم إلا قلة نجحت في خداع يقظة الحراس والوصول إلى منطقة رأس بون حيث قدمت لهم بعض النفوس المحسنة الضيافة.

خلال ذلك الوقت تمكن الجنود الرومان بمساعدة الآلاف من الأسرى أن يزيلوا ما بقي من سور مدينتنا، تحت رقابة الشيوخ المرسلين من مجلس الأعيان الروماني عندما أعلم سيبيون أميليانوس المجلس المذكور بأنه عازم على إطلاق الهجوم الأخير ضد مدينة إليسا. بعد أن غدت هذه كومة من الركام نظم هؤلاء الأوغاد احتفالاً دينياً خاصاً، وبعد تقديم مئات من الذبائح إلى جوبيتر كابيتولن وإلى مارس إله الحرب نشروا الملح على التربة، مما يشير أن ذلك المكان بقعة ملعونة لا يستطيع أي كان على الإطلاق أن يسكن فيها أو أن يبني مدينة جديدة مكانها.

* * *

منذ استسلامي وموت أهلي وأنا شاهد عاجز، كنت أعيش في المعسكر الروماني معتزلاً تحت خيمة مجاورة لخيمة القنصل ومحروسة بعناية، ليلاً ونهاراً من قِبل عشرة من الجنود الرومان.

لدي الأوامر بعدم مغادرتها والعبيد يحملون لي وجبات طعامي تحت رقابة قائد مئة مكلف بالسهر على عدم إيصالهم أي استخبار لي. ذات صباح دعاني سيبيون أميليانوس إليه. واستقبلني في حضور صديقه بوليب وعدد من أركان حربه. وبلهجة لا تحتمل أية مناقشة أعلن لي أنه قرر إجراء دورة تفقدية بين خرائب المدينة التي أسستها إليسا قديماً وهو يدعوني لمرافقته توسلت إليه عبثاً أن يبعد عني هذه البلية، ولكنه أبى تلبية رجائي. فقد كنت أسيره وقرر أن يظهر لي سيادته على مصيري، ووجب علي إطاعته وغادرنا المعسكر في حراسة مفرزة قليلة من الفرسان.

صادفنا في الطريق أرتالاً طويلة من الأسرى، رجالاً، ونساءً، وأولاداً، وعجائز، هزلت وجوههم من الجوع واسودت من دخان الحرائق، ينتظرون مقيدين أن يسيروا إلى أوتيكا حيث يتم شحنهم على المراكب المتوجهة إلى أسواق العبيد في صقلية أو كامبانيا أو أوستي أو روما، حيث يباعون بأسعار بخسة. وقد أدى عدد الأسرى إلى هبوط سعر اليد العاملة من العبيد. كان الرجال والنساء والأولاد يتجمعون عائلات لينعموا بحزن باللحظات الأخيرة المتاحة لهم ليكونوا معاً، فعما قريب سيُفرّق بينهم. مالكوهم الجدد يختارون في الواقع البضاعة وفق معايير محددة ولا يبدون أي تعاطف مع توسلات الأمهات اللواتي يقتلع منهن أزواجهن أو أفراد أسرهن. في زمن رخائنا لم نتصرف بشكل مخالف نحو البؤساء الذين يقعون تحت سيطرتنا، ولا يوجد أي مبرر لأبناء الذئبة ليكونوا أكثر رحمة منا.

جلوساً أو مضطجعين على الأرض، عيونهم زائغة، كان هؤلاء الأسرى صامتين بشكل غريب. عند مرور موكبنا يغض معظمهم الطرف، يخشون الذبح دون شك. فجأة تعرف علي أحدهم وأشار بذلك إلى جيرانه. وللحال تفجرت صيحات الحقد من كل مكان دون أن يحاول الحراس إسكات من تصدر عنهم. كنت أعرف أن سيبيون

أميليانوس يلاحظني خفيةً وقررت عدم إظهار اضطرابي، فلأي شيء ألوم نفسي؟ قاتلت ببسالة ما دامت لي القناعة بأقل نصيب من الانتصار. ولما تحققت أن كل شيء ضاع مني ضحيت بشرفي ومقامي مجرباً أن أمسح آلام مواطني بإرسال كاهن معبد إشمون هيميلكات يرافع عن قضيتنا، وها هي طريقة هؤلاء في شكري. فجأة سيطر على هذه الصيحات المبحوحة صوت مألوف يعاتبني، كان صوت أريسته، معلمي السابق:

ـ حسدروبال، شاءت الآلهة في تسامحها اللامتناهي أن أراك للمرة الأخيرة، وإلى جانبي معلمك الكبير، هيميلكات، كاهن معبد إشمون سابقاً. وهو من نصحك بالاستسلام إلى أبناء الذئبة. عندما عاد يعلن لك أن هؤلاء قبلوا الحفاظ على حياة المدنيين والعسكريين الذين لجؤوا إليك في معبد بعل إشمون أخفى عنك الحقيقة. لم يقبل القنصل منحه الموافقة إلا بشرط أن يتقاسم المصير المشترك مع جميع مواطنيه، أي أن يباع عبداً. لم يشفق على صفته كاهناً أكبر مما يوجب منحه معاملة خاصة. ضحّى بنفسه من أجل مواطنيه دون أن يصدر عنه أي احتجاج. لم يرد أن يقول لك، إذ أنه كان يأمل سراً أن تتوصل في الوقت القادم لالتماس رحمتهم. ولو كنت قد علمت بالطريقة التي عومل بها لفضلت اختيار الموت.

«غمره الفرح عندما علم أنك حي، غير أنه بعد ذلك غرق في كآبة غريبة. حاول مرتين وضع حداً لحياته وكاد أن ينجح لو لم أنقذه في اللحظة الأخيرة. إن يبقَ في قلبك بعض الرحمة، فإنني أتوسل إليك أن تتوسط لصالحه لتجنبه مذلة بيعه في المزاد. لن تقول إلا كلمة واحدة وسيهرع حماتك خوفاً من غضب الآلهة إلى إجابتك بما يرضيك. اسمح له أن يعود معي إلى حدريم، أو إلى أوتيكا أو إلى نيابوليس لينصرف إلى مهمة ورعة. سيصرف الوقت القليل المتبقي له على هذه الأرض لينقل إلى أجيال المستقبل الذين هربوا من العبودية أسرار دياناتنا المقدسة واحتفالات عباداتنا. بهذه

الطريقة لن تختفي تقاليدنا عن هذه الضفاف. اعلم أيضاً بوجود أعضاءٍ بعيدين من عائلة أبيك، وعليك التوسط أيضاً لتجنبهم نهاية لا تليق بمقامهم.

أثار هذا النقاش الطويل، سيبيون أميليانوس، فأمرني أن أترجم له عبارات مخاطبي حالاً. فأجبته فوراً وأضفت:

وعدت أربابنا ورباتنا باستقبالهم في مدافن عظمائكم وأنك ستستمر بالسماح بالتعبد لهم. كيف يمكن ذلك ولا وجود لكهنة يعرفون طقوسنا الدينية والصلوات المناسبة للتوجه بها إلى آلهتنا؟ هيميلكات رجل عجوز وهو لا يشكل تهديداً لأحد. امنحه إذن الحرية ليتمكن من أن يخدم، كما فعل من قبل، بعل إشمون ليلتمس منه أن ينعم على موتانا بالسكينة في العالم الآخر. إنك رجل ورع وأربابنا ستكافئك على ذلك.

فكر القنصل ملياً ثم قال لي بلهجة رصينة:

ـ بلغ أصدقاءك وأهلك أنهم موضوعون تحت حمايته وسيكونون آمنين. يمكنهم أن يغادروا مدينتك بحرية لينطلقوا إلى آفاق أبعد مدىً وينتشروا تحت سماوات أحب وأرحم لبدء حياة جديدة.

ـ أشكرك مجدداً على شهامتك. كان بإمكانك أن ترفض لي هذا الفضل لأن كهنة معبد إشمون هم الذين ذبحوا بعض الأسرى الرومان عندما ارتكبنا تلك الجريمة البشعة.

ـ لا أحب معاقبة الأبرياء. وعند مثول هيميلكات أمامي كنت أجهل بعض الأمور، إنه الوحيد الذي استهجن قتل الأسرى، على النقيض من كهنة المعبد الآخرين، الذين سيتلقون العقوبة التي يستحقونها. كنت مخطئاً في تصرفي نحوه سابقاً. ليس عليه أن يسدد عنهم الحساب. أما أنت فإن كنت قد أبقيت على حياتك فلأنني

وعدتك. وأضيف بأن موت زوجتك وولديك كان بمثابة عقوبة كافية عن الجرائم التي لدي الحق في اتهامك بها. كنت أتمنى من كل قلبي بقاءهم أحياء.

«أنا لم أنسَ أن زوجتك إميلكة تنتمي إلى سلالة آل برقا، كما أنك تجهل على الأرجح أنهم برهنوا ولعدة مرات عن حلم تجاه أعضاء عائلتي بالتبني. في السابق وافق والد جدهم هميلقار على مأتم مهيب لأحد أقربائي البعيدين، وقد سقط والسلاح في يده تحت أسوار قرطاجة ونحن نعلم أيضاً أنه ساعد على هرب قنصلنا ماركوس أميليوس روغولوس، غير مهتم بتسليمه لمجلس المئة وأربعة بعد فشل مساعي السلام بين مدينتينا. اقتيد إلى جزيرة اللوتوفاجيين حيث استقبله العبرانيون الذين استقروا فيها بعد دمار هيكلهم في القدس.

«سأذهب إلى أبعد من ذلك مجازفاً بمفاجآتك. إننا مدينون لهنيبعل. فهو بعدم سيره إلى روما بعد انتصاره الباهر في كانّاي، أتاح لنا، دون أن يدري، أو يعلم أو يريد، بعدم زوال مدينتنا عن سطح الأرض. وكان جدي المتبنى، سيبيون الأفريقي، يقدره كثيراً لذلك لا أتصرف تجاه ذويه وأقربائه بطريقة قاسية. لهذا السبب وعدتك سابقاً بالعفو عنك أنت وأقرباؤك إن رضيت بالاستسلام لي. فأنا رجل ملتزم بوعودي واحترام كلمتي. منذ غد ستقود إحدى ثلاثيات المجاذيف أصدقائك وأقاربك إلى مكان آمن. لا أستطيع مع ذلك التصريح لهم في الإقامة بحدريم أو أوتيكا لأسباب تدركها بسهولة. بإمكانهم أن يثيروا الاضطرابات فيها أو ما هو أسوأ، عدم الرضا بقبولهم من بعض مواطنيكم. غير أنني مقتنع بأن عبرانيي جزيرة اللوتوفاجيين سيعرفون كيف يعتنون بهم، وسيقدمون لهم المساعدة الضرورية ليجدوا لأنفسهم ملجأ آمناً. فليعدوا أنفسهم إذن لجمع حوائجهم!.

بالفعل في اليوم التالي غادرت سفينة ثلاثية المجاذيف مرفأ قرطاجة وأبحرت باتجاه الجنوب. أجهل ما حدث لهيميلكات وأريسته ورفقائهم، لأنني متأكد أن ذرية إبراهام الكوهين سمحت لهم بالإبحار إلى صور، الحاضرة التي جاء منها أسلافنا، حيث تجري الأيام هادئة طيبة.

بعد تلك المحادثة تابعنا طريقنا ودخلنا إلى ضاحية ميغارا. لم يبق فيها شيء من بقولها وبساتينها التي أعطت زمناً طويلاً، وأتاحت للمحاصرين أن يحصلوا على المؤن الضرورية لاستمرار حياتهم. في كل مكان تعرضت قصور الأرستقراطيين وأعضاء مجلس المئة وأربعة لمعاول الهدامين. عربات كبيرة كانت تقف إلى جانب الدمار وعشرات الأسرى يشحنون عليها قطع الأثاث الثمينة وتماثيل وأوعية من الذهب والفضة. هذه الكنوز ستذهب قريباً إلى روما باستثناء قسم قليل جداً يوزع على الجنود مكافأة لهم على حميتهم. عمد سجاني في حركة تنم عن شهامته إلى اتخاذ طريق ملتوٍ ليجنبني مقر موتومبعل حيث ترعرعت وقضيت أياماً سعيدة. ولكنه وافق على طلبي لأرى للمرة الأخيرة قصرنا أياً كانت حالته. لم يبق شيء غير الدمار، قلبه أبناء الذئبة الأشرار رأساً على عقب، دمروا قصرنا وحدائقه وكذلك معرض الوحوش حيث كانت ترتع في السابق مجموعة من الحيوانات البرية. لم أستطع أن أمنع نفسي عن البكاء وأنا أفكر بالأمسية الأخيرة التي قضيتها بصحبة إميلكة وولدي، خلال تلك الليلة المشؤومة التي ظهر الرومان فيها يتسلقون السور ويدخلون إلى ميغارا ويجبروننا على الانثناء إلى قلب المدينة وقلعة بيرسا القديمة.

لاحظ سيبيون أميليانوس اضطرابي وحرص بلباقته ألا يزيد آلامي. حث جواده ليلزمنا بأن نتبعه. كان هو نفسه، كما أمكنني أن ألاحظ، فريسة انفعال عنيف. وكلما توغلنا في الخرائب التي ما يزال الدخان يتصاعد منها، وتتناثر فيها الجثث المحترقة كلما اكفهر

وجهه بكآبة غريبة، وفجأة سمعته يتمتم بهذه الأبيات الشعرية لهوميروس:« سيأتي يوم تنقرض فيه طروادة، المدينة المقدسة، وسينقرض معها بريام(*) وشعب بريام». غير أن بوليب الإغريقي الملعون الذي كان يسير إلى جانبه كان أسرع مني وسأله:

ـ أيها القنصل العظيم، لماذا تروي هذا المقطع الحزين لأكثر شعرائنا شهرة؟

ـ من واجبي بالفعل أن أكون سعيداً لأنني أنجزت نصراً باهراً سيتحدث عنه الجميع لمدة طويلة. لو أنني قائد منشغل بمجده فقط لرددت أغنية استبشار مبتهجاً بالقضاء على أشرس أعدائنا. إلا أنني أعرف مدى تقلب الأيام، وأنا أعلم جيداً عدم استقرار الأمور البشرية وينتابني وهم حقيقي. إنني أخشى اللحظة التي يأتي فيها آخر ليوجه لنا إنذاراً يتعلق بوطننا نفسه. فروما تشغل أفكاري ويمكن أن تعرف يوماً مصائب قرطاجة.

ـ لا مبرر لمخاوفك، اليوم انتصرت جيوشكم على أشرس أعدائكم، وبعد قليل ستعرف الشعوب الأخرى العبرة المستمدة من هذه الكارثة وستأتي لتستظل بحمايتكم. صدقني إن مدينتك ستحيا إلى الأبد.

اكتفيت للوهلة الأولى أن أسجل هذه الكلمات لعدوي المنتصر، وسنحت لي المناسبة بعد ذلك لأفكر طويلاً وأناقشها تلميحاً مع ضحايا آخرين لغزو الرومان وانتقامهم. أبدى الجميع تأييدهم بأن هذه الرؤيا ستتم على أرض الواقع وإن كنت أجهل متى سيحدث ذلك ومع أي الشعوب ـ ربما كنا لا نعرف حتى الآن هذه الأخيرة ـ التي ستأتي لتوقع الهزيمة بأبناء الذئبة. هم المتحدرون من الغرب بينما نحن أبناء الشرق، هذا الشرق الذي تخترقه الإمبراطوريات والمشاريع عبر القرون دون أن يغرق على الإطلاق في النسيان.

(*) Priam: بريام آخر ملوك طروادة قتل بعد سقوطها.

الفاتحون ما فتئوا يمرون وأسماؤهم تختفي من ذاكرة الرجال، بينما يذكر كل واحد منا الميديين، والفرس، والمصريين، والعبرانيين.

خلال سنوات منفاي وإقامتي الجبرية على ضفتي التيبر، أظهرت لي كثير من الإشارات أن مثل تلك النهاية غير مستبعدة. فالثروات التي سرقها هؤلاء النهابون الملعونون من مدننا عملت على اتساع الهوة القائمة بين أشراف الرومانيين والعامة، وسيسعى الشعب إلى الثورة ضد عنجهية الشيوخ الرومانيين والعائلات الأرستقراطية التي تتقاسم السلطة، لن تكون الأمور أفضل من أحوال قرطاجة. إضافةً إلى أن هذا الفيض المفرط من الذهب والفضة يفسد التقاليد المتقشفة والاقتصادية التي كان ذلك العجوز الشرس ماركوس بورسيوس كاتون المدافع اليقظ عنها. في السابق كانت السيدات الرومانيات منقطعات عن الناس فأصبحن لا يفكرن إلا بشيء واحد: الظهور أمام الجمهور ليتباهين بغنى هندامهن في حين أن أزواجهن يكرسون أوقاتهم لإنفاق أموال طائلة لتجميل منازلهم. أما الأكثر فقراً منهم فقد توقفوا عن استثمار مزارعهم ليستقروا في المدينة ويعيشوا من جود الأشراف وتوزيعات الحصص الغذائية التي ينظمها مجلس الأعيان في فترات منتظمة. المهم أن هذا الشعب، وقد كان ورعه فيما مضى سبب حياته، قد توقف عن عبادة أربابه. هجرها لمصلحة أولئك الذين حضروا من مقاطعاتنا البعيدة، واخطؤوا بإدخالهم في مدفن عظماء أمتهم.

حسب قول إغريقي صديق لبوليب إلا أنه يفوقه سخرية، من الممكن جداً للمغلوبين أن يغدوا أساتذة الغالبين، ويفرضوا عليهم معتقداتهم وأنماط حياتهم وينتهوا إلى إفساد حياة هؤلاء الفلاحين الفظين. كنت مقتنعاً إلى أبعد حد أن إرادة روما المتسلطة ستكون سبب ضياعها وهذا هو، دون شك، السبب في أن عبارات سيبيون أميليانوس قد أدخلت العزاء إلى قلبي. وهو المشهور بامتلاكه

وميض بُعد النظر الموروثة عن والده بالتبني. فإن رؤيتي له وقد افترسه القلق أثارت السرور في نفسي.

* * *

في اكتئابي تشبثت بأوهى خشبة خلاص ودهش خصمي المنتصر لمعرفته بالأفكار التي تقلقني بينما تبدو الحقيقة مخالفة لذلك بشكل قاسٍ. لأن سقوط قرطاجة فتح عصراً جديداً في تاريخ روما. كان الحدث غير مألوف، ويبدو للوهلة الأولى مستحيلاً. في البداية عندما رست السفينة حاملة النبأ السّار على شاطئ أوستي لقي قبطانها كثيراً من الصعوبة في إقناع مواطنيه بصحة أقواله، ولكن وصول ثلاثيات مجاذيف وخماسياتها محملة بغنيمة كبيرة وآلاف الأسرى المباعين في أسواق العبيد حملهم على تصديق الخبر.

توجه أفراد الشعب عندئذ إلى معبد جوبيتر كابيتولن ليشكروا هذا الإله على النعم التي غمر المدينة بها. وتضاعف فرحهم عندما علموا أن القنصل موميوس استولى في الوقت نفسه على مدينة كورنثوس الإغريقية، وهي الأخيرة التي رفعت راية العصيان ضد أبناء الذئبة. هذه المدينة التعيسة عرفت نصيبنا نفسه: أبيدت وذبح سكانها دون شفقة من الجنود الرومان. لقي سيبيون أميليانوس بعد عودته من أفريقيا استقبالاً حاراً من مواطنيه، لكن في مجلس الأعيان، حيث زاد عدد أعدائه الذين أصابهم الهلع نتيجة ازدياد شعبيته، وجدوا من المناسب خزيه بتقاسمه أمجاد النصر مع زميله موميوس. بوضعهما على قدم المساواة مع أن الأول الأكثر استحقاقاً لما قدمه لوطنه من الثاني، وجب على عدوي المنتصر بعد أن اعترض دون جدوى أن يستجيب للطلب. غير أنه قرر أن يتصرف ويعمل على أن تطغى عظمة الاحتفال بانتصاره على منافسه. لذلك حرص بعناية أن يختار من بين الأسرى أصحاب المراتب العالية حيث يساهم مرآهم المهيب في إبراز مجده. تلقى قادة المئات لديه الأمر بفصل كتلة الأسرى عن القادة والضباط القرطاجيين أو

المنشقين النوميديين الذين سقطوا بين أيدي العدو، وكذلك عن الجنود الأكثر صلابة من جيشنا المهزوم. فصلوا عن عائلاتهم بعد أن أجري لهم وداع محزن، واقتيدوا تحت حراسة مشددة إلى كاسترا كورنيليا حيث التقيت بهم. انتهت محاولاتي في الاتصال معهم إلى الفشل. أظهروا كلهم البرودة تجاهي، باستثناء معاوني الأمين، ماغون، فهو الوحيد الذي لا يعتبرني مطلقاً مثل مصاب بالطاعون أو خائن.

أشارت دلائل عديدة إلى أننا سنقاد بعد قليل عبر شوارع روما. وخلال ما يقرب من أسبوعين أتخمنا بالطعام. بحيث يسترد الأكثر ضعفاً بيننا قواه ليظهر بشكل جيد خلال الاحتفال. ذات صباح جُمعتُ مع ضباطي، وساروا بنا تحت حراسة مشددة حتى أوتيكا حيث كانت تنتظرنا خماسية مجاذيف. بقلب حزين رأيت شواطئ أفريقيا تختفي عن ناظري شيئاً فشيئاً. كنت أعرف أن الأعجوبة وحدها تستطيع أن تعيدني إلى تلك الأرض التي باركها الأرباب حيث عاش أهلي منذ أزمنة سحيقة. إلى جانبي يقف ماغون ساهراً لصد أية محاولة للاعتداء على حياتي من أحد رفاق هذه المحنة. لقي أولاده وزوجته الموت بدورهم في حريق قرطاجة لكنه برهن عن هدوء مدهش. لا شيء يمكن أن يؤثر به، وعندما لا يتحدث معي يخص معظم وقته في تشديد عزم رفاقنا الذين أصابهم الهلع مع انتظار موتهم القريب. خلال الرحلة كلها ما فتئ يرفه عني بحكاياته السارة، ويتعرض لوقائع بطولاته ويروي النوادر المسلية.

ذات مساء رست سفينتنا في أوستي وأمكننا منذ الصباح أن نطل على الساحل مباشرة، إلا أن قبطان السفينة، وهو ذئب بحر متمرس، ناور بمهارة ليبقى بعيداً عن الشاطئ. وقد تلقى دون شك أوامر بهذا الخصوص. لا يمكن لأحد أن يشاهدنا ننزل أو يلاحظ وجودنا قبل اليوم المحدد للاحتفال بنصر القنصلين. مع هبوط الليل توجه بنا إلى ضفة معزولة فغادرنا المركب بحراسة عشرات الجنود

وتوجهنا للحال في طريق روما على ضوء المشاعل. مع الفجر توقف ركبنا في ملكية أفرغت من ساكنيها حيث قُدم لنا الطعام والشراب. وجب أن ننتظر غروب الشمس للتوجه إلى مدينة رومولوس التي بلغناها في وقت متأخر من الليل. كان الجو قاتماً لم نتمكن فيه من تمييز أسوارها العالية، وفي صمت رهيب مشينا في شوارع خلت من الناس ـ فقد تلقى سكانها أمراً بالبقاء في منازلهم ـ حتى الوصول إلى سجن يقع خلف الميدان حيث وزعنا على زنزانات مختلفة. لم يسمح لنا بالخروج لكنني سمعت في الممرات الأسرى الذين كانوا يتكلمون اليونانية. إنهم شيوخ وقادة كورنثوس، الذين يقاسموننا الإذلال وقد وصلوا بدورهم إلى نهاية الرحلة.

بعد وصولنا بنحو عشرين يوماً قادونا ذات مساء إلى الحمامات العامة تحت حراسة مشددة، وقام حراس صامتون بنزع ثيابنا ودهن أجسادنا بالزيت والعطر. وعند عودتنا إلى زنزاناتنا وجدنا ثيابنا الرسمية المهيبة مرتبة بمزيد من العناية على الألواح الخشبية التي نستعملها كأسرة. لم يتمكن أحد من النوم ذلك المساء. في الصباح أمرنا حراسنا بلهجة جافة ارتداء ملابسنا. ساعدني ماغون على شد درعي المزخرف برأس أسد وقمت بدوري في مساعدته. في بهو السجن كان ينتظرنا رفقاء أسرنا، الإغريقيون، والنوميديون والقرطاجيون تجمعهم مشاعر الأخوة. أحطنا بمجموعة من الجنود وغادرنا، على دفعات، السجن لنلتحق بممر تحت الأرض بدت المياه تسيل من جدرانه إلى مكان تشكل الموكب.

سار في المقدمة آلاف العبيد الكورنثيين أو القرطاجيين وهم يحملون الكنوز المقتلعة من قصورنا أو يجرون العربات وقد رفعت عليها تماثيل آلهتنا وآلهة الإغريقيين المنتزعة من المعابد قبل انهيارها تحت معاول الردامين. كانت الشمس قد علت في السماء وهي تلقي بأشعتها على تلك النفائس الخارقة، وهي الآثار الأخيرة

لحضارات تفوقت على حضارة روما. فُرض علينا أن نسير خلف هذا الموكب الأول. ضباطاً وقادة في المقدمة، يتبعهم بضع مئات من الجنود يحملون على أجسادهم أثر الجراح التي تلقوها في المعركة.

أمرني أحد قادة المئة أن أقف متقدماً بمسافة عن أتباعي. فأنا العنصر الرئيسي الهام في ذلك الاحتفال. اسمي، بالنسبة لأبناء الذئبة، مرادف لهميلقار أو لهنيبعل: إنني أمثل أشرس عدو لهم، عدو أهلك كثيراً من رجالهم. في هذه الجموع يوجد دون شك أهالي الأسرى الذين عذبتهم وقتلتهم على أسوار مدينتنا. برؤيتي أسير ذليلاً في الشوارع إلى معبد جوبيتر كابيتولن سيعرفون أن التضحية بأبنائهم لم تذهب سدى. التفت لأرى رفقاء شقائي. تجاهلني معظمهم. وجهوا لي على الدوام اللوم لاستسلامي لسيبيون أميليانوس. كان باستطاعتي أن أقول لهم بأنهم هم أنفسهم لم يلقوا الموت في المعركة لأنهم سلموا سيوفهم وشاراتهم إلى القائد المنتصر، ولكنني وجدت ذلك غير لائق وامتنعت عن الكلام. غير أن ماغون وحده أشار إلي بيده ليشجعني على تحمل ما سألقى من ذل وهوان.

خلف مجموعتنا كان القنصلان الفخوران بذلك اليوم يقفان منتصبين على عربتين بثيابهما الرسمية في منتهى الأبهة تجرهما أربعة خيول بيضاء. وإلى جانبهما عبد يحمل إكليلاً من أشجار الزيتون ويهمس في أذنهما، طوال المسافة، يذكرهما بأباطيل الأمور الإنسانية والأمجاد. وخلفهما اصطفت أفواج المقاتلين في ترتيب رائع مع راياتهم، وشاراتهم، وقد أُذن لهم استثنائياً بدخول روما في ذلك اليوم. كثير من هؤلاء المحاربين لم يشاهدوا مجدداً عائلاتهم منذ سنوات، ومن المفروض أن يستمروا مدة أطول في الخدمة قبل أن يعودوا إلى منازلهم. كان القنصلان هما البطلان الحقيقيان لهذا العيد الشعبي الكبير.

في ذلك اليوم كانت روما تضج بالناس. تضاعف سكانها

تقريباً. من جميع أنحاء لاتيوم أيضاً ومن كامبانيا غزا المدينة آلاف الرجال والأولاد وتمركزوا على طول مسافة اجتياز الموكب، مع استياء سكان المدينة الكبير المضطرين للتدافع والزحام ليشقوا طريقاً بين جماهير المشاهدين الغفيرة. دوت الأبواق الرومانية وبدأ العرض. كانت الحشود السعيدة تطلق صيحات الإعجاب وهي تكشف الغنيمة الناتجة عن قرطاجة وكورنثوس، لم يحصل لهم سابقاً أن تقصوا مثل تلك الفخامة وامتلأ قلب الرومان زهواً عند مشاهدتها.

توقفت هذه الهتافات عندما ظهرتُ على رأس الأسرى، ليسود مكانها صمت ثقيل. لم يبدر صوت من الجمهور المعارض غير أن أنظاره كانت مثقلة بحقد كبير، أشد وطأة بكثير من الازدراء. بالنسبة لهم لا وجود لنا، نحن أموات شُطِبنا من لائحة الأحياء على شاكلة مدننا التعيسة. توقعت أن يبادر بعض المشاغبين إلى إلقاء الحجارة أو الأقذار في وجوهنا، لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وأحسست براحة حقيقية عندما لاحظت بمجرد وصولنا إلى معبد جوبيتر كابيتولن أنه يتم تجميعنا لإعادتنا إلى سجننا.

تقدم القنصلان وجيشاهما إلى وسط الاحتفالات الباهرة. أراد موميوس المنتصر على كورنثوس أن يظهر على مستوى سيبيون أميليانوس، إلا أن صيحات اعتراض مواطنيه أفهمته أن عليه أن يترك المباهاة إلى زميله الشاب. فالعامة لم توافق على قرار مجلس الأعيان معاملة القائدين على قدم المساواة. الأول اقتصر انتصاره على إخضاع آخر الإغريق المتمردين على روما. أما الثاني فقد خلص مدينته من أشرس عدو ووفر لها السيطرة الكاملة على البحر الكبير. كان الجميع ينظرون إلى حفيد سيبيون بالتبني الذي يعود إليه شرف تقديم التضحية لجوبيتر كابيتولن. احتفلت المدينة طوال الليل بالحدث، وقام قضاة المدينة بإقامة المآدب واستخرجوا براميل النبيذ لتوزع في كل منعطف.

حين كانت مدينة رومولوس تحتفل كنا ننتظر جميعاً في زنزاناتنا وصول جلادينا. جرت العادة في أن يلقى المهزومون

الموت بعد الاحتفال بالنصر. أُخرج القادة والضباط الإغريق والنوميديون من زنزاناتهم الرطبة الضيقة وقتلوا أو ذبحوا في المساء نفسه. استطعت أن أسمعهم يئنون من الألم ويلفظون النفس الأخير وهم يلعنون أبناء الذئبة والقائد الذي خانهم أي أنا بالذات. في اليوم التالي جاء قائد مئة يبحث عني. توقعت أسوأ الشرور، فربما أرادوا أن أهلك علناً. الواقع أنهم اقتادوني إلى سيبيون أميليانوس الذي استقبلني في مقره الفخم الواقع خلف ميدان روما:

- حسدروبال، وعدتك بإنقاذ حياتك وأنا أفي بوعدي. إنك من الآن وصاعداً ضيفي وستقيم في منزل موضوع تحت تصرفك من قبل مجلس الأعيان الذي سيعالج جميع أمورك المالية. ولن ينقصك شيء حتى الأصحاب. معاونك العسكري السابق ماغون، لم يصبه ما أصاب رفاقه لأنك طلبت استثناءه. وسيعين في خدمتك وستجد بعد قليل خليلتك عريشات. وأنا مقتنع أن وجودها سيتيح لك تحمل مرارة المنفى. يمكنك أن تتجول داخل حدود مدينتنا لكن يمنع عليك تجاوزها. إذا كانت العزلة تثقل عليك فأنا أرحب بك لدي ونستطيع أن نتذكر معاً الأحداث الماضية.

- أشكر لك نبلك. وقد كنت أفضّل الموت مع ضباطي، لكن بما أنه قد وجب العيش فعلي تحمله.

- إنني أدرك كآبتك وقنوطك. سيعمل الزمن على برء جراحك. ليس لك ما ألومك عليه، لقد قاتلت بشجاعة وأنت تعلم أنك لا تستطيع الانتصار. ستذكر الأجيال القادمة الضربات القاسية التي وجهتها لنا وستعترف بحقك، وسأحرص على أن يبقى الأمر على حاله. أنت لا تجهل أن صديقي بوليب يكتب قصة الحروب التي دارت بين مدينتينا ولن يتأخر عن سؤالك وآمل أن تستقبله استقبالاً طيباً. أتوقع أن يقارب ما أمكن الحقيقة، وأنت الوحيد الذي يعرف بعض المعلومات المفيدة له لتسجيل الوقائع التاريخية. اعلم أيضاً أنني أمرته بتدوين مآثرك بكل أمانة، بينما حرص على عدم ذكرها خشية تكديري.

ـ تصرفت بحكمة. وسيبدو انتصارك أكثر كِبراً. لن يقدرك أحد كما تستحق إنْ اعتمدت على الأنذال.

ـ أرى أنك أدركت جيداً قصدي ويمكنني الاعتماد عليك.

ـ هذا أقل ما أستطيع فعله لأشكرك على شهامتك وتسامحك.

التزاماً بوعدي كان من واجبي أن ألتقي مرات عديدة ببوليب اللعين وقد بدا لي بعنجهية لا تحتمل. لم يكن سيبيون أميليانوس مخطئاً بالاحتراس منه بسبب ميله المفرط إلى التزلف. تحالف هذا الإغريقي بتعصب لقضية أسياده مبدياً عداءه لمدينتنا، بحيث جعلها المسؤولة الوحيدة عن ثلاثة حروب أجرتها مع أبناء الذئبة. تظاهرت بمشاركته في رأيه، مع نصحي له بالتخفيف من الغلو فيه ليجعله أكثر قابلية للتصديق. كان حفيد سيبيون الأفريقي يحضر أحياناً جلساتنا، ولم تفته مطلقاً المناسبة للإشادة بصدق وعدالة ملاحظاتي ليحث صديقه على أخذها بالاعتبار. مع قبولي بقضاء ساعات طويلة أناقش فيها بوليب، لم أكن أهتم إلا بأمر واحد: عدم إيقاظ شكوكه حول المهمة التي عاهدت نفسي على إنجازها بمساعدة معاوني ماغون الوفي. يجب الاعتراف: ليس لدي ما أشكوه. كان مسكني واسعاً ومريحاً، وقد حرصت مجموعة من العبيد على تلبية رغباتي، ووفقاً للاتفاق التحقت بي عريشات. بعد استسلامنا انفصل أحدنا عن الآخر إلا أن سيبيون أميليانوس وضعها تحت حمايته، مثيراً غضب غولوسا الذي طالب بأن تكون رهينة حرب. ولتجنب اختطافها من قبل عشيقها السابق أرسلها القنصل على متن ثلاثية مجاذيف واستضافها في منزله. كنت سعيداً برؤيتها مجدداً. أحببتها على الدوام ولا أستطيع احتمال غيابها. لم تفقد شيئاً من جمالها ومن شهوانيتها وكنت أخرج من لدنها مضنى، مشبع الرغبة، بعد عناقاتنا العاطفية. هي بقدرتها على التكيف تسحرني. ما إن وصلت إلى روما التي قضت فيها طفولتها حتى جددت صداقاتها مع رفيقاتها القدامى، واستُقبلت لدى كرام العائلات النبيلة التي لم تهتم بخيانتها.

يجب أن أعترف، فلا مبالاتها أيقظت في نفسي شبهات ماتزال تعذبني، الآن عندما أفكر مجدداً بظروف لقائنا وهروبنا السريع أجد نفسي غير قادر على معرفة هل تبعتني لأنها وقعت أسيرة غرامي أم أن غولوسا أمرها بإغرائي والعيش إلى جانبي ليطّلع بوساطتها على أعمالي وحركاتي. أو على الأقل كانت تنفذ التعليمات الموجهة إليها من سيبيون أميليانوس الذي نشأت في كنفه وتعتبره بمثابة أخ لها. الطريقة التي كان يُظهر فيها الأخير اطلاعه على قراراتي أوجبت ألا أستبعد هذه الفرضية، إنما كان يكفي أن تقاسمني فراشي وتغمرني بالمسرات المرهفة لتتلاشى مخاوفي فجأة.

هل كانت تخونني؟ أفضّل ألا أطرح هذا السؤال لأنه يجبرني على طردها ولا أستطيع العيش دونها في المنفى. إنما يجب الاعتراف أنني عملت على أن تبقى بعيدة عن الاطلاع على السبب الحقيقي لمداولاتي مع ماغون. في كل صباح عندما نبدأ بالعمل تتلقى الأمر بعدم الظهور في منزلي لأي سبب. وعندما نختم عملنا اليومي يخفي معاوني الأمين بكل حرص تحت جلبابه ملفات ورق البردي المتضمنة قصتي. ولا ينسى أن يقوم بزيارة عريشات ليشكو لها ما يضيع من وقت ثمين في النقاش المستمر ليحول دون مشروعي الوهمي بالهرب. تظاهر بأنه يعتبرني شيخاً مهذاراً يتابع حلماً يتعذر تحقيقه وتحركه نحوي عاطفة الشفقة والإحسان. أشارت خليلتي لهذا المخادع إلى أنه مدين لي بحياته. لو أن أبناء الذئبة لم يعيروا اهتماماً لمقامي لكان الآن في عداد القتلى من الضباط والقادة القرطاجيين الآخرين ذبحاً بعد انتصار سيبيون أميليانوس. وهكذا نشأ ما بين عريشات وماغون تواطؤ كاذب كنت في الظاهر محوره لكنه أتاح لنا إخفاء سرنا.

اتخذ معاوني جميع الاحتياطات الضرورية كي لا يقع نصي بين أيدي أعدائي بعد موتي. اشترى قطعة أرض في كامبانيا أخفى فيها بعناية نسخة من مخطوطتي. إن هذا النص إن نجح في اجتياز القرون سينتقم لدمار مدينتنا وسيعرف الناس القصة الحقيقية

للأحداث. هو حر يفكر كما يريد. أنا بدوري غذيت هذا الوهم لكنني عدت عنه. شعور مشؤوم دفعني إلى التفكير بأن أبناء الذئبة لا يجهلون شيئاً عن عملنا. إنهم يتركوننا نعمل بناءً على أمر من القائد المنتصر، لأن صديقه بوليب سيعمل على الإفادة من هذا الشرح الطويل لإغناء كتاباته مناقضاً آرائي. بذلك كنت على الدوام أشك كثيراً في أن تجد مذكراتي قارئاً واحداً لها. ليس لهذا أهمية كبيرة.

فكرت بتمعن وبدا لي أن تحدي روما سيكون دون جدوى حالياً. سبق أن قلت إنني مقتنع بأنها ستعرف المصير نفسه الذي حل بطروادة وقرطاجة كما تنبأ به سيبيون أميليانوس. أترك للآخرين أن يتكفلوا بذلك. هدفي الوحيد أن أنتقم من مواطني الأفريقيين، سواء أكانوا نوميديين أو بونيين، وقد خانونا وساهموا في تسريع دمار مدينتنا الرائعة. وأتوقع لهم تسديد ثمن فادح عما قريب لهذا العمل الشائن. اتخذت احتياطاتي في هذا الاتجاه، أو بالأحرى بما هو أكثر طرافة. روما تعهدت بهذا نيابة عني. ليس لدي في الواقع الوسائل للتدخل مباشرة في أفريقيا حيث اسمي يثير الاستياء، وحيث لا أعتمد على أي موالٍ أو حليف. لكن الحظ ابتسم لي بإمكانية اللقاء بجوغورتا ابن ماستانابال ليكون وسيلة لأهدافي.

للوصول إلى مآربي، عمدت إلى مخالفة القاعدة التي رسختها منذ سنوات طويلة: عدم استقبال أحد من البونيين أو النوميديين في منزلي. أولئك الذين كانوا يحضرون جاء بهم ماغون لذرائع متنوعة. بالتأكيد أنا أعرف أن معاوني لا يشاطرني الرأي بهذا الخصوص، وأنه كان يُسر باستقبال زائرين عابرين ليتحدث إليهم عن الأرض الأفريقية الطيبة أو ليتضرع برفقتهم لتانيت المحسنة أو لبعل حمّون القوي القادر. أكثر من مرة حاول إقناعي بالسعادة التي سأجدها عند التحدث باللغة البونية مع أخوة سلالتنا في أوتيكا وحدريم. كنت على وشك أن أستسلم له لكنني استدركت وتشبثت بموقفي في اللحظة الأخيرة.

هكذا دون اقتناع كبير أعلن لي في أحد الأيام عن وصول جوغورتا ابن ماستانابال قادماً إلى ضفتي التيبر. حضر هذا الأمير الشاب إلى روما محاولاً وضع حد للأزمة السياسية القائمة في نوميديا. فمنذ موت غولوسا وماستانابال انفرد ميسيبسا بالحكم ورغب كثيراً في أن يهيئ خليفة له، ونظراً للنزاعات المتواصلة بين ولديه هيمبسال وأدهربال وابن أخيه جوغورتا، عمل على إبعاد هذا الأخير بانتظار التخلص من أدهربال الذي يكرهه. لم يجد أفضل من أن يعهد إلى جوغورتا بقيادة الخيالة النوميدية المكلفة بمساندة الأفواج الرومانية لقمع ثورة سكان نومانسيا في إيبيريا(*).

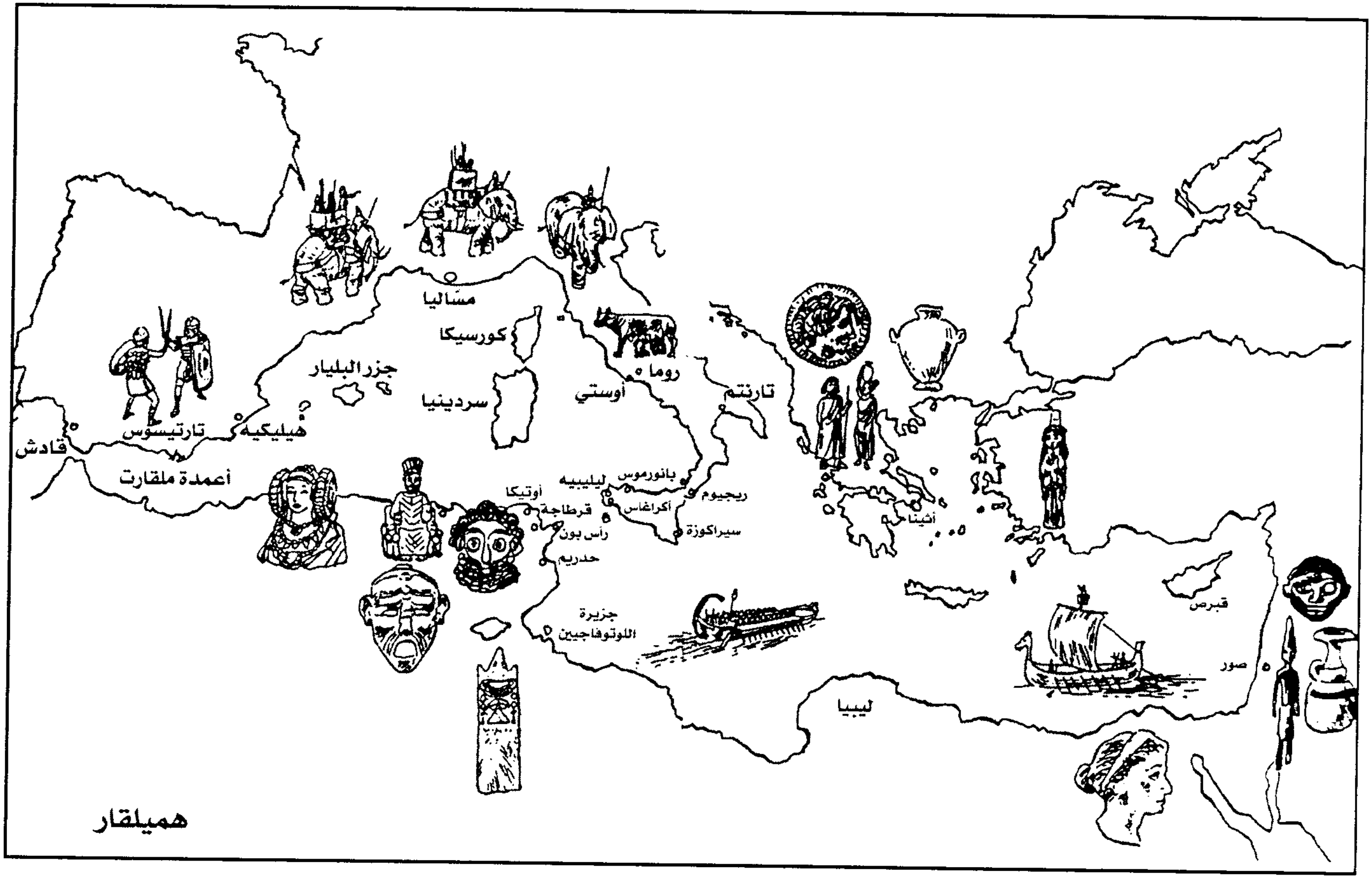
عندما علمت بتلك المؤامرات وبحضور حفيد ماسينيسا إلى روما، طلبت من ماغون، وقد أذهله طلبي، أن يهيئ لي مقابلة مع جوغورتا حيث عرضت عليه بالتفصيل الشرك المعد من عمه. ذكرت له أن الإيبيريين مقاتلون شجعان ويمكنهم أن يسببوا خسائر فادحة للعدو في المعارك الدائرة على أرضهم. وهذا دون شك هو السبب في أن ميسيبسا قرر إرسال ابن أخيه متوقعاً موته في معركة أو في حصار مع النومانسيين، فيغدوا من السهل إبعاد أدهربال ونقل السلطات إلى هيمبسال، وهو كائن ضعيف الشخصية، ضيق الأفق سيسعى الرومان للتخلص منه وضم أملاكه إلى ملكياتهم والعمل على استقرار الفائض من سكان مدينتهم وقسم من جيوشهم فيها. ويكفي ملاحظة ما جرى فيما مضى لتفهم الأمور. فقد ازداد عدد التجار الرومان والإيطاليين الذين استقروا في سيرتا وتصرفوا كأنهم في أرض محتلة، يتشددون في المطالبة بأحكامهم الخاصة ويدعون مجلس الأعيان عندما تنكشف اختلاساتهم وعندما تتطلب مصالحهم التجارية غير مبالين بشعور النوميديين. استمع إليَّ نجل غولوسا بكثير من الانتباه واعتقدت أنه تأثر بحججي. لكن هذا لم

(*) Nomance: نومانسيا في إيبيريا، هي مدينة في إسبانيا القديمة استولى عليها وهدمها سيبيون أميليانوس بعد حصار طويل (134 ـ 133) ق. م.

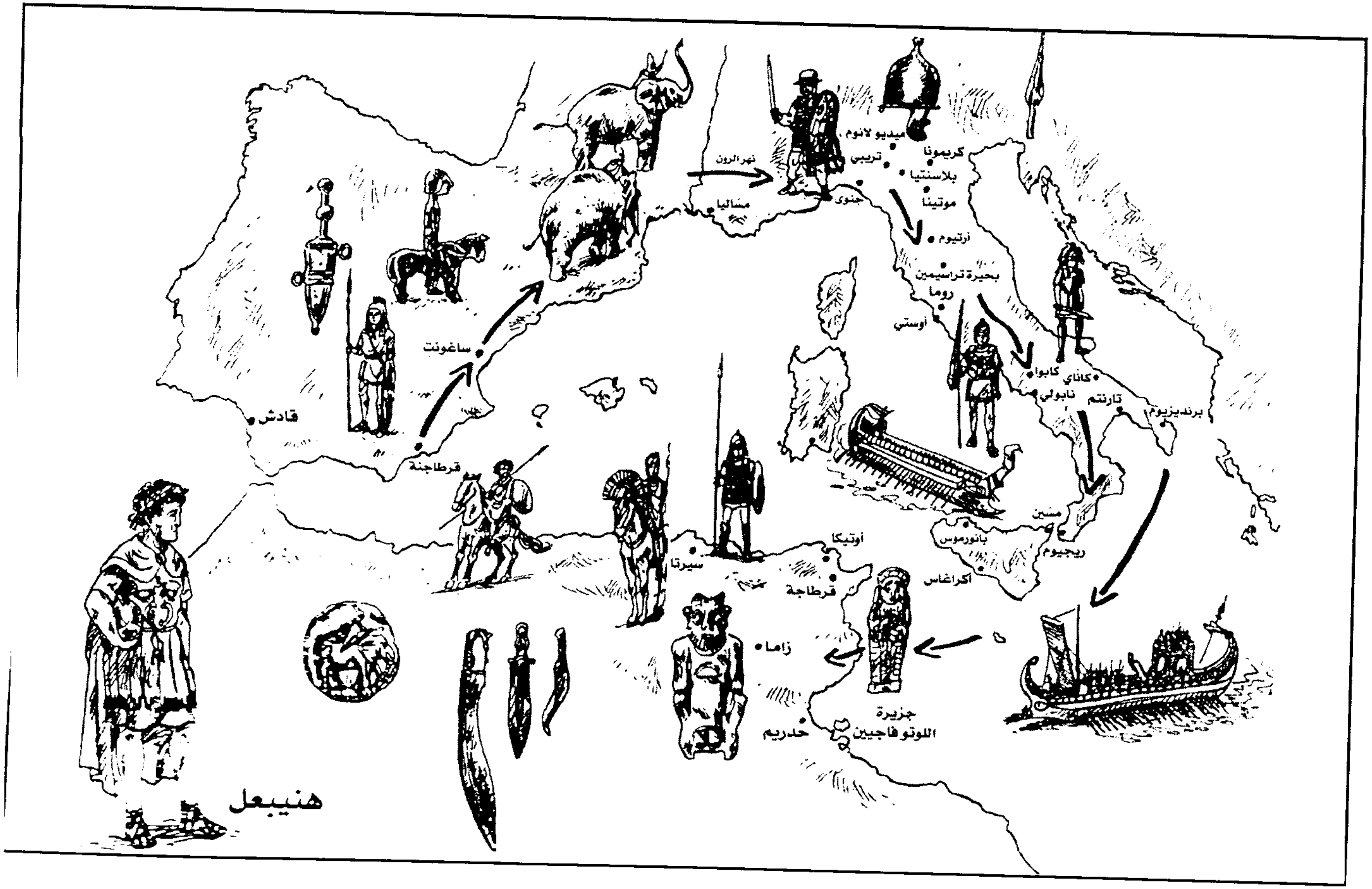
يحل دون سفره إلى إيبيريا وأن يغمر بالمجد خلال حصار نومانسيا، ناجياً عدة مرات وبأعجوبة من الموت.

لمكافأة شجاعته اضطر ميسيبسا أن يتبناه رسمياً، ملحقاً ضرراً كبيراً بولديه. وهذا ما ملأ نفسي رضا. فعاجلاً أو آجلاً، لن تتأخر الأزمة في النشوب. ومملكة جيراننا القدماء، الذين خدعونا بعد أن استمروا قروناً حلفاءنا، ستمزقها الحرب الأهلية بين الأمراء الثلاثة ليستفيد الرومان ويعملوا على ضمها إلى مملكتهم. وعندها سيزولون عن الخارطة على نسق قرطاجة، ولن يستطيع أي شعب أفريقي أن يزعم إمكان الصمود بعد اختفائنا.

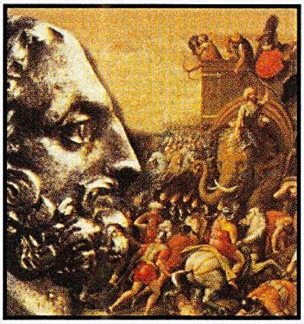
لا أدري إن كانت الشيخوخة ستسير بي لأكون شاهداً على هذا الحدث، غير أنني آمل ألا تجهل الأجيال القادمة أنني كنت مسؤولاً عن القسم الأعظم من تلك الخاتمة المحتمة. هذا لا يعني أن روما ستسود إلى الأبد على هذا القسم من العالم. أعرف كثيراً من البلدان النوميدية التي سعت بمختلف الوسائل لمقاومة التغلغل الروماني في أفريقيا، وسينتهي الأمر لصد أبناء الذئبة خارج شواطئهم لكن ذلك سيأخذ وقتاً، بل كثيراً من الوقت. ربما اعتمدوا على قوات أجنبية من الشرق أو من قلب أفريقيا لدفع الغزاة الأجانب. ولا يهمني كثيراً أن يكون الظافرون الجدد أسوأ من المنهزمين، فهم دون أن يبرروا أو يعلموا، سينتقمون لميغارا. وسنسمع على الأرجح صوت فرح صادر عن نفوس جميع أولئك الذين دفنوا فيها. ومن يعلم؟ قرطاجة جديدة ستولد. ولن يكون هذا إلا تحقيقاً للعدالة، لأن اسم مدينتنا لا يمكن أن يختفي من ذاكرة البشر وأفضلهم من سيعلنون أنهم ورثتنا والمكملون لنا حتى وإن كدر ذلك قادتهم.



هميلقار
قادش
تارتيسوس
هيليكيه
أعمدة ملقارت
جزر البليار
مساليا
كورسيكا
سردينيا
أوستي
روما
تارنتم
أوتيكا
قرطاجة
رأس بون
حدريم
ليليبيه
بانورموس
أكراغاس
ريجيوم
سيراكوزة
أثينا
جزيرة
اللوتوفاجيين
قبرص
صور
ليبيا



هنيبعل
قادش
قرطاجنة
ساغونت
مساليا
نهر الرون
جنوى
تريبي
ميديو لانوم
كريمونا
بلاسنتيا
موتينا
أرتيوم
بحيرة تراسيمين
روما
أوستي
كابوا
كاناي
نابولي
تارنتم
برنديزيوم
مسين
ريجيوم
بانورموس
أكراغاس
أوتيكا
قرطاجة
سيرتا
زاما
جزيرة
اللوتوفاجيين
خدريم



ملحمة قرطاجة

«قرطاجة أجمل المدن».

في العام 264 ق.م، تهدد القوة الرومانية المتعاظمة، من صقلية إلى إسبانيا، إشراقة الحضارة الفينيقية الجديدة، قرطاجة، سيدة البحر الكبير.

يقتحم هذا الصراع ببسالة هميلقار برقا، القائد الشاب المنحدر من سلالة قرطاجية عريقة، ليكتب وسط جلجلة المعارك ونهيم الفيلة أسطراً من ملحمةٍ يتابع مسيرتها ولده البكر، هنيبعل، أميناً للقَسَم الذي أدّاه أمامه.

شكّل هنيبعل برقا الشاب جيشاً من مئة ألف رجل، واتجه نحو الشمال، وهدفه: روما، العدو اللدود للقرطاجيين. وبعد اجتياز جبال الألب والبيرينيه مع رجاله وأحصنته وفيلته، وهَزْم الجيوش الرومانية في أكثر من موقعة، أصبحت أسوار روما تحت سطوته.

كما الملاحم الكبرى، تلعب الأقدار دورها في مسيرة القائد القرطاجي، وتكون الكلمات الأخيرة لخصمه اللدود، سيبيون الأفريقي، الذي خاض وإياه صراعاً بلارحمة استمر سبعة عشر عاماً، انتهت بهزيمته في زاما، مقياساً لنُبل وفروسيةِ وملحميةِ ذلك الصراع: «أنا أعلم بعد موتك أن آلافاً وآلافاً من الرجال والنساء من جميع أنحاء الأرض في الغرب والشرق سيبكونك. إنهم ليسوا فقط أنصارك الخجولين في قرطاجة، إنما هم أولئك الذين تجسد لهم البطولة والشهامة. هذا هو انتصارك الأحلى والأجمل وقد أحرزته على روما غير الجديرة بالمجد الذي حققته أنا لها».

وبعد تدمير قرطاجة ورش أرضها المحروقة بالملح، يدّون القائد القرطاجي الأخير حسدروبال، وريث هنيبعل، الذي سار على نهج عائلة برقا القديمة، في يومياته: «من يعلم؟ قرطاجة جديدة ستولد، ولن يكون هذا إلا تحقيقاً للعدالة، لأن اسم مدينتنا لا يمكن أن يختفي من ذاكرة البشر. وأفضلهم من سيعلنون أنهم ورثتنا والمكملون لنا».